اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة
المؤرخ العربي

تصــدر عن
اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

العدد الرابع المجلد الأول مارس ١٩٩٦

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

العدد الرابع ـ المجلد الأول

مارس ١٩٩٦م

هـــــذه المجـــــلة

- علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، تستهدف الحقيقة التاريخية صـــافية نقية بعيـــدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .

- البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ؛ وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .

- تصدر مؤقتا سنوية فى شهر مارس من كل عام ، على أن تصـلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعـــد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .

- لا يزيد البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة منسوخة على الآلة الكاتبة ، ويكون البحث من نسختين : أصل وصورة .

- تخصص أقسام فى المجلة لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .

- الأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم اجازتها للنشر بالمجـــلة .

- يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها واجازتها للنشر ولا علاقة اطلاقا بين هذا الترتيب ومكانةالباحث أو درجته العلمية.

- جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس اتحاد المؤرخين العرب (كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ أورمان ـ جيزة ـ مصر).

المؤرخ العـــــربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن
اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الرابع ـ المجلد الأول ـ مارس ١٩٩٦

فى هـــذا العـــدد

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الافتتاح :

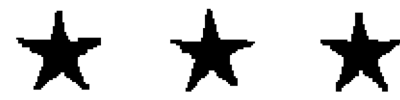
أمانة الأجيال

العمل الصالح أمانة ... وبناء الأجيال أمانة ... والأخذ بأيدى الناشئين أمانة ... والتواضع فى العلم والمعرفة أمانة ...

ان رسالة الأجيال متتابعة ، متكاملة ... وعلى كل جيلأن يحاول الارتفاع بالبناء الحضارى بحيث يسلمه للجيل التالى أكثر علوا وشموخا وأسمى مكانة وارتفاعا ، وبذلك تخطو الحضارة البشرية نحو الامام جيلا بعد جيل ، مما يعود على الانسان والمجتمع بالخير والبركة .

ان أخطر ما يهدد الانسان فى مسيرته الحضارية أن تتوقف بعض الأجيال عن الافادة ، وأن يقتصر دورها على الأخذ دون العطاء ، فعندئذ تتعرض الحضارة للجمود ،وربما أصيبت بنكسة تعود على البشرية بالعجز والافلاس .

ولا يمكن للحضارة البشرية أن تزدهر الا اذ أخذ كل جيل متقدم بأيدى الأجيال الصاعدة ، بحيث يستفيد الناشئون من خبرة وتجارب الكبار المحنكين ، ويتخذوا من هذه الخبرة ركيزة تمكنهم من مراجعة النفس ، وتصحيح الخطأ ، وتقويم البنيان ، تمهيدا للارتفاع به لتحقيق مالم يحققه السابقون .



أقول هذا وأمامى رسالة من زميل عضو بالاتحاد ، بعث برسالته من دولة عربية شقيقة ، يطالبنى فيها بان تقتصر مجلة اتحاد المؤرخين العرب على نشر البحوث التى يتقدم بها الأساتذة المشاركون فما فوق ، وتتوقف عن نشر بحوث من هم دون ذلك من أصحاب الدرجات العلمية .

ولا شك فى أن الزميل الكريم حسن النوايا ، سليم المقصد ، يستهدف الوصول بالمجلة الى أرفع مستوى ننشده جميعا لها . ولكن مهلا ، أيها الأستاذ الزميل . عليك أن تذكر أن هذا الاتحاد اتحاد مؤرخين وليس اتحاد أساتذة...عليك أن تذكر أن من أهداف هذا الاتحاد الكبرى اعداد أجيال المستقبل ، الذين سيناط بهم فى يوم من الأيام حمل الأمانة ، والوفاء بالعهد والرسالة ، والحكم للتاريخ وعلى التاريخ ... علينا ان نذكر أن الجيل الذى لا يعبأ باعداد من يخلفه من النابهين ، سينتهى دوره ،ان عاجلا أو آجلا ،تاركا وراءه فراغا يدينه بالتقصير والقصور ...

ان معيد اليوم هو عميد الغد . فلنأخذ بيده ، ونحسن توجيهه لكى يكون خير خلف لخير سلف . وعلى أساتذة اليوم أن يذكروا انهم لم يولدوا أساتذة ، وانهم مروا بمرحلة النشأة فى الأيام الخالية . وكان آن أحسن الله اليهم ، فيسر لهم من أضاء الطريق أمامهم وأرشدهم الى سواء السبيل . فلا أقل من أن يحسنوا كما أحسن الله اليهم .



ان مجلة المؤرخ العربى ستمضى قدما فى طريقها : طريق الحق والاعتدال . تفتح صدرها لبحوث الكبار الراسخين ، ولا تغلق أبوابها فى أوجه الناشئين من المتخصصين المستوفين لشروط الزمالة والبحث : بحيث تعرض البحوث جميعا على الأساتذة المحكمين ، لرفض ماليس أهلا للنشر وما هو دون المستوى المنشود ، وتقويم ما يتطلب التقويم ، وتعديل ما هو فى حاجة الى تعديل ، واقرار ما هو صالح للنشر . وبذلك يكون الرأى الأول والأخير لأهل التخصص من المحكمين . والتحكيم هنا لا يعنى التعالى والعسف والتسلط ؛ وانما هو الحكم العادل المتزن . والله عز وجل « أحكم الحاكمين » .

هكذا يمضى اتحاد المؤرخين العرب قدما ، ليجمع بين دفتيه بين الوالد والابن ، بين المعلم والمتعلم ، بين الكبير المتقدم والناشىء المتطلع ... الكل أعضاء فى أسرة واحدة ... كل جيل يؤدى دوره بأمانة للحفاظ على سلامة المسيرة .

لا عيب فى أن تتفاوت البحوث المنشورة فى مســتواها ، ولكن العيب فى أن يتعرض بعض أعضاء الأسرة للحرمان ارضاء لرأى لا يخلو من قسوة « وفوق كل ذى علم عليم » .

رئيس التحـــرير

وصية معاوية بن أبى ســفيان لابنه يزيد

(دراسة نقدية تحليلية)

دكتور يوسف بن أحمد حوالة(*)

ترك الخليفة الأموى معـــاوية بن أبى ســـفيان ، الذى اتصلت خلافته من سنة احدى وأربعين للهجرة حتى سنة ســـتين منها ، وصية مهمة لابنه وولى عهده يزيد ، الذى كان قد جعل اليه أمر الخـــلافة من بعده . والوصية من الأهمية بمحل كبير فى مجال الدراسات التاريخية ، وبخاصة فى حقل التاريخ الاسلامى ، مما يجعلها جديرة بالدراسة وعناية الباحثين .

وقد قسمنا دراستنالهذه الوثيقةالى قسمين اثنين : النقد ثم التحليل.

النقـــــد

لعل أول ما يسترعى نظرنا هو أن الوصـــية التى وجهها الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه لابنه يزيد ، وصية سياسية محضة ، ليس فيها ما يشير الى الجوانب الأخـــرى الشرعية ، أو الأسرية ، أو الاجتماعية(١) . ثم ان هذه الوثيقة تتمتع بأهمية خاصة بوصفها فاتحة هذا النوع من الوصايا السياسية التى يتركها الملوك لأبنائهم فى التاريخ الاسلامى ، والتى يرسمون فيها النهج الذى يريدون لأبنائهم انتهاجه ، والسير بمقتضاه(٢) . حقيقة ان هناك وصـــايا سياسية عرفتها الدولة الاسلامية فى عهود الخلفاء الراشدين . بيد أن الأمر مختلف هنا ، لأننا عندما نقول ان وصية معاوية رضى الله عنه ، هى فاتحة هذا النوع من الوصايا ، انما نعنى وصايا الملكية الوراثية ، اذ تأخذ الوصايا عند الحكام والملوك لأبنائهم طابعا أسريا ، بجانب السمة السياسية لهـــذه الوصايا . والا فالحق أن عصر الراشدين عرف شيئا من هذه الوصـــايا التى تركها

(*) أستاذ التاريخ الاسلامى المشارك ـ كلية التربية بالمـدينة ـ جامعة الملك عبد العزيز .

الخلفاء الراشدون لمن يخلفهم ، سواء نص على هـــذا الشخص أو لم ينص(٣) . ثم علينـــا ألا ننسى أن معـــاوية اعتـــبر أول الملوك فى الاسلام ، وأن الطابع السياسى كان غالبا على حكومته . هذا وان كانت بعض مظاهر هـــذا الطابع قد ظهـــرت معالمها فى عصر الخلفـــاء الراشدين(٥) .

والواقع أننا نجد أنفســنا مدفوعين دفعا الى التوقف عنـــد هذه الوصية بعينها ـ علاوة على ما سلف ـ لأنها فى ذاتها تعد ذات قيمـــة ومضامين سياسية مهمة ، اذ توضح كيفية التعامل مع المواقف والأزمات ، مما يجعلها مرجعا للساسة والقادة يستمدون منه أبجدياتالسياسة وفنونها، كما سيوضحه التحليل لاحقا ان شاء الله . ذلك أنها تدل دلالة واضحة على شخصية الخليفة المؤسس معاوية ، الذى أشادت كثير من المصادر والمراجع قديمها وحديثها ببراعته السياسية(٦) . والحق ان هـــذه الوصية هى الدليل أو الأنموذج الأوضح لمقدار ما تمتع به الخليفة معاوية من حصافة وكياسة سياسية ، اذ جاءت فقراتها جميعها لتؤكد على الحذق السياسى، والسبل الناجعة الكفيلة بالتعامل مع الأزمات والخصوم . وفوق هـــذا وذاك ، فانها تدل على الخبرة النفسية الواســعة بطباع الناس الذين خبرهم معاوية ، وعجم بهم ومعهم عود الحيـــاة طـــوال فترة اضطلاعه بالمسؤولية منذ بدء نجمه السياسى يبزغ : حاكما أو واليا على دمشق بعد أخيه يزيد ابن أبى سفيان(٧) ، ثم واليا على بلاد الشام كلها فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه(٨) ، ثم خليفة من بعده لمـــدة أكثر من تسعة عشر عاما(٩) .

ومن دواعى الدراسة النقدية ، لهذه الوصية أيضا أنها جاءت فى نصين لاثنين من الاخباريين : هما أبو مخنف : لوط ابن يحيى الأزدى ، وعوانة بن الحكم الكلبى . أقول ان الوصية ، وهى بذلك تمثل لنا صورة لظاهرة للوضع والاختلاق التى ظهرت فى بعض حلقات التاريخ،مما فطن اليه مؤرخو الأمة الثقات وعلماؤها . وسنتوسع فى هـــذا التحليل ان شاء اللـــه .

وفى مجال نقد هذه الوصية ، لابد من التطرق الى التحديد الزمنى

لها ، ثم المصادر التى أشارت الى الوصية بنصيها معا ، أو اشارت الى أحد النصين فقط . ثم نورد النصين معا ، مع التعرض للظروف المحيطة التى استدعت اصدار الوصية . على أن نعقد مقارنة بين النصين من حيث الشكل ، ومن حيث المضمون . ويلى ذلك مقتضيات رد أحد النصين سندا ومتنا ، مع ما يستلزم ذلك من التعريف بأطراف رواية الوصية وأقوال العلماء فى هذا الشأن .

التحديد الزمنى للوصية :

يبدو أن توجيه هذا النوع من الوصايا ، يتم غالبا عندما يستشعر الشخص الموصى دنو أجله(١٠) . وثمة حالات تاريخية تؤكد هذا القول، فالخليفة العباسى أبو جعفر المنصور مثلا وجه لابنه وولى عهده محمد الذى لقب بالمهدى فيما بعد وصية سياسية جامعة مانعة فى السنة التى شعر فيها بدنو أجله (١١) . وكذا الشأن فيما يتعلق بتلك الوصية السياسية المهمة - أيضا - التى تركها المنصور بن أبى عامر العامرى الأندلسى - الذى أسس له ولأسرته دولة عامرية داخل الدولة الأموية فى الاندلس - لابنه عبد الملك ، فقد استودعها اياه وهو على فراش الموت(١٢) .

ومع هذا ، فان ما جاء من تأكيد على أن الخليفة معاوية لم يوجه وصيته لابنه يزيد مباشرة ، بل استودعها اثنين من أخلص رجاله ، هما الضحاك بن قيس الفهرى الذى كان صاحب شرطته (١٣) ، ومسلم بن عقبة المرى(١٤) - أحد رجالات العرب اليمنية المشهورين فى الشام - على أن يبلغاها ابنه يزيدا الذى كان غائبا وقتها خارج دمشق عندما مات والده معاوية ، يؤكد أن الخليفة فعل ذلك عندما استشعر دنو أجله فعلا، عندئذ بعث فى الرجلين فأتياه ، فأبلغهما فحوى وصيته لابنه يزيد(١٥) . وما أن علم يزيد بنبأ وفاة أبيه حتى عاد سراعا الى دمشق، فتولى الخلافة على الفور بعد أن أدى اليه الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة وصية والده اليه . وفى هذا الصدد سنجد عند حديثنا عن القسم الآخر من هذه المعالجة ، أى التحليل أن ثمة قولا آخر مفاده أن الخليفة

معاوية بن أبى سفيان وجه وصيته لابنه يزيد مباشرة ، وهـــذا مبحث آخر يحتاج الى توثيق ، ولعله بالتحليل ألصق وأقرب ٠

المصادر التى أشارت الى الوصية :

الحق أننا مدينون للمؤرخ الكبير محمد بن جرير الطبرى ـ رحمه الله ـ الذى دلنا على هذه الوصية بنصيها ٠ ولقد جهدنا أن نجد لها أثرا عند المؤرخين الذين ســبقوا الطبرى كخليفة بن خياط ، واليعقوبى فى تاريخه ، ثم صاحب الكتاب المنسوب للمحدث اللغوى : ابن قتيبة ، أعنى كتاب : الامامة والسياسة(١٦) ، وهم أبرز الذين سبقوا الطبرى الى التدوين التاريخى فى صـــورته الشــمولية ، أى التى تؤرخ للأحـداث والوقائع منذ بدء الخليقة ، فتتناول التاريخ الانسانى منذ آدم عليـــه السلام حتى عصر كل واحد منهم على نسق الحوليات أو تتناول التاريخ الاسلامى منذ بدايته ٠ أقول جهدنا أن نجـــد للوصية أثرا عند هؤلاء المؤرخين المتقدمين عن الطبرى فلم نوفق(١٧) ٠ وهكذا نحن مدينون الى هذا المؤرخ العظيم ـ أى ابن جرير الطبرى(١٨) ـ ومن هنا سيكون اعتمادنا عليه فى نقله للوصية بنصيها(١٩) معا ٠ أما من جاء بعد ابن جرير ممن أشار الى الوصية ، فهو لاحق له ، وقد يكون أخذ عنه ، ولذا فلن نشير الى روايته ، اللهم الا عند توقفه ـ عند بعض نصوص الوصية مبديا رأيا ما ، كما فعل ابن كثير فى كتابه : البداية والنهاية ٠

الظروف المحيطة التى استدعت توجيه الوصية :

يبدو فى ضوء ما سبق أن هذه الوصية تعد افرازا طبيعيا لقضية أو مسألة ولاية العهد ليزيد ، وهى قضية مشهورة من القضايا التاريخية التى حظيت بأقوال وتعليقات وآراء العديد من الباحثين(٢٠) ٠

نص الوصية عند أبى مخنف : لوط بن يحيى الأزدى :

قال الطبرى(٢١) : (وفيها ـ أى سنة ستين ـ التى توفى فيها معاوية رضى الله عنه عهد الى ابنه يزيد حين مرض فيها ماعهد اليه فى النفر الذين امتنعوا عن البيعة ليزيد حين دعاهم الى البيعـــة ، وكان عهده الذى عهده ماذكره هشام بن محمد عن أبى مخنف ، قال : حدثنى

عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن مخرمة أن معاوية لما مرض مرضته التى هلك فيها ، دعا يزيد ابنه ، فقال : يابنى انى قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الأشياء ، وذللت لك الأعـــداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد ، وانى لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك الا أربعة نفر من قريش : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر . فأما عبد الله بن عمر ، فرجل قد وقذته العبادة واذا لم يبق غيره بايعك ، وأما الحسين بن على فان أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ، فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فان له رحما ماسة وحقا عظيما ، وأما ابن أبى بكر فرجل ان رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثلهم ليس له همة الا فى النساء واللهو . وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مرواغة الثعلب ، فاذا أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فان هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه اربا اربا) .

نص الوصية عند عوانة بن الحكم الكلبى :

قال الطبرى فى كتابه سالف الذكر ، أى تاريخ الأمم والملوك(٢٢) بعد أن أورد نص أبى مخنف مباشرة ، قل نقلا عن هشام بن محمد نفسه ما نصه : (قال هشام قال عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر أن معاوية لما حضره الموت وذلك فى ســـنة ٦٠ هجرية وكان يزيد غائبا ، فدعـــا الضحاك ابن قيس الفهرى وكان صاحب شرطته ، ومسلم بن عقبة المرى ، فأوصى اليهما فقال : بلغا يزيد وصيتى : أنظر أهـــل الحجاز ، فانهم أصلك فاكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب . وأنظر أهـــل العراق ، فان سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فان عـــزل عامل أحب الى من ان تشهر عليك مائة ألف سيف . وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فان نابك شىء من عدوك فانتصر بهم ، فاذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم ، فانهم أن أقاموا بغـــير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم . وأنى لست أخاف من قريش الا ثلاثة : حسين بن على وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير . فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمسا شيئا قبلك ، وأما الحسين بن على فانه رجل خفيف وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه . وان له رحما

ماسة وحقا عظيما وقرابة من محمد ﷺ . ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه ، فان قدرت عليـــه فاصفح عنه ، فانى لو أنى صاحبه عفوت عنه . وأما ابن الزبير فانه خب وضب فاذا شخص لك فالبد له الا أن يلتمس منك صـــلحا ، فان فعل فأقبل واحقـــــن دماء قومـك ما استطعت) .

المقارنة بين النصين من حيث الشكل :

وهكذا نجد أنفسنا أمام روايتين للوصية لراويين اثنين أشارا الى الوصية كل على حدة . ونلاحظ بادىء ذى بدء على الوصية بنصيها أنها قصيرة موجزة ، وان كان نص أبى مخنف : لوط بن يحيى أقصر من نص عوانة . ويبدو لنا من خلال ما تميزت به الوصايا كلون من ألوان النثر الأدبى(٢٣) أن طبيعة الوصية أن تكون هكذا : قصيرة السطور ، وجيزة التعبير ، فذلك أدعى وأبلغ فى التأثير المطلوب . وبالطبع فلا نستطيع أن نبنى حكما على ذلك فنقول ان معاوية وهو يواجه الموت أراد لوصيته أن تكون هكذا ، الا أن ما نريد قوله ان مغاوية اتبع هـــذا المنهج سليقة وفطرة كما يفعل بعض الشعراء الذين لم يدرسوا العروض أى الشـــعر الموزون المقفى : سليقة وفطرة . وكان الايجاز هو الطابع الغالب على هذا النوع من الوصايا سواء قبل عهد معاوية أو بعده (٢٤ ـ ٢٧) .

المقارنة بين النصين من حيث المضمون :

على أننا نلحظ بعد هذه الملاحظات الشكلية أن ثمة اختلافا غـــير يسير ، لا ينحصر فى مجرد الألفاظ والكلمات وانما هو اختلاف جوهرى فى المضمون بين النصين . فنص أبى مخنف فيه زيادة ونقص ـ معا ـ عن نص عوانة بن الحكم . أما الزيادة فى نص أبى مخنف والتى خلا منها نص عوانة فهى المتمثلة فى الجزء الذي يشكل صدر الوصية ، أعنى تلك الأسطر التى ذكرها هشام بن محد الذى أســـند اليه الطبرى رواية الوصية بنصيها ، حسبما هو واضح مما مر من ايراد النصين ، والتى قال فيها نقلا عن أبى مخنف (حدثنى عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن عبد الله ابن مخرمة أن معاوية لما مرض مرضته التى هلك فيها ، دعا يزيد ابنه ، فقال : يابنى انى قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك

الأشياء ، وذللت لك الأعداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد) ٠

وأما النقص فى نص أبى مخنف ، مقـــارنة بنص عوانة ، فهـو المتمثل فى ذلك الوصف الذى خص به معاوية رضى الله عنه أهل الحجاز والشام والعراق بما خصهم به ، اذ جاء النص الذى أسنده الطبرى الى هشام بن محمد راوى نص عوانة حسبما مر من قبل على النحو التالى :

(قال هشام ، قال عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر أن معاوية لما حضره الموت وذلك فى سنة ٦٠ وكان يزيد غائبا ، فدعا الضحاك بن قيس الفهرى ، وكان صاحب شرطته ، ومسلم بن عقبــة المرى فأوصى اليهما فقال : بلغا يزيد وصيتى « أنظر أهل الحجاز ، فانهم أصلك فاكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب ، وانظر أهل العراق ، فأن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا ، فافعل فان عزل عامل أحب الى من أن تشهر عليك مائة ألف سيف ، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فان نابك شىء من عدوك ، فانتصر بهم ، فاذا أصبتهم ، فاردد أهل الشام الى بلادهم ، فهم ان أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم) ٠

يبقى بعد هذا أن نشير الى موطن الاتفاق بين الرجلين ، فالحق أن الشبه جد واضح فى الجزء المتصل بالتحـــذير أو التخويف الذى بثه معاوية روع ابنه يزيد من النفر الذين خالفوه من قريش فى التأبى عن بيعة يزيد ٠ هذا الجزء الذى يحذر فيه معاوية ابنه من هؤلاء النفر الذين حددهم وذكرهم له صراحة ، هو الذى التقى عنده الرجلان ، وهو الذى كان عرضة للدخل والاختلاق عند واحد من هذين الرجلين ٠ تعمدنا ارجاء ذكر اسمه حتى نأتى على تمام الملاحظات الأولية على النصين ، ثم نشرع فى التحليل بعد ٠ ولا تظل لنا وقفة بعد هذا فى هذا الاطار الا عند جزءيتين لا نخال القارىء الكريم الا قد فطن اليهما ، أولاهما تلك التى يمكن أن نعبر عنها بالقول : انه مع الاتفاق بين الراويين على أن الوصية موجهة ليزيد وهو المعنى بها الا أن الاختـــلاف وقع فى هل وجهت ليزيد مباشرة أم نقلت اليه نقلا ؟ والجزئية الثانية أننا نلحظ أن راويا واحدا أورد نص الوصيتين هو : هشام بن محمد الذى سنعرض له

فيما بعد ، وبوسعنا أن نلحظ أن ثمة اختلافا يسيرا آخر فى أن هناك شخصا آخر أسند اليه أبو مخنف روايته فيما ذكره هشام بن محمد من حديث الوصية ، هو عبد الملك بن نوفل بن مســـاحق بن عبد الله بن مخرمة ، وسنقف عنده بعد ان شاء الله ، فيما خلـــت رواية عوانة من ذلك . (٢٨ - ٢٩) .

● **التعريف بأطراف رواية الوصية :**

قبل أن نعرض الى أقوال العلماء فى أطـــراف رواية الوصية ، علينا أن نعرف بأطراف الوصية الأربعة فى نصيها الواردين عند الطبرى. أما أبو مخنف : فهو لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الأزدى ، المتوفى سنة سبع وخمسين ومائة للهجرة(٣٠) . يعـــد أبو مخنف فى أوائل الاخباريين الذين اعتنوا بالرواية التاريخية تصنيفا وتاليفا . ولقد تتبع أحد الباحثين مؤلفاته التى ألفها عن العراق بخاصة - وغيرها من الأقطار - بعامة كما تتبع جميع ماقيل عن أبى مخنف من حيث نشـأته ومذهبه الى غير ذلك(٣١) . ولعلنا هنا نكتفى بالاشارة الى أنه شيعى المذهب باجماع المؤرخين وعلماء الجرح والتعديل .

أما عوانة بن الحكم ، فهو عوانة بن الحـــكم بن عياض بن وزر الكلبى العلامة الاخبارى ، أبو الحكم الكوفى الضرير ، أحد الفصحاء . له كتاب : التاريخ وكتاب سير معاوية وبنى أمية ، توفى سنة سبع وأربعين ومائة(٣٢) .

وأما هشام بن محمد ، فقد سرد لنا الذهبى ترجمته كذلك فى كتابه آنف الذكر أى : سير أعلام النبلاء(٣٣) ، فقال عنه : العلامة الاخبارى النسابة الأوحد أبو المنذر : هشام بن الاخبارى الباهر محمد بن السائب ابن بشر الكوفى ، تصانيفه جمة . توفى سنة أربع ومائتين على الصحيح. وأما عبد الملك بن نوفل الذى يصرح لوط بن يحيى بالقول أنه حدثه بخبر الوصية فهو : عبد الملك بن نوفل بن مساحق بن عبد اللـــه بن مخرمة العامرى ، عامر قريش ، مدنى ، يكنى أبا نوفل(٣٤-٦٦) .

● **مقتضيات رد أحد النصين متنا :**

الحقيقة أن المتن الذى سنفصل الحديث عنه ، وهو الذى يهدم - مع السند - رواية أبى مخنف، يمثل الصورة الأوضح للتهافت والضعف والسقم الذى تميزت به بعض الروايات التاريخية التى لاكها نفر من الاخباريين الضعاف.ففى البدء يسترعى نظرنا خطأ أبى مخنف التاريخى المتمثل فى قوله : ان معاوية لما مرض مرضته التى هلك فيها ، دعا يزيد ابنه فقال : يابنى ... الخ . وهذا خطأ لأن يزيدا فى الوقت الذى اشتد فيه المرض على معاوية وبات يتوقع حلول أجله المحتوم ، كان فى حوارين(٦٦) البعيدة عن دمشق ، لقد نص على ذلك بعض ثقات المؤرخين من أمثال الذهبى وابن كثير وابن الأثير وغيرهم(٦٧)

ثم اذا وقفنا عند الجزء الذى تشابه فيه النصان : نص أبى مخنف ونص عوانة ، وهو المتمثل فى التحذير والتخويف من أولئك النفر من أبناء الصحابة رضى الله عنهم،لرأينا أن ثمة خطأ تاريخيا ثانيا تميزت به رواية أبى مخنف . هذا الخطأ هو المتمثل فى قوله : ان معاوية رضى الله عنه حذر ابنه من أربعة نفر من قريش هم : عبد الله بن عمر ، الحسين ابن على ، عبد الرحمن بن أبى بكر ، وأخيرا عبد الله بن الزبير . ويكمن الخطأ فى ذكره لعبد الرحمن بن أبى بكر ضمن هؤلاء . فالحقيقة أن الصواب هو ما ذكره عوانة بن الحكم فى روايته من أنهم ثلاثة نفر لا أربعة . ذلك لأن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما - وهو ثالث الأربعة فى رواية أبى مخنف - كان قد توفى قبل معاوية بعامين ، أى أنه توفى على المشهور والأرجح سنة ٥٨هـ . وهذا ما ذكره مؤرخو تراجم الصحابة رضى الله عنهم(٦٨) ، وهذا مالاحظه ابن كثير(٦٩) الذى تدخل معلقا بعد أن أورد نص أبى مخنف فبلغ فى الحديث هذه النقطة ، فقال العبارة التالية : كذا قال ، يعنى كذا قال أبو مخنف ، ثم أردف قائلا : والصحيح أن عبد الرحمن كان قد توفى قبل موت معاوية بسنتين كما قدمنا . ويعنى ابن كثير بهذه العبارة ماكان قد تحدث عنه من ذكر وفيات بعض المشاهير سنة ٥٨هـ ومنهم عبد الرحمن ابن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما .

ولسنا ندرى حقيقة سبب هذا الفعل من أبى مخنف ٠ هل يعود الى غفلة غير مقصودة أوقعته فى هذا الخطأ التاريخى ، مع أنه شىء مثير للاستغراب أن يغيب عنه هذا ، والتدوين التاريخى كان آنذاك شديد الاهتمام بتحديد وفيات الأعيان ؟ أم أن فى الأمر قصدا متعمدا لاظهار معاوية فى صورة تهيج عليه النفوس ، بالاشارة الى أن ابن الخليفة الراشد الأول كان من الممتنعين على معاوية ؛ مثل غيره من أبناء الصحابة رضى الله عنهم(٧٠) ٠

وثمة خطأ تاريخى ثالث لايقل فداحة عن هذا الخطأ بل يزيد عليه، اذ نرى فيه صورة واضحة للاساءة للصحابة رضى اللـــه عنهم ، ذلك أنه جاء فى نص أبى مخنف الذى يقول فيه على لسان معاوية : وأما ابن أبى بكر ، فهو رجل ان رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثلهم ، ليست له همة الا فى النساء واللهو(٧١ ــ ٧٤) ٠

وننتقل الى وصف معاوية الذى ذكره أبو مخنف أنه قاله فى حق الصحابى ابن الصحابى : عبد الله بن الزبير رضى اللـــه عنهما ، مما تتبدى فيه كما يتراءى لنا اساءة للرجلين معـا : معـاوية وابن الزبير (٧٣ ــ ٧٨) ٠ ونعنى بذلك تلك العبارة التى يقول فيها معاوية ليزيد ــ حسب رواية أبى مخنف ٠٠٠ فان فعلها بك ــ أى خرج عليك ، فقطعه اربا اربا ٠

الارب فى اللغة : العضو ، واربا : قطعا ، واربا اربا : العضو قطعه كاملا كما فى الذبيحة التى تقطع اربا اربا : عضوا عضوا(٧٠)٠ هذا من حيث اللغة ٠ ومن حيث المعنى السياسى لا يمكن لسياسى حصيف محنك مثل معاوية أن يطلب من ابنه مثل هذا المطلب ٠ وهو الذى ماجـــرب عليه أن سفك دم أحد الصحابة قتلا ؛ فيما عـــدا حجر بن عدى(٨٠) وحادثته(٨١) لانملك دليلا على قيام معاوية بالفتك بأحد الصحابة ٠

ثم ان معاوية رضى الله عنه مع معرفته بموقف عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ، الرافض لموضوع البيعة ليزيد بولاية العهد(٨٢) ، ومع

افصاحه عما يتميز به عبد الله بن الزبير من صفات سياسية(٨٣) لا نظن أنه يحرض ابنه على قتل عبد الله بن الزبير ، حتى ولو امتنع عليه . ولعل الأولى أن يطلب منه تركه وشـــأنه ـ مادامت بيعته قد انعقدت شرعا ـ كما فعل هو نفسه ـ أى معاوية ـ عنـــدما ترك النفـــر الأربعة وشأنهم ، وان كان قد أظهر للناس أنهم بايعوا(٨٤) . لقد كان فى وسع معاوية أن ينصح ابنه باتخاذ نفس الموقف لو واجهه هؤلاء الصحابة رضى الله عنهم ـ ومنهم عبد الله بن الزبير بموقفهم الرافض .

ونخلص من هذا كله الى القول بأننا سنعتمد رواية عوانة بن الحكم لملائمتها سندا ومتنا للواقع التاريخى (٨٥ـ٨٦) .

التحليـــــل

لنمض الآن فى تحليل وصية معاوية رضى الله عنه ، متحررين من تأثير أبى مخنف : لوط بن يحيى وروايته ، وان كنا سنعود اليها بين الفينة والفينة للمقارنة بينها وبين نص عوانة ، ولكى يتأتى لنـــا ذلك يحسن بنا أن نجزىء نص عوانة الى فقرات عدة هى :

١ ـ قال هشام ، قال عوانة : قد سمعنا فى حديث آخر أن معاوية لما حضره الموت وذلك فى سنة ٦٠هـ ، وكان يزيد غائبا .

٢ ـ فدعا الضحاك بن قيس الفهرى وكان صاحب شرطته ، ومسلم بن عقبة المرى ، فأوصى اليهما .

٣ ـ فقال : بلغا يزيد وصيتى : أنظر أهل الحجاز ، فانهم أصلك فأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب .

٤ ـ وانظر أهل العراق فان سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل فان عزل عامل أحب الى من أن تشهر عليك مائة ألف سيف

٥ ـ وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فان نابك شيىء من عدوك فانتصر بهم ، فاذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم فانهم ان أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم .

٦ - وانى لست أخاف من قريش الا ثلاثة : حســـين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير .

٧ - فأما ابن عمر ،فرجل قد وقذه الدين،فليس ملتمسا شيئا قبلك.

٨ - وأما الحسين بن على . فانه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه ، وأخاه . وأن له رحما ماسة ، وحقا عظيما وقرابة من محمد ﷺ .ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه فان قدرت عليه ، فاصفح عنه ، فانى لو أنى صاحبه عفوت عنه .

٩ - وأما ابن الزبير ، فانه خب وضب ، فان شخص لك ، فالبد له، الا أن يلتمس منك صلحا ، فان فعل فاقبل ، واحقن دمـــاء قومك مـا استطعت .



من الواضح أنه ليس هناك مايقال بصـــدد الفقـــرة الأولى التى قال فيها الطبرى ، قال هشام ، قال عوانة : قد سمعنا ... الخ ، فلقد سبق لنا التعريف بهشام بن محمد بن السائب الكلبى فى القسم الأول من الدراسة النقدية ، كذا الشأن فيما يتصل بعوانة مما لا داعى لاعادته . غير أن مايلفت النظر هنا هو عبارة عوانة : قد سمعنا فى حديث آخــر ان معاوية ... الخ ، فهل هذا يعنى أن عوانة قد سبق له الاطلاع على نص أبى مخنف سابق الذكر ، فقال ماقال اعتمادا على مصدره الذى وثق فيه ؟ يتراءى لنا أن هذا هو ماتوحى به هذه العبارة . على أننـــا نستغرب ألا يشير عوانة الى الشخص الذى نقل عنه خبر الوصية مثلما فعل أبو مخنف الذى أسند روايته لعبد الملك بن نوفل بن مساحق . وبعيد جدا أن يكون عوانة معاصرا للأحداث وهو الذى توفى سنة ١٤٧هـ . فهنا انقطاع يصل الى أكثر من قرن . ترى ما الذى يعنيه هذا ؟ هل يعنى التقليل من قيمة الرواية لانقطاع السند مدة طويلة ؟ ربما يكون الأمـــر كذلك ، ولكن هذا لا يقلل من أهمية روايته التى لها شاهد ، هو نص أبى مخنف نفسه .

وبعد هذا لايبقى لنا ما نقوله عن هذه الفقرة سوى التذكير بأن سنة ٦٠ هـ ، هى السنة التي توفى فيها معاوية باجماع مؤرخى ترجمته فى

كتب التاريخ العام وكتب التراجم والطبقات ، ولم يشذ عنها مؤلف البتة بخلاف ذلك . وهذا القول يشمل كذلك عبارة : (وكان يزيد غائبا) التى حققنا أمرها من قبل فى الدراسة النقدية . وتبين لنا أن هناك اجماعا على أن يزيدا كان غائبا عن دمشق عند وفاة أبيه . وهذا هو نفسه ما عاد أبو مخنف فأشار اليه فى موضوع آخر من روايته للأحـداث التاريخية ، حسبما نقل عنه الطبرى ومن بعده ابن كثير(٨٧) .

ونمر بالفقرة الثانية مرورا عابرا وهى التى ذكـــر فيها عوانة أن معاوية دعا الضحاك بن قيس الفهرى صاحب شرطته ومسلم بن عقبة المرى فأوصى اليهما . وذلك بالطبع لأنه قد سبق لنا التعريف بالضحاك ومسلم بن عقبة المرى فى الدراسة النقدية . هذا شىء والشىء الآخر أننا انتهينا بالأدلة والشواهد التاريخية الى أن معاوية استودعهما الوصية مباشرة، بخلاف ماجاء فى نص أبى مخنف من أن معاوية بث الوصية روع ابنه يزيد مباشرة . واذا استقام هذا فلننتقل الى الفقرة الثالثة التى قال فيها عوانة عن معاوية للرجلين ـ الضحاك ومسلم ـ بلغا يزيد وصيتى : أنظر أهل الحجاز فانهم أصلك ، فاكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب .

ان هذه الفقرة ـ وما تبعها من فقرات تؤكد دون ريب أى رجل كان معاوية !! . انه وهو السياسى الذى عركته الأحداث والتجارب يعرف أن الحجاز مركز ثقل سياسى لا يستهان به البتة ، بوصـــفه موئل دولة النبوة والخلافة الراشدة وعش صحابة رسول الله ﷺ والتابعين لهم الذين ينظر اليهم أهل الأمصار الاسلامية الأخرى بالتجلة والاحترام . ثم ان معاوية يعرف ويدرك أنه ما وصل الى ما وصل اليه من السلطان والنفوذ الا بعراقته الحجازية ، فهو القرشى المكى العبدمنافى ، أى أنه فى الذروة من بيوتات الحجاز . ومن هنا فليس فى الأمر غرابة أن يدل معاوية ابنه يزيد على هذه البدهية(٨٨ـ٩١) .

ودليل آخر أنه عندما عزم على الاعلان عن بيعته لابنـــه يزيد ، حرص أن يستمزج رأى أهل الحجاز ، وهم هنا ـ أهل المدينة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين ، اذ أنه بعث الى عامله مروان بن الحكم بذلك، ودارت بينه وبين عامله الكتب عن مواقف أهل المدينة من البيعة.ولما تبين

له أن ثمة ممانعة ، حرص على المجيء بنفسه الى المدينة ، وهذا ماحدث فعلا سنة ٥٦ هـ عندما جاء معتمرا ، فقابل النفر الذين امتنعوا عن البيعة ليزيد ، فناقشهم وناقشوه طويلا(٩٢) .

أما الفقرة الرابعة ، فيقول فيها معاوية : ... وانظر أهل العراق، فان سألوك ان تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فان عزل عامل أحب الى من أن تشهر عليك مائة ألف سيف .

رؤية أو فلسفة من فلسفات التـــاريخ السياســية عميقة : أن تدع العاصفة تمر ، أو كما عـــبر عنها معاوية نفســـه : طأطىء لها تمر فتجاوزك(٩٣) . أجل لا تثريب من التراجع عندما يقتضى الأمر ذلك ، ولا غضاضة من مسايرة الأحداث بحسب الواقع والزمان ، ولقـــد كان معاوية رضى الله عنه سيد هذه المواقف ، أليس هو صاحب المبدأ السياسى المشهور بشعرة معاوية(٩٤) ؟ أوليس هو نفسه الذى قال فيه وفى حقه الصحابى الجليل عبد الله بن عباس : قد علمت بم غلب معاوية الناس ؟ كان اذا طاروا وقع واذا وقعوا طار(٩٥) .

فمعاوية هنا يريد من ابنه أن يسمح للعاصفة أن تمر مادام هنـــاك داعيا لها . وملاحظة معاوية هذه لم تأت من فراغ ، فمعاوية الخبـــير بأحوال العراق ، القطر الهائج المائج آنذاك ، كان يقرأ الأحداث بعين يقظة مفتوحة (٩٦ - ١٠٠) .

هذه هى النصيحة التى أراد معاوية أن يوجهها لابنه ولولى عهده يزيد . أراد منه أن يكون سياسيا ماهرا لا يفلت الأمر من قبضته حتى لو استدعى الحال ان يعزل عن أهل العراق كل يوم عاملا - وذلك بعيد - فليفعل مادام الزمام بيديه . ثم تعال فانظر هـــذه العبارة ذات المغزى السياسى العميق : .. فان عزل عامل أحب الى من أن تشهر عليك مائة ألف سيف . حكمة بالغة . أن تعزل عاملا هو بلاشك أمر قد يوجد حالة من الاستقواء عند أهل ذلك القطر . فلربما رأوا فيه دليل ضعف النظام ولربما استمرؤا ذلك ، ولكن لأن الهدف أكبر والمضمن أعمق فلا ضير أن يلبى الحاكم الدعوة بعزل عامل(١٠١) أو عاملين أو ثلاثة ، بل حتى

كل يوم – وهو بعيد،وانما هو للمبالغة والتهويل ، اذا استدعى الأمر ذلك لئلا تعم الفوضى وتشيع البلبلة ، وترتفع سيوف وتعلو رماح . فالعزل قضية فردية ، أما الشغب ، وأما الفوضى فجماعية ، ومن هنا لا ضير من فعل ذلك تهدئة للأحوال وسدا للذرائع .

وأخيرا يبدو أن عبارة : ... (مائة ألف) هذه ، التى حملت صيغة مبالغة . يبدو أنها كانت شائعة آنذاك فى الشارع العام .. نطالع سيرة الأحنف بن قيس التميمى ، وقد اشتهر بالحلم هو الآخـــر ، فنجد فى وصفه أنه اذا غضب غضب له مائة ألف لا يسألونه فيم غضب . ولعـــل المفارقة هنا أن قائل هذه العبارة هو معاوية بن أبى سفيان ، وقد قالها لخاصته من كبار رجال الدولة لما سألوه عن هذا الرجـــل الذى يواجهه مواجهة شديدة ، فلا يملك معاوية الا أن يدع العاصـــفة تمر(١٠٢) ، أوليس هو الذى يقول : انى لا أحول بين الناس وألسنتهم مالم يحولوا بيننا وبين ملكنا(١٠٣) .

ويقودنا تحليل الى الفقرة الخامسة ، التى يقول فيها معاوية لابنه يزيد : (... وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فان نابك شىء من عدوك ، فانتصر بهم ، فاذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم ، فانهم أن اقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم) . هنا رؤية سياسية ثانية يهديها الأب الى ابنه . على أننا قبل أن نتطـــرق اليهما ، نود الوقوف عند المعنى اللغوى لكلمتى : البطانة والعيبة ، فالبطانة : أصفياء الرجل يكشف لهم أسراره(١٠٤) أما العيبة : فهى من الرجل موضع سره، يقال فلان عيبة فلان : موضع سره(١٠٥) . اذن فالأب يطلب من ابنه أن يكون اعتماده على أهل الشام وحدهم ، لأنهم أثبتوا له طاعة عمياء ، وانقيادا تاما . ولقد ذهبت الأمثلة بطاعة أهل الشام لمعاوية مذ جاءهم عاملا على بعض الشام ، حتى غدا خليفة ، أمضى معهم نحوا من أربعين سنة ألقوا اليه بعصا الطاعة وخبرهم وخبر نفسياتهم وعرف مدى اخلاصهم له ولأسرته(١٠٦) . من هنا يؤكد على ابنه أن يجعل أهل الشام محل سره واهتمامه وأن يثق فى وقوفهم الى جانبه متى واجهه موقف ما . وليثق بأنهم سيلبون نداءه ، فليوجههم الى خصومه ، ثم عليه أن يعيدهم

شامهم حتى لا تتغير أخلاقهم . ولسنا ندرى هل هناك حالات فردية أو جماعية دلت على ذلك ، أم هو التخمين والحدس فقط ؟ نقول هذا لأننا لم نعثر على دليل تاريخى حدث فيه هذا الذى يخوف معاوية ابنه منه . ولكن ربما يكون الحس السياسى الرفيع عند معاوية هو الذى دفعه الى هذا .

وقبل أن نترك الحديث عن هذه الفقرة نريد القول بأنه بنهايتها ينتهى المتن الذى اختلف فيه نص عوانة عن نص أبى مخنف . وهنا نقف وقفة عند أبى مخنف لنتساءل : لم اهمل أبو مخنف الوصف الذى وصف به معاوية أهل الأمصار الثلاثة : الحجاز والعراق والشام ؟ أهى رغبته فى بث صورة منفرة لمعاوية تهيج النفوس ضده فعمد الى اظهار معاوية بمظهر العسوف المستبد ، ولذا أغفل هذه الرؤية السياسية الهادئة الصائبة ، وولج الى وصف معاوية للرجال الذين خالفوه ، ثم سمح لنفسه بالتزيد والتنقيص هناك ؟ لاندرى ولكننا نجد قرينة ربما توضح ذلك ، هى التى جاءت فى صدر الوصية - برواية أبى مخنف بالطبع - أى تلك المتعلقة بالعبارات التى صدر بها أبو مخنف الوصية التى ساقها ربما للتدليل على عسف معاوية - من وجهة نظره هو - وهى : يابنى انى قد كفيتك الرحلة والترحال ووطأت لك الأشياء ، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد .

ومع أننا لا ننكر أن فى بعض هذه الأسطر شىء كبير من الصحة ، الا أن اعتراضنا على اهمال ذلك النص واثبات هذه الأسطر وحدها. وننهى الحديث عن هذه الفقرة بالتذكير بأن هذه الأسطر السالفة هى التى خلا منها نص عوانة بن الحكم حسبما ألمحنا الى ذلك فى النقد .

ونسير مع الوصية فى فقرتها السادسة،وهى التى يقول فيها معاوية لابنه : ... وانى لست أخاف من قريش الا ثلاثة : حسين بن على ، وعبد اللهبن عمر ، وعبد الله بن الزبير . الحقيقة ان هذه الفقرة لن تستوقفنا طويلا ، فلقد سبق لنا القول بأن هذه الفقرة ، هى فاتحة التشابه بين نص عوانة ونص أبى مخنف ، ثم تليها الفقرات الثلاث الأخريات . لكن مالم نذكره آنذاك هو ان الفقرات الأربع هذه ، وان

نشابهت فى النصين الا أن التشابه ليس متطابقا فيها جميعا ، اذ ثمة اختلاف يسير بين رواية عوانة وأبى مخنف . وهكذا فانه فيما ينصل بهذه الفقرة السادسة من نص عوانة نلاحظ أن ثمة اختلافا بينها وبين الفقرة المماثلة فى نص أبى مخنف.فأبو مخنف يقول : .. وانى لاأتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك الا أربعة نفر من قريش : الحسين ابن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر . ففى الحين الذى جاء نص عوانة يقول : انى لست أخاف من قريش الا ثلاثة ، جاء نص أبى مخنف بزيادة انحصرت فى أمرين هما : الاشارة بالقول الى أنه لا يتخوف أن ينازعه الأمر الذى استتب له ، ثم الاشارة الى أنهم أربعة نفر . ولقد أكدنا فى النقد أن الصواب أنهم ثلاثة لا أربعة كما زعم أبو مخنف .

ثم نتابع المسيرة نحو الفقرة السابعة التى يقول فيها معاوية لابنه يزيد،بعد ان ذكر له الثلاثة نفر الذين يخافهم :(..فأما ابن عمر ، فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمسا شيئا قبلك) . فى البدء لابد من الاشارة الى أن ثمة اختلافا يسيرا كذلك بين نص عوانة هذا ونص أبى مخنف . فأبو خنف يقول : (... فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة ، واذا لم يبق غيره بايعك) .

واذا تركنا هذا الاختلاف اليسير فلنمض فى تحليل فقرة عوانة : المعروف فعلا أن عبد الله بن عمر والحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر قد امتنعا عنالبيعة ليزيد فى حياة أبيه معاوية. ولئن غيب الموت عبد الرحمن بن أبى بكر قبل أن يصدر معاوية وصيته لابنه يزيد،فانه مازال يستشعر الخطر على ابنه من مواقف هؤلاء الثلاثة النفر من سادة الصحابة . على أنه يطمئن ابنه يزيد من ابن عمر الصحابى ابن الصحابى ، وهو الرجل الذى وقذه الدين،أى غلبه.وهذا هوالمعنى اللغوى لعبارة وقذه(١٠٧) الدين ، فلقد انصرف ابن عمر رضى الله عنهما الى الدين والعبادة بكليته ، وكثيرة هى المواقف التى وضح فيها زهده رضى الله عنه فى المناصب والسلطان(١٠٨) . ومعاوية بتفهمه لنفسيات الرجال ، أدرك أن ابن عمر الذى غلبه الدين والعبادة لن يكون

له خطر على يزيد ، وربما يريد الأب من ابنه أن يحرص على عـــدم استعداء هذا الرجل كبير الشأن عند المسلمين(١٠٩) ٠

وننتقل بعد هذا الى الفقرة الثامنة من نص عوانة التى يقول فيها: (وأما الحسين بن على فانه رجل خفيف ، فأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ، وان له رحما ماسة وحقا عظيما وقرابة من محمد ﷺ ولا أظن أن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فانى لو أنى صاحبه غفوت عنه) ٠

لابد لنا من التذكير بأنه مع تشـــابه هـــذه الفقرة مع الفقـــرة المماثلة من نص أبى مخنف الا أن ثمة اختلافا كذلك بينهما ، ففقرة أبى مخنف تقول : (٠٠ أما الحسين بن على فان أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه) ٠ يلاحظ هنا أنه مع التطابق فى ذكر حدس معاوية من تأثير أهل العراق فى الحســـين فى موضوع الخـــروج ، فان هذا الحدس جاء فى صدر فقرة أبى مخنف ، فى حين جاء عند عوانة فى آخر الفقرة٠ هذا شىء،والشىءالآخر هو أن هناك تطابقا فىموضوعالرحم والحق العظيم للحسين ، وكذلك موضوع الصفح ٠ وتبقى بعد ذلك الاشارة الى الزيادة فى نص عوانة ، وهى المتمثلة فى قول معاوية عن الحسين (فانه رجل خفيف وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخـــذل أخاه) ، ثم زيادة جملتين وهما : ٠٠٠(وقرابة من محمد ﷺ)،وكذلك (فانى لو انى صاحبه عفوت عنه)٠هذا من ناحية الشكل ، فاذا دلفنا نحو تحليل فقرة عوانة، لرأينا معاوية يخوف ابنه يزيد من خروج الحسين بن على رضى الله عنهما عليه ، وما من شك أن الحسين رضى الله عنه لم يكن راضيا عن بيعة يزيد يبدو ذلك فى الموقف الذى وقفه هو وعبد اللـــه بن عمر وعبد اللـــه بن الزبير وعبد الرحمـــن بن أبى بكر من هـــذا الموضـــوع وجاهروا به معاوية(١١٠) ٠

ومعاوية هنا يمضى فيبين مخاوفه من أن الحسين رضى الله عنه ربما خالف يزيدا وخرج عليه٠ومع توقعه من أن شيئا من ذلك قد يحدث الا أنه يطمئن ابنه أن أهل العراق سوف لن يمضوا طويلا فى تأييدهم للحسين٠ ولقد ساق اليه موقفين سابقين لأهل العراق مع على بن أبى طالب والد

الحسين ، والحسن بن على أخـــاه ، وكلاهما يوضح مواقف أهـــل العراق منهما(١١) . فمعاوية هنا يطمئن ابنه بأنه حتى لو حـــدث شىء من ذلك فلايجزع . لكن الأهم عند معاوية أن يرعى يزيد حق الحسين وصلته بالرسول الكريم محمد بن عبد الله ﷺ ، ثم يشدد عليه بأن يصفح لأنه لو حدث هذا فى أيامه هو ، فانه ســيبادر الى الصفح رعاية لحق الحسين ورحمه .

ونختم بالقول أن هذا ليس بمستغرب من معاوية ،فالرجل يعرف من هو الحسين بن على . ثم انه يرى ـ وهو السياسى المحنك ـ أن الحكمة كل الحكمة والحنكة كل الحنكة تكمن فى تجاوز الأمر . وياليت يزيد فعل هذا فى تلك الأحداث المعروفة المعلومة .

ونخلص الى الفقرة التاسعة والأخيرة التى يقول فيها معاوية لابنه يزيد : ... وأما ابن الزبير ، فانه خب وضب ، فاذا شخص لك فالبد له الا أن يلتمس منك صلحا فان فعل فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت) .

قبل أن نمضى فى تحليل الفقرة لابد اقتضاء لما سرنا عليه ـ من ملاحظة الفروقات بين فقرة عوانة وفقرة أبى مخنف .. ففقـــرة أبى مخنف تقول فى موضوع عبد الله بن الزبير : (.. واما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فاذا أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير ، فان هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه اربا اربا) . نلاحظ هنا فرقا واضحا من حيث الشكل ومن حيث المضمون . واذا كنا قد فندنا هذه الفقرة مضمونا فى النقد فان مما لافائدة منه أن نبحث عن التشابه بين الفقرتين من حيث الشكل ، فالفرق بينهما جد واضح . على كل حال فلندع هذا ولنمض فى تحليل فقرة عوانة : فى البدء يصف معاوية لابنه يزيد ، عبد الله بن الزبير بالخب والضب . أما الخب فى اللغة فهو : خب خبا : خدع وغش ، فهو خب(١١٢) . واما الضب فان من معانيه : الحقـــد والغيظ الكامن فى الصدر ، ويقال رجل خب ضب : مراوغ خداع(١١٣) . واذا ما تركنا هذا المعنى اللغوى لكلمتى : الخب والضب الى التحليل ، لقلنا أنه سبق لمعاوية أن وصف عبد الله بن الزبير بهـــذا الوصف(١١٤) ، وكأنه كان يتحسس أن ابن الزبير رضى الله عنه سيكون له موقف مشهود

من يزيد ، لذا طلب منه أنه اذا شخص اليه ، أى خرج عليه كما يفهم من معنى الكلمة اللغوى(١١٥) فاليلبد له أى : فاليلصق به الصاقا شديدا ، وهو المعنى اللغوى لكلمة : لبد(١١٦) ٠

ان معاوية يحذر ابنه من ابن الزبير تحذيرا واضحا،فيدعوه الى عدم التهاون فى الأمر،اللهم الا أن يجنح الى الصلح ٠ فان فعل فليقبل منه ذلك وكأنه يشدد عليه فى هذا ، وهو ما تدل عليه **عبارة** : واحقن دماء قومك ما استطعت ٠ نعم هذا هو معاوية الذى نعرفه صاحب السياسة الهادئة وصاحب المواقف التى تتفاوت : رغبة ورهبة ، الميالة الى الاغضاء والتسامح ، هذا هو الدرس الذى يريد من ابنه أن يعيه ويحتذيه مذكرا اياه بضرورة الحرص على الدماء من أن تسفك بكل ما أوتى من ســـعة صدر ورحابة فؤاد ٠ وشتان بين فقرة عوانة وفقرة أبى مخنف القاسية الملتهبـة ٠



وبعد،فهذه هى وصية معاوية لابنه وولى عهده يزيد٠وقد أخضعناها للدراسة النقدية والتحليلية ، ولعل القارىء يلحظ أننا سرنا بحذر شديد ـ وهذا ما نحسبه ان شاء الله ـ فى كل ما يتعلق بآراء الصحابة(١١٧)٠

الهـــــاومش والتعليقات

(١) تشكل الوصايا ـ جمع وصية ـ محورا أو غرضا مهما من فنون الأدب . وحسب القارىء أن يلقى نظرة فاحصة على المؤلفات التى عالجت قضايا الأدب وفنونه ليجد الوصايا تمثل مكانا رفيعا فى تلك المؤلفات وهى ـ أى الوصـــايا ـ بشـــتى نواحيها : الدينية والأسرية والسياسية ، تشكل هذا المحور ، أو اللـــون الأدبى . ولعل تعريفها الاصطلاحى الأدبى يوحى بذلك ، فهى : قول يراد به الترغيب فيما ينفع وعما يضر ، وتكون لقوم معينين فى زمن معين كوصية الرجل لأهله عند النقلة أو المـــوت .

أنظر ابن منظور (ت٧١١هـ) : لسان العرب ، منشورات دار صادر ، بيروت ، د١٩٥٥م ، ١٥ مجلدا ، المجلد ١٥ ، ص ٣٩٤ .

(٢) يقول ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) : البداية والنهاية ، منشورات دار الفكر ، طبعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ٧ مجلدات ، ١٤ جزءا ثم مجلد للفهارس ، المجلد الرابع ، الجزء الثامن ، ص ١٦ ـ ١٧ ، ١٣٥ يقول : والسنة أن يقال لمعاوية رضى الله عنه : ملك ولا يقال له خليفة .

(٣) عن وصايا الخلفاء الراشدين لمن سيخلفهم ، أنظر مثلا : رفيق العظـــم : كتاب أشهر مشاهير الاسلام فى الحرب والسياسة (سيرة الراشدين ومن اشتهر فى دولتهم) منشورات دار الرائد العربى ، بيروت ، ط ٦ ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م ، مجلدان، ٤ أجزاء ، الجزء الأول : ص ١٣٥ .

(٤) نشرته دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، والجملة المستقاة من الكتاب وردت في ص : ٢٨ .

(٥) ليس ذلك باطلاق ـ كما لاخفاء ـ فقد يحدث بالخليفة عارض من مرض أو موت ، أو يحدث فى الاسلام حدث يوجب خلعه أو عزله .

عن الخلافة وشروطها المعتبرة ، والصفات المعتبرة واجبة التوفر فى الخليفة ، أنظر الماوردى (ت ٤٥٠هـ) : الاحكام السلطانية ، عنى بتصحيحه السيد محمـــد بدر الدين النعسانى الحلبى ، ط١ ، ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م ، ص : ٦ ـ ٨ ، ١٧ ، ٢١ ،

(٦) يكفى أن نقف عند مؤرخ قديم واحد هو الذهبى وباحث محدث هو : محمـد منير الغضبان الذى كتب كتابا بعنوان : معاوية بن أبى سفيان صحابى كبير وملك مجاهد ، سعى فيه الى أن يسير على منهج المحدثين فى نقد الرواية سندا ومتنا .

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، مجلد ٤ ، ج٨ ، ص : ٢١ ، ١١٨ ، ١٢٤ حيث التأكيد على ولايته لدمشق فقط .

(٨) ابن كثير : نفس المصدر والمجلد والجزء أعلاه ، ص : ١٢٤ ، حيث التأكيد على أنه تولى الشام كلها فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ·

(٩) ابن كثير : نفسه ، ص : ٢١ حيث الاشارة الى أن توليه الخلافة سنة ٤١هـ، ص : ١٣٦ ، ١٤٣ حيث الاشارة الى وفاته سنة ٦٠هـ ·

(١٠) لا تنفرد الوصية السياسية بهذه الخصيصة ، بل تشترك معها الوصية الشرعية فى ذلك · ومن المعروف أن الوصية مشروعة ابتداء ، ومشروعة أكثر فأكثر عند الموت · وهناك نصوص قرآنية ونبوية مليئة بهذا الندب الشرعى ·

عن الوصية الشرعية ومشروعيتها وحكمتها وشروطها ، أنظر سيد سابق : فقه السنة ، المجلد الثالث ، ص : ٤١٤ ـ ٤٢٢ ·

(١١) توفى المنصور سنة ١٥٨هـ ، وهى السنة التى كان قد حج فيها ، وقد استودع ابنه محمدا وصيته قبيل مغادرته العراق الى مكة ·

عن هذه الوصية وظروف توجيهها ، أنظر الطبرى (ت : ٣١٠) : تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، منشورات دار التراث العربى ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م ، ١٠ أجزاء ، الجزء الثامن ، ص : ١٠٢ ـ ١٠٤ ·

(١٢) عن هذه الوصية التى وجهها المنصور بن أبى عامر لابنه عبد الملك ، أنظر ابن بسام الشنتريني (ت : ٥٤٣هـ) : « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » تحقيق احسان عباس ، منشورات دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ط١ ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ٤ أقسام ويقع فى كل قسم مجلدان ، القسم الرابع ، المجلد الأول، ص ٧٦ ـ ٧٨ ·

(١٣) الضحاك بن قيس بن خالد الفهرى · قال البخارى : له صحبة ، وكان ذا خاصة بالخليفة معاوية بن أبى سفيان ، وتولى له ولاية بعض المدن بالاضافة للشرطة ، قتل فى موقعة مرج راهط التى حدثت سنة ٦٤ أو ٦٥ للهجرة بين أنصار عبد الله بن الزبير وأنصار مروان بن الحكم ·

راجع ابن حجر : الاصابة فى تمييز الصحابة ، القسم الثالث ، ص : ٤٧٩ ، كذلك راجع ابن كثير : نفسه ، ص : ٢٤١ وما بعدها ·

(١٤) مسلم بن عقبة بن رباح المرى (وعند ابن كثير : المزنى) أبو عقبة ، قائد من القادة القساة الفتاك فى عهد يزيد بن معاوية ، وكان مع معاوية من قبل فى معركة صفين ، عهد اليه يزيد بقيادة الجيش الأموى الذى وجهه لأهل المدينة الذين خرجوا عليه ·

أنظر الزركلى : الاعلام - قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٠م ، ٨ مجلدات : المجلد السابع ، ص : ٢٢٢ .

(١٥)أنظر نص الوصية عند الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الخامس ، ص : ٣٢٢ ، حيث الاشارة الصريحة الى أن معاوية لما حضره الموت ، وجه وصيته لابنه يزيد ، الذى كان غائبا عن دمشق وقتها .

(١٦) أبو محمد : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٨٦هـ ، عالم لغوى محدث فوق كونه مؤرخا . له العديد من الكتب المهمة كعيون الأخبـار ، والمعارف ، وأدب الكاتب ، ومشكل القرآن ، وكتاب مختلف الحديث . ولقد ساور الشك مجموعة من القدامى والمؤرخين المحدثين : عربا وأجانب فى نسبة كتاب الامامة والسياسة اليه نظرا لأنه لا يعقل أن يكتب هذا العالم المدافع عن السنة كتابا فيه تهجم وقدح فى الصحابة رضى الله عنهم ، علاوة على وجود أخطاء تاريخية بينة فيه ، وانتهوا الى أن الكتاب منحول عليه .

أنظر تفاصيل هذا الموضوع عند : عبد الحميد سندى الجندى : ابن قتيبة - العالم الناقد الأديب ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومى للتاليف والترجمة والطباعة والنشر تحت سلسلة أعلام العرب (رقم ٢٢) القاهرة ، ١٩٦٣م ص ١٦٩ - ١٧٣ . وهذا الكتاب فى الأصل رسالته للدكتوراه . ثم انظـر كذلك : عبد اللـه عبد الرحيم عسيلان : كتاب الامامة والسياسة فى ميزان التحقيق العلمى ، منشورات مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، ط١ ، ١٤٠٥هـ . وانظر بعناية كذلك ص : ٢١ وما بعدها حيث الاشارة الى قرائن تفيد بأن المؤلف لهذا الكتاب ربما يكون رجـلا أندلسـيا أو مغربيا .

(١٧) نستدرك هنا فنقول : نعم وجدت عند أبى حنيفة الدينورى ، صاحب الأخبار الطوال ، المتوفى سنة ٢٨٢هـ الا أنه أوردها - أعنى الوصية - متداخلة فى نصيها ، أى نص أبى مخنف ، ونص عوانة بن الحكم مع اسقاط السند .

انظر الدينورى (ت ٢٨٢هـ) : الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر وجمال الدين الشيال ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومى - الادارة العامة للثقافة القاهرة ، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م ، ص : ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(١٨) انظر شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون - دراسة فى تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله فى الاسلام ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٣م جزءان ، الجزء الاول ، ص ٧٤ وما بعدها حيث الاشارة الى بدء التدوين

التاريخى ، ثم ص : ٢٠٢ وما بعدها حيث الاشارة الى الطبرى الذى عده المؤلف قمة من قمم التاريخ الحقيقى ٠

(١٩) يورد الذهبى فى سير أعلام النبلاء ، ج٣ ، ص ١٥٩ فى معرض سياق ترجمة معاوية رضى الله عنه ، نصا من ٣ أسطر ، عن وصية أخرى لمعاوية تختلف اختلافا كبيرا عن الوصية التى نعنيها بنصيها معا ، وذلك نقلا عن الواقدى ٠ ولكن هذه الوصية لم يشر اليها أحد من المؤرخين الكبار على خلاف الوصية التى أخضعناها للدراسة النقدية والتحليلية التى أشار اليها عدد من كبار المؤرخين حسبما بينا فى المتن ٠ أخيرا يورد الذهبى فى نفس ترجمته لمعاوية ، ص : ١٦٠ نصا يفهم منه أن معاوية رفض أن يوصى ٠ وهذا خلاف المشهور ٠

(٢٠) الواقع أننا لسنا معنيين هنا مباشرة بالحديث عن عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان لابنه يزيد بالخلافة ، وهى القضية التى افرزت مسألة ولاية العهد لأول مرة فى التاريخ الاسلامى ، كما أننا لسنا معنيين بمناقشة الاقوال التى دارت حول فعل معاوية رضى الله عنه ، والموقف منه ٠ وللوقوف على هذه الأقوال يكفى أن نحيل القارىء الى كتاب : تحذير العبقرى من محاضرات الخضرى أو افادة الأخيار ببراءة الأبرار لمحمد العربى التبانى الذى نشرته دار الكتب العلمية ببيروت ط٢ ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م فى جزئين ، الجزء الثانى ، ص : ١٨٩ - ٢٠٠ ٠

(٢١) تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الخامس ، ص : ٣٢٢ ٠

(٢٢) نفسه ، ص ٣٢٢ - ٣٢٣ ٠

(٢٣) راجع تعريف الوصية فى الأدب ، قبل ، ص : ٣٩ ، حاشية (١) ٠

(٢٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، المجلد الأول ، الجزء الاول ص : ١٧١ ٠

(٢٥) رفيق العظم : أشهر مشاهير الاسلام فى الحرب والسياسة ، ج١ ، ص : ٨٣٥ ج٤ ، ص : ٤٧٩ ٠

(٢٦) ابن كثير : نفسه ، ص ٦٧ ٠

(٢٧) ابن كثير : نفسه ، ص : ١٨٢ ٠

(٢٨) عن الوضع والوضاعين ، وعن هذه المنهجية العلمية الاصيلة التى أهداها المسلمون الى مسيرة الحياة العلمية بخاصة ، والحضارية بعامة ، وما اقتضاه ذلك من نشأة علمى : مصطلح الحديث ، والجرح والتعديل ، انظر مثلا :

مصطفى السباعى : السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى ، منشورات المكتب الاسلامى ، بيروت - دمشق ٠ ط٤ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، الفصول ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ص : ٧٥ - ١٣٢ - صبحى الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ، منشورات دار العلم

للملايين ، بيروت ، ط١٥ ، ١٩٨٤ ، ص ٢٦٣ ـ ٢٧٣ ـ أحمد أمين : فجر الاسلام ، منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١٠ ، ١٩٦٩م ، ص ، ٢٠٨ ـ ٢١٩ ـ ٢٢١ ـ ٢٢٤ .

(٢٩) الدعوة الى اعادة صياغة التاريخ الاسلامي وفق قواعد المحدثين ـ ما أمكن ذلك ـ انطلقت من فترة ليست طويلة من أناس عديدين ، ثم طرحت على هيئات وتنظيمات عالمية اسلامية .

(٣٠) ساق ابن النديم (ت ٣٨٠هـ) : الفهرست ، منشورات دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ص : ١٣٦ ـ ١٣٧ ترجمة طويلة مسهبة لأبي مخنف ، اكتفينا منها فقط بما تم ايراده في المتن .

(٣١) هذا الباحث هو : يحيى بن ابراهيم بن على اليحيى الذي أعد رسالته للماجستير بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة بعنوان : مرويات أبى مخنف في تاريخ الطبرى ـ عصر الخلافة الراشدة ـ دراسة نقدية ، وقد نشرت هذه الرسالة بهذا العنوان ، دار العاصمة ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٠هـ .

(٣٢) الذهبى : سير أعلام النبلاء ، ج٧ ، بتحقيق على أبى زيد ، ص : ٢٠١ .

(٣٣) الجزء العاشر بتحقيق محمد نعيم العرقسوس ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

(٣٤) ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) : تقريب التهذيب، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، منشورات دار المعرفة ، بيروت ، جزءان ، دون سنة الطبع ، الجزء الأول ، ص ٥٢٤ .

(٣٥) ابن أبى حاتم الرازى (ت ٣٢٧هـ) : الجرح والتعديل ، منشورات مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، الهند ـ ١٣٧١هـ ، ٩ أجزاء ، الجزء السابع ، ص : ١٨٢ .

(٣٦) ابن عدى (ت ٣٦٥هـ) : الكامل فى ضعفاء الرجال ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، ٨ أجزاء ، الجزء السادس ، ص : ٩٣ .

(٣٧) نفس الجزء والصفحة أعلاه .

(٣٨) حققه على محمد البجاوى ، ونشرته دار المعرفة ببيروت ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م فى ٤ أجزاء ، والعبارة المشار اليها فى المتن وردت فى الجزء الثالث ، ص : ٤٣٠ .

(٣٩) الجزء السابع ص : ٣٠١ ـ ٣٠٢ بتحقيق على أبى زيد .

(٤٠) البابة : الوجه ، وقد علق محقق الجزء السابع من سير أعلام النبلاء على أبى زيد فى الحاشية رقم ٢ ص : ٣٠٢ أن مراد الذهبى هنا أن أبا مخنف

مسار للثلاثة الذين ذكرهم فى ترجمته لأبى مخنف فى الضعف والمنزلة · وقد عاد المحقق فى تحقيق معنى البابة اللغوى لابن السكيت فى كتابه : اصلاح المنطق ·

(٤١) سيف بن عمر الضبى الأسدى ، ويقال التميمى البرجمى ، ويقال السعدى الكوفى ، مصنف الفتوح والردة (أى أخبار الردة) وغير ذلك ·

للمزيد من الترجمة له وأقوال علماء الجرح والتعديل فيه ، أنظر الذهبى ، ميزان الاعتدال ، ج٢ ، ص : ٢٥٥ ·

(٤٢) عبد الله بن عياش الهمدانى ، توفى سنة ثمان وخمسين ومائة ، اخبارى صدوق كما قال الذهبى ، ميزان الاعتدال ، ج٢ ص : ٤٧٠ حيث نقلنا عنه ·

(٤٣) منشورات المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، مصر المحمية ، ١٣٢١ هـ ، جزءان وبهامشه المسمى بيان موافقة صريح المعقول لصحيح النقل ، له نفسه أى لابن تيمية · والنص المنقول فى المتن ورد فى الجزء الأول ص : ١٣ ·

(٤٤) منشورات الدار العلمية ، دلهى ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ ، ص : ١٧ وما بعدها ·

(٤٥) اسحاق بن بشر ، أبو حذيفة البخارى صاحب كتاب المبتدأ · توفى سنة ٢٠٦هـ ، كما يقول الذهبى فى ميزان الاعتدال ، ج١ ، ص ١٨٤ ـ ١٨٦ حيث عقد له بجانب هذا التعريف ترجمة طويلة ـ الى حد ما ـ حشاها بعبارات علماء الجرح والتعديل ، مثل : تركوه أى علماء الجرح والتعديل ، وكذبوه ، وكذلك ضعيف···الخ

(٤٦) منشورات دار الأعلمى للمطبوعات ، بيروت ، ط٢ ، ١٣٩٠هـ ، ٧ أجزاء ، الجزء الرابع ص : ٣٨٦ ·

(٤٧) ص ١٣٤ ·

(٤٨) منشورات مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، ط ٣ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م منقحة ومصححة وفيها زيادات ، ١٠ مجلدات ، ٢٠ جزءا ، مجلد ٨ ، الجزء ١٦ ، ص : ١٣٦ ـ ١٣٩ ·

(٤٩) الجزء السابع ، ص : ٢٠١ ·

(٥٠) حققه وضبطه على مخطوطتين أبو هاجر : محمد السعيد بن بسيونى زغلول ، منشورات دار الكتب العلمية · بيروت ، دون سنة الطبع ـ ٤ أجزاء ، الجزء الأول ، ص : ١٧٦ ·

(٥١) منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٨م/١٤٠٩هـ ، ٤ مجلدات ، المجلد الأول ص : ٢٤٣ ·

(٥٢) الجزء السابع ص : ٢٠١ ·

(٥٣) الجزء الرابع ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ؛

(٥٤) الجزء العاشر ، ص : ١٠١ ـ ١٠٣ ٠

(٥٥) الجزء الثانى ، ص : ٥٢٤ ٠

(٥٦) راجع مقدمة ابن حجر فى كتابه تقريب التهذيب ، ج١ ، ص : ٣ ـ ٧ حيث الاشارة الى منهجه ٠

(٥٧) ص ٨٨ ؟ ٠

(٥٨) المرجع السابق ، ص : ١٤٠ ٠

(٥٩) راجع الحاشية ، ص ٤٩ ٠

(٦٠) المصدر السابق ، ص : ١٣٤ ٠

(٦١) المجلد الثامن ، الجزء ١٦ ، ص : ١٣٨ ٠

(٦٢) عن الاخباريين وميولهم والتدوين التاريخى وما نتج عنه من نشأة المدارس التاريخية ، راجع أحمد أمين : ضحى الاسلام ، منشورات دار الكتاب العـــربى ، بيروت ، ط ١٠ ، دون سنة للطبع ، ٣ أجزاء ، ج٢ ص : ٣٣٨ـ٣٤٢ ٠ شاكر مصطفى: التاريخ العربى والمؤرخون ، الجزء الأول ، الفصول ٢،٣،٤،٥ ولا سيما الفصــــل الخامس ، ص : ١٦٩ ـ ٢٠٠ ٠

(٦٣) المرجع السابق ، والجزء أعلاه ، ص : ١٨٠ ٠

(٦٤) كتب كثير من الباحثين المحدثين عن هذه العلاقة بين الأمويين وقبيلة كلب اليمنية منذ أن بدأت هذه العلاقة بزواج الخليفة الأموى المؤسس معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه من ميسون بنت بحدل الكلبية وهى أم ابنه يزيد ، وتكرست هذه العلاقة أكثر عندما وقفت اليمنية مع الأمويين فى معركة مرج راهط سنة ٦٥هـ ضد أنصار عبد الله بن الزبير القيسية ، وتتابعت مظاهر هذا الموقف المؤيد وبالتالى الاستفادة منه طوال العهد الأموى ، ولم تتغير مواقف الخلفاء الأمويين من اليمنية الا فى عهود بعض الخلفاء المتأخرين الذين ناصبوهم العداء وتحيزوا للقيسية ضد خصومهم ٠ ومن المعروف أن العصبية القبلية تعد أحد أسباب سقوط الدولة الأموية ٠

للاستزادة عن هذا الموضوع راجع مثلا ، محمد الطيب النجار : الدولة الأموية فى الشرق بين عوامل البناء ، ومعاول الفناء ، توزيع دار الاعتصام ، القاهرة ط٣ ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص : ١٣٨ ـ ١٥٠ ، يوسف العش : الدولة الأموية والأحداث التى سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان ، منشورات دار الفكر ، دمشق ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م ، ص : ١٨٤ ـ ١٩٢ ٠

(٦٥) أى أنصار عبد الله بن الزبير رضى الله عنه ، الذين روجوا لدعوته ، ثم أيدوا مواقفه سواء بالتأييد الحسى أو بالتأييد المعنوى عن طريق كتابة الروايات عن أحقيته بالخلافة ، راجع محمد الطيب النجار : المرجع السابق أعـــلاه ، ص : ٧٥ وما بعدها ، على حسن الخربوطلى : عبد الله بن الزبير ، منشورات المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والأنباء والنشر ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ، سلسلة أعلام العرب رقم ٤٣ ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ص : ٢٥٨ وما بعدها حيث الاشارة الى التيار المؤيد لعبد الله بن الزبير رضى الله عنه من الأدباء وغيرهم ٠

(٦٦) حوارين : بالضم وتشديد الواو ، قرية من قرى حلب معروفة ، وحوارين: حصن من ناحية حمص ٠

ياقوت الحموى/معجم البلدان ، منشورات دار صادر بيروت للطباعة والنشر ، بيروت . ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ٥ أجزاء ، الجزء الثانى ، ص : ٣١٥ ـ ٣١٦ ٠ ويبدو أن حوارين الثانية ، أى الحصن الذى من ناحية حمص ، هو المقصود هنا ، على خلاف تلك القريبة من نواحى حلب البعيدة عن دمشق كثيرا ٠ وهى التى مات بها يزيد ٠

(٦٧) بجانب ما كتبه الذهبى : نفس المصدر أعلاه ، ج٣ ، ص : ١٦١ ـ ١٦٢ فى ترجمته لمعاوية بن أبى سفيان من تأكيـــد على أن يزيدا كان خارج دمشـــق فى حوارين ، عاد فذكر الأمر نفسه فى الجزء الرابع ص : ١٣٦ فى ترجمته ليزيد بن معاوية ٠ وقد أكد على ذلك أيضا ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) : الكامل فى التاريخ ، عنى بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء ، منشورات دار الكتاب العـــربى بيروت ط٢ ، ١٤٠٠/١٩٨٠م ١٠ أجزاء ، الجزء الثالث ، ص : ٢٦٠ حيث عبارات التأكيد التى ختمها بقوله : وهو الصحيح ، ثم أكد ابن كثير كذلك عليه ـ حسبما أكدنا فى المتن ـ فى المجلد الرابع ، الجزء الثامن من المصدر السابق ص : ١٤٣ ، وقال هو رأى الجمهور ٠

(٦٨) أنظر ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، تحقيق وتعليق محمد ابراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد ، منشورات مكتبـــة الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠م ، ٧ أجزاء الجزء الثالث ، ص : ٤٦٦ ـ ٤٦٩ ٠

ابن حجر : الاصابة فى تمييز الصحابة ، القسم الرابع : ص ٣٢٥ ـ ٣٢٨ ، وانظر كذلك ابن عبد البر (ت ٤٦٣) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت دون سنة للطبع ، ٤ أجزاء ، الجزء الثانى ، ص ٣٩٤ ٠

(٦٩) نفسه ، ص : ١١٥ ٠

(٧٠) ابن كثير : نفسه ، ص : ٧٩ ٠

(٧١) انظر الذهبى : سير أعلام النبلاء ، الجزء الثانى ، ص ٤٧١ ــ ٤٧٣ مع الحواشى ، ابن حجر : الاصابة ، القسم الرابع ، ص : ٣٢٨ ، ابن كثير : نفسه ، ص : ٩٠ ٠

(٧٢) نفس المصدر أعلاه والجزء ص : ٤٧٢ ــ ٤٧٣ ٠

(٧٣) انظر ابن حجر : نفسه ، ص : ٣٢٨ ٠

(٧٤) ابن كثير ، نفسه ، ص : ٧٩ ــ ٨٠ ٠ وعنده أن عدد النفر الذين امتنعوا عن اعطاء البيعة ليزيد فى حياة أبيه معاوية خمسة ، هم اولئك الذين ذكرناهم فى المتن ، اضافة الى عبد الله بن عباس ٠ وهذا خلاف المشهور والراجح عند المؤرخين من أنهم أربعة ٠

(٧٥) انظر ابراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبد المجيد ومحمد على النجار : المعجم الوسيط ، اشراف عبد السلام هارون ، منشورات دار احياء التراث العربى ، المكتبة العلمية ، طهران، دون سنة للطبع،جزءان ، الجزء الأول ، ص ١٠٧٠

(٧٦) أنظر النويرى : نهاية الأرب ، ج٩ ، ص : ٢٢٩ حيث الاشارة الى عادات وصفات الأســود ٠

(٧٧) ابراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط ، ج١ ، ص : ٣٨٤ ٠

(٧٨) أنظر النويرى : نفس المصدر السابق والجزء أعلاه ، ص : ٢٧٩ حيث الاشارة إلى صفات الثعالب ٠

(٧٩) ابراهيم مصطفى وآخرون : نفس المعجم والجزء أعلاه ص : ١٢ ٠

(٨٠) حجر بن عدى بن معاوية بن جبلة الكندى ، يعرف بحجر بن الأدبر ، وحجر الخير ، اختلف فى صحبته ، والأشهر أنه صحابى ، كان من كبار أشياع الخليفة على بن أبى طالب ، قتل سنة ٥١ وقيل ٥٣هـ ، بأمر من معاوية ٠ ابن حجر ، نفسه ٠ القسم الثانى ، ص : ١٦٨ ٠

(٨١) مقتل حجر رضى الله عنه بأمر معاوية رضى الله عنه من القضايا التى يحسن بنا أن نمسك عنها ٠ ولقد لامت السيدة عائشة رضى الله عنها معاوية لفعله ذلك ، فوضح لها أنه رأى فى ذلك اصلاحاً للأمة ٠ أنظر ابن كثير : نفسه ، ص :٥٥٠

(٨٢) راجع خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ) : تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، منشورات دار القلم ودار الرسالة ، بيروت ودمشق ، ط ٢ ، ١٣٩٧هـ/ ص : ٢١٥ وما بعدها واسنادها صحيح ٠

(٨٣) أنظر ابن كثير : نفسه ، ص : ٨٥ ٠

(٨٤) راجع خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ، ص : ٢١٧ ٠

(٨٥) كتب كثير من العلماء والمؤرخين الثقات عن فضل ومكانة الصحابة رضوان الله عليهم وعن الموقف الذى يجب أن نقفه مما شجر بينهم من خلاف ، كانوا فيه بين مجتهد مصيب ، ومجتهد مخطىء متأول ، وقد ألفت فى ذلك بعض الكتب ٠

للوقوف على هذا الموضوع ، راجع محمد العربى التبانى : تحذير العبقرى من محاضرات الخضرى ، ج١ ، ص : ٣٦ ـ ٤٣ ، ١٧٨ ـ ٢١٨ ، ج٢ ، ص : ٢٦ ـ ٢٨، ٥٦ ـ ٨٧ ، حيث فيه جمع أقوال علماء السلف فى ذلك ٠ وانظر كذلك محمد صامل السلمى : منهج كتابة التاريخ الاسلامى ص : ١٨٩ ـ ٣٦٩ ٠

(٨٦) ابن العربى (ت : ٥٤٣هـ) : العواصم من القواصم فى تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبى ﷺ ، خرج أحاديث وعلق عليه محمود مهدى الاستانبولى ، حققه وكتب حواشيه محب الدين الخطيب ، ص : ١٣٩ حيث أستلت هذه العبارة من تعليقه ـ أى محب الدين الخطيب ٠

(٨٧) نفسه ص : ١٤٣ ٠

(٨٨) من أشهر الوصايا فى هذا الصدد وصية عبد الملك بن مروان لابنائه ، عن هذه الوصية انظر ابن كثير ، نفسه ، ص : ٨٥ ٠

(٨٩) أنظر هذه الحالات والمواقف عند ابن كثير : نفسه ، ص : ٣٧ ، ٤٢ ، ٩٤ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ـ ١٣٨ ٠ وقد ألف أحد الباحثين المحدثين ، وهو محمد ابراهيم الشريف مؤلفا بعنوان : دور الحجاز السياسى فى القرنين الأول والثانى الهجريين ٠

(٩٠) انظر ابن كثير : نفسه ، ص : ١٣٧ ـ ١٣٨ ٠

(٩١) كان ذلك فى سنة ٤٤هـ على الأرجح ٠ راجع ابن كثير : نفسه ، ص : ١٣١ ـ ١٣٢ ٠

(٩٢) خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص ٢١٣ ـ ٢١٥ ٠

(٩٣) أنظر ابن كثير ، نفسه ص : ١٣٥ ٠

(٩٤) قال معاوية : ٠٠ لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، قيل كيف يا أمير المؤمنين ، قال : كانوا اذا مدوها خليتها ، واذا خلوها مددتها ٠

راجع اليعقوبى ، (ت : ٢٨٤هـ) تاريخ اليعقوبى ، منشورات دار صادر ، بيروت مجلدان ، دون سنة للطبع ، المجلد الثانى ، ص ٢٣٨ ٠

(٩٥) أنظر الذهبى : سير أعلام النبلاء ، ج٣ ، ص : ١٥٤ ٠

(٩٦) أنظر أمثلة ذلك والتحقيق الأصولى الجيد فى توضيح أسباب ذلك لدى

محمد العربى التبانى ، المرجع السابق ، ج١ ، ص : ٢٠٤ ـ ٢٠٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ٠

(٩٧) أنظر محمد العربى التبانى : نفس المرجع الســـابق ، ج٢ ص : ٢٠٥ وما بعدها حيث توسع فى هذا الجانب الذى عاد فيه الى عدد كبير من المصـــادر والمراجع ذات الصلة ٠

(٩٨) أنظر الذهبى : نفس المصدر أعلاه ، ج٣ ، ص : ١٢٤ ، ابن كثير : نفسه، ص : ١٢٩ ٠

(٩٩) راجع ابن كثير : نفسه ، ص : ١٢٦ ، ١٣٥ ـ ١٣٧ ٠

(١٠٠) أنظر أمثلة هذا عند الذهبى : نفسه ، ج٣ ص : ١٣٢ ـ ١٣٣ ، ابن كثير نفسه ص : ١٢٦ ، ١٣٥ ـ١٣٧ ٠

(١٠١) انظر الذهبى ، نفسه ، ج٤ ، ص : ٩٥ حيث الاشارة الى عزل معاوية عامله على العراق عبيد الله بن زياد ، بطلب من أهل العراق ثم اعادته بعد ذلك ٠

(١٠٢) أنظر ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) « وفيات الأعيان ، تحقيق احسان عباس ، منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م ، ٨ أجزاء ، ج٢ ، ص : ٥٠٠ ٠

(١٠٣) ابن كثير : نفسه ص : ١٣٩ ٠

(١٠٤) ابراهيم مصطفى وآخرون ، ج١ ، ص : ٦١ ٠

(١٠٥) ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج٢ ، ص : ٦٤٥ ٠

(١٠٦) أنظر الذهبى : نفسه ، ج٣ ، ص : ١٢٨ ، ١٣٣ ـ ١٤١ ، ابن كثير ، نفسه ، ص : ٢١ ، ١٢١ ، ١٢٨ ـ ١٢٩ ٠ وانظر فى هذا الصدد يوســـف العش : الدولة الأموية والأحداث التى سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان ص : ١٥٦ ـ ١٦٢ حيث تحليل سياسى واسع لمواقع بلاد الشام ونظرتها لمعاوية ٠

(١٠٧) أنظر ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج٢ ص : ١٦٠١ ٠

(١٠٨) نحيل القارىء الى ترجمة ابن عمر لدى الذهبى : نفسه ، ج٣ ، ص: ٢١٦ ، ٢١٩ ، ١٢٤ ، ٢٦٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٧ ٠

(١٠٩) يقول الذهبى : نفسه ، ص : ٢٢١ نقلا عن الامام مالك بن أنس ان عبدالله ابن عمر رضى الله عنهما ظل اماما للناس يفتيهم مدة ستين سنة ٠

(١١٠) أنظر قبل ، ص : ٢٢ ـ ٢٤ مع الحواشى ٠

(١١١) الحقيقة أن الموقف الذى ذكره معاوية رضى الله عنه عن خذلان أهـــل

العراق للحسن بن على رضى الله عنهما انما هو حقيقة فعلا . وقد ذكرها المؤرخون · ومعاوية يقصد هنا حادثة طعن أحد جنود معسكر الحسن له فى الجيش الذى جيشه للقاء معاوية بقيادة قيس بن سعد بن عبادة ، ولقد نهب معسكره كذلك ، وهى الحادثة التى أصابت الحسن رضى الله عنه بالمرارة من أهل العراق ·

أنظر ابن كثير : نفسه ، ص : ١٤ ـ ١٥ ، ١٧ ·

لكن الواقع أن الموقف الأول الذى عبر عنه معاوية رضى الله عنه بالقول ان أهل العراق قتلوا عليا بن أبى طالب ، يحتاج الى توقف · فالمعلوم أن عليا رضى الله عنه قتل على يد أحد أشقياء الخوارج الذين كان رأيهم فى على ومعاوية رضى الله عنهما معا سـيئا ·

(١١٢) ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج١ ص : ٢١٢ ·

(١١٣) ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج١ ، ص : ٥٣٤ ـ ٥٣٥ ·

(١١٤) ابن كثير ، نفسه ، ص : ١٣٧ ·

(١١٥) ابراهيم مصطفى : نفسه ، ج١ ، ص : ٤٧٨ ·

(١١٦) ابراهيم مصطفى وآخرون : نفسه ، ج٢ ، ص : ٨١٨ ·

(١١٧) راجع محمد بن صامل السلمى : المرجع السابق ، ص : ٢٠٩ ـ ٢٣٣ ·

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصـــادر :

ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ)

١ ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، تحقيق وتعليق محمـد ابراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد ، منشورات مكتبة الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠م ، ٧ أجزاء .

٢ ـ الكامل فى التاريخ ، على بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء ، منشورات دار الـكتاب العـربى ، ط ٣ ، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ، ١٠ أجزاء .

ابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ) :

٣ ـ الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احســان عباس ، منشورات دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ . ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ٤ أقسام ويقع فى كل قسم مجلدان .

ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ)

٤ ـ الرد على البكرى ، منشــورات الدار العلمية ، دلهى ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ .

٥ ـ منهاج السنة ، منشـورات المطبعة الـكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ، القاهرة ، ١٣٢١هـ جزءان وبهامشه الكتاب المسمى ببيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ، له نفسه .

ابن أبى حاتم الرازى (ت ٣٢٧هـ) :

٦ ـ كتاب الجرح والتعديل ، منشورات مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٣٧١هـ ، ٩ أجزاء .

ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) :

٧ ـ الاصابة فى تمييز الصحابة ، حقق أصوله وضبط اعلامه ، ووضع

فهارسه على محمد البجاوى ، منشورات دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ، ٨ أقسام .

٨ ـ تقريب التهذيب ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، منشورات دار المعرفة ، بيروت ، دون سنة للطبع ، جزءان .

٩ ـ لسان الميزان ، منشورات دار الأعلمى للمطبوعات، بيروت ، ط٢ ١٣٩٠هـ ، ٧ أجزاء .

ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) :

١٠ ـ وفيات الأعيان ، تحقيق احسان عباس ، منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م ، ٨ أجزاء .

خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ) :

١١ ـ تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، منشورات دار القلم ودار الرسالة ، بيروت ، دمشـــق ، ط٢ ، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧م .

أبو داود السجستانى (ت٢٧٥هـ) :

١٢ ـ سنن أبى داود ، راجعه على عـــدة نسخ وضبط أحاديثه وعنق حواشيه محمد محى الدين عبد الحميد ، منشورات دار احيـــاء السنة النبوية ، القاهرة ، دون سنة للطبع ، ٤ أجزاء .

الدينورى (ت ٢٨٢هـ) :

١٣ ـ الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر وجمال الدين الشيال ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومى ، الادارة العامة للثقافة، القاهرة ، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م .

الذهبى (ت ٧٤٨هـ) :

١٤ ـ سير أعلام النبلاء ، أشرف على تحقيق الكتاب وخـــرج أحاديثه شعيب الأرناؤوط ، منشورات مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ٢٥ جزءا .

١٥ ـ العبر فى أخبار من غبر . حققــــه وضــبطه على مخطوطنين أبو هاجر : محمد السعيد بن بسيونى زغلول ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٨ذ/١٤٠٩هـ ، ٤ مجلدات .

١٦ ـ ميزان الاعتدال ، حققه على محمد البجاوى ، نشرته دار المعرفة، بيروت ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م ، ٤ أجزاء .

الطبرى (ت ٣١٠هـ) :

١٧ ـ تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمــد أبو الفضــل ابراهيم ، منشورات دار التراث ، بيروت ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م ، ١٠ أجزاء.

ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) :

١٨ ـ الاستيعاب فى معرفة الاصحاب ، منشورات دار الكتاب العربى، بيروت دون سنة للطبع ، ٤ أجزاء .

ابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ) :

١٩ ـ العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، تقــديم ممدوح حقى ، منشورات دار الفكر ، بيروت ، دون ســنة للطبع ، ٤ مجلدات ، ٨ أجزاء .

ابن عــدوى (ت ٣٦٥ هـ) :

٢٠ ـ الكامل فى ضعفاء الرجال ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م ، ٨ أجزاء .

ابن العربى (ت ٥٤٣هـ) :

٢١ ـ العواصم من القواصم ، خرج احاديثه وعلق عليه محمــد مهدى الاستانبولى ، حققه وعلق حواشــيه محــب الدين الخطيب ، منشورات مكتبة السنة ، القاهرة ، ط٥ ، ١٤٠٨هـ .

ابن العماد الحنبلى (ت ١٠٨٩هـ) :

٢٢ ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٨م/١٤٠٩هـ ، ٤ مجلدات .

ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) :

٢٣ - البداية والنهاية ، منشورات دار الفكر ، طبعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ٧ مجلدات ، ١٤ جزءا ثم مجلد الفهارس .

الماوردى (ت ٤٥٠هـ) :

٢٤ - الأحكام السلطانية ، عنى بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعسانى الحلبى ، ط١ ، ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م .

ابن منظور (ت ٧١١هـ) :

٢٥ - لسان العرب ، منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥م ، ١٥ مجلدا .

ابن النديم (ت ٣٨٥هـ) :

٢٦ - الفهرست ، منشورات دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

النويرى (ت ٧٢٣هـ) :

٢٧ - نهاية الأرب فى فنون الأدب ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، سلسلة من تراثنا ، القاهرة ، ٣٠ جزءا .

ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ) :

٢٨ - معجم الأدباء ، منشورات مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، ط ٣ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، منقحة ومصححة وفيها زيادات ، ١٠ مجلدات ، ٢٠ جزءا .

٢٩ - معجم البلدان ، منشورات دار صادر ، ودار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، ٥ أجزاء .

اليعقوبى (ت ٢٨٤هـ) :

٣٠ - تاريخ اليعقوبى ، منشورات دار صادر ، بيروت ، دون سنة للطبع ، مجلدان .

ثانيا : المراجـــع :

ابراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات ، وحامد عبد القادر ومحمد على النجار :

١ - المعجم الوسيط ، منشورات دار احياء التراث العـربى ، مجمع اللغة العربية ، المكتبة العلمية ، طهران ، دون سـنة للطبع ، جزءان .

أحمـــد أمين :

٢ - ضحى الاسلام : منشورات دار الكتاب العربى ، بيروت ط ١٠ ، دون سنة للطبع ، ٣ أجزاء .

٣ - فجر الاسلام ، منشورات دار الكتاب العـربى ، بيروت ط ١٠ ، ١٩٦٩م .

أحمد حســن الزيات :

٤ - تاريخ الأدب العربى ، منشورات دار نهضة مصر ، ط ٢٥ .

أكرم ضياء العمرى :

٥ - المجتمع المدنى فى عهد النبوة - خصائصه وتنظيماته الأولى - محاولة لتطبيق قواعد المحدثين فى نقـــد الروايات التاريخية ، منشورات المجلس العلمى لاحياء التراث الاســـلامى بالجامعـــة الاسلامية بالمدينة المنورة ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

رفيق العظم :

- أشهر مشاهير الاسلام فى الحرب والسياسة (ســيرة الخلفـــاء الراشدين ومن أشتهر فى دولتهم) منشورات دار الرائد العربى، ط٦ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، مجلدان ، ٤ أجزاء .

الزركلى :

- الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنســـاء من العـــرب

والمستعربين والمستشرقين ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ط٥ ، ١٩٨٠ ، ٨ مجلدات ٠

سيد سابق :

٨ - فقه السنة ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م ٣ مجلدات ٠

شاكر مصطفى :

٩ - التاريخ العربى والمؤرخون ، دراسة فى تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله فى الاسلام ، منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٣، ١٩٨٣ ، جزءآن ٠

صبحى الصالح :

١٠ - علوم الحديث ومصطلحه ، منشورات دار العلم للملايين بيروت، ط ١٥ ، ١٩٨٤م ٠

عبد الله عبد الرحيم عسيلان :

١١ - كتاب الامامة والسياسة فى ميزان التحقيق العلمى ، منشورات مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، ط١ ، ١٤٠٥ هـ ٠

عبد الحميد سندى الجندى :

١٢ - ابن قتيبة العالم الناقد الأديب ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومى للتأليف والترجمة والطباعة والنشر تحت سلسلة أعلام العرب رقم (٢) القاهرة ١٩٦٣ م ٠

عبد الوهاب النجار :

١٣ - الخلفاء الراشدون ، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م ٠

على حسنى الخربوطلى :

١٤ - عبد الله بن الزبير ، منشورات المؤسسة المصرية العامة للتاليف

والأنباء والنشر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، سلسلة أعلام العرب ، رقم ٤٣ ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .

محمد الزحيلــى :

١ - الامام الطبرى ، شيخ المفسرين ، وعمدة المؤرخين ، ومقـــــدم الفقهاء والمحدثين ، صاحب المذهب الجريرى ، منشورات دار القلم ، دمشق تحت سلسلة أعلام المسلمين رقـــم (٣٣) ، ط ١ ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م .

محمد بن صامل العليانى السلمى :

١ - منهج كتابة التاريخ الاسلامى،منشورات دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض ، ط١ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

محمد الطيب النجار :

- الدولة الأموية فى الشرق بين عوامل البناء ومعاول الفناء ، توزيع دار الاعتصام ، القاهرة ، ط٣ ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

محمد العربى التبانى :

- تحذير العبقرى من محاضرات الخضرى أو افادة الأخيار ببراءة الأبرار ، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت ، ط ٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م . جزآن .

محمد منير الغضبان :

- معاوية بن أبى سفيان : صحابى كبير وملك مجاهد ، منشورات دار القلم ، دمشق ، بيروت سلسلة أعلام المسلمين ، رقم (٢١)، ط ١ ، ١٤٠٠/١٩٨٠م.

مصطفى السباعى :

- السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى، منشورات المكتب الاسلامى، بيروت ، دمشق ، ط ١٥ ، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م .

يحيى بن ابراهيم بن على اليحيى :

٢١ - مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى - عصر الخلافة الراشدة - دراسة نقدية ، منشورات دار العاصمة ، الـــرياض ، ط ١٠ ، ١٤١٠ هـ ٠

يوسف العش :

٢٢ - الدولة الأموية والأحداث التى سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنــة عثمان ، منشورات دار الفكر ، دمشق ط٢ ، ١٩٨٥ ٠



أضواء على العلاقات بين الامارة الصفارية والدولة العباسـية فى القرن الثالث الهجرى

د٠ عبد العزيز عبد الله السالم(*)

المقـــدمة :

يتناول هذا البحث دراسة لطبيعة العـــلاقات التى ربطت الامارة لصفارية بالدولة العباسية خلال القرن الثالث الهجرى ٠

أما عن امارة الصفارية فقد قامت فى اقليم أو ناحية سجستان التى صفها ياقوت بأنها « ناحية كبيرة وولاية واسعة » من نواحى المشرق عنوبى هراة « كلها رملة سبخة والرياح فيها لا تسكن أبدا » ٠

وكانت مقاطعة « سجستان » تعيش فى ظـــروف صـــعبة بسبب لاضطرابات السياسية والأمنية لأن بها « كثير من الخوارج ، يظهرون ذهبهم ولا يتحاشون منه » ، الأمر الذى جعل سيطرة الطاهريين تضعف مام حركاتهم ضد السلطات المحلية ٠ وفى تلك الظروف قامت الامارة صفارية (٢٥٤ ـ ٢٩٠هـ/٨٦٧ ـ ٩٠٣م) على انقاض الدولة الطاهرية٠ لك أنه ظهرت حركة متطوعة برئاسة صـــالح بن النضر الكنانى لاعادة لاستقرار السياسى والأمنى فى سجستان فانضم يعقوب بن الليث الصفار أخوه عمرو الى تلك الحركة وأخذ يعقوب رئاسة تلك الحركة بعد موت ن النضر الكنانى فاســتقل بولاية سجستان وبذلك ظهـــر على مسرح لاحداث ، لا سيما بعد أن استطاع أن يغزو خراسان ٠

وكان أن أدت الجهود والخدمات التى قدمها الصـــفاريون لولاية جستان الى تدعيم مكانة الامارة الصفارية ، لأنها جاءت فى وقت كانت

(*) أستاذ التاريخ الاسلامى المساعد ـ جامعة الملك عبد العزيز ٠

الخلافة العباسية تعانى من سيطرة الأتراك عليها، اضافة الى عجزها عن السيطرة على الثورات التى قام بها الخوارج فى سجستان .

ولم يلبث يعقوب بن الليث الصفار أن قام بمحاربة الأتراك الدرارى، وأفشل جميع مخططاتهم وحال دون تحقيق أطماعهم ، كما تمكن من نشر الاسلام فى تلك البقاع ، الأمر الذى جعل عددا من ملوك المناطق المجاورة يعترفون بسلطته بل ويعقدون معه معاهدات صداقة وتحالف . أما الخلافة العباسية فلم تعترض على هذه التطورات ، بل لقد رأت فى تلك الأعمال التى قام بها يعقوب بن الليث الصفار حماية للدولة العباسية. ذلك أن قيام ولاية أو امارة فى المشرق الاسلامى فى تلك الظروف العصيبة التى كانت تمر بها الدولة العباسية شكل درعا يقى الجناح الشرقى للخلافة من خطر الأتراك الذين اشتدت هجماتهم على بلاد الاسلام .

والواقع ان الامارة الصفارية كانت امارة عسكرية ، اذ أن الصفاريين فرضوا أنفسهم فى الحكم بقوة السلاح بل لقد أنكروا عدة مرات سلطة الخليفة . ولكنهم مع ذلك أحسوا بأنه من الضرورى لهم الحصول على تأييد الخليفة ليكسبوا سلطتهم صبغة شرعية . وقد اضطر الخليفة المعتز بالله (٢٥١ ـ ٢٥٥هـ) ثم المهتدى بالله (٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ) ثم المعتمد على الله (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ) ثم المعتضد بالله (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ) الى اقرارهم فى حكم ولاياتهم والاعتراف بسلطتهم ، وذلك دفعا لشرهم وحسما لمخالفتهم وحرصا على اتحاد وترابط دولة الاسلام واجتماع كلمة المسلمين ليكونوا يدا واحدة .

على ان علاقة الامارة الصفارية بالخلافة العباسية اتسمت بالشك وعدم الاطمئنان وانعدام ثقة كل طرف بالآخر . ويبدو أن شخصية يعقوب وأهدافه وخططه لم تتضح تماما للخلافة . ولما رأى يعقوب أن الخلافة تحاول دائما أبعاده عن فارس ، وانها لا تطمئن اليه ، وأنها تشك فى نواياه ، اعتبر آل طاهر أصحاب النفوذ فى خراسان وفارس مسئولين عن ذلك ، فقضى على نفوذهم فى سنة ٢٥٩هـ . لكن الخلافة اذاعت بين أهالى خراسان وجرجان والرى وطبرستان أن يعقوب خارج على سلطة الخلافة،

وعندئذ قرر يعقوب تحدى الخلافة العباسية عسكريا مما أجج الصدام بين الجانبين ٠

على أن يعقوب لم يلبث أن اتجه الى المجتمع فى « سجستان »، فأخذ يصلح أحواله حتى أشاع جوا من الاستقرار وأخذ يدعو الناس الى التمسك بالاسلام ، كما اتجه الى بلاد الترك المتاخمين لسجستان ودعاهم للاســـلام ٠

ويبدو أن نشأة يعقوب فى سجستان بين الخوارج كانت من العوامل القوية التى جعلته يتأثر ببعض أفكارهم السياسية ، ولـــكن المصـــادر التاريخية لم تبين مدى تأثر يعقوب بعقيدتهم ٠

والواقع ان معظم المصادر التاريخية المعاصرة التى سجلت احداث التاريخ العباسى فى عصر نفوذ الاتراك ابرزت جانبا كبيرا من النشاط السياسى والحربى للصفاريين ، فى حين أهملت الجوانب الحضارية التى قدمتها الامارة الصفارية ٠



وفى دراستنا لطبيعة العلاقات بين الامارة الصـــــفارية والدولة العباسية فى القرن الثالث الهجـــرى لا نستطيع أن نطلق على « الامارة الصفارية » لقب دولة مثلما ذكر بعض المؤرخين ، لأن الدولة عبارة عن مجموعة كبيرة من الناس تعيش على قطعة ثابتة من الأرض ، ويقوم على تنظيم هذه الجماعة وادارة شئونها فى الداخل والخارج فى السلم والحرب هيئة حاكمة وفق تنظيم سياسى معين(١) ٠

ومن هذا التعريف يبدو أنه لكى توجد الدولة يتعين أن تتوافر لها أركان ثلاثة : شعب ، وأرض ، وسلطة سياسية حاكمة ، فاذا توفر لأى مجتمع هذه العناصر الثلاثة فان هذا المجتمع يكون دولة ٠ وبعبـارة أخرى فان الدولة عبارة عن مجموعة من الناس تعيش حياة مستقرة دائمة على أرض ذات معالم وحدود واضحة معـــلومة ، فى حين أن السلطة السياسية الحاكمة تمثل القيادة العليا المســـتقلة فى تصريفها وادارتها

وعلاقاتها • واذا لم تتوفر للمجتمع هذه العناصر فانه لا يصح فى عــرف القانون الدولى أن نطلق عليه « دولة » •

وبالنسبة للامارة الصفارية فانها لم تضم شعبا مستقرا داخل حدود ثابتة ، وانما هى جموع قلقة فى عـــالم مضطرب ، فى حين اعتمـــد الصفاريون على القوة العسكرية فى حكم ما وقع تحت أيديهم من بلدان الخلافة العباسية • وبعبارة أخرى فان الصفارين لم يحكموا أرضا ذات معالم وحدود واضحة باستثناء ـ سجستان ـ وانما حـــكموا عدة أقاليم متداخلة ، حتى تقلص نفوذهم وانزوى فى جزء من سجستان •

وقد قامت الامارة الصفارية فى ولاية سجســـتان فى الوقت الذى ساءت الاوضاع الأمنية فى سامراء وبغداد بسبب الحـــرب الاهلية بين المستعين والمعتز • ومن ناحية أخرى كانت الأوضاع الامنية فى ولاية سجستان مضطربة منذ سنة ٢٤٣هـ بسبب فســـاد الخوارج فيها • اما مقاطعة «سجستان» فكانت تابعة لآل طاهر فى خراسان ، ولكن حكمهم كان مضطربا غير مستقر ، مما جعـــل سجستان فى ذلك الدور مأوى للصوص وقطاع الطرق(٢) وكثيرا ما أنضـــم هؤلاء الى الخوارج فى ثوراتهم ضد الحكم المحلى ، الأمر الذى جعل سيطرة الطاهريين عليها تضعف امام نفوذ الخوارج •

على أن أهل سجستان اتصفوا بعدة صفات كشدة الشكيمة وعـــزة النفس ومواساة الضعيف والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر(٣) • فلما رأوا ان الطاهريين عاجزون عن اقرار الأمن والنظام فى ولايتهم ، قرروا تكوين فرق عسكرية متطوعة ، تكون مهمتها الأولى اقـــرار الامن فى ولايتهم • وقد تزعم هذه الحركة رجل من قريش يعرف باسم : صالح بن النضر الكنانى(٤) • وكان ان انضم الى حـــركة المتطـــوعة كثير من المغامرين الذين نظروا اليها على أنها خير وسيلة للوصول الى مراكـــز اجتماعية وسياسية مرموقة ، فضلا عن تحقيق مكاسب مادية • ومن أبرز هؤلاء المغامرين يعقوب من الليث الصفار وأخوه عمرو • وكان يعقوب يمارس احدى الصناعات المحلية فى بلدته «قرنين» احدى مدن سجستان • ويبدو أنه اشتغل بالنحاس وغيره من المعادن الصفراء ، ومن مهنته هذه اشتق

لقبه . وكان يتقاضى من عمله خمسة عشر درهما فى الشهر ، الأمر الذى جعله شارد الذهن كثير التفكير والتأمل(٥) لأن مهنته هذه كانت لايمكن أن تحقق له مركزا اجتماعيا ذا قيمـــة فى مجتمعه ، كما أنها لا تحقق طموحه وآماله العريضة . لذلك هجر مهنته(٦) وانضم هو وأخوته الى حاله كثير بن رفاق الذى تجمع حوله عدد من وجوه الخوارج ، فقاد ثورة ضد السلطة المحلية المتمثلة فى عمال آل طاهر ؛ ولكن هؤلاء قضوا على الثورة فى مهدها وتمكن آل الليث بزعامة أخوهم الاكبر يعقوب من الفرار الى بست احدى مدن سجستان الهامة(٧) .

وفى «بست» رأى يعقوب أن أفضل وسيلة للحصول على السلاح والخيل والمال هى قطع الطرق ، لأن الظروف التى كانت تعيشها سجستان فى تلك الفترة اتاحت لمن يمتلك تلك الأدوات أن يكون لنفســـه مركزا اجتماعيا وسياسيا مرموقا . لذلك جمع حوله عددا من المغامرين وكون منهم عصابة لقطع الطريق ونشط هو وأصحابه فى ذلك ، حتى أصبحت الطرق التى تربط كرمان بسجستان ، وفارس بسجستان ، غير مأمونة . ولما وصل اليهم خبر قـــدوم قافلة تجارية كبيرة من البصرة والأهواز فى طريقها الى اصفهان ، خـرج اليها يعقوب ورجاله وترصـدوا لهـــا وهاجموها ، واستولوا على الخيل والسلاح . وبهذه الطريقة حصـــل يعقوب على ما يحتاج اليه من المال والســـلاح لاستخدامه فى نشاطاته البعيدة المدى(٨) . ولم يلبث أن رجع يعقوب وأصحابه الى سجستان ، ومعهم اعداد كثيرة من الخيل والسلاح ، فاستقبلهم صـــالح بن النضر الكنانى(٩) ودعاهم للاشتراك معه فى المحافظة على الأمن والاستقرار فى ولايتهم ومطاردة الخوارج وغيرهم . وكان أن أظهر يعقوب بطولات نادرة فى مطاردة الخوارج ، والقضاء على كثير من زعمائهم المتطرفين، وبذلك استطاعت حركة المتطـــوعة بزعامة الكنانى ومســـاعدة يعقوب الصفار ان توفر الأمن والاستقرار فى ولاية سجستان . وبعد ذلك كانت الخطوة التالية وهى أن هذه الجماعة أرادت أن تتوج انتصاراتها على الخوارج بالحصول على مكاسب سياسية ، فأعلن قائدها الخروج على طاعة بنى طاهر والتغلب على ولاية سجستان . ولكن طاهر بن عبد الله استطاع أن يقضى على حركة الكنانى سنة ٢٣٧(١٠) .

وفى سنة ٢٤٣هـ تزعم درهم بن الحسين حـــركة المتطوعة حينما عبث الخوارج بأمن واستقرار سجستان ٠ وكان يعقوب هو الموجه لهذه الحركة لما تمتع به من شخصية قوية ومهارات قتالية ، ولما بذله من جهود كثيرة فى مطاردة الخوارج الذين رفضوا التعاون مع الحركة ٠ وبعد أن ساد الأمن والاستقرار ولاية سجستان أعلنت الحركة زعامتها للبلاد ، ولكن أمير خراسان طاهر بن عبد الله استطاع أن يعمل الحيلة فى أبعاد درهم بن الحسين الى بغداد وتم ذلك حوالى سنة ٢٤٧هـ(١١) ٠ وبذلك خلا الجو ليعقوب الصفار ، اذ أصبح قائدا عاما للحركة دون منافس ٠ وعندما توفى طاهر بن عبد الله سنة ٢٤٨هـ استطاع يعقـــوب أن يستقل بولاية سجستان فى الوقت الذى كان الوضع فى خراسان مضطربا بسبب حداثة سن محمد بن طاهر (٢٤٨هـ - ٢٥٩هـ) الذى أسندت اليه ولاية خراسان٠ هذا فضلا عن ضعف شخصيته وعدم مقدرته القيادية والادارية فقرر يعقوب سنة ٢٥٣هـ ان يغزو هران وبوشنج ٠ وبعد معركة حربية جرت بينه وبين محمد بن أوس الانبارى عامل محمد بن طاهر استطاع يعقوب ضمهما اليه ، وقبض على عدد من بنى طاهر فى بوشنج فعظم أمره ، وهابه أمير خراسان وغيره من الحكام(١٢) ٠

ولم تلبث أن استقرت الأحوال الأمنية والسياسية فى ولاية سجستان بفضل الجهود التى قام بها يعقوب بن الليث الصفار الذى رأى أنه أحق بولاية سجستان من الطاهريين الذين بدت عليهم امارات الضعف والعجز٠ وكان أن أعلن نفسه حاكما عاما على ولاية سجستان دون أن يستند فى ذلك الى تقليد شرعى من الخليفة العباسى(١٣) صاحب السلطةالشرعية٠ وكانت الخلافة العباسية فى تلك الفترة تمر بظروف لا تمكنها من اقرار الوضع فى سجستان ، فتركت ليعقوب مهمة اقرار الأمن والنظام فيها ٠



وفى الوقت الذى كانت الحكومة العباسية عاجزة عن اقرار الأمن والنظام فى عاصمتها والمدن المجاورة لها ، والذى كانت فيه الادارة الطاهرية فى خراسان تعانى الانحـــلال والضعف ، أخـــذ الخوارج يرفعون راية الثورة والعصـــيان فى ســـجستان ، مما شـــجع رتبيل

سجستان(١٤) ، وغيره من ملوك وامراء الترك الدرارى الذين كانت نربطهم بالدول الاسلامية عقود ومعاهدات ، على ان يعلنوا خروجهم وتمردهم على السيادة العربية الاسلامية ، ويمتنعوا عن دفع الخراج(١٥) ، بل انهم أخذوا يتهيئون لضرب الوجود الاسلامى فى سجستان ، واستعادة نفوذهم عليها ... وفى تلك الظروف وفى ذلك الدور ظهرت قوة الصفاريين على المسرح فى ولاية سجستان ليفسدوا مخططات الترك مما حال دون تحقيق أطماعهم . ذلك أن يعقوب بن الليث الصفار ما كاد ينجح فى تهدئة الأوضاع الداخلية فى سجستان ويقضى على شوكة الخوارج فيها حتى أخذ يستعد لاعداد جيش قوى لملاقاة رتبيل سجستان وغيره من ملوك وامراء الترك الدرارى بعد أن اتضح أن خطر أولئك الترك على أمن واستقرار الولاية صار أشد وأقوى من خطر الخوارج عليها . وكان أن قاد يعقوب حملة عسكرية لدفع خطر الترك على أراضى الدولة الاسلامية فى سجستان ، حتى تمكن من قتل رتبيل سجستان وثلاثة من ملوك الترك ، كما استطاع أن يصل الى كابل ويفتح غزنة ، وأن ينشر الاسلام فى تلك البقاع ، مما جعل عددا من ملوك البلاد المجاورة يعترفون بسلطته(١٦) ، ويعقدون معه معاهدة سلام ، ومن هؤلاء ملك « المولتان » وملك « الرخج » وملك زابلستان ، وملك « السند ومكران »(١٧) . كما أرسل اليه ملك الهند وفدا تفاوض مع يعقوب(١٨) على جسر بسط .



أما عن علاقة الصفاريين بالخلافة العباسية فى ذلك الدور ، فقد تاثرت بعدة مؤشرات أسهمت اسهاما كبيرا فى تكييف تلك العلاقة وتوجيهها ، ومن أهمها :

١ ـ الشك والحذر وعدم ثقة كل منهما بالآخر .

٢ ـ الاصلاح الدينى والاجتماعى .

٣ ـ الفكر السياسى للخوارج وأثره فى توجيه حركة الصفاريين.

٤ ـ الطبيعة العسكرية للامارة الصفارية وأثرها فى نشاط الصفاريين .

يضاف الى هذه المؤثرات عوامل أخرى مساعدة كفقدان الأمن واضطراب الأحوال السياسية فى ولايات المشرق (١٩) ، وعجز الطاهريين عن اقرار الأمن والنظام فى ولاياتهم ، وضعف سلطة الخلافة العباسية، مما كان له أثر بارز فى رسم الخطوط العريضة للروابط والصلات التى كيفت علاقة الامارة الصفارية بدولة الخلافة العباسية . فعندما تتفق مصالحهما تتوافق العلاقات بينهما ،ولكن دون أن تصل الى درجة ثقة كل واحد منهما فى الطرف الآخر . وحين تتعارض مصالحهما تنفصم عرى الروابط والصلات بينهما ، وتسوء علاقة كل منهما بالآخر وتتصف بالتوتر والاضطراب .

أما بالنسبة للعامل الأول فيما يتعلق بتكييف العلاقات بين الصفاريين والخلافة العباسية فنجد ان يعقوب بن الليث أخذ يوجه نشاطه بتحريض من أهل سجستان الى بلاد الترك الدرارى المتاخمين لولاية سجستان، لأن خطرهم على سجستان كان كبيرا (٢٠) . ولكن يعقوب قاتل ملوك تلك البلاد حتى وصل الى غزنه وكابل ، ثم عاد الى سجستان وقد حمل معه بعض رؤوس الترك ، فزدات هيبته ، بعد أن غنم من بلاد الترك غنائم كثيرة (٢١) .وقد نظرت الخلافة العباسية الى هذه الأعمال بارتياح، ولذلك لم تعترض على أعماله . هذا بينما كان يعقوب يظهر التمسك بطاعة الخليفة المستعين بالله ، فلما تولى المعتز بالله الخلافة سنة ٢٥٢هـ ، كتب الى يعقوب بولاية سجستان (٢٢) . على أن علاقة الدولة العباسية لم تتوثق تماما بيعقوب لأن شخصيته وأهدافه وخططه لم تتضح للخلافة . وفى سنة ٢٥٣ هـ رأى يعقوب أن الأوضاع فى ولاية هرات وأعمالها قد ساءت واضطرب الأمن فيها ،فقرر ضمها اليه وقبض على عدد من الطاهريين . ولكن الخلافة العباسية تحركت عندئذ لأن يعقوب تعرض لأحد حلفائها المخلصين - محمد بن طاهر - فأرسل الخليفة المعتز بالله الى يعقوب رسولا يحمل كتابا منه اليه يحذره من التعرض لعمل الطاهريين فى خراسان ويطلب منه فك أسرى الطاهريين . وفى سنة ٢٥٤هـ أرسل يعقوب الى الخليفة المعتز بالله يطلب ولاية كرمان،ويذكر عجز الطاهريين وعدم قدرتهم على ادارتها واستيفاء خراجها ، وتحقيق الأمن والاستقرار لأهلها . وأعلن يعقوب ولاءه وطاعته للخليفة فأجابه

الى طلبه ، وقلده ولاية كرمان . وكان المعتز بالله يعلم ان يعقوب يظهر له طاعة لا حقيقة لها(٢٣) ، الا أن الظروف التى كانت تعيشها الخلافة فى العاصمة ، والظروف التى أحاطت بولايتى فارس وكرمان عندئذ . دفعت الخليفة الى تقنيد يعقوب ولاية كرمان . ولم يكن ذلك ناتجا عن ثقة الخليفة فى يعقوب وفى ولاته اخلاصه للخلافة ، فاراد يعقـــوب أن يتقرب الى الخلافة لعله يزيل شكها فيه وعدم ثقتها به . لذلك اخذ يدعو للخليفة العباسى عندما استولى علىفارس ويتقرب منه.وحينما طلب منه على بن الحسين ابراز كتاب الخليفة اليه بولاية فارس رد عليه يعقوب قائلا : « فان البلد لأمير المؤمنين ، ونحن عبيده نتصرف بأمره فى أرضه وسلطانه وفى طاعة الله وطاعته »(٢٤) ، ثم أرسل الى الخليفة المعتز بالله هدية ثمينة(٢٥) وكتب اليه يعلن طاعته . ومع كل ذلك لم يكن الخليفة مطمئنا تماما الى عمل يعقوب وتصرفاته ، فحينما غادر يعقوب فارس أرسل الخليفة اليها عمالا(٢٦) . وفى سنة ٢٥٧هـ استولى يعقوب على فارس مرة اخرى . وفى هذه المرة أراد أن يتحدى سلطة الخلافة ، ولكن الخليفة العباسى الموفق بالله اتجه نحو تسوية الموقف بين الصفاريين والخلافة ، فأسند اليه بعض أعمال الولايات التى كان معظمها تحت يده كبلخ وطخارستان والسند وسجستان ، ليبعده عن فارس . ولما رأى يعقوب أن الخلافة تحاول دائما أبعـــاده عن فارس ، وأنها لا تطمئن اليه ، وأستمرت تشك فى نواياه وخططه ولا تثق فى ولائه وطاعته،أعتقد أنالسبب فى ذلك هم آل طاهر أصحاب النفوذ فى خراسان وبغـــداد وفارس ، فاراد أن يصفى حسابه مع آل طاهر لعله يحظى بثقة الخلافة . وكان أن استولى على خراسان ، وقضى على نفوذ الطاهريين بها فى سنة ٢٥٨هـ، ولكن الخلافة ماكانت لتستبدل الطاهريين بالصفاريين،فازداد شكها فى الصفاريين وأصدرت أمرها الى عاملها على بغداد بأن يجمع حجاج خراسان وجرجان وطبرستان والرى ويعلمهم بأن الخليفة لم يول يعقوبا ايا من تلكالولايات ، وانه من المخالفين الخارجين على سلطة الخلافة . فلما أيقنيعقوب أن الخلافة لم تغير موقفها منه وان ثقتها فيه انهارت قرر أن يلتحم معها عسكريا(٢٧) ، وتم ذلك فى دير العاقول ٢٦٢هـ . وكان هذا اللقاء العسكرى بين يعقوب وقوات الخلافة العباسية يمثل قمة الشك وعدم ثقة كل طرف فى الآخر .

وعلى الرغم من أن عمرو بن الليث الذى خلف أخاه على الامارة كان أكثر مرونة وتعاونا وتقربا الى الخلافة،الا أن الخلافة العباسية كانت تسند اليه ولاية الاعمال وترسل اليه التقاليد مداراة له ودفعا لخطره ، لا ثقة فى ولائه وطاعته لبنى العباس ٠ وكانت الخلافة تتحين الفرص للقضاء على عمرو ونفوذه ، حتى أتيحت الفرصة للمعتضد بالله سـنة ٢٨٧هـ فاستعان بالسامانيين فى تنفيذ سياسته ٠

وقد أعلن يعقوب عـدم ثقته وكرهه للعباسيين حيث قال : « ان العباسيين قد ثبتوا حكمهم على الحيلة والخديعة٠ألم تشاهد ما عملوه مع أبى سلمة وأبى مسلم وعائلة البرامكة على الرغم من كل ما قدمه هؤلاء الرجال للدولة العباسية ، فلا تدع أحدا يثق فيهم أبدا »(٢٨) ٠

وقد أدخل الصفاريون تقليدا جديدا على علاقة الامراء المستقلين بالخلافة العباسية،فاحتفظوا لأنفسهم بما جمعوه من خراج مناطقهم ، ولم يرسلوا منه شيئا الى بيت المال ببغداد ، واقتصروا على ارسال الهدايا٠ وكان يعقوب أول من أدخل اسمه فى الخطبة بعد اسم الخليفة ، هذا فى حين كان عمرو أول من نقش اسمه على الدنانير ٠ كذلك كان الصفاريون أول من هاجم سلطة العباسـيين فى فارس ، وحاولوا انقاص سلطتهم الدنيوية الى أدنى حد(٢٩) ٠

أما عن العامل الثانى الذين أثر فى تكييف العلاقة بين الصفاريين والعباسيين، فأنه من الملاحظ أن يعقوببناللیث الصفار تأثر فى اصلاحاته الدينية والاجتماعية بفلسفة حركة المتطوعة ، فانضم الى حركة المتطوعة وأصبح أحد أعضائها النشيطين،حتى استطاع بقوة شخصيته(٣٠) وتأثيره وحسن معاملته لاتباعه وأصحابه أن يتزعم الحركة(٣١) ٠.ذلك أنه أخذ يتقرب الى أفرادها حتى اسـتحوذ على قلوبهم فأطاعـوه طاعـة مطلقة(٣٢) ٠ فلما قضى على كثير من زعماء الخوارج المتطرفين الذين رفضوا التعاون معه ، وأقر الأمن والنظام فى سجستان ، اتجه الى المجتمع فى سجستان فأخذ يصلح أحواله ويقضى على المفاسد فيه ٠ وكان يأخـذ بعضا من أموال الأغنياء فيوزعها على الفقراء والضعفاء ، وأظهر الأمر

بالمعروف والنهى عن المنكر ، فازدادت محبة الناس له(٣٣) . وقد أظهر يعقوب لأصحابه وخاصة العلماء منهم أن الخليفة قد ولاه سجستان وأمره بقتال الخوارج ، لئلا يظهر فى نظرهم بمظهر العاصى الخارج على سلطة الخلافة . وبعد أن استقر الوضع فى سجستان وصلحت أحوال المجتمع فيها اتجه الى بلاد الترك المتاخمين لسجستان فأخذ يدعوهم للاسلام ليظهر أمام اتباعه واعدائه على حد سواء بمظهر المجاهد فى سبيل الله . وبعد أن رجع الى سجستان قصد بعض املاك الطاهريين فى هرات وبوشنج فضمهما اليه مظهرا أن الدافع من وراء ذلك هو عجز الطاهريين عن تحقيق الأمن والاستقرار للأهالى . ثم اتجه الى املاك الطاهريين فى كرمان واملاك الدولة العباسية فى فارس متخذا من عجز الطاهريين وفساد الادارة وفقدان الأمن وفساد الأكراد فى كرمان حجة لبسط نفوذه(٣٤) . وكانت الخلافة العباسية حتى نهاية عصر المهتدى بالله (٢٥٦هـ) لا ترى فى حركة يعقوب النى أظهرها بمظهر الاصلاح الاجتماعى والدينى خطرا يهدد أمنها واستقرارها ، بل لقد رأت فيها محاولة لتوطيد الأمن فى فارس وكرمان . ولكن سياسة الخلافة العباسية تجاه يعقوب تغيرت حينما تقلد الخلافة المعتمد على الله ٢٥٦هـ - ٢٧٩هـ اد أصدر المعتمد الى محمد بن طاهر منشورا بولاية خراسان وسجستان ، وبهذا لم يعترف المعتمدبولاية يعقوب على سجستان(٣٥) .

أما العامل الثالث فى تكييف علاقة الصفاريين بالخلافة العباسية ، فهو الفكر السياسى للخوارج وأثره فى توجيه حركة الصفاريين ذلك أن يعقوب لم يكن ذا عقيدة خاصة كما صوره بعض المؤرخين ، وانما كان رجلا عاديا أظهر الدفاع عن الاسلام ، ولكنه كان ذا طموح سياسى دفعه الى أن يتعاون مع الخوارج ليستقوى بهم على الخلافة(٣٦) وكانت نشأته فى سجستان بين الخوارج من العوامل القوية التى جعلته يتأثر ببعض أفكارهم السياسية ، كما جعلته يتقرب الى الخوارج ويستميلهم ، وخاصة الذين أظهروا المرونة وقبلوا التعاون معه . ومن المعروف أن الخوارج كانوا يتمتعون بكفاءة عسكرية ممتازة(٣٧) .

وعلى الرغم من أن يعقوب الصفار تعاون مع الخوارج واستفاد من

حركتهم الا أن المصادر التاريخية التى بين أيدينا لم تبين مـــدى تأثر يعقوب بعقيدة الخوارج ومذهبهم . ويبدو ان المصـــادر التاريخية التى نعتت يعقوب بأنه خارجى(٣٨) قصدت من اللفظ معناه السياسى ، ولم تقصد معناه المذهبى والفكرى . ذلك أن يعقوب عاش حياة فيها نوع من الزهـــد والتقشف ، وكان لا يكشـــف لأصـــحابه عن آرائه وافكاره وأسراره(٣٩) . على أن نشأة يعقوب الصفار فى بيئة سجستان التى كان للخوارج فيها صولة وجولة ، وكانوا فيها من الكثرة والقوة مما جعلهم يتفاخرون بمذهبهم عند البيع والشراء(٤٠) ، كل ذلك جعـــل يعقوب يتاثر بفكرهم السياسى.وكان لهذا التأثر أثره فى علاقته مع دولة الخلا العباسية ، الأمر الذى يتضح لنا فى ثلاثة مواقف :

الموقف الأول : كان سنة ٢٥٤هـ حينما اتجه يعقوب بجيشـــه الى فارس ليستولى عليها ويضمها الى ولايته ، فلما طلب منه على بن الحسين بن قريش والى فارس ـ فى عهد الخليفة المعتز بالله ـ ان كان معه عهد من الخليفة أن يبرزه له ، رد عليه يعقوب بأن معـــه عهدا من الخليفة لا يستطيع أن يبرزه الا بعد أن يدخل البلد . فلما قبض يعقـــوب على على بن الحسين ودخل شيراز أخرج سيفا وقال : هذا عهدى(٤١) .

وكان الموقف الثانى : حينما دخل يعقوب الصفار نيسابور فى شوال من عام ٢٥٩هـ وقبض على محمد بن طاهر ، أخذ علماء ووجهاء وأعيان المدينة يتناجون فيما بينهم وكل يسأل صاحبه : أمعه عهـــد وتقليد من الخليفة ؟ فلما علم بما يتهامسون به أمر جنوده بأن يطوفوا فى المدينة يدعون الناس وخاصة العلماء وأعيان نيسابور حتى يعرض عليهم منشور الخليفة ، فلما اجتمعوا عنده التفت يعقوب الى حاجبه وقال له : « احضر منشور أمير المؤمنين حتى اقرأه عليهم ، فوضع الحاجب أمامه ســـيفا براقا فقال يعقوب : هذا هو منشور الخليفة . ان هذا السيف هو الذى اعطانى خراسان » وبذلك فأنا والخليفة سيان فى الحجة(٤٢) .

وأما الموقف الثالث : فكان حينما انهزم يعقوب بن الليث الصفار أمام جيش الخلافة العباسية بقيادة المعتمد على الله سنة ٢٦٢هـ ، اذ اتجه

الى جند يسابور وأقام هناك يعالج جراحه . وفى تلك الأثناء أراد الموفق بالله أن يستغل هزيمة يعقوب لكى يتفرغ لحرب الزنج ، فأرسل اليه رسولا يحمل تقليدا ليعقوب بعمل بعض الولايات البعيدة عن العراق . فلما وصل رسول الخليفة الى جند يسابور سنة ٢٦٥هـ كان يعقوب على فراش الموت وبجانبه سيفه فقال يعقوب لرسول الخليفة : قل للخليفة أننى عليل فان مت فقد استرحت منك واسترحت منى ، وان عوفيت فليس بينى وبينك الا هذا السيف(٤٣) .

وجملة القول انه كان لبيئة سجستان التى عاش فيها آل الصفار ، ولتعاونهم مع الخوارج وتعاون الخوارج معهم دور كبير فى تاثر يعقوب بالفكر السياسى للخوارج،مما أدى الى توتر العلاقة بين الامارة الصفارية ودولة الخلافة العباسية ، وجعل تلك الامارة تحتكم فى كثير من المواقف الى السيف والقوة، مثلما كان يفعل الخوارج حينما يصطدمون عسكريا بالخلافة العباسية .

أما العامل الرابع فهو الطبيعة العسكرية للامارة الصفارية : ذلك أن الامارة الصفارية فى سجستان وصفت بأنها كانت امارة عسكرية ، وكان يعقوب وأخوه عمرو جنديين عبقريين(٤٤) يتمتعان بكثير من الصفات القيادية والعسكرية ، كما كان ليعقوب منهج خاص فى تنظيم جيشه وتزويده بالعناصر الجديدة واعداده وتهيئته للقتال(٤٥) .

وكان معظم جند جيش يعقوب من أهالى سجستان وهى منطقة سهلية رملية تقل فيها الجبال وذات مناخ حار(٤٦) ، مما جعل يعقوب لا يحقق مكاسب استراتيجية ثابتة فى منطقة الترك الدرارى ذات الجبال الوعرة والمناخ البارد الذى لم يألفه رجال جيشه الذين اعتادوا الهواء الحار وخفة الحركة وقلة المؤنة(٤٧) . لذلك نلاحظ ان الامارة الصفارية اتجهت فى توسعها الى المنطقة الجنوبية لسجستان وهى فارس وكرمان والى المنطقة الغربية لها وهى خراسان(٤٨) ، مما جعلها فى صراع مستمر مع الخلافة العباسية . وكان لذلك أثره القوى فى توتر العلاقة مع العباسيين .

ومن ناحية أخرى فقد كان يعقوب وعمرو يريان دائما ان قوتهما

رجع لسبب عسكرى بحت ، لا لأية اعتبارات أخرى ٠ وهذا يؤكد سيطرة الروح العسكرية على الامارة الصفارية، مماجعل علاقتها بالخلافة العباسية علاقة متذبذبة مضطربة لا تستقر على قرار ٠ وعلى كل حال فان شهرة يعقوب وأخيه عمرو تعود الى شجاعتهما ومقدرتهما السياسية والعسكرية، لا الى ثقافتهما ودعمهما وتشجيعهما للحـــركة العلميـــة والأدبية فى سجستان ٠ أما الذين كتبوا عن الامارة الصفارية فكانوا غالبـــا من الفرس(٤٩) الذين اندفعوا وراء العاطفة فجعلوا يعقوب وأخاه بطلين قوميين بعثا مجد فارس القديم ، فنسبوا اليهما أمورا كثيرة تتعلق بالعناية بامجاد فارس وتاريخها وتراثها وأدبها ٠ وهناك طائفة أخرى تحدثت عن الصفاريين من خلال نشاطهم السياسى ومعاركهم العســكرية دون أن تتعرض لما خلفوه من تراث حضارى فلم تذكر جانبا من نشاطهم العلمى ، أو طرفا من دورهم فى ازدهار المشرق وحضارته ٠ ولعل السبب فى اغفال المصادر التاريخية للجوانب العلمية والأدبية التى أسهم فيها الصفاريون ابان امارتهم على سجستان وغيرها من ولايات المشرق ، يعود الى توتر علاقة الصفاريين بالحكومة العباسية، والتى اتخذت طابع المواجهة الحربية بينهما حين اعلن يعقوب الحرب ضد الخليفة المعتمد على الله ، وأعلن أخوه عمرو الذى أعقبه على الامارة عدة مرات تمرده وعصـــيانه على الخليفتين المعتمد على الله والمعتضد بالله ، مما جعل المصادر التاريخية التى سجلت أحداث التاريخ العباسى فى عصر نفوذ الأتراك تبرز جانبا كبيرا من النشاط السياسى والمعارك الحربية للصفاريين، دون ذكر الجوانب الحضارية التى أسهموا فيها والتى سارت جنبا الى جنب مع نشاطهم السياسى(٥٠) ٠ وهكذا صار من الصـــعب ابراز دور الامارة الصفارية احدى الامارات الاسلامية التى حكمت المشرق فى العصر العباسى فى تقدم ولاية المشرق وازدهارها الحضارى فى القرنين الثالث والرابع للهجرة ، بسبب اغفال المصادر التاريخية نشاط الصفاريين الثقافى ومساهمتهم فى حضارة المشرق ، وبسبب حماس واندفاع المؤلفين الفرس الذين نظـــروا الى الامارة الصفارية نظرة قومية عاطفية فقالوا : ان نهضة امارة المشرق الأدبية خاصة فى القرن الثالث الهجرى تدين لهم وخاصـــة فيما يتعلق بالعناية باللغة الفارسية وآدابها ٠

وللحقيقة والتاريخ نقول ان الحركة العلميـــة والأدبية فى ولاية سجستان ، وخاصة فى مدينتى «زرنج» و «بست» شهدت ازدهارا ونشاطا ملحوظا فى الفترة التى تعاقب فيها على الامارة الصفارية يعقوب بن الليث وأخوه عمرو ، وذلك لاستتباب الأمن واستقرار الأوضاع فيهـا ؛ وللرخاء الاقتصادى الذى عاشته الولاية فى عهديهما ، فقـــد تخرج من « بست» فى تلك الفترة علماء كثيرون فى الفقه والتفسير والأدب واللغة منهم الخطابى أبو سليمان أحمد بن محمد البستى صاحب معالم السنن وغريب الحديث(٥١) .

ولكن على الرغم مما شهدته ولاية سجستان فى عصرى يعقوب وعمرو من نشاط فى الحركة العلمية والأدبية الا أن المصادر التاريخية ، وكتب الأدب لم تسجل لنا صورة أو حدثا تاريخيا يمكن الاستفادة منه فى بيان دور آل الصفار فى دعم وتشجيع الحركة العلمية فى سجستان وخراسان. اللهم الا ما يذكره المسعودى عن احسان يعقوب ، وبره لاتباعه وجنده دون تمييز ، وما يذكره أيضا عن طـــريقته ومنهجه فى استقبال الوفـــود والرؤساء(٥٢) . كذلك يذكر ابن خلكان أن عمرا انتهج سياسة ونظما ادارية فى حكمه لخراسان تعد فريدة فى ذاتها(٥٣) . والامارة الصفارية ـ كما ذكرنا ـ وان كانت السمة العامة لها أنها امارة عسكرية فى خططها وثقافتها ، الا أن الباحث المتحرى للحقيقة لا يستطيع أن ينكر أن يعقوب وأخاه عمرو بذلا جهودا وأعمالا أسهمت فى الازدهار الحضارى لولاية المشـرق .

وكانت عناية الصفاريين بالآداب الفارسية على ما يبدو أكثر من عناية الطاهريين ، لأنـــه لم يكن لطاهـــر وبنيه دراية تامة باللغـــة الفارسية(٥٤) ، بينما ولد يعقوب وأخوه عمرو فى ولاية سجستان ، أى مركز انتشار اللغة الفارسية . ويذكر باريزى : ان يعقوب لم يكن له علم باللغة العربية . وينبغى أن ندرك أن رأى باريزى وغـــيره من المؤلفين الفرس القائل بأن اللغة العربية لم تنتشر فى سجستان فى ذلك الوقت أمر مجاف للحقيقة ، فقد انتشرت اللغة العربية فى مدن سجستان الهامة مثل «بست» و «زرنج» وتخرج فى بست عدد من علماء اللغة العربية ،

ولا أدل على انتشار اللغة العربية فى زرنج قاعدة الولاية من كون خطبة الجمعة بها كانت باللغة العربية - وصفوة القول أنه يمكن ابراز مجهود الامارة الصفارية ودورها فى حضارة المشرق فى عدة جوانب تشمل النقاط التـالية :

(أ) اقرار الأمن والنظام فى سجستان ، وبذلك توافر للحـــركة العلمية جو علمى بعيد عن الفوضى والاضطراب .

(ب) العناية بالمنشآت العمرانية وخاصة بناء المساجد واقامة بعض المبانى للادارات والأجهزة الحكومية فى نيسابور واقامة بعض الأسواق فى زرنج(٥٥) .

(جـ) الاهتمام بالصحة العامة والرعاية الصحية وتشجيع الحركة الطبية فى سجستان . ويتضح ذلك من أن عمرو بن الليث أوقف جزءا من دخل السوق الذى بناه فى زرنج ليصرف على البيمارستانات(٥٦) فيها وبذلك صار للبيمارستانات دخل منتظم ساعدها على أداء رسالتها وعلى نشر الوعى الصحى بين الناس .

الهـــــوامش

(١) د٠ محمد عبد القادر أبو فارس : النظام السياسى فى الاسلام ، ص١٣١٠
د٠ فتحى عبد الكريم : الدولة والسيادة فى الفقه الاسلامى ، ص ١٥١ ٠

(٢) يراجع فى ذلك ابن منظور : لسان العرب ، وكذلك حاشية جيش الصفاريين بقلم : قحطان عبد الستار الحديثى ، ص ٢٣٨ ٠

(٣) القزوينى : اثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٠٢ ٠

(٤) سى ٠ أى ٠ بوزورث : جيش الصفاريين ترجمة : د٠ عبد الجبار ناجى ، ص ١٩٦ ٠

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٦ ص ٤٣٠ ٠

(٦) الحموى : معجم البلدان ج٤ ص ٣٣٣ ٠

(٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٦ ص ٤٠٢ ٠
والحديثى : وفيات الاعيان ج٦ ، ص ٤٠٢ ٠

(٨) ف٠بارتولد : تاريخ الدولة الصفارية ٠
ترجمة : د٠ منذر البكر : مقالة فى مجلة المربد كلية الآداب جامعة البصرة - السنة الثانية ٠

(٩) يراجع فى ذلك ٠ سيى٠اى٠بوزوت : جيش الصفاريين ٠
ترجمة : د٠ عبد الجبار ناجى ، ص/ط ٠

(١٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٥ ، ص ٢٩١ ٠
وابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٦ ، ص ٤١٦ ٠

(١١) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٤٢ ٠

(١٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج٥ ، ص ٣٣٨ ٠

(١٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٥ ، ص٢٩١ ٠

(١٤) السمعانى : الانساب ، ج٧ ، ص ١٣ ٠

(١٥) الشلقانى : الرواية فيما وراء العراق ، ص ٢٥ ٠

(١٦) بارتولد : تركستان ، ص ٣١٩ ٠

(١٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٦ ، ص ٤٠٤ ٠

(١٨) المسعودى : مروج الذهب ، ج٤ ، ص ٢٠٠ ٠

(١٩) ابن حوقل : صورة الارض ، ص ٢٧٠ ٠

(٢٠) النرشخى : تاريخ بخارى ، ص ١٠٨ ٠

(٢١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٦ ، ص ٤٠٣ ٠

(٢٢) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٣ ، ص ٢٩٤ ٠

(٢٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج١١ ، ص ١٥٩ ٠

(١٤) ابن خلكان : ج٦ ، ص ٤٠٨ ٠

(٢٥) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج٥ ، ص ٣٤١ ٠

(٢٦) باستانى باريزى : يعقوب بن الليث الصفار ، ص ١٤٨ ٠

(٢٧) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج٥ ، ص ٣٦٣ ٠

(٢٨) سى٠ى٠بوزورث : جيش الصفاريين ، ص ١٩٠ ٠

(٢٩) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٠٢ ٠

(٣٠) ابن الاثير : الكامل ، ج٥ ، ص ٣٣٨ ٠

(٣١) نفس المرجع ٠

(٣٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٦ ، ص ٤٠٣ ٠

(٣٣) حمزة الاصفهانى : تاريخ سنى ملوك الارض ، ص ١٧٠ ٠

(٢٤) ابن الاثير : ج٥ ، ص ٣٤٠ ٠

(٣٥) د٠ ابراهيم باستانى باريزى : يعقوب بن الليث الصفار ، ص ١٤٦ ٠

(٣٦) د٠ فاروق عمر : الخلافة العباسية ، ص ٢٢٣ ٠

(٣٧) س٠اى٠بوزورث :جيش الصفاريين ، ص ٢٠٢ ٠

(٣٨) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٦ ، ص ٤٠٢ ٠

(٣٩) المسعودى : مروج الذهب ، ج٤ ، ص ٢٠٣ ٠

(٤٠) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ١٩٠ ٠

(٤١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٦ ، ص ٤٠٧ ٠

(٤٢) باريزى : يعقوب بن الليث الصفار ، ص ١٦٢ ٠
ود٠ فاروق عمر : الخلافة العباسية ، ص ٢٢٢ ٠

(٤٣) باريزى : يعقوب بن الليث ، ص ١٦٣ ٠ ذكر ياقوت أن جند نيسابور مدينة بخوزستان ٠

(٤٤) سى٠اى٠بوزورث : جيش الصفاريين ، ص ١٨٩ ٠

(٤٥) المسعودى : مروج الذهب ، ج٤ ، ص ٢٠٥ ٠

(٤٦) المسعودى : مروج الذهب ، ج٤ ، ص ٢٠٥ ٠

(٤٧) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٤٠ ٠

(٤٨) ابن طيفور : تاريخ بغداد ، ص ١٧ ٠

(٤٩) يمثل هؤلاء صاحب تاريخ سيستان ، ومن الباحثين المحدثين :

د٠ ابراهيم باستانى باريزى : أستاذ التاريخ بجامعة طهران فى كتابه : يعقوب بن الليث الصفار ٠

ود٠ رضا زاده شفق : أستاذ الادب الفارسى فى جامعة طهران فى كتابه : تاريخ الأدب الفارسى ٠

(٥٠) يمثل هؤلاء الطبرى فى كتابه : تاريخ الامم والملوك ، والمسعودى فى كتابه: مروج الذهب ، وابن الاثير فى كتابه : الكامل ، وابن خلكان فى كتابه : وفيات الاعيان وقد تميز المسعودى وابن خلكان بالاشارة الى طرف من نظـــم الصفاريين الادارية والمالية والعسكرية ٠

(٥١) الحموى : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٤١٥ ٠

(٥٢) المسعودى : مروج الذهب ، ج٤ ، ص ٢٠٤٠

(٥٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٦ ، ص ٤٢١ ٠

(٥٤) حامد عبد القادر : قصة الأدب الفارسى ، ج١ ، ص ١١٧ ٠

(٥٥) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٤٠ ٠

(٥٦) الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص ١٤٠ ٠

المصادر :

- ابن الأثير : أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد ٠ ت ٦٣٠هـ ٠ الكامل فى التاريخ ٠

دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م ٠

- الحموى : أبو عبد الله ياقوت : ت ٦٢٦هـ
معجم البلدان ، بيروت للطباعة والنشر ١٣٧٦هـ ، ١٩٥٧م ٠

- ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن على ٠ ت ٣٦٧هـ ، صورة الأرض منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ٠

- ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون ٠ ت ٨٠٨هـ
تاريخ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ١٩٦٦م

- مقدمة ابن خلدون ، الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ٠

- ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ٠ ت٦٨١هـ وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان ، تحقيق : د٠ احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ٠

- السمعانى : أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور ٠ ت ٥٦٢هـ ٠

- الاصطخرى : أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى ٠ ت فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ٠
المسالك والممالك ، تحقيق : محمد عبد العال الحسينى ، دار القلم ١٣٨١هـ ٠

- الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير٠ ت٣١٠هـ تاريخ الأمم والملوك٠

- ابن طيفور : أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب ٠ ت ٢٨٠هـ بغداد٠ طبع سنة ١٣٨٨هـ/١٣٦٨م ٠

— القزوينى : زكريا محمد · ت٦٨٢هـ
آثار البلاد وأخبار العباد · دار صادر ، بيروت ·

— المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين · ت ٣٤٥هـ
مروج الذهب ، تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد ، الطبعة الرابعة ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٨٥هـ ·

— المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد · ت٣٨٨هـ
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، طبع فى مطبعة بريل بلندن عام ١٩٠٩م ·

— ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم · ت٧١١هـ
لسان العرب ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ·

— اليعقوبى : أحمد بن يعقوب ، دار صـــادر ودار بيروت للطباعة والنشر الطبعة الثانية ١٣٧٩هـ ·

المراجع :

— د. حامد عبد القادر : قصة الأدب الفارسى ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة الطبعة الأولى ١٩٥١م .

— د. عبد الحميد الشلقانى : الروية فيما وراء العراق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥م.

— عبد العزيز الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ، الطبعة الأولى ، مطبعة السريان ، بغداد ١٩٤٥م .

— د. عبد الفتاح السرنجاوى : النزعات الاستقلالية والخلافة العباسية، الطبعة الرابعة ، نشر دار الكتب الاهلية بمصر ١٣٦٣هـ/١٩٤٥م .

— د. فارق عمر : الخلافة العباسية فى عصر الفوضى العسكرية ، الطبعة الثانية ، منشورات مكتبة المثنى ، بغداد ١٩٧٧م .

— د. فؤاد محمد النادى :نظرية الدولة فى الفقه السياسى الاسلامى، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ .

الكتب المترجمة الى العربية :

— باريزى : د. ابراهيم باستانى :
يعقوب بن الليث الصفار
ترجمة من الفارسية : د. محمد فتحى يوسف الريس ، دار الرائد العربى .

— بارتولد فاسيلى : تركستان من الفتح العربى الى الغزو المغولى ، ترجمة د. صلاح الدين عثمان هاشم
منشورات المجلس الوطنى للثقافة والفنون ، الكويت ١٤٠١هـ .

— بوزورث . سى.اى : جيش الصفاريين ، لندن ، ١٩٧ .

— د٠ رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسى :

ترجمه من الفارسية : محمد موسى هنداوى ، دار الفكر العربى ١٩٤٧ ٠

— النرشخى : أبو بكر محمد بن جعفر ٠ ت ٣٨٤هـ ، تاريخ بخارى ، ترجمة : د٠ أمين عبد المجيد البدوى ، دار المعارف بمصر ٠

النظافة وسلامة البيئة فى المجتمع الأندلسى

د٠ سعد عبد الله البشرى(*)

خطا المجتمع الأندلسى منذ أن استقر المسلمون فى شبه الجزيرة الأيبيرية خطوات سريعة فى مدارج التطور الحضارى والازدهار المدنى٠ وقد احتفظت لنا مصادر التاريخ والحضارة بالكثير من الأمثلة والبراهين على ما حققه الأندلسيون من حضـــارة ومدنية راقيـــة لازالت تدهش الدارسين ، وتثير اعجاب الباحثين فى تاريخ الحضارة البشرية ٠ وقد اخترت أن أدرس جانبا مهما من جوانب الحضـــارة الأندلسية ، وهو ما يتعلق بظاهرة النظافة وسلامة البيئة فى المجتمع الأندلسى ، فتتبعنا بالدراسة النشاط الحضارى المتصل بالنظافة والصحة العامة فى الأسواق وما تضمه من الحرف والصناعات ، وكذلك فى الطرق والدروب والساحات والجوامع ، ومراعاة صحة البيئة ومكافحة التلوث بصورة عامة ٠ هذا فضلا عن نظافة البـــدن واهتمام المجتمع الأندلسى بالاستحمام وظاهرة انتشار الحمامات بوصفها ظاهرة حضـــارية راقية ، وتأثير ذلك فى المجتمعات الأوربية ٠

أما عن مراعاة النظافة ومكافحة الأقذار والتـــلوث والنفايات فى الأسواق، وهى الظاهرة التى يترتب على اهمالها أوخم العواقب الصحية مما يؤدى الى تدهور خطير فى رقى الأمم وصعودها الحضارى ، فمن المعروف أن ولاة الأمر والقائمين على شئون المجتمع الاسلامى عنوا بهذا الأمر عناية كبيرة ، وخصصوا لذلك وظيفة كبيرة هى وظيفة الحسبة، واحتفظوا لنا من خلال ما كتبوه فى شئون الحسبة بمعلومات قيمة ونادرة عن اختصاصات المحتسب وواجباته فيما يتعلق بمراقبة الأسواق والباعة، للتأكد من اتباعهم قواعد الأمانة والنظافة وسلامة ما يقدمونه للناس من بضائع ، وخاصة فى كل مايتعلق بالطعام والشراب٠ ويأتىفى المقدمة أهل

(*) أستاذ مشارك بقسم التاريخ ــ كلية الشريعة ــ جامعة أم القرى ٠

الحرف والصناعات والمهن المختلفة · ولتيسير هذه المهمة وتطبيقها على خير وجه نبه ابن عبدون التجيبى - وهو من كبار المحتسبين فى الاندلس - الى أهمية ترتيب الصناع والحرفيين ، وذلك بتخصيص موضع لكل حرفة أو صنعة ، وذكر أنها أجل وأتقن(١) ·

وقد لفتت هذه الظاهرة - أى العناية بتنظيم أماكن الحرف والصناعات المختلفة - نظر المؤرخين الذين أشادوا بما رأوه وشاهدوه وسمعوا به ، فهذا الادريسى يشير على سبيل المثال الى مدينة طلبيرة فيقول عنها : (وهو بلد واسع المساحة شريف المنافع وبه أسواق جميلة الترتيب وديار حسنة التركيب ··)(٢) ·

كما يلاحظ أنه كان لكل صنعة من الصناعات أمين يعود اليه الناس فى حال الاختلاف للاستهداء برأيه ، وهذا تنظيم حضارى كبير لازلنا نشاهده ماثلا فى حياتنا المعاصرة ·

ولنا أن نتساءل : ما العلاقة بين ترتيب الحرف والصناعات وبين النظافة وصحة البيئة ؟ فنقول : ان لذلك علاقة وثيقة ، اذ ينبغى أن تكون أسواق ومحال المأكولات والأطعمة والأشربة فى أماكن بعيدة عن أماكن الحرف المتعلقة بالدباغة أو بيع الفحم والحطب والجص،وغير ذلك من المهن التى يترتب على مزاولتها والاشتغال بها ألوان من التلوث والنفايات المضرة بالانسان وصحة البيئة ، بل لقد أمر باعة الأسماك بأن يتخذوا موضعا بمعزل عن الطريق لما يتسببون فيه من روائح ولما يبدو عليهم من رثاثة الحال(٣) ·

وهذا ابن عبدون يؤكد على ما أشرنا اليه اذ يقول : (يجب أن يكون لبيع الحطب موقف ولا يترك أحد منهم يمشى فى الأسواق فانهم يؤذون الناس ويمزقون الثياب · وان عثر على من يمشى بالحطب فى الأسواق أدب·وكذلك بائعو الجير وغير ذلك يتخذ لهم مواضع فتقصدهم الناس· وبائعو الفحم يجب أن تكون لهم مجارد لا مجارف،فانها تجرف التراب والغبار ويؤمروا بعزل الغبار منه · ويباع بجهة لمن شاء أن يشتريه)(٤)·

وتجدر الاشارة الى أن تعدد ألوان الحرف والمهن والصناعات أدى الى مراقبة ورصد واسعين من قبل المسئولين عن الأسواق وصحة البيئة ، وأدى هذا الى وضع معايير وتوجيهات محددة فى سبيل المحافظة على مستوى النظافة الخاصة والعامة فى المجتمع الأندلسى،ومكافحة كل ما يؤدى الى تشويه المظهر الجمالى والصحى فيه ، وبالتالى سوف نتطرق الى الحديث عن تلك المعايير والتوجيهات للحرفوالمهن المتصلة بمحور البحث ، وبخاصة ما هو متصل بالأطعمة والأشربة .

وهنا تجدر الاشارة الى أن المحتسبين الاندلسيين شددوا على أهمية أن يكون المشتغل بالحرف المتعلقة بالأطعمة والمأكولات والمشروبات ـ لائقا صحيا لممارسة مهنته ، فلا يشتغل بها مجذوم ، أو مبروص(٥) ، أو من به مرض جلدى ، أو مرض معدى . وهذه لفتة حضارية راقية لازلنا نلمس أهمية تطبيقها فى عصرنا الحاضر . وفى حرفة الجزارة نبه المحتسب الى ضرورة ذبح الحيوانات وسلخها فى القصارى ، وعلى المشتغلين بهذه المهنة أن يجمعوا الدم وزبل الكروش وينقلوها خارج الأسواق أو الى الأماكن النائية . وعلى الجزار أن يغسل رؤوس الضأن قبل بيعها وذلك لضمان أن لا يؤذى مشتريها الناس بما قد يكون فيها من دماء فى الطرق الضيقة أو أماكن الزحام . وكان على الجزارين أن لا يضايقوا المارة بما يعرضونه من اللحوم المعلقة خارج حوانيتهم مما يكون سببا فى تلويث ثياب المارة فضلا عن تضييق الطريق(٦) .

كذلك كان على الجزارين تنظيف مواضعهم وازالة ما قد يكون فيها من فضلات اللحوم والعظام وغيرها ، والتنزه عن الأقذار ، ومكافحة الذباب ، وأن يستخدموا لتقطيع اللحم لوحا من الخشب صليبا نظيفا . وعليهم بعد الانتهاء من العمل أن يغسلوا أدواتهم وما يقطعون عليه من ألواح وتغطيتها وحفظها بعيدا عن الحشرات ، وكان عليهم رش الملح على الألواح التى يقطعون عليها لتحول دون حدوث العفونة وتراكم الأقذار(٧) .

وكان بيع لحوم الطيور وبعض الحيوانات البرية يخضع لارشادات

معينة ، فكان لا يباع الحجل والطير المذبوح الا بعد نتف ريش مؤخراتها؛ وذلك ليتبين للمشترى فسادها أو جـودتها ، كما لا تباع القنليات(٨) الا بعد سلخها ؛ ليتضح ما اذا كانت صالحة أو فاسدة ، وذلك لأن بقاءها فى جلودها مداعاة لفسادها وتعفنها(٩) .

أما باعة الأسماك والمشتغلون بقليها فكانوا يؤمرون باتخاذ تدابير محددة لضمان النظافة والتنزه عن الأقذار والتلوث.وأول ماكانوا يلزمون به أن يتخذوا لهم مكانا خاصا بحرفتهم ، وقد سبقت الاشارة الى الزام باعة الأسماك باختيار موقعهم بمعزل عن الطريق ، نظرا لما يتسببون فيه من روائح ، ولما هم عليه من هيئة قد لا تكون حسـنة ، كذلك كان عليهم تنظيف ساحاتهم ، وينهون عن تمليح الأسـماك التى مر عليها يومان أو ثلاثة ، لما قد تولد فيها من العفـونة اذ من الأفضـل تمليحه طـريا(١٠) .

ويتبع هذه التوجيهات الزام باعة الأسماك بعدم حملها فى أيديهم والتجول بها فى الأسواق والطرقات ، بل يحملونها فى أوعية أو آوان نظيفة لئلا تلوث أثواب المارة . ومن يخالف هـذا الأمر يؤدب بوضع ما يحمله فى حجره(١١) .

والواقع ان المشتغلين ببيع وعمل الأطعمة كانوا أكثر أهل السوق استهدافا من قبل القائمين على مكافحة الغش ومحاربة التلوث والأقذار ، وكانت التوجيهات والتعليمات التى يلزمون باتباعها صارمة وعليهم التنفيذ بها ، فمنها : أن لا يطبخوا بالليل أو السـحر ولا فى الأماكن النائية والمواضع الخفيـة ، وعليهم أن يتخـذوا لهم حوانيت مجصصة(١٢) ومسطحة يسهل تنظيفها وغسلها فى كـل حين ، ويلزمون أثناء الطبخ بتوفير الانارة والضوء بحيث يتم ذلك وفق طريقة سليمة ونظيفة وتحت اشراف العارفين منهم . وفى أثناء الطبخ يتعهد أحدهم بذب الذباب عن الأوانى واللحوم حتى يتم الطبخ على أحسن ما يكون ، وبالتالى يطمئن الناس الى نظافة وأمانة الطباخ وما يطبخ . ويشير السقطى الى أهمية الاشراف الدقيق على عمل الطباخين ومعرفة ما يطبخون ، فيذكر حالات من الغش والتلاعب التى كشفها أثناء ممارسة عمله كمحتسب ، حتى أنه

قبض على عدد من الطباخين الذين كانوا يمارسون مهنتهم فى خفاء ، عندما تبين له قيامهم بذبح حيوانات قذرة كالكلاب وطبخ لحمها ٠ ولهذا نبه الى أن يتم الطبخ فى مواضع قريبة وميسور الاطلاع عليها من قبل أهل الحسبة وأعوانهم(١٣) ٠

وكان المحتسب يتفقد أحوال الطباخين صباحا ومساء ، فى الصباح ينظر هو وأعوانه فى نوع اللحم الذى يطبخه الطباخون ومدى نظافته وصحته ؛ وفى المساء يقوم المحتسب أو أعوانه بجولاتهم الميدانية فيتفقدوا أماكن الطبخ ومدى مراعاة الطباخين لقواعد النظافة والأمانة،بعدم خلط ما بقى من اللحوم مع اللحوم فى اليوم التالى وتقديمها للناس على أنها لحوم طازجة وجديدة ، وفى ذلك تحايل ومجافاة للنزاهة(١٤) ٠

وكان على القلائين تنظيف السمك قبل قليه واستخراج ما فى جوفه وتنظيفه بصورة تامة ، وأن يراعوا نظافة الزيت ، فلا يقلوا الأسماك فى زيت عكر وردىء ، اضافة الى مراعاة النظافة فى أدوات القلى فيتعهدوا أوانى القلى بالغسل وازالة ما علق فيها من الزيوت والأطعمة ٠ وكان المتهاون فى ذلك يلقى العقوبات الصارمة(١٥) ٠

ويشير التجيبى الى قواعد صحية تراعى فى اختيار أدوات الطبخ وما يستلزمه من أوان وقدور ، فينبه الى عدم صلاحية الأوانى المصنوعة من النحاس فى عملية الطبخ ، وفضل عليها ما يصنع من الحديد اذا ما روعى غسلها وتنظيفها باستمرار والحيلولة دون صدئها ٠ وذكر أنه لا بأس بأوانى القصدير قدورا وصحافا ، وكذلك ما يصنع من الزجاج لسهولة تنظيفها ٠ ونبه الى الحرص على تغطية القدور وغيرها عند الطبخ بأغطية مثقوبة ثقبا أدق ما يكون٠ونهى عن الطبخ فى أوانى النحاس اذ كرر ذلك عند حديثه عن القلى ، فذكر أنها خطيرة جدا ، وخاصة اذا ما قلى فيها مواد كثيرة الدسم تختلط ببعض مكونات النحاس(١٦) ٠

ولم يكن التجيبى وحده هو الذى نصح بعدم الاعتماد على أدوات الطبخ المصنوعة من النحاس ، بل أشار الى ذلك عدد من الأطباء وأهل الحسبة ، منهم : الطبيب (ابن زهر) الذى يقول : (يجب أن تعلم أن

كل شيء فيه الخل اذا لقى آنية نحاس حدثت فيه قوة رديئة مذمومة تضر بالابدان ، وبالجملة فان النحاس يجب أن يتجنب طبخ الأشربة فيه الا ان بولغ فى تبييضه بالقصدير(١٧) ٠

كما ان ابن عبدون والسقطى نبها الى خطورة استخدام قـــدور النحاس عند الهراسين والقلائين وغيرهم ، وذكر ، أنها لا تكون صالحة للاستخدام الا اذا كانت مرصصة ، اذ يتولد عن امتزاج الزيت بالنحاس اثناء الطبخ مادة سمية خطيرة(١٨) ٠

فاذا انتقلنا الى غير ذلك من العاملين بالأسواق فى بيع وصناعة الاطعمة والمأكولات كالخبازين ، لمسنا مدى عناية وحرص القائمين على نظافة وسلامة البيئة بفضل ما وضعوه من قواعد صارمة من أجل المحافظة على النظافة والنزاهة وسلامة الناس ٠

ذلك أنه كان على الخبازين غسل أدوانهم وأوانيهم التى يعجنون فيها كل يوم ، وكذلك ما يرتدونه من ملابس أثناء العمل ، ويمنعون من ممارسة أعمالهم قبل الفجر لحداثة عهدهم بالنوم ، وبالتالى يتهاونون فى مراعاة قواعد النظافة ، ويلزم الخبازون بالاغتسال والنظافة فى أكثر الأوقات وخاصة فى أيام الصيف(١٩) ٠

وعلى الخبازين الاهتمام بنظافة الماء الذى يعجنون به ، وتجنب أخذه من المواضع القذرة ٠ وكذلك مراعاة ذلك عند جمع الحطب لما يترب عليه من الاضرار بالخبز ، وينبهون أيضـــا الى المحافظة على نظافة رقائق العجين قبل ادخالها الفرن ، وذلك بتغطيتها بقماش نظيف يحول دون سقوط الأقذار عليها ، وعند الانتهاء من العمـــل يقومون بتنظيف أدواتهم ، ومنها ما يفردون به الخــبز ، وما يوصلونه به الى داخـــل الفرن ؛ فتجرد الأدوات وتغسل ، كما كان عليهم أن يكنســـوا الفرن من الرماد والتراب قبل أن يبدأوا العمل فيه من جديد فى اليوم التالى(٢٠)٠

ومن القواعد التى يجب الالتزام بها لمن يبيع الأطعمة ومنها الخبز أن يكون البائع نظيفا سليما من الأمراض ، وقد سبقت الاشارة الىذلك،

ولأهمية أن يكون الخبز نظيفا سليما من الاقذار فقد شدد المحتسب فى أن لا يبيعه حوات أو جزار أو من تستقذر مهنته ٠ وكان على باعة الخبز تغطيته وحفظه من وقوع الذباب والأقذار عليه ، وأن يبتعدوا عن مجاورة أصحاب الحرف التى يغلب عليها طابع التلوث والقذارة،كبائعى الأسماك ومحترفى البيطرة والحجامة ، ويلزم باعة الخبز بتنظيف ملاحتهم وساحاتهم(٢١) ٠

وامتد هذا الاهتمام بالنظافة الى بقية أصناف الباعة وأصحاب المهن الأخرى ، فقد نبه أهل الحسبة الى ضرورة أن يهتم اللبانون والجيانون بتنظيف أوانيهم ومواضع عملهم ، وأن يكون لهم موضع خاص بهم بعيدا عن المشتغلين بحرف يتولد عنها تلوث أو قذارة ٠ وكان على المحتسب أن يمنعهم – أى اللبانون – من أن يبيعوا مع اللبن أو الجبن ما لا يتوافق معه كالسمك أو اللحم(٢٢) ٠

وفيما يتعلق بالأدوات التى يغرفون بها اللبن فيلزمون بأن تكون من حنتم(٢٣) أو من خشب ، ويحظر عليهم استخدام ما يصنع منها من النحاس لما فيه من ضرر ٠ وكان على اللبانين مراعاة النظافة بصورة دقيقة وخاصة فيما يتصل ببيع اللبن الرائب لأنه سريع العفن والتخمر ، ولهذا اشترط ابن عبدون أن لا يباع اللبن الرائب الا فى الزقاق ، لسهولة غسلها وتنظيفها ٠ وأما الذى فى المجابين فقد يتعرض للفساد والتلوث(٢٤) ٠

وقد اتبع المشتغلون بصناعة الهريسة والمجبنات تلك القواعد الصحية ، فكان عليهم الاهتمام بتنظيف أبدانهم وشعورهم ، والحرص على نظافة أوانيهم ومن تحتها أغطية أخرى(٢٥) ، وذلك مبالغة فى نظافة ونزاهة ما يحترفونه من أعمال ، حيث أنه لا يؤمن ان يتسرب اليها بسبب التهاون كثير من ألوان التلوث والأقذار ، وهو أمر خطير لارتباط ذلك بصحة الانسان وحياته ٠

أما المشتغلون ببيع الخضار والفواكه فكان عليهم أن يعنوا عناية كبيرة بنظافة مايعرضونه منالخضار والفواكه ؛ كما كان منالأهمية بمكان

ضرورة غسلها وازالة ما علق بها من الأتربة ٠ ولا يكون هذا الغسل فى البرك أو الصهاريج ، لما قد يكون فيها من الأقذار بل يجب غسلها على ضفاف الأنهار أو المياه الجارية العذبة(٢٦) ٠

فى الطرقات والساحات :

حظيت الطرق والدروب فى المدينة الأندلسية بعناية فائقة من قبل القائمين على رعاية المظهر الحضارى والوجه الجمالى لمرافق المدينة ٠ وكان عليهم لبلوغ ذلك الهدف الحضارى الراقى أن يضـــعوا قواعـــد وتنظيمات دقيقة تثير الاعجاب ، وخاصة بمقاييس ذلك العصر ٠ فمن هذه القواعد الحضارية : أن يلتزم أفراد المجتمع بنظافة الدروب والطرق، وذلك بعدم طرح النفايات والأقذار فيها ، والعمل على اصلاح مستوى الطريق ، وذلك منعا لتجمع المياه والأوحال فى المواضع المنخفضة منه٠ وعلى أصحاب البيوت والدور ـ ان كانت لهم قنوات تحمل المياه الى الطريق ـ أن يعملوا لها سربا تنصرف فيه المياه والأقـــذار بعيـــدا عن الأعين ، ويمنع من نصريف المياه والأقذار فى الطريق(٢٧) ٠

ومن السلوكيات المذمومة التى حاربها المجتمع الأندلسى قضـــاء الحاجة فى الطرقات والساحات ، لما لذلك من تأثير سىء سواء على مظهر المدينة الحضارى أو صحة الانســـان ٠ وكان على القائمين بأمر النظافة ردع من يقوم بذلك السلوك المشين ، فان عاد أدب ، وان كان صغيرا فعلى وليه التعهد بعدم تكرار ذلك(٢٨) ٠ وفى هذا اشارة مهمة الى ما أولاه المجتمع الأندلسى لنظافة المجتمع من اهتمام وعناية ٠

أما النفايات والقمامة المتجمعة من البيوت والأسواق فكانت تنقل خارج المدينة ٠ وكان المحتسب وأعوانه حريصـــين على مكافحة الأقذار وعدم تكديسها داخل الأحياء وبين المنازل والدور ، اذ على السكان أن يبادروا الى نقل ما تجمع منها بعيدا عن الأحياء والتجمعات السكانية ٠ وعلى صاحب الدار فى حالة تنظيفه ما تجمع من مياه وأقذار المجارى فى منزله أن ينقل ذلك بعيدا عن الدور ٠ وقد تستخدم تلك الفضلات فى المزارع ، أو تجمع فى مواضع معلومة معدة لذلك ٠ ويجب على من فتح

سربا وأفرغه من المياه القذرة والفضلات أن ينقلها الى خارج المدينة ، وعليه تبعا لذلك أن يسوى موضع السرب بما يتفق مع مستوى الشارع وبما يحقق السلامة والنظافة للعابرين(٢٩) ٠

وجدير بالذكر ان الاندلسيين من العاملين فى تنظيف المجـــارى والقنوات توصلوا آنذاك الى صنع أو تكوين مواد معينة يستخدمونها فى تفتيت ما تصلب من المواد داخل المجارى أو القنوات ، يقول أبو مروان ابن زهر عندما أشار الى تحليل الأورام بالأدوية : (فانك متى الححت مدة فى التحليل أبقيت من الخلط المرض بقية لا تقبل التحليل كانها قد تحجرت ، وان العوام يشعرون بمثل هــــذا فانا نراهم متى أردوا أن يخرجوا جوهرا غليظا من القنوات المدفونة لم يقتصروا على تقطيعـــه بالغسل حتى يخلطوا معه ما يميعه فيصبون الماء فى القنوات فتســـهل جريته ٠٠)(٣٠) ٠

وكان على الكنافين أو المشتغلين بتنظيف ما يعـــرف فى عصرنا الحاضر بالمجارى أن يتلزموا قواعد محددة فى أعمالهم : وذلك حرصا على نظافة البيئة ، فالزموا فى عملية نقل المياه والاقذار المفرغة من الحمامات والمواضع التى تتجمع فيها باستخدام أكواب كبيره ، يحمل كل كوب اثنان ، ليضمنا بذلك عـدم سقوطه أو تناثر ما فيه من الأقذار ٠ وألزموا أيضا بأن يحمل احدهما أثناء النقل جرسا ينبه المـــارة الى الابتعاد عنهما ، وحظر على أحدهما أن يحمل لوحده كوبين : لما يترتب على ذلك من أضرار وفساد يتنافى مع ما يجب مراعاته من نظافة ونزاهة البيئة والمجتمع(٣٢) ٠

ومن التنظيمات الحضارية الرافية المحافظة على نظافة الطـــرق وجمالها ومكافحة كل ما يخالف ذلك ، فيحظر انشاء الحوانيت التى يمارس أصحابها حرفا ينتج عنها تلوث البيئة أو ممارسة تلك الحرف فى الطرقات ٠ وقد نبه بعض المحتسبين الى أهميـــة ذلك ، وضرورة العناية بنظافة وسعة الطرقات وذكروا (أن عمرا رضى الله عنه أمر بهدم كير الحداد الذى مر به فى الطريق) كما أمروا بضرورة منع الصباغين ومن شاكلهم من نشر الثياب المصبوغة المبلولة على الطرق ؛ لما تتسبب فيه من

تلويث المارة ٠ وكان يحظر انشاء الأفران فى الطـــرق لما تســببه من تلوث(٣١) ٠

والزم أصحاب الحرف والمهن أن يتخلصوا من النفايات والأزبال التى تتخلف عن صناعاتهم وبيعهم وكل ما يتصل بممارساتهم الحرفية ، كالمشتغلين ببيع الفواكه والخضار والحبـــوب ، والعاملين فى التجارة والحدادة والدباغة والحطابة وبيع الفحم وغير ذلك ٠

الجوامع ـ الأنهار ـ المقابر :

كانت الجوامع والمساجد فى مقدمة المواضع التى حظيت باهتمام المسئولين عن النظافة فى المجتمع الأندلسى ٠ وما من شك فى أن المسجد نال عناية فائقة فى الاسلام ، وكان الاهتمام به وبنظافته وطهارته من الأمور التى اشار اليها القرآن الكريم وســـنة المصطفى عليه السلام ٠ وبالاضافة الى ما تقدم فقد كان للأندلسيين آدابهم وسلوكياتهم الحضارية التى جاءت لتؤكد عظمة المسجد وحرمته ومنزلته ٠ وفى ضوء التطور الحضارى الذى بلغه الأندلس وضع بعض العلماء والمحتسبين قواعد تحفظ للمسجد نظافته وحرمته وقدسيته ٠ فلـــكى يبقى المســـجد على نظافته وطهارة فرشه كان على المصلين أن لا يدخلوه بنعالهم أو بأحذيتهم فى أقدامهم ، وأن ينتبهوا الى ازالة ما قد يكون عالقا بها من الأوساخ والطين وحك بعضها ببعض أو فى الأرض قبل الدخول ٠ وكان من الأمور المرعية مراعاة نظافة المســـاجد ورحابها وما حـــولها ، ومنع الفـــاء الأزبال والقاذورات فى رحابها وما حولها ، وينهى بحزم من يقدم على ذلك ، فان عاد عوقب بلا تردد(٣٣) ٠

ومما يتصل بنظافة المسجد العناية بفرشه ، فان بلى الفرش نقل الى حيث يحتاج اليه فى السجون أو للفقـــراء ٠ وكان من السلوكيات الحضارية والانسانية أن تبنى سقائف بجوار الجامع ليقيم فيها الغرباء أو من انقطعت بهم السبل(٣٤) ٠

وقد روعى فى أرضية الجامع أو المســـجد أن تكون فى اعتدال واستواء ، واذا كان فيها موضعمنخفض يسوى بحيث لا تجتمع فيه مياه

الأمطار والأوحال ، وقـــد رتب لتنظيف الحمامات فى الجامع عامل أو عمال يقومون بتنظيفها وتصريف ما يتجمع فيها من الأقذار ، وهؤلاء العمال أجورهم أو مرتباتهم من الأحباس(٣٥) ٠

كذلك كان للمسجد موظفون يقومون على نظافته والمحافظة عليه من الأوساخ ٠ وقد وضع بعض المحتسبين لهؤلاء الموظفين قاعدة يسيرون عليها ، فكان عليهم كنس المسجد أو الجامع ونفض الحصر والفرش فى كل يوم اثنين ، وكل يوم جمعة ، ويضاف الى ذلك تنظيف قناديلها فى أول يوم من الشهر وفى منتصفه(٣٦) ٠

ولما كان يوم الجمعة يشهد اجتماع اعداد كبيرة من المصـــلين فى الجوامع ، فان بعض الباعة استغلوا هذه المناسبة ليعرضوا فى رحاب الجوامع سلعهم وحاجاتهم ، لذلك أمر عمال الجـوامع بتنظيف رحاب الجامع فى صباح يوم الجمعة كما أمر الباعة بعدم بسط سلعهم وبضائعهم قبل الصلاة وانما بعدها ٠

ومن دلائل عنايتهم بطهارة المسجد ونظافته تأكيدهم البالغ على أن لا يتم تاديب الأطفال والصبيان فى رحاب الجامع ، وذلك لعـــدم تحفظهم واحترازهم من النجاسات التى قد تكون فى أقدامهم وملابسهم ، ويتم تأديبهم وتعليمهم فى السقائف(٣٧) ٠

ويضاف الى ذلك حرص القائمين بأمر نظافة أماكن العبادة على تنزيه الجوامع والمساجد ليس فقط من ألوان التلوث والأقذار التى يتسبب فيها الانسان ، وانما أيضا مما تتسبب فيه بعض الحيوانات ، فقد حظر على المصلين ربط دوابهم فى رحاب الجامع لما ينتج عن ذلك من قـــذارات ونجاسات اذا راثت أو تبولت ، وهذا يؤدى الى انتشار النجاسة وبالتالى عدم صلاحية الموضع للصلاة فضلا عما يلحق النـــــاس من الأذى ٠ وقد شدد المحتسب على احـــراج الدواب الى مواضع بعيـــدة عن أماكـــن الصلاة(٣٨) ٠

★ ★ ★

ومن ألوان العناية بالنظافة والنزاهة التى شـملت شتى مرافق الحياة فى المجتمع الاندلسى ، حفاظا على صحة البيئة والانسان ، العناية بمصادر المياه ، مثل . الأنهار ، والأودية ، وينابيع المياه ، والعيون . وقد نبه المحتسب ابن عبدون على أهمية المحافظة على ضفة الوادى الذى هو مرسى المدينة ، وذلك بحظر أن يباع منه شىء أو يبنى فيه ،نظرا لأهميته باعتباره منفذا بحريا يحط فيه التجار والمسافرون والغرباء ، وموضعا لاصلاح السفن،فهو ملك للدولة لا يتصرف فيه غيرها(٣٩) . وقد استهدف هذا نوع من التنظيم الرقى بالمستوى الاقتصادى والاجتماعى ، وفيه مالا يخفى من النزوع نحو تحقيق صورة مجالية للبيئة الأندلسية .

وكان المحتسب حازما فى مكافحة ألوان التلوث وخاصة فى الانهار والأودية والعيون ، كما كانت هناك مواضـع تم تخصيصها للسـقائين يستقون منها . من ذلك أنه نبه الى ضرورة منع الغسل والاغتسال بالقرب من مواضع السقاية لما يؤدى اليه ذلك من تلوث وقذرات .وكان على من يريد الغسل وخاصة من النسـاء أن يذهبن الى موضع معين بحيـث لا يتسببن فى تلويث المياه الجارية . كذلك كان من الأمور التى يحظرها المحتسب أن يعمد الناس الى رمى الأقذار والنفايات على ضفة الوادى أو الأنهار ، ومن يفعل ذلك كان يعاقب بحزم(٤٠) .

وتجدر الاشارة الى أهمية ما أولاه أهل الحسبة من عناية للمحافظة على الثروة النباتية والسعى الى انمائها وغراسة ألوان الأشجار والنباتات لزيادة مساحة الرقعة الخضراء ، فكان من واجبات الدولة حماية الغابات وتشجيع الساكنين بقرب ضفاف الأنهار على زراعة الأشجار والمحافظة على الغابات وصيانتها من العبث والتقطيع الجائر(٤١) لما تمثله من ثروة اقتصادية ، وما تعكسه من جمال طبيعى ، فضـلا عن دورها فى تقليل التلوث فى البيئة والهواء .

ومن مهام المحتسبين والمسئولين عن النظافة وصـحة البيئة فى المجتمع الأندلسى السعى الى محاربة المظاهر الاجتماعية الفاسدة التى تتسبب فى تشويه المظهر الحضارى والوجه الجمالى للمـدينة ، فكان يحظر التسول وما يسلكه البعض من مسالك قبيحة فى سـبيل استدرار

عواطف الناس ، فهناك من يتخبط فى الأســـواق ويوهم النـــاس أنه مصروع ، وهناك من يتظاهر بالشلل أو يبدى فى جسده بعض القروح والاورام (وذلك كله منهم حيلة لأخذ أموال الناس بالباطل ، فيجب على صاحب الحسبة أن يقف من ذاك كله على صحته ويعاقب من يحتل منهم بتلك الحيلة)(٤٢) ٠

ولم تقتصر عناية المسئولين عن نظافة البيئة على ما تقدم ، اذ امتد هذا الاهتمام الى ما يتصل بحياة الانســـان بعد موته بمراعاة حرمته وكرامته من خلال العناية بالمقابر والحرص على نظافتها وحرمتها ومنع العبث والفساد بها ٠ وكان من القواعد المتبعة أن يلتزم حفارو القبور بتعميقها بحيث لا تنتشر روائح الموتى ، وفى الوقت نفسه تكون بعيدة عن عبث السباع ، وأن يراعى حرمة الميت فيستر ما يظهر من العظام ولا يتركوه على وجه الأرض(٤٣) ٠ وقد عاب ابن عبدون على أهل بلده - اشبيلية - ضعف اهتمامهم بهذا الجانب اذ عمدت طائفة من الناس الى السكنى فوق المقابر بل وأجروا فوقها أو خلالها السروب والمجارى ٠ وكان لبعض المحتسبين - كما يقول ابن عبـــدون - موقف حـــازم ازاء تلك الظاهرة ، فهدموا ما بنى فى المقـــابر وما أنشىء بها من الدور ، ونصح ابن عبدون بتخصيص بعض المواضع ليكون مقبرة لأهل اشبيلية٠وقد نبه ابن عبدون الى المحافظة على نظافة المقـــابر وتطهيرها من الأرجاس والأقذار ، وأن لا يستغل موضعها بعض أهل الحرف المستقذرة كالمشتغلين بالدباغة ومن يشاكلهم(٤٤) ٠

النظافة الشخصية :

فاذا انتقلنا الى الحديث عن النظافة الشخصية فى المجتمع الأندلسى وجدنا ما يؤكد ويقرر هذا المسلك الحضارى الراقى ٠ يذكر المقرى نقلا عن ابن سعيد أن (أهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك فيما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده الا ما يقوته يومه ، فيطويه صائما ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها ٠٠)(٤٥) ٠

والنظافة الشخصية ترتبط بالنواحى التالية : الجسد ، الملبس ، والمنزل • فيما يتعلق بالجسد ونظافته وطهارته نذكر أن الأندلسيين عنوا عناية بالغة بنظافة أجسادهم ، فكانت ظاهرة الاغتسال والاستحمام من السلوكيات الاجتماعية التى اهتموا بها اهتماما بالغا • ولذلك أكثروا من بناء الحمامات العامة حرصا على نظافة أبدانهم وطهارة أجسامهم • ولم يكن ارتياد الحمامات وقفا على الرجال بل وجدت حمامات خاصة بالنساء أيضا •

وكان الأطباء يوصون بارتياد الحمام والمحافظة على الاستحمام ، لما فى ذلك من فوائد صحية واجتماعية ، فهو (ينقى الجلد ، ويزيل الوسخ ، ويطهر البدن ، ويفتح مسامه ، ويحلل الأبخرة ، ويرطب الأبدان وينميها ويزيد فى حرها الغريزى ويفرح النفس ويذهب الحزن) (٤٦) •

يذكر ابن زهر أن الاستحمام فى كل عشرة أيام من غير أن يكون الانسان متخما بالطعام فيه ما يحفظ الصحة ، واشار الى أن من القواعد التى يفضل اتباعها استخدام الماء العذب ، وأن يكون معتدلا بين الحرارة والبرودة ، وأن يكون المستحم صائما • وأن فيه ما يعين على دوام الصحة والعافية(٤٧) •

وتجدر الاشارة الى أن الطبقة الثرية فى المجتمع الأندلسى كانت لها حماماتها الخاصة الملحقة بمنازلها ودورها ، وكانوا يمارسون بها عادة الاستحمام بصورة مترفة وباذخة • أما الطبقات الأخرى التى لا تستطيع تأمين ذلك فى منازلها فكان عليها أن تقصد الحمامات العامة التى كانت منتشرة بوفرة كبيرة فى المدن الأندلسية • من ذلك أن مدينة قرطبة وحدها كان بها مايزيد على ٧٠٠ حمام(٤٨) وقد عد ذلك من مفاخر قرطبة ودلائل رقيها وتمدنها • ومن الطريف أن الحمامات لم تكن منتشرة فقط فى المدن بل امتدت هذه الظاهرة الى القرى والأرياف ، ومازالت منطقة البشرات (جنوب غرناطة) والمناطق المحيطة بغرناطة بها آثار واضحة لحمامات كان يرتادها الناس ويستحمون فيها • وفى هذا ما يدل دلالة واضحة على المدى الذى وصلت اليه عناية الأندلسيين

بالنظافة وبالتالى تميزهم بذلك القدر من السلوكيات والتقاليد الاجتماعية الراقيــة ٠

وكان الحمام العام يتالف من ممر يؤدى الى غرفة كبيرة بها خزانات خشبية تعلق بها الملابس وتسمى هذه الغرفة «المشلح»(٤٩) ومنها يدخل المستحم الى غرفة المياه الباردة والى جــوارها سرير خشبى مستطيل يضطجع عليه من يرغب فى التدليك ، ثم ينتقل الى الغــرفة الساخنة حيث يغسل جسمه بالمياه الساخنة بواسطة مغارف خشبية ٠ وأخيرا هناك موضع للمزينين ينتهى اليه المستحم ليكمل نظافته وزينته ٠ وتصل المياه الحارة الى الحمام عن طريق أنابيب تنقله من صهريج تسخن فيه المياه بالحطب ويقع خارج الحمام ، وكان الضوء ينفذ الى الداخل بواسطة نوافذ زجاجية مثبتة فى السقف(٥٠) ٠

ولما كانت الحمامات من المرافق الصحية والاجتماعية ذات التأثير الكبير على حياة الفرد والمجتمع ، فقد كان من الضرورى متابعة نشاطها وحالها من حيث الالتزام بقواعد النظافة وسلامتها من الأقذار ٠ من ذلك أن العاملين فى الحمامات ألزموا بنظافة ملابسهم وأدوات النظافة التى يستخدمونها فى تنظيف الأبدان وحك الأقدام، فكانوا يضعونها فى الملح والماء كل ليل لئلا يصيبها العفن والتلوث والروائح الكريهة ، كما وجب عليهم أن يغسلوا ملابس العمل كل ليلة بالصابون(٥١) ٠

أما عن المياه المستخدمة داخل الحمـــام فكان يراعى فى صهاريج الحمامات أن تكون مغطاة باحكام لئلا تتسرب اليها النجاسات وما يلوثها٠ وكان من الآداب المرعية أن لايمارس المشتغلون فى الحمامات عملهم - كالحكاك والطياب والحجام - الا بعـــد أن يرتدى كـــل منهم التبان والسروال(٥٢) ٠

وهناك قواعد وآداب استحسن بعض الأطباء الالتزام بها لبلوغ أقصى درجات النفع والفائدة من دخول الحمام ، اذ يشير الطبيب الأندلسى ابن خلصون الى أن دخول الحمام يكون على خلاء من المعدة ، وفور القوة ، ونشاط النفس ، واعتدال الفصل ، واعتدال النهار ، واذا دخل

المستحم فلا يتجرد من ثيابه الا فى البيت الأول حيث يصب على جسمه من الماء الفاتر من غير أن يبل رأسه ، ثم يدخل الى البيت الثانى فيصب على راسه ثلاث غرفات من الماء الحار ويتجنب الماء البارد ، ثم يغسل رأسه فى البيت الثالث بالماء الحار ، ويصب فيه على بدنه الماء الحار أيضا ، ومنه ينتقل الى البيت الأوسط للاحتكاك وازالة الوسخ عن البدن وتدليكه بعد ذلك ، ثم يعم البدن بالماء الفاتر حتى ينظف جسمه ، ويختتم ذلك بالاغتسال بالماء البارد لأن فى ذلك ما يعدل حرارته ويرطب البدن. ويلتزم مراعاة الحال من حيث قدرة الجسم على احتمال ذلك وعـــدم اصابته بالبرد والرعدة ، وبالتالى الحميات . فاذا فرغ من ذلك يعمد الى تنشيف جسمه بقطعة من الكتان . ويجفف شعره ثم يلبس ثيابه ، ويغطى رأسه ، ويسد أنفه بيده ليحميه من الـــبرد والريح ، ثم يجلس خارج الحمام ساعة حتى تستقر حرارة الجسم ويعود الى طبيعته(٥٣) .

ولما كانت عادة الاستحمام والمحافظة على نظافة الأبدان وطهارتها من المظاهر الحضارية الرفيعة التى اتسم بها المجتمع الاسلامى بوجه عام، والأندلسى بوجه خاص فقد كان ذلك السلوك من الآداب الأصيلة القوية الجذور فى حياة الأندلسيين ، فحافظوا عليه رغم ما حل بهم من ويلات الحروب واستيلاء النصارى على بلادهم ، يشير المؤرخ امريكو كاسترو الى عظم التأثير الحضارى للمسلمين فى حياة الأسبان النصارى وخاصة فى المناطق التى سيطر عليها النصارى فى شمال اسبانيا ، اذ أن قرى صغيرة فى قشتاله لا تعرف حمام الماء الساخن فى عصرنا الحاضر ، كانت تتمتع به سواء فى عصر السيادة الاســلامية أو عصر المدجنين(٥٤) ، ويتضح هذا فى لوائح البلديات . وفى الحمام كانت النســاء تجــدن مبتغاهن من حيث النظافة والتجمل بعيدا عن تلويث المنابع والأنهار أو حتى فى المنازل(٥٥) ، ومن بين تلك القــرى ذوريتــا Zorita وبريهويجا Brihuega فى وادى الحجارة ، وأوساجرى Usager فى بطليوس . وقد نصت لوائح بلديات المــدن أنه ينبغى على صاحب الحمام أن يقدم لمرتادى الحمام الماء الساخن والصابون والمناشف(٥٦).

كذلك نجد اشارات تاريخيــة الى أنه كــان فى ميووقه ومدريد

حمامات ترتادها النساء المدجنات . وقد شهد الحى الاسلامى فى مدينة ترسونا فى الشمال الشرقى من الأندلس بناء أحد الحمامات سنة ٧٧٦هـ - ١٣٧٥م ، وكان يقصده الناس جميعهم الا انه حظر على النصارى واليهود دخوله فى الأعياد الاسلامية وايام الجمع(٥٧) .

وفى بعض الحمامات خصصت أيام محددة لكل من الرجال والنساء، حتى لا يقع الاختلاط المؤدى الى الفتنة والفساد . واستمر وجود الحمامات فى الأندلس حتى خروج المسلمين منها نهائيا . وتشير الرواية التاريخية الى أنه بعد اخماد ثورة الموريسكيين على السلطات الاسبانية سنة ٩٧٦هـ/١٥٦٨م تقرر طردهم ومحو كل ما يتعلق بحياتهم الاجتماعية وعاداتهم ، فاغلقت حماماتهم وحرم عليهم ارتيادها . وكان لذلك تاثير مؤلم على الموريسكيين حيث قال أحدهم ويدعى فرنسيسكو مولاى Francisco Munez Muley : (ان الحمامات أقيمت لتنظيف الأجسام ، والقول بأنه يجتمع فيها الرجال والنساء افتراء لا يصدقه العقل والحمامات موجودة فى كل مكان ومنتشرة فى سائر الاقاليم . واذا كان أبناء مملكة غرناطة قد تمسكوا بالحمامات ، فان ذلك بسبب حرصهم على على أن يكونوا أطهار الابدان ، فاذا حرم عليهم الاستحمام فى الحمامات وفى الينابيع والأنهار والبيوت فالى أين يذهبون للغسل والاستحمام ؟)(٥٨) .

وبنهاية القرن السادس عشر تم هدم كل الحمامات فى انحاء أسبانيا ، ورفض الأسبان الأوربيون عادة الاستحمام لأنها عادة ارتبطت فى نظرهم بالحياة الاسلامية فى الأندلس ، واستمر الحال على ذلك حتى ظهرت الحمامات بعد ذلك من جديد فى انجلترا(٥٩) .

ومن الطريف أن نجد الاسبان يتأثرون أيضا بظاهرة حضارية اسلامية ،وهى : غسل وتنظيف الميت قبل دفنه ، فتشير الرواية التاريخية حول ملحمة فرنان جونثالث التى يعود تاريخها الى سنة ٦٢٨هـ/١٢٤٠م الى أن الكونت فرنان جونثالث قام بغسل عدوه كونت دى تولوز قبل أن يلفه فى الأكفان ، والى هذا أشارت المدونة العامة لألفونسو الحكيم(٦٠).

وقد نادى الأطباء المسلمون بالأندلس بضرورة مراعاة النظافة الشخصية والعناية بنظافة الأبدان وطهاراتها للوقاية من بعض الأمراض. من ذلك ما يذكره الطبيب ابن زهر عن حالات مرضية تلحق بالجلد أو الشعر أو الأسنان، وهى من الأعضاء والأطراف التى تمس المظهر الجمالى للانسان،فأشار الى تولد القشرة فى جلدة الرأس ووصف لها موادا طبية لغسل الرأس ، ومنها : خل العنب ، والخل مع العسل . كما نبه الى أهمية القطران فى ازالة القشرة ، ووصف علاجات لمكافحة القمل المتولد من الوسخ اللاصق بالجلد ، وذلك بغسله بالخل والقطران ، وأوصى بالاستحمام وغسل الرأس وعدم اهمال النظافة فى ذلك(٦١) .

كذلك ذكر الادريسى عند حديثه عن مدينة طليطلة أنه تقع بالقرب منها قرية تسمى بمغام ، وأن بها تراب يستعمله الناس فى تنظيف وغسل شعر الرأس(٦٢) .

ولما تعرض ابن زهر للأسنان وما يعتريها من ضعف وتشوه ، وصف علاجا لتقويتها وتبييضها وجليها ، كما نصح بتجنب تناول ما هو شديد الحموضة أو شديد السخونة أو شديد البرودة(٦٣) .

وكان الأندلسيون يولون اهتماما كبيرا بنظافة أيديهم وأفواههم عقب تناول الطعام والشراب . وقد احتفظ لنا أحد أعلام الأندلسيين وهو ابن رزين التجيبى بعدد من الوصفات لتنظيف الأيدى والأفواه واللثة والأسنان وأسماها (الغاسولات) وهذه عناوين بعضها :

١ - أشنان ينظف اليد ويطيب الرائحة ويصلح الفم واللثة ويذهب روائح الأطعمة الدسمة .

٢ - أشنان طيب الرائحة كثير المنفعة يزيل الكلف والنمش ويرطب الأطراف .

٣ - أشنان يطيب البدن والنكهة ويشد اللثة وهو ملوكى .

٤ - غاسول ينقى الأيدى ويذهب الروائح الدسمة(٦٤) .

★ ★ ★

فاذا انتقلنا الى نظافة اللباس عند الأندلسيين لمسنا مدي حرصهم وعنايتهم بهذا الجانب من جوانب الشخصية الأندلسية . وقد ذكرنا آنفا ما قاله ابن سعيد الأندلسى من أن أهل الأندلس أشد الناس اعتناء بمظهرهم ونظافة ما يلبسون ويفرشون ، وأن أحدهم ربما لم يكن معه الا قوت يومه فيحتفظ به ويطوي يومه صائما ليشتري بما يملك صابونا يغسل به ثيابه ولا يظهر فى حال تزدريه الأعين .

وكانت هذه الظاهرة من الظواهر الاجتماعية التى اشتهر بها المجتمع الأندلسى ، فيذكر الادريسى أن أهل قرطبة : (اليهم الانتهاء فى السناء والبهاء .. ذكروا بصحة المذهب وطيب المكسب وحسن الزى فى الملابس والمراكب وعلو الهمة فى المجالس والمراتب ..)(٦٥) .

ولئن كان هذا الوصف قد ورد في أهل قرطبة فان الحضارة الاسلامية الراقية فى الأندلس لم تكن وقفا علي مدينة قرطبة وانما كانت شاملة لما سواها من المدن الأندلسية الأخري .

فعلى سبيل المثال يقول الأدريسى عن مدينة بسطة : (ومدينة بسطة مدينة متوسطة المقدار ، حسنة الوضع ، عامرة آهلة ، لها أسوار حصينة ، وسوق نظيفة ، وديار حسنة البناء رائقة المعنى ..)(٦٦) .

ولما تحدث ابن الخطيب فى مقدمة كتابه الاحاطة عن أهالى مملكة غرناطة وصفهم بصلاح العقيدة ، وجميل السيرة وحسن الصورة ، ثم ذكر أزياءهم وملابسهم وعنايتهم بها حتى ليبدون فى أيام الجمع (كأنهم الأزهار المفتحة فى البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة)(٦٧) .



وعنى الأندلسيون بنظافة منازلهم ودورهم ، اذ من الطبيعى بعدما أشرنا اليه سابقا أن يكون للمنزل أو الدار مكانتهما الاجتماعية اللائقة . ويمكن استخلاص بعض المفاهيم التى تؤكد جمال المظهر المدني ورقي السلوك الاجتماعي ، من خلال تتبع تلك النصوص التاريخية التي كتبها

الرحالة الجغرافيون عن المدينة الأندلسية ووصفها ببديع البنيان ، وحسن التنظيم ، ووصف أهلها بجميل السيرة ، ومنتهى البهاء والسناء ، وطيب العوائد والأخلاق(٦٨) .

ومن الطريف ان نجد المحتسب لا يقتصر دوره فى رعاية الجانب الجمالى على الاسواق والشوارع والساحات بل كان له اهتمامه الواضح أيضا بنظافة المنازل ومكافحة الأقذار فى الدور ، فكان يحث الناس على العناية بنظافة دورهم وصيانتها من تراكم الأوساخ والنفايات(٦٩) .

وكان يفضل بناء المنازل فى المواقع العالية لئلا تصلها المياه ولا تتأثر بالندى ، ولكى يشرف قاطنوها على ما تحتها من الأراضى الزراعية والبساتين . ويفضل ان أمكن أن تبنى الدار على شاطىء نهر ، مستقبلة رياح الشمال والشرق حتى تشرق الشمس من أبوابها ونوافذها ، لأن الرياح الشرقية أصح من سواها ، ودخول الشمس الى المنزل تدفع عن ساكنيه الاسقام والأدواء . ويوصى بتوسيعها ورفع سقوفها(٧٠) .

ونبه ابن زهر الى أهمية اختيار موقع السكن من حيث نظافته وصحة هوائه ، فمن الخطر السكن بجوار المقابر ، اذ قد يسبب ذلك تلوث الهواء المحيط بمجاورة جثث الموتى المتحللة ، كما أن من أسباب تلوث الهواء وجود المستنقعات والمياة الراكدة(٧١) .

ونلمس عند ابن زهر ملاحظات وتوجيهات حضارية راقية حول المسكن وموقعه ونظافته وعلاقة ذلك بصحة الانسان ، فهو عند الحديث عن الأورام الطاعونية يشدد على أهمية اصلاح المسكن ونظافته الى جانب عوامل أخرى . وكان يوصى بأن يفرش المنزل بالريحان ، ويبخر أحيانا بالقطران ، وفى أحيان أخرى يرش المنزل بالخل المركز . ونبه فى هذه الحال الى أن الغرف العلوية خير من البيوت السفلية(٧٢) .

ومن المؤسف أن التاريخ لم يحتفظ لنا بنصوص تاريخية وافرة عن البيت الأندلسى وعادات أهله من حيث النظافة والأناقة . ويمكن أن نشير الى بعض ما كتبه بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا مملكة غرناطة

فى أواخر الحكم الاسلامى وما سجلوه من مشاهدات المجتمع الأندلسى ، ففى عام٨١٧هـ/١٤١٤م زار غرناطة الرحالة الألمانى خيرونيمو مونزر ، وقد أدهشته نظافة الغرناطيين الشديدة ، ويذكر أن طرقات المدينة كانت ضيقة ، وأن منازل المسلمين كانت صغيرة الحجم وتضم عددا من الغرف . ويضيف أن المنازل كانت بسيطة المظهر من الخارج ، ولكنها تتميز بجمالها ونظافتها من الداخل(٧٣) . واذا كانت النصوص التاريخية لم تعن بأوصاف البيت الأندلسى من الداخل ، فان البقايا الاثرية مازالت قائمة تشهد على جمال هذه البيوت وحسن تنسيقها .

وكانت ظاهرة النظافة وما عرف عن المجتمع الأندلسى من تمسك بها وحرص على الالتزام بها فى الحياة الخاصة والعامة ، مثار اعجاب الغربيين . ويشير ستانلى لينبول الى ذلك بقوله : (فى حين كان مسيحيو العصور الوسطى ينهون عن النظافة ويعدونها من عمل الوثنيين، وكان الرهبان والراهبات يفخرون بقذراتهم ، حتى أن راهبة دونت بعض مذكراتها فى صلف وعجب أنها الى سن الستين لم يمس الماء منها الا أناملها عندما كنت تغمسها فى ماء الكنيسة المقدس ، نقول بينما كانت القذارة من مميزات القداسة ، وكان المسلمون شديدى الحرص على النظافة ولا يجرؤون على مباشرة عبادتهم الا اذا كانوا متطهرين . وحينما عادت أسبانيا الى الحكم المسيحى أمر فُيليب زوج مارى ملكة انجلترا بهدم كل الحمامات العامة لأنها من آثار المسلمين(٧٤) .

ومن خلال هذا الوصف وما يتعلق بنظافة الانسان المسلم ونزاهته بهذه الصورة المتمدينة صارت البيئة الأندلسية والمحيط الذى كان يعيش فيه الأندلسى مثالا لما كان ينبغى أن تكون عليه المجتمعات الأخرى. وها هو المؤرخ الأمريكى فكتور روبنسون يشير الى أن (أوربا كانت فى تلك العصور فى ظلام حالك فى الوقت الذى كانت قرطبة تضىء شوارعها وساحاتها المصابيح ، وكانت أوربا قذرة بينما كانت قرطبة تتباهى بأنها تضم ألف حمام ، وكانت أوربا غارقة فى الوحل تسودها الهوام والحشرات بينما كان الأندلسيون مثال النظافة والرقى الحضارى)(٧٥).

★ ★ ★

وأخيرا نختتم هذا البحث المتواضع بالاشارة الى عدد من الأمثال السائرة والحكم المعبرة التى تداولتها ألسن العوام الأندلسيين حول أهمية النظافة وقيمتها كمظهر من مظاهر التمدن والسلوك الأخلاقى الجميل ، ونفورهم من كل ما يخالف ذلك من ألوان القذارة واهمال العناية بنظافة الجسد وطهارة المنظر والسلوك العام لدى الانسان • ومن الامثال الأندلسية التى لها صلة بالبيت الأندلسى ما ينم عن صفات ربة المنزل وضرورة أن تكون رمزا للنظافة • فاذا كان أمرها يخالف ذلك فان التخلص منها هو العلاج الامثل•لذلك دعوا الى تطليق المرأة التى تمتخط فى قناعها أو تدخل أصبعها فى أنفها ، فيقول المثل الشعبى : « اذا ريت المرا تمخط فى قنعها (خمارها) وتخرج المفتول بأصبعها لا تبقى معها) (٧٦) •

ويقول المثل أيضا حول المرأة : (كل شىء يهون الا الغزل المعفون) (٧٧) •

ومثل آخر : (سمج ومقذور حر غير مشكور) (٧٨) •

ومن أمثالهم حول الطبخ وأهمية مراعاة النظافة فيه أن هناك أنوانا منه لا يصلح طبخها الا فى قدور مخصوصة تراعى نظافتها وخلوها من الأقذار والملوثات يقول المثل : (قدرة الزفت ما يطبخ فيها معسل) (٧٩)•

كذلك بالغوا فى وصف أولئك الذين اهملوا النظافة فقالوا : (أقذر من ولد ناصر الطباخ ، الذى كان يقتل القمل علي صلب المغرفة ، ويمسح المغرفة فى صلب الكلب) (٨٠) •

ولم يفت الأندلسيون في أمثالهم أهمية نظافة الطريق والبيت وتنزيههما عن الأقذار ، فظاهرة البصق على الأرض من الأفعال المستقبحة والعادات المستقذرة • ويقول المثل : (بحل (بحال) ربى (حبر اليهود) فى شنوغ (معبد اليهود) يتحرك ويبزق) (٨١) •

ويقول المثل الآخر مستحسنا كنس المواضع وتنظيفها :

(كنس وجلس)(٨٢) .

وكانوا يبغضون انتشار الذباب والحشرات ويعدونها من المنغصات فيقول المثل :

(ما كفى العيش المر الافيه الدبان) (وما كفى الزيت المر الا فيه الدبان)(٨٣) .

الهــــوامش

(١) رسالة ابن عبدون فى القضاء والحسبة ، ص ٤٣ (وتقع هذه الرسالة مع رسالتين أخريين فى الحسبة وهما رسالة أحمد بن عبد الرؤوف فى آداب الحسـبة والمحتسب ورسالة عمر بن عثمان الجرسيفى فى الحسبة فى كتاب وقـد قام على نشرها ليفى بروفنسال تحت عنوان ثلاث رسائل اندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب سنة ١٩٥٥م ٠

(٢) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ج٢ ٠ ص ٥٥١ وانظر أيضا ص ٥٤٣٠

(٣) ابن عبد الرؤوف ، رسالة فى آداب الحسبة والمحتسب ، ص ٩٧ ٠

(٤) رسالة فى القضاء والحسبة ، ص ٣٨ ٠

(٥) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٤ ٠

(٦) ابن عبد الرؤوف ، ص ٤٤ و ص ٤٧ ٠

(٧) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٣ ـ السقطى ، ص ٤٩ ٠

(٨) القنليات : جمع قنلية ، وهو حيوان شبيه بالأرنب لحمه لذيذ وفراؤه مرغوب فيه للباس ، أنظر المقرى ، نفح الطيب ، ج١/١٩٨ لحاشية (٤) ٠

(٩) ابن عبدون : ص ٤٣ ٠

(١٠) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٦ ـ ٩٧ ٠ وانظر ابن عبدون ص ٤٥ والسقطى ص ٥٠ ٠

(١١) السقطى : فى آداب الحسبة ، ص ٨٣ ٠

(١٢) مجصصة : أى مطلية بالجص (لسان العرب ، ج٧ مادة جصص) ٠

(١٣) فى آداب الحسبة ، ص ٥٠ ـ ٥١ ـ وانظر التجيبى : فضالة الخوان ص ٣١ ٠

(١٤) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٦ ٠

(١٥) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٨ ٠

(١٦) فضالة الخوان ، ص ٣١ ٠

(١٧) التيسير : ص ٤٩٩ ٠

(١٨) ابن عبدون ـ القضاء والحسبة ، ص ٤٥ ـ السقطى ، آداب الحسبة ، ص ٥٣ ٠ والقدور المرصصة أى : المطلية بالرصاص (لسان العرب ، مادة رصص)٠

(١٩) السقطى ، ص ٤٥ ٠

(٢٠) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٠ ـ ٩١ ٠

(٢١) ابن عبد الرؤوف ، ص ٩٠ ٠

(٢٢) ابن عبد الرؤوف ـ رسالة فى آداب الحسبة والمحتسب ، ص ٩٢ ·

(٢٣) الحنتم ـ نوع من الطين تصنع منه الأوانى المزججه من الداخل · وفى لسان العرب : مادة حنتم أنه جرار خضر تضرب الى الحمرة ·

(٢٤) ابن عبدون ، ص ٤٢ ـ ٤٣ ·

(٢٥) السقطى : آداب الحسبة ، ص ٥٢ ·

(٢٦) ابن عبدون ، ص ٤٢ ·

(*) السرب حفير تحت الأرض ، أو قناة جوفاء يدخل منها الماء الحائط (لسان العرب ـ مادة سرب) ·

(٢٧) ابن عبدون : القضاء والحسبة ، ص ٣٧ · ابن عبد الرؤوف : رسالة فى آداب الحسبة ، ص ١١٠ ـ الجرسيفى : رسالة فى الحسبة ، ص ١٢٢ ·

(٢٨) عبد الرؤوف ، ص ١١١ ·

(٢٩) ابن عبدون : ص ٣٨ ـ ابن عبد الرؤوف : ص ١١١ ـ يوسف شكرى : غرناطة فى ظل بنى الأحمر ، ص ١٠٢ ·

(٣٠) التيسير فى المداوة والتدبير ، ص ١٤٠ ·

(٣١) الجرسيفى : رسالة فى الحسبة ص ١٢٢ ـ ابن عبد الرؤوف : رسالة فى آداب الحسبة ، ص ١١١ وانظر يوسف شكرى ، غرناطة فى ظل بنى الأحمر ص١٠٢·

(٣٢) السقطى : آداب الحسبة ، ص ٨٣ ·

(٣٣) ابن عبد الرؤوف : فى آداب الحسبة ، ص ٧٣ · أنظر ص ١١١ ·

(٣٤) ابن عبدون : رسالة فى القضاء والحسبة ، ص ٢٢ ·

(٣٥) السقطى ، ص ٨٤ ·

(٣٦) ابن عبدون ، ص ٢٣ ·

(٣٧) ابن عبدون ، ص ٢٤ ·

(٣٨) ابن عبدون ، ص ٢٤ ·

(٣٩) ص ٣٠ ·

(٤٠) ابن عبدون ، ص ٣٢ · رسالة فى القضاء والحسبة ، ص ٣٢ ·

(٤١) ابن عبدون ، ص ٣٦ ·

(٤٢) ابن عبد الرؤوف ، ص ١١٣ ·

(٤٣) السقطى ، ص ٨٤ ·

(٤٤) ابن عبدون ، ص ٢٦ ـ ٢٧ ·

(*) ابن سعيد على بن موسى مؤرخ وأديب أندلسى له تآليف فى تاريخ الأندلس كالمغرب فى حلى المغرب والقدح المعلى ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م ·

(٤٥) نفح الطيب ، ح١ ، ص ٢٢٣ ٠

(٤٦) ابن خلصون : حفظ الصحة ، المقالة الثالثة ٠ ضمن كتاب الطب والأطباء فى الأندلس الاسلامية ، تأليف محمد العربى ح٢ ، ص ٢٠ ٠

(٤٧) التيسير ، ص ٩ ـ ١٠ ٠

(٤٨) ابن غالب : فرحة الانفس ، جزء من الكتاب المفقـــود ٠ تحقيق لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ج١ ، الجزء الأول ، ص ٢٩٦ ٠

(٤٩) وردت فى دائرة المعارف الاسلامية ، المســـلخ والصحيح ما ذكـــرناه والمشلح موضع خلع الثياب فى الحمام من التشليح وهو خلع الثياب ٠ وانظر تقسيمات الحمام فى دائرة المعارف الاسلامية مادة : حمام ٠

(٥٠) يوسف شكرى : غرناطة ، ص ١٣٢ ٠

(٥١) السقطى : فى آداب الحسبة ، ص ٨٣ ٠

(٥٢) ابن عبدون : رسالة القضاء والحسبة ، ص ٤٨ ٠

(٥٣) حفظ الصحة : المقالة الثالثة ٠ ضمن كتاب الطـــب والأطباء ، ح٢ ، ص ٢٠ ـ ٢١ ٠

(٥٤) المدجنون هم المسلمون الذين عاشوا فى ظل الحكم النصرانى بعد سقوط المدن الأندلسية فى أيدى الأسبان ٠

(٥٥) حضارة الاسلام فى أسبانيا ، ترجمة سليمان العطار ، ص ٤٧ ـ ٤٨ ٠

(٥٦) لطفى عبد البديع : الاسلام فى أسبانيا ، ص ٩٢ ٠ نقلا عن النســـخة الأسبانية من كتاب **Americo Castro : Espana en su historia. P83.91**

(٥٧) يوسف شكرى : غرناطة فى ظل بنى نصر ، ص ١٣٣ ٠

(٥٨) لطفى عبد البديع : المرجع السابق ، ص ٩٢ ـ ٩٣ ٠

(٥٩) أمريكو كاسترو ، المرجع السابق ، ص ٤٨ ٠ يوسف شكرى : المرجع السابق ، ص ١٣٣ ٠

(٦٠) امريكو كاسترو ، حضارة الاسلام فى أسبانيا ص ٤٨ ٠ وانظر لطفى عبد البديع ٠ الاسلام فى أسبانيا ، ص ٩٣ ـ ٩٤ ٠

(٦١) ابن زهر ، التيسير ، ص ٢٣ وما بعدها ٠

(٦٢) نزهة المشتاق ، ج٢ ، ص ٥٥٢ ٠

(٦٣) التيسير ، ص ٢٤ ـ ٤٥ وفيها انظر وصفا كاملا للعلاجات والوصفات الطبية لمعالجة الاسنان وتنظيفها ٠

(٦٤) فضالة الخوان فى طبيات الطعام والألوان ، ص ٢٧٧ وما بعدها وفيها تفصيل كل صفة وما تتكون منه من مواد عطرية وأعشاب ٠

(٦٥) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ج٢ ، ص ٥٧٤ ـ ٥٧٥ ٠

(٦٦) نفس المصدر والجزء ، ص ٥٦٨ وأنظر أيضا الاشارة الى مدينة شلب ، ص ٥٤٣ ٠

(٦٧) الاحاطة فى اخبار غرناطة ، ج١ ، ص ١٣٥ ٠

(٦٨) انظر الادريسى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٥٧٥ . ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ ـ الحميرى ٠ الروض المعطار ، ص ٤٥٦ وما بعدها ، ابن الشباط : قطعة فى وصف الأندلس من كتاب صلة السمط ، تحقيق أحمد مختار العبادى ، ص ١٣٩ ـ ١٤٢ ـ ١٥٠ ـ ابن سعيد : المرب ، ج١ ، ص ٢٩٣ ٠

(٦٩) انظر ابن عبدون : رسالة فى القضاء والحسبة ، ص ٣٧ ٠

(٧٠) ابن حجاج ، المقنع فى الفلاحة ، ص ٩ ٠

(٧١) التيسير ، ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ ٠

(٧٢) التيسير ، ص ٤٢١ ٠ ونجد فى كتاب المقنع لابن حجاج وصف مواد لمكافحة الفئران والبراغيث والنمل والذباب والبق والبعوض وكثير من الحشرات ٠

(٧٣) أحمد الطوخى : غرناطة الاسلامية فى نظر الرحالة الاجانب مقال ، بمجلة أوراق (العدد الرابع ، ١٩٨١م ، ص ١٤٣) ٠

(٧٤) قصة العرب فى أسبانيا ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ٠

(٧٥) محمد حامد منصور ، ذكريات ومشاهدات اندلسية ، (مقال منشور بمجلة الفيصل ، العدد ١٩٨ ، ١٤١٣هـ ، ص ٤٩ ٠

(٧٦) الزجالى (أمثال العاوم) ٠ تحقيق محمد بن شريفه ٠ ق٢ ، ص ١٣ ٠

(٧٧) المصدر والقسم نفسه ، ص ٢٥٥ ، ص ٤٢٦ ٠

(٧٨) المصدر نفسه والقسم ، ص ٤٢٦ ٠

(٧٩) ق٢ ، ص ٤١٨ ٠

(٨٠) ق٢ ،ص ١١٥ ٠

(٨١) ق٢ ، ص ١٤٤ ٠

(٨٢) ق٢ ، ص ٢٦٨ ٠

(٨٣) ق٢ ، ص ٣٤٦ ٠

مصادر ومراجع البحث

أولا : المصـادر :

- الأدريسى . محمد بن محمد (ق٦هـ)
نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة (د.ت) .

- التجيبى . على بن محمد (ق٧هـ)
فضالة الخوان فى طيبات الطعام والألوان . تحقيق محمـــد بن شثرون دار المغرب الاسلامى . الرباط . ط الأولى ١٩٨٤م .

- الجرسيفى عمر بن عثمان (ق٦هـ)
رسالة فى الحسبة . تحقيق ليفى بروفنسال . مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية . القاهرة ١٩٥٥م .

- ابن حجاج . أحمد بن محمد (ق ٥هـ)
المقنع فى الفلاحة . تحقيق صلاح جرار ، جاسر أبو صـــفية . مجمع اللغة العربية الاردنى ، ١٤٠٢هـ .

- الحميرى . محمد بن عبد المنعم (ت حوالى ٧١٠هـ)
الروض المعطار فى حبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة بيروت . ط الثانية ١٩٨٠م .

- ابن الخطيب . لسان الدين محمد (ت ٧٧٦هـ)
الاحاطة فى أخبار غرناطة.تحقيق محمد عنان . مكتبة الخانجى. القاهرة . ط الأولى ١٣٩٤هـ .

- ابن خلصون . محمد بن يوسف (ق ٧ هـ)
فصول من المقالة الثالثة من كتابه الأغذية وحفظ الصحة . منشورة فى كتاب الطب والأطباء فى الأندلس الاسلامية لمحمـــد العربى ، ج٢ ، دار الغرب الاسلامى . بيروت ، ط الأولى ١٩٨٨م .

ـــ الزجالى ، عبيد الله بن أحمد (ت ٦٩٤هـ)
أمثال العوام ، دراسة محمد بن شريفة ، مطبعة محمد الخامس ، فاس ١٣٩١هـ ،

ـــ ابن زهر ، عبد الملك بن أبى العلاء (ت ٥٥٧ هـ)
التيسير فى المداواة والتدبير ، تحقيق ميشيل الخورى ، دار الفكر ، دمشق ط الأولى ١٤٠٣هـ ،

ـــ ابن سعيد ، على بن موسى (ت ٦٨٥هـ)
المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق شوقى ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ط الثالثة ،

ـــ السقطى ، محمد بن أبى محمد (ق ٥هـ)
فى آداب الحسبة ، تحقيق د، حسن الزين ، مؤسسة دار الفكر الحديث ، بيروت ١٤٠٧هـ ،

ـــ ابن عبد الرؤوف ، أحمد بن عبد الله (ق ٥هـ)
رسالة فى آداب الحسبة والمحتسب ، تحقيق ليفى بروفنسال مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٥٥م ،

ـــ ابن عبدون ، محمد بن أحمد (ق ٥هـ)
رسالة فى القضاء والحسبة ، تحقيق ليفى بروفنسال ، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٥٥م ،

ـــ ابن غالب ، محمد بن أيوب (ق ٦هـ)
فرحة الأنفس ، تحقيق لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، ج١ الجزء الأول (٢٧٢ ـ ٣١٠) ،

ثانيا : المراجع :

ـــ امريكو كاسترو : حضارة الاسلام فى اسبانيا ، ترجمة د، سليمان العطار ، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٨٣م ،

ـــ ستانلى لينبول ٠ قصة العرب فى اسبانيا ٠ ترجمة على الجارم دار المعارف ٠ مصر ٠

ـــ لطفى عبد البريع ٠ الاسلام فى اسبانيا ٠ مكتبة النهضة المصرية ٠ القاهرة ، ط ١٩٦٩م ٠

ـــ يوسف شكرى ٠ غرناطة فى طل بنى الأحمر ٠ المؤسسة الجامعيـة للدراسات الجامعية والنشر ، بيروت ، ط الأولى ٠

ثالثا : المقـــالات :

ـــ أحمد الطوخى ٠ غرناطة الاسلامية فى نظـــر الرحالة الأجانـــب (مقالة منشورة بمجلة أوراق ٠ المعهد الاسبانى العربى للثقافة)٠

ـــ محمد حامد منصور ٠ ذكريات ومشاهدات أندلسية (مقالة منشورة بمجلة الفيصل العدد ١٩٨ ، ١٤١٣هـ) ٠

ـــ دائرة المعارف الاسلامية ٠ ترجمة أحمد الشنتناوى وآخرون ٠ دار الفكر ، ١٩٣٣م ٠

آل الجنابى بين الفاطميين والعباسيين
فى
القرنين الثالث والرابع للهجرة

د٠ يمنى رضـــوان(*)

دعوة الباطنية وآل الجنابى : ـ

آل الجنابى طائفة من الباطنية(=) ٠ ومن المعـــروف أن الدعوة الباطنية قام بتأسيسها عدة أشخاص منهم ميمون بن ديصان(×) المعروف بالقداح ، وقد ادعى أنه من نسل عقيل بن أبى طالب ٠ وعندما دخل فى دعوته قوم من غلاة الرفض(١) والحلولية(٢) ادعى أنه من ابناء محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، فاستجاب له كثير من الناس(٣) ٠

وقد ولى عبد الله بن ميمون القداح زعامة الدعوة بعد وفاة والده ، وعندما علم العباسيون بنشاطه أمروا بالقبض عليه ففر هو وزميل آخر يدعى الحسين الأهوازى الى سلمية(٤) واتخذاها دار هجرة ومركـزا رئيسيا لهم يرســـلون منها الدعاة لنشر دعوتهم فى أنحـاء العـــالم الاسلامى(٥) ٠ وبعد وفاة عبد الله بن ميمون ولى ابنه أحمـــد زعامة الدعوة وقام بارســـال الداعى الحســـين الأهـــوازى عام ٢٦٤هـ (٨٧٧م) الى العراق حيث التقى بحمدان بن الاشعث(٦) قرمط(٧) ـ الذى تنسب اليه القرامطة ويعتبر مؤسس الدعـــوة الاســـماعيلية بين القرامطة(٨) ـ وافضى اليه بأسرار الدعوة بعد أن أخذ عليه العهـــد ، ـ والعهد هو القسم ـ بأن يجعل للحسين الاهوازى وللامام على نفسه عهد الله وميثاقه بأن لا يخرج سر الامام الذى علمه ٠ ولا يفشى سر الحسـين الأهوازى(٩) ٠ وقد ترك الحسين الأهوازى أمر الدعوة فى سواد العراق

(*) مدرس التاريخ الاسلامى ـ كلية التربية ـ جامعة القاهرة ـ فرع الفيوم ٠

الى حمدان قرمط ، الذى تمكن من بث دعاته فى السواد ليأخذ على الناس العهد ، فانتشرت الدعوة الاسماعيليةبفضله انتشارا كبيرا (١٠) ٠

وكان من دعاة حمدان صهره عبدان (١١) ، وكان يدعو الى الامام محمد بن اسماعيل بن جعفر (١٢) وممن استجاب اليه فى دعوته أبو سعيد (١٣) الجنابى (١٤) الذى أسس دولة للقرامطة فى بلاد البحرين (١٥) وزكرويه بن مهرويه زعيم قرامطة الشمال أى شمال غرب بلاد العراق وبادية السماوة (١٦) وبعض بلاد الشام (١٧) ٠

وعندما تمكن حمدان من احكام السيطرة على اتباعه حلل لهم ترك الفرائض،مؤكدا أنهم غير مطالبين بالصوم والصلاة وغير ذلك من أركان الدين،وأنأموال ودماء المخالفين لهم أصبحت مباحة لهم ؛ ومعرفة صاحب الحق - الامام محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق الذى يدعو اليه - تغنى عن التكاليف الدينية الأخرى ٠ وهذا الامام لم يمت ، وهو المهدى المنتظر الذى سوف يظهر فى آخر الزمان (١٨) ٠

وكان حمدان بنالأشعث قرمط يراسل دعاة الفاطميين بسلمية٠ولكنه لاحظ تغييرا فى أسلوب الرسائل التى كان يرسلها اليه رئيس الدعاة فى سلمية٠وعندما أرسل عبدان ليستكشف له الأمر،وجد أنالشخص الذىكانوا يراسلونه وهو أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح قد توفى وخلفه ابنه الحسين ، فسأل عبدان الحسين عن الامام الذى يدعو اليه ، فسأله الحسين بتعجب ومن هو الامام ؟ فقال عبدان أنه محمد بن اسماعيل (١٩) بن جعفر الذى دعا له أحمد بن عبد الله وكان حجته ، فأنكر الحسين دلك وقال (ان الامام كان والدى وأنا الآن أحل محله) ٠

استنكر حمدان أن يتولى الحجة رتبة الامام ، وبالأصح ان يتولى الامامة شخص لا يمت الى العلويين بصلة ٠ ولذلك أمر حمدان دعاته بايقاف الدعوة فى المناطق التابعة له ، لكنه لم يستطع ايقافها فى الأماكن الأخرى ، فقد تسربت الدعوة وامتدت الى سائر الأقطار (٢٠) ٠

وسرعان ما اختفى حمدان قرمط وقتل عبدان لانتقاضهما على

رياسة الدعوة وعلى ابناء القداح(٢١) . وكان لانفصال حمدان عن الدعوة عدة نتائج منها انقطاع العلاقات بين دعاة الفاطمين فى الشام - سلمية - ، والقرامطة ، بعد أن كانت الدعوتان متفقتين(٢٢) ، كما ان دعـــوة القرامطة خمدت فى العراق وتحول نشاط القرامطة نحو الشمال على يد زكرويه بن مهـــرويه الدندانى ، ونحو الجنوب على يد أبى ســـعيد الجنابى(٢٣) .

تأسيس دولة آل الجنابى فى بلاد البحرين :

وكان أن لاقت الدعوة الاسماعيلية على يد حمدان بن الأشعث - الملقب بلقب قرمط - وصهره عبدان الكثير من النجاح واستجاب لها الكثير من الناس منهم أبو سعيد الجنابى الذى أسس دولة القرامطة فى بلاد البحرين .

وكان عبدان صهر حمدان قد أرسل أبا سعيد الجنابى - أحد دعاة القرامطة - الى جنوب ايران ، فانتشرت تعاليمه بنجاح كبير ، لكنه سرعان ما اختفى عندما اكتشفت الشرطه أمره وأخذت تبحث عنه ، فاستدعاه حمدان قرمط ثم أرسله الى البحرين لينشر دعوته هناك ، فأحرز نجاحا كبيرا(٢٤) حتى تمكن من الاستيلاء على بلاد البحرين(٢٥) .

ومن الواضح أن المؤرخين لم يتفقوا على السنة التى ظهرت فيها دعوة القرامطة فى البحرين ، فالبعض يقول ان ذلك كان عـــام ٢٨٣هـ (٨٩٦م) مثل ابن خلدون(٢٦) وآخرون(٢٧) يقولون ان ذلك كان عام ٢٨٦هـ (٨٩٩م) مثل الطبرى(٢٨) وابن الجوزى(٢٩) وابن الأثير(٣٠) وأبى المحاسن(٣١) .

ويبدو أن كلا الرأيين على صواب ، فالدعوة أخذت طـــريقها الى البحرين منذ عام ٢٨٣هـ (٨٩٦م) ، ثم ظهرت وانتشرت وأسس القرامطة دولة لهم بالبحرين منذ عام ٢٨٦هـ (٨٩٩م) .

وعندما قام أبو سعيد الجنابى بنشر دعوته فى بلاد البحرين(٣٢) ، دعا الى امام من أهل البيت ، قيل انه محمـــد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، وقيل انه محمد بن الحنفية(٣٣) . وكان أبو سعيد يدعى أنه

ينتسب الى العلويين ، كما أدعى أنه المهدى القائم بدين الله حتى يجذب الناس(٣٤) ، فتقبل الأهالى دعوته وخاصة الاعـــراب الذين أسرعوا بالانضمام اليه والالتفاف حوله(٣٥) ، لأنـــه خفف عنهم الفرائض ، فاختصر الصلاة وجعلها فرضين صباحا ومســـاء ، وأعفاهم من صـــوم رمضان . ولذا أحب البدو أبا سعيد وأكبروه وعظموه ، وقالوا انه الامام المنتظر بعينه(٣٦) .

ومما هو جدير بالذكر ان انضمام الاعراب الى ابى سعيد لم يكن ناتجا عن ايمانهم بدعوته وانما سعيا وراء مصلحتهم الخاصة ، والسماح لهم بالسلب والنهب(٣٧) .

والواقع ان هناك ظروفا كثيرة وعوامل عديدة ساعدت على انتشار دعوة القرامطة فى الشرق الاسلامى،منها حالة الضعف التى اتصفت بها الخلافة العباسية فى ذلك الوقت ، وازدياد نفـــوذ الاتراك واستبدادهم بأمور الخلافة،وانشغال الخلفاء العباسيين فى أواخر القرن الثالث الهجرى بالقضاء على الفتن والثورات التى أثارها الأتراك والتى اثارها صاحب الزنج (٢٥٥ - ٢٧٠هـ/٨٦٨ - ٨٨٣م(٣٨) . هـــذا الى أن المشرق الاسلامى تميز فى ذلك الدور بسوء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، فازدادت الضرائب وتعسف الجباة فى جبايتها . يضاف الى ما سبق انتشار الفقر وزيادة ظلم الملاك للفلاحين ، وغير ذلك . وقد استفادت الحـــركة القرامطية من تلك العوامل وجذبت اليها الساخطين والمتذمرين ووعدتهم باجابة مطالبهم ، فالتف حولها الكثير(٣٩) . ومما ساعد على انتشار دعوة القرامطة تقسيم الدعوة الى درجات مبسطة حتى يسهل فهمها وجذب الناس اليها(٤٠) ومن الواضح أن طبقة العامة لم تكن على درجة كافية من الوعى والثقافة تجعلها تستطيع ان تكتشف مـــدى صـــدق هـــده الدعوة(٤١) . هذا الى أن العناصر غير العربية - وبخاصة الفرس - كان هدفها القضاء على سيادة العرب ، اذ كان الموالى يحقدون على العرب وعلى ما يتمتعون به من سيادة دينية وسياسية ، لذلك شايعوا اية حركة ثورية للقضاء على نفوذهم(٤٢) . وهناك بعض اسر عربية فى منطقة السواد استجابت لدعوة القرامطة مثل أسرة آل سنبر التى اجابت الحسن بن بهرام الجنابى الى دعوته(٤٣) .

وهكذا اشتدت شوكة أبى سعيد بمن انضم اليه ، فأخذ يقتل أهالى القرى المجاورة الذين رفضوا تلبية دعوته ، واتجه نحو القطيف(٤٤) حيث قتل من بها من الأهالى . ولم يمتنع على أبى سعيد سوى هجر - عاصمة البحرين . وفى سنة ٢٨٧هـ (٩٠٠م) أغار قرامطة البحرين على هجر وحاصرها أبو سعيد لمدة سنتين(٤٥) . وخلال هذا الحصار أخذ القرامطة يقتربون من البصرة(٤٦) ، فأرسل أحمد بن محمد بن يحيى الواثقى- معاون البصرة وكور دجلة الى بغداد بأمر القرامطة ، وشرع فى بناء سور حول البصرة للدفاع عنها(٤٧) . وعندما سمع الخليفة العباسى المعتضد(٤٨) (٢٧٩ : ٢٨٩هـ/٨٩٢ : ٩٠١م) بأمر القرامطة ، أسرع بارسال جيش كبير من البصرة بقيادة العباس بن عمرو الغنوى - بعد أن ولاه على اليمامة والبحرين - والتقى العباس بن عمرو بأبى سعيد الجنابى عام ٢٨٩هـ(٩٠١م)عند هجر، واستمر القتال بينهما طوال يومين انتهى بنجاح ابى سعيد فى هزيمة العباس واسره وقتل جميع من كان معه ، ثم حرقهم بالنار واستولى على ما معهم(٤٩) .

على أن أبا سعيد الجنابى اطلق سراح العباس بن عمرو الغنوى وأرسل معه رسالة ليسلمها الى الخليفة المعتضد(٥٠) . وقد اختلف المؤرخون فى أمر هذه الرسالة ، فالبعض(٥١) ذكر ان الرسالة لم تكن قد دون بها شىء . وعندما تسلم المعتضد الرسالة ولم يجد بها شيئا قال أنه يعنى من هذه الرسالة اننى ارسلتك اليه على رأس جيش كبير العدد فردك بمفردك . والبعض(٥٢) الآخر ذكر ان ابا سعيد عندما أطلق سراح العباس اعطاه رسالة ليسلمها الى المعتضد يأمره فيها أن يكف عن ارسال الجيوش اليه ، كما أنه هدده بأنه سيتغلب على أى حملة يرسلها ويبيدها، مثلما فعل مع العباس بن عمرو.وهذا يدلنا على مدى ثقة أبى سعيد بنفسه وامتلاكه عناصر كثيرة من القوة مما هيأ له النجاح ، حتى امتلك مدينة هجر بعد أن منح أهلها الأمان(٥٣) وبذلك بسط نفوذه على البحرين والأحساء(٥٤) واليمامة(٥٥) .

سياسة آل الجنابى تجاه الفاطميين :

اتصفت العلاقة بين ابى سعيد وبين الخلافة الفاطمية الناشئة

بالفتور ؛ لأن أبا سعيد كان أشبه بملك مستقل وليس تابعا للدولة الفاطمية . ولذا لم يتقيد فى سياسته بآراء زعماء الدعوة الاسماعيلية ، وانما كان صريحا فى نشر آراء المذهب الاسماعيلى . ذلك أن المجتمع القرمطى كان مجتمعا اسماعيليا بحتا ـ وذلك على عكس سياسة الفاطميين التى قامت باخفاء آراء هذا المذهب عن رعاياهم .

وكان آل الجنابى يخضعون فى دور الستر لرياسة الدعوة فى سلمية . غير أن هذا الخضوع فتر قليلا ، فعز على زعمائهم أن يسلبوا بعض نفوذهم نظرا لظهور الامام المستور فى شخص عبيد الله المهدى الفاطمى ٢٩٧ ـ ٣٢٢ هـ (٩٠٩ ـ ٩٣٣م) ، ولذلك لم يعد أبو سعيد الحسن يتحمس للخلافة الفاطمية تحمسه للامامة المستورة .

ولما ادرك الخليفة العباسى المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ/٩٠٧ ـ ٩٣٢م) ووزيره على بن عيسى فتور العلاقة بين ابى سعيد والفاطميين ، ومدى الخطر الذى ستتعرض له الخلافة العباسية اذا اتحد أبو سعيد الجنابى وعبيد الله الفاطمى ، عملا على جذب أبى سعيد اليهما . ومما يدل على التقارب بين أبى سعيد والعباسيين أنه لم يمد يد العون والمساعدة للفاطميين خلال حملتهم على مصر عام ٣٠١ ـ ٣٠٢هـ/٩١٣ ، ٩١٤م مما ساعد على فشل تلك الحملة(٥٦) .

على أنه يبدو أن فتور العلاقة بين أبى سعيد والفاطميين كان من أهم العوامل التى أدت الى قتله . ويقال أنه كان لدى أبى سعيد خادم صقلبى قام بقتل سيده بايعاز من الخليفة عبيد الله المهدى الذى شعر بخروجه عن سياسته(٥٧) وكذلك يقال ان هذا الخادم لاحظ أن سيده لا يصلى ولا يصوم شهر رمضان ، لذلك قام باغتياله فى الأحساء عام ٣٠١هـ(٥٨) (٩١٣م) .

ولم يتوقف الفتور بين آل الجنابى والفاطميين بموت أبى سعيد الجنابى ، وانما استمرت الجفوة فى عهد ابنه أبى القاسم سعيد ٣٠١ ـ ٣٠٥هـ (٩١٣ ـ ٩١٧م) ـ الذى آلت اليه زعامة آل الجنابى . ذلك أن

أبا القاسم سار على سياسة أبيه فى التقرب الى العباسيين والتباعد عن الفاطميين.ومما يدل على ذلك الرسالة التى أرسلها أبو القاسم سعيد الى على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر العباسى والتى أعلن فيهـــا ولاءه للعباسيين وانه يدين بالعقائد السنية.هذا الىأن أباالقاسم سعيد ولىالحكم بالوراثة ــ فقد عهد اليه أبوه بدلك قبل وفاته ــ ولم يتم تعيينه من قبل الفاطميين . ولاشك فى أن هذا الاتجاه أثار الخليفة الفاطمى عبيد الله المهدى الذى كان يعمل لتكون له الزعامة المطلقة على جميع الاسماعيلية.

على أن القرامطة انقسموا الى فريقين ، فريق يناصر سعيد ،وهذا الفريق كان قليل العدد . وفريق ظل على ولائه للفاطميين ، وكان يضم أبا طاهر سليمان أخى أبى القاسم سعيد . وهؤلاء كانوا كثره(٥٩)،لذلك عملوا على عزل أبى القاسم سعيد عن الزعامة ثم قتله وقام الفاطميون بتولية أخيه أبى طاهر سليمان عام ٣٠٥هـ (٩١٧م) ، وأرسل عبيد الله المهدى كتابا اليه بتوليته(٦٠) .

وهكذا نجح الخليفة الفاطمى فى ادخال آل الجنابى دائرة التبعية للدولة الفاطمية .

والواقع أن علاقة الفاطميين فى بلاد المغرب بآل الجنابى فى بلاد البحرين غدت طيبة منذ أن ولى أبو طاهر عام ٣٠٥هـ (٩١٧م) وحتى نهاية حكمه عام ٣٣٢هـ (٩٤٣م) . ذلك أن أبا طاهر سليمان التزم بتبعيته الفاطميين ، وشايعهم فى سياستهم التى تهدف الى القضاء على الخلافة العباسية ، ولهذا تحالف مع عبيد الله المهدى فى سياسته العدائية ضد العباسيين ، واتفقا على اتباع سياسة موحدة من ثلاث شعب : ــ

الأمر الأول : هو أن يســـاعد أبو طاهر الفاطميين فى فتح مصر وذلك بأن يشن هجوما عليها من الشرق ليلتقى بجيوش عبيد الله بها ، أو أن يعمل الحيلة على الخلافة العباسية حتى لا تستطيع ارسال جيوشها لنجدة مصر .

الأمر الثانى : هو ان يشغل العباسيين بالهجـــوم عليهم فى بلاد العراق حتى يتمكن عبيد الله المهدى من تنظيم شئون المغرب ٠

الأمر الثالث : الاغارة على مكة وعلى قوافل الحجاج حتى يقلل هذا من هيبة الخليفة العباسى كزعيم للمسلمين٠

وفيما يختص بالأمر الأول اتفق الفاطميون مع القرامطة عام ٣٠٧هـ (٩١٩م) على القيام بهجوم مزدوج على مصر بحيث تهاجمها جيوش القرامطة من الشرق وجيوش الفاطميين من الغرب ويلتقى الطرفان فى مصر ٠ ولكن هذه الخطة فشلت ، اذ أسرعت الخلافة العباسية بارسال الجيوش من بغداد الى مصر بقيادة مؤنس الخادم، الذى تمكن من ايقاع الهزيمة بجيش أبى القاسم بن المهدى قبل ان تصل اليه جيوش أبى طاهر٠ وبذلك فشلت الحملة الفاطمية الثانية على مصر،ولكنها رغم فشلها أثبتت ولاء أبى طاهر للفاطميين كما أنها ألقـــت الرعـــب فى قلوب أهالى البلاد(٦١) ٠

آل الجنابى والخلافة العباسية :

أما بالنسبة للأمر الثانى فنلاحظ ان أبا طاهر سليمان شن عـــدة حملات على الخلافة العباسية فى المشرق ، حتى يتمكن عبيد الله المهدى من بسط نفوذه على المغرب ، فقام بعدة غزوات متتالية للاستيلاء على البصرة ٠ من ذلك أنه سار الى البصرة عام ٣٠٧هـ (٩١٩م) واستولى على خيراتها وقتل أهلها وخرب أراضيها(٦٢) ٠ وفى عام ٣١١هـ (٩٢٣م) تمكن من دخول البصرة وقتل أهلها وحاميتها وأميرها المســمى سبكا المفلجى، وأستولى علىأموالها وضرب جامعها وأراضيها٠ومكث فيها سبعة عشر يوما ثم عاد الى بلده٠وتعتبر هذه من أشد الغزوات التى قام بها على البصــرة ٠

ومن ناحية أخرى فانه اعترض احدى قوافل الحجاج عام ٣١٢هـ (٩٢٤م) أثناء عودتها من مكة،واستولى على ما مع الحجاج وأسر الكثير منهم وقتل الأسرى(٦٣) ٠

وعندما علم بقية الحجاج بمـــا حدث للقافلة الســـابقة مكثوا فى فيد(٦٤) حتى نفدت مؤنتهم، فأسرعوا عائدين الى طريق الكوفة،وعندئذ اعترضهم القرامطة واستولوا على ما معهم . ثم عاد أبو طاهر ومن معه الى هجر،وترك الحجاج مشردين فى البادية فمات أكثرهم عطشا من شدة حرارة الشمس .

ولما أرسل الخليفة المقتدر الى أبى طاهر يطلب منه أن يطلق سراح أسرى الحجاج،أطلقهم وطلب منهم ابلاغ الخليفة برغبته فى تولى البصرة والأهواز.غير أن الخليفة رفض ، فخرج أبو طاهر من هجر واعترض الحجاج(٦٥) ـ الذين كان يتزعمهم جعفر بن ورقاء الشيبانى ، متولى اعمال الكوفة وطريق مكة . وكان يقوم بحمايتهم قادة الجيش ـ فقاتلهم وأخذ يتبع القافلة حتى باب الكوفة وانهزم عساكر الخليفة ولم يتم الحج لأحد(٦٦) . وتمكن أبو طاهر بذلك من دخـــول الـكوفة عام ٣١٢هـ (٩٢٤م) وخربها وفعل بها أشد مما فعله بالبصرة،واستولى على أموالها وقتل أهلها ، وظل بها ستة أيام ثم عاد الى هجر(٦٧) .

وفى عام ٣١٥هـ (٩٢٧م) توجه أبو طاهر لمحاربة يوسف بن أبى الساج الذى كان بواسط حيث أرسله الخليفة العباسى لمحاربة القرمطى . ولكنه لم يستطع المسير الى بلدة أبى طاهر أمير القرامطة لكثرة جيوشه وصعوبة الأرض ، فلجأ الى الحيلة وأرسل اليه وأظهر له المودة « وأطمعه فى أخذ بغداد » فسر بذلك ورحل ومعه أتباعه وحاشيته وجيشه فى كامل عدته واتجه نحو الكوفة . وكان يوسف بن أبى الساج قد اتجه بجيشه من واسط الى الكوفة،ولكن أبا طاهر سبقه اليها واستولى على الكوفة وعلى المؤن التى كانت بها والتى أعدت لابن أبى الساج(٦٨) . وكان أن نشب القتال بين أبى طاهر ويوسف بن أبى الساج حتى تمكن الأول من هزيمة القائد العباسى ابن أبى الساج وأسره(٦٩) .

وهكذا ازداد نفوذ أبى طاهر القرمطى حتى شرع فى مهاجمة بغداد فى عام ٣١٦هـ(٩٢٨م).وكاد يستولى عليها لولا مهارة مؤنس الخادم قائد الخليفة العباسى الذى أرسل القوارب المليئة بالفاكهة المسمومة الى جند

القرامطة ، فكثرت الميتة فيهم(٧٠)• كذلك قطع القنطرة التى توصل الى هذه المدينة ليحول دون تحقيق هدفهم فى السيطرة على بغداد•وبذلك انهزم جيش القرامطة بقيادة أبى طاهر وتكبد خسائر فادحة(٧١) •

وعلى الرغم من هزيمة أبى طاهر أمام بغداد،الا أنه ظل يأمل فى السيطرة عليها والدعوة فيها للمهدى الفاطمى •

وفى عام ٣١٦هـ (٩٢٨م) تمكن أبو طاهر من بسط نفوذه على الرحبة(٧٢) بعد أن دارت بينه وبين أهلها عدة حروب • وعندما علم بهذا أهل قرقيسياء(٧٣) أسرعوا بطلب الآمان منه،فمنحهم الآمان •وبعد ذلك اتجه نحو الرقه وبسط نفوذه عليها،ثم عاد الى بلاد البحرين وبنى بها دار هجرة(٧٤) •

وكان من نتائج انتصار القرامطة ان ظهرت اعداد ممن كانوا يدينون بمذهبهم ويخفون عقيدتهم • وقد اجتمع هؤلاء فى سواد الكوفة واختاروا رئيسا لهم هو حريث بن مسعود ، كما اجتمعت مجموعة أخرى من القرامطة فى عين القمر(٧٥) وولوا شئونهم رجلا يعرف بعيسى وأخذوا ينهبون ويقتلون • وقد أرسل الخليفة المقتدر العباسى هارون بن غريب الى حريث بن مسعود ، وصافيا البصرى الى عيسى بن موسى•وتمكن كل من هارون وصافيا من هزيمة تلك الجموع وأسر كثير منهم ، وتم ارسالهم الى بغداد حيث قتل معظمهم(٧٦) •

وهكذا استمر أبو طاهر بن أبى سعيد الجنابى يغير على البلاد ويسلب ويقتل ويخرب ، حتى قوافل الحجاج لم تسلم من شره • وكان يهدف من وراء هذا كله أن يؤكد اخلاصه للفاطميين وأن يشغل العباسيين بهذه الحروب حتى يتمكن عبيد الله المهدى من توطيد نفوذه فى المغرب•

وفى عام ٣١٧هـ (٩٢٩م) قام القرامطة بفعلة شنعاء ، اذ اقتحموا مكة وهى مكتظة بالحجاج ، واستطاع أبو طاهر سليمان (٧٧) أن ينفذ الى المسجد الحرام فى يوم الترويه(٧٨) حيث فعل أفعالا لا يفعلها المشركون ولا اليهود بمكة(٧٩) •

ذلك أنه قام بذبح الحجاج أثناء وجودهم بالمسجد الحرام وأثناء طوافهم ، وخلال سيرهم فى طرقات مكة دون أن يراعى حرمة هذا البلد الأمين ، كما قتل الكثير من عساكر المسلمين ٠ وعندما خرج اليه ابن مجلب(٨٠) أمير مكة ومعه بعض الاشراف لمحاربته ، تمكن أبو طاهر من هزيمتهم وقتلهم جميعا ، وردم بئر زمزم بجثثهم ، كما دفن الباقين فى المسجد الحرام دون أن يكفنهم أو يصلى عليهم(٨١) وقيل ان الجنابى استملك من النساء والغلمان اعدادا ضخمة ضاق بهم الفضاء وأنه قتل بمكة ألوفا(٨٢) ، بلغوا ثلاثة عشر ألفا ٠

ويقال أن أبا طاهر جلس يوم الترويه على باب الكعبة يشاهد الحجاج وهم يتساقطون صرعى حوله وأخذ ينشد(٨٣) :

أنا لله وبالله أنا ... يخلق الخلق وأفنيهم أنا

وبعد ذلك قام ومن معه بنهب أموال الحجاج وسلب متاع أهل مكة وقلع قبة بئر زمزم وقلع باب الكعبة وستائرها ، وأرسل رجلا من أصحابه ليصعد ويقلع المرزاب (الميزاب) ، ولكنه وقع على رأسه ومات ٠ ثم قام بقلع كسوة الكعبة وقسمها بين أصحابه ٠ ولم يكتف بهذا بل تجرأ واقتلع الحجر الأسود ، كما أقام الخطبة فى مكة للخليفة الفاطمى عبيد الله المهدى بدلا من الخليفة العباسى المقتدر(٨٤) ٠

قيل أنه أثناء قيامه بهذه الأفعال البشعة أخذ يردد : ـ

فلو كان هذا البيت لله ربنا ... لصب علينا النار من فوقنا صبا
لأنا حججنا حجة جاهلية ... مجللة لم تبق شرقا ولا غربا
وانا تركنا بين زمزم والصفا ... كتائب لا تبغى سوى ربها ربا
ولكن رب العرش جل جلاله ... فلم يتخذ بيتا ولم يتخذ حجبا

وبعد أن ظل أبو طاهر(٨٥) فى مكة أحد عشر يوما ، عاد الى الاحساء ومعه الحجر الأسود والأسرى وما سلبه من مكة(٨٦) ٠ وقد استمر الحجر الأسود فى حوزة القرامطة بالبحرين اثنتين وعشرين سنة

تقريبا من ٣١٧ - ٣٣٩هـ (٩٢٩ - ٩٥٠م)(٨٧) وعندما عاد أبو طاهر الى بلده ابتلاه الله بمرض الجدرى،وتقطع جسده وهو ينظر اليه(٨٨).

ومن الواضح أنه لم يأخذ الحجر الأسود من مكة سعيا وراء المال. ذلك أن بجكم والى بغداد - فى أيام الخليفة العباسى المستكفى (٣٣٣ - ٣٣٤هـ/٩٤٤ - ٩٤٥م) بذل للقرامطة خمسين ألف دينار من الذهب لكى يردوا الحجر الأسود،لكنهم رفضوا(٨٩). وانما كان الهدف طعن الخلافة العباسية واظهار ضعفها أمام المسلمين وعجزها عن حماية الحجاج . هذا بالاضافة الى رغبة القرامطة فى جذب المسلمين للحج الى بلادهم بدلا من مكة(٩٠) . ويتضح لنا ذلك من أخذهم الحجر الأسود الى بلادهم(٩٠) . ولكن على الرغم من أن الحجر الأسود ظل فى البحرين اثنتين وعشرين سنة ٣١٧ - ٣٣٩هـ (٩٢٩ - ٩٥٠م)(٩١) الا أن أحدا من المسلمين(٩٢) لم يتردد على بلاد القرامطة لزيارته .

وكان من نتائج هذه الحادثة - ان اعتنق ضعاف العقيدة من أهالى العراق مذهب أبى طاهر بعد أن افتتنوا به(٩٣) . هذا الى أن هذا الحادث أظهر فعلا مدى ضعف الخلافة العباسية وعجزها عن حماية الحجاج ورعاية المسلمين ، وهذا هو ما كان يستهدفه القرامطة والفاطميون(٩٤) .

وقد ذكر بعض المؤرخين ان عبيد الله المهدى عندما علم بما قام به أبو طاهر أسرع بارسال رسالة(٩٥) اليه يهدده ويوبخه لما فعله(٩٦) . واذا صح ذلك فاننا نرى أن هدف الخليفة الفاطمى تبرئة نفسه من تلك الجريمة التى اهتز لها العالم الاسلامى بأسره .

ولم يكن هذا هو كل ما قام به أبو طاهر ، فبعد أن هاجم مكة وبسط نفوذه عليها واقام الخطبة فيها لعبيد الله المهدى ، فرض على الحجاج اتاوة عام ٣٢٧هـ ٩٣٨م يدفعونها اليه مقابل عدم التعرض لهم. وكان الحج قد توقف منذ سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م) فلم يحج أحد من العراق - خوفا من القرامطة - الا بعد عشر سنين تقريبا عندما أرسل أبو على عمر بن يحيى العلوى الى أبى طاهر القرمطى وطلب منه ان لا يتعرض

للحجاج مقابل أن يعطيه عن كل حمل خمسة دنانير ، فوافق وأدى الناس فريضة الحج ذلك العام « وتعتبر هذه أول سنة أخـــذ فيه المكس من الحجاج »(٩٧) ٠

اضطراب العلاقة بين الفاطميين وآل الجنابى :

أستمر أبو طاهر سليمان الجنابى على اخلاصـــه للفاطميين حتى توفى عام ٣٣٢هـ (٩٤٣م) بمرض الجدرى كما سبق أن أشرنا ٠ ولم يترك رغم كثرة أبنائه من يصلح للحكم،فقد كان سابور بن أبى طاهر أكبر أبنائه العشرة لا يزال طفلا لا يمكن الاعتماد عليه ٠ لذلك قام الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله (٣٢٢ - ٣٣٤هـ/٩٣٣ - ٩٤٥م) بتعيين - أخى أبى طاهر - أحمد بن أبى سعيد(٩٨) الملقب بأبى المنصور فى حكم دولة آل الجنابى فى البحرين ، وجعل سابور بن أبى طاهر وليا للعهد(٩٩)٠

وقد اتبع أمير القرامطة أحمد بن سعيد (٣٣٢ - ٣٥٩هـ) (٩٤٣-٩٦٩م) سياسة أخيه فى ولائه للفاطميين ، فأعاد الحجر الأســود من الأحساء الى الكعبة عام٣٣٩هـ(٩٥٠م) خلال خلافة الخليفة المطيع(١٠٠) بدون مقابل(١٠١)، وقال من ردوه « أخذناه بأمر وأعدناه بأمر »٠ ومن هذا يبدو أن أحمد بن أبى سعيد رد الحجر الأسود عنـــدما أمره بذلك الخليفة المنصور الفاطمى ، مما يدل على مدى خضوع قرامطة البحرين للفاطميين ٠ ولما شرع آل الجنابى فى رد الحجر الأسود حملوه الى الكوفة وعلقوه بجامعها حتى رآه الناس ثم حملوه الى مكة(١٠٢) ٠

وكان أبو منصور أحمد يفضـــل أن يتولى العهـــد من بعده ابنه « الحسن الاعصم » بدلا من « سابور » ابن أخيه ٠ لذلك نشب النزاع بين بيت أحمد بن أبى سـعيد والـــد الحســـن وبيت أبى طاهـــر بن أبى سعيد ، فقام سابور بالقبض على عمه أبى منصور أحمـــد عام ٣٥٨هـ (٩٦٨م)،ولكن سرعان ماخرج أبو منصور أحمد من معتقله وقتل سابور بن أبى طاهر عام ٣٥٨هـ (٩٦٨م) ونفى اخوته وأتباعه الى جـــزيرة أوال(١٠٣) ٠

وقد ظهر عداء آل الجنابى الصريح للفاطميين بعد قتل سابور ، اذ ادى قتله الى قيام النزاع بين آل الجنابى والفاطميين فترة من الزمن، لأن الفاطميين قاموا بتولية سابور العهد بعد عمه أحمد واعتبروا قتله خروجا على طاعتهم(١٠٤) ، وعلى القاعدة التى وضعوها منذ عهد عبيد الله المهدى الفاطمى وهى القاعدة التى تهدف الى جعل الخليفة الفاطمى هو المتحكم فى تعيين رؤساء القرامطة أو عزلهم(١٠٥) ٠

ومما زاد الفاطميين حنقا على بيت أحمدبنأبى سعيد أنآلالجنابى جنحوا نحوا الاستقلالعن الفاطميين والتصرف دون الرجوع لهم(١٠٦)٠ بعد أن كانوا لا يحاربون الا بوحى من الفاطميين ٠ من ذلك أن القرامطة أغاروا فى عهد أميرهم أحمد بن أبى سعيد مرتين على بلاد الشام فى زمن الاخشيديين،وذلك فى عامى ٣٥٣هـ ، ٣٥٧هـ (٩٦٤م،٩٦٧م) ٠ ففى الحملة الأولى التى تعرف بحملة طبرية عام ٣٥٣هـ (٩٦٤م) تمكن القرامطة ـ وعلى رأسهم الحسن الاعصم ـ بمساعدة الحمدانيين ـ من الانتصار على الوالى الاخشيدى الحسن بن عبيد الله بن طغج الأخشيد الذى كان يتولى الشام من قبل الأخشيديين(١٠٧) ٠ وفى المرة الثانية عجز الأخشيديون أيضا عن صد حملة القرامطة على دمشق ، وبذلك امتد نفوذ قرامطة البحرين على بلاد الشام ، وتمكنوا من بسط نفوذهم على الرملة،مما اضطر الحسنبنعبيداللهبن طغج الأخشيد الى أن يتفق معهم، على أن يدفع لهم ثلاثمائة ألف دينار سنويا ٠ وقد أبرموا هذا الاتفاق دون الرجوع للفاطميين ، فاعتبر الفاطميون هذا خروجا على رياسة الدعوة الاسماعيلية(١٠٨) ٠ وهكذا بدا أن القرامطة أخذوا يعملون لحسابهم الخاص دون التقيد بزعامة الفاطميين ٠

على أنه نجم عن مقتل سابور واتفاق القرامطة مع الاخشيديين على الاتاوة دون الرجوع للفاطميين انقسام القرامطة الى فريقين احدهما بزعامة بيت أبى طاهر ظل على ولائه للفاطميين ، والآخر بزعامة بيت أحمد بن أبى سعيد وكان يحنق على الفاطميين ويعمل على التقرب الى العباسيين ٠ وكان على رأس الفريقالأخير الحسن الأعصم الذى ولى امارة بلاد البحرين (٣٥٩ ـ ٣٦٧هـ/٩٦٩ ـ ٩٧٧م) بعد وفاة أبيه ٠

★ ★ ★

فى ضوء هذه الاحداث صار لابد من قيام حـــرب بين القرامطة المعارضين والفاطميين · وقد حدث عندما مات أحمد بن أبى سعيد أن استبد ابنه الحسن الأعصم بالحكم واتبع سياسة جديدة تجاه الفاطميين تخالف سياسة الود التى اتبعها من سبقه ، اذ أخذ يعمل على التقرب من العباسيين(١٠٩) · من ذلك أنه عندما كان الحسن الأعصم بمكة سـمع الخطبة تقام للخليفة العباسى المطيع فلم يعترض عليها · وفى ذلك يقول ابن خلدون(١١٠) « وولى ابنه أبو على الحسن بن أحمد ويلقب الاعصم وقيل الاغنم ، فطالت مدته وعظمت وقائعه ونفى جمعا كثيرا من ولد أبى طاهر·يقال اجتمع منهم بجزيرة آوال نحو من ثلثمائة·وحج هذا الأعصم بنفسه ولم يتعرض للحج ولا انكر الخطبة للمطيع » · وفى هذا ما يؤكد انحياز الاعصم للعباسيين وابتعاده عن الفاطميين ·

والواقع أن هناك عوامل عديدة أدت الى توتر العلاقات ونشوب الحروب بين آل الجنابى والفاطميين فى عام ٣٥٩هـ(٩٦٩م)، منها تدخل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى (٣٤١ - ٣٦٥هـ/٩٥٢ - ٩٧٥م) فى شئون القرامطة الداخلية ، وقتل سابور على يد أحمد بن أبى سعيد ، واستبداد الحســـن الاعصم بزعـــامة القرامطة دون الرجـــوع الى الفاطميين الذين كانوا يتحكمون فى تعيين الدعاة · ومن أهم هـــذه العوامل أيضا أن الفاطميين عندما فتحوا دمشـق عام ٣٥٩هـ (٩٦٩م) - كما سيأتى - رفضوا دفع الاتاوة السنوية التى كان يدفعها الاخشيديون للقرامطة(١١١) · ويجرنا هذا الى الحديث عن النزاع بين آل الجنابى والفاطميين حول بلاد الشام ومصر · ذلك أن الخليفة المعز لدين اللــه الفاطمى رأى ضرورة فتح مصر حتى يتمكن من تحقيق آماله فى ضرب الخلافة العباسية واسقاطها·وربما كان من أهداف الخليفة المعز أيضا تأديب القرامطة ، بدليل أن جوهر الصقلى اعلن فى كتاب الأمان الذى قرأه على المصريين أن المعز أرسله لكى ينقذهم من ظلم العباسيين ويصد عنهـــم أخطار القرامطة الذين غزوا بلاد الشـــام عام ٣٥٣هـ(٩٦٤م) ، ٣٥٧هـ (٩٦٧م) وتعرضوا للحجاج ومنعوهم من أداء فريضة الحج(١١٢) ·

وفى هذا البيان ما يدل على أن توتر العـــلاقات بين الفاطميين

والقرامطة بدأ قبل استيلاء الفاطميين على دمشق ومنعهم الاتاوة عن القرامطة ٠

وقد حتمت الضرورة على الفاطميين بعد أن تم لهم فتح مصر أن يتجهوا لفتح الشام حتى يؤمنوا حدود مصر من ناحية الشمال الشرقى ، ولكى يقضوا على القرامطة الذين أخذوا ينتهجون سياسة جديدة تجاه الفاطميين(١١٣) ٠

لذلك أرسل جوهر الصقلى القائد جعفر بن فلاح الكتامى على رأس قوة لفتح بلاد الشام فى أواخر عام ٣٥٩هـ (٩٦٩م) فنجح فى بسط نفوذه على بلاد الشام واستولى على الرملة وطبرية ودمشق ٠ ولكنه ترك لجنوده كامل الحرية فى معاملة الأهالى دون ضبط أو ربط فعاملوهم معاملة سيئة ، مما اثار سخط الناس عليه وعلى الفاطميين الذين كانوا يخالفونهم فى المذهب الدينى(١١٤) ٠

ولكن جعفر بن فلاح سرعان ما واجه خطر قرامطة البحرين بعد استيلائه على بلاد الشام ٠ وكان هؤلاء القرامطة قد بسطوا نفوذهم على بلاد الشام عام ٣٥٧هـ(٩٦٧م)٠وعندما طلب الحسن الاعصم من جعفربن فلاح دفع الاتاوة التى كان يدفعها له الأخشيديون رفض دفعها ٠ ولذا خطب الحسن الأعصم للخليفة العباسى المطيع (٣٣٤ - ٣٦٢هـ/٩٤٥ - ٩٧٢م) وارتدى السواد شعار العباسيين(١١٥) ٠ بل لقد أرسل الى الخليفة المطيع العباسى والأمير البويهى عز الدولة بختيار فى العراق يطلب منهما المساعدة حتى يتمكن من استرداد بلاد الشام من الفاطميين، وتعهد بأن يحكم هذه البلاد باسم الخليفة العباسى ، فاستجابوا لطلبه وأمدوه بالأموال والرجال ٠ هذا الى أن عز الدولة بختيار طلب من الحمدانيين بالموصل أن يمدوا الحسن الأعصم زعيم القرامطة بالأموال والرجال فلبوا طلبه ٠وقام الحمدانيون بمده بالأموال والرجال وسمحوا لجنودهم بالتطوع فى جيش الحسن ، وشجعوا الأخشيديين والكافوريين الذين فروا اليهم على الانضواء تحت لواء الحسن الاعصم كما أن الحسن الاعصم أخذ يجمع الاعراب مستعينا فى ذلك بالأموال التى أخذها من الخليفة العباسى(١١٦) ٠

وبعد أن استكمل استعداداته ، اتجه الحسن الأعصم على رأس جيوشه نحو دمشق فى عام ٣٦٠هـ (٩٧٠م)٠وكان جنوده يحملون الاعلام السوداء وعليها اسم الخليفة المطيع العباسى وعبارة « السادة الراجعون الى الحق »(١١٧) ٠ ودارت رحى الحرب بين الحسن الأعصم أمير القرامطة وجعفر بن فلاح القائد الفاطمى فى ناحية الدكه ـ التى تقع على نهر يزيد بالقرب من دمشق ـ وانتهت المعركة بهزيمة جعفر وقتله هو ومعظم اتباعه،وبهذا بسط الحسن الاعصم نفوذه على دمشق(١٨٨)٠

وهناك أسباب عديدة أدت الى هزيمة الجيش الفاطمى فى بلاد الشام منها استهانة جعفر بالقرامطة وعدم اعداده القوات الكافية لصدهم٠ ويبدو انه لم يكن يتوقع ان يهاجمه هؤلاء بقوات ضخمة بدليل أنه لم يطلب النجدة من القائد الأعلى جوهر الصقلى ٠ هذا فضلا عن سوء العلاقة بينه وبين قائده ٠ وقد اعتقد جعفر أنه يستطيع أن يقضى على القرامطة بمفرده دون الاستعانة بجوهر الصقلى ٠

وأما الحسن الاعصم فقد اتبع فى دمشق سياسة تهدف الى التودد لأهلها فمنح أهلها الأمان بعد أن فتحها كما أنه دعا للخليفة العباسى المطيع فى مساجد دمشق،وحذف اسم الخليفة الفاطمى المعز من الخطبة٠ ولم يكتف بهذا بل أمر بلعن الخليفة الفاطمى على منابر المسجد الأموى بدمشق ، الأمر الذى قابله أهالى دمشق بالترحاب لأنهم كانوا على المذهب السنى ومعادين للشيعة(١١٩) ٠

وبعد ذلك زحف الحسن الأعصم تجاه الرملة،وكان يليها سعادة بن حيان القائد الفاطمى٠وعندما علم سعادة بن حيان بمسير الحسن الأعصم اليه اسرع نحو يافا حتى يكون على اتصال بمصر عن طريق البحر ٠ اما الحسن الأعصم فقد تتبع القائد الفاطمى وفرض عليه الحصار بيافا ٠ وبهذا تمكن أمير القرامطة من بسط نفوذه على الرملة وعلى كل المدن الواقعة بين دمشق والرملة ، وأقام فيها الدعوة للخليفة العباسى(١٢٠)٠ وفى هذا يقول المقريزى « واقام القرامطة الدعوة للمطيع لله العباسى فى كل بلد فتحوه وسودوا اعلامهم ورجعوا عما كانوا يمخرقون به » ٠

ثم كان أن ترك الحسن الاعصم ظالم بن موهوب العقيلى وابا المنجا بن منجا مع بعض القرامطة لمحاصرة الفاطميين بيافا،واتجه هو بجيوشه نحو مصر(١٢١) ، وذلك فى أواخـــر عام ٣٦٠هـ (٩٧٠م) ليقضى على حكم الفاطميين ويمنعهم من مهاجمته مرة أخرى ٠ وبعد أن استولى على الفرما هاجم مدينة القلزم (مدينة السويس) وتمكن من دخولها وأسر واليها الاخشيدى عبد العزيز بن يوسف ، وبهذا تحكم فى برزخ السويس٠ وفى عام ٣٦١هـ (٩٧١م) وصل الى عين شمس - وأخذ يهدد القاهرة ٠ وقام أنصار الحسن الأعصم بالقاء منشـــوراتهم الثـــورية بجامع عمرو بالفسطاط لتحريض المصريين ضد جوهر(١٢٢) ٠

وعندما علم جوهر الصقلى بوصول القرامطة الى برزخ السويس بدأ يعد العدة لمحاربتهم ٠ فحفر خندقا كبيرا حول القاهرة لتحصينها ٠ وأرسل بعض رجاله ليندسوا فى معسكر القرامطة ويتظاهرون بالسخط على الفاطميين وعلى جوهر ، داعين أن ينتقل الحكم من الفاطميين الى القرامطة ٠ وبهذا انتشرت الفوضى بين صفوف جيش الأعصم(١٢٣) ٠

وفى عام ٣٦١هـ (٩٧١م) دارت معركة طاحنة عنـــد باب مدينة القاهرة بين القرامطة بزعامة الحسن الأعصم وبين المغاربة بزعامة جوهر الصقلى ٠ واستمرت الحرب بين الطرفين عدة أيام ، انتصر القرامطة فى بادىء الأمر على الفاطميين ، ولكنهم انهزموا فى النهاية ورحلوا الى الاحساء ، فأقتفى جوهر أثرهم ، وتمكن من استرداد الفرما ٠ ثم اتجه نحو يافا وهاجم القرامطة الذين كانوا يحاصرون من بها من الفاطميين وأرغمهم على التقهقر الى دمشق كما أنه استعاد جميع مدن فلسطين عدا دمشق التى ظلت بيد القرامطـــة(١٢٤) ٠ وكان لانتصـــار الفاطميين على القرامطة نتائج كثيرة منها ان الاخشيديين والكافوريين انفضوا من حول الحسن الاعصم بل أن بعضهم دخـــل فى طاعة الفاطميين ، كما استرد جوهر مدينة الفرما ٠

ومن الواضح أن هزيمة القرامطة لا ترجع الى شجاعة جند جوهر فحسب بل انها ترجع أيضا الى سياسة الخليفة المعز الذى أخذ يكيـــد

للأعصم ويعمل على التخلص منه لانضمامه للعباسيين وقتله جعفر بن فلاح وهجومه على مصر . وكان أن نجح الخليفة المعز فى اشعال نار الفتنة فى بلاد البحرين ضد الحسن الاعصم (١٢٥)، مما جعل الأعصم يرتد عن مصر عام ٣٦١هـ (٩٧١م) ليتمكن من اخماد الثورة التى اشعلها أبناء عمه أبى طاهر . وفد أناب الحسن الأعصم عنه على دمشق أبو المنجا القرمطى وظالم بن موهوب العقيلى . وبعد أن تمكن الأعصم من اخماد ثورة أبناء عمه فى البحرين بمساعدة العباسيين عام ٣٦٢هـ(٩٧٢م) عاد واسترد نفوذه على بلاد الشام ثم أخذ يعد العدة لشن حملة ثانية على مصر(١٢٦) .

ولما علم الخليفة المعز وهو بالقيروان بأمر القرامطة حضر الى القاهرة فى أواخر عام ٣٦٢هـ (٩٧٢م) للدفاع عنها . وقد رأى أن يرسل الى الحسن الاعصم كتابا قبل أن يبدأ القتال فربما يستطيع أن يثنيه عن رأيه(١٢٧) . وفى هذا الكتاب أخذ الخليفة المعز يذكر الحسن الاعصم بأهله الذين كانوا عبيدا لدى الفاطميين ثم أصبحوا سادة بفضلهم ، كما ذكره بأن أهله القرامطة كانوا يقيمون الدعوة له ولأبنائه ، وعليه أن يتخذ منهم عبرة . ثم أخذ يتساءل عن سبب عدائه للفاطميين وانضمامه للعباسيين ، ثم سبب ما قام به فى بلاد الشام وقتله جعفر بن فلاح وغيره.

وأخيرا عرض الخليفة المعز على الحسن الأعصم ثلاثة حلول ليختار أحدها قائلا : « ونحن معرضون ثلاث خصال - والرابعة أردى لك وأشقى لبالك ، وما احسبك تحصل الا عليها - فاختر : اما قدمت نفسك لجعفر بن فلاح ، واتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجاله ورجال سعادة بن حيان،ورد جميع ما كان لهم من رحال وكراع ومتاع الى آخر حبة من عقال ناقه وخطام بعير - وهى أسهل ما يرد عليك .واما أن تردهم أحياء فى صورهم وأعيانهم وأموالهم وأحوالهم ولا سبيل لك الى ذلك ولا اقتدار . واما سرت ومن معك بغير زمام ولا أمان فأحكم فيك وفيهم بما حكمت،وأجريكم على احدى ثلاث : أما قصاص ... واما فدى . فعسى أن يكون تمحيصا لذنوبك واقالة لعثرتك وان أبيت الا فعل اللعين »(١٢٨) .

والحق أن هذا الكتاب يوضح العلاقة القديمة التى كنت تقوم على أساس المودة بين القرامطة والفاطميين ، ويؤكد أن الفاطميين أصل الاسماعيلية وان القرامطة فرع منهم . ورغم ما فى هذا الكتاب من تهديد ووعيد الا أن الحسن الاعصم لم يبال به واسنمر فى اتباع سياسته واصراره على القيام بالحرب ، فأرسل الى الخليفة المعز ردا على رسالته يدل على الاستهانة به ، حيث كتب اليه : « وصل كتابك الذى قل تحصيله وكثر تفصيله ونحن سائرون اليك على أثره والسلام » (١٢٩) .

وهكذا سار القرامطة بزعامة الحسن الأعصم فى عام ٣٦٣هـ(٩٧٣م) من الأحساء تجاه مصر، وفرضوا عليها حصارا شديدا،ولم يستطع الخليفة المعز مواجهتهم لكثرة قواتهم.لذلك لجأ الى الحيلة حتى يتمكن من تمزيق كلمتهم . وبالفعل تمكن من استمالة حسان بن الجراح الطائى ـ رئيس الطائيين الذين كانوا من أقوى العناصر التى يتألف منها جيش الأعصم ـ فقد اتفق الخليفة المعز مع حسان على ان يدفع له مائة ألف دينار على أن يتظاهر بالهزيمة عندما تنشب الحرب بينهم وبين الفاطميين ، فوافق على طلبه ، فأرسل اليه الأموال المتفق عليها،ولكنها كانت مزيفة(١٣٠). يقول ابن الأثير : « فضربوا أكثرها دنانير من صفر والبسوها الذهب وجعلوها فى أسفل الاكياس وجعلوا الذهب الخالص على رؤوسها وحمل اليه ... »(١٢١) .

ولما نشبت الحرب بن القرامطة وجند المعز واشتد القتال ، ارتد حسان ابن الجراح منهزما الى الشام ، فتعجب الحسن الاعصم من أمره وأستمر يقاتل بمن معه لكن جند المعز شددوا حملاتهم عليه ، فاسرع منهزما الى بلاد الشام ، وتمكن الفاطميون من أسر الكثير من القرامطة(١٣٢) .

ولكن على الرغم من الهزيمة التى منى بها الحسن الاعصم فانه أصر على طرد الفاطميين من مصر والاستيلاء عليها ، الأمر الذى يؤكده هذان البيتان اللذان أنشدهما بعد فراره من مصر .

زعمــت رجــال الغرب(١٣٢) أنى هبتهــا
فــدمى اذن مــا بينهــا مطــلول(١٣٤)
يا مصـــر ان لـــم أرو مـــاءك مـــن دم
يـــروى ثـــراك ، فلا ســـقانى النيـــل

وقد أرسل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى قواته بقيادة أبى محمود ابن جعفر بن فلاح لتتبع القرامطة فى الشام،والقضاء عليهم حتى لايعودوا مرة أخرى الى مهاجمة مصر ٠ وتمكنت الجيوش المغربية من اللحاق بهم فى أذرعات(١٣٥) ، فترك الحسن الأعصم بلاد الشام وعاد الى البحرين، وذلك بعد أن ترك على دمشق أبا المنجا القرمطى واليا عليها(١٣٦)٠

ولم يلبث الخليفة المعز أن تمكن من استرداد دمشق ،اذ انتهز فرصة وجود خلاف بين أبى المنجا القرمطى حاكم دمشق من قبل الحسن الأعصم، وظالم بن موهوب العقيلى - أحد أنصار الحسن الأعصم - وعمل على استمالة ظالم بن موهوب،فأرسل اليه كتابا يطلب فيه أن يقبض على أبى المنجا ويرسله الى مصر،فنفذ ظالم ما طلبه منه المعز،وقبض على أبى المنجا وابنه ومن معهم من القرامطة ٠ لذلك قام الخليفة المعز بتقليده ولاية دمشق عام ٣٦٣هـ (٩٧٣م) ، وبذلك بسط الفاطميون سلطانهم على بلاد الشام بعد أن انتزعوها من القرامطة(١٣٧) ٠

على أن الأوضاع لم تستقر فى دمشق بتولية ظالم بن موهوب العقيلى ولايتها ، فقد نشب نزاع بين أهالى الشام السنيين وبين الفاطميين ، فأرسل الخليفة المعز بعض قواته بقيادة أبى محمود بن جعفر ليحافظ على الأمن٠لكن هؤلاء الجنود سرعان ما انصرفوا الى العبث والفســاد ٠ ودب النزاع بين عساكر أبى محمود وبين أهل الشام حتى تم الاتفـــاق على اخراج ظالم بن موهوب من البــــلد ٣٦٤هـ (٩٧٤م) وتولية جيش بن الصمصامة محله فى ادارة أمور دمشق بالاشتراك مع ابن أخيه أبى محمود ابن جعفر(١٣٨) ٠

ومع ذلك فان الهدوء لم يسد دمشق ، أذ سرعان ما نشب النزاع من جديد بين أهالى دمشق والمغاربة ، وأدى هذا النزاع الى تخريب البلاد

واضطراب الناس ووفاة الكثير منهم . وعندما علم الخليفة المعز الفاطمى بهذا أرسل الى ريان الخادم - واليه على طرابلس - وأمره بالتوجه الى دمشق وان يتولاها ويعزل عنها أبا محمود بن جعفر ويعمل على قمع الفتن ونشر الأمن بين الأهالى وجند المغاربة(١٣٩) .

وفى تلك الأجواء استغل افتكين(١٤٠) التركى - أبو منصور التركى الشرابى - الاضطرابات التى سادت بلاد الشام وضعف الحكم الفاطمى فيها وتمكن من دخـــول دمشـــق ومعـــه فريق من الأتراك عام ٣٦٤هـ (٩٧٤م)(١٤١) . فرحب اشراف دمشق وشيوخها بقدوم افتكين وخرجوا لاستقباله وطلبوا منه أن يتولى حكم بلادهم ويخلصهم من المغاربة الشيعة وظلمهم . فأجابهم الى طلبهم ووعدهم بالحماية ، فعزل ريان الخادم عن دمشق واقام الخطبة للخليفة الطائع العباسـى (٣٦٢ - ٣٨١هـ/٩٧٢ - ٩٩١م) بدلا من الخليفـــة المعـــز لدين اللـــه الفاطمى ، كما قضى على الفتن(١٤٢) .

وبعد أن بسط افتكين التركى نفوذه على دمشـــق خشى أن تهاجمه قوات الفاطميين ورأى أن يستميل الخليفة المعز لدين الله ، فأرسل اليه رسالة يتظاهر فيها بالطاعة له ، فأرسل اليه الخليفة المعز يدعوه للحضور حتى يقره على ولايته ، لكن افتكين لم يثق بما أرسـله ، ورفض الذهاب اليه(١٤٣) ، فجهز الخليفة المعز عساكره لمحاربة افتكين ، ولكنه مرض ومات عام ٣٦٥هـ (٩٧٥م) وولى بعده ابنه العزيز(١٤٤) .

أما أفتكين فقد بسط نفوذه على صيدا وعكا وطبريه بالاضافة الى دمشق،وقد انزعج الخليفة العزيز الفاطمى (٣٦٥ - ٣٨٦هـ/٩٧٥-٩٩٥م) لذلك،وعمل على استرداد بلاد الشام من افتكين(١٤٥) ، وأرسل جوهر الصقلى على رأس حملة قوية الى دمشق . ولما وصل جوهر الى الرملة عام ٣٦٥هـ (٩٧٥م) أرسل الى أفتكين رسالة أوضح له فيها أن الخليفة العزيز بالله يمنحه الأمان ، فأرسل اليه افتكين الرد الذى علم منه جوهر أنه مصر على الحرب(١٤٦) .

ولم تلبث أن دارت رحى الحـــرب بين أفتكين وجوهر الصـــقلى

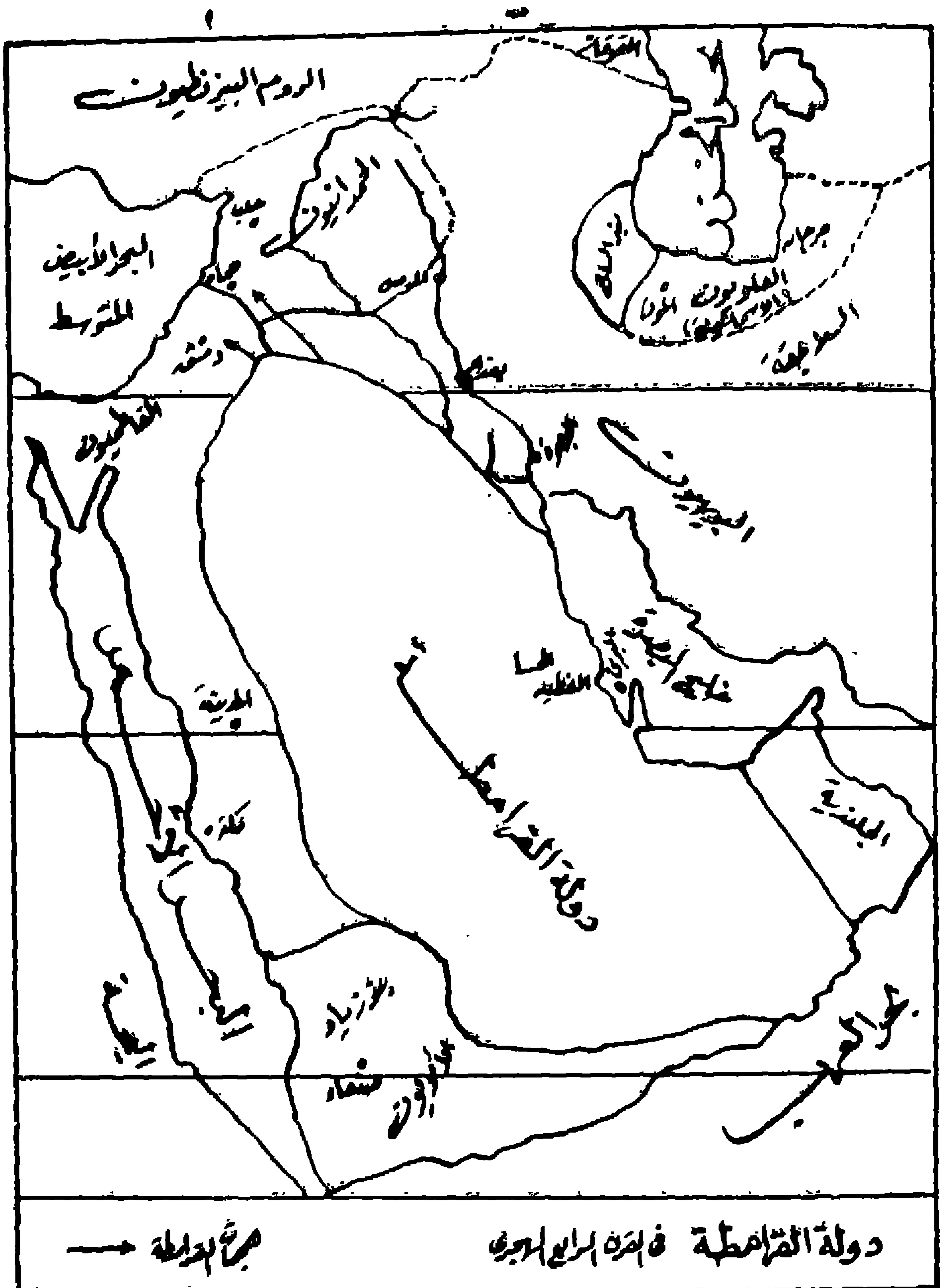
واستمرت عدة أشهر ، ظهرت فيها شجاعة افتكين ومهارته ومن معه . وفرض جوهر الصقلى الحصار على مدينة دمشق . وعندما طال الحصار أشار أهل دمشق على افتكين بأن يستدعى الحسن بن أحمد القرامطة من البحرين للوقوف بجانبه فى محاربة جوهر ، فأجابهم الى طلبهم . وعندما علم جوهر الصقلى بمسير القرامطة نحوه اضطر الى رفع الحصار عن دمشق لخوفه من أن يقع بين عدوين ، وتراجع نحو الرملة فتبعه الحسن الأعصم وافتكين ، وقاتلاه قتالا شديدا . وعندما عجز عن مقاومتهم اتجه نحو عسقلان ، فتبعه أفتكين والقرمطى وفرضا عليه حصارا شديدا . ولما طال الحصار وقلت المؤن طلب جوهر مقابلة أفتكين ، فلبى طلبه(١٤٧) . واجتمع به فقال له جوهر : « وقد دعوتك الى الصلح والموادعة .. فابيت الا القبول ممن يشب نار الفتنة ... وأريد أن تمن على بنفسى وبهؤلاء المسلمين الذين معى وعندى وتذم لى لامضى وأعود »(١٤٨) فوافق أفتكين على ذلك بشرط أن يخرج جوهر ومن معه من تحت سيفه ورمح الحسن بن أحمد على باب عسقلان(١٤٩) .

ووافق جوهر على ذلك ومر هو وأصحابه من تحت السيف والرمح قاصدين القاهرة فى وضع يتصف بالذلة والهوان .

ولما عاد جوهر الصقلى الى مصر التقى بالخليفة العزيز بالله الفاطمى وأوضح له ما دار بينه وبين القرامطة وأفتكين ، فقرر الخليفة الخروج بنفسه لمحاربتهما ، وجهز الجيوش وجعل جوهرا على مقدمتها . وعندما علم أفتكين والحسن القرمطى بمسير الخليفة اليهما عادا الى الرملة وأخذا يعدان للقتال . وكان أن دار القتال بين الفريقين عام ٣٦٧هـ (٩٧٧م) وأسفر عن هزيمة أفتكين والحسن بن أحمد القرمطى وفرارهما وقتل الكثير من جنودهما(١٥٠) ، وكان ذلك خاتمة لنفوذ آل الجنابى فى بلاد الشام ومصر .

وأخيرا عاد الحسن الأعصم الى الاحساء بعد هزيمته أمام الخليفة العزيز الفاطمى ، ثم توفى عام ٣٦٧هـ (٩٧٧م) ، فنشبت الخلافات بين قرامطة بلاد البحرين حيث انكروا السياسة التى اتبعها الحسن الأعصم وما قام به من مبايعة بنى العباس وعدائه للفاطميين ، وقرروا أبعاد أبناء

أبى سعيد الجنابى عن الحكم وقامـــوا بتولية رجلين منهم هما جعفر واسحق(١٥١) ، فذهب بنو أبى سعيد الى جزيرة آوال ، وهناك نعرضوا للقتل على أيدى خصومهم(١٥٢) . وبذلك انتهى نفوذ آل الجنابى فى بلاد البحرين .



عدنان العطار ـ الأطلس التاريخي

(مجلة المؤرخ العربي)

الهـــوامش

(=) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص١٨٥ فهو يقول «ومن الاشخاص البارزة بين الباطنية (حمدان بن الأشعث) الملقب بقرمط فى سواد الكوفة ... وأبو سعيد حسن بن بهرام الجنابى » .

وقد عرف الباطنية بهذا الاسم لزعمهم أن لكلظاهر باطنا،ولكل تنزيل تأويلا انسلاخا من الدين : (أ) ويقال ان دعوة الباطنية ظهرت أولا فى زمان المأمون وانتشرت فى زمان المعتصم . (ب) وقد أطلق مؤلفو العرب اسم الباطنية على فرق عديدة متباينة كان لها شأن سياسى هام وأهمها القرامطة والاسماعيلية ، (حـ) فالاسماعيلية يسمون بالباطنية لأنهم يقولون ان لكل ظاهر من الاحكام الشرعية باطنا ولكل تنزيل تأويلا . (د) وقيل ان من أهدافالباطنيةالدعوةالى دينالمجوس ومما يؤكد ذلك ان زعيمالباطنية الأول ميمون بن ديصان كان مجوسيا من سبى الأهواز ، والبعض ينسب الباطنية الى الصابئيين الذين هم بحران ، واستدل على ذلك بأن حمدان قرمط داعية الباطنية ميمون بن ديصان كان من الصابئة الحرانية ، واستدل أيضا بأن صابئة حران كانوا يكتمون عقائدهم ولا يظهرونها الا لمن كان منهم والباطنية أيضا لا يظهرون دينهم الا لمن كان منهم بعد احلافهم اياه على ان لا يذكر أسرارهم لغيرهم .

(أ) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ١٨٨ .

- الشهرستانى : الملل والنحل ص ١٧٢ .

(ب) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٦٨ .

(حـ) دائرة المعارف الاسلامية المجلد السادس ص ٨٦ .

(د) المعرى : رسالة الغفران ص ٣٥٧ .

(و) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

(×) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٦٦ كان مولى لجعفر بن محمد الصادق وكان من الاهواز .

(١) الرافضة أهل ضلال وهم ثمانى عشرة فرقة والقرامطة فرقة من هـــذه الفرق (أ) فالرافضة صنف من أصناف الشيعة وقد سموا رافضة لرفضهم امامة أبى بكر وعمر وهم مجمعون على أن الرسول (ص) نص على استخلاف على ابن أبى طالب باسمه وأظهر ذلك واعلنه (ب) ، وقيلسموا الرافضة ، لرفضهم زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ورفضهم الخروج معه ، عندما سألوه البراءة من أبى بكر وعمر، فلم يجبهم الي ذلك(حـ) .

أ ـ الملطى : التنبيه والرد ص ٢٥ : ٢٨ ٠

ب ـ الأشعرى : مقالات الاسلاميين جـ١ ، ص ٨٧ ، ٩٨ ٠

حـ ـ أبو سعيد نشوان : الحور العين ص ١٨٤ ٠

(٢) زعم بعض الحلولية أن « الله تبارك وتعالى بعث جبريل الى على ، فاخطأ جبريل وصار الى محمد عليه السلام ، فاستحيا الرب وترك النبـــوة فى محمد (ص) وجعل عليا وزيره والخليفة بعده ٠ وبعض الحلولية زعموا أن عليا ومحمدا عليهما السلام شريكان فى النبوة وان عليا نبى بعد محمد (ص) واحتجوا بقول النبى (ص) « أنت منى بمنزلة هارون من موسى » ٠

الملطى : التنبيه والرد ص ٢٩ ٠

(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٦٦ ٠

(٤) سلمية : بلدة فى ناحية البرية من أعمال حماة ببلاد الشام(أ) وقد اتخـ الائمة الاسماعيلية سلمية دار هجره لهم منذ عهد المأمون ٠

أ ـ ياقوت الحموى : معجم البلدان حـ٥ ص ١٩٣ ٠

ب ـ حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ٤٤ ٠

(٥) فاضل عبد اللطيف الخالدى : الحياةالسياسية ونظم الحكم فى العراق ص٧٠٠

(٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٣٠ ٠

(٧) هناك تفسيرات عديدة لهذا اللفظ منها أن حمدان بن الأشعث كان قصير القامة ورجلاه قصيرتين ، فكان يقرمط فى سيره أى كانت خطواته متقاربة لهذا لقب بلقب قرمط (أ) ، ومن هذه التفسيرات أيضا أن لفظ قرمط مشتق من لفظ اقرمط ويعنى غضب ، وهذا اللفظ آرامى مشتق من «قرمطونا» التى تعنى المدلس أو الخبيث أو المكار أو المحتال وان هذه التسمية لم يتخذها القرامطة أنفسهم الذين اشتهروا بهذه الصفات بل أطلقها عليهم الذين لم يؤمنوا بدعوتهم(ب) وأرى ان هذا التفسير هو أقرب التفسيرات الى الصحة ٠

أ ـ البغدادى الفرق بين الفرق ص ٢٦٦ ٠

ب ـ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٣٠ ، ٢٠٥ ٠

وهناك تفسيرات أخرى للفظ قرمط ولمزيد من التفاصيل انظر ٠ ـ

المقريزى : أتعاظ الحنفا ، ص ٣٠ ، ص ٢٠٥ ٠

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ٣ ص ١١٩ ٠

مجد الدين الفيروزبادى : القاموس المحيط حـ٢ ص٣٧٩ ٠

لويس معلوف اليسوعى : المنجد ص ٦٥٩ ٠

حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى حـ٣ ص ٣٢٥ ٠

(٨) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ٦٤ ٠

(٩) الغزالى : فضائح الباطنية ص ١٢ ، ١٣ ٠

(١٠) المقريزى : :اتعاظ الحنفا ص ٢٠٨ ٠

(١١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى حـ٣ ص ٣٢٦ ٠

(١٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٠٩ ٠

(١٣) هو أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى - فارسى الأصل - كان يعمل الفراء سافر الى سواد الكوفة ،

المقريزى : اتعاظ الحنفا حـ١ ص ١٥٩ ٠

(١٤) سمى الجنابى نسبة الى جنابة وهى بلدة صغيرة من سواحل فارس يدخل اليها فى المراكب فى خليج من البحر الملح يكون بين المدينة والبحر نحو ثلاثة أميال أو اقل ، وامامها فى وسط البحر جزيرة خارك التى نشأ بها أبو سعيد الحسن الجنابى القرمطى ٠

خير الدين الزركلى : الاعلام حـ١ ص ٢٢١ ٠

(١٥) كانت البلاد الواقعة على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان تدعى البحرين وقيل هى قصبة هجر وقيل هجر قصبة البحرين ٠٠٠ وأحيانا كانت اليمامة تعد من أعمال البحرين هذا كان فى أيام بنى أمية ، فلما ولى بنو العبـــــاس صيروا عمان والبحرين واليمامة عملا واحدا(أ) ٠ وربما كان سبب تسمية هذه المدن باسم البحرين لأنها تقع على شاطىء البحرين ، بحر عمان ، وبحر فارس (ب) ٠

أ - ياقوت الحموى : معجم البلدان حـ٢ ص ٧٢ ، ٧٣ ٠

ب - أمين الريحانى ٠ ملوك العرب حـ٢ ص ٢٠٢ ٠

(١٦) السماوة بفتح أوله وبعد الألف واو وسميت السماوة لأنها أرض مستوية لا حجر بها والسماوة ماءة بالبادية وبادية السماوة التى هى بين الكوفة والشام قفرى أظنها مسماة بهذا الماء ٠

ياقوت الحموى : معجم البلدان حـ٥ ص ١٢٠ ٠

(١٧) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى حـ٣ ، ص ٣٢٦ ٠

(١٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢١٢ ٠

(١٩) ان محمد بن اسماعيل غير ميمون القداح وان هذا حجة وذاك امام ، وان ميمون من نسل سليمان الفارسى ومحمد بن اسماعيل من نسل على وفاطمة ٠

حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ٥٠ ٠

(٢٠) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٢٣ ٠

(٢١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى حـ٣ ، ص ٣٢٦ ٠

(٢٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٢٤ ٠

(٢٣) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ١٦٨ ٠

(٢٤) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ١٦٣ ٠

(٢٥) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٤١ ٠

(٢٦) العبر حـ ٤ ص ٨٨ ٠

(٢٧) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٠٠

(٢٨) تاريخ الأمم والملوك حـ١٣ ص ٢١٨٨ ٠

(٢٩) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم حـ ٦ ص ١٨ ٠

(٣٠) الكامل فى التاريخ حـ٧ ص ١٧٥ ٠

(٣١) النجوم الزاهرة حـ٣ ص ١١٩ ٠

(٣٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حـ١٣ ص ٢١٨٨ ٠

(٣٣) أمين الريحانى : ملوك العرب ص ٢١٢ ٠

(٣٤) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ٢٠٠ ٠

(٣٥) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والامم حـ٦ ص ١٨ ٠

(٣٦) أمين الريحانى : ملوك العرب ص ٢١٢ ٠

(٣٧) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حـ ١٣ ص ٢١٨٨ ٠

(٣٨) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٩ ٠

(٣٩) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ٦ ، ١٨ ٠

(٤٠) لمزيد من التفاصيل انظر الحياة الدينية ٠

(٤١) الدورى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ص ٢٧ ٠

(١٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢١٢ ، ٢١٣ ٠

(٤٣) عارف تامر : القرامطة ص ١٣٨ ٠

(٤٤) القطيف : بفتح أوله وكسر ثانيه تعد من أعظم مدن البحرين ٠

ياقوت الحموى : معجم البلدان حـ٧ ص ١٣١ ٠

(٤٥) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حـ١٣ ص ٢١٩٢ ، ٢١٩٦ ، ٢١٩٧ ٠

(٤٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا حـ١ ص ١٦٠ ٠

(٤٧) ابن الجوزى : المنتظم حـ٦ ص ١٨ ٠

(٤٨) يذكر ابن خلدون فى كتابه العبر حـ٤ ص ٨٨ ان الخليفة المعتمد هو الذى أرسل العباس بن عمرو وهذا خطأ والصواب هو الخليفة المعتضد ٠

(٤٩) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حـ ١٣ ص ٢١٩٢ ، ٢١٩٦ ، ٢١٩٧ ٠

ابن الجوزى : المنتظم حـ٦ ص ٢٤ ٠

(٥٠) يذكر المسعودى فى كتابه مروج الذهب حـ٢ ص ٤٨٤ أن الخليفة المعتضد خلع على العباس بن عمرو عندما عاد ولكن هذا لم يحدث ، فهل عاد منتصرا حتى يخلع عليه ـ بالطبع لا ـ فجميع المصادر تجمع على انه عاد يجر اذيال الخيبة والهزيمة ٠

(٥١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حـ٧ ص ١٧٧ ٠

(٥٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢١٨ ، ٢١٩ ٠

(٥٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حـ ١٣ ص ٢١٩٢ ، ٢١٩٦ ، ٢١٩٧ ٠
المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر حـ٢ ص ٤٨٤ ٠

(٥٤) بالفتح والمد جمع حسى بكسر التاء وسكون السين ، وهو الماء الذى تنشفه الأرض من الرمال ، فاذا صار الى صلابة أمسكته فتصفر العرب عنه الرمل فتستخرجه ٠٠٠ والحسى الرمل المتراكم أسفله جبل صلد ، فاذا مطر الرمل نشف ماء المطر فاذا انتهى الى الجبل الذى تحته أمسك الماء ومنع الرمل وحر الشمس أن ينشف الماء ، فاذا اشتد الحر نبث وجه الرمل عن الماء فنبع باردا عذبا(أ) ٠

والاحساء أصلها قلعة فى البحرين وهى مركز ناحية تحمل الاسم نفسه(ب) ٠

(أ) ياقوت الحموى : معجم البلدان حـ١ ص ١٣٦ ، ١٣٧ ٠

ب ـ دائرة المعارف الاسلامية المجلد الثانى ص ٢٥٣ ٠

(٥٥) الحمادى : كشف أسرار الباطنية ص ٢٠٠ ٠

(٥٦) حسن ابراهيم وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ١١١ ، ٢١١ ، ٢١٢

(٥٧) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى حـ٣ ص ٣٣٩ ٠

(٥٨) مسكويه : تجارب الأمم حـ ٥ ص ٣٣ ٠

(٥٩) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ٢١٤ : ٢١٦٠

(٦٠) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٨٨ ، ٨٩ ٠

(٦١) حسن ابراهيم حسن وطه أحمـــــد شرف : عبيد الله المهدى ص ١٨٠ ، ٢١٨ ، ٢٩١ ٠

(٦٢) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٨٩ ٠

(٦٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٧٤ . ٢٧٥ ٠

(٦٤) فيد : بالفتح ثم السكون ودال مهملة بليدة تقع فى منتصف الطريق بين مكة والكوفة ٠

ياقوت الحموى : معجم البلدان حـ ٦ ص ٤٠٨ ٠

(٦٥) محمد الخضرى : تاريخ الامم الاسلامية ص ٤٧٨ . ٤٧٩ ٠

(٦٦) مسكويه : تجارب الامم حـ٥ ص ١٤٥ ٠

(٦٧) النويرى : نهاية الأرب حـ١٣ ص ٧٣ ٠

(٦٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٤٠ ، ٢٤١ ٠

(٦٩) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٤٧ ٠

(٧٠) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٨٢ ٠

(٧١) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٤٤ ٠

(٧٢) الرحبة : تقع على شاطىء الفرات بين الرقه وبغداد أسفل قرقيسياء ٠

(٧٣) قرقيسياء : بلدة تقع على الفرات بالقرب من رحبة مالك بن طوق ٠

(٧٤) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم حـ٦ ص ٢١٥ ، ٢٦١ ٠

(٧٥) عين القمر : بلدة قريبة من الانبار غربى الكوفة ٠

ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٦ ص٢٥٣ ٠

(٧٦) محمد الخضرى : تاريخ الأمم الاسلامية ص ٤٨١ ، ٤٨٢ ٠

(٧٧) يقول الحمادى فى كتابه « كشف أسرار انباطنية وأخبار القرامطة ، ص٢ ، ٢٠١ وأبو المحاسن فى كتابه « النجوم الزاهرة ٠٠٠ » حـ٣ ص ١٢٠ أن الذى أغار على مكة هو أبو سعيد ٠ وهذا خطأ لأن أبا سعيد قتل عام ٣٠١هـ (٩١٣م) والاغارة على مكة كانت عام ٣١٧هـ (٩٢٩م) والصواب أن الذى اغار عل ىمكة أبو طاهر سليمان ٠

(٧٨) المسعودى : مرج الذهب حـ٢ ص ٥٧٤ ٠

مسكويه : تجارب الامم حـ٥ ص ٢٠١ ٠

(٨٩) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة حـ٣ ص ٢٢٤ ٠

(٨٠) وقيل اسمه ابن محارب ٠

(٨١) مسكويه : تجارب الأمم حـ٥ ص ٢٠١ ٠

(٨٢) المعرى : رسالة الغفران ص ٢٨ ٠

(٨٣) الحمادى : كشف أسرار الباطنية واخبار القرامطة ص ٢١١ ٠

(٨٤) مسكويه : تجارب الأمم حـ٥ ص ٢٠١ ٠

ابن الجوزى المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ص ٢٢٣ ٠

(٨٥) عاصر أبو العلاء المعرى آل الجنابى وكتب عن الجنابى يقول « لو عوقب بلد بمن يسكنه . لجاز أن تؤخذ به جناية ولا يقبل لها انابة ، ولكن حكم الكتاب المنزل أن لا تزر وازرة وزر أخرى » ٠

أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران ص ٢٣٨ ٠

(٨٦) الحمادى : كشف أسرار الباطنية واخبار القرامطة ص ٢٠١ ، ٢١١ ٠

(٨٧) النويرى : نهاية الارب حـ٢٣ ص ١٨٩ ٠

(٨٨) ابن الجوزى : المنتظم حـ٦ ص ٢٢٣ ٠

السيوطى : تاريخ الخلفاء ص خلافة المقتدر ٠

(٨٩) النويرى : نهاية الارب حـ٢٣ ص ١٨٩ ٠

(٩٠) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٨٩ ٠

(٩١) أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران حـ١ ص ٢٨ ٠

(٩٢) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ٢٢٣ ٠

(٩٣) عبد الفتاح عليان : قرامطة العراق ص ١٣٥ ٠

(٩٤) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : عبيد الله المهدى ص ٢٢٥ ٠

(٩٥) يذكر محمد الخضرى فى كتابه تاريخ الأمم الاسلامية ص ٤٨٢ هو ان أبا طاهر قام برد الحجر هو أخوه أبو المنصور أحمد عام ٣٣٩هـ كما سيأتى ٠

(٩٦) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٨٩ ٠

(٩٧) ابن الجوزى : المنتظم حـ٦ ص ٢٩٦ ٠

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ٣ ص ٢٢٧ ، ٢٦٤ ٠

(٩٨) يذكر أبو المحاسن فى كتابه النجوم حـ٣ ص ٢٨١ أن أبا طاهر مات وولى مكانه أخوه أبو القاسم سعيد لكن هذا غير صحيح والذى ولى مكانه أخوه أبو منصور أحمـــد ٠

(٩٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٣ ص ٢٨١ ٠

حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ٩٩ ٠

(١٠٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ٣ ص ٣٠١ ٠

(١٠١) يذكر أحمد حسين فى كتابه موسوعة مصر ، حـ٢ ص ٥٢٢ عن الحجر الأسود أنهم ردوه بعد أن دفع فيه للقرامطة خمسين ألف دينار ولكن هذا غير صحيح لأنهم ردوه عندما أمرهم أبو منصور أحمد بهذا دون أن يأخذوا مالا ٠

(١٠٢) النويرى : نهاية الارب حـ ٢٣ ص ١٨٩ ٠

(١٠٣) أوال : بالضم ، ويروى بالفتح : جزيرة بالبحرين بها نخـــل وبساتين صفى الدين عبد المؤمن : مراصد الاطلاع حـ١ ص ١٢٨ ٠

(١٠٤) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى جـ٣ ص ٣٤٠ ـ ٣٤٤ ٠

(١٠٥) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف ٠ المعز لدين الله ص ١٠٥ ٠

(١٠٦) عارف تامر : القرامطة ص ١١٧ ٠

(١٠٧) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ٧٣ ٠

(١٠٨) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١١٦ ٠

(١٠٩) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى حـ ٣ ص ٣٤٥ ٠

(١١٠) العبر جـ٤ ص ٩٠ ٠

(١١١) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ١٠٣ : ١٠٥٠

(١١٢) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٤٧ ، ٤٨ ٠

ـ حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٩٧ ٠

(١١٣) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ٩١ ، ٩٢ ٠

(١١٤) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١١٨ ، ١١٩ ٠

(١١٥) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٩٠ ٠

(١١٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ١ ٠

ـ ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ٨ ص ٢٢٠ ٠

(١١٧) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف المعز لدين الله ص ١٠٩ ٠

(١١٨) ابن القلانسى ٠ ذيل تاريخ دمشق جـ١ ص ٢ ٠

ـ ابن الجوزى : المنتظم جـ٦ ص ٢٢٤ ٠

(١١٩) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ١١٠ ـ ١١٢٠

(١٢٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٨ ص ٢٢٠ ٠

ـ ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥٠ ٠

(١٢١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ ٠

(١٢٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق جـ١ ص ٢ ٠

(١٢٣) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١١٣ ٠

(١٢٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ٢ ٠

ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٢٠ ٠

(١٢٥) انتهز ابناء واتباع أبى طاهر فرصة انشغال الأعصم بحرب الفاطميين فى مصر وخرجوا من جزيرة «أوال» وتمكنوا من احتلال الاحساء ، لهذا اضطر الاعصم الى الارتداد عن القاهرة وأسرع بالعودة الى البحرين وتمكن من اخماد فتنة أبناء عمه آل طاهر ٠

عارف تامر : القرامطة ص ١٤٧ ٠

(١٢٦) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ١١٥ ـ ١١٧٠

(١٢٧) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥٠ ٠

(١٢٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٥٨ ـ ٢٦٥ ٠

(١٢٩) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ص ١١٨ ـ ١٢٠٠

(١٣٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ٣ ٠

ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥٠ ٠

(١٣١) ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٢٩ ٠

(١٣٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ٣ ٠

(١٣٣) رجال الغرب يقصد بهم الفاطميين والمغاربة ٠

(١٣٤) مطلول = مسفوك ٠

(١٣٥) أذرعات بلد فى أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان ٠

ياقوت الحموى : معم البلدان حـ١ ص ١٣٠ ٠

(١٣٦)ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٣٠ ٠

(١٣٧) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥٠ ٠

(١٣٨) ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ ٠

ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥٠ ، ٥١ ٠

(١٣٩) ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٣١ ٠

(١٤٠) افتكين : هو أحد موالى عز الدولة بختيار أمير بنى بويه بالعـــراق ، وعندما انهزم فى المعركة التى دارت بينه ومن معه من الأتراك وبين الديلم ترك بغداد وسار قاصدا بلاد الشام · وعندما علم ظالم بن موهوب العقيلى بقدومه حاول القبض عليه ومنعه من التقدم لكنه لم يستطع وتمكن افتكين التركى من الوصول الى دمشق عام ٣٦٤هـ (٩٧٤م) ·

ابن خلدون .: العبر حـ٤ ص ٥١ ·

(١٤١) د· سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٣٤ ، ١٣٥ ·

(١٤٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حـ٨ ص ٢٣٧ ·

(١٤٣) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٣٥ ·

(١٤٤) ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٣٨ ·

ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥١ ، ٩٠ ·

(١٤٥) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٣٦ ·

(١٤٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ١٥ ، ١٦ ·

(١٤٧) ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٣٧ ·

ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٥٢ ·

(١٤٨) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ١٧ ·

(١٤٩) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٢٩٤ ·

(١٥٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق حـ١ ص ١٨ ، ١٩ ·

ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٢٣٨ ·

(١٥١) وهما من القرامطة الستة الذين يلقبون بالسادة ·

ابن الأثير : الكامل حـ٧ ص ١٢٦ ·

(١٥٢) ابن خلدون : العبر حـ٤ ص ٩١ ·

قائمة بأســماء الخلفـاء
المعاصرين لدولة آل الجنــابى

الخلفاء الفاطميون

- عبيد الله المهدى ٢٩٧هـ = ٩٠٩م
- القائم بأمر الله ٣٢٢هـ = ٩٣٣م
- المنصور ٣٣٤هـ = ٩٤٥م
- المعز لدين الله ٣٤١هـ = ٩٥٢م
- العزيز ٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ = ٩٧٥ ـ ٩٩٥م

الخلفاء العابسـيون

- المعتضد ٢٧٩هـ = ٨٩٢م
- المكتفى ٢٨٩هـ = ٩٠١م ٠
- المقتدر ٢٩٥هـ = ٩٠٧م
- القاهر ٣٢٠هـ = ٩٣٢م
- الراضى ٣٢٢هـ = ٩٣٣م
- المتقى ٣٢٩هـ = ٩٤٠م
- المستكفى ٣٣٣هـ = ٩٤٤م
- المطيع ٣٣٤ هـ = ٩٤٥م
- الطائع ٣٦٢ ـ ٣٨١هـ = ٩٧٢ ـ ٩٩١م

آل الجنابى ببلاد البحرين

١ ـ أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى

٢٨٣ ـ ٣٠١هـ
٨٩٦ ـ ٩١٣م

٢ ـ أبو القاسم سعيد
٣٠١ ـ ٣٠٥هـ
٩١٣ ـ ٩١٧م

٣ ـ أبو طاهر سليمان
٣٠٥ ـ ٣٣٢هـ
٩١٧ ـ ٩٤٣م

سابور

٤ ـ أبو منصور أحمد
٣٣٢ ـ ٣٥٩هـ
٩٤٣ ـ ٩٦٩م

٥ ـ الحسن الأعصم(١)
٣٥٩ ـ ٣٦٧هـ
٩٦٩ ـ ٩٧٧م

(١) هذا الجدول من واقع هذا البحث .

المصـــــادر

١ - القرآن الكريم .

٢ - ابن الأثير : (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٨م) على بن أحمد ابى الكرم
الكامل فى التاريخ .

٣ - الأشعرى : (ت ٣٣٠هـ) أبو الحسن على بن اسماعيل
« مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين » تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى مكتبة النهضة المصرية ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م .

٤ - البغدادى : (ت٤٣٩هـ،١٠٣٧م) أبو منصور عبد القاهر بن طاهر
الفرق بين الفرق (دار الافاق الجديدة بيروت ١٩٧٣م)

٥ - ابن الجوزى : (ت ٥٩٧هـ) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبى الحسن على .
المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم . الطبعة الأولى بمطبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٧هـ .

٦ - الحمادى : (ت أواسط القرن الخامس الهجرى) محمد بن مالك بن أبى الفضائل .
كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة (مكتبة الخانجى مصر والمثنى ببغداد ١٣٤٧هـ/١٩٥٥م .

٧ - ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر الجزء الرابع (دار الكتب) .

٨ - خير الدين الزركلى
الاعلام (المطبعة العربية بمصر ١٨٢٧م)

٩ - أبو سعيد : ت ٥٧٣هـ) نشوان بن سعيد بن نشوان الحميرى
« الحور العين » حققه وعلق عليه كمال مصطفى ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م

١٠ - السيوطى : (ت ٩٣١هـ ، ١٦٠٥م) عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة .

١١ ـ الشهرستانى : (ت ٥٤٨هـ) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم
الملل والنحل ٠

١٢ ـ صفى الدين : (ت٧٣٩هـ) عبد المؤمن عبد الحق البغدادى
« مراصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع » تحقيق وتعليق على محمد البجاوى ، دار الجيــل بيروت الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م ٠

١٣ ـ الطبرى : (٣١٠هـ ، ٩٢٢م) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى
تاريخ الأمم والملوك (مكتبة الخياط ١٩٦٩م) ٠

١٤ ـ الغزالى : (ت ٥٠٥هـ ، ١١١١م) الامام أبو حامد محمد بن محمد ابن أحمد ٠
فضائح الباطنية (الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م) ٠

١٥ ـ ابن القلانسى : (ت٥٥٥هـ) أبو يعلى حمزة بن أسد بن على
ذيل تاريخ دمشق ٠ (بيروت ١٩٠٨م) ٠

١٦ ـ كشاجم : أبو الفتح محمود بن الحسن
ادب النديم مكتبة الخانجى القاهرة ١٢٩٨م

١٧ ـ لويس معلوف اليسوعى
المنجد فى اللغة والأدب والعلوم«المطبعة الكاثوليكية بيروت١٩٠٨م

١٨ ـ مجد الدين الفيروزابادى
القاموس المحيط الطبعة الخامسة ٠

١٩ ـ أبو المحاسن : (ت ٨٧٤ ، ١٤٦٩م)
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (دار الكتــب المصرية ١٩٣٢م) ٠

٢٠ ـ المسعودى : (ت ٣٤٦هـ ، ٩٥٦م) أبو الحسن على بن الحسين بن على ، مروج الذهب ومعادن الجوهر (المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦م) ٠

٢١ - مسكويه : (ت ٤٢١هـ ، ١٠٣٠م) أبو على أحمد
تجارب الأمم (مصر ١٩١٤م) ٠

٢٢ - المعرى : (٣٦٣ : ٤٤٩هـ) أبو العلاء
رسالة الغفران شرح وايجاز كامل الكيلانى مطبعة المعارف مصر ١٩٣٨م ٠

٢٣ - المقريزى : (ت ٨٤٥هـ ، ١٤٤١م) تقى الدين أحمد بن على
اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا تحقيق جمال الدين الشيال ، دار الفكر العربى ١٣٦٧هـ ، ١٩٤٨م ، القاهرة ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م ٠

٢٤ - الملطي : (ت ٣٧٧هـ) أبو الحسن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن
التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م ٠

٢٥ - النوبختي : (من اعلام القرن الثالث للهجرة ت أوائل القرن الرابع الهجرى) أبو محمد الحسن بن موسى ٠
« كتاب فرق الشيعة » المطبعة الحيدرية بالنجف ٠

٢٦ - النويرى : (٦٧٧ - ت ٧٣٣هـ) أحمد بن عبد الوهاب
« نهاية الأرب فى فنون الأدب » تحقيق د٠ أحمد كمال زكى مراجعة د٠ محمد مصطفى زيادة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م ٠

٢٧ - ياقوت الحموى : (ت ٦٢٦هـ ، ١٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبدالله الحموى ، معجم البلدان (دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٥م ، ١٩٠٦ ٠

المراجـع العـــربية

٢٨ - أحمد حسين
« موسوعة تاريخ مصر » (دار الشعب ١٩٧٢م) .

٢٩ - أحمد عبد الرازق
« الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى » دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٩٠م .

٣٠ - السيد عبد الله بن خليفة وعبد الملك يوسف
« البحرين عبر التاريخ » .

٣١ - أمين الريحانى
« ملوك العرب أو رحلة فى البلاد العربية » - الجزء الثانى بيروت ١٩٢٥م .

٣٢ - حسن ابراهيم حسن
« تاريخ الاسلام السياسى » جـ٣ .

٣٣ - « الفاطميون فى مصر » (المطبعة الأميرية سنة ١٩٣٢م) .

٣٤ - حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف
« المعز لدين الله » (مطبعة النهضة المصرية ١٩٤٧م) .

٣٥ - عبيد الله المهدى ، (مطبعة الشبكشى عام ١٩٤٧م) .

٣٦ - عارف تامر
« القرامطة » (دار الكاتب العربى بيروت) .

٣٧ - عبد العزيز الدورى
« دراسات فى العصور العباســية المتأخرة » (مطبعة السريان - بغداد ١٩٤٥م) .

٣٨ - عدنان العطار
« الأطلس التاريخى للعالمين العــربى والاسلامى » دمشــق - القاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

٣٩ ـ فاضل عبد اللطيف الخالدى
« الحياة السياسية ونظم الحكم فى العــــراق » مطبعة الايمان ـ بغداد ١٩٦٩م ٠

٤٠ ـ محمد جمال الدين سرور
« سياسة الفاطميين الخارجية (دار الفكر العربى الطبعة الرابعة ١٩٧٦م) ٠

٤١ ـ محمد بك الخضرى
« تاريخ الأمم الاسلامية » (مطبعة دار احيـــــاء الكتب العربية ١٩٣٠م) ٠

٤٢ ـ محمد عبد الفتاح عليان
« قرامطة العراق فى القرنين الثالث والرابع الهجريين » الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠م ٠

٤٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية المجلد السادس ٠

المراجع العربية المترجمة

٤٤ ـ زامبـــــاور
« معجم الانساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى » أخرجه د٠ زكى محمد حسن بك وحسن أحمد محمود واشترك فى ترجمة بعض فصوله د٠ سيدة اسماعيل الكاشف وحافظ أحمـــــد حمـــدى وأحمد ممدوح حمدى ، القاهرة ١٩٥٢ ٠

٤٥ ـ كارل بروكلمان
« تاريخ الشعوب الاسلامية » نقله الى العـــــربية د٠ نبيه فارس والأستاذ منير البعلبكى (دار العلم للملايين بيروت الطبعة الأولى ١٩٤٩م) ٠

٤٦ ـ ناصر خسرو ، أبو معين الدين ناصر خسرو القباديانى المرذوى « سفر نامه » ترجمة وتقديم الدكتور أحمد خالد البدلى ـ الرياض السعودية ٠

المنصور محمد بن عبد الله بن أبى عامر
فى المـــيزان

د٠ نورة محمد عبد العزيز التويجرى(*)

يعتز التاريخ الاسلامى بجناحه الغربى مثلما يعتز بجناحه الشرقى٠ ففى أقصى الطرف الغربى للدولة الاسلامية ، قامت للمســلمين دولة فى شبه جزيرة أيبريا ـ هى دولة الأندلس ـ قدر لها أن تنهض بدور خالد فى ميادين السياسة والحرب والجهاد من ناحية ، وفى ميادين الحضارة بمختلف آفاقها ومظاهرها من ناحية أخرى ٠ وفى تتبعنا لهذا النشاط المتعدد الأوجه نصادف شخصيات فذة خلــدت اسماءها فى التاريخ ، ومازالت جديرة بالمزيد من عناية الباحثين ، لالقاء الأضواء على جوانبها، وكشف ما خفى من بطولاتها واسهاماتها الحقيقية ، أو للحكم عليها حكما أمينا صادقا يزيح عنها ما قد تكون قد تعرضت له من غبن أو نكران ٠

ومن هذه الشخصيات المنصور محمد بن عبد اللـــه بن أبى عامر المعافرى ، الذى قام بالوصاية على هشام المؤيد عقب وفاة أبيه الحـــكم المستنصر سنة ٣٦٦هـ (٩٧٦م) ٠ وقد أثبت المنصـــور محمد أنه سياسى بارع ومحارب شجاع ، بذل الكثير دفاعا عن دولة الاسلام فى الأندلس وحفاظا على كيان المسلمين فى تلك البــلاد البعيدة عن قلـــب الدولة الاسلامية فى الشرق ؛ ومع ذلك لم يلق المنصــور التقــدير الكافى من معاصرية وكثير من المؤرخين ، فغلبوا الزلات على الحسنات ، وأغفل بعضهم حقه ولم يذكروا الا أخطاءه ٠ بل ان البغض تجنى عليه ، وأطلقوا عليه من الصفات ما يتنافى مع الواقع والحقيقة ، فوصــفوه بالاحتيال والخيانة ٠ ومن المحدثين من وصــفه بالدكتاتورية ووصــف عهــده بالدكتاتورية العـــامرية ، ولم يروا فيــه الا الطمع والاستبداد ، بل الوصولية والممارسات اللاأخلاقية ٠

(*) كلية التربية ـ الرئاسة العامة لتعليم البنات ـ الرياض ٠

ولكن فى ضوء الكثير من المصادر والمراجع التى رجعت اليها والتى تهتم بالتاريخ الأندلسى فى تلك الحقبة الزمنية التى عاصرها المنصور وما حفلت به من أحداث كان للمنصور محمد بن أبى عامر ذكر فيها ، تبلورت أمامى هذه الشخصية فى ضوء طبيعة العصر وأجوائه وظروفه ، واتضحت جهود هذا الرجل التى لا تنكر فى الحفاظ على الاسلام ودولته فى الأندلس . وكان أن رأيت من الانصاف ان نضع هذه الشخصية التاريخية فى الميزان ، لنواجه من نظروا اليها من جانب واحد فقط ، متجاهلين ما لها من جوانب مضيئة فى التاريخ الاسلامى بصفة عامة وفى التاريخ الأندلسى الاسلامى بصفة خاصة . وبعبارة أخرى فاننى فى هذا البحث أقف أمام هذه الشخصية محاولة الرد على المتحاملين عليها ، والذين نظروا اليها من جانب واحد مظلم وأهملوا جانبها المضيء .

ذلك أنه من الأمانة العلمية ألا نغمط هذا الرجل حقه ، وألا نتجاهل ما قام به من أعمال أدخلت الفزع والرعب فى قلوب أعداء الدولة الاسلامية فى الأندلس.وحسبه ان وفاته أحدثت موجة من الفرح والسرور فى الأوساط الأسبانية حتى أن الحوليات اللاتينية التى كانت تدون فى الكنائس والأديرة اهتمت بتسجيل تاريخ موته ، وعبرت عن ذلك بقولها :

« وفى سنة ١٠٠٢م توفى المنصور ، وذهب الى الجحيم » .ويكفى هذا الاحساس من جانب الخصوم والأعداء ليضفى عليه أهمية فى نظر الأهل والأصدقاء .



شخصية المنصور محمد بن أبى عامر :

أما عن المنصور فهو أبو عامر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافرى ، من قبيلة معافر اليمنية احدى قبائل حمير(١) قدم جده عبد الملك الى الأندلس ، وكان من أوائل الداخلين تلك البلاد مع الجيوش الاسلامية الفاتحة ، واتخذ من الجزيرة الخضراء مستقرا له حيث حصل على اقطاعات كبيرة فى بلدة طرش Torrox (٢) مكافأة له ، لما أظهره

من شجاعة وبسالة فى المعارك ، التى خاضها فى الفتح الاسلامى لبلاد الأندلس . وفى تلك القرية - قرية طرش - ولد المنصـــور محمد سنة ٣٢٨ هـ .

اما والده عبد الله المكنى بأبى حفص فكان من أهل الدين والزهد فى الدنيا والعزوف عن السلطان . وقد سمع الحديث ، وقام بأداء فريضة الحج ، وتوفى بمدينة طرابلس الغرب بليبيا عندما كان عائدا من الحج.

وكانت أمه بريهة بنت يحيى بن زكريا من قبيلــة تميم المعروفين ببنى ترطال(٣) . تلقى محمد بن أبى عامر تعليمه فى جامع قرطبة ، وكان حسن النشأة مغرما بالتعلم ينصف بالذكاء والنجابة ، أحـــب علم التاريخ ، واهتم بقراءته،والتحق بالقضاء فى بداية حياته ، وقرأ اللغة والأدب على معلميه أبى على القالى وأبى بــكر بن القــوطية ، ودرس الحديث على يد أستاذه أبى بكر بن معاوية القرشى(٤) . وكان ينظر الى المستقبل نظرة المتفائل مؤمنا بأنه سيكون له دور مهم على مسرح الحوادث . يحكى أنه فى حديثه مع بعض زملائه عن المستقبل قال لهم : لابد لى أن أملك الأندلس ، واقود العسكر وانفذ حكمى فيها(٥) .

وقد تغنى عدد من الشعراء به مشيدين بشجاعته وبطولاته ، وحسن نسبه ، منهم الشاعر ابو عمر أحمد ابن محمد بن دراج المعروف بالقسطلى حيث قال فيه :

تلاقت عليــه من تميم ويعـــرب ... شـموس تلألأ فى العــلا ويدور
مــن الحميريين الذين أكفـــهم ... سحائب تندى بالندى وبحور(٦)

ولقد تولى محمد بن أبى عامر عـــدة مناصب فى الدولة الأمويه بالأندلس . ذكرت بعض المصادر التاريخية أن كل منصب تولاه كانت تسانده فيه الأميرة (صبح) زوجة الخليفة الحكم المستنصر ، وأم الخليفة هشام المؤيد . وكان أول منصب تولاه عندما عين وكيلا لخدمة الأميرة (صبح) وولديها عبد الرحمن وهشـــام ، ثم تولى ادارة أموال وضياع الأميرة صبح ، ثم شؤون الخزانة العامة لأموال الدولة ، وبعدها تولى

خطة المواريث ثم قضاء اشبيلية(٧) وليلة وأعمالهما ثم أمينا لدار السكة، ثم وكيلا للخليفة هشام المؤيد . وقد أسند اليه الخليفة الحكم المستنصر كثيرا من المهام السياسية ؛ وذلك لما لاحظه عليه من الذكاء والفطنة ، كما كان محل ثقة وتقدير الخليفة الحكم ، حيث أرسل معه كمية كبيرة من الأموال والهدايا الى البربر لينضموا الى جانبه .

وهكذا استطاع محمد بن أبى عامر بما أوتى من ذكاء وفطنة أن يصل الى أعلى وظائف الدولة فى قصر الخلافة وذلك خلال مدة قصيرة، لا تتجاوز عدة أعوام ، كما استطاع أن يصل الى الملك بالرغم من انه لم يكن من أسرة مالكة ، وهذا ما ذكره عن نفسه .

وقد اختلفت الروايات التاريخية حول كيفية اتصال محمد بن أبى عامر بالخليفة المستنصر وزوجته صبح حتى استطاع أن يصل الى حكم بلاد الأندلس ، فبينما يذكر المقرى أن اتصاله بهما تم عندما طلبت الأميرة صبح مديرا لأموالها فذكر لها عدد من فتيان القصر محمد بن أبى عامر الذى كان يملك دكانا صغيرا مقابل قصر الخلافة ، حيث كان يكتب الشكاوى والمعاريض للناس ، ومن يريدون الدخول الى الخليفة الحكم المستنصر ، فاستحسنت أسلوبه وعينته أمينا لبعض أمورها الخاصة(٨).

ولم يلبث أن استطاع أن يستحوذ على اعجاب زوجات الخليفة الحكم المستنصر بفضل لباقته وحسن معاملته وعطائه ، فلفت ذلك انتباه الخليفة الحكم المستنصر فدخله الشك حيث قال لأحد من يثق بهم من رجاله «مالذى استلطف هذا الفتى ؟ حرمنا حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن ، حتى صرن لا يضعن الا هداياه ولا يرضين الا ما آتاه . انه لساحر عظيم ، أو خادم لبيب ، وانى خائف على ما بيده »(٩) .

وكان أن دفع هذا الشك أحد خصوم محمد بن أبى عامر الى اتهامه أمام الحكم المستنصر بأنه مسرف فى أموال الدولة ، مبدد لها ، ينفقها فى سبيل مصالحه الشخصية ، وتكوين الأنصار والمؤيدين له . وعندئذ تأكد شك الخليفة المستنصر فيه ، وطلب منه أن يقدم له حساب الخزانة

العامة لأموال الدولة التى كان المسئول الأول عنها . وكانت الخزانة تعانى عندئذ عجزا كبيرا فيها ، مما دفع المنصور أن يلجأ الى أحد المقربين له ، وهو الوزير (ابن حدير) وكان مشهورا بثرائه ، فاخذ منه المنصور المال الكافى الذى استطاع به أن يغطى هذا العجز فى خزينة الدولة ، فزالت شكوك الخليفة فيه ، وازدادت ثقته به .

وهناك رواية أخرى تذكر كيفية اتصال محمد بن أبى عامر بالخليفة الحكم المستنصر ، أوردها ابن بسام حيث يذكر آن ذلك الاتصال تم عندما كان الخليفة الحكم المستنصر يريد ان يعين مشرفا لادارة أملاك ابنه عبد الرحمن . فأسند هذه المهمة لمحمد ابن أبى عامر بناء على ترشيح الوزير جعفر بن عثمان المصحفى له . ثم آخذ محمد بن أبى عامر يتقلب فى مناصب الدولة ، بفضل وقوف الأميرة صبح وراءه فى كل منصب يتولاه مساندة ودافعة له .

وتذكر بعض المصادر أن من ضمن المناصب التى تولاها محمد بن أبى عامر صاحب الشرطة الوسطى فى عهد الحكم المستنصر سنة ٣٦١هـ، ثم قاضى العدوة ، وخطة المواريث(١٠) .

كذلك قام بمهام سياسية بتكليف من الخليفة الحكم المستنصر ، ومن هذه المهام أن الخليفة المستنصر جعله يرأس الوفد المكلف باستقبال يحيى ابن على بن حمدون أحد أمراء بنى خزر من أمراء قبيلة زناتة البربرية، وهم ممن استعان بهم الخليفة الحكم للقضاء على الدولة الفاطمية ببلاد المغرب .

وهكذا أخذ شأن المنصور محمد بن أبى عامر يعلو ويثبت فى الدولة الأموية فى الأندلس بعد أن تولى الاشراف على تربية الأمير هشام بن الحكم المستنصر ، وذلك بتكليف من والده الخليفة الحكم ، كما أسند اليه مهمة تنظيم البيعة بولاية العهد لابنه القاصر (هشام المؤيد) . وقد مكنه ذلك من الاستيلاء على السلطة فى الأندلس بعد وفاة الخليفة الحكم المستنصر .

وكانت له جهود فى الحفاظ على منصب الخلافة للخليفة هشام بن الحكم المستنصر ، وذلك بعد أن قام باحباط المؤامرة التى كان يخطط لها الفتيان الصقالبة ،صاحب البردةوالطراز فائق وجؤذر صاحب الصاغة، واستهدفت هذه المؤامرة خلع الخليفة هشـــام وتولية عمـــه المغيرة بن عبد الرحمن ، بشرط أن يعهد المغيرة للخليفة هشام بولايةالعهد من بعده.

المميزات العامة لشخصية المنصور بن أبى عامر :

وفى دراستنا لشخصية المنصور محمد بن أبى عامر يتضح لنـــا أن أهم ما كان يميز هذه الشخصية ذكاؤه وفطنته وقـــدرته على تصريف الأمور ومواجهة المصاعب ، هذا فضلا عن أن طموحاته الشخصية كانت لا تعرف حدا . وكثيرا ما كان يعبر عن طموحاته فى حديثه مع أصحابه ، فيدفعهم ذلك للاستهزاء به والسخرية منه .

ولكنه كان يصر علىموقفه مخاطبا اياهم بقوله : تمنوا على ،فتمنى كل منهم أمنية خاصة به الا صديقه موسى بن عزورن ، فقد استبعد حدوث ذلك الشىء ، فقال ساخرا له : اذا أمضى اليك الأمر يا صاحبى فامر أن يطاف بى فى قرطبة على حمار ووجهى الى الذنب ، وأنا مطلى بالعسل ليجمع على الذباب(١١) .

كذلك امتاز المنصور بمميزات أعلت من قدره ورفعت من شأنه . فالمتتبع للأحداث التى جاء فيها ذكر المنصور بن أبى عامر أثناء حكمه يدرك تماما أنه لم يكن ذلك الرجل المتعسف الظالم ، بل انه حرص كل الحرص على أن ينشر العدل ؛ دون أن يعمل حسابا للفروق الاجتماعية. كما كان حريصا علىأن يشمل عدلهالعامة والخاصة ؛ من ذلك أن رجلا من العامة تقدم اليه فى مجلسه فشـــكا اليه مماطلة القاضى عبد الرحمن بن فطيس فى قضية بينه وبين أحد فتيانه صاحب الدرقة(١٢) وذلك لمكانة صاحب الدرقة فى بلاط المنصور ، فما كان من المنصور محمد بن أبى عامر ، الا أن أنكر على القاضى عبد الرحمن بن فطيس تصرفه هذا ، وعجزه وتهاونه فى الحسم فى هذه القضية بقوله : ما أعظم بليتنا من هذه الحاشية ؟ ، ثم نظر الى الفتى الصـــقلبى وطلب منـــه أن يدفع

«الدرقة» الى أحد رجاله ، وأن ينزل صاغرا الى مقام خصمه حتى يرفع الحق بينهما(١٣) ٠

وقد عرف المنصور من قبل رعيته بالعدل والانصاف ، بحيث كان كل من شعر باغفال ، أو هضم لحقه يحاول أن يوصل شكواه الى المنصور بن أبى عامر فلا يخذله ، ويأخذ الحق له ٠ وقد حكى عن أحد تجار المغرب أنه جرت بينه وبين أكبر خدم المنصور والمشرف على داره ويدعى (البورقى) خصومة وجب فيها اليمين على (البورقى) ، فدافع عند الحكم ؛ ظنا منه أن منصب (البورقى) وجاهه عند المنصور لايستدعى استحلافه ٠ فما كان من التاجر الا أن وقف للمنصور بن أبى عامر وهو فى طريقه للمسجد الجامع لتأدية الصلاة فيه ، وطلب منه انصافه من هذا التاجر ، فطلب المنصور أن تحال قضية التاجر المغربى للحاكم لينظر فيها ، كما أمر أن يعزل خادمه (البورقى) من الخدمة ونفاه الى الأندلس(١٤) ٠

وكان من الأشياء التى تشغل بال المنصور ، ويصرف اليها جل وقته اهتمامه بتوفير الأمن والطمأنينة لرعيته ولدولته ، فكان دائم السهر على مصلحتها ٠ وقد أنكر عليه أحد خدمه الملازمين له طول سهره ، وطلب منه أن يأخذ قسطا من الراحة ، فما كان رد المنصور عليه الا أن قال له : حارس الدنيا لا ينام اذا ما نامت الرعية ، ولو استوفيت نومى لما كان فى هذا البلد عين نائمة ٠٠٠ »(١٥) ٠

وهكذا جمع المنصور بين سياسة العدل والسهر على مصالح الرعية ، وسياسة الحزم والعزم واليقظة – اذا ما استدعت الأمور ذلك ٠ كل ذلك مع حسن معاملة الرعية والحرص على اكرامهم ، وبذلك كسب محبتهم له واقبالهم عليه(١٦) ٠

ولعل ما ذكره عنه ابن عذراى لأوضح دليل على ذلك ، اذ يقول « احتاج الناس اليه ، وغشوا بابه فاسألهم ، وبلغ الغاية من أصحاب السلطان معه سعة صدر ، وكرم لقاء ، وسهولة حجاب ، وحسن أخلاق ، فعرف جاهه ، وعمر بابه »(١٧) ٠

كذلك كان المنصور محبا للعفو مشجعا عليه . من ذلك أن أحد فتيان قرطبة وهو من أهل الأدب كان فى شىء من العوز والحاجة ، فاشتغل فى خزانة الدولة فامتدت يده الى بعض المال فأخذ مبلغ ثلاثة آلاف دينار ، فبلغ أمره المنصور محمد بن أبى عامر ، فاستدعاه واستجوبه فيما نسب اليه ، فاعترف الفتى بذلك .. فأمر المنصور بحبسه والتشديد عليه . فأنشد الفتى أبياتا قال فيها :

أواه أواه وكم ذا أرى | أكثر من تذكار اواه
ما لامرىء حول ولا قوة | الحول والقوة لله

فلما سمع بها المنصور بن أبى عامر ، طلب احضار الفتى اليه وسأله بقوله : أتمثلت أم قلت ... فقال الفتى : بل قلت . فعفا عنه المنصور ثم أنشد الفتى هذه الأبيات :

اما ترى عفو ابن عامر | لابد أن تتبعه منه
كذلك الله اذا ما عفا | عن عبده أدخله الجنة(١٨)

فلما سمع المنصور بذلك ، أمر بالعفو عنه ، وكافأه بالمال .

وكان المنصور شديد المخافة من الله ومن عقابه ، فكانت تعرض عليه أسماء من طالت مدة سجنهم للنظر فيهم والعفو عنهم . وكان من ضمن هذه الأسماء اسم لأحد خدامه ، كان قد غضب عليه المنصور فأمر بحبسه ، ووضع تحت اسمه : لا سبيل فى اطلاقه حتى يلحق بامه الهاوية. فعرف الرجل السجين بما تم فى شأنه ، فأخذ يدعو ربه ويناجيه ، فاصاب المنصور القلق والأرق فى نومه ، حيث كان يأتيه عند نومه شخص عنيف ليطلب منه اطلاق سراح الرجل ويتوعده على حبسه . فما كان من المنصور الا أن أمر باطلاق سراحه فى كتاب قال فيه « هذا طليق الله على رغم أنف ابن أبى عامر »(١٩) .

كذلك كان للمنصور هيبة فى جنده ورجاله لم يؤتها ملك قبله ، فكان مكان الاحتفال الذى يحضره المنصور بن أبى عامر يعمه الصمت

والسكون والاطراق ، حتى ان الخيل تمتثل لانصات فرسانها ، فلا تكثر الصهيل أو الهمهة(٢٠) .

ولعل ما أورده خلف بن حيان والد الامام ابى مروان حيان بن خلف من حادثة تبين مدى ما كان عليه المنصور من هيبة واحترام فى نفوس رجاله وحاشيته ، وما كان عليه من تواضع ورفق بالرعية . ذكر ابن حيان أن المنصور قد لاحظ عليه حالة الفزع والهيبة من سلطانه ، فاستدعاه عندما فرغ مجلسه من الحضور ، وسأله عن سبب فزعه ، واستنكر ذلك عليه بقوله : من وثق بالله برىء من الخون والقوة،وانما أنا آلة من آلات الله تعالى أتصرف بمشيئته وأسطو بقدرته ، واعفو عن اذنه ، ولا أملك لنفسى الا ما أملك لى ، فأزل عنك روعك ، فانما أنا ابن امرأة من تميم ، طالما تقوتت بثمن غزلها ، ثم جاء من الله تعالى ما تراه(٢١) .

وكان المنصور يتصف بالعطف والرحمة على أفراد رعيته . هذا ما أورده المقرى عنه فى حادثة يذكر فيها : أنه بينما كان المنصور عائدا من أحد غزواته على مملكة نبرة النصرانية ، لقيته امرأة وشكت اليه ان لها ابنا أسيرا فى بلاد الافرنج وعرفته باسم تلك البلاد ، فما كان من المنصور الا أن طمأنها وقام بفتح تلك البلاد وأطلق من فيها من أسرى المسلمين(٢٢)

وهكذا كان المنصور رجلا حازما قويا ، مما مكنه من ضبط الأمور الداخلية فى دولته حتى جعل منها دولة قوية صامدة ، بالرغم من الأوضاع السياسية المضطربة التى أوشكت أن تعصف بها عندما ولى أمورها . وقد عبر ابن عذارى عن ذلك بقوله : « فقام بتدبير الخلافة وأقعد من كان له فيها انافة .. وساس الامور أحسن سياسة ، وداس الخطوب أخشن دياسة . واستشعر اليمن كل فريق ، وملك الأندلس نصفا وعشرين ، ولم تدحض سعادتها حجة ، ولم تزخر المكروه بها لجه ، لبست فيها البهاء والاشراق»(٢٣) .

كذلك كان المنصور شديد الخشية من الله والرغبة فيما عنده ، يتبين

ذلك من قوله لابن حيان فى احدى مخاطباته له « يا ابن حيان ، ان أفضل الناس غرسا من غرس الخير ، وان أفضل السلطان غرسا ما أثمر فى الآخرة . ومن انا من الله تعالى لولا عطفى على المستضعف المظلوم، وقصمى للجبار المغشوم اللاهى عن حقوق ربه بفسوقه ودنسه »(٢٤) .

وحسب المنصور قول عبد الله بن بلكين آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة عنه :(٢٥)

« وكان ـ المنصور ـ بالرغم من أعباء الحكم ، وكثرة غزواته ، واتصال جهاده محبا للعلم ، شغوفا بالأدب ، مقدرا من ينسب اليهما ويفد عليه . وكان دقيقا فى اختيار هؤلاء الشعراء والتمييز بين قدراتهم الشعرية » .



أما أهم ما يميز سياسة المنصور محمد الخارجية والحربية ، فكان جهاده الصادق للحد من أطماع القوى المسيحية فى الممتلكات الاسلامية فى شمال الأندلس . وقد انطلقت سياسة المنصور محمد بن أبى عامر العسكرية من خطة محددة ذات أبعاد واضحة استهدفت سحق القوى العسكرية للممالك النصرانية واخضاع سادتها ، ولم يكن الهدف من حروبه التى شنها على القوى المسيحية فى الشمال ـ كما قال بعض المغرضين طريقا للوصول الى قلوب جماهير المسلمين فى أسبانيا ووسيلة لدعم طموحاته السياسية(٢٦) . ذلك أن المنصور استطاع فعلا أن يحول بين النصارى وأطماعهم فى بلاد المسلمين ، اذ لم تقتصر جهوده على رد هجماتهم على الدولة الاسلامية فى الأندلس ، بل امتدت الى الفتح والتوسع فى بلادهم الواقعة شمال الأندلس وبذلك أصبح قوة يخشاها ملوك تلك البلاد مما أثار الفزع فى قلوبهم .

ثم انه عمل على نشر الاسلام فى البلاد التى غزاها ، ويقال انه كان يغزو فى السنة مرتين احداهما فى الصيف وتعرف بالصائفة والثانية فى الشتاء وتعرف بالشاتية . وأدت هذه الغزوات الى استنزاف قوة

النصارى ، وشل حركتهم التوسعية ؛ مما دفع كثـــيرا من الشــعراء الى التغنى ببطولته(٢٧) ·

وقد تباينت المصادر فى ذكر عدد غزوات المنصور لبلاد النصارى ، فمنهم من ذكر أنها خمسون غزوة · ومنهم من ذكر أنها اثنتان وخمسون غزوة · وقيل : أربع غزوات وقيل سبع غزوات· وقد ذكر ابن خلدون بأنها اثنتان وخمسون غزوة كلها تمت تحت قيادته · وفى ذلك يقول ابن خلدون « ورد الغزو بنفسه الى دار الحرب ، فغزا اثنتين وخمسين غزوة فى سائر أيام ملكه ، لم ينكسر له فيها راية ، ولا غل له جيش ، ولا أصيب له بعث ، ولا هلكت سرية»(٢٨) ·

وكا نمن الطبيعى أن يهتم المنصور بتقوية الجيوش الاســلامية فى الأندلس ؛ لتستطيع مواجهة الأعداء ، فعمل على دعم جيشه وتجهيزه بكل المستلزمات الحربية·وزاد من عدد الجيش ، ورتب للجند معاشات شــهرية مجزية ، لتشجعهم على مواصلة الجهـــاد ، كما كان يصرف للجنود مكافآت مغرية بعد كل غزوة أو سرية ، يتحقق له فيها النصر · ولاشك فى أن سياسة المنصور الحربية ودأبه على مواصلة حركة الجهاد ، أدت الى زعزعة كيان الممالك النصرانية شمال الأندلس حتى بلغت فى عهد المنصور درجة شديدة منالتمزق والضعف·ولم يقبل المنصور من أعداء الاسلام صلحا ولا مهادنة ، مما جعل القوى المســيحية تلجأ الى تغيير خططها العسكرية ، فتحولت من الهجوم على الممتلكات الاسلامية الى الدفاع لمواجهة قوة المنصور العسكريه الساحقة ·

ومن أشهر حروب المنصور محمد ، تصديه لاطماع الملك (ردمير الثالث) ٣٥٥ - ٣٧٢هـ/٩٦٦ - ٩٨٢م ملك ليون الذى حاول الهجوم على الممتلكات الاسلامية مستغلا صغر سن الخليفة هشام المؤيد · فقام بالهجوم على قلعة (رباح) وهى احدى الكور الاسلامية المهمة ؛ وساعد فى هــذا الهجوم أهالى امارة قشتالة فعاثوا فى بلاد المسلمين فسادا وتخريبا مما دفعهم الى الاستنجاد بالحاجب جعفر المصحفى القائم على دولة الأندلس فى بداية عهد الخليفة هشام المؤيد · وعندما رأى المنصور محمد تقاعس

الحاجب المصحفى عن حماية بلاد المسلمين ، أعد جيشا خرج به من قرطبة فى الثالث من شهر رجب سنة ٣٦٦هـ/٩٧٧م . قاصدا أراضى ليون وقشتالة(٢٩) فحاصر حصن (الحامة) فى جليقية ، وأنزل بأهله هزيمة فادحة ، وقام بفتح الربض التابع له ، والذى تم بناؤه على يد الملك ردمير الثالث(٣٠) وعاد الى قرطبة منتصرا(٣١) . ثم قام بحملة أخرى انطلقت من مدينة طليطلة وتمكن بها من فتح كثير من الحصون النصرانية . كذلك تمكن المنصور من فتح مدينة شلمنقة الواقعة جنوب غرب مملكة ليون . ومن غزوات المنصور المهمة غزوه مملكة ليون ، لمعاقبة ملكها ردمير الثالث فتمكن من هزيمته وقام بهدم مملكته واستباحها لجنده .

ومن أهم غزوات المنصور تلك الغزوة التى عرفت باسم (اوشنت ياقب) - أى القديس يعقوب - وهى عاصمة اقليم (جليقية) فى الشمال . وقد اشتهرت هذه المدينة بأنها من أعظم معالم اسبانيا ؛ لمكانتها الدينية التاريخية ، كما تعتبر من أمنع معاقل اسبانيا النصرانية وأشدها صعوبة لموقعها الجبلى الوعر الذى حال دون وصول المسلمين الفاتحين اليها . ولم يفكر أحد هؤلاء الفاتحين قبل المنصور بن ابى عامر فى اقتحامها ، حتى غزاها المنصور بن أبى عامر ٣٨٧هـ/٩٩٧م على رأس جيش وبمعاونة الأسطول البحرى ، وتمكن من اقتحامها(٣٢) .

وكان لانتصار المنصور فى هذه الحملة صدى واسع ، وفرحة كبيرة فى نفوس المسلمين فى الأندلس ، وأشاد ابن دراج القسطلى بهذه الحادثة التاريخية بقوله(٣٣) :

ووقفت دون الدير فيها وقفة	كانت لنصر الله فيها موعدا
وبرأى عينى يوم خضت لفتحها	بحرا من البيض الصوارم مزبدا

وبعد أن غزا المنصور مملكة ليون تطلع لغزو بقية الوحدات المسيحية فى شمال شبه الجزيرة ، فقام بغزو امارة قشتالة سنة ٣٩٠هـ/١٠٠٠م ؛ وذلك لمواجهة الحلف العسكرى النصرانى الذى نظمه أميرها (سانشو غرسيه) ، والذى كان يضم عددا من ملوك النصرانية . وقد واصل فتوحاته فى أراضى قشتالة الى أن وصل الى عاصمتها (برغش) سنة

٣٩٠هـ/١٠٠٠م ٠ وفى هذه الغزوة أظهر المنصور وجنده روحا عالية ، وخاصة بعد أن اهتز بعضهم أمام ضخامة جيش العدو وفكروا فى الفرار ، لولا أن من الله على المسلمين بالنصر وعندئذ وجه المنصـــور الى جنوده وقواده بيانا عسكريا قال فيه : « وكثيرا ما فرط من قولكم أنكم تجهلون قتال المعاقل والحصون ، وتشتاقون ملاقاة الرجال الفحول ، فحين جاءكم شاغبة بالأمنة وقائلكم بالشريطة انكرتم ما عرضتم ونافذتم حتى فررتم فرار اليعافير(٣٤) من أسار(٣٥) الفيل ، واجفلتم اجفال الرئال(٣٦) من المقتصين ٠ ولولا رجال منكم دحصوا عنكم العار ، وحرروا رقابكم من الذل ، لبرئت من جماعتكم وشملت بالموجـــود كافتكم ، وخرجت للامام والأمة من عهدتكم ونعمت المسلمون فى الاستبدال بكم ، ولم أعدم من الله تعالى عاجل نصر ، وحسن عقبى ٠ فلابد أن ينصر دينه بمن شاء»(٣٧) وقد كان الشاعر ابن دراج شاهدا أيضا هذه الوقعة حيث تمثل فيها هده الأبيات :

ان تفخـــر الدنيا فانت فخارها		أو تختر العليا فأنت خيـــارها
وعدا علىالله حقا نصر من نصره		وحكم سيفك فى هامات من كفر

الى أن يقول :

هلال بنور السعد والحق مقمـر		أهل على الاسلام الله أكبر(٣٨)

ومن الجوانب المضيئة فى حياة المنصور انه استطاع أن يشمل بلاد المغرب بنفوذه ، بغرض القضاء على النفوذ الفاطمى ، وبذلك استطاع أن يوسع نفوذ الدولة الأموية بالأندلس حتى غدا يضم مراكش كلها بما فيها مدينة (فاس) ، ولا شك فى ان المنصور استغل اضطراب الأحوال السياسية فى منطقة الشمال الافريقى ، وذلك بعد ان نقل المعز لدين الله الفاطمى مقر الدولة الفاطمية من بلاد المغرب الى مصر ٠ وقد استطاع المنصـــور محمد بحنكته السياسية وحسن معالجته للأمور ان يكسب محبة وموالاة معظم أهل المغرب البربر الزيانية فأحبوه ، وتفانوا فى طاعته(٣٩) ٠

ولا شك فى ان المنصور أحس بالزهو والفخر بعد أن حقق هذا القدر من الانتصارات فى سبيل الدفاع عن الدولة الاسلامية فى الأندلس والحفاظ عليها . وقد عبر عن ذلك ببعض الأبيا تالشعرية ، التى يقول فيها :

ألم ترنى بعت الاقـــامة بالسـرى
ولين الحشـــايا بالخيول الضوامر ؟
تبدلت بعـــد الزعفــران وطيبــه
صدا الدرع من مستحكمات المسـامر
ارونى فتى يحمـى حمـاى وموقفى
اذا اشـتجر الأقـران بين العسـاكر
أنا الحاجب المنصـــور من آل عامر
بسيفى اقـــد الهام تحـــت المغافر
فلا تحسبوا أنى شــغلت بغــيركم
ولكن عهدت الله فى قتل كافر(٤٠)

وبالاضافة الى شجاعته فى ميدان الحرب ، كان المنصـــور سياسيا محنكا استطاع أن يكسب بسياسته احترام أعدائه فى نفوسهم ، مما دفـع كثيرا منهم الى التقرب منه ، ومحاولة كسب وده فعقدوا الصـلح معه ، وأرسلوا السفارات لكسب صداقته . ومنهم على سبيل المثل : شانجه بن غرسيه حاكم امارة (نافار) . وعندما قام شانجه بن غرسيه بنقض الصلح مع المنصور قام المنصور بعدة هجمات على امارته ، وعندئذ اسرع الملك النصرانى (شانجه) باعلان طاعته للمنصور وتجديد العهد معه ، بل لقد اهدى ابنته له ، فتزوجها المنصور ، وأنجبت منه ابنه (عبدالرحمن)الذى عرف باسم (شنجول) تصغيرا لجده لأمه .

وهكذا توالت على بلاط المنصور سفارات متعـــددة من قبل ملوك النصارى فى الشمال معلنة ولاءها له . ومن بين هـــذه السفارات تلك السفارة التى كانت برئاسة ولى عهد امارة قشتالة ، وكان موفدا من قبل أبيه غرسيه .

كذلك كان من بين السفارات التى قدمت على بلاط المنصور ســعيا

لكسب صداقته وحسن رضائه نلك السـفارة التى كانت برئاسـة الأمير « غنر شلب » ابن سانجه بن غرسيه (ملك نافار) الى المنصور ، وكان ذلك عام ٣٨٣هـ/٩٩٣م وقد أشاد بها ابن دراج بقوله :

ورمى «ابن شنج» اليك نفس محكم
نهـج الخضوع لها سـبيل رشادها

الى أن يقول :

مسـتنجد منـه مـذلة خاضـع
غنم الحيـاة أبوه باستنجادها(٤١)

وفى الداخل حكم المنصور البلاد بحزم ،فتصدى لكل حركةاستهدفت اثارة البلبلة والشغب فى الدولة لتحقيق أطماع خاصة بها • ومن هـذه الحركات حركة زيرى بن عطية الذى أعلن الثورة سنة ٣٨٦هـ/٩٩٧م على المنصور ، متهما اياه باغتصاب الحكم من الخليفة هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر • فدخل فى حرب مع المنصور بن أبى عامر ، ولكن المنصور تمكن من انزال هزيمة نكراء به سنة ٣٨٨هـ/٩٨٨م •

اصلاحات المنصور ومنجزاته الداخلية :

(أ) منشآت المنصور العمرانية :

لم تقتصر الجوانب المضيئة فى حياة المنصور على الجانب الحربى فقط ، بل شملت أعمال المنشآت العمرانية فى البلاد الأندلسية • ومن أجل أعماله توسعاته الكبيرة فى المسجد الجامع بقرطبة سـنة ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م • وذلك حين لاحظ أن المسجد بدأ يضيق بالمصلين ، فقام بشراء الدور المحيطة بالمسجد من أصحابها ، وأمر بهدمها ، وأدخل أراضـيها فى ساحة المسجد • وقد استغرقت هـذه التوسعة ما يقرب من العامين والنصف تقريبا(٤٢) • وقد حرص المنصور على توخى العدل والالتزام به ، حينما أقدم على شراء هذه الدور من أصحابها ؛ حتى لا يحيق ظلم أو غبن بهم • من ذلك أنه راعى أن يكون شرائها عن طيب خاطر من صاحبها ، كما أنه ترك له الحرية فى طلب المبلغ الذى يرغبه(٤٣) •

ومن أعماله الانشائية كذلك انشاء القصور والمدن فى الانحاء التى تتميز بحسن طبيعتها واعتدال مناخها داخـــل الدولة الاســـلامية فى الأندلس . وكانت الصفة الغالبة على هذه القصور هى جمال التصميم وحسن التنفيذ . ومن هذه القصور قصر الزاهرة على نهر قرطبة وقد أطلق عليه اسم قصر الزاهرة نسبة الى المدينة ، التى قام بتأسيسها المنصور سنة ٣٧٠هـ/٩٨٠م شمال شرق قرطبة لتكون مقرا له . وكذلك انشاء قنطرة قرطبة على نهر قرطبة سنة ٣٧٨هـ ، وذلك لتخفيف الضغط على القنطرة التى قام بانشائها عبد الرحمن الداخل ، والتى تعرضت للسقوط عـــدة مرات ، بسبب جرف السيول لها . وقد ربطت هذه القنطرة شمال قرطبة بجنوبها ، وبذلك سهلت حركة مرور السكان من جهة الى أخرى . ومن أعمال المنصور أيضا انه قام باعادة بناء قنطرة مدينة طليطلة سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م وكانت قد هدمت بأمر الأمير محمد بن هشام من حفدة عبدالرحمن الناصر والملقب بالمهدى ، وذلك انتقاما من أهلها الثائرين عليه(٤٤) . وأمر المنصور ببناء قنطرة نهر اشتجه وهو نهر شنيل ، فســـهل بذلك الطريق الوعرة والشعاب الصعبة(٤٥) .

ولم تقتصر أعمال المنصور محمـــد بن أبى عامر العمـــرانية على الانحاء الواقعة داخل الدولة الاسلامية فى الأندلس ، بل امتـــدت الى الأجزاء التى فتحها فى بلاد النصارى فى الشمال . ويتضح ذلك من أنه عندما حضرته الوفاة ، كان بحضرته صاحب كوثر الفتى ، فرآه باكيا فسأله قائلا « مم تبكى يا مولاى لا بكت عيناك ؟ » قال : « مما جنيت على بلاد المسلمين . فلو قتلونى وأحرقونى ما انتصفوا منى » فســـأله متعجبا قائلا له « وكيف ذلك ، وأنت أعززت الاسلام وفتحت البلاد ، وأذللت الكفر ، وجعلت النصارى ينقلون التراب من أقصى بلاد الروم الى قرطبة حين بنيت بها جامعها ؟! » فقال له : « لما فتحت بلاد الروم ومعاقلها عمرتها بالأقوات من كل مكان وبنيت بها حتى عادت فى غاية الامكان ، ووصلتها ببلاد المسلمين ، فأوصـــلت العمـــارة » ثم أبدى مخاوفه ممن سيخلفه فى عدم قدرته على المحافظة عليها ؛ لانشغاله بملذاته الشخصية ، الى أن قال : « فيجىء العدو فيجد بلادا عامرة حاضرة ، فيقوى بها على محاصرتها ، فلا يزال يتغلبها شيئا فشيئا ، ويطويها طيا

حتى يملك أكثر هذه الجزر ، ولا يترك فيها الا معاقل يسـيرة . فلو الهمنى الله فى تخريب ما تغلبت عليه ، واخلاء ما تملكت ، وجعلت بين بلاد المسلمين وبلاد الروم عشرة أيام فيافى وقفارا ، لايزالون لو راموا سلوكها حيارى ، فلا يصلون الى بلاد الاسلام الا بعد جهد ومشقة»(٤٦).

ومن اعمال المنصور أيضا انه اعاد بناء مدينة سلا ، وهى رباط من ربط المسلمين.وكانت قد تخربت على يد المارقين عن الاسلام (برغواطة) فامر المنصور باعادة بناء أسوارها ، وبنى فيها مارستانا فخما ، وقصرا لمقر الجند ، كما بنى بها جامعا بديعا ، وقاعة للصلاة مزينة باللازورد، والفسيفساء ،والنوافد الزجاج الملون(٤٧) .

تنظيم الجيش :

بعد أن استتب الأمر للمنصور محمـد بى أبن عامر فى الدولة الاسلامية فى الأندلس ، أدرك أنه هو المسئول الأول عن بقائها وحمايتها. ورأى أن من أول واجباته العنـاية بالجيش ، لأنه عمـاد الدولة الأول والركيزة الأولى التى تعتمد عليها فى بقائها وقوتها . لذلك حرص المنصور ابن أبى عامر على بناء جيش قوى متماسك يتناسب قـوة وعـددا مع الجيوش الاسبانية النصرانية المعادية للدولة الاسلامية والمعارضة لقيامها وكان أن فتح باب التطوع للانضمام الى الجيش الاسلامى وجعل الدخول فيه متاحا لجميع أفراد طبقات المجتمع الأندلسى الاسلامى ، كما قام بالغاء النظام الذى كان معمولا به من قبل فى الجيش وهو نظام التجنيد الاجبارى ، وأحل محله نظام التطوع ، بحيث ترك حرية الانخراط فى الجيش للأفراد . وقد أعلن المنصور ذلك بأمر أصدره سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م بعد عودته من احدى غزواته فقال : ان من تطوع خيرا فهو خير ، ومن خف اليه فهو مبرور ومأجور ، ومن تثاقل فهو معذور(٤٨) . وكان لهذا النظام أثره فى نفوس أهل الأندلس اذ سارعوا بالانضمام الى الجيش ؛ رغبة فى نيل الأجر والثواب من عند الله . وكان لذلك أثره البالغ فى صدق جهادهم ، وتفانيهم فى مواجهة الأعداء .

كذلك عمل المنصور على ازالة النظام التقليدى المعمـول به فى

الجيش ، والذى كان يعتمد على زعماء العرب والبربر ، الذين استقروا وسط المزارع فى قلب البلاد ، فى وضع اقرب الى ما هو معـــروف فى النظام الاقطاعى . ويسمح لهم باستثمار الأرض مقابل النهوض بمهمة القتال والجهاد ومعهم اتباعهم ، عندما يدعوهم الأمير الى ذلك ، وعندما ينتهى القتال يعودون الى مزارعهم بما حصلوا عليه من مغانم(٤٩) وقد أدى ذلك النظام مع مرور الوقت الى نشـــأة تكتلات عسكرية ذات طابع سياسى فأصبحت مناطق اقامتهم شبه مستقلة عن الدولة واشعلوا كثيرا من الثورات وحركات التمرد . وصحب ذلك ظهور نزعات اســـتقلالية وانفصالية ، كادت أن تودى بوحدة البلاد وأمنها ، لولا أن تدارك هـــذا الأمر المنصور بن أبى عامر وعمل على الغائه .

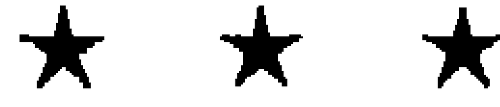
ومن الملاحظ أن المنصور تحاشى الاعتمــــاد على طبقة الصقالبة كعنصر فعال فى الجيش بعد أن قويت شوكتهم فى زمن الحكم المستنصر، فعمل المنصور على أبعادهم وعمل جيشا موحـــدا متماسكا يتألف من جميع فئات أهل الأندلس ، وبذلك يقضى على النزعات القبلية العنصرية داخل الجيش(٤٩) .

اهتمامه بالقضـــاء :

ومن النظم المهمة فى الدولة ، التى اختصها المنصور بالكثير من عنايته واهتمامه ، نظام القضاء ، اذ عمل على ضبطه وسيره فى الوجهة الصحيحة . ذلك أنه تصدى لكل من حاول الاخلال بالقضاء ، أو ادخال شىء مناف عليه . يذكر المقرى عن المنصور أنه سد باب الشفاعات ، وقمع أهل الفسق والزعارات ، حتى ارتفع البأس وأحس الناس بالأمن ، وأمنت البلاد عادية المجرمين(٥٠) . وقد أولى اختيار القضاة جل اهتمامه ، وتوخى فيهم حسن السلوك ، وحسن السيرة ، رغبة منـــه فى اشاعة العدل بين أفراد مجتمع الدولة الاسلامية . وكان اختياره للقاضى يقوم على أساس كفاءته التامة ونزاهته المطلقة ودرجة علمـــه . كذلك كان حريصا على فصل السلطة الزمنية عن السلطة القضائية ، بحيث منـــع التدخل فى شئون القضاء منعا باتا مع معاقبة من يثبت تدخله فى سير القضاء ، مهما يكن منصبه ، أو مكانته فى الدولة .

اهتمامه بالثقافة والعلم :

أما عن الناحية الثقافية والعلمية فى البلاد زمن حكم المنصور محمد ابن أبى عامر ، فقد احتلت الثقافة أهمية كبرى فى نشاطه ، ولم تشغله عنها أعباء الحكم ، أو جهاده المتواصل ، فكان محبا للعلم والعلماء ، كثير اللقاء بهم ، والاستماع الى آرائهم ، الى جانب احترامه واهتمامه بأهل العلم والأدب والشعر(٥١) وقد خصص لهم أماكن مستديمة فى مجلسه · ويحكى عنه أن له تذوق للأدب والشعر ، حيث كان يفرق بين جيده ورديئه ، بحيث كان يمتحن قدرة الشعراء ، وموهبتهم الشعرية قبل السماح لهم بالقاء قصائدهم أمامه(٥٢) وكانت مكتبته زاخرة بكتب العلم والأدب والثقافة،كما أنه أسند الى العلماء وظائف القضاء والتدريس فى مسجد قرطبة الجامع(٥٣) · والمعروف عن المنصور بن أبى عامر أن نشأته منذ صغره كانت فى بيت علم ، وأدب ، وشعر ·



وقد حظيت شخصية (المنصور بن أبى عامر) باهتمام المؤرخين القدامى والمحدثين ، واختلفت وجهات النظر حول الحكم على هذه الشخصية الفريدة ، ما بين مادح لها ، وطاعن فيها · ونحاول نحن خلال الصفحات التالية عرض هذه الآراء ، وبيان وجه الحقيقة فيها ·

أولا : مصادر اشادت بالمنصور بن أبى عامر :

١ ـ **ابن حيان :** وصف المؤرخ ابن حيان جهاد المنصور المشرف ؛ لأجل اعلاء كلمة الله فى عبارة ، نقلها عنه ابن عذارى ، وفيها يقول « تمرس المنصور ببلاد الشرك أعظم تمرس ، ومحا من طواغيتها كل متعجرف ومتغطرس ، وغادرهم صرعى البقاع ، وتركهم أذل من وتد بقاع ، ووالى على بلادهم الوقائع ، وسدد الى أكبادهم سهام الفجائع ، وأغص بالحمام أرواحهم ، ونغص بتلك الآلام بكورهم ورواحهم»(٥٤)·

٢ ـ **الأمير عبد الله بن بلقين آخر أمراء بنى زيرى بغرناطة :** قال هذا الرجل فى مذكراته عن المنصور : « وعلى الرغم من أن المنصور لم يكن من أسرة عريقة بالملك ، فانه حصل على ذلك بدهائه وعبقريته ،

وتدرجه فى المناصب ، وحسن تدبيره فى الدولة ، وأيضا كثرة غزواته وانتصاراته على النصارى ، والتى كانت تقابل باستحسان لدى اهل الأندلس ... » الى ان يقول « وقد نال الاسلام فى عهده بالأندلس عزا ونصرا ، لم تشهده الاندلس من قبل ، ووصل بالمسلمين الى بلاد النصارى وما كان لاى حاكم قبله ان يصل اليها »(٥٥) .

٣ ـ **المؤرخ ابن عذارى :** أعجب هذا المؤرخ بشخصية المنصور ، ووصفه بصفات جليلة ، ورفع قدره بين الحكام والملوك ، وذلك فى رواية يقول فيها « كان المنصور بن أبى عامر متسما بصحة باطنه ، واعترافه بذنبه ،وخوفه من ربه ، وكثير جهاده . واذا ذكر بالله ذكر ، واذا خوف من عقابه ازدجر . وكان يكثر من قراءة القرآن الكريم ، ومايزال متنزها عن كل ما تغن به الملوك . وكان يهتم بالعلماء ، ويعلى مراتبهم ويجزل العطاء لجنده وكان ذا عقل بصير بالحرب»(٥٦) .

ثانيا : باحثون محدثون أشادوا بابن أبى عامر :

١ ـ **محمد عبد الله عنان :** وقد ذكر هذا الباحث خلاصة ايجابيات وانجازات المنصور ، فذكر أنه كان قائدا مغوارا ، أنشأ فى الأندلس جيشا منظما ، حارب به أعداءه (نصارى الاسبان) وأن أيامه فى الأندلس كانت أياما خالدة ، ساد فيها الأمن والاستقرار ، وازدهرت فيها التجارة والصناعة ، وتقدمت فيها العلوم والآداب ، وكثرت الأموال فى خزائن الدولة فى عهده(٥٧) .

أما بخصوص اهتمامه بالعلوم والفنون ، فقد كان يشجع العلوم والفنون ، وقام بانشاء دور العلم . وكان يقوم بزيارات للمدارس والحلقات العلمية فى المساجد ، كما أنه كان يمنح المكافآت لمستحقيها من طلاب العلم . وأثر عنه كثرة مجالسته للعلماء ومناظرتهم ، اذ كان له فى كل أسبوع مجلس يجتمع فيه مع العلماء ، والادباء والشعراء ، للمناظرة والبحث(٥٨) .

٢ ـ محمد لبيب البتانونى : أشاد هذا الباحث بشخصية المنصور ، وامكاناته الأدبية الفائقة ، ومهاراته وبعد نظره فى سياسة البلاد فى

عهده ، فيقول « وكان من اكبر ملوك الأندلس سلطانا وفضلا ، وعلما وحسبا . له فى السياسة اليد الطولى ، وفى ادارة الحكم القدرة الفائقة. وكانت له مميزات فى صفاته وبعد نظره ، وفكر ماهر وقدرة كبيرة على تحمل الشدة(٥٩) .

٣ - **المؤرخ الأسبانى ماسديه** : اعجب هذا الباحث الغربى بقدرات المنصور السياسية ، ونجاحه فى توحيد مملكته ، وقوة شخصيته ، وحسن معاملته لمن استسلم لجنده من أهالى المدن النصرانية التى تم فتحها على يديه ، ويعبر عن ذلك بقوله « كان المنصور سياسيا كبيرا وقائدا عظيما ، أخمد الثورات التى كانت تعصف بمملكته . واكتسب محبة الشعب بجميع طبقاته ، وبرز فى شهرته وهيبته على كثير من القواد ، بما اجتمع فى أحكامه من الصراحة واللين ، والقصاص والعفو . وكان يهدم المدن التى تقاوم جيوشه ويبيدها ولكنه لم يسمح - قط - لجنده أن تسىء معاملة مدينة سلمت طوعا»(٦٠) .

٤ - **المؤرخ مننديث پيدال** : قارن هذا الرجل بين حال الدولة الاسلامية بالأندلس أيام المنصور بن أبى عامر وما وصلت اليه من مجد وفخار ، وبين ما انحدرت اليه ممالك النصارى فى الشمال من ضعف وهزال .وقد وصف هذا الوضع بقوله : « عاش الاسلام فى أسبانيا أرفع أيامه وأسطعها ، وانتهى نصارى الشمال الى حالة دفاع ، وكانت أيامهم مقرونة بالمحن . ولاح كأنهم لم يعيشوا الا لتأدية الجزية ، والسلاح ، والأسرى . والمجد للخلافة الأموية »(٦١) .



على أن التاريخ لا ينظر الى الأمور من زاوية واحدة ، وعلى ذلك لابد من الاشارة الى الرأى الآخر فى حكمه على المنصور . ويكون ذلك بتحديد الاتهامات التى وجهت الى المنصور ، والمآخذ التى أخذت عليه .

الاتهام الأول - أتهم المنصور بأنه اغتصب حكم بلاد الأندلس لنفسه، وحكم البلاد حكما مركزيا مطلقا . وذلك بأن حجر على الخليفة الشرعى (هشام بن الحكم) حتى أصبح هو الآمر الناهى فى كل صغيرة وكبيرة

من شئون الدولة ، وهكذا غدا شبيها بأمير الأمراء فى بغداد وقد وصف ابن عذارى(٦٢) المنصور بأنه استأثر بكل سلطان الخليفة ، ولم يعد يكلف نفسه مجرد استشارة هشام ، أو اعلامه بما يجرى حوله ، كما اعتاد أن يفعل فى السنوات الأولى من حكم هشام المؤيد « لقد قصر الخليفة من جميعه ،وصيره بمعزل عن سامعه ومطيعه ، وشد باب قصره عليه ، وجد فى خبر ألا يصل اليه • وجعل من يثق به من صنائعه على باب القصر ، لضبط حركة الدخول والخروج وأوقف الحراس والبوابين ، يلازمونه ليل نهار • أما الخليفة هشام فهو خفى الذكر ، عليـــل الفكر ، محجوب عن الأحباب لا يراه خاص ولا عام ، ولا يعهد اليه الا الاسم الســـلطانى فى السكه والدعوة ، وقد نسخه ، ولبس أبهته ، وطمس بهجته ، وأغنى الناس عنه ، وأزال اطماعهم منه ، وصيرهم لا يعرفونه» •

وهذا القول مردود عليه بأن المنصور رأى صغر سن الخليفة هشام وبلاهته ، وضعف عقله ، فقدر أن ظروف الدولة الحرجة أمام الصراعات فى الداخل ، وتربص الأعداء فى الخارج ، لا تحتمل ترك مقدرات الأمة الأندلسية فى يد طفل صغير •

ويرى أحد الباحثين المحدثين أن المنصور(٦٣) - عزل هشاما ، وحجبه عن شئون الدولة برضاء أمه ، اذ كان الخليفة مشغولا بمعاشرة القيان والجوارى والخدم ، مما أفسد خلقه ، وأضعف رجولته ، وحد من قدراته العقلية • فأنى له أن تكون مقاليد الدولة بيديه ؟!

الاتهام الثانى : أن المنصور تزوج من (أسماء) وهى ابنة القـــائد الغالب عبد الرحمن(٦٤) ، مستهدفا المكر والخديعة ، والوصـول الى أطماعه الشخصية •

ويرد على ذلك بأن المنصور لم يســـتهدف من ذلك الزواج المـــكر والخديعة ، وانما اراد ابطال ما كان يدبره الحاجب (جعفر المصحفى) ، الذى كان ينوى تزويجها الى ابنه (عثمان) ، لتحقيق شىء من التفاهم والوئام بينه وبين القائد غالب ابن عبـــد الرحمن ، عن طريق هـــذه المصاهرة ، والتى عن طريقها يتم التحالف بين هـــذين الرجلين ضد

الخليفة هشام بن الحكم ، فيعملان معا على انتزاع السلطة منه • وكان المنصور يخشى قيام حروب وفتن فى البلاد ، لوجود منافســين آخرين لهما ، مما سيؤدى الى اضطراب أمور الدولة •

فأراد المنصور أن يسبقه الى الزواج من ابنة غالب ، ليقطع دابر الفتنة ، ويئدها فى مهدها •

الاتهام الثالث :

اتهم المنصور بعدم الانسانية ، وباتخاذ كافة السبل والوسائل غــير الاخلاقية ، لأجل تحقيق مصالحه الذاتية • وأنه كان يسعى للوصول ولو على جثث الآخرين • ومن ذلك : اشتراكه مع القائد غالب بن عبدالرحمن فى غزوة (الصائفة ، والشاتية) ضد النصارى بمدينة (مجريط) •ورغم أن النصر تم على يد غالب الا أنه نسب الى المنصور • وتم ذلك بناء على اتفاق أبرم بينهما ، يتم بمقتضاه قضاء المنصور على الحاجب (جعفر المصحفى) •وكان ذلك عن طريق تقريب الخليفة هشام للمنصور ، لما علمه من تحقيق النصر على يديه ، ولما جلبه من غنائم وسبى • وكانت نتيجة هذا التقارب ايقاع المنصور بين هشام والمصحفى • ونجحت الوقيعة بأن أصدر هشام أمرا بعزل المصحفى من رئاسة الشرطة والمدينة ، واسناد ذلك الى المنصور • هذا بالاضافة الى ما قام به المنصور من تعذيب وسجن ونهب لآل المصحفى ، حتى هلك المصحفى فى السجن ذليلا •

ويرد على ذلك بأن هناك عوامل دفعت المنصور الى التخلص من المصحفى أهمها عاملان :

الأول ـ استبداد المصحفى بالسلطة فى الدولة بحكم مركزه فيها • اذ كان يعد الرجل الحقيقى الأول فيها •

الثانى ـ نقمة المنصور عليه ، واتهامه اياه بالتقصير فى الدفاع عن ثغور الأندلس ، ومواجهة اعتداءات النصارى على المسلمين الآمنين • لقد استنجد بالمصحفى أهل قلعة (رباح) ؛ لانقاذهم من ملك ليون (روميرالثالث ٣٥٥ ـ ٣٧٢هـ) ، الذى زحف بقواته على ذلك الثغر الاسلامى بمساعدة ادارة قشتالة ، فعاثوا فى الأرض فسادا • ولكن المصحفى وقف

موقفا سلبيا من هؤلاء المستضعفين رغم ما يملكه من عتاد ورجال وأموال. وكان كل ما نصحهم به ان يهدموا سد نهر (آنه) ، لتحول مياهه دون عبور الأعداء اليهم . لذلك رأى المنصور ضرورة عزله لتهاونه وعدم قدرته على حماية بلاد المسلمين .

الاتهام الرابع :

اتهم ابن أبى عامر بأنه رجل متعطش الى سفك الدماء ، مخادع ما كر على استعداد لعمل أى شىء ءى سبيل الوصول الى أغراضه ومطامعه ، وان صيرورة أمر هذه المملكة الأندلسية اليه بعد أن كان عبد الرحمن الناصر قد حقق لها وحدتها ، أدى بها الى الضعف والانحلال(٦٥) .

لقد قال البعض فى المنصور أنه كان ميكافيلليا قبل أن يولد ميكافيللى بقرون ، وأدرك أنه فى سبيل الوصول الى الحكم لابد من أن ينحى الضمير والوازع الأخلاقى جانبا . ولذا فانه قتل كل من كان يخشاه من أمراء البيت الأموى فى الأندلس . ولم يكتف المنصور بذلك ، بل كان يقضى على مراكز القوى الثانوية التى تنافسه . فمثلا قضى على عبد الرحمن ابن مطرف التجيبى من عائلة هاشم ، وكان يحكم (سرغوسه)(٦٦) .

ويرد على ذلك بأن المنصور ادرك ان كل أمير فى البيت الأموى يطمع فى أن تكون الخلافة له من دون هشام بن الحكم ، فرأى ضرورة التخلص منهم ، لأن وجودهم سيؤدى الى اشعال الفتن والحروب الأهلية فى الدولة ، ويوجه نظر أعدائها من الاسبان نحوها ، بغرض الاستيلاء عليها .

لقد كان الخليفة هشام غير قادر على تحمل مسئولية الخلافة اذ كان يعيش لملذاته الخاصة . وقد وصفه ابن سعيد بأنه (نشأ جامد الحركة، أخرس الشمائل ، لا يشك المتفرس فيه أنه نفس حمار فى صورة آدمى) الى أن قال عنه : (وكلما زاد سنا نقص عقلا) بل مما يدل على سذاجته وبلاهته الشديدة ، أنه عندما خلفه الخليفة محمد بن هشام بن عبد الجبار

على اثر تنازله عن الخلافة بعبد الرحمن بن المنصور،لم يكن يشغله فى ذلك الحدث الجلل الا طائره (الهدهد) الذى كان يتولى العناية به ، حيث قال لاحد غلمانه : بالله انظر هدهدى ان كان سلم ، وتفقـــده لئلا يهلك بالجوع والعطش فانه من ذرية الهدهـــــد الذى دل سليمان على عرش بلقيس(٦٧) . هذا الخليفة المعتوه كان من السهل خلعه ، وانتزاع أمراء بنى أمية فى الاندلس عرشه ، ولذا كان لابد من موقف صارم لابن أبى عامر تجاه بقاء هشام فى الحكم(٦٨) .

اما ما يتعلق بحكام منطقة (سرغوسة) ، فقد خشى المنصور أن تثير هذه الأسرة الحاكمة القلاقل والفتنة داخل الدولة الاسلامية بالأندلس، خاصة اذا عرضنا تواطؤ حكامها وتعاملهم مع النصارى أعداء المسلمين فى مقاطعة الشمال الذين كانوا لا يتوانون فى القضاء على الاسلام ودولته.

الاتهام الخامس :

يؤخذ على المنصور تخليه عن العنصر العـــــربى ، واعتماده على العنصر البربرى ، والصقالبة فى الجيش .

ويرد على ذلك بأن المنصور لم يتخل عن العنصر العربى تماما فى الجيش وانما حد من أعدادهم لازالة العصبية القبلية عن الجيش ، حيث ان الجيش فى عهد خلفاء بنى أمية فى الأندلس قبل تسلم المنصور زمام الأمور - كان يتألف من العنصر العربى فقط ، أو لعل هذا العنصر كان هو العنصر الغالب فى الجيش ، مما سبب الفوضى ، وأوجد الحزازات والعصبية داخل الدولة . وقد رأينا أن المنصور ، عمل ليجعل الجيش جيشا نظاميا ولذا أدخل فيه عناصر بشرية متباينة من تلك العناصر المكونة للمجتمع الأندلسى ، وقسم الجيش الى فرق متعددة كل فرقة تعبر عن أحد العناصر المتباينة التى تألف منها المجتمع الاندلسى كالبربر ، والعرب والصقالبة(٦٩) .

وجدير بالذكر أن المنصور نكب صقالبة القصر ، وأن ذلك العمـــــل رفع من قدره فى نظر الأندلسيين عموما ، وأهالى قرطبة خصوصا.لأن الجميع كرهوا تلك الفئة الدخيلة المتغلبة على شـــئون القصر والبلاد .

الاتهام السادس :

وصف المنصور بن أبى عامر بالجبروت والعسف : نتيجة قتله ابنه وفلذة كبده : عبد الله . ونحن لانستطيع - ولا نقر - له عذرا فى مثل هذا التصرف الاخرق ، ولكن نترك المنصور نفسه يبرر تصرفه فيقول : ان ابنه عبد الله تآمر عليه مع خصومه التجيبيين أصحاب الثغر الأعلى ، كما تآمر مع خصوم أبيه فى قرطبة والزاهرة ، وذلك بالتجائه الى عدو المسلمين (غرسيه) كونت قشتالة ، الذى كان يكن الحقد والكراهية لأبيه - لقد أقدم المنصور على التخلص من ابنه ليحد من مؤامراته ، التى كانت تهدد بالقضاء على دولته وعلى دولة الاسلام فى الأندلس . وكان المنصور يدرك جيدا نوايا ابنه الخبيثة ، وما يدبره له من مكايد . وقد أفصح عن ذلك لأحد أعيان البربر (طرزون بن زنتراء البرازالى) ، وعندما استنكر عليه قتل ابنه ، فقال « لا يسؤك ذلك ، فلو لم أفعل لقلتنى »(٧٠) .

الاتهام السابع :

يؤخذ على المنصور فى مجال الحياة الثقافية أنه كان يكره الفلسفة والفلاسفة ، ولا يأنس الى علماء الفلك والتنجيم . وقد عبر عن نهجه هذا بصراحة ، حين أخرج بعض ما كان فى خزانة الخليفة الحكم المستنصر من نوادر المؤلفات الفلسفية والعقلية ، وأحرقها بمحضر عـــدد من أكابر الفقهاء والعلماء .

ويرد على ذلك أنه ربما أحس بأن بعض كتب الفلسفة التى أحرقها كان فيها ما يخالف الدين وعقائده . وكان المنصور يحرص على الظهور بمظهر المدافع عن الدين كما كان حريصا على استحباب رضاء العلماء ، وكسب تأييد عوام الناس فى قرطبة(٧١) .

الاتهام الثامن والأخير :

أخذ على المنصور أن فتوحاته لبلاد النصارى لم يرافقها استيطان للمسلمين فى تلك البلاد المفتوحة . ولو أنه حقق ذلك الاستيطان ، لصعب على النصارى استردادها بعد ذلك .

ويرد على ذلك بأن ظاهرة الاستيطان ترتبط بالعامل النفسى عند الجنود المسلمين المحاربين فى جيش المنصور ، اذ من الواضح أنهم كانوا لا يرغبون فى الاستيطان فى تلك المناطق لعدم تأقلمهم وفق طبيعة تلك البلاد ، الى جانب احساسهم بأن بقاءهم فيها لا يدوم ، وربما تعرضوا للافتتان عن دينهم عند استرجاع النصارى لبلادهم(٧٢) ٠



وأخيرا فاننا فى حكمنا على المنصور محمد بن عبـــد الله بن أبى عامر وتقويمنا له ، نرى :

١ ـ لا نستطيع أن ننكر المواهب والكفاءات والمهـــارات السياسية والقيادية ، التى تمتع بها المنصـــور ، والتى أهلته لكسب ثقة الحكم المستنصر ، وجعلته يتدرج فى المناصب المهمـــة التى ترقى اليها ، حتى وصل الى مرتبة الحاجب ، منافسا غيره من رجالات الدولة الكبار ، وعلى رأسهم (جعفر المصحفى) ٠

٢ ـ ولا ننكر ـ أيضا ـ أن الظروف خدمت المنصور للوصول الى ما وصل اليه من مجد ٠ ذلك أنه لم يكن من أهل بيت ملك فى عصر كان العظماء يتوارثون الملك كابرا عن كابر ٠ فسعادة جده (حظه)(٧٣) مع ذكائه الفذ ، كل ذلك مكنه من الوصول الى أهدافه ، عن طريق التخطيط السليم ، متخطيا كل العقبات التى صادفت طريقه ، سواء تخطاها بسبل شرعية أم غير شرعية ٠

٣ ـ اذا كان يحسب للمنصور أنه صان وحـــدة الأندلس وحقق له الاستقرار تحت قيادته ، وحمى بلاد المسلمين من غزو النصارى لها ، بل لقد فتح كثيرا من بلادهم فى الشمال ، حتى غدا مصـــدر رعب وفزع مستديم لهم(٧٤) الا أنه كانسان اجتهد فى سياســـته ، فأصاب أحيانا ، وأخطأ حينا ٠ ويمكن تركيز خطأه فى مسألتين : احداهما داخلية ـ وذلك بالاكثار من استخدام البربر فى ديوان جيشه ، اذ تذكر المصادر أن عددهم بلغ ما يقرب من ثلاثة آلاف فارس(٧٥)، حقيقة أنه كان يستهدف تقوية

الجيش الاسلامى المجاهد بهم ، ولكن ذلك أثار حقد العرب عليه ، وامتد هذا الحقد الى ما بعد وفاته ، وظهرت نتائجه فى عهد ابنه عبد الرحمن (شنجول) ، مما كان سببا فى اشعال الفتنة بين أهالى قرطبة والبربر ، وادى ـ فى النهاية ـ الى سقوط الدولة العامرية بالأندلس ٠

والثانية خارجية ـ وهو خطأ اعترف به المنصور نفسه ، اذ حرص على المحافظة على البلدان والمدن والحصون التابعة لنصارى الشمال عندما قام بغزوها والاستيلاء عليها ، رغبة منه فى استفادة المسلمين منها فيما بعد ٠ وبدلا من أن يعمل على تخريبها وفقا لروح العصر قام بتعميرها ، وخزن الأقوات بها ، تسهيلا لاستمرار الفتوحات الاسلامية للبقاع النصرانية ٠ فلما ضعفت الدولة الاسلامية بعد ذلك ، كانت تلك المناطق عونا للنصار فى الاغارة على الثغور الاسلامية فى الأندلس ٠



وبعد ، فاننا لا يسعنا فى ختام هذا البحث سوى أن نردد ما نقش على قبره من شعر بعد وفاته وذلك اشادة بما قام به من أعمال جليلة فى خدمة الاسلام والمسلمين :

آثاره تنبيك عن أخباره ... حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يتأتى الزمان بمثله ... أبدا ولا يحمى الثغور سواه(٧٦)

الهـــــوامش

(١) المراكشى : المعجب ص ٧٣ ·

(٢) ذكر ياقوت أن طرش ، بضم أوله وتشديد ثانيه وضمه أيضا ، ناحيـــة بالأندلس تشتمل على ولاية وقرى ·

(٣) ابن بسام : الذخيرة ١/٣٩ ـ ٤٠ ·

أحمد العبادى : تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٢ ·

(٤) ابن الخطيب : نفس المصدر السابق ٢ ص ٧٧ ـ ٧٨ ـ نفس الصفحة ·

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق٢ ص ٧٧ ـ ٧٨ ·

(٦) ديوان ابن دراج القسطلى ، ص ٣٠٠ ·

(٧) ابن حيان : المقتبس ص ١٢٣ ·

(٨) المقرى : نفح الطيب ١/١٨٧ ·

(٩) ابن عذارى : البيان المغرب ٢/٢٦٨ ·

(١٠) ابن حيان : المقتبس ص ١٢٣ ·

(١١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ٧٨/٧٧ ·

(١٢) الدرقة : الترس من جلد ليس فيه خشب ولا عقب (أى : ولا غصب تعمل من الأوتار) ·

والمقصود : المسئول عن التروس المصنوعة من الجلد الخالص ·

(المعجم الوسيط مادة (د·ر·ق ـ حـ/ص·٢٩٠) ·

(المعجم الوسيط مادة ع·ق·د ـ حـ ٢ ص ٦٣٦) ·

(١٣) نفح الطيب (دار صادر) : ١/٤٠٩ ـ ٤١٠ ·

(١٤) السابق : ١/٤١٠ ·

(١٥) السابق : ١/٤١٦ ·

(١٦) المقرى / نفح الطيب ١ /٤١٣ ـ ٤١٨ ·

(١٧) ابن عذارى / البيان المغرب ٣/٢٥٨ · والاحاطة ٢/١٠٣ ـ ١٠٤ ·

(١٨) المقرى/نفح الطيب ١/٤١٨ ـ ٤١٩ ·

(١٩) مخطوط الزهرات المنشورة فى نكت الاخبار المأثورة/ابن سماك تحقيق : محمود على مكى ص ٨٣/٨٤ ·

(٢٠) نفس المرجع السابق ٠

(٢١) نفس المرجع السابق ، ص ٨٥ ٠

(٢٢) المقرى/نفح الطيب ١/٥٩٧ ٠

(٢٣) ابن عذارى/البيان المغرب ٣/٢٥٨ ٠

ابن سماك المرجع السابق ٠

(٢٤) مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٥ (طبعة دار المعارف ـ تحقيق : بروفنسال)٠

(٢٥) ابن دراج القسطلى/تحقيق محمود على مكى ص ١٦ ٠

(٢٦) عبد المجيد نعنعى/تاريخ الدولة الأموية فى الأندلس ص ٤٤٦ ٠

المقرى/نفح الطيب ١/٥٩٨ ٠

(٢٧) ومنهم ابن دراج القسطلى حين قال للمنصور عندما كان مودعا اياه فى احدى غزواته :

سر سار صنع الله حيث تسير قدما وساعد عزمك المقدور

وقضى لك الرحمن أنك قاهر حزب الضلال وأنه مقهور

فانهض بحزب الله يقدم جمعه حفظ الاله وسعيك المشكور

(٢٨) ابن خلدون العبر ٤/٣٢١ ٠

(٢٩) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ١/٧٠ ٠

(٣٠) محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ص ٥٢٩ ٠

(٣١) كان يرافقه فى هذه الغزوة ، فأعجب بشجاعته وبطولته فعبر عن شعوره ذلك بقوله :

أهلا بمن نصر الاله وأيدا وحمى من الاشرار أمة أحمدا

ديوان ابن دراج القسطلى ص ٥١ ٠

(٣٢) المقرى : نفح الطيب ٤١٣ ٠

(٣٣) ديوان ابن دراج ـ تحقيق محمود مكى ، ص ٣٧٣ وما بعدها (ط٢٠) ٠

(٣٤) اليعافير : جمع يعفور ، وهو الظبى لونه كلون العفر (التراب) ، أو هو ولد البقرة الوحشية ٠

(٣٥) أسار : الأسر ، والأسارى : الاسرى (جمع أسير) : م٠ الوسيط (مادة أ٠س٠) حـ١ ،ص ١٧ ٠

(٣٦) الرئال : جمع رأل ، وهو فرخ النعام (٠ما اتى عليه حول منه) (السابعة: مادة/أ٠ل) ١/٣٣٢ ١/٢٦٢ ٠

(٣٧) الوثائق السياسية والادارية فى الأندلس وشمال افريقيا/تحقيق : محمد ماهر حمادة نقلا ن ابن الخطيب/تاريخ اسبانيا النصرانية ص ٧٢ ٠

(٣٨) المرجع السابق ص ٥٣١ ٠

(٣٩) أحمد مختار العبادى/تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٥٠ ــ ٢٥١ ٠

(٤٠) ومما يؤثر عن شعره رحمه الله قوله :

رميــت نفســى هــول كــل عظيمة ... وخاطرت والحــر الــكريم بخاطــر
وما صــاخبى الاجتــاف مشـــيع ... وأســـمر خطـــى وأبيــض باتــر
ومن شـــيمتى انى على كل طـــالب ... أجــود بمـــال لاتقيــه المعـــاذر

ابن الخطيب/الاحاطة ٢/١٠٤ . وانظر ابن الأبار/الحلة السراء ١/٣٧٥ــ٣٧٦٠

(٤١) ديوان ابن دراج (ط٢) تحقيق : د٠ محمود مكى ، ص ٢٦٦ ــ ٣٦٧ ٠

(٤٢) ابن عذراى : البيان المغرب ٢/٤٢٩ ٠

(٤٣) المقرى : نفح الطيب ١/٥٤٦ (ط٠ دار صادر) ٠

(٤٤) ابن عذراى : البيان المغرب ٢/١٤٤ ٠

(٤٥) نفح الطيب للمقرى حا ، ص ٤٠٩ ٠

(٤٦) أحمد مختار العبادى التاريخ العباسى والاندلسى ص ٤٥٦ ٠

(٤٧) الاسلام والمسلمون فى افريقية الشمالية ٠
عبد العليم عبد الرحمن خضر ص ٢٨٨ عالم المعرفة للنشر والتوزيع ٠

(٤٨) اعمال الاعلام : ابن الخطيب ص ١٠١ ٠

(٤٩) تاريخ الدولة الأموية بالأندلس : عبد المجيد نعنعى ، ص ٤٦٢ ٠

(٥٠) المقرى : نفح الطيب ٠

(٥١) البيان المغرب/ابن عذراى ٢/٤٣٠ ٠

(٥٢) مقدمة ديوان القسطلى للمحقق : د٠ محمود مكى ، ص ٤٢ ٠

(٥٣) تاريخ الدولة الأموية فى الأندلس/عبد المجيد نعنعى ٠

(٥٤) البيان المغرب ٢/٢٧٤ ٠ وكذلك ورد فى (نفح الطيب) للمقرى ١/٤٠٣ ٠

(٥٥) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٥ ٠

(٥٦) البيان المغرب ــ المكان السابق ٠

(٥٧) الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية ، ص ٨٣ ، ٨٩ ٠

(٥٨) البيان المغرب لابن عذارى ٢/٢٨٦ والدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية ، ص ٨٩ ٠

(٥٩) رحلة الأندلس ، ص ٧٠ ٠

(٦٠) محمد عبدالله عنان : الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية، ص٩٥٠

(٦١) محمد عبد الله عنان : الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية ص٩٥ نقل ذلك عن :

R.M. Pidal : La Espana del Cid, P. 72

والدولة العامرية فى الأندلس : دراسة سياسية وحضارية ، لعلى أحمد القحطانى ، ص ١٠٧ ٠

(٦٢) البيان المغرب ٢/٢١١ ، ٢١٤ ٠

(٦٣) د٠ عبد المجيد نعنعى : تاريخ الدولة الأموية بالأندلس ، ص ٤٢٤ ٠

(٦٤) نفح الطيب للمقرى ، جا ، ص ٤٠٠ ٠

(٦٥) ابن الخطيب أعمال الاعلام ، ص ٧٧ ، وبطرس البستانى : معارك العرب الأندلسى، ص ٥ ، وأحمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والأندلسى ، ص ٤٤ ٠

(٦٦) د٠ عبد المجيد نعنعى : تاريخ الدولة الأموية بالأندلس ، ص ٤٣٨ ٠

(٦٧) المغرب فى حطى المغرب ١/١٩٤ ـ ١٩٥ ٠

(٦٨) يقول ابن الخطيب عنه : « وكان هشام مندرجا فى طى كافله الحاجب المنصور رحمه الله بحيث لا ينسب اليه تدبير ، ولا يرجع اليه من الأمور قليل أو كثير ، اذ كان فى نفسه وأصل تركيبه ضعيفا مهينا مشغولا بالنزهات ، ولعب الصبيان والبنات » (أعمال الاعلام ٢/٥٨ـ٥٩) ، ولا شك أن المنصور كان يسعد ويسجد لله عندما يسمع الروايات التى تروى عنه وسفه هشام٠وكان يقول ان السلطان الذى تصلح معه الرعية اثنان : اما سلطان قاهر ذو رأى ، عارف بما يأتى ويذر ، مستبد بنفسه ٠ واما سلطان مثل هذا (يعنى هشاما) تدبر الدنيا باسمه ، ولا يخشى المتفرغ لحراسة سلطانه نمائلة ٠ والمتوسط يهلك ويهلك « المغرب لابن سعيد ١/١٩٥ ـ ١٩٦ » ٠

(٦٩) أحمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والأندلسى ، ص ٤٥٢ ٠

(٧٠) البيان المغرب ٢/٨٨٥ ٠

(٧١) نفح الطيب (تحقيق : احسان عباس ١/٢٢١) ٠

(٧٢) وقد قامت حملات تبشيرية على يد رجال الدين المسيحى ، وأرغموا فيها المسلمين على التنصير ولو ظاهريا بعد سقوط غرناطة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م وعرفوا بـ/ (الموريسكيين) وطردوا من الأندلس نهائيا بعد فشل تنصيرهم ٠

(انظر تاريخ مسلمى الأندلس لعبد الله حله ، ص ١٧٢ ، وبحث د. عبد اللهجمال الدين (طرد المسلمين من الأندلس : آثاره ونتائجه) .

(٧٣) نثبت هنا ـ ما ذكره الأمير عبد الله من ارتباط نجاح المنصور بطالعه، رغم عدم اقتناعنا بذلك ، يقول قد حصل على عظائم بداعائه ومخرمته على العامة مع ما هيأت السعادة له ، وكانت «أقوى الأسباب فى سلطانه وقد ذكر بعض أهل العـــلم بالتنجيم أنه من كان طالعه من البروج الحوت والقوس ، كان أعظـــم الأسباب فى سلطانه ، أو عقاره » (مذكراته ص ١٥) .

(٧٤) وقد سعد النصارى بوفاته وسجلت حولياتهم ما يلى : فى سنة ١٠٠٢م (٣٩٢هـ) (مات المنصور وذهب الى جهنم) .

(٧٥) البيان/المغرب ٤٢٨/٢ .

(٧٦) أعمال : الأعلام ، ص ٨١ ، نفح الطيب ٣٩٨/١ .

(الدعــوة الزيدية فى مصر)

« من منتصف القرن الثانى الهجرى (الثامنالميلادى) الى منتصف القرن الثالث انهجرى (التاسعالميلادى) »

د٠ حسن خضيرى أحمد(*)

تمهيـــــد :

تنسب الزيدية الى زيد بن على زين العابدين بن الحسن بن على بن أبى طالب(١) ، الذى ظهر على المسرح السياسى فى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢هـ/٧٣٩م ، وكون أتباعا يشايعونه سياسيا ومذهبيا عرفوا بالزيدية(٢) ٠

ذلك أن زيد بن على خـــرج على الخليفـــة الأموى هشـــام بن عبد الملك ، واتخذ من الكوفة مركزا لدعوة أهلها ، فنادى فيهم قائلا :

« انما ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، واعطاء المحرومين ورد المظالم ، وفعل الخير ، ونصرة أهل البيت ، فان اجبتم ســـعدتم ، وان ابيتم خسرتم ولســـت عليـكم بوكيل »(٣) ٠

ولما علم يوسف بن عمر الثقفى (١٢٠ ــ ١٢٦هـ/٧٣٨ ــ ٧٤٤م) والى العراق ــ بأن زيدا يدعو لنفسه سرا فى الكوفة ، كتب الى عامله هناك ــ الحكم بن الصلت ــ بتتبع زيد والقضاء على حركته(٤) ٠ ومالبث زعماء أهل الكوفة أن نكثوا بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم لزيد ، حين اجتمعوا معه ، وسألوه عن رأيه فى الشـــيخين أبى بكر وعمر ، فقال : غفر الله لهما ، ما سمعت أحدا من أهلى يتبرأ منهما ، ولا يقول فيهما الا خيرا ٠ قالوا : فلم تطلب اذن بدم أهل هدا البيت ؟ فكان جواب زيد :

(*) مدرس بكلية الآداب بقنا ــ جامعة جنوب الوادى ٠

«انا كنا أحق بسلطان رسول الله ﷺ من الناس أجمعين ... وانما ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ... فان انتم احببتمونا سعدتم ، وان انتم ابيتم فلست عليكم بوكيل .. » فرفضـــوه ، فقال لهم : اذهبوا فنـكم الرافضة(٥) .

وكان أنواصل زيد جهادهمع نفر قليلمن اصحابه ـ جلهم منالفقهاء ـ فى معركة غير متكافئة مع جند والى العـــراق ، اسفرت عن اصابة زيد بسهم فى جبينه ، سقط على أثره صريعا يوم الجمعة ٢ من صفر سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م ،(٦) وحفر له أصحابه فى ساقية ، وأجروا عليه الماء ، حتى لا يعلم بأمره ، بيد أن الوالى علم بمكانه ، فأخرجه من قبره ، واحتز رأسه ، ثم بعث به الى هشام بن عبد الملك ، فنصبه فى دمشق ، ثم أرسله الى المدينة فنصبه هناك(٧) ، وأما جثمانه فقد صلب بكناسة الكوفة(٨) ، ومكث مصلوبا سنين عددا ، الى أن تولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ ـ ١٢٦هـ/٧٤٣ ـ ٧٤٤م) فكتب الى يوسف ابن عمر يأمره « باحراقه وذروه فى الرياح »(٩) . وأما عن مصير رأس زيد بن على فتتفق الروايات التاريخية على نقله الى مصر يوم الأحد ١٠ من جمادى الآخرة سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م مع أبى الحـــكم بن أبى الأبيض العبسى(١٠) ، حيث ضيف بها ثم نصبت على المنبر بجامع عمرو . فسرقه أهل مصر ودفنوه فى الموضع الذى يعرف الآن بحى زين العابدين(١١)، والذى كن يعرف من قبل باسم (الحمراء القصوى)(١٢) . ثم بنى عليه مشهد فى عصر الدولة الفاطمية ، أشار اليه المقريزى بقوله(١٣) : «هذا المشهد فيما بين الجامع الطولونى ، ومدينة مصر تسميه العامة مشهد زين العابدين ، وهو خطأ وانما هو مشهد رأس زيد بن على المعروف بزين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب » كذلك ذكر المقريزى نقلا عن كتاب الجوهر المكنون : « زيد بن على زين العابدين .. الشـــهيد بالكوفة ، ولم يبق له عليه السلام غير رأسه التى بالمشهد الذى بين الكومين بمصر بطـــريق جامع ابن طولون وبركـــة الفيـــل .. وهو مشـــهد صحيح »(١٤) .

ويروى المقريزى أن الأفضل بن بدر الجمالى ، لما بلغته حكاية رأس

زيد ، أمر بكشف المسجد يوم الأحد ١٩ من ربيع الأول سنة ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م ، وكان وسط الأكوام ، واندثرت معالمه ولم يبق منه الا المحراب، فوجد الرأس ، وحمله الى داره حتى عمر هذا المسجد(١٥) ٠

على ان هناك لوحة تذكارية مثبتة على مدخل المسجد بالواجهة الغربية ، كتب عليها ما يلى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا مشهد الامام على زين العابدين بن الامام الحسين بن الامام على ابن أبى طالب ، صلوات الله عليهم اجمعين فى سنة ٥٤٩هـ »(١٦) ٠

كذلك هناك لوحة أخرى بالمسجد تعود الى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى/التاسع عشر الميلادى كتب عليها ما يلى :

هـذا مقام قـد شرف قـدره	مذ دخل فيه من تكامل فخرا
زيد بن زين العابدين بن الحسين	بن الفاطمة البتـول الزهـراء
بنت النبى المصطفى أكـرم بـذا	نسبا عليا قـد تطهـر طهـرا
من زاره نال المسـرة والمنـا	وسعادة الدنيا كذاك الآخـرة
بشـرى لعثمـان أغـا ببنائه	حاز السيادة والهنا والآخـرة
يـارب زده نعمـة ومهـابة	وارفـع لـه بين البرية قـدرا
فهو الذى أحيا لنا هـذا البنـاء	فى مسجد زان المساجد ناظرا

سنة ١٢٢٥هـ(١٧)

وبمراجعة اللوحتين نجد أن اللوحة الثانية رغم أنها متأخرة زمنيا، الا أنها تؤكد ما أجمعت عليه الروايات التاريخية من دفن رأس زيد بن على فى هذا الموضع ، « وليس قبر أبيه فى مصر بل قبره بالبقيع»(١٨)٠ ويبدو أن اللوحة الأولى اختلط على كاتبها الأمر ، ونسب المشهد الى زين العابدين بدلا من ابنه زيد ٠ ومن هنا يمكن القول بأن أول ظهور للزيدية كان فى مصر عند قدوم رأس زيد بن على زين العابدين الذى يعتبر بحق مؤسس المذهب الذى نسب اليه ٠

أما علمه وفقهه فقد أجمع أهل السنة والمرجئة والمعتزلة والشيعة على امامة زيد فى العلم(١٩) ، وأنه كان حجة فى الفقه ، كما أجمع العباد والزهاد وغيرهم على أنه لم يكن له نظير فى علمه وخلقه(٢٠) ، ويصفه

الامام أبو حنيفة النعمان بقـوله : « .. شـــاهدت زيد بن على ، كما شاهدت أهله ، فما رأيت فى زمانه أفقه ولا أعلم منه ، .. لقد كان منقطع القرين »(٢١) .

ويذكر الشهرستانى(٢٢) أن زيد بن على ، التقى بواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، وأخذ عنه آراءه فى الاعتزال ، وبلغ نهاية التقدم فى علم الكلام(٢٣) . أما عن مبدىء زيد نفسه فهى بايجاز :

— أن الامامة تقتصر علىأولاد على بن أبى طالب من نسل فاطمة حسنا كان أم حسينيا(٢٤) .

— خروج الأمام شـاهرا سـيفه حاملا راية الجهاد على الظلم والجور(٢٥) .

— أن يدعو الأمام لنفسه بعد أن يستوفى شروط الأمامة من العلم والزهد والفقه ، وأن يدعو الى كتاب الله وسنه رسوله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ورد مال المستضعفين ، والرضا من آل محمد(٢٦) .

والواقع أن ثورة زيد كانت ثورة لها شأنها ، وكانت فاتحة للدعوة الزيدية التى انتشرت من بعد زيد على يد اتباعه وتلاميذه ، الذين رحلوا الى الاقطار الاسلامية ، ينشرون الدعوة ، ويفقهون الناس(٢٧) . وكانت مصر من بين هذه الأقطار ، حيث ضمت بين ثراها رأس مؤسس هذه الدعوة ، وهذا ما سنقف عليه فى هذه الدراسة .



بدء الدعوة الزيدية فى مصـر :

سقطت الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م ، وجاء حكم العباسيين ، امتدادا للظلم والاستبداد الذين مارسهما الأمويون من قبل ضد العلويين، بسبب موقفهم المعارض لخلافة آل العباس ، وحقهم فى الامامة دونهم. ذلك انهم أنكروا البيعة بالخلافة لكل من أبى العباس وأخيه أبى جعفر من بعده . وقدم العلويون ابرز رجالهم وقتذاك وهو محمدبنعبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب المعروف بالنفس الزكية(٢٨)،

فدعا لنفسه بالامامة بالحجاز سرا ، فضلا عن الكوفة التى جاءها أخوه ابراهيم وقام فيها بنشاط كبير . أما مصر فقـــد جاءها ابنه على داعيا لأبيه وعمه(٢٩) فى أوائل سنة ١٤٤هـ/٧٦١م . ويرجع اختيار مصر مركزا للدعوة الزيدية والاعداد للثورة بها لعدة أسباب منها :

أن مصر ذات مركز اقتصادى متميز ، فهى درة ولايات الخلافة ، « ومن فضائلها أنها تمير أهل الحرمين وتوسع عليهم(٣٠)» . ثم ان موقعها الاستراتيجى ، وبعدها عن حاضرة الخلافة يكفل الحماية للدعوة ونجاح الثورة . أما على الصعيد السياسى ففيها شيعة على بن أبى طالب، هذا فضلا عن ميل المصريين لآل البيت(٣١) . أضف الى ذلك أن كثيرا من تلاميذ زيد رحلوا الى مصر وغيرها من الأقطار الاســـلامية داعين للمذهب الزيدى(٣٢) . ومن أهمهم غوث بن ســليمان الحضرمى (ت ١٦٨هـ/٧٨٤م) الذى كان على قضاء مصر ابان قدوم على بن محمد اليها سنة ١٤٤هـ/٧٦١م ، « واتهم أن يكون غيبه عنده »(٣٣) ، الأمر الذى جعل أبا جعفر يكتب الى واليه بحبس هذا القاضى وصرفه عن القضاء فى رمضان سنة ١٤٤هـ/٧٦١م(٣٤) . وكذلك عبد الله بن لهيعة بن عقبة الحضرمى (ت ١٧٤هـ/٧٩٠م) الذى تولى قضاء مصر عشر سنين (١٥٥/ ٧٧١ - ١٦٤هـ/٧٨٠م) للخليفة المنصور(٣٦) ، كان على مذهب زيد بن على ، ومفرطا فى التشيع »(٣٧) .

أما عن موقف والى مصر حميد بن قحطبة الطائى من هذا الداعى الزيدى الوافد ، فيذكر الكندى(٣٨) أن على بن محمد لما قدم الى مصر نزل على عسامة بن عمرو المعافرى ، فأخبر صاحب السكة الوالى أمر هذا الداعى ومكانه ، وطلب القبض عليه « فقال حميد : هذا كذب ، ودس عليه فتغيب ، ثم بعث اليه من الغد فلم يجده » ، فما كان من صاحب السكة الا أن كتب الى الخليفة يعلمه بالأمر ، وتهاون الوالى فى القبض عليه ، مما جعل الخليفة يحنق على واليه ، ويأمر بعزله عن امرة مصر ومساءلته ، فرحل من مصر متوجها الى العراق فى ٢١ من ذى القعدة سنة ١٤٤هـ/أبريل٧٦١م .

ونستشف من هذه الرواية ، أن الوالى العباسى كانت له ميـــول

المتشيع ، دون أن يكشف ذلك خشية بطش أبى جعفر. والمعروف أن والده قحطبة بن شبيب وابنه الحسن بن قحطبة كانا من رجالات الدعوة العباسية فى خراسان وقت الاعداد للثورة العباسية ، ووليا قيادة الجيش الزاحف من خراسان صوب العراق .

على أية حال عزل أبو جعفر واليه لمساءلته ، وان كان هذا الوالى قد نجح فى اقناع الخليفة بولائه وقبول عذره ، فولاه قيادة الجيش لمحاربة النفس الزكية بالحجاز فى رمضان سنة ١٤٥هـ/ابريل٧٦٢م(٣٨) ، مستفيدا من كفاءته ، وتطبيقا لسياسته « لا أبالى أيهما قتل صاحبه » .

ثم عقد الخليفة أبو جعفر ولاية مصر ليزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة ، فقدمها فى ١٥ من ذى القعدة سنة ١٤٤هـ/ابريل ٧٦١م(٣٩) وقد استفحل فيها خطر الدعوة الزيدية ، وطار ذكرها بين المصريين ، « وتكلم بها الناس ، وبايع كثير منهم لعلى بن محمد بن عبد الله »(٤٠) ، وذلك بفضل جهود خالد بن سعيد بن ربيعة بن حبيش الصدفى(٤١) ، أحد زعماء الصدف من العرب اليمنية بمصر ،وكان قد ورث عن جده وقبيلته الميل للعلويين ، « فقد كان جده ربيعة بن حبيش من خاصة على بن أبى طالب رضى الله عنه وشيعته »(٤٢) . وهكذا اتخذ خالد بن سعيد داره مركزا لنشر الدعوة ومقرا للبيعة للنفس الزكية ، واستطاع أن يضم اليه بعض الأمويين فى مصر من أبناء الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان(٤٣) ، الى جانب العناصر المتذمرة التى ربما لم يكن لديها أى ولاء للعلويين أو تفهم للدعوة الزيدية ، ولكنهم أملوا بأن المهدى الجديد سوف ينقذهم من الظلم ، ويوفر لهم حياة أفضل . وكان ان أخذت هذه العناصر تدعو لهم ، سواء كان ذلك باخلاص ، أو لمجرد التظاهر لاتخاذهم واجهة سياسية تحقيقا لغايات أخرى مبيتة .

ولاشك فى أن الدعوة لآل البيت تكفى لكسب الأنصار ، لمالهم من مكانة روحية عظيمة فى قلوب المسلمين عامة ، والمصريين خاصة . وقد مس آل البيت الضر الكبير على أيدى الأمويين ثم غبنهم العباسيون حقهم فى الامامة . لهذا التف الناس حول على داعية أبيه محمد (النفس الزكية) ، الذى قضى بمصر نحو عام ، والتقى بشيعة جده من الصدف

والمعافر ، واستطاع ان يجوس خلال الديار يكسب فيها الأنصار(٤٤) ، ومنهم عدد غير قليل من المصريين رحبوا بالدعوة حتى « تكلم بها الناس، وبايع كثير منهم لبنى الحسن فى الباطن ٠٠ وماجت الناس بمصر ، وكاد أمر بنى الحسن أن يتم »(٤٥) ٠

ولما علم خالد بن سعيد بظهور محمد النفس الزكية وثورته بالحجاز، عزم بدوره على تفجير الثورة فى مصر ، فعقد مجلسا بداره ضم زعماء من قدموا البيعة ، واستشارهم فى الأمر ، فاقترح عليه دحية بن مصعب - أحد رجال البيت الاموى - أن يضرم النار فى مدينة العسكر ، حيث مقر الوالى العباسى وجنده ٠ بيد أن هذا الرأى لم يجد قبولا من باقى الزعماء ، خشية الدخول فى مغامرة غير محمودة العواقب ٠ واتفق رأيهم على الاجتماع فى المسجد الجامع بالفسطاط ، وبدء الثورة بالاستيلاء على بيت المال ٠ بيد أن رجلا من المجتمعين دس الخبر الى صاحب شرطة الفسطاط عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ، الذى أخبر بدوره الوالى يزيد بن حاتم ، وبذلك فقدت الثورة عنصر المفاجأة ٠ وعندما توجه خالد بن سعيد على رأس أنصاره وأتباعه من المصريين الى جامع عمرو فى جنح الظلام ليلة العاشر من شوال سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م للاستيلاء على بيت المال(٤٦) ، تصدت لهم قوة أرسلها الوالى بقيادة صاحب الشرطة ٠ ثم بدا واضحا فشل هذه الثورة بتخلف احدى القوى الموالية للعلويين ممثلة فى أبى حزن المعافرى ٠ والمعروف أن المعافر قوة لها ثقلها الحربى والسياسى فى ذلك الوقت(٤٧) ، فضلا عن انسحاب نفر من المصريين لحقوا بجيش يزيد بن حاتم(٤٨) ٠

وكان أن وقف صاحب الشرطة بالمسجد وخاطب خالد بن سعيد بكلمة قبطية أن يخرج ٠ وعند خروجه رماه أحد جند العباسيين بنشابة ، فانتزعها ، وخرج ينبعه ابناه ابراهيم وهدبة ٠ وهكذا فشلت الثورة بهزيمة خالد ومقتل ثلاثة عشر رجلا ، وفرار خالد واختفائه عند يحيى ابن جابر أبى كنانة الحضرمى سبعين ليلة حتى هدأت الأحوال وسكن الطلب(٤٩) ٠

أما مصير زعماء الانتفاضة من أصحاب خالد فقد يسر صاحب الشرطة

هروبهم واختفائهم . وكان الضرب هو العقوبة الوحيـــدة التى حلت بعامة من اشترك فى تلك الحركة ، مما يدل على ما يبطنه صاحب الشرطة هذا من ميل للعلويين . أما مصير على بن محمد النفس الزكية فتباينت أقوال المؤرخين فى أمره ، فمنهم من يذكر أنه أخذ بمصر ، فمات فى حبس محمد بن ابى جعفر الملقب بالمهدى(٥٠) ومنهم من يذكر أنه اختفى عند عسامة بن عمرو أحد رجالات المعافر ، فأنزله قرية طره ، وتوفى فيها ودفن بها ، مما عرض عسامة هذا للحبس ، ثم حمل الى العـراق ، وأودع فى سجن أبى جعفر المنصور(٥١) ولم يخرج منه الا فى عهـــد الخليفة المهدى (١٥٨/٧٧٤ - ١٦٩هـ/٧٨٥م) بعــــد أن تشفع له أبو عبيد الله الأشعرى - كاتب المهدى - وبعد أن أقر عسامة للمهدى بأن عليا ابن محمد مات فى بيته،فصدقه المهدى وعفا عنه ، ورده الى مصر(٥٢). والراجح أنه اختفى بمصر الى أن مات فيها .

وهكذا كانت انتفاضة ومصير أول علوى من آل البيت قدم مصر لنشر الدعوة الزيدية بها(٥٣) .

على أن هذه الانتفاضة ، وان كانت قـــد انتهت سريعا على ذلك الوجه ، فانها تركت آثارا بعيدة المدى على مستقبل الدعوة الزيدية ، التى انتشرت بين عدد غير قليل من المصريين ، حتى غدت مصر مكانا يؤمه أئمة الزيدية من آل البيت فيما بعد . أما الآثار المباشرة ، فقـــد تحرجت الحـــالة بمصر ، وســـادت موجة من التذمر والســـخط بين المصريين(٥٤)، مما حدا بالوالى العباسى أن يمنع أهل مصر من الحج سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م . ولم تهدأ الحال فى مصر الا بعد أن قدم البريد برأس ابراهيم بن عبدالله بن الجسن قتيل باخمرا فى ذى الحجة سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م فنصبت فى المسجد الجامع أياما ثم طيف بها(٥٥) ثم دفنت فى الضاحية التى تعرف بمنية مطر (المطرية حاليا)(٥٦) .

ويرجح بعض الباحثين(٥٧) أن السبب فى اختيـــار جهة المطرية مقرا لرأس ابراهيم - أحد أئمة الزيدية - هو ابعـــاد الناس عن زيارة المقبرة ، حتى تخمد الثورة ، وتخبو الدعوة ، فقد كانت منطقة المطرية، غير آهلة بالسكان ، لبعدها عن العاصمة وهى الفسطاط ثم العسكر ، كما

أن مقابر المسلمين فى ذلك الوقت كانت عند جبل المقطم . ومما يجدر ذكره أنه يوجد بالمطرية الآن ضريح ومسجد ابراهيم بن عبد الله فى شارع ماهر المعروف بشارع سيدى ابراهيم ، المتفرع من شارع المطراوى .

ولا يفوتنا أن نذكر من بين آثار هذه الانتفاضة الزيدية فى مصر ، أنها أتاحت الفرصة لذوى الأغراض المختلفة للخـــروج على الخـــلافة العباسية ، فاستمرت المعارضة الأموية فى مصر . ورفع راية المعارضة دحية بن مصعب بن الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، وهو أحد زعماء ثورة على بن محمد النفس الزكية فى مصر . وقد خرج فى صعيد مصر سنة ١٦٥هـ/٧٨١م ، ودعا الى نفسه بالخلافة ، وملك عامة الصعيد . واستمرت ثورته حتى سنة ١٦٩هـ/٧٨٦م(٥٨) ، حيث قتل وصلب فى تلك السنة .

ويمثل عهد الخليفة المهدى (١٥٨/٧٧٤ - ١٦٩هـ/٧٨٥م) فترة وفاق علوية عباسية قصيرة . وسرعان ما تحركت الزيدية بعد ذلك بثورة ثانية بالحجاز فى عهد الخليفة الهادى (١٦٩/٧٨٥ - ١٧٠هـ/٧٨٦م) ، كان لها آثار خطيرة فى تاريخ الدولة العباسية ، حيث خرج الحسين بن على بن الحسن المثلث بن على بن أبى طالب سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م(٥٩) ، يدعو لنفسه ويتطلع الى الامامة . وكان أن جمع أنصاره والتقى بالعباسيين فى موقعة فخ(٦٠) ، التى تقرر فيها مصـــير العلويين ، وكثر فيهـــا ضحاياهم ، ومنهم الحسين بن على نفسه . وقد بلغ من قســـوة التنكيل بالعلويين فى هذه المعــركة ان قرنها المؤرخون لهولها ونتائجها بمعركة كربلاء ، فقال بعضهم : لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ .

ولم ينج من هذه الكارثة الا القلائل الذين فروا الى أطراف البلاد ، منهم يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ، الذى ذهب الى بلاد الديلم جنوبى بحر قزوين(٦١) . أما أخوه أدريس بن عبد الله فقد فر بنفسه صحبة مولاه راشد من مكة الى مصر ، واستقر بها فترة عنـــد أحد المصريين المتشـــيعين لآل البيت ، فبالغ فى اكرامهما والاحســـان اليهما(٦٢) ، وقال لهما : « لتطمئن نفوسكما ، فانى من شـــيعة آل البيت ، وأول من كتم سرهم ، فأنتما من الآمنين »(٦٣) ، ولم يكتف

هذا المصرى باخفاء أمر ادريس فحسب ، بل يسر له ولمولاه راشد طريق الخروج من مصر ،وأمدهما بالدواب ، وسار معهما الى برقة ، وجدد لهما طعاما وودعهما(٦٤) ٠

وكان على امرة مصر فى ذلك الوقت على بن سليمان الهاشمى (١٦٩هـ/٧٨٥م هـ - ١٧١هـ/٧٨٧م) الذى علم بمكان ادريس وسعى الى لقائه سرا ، فسأله ادريس بالله والرحم ألا يكشف أمره ، وأنه متوجه الى المغرب ، فستر عليه ، وقال « : وانى أكره أن أتعرض لدماء أل البيت »(٦٥) ٠

ويزيد بعض المؤرخين(٦٦) ، أن واضحا مولى صالح بن المنصور - صاحب البريد فى مصر وقتذاك - كان متشيعا لآل البيت ، وأنه علم بشأن ادريس وأتاه الى الموضع الذى كان مختبئا فيه ، فمهد له الطريق وأمده بمن يرشده الى أرض المغرب ٠ وقدم له دواب البريد ، فحملته الى طنجة سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م ، حيث أخذ يدعو لنفسه ، ولقى التأييد والعون من البربر ٠ وكان أن أرسل دعاته الى مدن المغرب ، فأجابه خلق كثير، وجدوا فى دعوته ومذهبه حركة مضادة للخلافة العباسية التى يعارضونها، وبذلك استطاع أن يكون دولة عمرت طويلا حتى سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م(٦٧) ٠

وكان جزاء عامل البريد على تهريب ادريس العقاب الشديد فقد أمر الرشيد بضرب عنقه ،وولى بريد مصر وأخبارها رجلا يدعى الشماخ(٦٨) ٠

وهكذا حفظ لنا التاريخ دور مصر ثانية ، فى ايوائها أحد أئمة الزيدية ، واخفاء أمره ، وتيسير هربه ، ليكون أول دولة للعلويين وهى دولة الأدارسة ٠ وكان من الممكن تجنب قيام هذه الدولة لولا ذلك المصرى ووالى مصر وصاحب بريدها ٠



القاسم الرسى والدعوة الزيدية فى مصر :

هو القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب(٦٩) ٠ ولد فى سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م استنادا الى

ما تذكره المصادر على أنه توفى سنة ٢٤٦ هـ/٨٦٠م عن عمر يناهز سبعة وسبعين عاما(٧٠) ٠

أما عن سنى حياته الأولى فالمصادر لا تمدنا بالكثـــير عن ذلك والراجح أنه نشأ فى المدينة ، حيث درس الحديث على أبى بكر عبدالحميد ابن عبد الله بن أبى أويس المدنى (ت ٢٠٢هـ/٨١٧م)(٧١) ، كما درس الفقه على أحد شيوخ بنى الحسن ، والتقى بالكثير من علماء اللغـــة أيضا(٧٢) واشترك والد القاسم فى ثورة الحسين الفخى سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٦م(٧٣)٠وأما جده اسماعيل الملقب بالديباج فكان من جملة المسجونين فى حبس أبى جعفر المنصور(٧٤) ٠

ويعتبر القاسم من أهم الشخصيات الزيدية ٠ دعا الى نفسه سرا فى مصر فى بداية القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى ، دون أن يقوم بثورة تحقق له الامامة ٠ واستطاع عن طريق دعاته أن يمهد لقيام أول دولة زيدية فى طبرستان سنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م ٠ هذا فضلا أنه أسس لنفسه قاعدة فى اليمن استفاد منها حفيده الهادى الى الحق يحيى بن الحســين بن القاسم فى اقامة دولة زيدية باليمن سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م ، استمرت ما يربو على ألف سنة ٠ ومن هنا اثرنا أن نلقى مزيدا من الضوء على حياته فى هذه الدراسة ٠

جاء القاسم الى مصر فى أواخر القرن الثانى الهجرى،عندما ثار أخوه محمد بن ابراهيم على المأمون سنة ١٩٩هـ/٨١٥م فى الكوفة ، فأرسله الى مصر ليأخذ له البيعة من المصريين ويقوم بالدعوة(٧٥) ، وتذكر المصادر الزيدية أن القاسم قدم الى مصر وهو شاب فى الســـادسة والعشرين أو السابعة والعشرين(٧٦) ٠

ويبدو أن أخاه أرسله الى مصر ليبعده عن أعين العباسيين ، حتى لا تتكرر المآسى السابقة التى راح ضحيتها كثـــير من العلويين ، وكذلك ليختبر مدى استعداد المصريين للاستجابة للدعوة الزيدية ٠ لكن القاسم لم يمكث بمصر طويلا نظرا لما كان يجتاحها من اضطرابات بسبب الحرب الأهلية بين أنصـــار كل من الأمين والمــأمون (١٩٥/٨١٠ - ١٩٨هـ/

٨١٣م)(٧٧) ، الأمر الذى عجل برحيله الى بنى عمه الأدارسة بالمغرب الأقصى ، حيث قضى فترة من الوقت(٧٨) ، وأتاه هناك خبر وفاة أخيه محمد سنة ١٩٩هـ/٨١٥م ، فرثاه بقصيدة نقتبس أبياتا منها(٧٩) .

يادار دار غـــرور لا وفـــاء لهـــا   حيث الحـــوادث بالمكروه تستبق
أبرحت أهلك من كد ومن أسف   بمشرع شربه التصـــدير والرنق

الى أن يقول :

فأيما حـــدث تخشـــى غوائـــله   من بعد هلـــكك يغنينى به الشفق

ثم كان أن عاد القاسم الى مصر سنة ٢٠٢هـ/٨١٧م وقد عزم على الدعوة لنفسه بعد وفاة أخيه ، فبث دعاته ، وهو على حال الاستتار على أساس الرضا من آل محمد(٥٧) . وانتشر ذكر القاسم فى الآفاق ، فأجابه عالم من الناس من بلدان مختلفة ، وجاءته بيعة أهل مكة والمدينة والكوفة وأهل الرى وقزوين وطبرستان(٥٨) ، وتخوم الديلم ، كما كاتبه أهل العدل من البصرة والأهواز وحثوه على الظهور(٥٩) . واجتمع اليه فى مصر أصحاب هرثمة بن أعين البالغ عـددهم نحو عشرة آلاف ، فأقام بينهم فى خفية عشر سنوات(٦٠). وعندما تأهب للخروج على الخلافة العباسية ، واعلان الثورة فى مصر ، لم يتمكن من ذلك لأسباب اختلف فيها المؤرخون ، فمنهم من ارجع السبب فى ذلك الى أنه « ســـمع فى عسكره صوت طنبور ، فقال : لا يصلح هؤلاء القـــوم أبدا ، وهـــرب وتركهم »(٦١) ، أو بسبب آرائه فى الشيخين أبى بكر وعمر ، فانفض عنه كثير من أتباعه(٦٢) ، أو أن الطلب قد اشتد عليه من قبل والى مصر عبد الله بن طاهر (٢١١هـ/٨٢٦م) ، فلم يمكنه المقام ، فعاد الى بلاد الحجاز وتهامه(٦٣) .

ويبدو أن شدة الطلب من الخليفة المأمون،واحكام الرقابة من جانب الوالى عبد الله بن طاهر ، كانت أحد الأسباب الرئيسية وراء مغادرة القاسم مصر وعدوله عن الثورة فيها . كذلك لا يستبعد أن يكون الكثير من المصريين قد أنسحبوا من صفوف القاسم ، بعـــد ما تبين لهم رأيه فى

الشيخين ، لما لهما من مكانة روحية عظيمة فى قلوب المصريين ، فخشى على نفسه الوشاية ، وأنسل راجعا الى الحجاز ٠

على أية حال غادر القاسم مصر يتوجس خيفة ، ميمما وجهه صوب الحجاز وتهامة ، بعد نحو عشر سنوات قضاها فى مصر ، نشر خلالها الدعوة الزيدية فى مصر وبعض بـــــلاد المشرق ، ولاقت قبولا كبيرا من المصريين ، فقدموا له كل عون ومساعدة واكرموا وفادته ٠ ومن الحجاز استمر القاسم فى الدعوة فبعث جماعة من دعاته من بنى عمه وغيرهم الى بلخ والطالقان والجوزجان ، فبايعه كثير من أهلها ،وطلبوا منه أن يرسل لهم أحد أبنائه ليظهروا الدعوة ، بيد أن عيون الخلافة العباسية ، كشفت أمره فأرسلت اليه جيشا يتتبع أثره ، مما حدا به أن ينحاز الى حى من البدو حيث ظل مختفيا طيلة عصر المأمون(٦٤) ٠

ولما توفى المأمون ، وتولى المعتصم الخلافة ، اجتمع أمر أهل البيت على مبايعة القاسم البيعة الجامعة سنة ٢١٩هـ/٨٣٤م اماما للزيدية ، لما اتصف به من علم وفقه وشجاعة ، وهى من شروط الزيدية ٠ وتمت البيعة فى منزل محمد بن منصور المرادى بالكوفة(٦٥) ، وعندئذ عزم القاسم على الخروج فى المدينة ، فأشار عليه أصحابه بأن لا يفعل ذلك « لأن المدينة والحجاز تسرع اليهما العسكر ، ولا يتمكن فيها من الميرة»(٦٦) ٠ لذلك لم يتمكن القاسم من الخروج ، وفضل الاختفاء والتنقل فى الصحراء بسبب الملاحقة التى تعرض لها من جيوش المعتصم(٦٧) ٠

على أن القاسم لم يحمل السلاح مطلقا ضد العباسيين ، ولم يقد ثورة مسلحة ، طبقا لقاعدة خروج الامام عند الزيدية ، وانما اكتفى بالدعوة واشتغل بالدين والعلم ٠ ويعلل الهارونى(٦٨) ذلك بأن الغرض من الدعوة هو الانتصاب للأمر ، واظهار مباينة الظالمين والتجرد لقصدهم ودفعهم ، وليس الغرض منها تجييش الجيوش فى مباشرة الحروب ،لأن ذلك مشروط بالتمكن والقدرة ، واجتماع الأصحاب والأنصار ٠ والقاسم قد بلغ النهاية فى اظهار الدعوة ، ودعا الناس اليها ، وباين الظالمين وهاجر عنهم ٠ ومن مذهبه أن الهجرة من الدار التى يغلب عليها الظالمون واجبة لا يصح الاخلال بها ٠ وكان أن استقر القاسم فى آخريات حياته فى

جبل الرس بالقرب من المدينة فى أرض اشتراها لنفسه ولأولاده بالقرب من ذى الحليفة(٦٩) . وهناك اشتغل بالتدريس ، وعمـــل على نشر مبادئه بين الحجاج الذين كانوا يعرجون الى المدينة بعـــد الانتهاء من حجهم فيلتقون به ، وينهلون من علمه وأفكاره ، ومن ثم ينشرونها بين مواطنيهم بعد عودتهم لبلادهم .ومن بين هذه الدروس التى كان يلقيها القاسم كتابه « سياســة النفس » الذى استقطب الكثـــير من آل البيت وأتباعهم « وغناهم عن اللجوء لغيره »(٧٠) . ولم يلبث أن توفى القاسم سنة ٢٤٦هـ/٨٦٠م ، بعد أن قضى أكثر عمره مستترا(٧١) .



الأثر السياسى والفكرى للقاسم الرسى :

قضى القاسم فى مصر قرابة عشر سنوات ، وهى فترة طويلة نسبيا، استطاع خلالها أن ينشر الدعوة الزيدية بين قطاع كبير من المصريين . واذا كان قد غادر مصر ، فانه ترك فيها بعضا من اخوته وذويه ، ظلوا بمثابة دعاة له . ومازالت شـــيعة على بمصر الى ان ورد كتاب الخليفة المتوكل الى اسحاق بن يحيى (٢٣٥/٨٤٩ ـ ٢٣٦هـ/٨٥٠م) واليه على مصر ، يأمره باخـــراج آل على بن أبى طالب من مصر ، فاخرجوا من الفسطاط سنة ٢٣٦هـ/٨٥٠م الى العراق ، ثم اخرجوا من هنـــاك الى المدينة(٧٢) « واستتر من كان بمصر على رأى العلوية »(٧٣).

ويبدو أن الذين بقوا فى مصر من العلويين ، اضطروا الى النزوح والتسلل الى الصعيد ، خاصة قفط(٧٤) التى تشير بعض المصادر الى أن أهلها كانوا من الشيعة(٧٥) ، وأنها « وقف على العلوية من أيام أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وليس فى ديار مصر ضيعة وقف ولا ملك لأحد غيرها »(٧٦) وتشـــير الدراسات الحـــديثة الى وجود العلويين بالصعيد فى القرن الثالث الهجرى(٧٧) .

وهكذا يمكن القول أن العلويين والشيعة فى مصر أصبحوا غير آمنين على أنفسهم من اضطهاد العباسيين منذ عهد الخليفةالمتوكل(٧٨) . ويكفى للتدليل على ذلك أن يزيد بن عبد الله (٢٤٢/٨٥٦ ـ ٢٥٣هـ/٨٦٧م)

ضرب رجلا من الجند فى شىء وجب عليه ، فاقسم عليه بحق الحسن والحسين الا عفا عنه ، فزاده ثلاثين درة . ولما علم الخليفة بذلك أرسل كتابا الى يزيد يأمره بضرب ذلك الجندى مائة سوط ، وحمل بعدها الى العراق(٧٩) . وتتبع هذا الوالى الشيعة فى مصر ، وحملهم الى العراق. ولم يكن عهد الخليفة المنتصر (٨٦١/٢٤٧ - ٢٤٨هـ/٨٦٢م) أحسن حالا من عهد أبيه ، فقد استمر فى اضطهاد العلويين ، حيث بعث كتابا الى والى مصر يأمره «بأن لايقبل علوى ضيعة ، ولا يركب فرسا ، ولايسافر من الفسطاط الى طرف من أطرافها ...»(٨٠) .

وفى خلافة المستعين (٨٦٢/٢٤٨ - ٢٥٢هـ/٨٦٦م) وضح ضعف الخلافة العباسية فى ظل سيطرة الأتراك ، مما هيأ الفرصة للعلويين ، وتابعهم فيها المصريون المتأثرون بدعوة القاسم الرسىللقيام بخمس ثورات فى فترة عشر سنوات . واتخذت الخروج شعارا لها طبقا لمبادىء الزيدية. وعندما خرج محمد بن على بن الحسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، تمكن الوالى العباسى من اخماد حركته ، وحمله الى العراق بصحبة جمع من آل أبى طالب سنة ٢٤٨هـ/٨٦٢م(٨١) . وبعد أربع سنوات قامت ثورة أخرى قادها عبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل ابن محمد بن عبد الله بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب الذى يقال له ابن الأرقط ، وانضم الى جابر بن الوليد المدلجى من بنى الهجيم ، الذى ثار فى الاسكندرية وانتهى أمره بأن اخرج الى العراق سنة ٢٥٣هـ/٨٦٧م(٨٢) .

كذلك نسمع عن رجل من العلويين يدعى أحمد بن ابراهيم بن عبد الله بن طباطبا بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب والمعروف ببغا الأكبر(٨٣) ، وهو حفيد عبد الله شقيق القاسم الرسى . وقد خرج هذا الرجل فى الصعيد ، بيد أنه هزم سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م على يد أرجون التركى والى مصر (٢٥٤هـ/٨٦٨م)(٨٤). وخرج علوى آخر يدعى أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا ، ، ويقال له بغا الأصغر سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م فيما بين الاسكندرية وبرقة ، ثم سار فى جمع الى الصعيد ، وهزم على يد أحمد بن طولون ،

وقتل فى المعركة واتى برأسه الى الفسطاط(٨٥)٠ كذلك ثار فى الصعيد ابراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله المعروف بابن الصوفى العلوى سنة ٢٥٣هـ/٨٦٧م ، ودخل اسنا فى ذى القعدة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م ونهبها وقتل أهلها ، فبعث اليه ابن طولون بجيش استطاع ابن الصوفى أن يهزمه ، ولم تزل ثورته قائمة حتى سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢م عندما هزمه أبو عبد الله العمرى بأسوان(٨٦) ٠

وهكذا يتضح أن الدعوة الزيدية التى عرفت طريقها الى مصر منذ منتصف القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى عن طريق دعاة وأئمة الزيدية ، والتى غذاها القاسم الرسى ، لم تنته برحيله عن مصر ، بل تركت أثرا كبيرا فى نفوس المصريين الذين ساندوا الثوار العلويين من أقارب القاسم الرسى ٠ وبحلول النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ازدادت شريحة العلويين فى قطاعات الشعب المصرى ، حيث نصادف فى سنة ٢٧٠هـ/٨٨٣م على بن الحسن بن ابراهيم طباطبا بن اسماعيل بن ابراهيم نقيبا للطالبيين بمصر فى عهد الطولونيين(٨٧) ٠ ومازال أمر الشيعة يقوى بمصر الى أن دخلت سنة ٣٥٠هـ/٦١م(٨٨) فى عهد الأخشيديين ٠ وكان للعلويين بحكم بمركزهم الروحى مكانة شعبية رفيعة ذات أثر خطير فى الحياة المصرية(٨٩) ٠

أما عن القاسم الرسى نفسه فقد أحاط بعلوم الدين وأخصها الكلام والفقه ٠ ومشهود له بعلو الكعب فى النشاط الفكرى ٠ يصفه الحاكم الجشمى(٩٠) بقوله :

« نجم آل الرسول وفقيههم ، وعالمهم المبرز فى أصناف العلوم ، ومن يضرب به المثل فى الزهد والعلم » وكان القاسم على علم دقيق بالمذهب الحنفى مع فقه الحجاز ٠ وشغل أثناء اقامته فى مصر بالعمل بالمسائل الفقهية ، التى يقترب فيها الى حد كبير من مذهب أبى حنيفة٠ وجدير بالذكر أن الزيدية تعد أبا حنيفة واحدا من رجالها ، لأنه أخذ عن زيد بن على وأولاده(٩١) ، كما أن كثيرا من الزيدية فى الأمصار الاسلامية يستترون ، بمذهب أبى حنيفة وهو المذهب الرسمى للدولة العباسية(٩٢) ٠

وقد ترك لنا القاسم الكثـــــير من المؤلفات منها : كتاب الفرايض والسنن ، وكتاب الطهارة ، وكتاب صلاة اليوم والليلة ، وكتاب الناسخ والمنسوخ ، وكتاب الامامة(٩٣) ، وكتاب سياسة النفس(٩٤) .

أما علم الكلام ، فقد بلغ القاسم فيه شأوا عظيما ، كانه فنه الذى نشأ عليه . يصفه جعفـر بن حرب(٩٥) ، وهو من عيـــون المتكلمين والمتبحرين فى علم الكلام بقوله(٩٦) :

« .. أين كنا من هذا الرجل ، فولله ما رأيت مثله » ، كان القاسم منقطع النظير ، بل كان من علماء الاسلام ذوى الشان(٩٧) ، يصفه بعض الشعراء بقوله :(٩٨)

ولو أنه نـادى المنـادى بمـكة بخيف منى فيمن تضم المواسـم
من السيد السباق فى كـل غاية لقال جميع النـاس لاشك قاسم

وترك القاسم الرسى تراثا ضخما من المؤلفات والرسائل فى عـلم الكلام ، تناول فيها الكثير من مناحى الفكر الاسلامى ، الذى التزم فيه بالقرآن والنظريات الدينية للاسلام ، مما ميزه عن الفكر الفلسفى وجعله ثمرة للفكر القرآنى(٩٩) ، نذكر منها : الدليـل الكبير فى الرد على الفلاسفة(١٠٠) ، والدليل الصغير(١٠١) ، كتاب العدل والتوحيد(١٠٢) ، والرد على ابن المقفع ، والرد على المجبرة وتأويل العرش والكرسى فى الرد على المشبهة(١٠٣) ، وكتاب الرد على النصارى ، وكتاب الخمسة أصول وهو أقدم كتاب فى عقائد الزيدية(١٠٤) .

ويبدو أن القاسم ألف الكثير من مصنفاته أثنـاء اقامته فى مصر ، فقد ألف كتاب الرد على الملحد ، الذى كان يبحث فيه عن شخص قبطى اسمه (سلمون)(١٠٥) كذلك استطاع القاسم باجتهاداته وآرائه أن يكون مذهبا نسب اليه يعرف بالقاسمية(١٠٦) ، كان متوسطا بين مذهب جده زيد بن على ومذهب حفيده من بعده الهادى الى الحق يحيى بن الحسن؛ تارة يوافق السلف ، وتارة يوافق الخلف(١٠٧) .

وأما نظرية القاسم فى الامامة فهى عنـده « من أفرض الفرائض

وأوكدها لأن جميع انفرائض لا تقـــوم الا بها »(١٠٨) ، ويحددها ويحصرها فى موضع مخصوص(١٠٩) ، وهم أبناء الحسن والحسين طبقا لمبادىء الزيدية . وادخل القاسم تعديلات على مبدأ الخروج الذى ظل معلما يميز بين الزيدية وغيرها من فرق الشيعة . وجعـــل من الزيدية خوارج الشيعة(١١٠) ، فقد كيف القاسم مبدأ الخروج مع وضعه كامام لم يخرج . ولم يقد ثورة مسلحة ضد خلفاء بنى العباس وحوله الى هجرة فردية عن طريق قطع الفرد علاقاته مع الحكام الظلمة(١١١) .

ومما يجدر ذكره أن آراء القاسم الكلامية تقترب من الفقه أكثر مما تقترب من الفلسفة ، وهذا ما يميز الزيدية بعامة عن المعتزلة(١١٢) ، هذا الى أن أفكار القاسم اكتسبت أهمية كبيرة لا لكونها أول دليل على التلاقى بين الزيدية والمعتزلة فحسب ، بل لأنها الى جانب ذلك بمثابة توثيق للفكر المعتزلى نفسه(١١٣) .

وفى الوقت الذى عرفت الدعوة الزيدية طريقها الى مصر فى آوائل العصر العباسى ، وكان علماء الاسلام قد شرعوا فى تدوين الحديث والفقه والتفسير منذ سنة ١٤٣هـ/٧٦٠م(١١٤) .

وكان من بين هؤلاء العلماء كوكبة من علمـــاء مصر ومحـــدثيها وفقهائها ، نذكـــر منهم ـ عبد اللــه بن لهيعة المصرى ـ (ت ١٧٤هـ/ ٧٩٠م)(١١٥) ، والليث بن سعد (ت ١٧٥هـ/٧٩١م)(١١٦) وعبد الله بن وهب بن مسلم المصرى (ت ١٩٧هـ/٨١٢م)(١١٧) . وفى هذا التاريخ قام علماء الزيدية بتدوين فقه الزيدية وحديثهم حول مجموع الامام زيد، الذى يعتبر أقدم مرجع فقهى فى تاريخ المذاهب الاسلامية(١٨) . يقول يحيى بن الحسين(١١٩): « وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون فى حفظهم ويروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة » .

وهكذا يمكن القول أن ظهور الفقه الزيدى تزامن مع ظهور المذاهب السنية فى العصر العباسى . وكان من الطبيعى أن تتأثر مصر بجانب الزيدية بمذاهب أهل السنة التى تأثرت بها وأثرت فيها ، مثل مذهـــب شيخ الرأى أبى حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠هـ/٧٦٧م)(١٢٠).

ويذكر أن الامام أبا حنيفة التقى بالامام زيد بن على فى الكوفة ، وكان من رجـــاله(١٢١) ، « وكان أبو حنيفة على بيعته ومـــن جمـــلة شيعته »(١٢٢) ، وعندما سئل كيف جاء اليه هذا العلم قال : « كنت فى معدن العلم ، ولزمت شيخا من شيوخه » أى الامام زيد(١٢٣) .

ويصف الشهرستانى(١٢٤) الزيدية بقوله : « .. وأما فى الفروع فهم على مذهب أبى حنيفة الا فى مســائل يوافقون فيهـا الشــافعى رحمه الله » .

لعل هذا يفسر لنا القول بأن الزيدية معتزلة فى الأصول ، وأحناف فى الفروع ، لما بينهما من ارتباط وثيق .

أما ثانى مذاهب أهل السنة ، وهو مذهب الامـــام مالك بن أنس الاصبحى (ت ١٧٩هـ/٧٩٥م)(١٢٥) فان هذا الامام ساند الامام الزيدى محمد بن عبد الله النفس الزكية فى خـــروجه على الخليفة المنصـــور العباسى ، وأفتى لأهل المدينة عندما سألوه عما اذا كان أبو جعفر له بيعة فى رقابهم بقوله :«انما بايعتم مكرهين،وليس على مكره يمين»(١٢٦).

وعلى الرغم من أن مذهب أبى حنيفة يعتبر أقدم المذاهب الا أن مذهب مالك كانت له الأولوية فى دخول مصر ، والانتشار فيها ، اذ قدم كثير من أصحاب مالك الى مصر(١٢٧) .

أما ثالث هذه المذاهب فهو مذهب الامام محمد بن ادريس الشافعى، الذى أتى الى مصر فى سنة ١٩٨هـ/٨١٣م ، وكون بها مذهبه ، وتوفى بها سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م(١٢٨) وكانت اقامته ووفاته بمصر سببا فى ذيوع مذهبه وانتشاره فيها . وكان الشافعى مولعا بحب آل البيت ، يؤثر عنه قوله فى حبهم(١٢٩) :

ان كان رفضـــا حب آل محمـــد فليشـــهد الثقـــلان أنى رافضى

ثم يأتى رابع هذاه المذاهب هو مذهب الامام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/٨٨٥م) ولم يكن له ذيوع كبير فى مصر الاسلامية(١٣٠) .

ومن الواضح أن المذهب الزيدى ، كان فيه الاختيار من المذاهب السنية كثيرا ، كما أنه واسع الرحاب ، الأمر الذى أدى الى نمائه وتلاقيه مع فقه بقية الأئمة(١٣١) . لذلك صار هذا المذهب بمثابة حديقة غناء تلتقى فيها أشكال الفقه الاسلامى المختلفة ، وأغراسه المتباينة ، والمذهب كالماء الجارى يحمل من الأرض التى يمر بها خواصها ، فيحمل من أهل كل بلد عرفه وعاداته ، وتقاليده وأفكاره(١٣٢) .

وعن انتشار المذهب الزيدى فى مصر ، تحفظ لنا طبقات الزيدية وصفا لأحد قضاة مصر وكبار محدثيها عبد الله بن لهيعة أنه « .. كان من أوعية العلم ، .. وكان يروى من حفظه ، وصحف حديثه ، وكان مفرطا فى التشيع »(١٣٣) . ومن قبله كان غوث بن سليمان الحضرمى الذى كان على قضاء مصر ابان قدوم على بن محمد النفس الزكية واتهم بايوائه. هذا فضلا عن أن العلويين فى مصر كانوا على مذهب زيد بن على ، لأنه مذهب آل البيت الذى نهل منه الامام أبو حنيفة النعمان.ولا غرو فى ذلك فمعظم الثورات الزيدية كان يساندها الفقهاء ، حتى سميت ثوراتهم ثورات الفقهاء وأهل العلم ، ومن هنا يمكن القول أن المذهب الزيدى هو أقرب مذاهب الشيعة الى أهل السنة حتى اعتبر خامس مذاهب السنة .

وتشير الدراسات الحديثة(١٣٤) الى أن المذاهب التى لاتعد من مذاهب أهل السنة مثل الشيعة والخوارج ، وغيرها من المذاهب ، لم يكن لها أثرها فى مصر الا فى ظروف سياسية معينة ، اذ لم يقبل المصريون عليها ، ولم تعمر طويلا فى وادى النيل .

ومن المرجح أن المذهب الزيدى انتشر فى مصر منذ دخول الدعوة الزيدية فى مصر سنة ١٤٤هـ/٧٦١م ، وحتى قدوم القاسم الرسى اليها ، وان ظل بعد ذلك محصورا فى نطاق ضيق ، اذا قورن بمذاهب أهل السنة لاستتار معتنقيه بمذهب أبى حنيفة أو الشافعى « .. ومن الزيدية أخلاط فى أمصار السنة ، يستترون بمذهب أبى حنيفة ، لأن أبا حنيفة كان من رجال زيد بن على »(١٣٥) . ولأن المذهب الزيدى مذهب ثورى ينطوى على أفكار سياسية ، ولدواعى الأمن وخوفا من بطش العباسيين

واضطهادهم ، كان أصحاب هذا المذهب يدخلون تحت المذهب الحنفى أو الشافعى . يقول الاستاذ الشـــيخ أبو زهرة(١٣٦) : « وأحيانا يبدو المذهب الزيدى فى لباس مذهب آخر حتى ليتوهم الناس أنهم من أهل ذلك المذهب » . أضف الى ذلك بعد الزمان بين معتنقيه وبين الامام زيد ، وانقطاعهم فى الأرض مما جعلهم غير ظاهرين فى مصر .



الهــــوامش

(١) راجع توجمته عند : الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠/١٢٣م): تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة (١٩٦٠ ـ ١٩٦٩م) جـ٧ ،ص ١٦٠ ـ ١٧٣ ، الأصفهانى ، أبو الفرج على بن الحسين بن محمد (ت٣٥٦/ ٩٦٧م) : مقاتل الطالبيين ، تحقيق السيد أحمد صقر ، القاهرة ١٩٤٩ ص١٢٧ ـ ١٥١، ابن حزم ، أبو محمد على بن حزم الأندلسى الظاهرى (ت٤٥٦هـ/١٠٦٤م) : جمهرة أنساب العرب ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٥٦ .

(٢) الحاكم الجشمى ، أبو سعد المحسن بن محمد بن كرامة الجشمى البيهقى (ت ٤٩٤هـ/١١٠٠م) : شرح عيون المسائل ، مخطوط مصور من مكتبة الامام يحيى بصنعاء ، بدار الكتب المصرية ميكروفيلم رقم (٣٠٦) ، جـ ١ ، ورقة ٥ ، نشوان الحميرى أبو سعيد (ت ٥٧٣هـ/١١٧٧م) : الحور العين ، تحقيق كمال مصــــطفى ، بيروت ١٩٨٥م ، ص ٢٢٨ . THE Encyclopaedia of Islam, Art (Zaidia)

(٣) الحسنى ، أبو العباس أحمد بن الحسن (ت ٣٥٢هـ/٩٦٣م) : المصابيح ، مخطوط مصور من مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، بدار الكتب المصرية ميكروفيلم رقم (٨١) ورقة ٦٩ ، الهارونى ، أبو الحسن أحمد بن الحسين بن هـــارون (ت٤١١هـ/ ١٠٢٠م) : كتاب فى نصرة مذاهب الزيدية ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية ، ١٥٦٧ علم الكلام ، ميكروفيلم رقم (٢٢٥) ورقة ١٧٢ ، نشوان الحميرى : الحور العين، ص ٢٣٩ .

(٤) ابن طباطبا ، محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى (ت٧٠٩) : الفخرى فى الآداب السلطانية ، والدول الاسلامية ، القـــاهرة ١٩٦٢ ، ص ٩٧ ، المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) : المواعظ والاعتبار المعروف بالخطط المقريزية ، القاهرة ، جـ ٢ ، ص ٤٣٩ .

(٥) الطبرى : تاريخ الرسل ، جـ٧ ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ ، نشوان الحميرى : الحور العين ، ص ٢٣٩ ، الذهبى ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م): تاريخ الاسلام ، وطبقات المشاهير والاعلام ، القـــاهرة ١٣٦٩هـ ، جـ٥ ، ص ٧٥ المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٣٩ .

(٦) الطبرى : تاريخ الرسل ، جـ٧ ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ، الأصـــفهانى : مقاتل الطالبيين ، ص ١٤١ ، الذهبى : تاريخ الاسلام ، جـ٥ ، ص٧٤ .

(٧) المحلى ، الحسن حسام الدين حميد بن أحمد (ت ٦٥٢هـ/١٢٥٤م) : الحدائق

الوردية فى مناقب الائمة الزيدية ، صورة بالأوفست للمخطوطة ، الجزء الأول والثانى فى مجلد واحد ، دمشق ١٩٨٥ ، جـ١ ، ص ١٤٨ ، المقريزى : الخطط ، جـ٢ . ص ٤٤٠، يوليوس فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده . القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٣٢٦ ٠

(٨) الدينورى ، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت٢٨٢هـ/٨٩٦م) : الأخبار الطوال، بغداد ١٩٥٩ . ص ٣٤٥ . المحلى : الحدائق ، جـ١ ، ص ١٤٨ ٠

(٩) المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٦م) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ١٩٨٢ ، جـ٣ ، ص ٢١٧ ٠

(١٠) الكندى ، أبو عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى (ت ٣٥٠هـ/٩٦١م) : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، بيروت١٩٠٨ ، ص٨١ ، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ،ص٤٣٦٠

(١١) ابن ظهيرة ، أبو الطيب محب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن الحسين (٨٢٥ ـ ٨٨٥هـ) : الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٦٩ . ص ١٠٣ ٠

(١٢) تقع هذه المنطقة الى الشمال الشرقى من مدينة الفسطاط ، وعليها أسس العباسيون مدينة العسكر ثانية عواصم مصر الاسلامية (المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩) ٠

(١٣) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٣٦ ٠

(١٤) نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ٤٣٦ ٠

(١٥) نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ٤٣٦ ٠

(١٦) راجع : سعاد ماهر محمد : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، جـ١ ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ٠

(١٧) المسجد الموجود حاليا يعود الى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى/التاسع عشر الميلادى اذ جدده وأعاد معظم مبانيه عثمان أغا مستحفظان ٠ (سعاد ماهر : مساجد مصر ، جـ١ ، ص ١٠٦) ٠

(١٨) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٤٠ ٠

(١٩) نشوان الحميرى : الحور العين ، ص ٢٤٠ ٠

(٢٠) محمد أبو زهرة : الامام زيد ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٩ ، ص ٤٠ ٠

(٢١) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ، ص ١٢٨ ٠

(٢٢) الشهرستانى ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م) : الملل والنحل ، مطبعة الأزهر ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م ، جـ١ ، ص ٣٠٣ ٠

ويشكك أبو زهرة فى أن زيدا درس على واصل ، لأن واصلا يخطىء على بن أبى طالب فى حربه مع أصحاب الجمل ومع معاوية ، ولأن زيدا وواصلا كانا من سن واحدة ، وان كان أبو زهرة لا ينفى امكان أن يتجادلا مجادلة الأنداد ٠ (أبو زهرة: الامام زيد ، ص ٤٠ ـ ٤١) ٠

(٢٣) الهارونى : نصرة مذاهب الزيدية ورقة ٧١ أ ٠

(٢٤) الهارونى : نصرة مذاهب الزيدية ، ورقة ٦٥ أ ،المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٥٢ ٠

(٢٥) الحاكم الجشمى : شرح عيون المسائل ، جـ١ ، ورقة ٧ ٠

(٢٦) الهارونى : نصرة مذاهب الزيدية ، ورقة ٦٣ أ ٠

(٢٧) أبو زهرة : الامام ، ص ٤٨٩ ٠

(٢٨) ابن طباطبا : الفخرى ، ص ١٢٠ ٠

(٢٩) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١١ ، ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (٨١٣ ـ ٨٧٤هـ) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، مطبعة دار الكتب ، جـ١ ، ص ٣٤٩ ، المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٣٨ لم يحدد كل من المصدرين تاريخا محددا لقدوم على بن محمد الى مصر فى ولاية حميد بن قحطبة الطائى ، (رمضان ١٣ ذو القعدة ١٤٤هـ/٧٦٠ ـ٧٦١م) ، نفس المصدرين والمرجع أنه قدمها أوائل سنة ١٤٤هـ ٠

(٣٠) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٢٨ ٠

(٣١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١١ ٠

(٣٢) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٤٨٩ ٠

(٣٣) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٣٦١ ٠

(٣٤) نفس المصدر ، ص ٣٦٢ ٠

(٣٥) ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، بيروت ١٩٧٠ ، جـ٣ ، ص ٣٨ ، ٣٩ ٠

(*) عبد الله بن لهيعة بن عقبة الحضرمى الغافقى المصرى ، كان مكثرا من الحديث والأخبار والرواية ، تولى قضاء مصر مستهل سنة ١٥٥هـ/٧٧١م من قبل أبى جعفر المنصور ، وهو أول قاض ولى مصر من قبل الخليفة وأول القضاة الذين حضروا فى طلب الهلال ، وظل عبد الله بن لهيعة على قضاء مصرالىشهرربيعالآخر سنة١٦٤هـ/ ٧٨٠م ، وتوفى بمصر يوم الأحد ١٥ ربيع الأول سنة ١٧٤هـ/أكتوبر ٧٩٠م ، (الكندى: الولاة والقضاة ، ص ٣٦٨ ـ ٣٧٠ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٣ ، ص٣٨ـ٣٩)٠

(٣٦) يحيى بن الحسين بن المنصور بالله القاسم بن محمد (ت نحو ١١٠٠هـ) : الطبقات الزهر فى أعيان العصر ، ويعرف باسم طبقات الزيدية ، مخطوط مصور عن مخطوطة مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، ورقة ٩٦ ٠

(٣٧) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١١ ، وقارن المقريزى : الخطط ،جـ١ ، ص ٣٠٦ . ٣٠٧ حيث توجد بعض الاختلافات فى الرواية ٠

(٣٨) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ، ص ٢٧٠ ، المحلى : الحدائق الوردية ، جـ١ ، ص ١٦٦ ٠

(٣٩) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١١ ، المقريزى : الخطط ، جـ١ ،ص٣٠٧ ٠

(٤٠) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٣٠٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، حـ٢ ، ص ١ ٠

(٤١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١١ ، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ،ص٣٣٨٠

(*) الصدف : بفتح الصاد وكسر الدال المهملتين اخره فاء ، والنسبة اليه صدفى بالتحريك ، قبيلة من كندة ولها بقية فى حضرموت ، حازت فضل السبق بالهجرة والجهاد أيام الفتح الاسلامى ، وشهدت الصدف فتح مصر ، وسجل عمرو بن العاص دورها فى مهاجمة حصن بابليون فى رجزه المشهور : يوم لهمدان ويوم للصدف ٠

(الهمدانى ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (٣٢٤هـ/٩٤٥م) : صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن على الأكوع ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ١٦٦ ، حاشية رقم ١ ، ابن دقماق ، ابراهيم بن محمد المصرى (ت ٨٠٩هـ) : الانتصار بواسطة عقد الامصار ، بولاق ١٩٨٣ ، جـ٤ ، ص ٤ ٠

(٤٢) الكندى الولاة والقضاة ، ص ١١١ ، المقريزى ، جـ٢ ، ص ٢٣٨ ٠

(٤٣) نفس المصدر ، ص ١١٢ ٠

(٤٤) نفس المصدر ، ص ١١٣ ـ ١١٥ ، عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، القاهرة ١٩٦٧ ص ١٦٨ ٠

(٤٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٢ ، ص ١ ٠

(٤٦) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١٢ ٠

(٤٧) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١٣ ، عبد الله خورشيد : القبائل العربية ، ص ١٦٤ ٠

(٤٨) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١٣ ٠

(٤٩) نفس المصدر : ص ١١٤ ٠

(٥٠) المحلى : الحدائق الوردية ، حـ١ ، ص ١٦٥ ٠

(٥١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١٥ ، المقريزى : الخطط ، حـ٢ ، ص٣٣٩٠

(*) لقب المنصور الحق بالخليفة أبى جعفر بعد انتصاره على النفس الزكية ٠

(٥٢) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١٤ ، ١١٥ ٠

(٥٣) نفس المصدر ، ص ١١١ ، المقريزى : الخطط ، حـ٢ ، ص ٣٣٨ ٠

(٥٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، حـ٢ ، ص ٢ ٠

(٥٥) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١١٤ ٠

(٥٦) المقريزى : الخطط ، حـ٢ ، ص ٤١٣ ، ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص ١٠٣ ، راجع : سعاد ماهر محمد : مساجد مصر ، حـ١ ، ص ١١٠ _ ١١١ ٠

(٥٧) سعاد ماهر : مساجد مصر ، جـ١ ، ص ١١٤ ٠

(٥٨) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ ٠

(٥٩) المحلى : الحدائق الوردية ، جـ١ ، ص ١٧٥ ، الحسنى : المصابيح ، ورقة ٨٩ ٠

(٦٠) فخ : بالخاء المعجمة من فوق ، من فجاج مكة ، بينه وبين مكة ثلاثة أميال، وقيل ستة أميال ، وبفخ كانت وقعة الحسين بن على ٠ (الحميرى ، محمد بن عبد المنعم (ت ٨٦٦هـ/١٤٦١م) : كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ٤٣٦ ، ٤٣٧) ٠

(٦١) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ، ص٤٣١ . ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن ابن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ١٩٨٣٠ جـ٤ ، ص ٢٣ ٠

(٦٢) السلاوى ، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى (ت ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٤ ، جـ١ ، ص ١٥٣ ٠

(٦٣) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١٣١ ٠

(٦٥) نفس المصدر ، جـ١ ، ص ١٥٤ ٠

(٦٦) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٨ ، ص ١٩٨ ، ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ، ص ٢٤ ٠

(٦٧) المحلى : الحدائق الوردية ، جـ١ ، ص ١٩٥ _ ١٩٦ ، الحميرى : الروض المعطار ، ص ٥٤٥ _ ٥٤٦ وراجع السلاوى : الاستقصا ، جـ١ ، ص ١٥٥ _ ١٥٧

(٦٨) المقدسى : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت نحو ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، نشرة دى خويه ، ليدن ١٩٠٦ ، ص ٢٤٤ ، الحميرى : الروض المعطار ، ص ٥٤٦ ٠

(٦٩) ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب اسحاق المعروف بالوراق (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م) : الفهرست ، طهران ١٣٩١هـ/١٩٧١م ، ص ٢٤٤ المحلى : الحدائق ، جـ ٢ ، ص ٢ ، الحاكم الجشمى : شرح العيون ، جـ١ ، ورقة ٢٧ ٠

(٧٠) الحاكم الجشمى : شرح العيون ، جـ ١ ، ورقة ٢٩ الأصفهانى : مقاتـــل الطالبين ، ص ٥٥٦ ، المحلى : الحدائق الوردية ، جـ٢ ، ص ٦ ، دائرة المعارف الاسلامية (مادة الزيدية) ، وراجع : ايمن فؤاد سيد : تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن . القاهرة ١٩٨٨ ، ص ٢٢٨ ٠

— Madelung W., Der Imam al - Qasim ibn Ibrahim und dia Glaubenslhre des Zaidten,, Berlin 1965, P.87.

— Binyamin Abrahamov : Al - Kasim Ibn Ibrahim's Argum-net From Design, Oriens, Journal of the International Society for Oriental Research, Brill, 1986 V., 29-30, P. 259.

(٧١) ابن حجر ، أبو الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ) : تهذيب التهذيب ، حيدر اباد الدكن ، ١٣٢٦هـ ، جـ٦ ، ص ١١٨ ٠

Madelung, OP. Cit., P. 89.

(٧٢) المحلى : الحدائق ، جـ٢ ، ص ٢ ٠

(٧٣) نفس المصدر ، جـ١ ، ص ١٧٨ ٠

(٧٤) الحسنى : المصابيح ، ورقة ١٠٩ ، المحلى : الحدائق ، جـ١ ، ص ١٩٧ ٠

(٧٥) المحلى : الحدائق ، جـ١ ، ص ٢٠ ، يحيى بن الحسين طبقات الزيدية ، ورقة ١٦ ، المتوكلى ، اسماعيل بن أحمد بن على : انباء الزمن فى تاريخ اليمن ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم١٣٤٧ تاريخ ، ميكروفيلم رقم٢٠٢٣٨ ، ورقة٢١٠

(٧٦) المحلى : الحدائق ، جـ ١ ، ص ٢٠٠ ، يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية، ورقة ٢٦ ٠

(٧٧) المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ٣١٠ ٠

(٧٨) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ١٩ ٠

(٧٩) الأصفهانى : مقاتل الطالبين ، ص ٥٥٣ ٠

(٥٧) المحلى : الحدائق الوردية ، جـ٢ ، ص ٤ ٠

(٥٨) طبرستان : بلاد جبلية تقع على بحر الخزر (قزوين) ، يحدها من الشرق جرجان وقوص ومن الغرب الديلم ومن الجنوب الرى وأهلها اشرف العجم (اليعقوبى أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) : البلدان ، ليدن ١٨٩٢ ، ص ٤١ ، وفتحت طبرستان سنة ١٤٣هـ/٧٥٩م وأكبر مدنها الجبـــل وبها

مستقر الولاة . وكانوا من قبل يسكنون سارية ٠ (الحميرى : الروض المعطار ، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤) ٠

(٥٩) المحلى : الحدائق ، جـ٢ ، ص ٤ ، المتوكلى : أنباء الزمن ورقة ٢١ ٠

(٦٠) المتوكلى : أنباء الزمن ، ورقة ٢١ ٠

(٦١) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ، ص ٥٥٦ ٠

Madelung, Cit., P. 93.

— Binyamin Abrahamov, Al - Kassim Ibn Ibrahim's Theory of the Imamate, Revue D'etudes Arabes, Leiden 1987, Tom XXX Iv PP. 82-88.

(٦٣) المحلى : الحدائق ، جـ٢ ، ص ٤ ، المتوكلى : أنباء الزمن ، ورقة ٢١ ٠

(٦٤) المحلى : الحدائق ، جـ٢ ، ص ٤ ٠

(٦٥) الحسنى : المصابيح ، ورقة ١١٠ ، يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ١٧ ٠

(*) محمد بن منصور المرادى الزيدى ، أحد علماء الزيدية وفقهائها ، أخذ علومه على القاسم الرسى ، وكان يروى عن القاسم من غير واسطة ، وله من الكتب : كتاب التفسير الكبير ، وكتاب التفسير الصغير ، وكتاب أحمد بن عيسى ، وكتاب سيرة الأئمة العادلة ، وله كتب فى الاحكام ، علاوة على كتب الفقه ، توفى سنة ٢٥٢هـ/٨٦٦م ٠ (راجع : ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٤٤ ، يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ١٧) ٠

(٦٦) المحلى : : الحدائق ، جـ٢ ، جـ٤ ٠

(٦٧) الحاكم الجشمى : العيون ، جـ١ ، ورقة ٢٨ ٠

(٦٨) الهارونى : نصرة المذاهب الزيدية ، ورقة ٧٢ ٠

Binyamin Abrahamov, op. cit., p. 81.

(٦٩) الحاكم الجشمى : العيون جـ١ ، ورقة ٢٩ ، المحلى : الحدائق الوردية ، جـ ٢ ، ص ٦ ٠

Madelung, op. cit., p. 259.

(٧١) المحلى : الحدائق الوردية ، جـ٢ ، ص ٦ ، المتوكلى : أنباء الزمن ، ورقة٢٢٠

Binyamin, op. cit. 259.

(٧٢) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١٩٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ ، وراجع : سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الولاة ، الهيئة العامة للكتاب ، ص ٩٥ ٠

(٧٣) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٣٩ .

(٧٤) قفط : مدينة بشرقى النيل ، وهى من المدن المذكورة فى الصعيد حسنا ونظافة بنيان واتقان (ابن جبير ، محمد بن أحمد الأندلسى (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م : رحلة ابن جبير ، دار الكتاب اللبنانى . بيروت ، ص ٦١ ، ولها سور وبينها وبين قوص أربعة أميال وفيها مزارع كثيرة البقول وأهلها شيعة ، وفيها بعض بقايا الروم (مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار . نشر وتحقيق سعد زغلول عبد الحميد . الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٨٧ . الحميرى : الروض المعطار . ص ٤٧٧)، وهى رأس طرق القوافل التى كانت تخترق الصحراء بين وادى النيل والبحر الأحمر، (محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، القسم الثانى . جـ٤ . ص ١٧٧) ، وهى الآن احدى مدن محافظة قنا .

(٧٥) الادريسى ، أبو عبد الله محمد الشريف السبتى (ت حوالى ٥٤٨هـ/١١٥١م): صفة المغرب وأرض السودان والأندلس ، تحقيق دوزى ، امستردام ، ١٩٦٩ ، ص ٤٨ ـ ٤٩ . الحميرى : الروض . ص ٤٧٧ .

(٧٦) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٧ ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

(٧٧) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، ص ٩٣ .

(٧٨) سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ٩٥ .

(٧٩) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢٠٣ . المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص٣٣٩ .

(٨٠) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٣٩ .

(٨١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٣٩ ، راجع سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ٩٥ .

(٨٢) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ، المقـريزى : الخطط : جـ٢ ، ص ٣٣٩ .

(٨٣) نفس المصدر ، ص ٢١١ ، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٣٩ .

(٨٤) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢١١ .

(*) ورد ذكره عند الكندى (أزجور التركى ، ص٢١٠ـ٢١١ بينما ورد اسمه عند المقريزى أرجون وقد أخذنا بما ورد عند المقريزى ، جـ٢ ، ص ٣٣٩) .

(٨٥) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٣٩ .

(٨٦) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢١٣ ـ ٢١٤ .

(٨٧) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٥٠٩ ـ ٥١٣ .

(*) كان ابن طباطبا كريما فاضلا ، صاحب رباع وضياع ونعمة ظاهرة وعبيد وحاشـية .

(٨٨) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٣٩ ٠

(٨٩) عبد الله خورشيد : القبائل العربية ، ص ٩٣ ٠

(٩٠) الحاكم الجشمي : شرح العيون ، جـ١ ، ورقة ٢٨ ٠

(٩١) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ١٠ ٠

(٩٢) نفس المصدر ،ورقة ٤ ٠

Binyamin, OP. Cit., P. 81.

(٩٤) المحلى : الحدائق الوردية ، جـ٢ ، ص ٣ ٠

(٩٥) جعفر حرب ، ويكنى أبا الفضل « واحد دهره فى العلم والصدق والورع والزهد والعبادة » وله كتب كثيرة فى علم الكلام ، وعده ابن المرتضى من الطبقة السابعة ، (ابن المرتضى ، أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠هـ/١٤٣٦م) : طبقات المعتزلة ، تحقيق سوسنة ديفيلد فلرز ، بيروت ١٩٦١ ، ص ٧٢ ٠

(٩٦) المحلى : الحدائق الوردية ، جـ٢ ، ص ٢ ٠

(٩٧) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٤٩٦ ٠

(٩٨) الحسنى : المصابيح ، ورقة ١١٠ ٠

(٩٩) راجع : القاسم الرسى : رسائل العدل والتوحيد ، تحقيق محمد عمارة، نشر دار الهلال ، ص ٣٠ ـ ٣٤ ، على محمد زيد: معتزلة اليمن، بيروت ١٩٨١،ص٢٣٠

(١٠٠) كتاب الدليل الكبير نشره المستشرق بنيامين ابراهما ، واردفه بتعليقات باللغة الانجليزية ، ليدن ١٩٩٠ ٠

(١٠٥) Binyamin., " Al Kasim Ibn Ibrahim,s Argument., pp. 260-261.

(١٠٢) القاسم الرسى : أصول العدل والتوحيد ، ص ٩٦ ـ ١٤٠ ٠

(١٠٣) نفس المصدر ، ص ١٠١ ـ ١١١ وراجع : أحمد محمود صبحى : الزيدية، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ١١٥ ٠

(١٠٤) نفس المصدر ، ص ٧٣ ٠

(١٠٥)ء Medelung OP. Cit., P. 89.

(١٠٦) ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٤٤ ٠

(١٠٧) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ١٨ ٠

(١٠٨) القاسم الرسى : الامامة ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم ٣٤٣ ، ورقة ٨٦ ٠

Binyamin, " Al Kasim Ibn Idrahim's Theory, P. 85.

(١٠٩) القاسم الرسى : الامامة ، ورقة ٨٦ ٠

(١١٠) على محمد زيد : معتزلة اليمن ، ص ٣٣ ·

(١١١) القاسم الرسى : الامامة ، ورقة ٨٢ الى ورقة ٨٧ ، الهـــارونى : نصرة المذاهب الزيدية ، ورة ٧٢ ·

(١١٢) أحمد صبحى : الزيدية ، ص ١٣٨ ·

(١١٣) على محمد زيد : معتزلة اليمن ، ص ٣٣ ·

(١١٤) الذهبى : تاريخ الاسلام ، جـ٦ ، ص ٥ ـ ٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ١ ، ص ٣٥١ ، يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٤ ·

(١١٥) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٣٦٨ ـ ٣٧٠ ، ابن خلـكان : وفيـــات الأعيان : جـ٢ ، ص ٣٨ ـ ٣٩ ·

(*) ترك عبد الله بن لهيعة مجموعة مدونة من الحديث تعتبر أقدم مجموعة حتى الآن ، وهى ضمن مجموعة أوراق البردى بمدينة هيدلبرج (سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ١٨٣) ·

(١١٦) أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن امام أهل مصر فى الفقـــه والحديث ، قال عنه الشافعى : « الليث بن سعد أفقه من مالك الا أن أصحابه لم يقوموا به » سمع علماء المصريين والحجازيين ، وروى عن عطاء بن أبى رباح وابن شهاب الزهرى (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص ١٢٧) ·

(١١٧) الذهبى : تاريخ الاسلام ، جـ٦ ، ص ٥ ـ ٦ ، يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٤ ·

(١١٨) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٤ ، وراجع : أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٢٥٨ ·

(١١٩) نفس المصدر ، ورقة ٤ ·

(١٢٠) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص٣٣٤ ·

(١٢١) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٤ ، ١٠ ·

(١٢٢) الشهرستانى : الملل والنحل ، جـ١ ، ص ٣١٢ ·

(١٢٣) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٢٣ ·

(١٢٤) الشهرستانى : الملل والنحل ، جـ١ ، ص ٣١٧ ·

(١٢٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص ١٣٧ ·

(١٢٦) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ، ص ٢٨٣ ، المحلى : الحدائق الوردية ، جـ ١ ، ص ١٦٤ ·

(١٢٧) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٣٤ ، سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ١٨٧ ·

(١٢٨) نفس المصدر ، جـ٢ ، ص ٢٢٤ ، ٤٤١ .

(١٢٩) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٢٤٢ .

(١٣٠) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٣٤ ، راجع سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ١٨٨ .

(١٣١) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٢٢٧ .

(١٣٢) نفس المرجع ، ص ٤٨٨ .

(١٣٣) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ورقة ٦ .

(١٣٤) سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ١٨٨ .

(١٣٥) يحيى بن الحسين : طبقات الزيدية ، ورقة ٤ .

(١٣٦) أبو زهرة : الامام زيد ، ص ٤٨٩ .

« قائمة المصادر والمراجع »

أولا : المصادر العربية :

(أ) مصادر مخطوطة :

١ ـ الحاكم الجشمى : أبو سعد المحسن بن محمد بن كرامة الجشمى البيهقى (ت ٤٩٤هـ/١١٠٠م) « شرح عيون المسائل » مخطوط مصور من مكتبة الامام يحيى بصنعاء ، بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم (٣٠٦) ٠

٢ ـ الحسنى : أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن الحسن (ت ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م) « المصابيح » مخطوط مصور من مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم (٨١)٠

٣ ـ القاسم الرسى : القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن على بن أبى طالب (ت ٢٤٦هـ/٨٦٠م) : « كتاب الامامة » مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم (٣٤٣) ٠

٤ ـ المتوكلى : اسماعيل بن أحمد بن على : « أنباء الزمن فى تاريخ اليمن » مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٣٤٧ تاريخ ، ميكروفيلم رقم (٢٠٣٣٨) ٠

٥ ـ الهارونى : أبو الحسن أحمد بن الحسين بن هارون (ت٤١١هـ/ ١٠٢٠م) : « كتاب فى نصرة مذاهب الزيدية » مخطوط بمعهد المخطوطات العربية رقم ١٥٦٧ علم الكلام،ميكروفيلم رقم(٢٢٥)٠

٦ ـ يحيى بن الحسين : يحيى بن الحسين بن المنصور بالله القاسم بن محمد (ت نحو ١١٠٠هـ) : « الطبقات الزهر فى أعيان العصر» ويعرف باسم طبقات الزيدية ، مخطوط مصور عن مخطوطة مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ٠

(ب) مصادر مطبوعة :

٧ - الأدريسى : أبو عبد الله محمد الشريف السبتى (ت حوالى ٥٤٨هـ/١١٥١م) : « صفة المغرب وأرض السودان والأندلس » من نزهة المشتاق ، تحقيق دوزى ، امستردام ١٩٦٩ .

٨ - الأصفهانى : أبو الفرج على بن الحسين بن محمد (ت ٣٥٦هـ/٩٦٧م) : « مقاتل الطالبيين » تحقيق السيد أحمد صقر ، القاهرة ١٩٤٩ .

٩ - ابن تغرى بردى : أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م) : « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » جـ١ ، جـ٢ ، القاهرة ، طبعة دار الكتب (بدون تاريخ) .

١٠ - ابن جبير : محمد بن أحمد الأندلسى (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) : «رحلة ابن جبير» ، دار الكتاب اللبنانى، بيروت (بدون تاريخ) .

١١ - ابن حجر العسقلانى : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨) : « تهذيب التهذيب » جـ٦ ، حيدر آباد - الدكن ، ١٣٢٦هـ .

١٢ - ابن حزم : أبو محمد بن على بن حزم الأندلسى الظاهرى (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٤م): « جمهرة أنساب العرب » ، القاهرة ١٩٧١ .

١٣ - الحميرى محمد عبد المنعم (ت٨٨٦هـ/١٤٦١م) : « كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار » ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، ١٩٨٠ .

١٤ - ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر » جـ٤ ، بيروت ١٩٨٣ .

١٥ - ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) : « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » ، جـ٣ ، جـ٤، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧١ .

١٦ ـ ابن دقماق : ابراهيم بن محمد المصرى (ت٨٠٩هـ) : « الانتصار بواسطة عقد الأمصار » ، جـ٤ ، بولاق ١٨٩٣ .

١٧ ـ الدينورى : أبو حنيفة أحمـــد بن داود (ت ٢٨٢هـ/٨٩٦م) : « الأخبار الطوال » ، تحقيق الدكتور عبد المنعم ماجد ، بغداد ١٩٥٩ .

١٨ ـ الذهبى : شمس الدين محمد بن احمد عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م): « تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام » جـ٥ ، جـ٦ ، مكتبة القدسى ، القاهرة ١٣٦٩هـ .

١٩ ـ السلاوى : الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى (ت١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م): « الاستقصاء لأخبار دول المغـــرب الأقصى » الدار البيضاء ١٩٥٤م .

٢٠ ـ الشهرستانى ، أبو الفتح محمـــد بن عبد الـــكريم (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) : «المللوالنحل» جـ١ ، تحقيق محمد بن فتحاللهبدران، مطبعة الأزهر ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م .

٢١ ـ ابن طباطبا : محمد بن على بن طباطب المعروف بابن القطقى(ت ٧٠٩هـ) : « الفخرى فى الآداب السلطانية ، والدول الاسلامية » القاهرة ١٩٦٢ .

٢٢ ـ الطبرى : أبو جعفر محمد بن جـــرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م) : « تاريخ الرسل والملوك » جـ٧ ، جـ٨ ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٤ .

٢٣ ـ ابن ظهيرة : ابو الطيب محب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن الحسين (٨٢٥ ـ ٨٨٥هـ) : « الفضـــائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة » تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس ، وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٦٩ .

٢٤ ـ القاسم الرسى : القاســـم بن ابراهيم بن اسماعيل (ت ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م) : « رسائل العدل والتوحيد » تحقيق محمد عمارة ، نشر دار الهلال ، القاهرة (بدونتاريخ) .

٢٥ ـ الكندى : أبو عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى (ت ٣٥٠هـ/ ٩٦١م) : « كتاب الولاة وكتاب القضاة » ، بيروت ١٩٠٨ .

٢٦ ـ المحلى : الحسن حسام الدين حميد بن أحمد (ت٦٥٢هـ/١٢٥٤م): « الحدائق الوردية فى مناقب الائمة الزيدية « صورة بالأوفست للمخطوطة الجزء الأول ، والثانى فى مجلد واحد ، دمشق ١٩٨٥ .

٢٧ ـ ابن المرتضى : أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠هـ/١٤٣٧م) : « طبقات المعتزلة » تحقيق سوسنة ديفيلد فلرز ، بيروت ١٩٦١ .

٢٨ ـ المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٦م) : « مروج الذهب ومعادن الجوهر » جـ٣ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، بيروت ١٩٨٢ .

٢٩ ـ المقريزى : تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) : « الخطط ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » جـ١ ، جـ٢ ، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة (بدون تاريخ) .

٣٠ ـ مؤلف مجهول : « كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار » نشر وتحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ .

٣١ ـ ابن النديم : أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب اسحاق المعروف بالوراق (ت٣٨٠هـ) : « الفهرست » تحقيق رضا تجدد ، طهران ١٣٩١هـ/١٩٧١م .

٣٢ ـ نشوان الحميرى : أبو سعيد (ت٥٧٣هـ/١١٧٧م) : الحور العين؛ تحقيق كمال مصطفى ، بيروت ١٩٨٥ .

٣٣ ـ الهمدانى : أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٢٤هـ/ ٩٤٥م) : « صفة جزيرة العرب » تحقيق محمد بن على الأكوع، بيروت ١٩٨٣ .

٣٤ ـ ياقوت الحموى : ياقوت بن عبد الله الرومى (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م): « معجم البلدان » جـ٨ ، بيروت ١٩٨٤ .

٣٥ - اليعقوبى : احمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت٢٨٤هـ/٨٩٧م) : « البلدان » ليدن ، ١٨٩٢م ٠

ثانيا : المراجع الحديثة :

١ - أحمد محمود صبحى : « الزيدية » ، (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٤) ٠

٢ - أين فؤاد سيد : « تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى » (الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٩٨٨) ٠

٣ - دائرة المعارف الاسلامية ٠

٤ - سعاد ماهر محمد : « مساجد مصر وأولياؤها الصالحون » جـ١ ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، القاهرة (بدون‌تاريخ) ٠

٥ - سيدة سماعيل كاشف : « مصر فى عصر الولاة » ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٨ ٠

٦ - عبد الله خورشيد البرى : « القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة » ، القاهرة ١٩٦٧ ٠

٧ - على محمد زيد : « معتزلة اليمن » ، بيروت ، ١٩٨١ ٠

٨ - محمدمحمد أبو زهرة : « الامام زيد » ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٩ ٠

٩ - محمد رمزى : « القاموس الجغرافى للبلاد المصرية » جـ١ ، جـ٤ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، (١٩٥٤ ، ١٩٦٣) ٠

١٠ - يوليوس فلهوزن : « تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية » نقله الى العربية الدكتور محمد عبدالهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٨ ٠

(1) Binyamin Abrahamov :

* "Al - Kasim Ibn Ibrahim's Argument From Desing". Oriens Journal of the International Society for Oriental Research, V. 29-30, Brill, 1986.

* "Al - Kasim Ibn Ibrahim's Theory of the Imamate".

Revue D'etudes Arabes, Tome XXXIV, Leiden, 1987.

(2) Encyclopaedia of Islam.

(3) Madelung (W.,) :

* "Der Imam Al - Qasim ibn Ibrahim die Glaubensiehre der Zaidited Berlin, 1965.

الفكر التاريخى عند تاج الدين السبكى

د٠ سـليمان الرحيلى(*)

ارتبط علم التاريخ ارتباطا واضحا بعلم الحديث فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة٠وتاثر التاريخ بالحديث وقتذاك من حيث المنهج ، وظهر كثير من أبوابه فى كتبه ٠ كذلك قامت عـــلاقة وثيقة بين التاريح وعلم الفقه فى القرون التالية ، وعقل الفقهاء دراسة الفكر التاريخى سياسة ، وحضارة ، وحتى نقدا ، بكثيرا من آرائهم القيمة،وجمع عدد منهم بين دراسة التاريخ والفقه اما ضمن مؤلفاتهم فى فقـــه المذاهـــب وطبقاتها والسياسة الشرعية ، أو مفردا بمؤلفات مســـتقلة كان للآراء والأحكام الفقهية أثر كبير فيها ٠

وقد وضح هذا التلازم بين الفقه والتاريخ منذ القرن الرابع ، اذ كان لفقهاء ذلك القرن آراؤهم فى سياسة الدولة وأقسام ادارتها وتقويم أعمالها والحكم أو الموقف منها ، ومن هؤلاء الماوردى فى المشرق وابن حزم فى الغرب(١) ٠

وهكذا حتى كان القرن السابع فتتابع ظهور عدد من الفقهاء الذين أولوا الفكر السياسى عنايتهم ، وكتبوا فى سياسة الدول وصـلاح ادارتها وما يحفظ قوتها أو يؤدى الى سقوطها ، مع التعليل لذلك وذكر العوامل المؤثرة فيه ، كما عنوا بحمـــل الواقع التاريخى على الجادة الشرعية والمصالح العامة ، وتحقيق مقاصـــدها فى أفعـــال الدول ومؤسساتها المخالفة ، وبين نتائج الاتباع ومحاسن الحـــرص على ذلك ، وعواقب المخالفة ومصائر الاستمرار فيها ٠ ومن أولئك العلماء ابن جماعة (ت ٧٣٣هـ) وتاج الدين السبكى ، والمالقى ، وابن خلدون (ت٨٠٨هـ) ٠وكان واحد من هؤلاء تولى القضاء فى حياته،وبذلك أثروا الفقه والتاريخ معا،

(*) أستاذ التاريخ والحضارة المشارك ـ جامعة الامام محمـــد بن ســـعود الاسلامية ـ الرياض ٠

وتركوا لنا فيهما ثروة نفيسة . والواقع أن التاريخ كان محظوظا بعناية هؤلاء . واذا كانت آراء ابن خلدون فى دراسة التاريخ وأحوال الحضارة أو ما أسماه هو العمران البشرى نالت الشهرة وجذبت الاهتمام فى العصر الحديث ، فان آراء الآخرين جديرة أيضا بالدراسة،وتستحق المزيد من عناية المؤرخين ، وعلى رأس أولئك تاج الدين السبكى .

تاج الدين السبكى :

هو أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى السبكى ، ولد بالقاهرة سنة ٧٢٨هـ . ونشأ فى بيت علم ورياسة فى دولة سلاطين المماليك،فأبوه تقى الدين على السبكى ولى منصب قاضى القضاة فى بلاد الشام لمدة طويلة(٢) .

أما هو فقد أحسن والده توجيهه وظهرت عليه علامات الذكاء والنجابة ، فحفظ القرآن وكثيرا من علوم الحديث والفقه والعربية ، وتتلمذ على يد مشاهير علماء الاسلام فى بلاد الشام ، حتى انه كان يتلقى عن الامام الذهبى مرتين فى اليوم ، وعن المزى (ت٧٤٢هـ) مرتين فى الأسبوع . ولم يلبث الذهبى أن عده فى الطبقة العليا بين طلاب العلم وقتذاك ، ووصفه لوالده بأنه محدث جيد(٣) . وهكذا كان ، فقد تولى الافتاء وهو فى سن العشرين ، وتولى التدريس والخطابة فى الجامع الأموى فى دمشق ، بالاضافة الى وظائف أخرى ، حتى اذا ما ضعف والده ، وترك وظيفته ورحل الى مصر تولى ابنه تاج الدين منصبه وهو قاضى القضاة فى بلاد الشام سنة ٧٥٦م فى سلطنة الناصر محمد المملوكى الثانية . واستمر فيه حتى وفاته سنة٧٧١هـ عن عمر قليل لم يتجاوز الأربعة والأربعين عاما(٤) ، قضاها بين طلب العلم وولاية القضاء . وكان طوالها مثال العالم العامل الذى يحاول الاصلاح جهده ، دون أن تأخذه رهبة وال أو لومة لائم . ولهذا لم تخل حياته من حسد أو كيد له ممن ينافسونه الفضل ، أو يخافون نقده ومخالفة هواهم ، وعلى رأسهم نائب الشام وقتذاك الذى أمر بعزله عن منصبه سنة ٧٦٩هـ. لكنه لم يلبث أن أعيد اليه بعد قليل .

وقد عاصر عددا من المؤرخين منهم شيخه الذهبى ، وابن فضل الله العمرى (ت٧٤٩هـ) وخليل بن أيبك الصفدى (ت٧٦٤هـ) وابن خلدون (ت٨٠٨هـ) .

وله عدد من المؤلفات منها : جمع الجوامع فى أصول الفقه ، الأشباه والنظائر الفقهية ، وتكملة شرح منهاج القاضى البيضاوى ، وطبقات الشافعية الكبرى ، وكتاب معيد النعم ومبيد النقم . وقد اشتمل الكتابان الأخيران على فكره التاريخى وآرائه الاصلاحية ، اذ ضمن كتاب الطبقات قاعدة جليلة سماها قاعدة فى المؤرخين(٥) . كما ضمنه ذكر بعض أحداث الغزو المغولى للعالم الاسلامى على يد جنكيز خان وهولاكو وفظائع جرمه ، وهول صدمته(٦) . وقد أوجز فيها اكتفاء بما أفرد من المصنفات فى أخبارها(٧) ؛ واعتمد على ابن الأثير فى كتابه الكامل فى الغالب(٨) ، وكان منهجه فى ذكرها لا يختلف عنه كثيرا . أما آراؤه الأخرى فيهم فقد جاءت بايجاز فى كتابه معيد النعم . وقد ضمن هذا الكتاب كثيرا من آرائه فى الأحوال الادارية والاجتماعية ومدارها والغاية منها بعدا أو قربا من منهاج الشرع الحكيم فيها ، وتحقيق الصالح العام منها ، ومراعاة ما يبقيها ، واجتناب عوامل زوالها ، كالأغراض والقصور والفساد من قبل القائمين عليها . وهى آراء ومواقف عديدة لتاج الدين السبكى لا ينقصها روح العالم ، وسعة الاطلاع ، وخبر أحوال المجتمع ، ومعرفة أوضاع مؤسساته،ومخالطة موظفيه ومعايشة عامته ، كما سيأتى.

ولم تقتصر آراؤه على وصف الوظائف والمهن فى عصره ، وانما اشتملت على تنظيم واصلاح لها ، يصلح لها فى كل وقت أو مكان فى المجتمع ، فضلا عن افادتها فى معرفة تاريخ مسمياتها ، ومجال أعمالها خلال عصر المماليك وما أخذوه فى ميدانه عن غيرهم ، أو أثروا به فيما تلا عهدهم من عصور،حتى أن بعضها ظل باقيا حتى العصر الحاضر(٩).

وتتلخص موارد تاج الدين السبكى فى فكره فى تلقيه عن عدد من العلماء الأعلام ، مثل المزى (ت٧٤٢هـ) ، والذهبى (ت٧٤٨هـ) ، ووالد تاج الدين تقى الدين السبكى (ت٧٥٦هـ) . وكلهم من العلماء الذين

أثروا عصرهم بالعديد من المؤلفات والآراء وحلقات الدرس ٠ وكان لكل منهم أيضا عناية بالتاريخ وأحوال الواقع المعاصر لهم وتولى أعماله مثل القضاء والتدريس ، فتأثر بهم تاج الدين السبكى وعنى بعـــلوم التاريخ والاصلاح المبتغى للحياة ، ولا سيما ما يرتبط بعصره الذى عاش فيه وهو العصر المملوكى ، وقد ساعده فى لك ثلاثة أمور **هى :**

الأول : تبحره فى علم الفقه وأبوابه مما جعله يجيد مظاهر الحياة الاجتماعية ورصد الواقع التاريخى لها ، وبيان الحكم أو ما ينبغى ان يكون الحال عليه ٠

الثانى نبوغه فى أصول الفقه والتأليف فيه مما جعل منهجه فى آرائه واضح الترتيب قوى الحجة فى ايراده والاقناع به ٠ وكذلك سهولة ذكر القواعد والأصول للوظائف والأعمال وتحديد الأصلح فى وسائلها وأهدافها ٠

أما الثالث : فهو خبرته فى أعمال الدولة وتوليه وظيفة القضـاء والتدريس لمدة طويلة مما أتاح له معايشة مختلف فئات المجتمع ، فخبر أحوالهم عن قرب مما أثرى آراءه وجعلها أكثر قبولا ، وتدل فى الغالب على أنها صادرة عن عالم قرن العلم بالعمل ٠

أما الفكر التاريخى عند تاج الدين السبكى فينقسم الى قسمين :

أحدهما : فكر منهجى يختص بالشروط اللازمة للمؤرخ وآرائه فى المؤرخين ومؤلفاته ٠ وبالذات كتابه تراجم الأعلام والسير والطبقات ٠

والثانى : فكر يتعلق بالاصـلاح الادارى والاقتصـــادى والتعليمى والاجتماعى ، وابداء الرأى فى أحوال الدولة وأخبارها وما ينبغى أن تكون عليه أعمال ادارتها ووظائفها المختلفة ، ولاسيما ما كان قائما منها فى عصره ، حتى أن أحد الباحثين قرن آراءه الاصلاحية بآراء الشيخ محمد عبده فى تاريخ مصر الحديث(١٠) ٠

وسوف نتناول فى هذا البحث آراءه فى كـــل مجال بالدراســة والتحليل والتفصيل ، ما أمكن ٠

أولا ـ الفكر المنهجى :

كان لتاج الدين السبكى ميل كبير لدراسة التاريخ وولع بين بتاريخ السير والأعلام منه٠ ويندرج كتابه الضخم طبقات الشافعية الكبرى تحت هذا الفن من فروع التاريخ ٠ وقد أوفى فيه وأحكم ، وتعهده منذ صباه بالاهتمام ٠ فلما نضج علمه واتسعت تجربته اخرجه بالتمام والاتقان ، بما يفيد الفقيه والأديب والمؤرخ(١١)، فيجد فيه (تراجم يعز على المنقب وجدانها) ، ووصفه فى مقدمته بأنه كتاب تاريخ ، حتى ضمن مقدمته وصفا موجزا لأحداث الغزو المغولى الذى هز العالم الاسلامى ابان القرن السابع(١٢) ٠

وقد قرر أن الصفات الواجب توافرها فى المؤرخ مثل الصدق والعدالة والبعد عن الهوى هى مما يشترط فى بعض الوظائف المهمة الأخرى فى الدولة مثل الامامة والقضاء ، بالاضافة الى صفات أخرى يقتضيها كل مجال ويتطلبها دون آخر ٠

وقد أورد تاج الدين السبكى كثيرا من آرائه التاريخية من خلال التعليق والاضافة على موجز نفيس لوالده تقى الدين فى المؤرخين فى كتابه ـ أى تاج الدين ـ الطبقات الكبرى ، فضلا عن آرائه الأخرى فيهم فى كتابه القيم ، معيد النعم ومبيد النقم ٠ أما آراء تقى الدين السبكى التاريخية فقد وصلتنا عن طريقين :

أحدهما : ابنه تاج الدين السبكى ، وقد نص على ذلك أكثر من مرة فقال : « فالرأى عندنا أن لا يقبل مدح وذم من المؤرخين الا بما اشترطه امام الأمة ، وهو الشيخ الامام الوالد رحمه الله ، حيث قال ونقلته من خطه فى مجاميعه»(١٣) ٠

ويقول تاج الدين : « وذكر أن كتابته لهذه الشروط ـ أى كتابة والده تقى الدين السبكى لها ـ كانت بعد أن وقف على كلام ابن معين فى الشافعى ... » الخ(١٤) ٠

وعنونها تاج الدين السبكى بعنوان : قاعدة فى المؤرخين ، على

غرار قاعدة أخرى كتبها فى الجرح والتعديل وسبقها بها ، وأضاف اليها بعض آرائه التى كانت فى الغالب تقريضا وشرحا لآراء أبيه كما سيأتى .

الثانى : عن طريق خليل بن أيبك الصفدى فى مؤلفه الكبير : الوافى بالوفيات؛قال :«نقلت من خط الامام العلامة الحجة شيخ الاسلام قاضى القضاة تقى الدين ابى الحسـن على بن عبد الكافى السـبكى الشافعى ما صورته »(١٥) ثم أورد آراءه وشروطه فى المؤرخ . كما عد المؤرخين من العلماء مثلهم مثل المفسرين والفقهاء والأصوليين والنحويين من حيث حاجة الأمة لهم ، وخطورة فساد وظيفتهم أسوة بفسـاد اى من وظائف العلماء الآخرين(١٦) .

ونظرا لأن تاج الدين السـبكى وضع عنـوانا لشروط والده فى المؤرخين سماه (قاعدة فى المؤرخين) ثم شرحها وفسر بعض مقاصدها، واوردها فى سـياق قاعدة أخرى فى الجرح والتعديل ، فان هذا أوحى بانها له ليست لوالده لأن آراء تاج الدين فى المؤرخين لم تكن مجرد نقل لآراء والده فيهم أو تعليقا عليها ، وانما تبن لها ومنـاداة بها . حتى نسبت له كثيرا(١٧) ، بينما صلب تلك القواعد هى لوالده تقى الدين . ولهذا فان خليل بن أيبك الصفدى أوردها بنصها منسوبة الى تقى الدين السبكى ولم يشر الى آراء ابنه أو شىء من جهده البتة(١٨) . بينما أورد السخاوى (ت٩١١هـ) شواهد من آراء الاثنين(١٩) .

ومن باب الانصاف ينبغى أن يشار الى آراء كل منهما فى مناسباتها. وعندما ينسب بعضها هنا الى تاج الدين ويضاف الى آرائه فهو من باب التغليب ، لا سيما أنها عرفت كثيرا من خلال كتاب الطبقات فضلا عن شهرة اهتمام الابن بالتاريخ أكثر .

أما **شروط المؤرخ عند تاج الدين** نقلا عن والده تقى الدين السبكى فهى تنقسم الى مجموعتين :

● **الأولى** فى المنقول‌عنه وتشمل عدة شروط هى :أولاالصدق(٢٠) ، وهى صفة مهمة ولازمة من لوازم المؤرخ ، وهى مايعبر عنه بالعـدالة والضبط التام(٢١) .

ثانيا : أن يعتمد المؤرخ اللفظ دون المعنى فيما ينقله ، وهذا بالنسبة للنصوص فى الأقوال ، لأن التعبير عنها بالمعنى قد يؤدى الى اتلاف فى الحكم المترتب عليها بين لفظ القائل وعبارة الناقل . أما ماعــدا ذلك فاشتراطه نقل اللفظ دون المعنى هو أحد مظاهر الأمانة العلميــة التى ينبغى أن يتحلى بها الراوى وما فى حكمه من وسائل ، فيكون بذلك قد أدى ما تلقاه أو سمعه أو شاهده كما حــدث بالضبط ، ويترك للمؤرخين وغيرهم مهمة التفسير والتعليل والاستقراء . ولهذا اشترط فيما يكتبه هؤلاء من انفسهم المعرفة بدلالات الألفاظ وقرن ابنه تاج الدين بقوة بينها وبين العلم(٢٢) ، وهو مما يلزم المؤرخ حتى يتمــيز عن الراوى أو الاخبارى او حتى الوكالة فى العصر الحديث .

ثالثا : عدم الانقطاع بين وقت الخبر وتدوينه ، فالمعاصرة للحدث او المترجم له او القرب منه تعطى الكتابة التاريخية قيمة أكبر .

رابعا : النص على المصدر المنقول عنه وتسميته من أخذ عنهم اذا كانوا رواة(٢٣) . ولا يجزم الا بما يتحققه سندا ومتنا اذ ينبغى على المؤرخ ألا يكتفى بنقل الشائع لمجرد شيوعه دون ترو وتحر ، فان ذلك فضلا عن أنه اثم ومفسدة فانه يحط عمله وينفر منهالعقلاء والعلماء(٢٤).

● **أما المجموعة الثانية من شروط المؤرخ عند تاج الدين :** فهى شروطه فيما يكتبه المؤرخ بنفسه ولا سيما فى باب التراجم والسير ، ومنها أن يكون المؤرخ عارفا بحال المترجم له علما ودينا ، ويقتضى هذا أن يكون فى منزلة المترجم فى الناحية العلمية أو قريبا منها . والأفضل أن يكون مشاركا له فى التخصص ، وهذا شرط مهم ، وقد وصفه هو بأنه عزيز جدا . ذلك أن المؤرخ عندما يعايش الحدث أو يكون فى منزلة من يترجم له ملازما له ، تتاح له معرفته عن قرب ويستطيع أن يقومه اكثر من غيره(٢٥) .

واتبع السبكى هذا الشرط بشرط آخر فى المؤرخ لا يقل أهمية عن الشرط السابق ، هو حسن التصور للمكتوب عنه ، فيصور حاله كما هو بالضبط دون زيادة أو نقصان ، فتصور الشىء فرع عنه(٢٦) .

وعندما أورد خليل بن أيبك الصفدى شروط تقى الدين السبكى، عقب عليها بقوله : « هذه الشروط تلزم الذى يعمل تاريخا على التراجم ، أما من يعمل تاريخا على الحوادث فلا يشترط فيه ذلك ؛ لأنه ناقل الوقائع التى يتفق حدوثها فيشترط فيه أن يكون مثبتا ، عارفا بمدلولات الألفاظ، حسن التصور جيد العبارة »(٢٧) .

ورأى الصفدى هنا يظهر أنه تعليق على شرط المعرفة بحال صاحب الترجمة وحسن تصور حاله ، حتى يمكن قبـــوله . أما بقية الشروط كالصدق والعدالة والثقة فى المصدر أو غيره فهى شروط لازمة فى المنهج التاريخى سواء كان المكتوب به تراجم أو حوادث تاريخية .

وقد حث بدر الدين العينى ـ وهو أحد أعلام المؤرخين فى القرن التاسع الهجرى ـ على هذا النوع من الكتابة ووصـــف ما يكتب المؤرخ بنفسه عن مشاهدة وعيان بأنه مطلب حسن ، وأمر محظوظ عليه ، وأنه لا يوازيه الا النقل عن الثقات بالنسبة لما مضى(٢٨) .

ولما كان الهوى آفة من آفات الكتابة التاريخية ، فقد نص تقى الدين السبكى على شرط التجرد من الهوى فيها حتى لا يتعصب أو يمدح من يشاء ، ويهمل أو يذم آخر ، فيطنب فى الأول ويوجز أو يترك الثانى ، أو يطنب فى عيوب المذموم ، ويقصر فى مدحه ، أو يطنب فى مـــدح آخر ويوجز أو يغفل عيوبه . ومثل ذلك التعصب والهوى يكون للمذهب أو الأقليم أو المدينة أو الدولة ، مما لا تخفى شـــــواهده وآثاره فى بعض المؤلفات التاريخية .

ومن الواضح أن ما حذر منه تقى الدين السبكى وقع فيـــه بعض المؤرخين ، وعلى سبيل المثال فقد حابى اليعقوبى الشيعة فى تاريخه، ومالأ ابن طيفور البغدادى الدولة العباسية ، وتعصب أبو المطهر المقدسى فى كتابه البدء والتاريخ لمذهب المعتزلة .

كذلك نص تاج الدين السبكى على أن أداة التجــــرد من الهـــوى والتعصب هو التزام العدل والانصاف وابتغاء الحقيقة(٢٩) .

وشرط الصدق وذكر الحقيقة فى الحادثة التاريخية ؛ والبعد عن الهوى والعاطفة عند تاج الدين السبكى يجعل المنهج التاريخى يقف فى مصاف مناهج العلوم الأخرى سواء كانت شرعية مثل الحديث - كما سبقت الاشارة اليه - أو تجريبية مثل العلوم والطب ، منذ أن قرر الحسن ابن الهيثم (ت٤١١هـ) أن غرض الباحث فى جميع ما يستقرؤه ويرصده هو العدل وطلب الحق لا اتباع الهوى او الميل مع الآراء(٣٠) . فهو يتمشى مع الغاية والاهداف التى تؤدى لها مناهج العلوم عند المسلمين ويسعى لها الباحث المنصف فى التاريخ وغيره .

فاذا التزم المؤرخ بكل ذلك فيما ينقل منـــه ، أو يكتب عنه ، او يترجم له ، فان ذلك يحتاج الى أداة ناجعة ووسيلة مفيدة فى ايصـــاله للقارىء ، فكم من كاتب اعياه أسلوبه فى ايصال مراده ، وكم من جهد أضاعه سوء الاسلوب و'ستغلاق العبارة ، ولهذا يلزم المؤرخ أن يكون حسن العبارة مجيدا لدلالات الألفاظ(٣١) .

وكان أكثر المتلقين لآراء تقى الدين السبكى وشرحها ابنه تاج الدين. ويعود هذا لقربه من والده وتاثره بثقافته ، ثم الى اهتمام تاج الدين نفسه بالتاريخ.فكتابه الطبقات كتاب تراجم وسير اعلام ، كما ضمن كتابه معيد النعم صورا من النقد التاريخى ، اذ عاب فيه المؤرخين وعـــــدهم من الطبقات التى يحتاج عملهم الى تقويم ووصفهم بانهم « على شفا جرف هار لانهم يتسلطون على أعراض الناس وربما نقلوا مجرد ما يبلغهم من صادق أو كاذب »(٣٢) .

ثم بعد ذلك يوضح فيما ينبغى أن يكون عليه المؤرخون - مثلهم مثل الطبقات الأخرى فى ايضاح المنهج السوى لها - فقال : « لابد أن يكون المؤرخ عالما عدلا عارفا بحال من يترجمه ليس بينه وبينه من الصداقة ما قد يحمله على التعصب له ، ولا من العداوة ماقد يحمله على الغض منه »(٣٣) .

ومن ألطف تعليقات تاج الدين السبكى على آراء والده أن الكتابة

التاريخية أمانة علمية خاضعة لناموس الثواب والعقاب ، فان حاد المؤرخ عن الحق مبالغة أو غمطا أو مدحا أو قدحا ، فانه يكون قد خان الأمانة ونال ما يستحقه من العقوبة العاجلة والآجلة ، والعكس صحيح(٣٤) .

ذلك أن الكتابة على عمومها مثلها مثل الأعمال الأخرى من حيث الأثر فى الفرد والمجتمع ، ومن ثم ضرورة توخيها للصواب من عدمه .

ولهذا لم يخف تاج الدين السبكى انتقاده للمؤرخين ، ووجد فى ايراد شروط والده فيهم فرصة مناسبة . فقال عنهم : « ان أهل التاريخ ربما وضعوا من أناس ، ورفعوا أناسا ، اما لتعصب أو لجهل أو لمجرد اعتماد على نقل من لا يوثق به ، أو لغير ذلك من الأسباب »(٣٥) .

وفى ضوء هذه الاعتبارات، وجه نقدا لادعا لتاريخ الذهبى، ووصفه بأنه مشحون بالتعصب ، وهو آفة قل أن يخلو منها تاريخ فى رأيه . وربما جاء بهذا ليخفف من نقده للذهبى ، والا فكثير من المؤلفات التاريخية تخلو أو يندر فيها التعصب مثل تاريخ الطبرى والكامل لابن الأثير وغيرهما كثير . وهذا يضطرد مع قوله بأن لا يقبل مدح أو ذم من المؤرخين الا بالشروط المذكورة من قبل .

ولم يحدد تاج الدين السبكى ان كان نقده يشمل كل المؤرخين أو خاصا بمؤرخى عصره ، ولكن ما ذكره فى صورة مثال عن تاريخ الذهبى يجعل ذلك أقرب الى مؤرخى زمانه .

وعلى أية حال فالجميع عنده أكثر جهلا وتعصبا من أهل الجرح والتعديل . لكن قبل التسليم بذلك ، فان المقارنة بين المؤرخين وأهل الجرح والتعديل فيها نظر من حيث الشروط المطلوبة فى كل منهم ومجال علمه . وقد تساهل السلف من قبل فى شروط المؤرخ ومنزلة روايته وفرقوا بين راوى الحديث وراوى التاريخ من حيث درجة العدالة والضبط .

وعاب ابن خلدون المؤرخين ، وذكر أن المؤرخين الحقيقيين - بميزانه - لا يتجاوزون الأنامل ، وأما ما عداهم فهو (بليد الطبع

والعقل)(٣٦)؛ واتهمهم بأنهم أساءوا للتاريخ حتى صار على أيديهم واهيا ومختلطا وأصبح بحثه وانتحاله مجهلة(٣٧) ٠

ولا شك فى أن مؤلف السخاوى ـ (الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) ـ جاء ردا على بعض من قلل من أهمية دراسة التاريخ ومعرفة فوائده وعلاقته بمختلف المجالات والرفع من شأن أهل الاختصاص فيه ٠

ومن يتتبع شدة تاج الدين السبكى وابن خلدون على المؤرخين ويمعن النظر فى فقرات كتاب الاعلان ، يدرك أن السخاوى تتبع التهم الموجهة للمؤرخين وقتذاك والرد عليها ، ولهذا جاء عى مقدمته أن اسم كتابه : الاعلان بالتوبيح لمن ذم أهل التاريخ ٠

وأخيرا تتضح منزلة آراء تاج الدين السبكى وأهميتها من خلال مقارنتها بآراء بعض معاصريه من المؤرخين ، ومنهم خليل بن أيبك الصفدى (ت٧٦٤هـ) ، فقد تحدث فى علم التاريخ وفائدته فى مقدمة كتابه الكبير الوافى بالوفيات ٠ وذكر أول من صنف فيه فى الاسلام ، ثم مدد تواريخ الأمم من عرب وقبط ونحوهم ، ثم أصل كلمة تاريخ وكيفية كتابة التاريخ بالسنوات والأيام كقولهم لتسع بقين من المحرم وخمس عشرة ليلة خلت(٣٨) ٠ ومعرفة كيفية نسبة الأعلام الى القبائل والأماكن والبلدان ، وبعض ما يحتاجه المؤرخ من صور الاملاء ثم معرفة الطريقة الحولية فى كتابة التاريخ والترتيب الهجائى فى تاريخ الأعلام ٠

ثم ذكر مجموعات من المؤلفات التاريخية وفق الأقاليم وأخرى من التواريخ العامة ، وثالثة من تواريخ الموضوعات كتواريخ الخلفاء والملوك والوزراء والقضاة والعلماء والشعراء والأطباء(٣٩) ٠

ومن خلال ذلك يتضح الفارق الكبير بين آراء تاج الدين السبكى وشروطه فى المؤرخ ، وبين مادونه خليل بن أيبك الصفدى فيما يلزم المؤرخ ٠ فما ذكره الأول هى صفات ينبغى أن يتحلى بها المؤرخ فى كل حال زمان ، فصفة العدل أو الصدق وذكر الحقائق والوقائع هى صفات لازمة لأى مؤرخ فى أى عصر كان ٠

أما ذكره الثانى فهى فوائد مما يلزم المؤرخ معرفته أى صفات فنية ودربة مهنية تساعد المؤرخ فى سبك معلوماته ، منها ما يثريها ومنهـــا ما يظهرها فى صياغة لغوية صحيحة • وهى من باب الادوات والوسائل المهمة للمؤرخ فى كتابته للتاريخ ثم انها قابلة لأن يستزيد منها ، واجاد ما يستجد منها فى كل عصر •

كذلك فان الاولى تنبىء عن صدورها عن عالم يهتم بالمبادىء وادب التاريخ الذى ينبغى ان يحـــكم المؤرخ وأن يتحلى بمعطياته باعتباره مؤتمنا على رسالته فى هذا المجال من العلوم • أما الثانية فهى صادرة عن كاتب كان له مقامه وشانه فى ديوان الانشاء ، ولهذا جاء أثر عمله وخبرته فى بابه واضحا فى الفصول التى صدر به كتابه الوافى بالوفيات فى قواعد الكتابة الاخرى أو مما تختص به عن غيرها مما يعرض للمؤرخ كثيرا اثناء كتابة وتدوين التاريخ •

اما ابن خلدون فان الأسباب المؤدية الى الكذب فى الأخبار وتزيين التاريخ عنده هى التشيع للآراء والمذاهب والثقة فى الرواة دون تعديلهم، ومجاراة أهل التجلة والمراتب والدعاية لهم أو لدولهم • وسببها الحقيقى فقدان المؤرخ للشروط التى يجب أن يتحلى بها ، والتى ذكرها تاج الدين السبكى من قبل ببلاغة وايجاز ، مثل الصدق والعدالة والضبط فيه أو فى روايته ، وعدم الميل للهوى أنى كانت عوامـــله • فالاثنان متفقان فى النتيجة أو الفائدة التى ينبغى أن يعيها المؤرخ نحو الاخبار والأحداث ، والقارىء فى الحكم أو الموقف من جهده أو كتابته فى مطابقته للواقع صدقا أو مخالفته له كذبا وما يترتب على كل وجه من نتائج •

وعلى الرغم من ان تاج الدين السبكى أوجز فى شروط المؤرخ وذكر صفات من يخالفها ، فان ابن خلدون فصـــل وعلل لذلك اكثر بما فيـــه الكفاية وحقق الغاية ، فيما ينبغى أن يكون عليه المنهج التاريخى •ويعود الاختلاف بينهما حول التفصيل والايجاز فى هذا المجال الى أمرين :

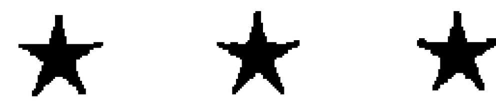
أولهما : المقام الى وردت فيه تلك الآراء ، فتاج الدين السبكى وان

جاءت عنده قصدا لكنها وردت فى عـــرض كتـــاب فى طبقات المذهب الشافعى فحيز التفصيل فيها ضيق وفقا لهذا الاعتبار .

ثانيهما : يعود الى ميل ومجال علم كل منهما . فالتاج يميل اكثر الى الفقه وبيان الشروط والأحكام ، وابن خلدون يميل الى التاريخ اكثر وبيان أحوال العصور والدول والاسباب فى وقوع الحوادث والافادة منها. واذا كان السخاوى ذكـــر بوضـــوح اراء تاج الدين السبكى ونقده لاراء والده(٤٠) فان ابن خلدون الذى ادرك تاج الدين السبكى لم يشر الى شىء من شروطه فى المؤرخين على الرغم من مجيئه بعـــد ظهور كتب تاج الدين السبكى .

وعلى العموم فان الفكر التاريخى عند تاج الين السبكى يشبه فى بعض الوجوه الفكر التاريخى عند ابن خلدون من حيث ضوابط دراسة التاريخ ، وقواعد النقد فيه ، وأحوال العمـــران والاجتماع البشرى . والعوامل المؤدية الى قوة الدولة وصلاح مؤسساتها أو ســـقوطها وضعف ادارتها ، وما ينبغى أن تكون عليه الوظائف والحرف والصنائع فيها . لاسيما أن كلا منهما نفيه وله ولع بدراسة التاريخ والعيش فى عصر واحد الا أن الاخير أكثر شهرة تاريخية بدون شك .

ولا معنى لأن يتجاهل روزنتال جهـود تاج الدين السبكى واراءه حول التاريخ وشروطه فىالمؤرخعندما كتب فىعلم التاريخ عند المسلمين.



ثانيا ـ الفـكر الاصلاحى :

عنى العلماء المسلمون بالاصلاح السياسى والاقتصادى والاجتماعى كثيرا خلال القرنين السادس والسابع . وكان المجال السياسى ابرزها وضوحا ، فقد حدد الشيزرى (ت٥٨٩هـ) الأسس التى تقوم عليها الدولة بأنها تتمثل فى الوزارة والرعية والقوة والمال . ووصفها بأنها فيها بمثابة الأركان للبناء(٤١) ؛ حتى ذكر ما يحفظ على الحكام صـــحتهم ويدرا عنهم مكائد الأعداء وغوائل الأصحاب(٤٢) .

ووصف سبط بن الجوزى (ت٦٥٤هـ) كتابه بأنه الجليس الصالح والانيس الناصح للحاكم وكبار رجال دولته ، وما ينبغى لهم من السيرة وادارة الأمور او استعماله من الرجال الأكفاء . والى جانب هذا فهو يزودنا بمعلومات قيمة عن طبقات المجتمع فى عصره(٤٣) .

وكانت مؤلفاتهم تختلف عن مفاهيم الوعظ وذكر المحاسن التى تضمنتها كتب مرايا الحكام والأمراء مثل كتاب التاج للجاحظ من قبل أو حتى كتاب المنهج المسلوك فى سياسة الملوك الذى ألفه عبد الرحمن بن عبد الله فى القرن السادس للملك الناصر صلاح الدين .

على أن الأرجح أن تاج الدين السبكى اعتمد أكثر على مؤلفات وآراء علماء القرن الثامن سواء الذين عاصروه ، أو عاشوا قبله بقليل ؛ وعلى رأسهم ابن تيميه (ت٧٢٨هـ) الذى قرر قاعدة المحافظة على الدين وعدم مخالفة الوظائف والأعمال لقواعده وأحكامه ، وعد ذلك من أهدافها ووظائفها الكبرى فى كتابه المهم السياسة الشرعية(٤٤) ، وهو المبدا الذى نادى به تاج الدين السبكى ، وبنى عليه كثيرا من فكره الاصلاحى. كذلك فصل كثيرا فى أعمال الوظائف الكثيرة التى أوردها ابن تيمية سردا(٤٥) ، وعد كل منهما أن ولاية القضاء بحق من أفضل القربات(٤٦) .

ويبدو أن السبكى تابعه - فيما نرجح - فى الحديث بايجاز عن الغزو المغولى وهول وقعه ، وفظائع صنيعه فى العالم الاسلامى وقتذاك.

كذلك تتضح أهمية كتابه وأختلاف مفهومه والارتقاء بموضوعه من خلال مقارنته بمؤلف ابن رضوان المالقى (ت٧٨٣هـ) الذى أسماه الشهب اللامعة فى السياسة النافعة ، وتحدث فيه باسهاب عن الخلافة والوزارة والشورى والعدل والجهاد والبريد وغيرها(٤٧) مما كان دارجا عليه منهج هذا النوع من المؤلفات .

وثمة فرق بين فى المقصد والدافع فى ايضاح هذه الآراء والتأليف، بين تاج الدين السبكى وبين ابن رضوان المالقى فقد قصد الأول النقد

والاصلاح وعلاج الواقع من تلقاء نفسه ، بينما جاء تاليف الثانى بناء على تكليف أحد سلاطين بنى مرين له(٤٨) للافادة مما يذكره أو يشير به عليه ، ولا يخفى أثر وقوة وحتى استقلال آراء كل منهما تبعا لاختلاف الدوافع .

وقد اولى تاج الدين السبكى صلاح أرباب الوظائف الكبرى فى الدولة اهتماما كبيرا ، اذ ابتدأ بهم ، وقدمهم على غيرهم من حيث الأثر والمنزلة والقدوة بهم عندما يؤدون وظائفهم كما ينبغى أو عكس ذلك ، وقسمهم الى فئات وفقا للمعهود من وظائفهم فى عصره . ونص على ماينبغى أن تكون عليهكل طبقة تبعا لمسئوليتها وخطرها فى المجتمع .

ولما كانت مقاصد الأعمال الحقة هى خدمة الصالح العام ، وتحقيق مقاصد الشرع منه فانه يرى أن صاحب أى وظيفة ينبغى ألا ينشغل بمصالحه أو يوجه تلك الوظيفة لتحقيقها ، أو يسخر من يعاونه فيها لخدمتها .

ولهذا جاء نقده وتقويمه لأوضاع عصره تاما من جميع الجوانب والمستويات . ذلك أنه نقد الوضع السياسى وأصحاب وظائفه ، والوضع الاقتصادى وتقويم وظائفه المالية ، والجوانب الاجتماعية وضرورة استقامة أدائها وجودة انتاجها . وبهذا شمل نقده السلم الاجتماعى من أعلى وظيفة فيه الى أدنى أخرى فى قاعدته ، فى مفهوم متكامل الغاية لاصلاح المجتمع ومؤسساته ، لكى تدوم عليه النعمة وتستديم .

أما عندما يعم الفساد والقصور بعض مؤسساته ، فالبناء والهدم لا يجتمعان ، وذلك مما يزيل النعمة ويوجب النقمة .

وقد صاغ تاج الدين السبكى عنوان كتابه معيد النعم ومبيد النقم بعناية تنبى عن مقصدد فى المنهج الذى ينبغى أن تسير عليه الأوضاع فى المجتمع فى ضوء حفظ كل ما يفيدد فى مختلف المجالات ويذهب الفساد والقصور بمختلف ألوانه ، وهو المعنى أو المبدأ نفسه الذى قصده امام الحرمين الجوينى عندما سمى أحد كتبه غياث الأمم فى التياث الظلم .

وفيما يلى نقده وتقويمه لبعض جوانب عصره :

اولا - السلطة العليا :

وتشمل وظائفها السلطان ونوابه والوزراء والقواد وكاتب السر وصاحب الرسائل وصاحب بيت المال ومأمور الاقطاعات وصاحب البريد ٠

وكانت هذه الأعمال من أخطر الوظائف خلال العصور الاسلامية ، وكان لصلاحها أو فسادها أثر كبير فى كيان الدول ٠ وعلى الرغم من أن السبكى عنى منها بما كان قائما فى دولة المماليك التى عاش فيها ، بدليل استخدامه لمسمياتها المعروفة وقتذاك ، مثل الدوادار والخازندار ، فانه يحاول أن يقدم ما يساعد على اصلاحها وذكر ما ينبغى أن تكون عليه . ونقد المخالف منها لذلك ٠ وضرب الأمثلة على استقامة أحوالها أو فسادها مما يبقى النعمة وآثارها على متوليها ومجتمعهم أو يبيدها ٠

والحكم عند تاج الدين السبكى من وظائف الوالى العام أو السلطان، وقد لخص وظائفه فى تجنيد الجنود واعداد الجيوش ، واقامة فرض الجهاد ضد الأعداء(٤٩) ٠ وكذلك اقامة الصلوات وعمارة المساجد ٠ وقد عاب على بعض سلاطين عصره الاكثار من ذلك فى الوقت الذى تقاعس فيه عن عمارتها بالجمع والجماعات ؛ أو أنهم تسموا بها ليقال هذا جامع فلان ونحوه ، بينما هى عمرت من أموال الرعايا(٥٠) ٠

وقد أوجز تاج الدين السبكى فيها اكتفاء بما أورده العلماء عنها من قبله ، مثله الماوردى والفراء والغزالى وابن الجوزى كما مر من قبل ٠ وأشار هو بوضوح الى ذلك عندما ذكر أن الفقهاء أكثروا الحديث فيها ٠ ووصف عمله فيها بأنه بحث مختصر(٥١) ٠

وهذا اختصار ، يقابله تفصيل فى مهام الوظائف الأخرى فى المجتمع ٠

ومن هذه الوظائف أنه ركز بوضوح على وظائف الحكم المحيطة بالسلطان ، فهو يعزو عوامل بقائه ونجاحه وقوته أو ضعفه وزواله الى

خلاص أصحاب تلك الوظائف المساندة له فى كل حين من عدمه ؛ فقد حذر النواب من الاستبداد دونه والحجاب ، أو الدوادارية من الوقوف بين الرعية والسلطان والحيلولة دون وصول حاجاتهم اليه . وحث صاحب البريد على القيام بالصالح العام بعيدا عن الاستغلال له من قبل رجال الدولة فى شؤونهم الخاصة وهو ما عبر عنه بالأغراض الدنيوية(٥٢) .

وهو يتفق هنا مع المعيار الذى وضعه ابن تيمية من قبل ، والمطلوب اتباعه فى أى جهة أو مصلحة ، وهو أن يستعان فيها أو يستعمل أصلح من يجده القائم عليها(٥٣) . وأن على صاحب الأمر فيها أن يستعمل أصلح الموجودين وأن يحرص فى كل منصب أو وظيفة على أن يختار للقيام بها الأمثل فالأمثل(٥٤) .

اما هو ، فمن حق الولاية - وهى من أكبر الوظائف - عنده القيام بأمور الرعية ونفع الناس ، وعدم أذاهم ، وتجنب الهوى فى ادارتهم ، حتى انه يستوى لديه من هو صالح فى ذاته ومن هو تارك لوظيفته ، ومنشغل بملذاته عن أمور الناس فيقول : « ولو أنك تركت الناس هملا يأكل بعضهم بعضا وجلست فى دارك تصلى وتبكى على ذنبوك لكنت مسيئا على ربك »(٥٥) فالقيام بحقوق الوظيفة وتطبيق مقتضاها نحو المستفيدين منها مقدم على مايعود للذات - أى لصاحبها نفسه - حتى وان كان ذلك عبادة(٥٦) .

الوظائف العسكرية : وتشمل ناظر الجيش والسلحدار أى صاحب السلاح والجمقدار ، وهو حامل العتاد ، وحرس السلطان ، وهى وظائف عنى بها المماليك ورتبوا لها الجند كلا فى مجاله . ويلحق بها وظائف أخرى مثل أمير علم وهو القائم على الطبول والرايات . والسبكى كثيرا ما يوضح طبيعة عمل الوظائف التى يذكرها(٥٧) .

وقد بكت على كثير من هؤلاء ممن يدعى أن أعجميته التركية لا تمكنه من معرفة المبادىء الاسلامية والتطبيق العملى لها فى صدر الاسلام أو فى بعض الفترات اللاحقة(٥٨) .

ولما اشتملت عليه الادارة العسكرية فى عصره من فســـاد وجهـل وبطش بالناس فقــد نقدها الســبكى كثــيرا ، فمرة يصف القــواد بالجهل والعصبية ، وأخرى يعيب عليهم احتجان الأموال وامتــــلاك القناطير المقنطرة منها ، وارتكابهم المنكرات وانشغالهم بالحصول عليها عن وظائفهم الأساسية(٥٩) ٠

الحرف والصناعات :

ذكر السبكى أكثر من عشرين حرفة شائعة فى المجتمع ، وذكر كثيرا من أوجه أعمالها ، ودورها فى الحياة العامة ٠ وهو من العلماء القلائل الذين عنوا بهذه المهن ، ونادوا بتنظيمها ، والاهتمام بها ، والرقابة عليها ، وتحسين مسنواها ، ورفع وعيها ، ليجنى المجتمع من وراء ذلك عملا متقنا ونتاجا مفيدا ، فهى تسهم فى كثير من الصناعات والخدمات التى لا غنى له عنها ٠

وتعد آراؤه فى أصحاب الحرف والصناعات دستورا مهما ، لا من حيث انواعها فى عصره والحال الذى كانت عليه ، وانما من حيث حملهم على مراعاة الأمانة والاخلاص فيها من حيث المطلب الشرعى ومقتضى العرف المهنى والاتقان فيها ٠ والأول لسلامة الهدف وتحقيق الغاية الكفائية فيها٠ والثانى أداء حق المهنة والاختصاص فيها ٠ وقد زاد من قبولها حسن التوجيه والرفق بهذه الطبقة مقارنة بموقفه ونقـــده لأصحاب الوظائف السلطانية ٠

وقد دافع عن الفلاحين مثلا فقال : « والفلاح حر لا يد لآدمى عليه ، وهو أمير نفسه »(٦٠) ، وقد حذر من تدخل الادارة العسكرية فى أمور الزراعة والزام الفلاحين ما لا يطيقون ٠ ففى ذلك تعطيـــــل لخبرتهم واشغال لأولئك ـ أى العسكر ـ بما ليس من عملهم ، وفيه ترك لوظيفتهم الأساسية ٠ ولازال تدخل تلك الادارات فى أمور الزراعة مضرا باقتصاد الأوطان حتى فى العصر الحديث ٠

أهداف مؤسسات المجتمع :

يوضح تاج الدين السبكى هدف مؤسسات المجتمع باختلاف مجالاتها، بانه خدمة الصالح العام ، وتحقيق مطالب الناس فى بابه ، واحتساب الأجر والثواب فى القيـــام به ، ومخالفة زوال الفـــوائد والمصـــالح المترتبة عليه ٠

وفى المقابل يحذر من انحراف أغراض تلك المؤسسات الى تحقيق المصالح الخاصة والأغراض الدنيوية للقائمين عليها ، ومن ثم تعطـل نشاطها وانقطاع فوائدها وحلول النقمة والعقاب عاجلا أو آجلا ٠

وهو كثيرا ما يذكر الصورة الصحيحة لعمل كل ادارة ومهام كـل وظيفة ، ويتبع ذلك أيضا بأوجه القصور بل والانحراف والفســاد فى أدائها ، ويضرب عليه الأمثلة من عصره كما سيأتى ٠

والعمل هو الأساس الذى بنى عليه آراءه فى أحـــوال المجتمع ومعايش الناس ، ولهذا عنى كثيرا بقيمة العمل مهما دنا وتواضع شأنه أو اعتباره فى المجتمع ، طالما أغنى صاحبه عن السؤال ونحوه ؛ وأداه وفق مقتضاه الشرعى والمهنى فى أمثاله ، فهو أسعد حالا ومالا من أعمال أكبر منه فيها معصية لشارع وتلف لأهلها أو المجتمع ٠ فالأول مهىء للنفع والبقاء والثانى مؤذن بالفساد والزوال(٦١) ٠

كذلك عد المسئولية الذاتية فى العمل أنى كان مجاله مسئولية فردية من حيث التبعية فى العقاب والثواب ، وما يترتب عليها من آثار ونتائج فى المجتمع ٠ لا يغير من ذلك ارضاء وال ، أو طاعة مدير ، وفقا لمبدأ أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ٠ وقد حث فى الوظائف الكبيرة نواب السلطان مثلا على مراجعته اذا ما أصدر ما يخالف الشرع أو ما يلغى أو يصادم مصلحة عامة ، وأن يكون هذا المفهوم حاضرا لدى كل أصحاب الوظائف والمهن ٠ ولهذا يرى اســتواء الكافة فيه من شرائح المجتمع ، حتى أن الساقى لا يجوز أن يقدم لمخدومه أو فى رواد محله ما يحرم تقديمه أو تناوله ٠ فالأصول عنده مراعاة قواعد الشرع وما يحفظ على الناس صحتهم(٦٢) ، دون مجاراة لأحد أو تحقيق مصلحة ذاتية عاجلة٠

ويدل ذكره للوظائف الصغرى فى المجتمع على عدة مفاهيم ، منها علو قيمة العمـــل ، ومنزلة صاحبه مهما كان ، ومنها أنها ضرورة من ضرورات المجتمع والحياة فيه ، ومنها أن الحاجة لها قائمـــة فى أى مجتمع مثل أى الوظائف الكبرى فيه ، مع التسليم بالتفاوت فيها من حيث الأهمية والآثار . ومنها أن مؤسسات المجتمع مهما علت او دنت لابد من شرط الصلاح والاخلاص فيها حتى لا يكون هناك تصادم بين أنشطتها ونتائج أعمالها ، لمـــا لهـــذه الوظائف من أثر فى القاعـــدة الاجتماعية ، أو الرأى العام ، يغفل عنه بعض المفكرين أو يولون الوظائف الكبرى فى المجتمع اهتماما أكبر منه . وحتى لا يكون هناك ارتقاء فى جوانب فيه ، وقصور أو انحطاط فى أخرى .

لهذا كله فان من شروط الوظيفة الكبرى فى المجتمع عنده معرفة حدود عملها وميادينه والا فلا يزاحم عليها من هـــو أكفأ منه وأدرى بمسئولياتها(٦٣) .

وقد عاب على بعض الأتراك فى عهده تصديهم لبعض الوظائف التى تتعلق بمصائر الناس دون معرفة حدودها والواجب فيها(٦٤) .

وعلل امام الحرمين الجوينى لذلك من قبل بقوله : « انما ينسل عن ضبط الشرع من لم يحط بمحاســـنه ، ولم يطـــلع على خفـــاياه ومكامنه »(٦٥) .

واذا كان معاصره ابن جماعة عرض قواعد الحكم والوظائف الكبرى فى الدولة الاسلامية ، كالامامة والوزارة والقضاء والجهـــاد وفـــروعها وأحكامها من ناحية السياسة الشرعية(٦٦) ، فان تاج الدين السبكى فى فكره كان أعم من حيث شموله لكثير من جوانب الحياة . ثم انه أكثر قربا من الواقع المعاصر له ، وتنظيمه ونقد بعض أوضاعه . لهذا حاول تقويم ادارات الدولة بعدا ، أو قربا ، تطبيقا ، أو تركا لمفهوم العمل وحـــق أدائه ، وفق القواعد والأحكام المنظمة له فى الاسلام . وقد استوت عنده فى ذلك الأعمال الكبيرة كالادارات العسكرية والمالية والقضاء ، والحرف الصغيرة كالبنائين وسائسى اليل وحتى الاسكافية .

هذا الى أن فكرة العمل عنده سامية تحتكم الى الأحكام والقواعد الاسلامية فى مجاله ، وهى الأحكام والمبادىء التى تتخذ من خدمة الصالح العام وسد حاجة المجتمع فى كل مجال ، وبذل غاية الجهد فى ذلك ، معيارا عاما للعمل . ثم تربط بين ما يتحقق من فوائده للجميع فى الدنيا والثواب عليه فى الآخــرة ، وتبعا لذلك يكون بقاؤه باتباعهــا وزواله بمجانبتها .

وهكذا فالرقابة عليه ذاتية من قبــل صاحبه ان كان يعرف تلك الأحكام أو من قبل جهة تختص بذلك . من حيث الهدف والجهد والمستوى الذى ينبغى ان يكون عليه .

فالعمل هنا له غايتان متلازمتان دينية ودنيوية لا يمكن أن تنفصلا؛ ولهذا فان فكره عنه بعيد عن مفهوم خلق العمل وشرف المهنة التى تنادى بها بعض مدارس الفكر الحديث .

رعاية العــلم والعلماء :

ومن أبرز آراء تاج الدين الفكرية الاهتمام بالعلم ورعاية أهله ، فذلك علامة ارتقاء نهوض الأمم ، والحرص على هذا المنهج والاستمرار عليه علامة من علائم بقاء النعم ، ودوام الاستقرار عنده . فالعلم لو لم يطلب الا لذاته ولعلو منزلته فى الحياة لكفى صحبه همة ونبلا ، فضلا عن أن يطلب لاقامة الحياة على أسسه واصلاح أحوالها ، وتعليمه للناس، ومحاولة أداء صنائعهم ، ومعايشتهم ، وفق مفاهيمه .

ونادى بأن يكون العلم غاية للسلطة ، وأن تكون علاقتها به قائمة على التلازم والتطبيق الحقيقى له ،ففى ذلك بقاء لها وقوة . ومن ثم حث أهل السلطة فى عصره على احترام العلماء وتقديرهم ، فهم حملة العلم ومنائر وجوده ؛ وألا تصدق فيهم وشاية أو دسيسة بسهولة(٦٧) . حتى ان ابن تيمية قبله نص على أن أولى الأمر فى الدولة هم الأمراء والعلماء وذكر أن كلا منهم ركن فى صلاح أحوالها(٦٨) .

واعتبر النيل من العلماء ، أو تحقيرهم أو عدم رعاية علمهم وتشجيعه والافادة منه أو من حملته فى وظائف الدولة ، من الجهل بمكان . ومن مظاهر ذلك أيضا الاستخفاف بهم والتقتير عليهم ، أو استكثار أرزاقهم . وقد عاب الأوضاع فى دولة عصره ضمنا عندما أشار الى ان مرتب أكبر فقيه هو دون رزق أقل مملوك فيها(٦٩) .

كذلك عاب على ولاة عصره اتخاذهم الحراس والأموال والأطباء فى كل منشط ، فى حين لا يتخذون أحدا من العلماء ينير لهم سبل الحياة وما ذاك الا لأن أمر أبدانهم عندهم أهم من أمر معاشهم ومعادهم(٧٠) .

وكان تاج الدين السبكى منصفا فى آرائه ، فحتى العلماء ـ وهو واحد منهم ـ عاب على بعضهم الاشتغال بالاختلاف حول الفروع والتعصب للمذاهب ، والانحراف فى المناظرات فيما بينهم ، وتركوا كثيرا من عظائم الأمور فى الحياة مهملة دون أن يؤمر بها ، كما تركوا كثيرا من المحرمات تؤتى دون ان ينهى عنها(١٧١) ؛ وباب الدعوة دون طرق، وتركوا مسلمين جددا من أهل الذمة أو غيرهم دون رعاية وتعهد(٧٢).

وكثيرا ما يحدد السبكى واجبات كل ظفية ، ويحد قواعد العمل فى مجالها دون تداخل مع غيرها ، بل انه يوضح فى بعض الأحيان ماطرأ على مفهومها فى عصره من تحديد أو تغيير ؛ فهو يقول عن الوزير : « وهو اليوم اسم لمن ينظر فى المكوس وغيرها من الأموال التى ترفع الى السلطان وبيت المال »(٨٣) .

كذلك لم يقف عند بيان مهام كل وظيفة وحدود عملها وانما اهتم بالعقاب المترتب على الانحراف أو القصور فى القيام بها ، وذكر أنواعه ودرجاته ، كأن يعزل فاعله أو يضرب أو يطاف به فى الأسواق(٧٤) .

وتاج الدين السبكى لم يكن مشرعا باعتباره فقيها بالمعنى الحديث لهذا المصطلح فحسب ، وانما كان رجل دولة من الطراز الأول ، فعندما ننظر الى رأيه فى موضوع أو جانب من علاقات الدولة الخارجية نجد فيه صدق التفكير وبعد النظر وصلاح تطبيقه الى اليوم . يقول عن مهام رئيس

المراسم : « المهمندار اسم لمن يقوم بأمور قصاد الملوك ورسلهم ، فمن حقه ان يعتمد مصلحة الاسلام ، ويرهب القصاد ، ويوهمهم قوة المسلمين وشدة بأسهم ، وعظيم سطوتهم ، واتفاق كلمتهم ، وقيامهم في حوزة الدين ... وحفظ النظام ، وأن ينهى أمور القصـــاد الى الملك بمقدار ما يكون فيه المصلحة . (وأن يقدر) من يتعين عليه المبادرة الى اكرامه ومن يتعين عليه الكف عن اعظامه بحسب ما تقتضيه الحال . ومن الحث على الملك ونوابه الاحتفال عند حضور قصاد الملوك ، واظهار القوة وحسن الملبس وكثرة الجيش ، واستعدادهم على الوجه الشرعى »(٧٥) .

وهكذا فان آراء تاج الدين السبكى الاصلاحية تتسق مع الوحدة فى النظام الاسلامى ، وموقفه من ادارة الحياة ومؤسساتها المختلفة ، والصيغة النظامية التى تتميز بها شريعته ، ومطالبتها بأن يكون التطبيق العملى وفقها أنى وأين كان القائم به . فالموظف صغيرا كان أم كبـــيرا مكلف بالقيام بالمصالح العامة باختلاف ميادينها ، وتعهدها بالرعاية والاتقان ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وما فوق قدرته يعذر فيه . كما أن مظاهر عنايته بمختلف الوظائف والطبقات بما فيها الصغرى ، ومفهومه الشامل للاصلاح وقربه من الواقع تجعل آراءه أدق وأكثر قبولا .



الخاتمـــة :

وبعد ، فمما لا شك فيه أن السبكى عاش فى صـــميم الحياة فى عصره ، وعرك مختلف جوانبها ، وخبر مستوى الأداء ، وأوجه القصور ، وأنواع الأهداف والمقاصد ، والقرب فيها من قواعـــد الشرع ، ومقتضى الوفاء بحق كل عمل من عدمه ، وساهم بنصيب فكرى عظيم مستقرأ من الواقع العملى .

أما أهل زمانه فان تاج الدين السبكى قصدهم مع غيرهم ، وخصهم بأنهم لن يصلوا الى مقام الاصلاح الذى ينشده ، ولكن لعلهم على الأقل يرجعون أو يقصرون عما هم فيه(٧٦) .

كل ذلك بعد أن استقرأ أحداث التاريخ ، ووقف على مشاكل عصر وقدح فكره فى نقدها ، وتقديم الحلول لها ٠

والسبكى فى فكره التاريخى الاصـــلاحى لا ينبع من مثاليــات أو جدليات فلسفية على غرار كثير من الفلاسفة وأصحاب المدن الفاضلة من قبله ، وانما يقوم فكره على ثلاثة أسس واضحة هى :

الأول : حكم العمل وموقعه من المبادىء التى تحكم المجتمع ، اد من حق أى مجتمع أن تكون الأعمال فيه موافقة ومنسجمة مع مبادىء شريعته أو قانونه ، وهذا أمكن لقبول المجتمع لهــا ـ وأنجح لنشـاطها ومردودها المادى فيه ٠

والثانى : الاخلاص فيه واتقانه كما يجب وبذل الجهد فيه دائ للوصول الى مستويات أفضل سواء غلب عليه الطابع الوظيفى أم المهنى٠

والثالث : الاعتماد فى التقويم على الواقع التاريخى ونقـد القائم منه من وظائف أو أعمال وبيان مظاهر القصور ، ومطامح الارتقاء ، والعوامل والوسائل المؤدية الى كل مستوى ، وذكر القرائن والنظائر له من ماضى المجتمع نفسه أو من المجتمعات الأخرى ٠

ولهذا ، فان آراءه تمثل صفحة أخرى من أصالة الفقـــه السياسى والادارى عند المسلمين ، وبعده عن التبعية الفارسية أو اليونانية وأثر الطبقية والفلسفة فيهما ٠ كما أنها تمثل أحد مظاهر نضج علم السياسة أو علم الاجتماع السياسى فى مصر والشام خلال القرن الثامن وهو القـرن الذى شهد نضوجه فى المغرب على يد ابن خلدون ٠

الهـــوامش

(١) من مؤلفات ابن حزم فى هذا الباب كتاب السياسة ٠

(٢) ابن قاضى شهبة : طبقات الشافعية ، جـ٣ ، ص ١٠٦ ٠

(٣) الدرر الكامنة ، جـ٢ ، ص ٢٤٦ ٠

(٤) ابن قاضى شهبة : طبقات الشافعية ، جـ٣ ، ص ١٠٦ ٠

(٥) تاج الدين السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ١ ، ص ٢٢ ٠

(٦) تاج الدين السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ١ ، ص ٣٢٩ ـ ٣٤٥ ٠

(٧) المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٢٩ ـ ٣٤٢ ٠

(٨) ابن الأثير ، جـ٩ ، ص ٣٥٧ وما بعدها ٠

(٩) تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١٧٨ ـ ١٧٩ ٠

(١٠) محمد الصادق حسين : البيت السبكى ، ص ٤٢ ٠

وقد ظهر كتاب البيت السبكى منذ ٤٨ عاما تحدث فيه مؤلفه عن نسب البيت السبكى والتعريف بأعلامه وأوضاع مصر فى عهد المماليك ، واقتباسات من كتاب معيد النعم ٠ ومجموع صفحاته ٩١ صفحة ٠

(١١) تاج الدين السبكى : طبقـــات الشـــافعية الـكبرى ، جـ١ ، ص ٢٠٩ ؛ ٢٢٩ ، ٣٤٢ ٠

(١٢) المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٢٩ ـ ٣٤٥ ٠

(١٣) تاج الدين السبكى ، طبقات الشافعية الكبرى ، جـ٢ ، ص ٢ ٠

(١٤) المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٣ ٠

(١٥) المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٤٦ ٠

(١٦) تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٧٥ ٠

(١٧) أخرج الشيخ عبد الفتاح أبو غدة مجموعا محققا ضمنه قاعـــــدة فى المؤرخين لتاج الدين السبكى ، وقد حوى المجموع بالاضافة الى قاعدة له فى الجرح والتعديل ، وكذلك المتكلمون فى الرجال للسخاوى ، كذلك ذكر من يعتمـــد قوله فى الجرح والتعديل للذهبى ٠ كما ضم لها ما أورده عن المؤرخين فى كتابه معيد النعم وكلها جاءت فى حدود صفحتين عدا التعليقات والهوامش ٠

(١٨) خليل بن أيبك الصفدى : الوافى بالوفيات ، جـ١ ، ص ٧٦ ـ ٤٧ ٠

(١٩) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ٠

(٢٠) تاج الدين السبكى : الطبقات ، جـ١ ، ص ٢٣ ٠

(٢١) السخاوى : الاعلان ، ص ١١٤ ـ ١٢٧ ٠

(٢٢) الطبقات ، جـ٢ ، ص ٢٤ ٠

(٢٣) تاج الدين السبكى : الطبقات ، جـ١ ، ص ٢٣ ٠

(٢٤) السخاوى : الاعلان ، ص ١٢٦ ٠

(٢٥) تاج الدين السبكى : الطبقات ، ص ٢٣ ٠

(٢٦) نفســـه ٠

(٢٧) الوافى بالوفيات ، جـ١ ، ص ٤٧ ٠

(٢٨) السخاوى : الاعلان ، ص ٩٩ ٠

(٢٩) تاج الدين السبكى : الطبقات ، جـ٢ ، ص ٢٤ ٠

(٣٠) على سامى النشار : مناهج البحث عند مفكرى الاسلام ، ص ٢٤٧ ٠

(٣١) تاج الدين السبكى : الطبقات ، جـ٢ ، ص ٢٣ ٠

(٣٢) تاج الدين السبكى : معيد النعم ، ص ٧٤ ٠

(٣٣) نفســه ٠

(٣٤) تاج الدين السبكى : الطبقات ، جـ٢ ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ٠

(٣٥) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٢ ٠

(٣٦) المقدمة ، صص ٤ ـ ٥ ٠

(٣٧) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٨ ٠

(٣٨) خليل بن أيبك الصفدى : الوافى بالوفيات ، جـ١ ، ص ٢٠

(٣٩) المصدر السابق ، جـ١ ،ص ٥١ ـ ٥٣ ٠

(٤٠) الاعلان بالتوبيخ ، ص ١٣٠ ـ ١٣٢ ٠

(٤١) الشيزرى : المنهج المسلوك فى سياسة الملوك ، ص ٢٠٠ ـ ٢٢٣ ٠

(٤٢) الشيزرى : المنهج المسلوك فى سياسة الملوك ، ص ٥٨٣ ـ ٥٨٥ ٠

(٤٣) سبط بن الجوزى : الجليس الصالح والأنيس الناصح ، ص ٦٣ ،٧٣، ١٣١٠

(٤٤) ص ٤ ، ٦ ٠

(٤٥) السياسة الشرعية ، ص ٥ ٠

(٤٦) ابن تيمية : السياسة الشرعية ، ص ١١ ، تاج الدين السبكى : معيـــد النعم ، ص ٥٨ ٠

(٤٧) ابن رضوان المالقى : الشهب اللامعة فى السياسة النافعة ، ص ٥٦ ، ٢٠٢ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ٠

(٤) المصدر السابق ، ص ٥١ ٠

(٤٩) تاج الدين السبكى : معيد النعم ، ص ١٦ ٠

(٥٠) المصدر السابق ، ص ٢٠ ٠

(٥١) المصدر السابق ، ص ٢ ٠

(٥٢) تاج الدين السبكى : معبد النعم ، ص ٣٢ ٠

(٥٣) ابن تيمية : السياسة الشرعية . ص ٤ ، ٥ ٠

(٥٤) المصدر السابق ، ص ٨ ٠

(٥٥) تاج الدين السبكى : معيد النعم ، ص ١٤ ٠

(٥٦) نفســـه ٠

(٥٧) تاج الدين السبكى : معيد النعم ، ص ٣٣ ـ ٣٧ ٠

(٥٨) المصدر السابق ، ص ٤١ ٠

(٥٩) المصدر السابق ، ص ٥٠ ٠

(٦٠) تاج الدين السبكى : معيد النعم . ص ٣٤ ٠

(٦١) تاج الدين السصبكى : معيد ، ص ١٤٥ ٠

(٦٢) المصدر السابق ، ص ٢١ ـ ٢٣ ، ٣٨ ٠

(٦٣) تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٤٢ ٠

(٦٤) المصدر السابق ، ص ٤١ ٠

(٦٥) غياث الأمم ، ص ١٧٠ ٠

(٦٦) ابن جماعة : تحرير الأحكام فى تدبير أهل الاســـلام . ص ٥١ ـ ٥٣ ، ٧٥ ـ ٧٧ ، ٨٨ ٠

(٦٧) تاج الدين السبكى : معيد النعم ،ص ٤٨ ٠

(٦٨) ابن تيمية : السياسة الشرعية ، ص ٨٩ ٠

(٦٩) تاج الدين السبكى : معيد النعم ، ص ٤٩ ٠

(٧٠) المصدر السابق ، ص ٢ ٠

(٧١) المصدر السابق ، ص ٧٦ ٠

(٧٢) نفســـه ٠

(٧٣) تاج الدين السبكى : معيد النعم ، ص ٢٧ ٠

(٧٤) المصدر السابق ، ص ٣٠ ٠

(٧٥) المصدر السابق ، ص ٣١ ـ ٣٢ ٠

(٧٦) تاج الدين السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٢٠ ٠

المصــادر والمراجع

— **ابن الأثير :** عز الدين على بن محمد :
الكامل فى التاريخ ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٥م .

— **تاج الدين السبكى :** أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى :
ـ طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، ومحمود الطناحى ، مطبعة البابى عيسى الحلبى ، القاهرة ١٩٦٤م .
معيد النعم ومبيد النقم ، تحقيق محمـــد على النجار وزميليه . جماعة الأزهر للنشر والتأليف ، القاهرة ١٩٤٨م .

— **ابن تيمية :** تقى الدين أحمد بن عبد الحليم :
السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية . المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

— **ابن جماعة :** بدر الدين محمد بن ابراهيم بن سعد الله .
تحرير الأحكام فى تدبير أهل الاسلام ، تحقيق فؤاد عبـــد المنعم أحمد ، ط٣ ، دار الثقافة ، الدوحة ، ١٩٨٨م .

— **الجوينى :** امام الحرمين أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله :
غياث الأمم فى التياث الظلم ، تحقيق د. فؤاد عبد المنعم وزميله، دار الدعوة ، الاسكندرية ، (د.ت) .

— **ابن حجر :** شيخ الاسلام أحمد بن حجر العسقلانى :
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، تحقيق محمد سيد جـــاد الحق ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة (د.ت) .

— **ابن خلدون :** عبد الرحمن :
المقدمة ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، (د.ت) .

— **ابن رضوان المالقى :** أبو القاسم :
الشهب اللامعة فى السياسة النافعة ، تحقيق د. على سامى النشار، دار الثقافة ، الدار البيضاء ١٩٨٤م .

— **سبط الجوزى :** يوسف قزلو بن عبد الله :
الجليس الصالح والأنيس الناصح ، تحقيق فواز صالح فواز ، دار رياض الريس ، لندن ، ١٩٧٧م .

— **السخاوى :** شمس الدين محمد بن عبد الرحمن :
الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، تحقيق فرانزروزنثال ، ترجمة د٠ صالح العلى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د٠ت) ٠

— **الشـيزرى :** عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر :
المنهج المسلوك فى سياسة الملوك ، تحقيق على عبد الله الموسى ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن ١٩٨٧م ٠

— **الصفدى :** خليل بن أيبك :
كتاب الوافى بالوافيات ، باعتنـــاء هملوت ريتر ، ط٢ ، نشــر فرانزشتاينر ، فسبادن ١٩٦٢م ٠

— **ابن قاضى شهبة :** أبو بكر بن أحمد بن محمد :
طبقات الشافعية ، باعتناء د٠ الحافظ خان ، عالم الكتب ، بيروت، ١٩٧م ٠

— **محمد الصادق حسين :**
البيت السبكى ، دار الكاتب المصرى ، القاهرة ، ١٩٤٨م ٠

— **النشـار :** على سامى :
مناهج البحث عند مفكرى الاسلام ، ط٣ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٤م ٠

رسالة صلاح الدين الأيوبى الى بلدوين الرابع

ملك بيت المقـــدس

(٥٦٩هـ = ١١٧٤م)

د٠ عادل عبد الحافظ حمزة(*)

أورد القلقشندى نص رسالة أرسلها «صلاح الدين الأيوبى» (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م - ٥٨٩هـ/١١٩٣م) سلطان الدولة الأيوبية الى الملك « بلدوين الرابع » (١١٧٤م/٥٦٩هـ - ١١٨٥م/٥٨٠هـ) ملك بيت المقدس ،يعزيه فى وفاة والده الملك « عمورى الأول - (أملريك الأول) (١١٦٣م/ ٥٥٨هـ - ١١٧٤م/٥٦٩هـ) ويهنئه - فى الوقت ذاته - بجلوسه على عرش مملكة بيت المقدس ، والرسالة من انشاء « القاضى الفاضل » ونصها هو :

« أما بعد : خص الله الملك العظيم حافظ بيت المقـدس بالجد الصاعد والسعد الساعد والحـــظ الزائد والتوفيق الوارد ، وهنأه من ملك قومه ما ورثه ، وأحسن من هداه فيما أتى به الدهر وأحدثه ، فان كتابنا صادر اليه عنـــد ورود الخبر بما ساء قلوب الأصادق،والنعى الذى وددنا أن قائله غير صادق بالملك العادل الأعز الذى لقاه الله خير ما لقى مثله وبلغ الأرض سعادته كما بلغه محله ، معزيا بما يجب فيه العزاء ، ومتأسفا لفقـــــده الذى عظمت به الأرزاء ٠ الا أن الله سبحانه قد هون الحادث بأن جعـــل ولده الوارث ، وأنسى المصاب بأن حفظ به النصاب ووهبه النعمتين الملك والشباب ، فهنيئا له ما حاز وسقيا لقبر والده الذى حق له الفداء لو جاز٠ ورسولنا الرئيس العميد مختار الدين ، أدام الله سلامته ، قائم عنا باقامة العزاء

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد - كلية الآداب - جامعة المنيا ٠

من لسانه ووصف ما نالنا من الوحشة لفراق ذلك الصديق وخلو مكانه ، وكيف لا يستوحش رب الدار لفرقة جيرانه وقد استفتحنا الملك بكتابنا وارتيادنا ، ووده الذى هو ميراثه عن والده من ودادنا ، فليلق التحية بمثلها ، وليأت الحسنة ليكون من أهلها ، وليعلم أنا له كما كنا لأبيه مودة صافية وعقيدة وافية .. ومحبة ثبت عقدها فى الحياة والوفاة ، وسريرة حكمت ى الدنيا بالموافاة ، مع ما فى الدين من المخالفات فليسترسل الينا استرسال الواثق الذى لا يخجل ، وليعتمد علينا اعتماد الولد الذى لا يحمل عن والده ما تحمل ، والله يديم تعميرة ، ويحرس تأميره ويقضى له بموافقة التوفيق ، ويلهمه تصديق ظن الصديق »(١) .

هذا هو نص الرسالة كما ذكرها القلقشندى .

وبدراسة هذه الرسالة يبدو أن السلطان « صلاح الدين » حرص على أن يظهر أنه حزن حزنا شديدا لوفاة « عمورى » الأول ملك بيت المقدس ، وعبر عن هذا الحزن بعبارات قوية مثل « والنعى الذى وددنا أن قائله غير صادق » و « متأسفا لفقده الذى عظمت به الأرزاء » و« كيف لا يستوحش رب الدار لفرقة جيرانه » و « ليعلم أنا كنا له كما كنا لأبيه مودة صافية وعقيدة وافية » . وفى الوقت نفسه أظهر صلاح الدين سعادته بتولية « بلدوين الرابع » مكان والده الملك « عمورى الأول » حيث يقول « الا أن الله سبحانه قد هون الحادث بأن جعل ولده الوارث » وعبر صلاح الدين عن مشاعره نحو الملك الجديد بأن تعهد بأنه « سيصادق من يصادقه الملك الجديد « بلدوين الرابع » ويحافظ على « وده الذى هو ميراثه عن والده من ودادنا » .

وربما قيل أن هذه الرسالة تعبر عن مهارة صلاح الدين فى مجال علاقاته السياسية مع الصليبيين،فالحرب خدعة والمعاملات السياسية مع الأعداء تتطلب قدرا من الذكاء والمراوغة بحيث يظهر الانسان لعدوه غير ما يبطن . وبالرجوع الى مصادر تاريخ تلك الحقبة أو الحلقة ندرك أن

صلاح الدين كان لايمكن أن يغفر للملك «عموري الأول» الصليبي ملك بيت المقدس ، تطلعه الى السيطرة على « مصر » منذ تولى عرش مملكة بيت المقدس الصليبية سنة ١١٦٣م/٥٥٨هـ ، عندما اشتد النزاع بين «شاور» و « ضرغام » على كرسى الوزارة فى مصر(٢) ، وكيف أن الملك «عمورى الأول» حاصر بقواته « أسد الدين شيركوه » - عم صـــلاح الدين - فى بلبيس لمدة ثلاثة أشهر سنة ١١٦٣م/٥٥٩هـ(٣) ، ولم يرفع « عمورى الأول » الحصار الا بعد أن كثف نور الدين محمود هجماته على الصليبيين فى الشام(٤) ، بل ان « صلاح الدين نفسه عانى من حصار الصليبيين له فى الاسكندرية لمدة اربعة أشهر عندما كان قائدا فى جيش « أسد الدين شيركوه » بمصر سنة ١١٦٦م/٥٦٢هـ ، ولم يرفع الصليبيون الحصار عنه الا بعد مفاوضات طويلة تمت بين « أسد الدين شيركوه » والصليبيين ، فضلا عن ضغط « نور الدين محمود » عليهم بالشام(٥) .

وما أن تولى « صلاح الدين » الوزارة للخليفة الفاطمى العاضد خلفا لعمه « أسد الدين شـــيركوه » فى جمادى الآخـــر ٥٦٤هـ/مارس ١١٦٩م(٦) ، حتى بدأ يهاجم الصليبيين - قوات مملكة بيت المقدس - على حدود مصر ، ففتح ايله سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م ، وهاجمهم فى عسقلان والرملة(٧) وصدهم إبان مشاركتهم البيزنطيين فى الهجوم البحرى والبرى على مصر(٨) وأحبط فى سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م دور الصليبيين فى المؤامرة الكبرى التى اشترك فيها الملك « عمورى الأول » نفسه والحشيشية ووليم النورمانى وعناصر من الداخل كانت تهدف الى القضـــاء على « صـــلاح الدين(٩) . وقد عدد « صلاح الدين » العناصر التى شاركت فى هذه المؤامرة - وذكر منهم الصليبيين - فى الرسالة التى أرسلها الى الخليفة العباسى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٥م(١٠) .

وفى هذه الأجواء مات الملك « عمورى الأول » فى ١١ من يوليو ١١٧٤م/٩ من ذى الحجة ٥٦٩هـ(١١) وذلك بعـــد وفاة « نور الدين محمود » بحوالى ستة وخمسين يوما تقريبا ، وذلك فى المرحلة التى أخذ صلاح الدين يتطلع لأن يرث سيده نور الدين فى دولته بالشام ومصر. وكان صلاح الدين يدرك جيدا أن طموحاته ستصدم بمقاومة شديدة من

جانب مملكة بيت المقدس الصليبية ، ولذا فان صلاح الدين حرص على اخفاء نواياه من جهة وخديعة بلدوين الرابع(١٢) ملك بيت المقـــدس الجديد من جهة أخرى ٠

وربما كان مصدر ارتياح صلاح الدين أن ملك بيت المقدس الجديد - بلدوين الرابع - كان مريضا ، صغير السن ، غير متمرس فى فنـــون الحرب والقتال ، مما يعطى فرصة لصلاح الدين ليوحد المسلمين فى الشام والجزيرة ومصر تحت زعامته ، وبذلك يعيد بناء الجبهة الاسلامية تمهيدا لتوجيه ضربات مباشرة ضد الصليبيين ٠

ولكن « بلدوين الرابع » لم يلبث عقب توليه الحكم أن مد نشاطه العسكرى ضد « صلاح الدين » ، فهدد دمشق سنة ١١٧٥م/٥٧٠هـ ، كما حاول منع صلاح الدين من الاستيلاء على حلب،بمشاركة «ريموندالثالث» أمير طرابلس الصليبى وعلى اقليم البقاع الذى كان « تورانشاه » أخو « صلاح الدين » يرابط لدفع خطر الصليبيين عنه(١٣) ٠

وعندما أخـذ صـــلاح الدين يهاجـــم الصليبيين فى سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٦م(١٤) ، انتهز الصليبيون فرصة تقدم « صلاح الدين » بجيشه فى اتجاه القدس تاركا بعض قواته لمحاصرة عسقلان فى جمادى الآخرة ٥٧٣هـ/١١٢٧م ، وانقضوا عليه ٠ وقد شارك الملك « بلدوين الرابع » بنفسه فى هذا الهجوم ، الذى انتهى بهـــزيمة جيش « صلاح الدين » جنوبى شرق الرملة٠وقد اطلق بعض المؤرخين علىهذه المعركة اسم معركة « تل الجزر »(١٥) ولم يكتف الملك « بلدوين الرابع » بذلك بل حاول استغلال الحملة الفلمنكية ليوجهها ضـــد مصر بقيادة فيليب الالزاسى » الذى كان يزور بيت المقدس آنذاك ، لكن الأخير رفض واكتفى بشـــن اغـــارات على حمـــــاه وحمص فى نوفمبر ١١٧٧م/جمادى الآخـــرة ٥٧٣هـ(١٦) ٠

ثم كان أن عاد « صلاح الدين » الى مصر بعد هزيمته فى معركة تل الجزر ليعيد تنظيم قواته ، حتى اذا ما أتم ذلك توجه الى الشام فى شعبان ٥٧٣هـ/١١٧٨م(١٧) ، حيث انزل الهـــزيمة بالصليبيين فى مرج

عيون(١٨) ، كما خرب حصن بيت الأحزان فى ربيع الأول ٥٧٥هـ/يونيه ١١٧٩م ، الذى بناه الصليبيون ، وكان قد طالبهم بهـــدمه ، فرفضوا وطلبوا منه تعويضا كبيرا مقابل ذلك(١٩) . وهكذا لم يهدأ الحال بين « صلاح الدين » و « بلدوين الرابع » حتى تم عقد الصلح بين الجانبين لمدة سنتين اعتبارا من سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م(٢٠) .

ويلاحظ أنه بالرغم من هذا الصلح فان بعض الأمـــراء الصليبيين قاموا بأعمال عسكرية ضد المسلمين منهم « رينالد دى شاتيون » (أرناط) الذى هاجم القوافل الاسلامية فى بلاد الشام فى سنة ١١٨٠م/٥٧٥-٥٧٦هـ، كما أعد أسطولا فى البحر الأحمر سنة ١١٨٢م/٥٧٧ - ٥٧٨هـ واستولى على ايله التى كان « صـــلاح الدين » قد استردها من قبل كما ســبق ذكره(٢١) .

يضاف الى ذلك بعض المعارك المحلية التى دارت عندئذ بين صلاح الدين وبلدوين الرابع خلال عام ٥٧٧ - ٥٧٨هـ/١١٨٢م ، اذ حاصر صلاح الدين بيروت برا وبحرا فى ربيع الثانى ٥٧٨هـ/أغسطس ١١٨٢م ، فأمر بلدوين الرابع باعداد الأسطول الصليبى فى عكا وصيدا لتخليص بيروت من حصار صلاح الدين(٢٢).كذلك أراد صلاح الدين أن ينتقم من أرناط - رينالد دى شاتيون - فاتفق مع أخيه العادل الأيوبى بمصر على محاصرة امارة الكرك الصليبية التابعة لهذا الأمير الصليبى . وبالفعل بدأ صــلاح الدين يحاصرها سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م ، غير أنه لم يستمر فى هذه العملية بسبب ما بلغه من قدوم القوات الصليبية ومعها بلدوين الرابع ملك بيت المقدس محمولا فى محفة لشدة مرضه آنذاك ، فرفع صلاح الدين الحصار عن الكرك فى نفس العام لأنه لم يكن عندئذ على استعداد تام للقيام بعمل عسكرى كبير ، والدخول فى حرب مباشرة ضد الصليبيين حيث ان ذلك سابق لأوانه عندئذ(٢٣) . ومع ذلك فقد حاول صلاح الدين مرة أخرى حصار امارة الكرك فى ربيع الآخر سنة ٥٨٠هـ/صيف ١١٨٤م ، غير أنه لم يحقق غرضه لقوة تحصينها ، فأقلع عنها واتجه الى دمشق بعد أن أرسل سرية لمهاجمة اقليمى الجليل ونابلس الصليبيين(٢٤) .

ومما سبق يمكن القول ان بلدوين الرابع ملك بيت المقدس لم يتأثر برسالة صلاح الدين،ولم يتزحزح عن سياسة والده العدائية،ولم يكف عن هجماته ضد المسلمين الا بعد أن اشتد عليه المرض ولازم الفراش فى أوائل عام ١١٨٣م(٢٥) . وكان أن توفى فى مارس ١١٨٥م وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ، بعد أن قام بدوره فى شجاعة نادرة ضد صلاح الدين طوال فترة حكمه(٢٦) (١١٧٤ - ١١٨٥) .

وقد تولى مملكة بيت المقدس بعده بلدوين الخامس فى الوقت الذى ساءت أحـــوال الملـكة الصليبية من جانب وازدادت هجمات رينالد دى شاتيون الصليبى صاحب الكرك على القوافل الاسلامية من جانب آخر ، وذلك فى أواخر سنة ١١٨٦م/٥٨٢هـ ، الأمر الذى أدى بصلاح الدين الى توجيه ضربته الى الصليبيين فى حطين فى يوم السبت ٢٥ من ربيع الآخر ٥٨٣هـ/٤ من يولية ١١٨٧م .

وفى هذه الأجواء أرسل صلاح الدين رسالته الى بلدوين الرابع معزيا اياه فى وفاة أبيه ، مهنئا بقيامه فى حكم المملكة الصليبية فى بيت المقـدس .



وأيا ما كان الأمر فان السؤال الأول الذى يفرض نفسه حول هذه الرسالة التى أوردها القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى ، هو : هل ورد لهذه الرسالة ذكر فى بقية المصادر المعاصرة فى الشرق أو فى الغرب ؟

الواقع أنه بالاطلاع على المصادر المعاصرة والمراجع الحـــديثة لم نحصل على أية اشارة الى هذه الرسالة . وكان أحرى بوليم الصورى ليس بصفته مسجلا للأحداث فحسب ، بل بحكم عمله فى ديوان المراسلات وخاصة فى نهاية عهد عمورى الأول ، كان أحرى به أن يشير الى هذه الرسالة لما لها من أهمية ولما حوته من عبارات وكلمات منسوبة الى صلاح الدين تفيض بالود والمسالمة . ولكن هذا لم يحدث ، ولم يرد للرسالة ذكر فى سجلات مملكة بيت المقدس الصليبية .

واذا تركنا المصادر الغربية جانبا ورجعنا الى المصادر العربية التى عاصرت تلك الحقبة بصفة عامة وحياة صلاح الدين بصفة خاصة ، ثم المصادر اللاحقة بها بفترة ليست طويلة ، نجد أن هناك عددا لا بأس به يشير الى ما حدث فى مملكة بيت المقدس من موت ملك وقيام آخر ولكن دون أدنى اشارة الى رسالة صلاح الدين التى نحن بصددها . ومن هذه المصـــادر :

١ ـ الكامل فى التاريخ لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م ، ولم يذكر عن وفاة عمورى الأول الا العبارة الآتية فى حوادث عام ٥٦٩هـ « وفيها هلك ملك الفرنج مرى لعنه الله ، وأظنه ملك عسقلان ونحوها من البلاد ، وقد كان قارب أن يملك الديار المصرية لولا فضل الله ورحمته بعبـــاده المؤمنين » وذكر أيضا « أن مرى ملك الفرنج ـ لعنه الله ـ مات أول هذه السنة وكان أعظم ملوكهم شجاعة وأجودهم رأيا ومكرا ومكيدة ، فلما توفى خلف ابنا مجذوما عاجـــزا عن تدبير الملك فمملكة الفرنج صورة لا معنى لها » .

٢ ـ وهناك سيرة صـلاح الدين المسماة بـ « النوادر الســـلطانية والمحاسن اليوسفية » التى ألفها بهاء الدين ابن شداد (شداد جده لأمه). وقد التحق بخدمة صلاح الدين سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م وسجل فى هذا الكتاب بعض الجوانب العامة من حياة صلاح الدين منذ وصوله الى مصر أول مرة مع أسد الدين شيركوه حتى وفاته (٢٧) .

٣ ـ كتاب « مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان « لشـــمس الدين بن المظفر بن قزاو غلى التركى وهو سبط الشيخ جمال الدين الجـــوزى ، المعروف بـ (سبط ابن الجوزى) المتوفى سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م . وقد تناول جوانب كثيرة من تاريخ الدولة الأيوبية . وليست به اشارة الى هذه الرســـالة .

٤ ـ كتاب « الروضتين فى أخبـــار الدولتين » و « الذيل على الروضتين » لمؤلفهما شهاب الدين أبى محمد عبد الرحمن المعروف بأبى

شامه المتوفى سالة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م ، وقد كتب كثيرا عن الدولة الأيوبية ولكنه لم يذكـــر عن وفاة عمورى الا العبـــارة الآتية « ورد كتاب من الداروم(٢٨) يذكر أنه لما كان عشية الخميس تاسع ذى الحجة (٥٦٩هـ/ ١١ يولية ١١٧٤م) هلك مرى ملك الفرنج لعنه الله ونقله الى عذاب كاسه مشتقا وأقدمه على نار تلظى لا يصلاها الا الأشقى »(٢٩) .

هذا فضلا عن عدد آخر من المصادر التى عالجت تاريخ صلاح الدين وبنى أيوب فى تلك الحقبة منها :

٥ ـ مخطوطة « الروض المهضوب فى حلى دولة بنى أيوب» الجزء الثانى لأبى سعيد أبى الحسن على بن موسى المغربى المتوفى سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م .

٦ ـ وكتاب « البرق الشامى » من تأليف الأصفهانى ، واختصره الفتح بن على البندارى تحت اسم « سنا البرق الشـــامى »(٣٠) وهو يتنـــاول من سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م الى سـنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م فى تاريخ الدولة الأيوبية .

٧ ـ و « المختصر فى أخبار البشر » تأليف عماد الدين اسماعيل أبى الفدا صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م ، فقد تعرض للدولة الايوبية زمن صلاح الدين .

٨ ـ وكتاب « وفيات الأعيان وأنباء أبنـــاء الزمان » لأبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان المتوفى سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م(٣١) .

٩ ـ أما قاضى القضاة مجير الدين الحنبلى المتوفى سنة ٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م ، فقد ألف كتابين أحدهما « شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب» والآخر « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » .

والشيء الذى يسترعى الانتباه هو أن كافة هـــذه المصادر لم يرد بها ذكر لرسالة صلاح الدين التى أوردها القلقشندى .

وهنا نواجه سؤالا آخر هو : لماذا لم تشر المصادر الغربية والعربية الى تلك الرسالة التى يذكرها القلقشندى دون غيره من المعاصرين ٠واذا كانت المصادر العربية لم يرد بها ذكر أو اشارة لهذه الرسالة ، فهل امر صلاح الدين بعدم تسجيلها لانها مرسلة الى الملك الصليبى بلدوين الرابع ونظرا لما تحويه من عبارات الود تجاه الكيان الصليبى ببلاد الشام ؟ واذا كان هذا صحيحا فلماذا اوردت بعض هذه المصادر المراسلات التى كانت بين الملك الأرمنى(٢٢) والامبراطور البيزنطى(٢٣) من جانب وصلاح الدين من جانب آخر ؟ واذا كانت هذه المصادر العربية قد امتنعت بالفعل عن تسجيل هذه الرسالة بناء على رغبة صلاح الدين فلماذا لم تشر اليها المصادر الصليبية وخاصة سجلات مملكة بيت المقدس ، ووليم الصورى الذى كان يتولى ديوان الانشاء فى المملكة الصليبية ببيت المقدس فى الفترة (من ١١٧٠ - الى - ١١٧٤م)(٣٤) ثم مجموعات الحروب الصليبية التى اوردت تقريبا اغلب ما كتب عن الحروب الصليبية ٠

واذا كانت هذه الرسالة صحيحة ، فمن أين استقاها القلقشندى وهو الذى ولى رئاسة ديوان الانشاء فى دولة سلاطين المماليك بعد قرنين تقريبا من تاريخ تلك الرسالة على أيام صلاح الدين ؟



الواقع ان انفراد القلقشندى بذكر هذه الرسالة فى كتابه صبح الأعشى ، مع اعراض من سبقه وخلفه من المؤرخين عن نقلها او الأخذ بها يجعلنا نشك فى صحتها ، وخاصة بعد أن لمسنا ما فاضت به من مشاعر ودية مبالغ فيها تجاه الصليبيين مما لا يتفق وروح العصر ٠ واذا كانت هذه الرسالة تعلوها مسحة من أسلوب القاضى الفاضل ، فاننا لا نستبعد أن يكون واضع الرسالة قد تعمد ذلك بمهارة ليزيل عنها الشكوك، ويضمن الصاق الرسالة بصلاح الدين ٠

. أن التاريخ يعتمد على الحقائق والأدلة والبراهين والرؤية المنطقية الصادقة وليس على مجرد العبارات الانشائية التى تنسب الى فرد أيا كانت مكانته ، والتى يعوزها الدليل والبرهان ٠ علينا أن نذكر أن صلاح الدين

كان له خصوم ، اما من اتباع الدولة الفاطمية وبقاياها واما من اتباع نور الدين محمود وأسرته · ولا نستبعد أن يكون واحد من هذا الفريق أو ذاك قد دس هذه الرسالة على سيرة صـــلاح الدين ليتشفى من ذلك البطل الذى اتصف بصدق الايمان وقوة العقيدة والحرص على كل ما فيه كرامة الاسلام والمسلمين ·

الهـــوامش

(١) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشـــا . القاهرة ١٩١٤ . جـ٧ ، ص ١١٥ ـ ١١٦ ·

وأنظر : المخطوط « صبح الأعشى فى صناعة الانشـــا ورقة رقم ١١٧ ، ١١٨ ، الجزء الرابع . المجلد الأول ، دار الكتب المصرية رقم ١٨٨٨٠ ز ميكروفيلم رقم ٢٤٣١٤

(٢) أنظر : سعيد عاشــور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام . القاهرة ، ١٩٩٠ ص ١٢ ـ ١٤ ·

(٣) ابن أيبك الدوادارى : الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب تحقيق : ســعيد عاشور . القاهرة ، ١٩٧٢م ، جـ٧ ، ص ٢٧ ·

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، القاهرة ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م ، جـ١١ ص١٢١، وأبو شـامة : الروضتين فى أخبار الدولتين لبنان ١٨٧١م ، جـ١ . ص ١٣٢ ، وسبط ابن الجوزى مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان الهند ١٩٥١م ، ق٢ ، جـ٨ . ص ٢٤٦ · وسعيد عاشور : الحركة الصليبية ، القاهرة ، ١٩٧٦م ، جـ٢ ، ص ٦٦٥ ـ ٦٦٦ · وستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، بيروت ١٩٦٨م ـ ١٩٦٩م ، جـ٢ ، ص ٥٩٥ ·

(٥) أبو شامة : مصدر سابق ، جـ١ ، ص ١٤٤ · وابن أيبك الدوادارى : مصدر سابق جـ٧ ، ص ٢٨ ، وابن الأثير : مصدر سابق جـ١١ ، ص ١٣١ ـ ١٣٢ · وانظر : ابراهيم الحنبلى : شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، مخطوط بدار الكتب ورقة ٠٧، وابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، تحقيق أحمد رفعت البدراوى ، بيروت ١٩٧٠م ، جـ٢ ، ص ١١١ · وابن كثير : البداية والنهاية بيروت ، ١٩٦٦م ، جـ١٢ ، ص ٢٥٢ ، وستيفن رنسيمان : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٦٠٦ ·

(٦) ابن الأثير : مصدر سابق جـ١١ ، ص ١٣٧ ، وأبو شامة : مصدر سابق ، جـ١ ، ص ١٦٠ ، وسعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ، ص ٦٨٣ ·

(٧) ابن الأثير : مصدر سابق جـ١١ ، ص ١٤٧ ·وسبط ابن الجوزى : مصدر سابق ق١ ، جـ٨ ، ص ٢٨٣ ، البندارى : سنا البرق الشامى ، تحقيق رمضان ششن ، بيروت ، ١٩٧١م ، ق١ ، ص ١٠٨ ·

عسقلان : من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ، ويقال لها عروس الشام استولى عليها الصليبيون فى جمـادى الآخـــرة ٥٤٨هـ/سبتمبر ١١٥٣م · انظر ياقوت الحموى : معجـــم البلدان ، بيـــروت ، ١٩٧٧م/١٣٩٧هـ ، جـ٢ ، ص ٤١ ·

- الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين انظر : ياقوت الحموى : نفس المصدر ، جـ٣ ، ص ٦٩ - ٧٠ ٠

(٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ٦٨٨ ٠

(٩) ابراهيم الحنبلى : مصدر سابق ورقم ٢٢ ٠ وابن الوردى : مصدر سابق جـ ٢ . ص ١٢٨ ٠ وابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق : محىالدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨ جـ٦ ، ص ١٦٥ ٠ والبندارى : مصدر سابق ق١ ، ص ١٦٩ ، وسعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ، ص ٧٠٥ - ٧٠٧ ، وستيفن رنسيمان : مرجع سابق جـ٢ ، ص ٦٥٠ ٠

(١٠) أبو شامة : مصدر سابق جـ١ ، ص ٢٤٣ ٠

(١١) ستيفن رنسيمان : مرجع سابق جـ٢ ، ص ٦٤٦ ٠ وسعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ، ص ٧٠٧ ٠

(١٢) سعيد عاشور : مرجع سابق جـ٢ ، ص ٧٠٨ ٠

(١٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ، ص ٧٢٠ - ٧٢٢ ٠

(١٤) ابن الوردى : مصدر سابق جـ٢ ، ص ١٣١ - ١٣٢ ٠

(١٥) أبو شامة : مصدر سابق ، جـ١ ، ص ٢٧٣ ، وابن شـــــداد : النوادر السلطانية ، تحقيق جمال الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ص ٥٣ ٠ وستيفن رنسيمان : مرجع سابق جـ٢ ، ص ٦٧٢ ٠

(١٦) سعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٢٧٤ - ٧٢٦ ٠

(١٧) Riemoud (M) : Notice sur La vie de Saladin, Sultand' Egypte et Syria, Journal Asiatique, Tome 5, pp. 226:237.

(١٨) مرج عيون : بسواحل الشام : انظر : ياقوت الحموى : مصدر سابق ، جـ٥ ، ص ١٠١ ٠

(١٩) شاهنشاه بن أيوب : مضمار الحقائق وسر الخلائق ، مخطوط بجامعة الدول العربية ، ورقة ٤٩ ، ٩ب ٠ وأبو شامة : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ١١ ٠

ابن الوردى : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ١٣٥ ، وابن كثير : مصدر سابق ، جـ١٢ ، ص ٣٠٢ ، وانظر : سعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٧٣٥ ٠

(٢٠) ستيفن رنسيمان : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٦٧٩ - ٦٨٠ ٠ وسعيد عاشور: مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٧٣٥ ٠

(٢١) ابن الوردى : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ١٤٠ ، وابن كثير : مصدر سابق، جـ١٢ ، ص ٣١١ ، وأبو شامة : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ٣٥ - ٣٧ ٠

(٢٢) سعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٧٤٤ ـ ٧٤٦ ٠

(٢٣) ابن شداد : مصدر سابق . ص ٦٢ ٠ وابن كثير مصدر سابق ، جـ١٢.ص ٣١٤ . وستيفن رنسيمان : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٧١١ ـ ٧١٢ ٠

(٢٤) ابن الأثير : مصدر سابق . جـ١١ ، ص ٢٠٦ وستيفن رنسيمان : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٧١٤ ٠

الجليل : تقع على ساحل الشام بين حمص ودمشق . انظر : ياقوت الحموى : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ ٠

نابلس : تقع بفلسطين . بينها وبين بيت المقـــدس عشرة فراسخ ٠ انظر : ياقوت الحموى : مصدر نفسه ، جـ٥ ، ص ٢٤٨ ٠

(٢٥) ستيفن رنسيمان : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٦٩٨ : ٦٩٩ ، ٧٠٢ : ٧٠٣ ٠

(٢٦) سعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٧١٠ ٠

(٢٧) حقق هذا الكتاب جمال الشيال ، القاهرة ١٩٦٤م ٠

(٢٨) الداروم : قلعة بعد غزة فى طريق القادم الى مصر ، بينها وبين البحر مقدار فرسخ . وقد خربها صلاح الدين عنـــدما ملك الســاحل سنة ٥٨٤هـ/١١١٨ ـ ١١٨٩م ٠ انظر : ياقوت الحموى : مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ٤٢٤ ٠

(٢٩) أبو شامة : مصدر سابق ، جـ١ . ص ٢٣٤ ٠

(٣٠) حقق القسم الأول من هذا الكتاب رمضان ششن ونشر فى بيروت ١٩٧١م٠

(٣١) الجزء السادس من هذا الكتاب حققه محمد محى الدين عبد الحميد ونشر فى القاهرة سنة ١٩٤٨م ٠

(٣٢) ابن شداد : مصدر سابق ، ص ١٢٦ ٠

CF : Rohricht (R.) : Op. Cit., No. 694, p. 185.

(٣٣) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، ق١ ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٣٠م ، ص ١٢٢ ٠ وسعيد عاشور : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص ٧٩٤ ـ ٧٩٥ ، ونظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، القاهرة ١٩٥٧م ، ص ٢٠٢ ٠

CF : Brand (Charles-M) : The Byzantines and Saladin (VV85-1192), Speculum V. 37, America, 1962, pp. 168.

(٣٤) انظر : عمر كمال توفيق : مرجع سابق ، ص ١٥٥ ـ ١٥٧ ٠

(٣٥) لمزيد من المقارنة انظر :

القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، جـ٧ ، ص ١١٨ ، جـ٨ ، ص ٤٧ ـ ٤٨ ، وذلك على سبيل المثال لا الحصر ٠

مصادر ومراجع البحث :

أولا : المصادر والمراجع العربية والمترجمة :

— ابن الأثير : (أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الملقب بالجزرى) ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م .
الكامل فى التاريخ ، القاهرة ، ١٨٧٣م .

— أحمد عزت عبد الكريم :
مقدمة كتاب «أبو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعشى»، الجمعية المصرية التاريخية القاهرة ، ١٩٧٣م .

— ابن أيبك الدوادارى : ت ٧٣٣هـ/١٣٢١م
كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السابع ، الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب « تحقيق سعيد عاشور » ، القاهرة ، ١٩٧٢م .

— البندارى : (قوام الدين الفتح بن على)
سنا البرق الشامى ، القسم الأول تحقيق/رمضـــان ششن ، وهو مختصر البرق الشامى للعماد الأصفهانى ، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٧١م .

— سبط ابن الجوزى : (شمس الدين ابن المظفر يوسف بن قرا وغلى التركى) ت ٥٦٤هـ/١٢٥٧م .
مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، القسم الثانى ، الجزء الثامن ، الهند ١٩٥١م .

— الحنبلى : (قاضى القضاة أبو اليمن مجـــير الدين الحنبلى) ت ٩٢٨هـ/١٥١٩م
- الأنس الجليل بتاريخ القدس الخليل جزآن ، بيروت ١٩٧٣م.
- شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، مخطوط بدار الكتب .

ـــ ابن خلكان : (أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبى بكر) ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م ٠
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٠
ـ المجلد الثانى ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٩م ٠
ـ الجزء السادس ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨م ٠

ـــ ستيفن رنسيمان :
تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، ثلاثة أجزاء ، بيروت ، ٦٨ ـ ١٩٦٩م ٠

ـــ سعيد عاشور :
ـ الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، القاهرة ، ١٩٩٠م ٠
ـ الحركة الصليبية ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٧٦م ٠
ـ أبو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعشى ، مقال فى كتاب أبو العباس القلقشندى ، الجمعية المصرية التاريخية ، القاهرة ، ١٩٧٣م ٠

ـــ أبو شامة : (شهاب الدين ابن محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسى الشافعى) ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م ٠
كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، بيروت ، ١٨٧١م ٠

ـــ ابن شداد : (بهاء الدين) ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م ٠
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق جمال الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٤م ٠

ـــ شاهنشاه بن أيوب : (الملك المنصور محمد بن الملك المظفر عمر بن شاهشناه) ت ٦١٧هـ/٢٠ ـ ١٢٢١م ٠
مضمار الحقائق وسر الخلائق ، مخطوط بجامعة الدول العربية، حققه حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٦٨م ٠

— عبد القادر أحمد طليمات :

وثائق القلقشندى ، مقال فى كتاب « أبو العباس القلقشندى وكتابه صبح الأعشى » الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

— عمر كمـــال توفيق :

الدبلوماسية الاســلامية والعـــلاقات انســلمية مع الصليبيين ، الاسكندرية ، ١٩٨٦م .

— قـــدرى قلعجى :

صلاح الدين الأيوبى ، بيروت ، ١٩٦٦م .

— القلقشندى : (أبو العباس) ت ٨٢١هـ/١٤١٨م .

صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ، القاهرة ، ١٩١٤م .

ومخطوط بدار الكتب المصرية ، الجزء الرابع ، المجلد الأول رقم ١٨٨٨٠ز ميكروفيلم /٢٤٣١٤ .

— ابن كثير : (الحافظ الدمشقى) ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م .

البداية والنهاية ، بيروت ، ١٩٦٦م .

— محمد عبد الله عنان :

مقال فى كتاب « أبو العباس القلقشندى وكتــابه صبح الأعشى » الجمعية المصرية التاريخية ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

— محمد كامل الفقى :

الأدب فى العصر المملوكى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٧٦م.

— محمد ماهر حمادة :

وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى للعالم الاسلامى . (٤٨٩-١٢٠٦هـ/١٠٩٦ - ١٤٠٤م) بيروت ، ١٩٧٩م .

— المقريزى : (تقى الدين أحمد بن على) ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م ٠
السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، القسم الأول ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٣٠م ٠

— نظير حسان سعداوى :
- التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، القاهرة، ١٩٥٧م ٠
- الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ، القاهرة ، ١٩٦١م ٠

— ابن الوردى : (زين الدين على) ت ٧٥٠هـ/١٣٤٩م ٠
- تتمة المختصر فى أخبار البشر ، تحقيق أحمد رفعت البدراوى، بيروت ، ١٩٧٠م ٠

— ياقوت الحموى : (شهاب الدين أبو عبد الله) ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م
- معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٧٧م٠

ثانيا : المصادر والمراجع الأجنبية :

— Archer (T. A.) :
The Crusades The Story of the Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1919.

— Brand (C. M.) :
The Byzantines and Saladin (1185-1192), Speculum, V. 37, America, 1962.

— Conder (C. R.) :
The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1897.

— Duggan (A) :
The Story of the Crusades (1097-1291), London, 1963.

— Ehrenkreutz (A. S.) :

Saladin, Speculum, V. 49, New York, 1972.

— Jean (M.) and Brial (J.) :

Recueil Des Historiens Des Gaules et De La France, Paris, 1888.

— King (E. J.) :

The Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931.

— Michaud (J. F.) :

Histoire des Croisades, T. 2-3, Paris, 1816-1822.

— Poole (S.L.) :

Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, London, New York, 1898, 9162.

... Reinaud (M.) ·

Notice sur la vie de Saladin Sultan d'Egypte et Syrie, Journal Asiatique. T. 5, Paris, 1824.

— Rohricht (R.) :

Regesta Regni Hiersoloy Mitani (1091-1291) Berelin 1892.

— Setton (K. M.) :

A History of the Crusades, V. 1, New York, 1955, V. 2, London, 1962.

— Stevenson (W. B.) :

The Crusaders in the East, Beirut, 1969.

— Thatcher (O. J.) and McNeal (E. H.) :

A Source Book for Medieval History, America, 1905.

— Vinsofs (G.) :

Itinerary of Richard I and Others to the Holyland, London, 1848, New York, 1969.

— William of Tyre.

A History of Deeds Done Beyond the Sea, V. 1-2, Translated and Annotated by Babcock (E.A.), New York, 1943.

فتح الرياض وموقف القوى الكبرى منه

د٠ حيـــاة محمد البســـام(*)

أحوال نجد قبل قيام الدولة السعودية الأولى :

كانت بلاد نجد خاصة والجزيرة العربية عامة قبل قيام الشيخ محمد ابن عبد الوهاب بدعوته الاصلاحية الدينية فى القرن الثانى عشر للهجرة تعج بالخلافات السياسية ؛ اذ كان الفـــوى ينقض على الضعيف ، دون وجود قانون يحكم البلاد ٠ أما الوعى بأحكام الدين فكان ضعيفا ، مما أدى الى انتشار الخرافات والاوهام التى أساءت الى الدين الاسلامى ٠ وهكذا بدا أن الوضع فى هذه المنطقة يحتاج الى اصلاح دينى وسياسى فقيض الله لها ذلك المصـــلح الدينى الذى انبرى للقضـــاء على هـذه الخرافات ، وعمل على توحيد البلاد تحت اسم دولة يكون هدفها اقامة شرع الله ٠ أما عن هذا المصلح ـ وهو الشيخ محمد بن عبـــد الوهاب ـ فقد نشأ وتربى فى بيت دين وعلم ، اذ كان جده ســـليمان قاضـيا فى العيينة ، وأبوه رجل علم ، ومن هذا المنطلق برز الشيخ ليدعو أبناء بلده الى العودة لدين السلف الصالح ٠ وكانت هذه الدعوة بعد عودته من رحلاته العلمية بين نجد والحجاز والعراق والاحساء(١) ٠

والواقع ان دعوة الشيخ محمـــد بن عبـــد الوهاب كانت دينيـة اجتماعية ، مما جعله يصطدم بالكثيرين من المعارضين له ، فى البصرة وحريملاء والعيينة ، ولكن الله قيض له فى امارة العيينة أميرها (عثمان ابن معمر) الذى ساعده وسانده بالجهر فى دعوته الدينية الاصلاحية ؛ فخرج معه وقاما بهدم ما وضع على القبور من أنصاب وقباب ، ودمرا معاقل الشرك المنتشرة فى تلك المنطقة ؛ مما جعل خبره ينتشر فى أنحاء البلاد النجدية فازداد أعداؤه ٠ وهكذا حتى وصل خبره الى أمير الاحساء فى ذلك الوقت وكان يدعى سليمان بن محمد ابن عريعر ـ من بنى خالد

(*) قسم التاريخ ـ كلية الآداب ـ جامعة الملك عبد العزيز ٠

حكام الاحساء ذوى النفوذ القوى والسلطة النافذة فى غالبية بلاد نجد - فأرسل ذلك الحاكم خطابا الى أمير العيينة عثمان بن معمر يأمره بقتل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ٠ ولكن عثمان الذى تربطه بالشيخ صداقة قديمة أطلعه على هذه الرسالة وطلب منه مغادرة العيينة ، فغادرها فى عام ١٧٤٥م/١١٥٨هـ متجهـا الى الدرعيـة التى يحكمها محمـد بن سـعود (٢) ٠

وكان أن استقبل أمير الدرعية الشيخ محمد بن عبد الوهاب استقبالا حسنا وسانده فى نشر دعوته الاصلاحية ، وبذلك غدت الدرعية مركزا لطلاب العلم الذين يأتون من مختلف البلاد النجدية لطلب العلم على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ٠ وعندما ازدهرت الدرعية اقتصاديا مكنها ذلك من مد سلطانها على باقى أنحاء نجد وتوحيدها تحت لواء كلمة التوحيد ، ورفع راية الجهاد من أجل اعـلاء كلمة الحق ومناصرة دين الاسلام ٠ وكانت هذه هى الشـعارات التى رسمت لخطة التوسع للدولة السعودية ، فدارت معارك طاحنة بين الأمير محمد بن سعود يسانده الشيخ محمد ، وبين أمير الرياض دهام بن دواس ٠ وكان النصر حليف محمد بن سـعود ، الذى استطاع انزال الهـزيمة بخصـمه وضـم الرياض والوشم وسدير الى الدرعية ٠ ويعتبر هذا النصر نواة لتأسيس الدولة السعودية الأولى ، حيث واصل محمد بن سعود جهاده حتى ضم غالبية مناطق نجد (٣) ٠

وقد أراد زعيم بنى خالد حاكم الاحساء ويدعى عريعر بن دجين أن يضرب هذه الدعوة فى مهدها فحاول تثبيط عـزم زعيم الدرعية ، ولكنه فشل فى ذلك مما زاد من حماسة جنود الدرعية ، وعلى رأسـهم زعيمهم محمد بن سعود ٠ لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، بل واجه دعوة الشيخ وقيام هذه الدولة الفتية خصم عنيد فى الحجاز هو شريف مكة المكرمة ، ويدعى غالب بن مساعد ، الذى أظهر العداء بعد أن خاف على سلطانه من امتداد نفوذ الدعوة ، مما جعله يقف فى وجهها ٠ وكانت الدعوة قد استطاعت أن تعصف بنفوذ بنى خالد فى الاحساء وتضمه تحت حكمها وتكوين دولة مستقلة تضم نجد والاحساء ٠ وبعـد ذلك تطلعت

لتخليص الحجاز من ظلم الشريف غالب ، فزحفت جنود الدولة السعودية واستطاعت أن تضم الحجاز بعد أن منى الشريف بهزيمة ساحقة(٤) .

وهكذا فرضت الدولة السعودية سلطانها على الحجاز وصارت تهيمن على الأماكن المقدسة فى كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة ، مما جعل الدولة العثمانية تشعر باهتزاز مكانتها الدينية فى نظر العالم الاسلامى . وقد رأت الدولة العثمانية فى الدولة السعودية خطرا يهدد هيبتها فى نظر المسلمين ؛ لذا قررت استعادة مكانتها فى شبه الجزيرة العربية فأرسلت جيوشها ، أو ما أسمته الحملة الأولى ، تحت قيادة طوسون باشا ابن محمد على . ولكن هذه الحملة تكبدت خسائر فادحة وقتل فيها طوسون ، فاتبعتها بحملة ثانية تحت قيادة ابراهيم باشا الذى دخل نجد ودمرها وأحدث بها الخراب ، وخاصة الدرعية (عاصمة آل سعود) التى خربها ودمرها تدميرا ، ثم غادرها بعد أن وضع عليها واليا من قبله(٥).

ولا شك فى أن سقوط الدرعية يعنى سقوط الدولة السعودية الأولى ، ولكن ذلك لم يكن معناه انتهاء هذه الدولة ، وانما كان بمثابة غيابها لفترة وجيزة عن الساحة السياسية حيث أن ذكراها لم تغب عن نفوس الكثير من النجديين الذين أحبوا أفراد هذه الأسرة وما قامت به من مساعدة لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب . ومن جهة أخرى فان آراء وتعاليم هذه الدعوة ظلت راسخة فى أذهانهم ، يضاف الى ذلك المخاوف من تزايد أطماع الدول الأجنبية فى سواحل الخليج ، وبخاصة النفوذ البريطانى الذى أخذ ينتشر على السواحل العربية .

وسرعان ما عادت الأسرة السعودية الى الظهور على مسرح الأحداث السياسية على يد أحد أبنائها - ويدعى تركى بن عبد الله - الذى يعتبر المؤسس الأول لهذه الدولة . وقد اتخذ من الرياض عاصمة له بعد تدمير الدرعية على يد جنود ابراهيم باشا . ثم خلفه فى الملك ابنه فيصل الذى يعتبر المؤسس الثانى للدولة(٦) .

وسرعان ما ازدهرت الدولة السعودية الثانية واسترجعت ما ضاع منها من أملاك ، وعندئذ بدأ الخطر يلوح بظهور قوة جديدة منافسة لقوة

آل سعود هى قوة آل الرشيد فى حائل ، وخاصة بعد أن ألقى القبض على فيصل بن تركى وأرسل الى مصر . وكانت تلك الحقبة الزمنية مرحلة توقف للدولة السعودية الثانية ، ولكنها عادت للظهور مرة أخرى بقيادة فيصل بن تركى نفسه الذى حكم البلاد مرة أخرى وبسط سلطانه عليها حتى وصل الى الحجاز وعسـير . ولم تستقر الأمور بعد وفاته الا فترة وجيزة ، اذ دب الخلاف بين أولاده مما جعل ابن الرشيد فى حائل- وهو الذى كان يتحين الفرصة - ينقض على حكم آل سعود ويسيطر على نجد برمتها . وكان أن خرج الامام عبد الرحمن بن فيصـل « والد الملك عبد العـزيز » ترافقه أسرته من الرياض الى منطقـة الخليج بعـد أن جال فى الصحراء مدة من الزمن ثم استقر بالكويت حيث لقى هو وأسرته الترحاب من حكام هذه المنطقة من آل الصباح(٧) .

وقد بقى عبد العزيز فى الكويت فترة،يتطلع الى حكم أجداده الذى سلب منهم ، حتى صمم على استعادته وأحياء الدولة السـعودية الثالثة تحت راية التوحيد ، وتم له ذلك فأسس المملكة العربية السعودية .

نشأة عبد العزيز وتربيته :

ولد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركى بن عبد الله آل سعود فى مدينة الرياض بقصر الامارة المعروف بالصفاة فى التاسع عشر من ذى الحجة عام ١٢٩٧ هـ الموافق ١٨٨٠م . وكان مولده فى أسـرة حاكمة محبة للعلم ، هيأت له أسباب التعليم فتعلم القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن كاملا ، ثم أخذ يتدرب على ممارسة الفروسية بكل ضروبها من ركوب الخيل وفنون القتال واستعمال آلات الحرب حتى أجادها وهو مازال صبيا . يضاف الى ذلك ماعرف به عبد العزيز من حدة الطبع وشدة الذكاء ، وحب الحركة ، وتطلع للزعامة منذ طفولته(١) .

وقد شهد عبد العزيز بن عبد الرحمن الخلاف الذى دب بين أفراد أسرته قبل رحيلهم الى الكويت ، وعاصر الظروف الصعبة التى مرت بها الأسرة ، وعاش شطرا من حياته فى كل من البحرين والكويت ، فى

حين رأى بلاده (نجد) وقد سيطر عليها آل الرشيد مما جعله يزداد تصميما على الاستعداد للقتال (٢) .

وفى ذلك الوقت أخذ آل الرشيد يحكمون سيطرتهم على نجد تحت قيادة عبد العزيز بن متعب بن الرشيد ، وذلك فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى . وتم ذلك بمساندة الدولة العثمانية التى كانت المهيمنة على العالم الاسلامى فى ذلك الوقت . ثم كان أن أخذ عبد العزيز بن الرشيد يتطلع الى الكويت طامعا فى أن تكون له حدود ساحلية تطل على هذا الممر الهام الذى يعتبر شريان الحياة وهمزة الوصل بين الشرق والغرب ؛ اذ كانت بلاده من البلاد الداخلية التى تفتقر الى سواحل لتغذية نشاطها الاقتصادى . ومن هذا المنطلق فكر ابن الرشيد فى ضم الكويت الى أملاكه ؛ ولكن هذا لم يكن بالأمر اليسير ، خاصة بعد أن تضامنت قبائل المنتفك مع أمير الكويت مبارك آل الصباح لصد هجوم ابن الرشيد. وقد ساندت هذه القبيلة - المنتفك - قبائل أخرى منها آل مرة ومطير وعجمان (٣) .

وما أن حل عام ١٣١٩هـ (١٩٠١م) حتى بدأت المواجهة الحقيقية بين الطرفين المتنازعين (مبارك وابن الرشيد) ، فشن ابن الرشيد هجوما على أطراف الكويت ، واستطاع مبارك صد ذلك الهجوم ، وأخذ فى تشجيع الصبى عبد العزيز بن عبد الرحمن ، الذى كان يراوده الأمل فى استرجاع حكم أجداده . وعندما اشتبك عبد العزيز بن الرشيد مع مبارك حاكم الكويت فى معركة الطريق ، انتهز عبد العزيز بن عبد الرحمن الفرصة - وهى انشغال قوات ابن الرشيد فى تلك المعركة - وسار بأعوانه ، بعد أن أخذ موافقة مبارك ، لفتح الرياض . ولكن ابن الرشيد استطاع أن يهزم قوات مبارك اذ أنزل بهم هزيمة ساحقة ، هم ومن ساعدهم ، واسترد أرضهم وفرض عليهم ضرائب باهظة ونزع أسلحة أهلها (٤) .

فتح الرياض :

والواقع ان عبد العزيز كان يعد نفسه لفتح الرياض واسترجاع ملك

الأجداد منذ نعومة أظفاره . وقد وجد الفرصة مواتية بعد موقعة الصريف التى كانت بين ابن الرشيد ومبارك آل الصباح ، والتى انتهت بهزيمة مبارك ، مما ساعد ابن الرشيد على بسط نفوذه على البلاد النجـــدية بأسرها واحكام سلطانه عليها(١) .

وقد رأينا كيف أن عبد العزيز بن عبد الرحمن انتهز فرصة انشغال عبد العزيز بن الرشيد فى معـــركته مع مبارك ومحاولاته لضم الكويت تحت نفوذه ، وسعى لتنفيذ ما كان يصبو اليه ، بعد أن أقنع مبارك بأن يسير بجيشه لمحاربة خصمه ابن الرشيد وفتح جبهة ثانية أمامه ، مما يؤدى الى تشتت قواته وضعف مقاومته .

ونالت هذه الخطة استحسان أمير الكويت وشجع عبد العزيز على ذلك ، فسار الأخير بجيشه من الشوكى حتى وصل بعد يومين الى أسوار الرياض . وحين وصوله اليها تصدت له حاميتها التى كانت بقيـــادة عبد الرحمن بن ضبعان . لكن عبد العـــزيز استطاع أن يدخل الرياض بقواته مما اضطر الحامية الى الاحتماء بحصـــنها المعـــروف باســـم المصمك(٢) .

وكان أن استنجد عبد العزيز بن الرشيد بالدولة العثمانية لترسل له قوات مساندة حتى يستطيع احتلال الكويت ، فاستجابت له وأرسلت احدى سفنها لهذا الغرض . ولـــكن بريطانيا التى كانت ترقب الموقف أجبرت السفينة العثمانية على الانسحاب تنفيذا لاتفاقية الحماية(٣) .

وبعد تحصن الحامية فى المصمك وصل خبر انهزام الشيخ مبارك أمام ابن الرشيد الى عبد العزيز بن عبد الرحمن ، فاضطر عبد العزيز للانسحاب من الرياض بعد أن مكث بها حوالى أربعة أشهر . لكن خروجه هذه المرة كان مؤقتا حيث أخذ يعد العدة للفتح الأكبر لهـــذه المدينة . يضاف الى ذلك أن هذه الحملة أكسبت عبد العـــزيز خبرة فى طـــرق الصحراء وما بها من صعاب لأنه عاش فى صحراء النفود المعروفة بقسوتها وشدة حرارتها أياما(٤) .

وعلى الرغم من فشل هــــذه المحاولة لفتح الرياض ، وانسحاب عبد العزيز ، الا أن ذلك كان حافزا لهذا الشاب الطموح للقيام بمحاولة اخرى، بعد ان رسم لها خطة محكمة ٠ ذلك أنه عرف الرياض واحس بما يكنه اهلها لأسرته من محبة ، فعاود المحاولة مرة أخرى فى عام ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م) ٠ وكانت خطته تلك المرة تستهدف ضرب القبائل التى تدين لابن الرشيد بالولاء ، حتى يضمن التفاف غالبية القبائل فى تلك المنطقة حوله ٠ وقد اعد لذلك جيشا مكونا من اربعين جملا وثلاثين بندقية وبعض العتاد ٠ وسار بهذا الجيش نحو هدفه بعد ان انضمت اليه بعض القبائل مثل عجمان وسبيع وآل مرة مما دعم جيشه ٠ ثم واصل السير فى صحراء الدهناء فضرب قبائل قحطان ومطير ونال منهم ما شد عزمه ٠ وفى ذلك الحين كان ابن الرشيد يحارب من اجـــل ضم الكويت ، وكانت قواته متمركزة على أطراف تلك المنطقة ، ولم يعر ما يقوم به عبد العزيز بن عبد الرحمن آى اهتمام بعد أن فشل فى حملته الأولى(٥) ٠

ولم يلبث أن احس عبد العزير بن الرشـــيد بخطورة ما يقوم به عبد العزيز بن عبد الرحمن ، فأخذ فى تهديد القبائل التى والت خصمه حتى استطاع أن يخرج بعضا منهم عن طاعة عبد العزيز خوفا من بطش ابن الرشيد ٠ ولم يكتف بذلك ، بل تقدم بشـــكوى الى الدولة العثمانية وشرح لها الخطر الذى يهدده من تحركات عبد العزيز ، مما دفع بالدولة الى ايقاف المعونة التى كانت تأتيه من الاحساء(٦) ٠

لكن عبد العزيز بن عبد الرحمن لم يكترث بما فرضــته عليه الدوله العثمانية من عقوبات ، بل واصل سيره الى الرياض حتى وصـــل الى منطقة تبعد عن هدفه حوالى سبعة كيلو مترات ٠ وهناك بقى بها أياما يعد جنده ومساعديه نهذا الفتح ٠ أما خطته فقامت على أن يدخل الرياض بعدد بسيط من الرجال قدر عددهم بحوالى أربعين رجلا ، حتى لا يشعر به أحد ٠ وسار بهؤلاء حتى وصل الى سور الرياض ، وهناك أبقى ثلاثا وثلاثين من رجاله خارج السور ، وأخذ معه سبعة رجال تسلق معهم سور المدينة حتى وصلوا الى منزل رجل يكن لآل سعود المحبة ، فمد لهم يد العون والمساعدة ، وعرف عبد العزيز وأخفاه فى منزله ٠ وفى الليل

استطاع أن يخرج متسللا الى منزل أمير الرياض من قبل آل الرشـيد ويدعى عجلان ؛ وكان عجلان هذا لا ينام فى منزله بل يذهب للمبيت فى المصمك الذى لا يبعد عن منزله الا حوالى مائة متر تقريبا(٧) .

وبقى عبد العزيز بن عبد الرحمن فى منزل عجـلان الى شروق الشمس ، وبعدها بقليل خرج عجلان من باب المصمك ومعه عـدد من جنوده غير المسلحين وسار يتفقد الخيل ، وما هى الا لحظات حتى كان عبد العزيز ورفاقه يصوبون اليه أفواه بنادقهم من الفتحات الموجودة فى جدران القصر ، فأحس عجلان بحركة غير عادية تحيط به ، وحاول العودة الى المصمك للاحتماء به . وفى هذه اللحظة انطلق عبد العزيز ومن معه نحوه وأغلقوا الباب فى وجهه وتسلل بعضهم الى داخل المصمك. ولكن عجلان استطاع الخلاص من قبضة عبد العزيز ودخل المصمك وأخذ يركض محاولا الصـعود الى الطابق الثانى . ولكن لم يتمكن من ذلك وكان عبد الله ابن جلوى يلاحقه الى أن ضربه بسيفه وقتله(٨) .

هكذا قتل عجلان ومعظم اعوانه ، واستسلم الباقون لعبد العزيز . وقد أخذ رفاق عبد العزيز فى مطاردة الفارين من أعوان عجلان ، فلاذ الكثير منهم بالفرار حتى وصلوا الى دار آل سويلم حيث استسلموا . هذا فى حين ترك عبد العـزيز أخاه محمـدا مع من بقى من الرجال فى محاصرة الحصن حتى استسلموا له ؛ وكان ذلك فى شـهر شوال عام ١٣١٩هـ الموافق ١٩٠٢م(٩) .

وبعد هذه المعركة استسلمت الرياض لعبد العزيز بعد أن أمن الجميع على أرواحهم وأموالهم . وكان أن اعلن فى الرياض أن حكم هذه المدينة عاد للمرة الثانية الى آل سعود ، واعتبر يوم الخامس من شهر شوال ١٣١٣هـ الموافق ١٥ يناير ١٩٠٢م يوما مشهودا فى تاريخ هذه المدينة . وقد خرج اليه أهالى الرياض فرحين بهذا النصر ، ومهنئين بعودة الحكم الى أسرة آل سعود التى اشتهر حكمها بنشر الأمن والعـدل فى أرجاء البلاد ، وخاصة بعدما قاسى أهالى الرياض الكثير من ظـلم عجلان وأعوانه(١٠) .

ولا شك فى ان عودة الرياض الى الحظيرة السعودية يعد حدثا تاريخيا كبيرا ، لفت أنظار العالم لهذه المنطقة وبخاصة الدولة العثمانية المهيمنة عندئذ على العالم الاسلامى عامة والعالم العربى خاصة ٠ وقد أخذت الدولة العثمانية تسترجع ما قام به أسلاف عبد العزيز من مد نفوذهم على غالبية أقاليم شبه الجزيرة العربية والخليج العربى ، حتى دخلت الأماكن المقدسة فى كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة تحت سلطانهم ، مما هز مكانة الدولة العثمانية الدينية ٠ لذلك أخذت ترقب الموقف بحذر وتحاول مد يد العون لابن الرشيد الذى لم يهتم كثيرا لهذا الحدث ، اذ كان همه الأكبر ضم الكويت الى أملاكه ٠ لذلك تمركز فى منطقة حفر الباطن ينتظر المدد من الدولة العثمانية الحامية له غير مهتم بما يدور حوله من أحداث فى الرياض ٠ وربما اعتقد أن استرجاع الرياض سيكون أمرا سهلا بعد ضم الكويت لما لهذه المنطقة من أهمية كبيرة(١١)٠

وفى هذه الأثناء أرسل عبد العزيز بن عبد الرحمن الىوالده والشيخ مبارك فى الكويت يعلمهما بما من الله عليه من نعمة النصر ، وأن هذا يعود بعد فضل الله الى ما أمداه به من تشجيع وعون ، حتى استطاع أن يقوم بهذا العمل ٠ وطلب من والده العودة الى الرياض ليتسلم حكمه الذى أنتزع منه ٠ ولكن الامام عبد الرحمن رفض هذا المنصب وتنازل عنه لأبنه البطل عبد العزيز الذى قبل هذه المهمة الصعبة برحابة صدر(١٢) ٠

وكان ان أخذ عبد العزيز ينظم شئون حكمه فى الرياض ويوسع رقعة ممتلكاته ، فبسط سلطانه على الخرج ، والحوطة ، والحريق ، والأفلاج ، حتى وصل الى وادى الدواسر ٠ وكان ينظم شئون كل منطقة يفتحها ويجعل فى كل منطقة دانت له بالطاعة جيشا معدا للدفاع عنها وعن أهلها من غزوات ابن الرشيد المتوقعة(١٣) ٠

وأخيرا انتبه ابن الرشيد الى خطورة ما يحدث فى الرياض ، فأعد جيشا كبيرا لاستعادتها ، وأعد خطة لهذا الغرض محورها فرض حصار اقتصادى على تلك المنطقة بأكملها٠لكن عبد العزيز بن عبد الرحمن

فطن الى ما كان يهدف اليه عبد العزيز الرشيد ، فعمد هو الآخر الى حيلة تجعل ابن الرشيد يكون فى حيرة من أمره • فأشاع أنه ينوى التوجه بفرقة من جيشه جنوبا ، مما جعل ابن الرشيد يخشى ذلك ، ويغير خطته لمنع عبد العزيز من التوسع جنوبا ، فاتجه هو بجيشه جنوبا • وعندئذ سار عبد العزيز بجيشه نحو الشمال مما أوقع ابن الرشـــيد فى حصار اقتصادى حيث استطاع عبد العزيز بن عبد الرحمن أن يقطع عليه طريق المواصلات والمدد • وأخيرا اشتبك الطرفان فى معــركة كان النصر فيها حليف عبد العزيز بن عبد الرحمن • وقد تكبد ابن الرشيد خسائر فادحة فى هذه المعركة مما اضطره الى الانسحاب من الدلم الى السليمة ، ولكن عبد العزيز لحق به وأنزل به هزيمة اخـــرى قضـــت على ما بقى لديه من أمل(١٤) •

وبعد هذه الهزيمة الساحقة تأكد لابن الرشيد أنه ليس باستطاعته استرجاع الرياض ، فشرع فى تحصين ما بقى تحت يده من مدن نجدية• ذلك ان عبد العزيز كان قد بسط سلطانه على نواحى نجد الجنوبية مما دفع ابن الرشيد الى تحصـــين الوشـــم ، وســـدير والمجمعة مخافة أن يشن عليها عبد العزيز هجوما ، ثم يضمها الى ملكه(١٥) •

أما ابن الرشيد فقد اتجه الى مدينة شقراء حيث ضمن وقوف أهلها الى جانبه ، ثم انتقل الى القصيم يتفقد أحوال أهلها هنـــاك ويحاول معرفة موقف أهلها حيال هذه الأوضاع الطارئة بعد انتشار خبر استرجاع الرياض وعودتها الى حكم آل سعود،مما جعل باقى المدن النجدية تنتظر الفرج على يد عبد العزيز بن عبد الرحمن ، والخـــــلاص من حكم آل الرشيد بسبب ما أصابهم من بلاء ومحن طوال فترة حكم ال الرشـــيد للبـــلاد(١٦) •

وما أن رأت القبائل والمدن النجدية اختلال ميزان القوى فى تلك المنطقة ورجوحه لصالح عبد العزيز الذى استطاع خلال فترة زمنية قصيرة وبجيش قليل العدة والعتاد أن يحكم نجد ويسيطر علىعاصمتها الرياض، بعد أن كان منذ وقت قصير لاجئا فى الكويت لا حول له ولا قوة ، حتى أخذت تنضم اليه وتدخل طاعته •

موقف القوى الكبرى فى الخليج من فتح الرياض :

لا شك فى ان ظهور عبد العزيز بن عبد الرحمن بهذه القوة السريعة اثار مخاوف الدولة العثمانية صاحبة السيادة على المنطقة والحامية لابن الرشيد فى نجد . وقد رأت الدولة العثمانية فى استرجاع السعوديين للرياض نذيرا بظهور الدعوة السلفية مرة اخرى ، وخاصة بعد نجاح تلك الدعوة فى ضم غالبية البلاد تحت سلطانه وبالاخص الأماكن المقدسه فى كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة ، فصلا عن بعض اقاليم الخليج مثل البحرين . لذلك رأت الدولة العثمانية فى عودة عبد العزيز بن عبد الرحمن تجديدا لمخاوفها . يضاف الى ذلك أن ظهوره واستقلاله بمناطق نجد ربما شكل مثلا يحتذى من قبل الدول العربية الاخرى . وفى ذلك الوقت كانت الدولة العثمانية تعانى من الضعف الذى اخذ ينتشر فى أجزائها المترامية ، بعد ان عمت الفوضى والاضطرابات كل جزء منها ، فظهرت العنصريات التى ساعدت على التفكك ، وانتشر الضعف الاقتصادى ودب الخور فى أوصالها وفصائل جيشها . وظهر هذا بوضوح فى حالة الجند العثمانى الموجودين فى منطقة القصيم ، اذ وصلت بهم الحال الى ان يبيع الجندى سلاحه من أجل لقمة العيش . يضف الى ذلك انسلاخ كثير من ولايات الدولة واستقلالها ، مثل اليمن التى انسلخت عن الدولة العثمانية بعد ثورة الامام يحيى بن حميد الدين عام ١٣٢٠هـ (١٩٠٤م) ، وكذلك بعض دول الخليج التى ارتبطت مع بريطانيا بمعاهدات لحماية نفسها ، دون استشارة الدولة ، مما كان له أثره فى موقف الدولة من فتح الرياض(١) .

ورغم كل ماسبق فقد أحس العثمانيون بالخطر الذى يهددهم من جراء تزايد قوى عبد العزيز بن عبد الرحمن ، فارادوا أن يحدوا من هذا النفوذ ومن هذه القوة عن طريق تعزيز قوة ابن الرشيد ضده ، مخافة امتداد نفوذه الى منطقة الاحساء والاتصال بالانجليز . لذلك ارسلت الدولة العثمانية لابن الرشيد جيشا مزودا بالعدة والعتاد لمساندته ضد خصمه ، واسترجاع ما ضاع له من أملاك . وكان أن انضم هذا الجيش العثمانى لجيش ابن الرشيد ، واشتبكا مع عبد العزيز بن عبد الرحمن فى معركة كبيرة عرفت باسم البكيرية ، وكان ذلك فى عام ١٩٠٤م/

١٣٢٢هـ ، حيث خطط عبد العزيز لضربة قاضية ضد خصمه ، فقرر تطويق الجيش العثمانى الرشيدى، حتى يوقعه فى شرك أعده له،فالتحم الفريقان فى معركة ضارية كانت فيها خسائر الفريقين جسيمة ، ولكن النصر فى النهاية كان حليف قوات عبد العزيز(٢) .

وبعد هذا الفشل الذريع الذى منيت به القـــوات العثمانية غيرت الدولة سياستها ، فأخذت فى التودد لابن سعود والتخلى عن ابن الرشيد، وعملت على التقرب من عبد العزيز صاحب القوة الجديدة فى المنطقة ؛ بعد أن أدرك السلطان عبد الحميد أنه من الصواب كسب ود عبد العزيز، وخاصة بعد أن تمكن الانجليز من احتلال عدن . يضـــاف الى ذلك أن الانجليز عمدوا الى ربط شيوخ مناطق الخليج بمعاهدات حماية ؛ لذا رأى السلطان العثمانى فى عبد العزيز المنقـــد فى هـذه المنطقة ، وأنه يستطيع بكسبه اياه الى جانبه ترقيع هيكل الدولة الذى بدأ يتصدع . وكان ان اعترفت الدولة العثمانية بما تحت يد عبد العزيز من أرض ، شريطة آن تضع الدولة العثمانية لها فى نجد مستشارين وقوات . ولكن عبدالعزيز وحكومته لم يقبلوا ذلك العرض(٣) .

ولم تيأس الدولة العثمانية ، وانما أخذت تكرر محاولاتها لضـــم عبدالعزيز الىصفها وعقد اتفاق معه بحيث تكون لها الكلمة العليافى نجد. لكن عبد العزيز بن عبد الرحمن رفض ذلك الاتجاه بتشجيع من والده الامام عبد الرحمن ، وهو ذلك السياسى المحنك صاحب النظرة السياسية الفاحصة ، الذى استطاع أن يعرف ما تهـــدف اليه الدولة العثمانية من وراء هذا الاتفاق . لذلك طلب من ولده أن يرفضه ، مما جعل الحرب تستأنف من جديد بين عبد العزيز وابن الرشيد ؛ فدارت معارك كثيرة كان النصر فيها بجانب عبد العزيز حتى انتهت بمعركة روضة مهنا عام ١٩٠٦م/١٣٢٤هـ وهى المعركة التى قتل فيها عبد العزيز بن الرشيد . وبموت ابن الرشيد استطاع عبد العزيز التخلص من معول الهدم الذى سلطته الدولة العثمانية لعرقلة مسيرته فاستطاع استرجاع ملك أجداده .

★ ★ ★

أما القوة الثانية فى الخليج التى كانت ترقب الموقف حيال فتح الرياض فهى بريطانيا ، التى حرصت على ان تكون على دارية بتطور الأحداث فى هذه المنطقة ٠ ولا شك فى أن بريطانيا كانت تخفى مخاوفها من تجدد الدولة السعودية للمرة الثالثة ، وهى التى ظلت تذكر المحاولتين السابقتين لاقامة الدولة السعودية الأولى والثانية ، وما كانتا تستمتعان به من نفود ومحبة فى نفوس أهالى منطقة الخليج ٠ كذلك عملت بريطانيا على الوقوف فى وجه أى قوة تظهر فى المنطقة بعد أن مرت بتجربة القواسم الذين اقلقوا راحتها ٠ لذلك أخذت ترقب الموقف بحذر ؛ حيث أن سياستها حالت بينها وبين التدخل فى الشئون الداخلية لأهالى المنطقة ٠ وكان اهتمامها ونشاطها منحصرا فى السواحل فقط ٠ وجاء ذلك فى الوقت الذى أخذ نفوذ هذا الشاب الطموح ـ عبد العزيز ـ يمتد الى السواحل فى المنطقة الشرقية من بلاده(٤)٠

وشاءت الظروف أن ظهور عبد العزير بن عبد الرحمن على مسرح الأحداث ـ والذى تمثل فى فتح الرياض واسترجاع ملك أجداده ـ صادف انشغال بريطانيا بأمور كثيرة هامة ، منها انشغالها فى صد أطماع الدول الأوربية عن منطقة الخليج ٠ وكان اهتمام بريطانيا بعدن يفوق اهتمامها بباقى المناطق ؛ لأن هذه المنطقة كانت أهم ميناء لها فى جنوب غرب الجزيرة العربية ٠ وقد حاولت بريطانيا شراء هذا الميناء فى مطلع القرن التاسع عشر من سلطان لحج ولكنه رفض طلبها هذا ، فما كان منها الا أن احتلته فى سنة ١٨٣٩م الموافق ١٢٥٥هـ ، ومن ثم فقد حرصت على بقائه فى قبضتها لأنها اعتبرت عدن قاعدة أساسية لها(٥)٠

والواقع أن بريطانيا شغلت عندئذ بعقد معاهدات الحماية مع مشايخ القبائل الخليجية ، وبالأخص مع القبائل القاطنة حول عدن مثل العبدلى والفصلى والعقرب والحوشى والعلوى ، ويافع السفلى ٠ وكانت تستهدف من وراء هذه المعاهدات الوقوف فى وجه التقدم العثمانى ، الى جانب مشاكلها الأخرى فى أوروبا ٠ وكل هذه المشاكل جعلت بريطانيا فى شغل شاغل عما يدور داخل الجزيرة العربية من أحداث وبالأخص عن فتح الرياض ٠

وهكذا أخذت بريطانيا تجدد محاولاتها للتودد لهذا الفاتح الجديد، وذلك لأحياء العلاقات الودية القديمة التى كانت تربطها بأسلافه حكام الدولة السعودية الأولى ، وخاصة أنه لم يتعـــرض للقبائل التى نربطها بها معاهدات حماية( ) ٠

الخاتمــــة :

وبعد ، فلعلنا قد توصلنا فى هذا البحث الى النتائج التالية :

أن بلاد نجد كانت قبل قيام الدولة الســـعودية الأولى تعيش فى فوضى واضطراب، اذ تسلط عليها الحكام الأقوياء أمثال بنى خالد فى الأحساء وفرضوا كلمتهم على أمراء المناطق الصغيرة ٠ ويعد حلف الدرعية الذى تم بين الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب بداية ظهور أول دولة ذات كيان سياسى منظم فى نجد ، وهو الكيان الذى امتد الى باقى المناطق المجاورة مثل الأحساء والحجاز ٠

وقد أوضحنا أن حملات محمد على باشا والتى كانت بقيادة ابراهيم باشا لم تقض على الأسرة السعودية الا لوقت محدد فى حين بقيت ذكراها راسخة فى نفوس أبناء نجد ٠ وكانوا يتحينون الفرصة لظهور أحد أفراد هذه الأسرة للالتفاف حوله ٠

وكان ظهور تركى بن عبد الله مؤشرا لعودة هذه الأسرة الى مسرح الأحداث السياسية ، فالتف حوله أبناء نجد وعادت الدولة الى الظهور فى طور جديد ٠

وبعد حملات ابراهيم باشا على نجد واختفاء الذور السعودى عن مسرح الأحداث ظهرت المطامع الأوروبية فى منطقة الخليج ٠ وقد تبين لنا أن عودة الدولة الســـعودية الثانية فى طورها الجـــديد كان قويا كسابقتها ، اذ بسطت سلطانها على شبه الجزيرة العربية برمتها ٠

أما عبد العزيز بن عبد الرحمن فقد عاصر مرحلة ضـــعف الدولة السعودية الثانية وانهيارها ، حتى انتهت باستيلاء آل الرشيد على الحكم

وخروج الامام عبد الرحمن وأفراد أسرته ومعهم عبد العزيز الى منطقة الخليج ، فاتجهوا للبحـــرين واستقروا بها بعض الوقت ثم انتقلوا الى الى الكويت التى قضى بها عبد العزيز فترة من طفولته ٠

كذلك أوضحنا ان عبد العزيز بن عبد الرحمن تربى تربية حربية، وتعلم فنون القتال ، وتدرب على استعمال الكثير من الاسلحة الحربية منذ صغره ٠

وقد تبين لنا أن عبد العزيز انتهز فرصة انشغال ابن الرشيد فى محاولاته الفاشلة لضم الكويت ، ودخل الرياض لأول مرة ، وبقى بهـــا قرابة الأربعة أشهر ، ثم انسحب منها ٠

وكانت محاولة عبد العزيز الأولى فى فتح الرياض درسا تلقاه فى معرفة الطرق المؤدية لهذه المدينة ، والصعاب التى تعترض طريقه فى الصحراء ٠ يضاف الى ذلك معـــــرفته بما يكنه أهلها من محبة لأسرته واستعدادهم للالتفاف حوله ٠

وقد توصلنا الى أن عبد العزيز بن الرشيد أنزل العقاب الشـــديد بأهالى وقبائل المناطق التى ساعدت مبارك فى معركة الطريف التى كان فيها النصر حليف ابن الرشيد ، ففرض عليهم عقوبات صارمة منها أنه قرر ضرائب باهظة عليهم ونزع أسلحتهم ٠

وبعد فتح الرياض الأول أخذ عبد العزيز بن عبد الرحمن يعد العدة للمواجهة مع ابن الرشيد ، فانتهز فرصة انشغال ابن الرشيد فى محاولاته لضم الكويت ودخل الرياض بعدد قليل من الرجال ، واستطاع أن يقتل أميرها من قبل آل الرشـيد (المدعو عجلان) بعد أن لجأ الأخير الى المصـمك ٠

ومن الواضح أن ابن الرشيد لم يعر دخول عبد العزيز الرياض أى اهتمام ، وظن أن الأمر سهلا وأن بامكانه استرجاع الرياض بيسر حين عودته ٠ ولم يعلم أن عبد العزيز أخذ فى تحصين هذه المنطقة وضـــم اليه بعض المناطق القريبة منها ٠

وقد حاول ابن الرشيد الاستنجاد بالدولة العثمانية لأخذ الكويت فاستجابت له وارسلت سفنها لنجدته ومساعدته ، لكن السفن البريطانية تصدت لهـــا ، وذلك بموجب معاهدات الحماية النى عقدتها بريطانيا مع الكويت ٠

واتضح لنا أن ابن الرشيد أحس بخطر عبد العزيز بن عبد الرحمن بعد فوات الأوان ، فأخذ فى تهديد القبائل التى انضمت اليـــه ، حتى استطاع أن يخرج بعضها عن طاعة عبد العزيز وذلك خوفا من بطشه ٠

كذلك تبين لنا أن العقـــوبات الاقتصادية التى فرضـــتها الدولة العثمانية على الرياض لم تثن عبد العزيز عن مواصلة جهوده لاسترجاع حكم أسرته ٠

وقد حاول عبد العزيز ترسية قواعد حكمه بأن بســـط نفوذه على على الخرج ، والحوطة ، والحريق ، والأفلاج الى أن وصل الى وادى الدواسر ٠ وحرص على أن ينظم شئون هذه المناطق المفتوحة ويكون فى كل واحدة منها جيشا من أهلها للدفاع عنها ٠

وأوضحنا أن ميزان القوى فى نجد اختل لفترة زمنية معينة بعد فتح الرياض ٠ ومن ثم رجحت كفته مع عبد العـــزيز بن عبد الرحمن الذى استطاع فى وقت قصير أن يبسط نفوذه على عدد كبير من المناطق التابعة للرياض ٠

وكان ظهور عبد العزيز بهـــذه القوة التى مكنته خـــلال مدة قصيرة من بسط سلطانه على الكثير من المنطق النجدية أمرا أثار مخاوف الدولة العثمانية ، التى استرجعت ما لهذه الأسرة من أمجاد عظيمة طوال الفترتين السابقتين التى حكمت خلالهما شـــبه الجزيرة العربية وبعض دول الخليج ٠

وتزامن فتح الرياض مع الضعف الذى سرى فى أوصـــال الدولة العثمانية وجعلها محط أطماع الدول الأوروبية بسبب انتشار الفوضى والاضطراب بين أجزائها المترامية ٠

وقد حاولت الدولة العثمانية ضـــم عبد العزيز بن عبد الرحمن ، فساومته على الاعتراف بما لديه من أراض مقابل تعيين مستشارين وقوات تابعة لها فى منطقة نجد . لكن طلبها هـذا رفض بعـــد استشارة والده عبد الرحمن ، اذ تبين أن الدولة العثمانية تهدف لارضاخ عبد العزيز لسلطانها .

ويتضح أن بريطانيا لم تتدخل فى الصراع الدائر بمنطقة نجد ؛ لأن سياستها فى هذه المناطق اتسمت بعدم التدخل فى الشئون الداخلية ، وكان جل اهتمامها مركزا على السواحل التى تســيطر عليها بما عقدته مع حكامها من معاهدات حماية .

وقد أخذت بريطانيا ترقب الموقف بحذر وتراقب تحركات عبدالعزيز ابن عبد الرحمن ، وكانت تحاول عــدم اقترابه من ســواحل الخليج ، لأن ذلك قد يعيد للأذهان ما قام به أســـلافه حكام الدولة الســعودية الأولى وجيرانهم القواســم من قوة هـــددت المصالح البريطانية فى تلك المنطقة .

وتوصلنا الى أن بريطانيا كانت تسعى لعدم ظهور قوة عربية تهدد مصالحها فى المنطقة وتضم تحت لوائها باقى حكام الخليج التى تسيطر عليهـــم .

ومن الواضح أن فتح الرياض وظهور عبد العـــزيز على مسرح الأحداث تزامن مع انشغال بريطانيا بعقـــد معاهدات حماية مع مشايخ القبائل الخليجية التى اســتهدفت من وراء العمـــل الوقوف فى وجه التقدم العثمانى .

ولكن بريطانيا لم تهمل مراقبة تحركات عبد العزيز ، وكذلك لم تخف خوفها من ظهوره كقوة عربية مستقلة قد تحذو حذوها باقى دول الخليج .

ولذلك حاولت بريطانيا كسب عبدالعزيز الىجانبها لاحياء العلاقات القديمة التى كانت تربطها بأسلافه حكام الدولة السعودية الأولى .

الهـــــوامش

(أ) التمهيـــــد :

(١) ابن بشر ، عنوان المجد فى تاريخ نجد ، ط١ ، ص ٧ ـ ٨ . البســـام ، عبد الله ، علماء نجد خلال ستة قرون ، ج٣ ، ص٨٩٦ ٠

(٢) الغرابية ، عبد الكريم ، قيام الدولة السعودية العربية ، ص ٤٤ ، العرينان، منيرة ، علاقة نجد بالقوى المحيطة ، ص ١٠٧ ، رسالة دكتوراه ٠

(٣) خزعل ، حسين خلف ، تاريخ الجزيرة فى عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ص ١٦١ ، العثيمين ، عبد الله ، الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص ٦٠ ٠

(٤) موزل . (تاريخ الدولة السعودية) مجلة العرب ، ج٣ ـ ٤ ، س ١١ ، ص ٢١٥ ، سبتمبر ـ أكتوبر ١٩٧٦م ، جمعة ، محمد كمال ، انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خارج الجزيرة العربية ، ص ٤٧ ، عطار ، أحمد ، محمد بن عبد الوهاب ، ص ١٢٤ ، ابن عيسى ، ابراهيم ، تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ، ص ١٢٥ ٠

(٥) عسه ، أحمد ، معجزة فوق الرمال ، ص ٢٣ ٠

(٦) الرشيد ، ضاوى ، نبذة تاريخية عن نجد ، ص ١٢٦ ، درويش ،مديحة ، تاريخ الدولة السعودية ، ص ٥٨ ، الزركلى ، خير الدين ، شبه جزيرة العرب فى عهد الملك عبد العزيز ، جـ١ ، ص ٤٦ ٠

(٧) المانع ، محمد ، توحيد المملكة ، ص ٣٦ ، ابن عيسى ، ابراهيم ، بعض حوادث نجد ، ص ١٩٦ ، بلغت ، الليدى آن ، رحلة الى بلاد نجد ، ص ٢٢٢ ٠

Alvin, J. Coltrell : The Persian Gulf States, P. 57.

(ب) نشـــأة عبد العزيز وتربيته :

(١) الزركلى ، خير الدين ، الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز ، ص ١٧ ٠

(٢) الدريب ، سعود ، الملك عبد العزيز ، ص ٩ ٠

(٣) الريحانى ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، جـ٥ ، ص ١١٢ ٠

Phil by, H. Saudi Arabia, P. 238.

(٤) المختار ، صلاح الدين ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، جـ٢ ، ص ٢٧ ، الخترش ، فتوح ، تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ، ص ٥٧ ، الزركلى،

خير الدين . الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز . ص ٢٣ . الجاسر . حمد . مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ ، ص ١١٥ .

Philby, H : Saudi Arabia, P. 239.

(ج) فتـــح الرياض :

(١) الريحانى . أمين ، تاريخ نجد الحديث . ج٥ ، ص ١٢٠ .

(٢) الزركلى : خير الدين ، الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز . ص ٢٢ .

(٣) القلعجى ، قدرى ، الخليج العربى ، ص ٤٦٩ .

(٤) حمزة ، فؤاد ، البلاد العربية السعودية ، ص ٢٠ .

(٥) الريحانى ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، ج٥ . ص ١٨٤ ، كشك ، محمد جلال . السعوديون والحل الاسلامى ، ص ٢٧٦ .

(٦) الريحانى . أمين . تاريخ نجد الحديث ، ج٥ ، ص ١٢١ ، المانع ، محمد ، توحيد المملكة العربية السعودية ، ص ٤٤ ، العرينان ، منيرة ، علاقة نجد بالقوى المحيطة . ص ١١٦ ـ ١١٧ .

(٧) العرينان ، منيرة ، علاقة نجد بالقوى المحيطة ، ص ١١٧ .

(٨) آل خميس ، ابراهيم ، أسود آل سعود ، ص ٩

(٩) آل خميس ، ابراهيم ، أسود آل سعود . ص ٩ .

(١٠) الريحانى ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، ج٥ ، ص ١٢٤ ، البـــديوى ، محمد عنير ، المتوكل على الودود عبد العزيز بن سعود ، ص ١٢٠ ، المانع ، محمد، توحيد المملكة العربية السعودية ، ص ٤٦ .

(١١) الحيدرى ، ابراهيم . عنوان المجد فى أحوال بغداد والبصرة ونجد ، ص ٨٥ ، الزمل عبد الله ، الملحمة الشعبية ، ص٦٤ ، الجمعة ، ابراهيم ، الأطلس التاريخى للدولة السعودية ، ص ١٣٨ .

(١٢) العرينان ، منيرة . علاقة نجد بالقوى المحيطة ، ص ١١٩ ، الخترش ، فتوح . تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ، ص ٦٧ .

(١٣) المختار صلاح الدين ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ج٢ ، ص ٤٦ الزركلى ، خير الدين ، الوجيز فى سيرة الملك عبد العزيز ، ص ٣٠ .

Armstrong, G : Lord of Arabia, P. 65.

(١٤) العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص ١٩٢ .

(١٥) آل عبد المحسن ، تذكرة أولى النهى والعرفان ، ج٢ ، ص ٥٠ ، رحمو ، محمد ابراهيم ، أضواء حول الاستراتيجية العسكرية ، ص ٧٠ ، ابراهيم ، سيد

محمد ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، ص ١٨٧ ، الريحانى ، أمين ، تاريخ نجد الحديث ، جـ٥ ، ص ١٣٢ ، فيلبى ، عبد الله ، تاريخ المملكة العربية السعودية ص١٩٠

(١٦) جمعة ، ابراهيم ، الأطلس التاريخى ، ص ١٣٩ ٠

(١٧) المختار ، صلاح ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، جـ٢ ، ص ٥٧ ٠

(١٨) المختار ، صلاح ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، جـ٢ ، ص ٥٢ ٠

(د) موقف القوى الكبرى فى الخليج من فتح الرياض :

(١) حمزة ، فؤاد ، قلب جزيرة العرب ، ص ١٤٠ ، داوود ، محمود ، الخليج العربى ، ص ١٤٦ ٠

(٢) درويش ، مديحة ، تاريخ الدولة السعودية ، ص ٨١ ٠

(٣) المختار ، صلاح ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، جـ٢ ، ص ٣٢ ٠

(٤) داوود ، محمود ، الخليج العربى ، ص ١٤٦ ٠

(٥) سالم ، مصطفى ، تكوين اليمن الحديث ، ص ٥٧ ، العرينان ، منيرة ، علاقة نجد بالقوى المحيطة ، ص ١٢٤ ، داوود ، محمود ، الخليج العربى ، ص١٤٦ ٠

6 — 1. O. No. 7 Dated on The 11th of January 1906, From Government of India Foreign Department To : His Majesty, S. Secrtary of State.R. 15, 1:556 For India.

قائمة المراجـع

١ - ابراهيم ، سيد محمد :
تاريخ المملكة العربية السعودية ، الرياض : ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

٢ - ابن بشر ، عثمان النجدى :
عنوان المجد فى تاريخ نجد ، جا ، الرياض ، بدون تاريخ .

٣ - البديوى ، محمد منير :
المتوكل على الودود عبد العزيز بن سعود ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

٤ - البســام ، عبد الله :
علماء نجد خلال ستة قرون ، مكة المكرمة ، ١٣٩٨ .

٥ - عيسى ، ابراهيم :
تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ، الرياض ، بدون تاريخ.

٦ - الجاسـر ، حمـد :
مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ ، مصر ، ١٣٨٦هـ .

٧ - جمعة ، ابراهيم :
الأطلس التاريخى للدولة السعودية ، بدون تاريخ .

٨ - جمعة ، محمد كمال :
انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خـارج الجـزيرة ،
الرياض ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

٩ - حمزة ، فـؤاد :
البلاد العربية السـعودية ، الطبعة الثانية ، الرياض ١٣٨٨هـ/
١٩٦٨م .

١٠ - الحميرى ، ابراهيم :
عنوان المجد فى أحوال بغداد ، والبصرة ، ونجد ، القاهرة ،
بدون تاريخ .

١١ ـ **الخترش ، فتوح :**
تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ، ١٨٩٠هـ/١٩٢١م ،
الكويت ، بدون تاريخ ٠

١٢ ـ **خزعل ، حسين خلف :**
تاريخ شبه الجزيرة العربية فى عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب،
بيروت ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ٠

١٣ ـ **داوود ، محمود :**
الخليج العربى والعلاقات الدوليـــة ، ١٨٩٠م/١٩١٤م ، جـ١ ،
القاهرة ، بدون تاريخ ٠

١٤ ـ **درويش ، مديحة :**
تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القـــرن العشرين ،
الطبعة الثانية ، جدة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ٠

١٥ ـ **الدريب ، ســـعود :**
الملك عبد العزيز ووضع قواعد التنظيم القضـائى فى المملـكة ،
جدة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ٠

١٦ ـ **آل عبد المحسن ، ابراهيم :**
تذكرة أولى النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث
الزمان ، الرياض ، بدون تاريخ ٠

١٧ ـ **رحمو ، محمد ابراهيم :**
أضواء على الاستراتيجية العسكرية للملك عبد العزيز فى حروبه،
الطبعة الثانية ، الرياض ، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م ٠

١٨ ـ **الرشـيد ، ضاوى :**
نبذة تاريخية عن نجد ، الظهران ، بدون تاريخ ٠

١٩ ـ **الزامل ، عبد اللـه العلى :**
الملحمة الشعبية فى تأسيس الملك عبد العـزيز آل سعود للمملـكة
العربية السعودية ، الرياض ، ١٣٩١هـ/١٩٧٩م ٠

٢٠ - **الزركلى ، خير الدين :**
شبه جزيرة العرب فى عهد الملك عبد العزيز ، جـ٢ ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧ .

٢١ - **سالم ، مصطفى :**
تكوين اليمن الحديث ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٢٢ - **عسه ، أحمد :**
معجزة فوق الرمال ، لبنان ، ١٩٦٥م .

٢٣ - **عطار ، أحمد :**
الشيخ محمد بن عبد الوهاب - حياته وفكره ، الرياض ، بدون تاريخ .

٢٥ - **العقاد ، صلاح :**
التيارات السياسية فى الخليج العربى ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

٢٦ - **الغرابية ، عبد الكريم :**
قيام الدولة السعودية العربية ، معهد البحوث والدراسات ، جامعة الدول العربية ، ١٩٧٤م .

٢٧ - **فلبى ، عبد الله :**
تاريخ المملكة العربية السعودية ، أو الذكرى العربية الذهبية ، ترجمة مصطفى كامل فايد ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م .

٢٨ - **القلعجى ، قدرى :**
الخليج العربى ، بيروت ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .

٢٩ - **كشك ، محمد :**
السعوديون والحل الاسلامى ،لندن ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

٣٠ - **مختار ، صلاح الدين :**
تاريخ المملكة العربية السعودية/ماضيها وحاضرها ، جـ٢ ،بيروت، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م .

٣١ ـ المانع ، محمـــد :
أسود آل سعود ، بدون تاريخ ٠

وثائق أجنبيـــة :

1 — I. O. No. 7 Dated, 11 January 1906, From Government Of India Foreign Department To:His Majesty's Secrtary of State For India, R 15, 1:556.

مراجع أجنبيـة :

1 — ALVIN, J. COTTRELL.
The Persian Gulf States.
United States Of America, 1980.

2 — ARMSTRONG.H.E.
Lord Of Arabia, Ibn Saud, London, 1934.

3 — PHILBY.J.
Saudi Arabia.
Lebanon Book Shop.
Beirut, 1968.

الدوريات :

١ ـ مجلة العرب ، ج٣ ـ ٤ السـنة الحادية عشر ، رمضان وشـــوال ١٩٣٦هـ ، سبتمبر وأكتوبر ١٩٧٦ ٠ ترجمة كتاب المستشرق لويس موزل ، تاريخ السعودية ٠

أضـــــواء جديدة على بعض
منشآت امراء المماليك فى القرنين السابع والثامن للهجــرة
(الثالث عشر والرابع عشر للميلاد)
منشآت الأمير الجاولى وسلار بمصر والشام

د٠ عبد الله كامل موسى عبده(*)

مقـــــــدمة :

يتصف عصر سلاطين المماليك فى مصر والشام بالثراء الكبير ، مما انعكست صورته فى الحياتين الاجتماعية والفنيـــة ، بوجـــه خاص ، والحضارية بوجه عام ٠ ومازالت بعض المنشآت الأثرية التى ترجع الى ذلك العصر قائمة على أرض مصر والشام تعبر عن روعة الفن وجماله من جهة ، وثراء سلاطين المماليك وامرائهم من جهة اخرى ٠

ومن هذه المنشات ما يرتبط باسمى اثنين من كبار أمراء المماليك ـ هما الأمير الجاولى والأمير سلار ـ ، وهى منشآت متعددة لم تحظ حتى الآن بقدر كاف من عناية الباحثين ٠ وفى هذا البحث نلقى مزيدا من الأضواء الجديدة على منشآت هذين الأميرين ٠

ولعله من المناسب فى هذه المقدمة أن نوضح أن الأميرين الجاولى وسلار ارتبطا سويا برباط وثيق من الصـــــداقة ، حتى أنهمـــا دفنا فى ضريحين متلاصقين ، الأمر الذى جعلنا نجمع بينهما فى هذه الدراسة ، بوصفهما يمثلان كيانا واحدا فى حلقة واحدة من حلقات التاريخ ٠

هذا ، ويشتمل البحث على الجوانب الآتية :

أولا : ترجمة للأميرين معا حتى عام ٧٠٦هـ/١٣٠٦م وهى السنة التى نفى فيها الجاولى الى دمشق ٠ ذلك أنه من الصعب الفصل بينهما

(*) قسم الآثار الاسلامية ـ كلية الآداب بقنا ـ جامعة جنوب الوادى ٠

خلال الفترة التاريخية التى امتدت من عهد السلطان العادل كتبغا وحتى سلطنة الملك الناصر محمد الثانية (٦٩٨ - ٧٠٨هـ/١٢٩٨ - ١٣٠٨م)، حيث ارتبط كل منهما بالآخر ارتباطا وثيقا .

ثانيا : أعمال الجاولى وسلار المعمارية بمصر وبلاد الشام ، وهى الأعمال التى لم تحظ بالقاء قدر كاف من الضوء عليها من قبل الباحثين، كما سبق أن أشرنا .

ثالثا : دراسة أثرية للمنشأة الدينية التى شـيدت بالكبش والتى اقترنت بهذين الأميرين فى ضوء عـدم العثور على وثيقة تثبت هـذه النسبة ، فضلا عن أن النصوص التاريخية المدونة على جدران هذه المنشأة لم تنسبها الى احدهما ، وقد تناولت هذه الدراسة الخاصة بالمنشأة مايلى:

أولا مناقشة الآراء حول منشئها .

ثانيا : مناقشة الآراء حول تسـميتها وماهية الوظيفة التى كانت تؤديهـا .

ثالثا : دراسة تحليلية للواجهة والتخطيط من الداخل ، والقباب الضريحية .

الجاولى وسـلار :

أما عن الجاولى فهو سـنجر بن عبد اللـه الجاولى الأمير الكبير علم الدين أبو سـعيد(١) الشـافعى(٢) الملـكى(٣) الناصرى(٤) المنصورى(٥) . ولد بآمد(٦) فى عام ٦٥٣هـ/١٢٥٥م ، ثم صار من مماليك الأمير جاول أحد أمراء السلطان الظاهر بيبرس فعرف بالجاولى نسبة اليه ، وقد عرف والده بالمشد ، ثم انتقل الى بيت المنصور قلاوون فعرف بالمنصورى(٧) .

خرج الجاولى فى عهد السلطان الاشرف خليل بن قلاوون ٦٨٧ - ٦٩٣هـ/١٢٩٠ - ١٢٩٣م الى الكرك(٨) واستقر فى جملة البحرية بها الى أيام السلطان العـادل زين الدين كتبغا ٦٩٣ - ٦٩٦هـ/١٢٩٣ - ١٢٩٧م ، ثم قدم الى مصر فى عهده بحال زرى ، فسلمه السلطان الى

مملوكه بشخاص ليكون نائبه بالحوائجخاناه(٩) ، ثم اقامه على الخوشخانة السلطانية(١٠) .

وقد صحب الجاولى فى ذلك الوقت سلار بن عبد الله الأمير سيف الدين الملكى الناصرى المنصورى(١١) . وكان الأمير سلار تركى الجنس،وكان أبوه أمير شكار (أمير الصيد)(١٢) عند صاحب الروم.فلما غزا الملك الظاهر بيبرس التتار والروم كان سلار ممن أسر فاشتراه قلاوون واعطاه لولده الصالح صالح . وبعد موت الصالح عاد الى ملك المنصور قلاوون ثانيا وصار من أعيان مماليكه ، ثم صار فى خدمة السلطان الاشرف خليل من جملة أعيان الأمراء الى ان قتل عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م(١٣) .

وفى سلطنة الملك المنصور حسام الدين لاجين ٦٩٦ ـ ٦٩٨هـ/ ١٢٩٧ ـ ١٢٩٩م استقر الرأى على نزول الخليفة العباسى من القلعة الى مناظر الكبش(١٤) ، وابعاد الملك الناصر محمد الى الكرك.وكان سلار من الأمراء الذين اشترطوا على لاجين أن يكون كأحدهم ولا ينفرد برأى عنهم ولا يسلط يد أحد من مماليكه ؛ فلما تسلطن رتب سلار استادارا(١٥) .

ثم كان أن اتفق الأمراء علىاعادة الملكالناصر محمد من الكرك فكانت سلطنته الثانية ٦٩٨ ـ ٧٠٨هـ/١٢٩٨ ـ ١٣٠٨م . وقد توجه من القاهرة بطلبه الأمير الحاج آل ملك والأمير الجاولى ، وذلك بعد قتل السلطان لاجين . وولى السلطان الناصر الأمير سلار نيابة السلطنة(١٦) ، فقد أورد ابن حبيب ما نصه « وفى جمادى الأولى منها ولى الأمير سيفالدين سلار المنصورى نيابة السلطنة بالديار المصرية عوضا عن الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامى بحكم قتله »(١٧) .

مما تقدم يتضح أن بداية صحبة الجاولى لسلار كانت فى سلطنة الملك العادل زين الدين كتبغا ، وقد توطدت هذه الصداقة فى سلطنة الناصر محمد الثانية . وترتب على ذلك أن صار الجاولى يدخل على الملك الناصر ويخرج ويراعى مصالحه فى أمر الطعام ويتقرب اليه ، حتى صار استادارا(١٨) .

ويتضح ذلك من النص التأسيسى لضريح سلار والذى ينص على انه كان يشغل وظيفة « نائب السلطنة المعظمة » ، كمـــا يتضح من النص التأسيسى لضريح الجاولى انه كان يشغل وظيفة « استادار العالية » ، وذلك فى سلطنة الملك الناصر محمد الثانية ، وكـــل من النصين مؤرخ بتاريخ سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م ٠

وفيما يتعلق بالجانب الأثرى ، فان سلطنة الملك الناصر محمد الثانية فى عام ٧٠٣هـ/١٣٠٣م شهدت الفراغ من عمارة منشأة دينية على قدر كبير الأهمية من الناحيتين المعمارية والزخرفية ، اقترنت بهذين الأميرين : علم الدين سنجر الجاولى وسيف الدين سلار المنصورى ٠ وقد أدى ذلك الى خلاف فى الرأى حول نسبتها الى أى منهما ٠ كذلك حدث خلاف حول تسميتها ، وماهية الوظيفة التى كانت تؤديها ، اذ نعتت بعدة مسميات فذكرت فى المصادر التاريخية والاثرية فى قائمة المدارس والخانقاوات والمساجد ، الأمر الذى سنتعرض له لاحقا بالبحث والدراسة ٠

أعمـــال ســـلار :

نهض الأمير سلار فى عام ٧٠٣هـ/١٣٠٣م وذلك عقب زلزلة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م بعمارة جامع عمرو بن العاص بفسطاط مصر ، والجامع الأزهر ، والجامع العمرى بمصر ٠ يقول المقريزى فيما يتعلق بجامع عمرو مانصه « وتولى الأمير سلار عمارة جامع عمرو بمصر ، فاعتمد سلار على كاتبه بدر الدين ابن خطاب فهدم الحد البحرى من سلم السطح الى باب الزيادة البحرية والشرقية واعاده على ما كان عليـــه »(١٩) ، اما فيما يتعلق بالجامع الأزهر فقد أورد ما نصه « وتولى الأمير ســـلار عمارة الجامع الأزهر »(٢٠) ، وفى ذلك يذكـــر بدر الدين العينى « وتصدى الأمير سيف الدين سلار لعمارة الجامع الأزهر واصلاحه واصلاح مأذنته واصلاح الواجهة التى وقعت ، وجدد فيه جميع أماكنه ، وبلطه وبيضه ، وانفق عليه نفقات كثيرة ، وكان للأمير شمس الدين سنقر الأعسر مشاركة له فى الجامع الأزهر(٢١)» ٠

كذلك أورد العينى فيما يتعلق بالجامع العمرى ما نصه « أصلح

الامير سيف الدين سلار نائب السلطنة ما هدم من الجامع العمرى بمصر وصرف عليه مالا جزيلا »(٢٢) .

وقد شهدت سلطنة الملك الناصر محمـــد الثانية فى عام ٧٠٦هـ/١٣٠٦م نزاعا كبيرا بين الأميرين بيبرس وسلار بسبب خلاف وقع بين كاتب بيبرس التاج بن سعيد الدولة وصديق سلار الامير الجاولى ، حيث قام بيبرس فى نصرة كاتبه وقام سلار فى نصرة صاحبه . وكادت الفتنة أن تقع بينهما ، ولكنهما استدركا أمرها خوفا من الملك الناصر ، وخرج تاج الدولة بخلعة الوزارة من دار النيابة بقلعة الجبل الى قاعة الصاحب بها ، فى حين أمسك بيبرس الأمير الجاولى وصادره ثم نفاه الى دمشق على امرة طبلخاناه(٢٣) ، وولى مكانه استادارا الأمير ايدمر الخطيرى. وبعد وصول الجاولى الى الشام بمدة انعم عليه باقطاع وامرة(٢٤) .

على أن السلطان الناصر محمد لم يلبث أن ضاق بالحجر عليه من قبل الأميرين بيبرس وسلار ، فخرج فى شوال ٧٠٨هـ/١٣٠٨م الى الكرك بعد أن تظاهر بتوجهه الى الحجاز الشريف.وهناك استقر بقلعتها مقيما وأعرض عن الملك (٢٥) .

وكان أن رأى الامراء تولية الأمير سلار عرش السلطنة ، ولكنه اعتذر خوفا من بيبرس ، فوقع اختيارهم على بيبرس وبايعوه بالسلطنة فى عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م ، وعين سلار نائبا للسلطنة . ومن مآثر سلار فى هذا العام بناء خان بحمراء بيســـان(٢٦) ، وهو ما أشار اليه ابن حبيب بقوله « وفيها بنى الأمير سيف الدين سلار المنصورى خانا بحمراء بيسان وحصل به رفق كثير للمسافرين »(٢٧) .

ومن ناحية أخرى ، فان نفوذ الناصر محمد أخذ يزداد أثناء اقامته بالكرك حتى صارت الأمور ممهدة له لاسترداد عرشه فى مصر وعندئذ خرج من دمشق فى رمضان ٧٠٩هـ/١٢٩٩م ودخل مصر حيث استقبل استقبالا حافلا شارك فيه سلار وبقية الأمـــراء ، وبذلك بدأت سلطنته الثالثـــة (٧٠٩ - ٧٤١هـ/١٣٠٩ - ١٣٤١م) . وكان سلار قد كتب الى الملك الناصر بنزول بيبرس عن الملك وسير بذلك اصلم الدوادار ، ثم خرج سلار للقائه ،

وقدم سماطا جليلا بلغت النفقة عليه اثنى عشر ألف درهم(٢٨) .

كذلك قدم سلار للملك الناصر عدة من المماليك والخيول والجمال وثياب القماش ما قيمته مائتا ألف درهم ، فقبل السلطان شيئا ورد الباقى . وطلب سلار الاعفاء من الامرة والنيابة وان ينعم عليه بالشوبك(٢٩) فأجيب الى ذلك . ولما فرغ السلطان من أمر بيبرس وأصحابه ولم يبق عنده من يخشاه سوى سلار ، كتب اليه كتابا بحضوره فاعتذر سلار ، ثم أرسل السلطان الأميرين بيبرس الدوادار وسنجر الجاولى لاحضاره ، فوعدهما ان يحضر وكتب بذلك ، وبعد ان استشار سلار أصحابه توجه الى مصر فقبض عليه وسجن بقلعة الجبل(٣٠) ، حيث توفى بعد قليل ، فى ربيع الآخر سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م ، وقيل فى العشرين من جمادى الآخرة(٣١) .

وأغلب الظن أنه توفى فى ربيع الآخر ، فقد أورد ابن حبيب ما نصه « وفى سلخ ربيع الآخر منها قبض على الأمير سلار»(٣٢) . وكان سلار ذا حشمة ورياسة ، اقترح أشياء من الملابس كثيرة مثل السلارى وغيره(٣٣) . ومن جملة صدقاته أنه بعث الى مكة فى عام ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م فى البحر عشرة آلاف أردب قمح ففرقت فى أهل مكة . وكذا فعل بالمدينة . وكان فارسا اذا لعب الكرة لا يرى فى ثيابه عرق وكذا فى الرمح . وله اليد البيضاء فى قتال التتار . وكان رنكه(٣٤) أبيض وأسود(٣٥) .

وقد أذن السلطان للجاولى أن يتولى خزانة سلار وجنازته ودفنه فدفن بتربته عند الكبش ، وأخذ السلطان ما كان له من الرزق(٣٦) وغيرها وأضاف ذلك لخاص السلطان(٣٧) .

أعمال الجاولى فى الشام :

أما عن الجاولى فلم يزل بدمشق منذ نفاه بيبرس الى أن تحرك الناصر محمد من الكرك ، ولم يكن له فى سلطنة الملك المظفر ركن الدين بيبرس حل ولا عقد ولذلك قدم مع الناصر محمد الى مصر حيث ولاه وظيفة شد الدواوين(٣٨) .

وقد ظل الجاولى بمصر حتى ولاه الملك الناصر نيـــابة غزة فى جمادى الأولى ٧١١هـ/١٣١١م وأضاف اليه الســـاحل والقـــدس وبلد الخليل(٣٩) وجبل نابلس(٤٠) كما اعطاه اقطاعا كبيرا ، بحيث كان للواحد من مماليكه اقطاع بعمل عشرين الفا وخمسة وعشرين ألفا(٤١)٠

وكانت غزة تارة تكون نيابة وتارة تكون تقدمة عسكر ، ومقدم العسكر بها يراجع نائب الشام فى أموره ٠ وقد أورد القلقشندى نسخة تقليد بنيابة غزة كتب به للأمير علم الدين الجاولى من أنشـــاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى ، كما أورد نسخة تقليد بتقدمة العسكر بغزة المحروسة(٤٢) ٠

وقد شهدت غزة نهضة عمرانية كبيرة فى عهد الجاولى ، بل أنه يمكن القول ان الجاولى يعد من خيرة النواب الذين تولوا غزة خـــلال العصر المملوكى، فقد أورد ابن حبيب ما نصه «ولى نيابة غزة عدة سنين، ومدنها ومضرها ، وعمـــر بها جامعـــا محكما ، ومدرســـة للشافعية وبيمارستانا ، وقصرا للنيابة ، وحماما انيقا ، وخانا للسبيل ، وله أوقاف غير ذلك ، وبر ومعروف(٤٣)» ، وكان أن شهدت مدينة غزة فى عهد الجاولى ازدهارا كبيرا فى منشآتها الدينية والمدنية والحربية ٠ وتميزت هذه المنشآت بالروعة والفخامة ٠ وقد أورد ابن بطوطة ـ وهو معاصر ـ وصفا رائعا لمدينة غزة ، فقال ما نصه « ثم سرنا حتى وصلنا الى مدينة غزة ، وهى أول بلاد الشام مما يلى مصر ، متسعة الأقطار ، كثـــيرة العمارة ، حسنة الأسواق ، بها المساجد العديدة والأسوار عليها ، وكان بها مسجد جامع حسن(٤٤)» ٠

كذلك شهدت بقية المدن التى اضيفت للجاولى ازدهارا كبيرا ، فقد أورد ابن بطوطة عند زيارته الخليل « وهى مدينة صغيرة المساحة ، كبيرة المقدار ، مشرقة الأنوار ، حسنة المنظر ، عجيبة المخبر ، فى بطن واد ، ومسجدها أنيق الصنعة ، محكم العمل ، بديع الحسن ، سامى الارتفاع، مبنى بالصخر المنحوت(٤٥)» ٠

أما بيت المقدس فقد قال عنها « ثم وصلنا الى بيت المقدس شرفه الله ، ثالث المسجدين الشريفين فى رتبة الفضل ، ومصعد رسول الله ﷺ تسليما ، ومعرجه الى السماء ، والبلد كبيرة منيفة بالصخر المنحوت(٤٦) » .

كذلك قال عن الرملة ما نصه « ثم سافرت منها (عسقلان) الى مدينة الرملة وهى فلسطين ، مدينة كبيرة كثيرة الخيرات ، حسنة الأسواق ، وبها الجامع الابيض(٤٧) » . ثم قال عن نابلس « ثم خرجت منها (الرملة) الى مدينة نابلس ، وهى مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الانهار من أكثر بلاد الشام زيتونا ، ومنها يحمل الزيت الى مصر ودمشق، وبها تصنع حلواء الخروب ، وتجلب الى دمشق وغيرها ... والمسجد الجامع فى نهاية الاتقان والحسن ، وفى وسطه بركة ماء عذب(٤٨) » .

وقد تميزت عمائر الجاولى بالروعة والفخامة ، أورد ابن بطوطة وصفا رائعا للجامع الجاولى بغزة ، فقال « والمسجد الذى تقام به الجمعة فيها بناء الأمير المعظم الجاولى ، وهو أنيق البناء ، محكم الصنعة ومنبره من الرخام الأبيض(٤٩) » .

ويقع هذا الجامع فى الطرف الجنوبى الشرقى لمدينة غزة . وقد أمدنا القاضى مجير الدين الحنبلى فى الأنس الجليل بمعلومات غاية فى الأهمية عن هذا المسجد ، حيث يقول « ويظاهر السور السليمانى من جهة الشرق مسجد فى غاية الحسن،وبين السور السليمانى وهذا المسجد الدهليز وهو معقود مستطيل عليه الابهة والوقار ، والذى عمر هذا الدهليز والمسجد الأمير أبو سعيد الجاولى ناظر الحرمين الشريفين (حرم الخليل عليه السلام ، وحرم القدس) ونائب السلطنة،فعرف هذا المسجد بالجاولية وهو من العجائب(٥٠) » .

وقد ورد فى الأنس الجليل ان الابتداء فى عمارة هذا المسجد كان فى ربيع الآخر ٧١٨هـ/١٣١٨م وكان الفراغ من العمارة فى ربيع الآخر ٧٢٠هـ/١٣٢٠م ، وقد نقش فى جداره ان سنجر عمر ذلك الجامع من خالص ماله ، ولم ينفق عليه شيئا من مال الحرمين(٥١) . وأغلب الظن

ان الجامع بنى فى عام ٧١٤هـ/١٣١٤م ، حيث عثر على النص التأسيسى منقوشا على حجر نقل الى الجامع الشمعة (٥٢) بحى الزيتون بغزة، ضمن الاحجار التى نقلت اليه بعد تهدم الجامع الجاولى . ويحمل هذا النقش تاريخ انشاء الجامع ، الا انه غير مكتمل ، حيث ورد ما نصه « بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا اللــــه فعسى أولئـــك أن يـكونوا من المهتدين . أمر بانشاء هذا الجامع المبارك ابتغاء مرضات الله واتباع سنة رسول الله العبد الفقير الى الله تعالى سنجر بن عبد الله الجاولى الملكى الناصرى نائب السلطنة الشريفة بالأعمال الساحلية والجبلية بغزة المحروسة، أعز الله أنصاره بتاريخ ذى الحجة سنة أربعة ... »(٥٣) .

ولما كانت ولاية الجاولى قد بدأت بغـــزة فى جمادى الأولى عام ٧١١هـ/١٣١١م وانتهت فى الثامن عشر من شعبان سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م فمن المرجح أن تاريخ انشـــاء الجامع كان فى ذى الحجة سنة ٧١٤هـ/ ١٣١٤م .

أورد القاضى مجير الدين عن هيئة المسجد أنه قطع فى جبل . قيل ان مكانه كان مقبرة يهود ثم قطعه الجاولى وجوفه ، وشيد السقف والقبة . وهو مرتفع على اثنتى عشرة سارية قائمة فى وسطه ، وفرش أرض المسجد وحيطانه وسواريه بالرخام ، وعمل شبابيك حديد على آخره من جهة الغرب . اما فيما يتعلق بذرع المسجد فقد ذكر ان هذا المسجد طوله من القبلة بشام ثلاثة وأربعون ذراعا وعرضه شرقا بغرب خمســـة وعشرون ذراعا بذراع العمل(٥٤) .

كذلك انشأ الجوالى بغزة مدرسة للشافعية تقدم ذكرها ، ومـــن المرجح أنها شيدته على غرار مدرســـته بقلعـــة الكبش وانشـــأ بها بيمارستانا ووقف عليه عن الملك الناصر محمد أوقافا جليلة(٥٥) ، وجعل النظر فيه لنواب غزة ، وكان قسما منه مخصصا لمداواة أصحاب الأمراض العصبية . وظل هذا البيمارستان عامرا حتى عام ١٢١٥هـ/١٨٠٠م حيث خرب خلال الحملة الفرنسية(٥٦) .

ومن مآثر الجاولى بغزة أنه عمر قصرا للنيابة ، وحماما أنيقا ، وخانا للسبيل(٥٧) ، والميدان ؛ كما شيد جامعا ببلد الخليل عليه السلام، وشيد جامعا فى لد(٥٨) من عمل الرملة(٥٩) . كذلك شيد خانا بقاقون(٦٠) ، وخانا بقرية الكثيب ، والقناطر بغابة ارسوف ، وخان رسلان بحمراء بيسان ، وقد تميزت عمائره بالروعة والفخامة ، يقول المقريزى ما نصه«وسائر عمائره ظريفة أنيقة محكمة متقنة مليحة»(٦١). ومن مآثره أيضا ما أورده ابن حبيب فى حوادث عام ٧١٣هـ/١٣١٣م « فيها رسم السلطان ايده الله باجراء الماء من عين بلد الخليل عليه السلام الى القدس الشريف ، فامتثل ما رسم به وباشر اجراءه وما يحتاج اليه من العمارة الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، واهتم به واجتهد فيه الى أن وصل الماء الى بيت المقدس ، وارتفق الناس به »(٦٢) .

وقد قيل عن هذه العمارة :

طوبى لملك ليس يحصر أجره
اجرى القناة بأرض بيت المقدس
روى الورى وعن الحيا اغناهم
واليهم أهدى حياة الأنفس(٦٣)

وفى تلك السنة أيضا ندب السلطان الأمير علم الدين سنجر الجاولى لعمل الروك بدمشق(٦٤) .



وقد ظل الأمير الجاولى يباشر نيابة غزة حتى ساءت الأحوال بينه وبين الأمير تنكز نائب الشام بسبب دار كانت له تجاه جامع تنكز خارج دمشق من شمالها ؛ أراد تنكز أن يبتاعها منه فأبى عليه ، فكتب فيه الى الملك الناصر محمد فامسكه فى ١٨ شعبان ٧٢٠هـ/١٣٢٠م واعتقله نحوا من ثمان سنين.وقيل أمسكه بسبب أنه لما راك البلاد الشامية اختار لمماليكه خيار الاقطاعات فلم يعجب تنكز . ثم لما أمر الناصر أمراء البلاد كلها اختار أن يكون تنكز واسطة بينهم وبين الناصر ، فغضب الجاولى ، وتم

عليه بعض مماليكه بانه يريد أن يهرب الى اليمن ، فارسل الناصر محمد من قبض عليه(٦٥) ٠

ثم أطلق الملك الناصر سراح الجاولى فى عـــام ٧٢٨هـ/١٣٢٧م ، وقيل فى عام ٧٢٩هـ/١٣٢٨م وأعطاه امرة أربعين ، ثم اعطاه بعد مدة امرة مائة وقدمه على ألف ، وجعله من أمراء المشورة ٠ وفى ذلك يقول ابن حبيب عن الجاولى « أحد أمراء المشورة الذين يجلسون فى حضرة السلطان ، كان كبيرا جليلا ، أثيرا أثيلا ، مدبرا مشيرا ، عارفا لسياسة الملك ، خبيرا سمع الحديث ورواه ، وقرأ الفقه على مذهب الشافعى ، وأفتى وصنف ، واجتمع بأهل العلم واحسن اليهم(٦٦) »، وقد قضى الجاولى فترة اعتقاله ينسخ القرآن وكتب الحديث(٦٧)٠

ولم يزل الجاولى من أمراء المشورة الى أن توفى الملك الناصر محمد ابن قلاوون عام ٧٤١هـ/١٣٤١م ، فتولى غسله ودفنه ٠ وكان الجاولى قد أشار عليه أن يعهد بالملك الى أحد أولاده ، فأجاب الى ذلك وجعل ابنه أبا بكر سلطانا(٦٨) ٠

وفى عهد الملك الصالح اسماعيل بن الناصر محمد ٧٤٣ -٧٤٦هـ/ ١٣٤٢ - ١٣٤٥م تولى الجاولى نيابة حماه(٦٩) عوضـــا عن الأمير طقزدمر ، فأقام بها مدة ثلاثة أشهر ، ثم نقل الى نيابة غزة ، فأقام بها نحو ثلاثة أشهر أخرى ، ثم احضره الى القاهرة ، وقـــرره على ماكان عليه ، وولى نظر البيمارستان(٧٠) بعد نائبالكرك عندما اخرج الى نيابة طرابلس (البيمارستان المنصورى) ٠ ثم توجه لحصـــار الناصر أحمد بن الناصر محمد وهو فى الكرك ، وبالغ فى حصاره حتى تمكن من قتله وعاد الى مصر ولم يزل على حاله الى أن توفى فى منزله بالكبش يوم الخميس تاسع رمضان ٧٤٥هـ/١٣٤٤م ، ودفن بمدرسته وخانقاته ، وكانت جنازته حافلة الى الغاية(٧١) ٠



وفيما يلى دراسة لمنشآت الجاولى وسلار فى تلك الفترة المزدهرة من تاريخ دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام ٠

مدرسة وخانقاه سنجر الجاولى بالكبش ٧٠٣هـ/١٣٠٣م (شكل ١) (لوحة ١) :

شهدت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية فى عام ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م الفراغ من عمارة المدرسة الناصرية(٧٢) ببين القصرين ، كذلك شهدت أيضا فى نفس العام الفراغ من عمارة مدرسة وخانقاه الأمير الجاولى ، وهى منشأة دينية على قدر كبير من الأهمية ، اذ لعبت هذه المنشأة مع المدرسة الناصرية دورا بالغ الأهمية فى تطور العمارة الدينية من الناحيتين المعمارية والزخرفية بمصر خلال العصر المملوكى الأول من جهة ونظرا لما أثير حولها من آراء من جهة أخرى ٠ ذلك أنها اقترنت بأميرين جليلين من أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون هما الأميران علم الدين سنجر الجاولى وسيف الدين سلار المنصورى ، وهو الأمر الذى أثار نقاشا حول نسبتها الى أى منهما ، فضلا عن الخلاف حول تسميتها ، وماهية الوظيفة التى كانت تؤديها ٠

اما فيما يتعلق بتاريخ انشاء هذه المنشأة فان النصوص التأسيسية التى وجدت أعلى عتب المدخل العمومى (لوحة ٢) ، وأعلى ضريح سلار ، وأعلى ضريح الجاولى تشير الى أن الانتهاء من الانشاء كان فى عام ٧٠٣هـ/١٣٠٣م بما نصه « عمل هذا المكان المبارك فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة » ، وهو الأمر الذى يؤكد ان ما ذكره المقريزى من أن عمارتها تمت فى عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣م ليس صحيحا ٠ وقد أشار المقريزى الى ذلك فى موضعين فذكر المدرسة الجاولية فى المدارس ، والخانقاة الجاولية فى الخانقاوات ، وقال « انشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة »(٧٣) ٠

اما فيما يتعلق بمنشئها فقد اختلفت الآراء كذلك فى نسبتها الى أى من الأميرين الجاولى وسلار ، حيث أنه على الرغم من أن النصين التأسيسيين المدونين على الضريحين الملحقين بهذه المنشأة تضمنا ماهية المكان واسم المنشىء وألقابه ووظيفته وتاريخ الانتهاء من الانشاء ، الا أن النص التأسيسى المدون أعلى المدخل العمومى والنصوص التاريخية المدونة على جدران المنشأة ذاتها لم تتضمن اسم المنشىء ، وهو الأمر الذى جعل

الأستاذ حسن عبد الوهاب يرجح نسبة هذه المنشأة الى الأمير سلار ،على الرغم من ان معظم المصادر التاريخية تنسب هـــذه المنشأة الى الأمير الجاولى . وقد جاء ترجيح الأستاذ حســـن عبد الوهاب اعتمادا على ما ذكره المؤرخ ابراهيم بن مغلطاى عند ذكره وفاة سلار ونصه (ونقل الى تربته التى على الكبش فدفن فيها». وكذلك اعتمادا على مشكاة له يقرأ عليها ما نصه « مما عمل برسم تربة العبد الفقير الى اللـــه تعالى سيف الدين سلار نائب السلطنة المعظمة عفا الله عنه »(٧٤) .

والواقع ان ما استند اليه الأستاذ حسن عبد الوهاب نقلا عن المؤرخ ابراهيم بن مغلطاى لا يرجح أن منشئها هو سلار ، حيث ان المنشـــأة تحتوى على ضريحين متجاورين (لوحة ١) أحدهما الذى تقدم ذكره والخاص بسلار ، والآخر الملاصق له وهو خاص بالجاولى ، وقد أجمع المؤرخون على ان كلا من الأميرين دفن بتربته التى على الكبش . اما فيما يتعلق بما ورد على المشكاة من كتابات ، فهى أيضا لا ترجح نسبة المنشأة لسلار لأنه من الضرورى أن ضريح الجاولى كان يحتوى على مشكاوات مماثلة لمشكاة سلار وان لم تصل الينا . وأرجح أنها كانت تحتوى على كتابات نصها « مما عمل برسم تربة العبد الفقير الى الله تعالى سنجر بن عبد اللـــه الجاولى استادار العالية عفا الله عنه » ، حيث أن الضريحين شيدا فى تاريخ واحد هو عام ٧٠٣هـ/١٣٠٣م ، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوئه أن ما أستند اليه الأستاذ حسن عبد الوهاب فى نسبة المنشأة الى الأمير سلار يمكن أن يستند اليه فى نسبة المنشأة للأمير الجاولى .

ونرجح أن منشئها هو الأمير الجاولى . وقـــد أورد المقريزى فى السلوك ما نصه « ومات الأمير علم الدين سنجر .. ودفن بمدرسته فوق جبل الكبش»(٧٥) ، كما أورد فى الخطط عند ذكره المدارس « هــذه المدرسة بجوار الكبش فيما بين القاهرة ومصر ، انشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى »(٧٦) ، كما أورد عند ذكره الخانقاوات « هذه الخانقاة على جبل يشكر بجوار مناظر الكبش فيما بين القاهرة ومصر انشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى »(٧٧).

كذلك أورد ابن حجر فى الدرر عند ذكره الجاولى ما نصه « وهو صاحب المدرسة التى بالكبش »(٧٨) ٠ كما أورد ابن تغرى بردى فى النجوم فى حوادث عام ٧٤٥هـ/١٣٤٤م عند ذكره وفاة الجاولى « ودفن بمدرسته فوق جبل الكبش(٨٩) » ٠ وأورد ابن اياس فى بدائع الزهور عند ذكره وفاة سلار ما نصه « ولما مات بالقلعة ، غسل وكفن ، ودفن فى المدرسة الجاولية ، التى عند الكبش»(٨٠) ٠ وذكر فى موضع آخر عند ذكره وفاة الجاولى ما نصه « توفى الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، وهو صاحب المدرسة المعروفة به(٨١)» ، كذلك قال ابن العماد الحنبلى ما نصه « وبنى ٠٠ وخانقاه بظاهر القاهرة ٠٠ ودفن بالخانقاه التى انشأها(٨٢)» ٠

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانه فى ضوء عدم العثور على وثيقة للأمير سلار فان معظم المؤرخين الذين ذكروا وفاة الأمير سلار لم يرد فى مؤلفاتهم أنه انشأ مدرسة أو خانقاه أو جامع بالكبش أو أى عمارة دينية داخل مصر أو خارجها ، وهو أمر غير مألوف ، لما كان عليه سلار من جاه وثراء ٠ يقول ابن حبيب عنه ما نصه «ولى نيابة السلطنة بالديار المصرية أكثر من عشر سنين ، وبلغ من التمكن ونفاذ الكلمة والاستقلال بالأمر وكثرة الاقطاعات وسعة الأموال والمتاجر وغير ذلك ما لم يبلغه نائب سلطنة قبله(٨٣)» ٠ واذكر من بين هؤلاء المؤرخين على سبيل المثال ابن شاكر الكتبى فى وفاة الوفيات(٨٤) ، وابن حبيب فى تذكرة النبيه(٨٥) ، والمقريزى فى السلوك(٨٦)، وفى الخطط المقريزية(٨٧)، وابن حجر فى الدرر(٨٨) ، وابن تغرى بردى فى النجوم(٨٩) ، وفى المنهل الصافى(٩٠) ، وابن اياس فى بدائع الزهور(٩١) ٠ ومما يرجح أيضا أن منشئها هو الامير الجاولى ، أن دار الجاولى كانت بمناظر الكبش مجاورة لهذه المنشأة الدينية ، وهى الدار التى كان يسكنها ٠ وقد كانت للجاولى دار أخرى جعلها وقفا على هذه المنشاة ، اذ يذكر المقريزى ما نصه « هذه الدار من جملة الحجر ٠٠٠ وهى تجاه الخان المجاور لوكالة قوصون انشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى وجعلها وقفا على المدرسة المعروفة بالجاولية بخط الكبش جوار الجامع الطولونى ، وعرفت فى زماننا بقاعة البغاددة لسكنى عبد الصمد الجوهرى البغدادى بها هو

واولاده ٠٠٠ وهى من الدور الجليـــلة الا أنها قـــد تشعثت لطـول الزمن(٩٤)»٠ وفى ضوء هذه الحقائق يتضح ان الأمير الجاولى هو الذى قام بانشاء هذه المنشاة الدينية وليس سلار ٠

اما دار الأمير سلار فقد كانت بخط بين القصرين بعيدة تماما عن هذه المنشاة ، اذ يذكر المقريزى عند ذكره رحبة سلار(٩٥) « ودار الأمير سلار نائب السلطنة هى أيضا من جملة الفضاء الذى بين القصرين»(٩٦) ، وقد تعرضت هـــذه الدار لحـــريق فى عـــام ٧٢١هـ/١٣٣١م (٩٧) ٠ يذكر الأستاذ محمد رمزى انها اندثرت ، وكانت واقعـــة على يســـار الداخل فى درب قرمز فى المنطقة التى تحد الآن من الجنوب بدرب قرمز وكان فيه الباب ، ومن الشرق بعطفة قرمز ، ومن الشمال بشارع التمبكشية بقسم الجمالية بالقاهرة(٩٨) ٠

وقد كانت للأمير سلار دار أخرى ، وهى دار النيابة بالقلعة(٩٩)٠

ومما يرجح نسبة هذه المنشأة الى الأمير الجاولى اضافة لما تقدم ، ان هذا الأمير كان مولعا بتشييد العمائر بصفة عامة،والعمائر الدينية بصفة خاصة ، وقد أورد السبكى ما نصه « وكان رجلا فاضلا يستحضر كثيرا من نصوص الشافعى وصنف (شرح مسند الشافعى)» ٠ جمعـــه من شروح الرافعى وابن الأثير وشرح مسلم للنووى ، ونقل عبارة كل واحد بنصها وله عمائر كثيرة : خانات ومدارس وغيرها(١٠٠)٠ هذا بينما اهتم الأمير سلار بجمع المال فلم يشيد سوى خان بحمراء بيسان وهو الخان الذى تقدم ذكره(١٠١) ٠

وأرجح أن الجاولى هو الذى شيد للأمير ســـلار تربته التى بالكبش حتى يدفن بجواره ، واختصه بالضريح الأكبر مساحة تقديرا له واعترافا بفضله فى ترقيه خـلال عهود الســـلطان العـــادل زين الدين كتبغا ، والسلطان حسام الدين لاجين ، والسلطان الناصر محد بن قلاوون فى سلطنته الثانية ، فقد ربطت بينهما صداقة وطيدة يدل عليها ما أورده ابن تغرى بردى ونصه « فأخذه الأمـــير علم الدين ســـنجر الجاولى باذن السلطان وتولى غسله وتجهيزه ودفنه بتربته التى انشأها بجانب مدرسته

على الكبش خارج القاهرة بالقرب من جامع ابن طولون بصداقة كانت بين الجاولى وسلار قديما وحديثا(١٠٢)» ٠



أما عن تسمية هذه المنشأة وماهية الوظيفة التى كانت تؤديها فقد نعتت بعدة مسميات فذكرت فى عداد المدارس والخانقاوات والمساجد، نظرا لعدم العثور على وثيقة تحدد وظيفتها تحديدا دقيقا ٠ من ذلك أن المقريزى ذكرها فى المدارس فاورد ما نصه « هذه المدرسة بجوار الكبش٠٠ انشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى وعمل بها درسا وصوفية ولها الى هذه الأيام عدة أوقاف(١٠٣)» ، كذلك ذكرها ابن حجر فأورد « وهو صاحب المدرسة التى بالكبش »(١٠٤) ، أما ابن تغرى بردى فيقول « ودفن بمدرسته فوق جبل الكبش »(١٠٥) ، وقال ابن اياس ما نصه « ودفن فى المدرسة الجاولية(١٠٦) » ، وذكر فى موضع آخر « وهو صاحب المدرسة المعروفة به » (١٠٧) ، أما على مبرك فقد ذكرها ضمن المدارس(١٠٨) ٠

كذلك أطلق عليها اسم خانقاه ، فذكرها المقريزى فى الخانقاوات وأورد ما نصه « هذه الخانقاة على جبل يشكر ٠٠ وقد تقدم ذكرها فى المدارس(١٠٩) ٠ أما ابن العماد فأورد « ٠٠٠ ودفن بالخانقاه التى أنشأها »(١١٠) ، أما على باشا مبارك فقد ذكرها من جملة الخانقاوات(١١١) ٠ كذلك عرفت بالجامع فذكرها على باشا مبارك فى الجوامع ، كما أطلق عليها مدرسة وجامع ، حيث وردت فى فهرس الاثار الاسلامية بمدينة القاهرة « مدرسة ومسجد »(١١٢) ويذكر الأستاذ حسن عبد الوهاب أن تصميم هذه المنشأة شاذ عن تصميم المساجد والمدارس فلا هو مسجد ولا هو مدرسة ، كما ان النصوص التاريخية لم تحدد ذلك، ويرى أنه أقرب الى تصميم الخوانق(١١٣) ٠

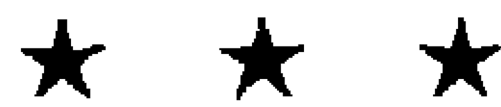
وأرى أن الأمير الجاولى انشأها مدرسة للشافعية وشيد على غرارها مدرسة للشافعية بغزة(١١٤) ، فقد أورد السبكى ما نصه « وعمل نيابة السلطنة بغزة مدة فبنى بها مدرسة للشافعية(١١٥) » ، كما أورد مانصه

« وله عمائر كثيرة : خانات ومدارس »(١١٦) .

وقد ذكر المقريزى(١١٧) هذه المنشأة فى مواضع عديدة باسم مدرسة ، بينما لم يذكرها سوى مرة واحدة باسم خانقاة ، كما أطلق عليها كل من ابن حجر فى(١١٨) الدرر ، وابن تغرى بردى(١١٩) فى النجوم ، وابن اياس(١٢٠) فى بدائع الزهور مسمى (مدرسة) .

ومما يرجح أن الجاولى انشأها مدرسة ما أورده ابن تغرى بردى فى حوادث عام ٧٩٦هـ/١٣٩٣م ونصه « وتوفى القاضى شهاب الدين أبو العباس أحمد بن الضياء المناوى الشافعى شيخ المدرسة الجاولية بالكبش »(٢١) .

وكان يدرس بهذه المدرسة الفقه الشافعى ، كما كان يدرس بمدرسته بغزة ،بجانب حضور وظيفة التصوف ، وهو الأمر الذى عبر عنه المقريزى بقوله « وعمل بها درسا وصوفية(١٢٢) » . ومن الملاحظ أن تدريس المذهب الواحد لم يقتصر على المدارس ذات الايوان الواحد مثل المدرسة البقرية(١٢٣) ، ومدرسة ايتمش(١٢٤) ، بل درس أيضا بالمنشآت ذات الايوانين كما فى جامع السنبغا البوبكرى(١٢٥) ، كما درس فى المدارس ذات الأربعة ايوانات كما فى مدرسة صرغتمش(١٢٦) . وكذلك درس المذهب الواحد فى مدارس تخطيطها من أروقة دون الصحن كما فى المدرسة الطيبرسية(١٢٧) . وهكذا نجد أن طلبة العلم أصبحوا هم الصوفية المنزلين ، وهو الأمر الذى أوضحه المقريزى وتقدم ذكره ، لذا فانه يمكن اطلاق مسمى مدرسة وخانقاه الأمير علم الدين سنجر الجاولى على هذه المنشأة ، خاصة وأنه لم يكن ثمة فرق كبير بين عمارة المدرسة وعمارة الخانقاة فى تلك المرحلة .



دراسة تحليلية لمدرسة وخانقاه الجاولى

أولا : الواجهة (لوحة ١) :

تشرف مدرسة وخانقاه الجاولى على الشارع العمومى (شارع

مراسينا) من خلال واجهة حجرية بديعة فى الجهة الشمالية الشرقية ، يبلغ طولها ٢١٫٦٣ مترا ، كما يبلغ ارتفاعها حتى قمة الشرافات المسننة حوالى ١٣٫٣٤م ، وفى الطرف الأيسر يوجد المدخل العمومى • وقد قسم المعمار هذه الواجهة الى ثلاثة مستويات الأول من أسفل شيد على الصخر مباشرة ينتهى بشطف حجرى • ثم يبدأ منه المستوى الثانى الذى يتكون من تسعة مداميك حجرية خالية من الزخرفة تتوجه حلية قالبية تمتـــد بامتداد الواجهة والمدخل ، ثم يلى ذلك المستوى الثالث والذى يتكون من احدى وعشرين مدماك حجرى ، ويزدان هذا المستوى الأخير بست دخلات مستطيلة رائعة ترتكز على المدماك الأول الذى يلى الحلية القالبية مباشرة وتتوج هذا المستوى حلية حجرية ثانية تمتد بامتداد الواجهة والمدخل على غرار الحلية الاولى ، وقد أوجد المعمار الحليتين كاطارين للدخلات من أسفل ومن أعلى •

والواقع ان الواجهة فى مجملها تمثل مرحلة متطورة للغاية ، حتى أننا نكاد نلمس بها روح واجهات عمائر القاهرة الدينية الجركســـية • ويظهر هذا التطور واضحا جليا فى الدخلات التى نزدان بها فى المستوى الثالث ، حيث تميزت بتصميماتها المعمارية الدقيقة ، وزخارفها النباتية والهندسية البديعة ، ومقرنصاتها الزخرفية الرائعة التى تنوعـــت بين مقرنصات بلدية وحلبية • وقد أراد المعمار فوق ذلك اعطاء هذه الواجهة مظهر الروعة والفخامة فأقام قبتين جميلتين ومئذنة غاية فى الروعة ، كما أوجد تناسقا معماريا بديعا بين عمارة المئذنة وبين القبتين • وكذلك اوجد تناسقا زخرفيا رائعا بين تضليعات مبخرة المئذنة وبين تضليعات كل من القبتين فجاءت هذه الواجهة بحق من أجل واجهات عمائر القاهرة الدينية فى عصر دولة المماليك البحرية •

وقسم المعمار دخلات الواجهة الى قسمين ، بحيث يشرف كل من الضريحين على الشارع العمومى من خلال ثلاث دخلات ، تفصل بينها واجهة الجدار الفاصل بين الضريحين ، وقد ميز المعمار الدخلة الوسطى بأن جعلها أكثر اتساعا من الدخلتين الجانبيتين • أما فيما يتعلق بدخلات واجهة ضريح الجاولى (لوحة ٣) التى تقع فى القسم الأيمن من الواجهة

فقد شغل المستوى الأسفل منها بشبابيك ذات مصـــبعات لانارة وتهوية الضريح من الداخل . ويتميز شباك الدخلة الوسطى بأنه اكثر اتساعا من الشباكين الجانبيين بحيث يتناسب واتساع الدخلة نفسها ، يعلوه عتب يزدان برخارف نباتية وهندسية قوامها اشكال خماسية هندســية تحصر بداخلها أوراق نباتية . ثم يعلو العتب نفيس يزدان بزخـــارف نباتيه قوامها ورقه ثلاثية تتوسط التكوين الزخرفى ، يخرج منها من اسفل فرع نباتى يتجه يمينا ، وآخر يتجه يسارا ، وتخـــرج منها أوراق احادية الفصوص ، ويعلو النفيس عقد عاتق من صنجات حجرية .

ويعلو كل من الشباكين الجانبيين عتب من صنجات حجرية يعلوه نفيس يزدان بزخارف نباتية على نفس النمط ، الا أن العناصر الزخرفية نفذت بحجم أقل لكى تتناسب مع المساحة المخصصة لها . ثم يعلو النفيس عقد عاتق أقل ارتفاعا عن مثيله فى الشباك الاوسط . يلى هذه الشبابيك شريط محفور اعد لنقش كتابى ، الا أنه خال من الكتابات . ويمتد هذا الشريط بامتداد الواجهة والمدخل ، وقد حلى فى بدايته ونهايته بشكل زخرفى نباتى بديع على هيئة ورقة نباتية ثلاثية يخرج منها فرع نباتى يتجه الى أعلى وآخر يتجه الى أسفل ، يشكلان حدود الشريط .

ويتوج هذه الدخلات مقرنصات تمثل مرحلة متطورة للغـــاية . وجاءت مقرنصات الدخلة الوسطى من أربعه صفوف شكلت على هيئة ثلاثة تكوينات زخرفية هرمية ، يتميز التكوين الاوسط بان قمته تزدان فى داخلها بتضليعات . وقد تنوعت عقود المقرنصات بين مدببة ونصـــف دائرية . أما الدخلتان الجانبيتان فمقرنصاتهما من خمسة صفوف ذات عقود منكسرة فى شكل زخرفى بديع ، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوئه أن المعمار قد نوع فى تصميم المقرنصات فى هذه الدخلات مما أوجد تباينا زخرفيا بديعا فى دخلات ضريح الجاولى .

اما فيما يتعلق بدخلات ضريح سلار (لوحة ٤) فهى على نفس النمط ، فيما عـدا تصـميم مقرنصاتها ، حيث جاءت مقرنصات الدخلة الوسطى من خمسة صفوف شكلت على هيئة أربعة تكوينات بديعة هرمية

عقودها منكسرة ، وهى بذلك تختلف ومقرنصات الدخلة الوسطى فى ضريح الجاولى،مما أوجد تباينا زخرفيا جميلا بين الدخلتين٠ومقرنصات هذه الدخلة فى حالة جيدة عن تلك التى بضريح الجاولى ٠ أما الدخلتان الجانبيتان فقد جاءت مقرنصاتهما من ثلاثة صفوف على هيئة عقد ثلاثى حلى الفص الأوسط منه فى داخله بتضليعات ٠ وقد تنوعت هذه المقرنصات فى عقودها بين مدببة ونصف دائرية ، وهى بذلك تختلف وتصميم مقرنصات الدخلة الوسطى ، كما تختلف ومقرنصات كل من الدخلتين الجانبيتين فى ضريح الجاولى ، وهو الأمر الذى يتضح فى ضوئه ان المعمار أوجد تبيانا فى تصميم دخلات كل ضريح ، ثم أوجد تباينا آخر فى تصميم مقرنصات الضريحين ٠

وتعلو الدخلات حلية قالبية حجرية ثانية ، ثم تتوج الواجهة شرفات هرمية من ستة مدرجات ترتكز على مدماك حجرى يعلو الحليه ، وقد زخرف التدرج الأخير للشرافات على هيئة ورقة نباتية ثنائية ٠

اما فيما يتعلق بالشرافات التى وجدت بمدرسة وخانقاه الجاولى فقد تنوعت بين شرافات مدرجة (لوحة ١) ، وشرافات على هيئة زهرة الزنبق ذات الوريقات الثلاثة (لوحة ٥) وفيما يتعلق بالنوع الأول فقد وجدت بقايا من الشرافات المدرجة فى بداية العصر المملوكى البحرى فوق المدخل الجنوبى الغربى لجامع الظاهر بيبرس ، كما تظهر فى ضريح فاطمة خاتون ٦٨٣هـ/١٢٨٤م ، ومجموعة السلطان قلاوون ٦٨٤هـ/١٢٨٥م ، وضريح زين الدين يوسف ، ومدرسة الناصر محمد ٠ اما النوع الثانى فانه يظر للمرة الأولى فى مصر فوق قبة الصوابى حوالى ٦٨٤هـ/١٢٨٥ - ٨٦م(١٢٨) ٠

والواقع أن عنصر الشرافات ذات الوريفات الثلاثية ظهر زخرفيا قبل ان يظهر معماريا ، فقد امتدت على افريز من مئذنة جامع الحاكم بأمر الله الغربية نقش حجرى زخرفى بديع على هيئة شرافات ثلاثية الوريقات٠ وقد نسقت فى هذا الافريز سيقان وأوراق نباتية فى أشكال هندسية بديعة متشابكة (لوحة ١٦) ٠

اما المدخل العمومى فيقع فى الطرف الأيسر من الواجهة (لوحة ٧) وهو من المداخل غير المباشرة (١٢٩) بسبب طبيعة المنشآة ، فقد اقتضى الموقع ان يفتح المدخل على دركاة تؤدى بدورها الى دهليز يفضى الى داخل المنشاة ، ويرتفع المدخل عن مستوى أرضية الطريق بحوالى ٧٠ر٢م ، يتوصل اليه من خلال سلم يحتوى على درج جانبى من جهة واحدة ٠ ويؤدى الدرج الى بسطة مستطيلة تتقدم تجويف المدخل الذى يرتفع بارتفاع الواجهة تتوجه مقرنصات زخرفية من ثلاثة صفوف : الأول من أسفل مخلق تتوجه عقود مدببة ونصف دائرية ، يليه صف من مقرنصات ذات دلاليات ٠ اما الصف الأخير فتناوب مقرنصاته بين غائرة ومسطحة فى تباين بديع ٠ ويوجد على جانبى تجويف المدخل مكسلتان٠ يتوسط صدر تجويف المدخل فتحة باب مستطيلة اتساعها ٦١ر١ مترا ، ارتفاعها ٩٤ر٢ مترا بعمق ٣٥ سم ٠ ويعلوها هذا العتب لوحة تأسيسية مستطيلة حليت فى طرفيها بزخرفة على هيئة ورقة ثلاثية على غرار الشريط العلوى الذى يتوج الواجهة أسفل المقرنصات ؛ وقد نقش عليها سطران بالخط النسخى (لوحة ٢) يتضمن السطر الأول نقش نصه « بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام » وفى السطر الثانى « الصلاة واتى الزكاة ولم يخش الا الله عمل هذا المكان المبارك فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة » ، وعلى ارتفاع مدماكين من النقش الكتابى أوجد المعمارى شباك من مصبعات لاضاءة وتهوية ايوان القبلة من الداخل باتساع ٤٣ر١ مترا وارتفاع ٨٦ر١ مترا ، ثم يلى ذلك عتب مستطيل يعلوه نقش يزدان بزخارف نباتية قوامها أفرع نباتية وأوراق احادية وثلاثية الفصوص٠ثم يلىذلك عقد عاتق من صنجات حجرية فى تكوين زخرفى رائع على هيئة اشكال ثلاثية متداخلة ، يعلوه الشريط الكتابى الذى يمتد بامتداد الواجهة أسفل مقرنصات الدخلات ، ثم يتوج المدخل المقرنصات التى تقدم ذكرها ٠

ثانيا : التخطيط من الداخل (شكل ١) :

تتبع المدرسة والخانقاه النظام الايوانى ، حيث تتكون من صحن وايوانين خصصا للمذهب الشافعى ، يشغل الصحن ساحة مستطيلة مكشوفة يبلغ طولها ٢٩ر٩ مترا وعرضها ٧٦ر٨ مترا يغطيها سقف خشبى

حديث ، يفتح عليه من الجهة الشمالية الشرقية ايوان القبلة من خلال فتحة اتساعها ٢٫٤٠ مترا بعمق ٩٫٦٧ مترا وترتفع أرضيته عن أرضية الصحن بمقدار ٣٨سم ٠ وقد وجد ايوان القبلة فى هذه الجهة من الصحن نظرا لوجود المحراب بالجانب الأيمن من الايوان وليس بصدره ، حيث ان حنية المحراب بها انحراف شديد لمحاولة توجيهها جهة القبلة بسبب طبيعة الموقع ٠ هذا بينما نجد أن المعمار جعـــل محراب كل من القبتين الضريحيتين فى سمت الجدران(١٣٠) فى الوضع الصحيح ٠

ويغطى هذا الايوان سقف خشبى حديث ٠ وقد أوجد المعمار بهذا الايوان فى الجهة الشمالية الغربية المقابلة للمحراب دخلة يغطيها قبو مدبب زخرف اطاره الخارجى بجفت لاعب ذو ميمات ٠ وجاءت الدخلة باتساع ٥٦ر°م بعمق ٢٨ر°م بها دخلة مصـــمتة يتوجها عقد مدبب ترتفع عن أرضية الايوان بمقدار ٤٢ سم بعمق ٥٠سم ، تقابلها دخلة أخرى أكثر عمقا ، حيث جاءت بعمق ٥٥ر١م ٠ وبصدر دخلة الايوان أوجد المعمار دخلة نافذة تقدم ذكرها عند ذكر المدخل ، الى اليسار منها دخلة أخرى مصمتة ٠ (لوحة ٨) ٠

اما الايوان المقابل لايوان القبلة فهو أقل مساحة يقع فى الجهـــة الغربية من الصحن (لوحة ١) ، ويفتح على هذا الصحن من خلال فتحة يبلغ اتساعها ٧٨ر٢م بعمق ٢٦ر٣م ٠ وهو يرتفع عن أرضية الصحن بمقدار ٤٥سم يغطيه قبو مدبب ٠ وقد أوجد المعمار على جانبى هـــذا الايوان حجرة تشرف على الصحن من خلال فتحة مستطيلة يتوجها عقد مدبب حـــدوى ٠

وتشرف الجهة الجنوبية الشرقية على الصحن من خـــلال أربعة مداخل ، منها مدخل فرعى للمنشأة جهة ايوان القبلة ، اما بقية المداخل فهى من فتحات مستطيلة تتوجها عقود مدببة حدوية ٠

أما الجهة الشمالية الغربية فتشرف على الصحن بدخلتين ،احداهما مجاورة لباب الدخول الى الصحن على هيئة شبه منحرف تتميز بعمقها واتساعها وارتفاعها ، حيث جاءت باتساع ٦٥ر١م ، جانبها الأيمن بعمق

٤٨ر٢م ، اما الأيسر فبعمق ٢٠ر٢م ٠ وترتفع ارضيتها عن الصحن بمقدار ٦٠سم ، سجل على يمينها تاريخ تجــديد لجنة حفظ الآثار العــربية ١٣١٦هـ٠ويغطى هذه الدخلة قبو حجرى مدبب٠اماالدخلة الثانية فهىعلى هيئة شبه منحرف ايضا الا انها اقل عمقا واتساعا ، حيث يبلغ اتساعها ٤٠ر٤م ٠ جانبها الأيمن بعمق ٥٧ر١م ، اما جانبها الايسر فقد جاء بعمق ٢٢ر٢م ٠ تشرف على مساكن الصــوفية والدهليز الذى يتقــدم القباب الضريحية من خلال زخارف نباتية بديعة مفرغة فى الحجر (لوحة ١٠) قوامها أوراق احادية وثلاثية الفصوص وأفرع نباتية تمثل مرحلة متطورة للغاية لزخرفة التوريق العربى (الارابسك) ٠

وقد وجدت الزخارف النباتية المفرغة فى الحجر بالجهة الجنوبية الغربية من الدهليز الذى يتوصل من خلاله الى القباب الضريحية بين الدعائم الحجرية الضخمة التى ترتكز عليها العقود المدببة ٠ (لوحات ١١ ، ١٢ ، ١٣) ٠

ثالثا : المئــذنة(١٣١):

تمثل مئذنة مدرسة وخانقاه الجاولى من خــلال تكوينها المعمارى العامحلقة هامة من حلقات تطور المئذنة المصرية ، حيث احتــوت على طابق مربع المسقط يمثل القاعدة ، ثم طابق مثمن يعلوه طابق مستدير تتوجه قمة على هيئــة مبخرة ٠ وهى أول مئذنة قائمة على حالها فى عمارة مآذن القاهرة تتعاقب طوابقها مربعة فمثمنة فدائرية ٠ وهــذا التكوين نتاج تطور محلى مرت به المئذنة المصرية منذ نشأتها(١٣٢) ٠

وترتفع القاعدة فوق مستوى الواجهة الى عــلو ٣٨ر٦م ، وهى مربعة،تتميز باستطالتها،طول ضلعها ٥٠ر٤م ، بنيت من الحجر٠يتوسط مدخلها واجهتها الجنوبية الغربية ، وهو مدخل يتوجه عقد ثلاثى بديع على جانبيه مكسلتان ٠ وهو مدخل فريد يماثل مدخل المنشأة الذى جهة قلعة الكبش والذى جاءت طاقيته من مقرنصات من ثلاثة صفوف (لوحة ١٤) ٠ ويظهر هذا المدخل المئذنة كأنها منشأة معمارية قائمة بذاتها ٠

أما المبخرة فقد بنيت من الاجر ، تتكون من طاقية بديعة مقسمة الى ضلوع محمولة على اربعة صفوف من المقرنصات ، وتمثل هذه المبخرة مرحلة متطورة للغاية، وهى امتداد لما وجد فى مئذنة مشهد ابى الغضنفر اسد الفائزى ، ومئذنة المدرسة الصالحية ، ومئذنة زاوية الهنود ، ومئذنة جامع احمد بن طولون .

رابعا : القباب الضريحية :

يتوصل الى القباب من خلال مدخل بصدر البسطة التى تلى السلم مباشرة ، حيث تفتح على ممر تغطيه أقبية حجرية متقاطعة . ويشغل هذا الممر مساحة مستطيلة يبلغ طولها ١٤م وعرضها ٣م ، بالجهة الجنوبية الغربية منه أربعة عقود مدببة ترتكز على دعائم حجرية ضخمة ، وبالجهة الشرقية فتحة باب تؤدى لضريح سلار ، وفى نهاية الممر فتحة أخرى تؤدى الى ضريح الجاولى ، وبصدره عقد كبير يفضى الى قاعة مربعة طول ضلعها ٦٢ر٤م ذات شباكين صغيرين يطلان على مساكن الصوفية .

ويتوصل الى مساكن الصوفية من خلال هذا الممر ، وهى عبارة عن ساحة غير منتظمة ، بها محراب مهدم طاقيته على هيئة عقد نصف دائرى تعلوه زخارف هندسية جصية وكتابات نسخية قرآنية (آية ٧٧ من سورة الحج) . ويعلو المحراب رفرف بشرافات خشبية أسفله ازار من كتابات نسخية قرآنية (آية ١٨٥ من سورة آل عمران) ، وخلف جدار المحراب بقايا طابقين من خلاوى الصوفية اندثرت الآن(١٣٣) .

ضريح سلار (لوحة ٤) :

يتوصل اليه من خلال فتحة الممر الأولى بالجهة الشمالية الشرقية، يعلوها لوحة تأسيسية نقش عليها كتابة نسخية من ثلاثة أسطر تشمل كتابات نسخية قرآنية (آية ٢٦ - ٢٧ من سورة الرحمن) ثم وظيفة المنشأة واسم المنشىء ووظيفته وألقابه وتاريخ الانتهاء من الانشاء ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م . والضريح يشغل مساحة مربعة طول ضلعها ٦٠ر٧م تتوسطه تركيبة خشبية ، وبصدد جداره الجنوبى الشرقى محراب بديع(١٣٤)

تكتنفه دخلتان. وبالجهة الشمالية الشرقية ثلاثة شبابيك يشرف من خلالها الضريح على الشارع العمومى . ويعلو جدران القبة شريط كتابى نسخى قرآنى (آيات ١٩١ - ١٩٣ من سورة آل عمران) . والواقع أن التخطيط المربع أتبع فى معظم أضرحة هذا العصر سواء كانت مستقلة أو كانت ملحقة بمنشأة من العمائر الدينية . وقد حقق المعمار - بتخطيط الضريح مكونا جزءا من أجزاء الواجهة الرئيسية - رغبة المنشىء فى التباهى بظهور ضريحه مطلا على الشارع . كذلك فان المعمار قد حقق الموضوع الملائم للقراء الذين يقرأون القرآن الكريم عادة بشبابيك هذه القباب المشرفة على الشارع ، حيث شاعت هذه العادة فى العصر المملوكى حتى أن القارىء أخذ تسميته من هذه الشبابيك فسمى قارىء شباك . كذلك فان وجود هذا الضريح فى هذا الموقع من المنشأة حقق رغبة الفقهاء فى أن لا يكون الضريح أمام مستقبل القبلة(١٣٨).وتتكون مناطق انتقال القبة من ثلاثة صفوف من المقرنصات معقودة بعقد منكسر تتكون كل من الحطة الأولى والثانية من ثلاث حنيا،أما الثالثة فمن أربع حنايا. وتعد مناطق الانتقال بذا التصميم امتدادا لما وجد فى قبة الصالح نجم الدين أيوب ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ، وفى قبة زين الدين يوسف ، وقد أوجد المعمار بين مناطق الانتقال نافذة من أربع فتحات على هيئة مثلث ملئت بزخارف جصية وزجاج معشق . وتحتوى رقبة القبة على عشرين نافذة مفنوحة معقودة بعقد منكسر ، كما فى قبة زين الدين يوسف ، وتعلو الرقبة القبة وهى من الاجر زخرفت من الخارج بكتابات جصية نسخية بديعة قرآنية (آيات ١٠١ - ١٣ من سورة الأنبياء) ، وقد اهتم المعمار بزخرفة ظاهر القبة بأسلوب التضليع (لوحة ١٥) ومن القباب الاجرية التى ازدانت وفقا لهذا الاسلوب قبتى أيدكين البندقدارى ٦٨٣هـ/١٢٨٣م ، والصوابى حوالى ٦٨٤هـ/١٢٨٥م ، وزين الدين يوسف ، وقراسنقر ، وعلى بدر الدين القرافى .

ضريح الجاولى (لوحة ٣) :

يتوصل اليه من خلال فتحة الممر الثانية بالجهة الشمالية الشرقية، يعلوها لوحة تأسيسية نقش عليها كتابة نسخية من ثلاثة أسطر تشمل كتابة قرآنية (آية ٢٦ -٢٧ من سورة الرحمن) ، ثم وظيفة المنشأة واسم

المنشىء ووظيفته وألقابه وتاريخ الانتهاء من الانشاء ٧٠٣هـ/١٣٠٣م(١٤٥) . ويشغل الضريح مساحة مربعة طول ضلعها ٦٫٤٧م أقل من مساحة ضريح سلار ، وبصدر الجدار الجنوبى الشرقى محراب حجرى(١٣٦) . وبالجهة الشمالية الشرقية الجنوبية الغربية دخلات على نفس نمط دخلات ضريح سلار . وبأعلى اركان مربع الضريح شريط من الكتابة النسخية الحجرية القرآنية (آيت ٢٨٤ ـ ٢٨٦ من سورة البقرة) . يتوسط مربع القبة تركيبة خشبية . وبأعلى أركان المربع منطقة انتقال من ثلاث حطات من المقرنصات المعقودة بعقد منكسر تتكون كل حطة منها من خمس حنايا . وقد وجدت مناطق الانتقال بنفس الأسلوب فى قبة ايدكين البندقدارى الثانية ، وقبة الاشرف خليل ٦٨٧هـ/١٢٨٨م ، وقبة حسام الدين طرنطاى ٦٨٩هـ/١٢٩٠م ، وقبة فوارة جامع ابن طولون ٦٩٦هـ/١٢٩٦م ، وقبة المدرسة الناصرية ٧٠٣هـ/١٣٠٣م ، وقد أوجد المعمار بين مناطق الانتقال نافذة مماثلة كتلك التى بضريح سلار .

أما رقبة القبة فتحتوى على أربع وعشرين نافذة معقودة بعقد منكسر ، الأمر الذى يتضح فى ضوئه أن نوافذ الرقاب لم تتبع نظاما واحدا من حيث عددها . وقد وجد هذا العدد من الفتحات فى قبة ايدكين البندقدارى الثانية . وتعلو الرقبة القبة وهى من الاجر زخرفت رقبتها من الخارج بكتابات جصية قرآنية (آية ١٣٥-١٣٦ من سورة آل عمران)، وقد زخرفت القبة بأسلوب التضليع من الخارج (لوحة ١٦) .

القبة الثالثة الحجرية :

يتوصل اليها من خلال عقد بالنهاية الشمالية الغربية للممر ، وهى قبة صغيرة حجرية خالية من النقوش (لوحة ١٧) منطقة انتقالها من حطتين . وقد أشار الأستاذ حسن عبد الوهاب الى أنها تعد أقدم قبة حجرية باقية . وقد عرفت هذه القبة بقبة عبد الله الذاكر . ولعل المدفون فيها أيضا الأمير بشتاك ، المنقول اليها من الاسكندرية فى عام ٧٤٨هـ/ ١٣٤١م(١٣٧) .

وجاء تخطيط هذه القبة من مساحة عريضة ، منطقة انتقالها من

حطتين من المقرنصات تتكون كل واحدة منها من ثلاث حنايا ذات عقود منكسرة ٠

خاتمـــــة :

وبعد ،فاننى أرجو أن تكون هذه الدراسة قد ألقت بعض الضوء على الاميرين علم الدين سنجر الجاولى وسيف الدين سـلار ، وعلى أعمالهما المعمارية ٠ وقد تعرضت الدراسة لتاريخ سلار وصفاته منذ سلطنة الناصر محمد الثانية وحتى وفاته ٧١٠هـ/١٣١٠م ، كما شـــملت أيضا أعمال الأمير علم الدين سنجر الجاولى المعمارية ونرقية خـــلال سلطنة الملك الناصر محد الثانية وحتى وفاة سلار٧١٠هـ/١٣١٠م٠كذلكشملت الدراسة أعمال الأمير علم الدين سنجر الجاولى المعمــارية وترقيه خلال سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة ٧٠٩ - ٧٤١هـ/١٣٠٩ - ١٣٤١م ٠

وقد شهدت دولة سلاطين المماليك وبخاصة بلاد الشام نهضة عمرانية عظيمة ، توجتها منشآت الأمير الجاولى الدينية والمدنية والحـــربية ٠ ذلك أن هذه المنشآت نميزت بالروعة والفخامة ، وهو الأمر الذى شهد به المعاصرون مثل ابن بطوطة فى تحفة النظار والمقـــريزى فى خططه ، والقاضى مجير الدين الحنبلى فى الأنس الجليل ٠

ومن بين أعمال الأمير الجاولى بغـــزة الجامع البديع الذى يؤرخ تاريخ عمارته بعـــام ٧١٤هـ/١٣١٤م ٠ وكذلك كان من مآثر مـــدرسة الشافعية ، وبيمارستان ، وقصر للنيابة ، وحمام أنيق ، وخان للسبيل ، وميدان ٠ ومن مآثر الجاولى ببلد الخليل أنه أنشأ جامعا ، كما شـــيد جامعا فى لد ، وخانا فى قاقون ، وخانا بقرية الكثيب ، وقناطر بغابة ارسوف ، وخان رسلان بحمراء بيسان ، وهى عمائر وصفها المقريزى بأنها « ظريفة أنيقة محكمة متقنة مليحة » ٠

كذلك ناقشت فى هذا البحث الآراء التى ترجح نســبة المنشأة التى اقترنت بالأميرين الجليلين الجاولى وسلار بالكبش الى الأمير ســـلار وانتهيت الى ترجيح نسبة المنشأة الى الأمير الجاولى ٠

ورجحت فى هذه الدراسة أن يكون الأمير الجاولى أنشأ هذه المنشأة لتكون مدرسة للشافعية يدرس بها الفقه الشافعى كما كان يدرس بمدرسته بغزة بجانب حضور وظيفة التصوف ٠

ولعلنا قد وفقنا فى الدراسة التحليلية الخاصة بهذه المنشأة ، لاسيما فيما يتعلق بواجهتها المطلة على الشارع العمومى (شارع مراسينا) وما احتوته هذه الواجهة من عناصر معمارية وزخرفية ٠ هـــذا فضـــلا عن التخطيط من الداخل ، والقباب الضريحية والمئذنة ٠

الهـــوامش

(١) وردت هذه الالقاب والكنى والتى تتمثل فى « الأمـــير الكبير علم الدين ابو سعيد » فى المصادر التاريخية • انظر عن هذه الألقاب •

ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين احمد) : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة تحقيق محمد سيد جاد الحق ، جـ٢ ، ص ٢٦٦ . ابن تغرى بردى الاتابكى (جمال الدين أبو المحاسن) : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى . تحقيق د• محمد محمد أمين ، جـ٦ . ص ٧٤ ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م •

(٢) عرف الأمير علم الدين سنجر بالفقيه الشافعى • وقد أورد ابن حبيب عنه ما نصه « سمع الحديث ورواه ، وقرأ الفقه على مذهب الشافعى ، وافتى وصنف ، واجتمع بأهل العلم وأحسن اليهم » ، كما أورد المقريزى فى خططه أنه سمع الحديث وروى وصنف شرحا كبيرا على مسند الشافعى وافتى فى آخر عمره على مذهـــب الشافعى • انظر : ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر) : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه . تحقيق د• محمد محمد أمين . جـ٣ (حوادث وتراجم ٧٤١ ـ ٧٧٠هـ/١٣٤٠ ـ ١٣٦٨م) ص ٧٦ . المقـــريزى (تقى الدين أبو العباس أحمد بن على) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار (المعروف بالخطط المقريزية) ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ •

(٣) الملكى : بفتح اللام من ألقاب الملك وألقاب أتباعه المنسوبين اليه من الأمراء والوزراء ومن فى معناهم ، وقد ورد هذا اللقب على لوحة تأسيسية تعلو مدخل ضريح الأمير الجاولى ، كما ورد أيضا على لوحة تأسيسية كانت بجامعه الذى أنشاه بغزة • انظر : القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) : صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ، جـ٦ . ص ٣٠ •

(٤) الناصرى : لم يرد هذا اللقب فى المصادر التاريخية ، الا أنه وجد على اللوحة التأسيسية التى تعلو مدخل ضريح الأمير الجاولى ، كما ورد هـــذا اللقب أيضا على اللوحة التأسيسية التى كانت بجامعه الذى أنشاه بغزة •

د• سعاد ماهر : مســـاجد مصر ، جـ٣ ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ ، سليم عرفات : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ •

٥) لم يرد هذا اللقب فى المصادر التاريخية ، الا أنه ورد فى اللوحة التأسيسية التى تعلو مدخل ضريح الجاولى ، وقد خلت اللوحة التأسيسية لجامعه بغزة من هذا

اللقب ، حيث جاء بها ما نصه « ... العبد الفقير الى الله تعالى سنجر بن عبدالله الجاولى الملكى الناصرى نائب السلطنة الشريفة ...» .

سليم عرفات : المرجع السابق ، ٢٢٤ .

د. سعاد ماهر : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

(٦) أمد : بكسر الميم بلد قديم حصين مشيد بالحجارة السود على نشز دجلة .

ياقوت الحموى (شهاب الدين أبى عبد الله) : معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى ، جـ١ ، ص ٧٦ ـ ٧٧ .

(٧) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ . ابن حجر العسقلانى : المصدر السابق، جـ٢ ، ص ٢٦٦ . ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، جـ٦ ، ص ٧٤ .

(٨) الكرك : بفتح أوله وثانيه وكاف أخرى كلمة أعجمية ، اسم لقلعة حصينة فى طرف الشام من نواحى البلقاء فى جبالها بين ايلة وبحر القلزم وبيت المقدس ، وهى على سن جبل عال تحيط به أودية الأمن جهة الربض .

ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٥١٤ .

الحميرى (محمد عبد المنعم) : الروض المعطار فى خير الاقطار ، تحقيق احسان عباس ، ص ٤٨٣ .

(٩) الحوائج خاناه : معناها بيت الحوائج ، ومنها يصرف اللحم الراتب للمطبخ السلطانى والدور السلطانية ورواتب الأمراء والمماليك السلطانية وسائر الجند والمتعممين ، وغيرهم من أرباب الرواتب .

لمزيد من التفاصيل انظر : القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ١٢ .

(١٠) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ .

(١١) وردت هذه الألقاب فى اللوحة التأسيسية التى تعلو مدخل ضريحه بما نصه « سيف الدين سلار نائب السلطنة المعظمة الملكى الناصر المنصورى ، وهى نفس ألقاب الأمير الجاولى التى تقدم ذكرها .

د. سعاد ماهر : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٨ .

(١٢) أمير شكار : هو لقب الأمير الذى يتحدث على الجوارح من الطيور وغيرها وسائر أمور الصيد .

القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٤٦١ .

(١٣) ابن حجر العسقلانى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٧٦ ، ابن تغرى بردى: المنهل ، جـ٦ ، ص ٦ .

(١٤) مناظر الكبش : ذكرها المقريزى فاورد ما نصه « هذه المناظر اثارها الآن على جبل يشكر بجوار الجامع الطولونى مشرفة على البركة التى تعرف اليوم ببركة قارون على الجسر الاعظم الفاصل بين بركة الفيل وبركة قارون انشأها الملك الصالح نجم الدين فى اعوام بضع واربعين وستمائة » ٠

(١٥) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ، ابن تغرى بردى: النجوم ، جـ٨ ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ ٠

استاذ دار : عرفت هذه الوظيفة بصيغ مختلفة منها استادار ، واستاذ الدار، ستدار ، واستاذ دار ، واستاذ الادر ، واستذار ٠

مزيد من التفاصيل أنظر : القلقشندى : المصدر السـابق ، جـ٤ ، ص ٢١ ، د٠ حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية ، جـ١ ، ص ٣٩ ـ ٥٨ ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ٠

(١٦) نيابة السلطنة : يعبر عن صـاحبها بالنائب الكافل ، وكافـل الممالك الاسلامية ، وهو يحكم فى كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم فى التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك ٠

لمزيد من التفاصيل انظر ٠ القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص١٧ـ١٨ ٠

(١٧) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢١٣ ، ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، جـ١ ، ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ ، الشوكانى (محمد بن على) : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ص ٢٦٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٨ ، ص ١١٦ ٠

(١٨) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٣٩٨ ٠

(١٩) المصدر نفسه ، ص ٢٥٢ ، ابن أيبك الدوادارى (أبى بكر بن عبد الله): كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق هانس روبرت رويمر ، جـ٩ ، ص ١٠١ القاهرة ، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م ٠

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ ٠

(٢١) العينى (بدر الدين محمود) ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، عصر سلاطين المماليك ـ حوادث وتراجم ٦٩٩ ـ ٧٠٧هـ/١٢٩٩ ـ ١٣٠٧م)، تحقيق د٠ محمد محمد أمين ، جـ٤ ، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ ٠

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ ٠

(٢٣) طبلخاناه : لفظة فارسية بمعنى بيت الطبل ، وهى أحد الدور الخاصـة

بالسلطان تحفظ فيه الطبول والابواق وما يتعلق بها من الأدوات ، د. حسن الباشا : الفنون الاسلامية ، جـ١ ، ص ٢٣١ ـ ٢٣٦ .

(٢٤) العينى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٤٢٦ . ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٨ ، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

(٢٥) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٨١ ـ ٢٨٦ .

(٢٦) حمراء بيسان : بفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة مدينة من جند الأردن . وهى صغيرة بلا سور .

المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ص ١٦٢ ، القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٢٧) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٨٧ ـ ٢٩٠ .

(٢٨) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ١٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص٤ـ٦.

(٢٩) الشوبك : بلدة صغيرة من جبل الشراه ، لها قلعة مشيدة من الحجر الأبيض على تل مرتفع مطل على الغور من شرقيه .

القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

(٣٠) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ١١ ، ١٦ ـ ١٩ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص ١٨ ـ ١٩ .

(٣٢) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٠ .

(٣٣) السلارى : أورد المقريزى ان سلار استجد القباء الذى يعرف بالسلارى وكان قبل ذلك يعرف ببغلوطاق .

المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٩٩ ، ماير : الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتى ، ص ٤٣ ـ ٤٥ .

(٣٤) من عادة كل أمير ، كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه ما بين هناب أو دواه أو بقجة أو فرنيسة ونحو ذلك ، بشطفة واحدة أو شطفتين بألوان مختلفة ، كل أمير بحسب ما يختاره ويؤثره من ذلك .

القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٦١ ـ ٦٢ .

(١٣٥) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ١٩ ـ ٢٠ ، المنهل ، جـ٦ ،ص٧ـ٩.

(٣٦) الرزق : مفردها رزقة وهى المخصصات التى كان يعطيها الخلفاء والملوك والسلاطين بمقتضى حجج شرعية أو تقاسيط ديوانية الى بعض الناس على سبيل الاحسان والانعام . ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ٥٤ هامش ٦ ، د. محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(٣٧) ابن شاكر الكتبى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٧١ ، ابن تغرى بردى: النجوم ، جـ٩ ، ص ٥٣ ـ ٥٤ .

(٣٨) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨.

شد الدواوين : موضوعها ان يكون صاحبها رفيقا للوزير متحدثا فى استخلاص الأموال وما فى معنى ذلك وعادتها امرة عشرة . القلقشندى : المصدر السابق،جـ٤ ، ص ٢٢ ، د. حسن الباشا : الفنون الاسلامية والوظائف على الاثار العربية ، جـ٢ ، ص ٦١١ ـ ٦١٣ ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

(٣٩) الخليل : اسم موضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب بيت المقدس بينهما مسيرة يوم . ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٤٤٣ .

(٤٠) نابلس : مدينة مشهورة بأرض فلسطين بينها وبين المقدس عشرة فراسخ . ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ ، الحميرى : المصدر السابق، ص٥٧١ ـ ٥٧٢ .

(٤١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ .

(٤٢) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ١٢ ، ص ٢١٢ ـ ٢١٩ .

(٤٣) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٧٥ ـ ٧٦ .

D. Margoliouth S., : Cario; Jerusalem, Damascus, London, 1907, P. 86.,

Meinecke (Michael) · Die Mamlukische Architektur in Agypten und Syrien (648-1250 Bis 923-1517), tell II, Verlag J.J. Augustin GMBH. Glück stadt, 1992, p. 117, 122, 128.

(٤٤) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، ص ٥٠ ـ ٥١ .

(٤٥) المصدر نفسه ، ص ٥١ .

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ٥٣ .

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

(٤٨) المصدر نفسه ، ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(٤٩) المصدر نفسه ، ص ٥١ .

(٥٠) القاضى مجير الدين (أبو اليمن عبد الرحمن العليمى المقدسى) ت ٩٢٧هـ : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، جـ١ ، ص ٥٨ .

حسين روحى : المختصر فى جغرافية فلسطين ، ص ١٠٥ ، القدس ، الطبعة الاولى ، ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م .

(٥١) مجير الدين الحنبلى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٥٨ .

(٥٢) يقع هذا الجامع فى ناحية من حى النجـــارين (حارة الزيتون) وسبب تسميتهبهذا الاسم غير معروف ، كما لا تتوافر معلومات عن منشئه .

محمود على خليل عطا الله : نيابة غزة فى العهد المملوكى ، ص ٢٢٨ .

(٥٣) سليم عرفات : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ ، البنايات الاثرية الاسلامية فى غـــزة وقطاعها ص ١٠٤ (لوحة ١١٢) ، محمود خليـــل : المرجع السابق ، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

(٥٤) مجير الدين الحنبلى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٥٨ .

ومن الأوقاف التى وقفها الأمير الجاولى على جامعه بغزة قرية سمسم .

سليم عرفات : المرجع السابق ، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٨ .

(٥٥) من الأوقاف التى وقفها الجاولى على هذا البيمارستان عن الملك الناصر محمد ملاقص ضمن أراضى بربر ، صميل عند عامورة ، قرية هربيا ، بطانى الشرقى ، قرية البها شرق غزة ، مزرعة تل العجول .

المرجع نفسه ، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٨ .

(٥٦) محمود على خليل : المرجع السابق ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

(٥٧) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٧٥ ـ ٧٦ .

Meinecke (Michael) : Die Mamlukische, tell 11, p. 128.

(٥٨) لد : بالضم والتشديد وهو جمع الد ، قرية بيت المقدس من نواحى فلسطين بالشام تنزل الرفاق الواصلة من الشام الى مصر والقافلة من مصر الى الشام وفيه كنيسة محكمة البناء واسعة الفناء .

ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ١٧ ـ ١٨ .

الحميرى : المصدر السابق ، ص ٥١٠ .

(٥٩) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين كانت رباطا للمسلمين .

ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٧٩ ـ ٨١ ، ابن أيبك الدوادارى: المصدر السابق ، جـ٩ ، ص ٢٩٠ .

(٦٠) قانون : مدينة لطيفة غير مسورة بها جامع وحمام ، وقلعة لطيفة وشربها

ماء الابار · ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٣٣٩ · القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ١٠٠ ·

Meinecke (M.) : Mamlukische, tell 11, p. 128.

(٦١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ ·

(٦٢) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٥٤ ·

(٦٣) المصدر نفسه ، ص ٥٤ ·

(٦٤) الروك : كلمة قبطية اصطلح على استعمالها للقيام بعملية قياس الأرض وحصرها فى سجلات وتثمينها أى تقدير درجة خصوبة تربتها لتقدير الخراج عليها . ويقولون راك البلاد يروكها أى فك زمامها ·

ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ٣٦ ، ٤٢ هامش ١ ·

(٦٥) المقريزى : الخطط .جـ٢ ، ص ٣٩٨ ، ابن حجر : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٦٧ ·

(٦٦) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٧٥ ـ ٧٦ ، المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ ·

(٦٧) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ٩٠ ·

(٦٨) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤ ·

(٦٩) حماد بالفتح مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار واسعة الرقعة حفلة الأسواق يحيط بها سور محكم ، وبظاهر السور حاضر كبير فيه أسواق كثيرة وجامع مشرف على نهرها المعروف بالعاصى ·

ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥ ·

(٧٠) نظر البيمارستان : يقول القلقشندى عند ذكره نظر البيمارستان « والمراد البيمارستان المنصـــورى الذى أنشأه المنصــور قــلاون بين القصرين ·· وهى من أجل الوظائف واعلاها ، وعادة النظر فيه من أصحاب السيوف لأكبر الأمراء بالديار المصـرية » ·

القلقشندى : المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٣٨ ·

أنظر أيضا عن البيمارستان المنصورى ·

د· محمد سيف النصر أبو الفتوح : منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة فى نهاية عصر المماليك ، مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآداب بسوهاج ، جامعة أسيوط، يناير ١٩٨٠ ، ص ٨١ وما بعدها ·

(٧١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ ، ابن حجر : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٦٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٠ ، ص ٩٢ ـ ٩٣ ٠

(٧٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، ق٣ ، ص ٩٥١ ، د٠ على محمود سليمان المليجى : عمائر الناصر محمد الدينية فى مصر ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ، ص ١٢٩ ـ ٢٠٢ ٠

(٧٣) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ ، ٤٢١ ٠

Creswell (K.A.C.) : The Muslim Architecture of Egypt, 11, Ayyubids and Early Bahrite Mamlúks, Oxford, 1959, p. 245.

(٧٤) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الاثرية ، ص ١٢٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٤م ، د٠ سعاد ماهر : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٣ ـ ١٤٤ ٠

(٧٥) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ٢ ، ق٣ ص ٦٧٤ ٠

(٧٦) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ ٠

(٧٧) المصدر نفسه ، ص ٣٩٨ ٠

(٧٨) ابن حجر : المصدر السابق ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ،جـ٢ ،ص٢٦٧٠

(٧٩) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٠ ، ص ١١٠ ٠

(٨٠) ابن اياس (محمد بن أحمد الحنفى) ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، جـ١ ، ق١ ، ص ٤٣٦ ٠

(٨١) المصدر نفسه ، ص ٥٠٤ ٠

(٨٢) ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى) ت ١٨٠٩هـ : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، جـ٦ ، ص ١٤٣ ٠

(٨٣) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٦٧ ٠

(٨٤) الكتبى (محمد بن شاكر بن أحمد) ت ٨٦٤ هـ : فوات الوفيات ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، جـ١ ، ص ٣٦٩ ـ ٣٧٣ ٠

(٨٥) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٠ ٠

(٨٦) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ٢ ، ق١ ، ص ٨٨ ـ ٨٩ ٠

(٨٧) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص٣٩٨ ٠

(٨٨) ابن حجر : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٨ ٠

(٨٩) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ٢١٧ ٠

(٩٠) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٦ ، ص ٦ ـ ٧ ٠

(٩١) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ١ ، ق١ ، ص ٤٣٦ ٠

(٩٢) ابن العماد : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ١٩ ٠

(٩٣) الشوكانى : المصدر السابق ، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ٠

(٩٤) انظر عن الدارين :

المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٦٥ ، ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٦ ، ص٧٥ـ٧٦٠

(٩٥) الرحبة باسكان الحاء وفتحها الموضع الواسع وجمعها رحاب والرحاب كثيرة لا تتغير الا بأن يبنى فيها فتذهب ويبقى اسمها أو يبنى فيها ويذهب اسمها ويجهل وربما انهدم بنيان وصار موضعه رحبة أو دار أو مسجد ٠

المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٧ ٠

(٩٦) المصدر نفسه ، ص ٤٨ ٠

(٩٧) أورد ابن تغرى بردى فى حوادث عام ٧٢١هـ ان حريقا وقع بالقاهرة ومصر يوم السبت خامس عشر جمادى الأولى ، وكان مما احترق فيه الربع الذى بالشوايين من أوقاف البيمارستان المنصورى ، ثم فى حارة الديلم قريبا من دار كريم الدين الكبير ، انظر مزيدا من التفاصيل فى :

ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص٦٣ ـ ٦٦ ٠

(٩٨) المصدر نفسه ، ص ١٩ هامش ٢ ٠

(٩٩) المصدر نفسه ، جـ ٨ ، ص ١٧١ ٠

(١٠٠) السبكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى) ت ٧٧١هـ : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمود محمد الطناحى ، د٠ عبدالفتاح محمد الحلو ، جـ١٠ ، ص ٤١ ٠

(١٠١) ابن حبيب : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٩٠ ٠

(١٠٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ١٨ ـ ١٩ ٠

(١٠٣) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ ٠

(١٠٤) ابن حجر : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٦٧ ٠

(١٠٤) ابن حجر : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٧٦ ٠

(١٠٥) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٠ ، ص ١١٠ ٠

(١٠٦) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ١ ، ق١ ، ص ١٣٦ ٠

(١٠٧) المصدر نفسه ، ص ٥٠٤ ٠

(١٠٨) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، جـ٦ ، ص ١١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م ٠

(١٠٩) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٢١ ٠

(١١٠) ابن العماد : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ١٤٣ ٠

(١١١) على باشا مبارك : الخطط ، جـ٦ ، ص ١٤٢ ٠

وردت أيضا فى المراجع الاثرية باسم خانقاه ٠ انظر د٠ سعاد ماهر : المرجع السابق ، جـ٣ ، ص ١٤٠ ، د٠ محمد حمزة اسماعيل الحداد العلاقة بين النص التأسيسى والوظيفة والتخطيط المعمارى للمدرسة فى العصر المملوكى ، ص ٢٩٧ (تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ـ تاريخ المصريين (٥١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٩٢م٠

شفيقة قرنى سيد : دراسة أثرية عمرانية لشارع الصليبة بالقاهرة حتى العصر الجركسى مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الاثار ـ جامعة القاهرة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م٠ ص ١٠٠ ـ ١٠٥ ٠

(١١٢) على باشا مبارك : المرجع السابق ، جـ٤ ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ١٩٨٠،م٠

جرمار : وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل ، ترجمة د٠ ايمن فؤاد سيد ، ص ٣٩٠ ٠

Devonshire (R.L.) : L' Egypte Muslmane et les Fondateurs des ses monuments, Paris, 1926, p. 89, PI. XXI.

(١١٣) حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ، ص ١٢٥ ٠

(١١٤) غزة : بفتح أوله وتشديد ثانيه وفتحه . فى الاقليم الثالث طولها من جهة المغرب أربع وخمسون درجة وخمسون دقيقة وعرضها اثنتان وثلاثون درجة ، وهى مدينة فى أقصى الشام من ناحية مصر ٠

المقدسى : المصدر السابق ، ص ١٧٤ ، ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ٤، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ، الحميرى : المصدر السابق ، ص ٤٢٨ ٠

(١١٥) السبكى : المصدر السابق ، جـ١٠ ، ص ٤١ ٠

(١١٦) المصدر نفسه ، ص ٤١ ٠

(١١٧) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ق ٣ ، ص ٦٧٤ ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٦٥ ، ٣٩٨ ٠

(١١٨) ابن حجر : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢٦٧ ٠

(١١٩) ابن تغرى بردى النجوم ، جـ١٠ ، ص ١١٠ ٠

(١٢٠) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ١ ، ق١ ، ص ٤٣٦ ، ٥٠٤ ٠

(١٢١) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٢ ، ص ١٣٨ ٠

(١٢٢) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩٨ ٠

(١٢٣) ذكرها المقريزى فقال « هذه المدرسة فى الزقاق الذى تجاه باب الجامع الحاكمى المجاور للمنبر ٠٠ بناها الرئيس شمس الدين شاكر بن غزيل ٠٠ المعروف بابن البقرى ٠٠ وجعل بها درسا للفقهاء الشافعية »٠

المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٩١ ٠

(١٢٤) ذكرها المقريزى فأورد « هذه المدرســة خارج القاهرة داخل باب الوزير تحت قلعة الجبل برأس التبانة انشأها الأمير الكبير سيف الدين ايتمش البجاسى ثم الظاهرى ٠٠ وجعل بها درس فقه للحنفية » ٠

المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٠٠ ٠

(١٢٥) د٠ عادل شريف : النصوص التأسيسية على العمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة ، مخطوط رسالة دكتوراه كلية الآداب . جامعة أسيوط . ١٩٨٦م ، ص ٢٨٨ ٠

(١٢٦) أورد المقريزى ان الأمير صرغتمش جعل هذه المدرسة وقفا على الفقهاء الحنفية ٠ المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٠٤ ، د٠ حسن سيد جـــودة القصاص : المدرسة الصرغتمشية ، دراسة اثرية معمارية ، مخطوط رسالة ماجستير . كليـــة الآداب ، جامعة القاهرة ، ٩٣٩٢ ـ ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ، ص ١٣ ٠

(١٢٧) انشأ هذه المدرسة الأمير علاء الدين طيبرس وقرر بها درسا للفقهاء الشافعية ٠ المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٨٣ ٠

لمزيد من التفاصيل انظر ٠ د٠ على سليمان اليجى : المرجع السابق ، ص ١٧٨ ـ ١٨٥ ٠

(١٢٨) د٠ شاهنده فهمى : جوامع ومساجد (مخطوط رسالة دكتوراه) . ص ٣٦٢ ـ ٣٦٤ ٠

(١٢٩) د٠ محمد سيف النصر أبو الفتوح : مداخل العمائر المملوكية بالقاهرة الدينية والمدنية (من سنة ٦٤٨ ـ ٧٨٤هـ/١٢٥٠ ـ ٢٣٨٢م) ، مخطوط رسالة ماجستير، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م ، ص ٤٤ ـ ٤٧ ٠

(١٣٠) د٠ حسنى محمد نويصر ، عوامل مؤثرة فى تخطيط المدرسة المملوكية ، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ، (تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ـ تاريخ المصريين ٥١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م ٠

Abuo Seif (D.) : Islamic Architecture in Cairo, the American University in Cairo Press. P. 103.

(١٣١) تناولت فى رسالتى للدكتوراه هذه المئذنة بالدراسة الوصفية ثم بالدراسة التحليلية . انظر أيضا د. عبد الله كامل موسى عبده : تطور المئذنة المصرية بمدينة القاهرة من الفتح العربى وحتى نهاية العصر المملوكى (دراسة معمارية زخرفية مقارنة مع مآذن العالم الاسلامى) ، مخطوط رسالة دكتوراه كلية الآثار - جامعة القاهرة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، ص ١٧٥ - ١٨٢ ، ٥٤٠ - ٦٢٦ .

(١٣٢) Creswell (K.A.C.) : The Evolution of the Mineret, Burlington, Magazine (Mars-Mai, Juin, 1926).

(١٣٣) د. سعاد ماهر : المرجع السابق ، ج٣ ، ص ١٤٨ .

(١٣٤) انظر عن هذا المحراب وزخارفه :

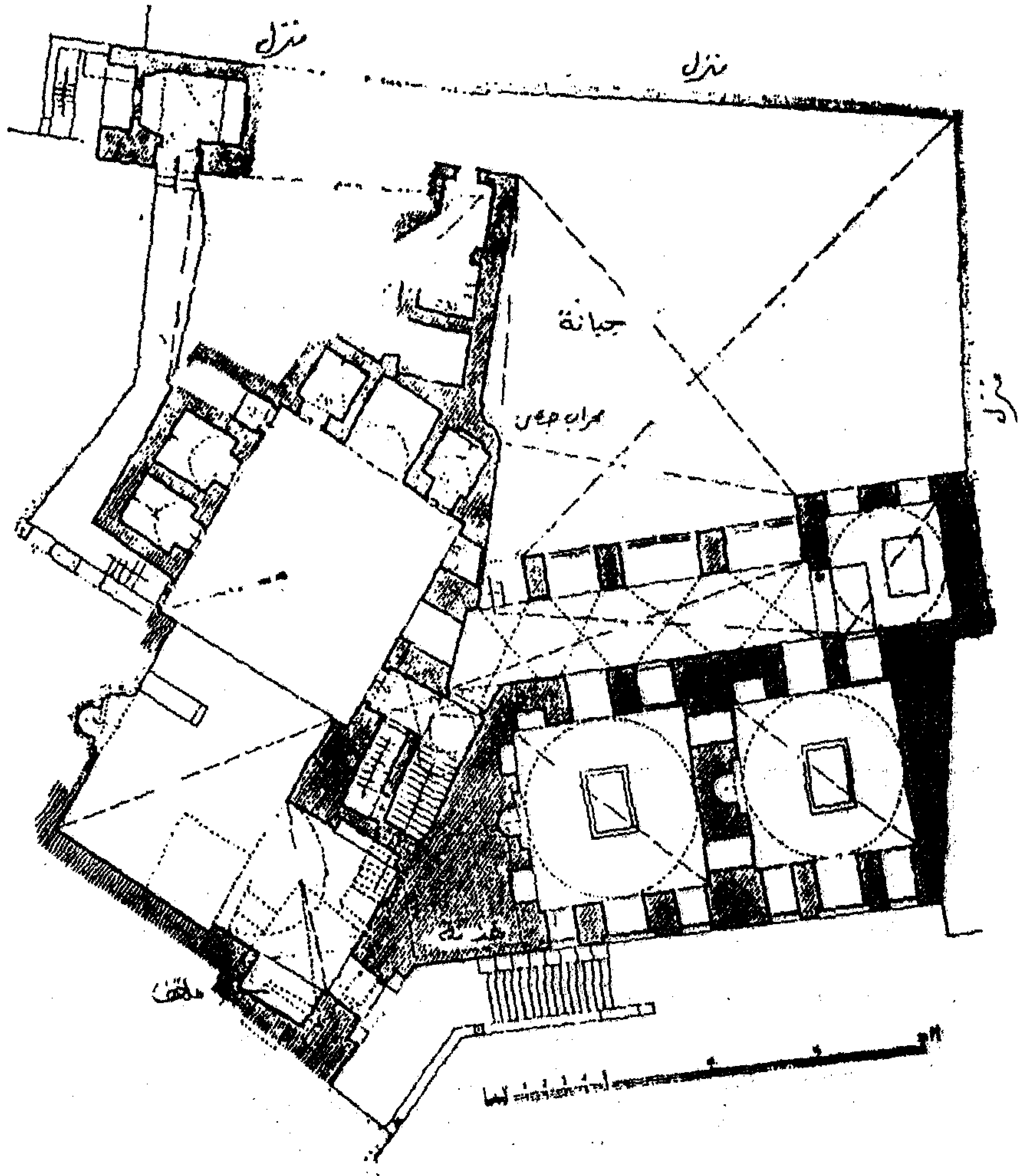
د. حسين مصطفى حسين : المحارب الرخامية فى قاهرة المماليك البحرية (دراسة أثرية فنية) ، مخطوط رسالة ماجستير/كلية الاثار - جامعة القاهرة ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ،ص ١٥٤ - ١٥٧ .

(١٣٥) د. محمد عبد الستار عثمان : نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة ، مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآداب بسوهاج ، جامعة أسيوط ، ديسمبر/١٩٧٩م ، ص ٣١١ .

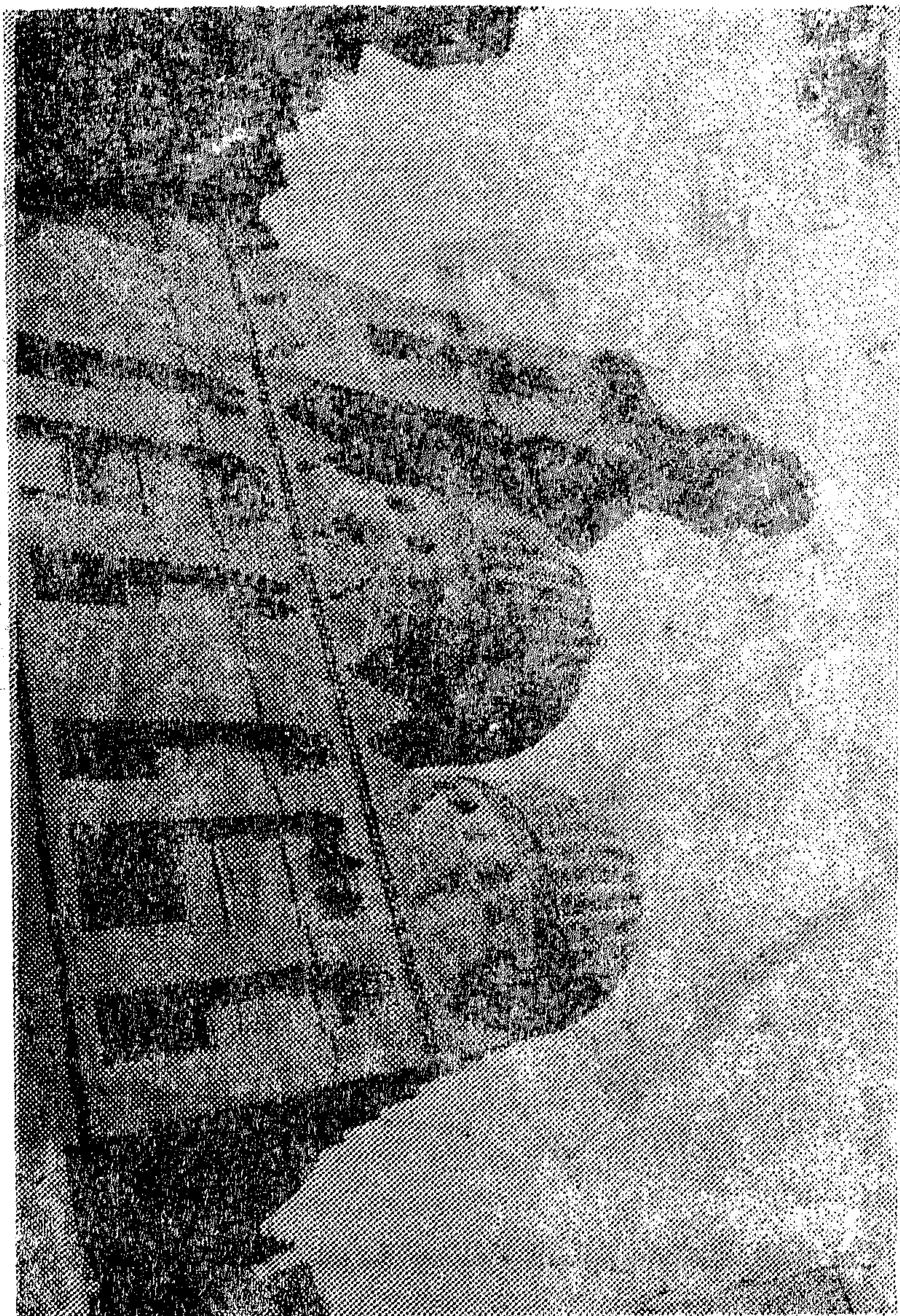
د. محمد حمزة اسماعيل الحداد : القباب فى العمارة المصرية الاسلامية ، ص ٧٣ - ٧٥ .

(١٣٦) د. حسين مصطفى حسين : المحاريب الرخامية (مخطوط رسالة ماجستير) ، ص ١٥٤ .

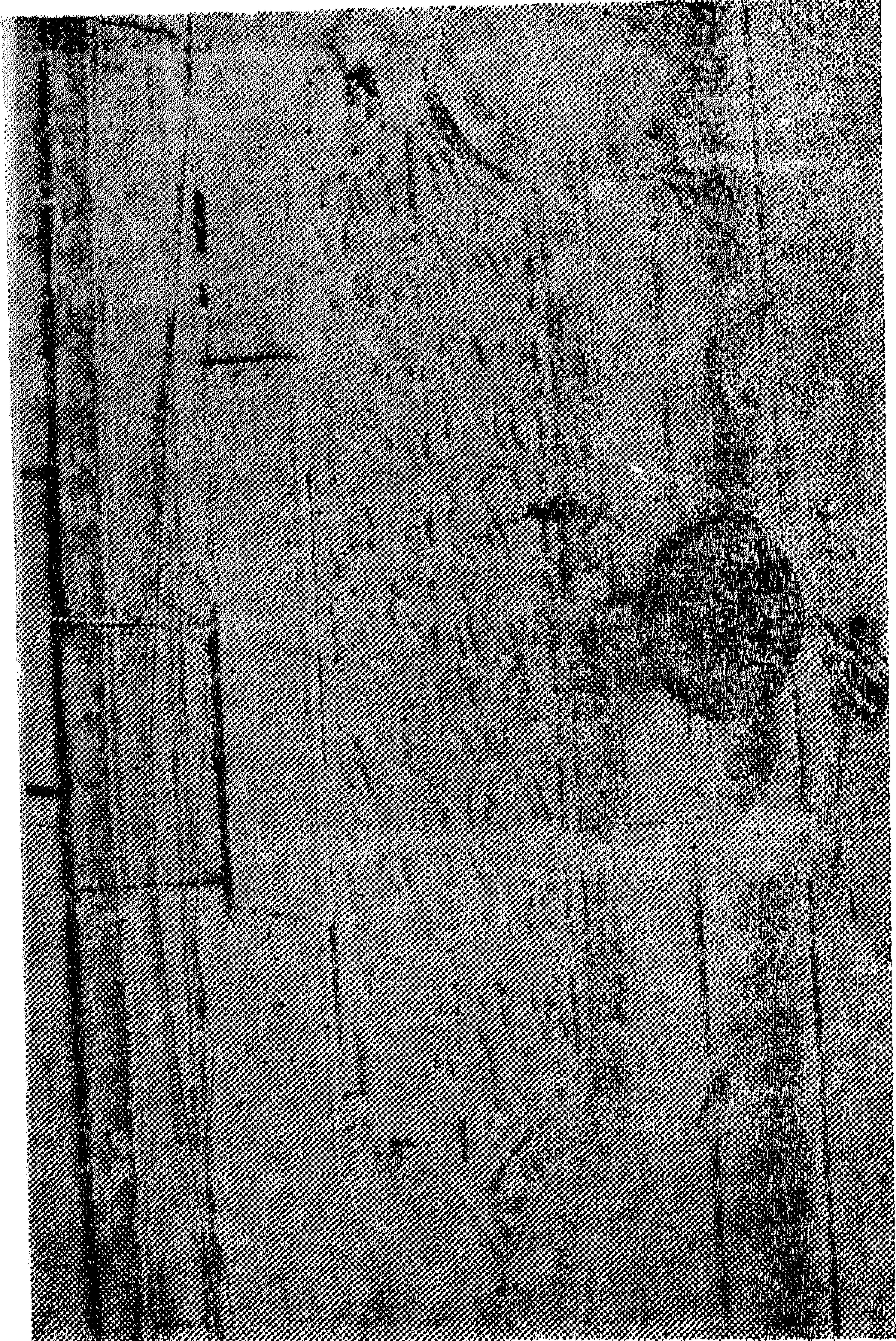
(١٣٧) حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .



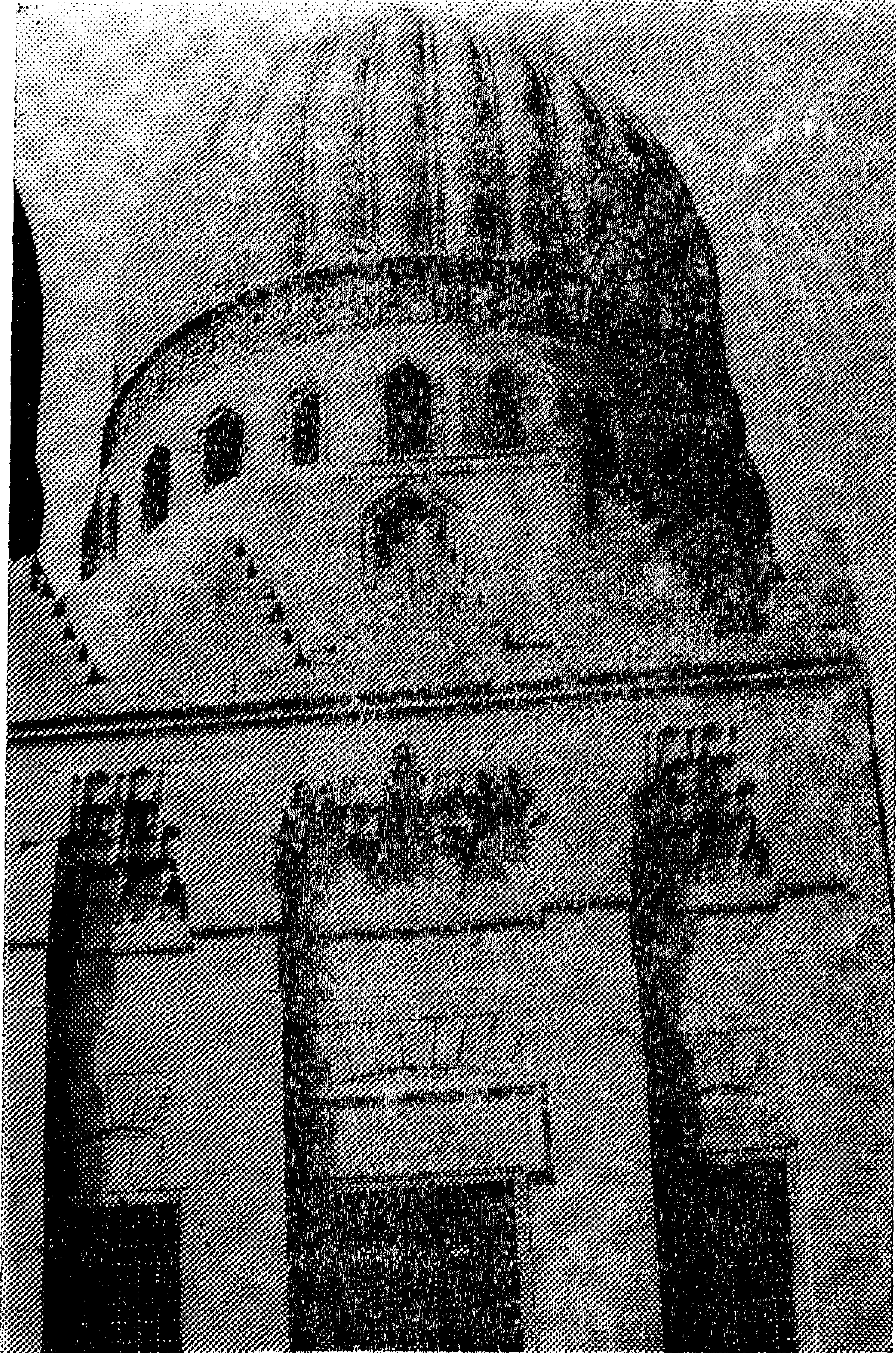
شكل (١) : المسقط الأفقى لمدرسة وخانقاه الجاولى ٠ عن Creswell



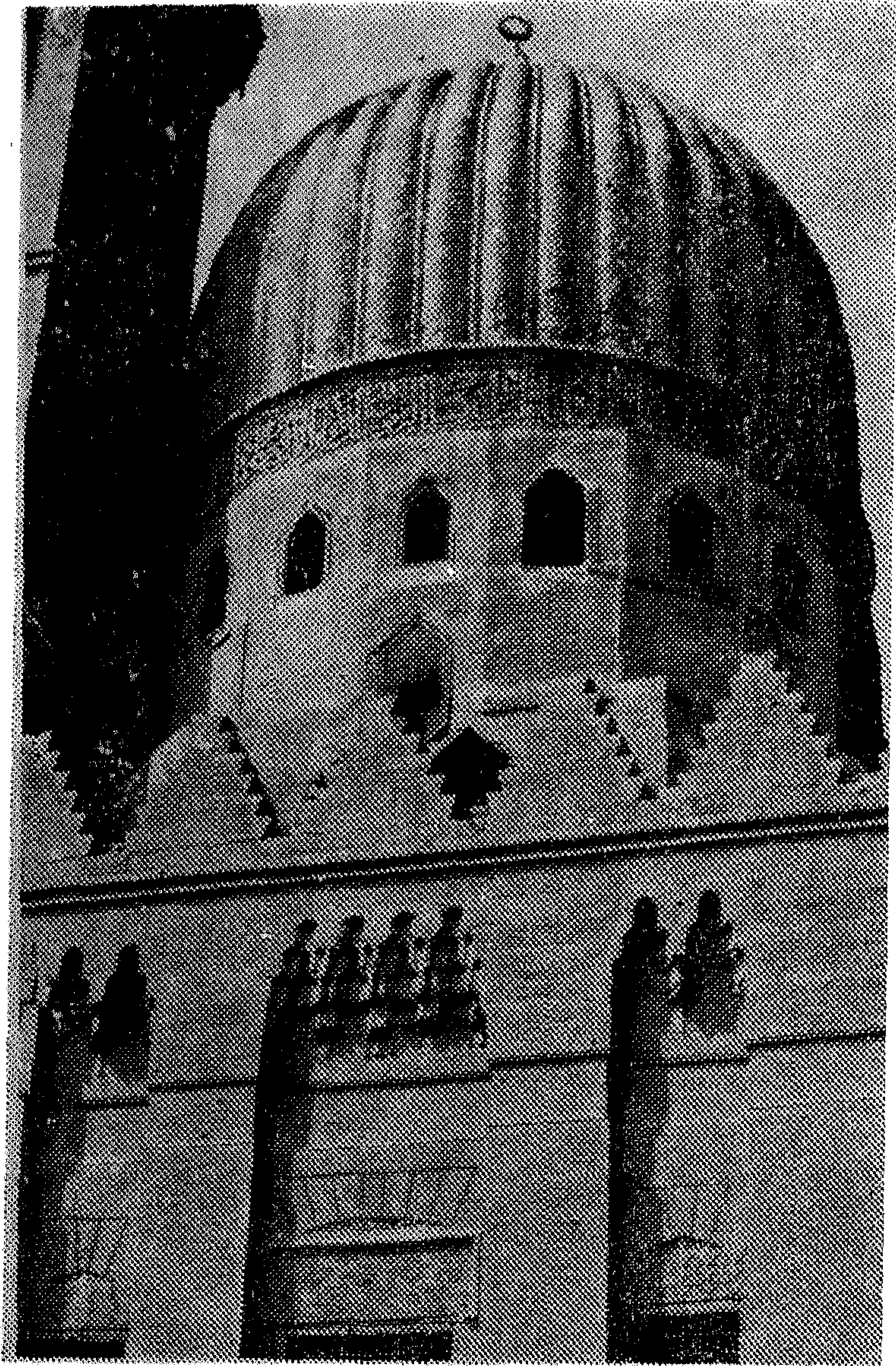
لوحة (١) : مدرسة وخانقاه سنجر الجاولي بالكبش



لوحة (٢) : النص التأسيسي أعلى عتب المدخل العمومي



لوحة (٣) : دخلات واجهة ضريح الجاولى



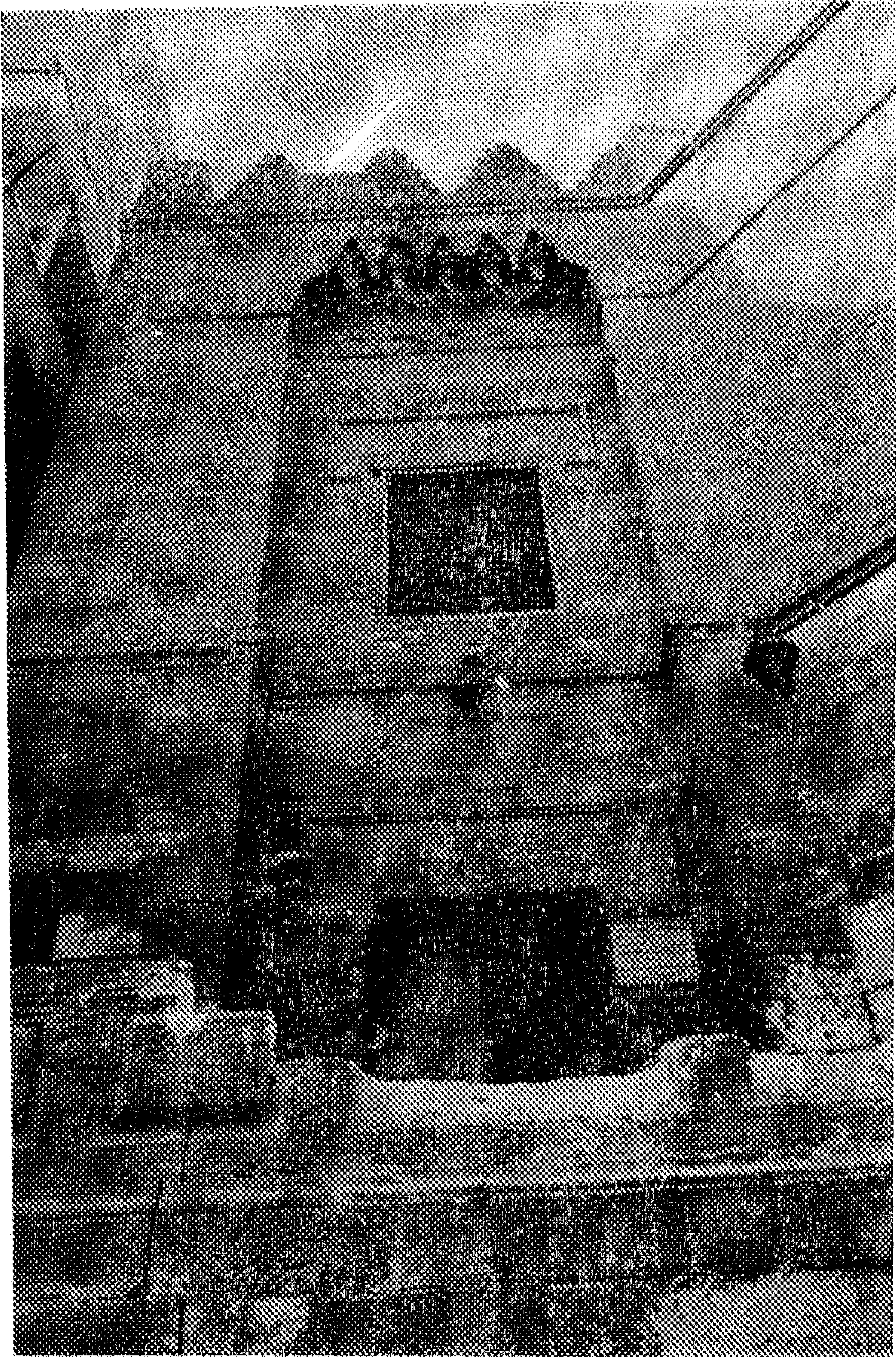
لوحة (٤) : دخلات واجهة ضريح سـلار



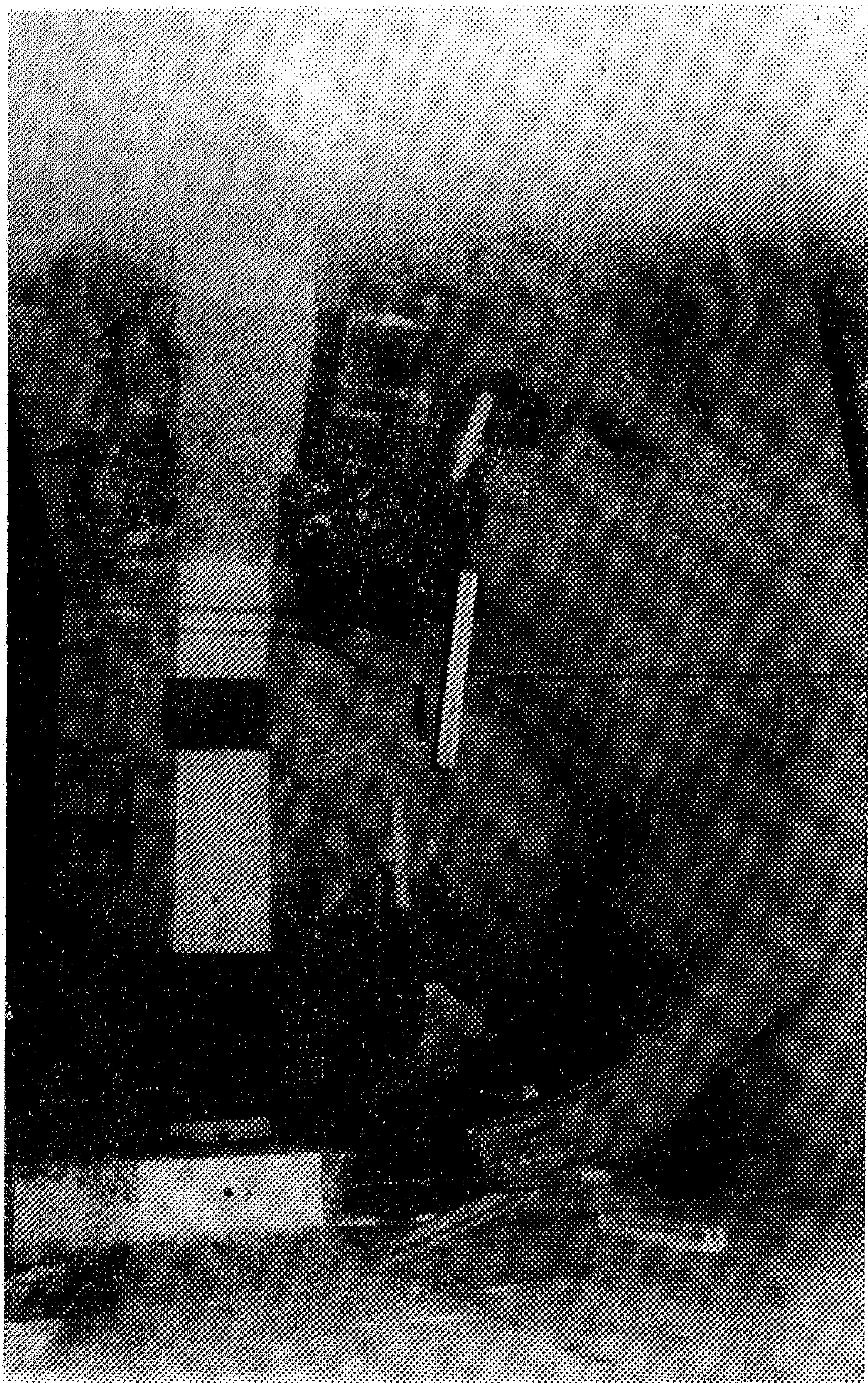
لوحة (٥) : الشرافات ذات الوريقات الثلاثية



لوحة (٦) : افريز من مئذنة جامع الحاكم بأمر الله الغربية



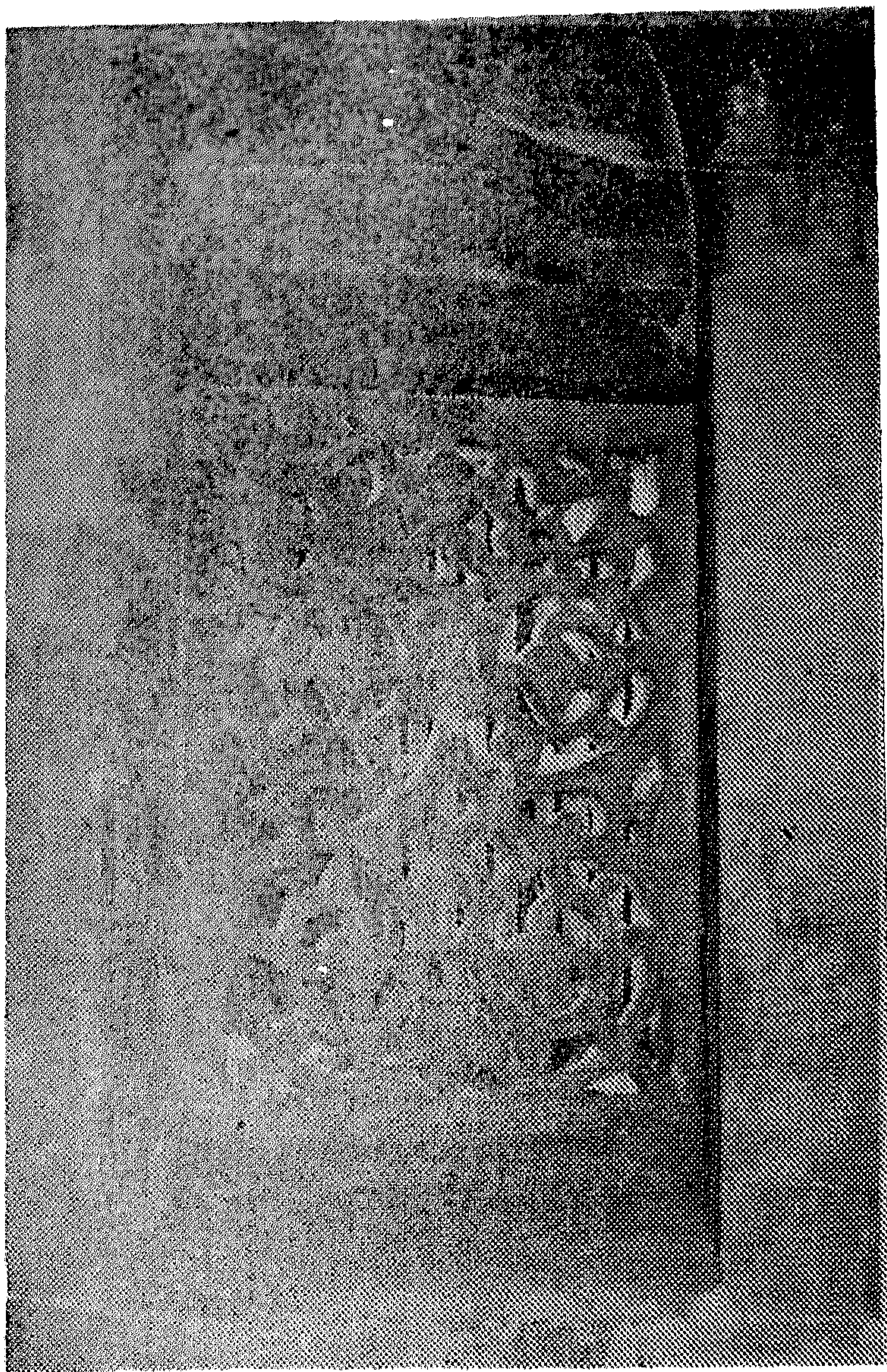
لوحة (٧) : المدخل العمومى لمدرسة وخانقاه الجاولى



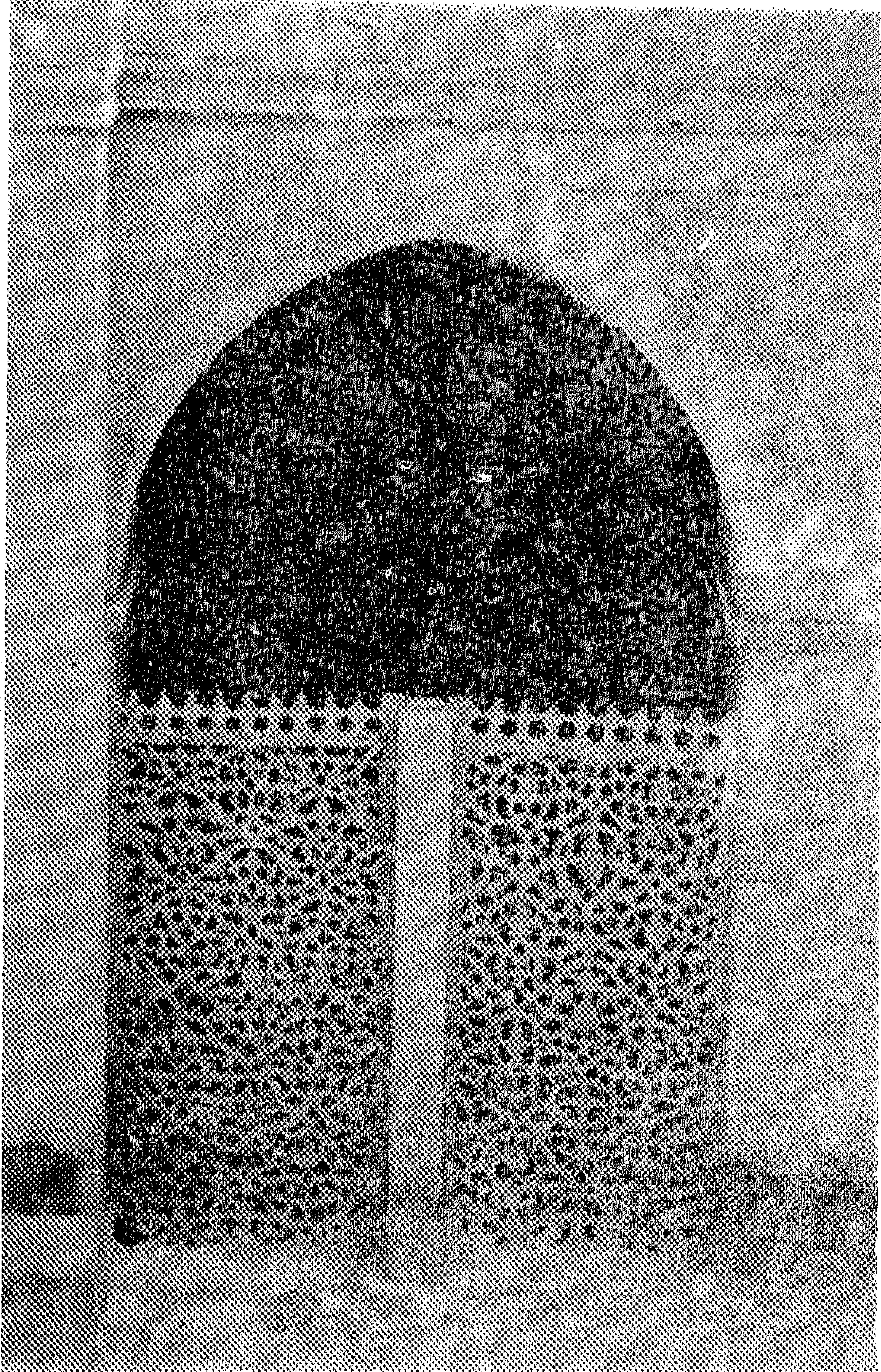
لوحة (٨) : دخلة داخل ايوان القبلة



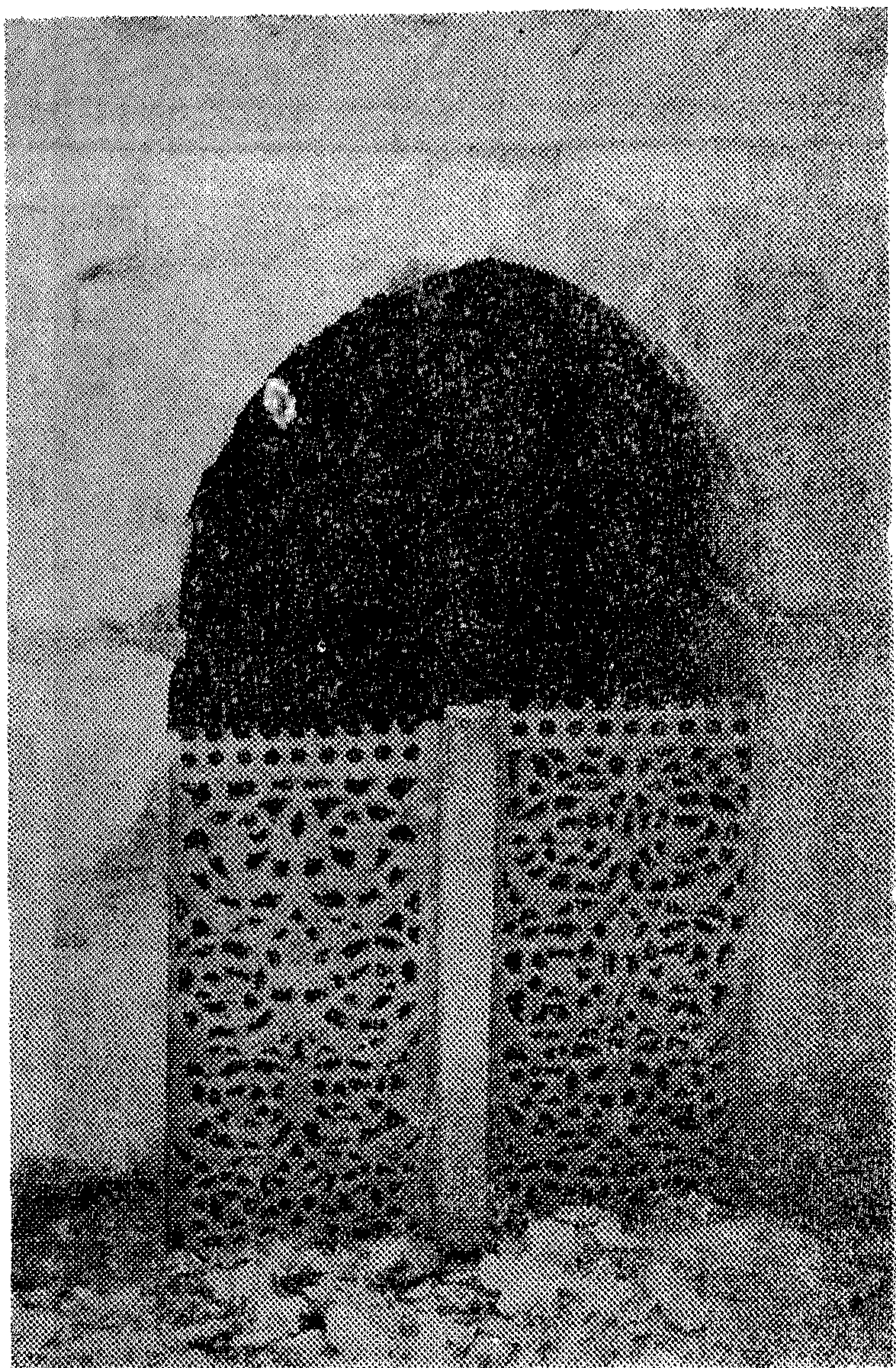
لوحة (٩) : الايوان المقابل لايوان القبلة



لوحة (١٠) دخلة بالجهة الشمالية الغربية للصحن تزدان
بزخارف مفرغة فى الحجر



لوحة (١١) : زخارف نباتية مفرغة فى الحجر
بالجهة الجنوبية الغربية من الدهليز



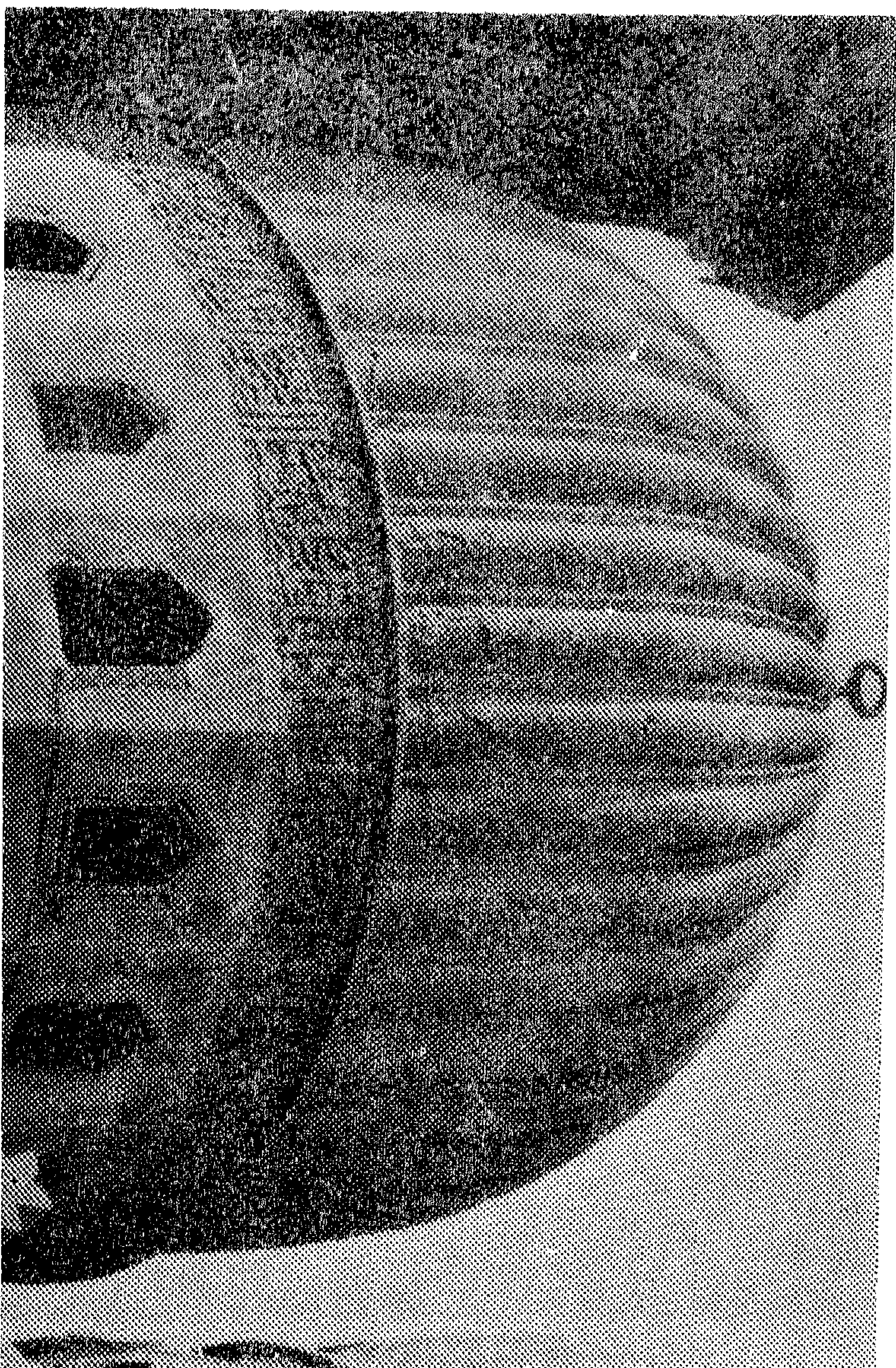
لوحة (١٢) : زخارف نباتية مفرغة فى الحجر
بالجهة الجنوبية الغربية من الدهليز



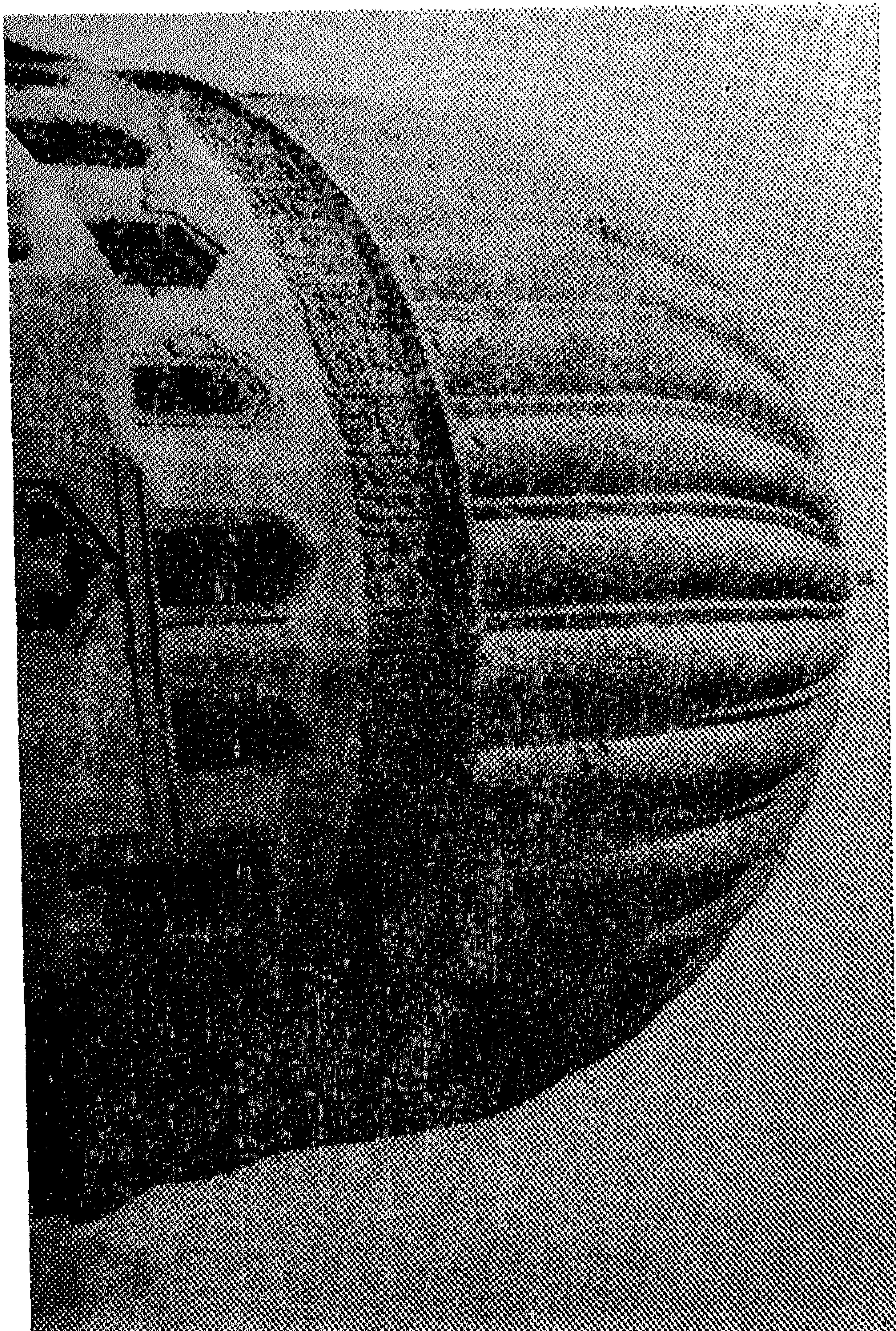
لوحة (١٣) : زخارف نباتية مفرغة فى الحجر بالجهة الجنوبية الغربية من الدهليز



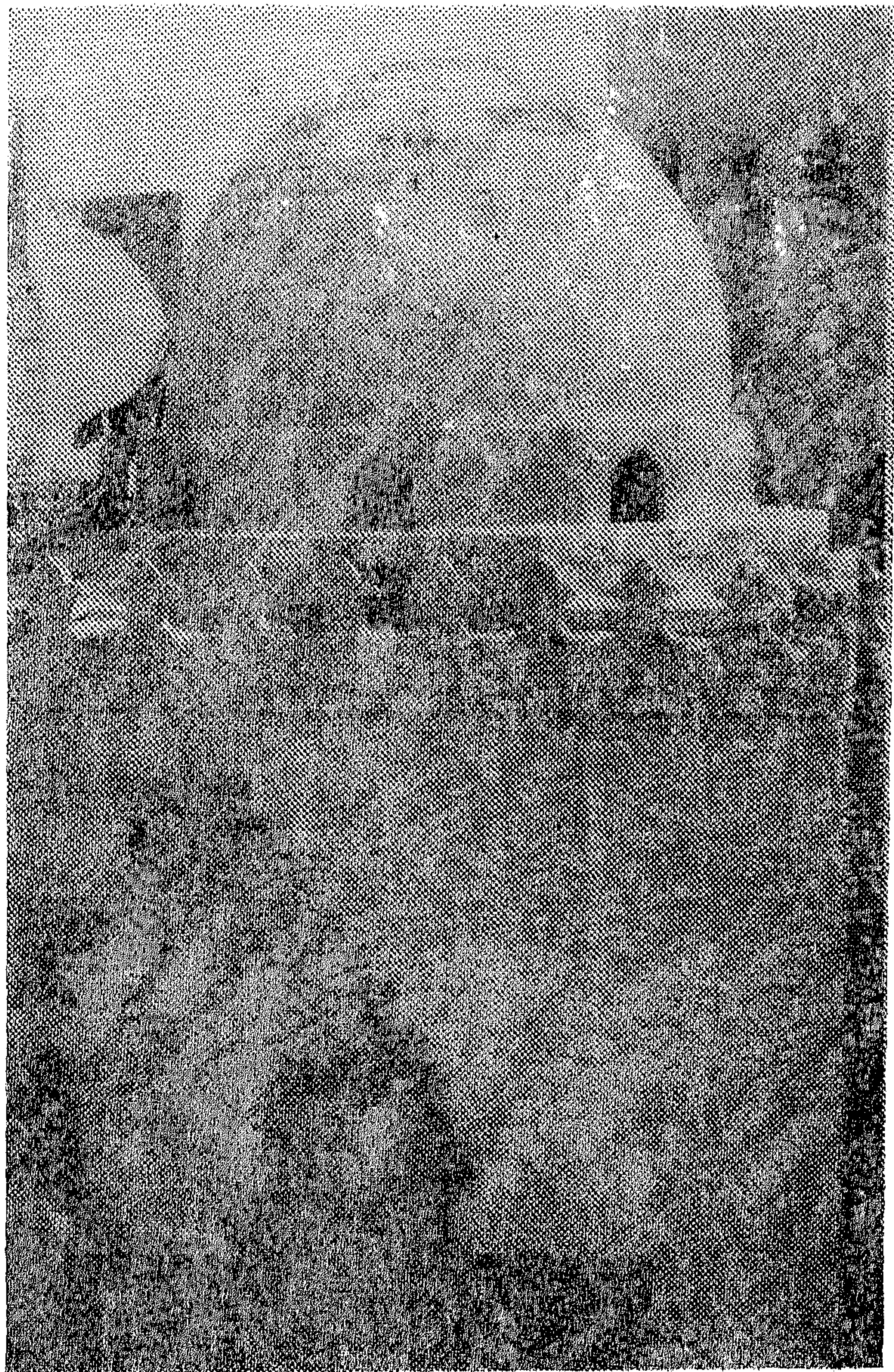
لوحة (١٤) : مدخل مدرسة وخانقاه الجاولى جهة قلعة الكبش



لوحة (١٥) : تفصيل من قبة سلار



لوحة (١٦) : تفصيل من قبة الجاولي



لوحة (١٧) : القبة الثالثة الحجرية

المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية المطبوعة :

— ابن اياس (أبو البركات محد بن احمد الحنفى) ت٩٣٠هـ/١٥٢٤م:
بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، خمسة أجزاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢ - ١٩٨٤ ٠

— ابن بطوطة (محمد بن عبد الله) ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م :
تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، بيروت ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ٠

— ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م :
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ٦ أجزاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٢١ - ١٩٧٢م ٠
المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، خمسة أجزاء ، القاهرة ، ١٩٨٥ - ١٩٩٠م ٠

— ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر) ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م
تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، تحقيق د٠ محمد محمد أمين، ٣ أجزاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م٠

— ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد) ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م :
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة،تحقيق محمد سيد جادالحق، ٤ أجزاء ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م ٠

— ابن شاكر الكتبى (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م :
فوات الوفيات ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، جـ١ ، النهضة المصرية ، ١٩٥١م ٠

— ابن العماد (أبو الفتح عبد الحى) ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م :
شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ، جـ٦ ، بيروت - لبنان ٠

- ابن ايبك الدوادار (أبو بكر بن عبد الله) :
كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق هانس رويمر ، جـ٩ ، القاهرة، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م .

- الحميرى (محمد عبد المنعم) :
الروض المعطار فى خبر الاقطار ، تحقيق احسان عباس ، بيروت، ١٩٨٤م .

- السبكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى) ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م :
طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمد محمد الطناحى ، عبد الفتاح محمد محمد الحلو ، جـ١٠ ، الطبعة الثانية ، ١٤٣هـ/ ١٩٩٢م .

- الشوكانى (محمد بن على) ت١٢٥٠هـ/١٨٣٤م :
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، القاهرة ، ١٣٤٨هـ.

- العينى (بدر الدين محمود) ت٨٥٥هـ/١٤٥١م :
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، تحقيق د. محمد محمد أمين، جـ٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

- القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) ت٨٢١هـ/١٤١٨م :
صبح الأعشى فى صناعة الانشا ،١٤ جزء ،القاهرة ١٩١٢-١٩٣٨م.

- مجير الدين الحنبلى (أبو اليمن عبد الرحمن العليمى المقدسى) ت٩٢٧هـ/١٥٢٠م :
الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، جـ١ ، القاهرة .

- المقدسى :
أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، القاهرة ، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) ت٨٤٥هـ/١٤٤١م :
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط الاثار(المعروف بالخطط المقريزية)، جزآن الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٨٧م .

السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق د٠ محمد مصطفى زيادة ، د٠ سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٧٣م ٠

- ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله) ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م: معجم البلدان ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى ، ٦ أجزاء ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ٠

ثانيا : المراجع العربية الحديثة :

- د٠ **أحمد فكرى :**

مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) ، دار المعارف بمصر ٠

- جومار : وصف مدينة القاهرة ، ترجمة :

د٠ أيمن فؤاد سيد ، مكتبة الخانجى بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ٠

- د٠ حسن الباشا :

الفنون الاسلامية والوظائف على الآثار العربية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٥٧م ٠

- د٠ حسن سيد جودة القصاص :

المدرسة الصرغتمشية ، دراسة أثرية معمارية ، مخطوط رسالة ماجسير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة، ١٣٩٢ - ١٢٩٣هـ/١٩٧٣م

- حسن عبد الوهاب :

تاريخ المساجد الاثرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٤م٠

- د٠ حسنى محمد نويصر :

عوامل مؤثرة فى تخطيط المدرسة المملوكية (تاريخ المدارس فى فى مصر الاسلامية - تاريخ المصريين (٥١) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م ٠

— حســـين روحى :
المختصر فى جغرافية فلســطين ، القـــدس ، الطبعة الأولى ، ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م .

— د. حسين مصطفى حسين :
المحاريب الرخامية فى قاهرة المماليك البحرية ، دراسة اثرية فنية، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

— د. سـعاد ماهر محمد :
مساجد مصر وأولياؤها الصالحين ، خمسة أجزاء ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية وزارة الأوقاف بمصر .

— سليم عرفات المبيض :
غزة وقطاعها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م .
البنايات الآثرية الاسلامية فى غزة وقطاعها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥م .

— شاهنده فهمى كريم :
جوامع ومساجد امراء السلطان الناصر محمد بن قلاون ، مخطوط رسالة دكتوراة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

— شفيقة قرنى ســيد :
دراسة اثرية عمرانية لشارع الصليبة بالقاهرة حتى العصر الجركسى، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الاثار ، جامعة القاهرة ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م .

— د. عادل شــريف :
النصوص التأسيسية على العمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة ، مخطوط رسالة دكتوراة ، كلية الآداب ـ جامعة أسيوط ، ١٩٨٦م .

— د. عبد الله كامل موسى عبده :
تطور المئذنة المصرية بمدينة القاهرة من الفتح العربى وحتى نهاية

العصر المملوكى ، دراسة معمارية زخرفية مقارنة مع مآذن العالم الاسلامى ، مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآثار - جامعة القاهرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .

- علی باشا مبارك :
الخطط التوفيقية الجديدة ، جـ٦ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م .

- د. على محمود سليمان المليجى :
عمائر الناصر محمد الدينية فى مصر ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

- د. فريد شافعى :
العمارة العربية فى مصر الاسلامية (عصر الولاة) ، المجلد الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤م .

- ماير :
الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

- د. محمد حمزة اسماعيل الحداد :
العلاقة بين النص التأسيسى والوظيفة والتخطيط المعمارى للمدرسة فى العصر المملوكى (تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية - تاريخ المصريين(٥١) الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٩٢م .
القباب فى العمارة المصرية الاسلامية ، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

- د. محمد سيف النصر أبو الفتوح :
منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك ، مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآداب بسوهاج ، جامعة أسيوط ، يناير ١٩٨٠م .
مداخل العمائر المملوكية بالقاهرة الدينية والمدنية ، (من سنة ٦٤٨ - ٧٨٤هـ/١٢٥٠/١٣٨٢م) مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآثار.

ـــ محمد الشتاوى سـند :
متنزهات القاهرة فى العصرين المـــلوكى والعثمانى ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

ـــ د. محمد عبد انستار عثمان :
نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، مخطوط رسالة دكتوراه ، كلية الآداب بسوهاج ، جامعة أسيوط ، ديسمبر ١٩٧٩م .

ـــ د. محمد محمد أمين :
الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، دار النهضـــة العربية ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٠م.

ـــ محمود على خليل عطا الله :
نيابة غزة فى العهد المملوكى ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

ثالثا : المراجع الأجنبية :

— Abou Seif (D.) :
* Islamic Architecture in Cairo, the American University in Cairo Press.

— Creswell (K.A.C.) :
* The Muslim Architecture of Egypt, 11, Ayyubids and Early Bahrite Mamluks, Oxford, 1959.
* The Evolution of the Minaret, Burlington, Magazine (Mars, Mai, Juin, 1926).

— Devonchire (R.L.) :
* L' Egypte Mauslmane et les Fondateurs des ses monuments, Paris, 1926.

— D. Margoliouth. S., :
* Cairo, Jeursalem, Damascus, London, 1907.

— Meinecke (Michael) :
* Die Mamlukische Architektur in Agypten und Syrin (648-1250 Bis 923 - 1517), tell 11,
Verlag J.J. Augustin G.m BH. Gluck stadt, 1992.

باب عـــرض الكتب (*)

نعرض فى هذا العدد خمسة كتب اصدرها بعض أعضاء الاتحاد هذا العام ، وأمدوا الاتحاد بنسخ منها للتعريف بها . وهذه الكتب هى :

أولا :

تاريخ المغرب العربى ـ الجزء الرابـــع [المرابطون : صـــنهاجة الصحراء الملثمون فى المغرب والسودان والأندلس] .

كتاب صدر عن منشأة المعارف بالاسكندرية ، تأليف الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد . الكتاب صدر عام (١٩٩٥م) ، يقع فى أربعمائة وعشرين صفحة ، عدا فهارس المصادر والمراجع وكشـــافات الاســـماء ونحوها .

مؤلف الكتاب غنى عن التعريف ، فهو الأستاذ الدكتور المؤرخ سعد زغلول عبد الحميد الأســـتاذ المتفـــرغ حاليا بكلية الآداب بجامعـــة الاسكندرية ، وعميد كلية الآداب ورئيس قسـم التاريخ وأســـتاذ التاريخ الاسلامى بنفس الكلية والجامعة سابقا .

والكتاب أيضا غنى عن التعريف ، فقد سبق اصــــدار ثلاثة أجزاء منه ، وهذا هو الجزء الرابع الذى يعالج فيه الباحث موضوع المرابطين، من بربر صنهاجة الملثمين ، وحركة الاحياء التى قاموا بها فى الصحراء والسودان والأندلس . والموضوع ـ كما يبدو ـ صعب ، تتعطش المكتبة العربية اليه ، حيث تشكو من جدب واضح فيه . وربما نجـــم ذلك عن صعوبة الموضوع ووعورة مسالكه وخلو بعض حلقاته من المصـادر خلوا واضحا . ولكن الأستاذ الدكتور المؤلف استطاع أن يروى ظمأ المتعطشين اليه ، فقدم لهم جرعة ـ لا نقول مسكنة وانما شافية ـ فى الموضوع،وبذلك

(*) يستهدف هذا الباب التعريف بالكتب التى أصدرها الأساتذة أعضاء الاتحاد فى العام السابق مباشرة .

قدم للمشتغلين فى حقل التاريخ الاسلامى عملا سد به فعلا فراغا ملموسا فى التاريخ • وجاء ذلك على حساب جهد كبير شاق بذله الباحث وتبدو صورته فى كل صفحة بل فى كل سطر من صفحات الكتاب واسطره •

لقد مهد المؤلف لدراسته عن المرابطين بعدة فصول عن طبيعة البلاد وبنائها البشرى ، وقبائل الملثمين بالصحراء الكبرى ، ثم عن صـــورة الصحراء ـ أو كما اسماها خريطة الصحراء ـ الثقافية مع مطلع القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى •

وبأسلوب قويم ومنهج علمى راسخ الجذور ، أخذ الباحث ينتقـل من فصل الى آخر من فصول الكتاب ، فتعرض لحركة التجديد الثقافية التى شهدتها صحراء الملثمين ، ثم عن القواعد التأسيسية والسياسية التى قامت عليها دولة المرابطين ، وانتقل من ذلك الى يوســـف بن تاشفين ودوره فى استكمال فتوح المغرب الشمالية من ناحية ونشاطه على ساحة الأندلس حيث دارت رحى حرب الاسترداد من ناحية أخرى • وهــكذا حتى كان عهد على بن يوسف بن تاشفين ، وبلوغ دولة المرابطين الذروة تمهيدا لبداية الانحلال والتدهور •

والمؤلف فى علاجه للموضوع لا يقف عند حد السرد ، وانما يحرص على التعليل والمقارنة والنقد والربط بين المصادر المعاصرة من جهـــة والمراجع الحديثة ـ أوربية وغير أوربية ـ م نجهة أخرى • هذا الى أنه زود هذه الدراسة الثمينة بعدد كبير من الخرائط والكشافات ، وبذلك مهد الطريق أمام الباحثين للوقوف على صورة مكتملة لحلقة ظلت شبه مفقودة من حلقات التاريخ الاسلامى •

ثانيا : المتصوفة فى المغرب الأقصى ـ فى عصر المرابطين والموحدين (٤٥٤ ـ ٦٦٨هـ = ١٠٦٢ ـ ١٦٢٩م)

كتاب فى مائة وسبعين صــــفحة ، تأليف الدكتور حســـين ســـيد عبد الله مراد عضو هيئة التدريس بمعهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة •

والكتاب يحمل تاريخ ١٤١٥هـ/١٩٩٤م ، ورقم ايداع١١٥٢٨/٩٤ ٠

والباحث كما هو واضح يعرض لموضوع له أهميته الدينية والفكرية والاجتماعية ، حيث أن التصوف ظاهرة لها جـــذورها الدينية من جهة وآثارها الحضارية والاجتماعية بوجه خاص من ناحية أخرى ٠

ومن الملاحظ أن هذه الظاهرة تقوى وتشتد عندما يحس الفرد أو المجتمع بحاجته الى الرجوع الى الله للخلاص من أزمة يمر بها ٠ وكان هذا هو الاتجاه الذى ساعد على اشتداد تيار التصوف فى المغرب الاسلامى على عصرى المرابطين والموحدين ، بين منتصف القرن الخامس ومنتصف القرن السابع للهجرة ، عندما ساءت أحوال المسلمين فى المغرب والأندلس وأحسوا بضعفهم أمام ضربات القوى المسيحية فى شمال الأندلس وغرب حوض البحر المتوسط ٠

وقد عالج الباحث هذه الظاهرة فى اطار منهج علمى سليم ، فمهد لموضوع بحثه بمقدمة عرف فيها التصوف ، ثم قسم دراسته الى خمسة فصول استهلها بمحاولة للوقوف على عوامل انتشار التصوف فى المغرب الاسلامى ، وانتقل من ذلك الى الكشف عن دور المتصوفة فى الحيـــاة السياسية من جهة وفى حركة الجهاد ضد الأسبان من ناحية أخرى ٠ وبعد أن تكلم عن انتشار ظاهرة التصوف فى المغرب العربى ، تطرق الى أثر التصوف فى تكييف الحياة الاجتماعية ، وتضمن ذلك القاء الضوء على الدور الاجتماعى للمنصوفة ، ونصيب المرأة فى حركة التصوف ، ومكانه الصوفية فى المجتمع ٠ وكان من الطبيعى فى مثل هذه الدراسة أن يتطرق الباحث لأوجه النشاط الحضارى لحركة التصوف فى المغرب ، فقـــدم عرضا طيبا لدور المتصوفة فى النشـــاط الاقتصادى والحياتين الدينية والفكرية ٠ وبعد خاتمة لخص فيها الباحث ما توصل اليه فى بحثه ، أورد عددا من الخرائط والفهارس وقائمة المصادر والمراجع التى استعان بها فى البحث ٠

والكتاب فى مجموعة يعبر عن دراسة علمية جادة تستحق التقدير٠

ثالثا : تأسيس مملكة البرتغال ٠

كتاب فى نحو مائتين وستين صفحة ، صدر عن مؤسسة عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية بالقاهرة ٠

تاليف دكتور محمد محمود النشار - مدرس تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب - جامعة طنطا ٠

يعالج الباحث فى هذا الكتاب موضوع السياسة الخارجية لألفونسو هنريكز ملك البرتغال (١١٢٨ - ١١٨٥م) ٠ وقد يبدو الموضوع فى ظاهره أكثر ارتباطا بالتاريخ الأوربى ، ولكن الباحث أعطى أهمية خاصة لعلاقة ملك البرتغال بدولة المرابطين من ناحية ثم بالموحدين من ناحية أخرى ، وذلك بعد أن تكلم فى الفصلين الأول والثانى من كتابه عن الاوضاع السياسية فى دولة البرتغال فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر وكذلك علاقة الملك ألفونسو هنريكز بملوك قشتالة وليون والبابوية ٠

والدراسة فى مجموعها تتصف بالعمق ، تلقى أضواء على جوانب لم تحظ بقدر كاف من عناية الباحثين ، وبخاصة فيما يتعلق بعلاقة البرتغال بالمرابطين والموحدين ٠ وقد عالج انباحث هذه العلاقة فى ضوء التيار الصليبى الذى جرف عديدا من قوى الغرب الأوربى ضد المسلمين فى ذلك الدور ٠ وزود الباحث دراسته بعدد من الملاحق التى تشتمل على وثائق وجداول ، بذل جهدا واضحا فى نقلها الى العربية ٠ هذا فضلا عن الكشافات والفهارس وقائمة المصادر والمراجع ٠

والحق ان الكتاب يعبر عن اضافة جديدة للمكتبة العربية ٠

رابعا : الزط ، والأصول الأولى لتاريخ الغجر ٠

كتاب صدر فى القاهرة فى مائة وثلاثين صفحة ، يحمل رقم الايداع ٩٤/١١٥٢٩ (١٤١٥هـ) تأليف دكتور عبادة عبد الرحمن كحيلة أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب - جامعة القاهرة ٠

يتعرض الباحث فى ها الكتاب لأصل جماعة لعبت دورا كبيرا فى

تاريخ العالم ـ سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ـ ومع ذلك مازال الغموض يحيط بجذورها الحقيقية • ومن العوامل التى تجعل دراسة تاريخ الغجر من الصعوبة بمكان ، أنهم ظلوا محتفظين عبر القرون بكيانهم شبه المستقل دون أن يذوبوا فى المجتمعات التى احتكوا بها أو عاشوا على هوامشها • ومع احتفاظهم بخصائصهم لم تكن لهم لغة مكتوبة خاصة بهم، وبالتالى لم يعنوا بكتابة تاريخ لهم •

وفى قلب هذه التيارات والأمواج المتلاطمة ، أقحم الباحث نفسه محاولا الوصول الى الجذور الحقيقية لجماعات الغجر ، وتتبع خصائصهم وأوجه نشاطهم ، وأحوالهم الاجتماعية ومكانتهم فى المجتمع البشرى الكبير • وقد نجح الباحث فعلا فى الكشف عن كثير من هذه الحقائق بفضل ما تحمله من جهد فى البحث فى أعماق العديد من المصادر والمراجع العربية والأوربية ، وبذلك قدم للتاريخ شيئا جديدا يجمع بين طرافة الموضوع وجدية المنهج •

خامسا :

دور العرب فى اكتشاف العالم الجديد

كتاب فى مائة وخمسين صفحة ، بما فيها قائمة المصادر والمراجع والفهارس • الكتاب تأليف دكتور فهمى توفيق مقبل،الأستاذ المساعد بكلية التربية ـ جامعة الملك فيصل،صدر الكتاب عن دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة ، ويحمل رقم الايداع ٧٢٦٥ لسنة ١٩٩٤ •

وقد وضع المؤلف هذا الكتاب بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف النصف الثانى للكرة الأرضية • وفيه ألقى المؤلف أضواء ساطعة ، وكشف عن حقائق جديدة تتعلق بالجهود الرائدة التى بذلها العرب فى مجال الملاحة البحرية بوجه عام ، والملاحة فى بحر الظلمات أو المحيط الأطلسى بوجه خاص ، حتى كان لهم شرف السبق فى اكتشاف العالم الجديد • وبأسلوب علمى متزن ، وفى اطار منهج سليم ، أثبت الباحث أن كولومبس اعتمد على الخرائط التى وضعها العرب ، وعلى

الأجهزة التى استخدموها فى عالم البحار . وتطرق المؤلف خلال دراسته الى اثر الفكر الجغرافى - العربى الاسلامى - فى أوربا ، وكيف أقبل الأوربيون فى صحوتهم فى فجر العصور الحديثة على ترجمة والتقاط ما توصل اليها العرب من نتائج وما حققوه من انجازات علمية ، بنوا عليها معارفهم ومكنتهم من الوصول الى ما وصلوا اليه على طريق نهضتهم الحديثة .

والكتاب فى مجموعه دراسة علمية جادة جديرة بالتقدير .

رقم الايداع ٦٥٤٩ / لسنة ١٩٩٤

Bulletin
of
The Arab Historians Society

Academic Bulletin Concerned with
Historical studies

VOL. 1 NO. 4   March, 1996   Cairo - Egypt


Bibliotheca Alexandrina
0673071


اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة
المؤرخ العربى

تصدر عن
اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

العدد السابع المجلد الأول مارس ١٩٩٩

اتحـاد المؤرخـــين

العـــــرب

بالقـــاهرة

مجلة المؤرخ العربى

العدد السابع – المجلد الأول

مارس ١٩٩٩

هذه المجلة

- علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .
- تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية ، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .
- البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .
- تصدر مؤقتًا سنويًا فى مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .
- لا يزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو بالكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة .
- تخصص أقسام فى المجلة - حسب الإمكانات - لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .
- البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .
- يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة التسلسل الزمنى بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية . ولا علاقة إطلاقًا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .
- جميع المراسلات تكون باسم الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .

المـؤرخ العـربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن

اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد السابع - المجلد الأول - مارس ١٩٩٩

فى هذا العدد

كلمة الافتتاح :

مدرسة التاريخ

إنسان الماضى هو إنسان الحاضر ، خلقه الله تعالى فى أحسن تقويم ، وصوره فأحسن صورته . والحسن هنا لا يقتصر على تناسق الأعضاء وجمال الصورة ... وإنما يمتد إلى الجوهر ليشمل وظائف هذه الأعضاء ، وتكاملها ، وخطورة مهامها ، وقدرتها على تكييف حياة البشر ، وفق طبيعة الزمان والمكان . فالقلب هو القلب على تعاقب الأزمنة والعصور ، يحب ويكره . والعقل يفكر ويتدبر ، ويحذر ويهدى . والحواس تربط الإنسان بالمحيط الخارجى ، ليتفاعل معه ، يتأثر به ويؤثر فيه ... وهكذا تعاقبت العصور ، وظل الإنسان على ما خلق عليه ، فى صورته وبنيته ، وقدراته ، وأسلوبه فى مواجهة حوادث الدهور .ربما تعرض بسبب انتشاره فى بيئات متباينة ، وما صحب ذلك من تعدد السلالات ، لتباين فى الفروع ، هذه سلالة فى إقليم معين غلبت عليها الشقرة ، وهذه أخرى فى إقليم ثان غلبت عليها السمرة . هذه سلالة تتميز بطول القامة ،وهذه أخرى تتصف بالقصر ... ولكن مثل هذه الفوارق تكون فى الظاهر لا فى الباطن ، أو بمعنى آخر فى القشرة الخارجية وليست فى جوهر البناء . وفيما عدا ذلك يبقى الإنسان على نفس الصورة التى اختارها الله - عز وجل - له ﴿ فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ .

ومهما تباينت نظرة الإنسان إلى الحياة على مر العصور ، وذلك تبعا لاختلاف الأجواء والظروف التى تحيط به فى كل عصر ، مما يؤثر فى سلوكه ، والأسلوب الذى يمارس به حياته ، ويعالج به أوضاعه ... فإن الإنسان يظل هو الإنسان - بفكره ، وطاقاته وإمكاناته ، وقدراته على مواجهة ما يصادفه من

صعاب . ومن هنا تنبع أهمية تجارب الماضى فى مواجهة مشاكل الحاضر . وبعبارة أخرى تنبع أهمية التاريخ كمدرسة عُليا يستمد الإنسان من تجاربها الكثير مما يعينه على تخطى ما يواجهه من أزمات . وإذا كانت أحداث التاريخ لا تتطابق ، لأن لكل عصر أجواءه ومستوياته الحضارية ؛ فإنها لابد وأن تتشابه ، لأن الإنسان الذى صنع الماضى هو نفس الإنسان الذى يصنع الحاضر . هناك تباين فى المظهر ولكن لا خلاف فى الجوهر .

وهكذا يبدو التاريخ فى صورة مدرسة كبرى ، مليئة بالتجارب التى تصقل فكر الإنسان ، وتأخذ بيده ، وترشده فى مسيرته الكبرى لبناء حاضر أفضل والتخطيط لمستقبل أقوم .

لقد صدق السلطان الظاهر بيبرس عندما قال : « سماع التاريخ أعظم من التجارب » . وصدق معاصره ابن خلدون الملقب « علامة الأمة وإمام الأئمة » عندما سجل فى مقدمته الخالدة إن التاريخ « فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم : حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه » .

اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

سعيد عبد الفتاح عاشور

الراوية الشفوية وأهميتها فى حفظ التاريخ

د. صلاح الدين عاوور(*)

تعريف التاريخ الشفوى :

التاريخ الشفوى هو التاريخ الذى يستمد من معلومات مروية بعناية ومنهجية ، رواها باحث متمرس فى لعرض صورة من صور الماضى البعيد أو القريب .

وهكذا يكون التاريخ الشفوى هو التاريخ الحى الذى تناقله الأشخاص ، وعاش فى ذاكرتهم . فهو صوت المعاصرين الحى الذى يفند المفاهيم القديمة المغلوطة والمبالغات التى ربما تطرقت إلى الصفحات المدونة فى سجلات الواقع التاريخى .

وللتاريخ الشفوى منهج يتصف بالديموقراطية لأنه يعتمد فى روايته للحدث على الخاصة والعامة ، على الحاكم والمحكوم ، ويعكس بعمق قوة عواطف الشخص ، والأبعاد الإنسانية للشعب والمجتمع ، فهو لا يهمل تجارب عامة الناس، وإنما يهتم بقضاياهم وأحوالهم ، ويشركهم فى تدوين تاريخهم كذلك يعنى هذا المنهج . بدراسة الماضى ، من خلال الكلمة المحكية المحفوظة فى الذاكرة ، والمنقولة مشافهة . ومعنى ذلك أنه يشتمل على :

التراث الشفوى : أى دراسة الماضى البعيد من خلال الروايات الشفهية الشائعة فى مجتمع معين والمنقولة عبر عدة أجيال ، أو عن جيل واحد على الأقل .

(*) أستاذ مشارك فى فرع التاريخ الإسلامى ورئيس قسم التاريخ كلية الآداب – الجامعة الإسلامية – غزة .

وتاريخ العصر : أى دراسة الماضى القريب من خلال روايات الأفراد وذكرياتهم عن أحداث حياتهم ، وخبراتهم ومشاهداتهم ، خاصة تلك الأحداث التى شاركوا فى صنعها شخصيًا أو كانوا شهود عيان لها(١) .

إن شفاهية الثقافة التى لم تمسها مطلقًا أية معرفة بالكتابة أو الطباعة أو التسجيل الآلى ، « شفاهية أولية » . وهى أولية بالتقابل مع «الشفاهية المتطورة» التى تتميز بها الثقافات ذات التكنولوجيا العالية فى الوقت الحاضر، حيث تُحافظ شفاهية جديدة على وجودها واستمرارها فى وظيفتها من خلال المسجل والفيديو والتلفاز والوسائل الإلكترونية الأخرى التى يعتمد وجودها وأداؤها لوظيفتها على الكتابة والطباعة .

أما الثقافة الأولية الشفوية بالمعنى الدقيق فتكاد تنعدم اليوم ؛ ذلك أن ثقافات اليوم تعتمد على الكتابة ، ولديها شئ كثير من الخبرة بتأثيراتها ، ومع ذلك فإن كثيرًا من الثقافات الثانوية لا تزال تحتفظ بدرجات متفاوتة بالطابع العام الذى تتصف به الشفاهية الأولية(٢) .

والتاريخ الشفوى يتطلب من الباحث مهارة جيدة فى الإفادة من العلاقات الإنسانية ، كما يتطلب من الراوى اهتمامًا ثابتًا ودائمًا بالموضوع(٣) .

إن الكثير من المصادر المدونة التى يستشهد بها المؤرخون اليوم كانت فى الأصل مصادرشفهية .

وعلى هذا الأساس فإن الوثائق المدونة ليست أكثر أهمية للتاريخ من الروايات الشفهية .

إن التاريخ الشفهى يُقدم لنا معنى للمكان والمجتمع كما كان متاحًا للناس ، وفى الوقت ذاته يُلقى ضوءًا على السِّمات الواسعة للتاريخ - خاصة التاريخ الاجتماعى - .

وتتضمن الممارسة الحالية للتاريخ الشفهى افتراضين فيهما الكثير من الجاذبية هما :

الأول : وهو الأكثر وضوحًا - يقول أن الذكريات الشخصية يُنظر إليها على أنها وسيلة فعالة لبعث الماضى - أى شهادة جديرة بالثقة فى الحياة البشرية كما كانت تسير فعلاً بصفة واقعية .

فالتاريخ الشفهى يُقدم ببساطة وسائل جديدة لتحقيق وتوضيح ما كانت عليه الأشياء فعلاً ، ويعتمد على تجارب الناس فى الماضى وإلى أقصى درجة ممكنة .

ثانيًا : هناك الكثير من المؤرخين الشفهيين يرفضون أن يكونوا تحت راية المؤرخين المحترفين . وهم ينظرون إلى التاريخ الشفهى كخيار ديموقراطى يتحدى احتكار النخبة الأكاديمية ، ويرون أنه فى ظل التاريخ الشفوى يكون لعامة الناس دور فى التاريخ ، بل أيضًا دور فى إنتاج المعرفة التاريخية مع مضامين سياسية مهمة(٤) .

وهكذا فإن التاريخ الشفوى يُتيح الفرصة للراغبين من كافة الفئات للمشاركة فى تسجيل التاريخ ، بشرط أن يكون ذلك تحت إشراف مختصين فى أهل العلم والدراية ، حيث أن التاريخ الشفوى يتم الوقوف عليه وتسجيله عن طريق المقابلات الشفهية ، ومن ثم فإنه يتطلب منهجاً خاصاً يُدركه ويُطبقه المختصون فى هذا المجال .

تاريخ الراوية الشفوية :

يرتبط الكلام بالوعى ، بمعنى إن الكلام غير منفصل عن وعينا . وقد أسر الكلام لُبَّ البشر ، ودفعهم إلى التأمل الجاد فيه منذ المراحل المبكرة جدًا من الوعى، قبل أن تظهر الكتابة بزمن طويل . تاريخ الشعوب فى كل أنحاء العالم

غني بالملاحظات حول هذه الظاهرة الإنسانية المدهشة ، ظاهرة اللغة ، فى صورتها الشفاهية الأصلية ، والتعبير عن الأحاسيس والرغبات بحركات الفم واللسان .

وقد استمر الاعتماد على الكلام الشفاهى دون فتور أو كلل لقرون طويلة حتى بعد أن شاع استخدام الكتابة . وبعبارة أخرى فإن المؤرخين الأوائل اعتمدوا بشكل أساسى على الروايات الشفوية التى تتناقلها الألسن .

من ذلك أن السومريين اعتمدوا على التواتر أى نقل الروايات من جيل إلى آخر مشافهة ، حتى غدت هذه الأحداث مقبولة ومعتمدة مثل ملحمة جلجامش.

أما هوميروس شاعر اليونان العظيم من القرن العاشر قبل الميلاد فقد جمع التراث الشفوى للإغريق ونظّمه فى ملاحم أصبحت تنسب إليه وأشهرها الإلياذة ، والأوديسة .

أما المؤرخ اليونانى هيرودوتس « أبو التاريخ » فقد اعتمد على الروايات الشفوية بالإضافة إلى مشاهداته ، وكتب تاريخًا عالميًا .

كذلك نحا المؤرخ اليونانى توسيديدس فى كتابته للتاريخ على نهج أستاذه هيرودوتس فكتب تاريخًا للحرب البلبونيزية التى عاصرها معتمدًا على مشاهداته وروايات شهود العيان من الجنود وغيرهم .

واشتهر هيرودوتس وتوسيديدس بمقارناتهما المصادر المكتوبة بالتاريخ الشفوى .

وعلى نهج هؤلاء سار المؤرخون الرومان .

إما الفردوسى « الفارسى » فقد دوّن الملاحم البطولية لبلاده بشكلها النهائى باللغة الفارسية ، وذلك فى القرن الحادى عشر ، وهى التى عُرفت بالشاهنامة « بطولة الملوك » معتمدًا فى ذلك على التقاليد المروية ، والتاريخ الشفوى .

وهكذا كان للتاريخ الشفوى مصداقية واعتبار كمصدر للتأريخ ، وكان دائمًا يُقارن بما هو مكتوب ، وترجح كفته حين الاختلاف بينه وبين ما هو مكتوب .

ولكن حدث منذ القرن السادس عشر فصاعدًا أن أخذ الإحساس بالعلاقات المعقدة بين الكتابة والكلام يزداد . غير أن سيطرة النصيّة على عقول الباحثين سيطرة محكمة تجعلنا دائماً فى حاجة إلى الرجوع إلى الرواية الشفوية .

ولما كانت النقلة من الكلام الشفاهى إلى الكلام المكتوب فى جوهرها نقلة من الصوت إلى الفراغ المرئى . فإن تأثيرات الطباعة هنا على استخدام الفراغ المرئى يمكن أن تكون بؤرة الاهتمام المركزية ، وإن لم تكن الوحيدة ، ولا تُبرز هذه البؤرة العلاقة بين الطباعة والكتابة فحسب بل تبرز علاقة الطباعة بالشفاهية التى لا تزال باقية فى الكتابة ، وفى ثقافة الطباعة المبكرة .

وبعبارة أخرى فإن الكتابة أعادت تشكيل الكلمة المنطوقة ، شفاهية الأصل فوضعتها فى الفراغ المرئى . أما الطباعة فقد رسخت الكلمة فى هذا الفراغ على نحو أكثر حسمًا .

فالطباعة تُشجع على الإحساس بالاكتمال ، وهو الإحساس بأن ما هو قائم فى نص ما قد استوفى الغاية ؛ ووصل إلى حالة الكمال ، وهذا الإحساس يؤثر على الإبداعات الأدبية ، كما يؤثر على العمل التحليلى التاريخى .

الرواية الشفوية عند المسلمين :

لعبت الرواية الشفوية فى التاريخ العربى والإسلامى دورًا مميزًا ، حيث نشأ علم التاريخ على هامش العلوم الشرعية وفى مقدمتها علم الحديث ، واعتمد المؤرخون المسلمون نفس مناهج علماء الحديث ، وهى الإسناد والجرح والتعديل

لمعالجة الروايات الشفوية . ومن هنا نقـول أن منهـج التـاريخ الشـفوى هـو منهـج أصيل عند المسلمين .

كان العرب يتناقلون التاريخ مشافهة من جيل إلى جيل ، فأحاديث الحروب بـين القبـائل المختلفـة التـى سُـميت بأيـام العـرب ، والأنسـاب ، والتفـاخر بهـا ، وقصـص الكـرم وسـيرة الملـوك ، وغـير ذلـك مـن الأمـور ، والتـى كـانت تتسـم بالغموض والخيال وعدم الدقة ، كانت نواة لنشأة علـم التـاريخ ، حيـث أن كثـيرًا من المؤرخين المسلمين استمدوا منها أخبارهم ودونوها .

وقد بدأ تدوين هذه الأساطير والأخبار والسير فى العصر الأموى (٥) إذ كان معاوية بن أبى سفيان يستمع كل ليلة إلى شئ من أخبار العـرب وأيـامهم وأخبار العجم وملوكهم ، وكان يأتيه من يقرأ له من الكتب عن هذه الأخبـار والسيّر(٦) .

وكان للدين الإسـلامى أثـر كبـير فـى الاهتمـام بعلـم التـاريخ عنـد العـرب وتطوره ، لا سيما وأن القرآن الكريم أورد شيئًا مــن أخبـار العـرب قبـل الإسـلام منها ما يتعلق بقبائل عاد وثمود وملوك اليمن وقصص الأنبياء .

كذلك للرسول ﷺ كتّاب يكتبون ما ينزل به الوحى عليه من القـرآن علـى جريد النخل والحجارة والجلد والعظم ... إلخ ، وقد جُمـع القـرآن فـى عهـد أبـى بكر الصديق باقتراح من عمر بن الخطاب الذى خشى أن يضيـع شـئ مـن القـرآن بعد استشهاد عدد كبير من حفظة القرآن فى حروب الردة ، فقام بجمعـه زيـد بـن ثابت كاتب الوحى ، وقدمه لأبى بكر الذى خلفه لعمر ثم ظل عنـد ابنتـه حفصـة زوج الرسول ﷺ .

أما الجمع النهائى للقرآن فقد تم فى عهد عثمان بن عفان .

وأما حديث الرسول ﷺ فيتصل اتصالاً وثيقًا بنشـأة التـاريخ عنـد المسـلمين بعد القرآن . فقد روى الصحابة حديث الرسـول ﷺ وتنـاقلوه مشـافهة ، وأخـذه بعد ذلك التابعون الذين سمعوا عن الصحابة .

ولم يقتصر الحديث فى البداية على الحفظ والرواية الشفوية فقد كتبه البعض مثل عبد الله بن عمر وابن العاص .

قال أبو هريرة : « ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله ﷺ منى إلا عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب ولا اكتب »(٧) .

على أن المسلمين كانوا يروون معظم الأحاديث شفاهًا ، فالتدورين لم يكن كاملاً ، ولم يكن تدوينًا بالمعنى الصحيح ، وقد تحاشاه المسلمون مخافة اختلاطه بالقرآن الكريم ، إلى عصر عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ) حيث أمر قاضية على المدينة - أبا بكر محمد بن عمر ابن حزم - أن يكتب ما كان من حديث رسول الله ﷺ وسنته خوفًا من ضياع العلم وذهاب العلماء(٨) .

أما الذين كان لهم شرف صحبة رسو الله ﷺ فقد اشتركوا فى جهاد الكفار وتفرقوا فى البلدان التى فتحها المسلمون وكانوا يعلمون أهلها الدين وهؤلاء الصحابة العلماء كانوا أساس المدارس الدينية فى مختلف الأمصار ، فأهل المدينة المنورة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله ابن عمر - رضى الله عنهما - وأهل الكوفة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - وأهل مكة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن العباس - رضى الله عنهما - وأهل مصر كانوا يتبعون فىالأكثر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - وهكذا ...(٩) .

أما الخلفاء العباسيون فقد قربوا إليهم الفقهاء والعلماء لتأييد خلافتهم وكان لهذه الرعاية أثرها فى تنشيط حركة جمع الحديث فظهرت صحيفة عبد الله بن لهيعة المصرى (ت ١٧٤) وموطأ الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩) وكان هذا تمهيدًا لظهور التدوين المنظم للحديث فى القرن الثالث الهجرى حيث ظهرت مجموعة من أمهات كتب الحديث

أهمها صحيح البخارى (ت ٢٥٦هـ) ، وصحيح مسلم (ت ٢٦١هـ) ، وسنن أبى داود (ت ٢٥٧هـ) ، وسنن الترمذى (ت ٢٧٩هـ) ، والنسائى (ت ٣٠٣هـ) وسنن ابن ماجة (ت ٢٧٣هـ) .

ولاشك فى بداية التأليف العلمى فى التاريخ عند المسلمين كانت وثيقة الصلة بالحديث والسنة النبوية الشريفة ، وكان الاعتماد فيه أولاً على الرواية الشفوية ، وذلك أن علم التاريخ عند المسلمين كان يهدف فى البداية إلى دراسة سيرة الرسول ﷺ وأعمال الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - والجماعة الإسلامية الناشئة ، وأخبار الغزوات والجهاد ، وكان الاعتماد فيه أيضًا على الرواية الشفوية قبل كل شئ .

وبهذا ندرك أن طبيعة علم التاريخ عند المسلمين لم تختلف عن طبيعة علم الحديث ، اللهم إلا فى هدف كل منهما ، ونوع الروايات التى يعنى بها ، فالمحدثون يعنون بالروايات التى تهم الفقه (عبادات ، معاملات ، أخلاق ... إلخ) بينما يعنى المؤرخون بالروايات التى تتجه إلى سرد الحوادث . فالحديث دراية ورواية ، والتاريخ عند المسلمين دراية ورواية أيضًا . والعلمان اشتركا فى المصادر والمنهج ، ولكن من المعروف أن المحدثين عنوا بالإسناد عناية كبيرة فظهر عندهم ما يعرف باسم (الجرح والتعديل) أى نقد الرواة .

واستفاد المؤرخون من هذا الأمر فظهرت كتب الطبقات معتمدة على نفس المنهج ، ومنها طبقات ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) ، وطبقات الذهبى (٨٤٨هـ) .

أما أقدم الكتب التاريخية التى جمعت بين علمى الحديث والتاريخ فهى كتب المغازى والسير التى بدأت فى المدينة المنورة ثم انتقلت إلى الأمصار فى القرن الثانى للهجرة .

وكانت هذه الكتب تبحث فى سيرة الرسول ﷺ وغزواته وتجمع أخبار هجرة المسلمين إلى الحبشة وإلى المدينة ، وأخبار غزوات الرسول ﷺ ، وأهم أحداثها .

ومن أقدم كُتّاب هذا الفرع من التاريخ عروة بن الزبير (ت ٩٢هـ) وأبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥هـ) ، وشرحبيل بن سعد (ت ١٢٣هـ) وعبد الله بن أبى بكر بن حزم (ت ١٣٥هـ) ، وعاصم بن عمر بن قتادة (ت ١٢٠هـ) ، ووهب بن منبه (١١٠هـ) . أما محمد بن مسلم الزهرى (ت ١٢٤هـ) الذى كان رائدًا لعلم التاريخ الشفوى ، فقد اشتهر بسعة معارفة وقوة ذاكرته . وكان محبًا لهذا العلم شغوفًا به ، فكان لا يُبقى فى المجلس شابًا ولا كهلاً ولا عجوزًا ولا كهلة إلاّ سألهم . وقد درس فى المدينة وتنقل بين الحجاز ودمشق وغيرها ، دوّن الحديث والأخبار على غير المألوف فى ذلك الوقت ، وكان يقول : (ما نشر أحد من الناس هذا العلم نشرى ولا بذله بذلى)(١٠) .

كتب الزهرى - معتمدًا على الرواية الشفوية - عن مواضيع كثيرة . وظهر ذلك فى مجموعة الأحاديث المسماة (الزهريات) ، وهى تشمل قوائم المهاجرين إلى الحبشة ، والمشتركين فى بيعة العقبة ، والمقاتلين فى بدر . وقد تناول حياة الرسول ﷺ ، وتاريخ الخلفاء الراشدين ، وتاريخ بنى أمية ، وكان يُدخل الشعر فيما يروى .

وقد أعار الزهرى السند أهمية كبرى حيث عمد إلى جمع أسماء رواة الخبر الواحد ، وتوحيدهم ، ثم رواية الخبر نفسه(١١) .

وبعد الزهرى أصبح المؤرخون يجمعون بين التاريخ المكتوب والتاريخ الشفوى ، فقد كان ما ألفه من كتب أساسًا اعتمده المؤرخون بعده ، ومنهم معمر ابن راشد اليمانى البصرى (ت ١٥٠هـ) الذى ألف كتابًا فى الحديث والمغازى ناقلاً أكثر رواياته عن الزهرى .

أما أشهر تلاميذ الزهرى فهو محمد بن إسحاق (ت ١٥١هـ) الذى ألف كتابًا فى السيرة يتكون من ثلاثة أقسام (المبتدأ والمبعث والمغازى) تناول فى القسم الأول تاريخ الخليقة إلىما قبل الإسلام ، والقسم الثانى

حياة الرسول ﷺ فى مكة والهجرة ، والقسم الثالث سيرة الرسول ﷺ فى المدينة ومغازيه .

ولم يصلنا هذا الكتاب مباشرة بل وصلنا برواية ابن هشام فى سيرته المعروفة . وكان ابن هشام قد نقله عن تلميذ ابن إسحاق - البكائى - بعد إجراء بعض التعديلات والحذف(١٢) .

ومن أعظم الذين خلفوا ابن إسحاق فى الكتابة عن المغازى محمد بن الواقدى (ت ٢٠٧هـ) . ومن تلاميذ الواقدى محمد بن سعد صاحب كتاب (الطبقات) . وامتاز ابن سعد بذكر النص الكامل للكثير من الوثائق الأصلية مع الاهتمام بالسند ، ومثل هذا المعجم التاريخى فى تراجم النبى ﷺ والصحابة والتابعين يؤلف حلقة جديدة فى الوصل بين علم الحديث وبين الرواية التاريخية .

إن مؤرخى السيرة والمغازى والفتوحات الإسلامية والطبقات بكتابتهم المعتمدة على الرواية الشفهية مهدوا للمؤرخين الذين كتبوا بعدهم فى التاريخ ، ورسموا لهم منهجًا يسيرون عليه فى التحقيق والكتابة .

و استمر المؤرخون فى العصر العباسى فى المزج بين الرواية المكتوبة والرواية الشفوية . ومن أشهر المؤرخين فى هذا العصر ابن قتيبة الدينورى (ت ٢٧٦ هـ) الذى لم يكن مؤرخًا فحسب بل كان عالماً فى النحو واللغة والنقد الأدبى والفقه . ومن مؤلفاته التاريخية كتاب (المعارف) و (الإمامة والسياسة) و (عيون الأخبار) .

واليعقوبى (ت ٢٨٤هـ) الذى كان مؤرخًا وجغرافيًا صاحب كتاب (البلدان) وكتاب عرف باسمه (تاريخ اليعقوبى) .

وأبو حنيفة الدينورى (ت ٢٨٢هـ) وهو بالإضافة إلى كونه مؤرخًا فقد كان من علماء اللغة والنبات والهندسة والحساب ، وهو صاحب

كتاب (الأخبار الطوال) يتحدث فيه من آدم عليه السلام إلى آخر أيام الخليفة العباسى المعتصم .

أما أشهر المؤرخين المسلمين فهو الطبرى (ت ٣١٠هـ) الذى كان محدثًا وفقهيًا ومفسرًا صاحب كتاب (تاريخ الرسل والملوك) الذى اعتمد عليه المؤرخون من بعده أمثال مسكويه ، وابن الأثير ، وابن خلدون ، وأبو الفدا ، والذهبى .

بدأ الطبرى كتابه بابتداء الخلق ، واستمر حتى سنة ٣٠٢هـ . ويعتبر كتابه أول كتب التاريخ الشاملة عند المسلمين ، رتبه على السنين الهجرية ، واتبع فيه طريقة الإسناد إلى رواة الحوادث بالتسلسل .

واعتمد الطبرى فى تأليفه هذا الكتاب على الروايات الشفوية التى جمعها عن شيوخه وعن المعاصرين والتابعين لهم ، واستفاد من أسفاره المتعددة إلى مصر والشام والعراق وغيرها ، كما اعتمد على الكتب التى كانت موجوده فى عصره .

أما المسعودى (ت ٣٤٦هـ) فقد ساح فى طلب العلم فطاف أكثر أجزاء العالم الإسلامى وابتكر طريقة جديدة فى تأليف التاريخ ، وهى ترتيب الحوادث تحت رؤوس موضوعات من الشعوب ، والملوك والأسرات . ولم يتبع ترتيب الحوادث تعاقب السنين الهجرية كما فعل الطبرى ، وتبعه فى هذا ابن خلدون وغيره من المؤرخين .

ألّف المسعودى كتاب (مروج الذهب ومعان الجوهر) وهو كتاب تاريخى جغرافى عظيم القيمة ، وكتاب (التنبيه والإشراف) وقد أطلق المؤرخون على المسعودى اسم هيردوت العرب ، وجمع المسعودى بين الرواية المكتوبة والتاريخ الشفوى .

ومن أشهر المؤرخين المسلمين مسكويه (ت ٤٢١هـ) صاحب كتاب (تجارب الأمم) . وقد اعتمد على الطبرى بدرجة كبيرة فى

الحوادث التى لم يدركها ، ثم اعتمد على الروايات الشفوية حيث كانت له علاقة بأكبر الشخصيات فى عصره إذ كان أمينًا لمكتبة ركن الدولة الفضل بن العميد، ثم دخل فى خدمة عضد الدولة بن بويه . ولم يكن مسكويه مؤرخًا فحسب بل كان فيلسوفًا وطبيبًا وسياسيًا محنكًا . فكان قادرًا على جمع المعلومات من مصادرها الصادقة ، وكان موضوعيًا لدرجة كبيرة ، فتعرض فى كتابه لعجز سيف الدولة الحمدانى ولم يخف هزيمته أحيانًا أمام البيزنطيين ، مع أن سيف الدولة كان يعتبر بطل الإسلام والمجاهد الأكبر فى زمانه ، ولكن مسكويه إلتزم بالحقيقة .

إن اعتماد مسكويه على الرواية الشفوية جعل أحكامه صادقة لا سيما وأنه كان مؤرخًا حاذقًا لا يبغى إلاّ الحقيقة .

ومن المؤرخين القدماء من كتب عن أحداث عصره التى شاهدها بأم عينيه أو فترة قريبة العهد به ، أى سبقته بفترة قصيرة ، فاعتمد على الرواية الشفهية حيث كان المؤرخ يتصل بأعلام المعاصرين وكبار رجال الجيش والإدارة ويسمع منهم الأحاديث عن الموضوعات المختلفة . وكان بعض أولئك المؤرخين يشغل منصبًا هاماً فى الدولة (دواوين - إدارة - ولاية - جيش ... إلخ) فكان اعتمادهم عظيمًا على اتصالهم بالرجال والأحداث نفسها .

ولهؤلاء المؤرخين أهمية خاصة فى الكشف عن القيم الأخلاقية فى عصرهم مما يتجلى فى المثل العليا والأهداف عند الأشخاص الذين يصورونهم ، كما أننا نستطيع فى كثير من الأحيان أن نستنبط من مؤلفاتهم بيانات كثيرة عن الحياة اليومية فى عصرهم .

ولكن رغم اعتماد مؤلفاتهم كمصادر أصلية إلا أنه يجب مراعاة قواعد البحث العلمى من حيث نقد المصادر والروايات ... إلخ .

أهمية التاريخ الشفوى :

إن الكلمة المنطوقة وسط كل الآفاق الرائعة التى تتيحها الكتابة ، لا يزال لها حضور وحياة . ذلك أن كل النصوص المكتوبة لابد لها بطريقة ما ، - مباشرة أو غير مباشرة - ، من الارتباط بعالم الصوت ، الموطن الطبيعى للغة ، كى تعطى معانيها .

وقراءة النص تعنى تحويله إلى صوت ، جهوريًا كان أو فى الخاطر ، مقطعا فى القراءة البطيئة ، أو اختزالاً فى القرآءة السريعة الشائعة فى الثقافات ، ذات التكنولوجيا العالية(١٣) .

فالكتابة لا يمكن أبدا أن تستغنى عن الشفاهية وجمع الروايات الشفوية، وتوثيقها عمل هام جدًا فهو يحفظ خبرات وتجارب كانت ستنسى أو تتحول فى أحسن الأحوال إلى خرافات ، بفعل تناقلها مشافهة من شخص إلى آخر ، ومن جيل إلى جيل .

إن فهما أعمق للشفاهية الأصلية أو الأولية يمكننا من فهم عالم الكتابة الجديد فهما أفضل .

يقال أن ذكريات الرواى مهما كانت دقيقة ، ومفعمة بالحيوية ، فإنها تمر بتصفية من خلال التجارب اللاحقة ، وإنها من الجائز أن تتأثر بما تم استيعابه من المصادر الأخرى « خاصة وسائل الإعلام » .

يضاف إلى ذلك أنها ربما تتأثر بشعور التوق المفرط إلى الماضى . ومن ناحية أخرى يمكن أن تحرف ذكريات الرواى بشعور الأسى ، بخصوص الحرمان فى مرحلة الطفولة(١٤) .

ويقال أن الذاكرة تنتقى ملامح معينة للمشهد أو الحدث ، وتفسره فى ضوء الخبرات السابقة ، والتوقعات . وعند المقابلة يميل الراوى إلى التركيز على

إحساسه وتكون توقعاته عن الحدث أكثر مما شاهده فعلاً ، ويحكم منطق ما كان يجب أن يحدث .

ولكن هذا ليس مبررًا كافيًا لعدم الاعتراف بالتاريخ الشفوى كمصدر من مصادر المعرفة التاريخية ، فلكل المصادر مشكلاتها .

والواقع أن العاطفة والغايات تؤثر فى التاريخ المكتوب ربما أكثر من تأثيرها فى الراوية الشفوية ، والباحث اللبق لا يقبل المصادر على علاتها ، وإنما يتخذ منها دائمًا موقفًا نقديًا ومتشككًا سواء كانت مكتوبة أو غير ذلك .

والجدير بالذكر أنه عندما تختلف الروايات الشفوية مع المصادر المكتوبة فإن الروايات الشفوية تصحح المصادر المكتوبة ، أما العكس فإنه نادر الحدوث(١٥) .

إن إنتاج تاريخ عام ومشترك من الذكريات المنطوقة لأفراد الطبقة العاملة ، أو للمزارعين ... إلخ يعتبر نشاطًا إيجابيًا ومهما بشأن الإندماج فى أشكال أخرى جديدة ومتنوعة من سياسات المجتمع ، فهو يبرز مشاكل وآلام وآمال وطموحات هذه الطبقة من الشعب أو تلك(١٦) .

إن من عوامل أهمية التاريخ الشفوى أنه لا يهمل الأبعاد غير المرئية فى النشاط الإنسانى والبناء المجتمعى ، فالتاريخ ليس فقط الأحداث الكبيرة الضخمة ، الظاهرة للعيان بل تشترك معها الأحداث غير المرئية ، فتشكل المجرى الرئيسى للتاريخ ، فكتابة الحدث تبقى ناقصة إذا لم تتضمن الانفعالات والمشاعر والتفاصيل المصاحبة للحدث .

ففى العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦م على قطاع غزة قامت إسرائيل بارتكاب مجازر رهيبة فى معظم مدن القطاع ، خاصة فى مدينة رفح حيث

جمعت قوات الاحتلال خلال ساعة كل رجال من سن ١٦ سنة إلى سن ٦٠ سنة فى المدرسة الأميرية ،وذلك بعد أن أعلنوا عن هذا الأمر فى الساعة السادسة صباحًا ، وكل من تخلف عن الحضور إلى هذه المدرسة أمر الجنود بقتله ، وكل من لم يسمع النداء وبقى فى بيته قتلوه أيضًا على باب منزله .

أما من ذهب إلى المدرسة فإنه تعرض قبل دخوله للضرب المبرح.

هذا الحدث قد يرد فى كتب التاريخ - علمًا أنه لم يورد حتى الآن- ولكن تبقى معاناة أسر أولئك الشهداء التى تكمن فى الزاوية الغير مرئية ، والتى منها أن امرأة حينما شاهدت ابنها قتيلاً ضربت بكفيها على رجليها فشلت ، وأصبحت مقعدة لا تستطيع حراك رجليها إلى أن ماتت . وهناك أب شاهد ابنه مقتولاً فحملق فيه برهة من الزمن فقد بعدها بصره ، وأصبح ضريرًا إلى أن مات بعد فترة قصيرة .

هذه الأحداث وغيرها كثير لم تسجل ، ويبقى العبء ، بل الواجب على المؤرخين الذين يعتمدون التاريخ الشفوى كمصدر من مصادر التاريخ، إبرازها ، فما زال بعض من عاصر هذا الحدث حيا يرزق .

إن التاريخ الشفوى إذا أحسن استخدامه يشكل مصدرًا لا يقل أهمية أو دقة عن المصادر المكتوبة . ومع أن الروايات الشفوية أقل بقاء فى العادة وأكثر عرضة للتحريف من المصادر المادية والمكتوبة ، إلا أن بعض الوثائق الشفوية كالحكايات والأغانى الشعبية والأشعار تحفظ فى الذاكرة ، وتنتقل من جيل إلى جيل ، دون تغيير تقريبًا ، وتحفظ فى ذاكرة الشعب لفترات طويلة جدًا .

ولكن إعداد الوثائق الشفوية ومعالجتها يختلف عنه فى المصادر المكتوبة ، ولا بد للمشتغل بالتاريخ الشفوى من تدريب مناسب فى النواحى النظرية والعملية قبل الإقدام على عمله هذا .

إن التاريخ الشفوى له مكان واسع فى التاريخ ، ويحتمل أن يصبح أكثر انتشارًا فى المستقبل ، وتحتاج روايات الأحياء لجمع من قبل المؤرخين أكثر من أى وقت مضى ، لأنها تتعرض لوصف عدة متغيرات اجتماعية واقتصادية ، وسياسية ، وثقافية ، وسكانية(١٧) .

منهج البحث فى التاريخ الشفوى :

تنوعت اهتمامات المؤرخين فيما يتعلق بالمعلومات التاريخية التى يعالجونها فى كتابة التاريخ .

وللتاريخ الشفوى منهجه فى البحث وهو يعالج جميع مجالات الحياة لشعب أو أمة ، بمعنى أنه يشمل :

أولاً : التاريخ السياسى :

وهو يبحث فى القيادات السياسية ، والأحزاب ، والحركات السياسية ، والنقابات ، والثورات ... إلخ .

ثانيًا : التاريخ الاجتماعى :

وهو يبحث فى الحياة الاجتماعية والأسرية والأعياد والاحتفالات، والملابس ، والطعام فى فترة زمنية محددة ، فضلا عن الحياة داخل البيوت وخارجها ، فى الأسواق والحمامات ... وغيرها .

ثالثًا : التاريخ الاقتصادى :

وهو يبحث فى النشاط الاقتصادى من زراعة وصناعة وتجارة ؛ والمحلات التجارية ، والعملات ، والضرائب ... إلخ .

رابعًا : التاريخ الثقافى :

يبحث فى النشاط الفكرى والتعليم ، والمدارس ، والمكاتب وألوان المعرفة والعلوم .

خامسًا : تاريخ السكان :

ويبحث فى عدد السكان وعناصرهم وأصولهم ، ومناطق الانتشار والاستقرار والهجرة ، وتاريخ المدن .

* * *

ونحن إذا أردنا أن نصل إلى الأهمية الكاملة لشهادة شفهية ما ، يجب أن نقابلها بالمقارنة والمقابلة بكل ما جاء عنها فى المصادر ذات العلاقة بموضوع البحث ، وإلا ستكون أغلب التفاصيل غير ذات فائدة .

ويكشف البحث الشفهى أحيانًا مادة وثائقية جديدة فى حيازة الأفراد - صور ، عملات ، سندات ملكية لأراضى وعقارات ... إلخ - وهذه تزيد من كميات الشواهد المساعدة . وغنى عن البيان أن التضلع فى السياق المحلى هو الذى يجعل الشفهى هامًا وملفتًا للنظر .

إن التاريخ الشفهى ليس فرعًا جديدًا من التاريخ ، وإنما منهجية ، ووسيلة لتقديم مصادر جديدة تقف جنبًا إلى جنب مع المصادر المدونة والبقايا المادية .

ولكن فى الوقت ذاته تستحق المصادر الشفهية اهتمامًا أكثر مما تحصل عليه حاليًا من قبل المؤرخين عمومًا . فهى فوق كل شئ مادة شفهية ، تشترك مع المصادر المدونة فى الكثير من جوانب القوة والضعف وغزارة التفاصيل مع فارق دقيق لا يكاد يدرك فى المعنى ، إضافة إلى التحريفات المتعلقة بالتحيز المذهبى والاتجاه السياسى .

إن المصادر الشفهية تعتبر بصفة خاصة مادة ملائمة لمهارات المؤرخ النقدية التقليدية . فهى تحتوى على جاذبية أبعد بخصوص تقديم رؤية متميزة فى تشكيل الوعى التاريخى الشعبى ، وهو أمر يجب أن يكون محل اهتمام دائم لكل المؤرخين(١٨) .

خطوات البحث فى التاريخ الشفوى :

إن منهج البحث فى التاريخ الشفوى يجب أن يلتزم بمنهج علمى غير منهج البحث فى الوثائق المكتوبة ، وأهم أركانه(١٩) :

أولاً : الإعداد للمقابلة :

الإعدد الجيد للمقابلة هو مفتاح النجاح لمؤرخ التاريخ الشفوى حيث توجد أمامه فرصة واحدة لاختبار المصادر وتصحيحها ، أو معالجة الفراغات والنواقص فيها ، ومعظم أشكال البحث الأخرى تحتمل مثل هذه العمليات باستمرار ، ولذلك فإن على المؤرخ الشفوى أن يحسم القضايا التالية قبل التوجه للمقابلة :

١ - إعداد الباحثين الميدانيين :

العمل الميدانى يتطلب مهارات مهنية ، ومواصفات شخصية واجتماعية محددة لا بد من توافرها . وأهم المواصفات المطلوب توافرها فى الباحث فى التاريخ الشفوى :

(أ) معرفته بمناهج البحث التاريخى .

(ب) المقدرة على استخدام أدوات البحث الميدانى .

(جـ) اتصافه بعدة صفات شخصية ، ليس المقصود بها المظهر الخارجى للباحث - وأن كان هذا مهمًا ، إنما الجوهر هو الأهم ، أى يجب أن تكون لديه قدرة على كسب ود ، وثقة المتحدثين معه من خلال اتقانه لملكة الإصغاء ،

وإظهار التعاطف ، أو على الأقل التفهم لوجهات نظر الرواة وهمومهم والحساسية لمشاكلهم ، أى الاحتمال والصبر ، والتحفز للبحث عن الحقيقة بلباقة .

(د) معرفة الباحث بالراوى وظروفه .

وهذه المعرفة تيسر للباحث إمكانية التعامل مع الراوى على الصعيدين الشخصى والعلمى .

(هـ) المعرفة العلمية بموضوع البحث .

فيجب على الباحث أن يطلع على المصادر المختلفة - خاصة المكتوبة - المتعلقة بموضوع بحثه ، فالرواية الشفوية لا تعطينا صورة كاملة عن الحدث .

إن معرفة الباحث بخصائص الفترة موضوع الدراسة تمكنه من طرح أسئلة ذكية ومتعمقة ، وتبعده عن السطحية ، وعن العموميات .

٢ - اختيار الموضوع :

يجب أن يختار مؤرخ التاريخ الشفوى موضوعًا معينًا ، أو أحد جوانب حدث معين ، أما مراكز البحث والتوثيق التى تستهدف إلى صناعة المصادر والأدلة وتوفيرها للباحثين ، فإنها تقوم بإجراء المقابلات على أساس فترة زمنية محددة لتوثيقها .

ولا بد من وضع إطار عام للبحث ، وصياغة استبيان أو تحديد رؤوس موضوعات يرغب الباحث فى تغطيتها . وليس من الضرورى أن تصاغ أسئلة ملزمة للباحث ليجيب عنها الراوى ، فمن الأفضل ترك تحديد شكل ومحتوى المقابلة للباحث والراوى ، هذا لا يتعارض مع توفر مجموعة أسئلة أو قائمة موضوعات بأيدى الباحث . فهذا يوفر عليه الكثير من المتاعب . ولكن المهم ألا يقيد الباحث نفسه بأسئلة موضوعة مسبقًا فيكون هدفه المرور عليها واحدًا بعد الآخر، بل يجب أن ينظر إليها كدليل أو إطار عام للمقابلة .

أما المراكـز التـى تعمـل علـى توثيـق التـاريخ الشـفوى وتركـز علـى إجـراء مقابلات حرة فإنها بحاجة إلى درجة معينة من العمق إلى جـانب الاتسـاع ، حتـى تصبح هذه المادة قابلة للاستخدام كمصدر له قيمـة تاريخيـة . والطريقـة لهـذا هـى وضع الإطار التاريخى للمشروع ، وتحديد نوعية الراوة ، وتقدير أهمية تجاربهم .

٣ – انتقاء الرواة :

إن اختيار عينة جيدة من الرواة مهم جـدًا إذ بدونهـا يسـهل التشـكيك فـى استنتاجات الباحث مهما بدت منطقية .

وممكـن هنـا مقابلـة جميـع روايـات الأحيـاء المعـاصرين لحـدث مـا ، واعتبـارهم عينـة تمثيليـة – هـذا فـى الأحـداث التـى مـات معظـم معاصريهـا ، ولكن هذا صعـب فـى معظـم الأحيـان .

ويمكـن اختيـار عينـة مـن الـراوة مـع مراعـاة الأبعـاد الاجتماعيـة والجغرافية والسياسية .

كذلك يمكن للباحث أن يفيد من الأرشيفات والمصادر المكتوبة حول موضوع بحثه فى اختيار عينـة تمثيليـة ، وأيضًـا مـن المختصـين ، والبـاحثين الذين لديهم الخبرة والمعرفة .

وعلـى البـاحث ألا يقصـر جهـده واهتمامـه علـى الأشـخاص المتحمسـين للحديث عن تجاربهم ، بل عليه أن يبحث بنفسه عن آخرين عاصروا الحدث .

أما العوامل التى تحدد عدد المقابلات وطولها فأهمها :

(أ) نوعية الرواة .

(ب) سن الرواة .

(جـ) خبرة الرواة .

(د) موضوع البحث .

(هـ) الامكانيات المادية والفنية للباحث .

(و) الظروف السياسية والأمنية .

وعندما يقع الاختيار على الرواة يجب الإسراع فى الاتصال بهم ، بالمراسلة أو التليفون . وفى حالة الاتصال عن طريق المراسلة على الباحث أن يحتفظ بأرشيف جيد للمراسلات والملاحظات .

ويتوقع من الباحث أن يشرح للرواة فى هذه المرحلة أهداف البحث وما يطلبه منهم بشكل واضح .

إن مصداقية الباحث والجهه المشرفة على البحث مسألة على جانب كبير من الأهمية ، وعلى الباحث أن يقدم نفسه للراوى بطريقة مقبولة .

ولا بد من وجود مشرف على كل مشروع من مشاريع التاريخ الشفوى بمؤهلات وخبرات عالية ، تؤهله لمتابعة عمل الباحثين الميدانيين ، ولوضع خطط العمل والإشراف على تنفيذها ، فالمشكلة الحقيقية فى مشاريع التاريخ الشفوى هى تنظيمها ومتابعتها .

بعد أن تؤخذ موافقة الراوى على إجراء المقابلة يتم الاتفاق معه على موعد مناسب لإجراء المقابلة ، التى يفضل أن تسبقها مقابلة أولية لاختبار معلومات الراوى .

٤ – أدوات التسجيل :

إن باستطاعة مؤرخ التاريخ الشفوى اليوم استخدام آلة تصوير فيديو أو جهاز التسجيل الذى هو أكثر استخداما ، ويعتبر الرفيق الدائم لمؤرخ التاريخ الشفوى .

٥ – المقابلة التمهيدية :

ليس كل من يستجيب لإجراء مقابلة قادرًا على إفادة الباحث ، ولذلك ينصح بإجراء مقابلة تمهيدية قبل التسجيل لإختبار معلومات وقدرات الراوى .

والمقابلة التمهيدية هى المكان المناسب لاكتشاف موضوعية الراوى وقوة ذاكرته ، وهى مهمة حيث أنها تعرف الباحث بالرواى ، وتخلق بينهما نوعًا من التألف والثقة ، وتساعد الراوى فى تعديل أسئلته بحيث تناسب الراوى .

والمقابلة التمهيدية تعرف الراوى أيضًا بأهداف الباحث وتتيح له الفرصة لتنظيم أفكاره كى تناسبها .

وفى هذه المقابلة يوضح الباحث أهداف البحث للراوى ، ويأخذ موافقته على استخدام الرواية بعد أن تسجل .

ويفضل أن يكون هذا اللقاء فى نفس المكان الذى ستجرى فيه المقابلة ، ويذهب الباحث بدون أدوات تسجيل ، ويتجنب الخوض فى التفاصيل ، وفى المواضيع التى يمكن أن تحرج الراوى ، كالمسائل الشخصية أو العائلية ، ويركز اهتمامه لكسب ثقة الراوى وتعاطفه مع أهداف البحث .

يجب على الباحث أن يتذكر دائمًا أن هدفه يختلف عن هدف الراوى، ففى حين يسعى الباحث إلى توثيق الوقائع والأحداث والقضايا ذات المدلول التاريخى بدقة وأمانة ، يميل الرواة للتركيز على الجوانب الشخصية والشعورية ، لأن هدفهم قد يكون التسلية والترفية ، أو لتمجيد صفحاتهم وعائلاتهم أمام التاريخ والناس .

وإذا تبين بعد المقابلة التمهيدية أن لدى الرواى ما يفيد البحث ، فعلى الباحث أن يحدد موعدًا لإجراء المقابلة وتسجيلها ، ويطلب الباحث من الراوى أن يوقع له توكيلاً باستخدام المقابلة ، فهذا هو الوقت المناسب له .

العوامل التى تحدد قيمة الرواية :

- أهمية الموضوع أو الحدث أو الفترة موضوع البحث .
- أهمية دور الراوى فى الفترة أو الحدث .
- أهمية المعلومات الواردة فى المقابلة .

فالمادة الشفوية تقسم إلى ثلاثة أنواع :

(أ) حقائق أصلية .

(ب) معلومات مساعدة .

(جـ) أحاسيس ومشاعر .

- نوعية التسجيل .

والجدير بالذكر هنا أن روايات شهود العيان هى أساس التاريخ الشفوى .

٦ - مراعاة الجوانب القانونية والأدبية :

إن ما ينتج عن المقابلة الشفوية من أشرطة مسجلة ونص مكتوب هو إنتاج مشترك للباحث والراوى ، وملكيتها تعود إلى كليهما ، ويأخذ التوكيل القانونى شكلين يختار الباحث أحدهما ، هما :

(أ) تصريح شفوى فى مقدمة الشريط يقول فيه الراوى صراحة ، وبشكل واضح أنه موافق على أن يمنح الباحث جميع حقوق استخدام الرواية ضمن شروط معينة ، إن وجدت هناك شروط .

(ب) توكيل مكتوب موقع من الراوى نفسه ينص على منح حقوق استخدام الرواية للباحث ضمن شروط معينة ، إن كانت هناك شروط .

والتوكيل المكتوب أفضل من التوكيل الشفوى .

ثانيًا : إجراء المقابلة :

المقابلة الشفوية هى أساس التاريخ الشفوى ، ويتوقف نجاح المقابلة على درجة التفاعل بين الراوى والباحث ، ومن المفضل أن يبدأ الباحث استجوابه بأسئلة عامة ثم ينتقل بعد ذلك إلى التخصيص ، وأن يكون منتبهًا متيقظ الذهن ، ويبنى سؤاله على كلام الراوى ، حتى يجعل الراوى يسترسل فى حديثه فى نفس الموضوع الذى جاء من أجله .

وعلى الباحث أن يسجل كل انفعالات الـراوى ، ويفضـل أن يكـون مستعدا لذلك ، فيدونها فى دفتر ملاحظاته الذى يعتبر جزءًا مـن ملحقـات *المقابلة ، وعليـه ، أن يسـأل عـن صـور أو وثـائق تخـص موضـوع البحـث* فيلحقها بالإرشيف كوثائق هامة .

ويجب على الباحث أن يحسن الإصغاء إلى الرواى ، وأن يركـز اهتمامـه عليه ، ويمتنع كلية عن توجيه إجابات الـراوى أو التأثـير عليـه ، بمـا فـى ذلـك الامتناع عن طرح أسئلة بأسلوب الإيحـاء . ويجـب أن يبـذل البـاحث جهـده لإحراز ثقة الراوى وطمأنينته ، فالباحث الناجح هو الذى لا يخلق انطباعًا لدى الراوى بأنه يتوقع استجابات تبدو كأنها أسئلة إتهام له ، أى أن يكون الباحث موضوعيًا فى أسئلته .

وعلى الباحث أن يتحلـى بالصبر ، ولا يقـاطع الـراوى بأسئلة جديـدة فيقطع أفكاره .

ويجـب عليـه أن يـترك لـلراوى الحريـة فـى ترتيـب ، وعـرض التفـاصيل ، والقضايا، فإنه ربما يريد أن يقود المقابلة نحـو المواضيـع التـى يعرفهـا ، ويبتعـد عـن المواضيع التى يجهلها ، وهذا فى مصلحة المقابلة . وعليه ألا يصر علـى أى شئ لا يتفق ورغبة الراوى ، فإذا رفض الراوى الإجابة على سؤال معين أو التحـدث فـى موضوع معين فعليه أن ينتقل إلى سؤال آخر ، أو يسأل السؤال بطريقة أخرى .

يجب أن تكون الأسئلة مفـردة واضحـة ، وقصيرة ، ولا يقـرأ الأسئلة مـن قائمة أسئلة معدة سلفًا حسب ترتيب معين لا ينسجم مع مجرى المقابلـة ولا أسئلة تحتمل إجابات قصيرة فقط .

ويطلب الباحث من الراوى أن يركـز روايتـه علـى مـا رآه فعـلاً ، كمـا أن بإمكانه أن يختبر صـدق الروايـات ودقتهـا بتكـرار الأسئلة بطـرق مختلفـة ومقابلـة الروايات بمصادر أخرى ، ويطلب من الراوى التعليق عليها .

هل يتم الحديث بلهجة فصيحة أم عامية ؟

إن هذا يعتمد قبل أى شئ آخر على الرواى ، ولكن نقول أن المقابلة الشفوية هى عمل أكاديمى ، وليست مجرد نقاش بين اثنين أو لقاء صحفى ، فإنها بعد تسجيلها تصبح وثيقة تاريخية هامة سيعكف على معالجتها ، وحفظها ، وتترك لهجة الحديث يحددها الراوى وليس الباحث ، أما إذا ظهرت كلمات غير مفهومة فيقوم الباحث بشرحها .

وعند انتهاء المقابلة يشكر الباحث الراوى ، وإذا كان الباحث يعمل من خلال مركز فعلى المركز أن يوجه له رسالة شكر رسمية .

ثالثًا : نسخ المقابلة كتابيًا :

تسجيل المقابلات على أشرطة التسجيل هو حفظ للذاكرة والأحداث من النسيان والتشويه .

وتفريغ المقابلات الشفوية على الورق لا يلغى دور المقابلة المسجلة ، والتى تبقى هى المصدر الأساسى ، وطريقة استخدام الباحثين للمقابلة تحدد درجة ومستوى الدقة التى يطلب من الناسخ التقيد بها .

والنسخة المثالية : هى التى تسجل ما قاله الراوى وتعكس أسلوبه ، وشخصيته بأمانة على أن تكون مقروءة ، ومفهومة أيضًا .

مرحلة النسخ : يدون فيها الناسخ كل ما يسمعه على الشريط بما فى ذلك البدايات غير الموفقة ، والآهات ، والكلمات والجمل غير المكتملة ، وحتى الشتائم، وهو غير مطالب بتصحيح الأخطاء اللغوية حتى وإن بدى الحوار غير مفهوم ، فمراجعة النص وتنقيحه تأتى فى مرحلة لاحقة .

ويبدأ الناسخ بتفريغ المعلومات الأساسية عن المقابلة للتعريف بها كما هو وارد فى الشريط ، وبعد الإطلاع على ملاحظات الباحث الذى أجرى المقابلة ، تسجل المعلومات فى رأس الصفحة الأولى على النحو التالى :

اســـــم الـــــــراوى :

عمـــــر الـــــــراوى :

رقـــم الشـــــريط :

مـــدة الشـــــريط :

مـــكان التســـجيل :

تاريـــخ التســـجيل :

اســـم البـــــاحث :

الجهة المشرفة على البحث :

وتنسخ المقابلة على شكل سؤال « س » وجواب « ج » .

وعلى الناسخ ألا ينسى علامات الترقيم التى بدونها يصعب فهم مقاصد الراوى .

وأن يدون أية ملاحظات عن انفعالات الـراوى وتعبيراتـه الحركيـة مستعينًا بدفتر ملاحظات الباحث الذى نفذ المقابلة ، كأن يقـول ضاحكًـا متهكمًـا ، لـوح بيده فى الهواء ... إلخ .

فالناسخ يدون كل ما يسـمعه بـالضبط ، وعندمـا ينتهـى مـن الوجـه الأول للشريط يكتب « نهاية الوجه الأول » ، وفى نهاية الشريط يشير بكلمة « انتهى» ثم يدون اسمه والوقت الذى استغرقه فى نسخ الشريط .

والجدير بالذكر هنا أيضًا أن الناسخ يجب أن يقوم بـترقيم الصفحـات وتـرك حواشى كافية علـى الجـانبين ، واسـتخدام أوراق وأقـلام مـن نوعيـة جيـدة ، وأن يكتب على وجه واحد من الورقة ، وأن يقوم بمراجعة ما كتب بسماع الشـريط ، ومقابلته بما كتب .

رابعًا : مراجعة النسخة المكتوبة وتطويرها :

بعد الانتهاء من نسخ المقابلة يدفع النص للمراجع الذى يسمح له بإدخال تعديلات طفيفة على المقابلة ضمن حدود الحفاظ على أسلوب وشخصية الراوى من خلال النص ، وذلك بهدف توضيح النص ، وجعله مقروءًا ومفهومًا .

الأشياء التى بإمكان المراجع التصرف بها فى النص المكتوب :

١ – البدايات الخاطئة :

وهى كلمات مقطعة مشوشة ربما جاءت غير مقبولة ، أو غير مفهومة فيقوم الباحث بترتيبها ، وإخراجها فى جمل مفهومة بحيث لا تؤثر على النص .

٢ – التعبيرات المكررة بحكم العادة :

مثل كلمة يعنى ، شوف ، كيف ، زى ما تقول ، اسمع ، وللأمانة .

٣ – مقاطعات الراوى للباحث :

مثل هذه المقاطعات تحذف لأنها لا تمت إلى محتوى المقابلة ، وتقلل من سلاسة الحوار .

٤ – الإضافة للنص المكتوب :

لا يجوز إضافة أية كلمة للنص بهدف تفسيره أو شرحه ، وإنما تكون الإضافة بهدف توضيح المعنى فقط ، وبإمكان المعالج توضيح مقاصد الراوى باستخدام علامات الترقيم .

وبإمكانه أيضًا توضيح المعنى بإضافة كلمة أو كلمتين شرط أن توضع بين قوسين مركنين [ ] تمييزًا لها عن حديث الراوى نفسه .

أما بخصوص اللهجة وتهجئة الكلمات فينصح عمومًا بعدم التمسك بالفروق بين اللهجات المحكية ، فإذا قال الراوى « قلتلك » قاصدًا « قلت لك » فتكتب العبارة بشكلها الثانى .

خامسًا : مراجعة الراوى للنص المكتوب :

الباحث غير ملزم بإطلاع الراوى على النص المكتوب لروايتــه ، إلا أن هـذا الأمر له فوائده والتى منها :

أولاً : يطمئن الراوى ، ويريحه ، ويعزز التزامه بجهة البحث .

ثانيًا : يؤكد للباحث أن النسخة المكتوبة تعكس المعنى الذى قصـد إليـه الـراوى ، وتورد الحقائق بالطريقة التى أرادها .

ثالثًا : توفر للباحث فرصة لملأ الفراغات التى تنشأ عن عدم وضوح التسجيل ، أو عدم وضوح معنى أجزاء من الرواية .

ولتحقيق هـذه الأهـداف يطلـب مـن الـراوى قـراءة النـص بتمعـن ، والقيام بما يلى :

١ - تعبئة الفراغات المشار إليها فى النص والناجمة عن عدم وضوح التسجيل .

٢ - تصحيح تهجئة الكلمات وخاصة أسماء الأشخاص والمواقع .

٣ - تصحيح الأخطاء التى يمكن أن يكون الراوى نفسـه قد وقع فيها مثـل تـاريخ أو مكان حدث معين .

٤ - إضافة بعض الكلمات التوضيحية لشرح العبارات والجمل التى قد تكون غـير مفهومة للقارئ خاصة إذا أشار إليها المراجع .

٥ - حذف ما لا يريد الراوى أن يظهر فى النص المكتوب لروايته .

وإذا أراد الرواى أن يدخل بعض التعديـلات علـى النـص فهـذا مـن حقـه ، ولايجوز إرسال النسخة الأصلية ، أو الوحيدة من المقابلة للراوى إذ يفضـل إرسـال صورة عن المقابلة .

وبعد إعادة المقابلة يتوجب على المراجع أن يعيد قراءتهاللتأكد من وضوحها وصلاحيتها للنشر .

سادسًا : الفهرسة والأرشفة :

تعتمد مشاريع التاريخ الشفوى طرقًا مختلفة لفهرسة المقابلات الشفوية ، وليس هناك نظام محدد ومعترف به للمشاريع من هذا النوع . فنظام الفهرسة والأرشفة الأفضل هو الأسهل والأبعد عن التعقيد .

وعند الفهرسة تعامل كل مقابلة كوحدة واحدة قائمة بذاتها ، يعطى لها رقمًا متسلسلاً ، ويحضر لها كرتان أحدهما للراوى والآخر للموضوع ، ويرتب كل منهما فى أرشيف منفصل حسب التسلسل الأبجدى ، ويحتوى كلاً الكرتين على معلومات تشمل :

١ - رقم المقابلة .

٢ - موضوعها .

٣ - مدتها .

٤ - الأحداث الواردة فيها .

٥ - تاريخها .

٦ - طريقة الحصول عليها « شراء ، وتسجيل ، ومبادلة » .

٧ - معلومات عن الراوى « اسمه ، ومهنته ، وسنه ... » .

ويحتوى كل كرت فى العادة على ما ين ٥٠ - ٧٥ كلمة لكل ٣٠ دقيقة تسجيل.

إن طريقة الاحتفاظ بأشرطة التسجيل تختلف عن طريقة الاحتفاظ بالكتب المطبوعة ، وكذلك الحال فى الاستخدام ، ولا بد من أخذ خصوصية أشرطة التسجيل وحساسيتها بعين الاعتبار .

والمقابلات المطبوعة وكذلك أية ملحقات مضافة للأرشيف من مواد مساعدة « كالصور ، والجرائد ، والمذكرات ... إلخ » تعطى نفس رقم تصنيف الشريط .

وبعد فإن للتاريخ الشفوى ميزة كبرى عن التاريخ المدون ، وهى أن مـؤرخ التاريخ الشفوى يقوم بدور فعال فى صناعة مصادره ، ولكن ضمن منهـج دقيـق ، وصعب . ونحن فى هذا الوقت بحاجة ماسة لكتابة فترات من تاريخنا معتمدين على التاريخ الشفوى لتوثيق أحداث هامة مثل تهجير الشعب الفلسطينى من بلاده سـنة ١٩٤٨م ، أو أحداث ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م ، أو حرب أكتوبر المجيدة سـنة ١٩٧٣م ... إلخ .

فشهادات المعاصرين للحدث لها أهميتها ويجب أن تحظى باهتمام المؤرخين، ويجب أن يتم تسجيلها قبل أن نفقدهم فتضيع أجـزاء مـن الحقـائق التـى تعـبر عـن أحداث ومشاعر وآلام ، ومعاناة ، آمال شعبنا العربى .

هوامش البحث

(١) يحيى ، عادل ، ومحمود إبراهيم ، وتوماس ريكس : التجربة الفلسطينية فى التأريخ الشفوى ، رام الله ، سنة ١٩٩٤م ، ص٣٧ .

(٢) أونج ، والترج : الشفاهية والكتابية ، ترجمة د. حسن البنا عز الدين ، ومراجعة د. محمد عصفور ، مجلة عالم المعرفة ، عدد ١٨٢ ، الكويت ، شعبان ١٤١٤هـ / شباط ١٩٩٤م، ص٥٩ .

(٣) يحيى : ص١٨ .

(٤) توش ، جون : المنهج في دراسة التاريخ ، ترجمة د. ميلاد المقرحى ، جامعة قار يونس ، بنغازى ، ليبيا ، سنة ١٩٩٤م ، ص٣٠٥ .

(٥) كاشف ، د. سيدة إسماعيل : مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه ، ط٢ ، مكتبة الخانكى ، القاهرة ، سنة ١٩٧٦م ، ص١٣ .

(٦) المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين بن على ت - ٣٤٦هـ : مروج الذهب ومعادن الجواهر ، ٩ج ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، ط٤ المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة سنة ١٩٦٤م ، ج٣ ، ص١٧٥ .

(٧) ابن الأثير ، عز الدين أبى الحسن على أبى الكرم محمد بن عبد الواحد السيبانى ت - ٦٣٠هـ : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، دمشق سنة ١٩٣٨م ، ج٣ ، ص٢٣٣ .

(٨) كاشف : ص٢٤ .

(٩) المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على ت - ٨٤٥هـ : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت (بدون سنة نشر) ، ج٢ ، ص٣٣٢ .

(١٠) الدورى ، د. عبد العزيز ، وناجى معروف : موجز تاريخ الحضارة العربية ط١ ، بغداد ، سنة ١٩٥٢م ، ص٢٦٠ .

(١١) العلى ، د. صالح أحمد : محاضرات فى تاريخ العرب ، ط٢ ، مطبعة المعارف بغداد ، سنة ١٩٥٩م ، ج١ ، ص٢٤٦ - ٢٤٧ .

(١٢) حسن ، د. على إبراهيم : استخدام المصادر وطرق البحث « فى التاريخ الإسلامى العام، وفى التاريخ المصرى الوسيط » ، ط٣ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٨٠م ، ص١٠ .

(١٣) أونج : ص٥٥ .

(١٤) توش : ص٣٠٧ .

(١٥) يحيى : ص٣٩ .

(١٦) توش : ص٣٠٦ .

(١٧) يحيى : ص٢٣ .

(١٨) توش : ص٣٢٥ .

(١٩) انظر يحيى : ص٤٥ وما بعدها .

النقوش والرسوم الصخرية
كمصدر للتاريخ

د. حسن الشريف (*)

تمتد العصور التاريخية آلاف الأعوام قبل ميلاد المسيح ، هى عمر الحضارات القديمة ، ولكنها ليست عمر الإنسان . ولقد كان عليه كى يبلغها أن يقطع شوطاً طويلاً ، ومسيرة شاقة ، مليئة بالانتصارات حيناً ، بالصعوبات حينا آخر .

وأساس البحث فى العصور التاريخية ، هى الوثيقة المكتوبة ، يكملها الكثير من المخلفات التى خلفها إنسان هذه الحضارة أو تلك . ومنهج البحث فى عصور ما قبل التاريخ يعتمد على المادة الحجرية ، التى قد تكون وفيرة أحياناً ولكنها لا يمكن أن تمدنا بكل ما نريد أن نعرفه عن جوانب الحياة الأخرى كالمعتقدات ، والنظم ، والعلاقات والقوانين المنظمة للجماعات . ولا تكشف لنا عن كيفية الطقوس الجنائزية ، أو الأعراق ، أو الهجرات ومساراتها . لذلك دعت الحاجة إلى الاستعانة بأفرع بعض العلوم الأخرى كالإنتروبولوجيا الطبيعية والجيولوجيا ، وعلم الحياة القديمة (الإحاثة) ، وعلم طبقات الأرض ، بل جرى توظيف بعض مستحدثات العلوم الحديثة كعلم النظائر المشعة .

ولقد انبثق من صحرائنا الممتدة من ساحل المحيط الأطلسى إلى قلب وأطراف شبه الجزيرة العربية كم لا حصر له من النقوش والرسوم الصخرية ، التى تنعتها بعض الدراسات بالفن الجدارى . ولعظم هذه الظاهرة ، ولاتساع رقعة انتشارها ، لم يتم لها بعد تصنيف محكم لما تحتويه من موضوعات ، أو تجسده من أساليب وتقنيات مختلفة ، أو لما تمثله من مجموعات حسب أماكن وجودها .

(*) كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - فرع دمنهور .

وبادئ ذى بدء علينا أن نلاحظ أن هذه النقـوش أو الرسـوم الصخريـة ، لا تكشف لنا إلا عن المشاهد الختامية لتلك العصور السحيقة التـى قطعهـا الإنسـان . وهى مع ذلك تكتسب أهمية كبرى ، لكونها حدثـت قبـل وقبيـل بدايـة العصـور التاريخية . ولذا فإنها المصدر الذى يمكن أن يفصح لنا عن الكيفية التى وقعـت بهـا الأحداث الكبرى فى تلك العصور السحيقة ، ومن هم صانعوها .

ولا يحول دون ذلك سـوى أن فهـم النقـوش أو الرسـوم الصخريـة تعترضـه صعوبتان ، ربما يطول أمد التغلب عليهما .

أما الصعوبة الأولى فتتمثـل فـى محاولـة إيجـاد تقويـم زمنـى لهـذه المخلفـات وطبقاتها . فهى من جانب الزمـان تمتـد قرابـة العشـرة آلاف عـام ، ومـن جـانب المكان تمتد فى شكل حزام عريض بطول عدة آلاف من الكيلو مترات .

والصعوبة الثانية تتمثل فى غزارة موضوعاتهـا التـى لم يمكـن فهـم إلا النـذر اليسير منها أو افتراض فهمه ، ويبقى الجزء الأعظم منها منغلقاً على مضامينـه التـى نفذ من أجلها .

على أنه مما ينعش من آمالنا ويقويها ، أنه أمكن العلماء الاقتراب من التغلب على الصعوبة الأولى ، إذ اقترح البعض منهم عمـل جـداول زمنيـة لبعـض مواضـع هذه المخلفات مستعينين بوسائل بحث مساعدة ، كأعمال الحفائر الأثرية التى يقوم بها منـذ عـدة سنوات ف . مـورى فـى مواقـع تلـك النقـوش فـى منطقـة جبـال الأكاكوس من نواحى غات فى جنـوب غـرب ليبيـا . وقـد حـالف مـورى الحـظ فكان من حسن طالعه أن عثر على قطعة صخرية لهذه النقوش داخل طبقة أثريـة تم الكشف عنها . وبذلك تمكن من أن يمسك بدليل لا يقبـل التـأويل لتـاريخ إحـدى فترات هذا الفن العظيم . وعلى الجانب الآخر أمكن للعلماء الاستفادة من خاصيـة جيولوجية موجودة فى تكوين الصخور ، وهو ما أسموه بغبار الزمن Lapatine ، أو الزنجار – حسب ترجمة المعاجم العربية – والزنجار طبقة رقيقة تتكون حـين يتـم خدش أ ونحت الصخر بأداة حادة – أى بفعل فاعل – وتبدأ عملية تفاعل كيميائى

ما بين مادة الصخر والعوامل الجوية المختلفة من حرارة وأمطار . وبتحديد سمك طبقة الزنجار ولونها يقدر ما مر عليه من زمن . وبواسطة هذين العاملين أى سمك الطبقة ولونها ، يمكن تحديد عمر النقش الزمنى تحديداً نسبياً . كذلك حاول العلماء الاستعانة بوسيلة إضافية أخرى لإيجاد ترتيب زمنى لموضوعات هذه النقوش والرسوم، يقوم على أساس تصنيف نوعى للحيوان السائد فى الرسم . ويكاد يكون هذا الترتيب هو المتفق عليه بين أغلبية الباحثين . واحتسبوا أقدم مراحل النقوش - المرحلة التى تضم المجموعة الأثيوبية وحيواناتها العشبية الضخمة ، وتسمى بمرحلة الصيادين أو التيتل . ثم يلى ذلك مرحلة البقريات أو الثور وهى أيضاً مرحلة الرعى ؛ وهى أطول مراحل النقوش ، إذ سادت ما بين الألف السادس ق. م. ونهاية الألف الثانى ق. م. حيث تبدأ مرحلة الحصان . وتأتى بعدها مرحلة الجمل لتطوى صفحة هذا الفن(١) .

الواقع إن مجهودات العلماء لم تقف عند حد الوسائل السابقة ، وإنما تعدتها إلى طرق ووسائل جديدة ، يجدر الإشارة إلى أشهرها ، وهى طريقة اختبارات الكربون المشعة أو ك ١٤ كما يرمز إليها غالباً . ولنا أن نعلم أن عدد الأختبارات التى تمت بواسطة هذه الطريقة حول الصحراء الكبرى لم تكن تتعدى ١٦ تاريخاً حتى عام ١٩٦٣ ، ثم صارت ٢٨٦ تاريخاً فى عام ١٩٧٥ (كامبس ١٩٧٦) .

وإذا ما انتقلنا إل العقبة الثانية ، وتكاد تكون العقبة الكأداء ، ربما نلحظ أن مجهودات العلماء فى هذا الصدد حثيثة ، فالعمل مضنى وشاق ، ويحتاج إلى استعدادات خاصة وشروط عالية المستوى من الثقافة والمعرفة بمعانيها الواسعة .

والباحث لا يدعى لنفسه أنه يمتلك هذه الامكانات ولكن إدراكاً منه لأهمية الموضوع وجسامته ، يود أن ينوه بأهمية هذه الظاهرة الأثرية العظيمة . ذلك أنه فى تفسير مضامين النقوش والرسوم الصخرية ، ما يمكن أن يدعم الوصف

التاريخى للأحداث ، وفى حالات أخرى يكشف لنا عن أحوال ذات أهميـة بالغة للتاريخ الحضارى . وهذا ما سيحاول الباحث أن يثبته .

والواقع إن القضية الأولى تتعلق بمنشأ استئناس الحيوان فى الصحراء ، وهو موضوع يرتبط بمولد الزراعة . فمن المعلوم أن الإنسان لم يمارس تربية الحيوان ، إلا عندما توفر له فائض فى إنتاج الطعام ، ولم يتحقق له ذلك إلا عندما بدأ فى الزراعة ؛ (العصر الحجرى الحديث) . ومن المعلوم أن الحضارات القديمة قامت فى أحضان المجتمعات الزراعية على ضفاف الأنهار ، كالحضارة العراقية القديمة والحضارة المصرية . فالبحث فى نشأة الزراعة ، هو بحث فى أصول الحضارات القديمة . لذا اتجهت مجهودات العلماء حول تحديد الموطن الأصلى لاكتشاف الزراعة ، وتركزت آراؤهم حول موضوعين : إما غرب آسيا ، وإما شمال أفريقية(٢) .

ولأسباب عديدة اتجهت الآراء نحو أسبقية غرب آسيا فى اكتشاف الزراعة، اعتماداً على قراءات ك ١٤ على عينات أخذت من مواقع عراقية ومصرية ، وكانت تواريخ المواقع المصرية متأخرة عن تواريخ المواقع العراقية بفارق كبير(٣) . ومما ساعد على تأكيد هذه النظرة أنه لم يكن قد توفرت معلومات كافية عن نيوليتى الصحراء الكبرى وشمال أفريقية . وعلى ذلك قام اعتقاد بأن الزراعة اكتشفت فى مواقع بغربى آسيا ، ومنها انتقلت إلى مصر والشمال الأفريقى . ومع الزراعة دخلت التقنيات الأخرى ، ومنها استئناس الحيوان . وقد تأثر البعض من العلماء بهذه الفكرة ، فنسبوا ذلك إلى مهاجرين أتوا من الشرق ونزحوا بقطعانهم إلى الصحراء الأفريقية ، وهؤلاء هم أصحاب مرحلة نقوش البقريات(٤) ، فى زعمهم . وقد حدا الأمر بلفيف من العلماء إل دراسة المشاهد التى صورتها النقوش ، وخرج د. كوبر (١٩٧٨) باعتقاد أن استئناس البقر مارسه أصحابه الرؤوس المستديرة ، وهم السابقون على فترة الرعاة أو مرحلة البقريات ، حيث تشير نقوشهم (أصحاب الرؤوس المستديرة) إلى وجود رعاة بقر كثيرين . ورأى

الرأى نفسه شتريتز (١٩٧٨) ، الذى يرفض الفرضية القائلة بـأن البقـر المستـأنس أتى إلى الصحراء قادماً من الشرق ، ويراها تفتقر إلى الأدلـة المقنعـة . وهـو يعتقـد عكس ذلك ، فالنقوش الصخريـة فـى الصحـراء تقـدم كثـيراً مـن المؤشـرات التـى توضـح أن فكـرة ترويـض الحيوانـات البرية ، لم تكـن غريبـة عـن الحضـارات الصحراوية القديمة ، وأنها قد ترجع فى قدمها إلى فترة الصيـد ، وعليـه - حسـب رأيه - يجب أن نناقش جدياً كون تربية الأبقار تعود فى نشأتها إلى الصحراء .

ولقد سبق لكلارك (١٩٧٨) ، أن أعلن أنه يرى أن فرضية ترويـض البقـر فى الصحرا ء الكبرى ، فى مرحلة العصر الحجرى الحديث ، تبـدو أكثر احتمـالاً منها فى مناطق أخرى لم يتم اكتشافها بعد بشكل كاف .

والواقع أن الفارق بين أصحاب الرأيين ، هو أننا فى الصحـراء الكبرى نملـك على الأقل الدليل الذى سجل لنا هذه التقنية كشف عن اصحابها ، الأمر الـذى لم يتوفر لأى مكان آخر . وهناك نموذج آخر لمعضلة من المعضلات التى أثارت الكثير مـن الجـدل ، هـى ظـاهرة حمـل بعـض حيوانـات النقـوش - المجترات علـى وجـه الخصوص - شكلاً مخلقاً على هيئة قرص ، فوق رأس الحيوان .

وانتشرت نماذج هـذه الظـاهرة ، مـن جنـوب مقاطعـة وهـران بـالجزائر إلى صحراء مصر الشرقية .

ولما كانت بعض أشهر آلهـة المصريـين القدمـاء صـورت وهـى تحمـل فـوق رؤوسها قرصاً دائرياً ، رمزاً لعبـادة الشـمس ، كحتحـور وإيزيـس مـن الربـات ، وآمون ورع من الأرباب ، فقد دار البحث حول أصول هـذه الفكـرة ، وعمـا إذا كانت تشير إلى انتشار تأثيرات عقائديـة بـين أقطـار الشـمال الأفريقـى والحضـارة المصرية القديمة فى وادى النيل .

ولقد كان فى غياب تقويم زمنى معلـوم لزمـن النقـوش ، مـا أغـرى بعـض الباحثين، أن يرجعوا أصول هذه الظاهرة ، إلى تأثيرات عقائدية من مصر القديمـة .

ورأوا في وجود معبد للإله آمون في واحة (سيوة) ركيزة لزعمهم ، حتى أنهم لم يستبعدوا ربط كبش (بو علام) في جنوب وهران بكبش آمون ، وكبش بوعلام يصور كبشا يحمل بين قرنيه قرصاً مستديراً ، تم صقله بعناية فائقة ، ويقف أمامه رجل بهيئة كاهن ، يرتدى القراب القضيبى ، وهو بهيئة الليبيين القدماء(٥).

ويبدو أن هذه النظرة كانت متعجلة ، ولها جاذبيتها . ولكن الواقع الأثرى يتعارض معها لأن المجترات ذات الأقراص ، ظهرت مبكرة جداً عن عصر انتشار عبادة آمون . فقد ظهرت على الأوانى الفخارية الخاصة بحضارة جرزه فى مصر ، وهى من حضارات عصر ما قبل الأسرات ، أى حوالى الألف الرابع ق. م. أما عن كباش جنوب وهران ، وكذلك الأشخاص التى صورت برؤوس حيوانية ، فقد وجدت فى تاسيلى وفزان ، وسط الصحراء الكبرى ، وترتبط فى الغالب بأصحاب الرؤوس المستديرة ، وبعض الآراء ترى أنهم هم الذين أنتجوا فن ما قبل الأسرات فى مصر (Lhote, and Breuil, ١٩٦٠) .

الواقع أن كثافة نقوش منطقة تاسيلى وفزان ، وما تتميز به من جمال الأسلوب ودقة التنفيذ ، ما يجعلنا نميل مع الرأى الذى يرى نقوش تلك المناطق مركزاً لإشعاع هذا الفن إلى جميع الأنحاء . كذلك تجدر الإشارة إلى أن النماذج التى عثر عليها فى وادى النيل والصحراء المحيطة به ، كان أغلبها قد اتبع تقنية التطريق ، وهى تقنية مغايرة لما عليه نقوش تاسيلى وفزان ، التى نفذت بتقنية الحفر الغائر ، أو بواسطة الرسم باستخدام الألوان الزاهية . وهذا ما يراه شيرفيشيك (١٩٧٨) ؛ وبمقارنة النقوش الصخرية الموجودة فى وادى النيل والمنطقة الصحراوية المتصلة به ، مع ما هو موجود بأواسط الصحراء الكبرى (تاسيلى وفزان) تثبت مدى تقدم فن الرسم والنحت الصخرى فى هذه المنطقة الأخيرة . هذا بالإضافة إلى ان الرسوم المصرية قليلة وصغيرة الحجم نسبياً .

وعليه فإن فرضية أن المصريين القدماء تلقوا تأثيرات فنية من الصحراء ، هى الفرضية الأقرب إلى القبول .

وقد يكون من أروع الأمور ، أن تتوافق الحقائق التاريخية ، مع معطيات النحت والرسم الصخرى . فإذا ما حدث وتم ذلك فإن نتائجه تكون فى الغالب باهرة وذات أثر على البحوث التاريخية . ولبيان ذلك ، نتناول أحد موضوعات النقوش الصخرية ، وهو موضوع ظهور الحصان كمرحلة رئيسية من مراحل هذا الفن العظيم .

فمن المسلم به أن الحصان ظهر فى مصر والشمال الأفريقى حوالى النصف الثانى من الألف الثانية قبل الميلاد . وقد استخدمه المصريون فى أول الأمر فى جر العربات الحربية ، حارب ملوك الدولة الحديثة (١٥٧٠ - ٩٥٠ ق. م.) أعداءهم بهذا السلاح الرهيب بمقاييس ذلك الزمن ، وربما كان الحصان وراء انتصارات المصريين وسببا من أسباب نجاحهم فى تكوين إمبراطورية كبرى فى النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد .

ويبدو أن الأمر استغرق قرنين أو أكثر كى ينتقل الحصان إلى الشمال الأفريقى عبر مصر . و لم يتم الأمر تحت ضغوط اقتصادية (شتريتز ١٩٦٩) ، بل ربما كان مجرد حادثة تاريخية ارتبطت بتوغل جماعات من البشر فى وسط الصحراء، واصطدمت بحضارات تربية الأبقار ، أو بمجموعات من بقاياها . ومن المعتقد أن الحصان كان وسيلة هذه الجماعات الوافدة للتوسع ، لأنه ارتبط فى الرسوم بمشاهد الحروب والقتال . وأيا كان الأمر ، فنحن إذن أمام ساعة زمنية ، يمكن بواسطتها تحديد المرحلة الزمنية لإحدى مراحل النقوش الصخرية فى الصحراء على قدر معقول من اليقين .

وكان من حسن حظ البحث التاريخى أن أمكن الاستفادة من هذه المعطيات لحل إحدى معضلات التاريخ الليبى القديم ، وأمكن التأريخ لعناصر بشرية هامة فى تاريخ ليبيا ، عرفوا بالجرمنت أو الجرميين نسبة إلى عاصمتهم (جرما) فى

وادى الآجال (الحياة) فى أوبارى من نواحى فزان . والواقع أن اصول هذه الجماعة يكتنفه الغموض ، كانت هناك عناصر قوية أقامت ما يشكل جسراً تجارياً هاماً بين أفريقيا الاستوائية والبحر المتوسط . وفى العصر الرومانى كانت (جرما) شوكة قوية أمام التوسع الرومانى نحو الجنوب . وقد ظهرت هذه العناصر فى النقوش كفرسان يمتطون خيولهم أو كسائقى عربات تجرها الخيول(٦) .

وعن طريق هذه العناصر فى النقوش تكونت لدينا معلومات مفيدة عن ملابسهم وأسلحتهم وعرباتهم . وحيثما يوجد نقش لهم ندرك على الفور المدى الذى وصل إليه نفوذهم ، وكل هذه المعلومات ما كان يمكن أن نحصل عليها ولو أجريت حفائر لذلك(٧) .

من النموذج السابق ندرك مدى الإسهام الفعلى والمفيد ، حينما يتحقق قدر من الوضوح مع قدر من اليقين ، لمجموعة من النقوش أو الرسوم الصخرية فى منطقة ما . ولكن الأمر لا يسير على هذا المنوال دائماً ، فربما كان النموذج السابق حالة خاصة فريدة . وفى حالات كثيرة تصمت النقوش عن الإفصاح عن مكنوناتها ، مما ينعكس على البحث التاريخى بالسلب ، فلا يتوفر له - والحال هكذا - إلا الحدس والتخمين ، وهذا ما سنضرب له المثل .

ذلك أنه شاع فى رقعة واسعة من النقوش والرسوم الصخرية تصوير لشخصيات خيالية صورت بأحجام مبالغ فيه أو مخلوقات عجيبة مخلقة .

وسنكتفى هنا - مراعاة لمقتضى الحال - بثلاثة نماذج من تلك الشخصيات الخيالية ، فعلى سبيل المثال : إثنان من لوحات تاسيلى نشر هنرى لوط(٨) ، والنموذج الثالث من رسوم شبه الجزيرة العربية ، من وادى ضم تبوك(٩) ، شمال شبه الجزيرة العربية .

ففيما يتعلق بموضوع اللوحة الأولى رقم ٣٥ من لوحات تاسيلى يسميها لوط بـ (السيدة البيضاء) ، وأبعاد الرسم هى ١٥٠ سم × ١٠٠ سم . وقد

لونت بالمغرة الصفراء مع لـون أبيض والتنورة ومتعلقات الرقص ، مع حلقات الساعد وأربطة الساق . ويبدو أنها جميعاً صنعت من ألياف أو سيور دقيق . وكذلك الحال مع قراب اليدين ، والرأس يحمل ما يشبه قبعة من النباتات يخرج منها قرنان ؟ ويتساقط من القبعة ما يعتقده لـوط ... حبوب ؟ ويقول لـوط أننا بإزاء إحدى الكاهنات ذوات العلاقة بشعائر الزراعة أو هى ربة الزراعة ، قد تكون تجسيداً للربة (إيزيس) المصرية التى كانت هى الأخرى ذات علاقة بطقوس الزراعة والأمومة والخصوبة . وقد وافق Breuil لوط Lhote على هذا التفسير . أما الرسم فهو يعود إلى مرحلة الرؤوس المستديرة حسب رأى لوط Lhote.

ولا شك فى أن فى إبراز افنان لشخصية معينة وسط مجموعة من الأشخاص الآخرين بواسطة إشارات خاصة أو بتضخيم الأحجام ، لهو دليل على تمايز اجتماعى أو سياسى أو دينى . وهو ما سوف نشير إلى ثبوته لدى المصريين القدماء، منذ البدايات الأولى لتاريخهم .

والواقع أنه بتفحص الرسم المعنى (السيدة البيضاء) نلحظ أن ما ذهب إليه لوط Lhote ربما له ما يبرره ، فى الربط بين موضوع الرسم والربة (إيزيس) . ففى وجود القرنين على الرأس ما يذكر بقرنى البقرة لدى (إيزيس) ، وهذا التنقيط الذى يشبه تساقط الحبوب من الثديين ربما كان تجسيداً لمعنى الأمومة والخصوبة . كانت (إيزيس) تمثل فى بعض مشاهدها ، وهى تعطى ثديها لابنها (حورس) رمزاً للملكية فى مصر . أما بشأن المبالغة فى تضخيم حجم السيدة ، فإننا نجد له تفسيراً لدى المصريين ، الذين دأبوا منذ عهد بداية الأسرات على رسم ملوكهم بأحجام مبالغ فيها بالنسبة لبقية المشهد كما أنهم اتبعوا نفس الأسلوب عند تصوير آلهتهم . (قارن - على سبيل المثال - الضخامة التى صور بها الملك نعرمر فى صلايته المشهورة باسمه) .

وملاحظة هامة أخرى ، ذلك أن الهيئة الطقسية التى عليها (السيدة البيضاء) كما لو كانت تجرى ، تقترب إلى حد كبير مع هيئة الملك الفرعون ، حينما كان

يؤدى طقس عيد (الحب سد) أو العيد الثلاثينى لتجديد الخصوبة المتمثلة فى قوة وفحولة الملك الحاكم ، وهو عموماً طقس يرى أغلب علماء المصريات أن له أصوله الأفريقية . والملك هنا هو القوة التى تهيمن على مظاهر الطبيعة وترتبط بها.

ومما يثير الدهشة أن هناك نقشاً للملك زوسر ٢٦٨٠ ق. م. الأسرة الثالثة - يصور الملك - وهو يجرى حول حائط فى مشهد طقسى . ويكاد يكون الملك عارياً ، إلا من غلالة رقيقة تستر العورة ، الأمر الذى يقربه إلى حد ما من المظهر العام للسيدة البيضاء(١٠) .

أما النموذج الثانى من لوحات تاسيلى ، فقد أطلق عليه لوط Lhote إله كبير بصحبة المصليين ، والمشهد ملون بالأحمر الداكن واللون الأبيض ، وأبعاده ٣٦٠سم × ٧٦٠ سم . أما الشخصية الرئيسية التى تتوسط الرسم (الإله الكبير) فهى تنفرد بقامة طولها ٣,٢٥م . وحسب رأى لوط الرسم يعود إلى مرحلة الرؤوس المستديرة كذلك ، وإن كانت الحلقة الأخيرة منها . وقد اكتفى لوط بوصف الرسم على أنه مشهد سحرى يتعلق بطقس الخصوبة ، وربما لوجود ما يمكن اعتباره قرنين يبرزان من رأس الإله الكبير ولوجود صور للجاموس القديم.

وحقيقة الأمر أن موضوع الخصوبة وما يرتبط بها من معانى النماء والتكاثر، كانت القضية الكبرى - على حد تعبير خبير النقوش زيربو(١١) ، وخصوصاً فى أواخر عصور ما قبل التاريخ فى الصحراء ، وذلك إثر إنكماش كل أثر للحياة أمام الزحف الحتمى نحو الجفاف . وربما من نافلة القول أن نذكر أن جميع شعوب العالم القديم ، كانت تجسد فكرة الخصوبة أو آلهة الأم ، وتتخذ من جسم المرأة رمزاً لها .

أما بالنسبة للنموذج الثالث ، فهو من شمال شبه الجزيرة العربية ، وربما كان النموذج الوحيد من تلك المنطقة . وقد وصفه مجيد خان بأنه رسم لمعبودات

مجهولة. ويظهر الرسم قرب أصابع اليد الممدودة ، خطوطاً صغيرة مموجة رسمت كفرع مصحوبة برسم على شكل نجمة ، مما يعطى إيحاء بأن الأشعة تخرج من الأصابع والنجمة على حد تفسير خان ، الذى يعتقد بأن الرسام ربما قصد به صنماً وثنياً يرتبط بعلاقة ما بالمطر والبرق . ونحن نعرف أنه كان لدى الشعوب السامية دائماً إله للمطر والصواعق .

وإذا كان هذا هو كل ما يمكن أن تعطيه لنا هذه الأشكال الخيالية من تفسير، وفق ما أسفرت عنه البحوث الحالية ، إلا أنه من الممكن إضافة فائدة أخرى ، هى أننا ربما نكون أقرب فهماً لما وجد لدى المصريين القدماء من عادة تضخيم حجم آلهتهم أو ملوكهم عند تصويرهم .

فإذا ما تناولنا الشق الآخر من موضوع الأشكال الغريبة ، والتى يزخر بها الفن الجدارى واجهتنا حقيقة أشد غرابة وأكثر استغلاقاً للفهم .

ونكتفى بمثالين فقط من هذه الكائنات الغريبة لما يثيراه من ايحاءات معينة ، قد تكون ذات علاقة بجذور بعيدة مشتركة ، اندثرت من أزمان ساحقة ، ولم يتبق منها غير الأفرع التى قد تبدو لنا فى صورتها التى شكلت عليها غامضة ، ومتقطعة الصلات .

ويأتينا النموذج الأول من وادى ضم من شمال المملكة العربية السعودية ، وقد أسماه خان (الكائن الخرافى) وجاء فى وصفه له : «حيوان غير مميز يبلغ طوله حوالى مترين وعرضه ٨٠ سم ويتكون من بدن ممدد ، ورقبة نحيفة ووجه صغير ، ويوجد على الرأس نتواءان صغيران ، ربما قصد بهما القرنان وهذا الشكل لحيوان غريب وضخم وهو يفتقد إلى الفكرة وواضح فيه رداء التنفيذ» .

ومن المدهش أن خان اقترب فى كلماته تلك من كلمات فوفرى Voufrey عن كائن آخر منقوش على الركائم الصخرية فى موقع (جارة الطالب) بالجزائر

وقد أسماه فوفريي بـ (الحيوان الخرافي) . وهو عبارة عن رسم بطول ستة أمتار ، يتكون جسده من ثمانية حلقات متتابعة منتظمة حول قصبة هوائية على ما يبدو . ويمتد له ذيل طويل مردود للأمام ينتهي بكلاب ، والرأس مزود بقرني استشعار أو ألسنة للفك ، وفي الجزء القريب من الذيل معلق نوع من كيس مزدوج للخصيتين، وقد صقل بعناية ، وقد رآه فوفريي طوطماً للملك العقرب ؟ (١٢) ، وأنه لابد من ارتباطه لديهم بإدراكات ومشاعر دينية أولية ، وهي تبدو ذات علاقة بما للمصريين في فترة ما قبل الأسرات(١٣) .

والواقع أنه في غياب تفسير ممكن لمثل هذه الأشكال الخرافية ، لا يسعنا إلا اللجوء إلى تفسيرات أسطورية . فالجهد الذى بذل في تنفيذها ذات علاقة موثوقة بالعالم الروحي لأصحابها . ولقد كانت الأسطورة دوماً - كما يذكر زيربو - هي في النهاية طريقة يستعملها الإنسان لإدارك الكون ، وجعله مفهوماً ؛ إذ أن الخطاب الأسطوري يعتمد على منطق ذاتي خاص به ؟ فتمثيل كائن مخيف يعني في الغالب التخلص من سيطرته ، ومراقبته بالنظر تعني السيطرة عليه(١٤) .

وربما تجدر الإشارة إلى إمكانية أن ندرج تحت هذا النوع من التفسيرات الكثير من النقوش التي تنشر في أنحاء عديدة من مناطق النقوش . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نشرت وزارة الدولة للشؤون الثقافية بالمملكة المغربية ، فهرساً لمواقع النقوش بالجنوب المغربي حوى الكثير من هذه الأشكال التي يصعب فهمها.

يتضح من مجمل ما سبق ، مدى ما تكتنزه موضوعات النقوش والرسوم الصخرية من قيمة علمية ، يمكن في حالة التعرف عن مكنوناتها أن نزيل الغموض عن كثير من القضايا مثار الجدل بين علماء التاريخ والآثار والأنثرولوجيا كموضوع الأعراق ، والهجرات الكبرى ومسالكها وآثارها ، وغير ذلك مما يفيد البحث العلمي . وترى بعض الآراء أن عظم المساحة التي تشغلها هذه الظاهرة ، وتنوع أساليبها وتقنياتها ، تدل على أنها لم تكن نتاج شعب واحد ولا ثقافة واحدة .

وإزاء ظاهرة بهذا الحجم والتنوع ، قد يكون من الأنسب عند تناول موضوعاتها ، إتباع منهج الدراسة المقارنة ، مع التسليم بأن مثل هذا المنهج يتطلب حصراً لجميع النقوش والرسوم وتصنيفها ، وتحديد أساليبها والتقنيات التى نفذت بها، ويتطلب كذلك جداول لتقويمها زمنياً ، وجداول أخرى إحصائية .

فعلى سبيل المثال ، إن دراسة مقارنة لأنواع الحيوانات التى صورت فى موضوعات النقوش ، فى كل من شمال أفريقيا ومناطق مصر العليا وبلاد النوبة ومناطق شمال المملكة العربية السعودية ، يمكن أن تفيد فى معرفة سبب غياب حيوانات المجموعات الأثيوبية بحيواناتها العشبية الضخمة من نقوش المنطقتين الأخيرتين . مع العلم بأن مناطق مصر العليا والنوبة تميز نتاجها فى مجال الفن الصخرى بشكل ليس له مثيل ، سواء من ناحية المضمون أو الأسلوب . فيذكر شيرفيشيك (١٩٦٩) ، أن هذه المناطق من مصر وبلاد النوبة عرفت أسلوب النقش البارز والمائل قليلاً ، وهو أسلوب ليس له وجود فى أى بقعة أخرى من العالم ، بما وصل إليه من دقة وإتقان . وهذا يجعلنا نعتقد أن هاتين المنطقتين تشكلان منطقة مستقلة فى موضوع النقوش .

أما بالنسبة لمناطق النقوش فى شمال المملكة العربية السعودية ، فربما كان سبب غياب الحيوانات العشبية الضخمة أن هذه المجموعة تعرف أصلاً بالمجموعة الأثيوبية، أى أنها حيوانات أفريقية الأصل . وربما خضعت شبه الجزيرة العربية لظروف بيئية وجغرافية ، جعلتها بمعزل عن هذه الحيوانات ، وحالت دون تواجدها فى مناطقها .

وملحوظة أخرى تتعلق بشبه الجزيرة العربية ، إذ لوحظ أن مرحلة الجمل تعقب مباشرة مرحلة البقريات (الرعى) . وبالتالى نجد أنفسنا أمام فرضية مدهشة، وهى أن شبه الجزيرة العربية لم تستخدم الحصان قبل القرون الميلادية(١٥)، وقد يكون لظروف شبه الجزيرة الجغرافية ، أثر جعل مرحلة الجمل أسبق وأنسب لطبيعة المكان والمناخ ، من مرحلة الحصان .

والواقع أن الطبيعة الحيوانية للحصان تجعله لا يتلاءم مع ظروف مناخ جاف، ولذا تلاءم مع الظروف البيئية فى مصر وادى النيل ، كما تلاءم مع الظروف البيئية التى صار عليها وادى الشاتى بليبيا حيث استخدمه الجرامنت - كما سبقت الإشارة - وظلت المياه الجوفية تنبثق من عيون طبيعية فى هذه المناطق، مما خفف من حدة عصر الجفاف فيها . ولذا فإنى لا أحجم عن القول بأن سمعة الحصان العربى المشهود لها بها ، ربما كانت أشبه بأسطورة بلا أسس تاريخية .

* * *

إذا كان لابد أن يكون لهذا العرض من خاتمة ، فليس هناك أكثر إلحاحاً من حاجتنا إلى أن نبحث ونستوثق فى خضم هذا الزخم من النقوش والرسوم، هل حاول أصحاب هذه الأعمال أو بعضهم - على الأقل - أن يرتقوا بجهودهم للتعبير عما تجيش به نفوسهم أو تجود به قرائحهم إلى مرحلة التعبير عن الأفكار التجريدية ؟ أى الأيدوجرام Ideogramme(١٦) بمعنى رسم الصورة التى تعنى فكرة ، أو تصوير يطابق بدرجة أكبر مصطلحاً لغوياً ... كرجل أو إله ... إلخ .

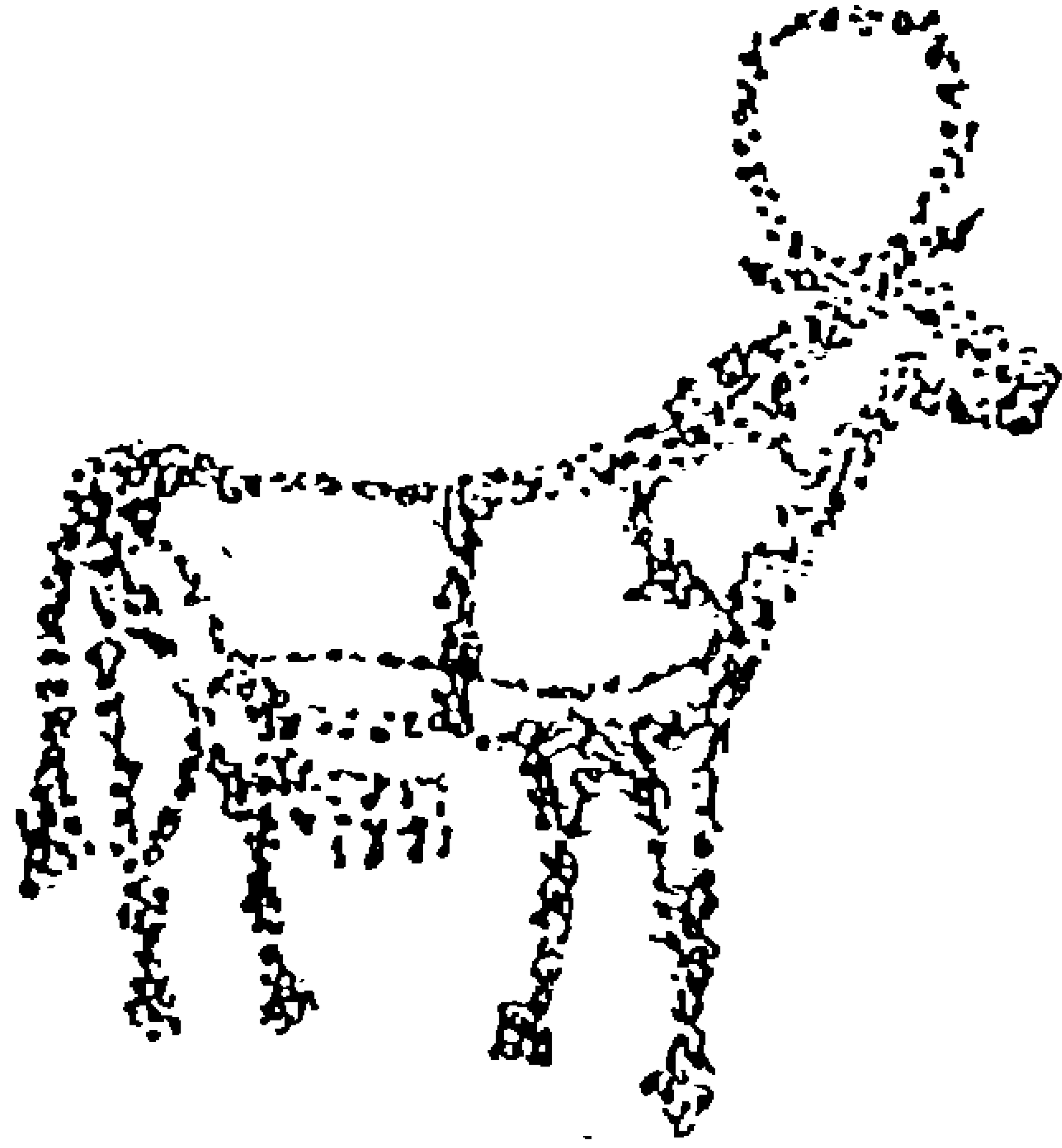
يرى - شتريتز (١٩٦٩) - أن مثل هذه الأبحاث مازالت غير موجودة وإن كنا ندرك من جانبنا أنه خلال العقدين الأخيرين جرت محاولات فى هذاالاتجاه . وممن اهتموا بدراسة هذا الاتجاه فى النقوش الصخرية ، خبير النقوش السنغالى زيربو(١٧) ، فقد نظر إلى موضوع النقوش على أنها جسر بين الواقع والفكرة ، وقدم فى سبيل بيان ذلك عدة آراء جديرة بالاعتبار . ويرى زيربو أن أكبر عقبة تحول دون تأويل الفن الصخرى تأويلاً صحيحاً هو الجهل بالظروف الاجتماعية التى أنتجت هذا الفن . وكان من رأيه أن الفن قد يفقد دلالته إذا أطلقنا على مشاهده عبارات مثل : السيدة البيضاء ... القضاة ... إلخ ، وهى تعبيرات من إنشاء باحثين من ذوى الثقافات الأجنبية . ومن ضمن ما ساق من أمثلة فى محاولته شرح أحد النقوش على جانبى صخرة ، ومحتوى النقش صورتى

أسد وكركدن . وقد نقش الأسد على الوجه الجانبى للصخرة لتضيئه الشمس بأشعتها الأولى ، فهو يمثل النهار ! فى حين أن وجه الكركدن موجه للغرب لأنه بمثابة روح الليل والظلام ! .

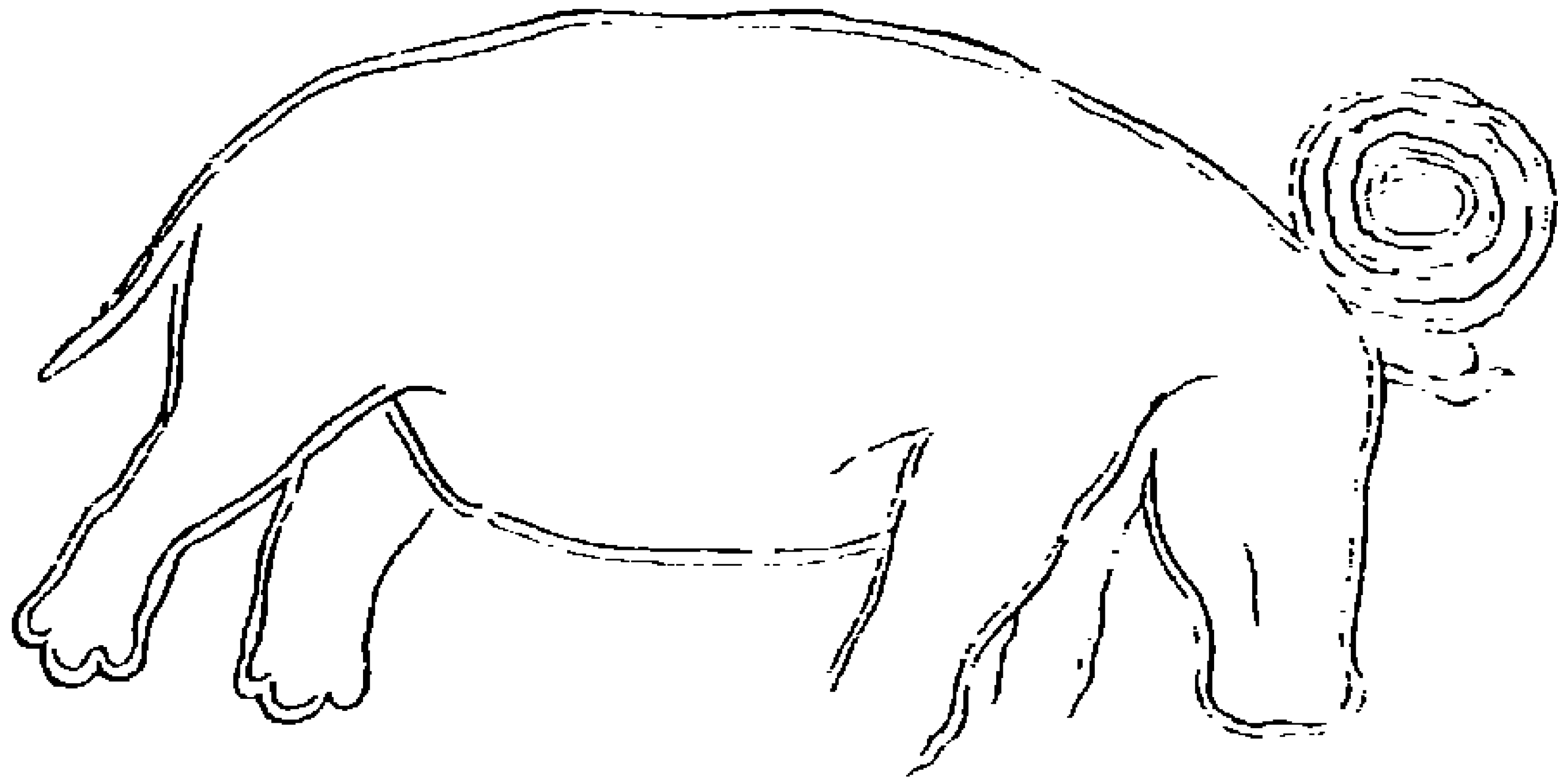
هل أصاب زيربو فى تأويلاته تلك ؟ ربما يكون قد اقترب بخطوات ما من بلوغ الهدف ، لأن أمانة البحث تفرض علينا تعضيده . وباب الأمل المفتوح أمامنا هنا هو الحضارة المصرية القديمة ، لأنها الحضارة الوحيدة التاريخية المكتوبة ، وهى تقوم على أرض أفريقية ، وهى فوق هذا كله نشأت فى حضن منطقة النقوش .

لقد كان لدى المصريين القدماء تركيباً لغوياً من أسدين ، استخدما لحساب الوقت ، فصور كل منهما يعطى ظهره للآخر ... ربما اتخذوا منهما رمزاً للهضبتين اللتين تحددان الحدود الشرقية والحدود الغربية للوادى .. وكان مثل هذا التركيب الرمزى يعنى مصطلحاً لغوياً المقصود به : الأمس وغدا .

إننا ندرك تمام الإدارك أن الشوط طويل بين ما هو متاح للعلماء من قدرات ووسائل وبين ما تصبو إليه آمالهم . ولولا أنه سبق للبحث العلمى أن شهد حالة تتطابق مع حالتنا هذه ، حيث ظل العلماء أجيالاً وأجيالاً فى موقف العجز أمام رموز اللغات الشرقية القديمة من هيروغليفية وسومرية وغيرهما ، ثم لاحت اللحظة المواتية فأمسكوا بها ، وحققوا أعظم انتصارات العقل البشرى بإحيائهم لغات ماتت من عصور سحيقة ، لاعتقدنا مع من اعتقد أن مكنونات النقوش الصخرية ومضامينها قد اندثرت مع أصحابها .



(١)



(٢)



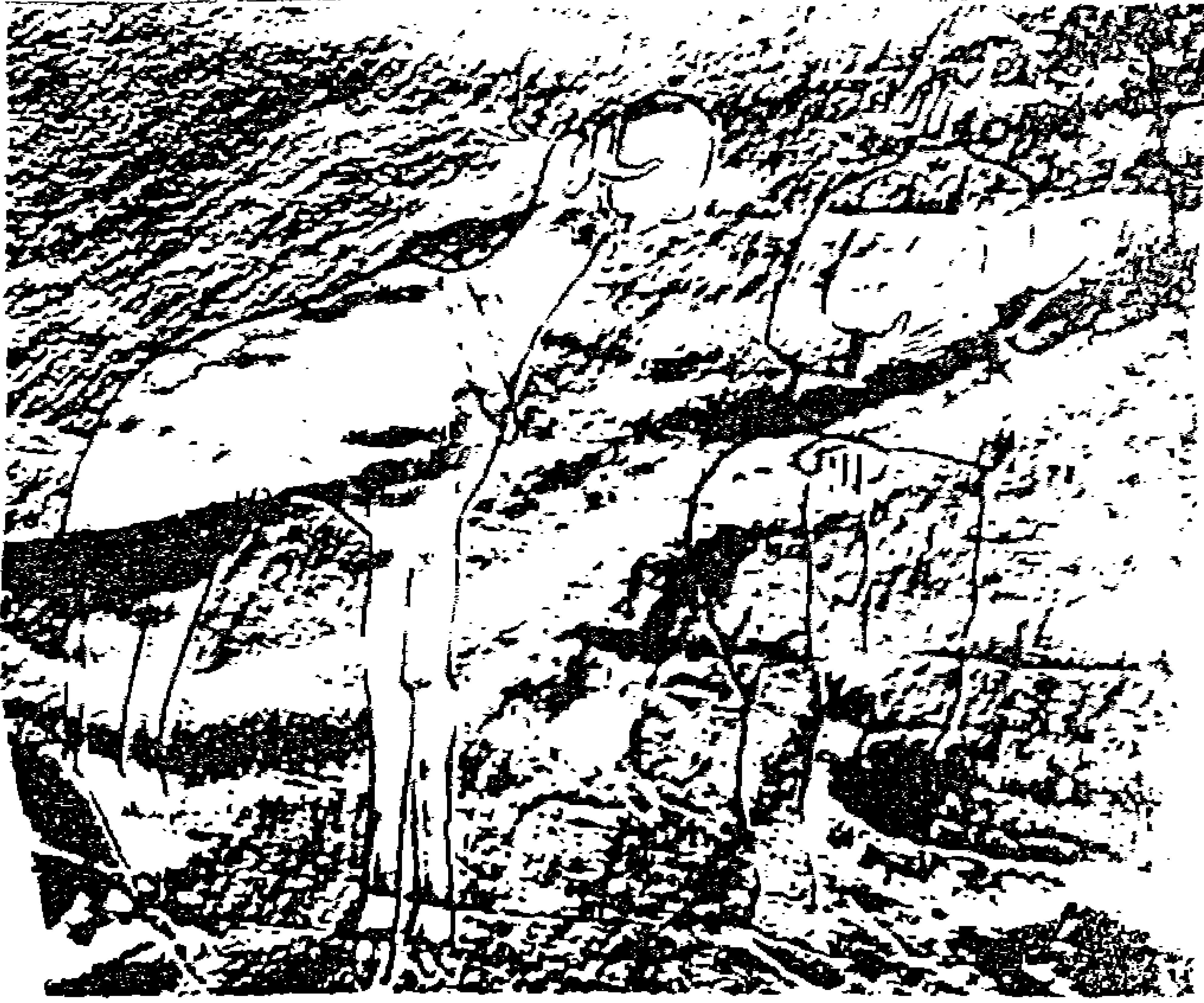
(٣)

نقوش لحيوانات تحمل أقواصاً بين قرنيها

١ - وادى الحمامات (مصر) عن H. A. Winkler .

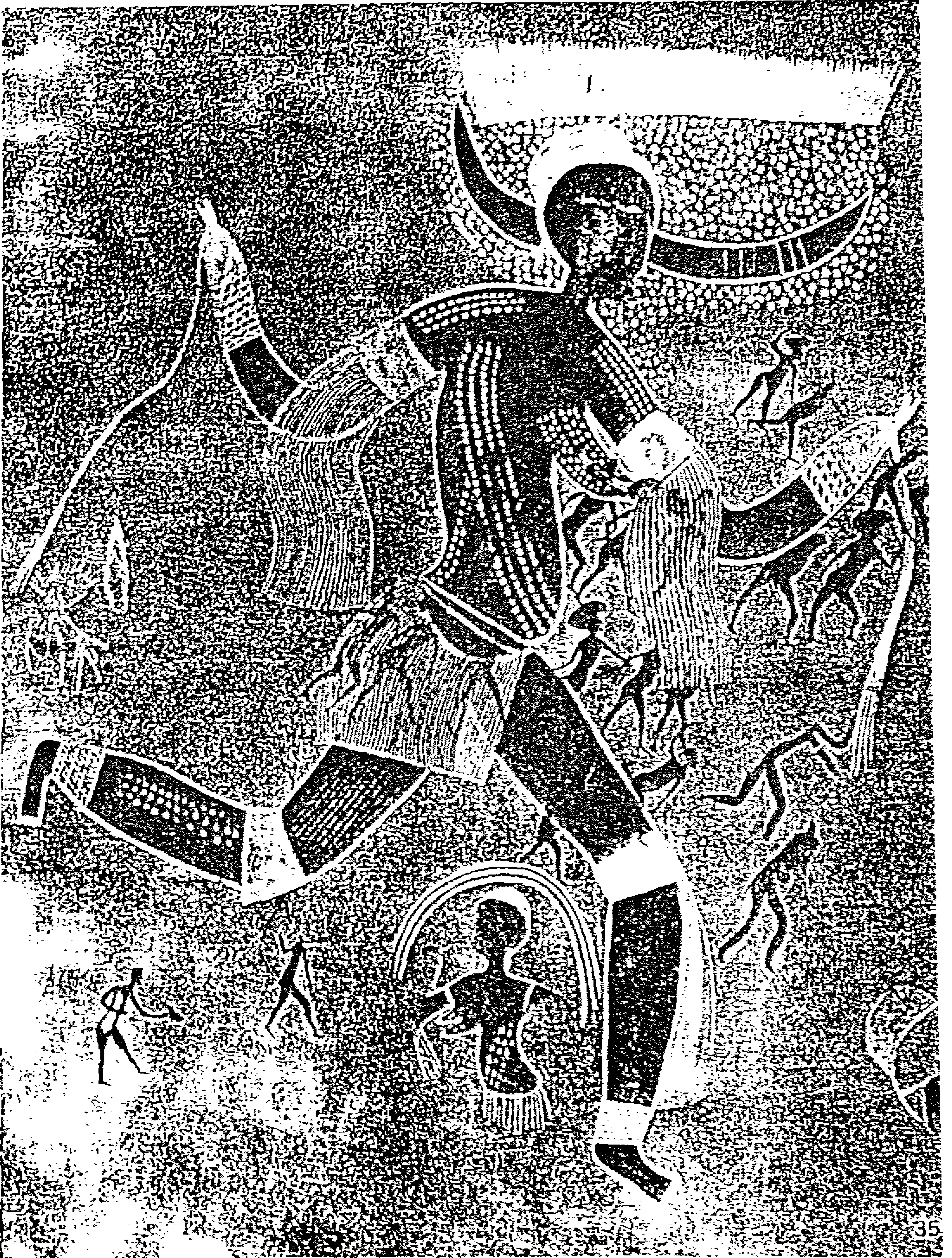
٢ ، ٣ - الصحراء الكبرى حسب M. Reygasse .

لوحة I



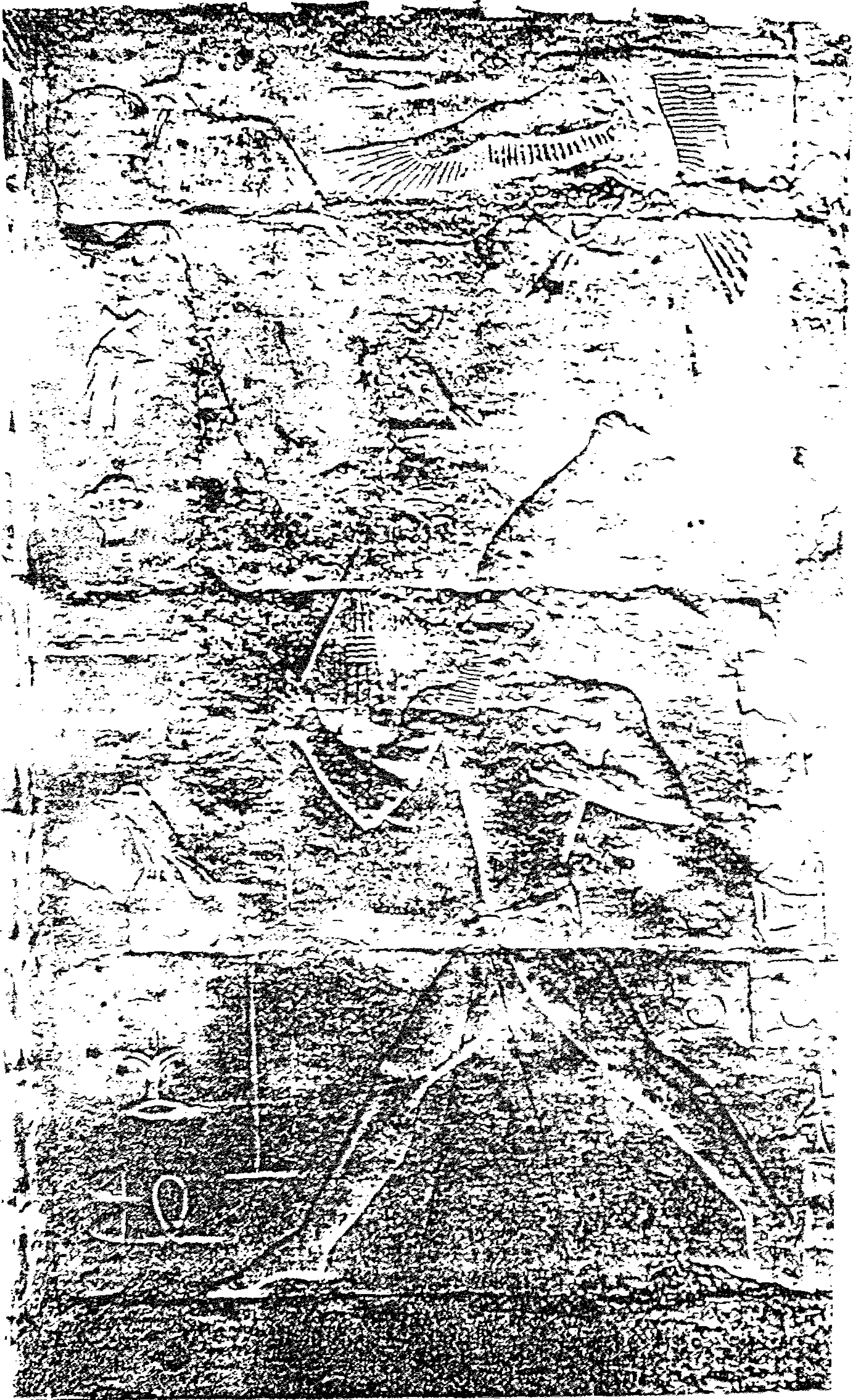
كبش بوعلام (الجزئر)

لوحة II



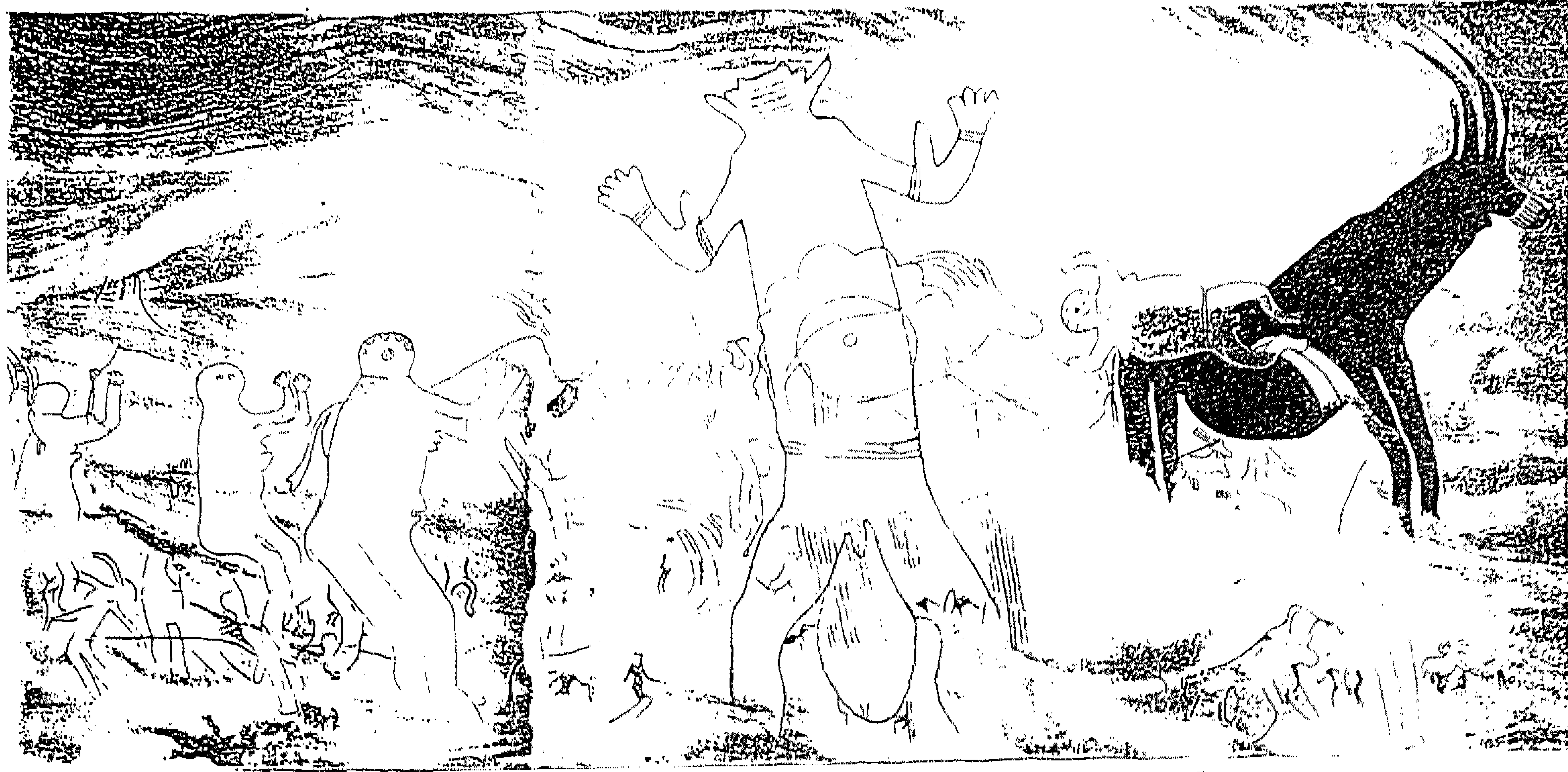
« السيدة البيضاء » تاسيلى نشر لوط

لوحة III



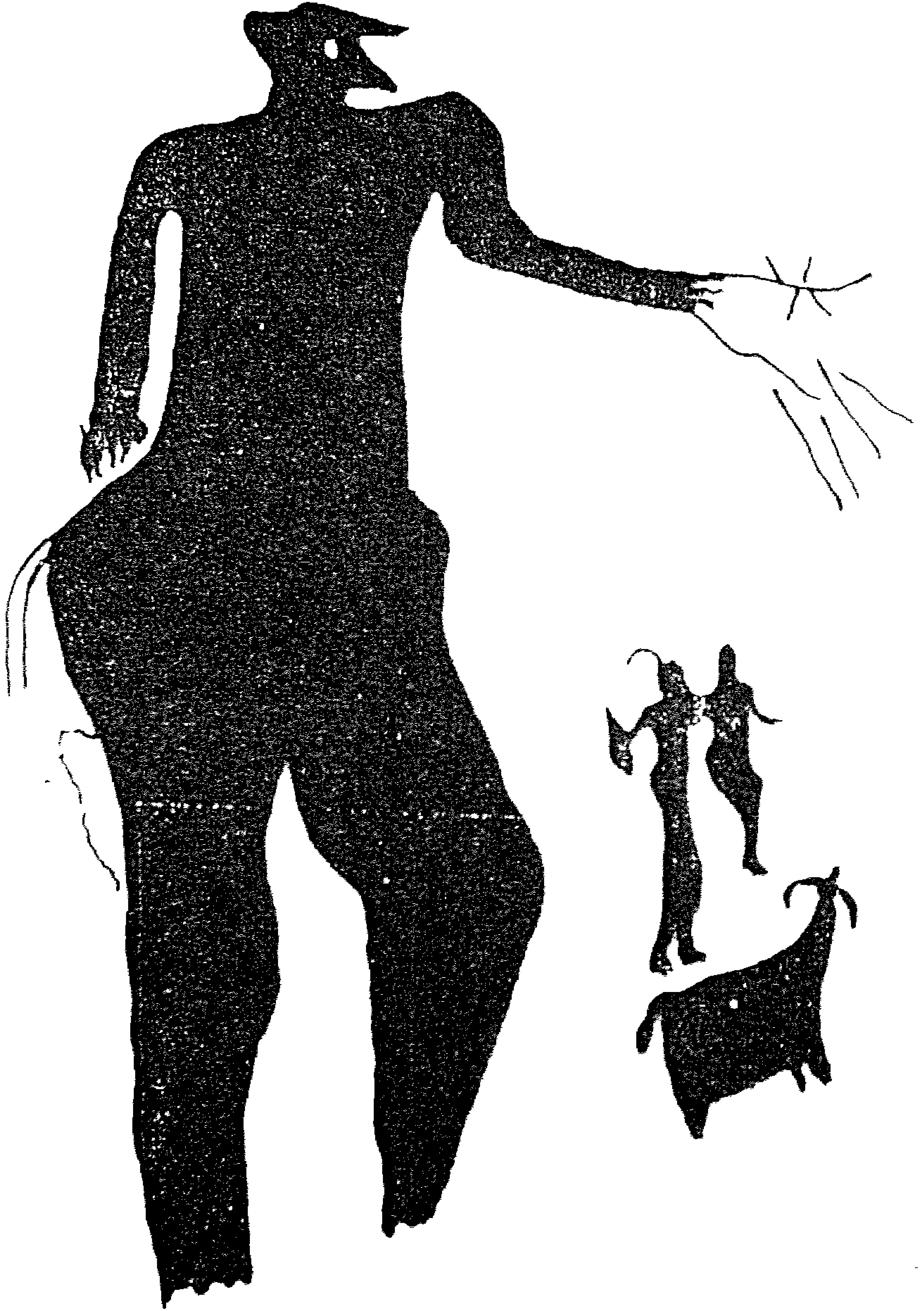
زوسر (الأسرة الثالثة الفرعونية)

وهو يؤدى طقوس عيد الحب سد



الإله الكبير – تاسيلى – نشر لوط

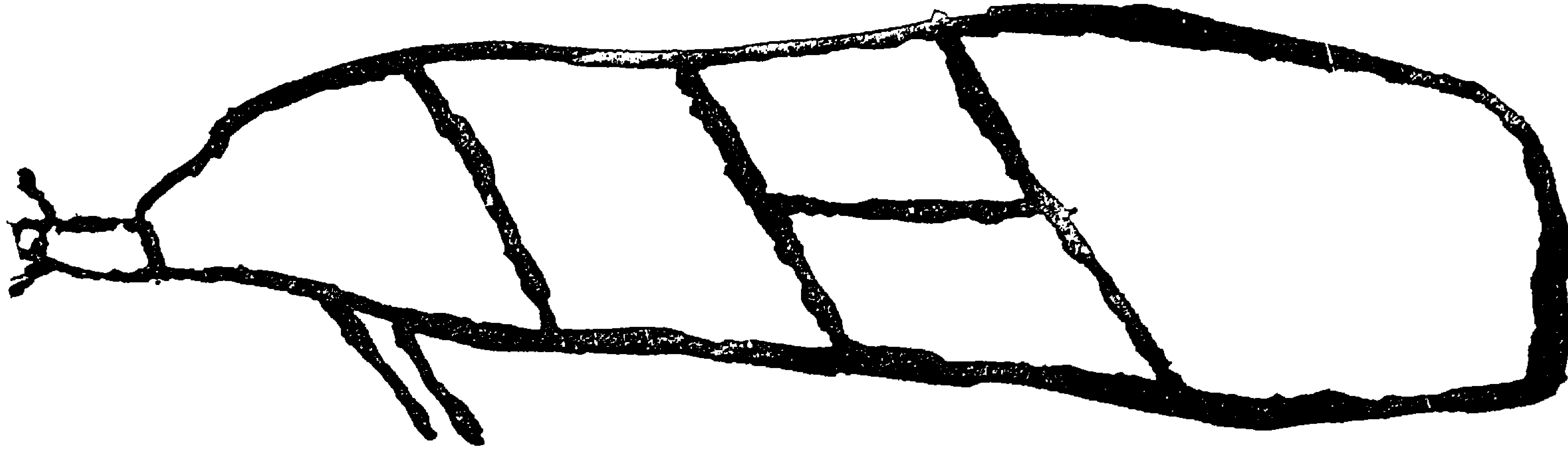
لوحة ٧



Tracings of a rain deity from jubbah.

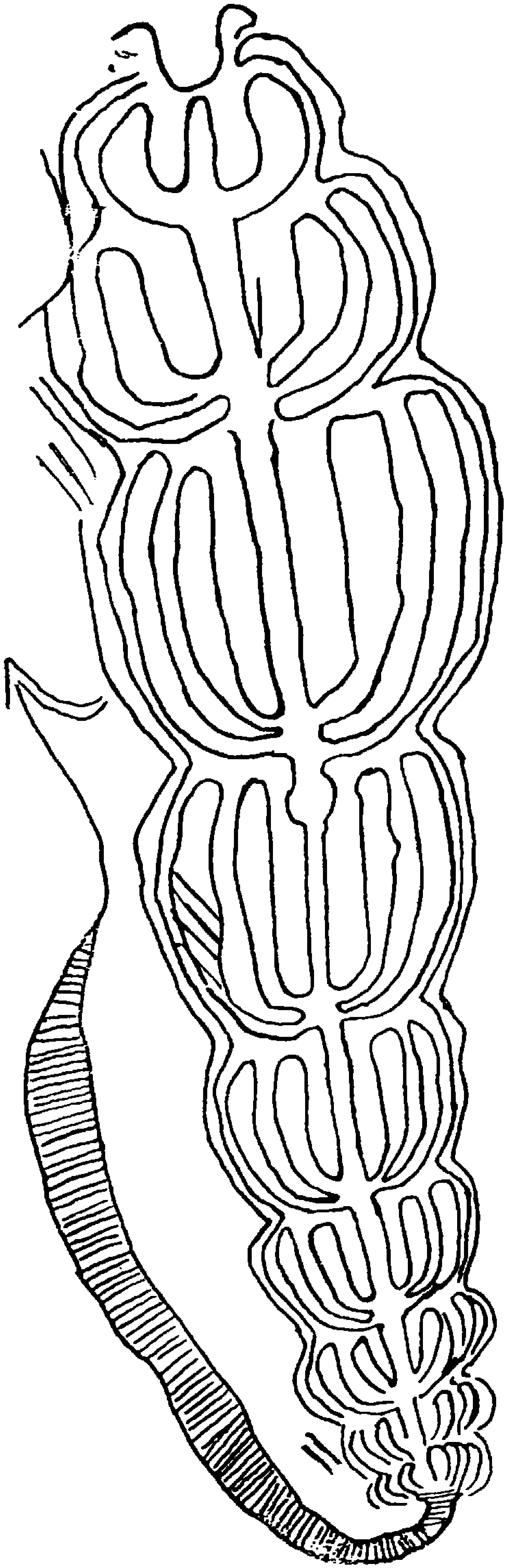
أشكال آدمية خيالية فى جبه بحائل عن مجيد خان

لوحة VI



« الكائن الخرافى » شمال الجزيرة العربية عن مجيد خان

لوحة VII



الكائن العجيب (جارة الطالب) الجزائر

عن : Vaufrey

لوحة VII



إلى السان إلهى الأمس واليوم فى صورة أسدين ظهراً لظهر يدعمان الأفق بقرص الشمس فوقهما عند رمز السماء . أسد اليسار يسمى « اليوم » وأسد اليمين يسمى « الأمس » .

لوحة IX

الهوامش

(١) سبق للباحث أن تعرض لذكر هذا التصنيف بشيء من التفصيل فى بحث سابق . انظر للباحث (الفن الصخرى فى بلاد المغرب القديم) بجلة المؤرخ العربى ، العدد السادس ، المجلد ، مارس ١٩٩٨ ، ص ٦٢ - ٦٥ .

(٢) اتجهت بعض الآراء نحو مواطن أصول الأنواع البرية للنباتات والحيوانات . وفى زعمهم أن أقاليم غرب آسيا هى الموطن الأصلى للنباتات التى استزرعها الإنسان فيما بعد ، فهى مهد الزراعة . انظر على سبيل المثال

Butzer. K. W. Environment and Human ecology in Egypt, B. S. R. G. E., xxx11, 1959, p. 44-45, Physical conditions in Eastern Europe, Western Asia and Egypt beforettlement, in the Cambridge Ancient History, (Cambridge), 1970, Vol.1, P. 92.

وكذلك ج. هاوكس ول . وولى ، ثلاثة فصول مترجمة من كتاب (ما قبل التاريخ وبداية المدنية) ، ترجمة وتعليق يسرى الجوهرى ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٣) انظر Braidwood, and Howe, Prehistoric Invetigations in Iraqi Kurdistam, 1960, p. 120. Mellaart in C. A. H., 1967 chap VII.

(٤) مما يذكر عن التشيعيين لهذا الرأى ساقوا بعض التراكيب اللغوية التى تؤيد وجهة نظرهم ، فأشاروا إل وجود عنصر لغوى : آمون أو آمون Amon - Ammon وهو إله كبش للماء فى كل بلاد البربر وليبيا ، وإن هناك كلمة بربرية تعنى الماء هى : آمان وآمون وتستعمل أيضاً فى لهجات الطوراق ، وعند الجوانش Guanches فى جزر الكنارى .

(٥)،(٦) انظر مقال الباحث (الفن الصخرى فى بلاد القديم) سبقت الإشارة إليه فى هامش (١) ص ٧١ لوحة ٩ .

(٧) عن الجرامنت انظر ، فوزى جاد الله ، مسائل فى مصادر التاريخ الليبى قبل هيرودوت ، ليبيا فى التاريخ ، المؤتمر التاريخى ، مارس ١٩٦٨ ، ص ٤٣ - ٨٢ .

(٨) Lahote, H., Ala decouverte des fresques du Tassili, B. Arthaud, Paris, 1973, plts. II, 35.

(٩) مجيد خان ، الرسوم الصخرية لما قبل التاريخ فى شمال المملكة العربية السعودية ، نشر وزارة المعارف السعودية ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م لوحة ٨٠ .

(١٠) للمقارنة انظر Cyril Aldred, Egyptian art, London, 1980, fig. 14

(١١) ج. كى زيربو (الفن الأفريقى فيما قبل التاريخ) منشور فى مجلد (تاريخ أفريقيا العام) اليونسكو ، مجلد ١ ص ٦٧٧ .

(١٢) الملك العقرب من ملوك مملكة الصعيد ، قبل اتحاد القطرين ، ويعتقد أنه ممن حاولوا ضم مملكة الدلتا مع الصعيد فى مملكة واحدة ، قبل الملك (مينا - نعرمر) ومن آثار الملك العقرب نقش على رأس دبوس للقتال .

(١٣) Vaufrey, R. Prehistorire de l'Afrique, t. l. Magherb, Paris, 1955, p.299, pl.44

(١٤) ج. كى زيربو الفن الأفريقى ، اليونسكو ، مرجع سابق ، ص ٦٧٧.

(١٥) الواقع ورد ذكر من جانب مجيد خان ، عن وجود خيول وحشية وأفيال فى مناطق بشمال المملكة العربية السعودية ، واستشهد بلوحة رقم ٢٣ وبالأشكال ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ وجاء فى وصف هذه الأشكال ص ٦١ أنها خيول وحشية أو ربما حمير (؟!) وبتفحص الأشكال المشار إليها ، اتضح لى أنها أقرب إلى كونها حميراً فالأذنان طويلتان والذيل قصير ، وقد اقترح خان لهذه اللوحة الفترة ما بين الألف السابع والألف الخامس قبل الميلاد وهو تاريخ مبكر جداً ، عن العصر الذى ظهر فيه الحصان فى الشرق الأدنى القديم ، ونقول أن نفس الملاحظة تنطبق على ما أورده فى اللوحة رقم ٢٦ ، وفى شأن لوحة رقم ٣٨ : رقمى ٢٥٩ ، ٢٦٠ ربما صور الفنان الحصان بأسلوب تجريدى ولم يقترح خان لهذه اللوحة تقويم زمنى معين ، مما يصعب أن نعول على ما جاء بها . أما بشأن الأفيال فلم يشر خان إلى أى رسم لهذا الحيوان ، ونراه يناقض نفسه فى ١٤٣ حين : قال : « أما الأشكال التى ترمز للفيل فهى تخطيطية بدرجة كبيرة وفى موقعين فقط » (لم يذكرهما !) ثم نراه يعود فيتشكك هو نفسه فيما أورده عن الفيل فيقول (رغم أن وجود الأفيال فى الجزيرة العربية بعيد الاحتمال تماماً أثناء فترة العصر الحجرى الحديث المتأخر . لكن يبدو أنه مألوف لدى الرسامين) (؟!) انظر : مجيد خان ، الرسوم الصخرية

في شمال المملكة العربية السعودية - مرجع سابق ، الصفحات واللوحات المشار إليها آنفاً .

(١٦) في بحث سابق للدارس عن بعض لوحات من النقش الصخري ، عرض لرأيه بخصوص الكثافة الفائقة عن الحد في بعض المواضع وبالجهد الخارق في سبيل تنفيذها . الأمر الذي يجعلنا نعتقد أن أصحاب هذه النقوش كانوا على وشك ابتداع رموز للكتابة خاصة بهم ولكن لظروف بيئية وطبيعية دهمتهم وئدت هذه الإرهاصات الوليدة . انظر للباحث: الفن الصخري في بلاد المغرب القديم . ارجع لهامش (١) .

(١٢) انظر هامش (١١) .

المصادر والمراجع

- فرنان دى بونو " وادى النيل قبل التاريخ " ، فى تاريخ أفريقيا العام ، المجلد الأول ، اليونسكو ١٩٨٥ ص ٦٤١ - ٦٦٣ .

- Bar-Yosef, O., and Phillips, J.L., Prehistorie invenstigations, in Gebel. Maghara, Northern Sinai, Jerusalem, M. I. A. No 7., 1977.

- Clark, J.D., Mesolithic Times, in : The Cambridge Ancient History, Vol, I p. I. 1980.

- Close, A. E., Prehistory of Arid North Africa, Dallas, 1988.

- Debono, F., and Mortensen , B., El - Omari A Neolithic settlement and Other . Sites, in the vicinity of Wadi Hof, Helwan, D D. I. A. Kairo, 1992.

- Eiwanger, J., Merimede Beni salame, III, D. D. I. A., Kairo, 1992, abb 13, 14.

- El-Chericf, H., « Outils Lithiques a Danfik (Nagade), A. S. A. E., t. LXXII, Le Cairo, 1993.

- Hassan, F. A., The Sebilian of the Nile Valley : Some New Concepts, in L.G. Freeman Viens of the post, Paris, 1981.

- Huzayyin, S.A, The place of Egypt in Pre - history, M. I. E., t. 43 Le Caire, 1941.

- Kozlowski, J. K., Récherches Préhistpriques dans la Cirque de Deir el- Bahari (Montagne Thebaine). Etudes et Travaux, IX, T. C. A. M. P. S. (pp. 48 - 55).

- Mc Burney, C. B. M., The Stone Age of Northern Africa, 2nd., ed., London (1980).

- Phillipson, D. W., African Archeology, Cambridge, 1986.

- Rizkana, I, and Secher, J., Maadi II, The Lithic Industries, of the Predynastie Settlement, Kairo, 1988.

- Rocke, J., « Les industries paleolithiques de la grotte de Taforalt (Morac Oriental). Actes du congres Panafricain de Prehistoire, Vi session Dakar, 1967.

- Schild, R., and Wendorf, F., New exeplorations in the Egyptian Sahara, In Problems in prehistory, North Africa and the Levant, Dallas, 1975, pp. 65- 112.

- Taute, W., « Das Ende der Altsteinzeitin Nordafrika, Sahra, 10.000 Jahre Zwischen Weide and Wuste Koln, 1978, pp.48 - 59.

- Vaufrey, R., Préhistoire de L'Afrique, I, Maghreb, Paris, 1955.

- Vignard, E., « Une nouvelle industrielithique Le Sebilien, « B. I. F. A. O. XXII, 1923.

- Vignard, E., « Une Station Aurgnacienne à Nag Hammadi., (Haute Egypte).

Station du champ de Bagasse. « B. I. F. A. O., XVIII, 1921,(pp.1-0).

الخليج العربى : الموقع والأهمية
خلال العصر البرونزى الحديث
(١٤٥٠ - ١٠٠٠ ق. م.)

د. علاء الدين عبد المحسن شاهين(*)

لعبت جغرافيا الخليج العربى دوراً هاماً فى توزع المراكز الحضارية على طول ساحله الغربى بصفة خاصة . وكان لتوافر العديد من المرافىء الطبيعية والمراسى المحمية ، ومياه الشرب من عيون وآبار - خاصة فى واحة الاحساء بشرق السعودية ، فيلكا ، جزيرة البحرين وجزيرة أم النار بدولة الإمارات العربية المتحدة - أثر فى الجغرافيا البشرية لسكان المكان عبر فترات طويلة من التاريخ القديم(١) . إضافة إلى ذلك ، فأن توافر المواد الأولية كالنحاس ، والأحجار ، واللؤلؤ ، وبيض النعام ، ساعد على تبادلها فى متابل ما كان يحتاجه أهل المكان مع سكان المناطق المجاورة من الأخشاب والعاج ، والعقيق الأحمر واللازورد ، وبصفة خاصة بلاد الرافدين (العراق القديم)(٢) ، شمالاً وحتى أقصى الشرق فى منطقة وادى السند ، براً عبر إيران ، أو بطريق المساحلة البحرية إلى سواحل الهند وباكستان ، وخاصة إلى ميناء لوثال(٣) ، اعتماداً على ما ورد فى النصوص السومرية ، حيث وردت كلمة « خارانوم » فى النصوص السومرية بمعنى « رحلة بحرية » ، وكانت تتم عادة فى شهر آيار (مايو) ، وكانت البضائع تجهز فى شهر آذار (مارس) ، وتبحر إلى الساحل الهندى قبل موسم الرياح فى المحيط الهندى(٤) . « انظر خريطة(١) » .

ودلت البحوث الأثرية بالمكان ، وخاصة من البعثة الدانمركية الأثرية من متحف أرهوس بالدانمرك (بدءاً من عام ١٩٥٣) ، وبعض أعمال التنقيبات

(*) كلية الآثار - جامعة القاهرة .

الأثرية من البعثات الإنجليزيـة ، الفرنسية ، الأمريكيـة ، الإيطاليـة ، وكذلـك مـن بعض البعثات العربية المشتركة ، إضافـة إلى بعـض المصـادر النصيـة ضمـن وثـائق حضارات بلاد الرافدين دلت هذه البحوث على قـدم المراكـز الحضاريـة بسـاحل الخليج العربى الغربى منه ، أو الشرقى الإيرانى خلال الألفـين الثـالث والثـانى قبـل الميلاد(٥) ، مع وجود بعض الفراغ التاريخى ، وكذلك عدم العثور على مـا يؤكـد استمرارية الوجود البشرى ، لأسباب متعددة خـلال مـا يعـرف بـالعصر الـبرونزى المبكر والوسيط .

وشـهد العصـر الـبرونزى الحديـث (١٤٥٠ - ١٠٠٠ ق. م.) تغيـيرات عديدة بظهور قوى حضارية جديدة بالمكـان (الشـرق الأدنـى القديـم) كـان لهـا تأثيراتها على المكـان وأهلـه ، وكذلـك عـودة الحيـاة إلى بعـض المراكـز الحضاريـة خاصة فى الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية ، والشمال الغربـى منهـا (اليمن والسعودية على التوالى) ، وما كان له من تأثيرات على المكان واتصالاتـه . وكانت الخريطة السياسية للشرق الأدنى القديم من منتصـف الألـف الثـانى ق. م. واضحـة المعـالم فـى تسـيد قـوى دوليـة بعينهـا علـى منـاطق جغرافيــة محــددة : الإمبراطورية المصرية فى أقصى توسع جغرافى لها اشتمل على النوبة (إلى الجنـوب من مصر وفى جمهورية السودان الحالى) ، ما بين الجندل الرابع وشمالاً إلى الحـدود المصرية فى القطاع الأفريقى ، وفلسطين ، والأردن ، ولبنان ، وجنوب سوريا فـى القطاع الآسيوى(٦) ، الإمبراطورية الميتانية (الحوريـون) فـى الجـزء الشـمالى مـن بـلاد الرافدين ، المملكة البابلية الكاشية (الكاسيون) ذوى الثقافة اللغويـة الآريـة (هندوأوربيـة) كـأحد شـعوب الشـرق الجبليــة (١٥٧٠ - ١١٥٨ ق. م.) ، والإمبراطورية الحيثية (تركيا الحاليـة)(٧) . وشـهدت المنطقـة علاقـات متشـابكة تفاوتت ما بين العلاقات الدبلوماسية ، والتجارية التى كان يدعمها أحياناً الـزواج « الدبلوماسى » من جهة ، أو التزاحم والصراع العسكرى من جهـة أخـرى(٨) . وقد شغلت الأحداث الإمبراطورية الميتانية فى تداخلاتها وصراعهـا فـى جبهتـين : ضد الإمبراطورية الحيثية ، والمصرية القديمـة فـى عهـد ملـوك أسـرة التحامسـة مـن

الدولة الحديثة ، وأن تطورت تلك العلاقات العدائية بين مصر وميتان إلى علاقة تسودها المحبة والصداقة ، دعمها « الزواج الدبلوماسى » من أجل مواجهة النفوذ المتزايد للحيثين في بلاد الأناضول(٩) . ولعل ذلك التداخل فى الصراع منع النفوذ الميتانى من التداخل إلى الجنوب من بلاد الرافدين ضد السيادة الكاشية ، وربما بالتالى من التوسع جنوباً فى مناطق الخليج العربى(١٠) .

وكان لظهور أخطار « شعوب البحر » دور سلبى على المراكز الحضارية الهامة فى الأناضول (تركيا) ، وساحل شرق البحر المتوسط وعلى مصر الفرعونية ذاتها وإلى حين(١١) ، بينما كانت المناطق الشرقية (الأبعد إلى الداخل) نسبياً بعيدة عن خطرها المباشر ، وإن وقعت ذاتها فريسة للنزاع الداخلى ما بين آشور وبابل ، واستفادة عيلام من ذلك ، وتقدمها غربا للإجهاز على بابل ، حيث سقطت الأسرة الكاسية حوالى ١١٦٠ ق. م. تحت ضربات الملك العيلامى « شونروك ناخونته الأول » منهيا بذلك فصل من فصول الحضارة العراقية ، ولتبدأ من بعد زعامة أسرة حاكمة من أيسن (أيسن الثانية ، ١١٥٨ - ١٠٢٧ ق.م.) ، والتى كان آخر ملوكها نبوخذ نصر الأول (١١٢٦ - ١١٠٥ ق. م.) الذى يذكر له محاولة إعادة توحيد البلاد(١٢) .

ومما يرتبط أيضاً بفترة العصر البرونزى الحديث هو معرفة أهل منطقة الجزيرة العربية ، وحواف الخليج العربى الغربية ، لاستئناس الجمل واستخدامه كوسيلة انتقال وحيوان حمل عبر فيافى الصحراء . ولعل ما كان معروفاً عن طبيعة هذا الحيوان من قدرة على الصبر ، وتحمل العطش والجوع ، ما ساعد على اختراق تلك الفيافى من صحراء شبه الجزيرة العربية ، وبدء تدشين سلسلة من خطوط الانتقال لنقل تجارة البخور بصفة رئيسية عبرها . ولعل أهمها ما كان موازياً لساحل البحر الأحمر الشرقى ، من اليمن جنوباً إلى بلاد الشام شمالاً وشمال غرب إلى مصر ، أو باتجاه شمال شرقى إلى منطقة الإحساء على الخليج العربى ، ثم شمالاً إلى جنوب العراق ماراً بالكويت ، أو عبر ساحل ظفار (حضر موت) ثم إلى

الداخل عبر دولة الإمارات العربية المتحدة إلى ساحلها الغربى على الخليج العربى ماراً بمنطقة حفيت وهيلى(١٣) . وتأرجحت عملية استئناس الجمل ما بين ١٤٥٠ ق. م. إلى ٨٥٠ ق. م. وفقاً لما عثرت عليه بعثه جامعة بنسلفانيا الأمريكية من بقايا عظميه بموقع وادى الجوية فى اليمن عام ١٩٨٣(١٤) . بينما رجح «أولبرايت» حدوث ذلك حوالى القرن الثانى عشر قبل الميلادى(١٥) .(انظر خريطة٢) .

وقد رجح رأى لبعثة « جون هوبكنز » الأمريكية ٧٣ - ١٩٧٤ أن الكسر الفخارية المتناثرة على تلال جزيرة عكار « القرين » بالكويت تعود فى معظمها إلى العصور الإسلامية حوالى القرن السابع عشر الميلادى ، واشتملت بينها قطع فخارية مستوردة من منطقة البحر المتوسط من القرن الثانى الميلادى ، وأيضاً بعض الكسر الفخارية الكاسية الطراز من أوائل القرن الخامس عشر قبل الميلاد(١٦) ، والذى يرجح معه وجود تداخل ما بين تلك الجزيرة والقوى السياسية الهامة على مسرح الشرق الأدنى القديم السياسى آنذاك ، وعلى توزع الدلائل الأثرية على اتصالها بالمكان وبغيره من مراكز حضارات الخليج العربى القديمة . ومن اللافت للنظر وجود فراغ زمنى فى التواجد البشرى على جزيرة فيلكا ما بين فترة ايسين الثانى والعصر الكلدانى . ولم يعثر إلا على دليل خادع ممثلاً فى جرة من العصر الحديدى عثرت عليها البعثة الفرنسية أثناء حفائرها فى طبقات العصر البرونزى من موقع فيلكا ٦ (F6)(١٧) .وتشبه تلك الآنية من الجرار (bell - shapes ar) والمزينة بزخرفة من الحبال حولها مع تلك الأوانى الجنازية من نيبور ، لارسا ، تل اللاخوم والبحرين المؤرخة عادة من الفترة ما بين القرن السابع إلى الخامس قبل الميلاد(١٨) . إضافة إلى ذلك فقد عثر على بعض الأختام الأسطوانية الكاشية الطراز أو ذات طراز كاشى زائف ، وعيلامى ضمن موقعى فيلكا ٣ و ٦ (الأختام أرقام ٣٩٨ - ٤٢٢)(١٩) . وبصفة عامة فإن الوجود الكاسى فى فيلكا ذا طبيعة مختلفة تمثل فى أن الأنماط الفخارية من المرحلة (4A) فى موقع القصر (F6) فى فيلكا (١٤٠٠ - ١٢٠٠ ق. م.) محلى الصناعة ، ولم يعثر ضمن أنماطه على

تلك الأوانى الطويلة المميزة من نمط (Flask)(٢٠) . بينما يتضح من أنماط فخار مرحلة (4A) فى فيلكا من موقع (F3) (١٢٥٠ - ١٠٠٠ ق. م.) أنه كان مستورداً من بابل . وعثر على بقايا نمط تلك الأوانى المميزة (Flask) هناك(٢١). كما أن أختام مرحلة العصر الكاسى وما بعده (معظمها من الأخير) عثر عليها فى كل من فيلكا ٣ (F3) وفيلكا ٦ (F6) . وبالمثل فإن البقايا المعمارية المدنية (المنازل) فى (4B) فى فيلكا تنتمى كذلك إلى الفترة الأخيرة من مرحلة العصر الكاسى ، واستمرت إلى ما بعدها(٢٢) .

إضافة إلى ذلك ، فإن معظم الاكتشافات فى مناطق شرق المملكة العربية السعودية خلال الثلاثين عاماً الأخيرة تؤرخ من الألف الأول قبل الميلاد ، من العصر الحديدى إلى العصر الساسانى ، ثم مرحلة ما قبل العصر الهيلينى(٢٣) ، فيما عدا بعض المواد الأثرية المشابهة للحضارة الكاسية حيث عثر على خاتم أسطوانى من الفيانس فى موقع السبخة ما بين الظهران والعقير يؤرخ من القرن١٣ أو ١٢ق.م.، وعلى كسرات من الفخار من النمط المعروف (ring - based goblets) من العصر الكاسى أو العيلامى فى منطقة إلى الجنوب من الظهران ، وذلك عام ١٩٨٣(٢٤). كما رجح Zarins تأريخ المادة الأثرية المكتشفة فى بعض مواقع جبانة الظهران الممثلة فى رءوس سهام نحاسية ، وأحياناً حديدية ، أساور نحاسية وخواتم ، خرز ، محار ضخم ، وبعض الأطباق الصوانية الصغيرة من الجزء الأخير من الألف الثانى ق. م.(٢٥) . كما أن المادة الأثرية من إحدى مقابر الظهران اشتملت على فخار وأدوات حجرية يتطابق على الأقل فيما يتعلق بالأوانى الحجرية مع تلك الأوانى المعروفة من موقع القلعة بالبحرين فى مرحلتها الثالثة (Qalaat City III B) (١٥٠٠ - ١٤٠٠ ق. م.) وتتشابه مجموعة من الأوانى الفخارية من نمط goblet ذات القاعدة المسطحة والدائرية مع مثيلاتها الكاشية العيلامية(٢٦) .

وفيما يتعلق بشبه جزيرة قطر ، فقد لعبت الظروف البيئية ، وعدم توافر المياه وقلة الأعشاب دوراً سلبياً على المكان . ودرج الباحثون على إطلاق صفة «الأرض المجدبة» على المكان . ويبدوأن سكانها اضطروا للهجرة ربما إلى الساحل المقابل : إلى يابسة شبه الجزيرة العربية . ولم يقطع الصمت عن المكان ، وتاريخه منذ العصور الحجرية القديمة والوسطى وربما النيوليثية إلا ما كشف عنه أخيراً من أعمال للبعثة الأثرية الفرنسية فى موقع « الخور » من وجود « ٢ مليون محارة Shell » ، مما يرجح معه أن يكون المكان قد استخدم لاستخراج الأصباغ ، والتى تذكرنا بما كان للفينيقين من ارتباط بالمكان وفقاً لآراء الباحثين القدامى(٢٧) ، أضافة إلى ذلك فإن ارتباط العثور على الأصباغ مع الفخار الكاسى الطابع أكد تأريخ الموقع من أواخر الألف الثانى ق. م. وأوائل الألف الأول ق. م.(٢٨) . وعكس تشابها للفخار المكتشف من مرحلة (4B) فى جزيرة فيلكا الكويتية المؤرخ من أواخر العصر الكاسى(٢٩) . ومن الملاحظ أن معظم ما عثر عليه بعد ذلك فى قطر يرجع إلى عصور متأخرة جداً ، من العصر اليونانى وما تلاه خلال العصر السليوقى بالمكان من القرن الثانى قبل الميلاد(٣٠) .

كما أوضحت الدلائل الأثرية المكتشفة من مواقع دولة الإمارات العربية المتحدة ندرة وجود آثار من العصر البرونزى الحديث فيما عدا موقع القصيص المؤرخ من نهاية الألف الثانى ق. م.(٣١) ، وأن معظم ما دلت عليه أعمال التنقيب الأثرية الأخيرة فى حفيت ، بديع بنت مسعود ، هيلى ، الرميلة ، وقطاره تعود إلى العصر الحديدى(٣٢) ، وفى ارتباط فيما يبدو باختراع نظام الأفلاج كوسيلة رى ، ومع خطوط الاتصال التجارى مع مناطق جنوب غرب شبه الجزيرة العربية بعد عملية استئناس الجمل والقدرة على اختراق الفيافى ، محملاً بإنتاج الجزيرة من البخور ، واللبان المرغوب فيهما من المراكز الحضارية المجاورة وما تلاها(٣٣) .

وقد شهدت مرحلة أواخر العصر البرونزى الوسيط فى دورية الثانى إلى الثالث تناقصاً متزايداً فى ترديد اسم دلمون (البحرين) فى المصادر الميزوبرتاميه .

ويرجع آخر ذكر لها من تلك الفترة من العام الخامس من فترة حكم «سامسوايلونا» (حوالى ١٧٤٥ ق. م.) حيث ورد ذكر « نحاس من دلمون » جنبًا إلى جنب مع « نحاس من آلاشيا »(٣٤) ، والتى رجح أن تكون «قبرص»(٣٥) . وتعود عدة عوامل إلى إنهيار الاتصال التجارى بين بابل ودلمون ، وإلى انهيار الثراء الاقتصادى فى موقع الخليج العربى فى هذا الوقت لعل من بينها انهيار الحضارة الهارابانية Harappan فى أوائل الألف الثانى ق. م. مما جعل من الصعب الحصول على المواد القيمة النفيسة من الشرق ، ونقلها إلى جنوب ميزوبوتاميا خاصة إلى أور . كما توضح الإشارات إلى نحاس الاسيا (= قبرص) مدى التغير فى الاتجاه الاقتصادى ناحية الغرب كمصدر لتلك الموارد الضرورية ، وبالتالى قللت من أهمية ماجان ودلمون كممولين لذلك(٣٦) . وربما كان لغزو أريان (Aryan) لملوخا فى منتصف الألف الثانى ق. م. تأثير سلبى واضح فى توقف بل ووضع حد للعلاقة التجارية مع ملوخا ، وبالتالى سبب إنهياراً سريعاً فى ثراء وغنى، وأهمية دلمون(٣٧) . ولم تظهر دلمون ثانية فى المصادر الميزوبوتامية حتى القرن الرابع عشر ق. م. خلال العصر البرونزى الحديث (LB) . وترجح الدلائل الأثرية من البحرين وفيلكا أن الفترة المتأخرة من الألف الثانى ق. م. كانت فترة هدوء نسبى فى المناطق الشمالية من الخليج العربى ، بينما فى ميزوبوتاميا استمتعت الأسرة الكاشية بداءاً من عام ١٧٥٠ ق. م. بحكم طويل نسبياً تميز فى معظمه بالسلام ، والأتصالات الدولية البعيدة ، كما كان لها علاقات متعددة مع منطقة دلمون (البحرين) ، والتى كانت مصدراً هاماً للتمور(٣٨) . وقد قدمت حفائر البعثة الأثرية لمتحف أرهوس الدانمركية عام ١٩٥٦ الدلائل على الوجود الكاسى بالبحرين فى منطقة القلعة استناداً على العثور على نمط فخار (Carmel ware) المميز للعصر البابلى القديم والعصر الكاسى(٣٩) . كما عثر على دلائل معمارية فى نفس المكان من العصر الكاسى أيضاً . وكان من نتيجة حرق المكان (أو القصر) أن حفظت الكثير من الشردات وبقايا الفخار التى أعطى التأريخ بالراديو كربون ١٤ (C14) تاريخاً من ١١٠

±١٨٠٠ق. م.(٤٠) . كما كشفت أعمال الحفر الأثرى من عام ١٩٧٠ بإشراف الطراونة F. al. Tarawneh فى موقع الحجر عن وجود مجموعة من المقابر (عدد ١٤ قبر) مقطوعة فى الصخر ، تعود مقابر ١،٣،٨،١١،١٢ منها إلى العصر الكاسى ، استناداً على تواجد الفخار ، والأختام الأسطوانية ، وخاتم من الفيانس من نفس نمط نوزى من القرن ١٥ - ١٤ ق. م. عثر عليه فى القبر رقم(١) ووجد عليه تصوير لاثنين من الغزال . كما عثر على خاتم زجاجى مؤرخ من القرن ١٤ - ١٣ ق. م. فى القبر رقم (٣) يبدو عليه رسم حيوان خرافى بوجهين لأسد ، واقفاً على مؤخرته على شكل بشرى مقهور، وممسكاً لأعلى باثنين من الثيران ذات السنام Humped bull(٤١) . كما عثر على أربع مقابر أخرى على الأقل من نفس العصر الكاسى فى موقع « سار » : مدافن ١٥٠ ، ١٥٠أ ، ١٥٠ب ، والمدفن الجماعى رقم ٤٢ بها ، والتى تضمنت بقاياها الأثرية فخار يمكن مقارنته مع فخار موقع المدينة الثالثة بالبحرين (City III)(٤٢). إضافة إلى ذلك ، فقد عثرت البعثة الأثرية الاسترالية فى موقع « بورى » فى موسم ١٩٨١ - ١٩٨٢ على فخار كاسى(٤٣) . كما عثر كذلك على مقابر كاسية فى موقع المقشة ، وكذلك على مقابر ، أو ربما بقايا سكنات ، استناداً على الشردات الفخارية ذات الطابع الكاسى على سطع موقع قرية باربار(٤٤) . كما أوضحت النصوص السومرية المكتشفة من البحرين بواسطة البعثة الأثرية الدانمركيه احتمالية وجود « مدرسة تدريبية » على ارض البحرين ذاتها من العصر الكاسى(٤٥) . وبالمثل عثر عام ١٩٧٩ على قطعة حجرية مستطيلة الشكل أعيد استعمالها فى العهد البارثيانى فى موقع إلى الشمال من رأس القلعة مدون عليها بقايا كتابات سومرية اعتبرها B. Andre - Leicknam نقشاً معمارياً من منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد من فترة حكم المدعو " بورنابورياش الثانى » (١٣٥٩ - ١٣٣٣ ق. م.)(٤٦) .

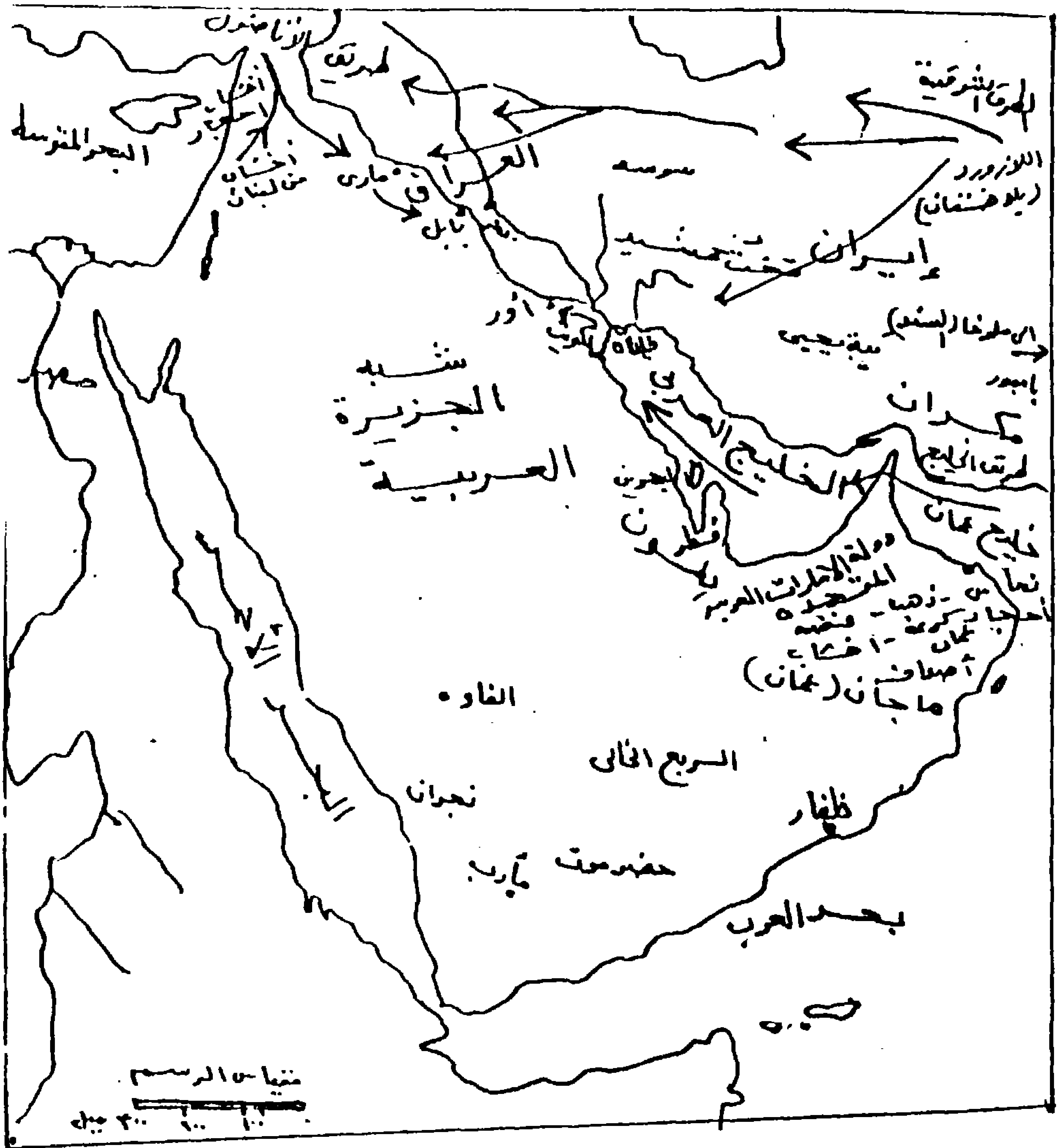
كما وردت إشارة إلى دلمون ضمن نصوص منطقة نيبور التى حفرت بها بعثة أمريكية ما بين ١٨٨٩ - ١٩٠٠م ، وعثر بالمكان على حوالى ١٢ ألف لوحة مكتوبة ، وآثار تعود إلى العصر الكاسى ، اشتملت بينها على لوحتين وردت بهما

إشارة إلى دلمون . ولعل أهمية تلك النصوص أنها لخطابات تمت كتابتها ، وتدونيها فى دلمون ، وأرسلت إلى نيبور ، وإلى أنها ترجح أيضاً وجود « حاكم كاسى على دلمون »(٤٧) . وقد رجح أن يكون هذا الحاكم على دلمون فى الفترة ما بين ١٤٢٠ - ١٤١٠ ق. م. خلال فترة ذروة التوسع الكاسى ، وفى قمة اتصالاتهم الحضارية مع ملوك مصر الفرعونية خلال عصر العمارنة(٤٨) . كما تعكس نصوص إحدى الرسائل التى عثر عليها فى نفر مؤرخة من العام الخامس من فترة حكم بورنابورياش الثانى استمرارية العلاقة مع دلمون من جهة ، وعلى تزويد دلمون لبلاده بتمور من جهة أخرى(٤٩) .

وانتهى هذا الدور من السيطرة المكاسية على دلمون ، ووردت آخر إشارة لذلك الوجود الكاسى بالمكان ضمن أحد نصوص الملك نيكولتى - نينورتا الأول (١٢٤٣ - ١٢٠٧ ق. م.) عثر عليه فى موقع تلول عقير ، يتضمن إحصاء بالغنائم الوفيرة للملك التى حصل عليها بعد هزيمته للحاكم الكاسى Kastiliasu (١٢٣٢ - ١٢٢٥ ق. م.)، وتلقب من بعد بلقب «ملك دلمون وملوخاً»(٥٠). وقد ترتب على ذلك انقطاع ملموس فى التسلسل التاريخى للحضارة فى البحرين لمدة تزيد عن ٥٠٠ عام بعد مرحلة الوجود الكاسى بالمكان وحتى العصر الآشورى الحديث يقطعه أحياناً بعض المكتشفات الأثرية مثلما عثر عليها ضمن أعمال البعثة الأثرية الفرنسية ما بين ١٩٧٩ - ١٩٨٢ بالمكان خاصة أنماط مميزة من فخار ذى لون قرنفلى غامق ، وبصلابة ملموسة ، وفى أشكال جرار طويلة ذات شفة دائرية أو متقلبة ، وجرار ذات قواعد بشكل الطوربيد ، أو فخار أكثر شيوعاً بلون أصفر أو أصفر - برتقالى ، وفى شكل جرار ذات رقاب ، وأوانى بشكل الكؤوس قد تشابه فى بعض أشكالها وملامحها مع فخار حجر بن حميد فى وادى بيحان اليمنى ، وفى منطقة نجران - الأخدود قرب الحدود السعودية اليمنية(٥١) . وبإطلاق فإن سقوط الإمبراطورية الكاشية ، وانتهاء دورها فى السيطرة على ميزوبوتاميا عام ١٢٠٠ ق. م. وما ترتب عليه من فقد سيطرتها عليه جنوب بابل ، ومنطقة الخليج العربى قد ارتبط به وجود تسللات متزايدة من

القبائل البدوية من المنطقة الصحراوية فـى شمـال شبه الجزيـرة العربيـة مـن اراميـين وكلدانيين وسوتيين ، وربما بالمثل من جنوب غـرب الجزيـرة العربيـة استناداً علـى تلك الأنماط الفخارية(٥٢) .

وبالنظر إلى ما سبق ، فإنـه بـالرغم مـن تلـك التغيـرات السياسـية الضخمـة خلال العصر البرونزى الحديث فى مواقع حضارات الشرق الأدنـى القديـم خـارج منطقة الخليج العربى ، وبصفة خاصة فى بلاد الرافدين ووادى النيل وشرق حوض البحر المتوسط فإن مجمل مـا كشـفت عنـه الدلائـل الأثريـة وإلى الآن لا تقـدم لنـا الكثير من مواقع لتجمعات بشرية كثيفة على السـاحل الغربـى مـن الخليـج العربـى فيما عدا منطقة البحرين ، وأن معظم ما عثر عليه بتلك المواقع ارتبط بصفة خاصـة مع تلك التغييرات السلبية الناجمة عن انهيار المراكز الحضارية إلى الشرق من الخليج العربى فى وادى السند بصفة خاصـة والتـى كـان لهـا مـن قبـل صـلات حضاريـة وعلاقات تجارية بالمكان وأهله من جهة ، وفى الوجود الكاسى المكثف خاصة مـع منطقة البحرين من جهة أخرى .



خريطة (١)

أهم المواقع الحضارية فى الخليج العربى

وأهم الموارد الاقتصادية المرتبطة به والمنقولة عبره

خريطة (٢)

أهم خطوط التجارة القديمة عبر الخليج وشبه الجزيرة العربية

الهوامش

(١) البدر (سليمان) ، منطقة الخليج العربى خلال الألفين الثانى والأول قبل الميلاد الكويت ، ١٩٧٨ ، ص ٤٥ - ٤٦ ؛ « الصلات الاقتصادية والسياسية لمنطقة الخليج العربى فى أواخر الألف الثالث ق. م. » مجلة كلية الآداب والتربية العدد ٩ (يونيو ١٩٧٦) ، ص ٢٨ - ٢٩ ؛ الصباح (ميمونة) الكويت حضارة وتاريخ (المجلد الأول) ، الكويت : ١٩٨٩ ص٢٦ .

(٢) تعددت الآراء فى التسمية الواجب إطلاقها على العراق القديم ما بن ميزوبوتاميا بمعنى بلاد ما بين النهرين : دجلة والفرات مع ما فى ذلك من تجاهل لباقى الأراضى المحيطة بالنهرين ، أو بارابوتاميا بمعنى بلاد ما هو خارج النهرين ، أو باطلاق تسميات مرتبطة بدويلات مدنها السياسية : بلاد سومر ، بلاد سومر وأكد ، بلاد بابل ، أو بلاد آشور ، وإن كان من الأفضل إطلاق اسم « العراق القديم » ليغطى كل البعد الجغرافى لحضارات منطقة دجلة والفرات وما حولها . راجع عامر سليمان ، القانون فى العراق القديم ، دار الشئون الثقافية العامة ، بغداد : ١٩٨٧ ، ص ٢٠ - ٢١ .

(٣) البدر ، المرجع السابق ، ص ١٤٧ ، الصباح ، المرجع السابق ص ٢٦ ، زيادة (نقولا) ، تطور الطرق البحرية والتجارة بين البحر الأحمر والخليج العربى والمحيط الهندى ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد الرابع ، السنة الأولى (أكتوبر ١٩٧٥) ، ص ٦٩ - ٩٤ .

(٤) البدر ، المرجع السابق ص ٤٩ ؛ سلطان (غانم) ، الملاحة البحرية وأهميتها للكويت قديماً وحديثاً ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى ، إدارة التأليف والترجمة والنشر ، الكويت ١٩٨٨ ، ص ٣٥ .

(٥) الهاشمى (رضا جواد) ، « دراسة فى مصادر تاريخ وآثار الخليج العربى فى عصوره القديمة » مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٢٨ ، السنة السابعة (أكتوبر ١٩٨١) ، ص ١١٥ - ١٢٩ ، البدر (سليمان) ، « محاولة لرسم معالم حضارية :

التنقيب الأثرى عملية تقنية بالأساس تعتمد على معطيات علوم أخرى . الجزء الثانى » ، المنهل العدد ٤٩٢ ، المجلد ٥٣ (١٤١٢هـ / ١٩٩١م) ، ص ٣٠ - ٣٥ ؛ صالح (عبد العزيز) ، الرحلات والكشوف الأثريه للعصر الحديث فى شبه الجزيرة العربية ، الكويت: ١٩٨١ ، ص ٦٣ - ٨٠ .

(٦) راجع مقالة : Kemp, B.J. « Imperialism and Empire in New Kingdom Egypt » (c.1575 - 1087 B. C. « Imperialism in the Ancient world. Edited by Gatnsey, P. D. and whittaker. C. R. Cambridge University Press : 1978, pp. 7-57; pp. 284 - 373.

(٧) فرزات (محمد حرب) ومرعى (عيد) ، دول وحضارات فى الشرق العربى القديم سومر وآكاد ، بابل وآشور ، آمورو وآرام . دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر دمشق : ١٩٩٠ ، ص ١٥٩ - ١٦٠ ؛ ص ١٧٢ .

(٨) فرزات ومرعى ، المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

(٩) فخرى (أحمد) ، مصر الفرعونية ، القاهرة : ١٩٧١ ؛ توفيق (سيد) ، معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية ، دار النهضة العربية ، القاهرة : ١٩٨٧ : Hayes. W. C. « Egypt : Internal affairs from Tuthosis I to the Death of Amenophis III », CAHII, Part I, Cambridge University Press : 1973, p. 343.

(١٠) فرزات ومرعى ، المرجع السابق ، ص ١٦٣ - ١٧٢ .

(١١) توفيق ، المرجع السابق ، ص ٣٢٩ .

عن شعوب البحر وأخطارها راجع أيضاً :

Sandars, N. K. The sea People, London : 1978.

(١٢) فرزات ومرعى ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(١٣) صالح (عبد العزيز) ، تاريخ شبه الجزيرة العربية فى عصورها القديمة ، الأنجلو المصرية القاهرة : ١٩٨٨ ، ص ٢٧ ؛ مهران (محمد موسى) ، دراسات فى تاريخ العرب القديم ، الإسكندرية : ١٩٩٢ ، ص ١٢٨ ، ص ١٣٣ - ١٣٦ ؛ غلاب (محمد السيد) التجارة فى عصر ما قبل الإسلام ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثانى : الجزية العربية قبل الإسلام ، مطابع جامعة الملك سعود ، الرياض : ١٩٨٤ ، ص ١٨٩ - ١٩٨ ؛ خريطة رقم (٤) ؛ رشيد (صبحى أنور) ، (العلاقات بين وادى الرافدين وتيماء) دراسات فى تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثانى : الجزيرة العربية قبل الإسلام، جامعة الملك سعود ، الرياض : ١٩٨٤ ، ص ٣٨٧ - ٨٩ .

(١٤) توبلن (مايكل) ، الجوبة ، مشروع وادى الجوبة الآثارى . الجزء الأول : المسح الآثارى فى الجمهورية العربية اليمنية عام ١٩٨٤ ، ترجمة زاهى حواس ومراجعة د. حاب الله على حاب الله ، المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان بواشنطن : ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ .

(١٥) صالح ، المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(١٦) النجار (جواد كاظم) ، « التنقيب فى جزيرة عكاز (القرين) ١٩٧٨ (الموسم الأول)، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٢٣ ، السنة السادسة (يوليو ١٩٨٠) ، ص ٢٤٣ - ٤٤ .

(١٧) سال (ج.ف) تقرير عن انجازات البعثة الفرنسية للكشف الأثرى لجزيرة فيلكا (١٩٨٣ - ١٩٨٧) وخطة البعثة للكشف الأثرى ١٩٨٨ - ١٩٩٢ ، ترجمة د. عز الدين إسماعيل غربية ، وزارة الإعلام ، إدارة الآثار والمتاحف ، الكويت ؛ - Salles (Jean Francois), Failake, Fouilles Francaises 1983, Travaux de La Maison I'Orient No.9, Lyou : 1984

(18) Potts, D. T. The Arabian Gulf in Antiquity. vol. I : Form Prehistory to the fall of the Achaemenid Empire. Oxford : 1990, p.329.

(١٩) كيروم (ب) ، فيلكا من مستوطنات الألف الثانى قبل الميلاد . المجلد الأول ، الجزء الأول : الأختام والأختام الأسطوانية ترجمة د. خير ياسين ومراجعة د. سليمان البدر ود. عز الدين غربية ، إدارة الآثار والمتاحف ، وزارة الأعلام ، الكويت (بدون تاريخ نشر ص ١٧١ - ٧٨ .

(20) Denton, B. E. The Late Second millennium B. C. in the Arab / Iranian Gulf, ph. D. Disserlation, UmI, Ann Arbor : 1991, p. 277.

(21) Denton, Op. cit., p. 277.

(22) Denton, Op. cit., p. 277.

(23) Potts, Op. cit., p. 330.

(24) Potts, Op. cit., p. 303.

(25) Zarins, J. Mughannum. A. S. and Kamal, M., « Excavations at Dhahran South the tomuli field (208 - 92). 1403 A. H., 1983. A Preliminary Report », Atlal the Journal of Saudi Arabian Archaeology 8 (1984), pp. 25-54; Denton, Op. cit., p. 266.

(26) Denton, Op. cit., p. 278. Potts, Op. cit., p. 303.

(27) Rice, M. Search for the Paradisce Land. An introduction to the Archaeology o Bahrain and the Arabian Gulf from the earliest times to the death Alexander the Great. Lonodon and New York : 1984, P. 227.

اعتقد تيودرور بنت فى أن مقابر البحرين تعود إلى الفينيقين قبل هجرتهم من الخليج العربى اعتماداً على دراسته للآثار ، وتأثره برأى هيرودوت الداعى بأن الفينقيين كانوا يدعون فى عهده بأن إسلافهم جاءوا من الخليج . راجع البدر ، منطقة الخليج العربى خلال الألفين الثانى والأول قبل الميلاد ، ص ٢٦ .

(28) Rice, Op. cit., p. 278.

(29) Denton, Op. cit., p. 278.

(30) Rice, Op. Cit., p. 227.

(٣١) البدر ، المرجع السابق ص٣٨ .

(٣٢) بوشارلات (ريمى) وبيير لومبارد ، « نتائج التنقيات فى موقع رميلة / العين ١٩٨٠ - ١٩٨٣ » ترجمة وليد التكريتى ، مجلة الآثار فى دولة الإمارات العربية المتحدة ، العدد ٤ (١٩٨٥) ، ص٤٢ - ٥٩ ؛ شعت (شوقى) ، « التقنيات الأيرية فى الخليج العربى وأهميتها التاريخية » الخليج العربى . دراسات تاريخية وجغرافية منذ أقدم العصور حتى الوقت الراهن ، دمشق : ١٩٩٣ ، ص ٥٦-٥٩.

(٣٣) هيستنجر(أ) ، عمان فى الألف الثالث قبل التاريخ الميلادى مترجم إلى العربية ، سلسلة تراثنا العدد ٤١ ، سلطنة عمان ، إدارة التراث القومى والثقافة : ١٩٨٣ ، ص ٢٦ ؛ ولكنسون _ جى) الأفلاج ووسائل الرى فى عمان ، ترجمة محمد أمين عبد الله، ١٩٨١ ؛ سيد (عبد المنعم عبد الحليم) ، « البخور عصب تجارة البحر الأحمر فى العصور القديمة » ، البحر الأحمر وظهيره فى العصور القديمة . مجموعة بحوث نشرت فى الدوريات العربية والأوربية ، الأسكندرية : ١٩٩٣ ، ص ٥٧٨ - ٧٩ .

(34) Denton, Op. cit., p. 49.

(35) Wachsmann, S. « Is Cyprus Ancient Alashiya? New evidence From an Egyptian Tablet ». Biblical Archaeologist 49.1 (March 1986), p. 37.

(36) Denton, Op. cit., p. 50.

(37) Vine, P. Pearls in Arabian Gulf. The Heritage of Bahrain, Immel Publishing , p. 26.

(38) Denton, Op. cit., p. 50. Vine. Op. cit., p. 26.

(39) Potts, Op. cit., p. 298.

(40) Potts, Op. cit., p. 299.

(41) Potts, Op. cit., p. 302.

(42) Potts, Op. cit., p. 302.

(43) Potts, Op. cit., p. 302.

(44) Potts, Op. cit., p. 303.

(45) Potts, Op. cit., p. 307.

(46) Potts, Op. cit., p. 307.

(47) Potts, Op. cit., p. 309.

(48) Potts, Op. cit., p. 310.

(٤٩) البدر ، المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(50) Potts, Op. cit., p. 314 ; Vine. Op. cit., p.27.

(51) Potts, Op. cit., p. 314 -15.

(52) Vine, Op. cit., p. 27. Potts, Op. cit., p. 392.

التقاويم السبئية الحميرية

فى ضوء نقش حميرى جديد

أ. د. عبد المنعم عبد الحليم سيد(*)

لم يعرف اليمنيون القدماء نظاما موحدا للتأريخ ، فهم لم يؤرخوا بسنى حكم ملوكهم وحكامهم ، ولم يدونوا قوائم بأسماء هؤلاء الملوك والحكام كما فعل المصريون القدماء . والتاريخ الوحيد بسنى حكم الملك الوارد فى النقوش اليمنية القديمة ، سجل خارج اليمن وبالتحديد فى مصر ، وهو التاريخ المنقوش على تابوت التاجر المعينى « زيد أيل بن زيد » (المحفوظ الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة) الذى عاش فى مصر فى عصر البطالمة ؛ فقد جاءت فيه عبارة « ب و ر خ هـ / ك ى ح ك / خ ر ف / ث ن ى / و ع ش رى / ك ت ل م ى ث / م ل ك ن « وترجمتها » فى شهر كيهك (من) السنة الثانية والعشرين من (عصر) بطلميوس الملك (Abdel Monem 1984, p. 93) والعبارة تسرد تاريخ دفن التاجر المذكور . ومن الواضح أن كاتب هذا النقش تأثر بأسلوب التأريخ السائد فى مصر فى العصر البطلمى والذى من الواضح أنه استمرار لأسلوب التأريخ الذى كان متبعاً فى عصر الفراعنة .

أن كل ما أورده اليمنيون القدماء من تأريخ للأحداث فى نقوشهم يقتصر على ذكر أرقام السنوات فقط أو ذكر أرقام السنوات مقترنة بأسماء غامضة أكثرها شيوعاً فى النقوش الأسماء : « مبحض بن أبحض » ونبط (نبط أيل بن ابأمر RES 4133) ثم اسم تعرف عليه العلماء أخيراً وهو « ابعلى بن .. » ويبدو من تركيب هذه الأسماء واحتوائها على كلمة « بن » أنها أسماء أجداد أوائل أو زعماء قدامى للقبائل(١) .

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

وقد ظل العلماء حائرين أمام التواريخ المقترنة بهذه الأسماء أو المذكورة بدونها حتى تمت ترجمة النقش المعروف بين النقوش اليمنية القديمة باسم « نقش حصن الغراب » ترجمة صحيحة(٢) ، فقد ساعد ذلك العلماء على التوصل إلى بداية أحد التقاويم اليمنية بأن هذه البداية كانت سنة ١١٥ قبل الميلاد . وقد أطلقوا على هذا التقويم فى أول الأمر « التقويم السبئى » ثم عدلوا التسمية فى السنين الأخيرة إلى « التقويم الحميرى » (لأسباب سنذكرها فيما بعد) . والحقيقة أنه لا السبئين ولا الحميريين استخدموا تقويما فى ذلك التاريخ ، فإن أقدم نقش مؤرخ بهذا التقويم يرجع إلى القرن الثالث الميلادى ، عندما بدأ اليمنيون يذكرون تاريخ بعض الأحداث مقترنة إما باسم التقويم الذى أطلقوا عليه « مبحض بن أبحض » أو باسم التقويم الذى دعوه « نبط » (أو باسم تقويم « أبعلى » الذى لم يتعرف العلماء على اسمه إلا أخيراً) أو يذكرون رقم السنة دون ذكر أى من هذه الأسماء أى أن إتباع اليمنيين للتأريخ للأحداث بدأ بعد البداية المذكورة للتقويم (عام ١١٥ ق. م.) بحوال أربعة قرون .

والذى ساعد العلماء على تحديد عام ١١٥ ق. م. (وهو الرأى الغالب لأن بعضهم حدد هذا التاريخ بسنة ١٠٩ أو بين ١١٨ و ١١٠ قبل الميلاد) كبداية للتقويم المذكور فى نقش حصن الغراب ، وورود العبارة التالية فى السطور الأخيرة من النقش « أ ح ب ش ن / ... ك هـ ر ج و / م ل ك / ح م ى ر م / ... ور خ هـ و / د ح ج ت ن / ذ ل أ ر ب ع ى / و س ث / م ا ت م/ خ ر ف ت م » (RES 2633) .

وترجمتها « الأحباش ... عندما قتلوا ملك حمير ... تاريخه (شهر) ذو الحجة (لسنة) ٦٤٠ من التقويم »(٣) .

وكما نرى لم يذكر النقش اسم التقويم الذى تنتمى إليه تلك السنة ، ولكن الباحثين عادلوا أحداث هذا التاريخ بما ورد فى المصادر الحبشية والمصادر المسيحية البيزنطية عن حملة الأحباش على اليمن على أثر مذبحة (أو محرقة) شهداء نجران ،

وتوصلوا إلى أن ذلك الغزو حدث سنة ٥٢٥ ميلادية . ومن هنا اعتبروا أن سنة ٥٢٥ م هذه هى السنة المقابلة لسنة ٦٤٠ المذكورة فى نقش حصن الغراب . وبطرح السنين ٦٤٠ - ٥٢٥ = ١١٥ أمكن التوصل إلى أن سنة ١١٥ ق. م. هى بداية التقويم الذى تنتمى إليه سنة ٦٤٠ . ولما كانت لا توجد نقوش يمنية مؤرخة بالسنة التى تعادل سنة ١١٥ ق. م أو حتى السنوات التى بعدها حتى القرن الثالث الميلادى فقد اعتبر الباحثون هذه السنة البداية « النظرية » للتقويم اليمنى ، واعتبروها « نظرية » لأن هذا التقويم لم يستخدم فعلاً إلا بعد هذه البداية بحوالى أربعة قرون .

غير أن الذى حير العلماء ورود أرقام سنوات فى النقوش اليمنية مقترنة بأسماء التقويمين « مبحض بن ابحض » و « نبط » ، فافترض بعضهم بدايات لهذه التقاويم تتطابق أحياناً مع التاريخ الذى يبدأ نظرياً بعام ١١٥ ق. م. ، والذى أطلقوا عليه التقويم الحميرى لأنه ورد فى القرن الثالث الميلادى مقترنا بأسماء الملكين الحميريين « ياسر يهنعم وشعر يهرعش » ، بينما افترض آخرون بدايات مختلفة عن بداية هذا التاريخ ومثال ذلك العالم « البرت جام » الذى افترض أن تقويم « مبحض » هذا بدأ سنة ٩٧ قبل الميلاد (Jamme 1962, p. 362) أى أن هناك فارق زمنى بينه وبين التقويم الحميرى يبلغ ١٨ سنة بزيادة التقويم الحميرى ، كما افترض أن تقويم « نبط بدأ حوالى عام ٣٤ ق. م. (Ibid) ولكن من ناحية أخرى فقد تنبه علماء آخرون مثل العالم « بيستون » إلى أن تقويم « مبحض » هو نفسه التقويم الحميرى (الذى كان يسميه فى البداية « التقويم السبئى ») ولكنه اعترف أن آرائه هذه هى مجرد افتراضات (Beeston 1981, p. 4) كما فسر بيستون علاقة التقاويم الثلاثة ببعضها تفسيراً صحيحاً فقال أن تقويم «نبط» كان يستخدم إلى جانب تقويم « مبحض » فى القرن الثالث الميلادى ، ثم أهمل تقويم « نبط » وبقى تقويم « مبحض » مستخدما فى النقوش السبئية المتأخرة (يقصد الحميرية) وافترض بيستون أن الفارق بين تقويمى « مبحض » و« نبط » يتراوح بين ٧٠ و ٨٠ سنة (Beeston 1981 , p. 3) . وقد اتفق رأى العالم

« جونزاج ريكمانز » مع رأى بيستون فى أن تقويم « مبحض » هو نفسه التقويم السبئى (يقصد الحميرى) ولكنه أخطأ عندما افترض أن التاريخ الوارد فى النقش رقم RES 3958 المؤرخ بسنة ١٤٤ هو بالتقويم الحميرى (Ryckmans 1943, p. 236) لأنه سوف يتضح أنه مؤرخ بتقويم آخر لم يرد اسمه فى النقوش قبل قراءة نقش المعسال ، وهو التقويم المسمى « ابعلى » كما سنذكر بعد(٤) . وقد حاول العالم البريت تفسير أصل تقويم نبط فقال أنه ينسب إلى آخر ملك قتبانى وهو الملك « نبطم يهنعم » لأن الذين استخدموه هم قبائل بنى ذرانح « الذين كانوا يسكنون منطقة كانت خاضعة لدولة قتبان قبل خضوعها لدولة حمير . وقد حدد البريت بداية تقويم « نبط » بالسنة الخامسة قبل الميلاد (Albright 1958, p. 6) ولكن هذا التاريخ ثبت عدم صحته بعد قراءة نقش المعسال . وكل هذه الاراء سواء الصحيح منها وغير الصحيح كانت مجرد احتمالات تفتقر إلى إثبات بالدليل الأثرى ، حتى تم الكشف فى السنين الأخيرة عن نقوش جديدة فى منطقة جبل المعسال التى تقع على بعد ١٥٠ كيلو مترا إلى الجنوب الشرقى من صنعاء وكانت هذه المنطقة تسكنها قبيلتان هما قبيلة « ردمان » وقبيلة « خولان » (وهذه الأخيرة غير قبيلة خولان المعروفة التى كانت تسكن فى شمال غرب اليمن بالقرب من مدينة « صعدة ») تنضويان تحت لواء قبيلة كبرى تدعى « بنو معاهر» ومنطقة هذه القبائل تقع إلى الجنوب من دولة سبأ وإلى الشرق من دولة حمير وإلى الجنوب الغربى من دولة قتبان ، أى أنها فى موقع الاحتكاك بين هذه القوى الثلاث (انظر الخريطة) ويبلغ عدد نقوش جبل المعسال (١٨ نقشاً) ، أهمها جميعاً النقش رقم ٢ طبقاً لترقيم البعثة الفرنسية . وقد سبق أن نسخت بعثة ألمانية بعض هذه النقوش ووصفها العالم الألمانى « والتر مللر »بوجه عام (Muller 1973, p. 16) ، ثم نشر العالم البلجيكى « البرت جام » بعض النصوص (Jamme 1976, p.110) وأعطاها الأرقام (Ja. 2861, 2864, 2867 .....) . ولكن لم يتمكن هؤلاء العلماء من نشر النقوش كاملة بسبب وعورة المنطقة وشدة انحدار الصخر من ناحية ولارتفاعها الشاهق وصغر حجم حروفها من ناحية أخرى.

ولذلك لم تظهر أهمية هذه النقوش مما نشره عنها كل من والتر مللر والبرت جام، حتى تمكنت البعثة الفرنسية (MAFRAY) باستخدام وسائل أكثر تقدما ومن بينها عدسات مقربة قوية من نسخ هذه النقوش كاملة أو شبه كاملة ، وتمكن العالم الفرنسى كريستيان روبان من قراءتها (Robin 1981, pp. 316 - 339) ، وركز دراسته على النقش رقم (٢) . الذى ألقى ضوءاً جديداً على التقاويم اليمنية، كما غير من تواريخ حكم بعض ملوك سبأ وحمير التى كانت شائعة بين علماء الدراسات اليمينة القديمة .

لقد كان جبل المعسال يقع فى نطاق عاصمة قبيلة بنى معاهر التى تدعى فى النقوش « وعلان » وهذه القبيلة قتبانية الأصل أى كانت تخضع فى أول الأمر لدولة قتبان ثم خضعت لدولة حضر موت عندما اسقطت هذه الدولة دولة قتبان . ثم ما لبثت قبيلة بنى معاهر أن خضعت لدولة حمير عندما غزا ملوك حمير دولة حضر موت . وهكذا كانت قبيلة بنى معاهر وعاصمتها وعلان فى مركز الصراع بين هذه الدول الثلاث الذى انتهى بسيادة دولة حمير والتى ما لبثت أنْ اسقطت دولة سبأ وسيطرت على اليمن كله . وكان ذلك فى عصر الملكين الحميريين ياسر يهنعم وابنه شمر يهرعش . وقد أرخت النقوش التى تروى هذه الأحداث لسنوات ٣٨٥، ٣٨٩ ، ٣٩٦ ولم يكن معلوماً قبل قراءة نقش المعسال رقم (٢) مدلول هذه الأرقام على وجه التحديد وأن كان بعض العلماء قد رجح أن تكون هذه التواريخ محسوبة ابتداء من عام ١١٥ ق. م. كما قلنا، ولكن ذلك كان فى عداد الاحتمالات ويحتاج إلى دليل من النقوش حتى جاء هذا الدليل بشكل حاسم فى نص من النقش المذكور كما يلى :

القراءة : ب و ر خ ن / ذ م ذ ر أن / ذ ل ت س ع ت / و س ب ع هـ ى/

الترجمة : فى شهر ذومذر أن (يولية) من (سنة) تسع وسبعين .

القراءة: و م أ ت/ خ ر/ ى ف ت م / ب ن / خ ر ف / أ ب ع ل ى / ب ن/

الترجمة : ومائة (من) التقويم (حرفيا : سنوات) (الخاص) بزمن ابعلى بن ...

القراءة:/و ت خ ر ف/ ح م ى ر م/ ذ ل ث ل ث ت/ و س ث هـ ى/و ث ل ث

الترجمة : ... (الموافق فى) التقويم الحميرى (سنة) ثلاثة وستين وثلاث

القراءة : م أ ت م / ب ن / خ ر ف / م ب ح ض / ب ن / أ ب ح ض

الترجمة : مائة من تقويم (حرفياً : سنة) مبحض بن أبحض .

والواضح من هذا النص أنه حل مشكلة التعرف على تقويم « مبحض بن أبحض » وإثبات أنه هو نفسه التقويم الحميرى المستخدم فى نقوش العصور التالية، وبذلك ثبتت آراء كل من بيستون وريكما نزالتى ذكرناها والتى كانت قبل ذلك مجرد افتراضات . ولتفسير اختفاء اسم « مبحض بن أبحض » كأسم للتقويم من هذه النقوش قال العلماء بأنه حدث بعد توحيد دولة حمير لليمن كله تحت لوائها ، فلم يعد هناك داع لذكر اسم التقويم لأنه أصبح مفهوما أنه التقويم الخاص بالدولة الحاكمة.

وكانت لمعادلة السنة ٣٦٣ من التقويم الحميرى بالسنة ١٧٩ من تقويم «ابعلى» كما ورد فى النقش المذكور نتيجتان هامتان الأولى هى التعرف على البداية النظرية لتقويم « أبعلى » وهى سنة ٦٩ ميلادية (٣٦٣ - ١٧٩ = ١٨٤ - ١١٥ ق. م. = ٦٩م) . والنتيجة الثانية هى التعرف على التواريخ

الواردة فى النقوش التى أرخت بهذا التقويم دون أن تذكر اسمه لأن كلمة «أبعلى» وردت فى هذا النقش لأول مرة فى النقوش اليمنية القديمة ، فقد تمكن العلماء من التعرف على التواريخ المدونة بهذا التقويم من مقارنة أسماء القبائل والمناطق المقترنة بهذه التواريخ باسماء القبائل والمناطق الواردة فى نقش المعسال رقم (٢) ومثال ذلك النقش المرقم RES 3958 فى مجموعة النقوش السامية الذى لم يكن مصدره الأصلى معروفاً لدى العلماء هل هو من وادى بيحان ، أم من مارب ، أم من منطقة ريدان .(RES TOME, VI, P. 12) وهو مؤرخ بسنة ١٤٤ دون ذكر اسم التقويم ، فقد ورد فى هذا النقش ما يفيد أن كاتبه « القيل » (أى أمير الحصن) « نص يهحمد » ينتمى لقبائل ردمان وخولان ومعاهر ، وأن عاصمته هى « وعلان » (التى يقع فى نطاقها جبل المعسال) . ومن الواضح أنها نفس القبائل ونفس المنطقة المذكورة فى نقش المعسال رقم (٢) الذى أمكن عن طريقه التعرف على بداية تقويم « أبعلى » وهى سنة ٦٩ ميلادية كما تقدم ، وبذلك أمكن تحديد التاريخ الميلادى المقابل لسنة ١٤٤ المؤرخ بها النقش وهى سنة ٢١٣ ميلادية . وقد استخدمت نفس الطريقة للتعرف على التاريخ الميلادى للنقوش الأخرى المؤرخة بهذا التقويم دون ذكر اسمه وهى السنوات ٧٢ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٧٢ ، ١٧٩ ، ١٩٨ ، وذلك بإضافة الرقم ٦٩ إليها فهى بذلك تعادل السنوات الميلادية ١٤١ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٤١، ٢٤٨ ، ٢٦٧ على التوالى .

وبتطبيق النتيجة التى توصل إليها العلماء من التوحيد بين التقويم الحميرى وبين تقويم « مبحض بن ابحض » أمكن تحديد السنوات الواردة من عصر الملكين « ياسر يهنعم » وابنه « شمر يهرعش » المؤرخة بتقويم مبحض بن أبحض وهى السنوات ٣٨٥ ، ٣٨٩ ، ٣٩٦ المذكور معها اسم التقويم بالإضافة إلى السنة ٤٠٩ التى لم يذكر معها اسم التقويم ، بأنها تعادل التواريخ الميلادية ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٨١ ، ٢٩٤ على التوالى .

وقد أفادت هـذه النتيجـة أيضـاً فـى التعـرف على البدايـة النظريـة للتقويـم المسمى « نبط » المذكور فى النقش رقم RES 4196 فى مجموعة النقوش السـامية والمؤرخ بسنة ٣١٦ من هذا التقويم ، فمن دراسةهذا النقش تبين أن كاتبه « القيل فرعن يازل » من قبيلة « بنى ذرانح » يظهر خضوعه للملكين ياسـر يهنعـم وابنـه شمر يهرعش أى أن النقش كتب أثناء اشتراك هذين الملكين فى الحكم ، ولما كانت هذه الفترة طبقاً لما سبق استخلاصه تمتد بين عامى ٣٨٥ و٤٠٩ حميريـة فـلا شـك أن عـام ٣١٦ مـن تقويـم « نبـط » يقـع فـى نطـاق هـذه الفـترة التـى إذا أخذنـا متوسطها وهو سنة ٣٩٧ حميرية وعادلناها بسـنة ٣١٦ مـن تقويـم « نبـط » فـأن فرق التقويمين يكون حوالى ٨١ سنة ، وهذه النتيجة تتفق تقريبـاً مـع رأى بيسـتون الذى سبق أن حدد الفرق بين التقويمين (قبل قراءة نقـش المعسـال رقـم ٢) بمـدة تتراوح بين ٧٠ و ٨٠ سـنة (Beeston 1981, p. 3) وعلـى هـذا فـأن البدايـة النظريـة لتقويـم نبـط هـى حـوالى عـام ٣٥ - ٣٤ قبـل الميـلاد (١١٥ - ٨١ = ٣٤)(٥) .

وكما قلنا فأن العلماء استخدموا عبارة « البداية النظريـة » لإطلاقهـا علـى سنوات بدايـة التقـاويم الثلاثـة وهـى ١١٥ ق. م. للتقويـم الحمـيرى أو تقويـم «مبحض بن أبحض» و ٣٤ ق. م. لتقويم « نبط » ، ٦٩ ميلادية لتقويم «ابعلى» وسبب ذلك أن هذه التقاويم لم تستخدم فعلاً فى هذه التواريخ ولكنها استخدمت بعد عدة قرون منها ، وعندما استخدمها اليمنيون فى هذا الوقـت المتـأخر نسـبوها إلى اسماء أجداد قدماء (رؤساء قبائل أو حكام أوائل) عاشوا خلال فترات البدايـة هذه . ويتضح ذلك من وجود كلمة « بن » فى اسماء هذه التقاوم وهى تعنـى أمـا « ابن » أو « من قبيلة » التى يليها اسم الأب أو القبيلة .

نتائج قراءة نقش المعسال بالنسبة لتعاصر ملوك سبأ وحمير :

أن النتائج السابقة التى توصل إليها العلماء من قـراءة نقـوش جبـل المعسـال وخاصة النقش رقم (٢) ، وأن كانت قد حلت مشكلة التعرف على ما هية وبداية

التقاويم اليمنية القديمة وتحديد المقابل الميلادى للتواريخ الواردة فى النقوش المؤرخة بها ، إلا أنها خلقت من ناحية أخرى مشكلة كبيرة هى اختلاف تواريخ حكم ملوك سبأ وحمير اختلافاً كبيراً عما كان معروفاً لدى العلماء من قبل ، فإن الذى دون النقش رقم (٢) وهو القيل « لحى عثت أوكن » أمير وعلان روى فيه أخبار انتصار سيده الملك الحميرى « كرب أيل أيفع » الذى أطلق عليه فى النقش لقب « ملك سبأ وذو ريدان » أى بإضافة كلمة « سبأ » إلى لقبه (وهذا له مغزى كبير سنتنا وله فيما بعد) - وقد روى هذا القيل انتصار مليكه الحميرى على الملك السبئى « أيل شرح يحضب » فى موقعة أطلق عليها اسم « ح ق ل ن / ذ ح ر م ت م » أى « حقل ذى حرمة » (Robin 1981, p. 323) والنقش مؤرخ كما ذكرنا بسنة ١٧٩ ابعلى وبسنة ٣٦٣ حميرية اللتان تعادلان سنة ٢٤٨ - ٢٤٩م . والدليل على صحة هذه المعلومات أن هذه المعركة نفسها ذكرت فى نقوش الملك السبئى « أيل شرح يحضب » باسم « ح ق ل / ح ر م ت م » أى « حقل حرمة » وذلك بين النقوش التى ترجع لعصر هذا الملك السبئى والتى وجدت فى معبد مأرب المسمى « محرم بلقيس » والتى نشرها العالم « البرت جام» وخاصة النقش رقم Ja578 (Jamme 1962, pp. 83 - 86) غير أن الطريف فى الأمر أن أعوان الملك السبئى « أيل شرح يحضب » الذين دونوا أخبار هذه المعركة فى النقوش المذكورة أدعوا انتصار مليكهم على الملك الحميرى الذى أطلقوا عليه لقب « ذو ريدان » فقط أى مجردا من كلمة « سبأ » بينما أطلقوا على مليكهم « ملك سبأ وذوريدان » وهذا معناه أن كل من الملكين السبئى والحميرى أضاف إلى لقبه الأصلى الذى به اسم بلاده (وهى « سبأ » بالنسبة للملك السبئى و « ريدان » بالنسبة للملك الحميرى) - اضاف اسم بلاد خصمه رمزاً لانتصاره عليه فادعى كل منهما إنه « ملك سبأ وذوريدان » وفى الوقت نفسه عندما يذكر كل منهما اسم ولقب خصمه يجرده من اسم بلاده هو ، فالملك

السبئى يدعو الملك الحميرى « كرب ايل (ايفع) ذوريدان أى بدون ذكر كلمة « سبأ » والملك الحميرى يدعو الملك السبئى «ايل شرح يحضب ملك سبأ» أى بدون ذكر عبارة « ذو ريدان » .

وهكذا تنافس الملكان فى انتحال لقب « ملك سبأ وذو ريدان » وفى تجريد كل منهما الآخر من أى ادعاء بالسيطرة على خصمه ، كما تنافسا فى ادعاء كل منهما الانتصار على الآخر فى موقعة حقل ذى حرمة .

ويهمنا من هذه المساجلات والروايات المتناقضة أن الملك السبئى « أيل شرح يحضب » وهو أيل شرح يحضب الثانى فى قوائم ملوك سبأ يميز بأخيه « يازل بين» عن أيل شرح يحضب الأول الذى يرجح أنه عاش فى القرن الأول الميلادى (Kitchen 1994, pp.11-13 & 202) وهذا الملك عاصر الملك الحميرى « كرب أيل ايفع » الوارد اسمه فى نقش المعسال رقم (٢) مقترنا بتاريخ محدد (تاريخ معركة حقل ذى حرمة) وهو ٣٦٣ حميرية (زمن مبحض بن ابحض) و١٧٩ ابعلى ، وهما التاريخان المعادلان لسنة ٢٤٨ - ٢٤٩ ميلادية وهذه النتيجة احدثت انقلاباً كبيراً فى تحديد تواريخ حكم ملوك سبأ وملوك حمير فقد ترتب عليها انتقال فترة حكم الملك السبئى « ايل شرح يحضب الثانى » من أواخر القرن الأول قبل الميلاد وبالتحديد فى الفترة من ٥٠ - ٢٠ ق. م. كما كان سائداً بين المؤرخين من قبل Jamme 1962, p.391 إلى ما بين عامى ٢٤٠ - ٢٦٠ ميلادية أى بتأخير ثلاثة قرون تقريباً ، ولم يعد الملك أيل شرح يحضب الثانى هذا هو الملك الذى عاصر حملة « ايلليوس جاللوس » الرومانية ضد دولة سبأ سنة ٢٤ قبل الميلاد والذى دعاه استرابون مؤرخ الحملة «ايلزاروس» كما كان يعتقد من قبل (Jamme 1962 , p. 391) بل انتقل ذلك إلى عصر الملك السبئى المسمى « ذمار على بين » الأول (حوالى ٣٠ - ١٥ ق. م.) ولما كان اسم هذا الملك لا يحمل نطق « ايلزاروس » مثل كلمة « ايلشرح » فى اسم الملك ايلشرح يحضب ، فقد رجح العلماء أن الذى تصدى

لحملة ايلليوس جاللوس هو أخ الملك « ذمار على بين » المسمى « ايلشرح » اعتماداً على النقش رقم (RES 4085) . (Kitchen 1994, p. 204) .

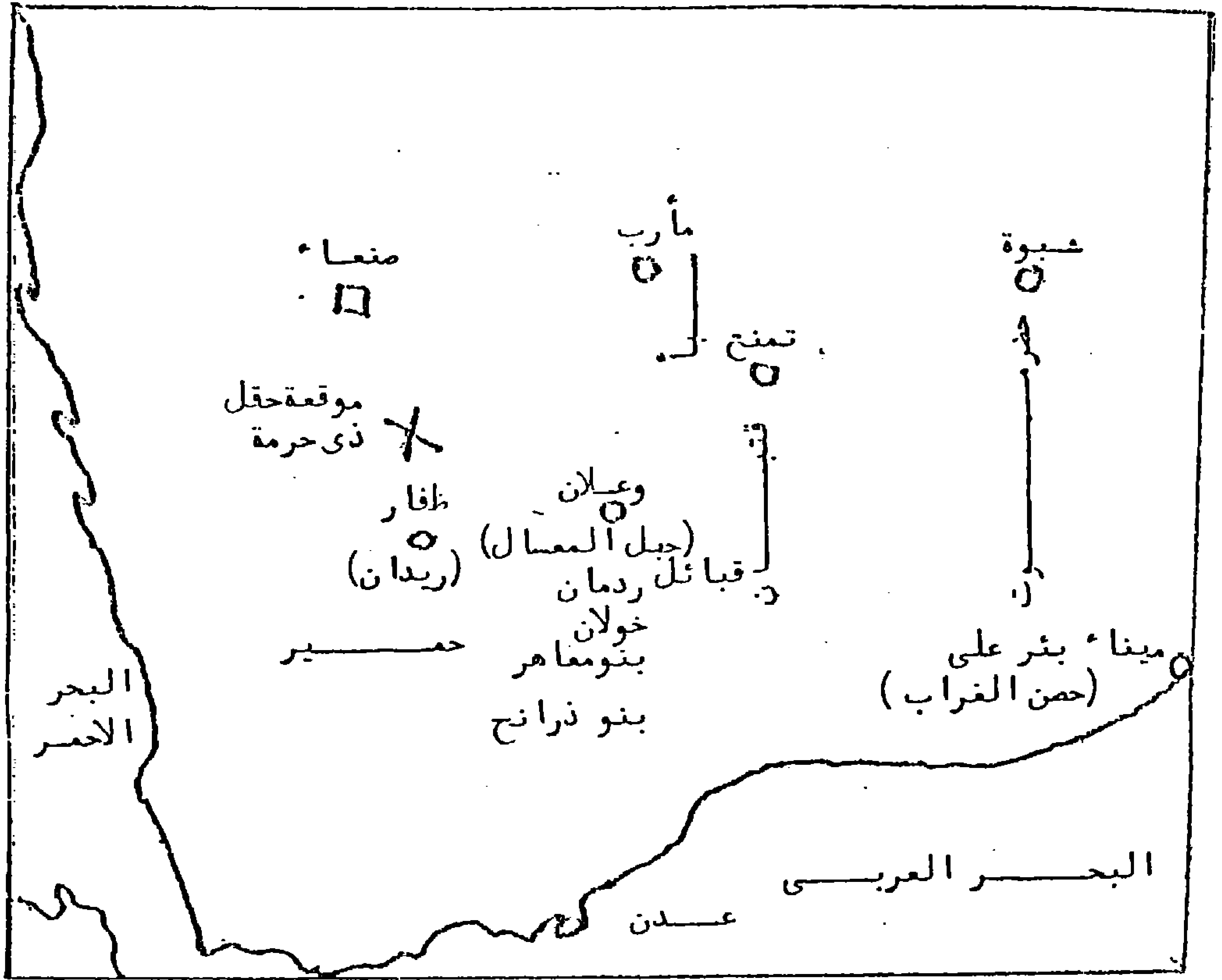
وبطبيعة الحال ترتب على هذا التأخيرلمدة ثلاثة قرون تأخير عصور ملوك سبأ الذين سبقوا الملك « أيل شرح يحضب الثانى » والذين خلفوه ، فالملوك الذين سبقوه وتعدلت تواريخ حكمهم هم :

اسم الملك	التاريخ السابق	التاريخ بعد التعديل
- وهب ايل يحوز	١٦٠ - ١٤٥ قبل الميلاد	١٥٠ - ١٦٥ بعد الميلاد
- إنمار يهأ من	١٤٥ - ١٣٠ قبل الميلاد	١٦٥ - ١٧٠ بعد الميلاد
- كرب أيل وتار يهأ من الثانى	١٣٠ - ١١٥ قبل الميلاد	١٧٠ - ١٨٥ بعد الميلاد
- يريم أيمن	١١٥ - ٨٥ قبل الميلاد	١٨٥ - ١٩٠ بعد الميلاد
- علهان نهفان	٨٥ - ٦٥ قبل الميلاد	١٩٠ - ٢٠٥ بعد اليلاد
- شاعر أوتر	٦٥ - ٥٥ قبل الميلاد	٢٠٥ - ٢٣٠ بعد الميلاد

(Jamme 1962, p. 390) (Kitchen 1994, p. 240)

ويلى ذلك اسما ملكين ، هناك خلاف بين العلماء على تحديد مكانهما من هذا التسلسل ، هما « لحى عثت يرخم » و « فرعم ينهب »(٦) ، ويأتى بعدهما الملك أيل شرح يحضب الثانى الوارد اسمه فى نقش المعسال رقم (٢) والذى تعدل تاريخ حكمه من ٥٠ - ٢٠ ق. م. إلى ٢٤٠ - ٢٦٠ م كما ذكرنا وقد خلفه ملك واحد هو « نشأ كرب يهأ من » الذى تعدل تاريخ حكمه من ٢٠ - ٥ ق.م. إلى ٢٦٠ - ٢٧٥ ميلادية وهو آخر ملوك دولة سبأ ، فقد استولت دولة حمير على سبأ فى آخر عهده أى سنة ٢٧٥ ميلادية (Kitchen 1994, p. 245) وأخيراً فقد ثبت من نقوش المعسال أن حمير لم تكن مجموعة من القبائل المتفرقة

المتناحرة كما كان سائداً بين المؤرخين من قبل بل كانت دولة قوية استطاعت أن تسقط دولة سبأ وأن تسيطر على بلاد اليمن كلها (بعد أن اسقط الملك الحميرى شمر يهرعش دولة حضر موت حوالى عام ٢٩٠ ميلادية) وأن تفرض اسمها على كل مناطق اليمن مما دعا العلماء إلى تسمية العصر الذى بدأ بالربع الأخير من القرن الثالث الميلادى بعصرالإمبراطورية الحميرية (Kitchen 1994, p. 245) .



خريطة الجزء الجنوبى الغربى من الجمهورية اليمنية لبيان الدول القديمة
وعواصمها وأسماء المواقع والقبائل الواردة فى هذه البحث

الهوامش

(١) هذه الأسماء هى التى وردت فى النقوش اليمنية القديمة مقترنة بأرقام سنوات ولكن هناك عدد كبير من النقوش أتبع فيها التأريخ بأسماء حكام أو زعماء قدامى أو معاصرين لتدوين هذه النقوش ، لا تذكر فيها أرقام سنوات بل يذكر فيها اسم الحاكم أو الزعيم مقترناً بسنة تنصيبه أو ولايته التى يفهم من سياق النقش أنها السنة الأولى من هذه الولاية والمثال النموذجى لذلك هو النص السبئى التالى :

ب و ر خ / ذ أ ب هـ ى / ذ خ ر ف / و دد ا ل / ب ن / أ ب ك ر ب / ب ن / ج ذ م ت

وترجمته : فى شهر ذوابهى (الأباء) من سنة ودد ايل بن أبيكرب من (قبيلة) حذمت.

(Beeston, 1954, p. 29).

وإذا كانت فترة الولاية هى الثانية لنفس الشخص كان السبئيون يضيفون كلمة « ث ن ى » بمعنى الولاية الثانية (Beeston 1954, p.28) .

(٢) نقش حصن الغراب : حفر هذا النقش على الصخر بجوار حصن قديم يطلق عليه « حصن الغراب » يطل على الميناء الحالى المسمى « بئر على » جنوب حضر موت ، وقد دونه القائد « سميفع أشوع » الذى كان يحارب الأحباش تحت قيادة الملك المسمى فى النقوش الحميرية « يسف أسار يثأر » (Jamme 1966, p. 39) وهو المعروف فى المصادر الإسلامية باسم « يوسف ذو نواس » الذى تنسب إليه هذه المصادر حادثة حرق شهداء نجران ، التى يرى الكتاب المسلمون أنها حادثة الأخدود المشار إليها فى سورة البروج . والواضح من سياق النقش أن القائد « سميفع أشوع » لجأ مع قبيلته إلى هذا الحصن البعيد بعد هزيمة مليكه وقتله على يد الأحباش .

ومن المفارقات الغريبة بشأن هذا النقش أن بعض الباحثين العرب مازالوا حتى اليوم يفسرون نصوصه بأنها تتحدث عن النبى هود وقوم عاد مقلدين فى ذلك قسيس أنجليزى يدعى Ch. Forester ترجم هذا النقش على أساس هذا التفسير الخطأ فى كتابه المسمى The historical geography of Arabia 1844, vol. 2, p. 445 ، وكان ذلك

قبل أن يتمكن العلماء المتخصصون فى النقوش اليمنية القديمة من قراءة هذه النقوش قراءة صحيحة . ولكن بعد أن تم لهم ذلك ترجموا هذاالنقش ترجمة صحيحة وتبين أنه لا توجد علاقة بين نصوص هذا النقش وبين النبى هود وقوم عاد ، وكانت أولى هذه الترجمات الصحيحة تلك التى نشرها العالم « بريتوريوس » سنة ١٨٧٢م ثم تلاها ترجمات ودراسات متعددة آخرها هى المنشورة فى « مجموعة النقوش السامية تحت رقم ٢٦٣٣ (RES 2633) والصادرة عام ١٩٢٨م .

ورغم التكرار المتواصل للترجمة والدراسات الصحيحة لنقش حصن الغراب طوال مائة عام فما زال هؤلاء المؤلفون العرب يكررون ترجمة القس فورستر الخاطئة بأن النقش يروى أخبار النبى هود وقوم عاد . ومنهم مترجمو كتاب التاريخ الجغرافى للقرآن الصادر فى مجموعة الألف كتاب الأولى عام ١٩٥٦ ص ١٨٣ ، ومقال « اللغة والأبجديات » لمحمد سالم شجاب المنشور فى مجلة الأكليل اليمنية عدد سنة ١٩٨٨ ص ٧٥ . فهل أصحاب هذه المؤلفات ما زالوا فى عزلة عن تقدم علم قراءة النقوش اليمنية القديمة لدرجة ترديد قراءة خاطئة غير معقولة لأحد هذه النقوش صدرت منذ مائة وخمسين عاماً وصححت لمدة مائة عام ؟

(٣) استخدمنا كلمة «التقويم » كترجمة لكلمة « خ ر ف ت م » الحميرية الواردة فى نهاية هذا النقش ومعناها الأصلى « سنة » وقدمنا كلمة « التقويم » قبل رقم السنة على عكس السياق فى النص الحميرى وذلك لكى يستقيم معنى الترجمة مع لغتنا العربية وسنسير على هذا المنوال فى ترجمة باقى النقوش فى هذا البحث أى فى ترجمة هذه الكلمة وشبيهاتها مثل « ت خ ر ف » و « خ ر ف » بكلمة « تقويم » .

(٤) يذكر محمد بافقيه أن تقويم « ابعلى » هذا ظل طويلا مثار تخرصات منذ أن عثر عليه مستخدماً فى النقش رقم RES 3958 (محمد بافقيه ١٩٨٠ ، ص ١٣) وهذا غير صحيح لأن النقش المذكور فضلا عن خلوه من اسم التقويم (ابعلى) فأن العلماء لم ينتبهوا إلى أنه مؤرخ بهذا التقويم لأن اسمه وقت ترجمة هذا النقش لم يكن معروفاً لديهم كما ذكرنا سابقا ، بدليل أن العالم « رودوكاناكس » الذى ترجم هذا النقش فى

بجموعة النقوش السامية (RES) اعتقد أنه التقويم الحميرى الذى يبدأ بسنة ١١٥ ق.م. فعادل سنة ١٤٤ المؤرخ بها النقش المذكور بسنة ٢٩ ميلادية (١٤٤ - ١١٥ = ٢٩).

(٥) يعتبر روبان وفقيه أن هذا التاريخ وهو ٣٥ - ٣٤ قبل الميلاد يزيد أو ينقص بمقدار ١٥ عاماً وذلك فى مقالهما Christian Robin & Muhammad Bafaqih, « Deux nouvelles inscriptions de Radman datant du lle siecle de I'ere chretienne » Raydan, vol.4 (1981) , p. 87.

(٦) ملوك حمير الذين عاصروا ملوك سبأ المذكورين غير واضحة أسماؤهم فى النقوش مثل وضوح ملوك سبأ ، ويفترض العلماء أنهم بدأوا بالملك الذى بدأ باسمه التأريخ وهو « مبحض بن أبحض » وذلك فى سنة ١١٥ ق. م. ثم تلاه أربعة حكام مجهولين حتى سنة ٢٠ ق. م. عندما ظهر فى النقوش اسم ملك يدعى « سمه على ذرح » حكم ما بين ٢٠ - ٥ ق. م. ثم ملك يدعى « ذمار على وتار يهنعم » حكم من حوالى ٥ ق. م. إلى حوالى سنة الميلاد ، وبعد ذلك خضعت حمير لحكم سبأ التى حمل ملوكها لقب « ملك سبأ وذو ريدان » إل أن بدأ ملوك حمير يظهرون ثانية فى النقوش السبئية بلقب « ذو ريدان » فقط ، وأولهم الملك « ياسر يهصدق « الذى حكم ما بين ١٤٠ - ١٤٥ ميلادية ، ثم تتوالى ملوك أغلبهم مجهولون حتى الملك » شمر يهحمد « الذى حكم ما بين ٢٣٠ - ٢٤٥ ميلادية يليه الملك كرب أيل ايفع » (٢٤٥ - ٢٦٥م) الذى حارب الملك السبئى « ايل شرح يحضب » الثانى فى موقعة حقل ذى حرمة كما جاء فى نقش المعسال رقم (٢) ، يليه الملك « ياسر يهنعم » (٢٦٥ - ٢٨٥ م) الذى اسقط مع أخيه « شمر يهرعش » دولة سبأ وبدأ بهما عصر الإمبراطورية الحميرية كما ذكرنا . (Kitchen 1994, p. 244)

المصادر والمراجع

استخدامنا فى كتابة عناوين هذه المراجع النظام الحديث المتبع فـى المؤلفـات الأوربية والأمريكية والمعروف باسم Harvard Refenences System وذلك لتميزه على النظام التقليدى السائد فى المؤلفات العربية بمرونته وعدم اهدار وقـت وجهـد القارئ فى تقليب الصفحات من آن لآخر للتعرف على المراجع .

المراجع العربية :

- محمد بافقية ١٩٨٠ : محمد عبد القادر بافقيه « أهمية جبل المعسال » ، حوليـة ريـدان لوفـان (بلجيكـا) العـدد الثـالث ١٩٨٠ ص١٠ - ٢٨ (Raydan Louvain) .

المراجع الأجنبية :

- Abdel Monem 1984 : Abdel Monem A. H. Sayed « Reconsideration of the Minaean inscription of zayd il bin Zayd » PSAS, vol. 14, pp. 93 - 99.

- Albright 1958 : F. A. Albright , Zur Chronologie des Vorislamischen Arabien. Berlin.

- Beeston 1954 : A. F. L. Beeston , Epigaphic South Arabin calender and dating, London.

- Beeston 1981 : A. F. L. Beeston, « Old South Arabian Era dating , PSAS, vol, 11, pp. 1 - 6.

- Jamme 1962 : A. Jamme, Sabaean inscriptions from Mahram Bilqis, Baltimere.

- Jamme 1966 : A. Jamme, Sabaean and hasaean inscriptions from Saodi Arabia, Rome.

- Jamme 1976 : A. Jamme, Garnegie Museum publication no. 2 pp. 110 - 119.

- Kitchen 1994 : K. A. Kitchen, Documentation for Ancient Arabia, Part I, Liverpool.

- Muller 1973 : W. Muller , Ergebnisse der deutschen Jemen - Expedition, AFO, XXIV, p. 160 - 61.

- Robin 1981 : M. Christian Robin, « Les inscription d'Al - Micsal et la chronologie de l'Arabie Meridionale au IIIe siècle de l'ere chrétienne », AIBL pp. 315 - 339.

- Ryckmans 1943 : Gonsague Ryckmans, Chronologie Sabaenne, Paris,

Abbreviations .

- AIBL : Academie des inscriptions et Belles - Lettes, Comptes Rendus, Avril - Juin, 1981 Paris.

- AFO : Archiv fur Orient Forchung.

- MAFRAY : Mission Archéologique Française en R. A. du Yemn

- PSAS : Proceedings of the Seminar of Arabian Studies, London.

- RES : Répertoire d'Epigraphie Semitique, Paris.

مصادر القرنين الأول والثانى للميلاد

حول مناطق إنتاج وتصدير اللبان العربى « رؤية نقدية »

أ. د. محمد السيد محمد عبد الغنى(*)

إن الحديث عن مناطق إنتاج وتصدير الطيوب والتوابل العربية من لبان ومُرّ وطيوب وقصيعة وقرفة وغيرها ، حديث شائع فى المصادر الكلاسيكية اليونانية من هيرودوت فى القرن الخامس ق. م. حتى أجاثا رخيديس فى القرن الثانى ق. م.

ومن خلال هذا التتابع التاريخى يأتى ذكر عرب شبه الجزيرة - لا سيما عرب جنوب شبه الجزيرة العربية - فى المصادر الكلاسيكية ونحاول نحن أن نتتبع ما ذكر عنهم فى كل مرحلة بدءاً بالقرن الخامس حتى القرن الثانى ق. م. ففى القرن الخامس يركز هيرودوت على إنتاج مناطق جنوب الجزيرة لكافة أنواع الطيوب من لبان ومر وقصيعة وقرفة ولادن ، وإن لمح إلى أن القصيعة والقرفة ربما كانتا تنتجان فى بلاد أخرى (حيث تربى ديونيسوس) ويقصد بها بلاد الهند . كذلك ركز على أن غابات الطيوب كانت تحرسها ثعابين مجنحة تطرد برائحة العبهر المحروق . وذكر أن الفنيقيين كانوا يقومون بالوساطة التجارية فى نقل طيوب جنوب الجزيرة العربية إلى بقية الشعوب(١) . وفى القرن الرابع يحدد ثيوفراستوس قبائل عرب الجنوب التى تتحكم فى إنتاج وتجارة نفس أنواع الطيوب التى ذكرها هيرودوت ، مع إبراز سيادة وتفوق السبئيين على وجه الخصوص ، كما أشار إلى عدم وجود حراسة على غابات الطيوب ، مما حدا ببعض البحارة الأجانب الطامعين إلى سرقة كميات منها .كذلك ركز على الدور الهام الذى يقوم به كهنة إله الشمس فى تسيير دفة تجارة الطيوب والحصول على ثلث هذه الطيوب المباعة وتخصيصه لإله الشمس مما يوحى بنوع من الاحتكار لهذه التجارة

(*) أستاذ التاريخ اليونانى الرومانى - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

من قبل المعابد . وأشار إلى حكم عرب الجنوب لبعض الجزر المجاورة المنتجة للطيوب والتوابل(٢) (ربما كان يقصد المناطق الساحلية المجاورة في شرق أفريقيا). وفى القرن الثالث ق.م. نجد إراتوسثنيس يقسم قبائل العرب الرئيسية فى الجنوب ، وموقع كل منها، وعاصمة كل إقليم (معين وعاصمتها كارنا ، وسبأ وعاصمتها مأرب ، وقتبان وعاصمتها تمنا أو تمنع ، وحضر موت وعاصمتها شبوة) ، ونظام الحكم الملكى فيها ، وما تتمتع به من رفاهية وثروات . وركز على تخصيص مناطق لإنتاج طيوب بعينها ، فذكر أن قتبان تنتج اللبان فى حين تنتج حضر موت المر ، وقيامهم بمقايضة هذه الطيوب - وطيوب أخرى غيرها - مع التجار(٣) . أما من القرن الثانى ق. م. فنجد أجاثار خيديس - كما أورده ديودوروس الصقلى - لا يذكر من قبائل عرب الجنوب سوى السبئيين دون سواهم (ربما كانوا يتمتعون فى عصره بالسيادة على بقية عرب الجنوب كما ألمح ثيوفر استوس فى القرن الرابع)، ويسهب فى وصف ما لديهم من غابات الطيوب من كافة الأنواع، بأريجها الفواح على الساحل ، وفى الداخل . ويصف الثعابين الضخمة التى تحرسها مثلما ذكر هيرودوت . كما يسهب فى وصف الثراء والبذخ الأسطورى الذى تمتعت به سبأ وتدفق كميات الذهب والفضة عليها من تجارة الطيوب ، واستخدامهم لتلك المعادن النفيسة فى رياشهم وأدواتهم المنزلية(٤) .

هذه الكتابات المبكرة للمؤرخين الجغرافيين الكلاسيكيين اتسمت - رغم ما تحويه من معلومات قيمة عن عرب الجنوب - بسمتين قللتا نسبياً من أهمية المعلومات المستقاة عنهم : ألا وهما التعميم فى بعض الأحيان ، والخلط وعدم الدقة فى أحيان أخرى. فمن ناحية التعميم نجد هؤلاء الكتاب ينسبون إلى مناطق جنوب الجزيرة العربية بصفة عامة إنتاج كافة أنواع البخور والطيوب المذكورة . أما من تفادى منهم هذا الخطأ ومال إلى التحديد فإنه غالباً ما يقع فى الخطأ الأخر وهو الخلط وعدم الدقة فى المعلومات . وربما ذكر معلومات عكسية تماماً مثل تخصيص اراتوسثنيس - على لسان سترابون - لقتبان فى إنتاج اللبان وحضر موت فى إنتاج المر .

هذا التعميم أو الخلط لمناطق إنتاج وتصدير الطيوب العربية فى المصادر الكلاسيكية فى الفترة من القرن الخامس إلى القرن الثانى ق. م. بحاجة إلى دراسة متأنية للمصادر والوثائق ، للوصول إلى قدر أكبر من التحديد حول هذه الجزئية . وسيحاول الباحث فى هذا البحث القيام بهذه المهمة بخصوص إنتاج وتصدير أحد أهم طيوب مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية ، وهو اللبان . ومن حسن الحظ أن مصادر القرنين الأول والثانى للميلاد تزودنا بمعارف أكثر تحديداً ودقة حول مناطق إنتاج وتصدير هذه السلعة الهامة من سلع عرب الجنوب ، ومن أبرز تلك المصادر المتاحة من الفترة المعنية كتاب « الطواف حول البحر الاريترى » لمؤلف مجهول ، وهو على الأرجح أحد تجار أو ملاحى الإسكندرية فى مصر فى القرن الأول الميلادى ، ممن كانوا يجوبون البحار الشرقية فى جنوب بلاد العرب وشرق أفريقيا وبلاد الهند . وأراد من كتابه هذا أن يكون دليلاً للتجار والملاحين المصريين فى تلك المناطق . وكذلك من مصادر تلك الفترة حول هذه النقطة مقتطفات هامة من مؤلف « التاريخ الطبيعى » لبلينى الأكبر من القرن الأول كذلك . أما فى القرن الثانى فإن هناك وصفاً جغرافياً قريباً من الدقة لمناطق جنوب الجزيرة العربية يتمثل فى المواضع المعنية بتلك المنطقة من كتاب « الجغرافيا » لبطلميوس الجغرافى. لكن المشكلة الحقيقية التى يعالجها هذا البحث هى أن هناك بعض التفسيرات الحديثة غير صحيحة حينا ، وغير دقيقة أحياناً ، أوردها بعض الباحثين ممن أدلوا بدلوهم فى الموضوع ، مما أدى إلى فهم غير دقيق لبعض محتويات هذه المصادر فى هذا الشأن . لذا سيحاول الباحث فى الصفحات التالية أن يورد تلك الفقرات والمقتطفات الجدلية الخلافية من المصادر المذكورة أعلاه ، وتلك التفسيرات الحديثة لها من قبل بعض العلماء والباحثين الذين لا يتفق الباحث مع تفسيراتهم ويعتبرها غير صحيحة أو غير دقيقة . وأخيراً آراء وتفسيرات الباحث نفسه التى يعتبرها أكثر دقة وأقرب إلى الصواب ، وتبريرات ذلك . ثم يدعم الباحث تفسيراته بمجموعة من النقوش بالخط المسند حول إقامة مدينة تدعى « سمارام » لتصدير لبان منطقة ساكلان فى جنوب الجزيرة العربية فى عمان الحالية (من القرن الأول

ق. م.) ليثبت أن « سمارام » فى نقوش الخط المسند هـى « موسـخا » التـى ورد ذكرها عند « الطواف » و « بطليمـوس الجغرافـى » ، وأن سـاكلان فـى نقـوش المسند هى منطقة « ساخاليتيس » فى المصدرين المذكورين المكتوبين باليونانية مـن فترة لاحقة فى القرنين الأول والثانى للميلاد .

والأن لنبدأ فى ذكر ما ورد فى المصادر المكتوبة باليونانية حول مناطق إنتاج وتصدير اللبان العربى فى مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية :

ففى مؤلف « الطواف » يرد ما يلى :

- على بعد نحو ألفى ستاديون إلى الشرق من ميناء العربية السعيدة (عدن) « يقع ميناء تجارى آخر على الساحل (الجنوبى للجزيرة العربية) هـو كـانى (قانـا) وهو يتبع مملكة إلياذوس الأرض المنتجة للبـان ... وفيمـا وراء « كـانى » تقـع العاصمة ساوباثا (شبوة) فى الداخل ، وهى مقر إقامة الملك كذلـك . وكـل ما ينتج فى المنطقة من لبان يؤتى به إليها حيث كانت بمثابة مسـتودع ، وذلـك عـن طريـق الإبـل والقـوارب المحليـة الصغـيرة المصنوعـة مـن الأكيـاس الجلديـة والسفن(٥) .
- وبعد « كانى » تنحسر أرض الشاطى أكثر فأكثر ، يلى ذلك خليـج عميـق جداً يمتد لمسافة طويلة يسمى خليج ساخاليتيس وأرض اللبان ، وهى منطقة جبلية وعرةهواؤها ثقيـل وضبابيـة أسـفل الأشـجار المنتجـة للبـان . ولكـن الأشجار المنتجة للبان هنا ليست ضخمة ولا مرتفعة وهى تفرز اللبان الـذى يتجمد على لحائها كما هى الحال بالنسبة لبعض الأشجار لدينـا فـى مصـر التى تفرز الصمغ . ويقوم على جمع اللبان عبيـد ملكيـون وسـجناء أرسـلوا لقضاء فترة عقوبة(٦) .
- ويقع على هذا الخليج مرتفع هائل وجهته نحو الشرق ويسمى سياجروس (رأس فرتك) به قلعة لحماية المنطقة وميناء ومستودع لتخزين اللبان(٧) .... إلخ .

وبعد سياجروس مباشرة يوجد خليج متد ينبعج بعمق نحو الساحل . وتقع عمان على مسافة ستمائة ستاديون من طرف هذه الخليج ، وبعدها جبال شاهقة صخرية شديدة الانحدار ، حيث يعيش أناس فى كهوف لمسافة خمسمائة ستاديون أخرى . وبعد هذه الأماكن يوجد ميناء مخصص لشحن لبان منطقة ساخاليتيس يسمى ميناء موسخا (خور رورى / على الساحل العمانى) ... وفى مقابل الأقمشة القطنية والحبوب والزيت كان هؤلاء التجار يأخذون من الوكلاء الملكيين لبانا من تشكيلة كلها من منطقة ساخاليتيس »(٨) .

أما بلينى الأكبر فى مؤلفه « التاريخ الطبيعى » فيذكر أنه لم يكن هناك من ينتج اللبان باستثناء العربية (يقصد جنوب الجزيرة العربية) وأن اللبان لم يكن ينمو فى كل مناطقها بل فى الجزء الأوسط من جنوب الجزيرة تقريباً حيث تقع مملكة تسمى Astramitae تابعة (لنفوذ) السبئيين . وعاصمة هذه المملكة هى سابوتا التى تقع على جبل مرتفع ؛ وعلى بعد ثمانية أيام من العاصمة تقع المنطقة المنتجة للبان فى هذه المملكة وتسمى ساريبا ، وهو اسم يعنى بالنسبة للإغريق « السر الغامض »(٩) .

(واضح أن المملكة المقصودة التى تقع فيها مناطق إنتاج اللبان هى «حضرموت» وأن عاصمتها سابوتا هى « شبوة » وأن المنطقة المنتجة للبان هناك والتى يسميها ساديبا تقع شرقى حضر موت فى الأغلب) .

وفى فقرة أخرى يذكر بلينى أنه ليس هناك من بين العرب بخلاف هؤلاء (يقصد الحضارمة) من وقع بصره على شجرة اللبان . ولا يسرى هذا القول على كل (الحضارمة) بل أن عدداً لا يزيد على ثلاثة آلاف أسرة احتفظوا لأنفسهم بهذا الحق الوراثى (زراعة أشجار اللبان ورعايتها وجمع المحصول) . ولذلك كان يطلق عليهم المباركون . وهؤلاء لا يسمح لهم بتدنيس أنفسهم

بجماع النساء أو (السير) فى الجنازات ، عندما يكونون مشغولين بحز وشق تلك الأشجار للحصول على اللبان ، مما يؤدى إلى ارتفاع أسعار اللبان لارتباطها بمفاهيم دينية(١٠) .

وفى موضع آخر يقول بلينى أنه بعد جمع اللبان كان ينقل بالجمال إلى سابوتا (شبوة) وتفتح لذلك إحدى بوابات المدينة . وكان الجنوح عن هذا الطريق (من قبل أصحاب الجمال المحملة باللبان) يعد جريمة كبرى فى عرف الملوك . وهناك (فى شبوة) كان الكهنة يأخذون عشوراً (ضرائب صغيرة) لإله يسمونه سابيس - وهى ضرائب تقدر بالمعيار وليس بالوزن ولا يسمح بعرض البخور فى السوق قبل أداء هذه الضريبة(١١) .

* * *

لنحاول الآن أن نستخلص من المعلومات السابقة الواردة فى المصدرين الطواف وبلينى الأكبر - بعض النتائج المحققة حول مناطق إنتاج اللبان وتخزينه واحتكاره ومناطق توزيعه وتصديره .

يتضح من حديث المصدرين حول إنتاج اللبان أن المنطقة الرئيسية لإنتاج اللبان هى مملكة حضر موت التى كانت عاصمتها شبوة (سيرد الحديث عن امتداد ومناطق نفوذ هذه المملكة نحو الشرق لاحقاً فى هذا الجزء) وأن أقرب منفذ للتصدير البحرى للبان لشبوة هى كانى أو قانا (حصن الغراب حسب تفسير كاسون للطواف) . ويذكر فى « الطواف » أن ملك هذه المملكة (حضر موت) يسمى إليازوس (على الأرجح « العز » ، كما سنرى لاحقاً) . ويتفق المصدران على أن كل لبان المنطقة (المملكة الحضرمية) كان يجمع فى منطقة معينة من المملكة بعد جمع المحصول من على أشجاره . وهذه المنطقة ذكرها بلينى صراحة على أنها العاصمة شبوة (سابوتا) التى كان المحصول ينقل إليها بالجمال، بل زاد من درجة اليقين حول هذه النقطة حين أورد أن ملوك حضر موت كانوا

يعدون أى انحراف عن هذا الطريق (المؤدى لشبوة) من جانب أصحاب الجمال المحملة باللبان جريمة كبرى . أما مؤلف كتاب « الطواف » فيفهم من حديثه أيضاً أن كل محصول اللبان من مملكة إليازوس (حضر موت) كان يذهب إلى ساوباثا (شبوة) العاصمة ، ولكن صياغة العبارة فى « الطواف » جعلت ليونيل كاسون - فى ترجمته للفقرة ٢٧ من الطواف وتعليقه عليها ص ١٦٢ ، ومن قبل فان بيك ، يرون أن منطقة تجميع محصول اللبان هى ميناء كانى(١٢) . (حصن الغراب) ، وهذا خطأ .

فبالإضافة إلى وضوح ومباشرة نص بلينى بخصوص شبوة - كما أسلفنا - فإن الأرجح والأقرب للمنطق أن مؤلف « الطواف » كان يقصدها كذلك فى نصه ، ولنعد إلى النص لنتأكد من مدى دقة هذا الترجيح . فى هذه الفقرة ٢٧ من الطواف يرد الحديث عن ميناء « كانى » الذى يتبع مملكة إليازوس (حضر موت) أرض اللبان ، ويذكر جزيرتين قاحلتين قريبتين من هذا الميناء هما جزيرة الطيور (سيخا) وترويلاس (براقة) الواقعة على بعد مائة وعشرين ستاديون من «كانى» ثم يورد ما يلى :

« وفيما وراءها (يقصد كانى) تقع العاصمة ساوباثا (شبوة) فى الداخل (أى بعيداً عن الساحل) والتى هى كذلك مقر إقامة الملك . وكل ما ينتج فى المنطقة (مملكة إليازوس) (حضر موت) من اللبان يؤتى به إليها (واضح أنه يقصد ساوباثا أى شبوة) إذ كانت بمثابة مستودع ، عن طريق الإبل والقوارب المحلية المصنوعة من الأكياس الجلدية وعن طريق السفن »(١٣) .

إن تفسير كاسون وفان بيك بأن كل محصول اللبان كان ينقل إلى «كانى» غير مقبول للأسباب الآتية :

(أ) أن نص الطواف واضح الدلالة فى إشارته إلى ساوباثا (شبوة) وليس إلى كانى (حصن الغراب) .

(ب) من غير المنطقى أن ينقل « كل ما تنتجه المنطقة (المملكـة) مـن لبـان » إلى ميناء واحد هو « كانى » دون بقية الموانىء والمستودعات الساحلية الأخـرى فى مملكـة حضـر مـوت مثـل سياجروس (رأس فرتـك) وموسـخا (خـور رورى) . كان يمكن أن يكون تفسير كاسون مقبولاً لو أن المحصول المنقـول كان محصول المنطقة القريبة من كانى (أى محصول جزء من المملكـة) ، أمـا حين يتعلق الأمر بمحصول المملكـة كلهـا فـالأقرب إلى المنطـق أن يذهـب إلى عاصمة المملكة فى شبوة حيث يقيم الملك ، لا سيما فى حالة وجود احتكـار ملكى للسلعة وهو ما تشير القرائن إلى أنه كان موجوداً(١٤) .

(جـ) قد يثور اعتراض على أن مكان تجميع محصول اللبان هو شبوة ، من جهـة أن وسيلة نقل هذا اللبـان كـانت الجمـال والقـوارب الصغيرة والسـفن ، وهـى وسائل نقل إلى ميناء وليس إلى مكان داخلى مثل شبوة .

وللرد على هذا الاعتراض الأخير نقول أنه إذا صح كلام بلينى من أن شـبوة تبعد مسافة ثمانية أيام عن (أقرب - فيما أتصور) مناطق إنتاج اللبان (إلى الشرق والجنوب الشرقى كما سيتضح) فمعنى هذا أن مناطق إنتاج اللبان (الممتدة لمسافة كبيرة نحو الشرق عل خليج ساخاليتيس الذى سنتحدث عنه لاحقـاً ، وعـن مـدى امتداده والذى ورد ذكره فى فقرات الطواف المقتبسة أعلاه) كانت تبعد مسافات كبيرة عن شبوة كان أقلها حوالى ثمانية أيام . هذا ربما يعنى أن الجمال كانت تنقل اللبان من مناطق إنتاجه القريبة نسـبياً بطريـق الـبر إلى شبوة مباشـرة . أمـا منـاطق الإنتاج الأبعد نسبياً فربما كان لبانها ينقل بـالبحر بـالقوارب الصغـيرة أو السـفن (حسب المسافة) من أقرب نقطة لمناطق الإنتاج على السـاحل الحضرمـى (سـاحل مملكة حضر موت) إلى أقرب نقطة ساحلية على هذا الشاطىء إلى العاصمة شـبوة فى الداخل . هذه النقطة الساحلية الأقرب إلى شبوة (فى مملكة حضر موت) هى بالتأكيد ميناء كانى (حصن الغراب) الذى كانت تنتقل إليه حمولات اللبـان مـن مناطق الإنتاج . لكن « كانى » لم تكن - فى هذه الحالـة - المحطـة النهائيـة التـى

يقطعها محصول اللبان على القوارب والسفن ، بل كانت المحطة قبل الأخيرة ، إذ كانت الجمال تنقل اللبان الذى تم تفريغه فى « كانى » من الأخيرة إلى شبوة حيث المستودعات الملكية هناك .

هذا التفسير يتفق وما ورد عند بلينى من أن اللبان كان ينقل بالجمال إلى شبوة وأن إحدى بوابات المدينة كانت تفتح لهذا الغرض . وكانت هذه الجمال تنقل اللبان إما من مناطق الإنتاج إلى شبوة مباشرة أو من « كانى » - حيث اللبان الذى أتى إليها بالبحر كما أوضحت - إلى شبوة . وبعد وصول المحصول كله إلى شبوة حيث المستودعات الملكية والموظفون الملكيون المنوط بهم مسألة إدارة الاحتكار الملكى يبدو أنه كان يتم حصر كميات محصول اللبان ومنح حصتها (عشورها) من اللبان التى أشار إليها بلينى ، وبعد ذلك ربما كان المحصول يوزع بطريقة مركزية ومحسوبة من المستودعات الملكية المركزية فى شبوة إلى منافذ وموانئ بيعه وتصديره البرية والبحرية .

وإذا كان بلينى قد أوجز فيما يتصل بمناطق إنتاج اللبان فذكر أنها تبعد مسافة ثمانية أيام من شبوة ، وأن ثلاثة آلاف عائلة قد تخصصت بصورة وراثية فى حصاد أشجار اللبان والعمل فيها وأطلق عليهم المباركون ، فإن « الطواف » قد افاض نسبياً فى الحديث عن مناطق الإنتاج وظروفه وموانئ التخزين والتصدير ، كما رأينا فى الفقرات المقتبسة عنه أعلاه . فقد ذكر هذا المؤلف معلومات عن «خليج ساخاليتيس الذى هو أرض اللبان وعن ميناء ومستودع سياجروس (رأس فرتك) حيث يخزن لبان هذه المنطقة ، وبعدها بحوالى ألف ومائة ستاديون(*) (فى نهاية « خليج عمان » كما أسماه الطواف أو « خليج القمر » الحالى شرق رأس فرتك) يوجد ميناء موسخا (خور رورى قرب صلالة على ساحل ظفار غرب

(*) الـ « ستاديون » وحدة إغريقية قديمة من وحدات قياس الطول تبلغ حوالى ٦٠٧ قدماً انجليزياً أى أقل قليلاً من مائتى متر أو ثمن ميل أو خمس كيلو مترا .

سلطنة عمان) حيث يتم تصدير وتجارة لبان منطقة الساخاليتيس ، بالإضافة إلى ميناء كانى (حصن الغراب) المقابل لشبوة على الساحل الحضرمى الغربى والذى سبق الحديث عنه .

ونأتى الآن للحديث عن « خليج ساخاليتيس » هذا كما ورد عند «الطواف» الذى حدد بدايته من جهة الغرب بأنه ذلك الخليج العميق الذى يعقب أرض الشاطىء المنحسرة بعد ميناء « كانى » (ربما بدءاً من المكلا الحالية على الساحل فى وادى حضر موت) ، ثم يحدد مؤلف « الطواف » - بصفته تاجر وملاحاً - أهم المعالم التجارية على ساحل هذا الخليج الطويل الممتد επὶ πολὺ παρεκτείνων .

فيذكر سياجروس (رأس فرتك) بصفتها مرتفع هائل على هذا الخليج به قلعة لحماية المنطقة وميناء ومستودع لتخزين اللبان ، وبعدها يذكر خليجاً عميقاً منبعجاً فى الساحل هو خليج عمان - حسب تسمية الطواف - تبلغ المسافة بين طرفيه ستمائة ستاديون (خليج القمر الحالى) ومن بعده بخمسمائة ستاديون أخرى (ألف ومائة ستاديون من رأس فرتك) « يوجد ميناء مخصص لشحن لبان منطقة ساخاليتيس ويطلق عليه ميناء موسخا » . وفيما وراء هذا الميناء لمسافة ألف وخمسائة ستاديون أخرى تقع (فى الداخل) سلسلة جبلية تمتد (نحو الشرق) حتى منطقة تسمى أسيخون يقابلها على الشاطئ سبع جزر يسميها جزر زنوبيوس (جزر كوريا موريا الحالية) وبعدها تمتد بلد أخرى أجنبية لا تنتمى لنفس المملكة أى مملكة إليازوس (حضر موت) بل تنتمى لبلاد الفرس(١٥) .

معنى الكلام السابق أن أقصى الحدود الشرقية لمملكة حضر موت - حسب وصف الطواف - كان المنطقة الداخلية المقابلة لجزر كوريا موريا فى سلطنة عمان الحالية ، وأن منطقة الساخاليتيس كانت تمتد من شرق كانى (حصن الغراب) نحو الشرق حتى ميناء موسخا - على الأقل - الذى كان لبان هذه المنطقة يشحن منه(١٦) ، رغم تسمى المنطقة الساحلية الواقعة قبل « موسخا » بمسمى محلى هو

« خليج عمان » ، بل ربما كانت منطقة الساخاليتيس تمتد أكثر من موسخا (خور روری) نحو الشرق حتى نهاية حدود مملكة اليازوس (مملكة حضر موت) على الساحل وفى الداخل قبالة جزر كوريا موريا .

ولكن يرى بعض العلماء أن بطلميوس الجغرافى والفلكى السكندرى من القرن الثانى الميلادى قد حدد منطقة ساخاليتيس - أرض اللبان - بانها تقع إلى الشرق من سياجروس (رأس فرتك) على العكس من جغرافى سابق له هو مارينوس الذى يرى أن هذه المنطقة تقع إلى الغرب من رأس فرتك(١٧) ، وعلى العكس كذلك من فهم البعض الخاطيء للتحديد الجغرافى للمنطقة من قبل مؤلف « الطواف » على أنها تمتد من شرق « كانى » (حصن الغراب) حتى سياجروس (رأس فرتك) أى إلى الغرب من سياجروس كما وصفها مارينوس(١٨) .

والواقع أن بطلميوس الجغرافى لم يحدد منطقة « الساخاليتيس » بأنها تقع إلى الشرق من سياجروس كما فسره أو فهمه هؤلاء العلماء بطريق الخطأ ، بل أن وصفه الجغرافى لهذه المنطقة يكاد يتطابق مع التحديد الذى أوردناه قبل قليل عند مؤلف « الطواف » . ولكن العلماء الذين قالوا بوجود تناقض واختلاف بين تحديد المصدرين للمنطقة ، لم يقرأوا وصف بطلميوس القراءة الدقيقة والصحيحة فيما اعتقد . صحيح أن بطلميوس صنف مناطق « أرض حضر موت » من الغرب إلى الشرق وجعلها تبدأ بمنطقة تسمى « مدينة أبيسما Ηβισμα πόλις » وتنتهى فى الشرق بـ « رأس سياجروس εύαγρος ακρα » ، ثم بدأ الفقرة التالية بعد نهاية هذه الفقرة مباشرة - أى بعد الحديث عن « رأس سياجروس » - بالحديث عن إقليم « الساخاليتيين » فى فقرة مستقلة تحدث فيها عن مواقع هذا الإقليم . ومن هنا ربما حدث الخلط الذى ذهب إليه العلماء المشار إليهم فذكروا أن بطلميوس قد أوضح صراحة أن « الساخاليتيس » تقع بعد « سياجروس » .

لكن بنظرة أعمق قليلاً إلى نص بطلميوس ندرك أن الأمر لم يكن كما ذهب هؤلاء العلماء إلى فهمه :

ففى حديث بطلميوس عن « أرض حضر موت » يجعل أول مناطقها من الغرب وهى « مدينة ايبيسما » تقع على خط طول هو ٨٢ وخط عرض ١١ ٣/٤ ، وآخر هذه المناطق وهى « سياجروس » فى الشرق على خط طول ٩٠ وخط عرض ١٤ . أما مواقع إقليم « الساخاليتيين » فتبدأ من الغرب بموقع يسمى « قرية ميتاكون » على خط طول ٨٨ وخط عرض ١٦ ١/٢ ، وتنتهى فى الشرق بموقع يسمى « مرتفع كورودابون » الذى يقع على خط طول ٩٣ وخط عرض ٢٠ ١/٤ (١٩)(*) .

من هذا التصنيف أعلاه يتضح أن بطلميوس قد أورد أقليم « ساخاليتيس » بعد مواقع « أرض حضر موت » وآخرها سياجروس كنوع من الترتيب الوصفى لمادته ، وليس بحسب الموقع الجغرافى المحدد بخطوط الطول والعرض . فمن خلال ملاحظتنا لمواقع « أرض حضر موت » والواقعة بين خطى طول ٨٢ ، ٩٠ وخطى عرض ١١ ٣/٤ ، ١٤ ، ومواقع « الساخالتيين » الواقعة بين خطى طول ٨٨ (أو بالأحرى ٨٧ ١/٣ ، حيث أورد بعد الموقع الأول موقعين آخرين على خطى طول ٨٧ ١/٣ ، ٨٧ ١/٢) ، ٩٣ وبين خطى عرض ١٦ ١/٢ ، ٢٠ ١/٤ ، ندرك أن بطلميوس أورد تحت الفقرة المعنونة مواقع « أرض حضر موت » المواقع الساحلية « الجنوبية » من مملكة حضر موت ، ثم تلاها بمواقع « الساخاليتين » وهى المواقع الداخلية (الشمالية) من المملكة وخصوصاً منها المناطق الداخلية المقابلة لخليج « الساخاليتيس » كما ورد عند « الطواف » وهى (أى المناطق الداخلية) ما أسماه بطلميوس هذه المرة باسم الساخاليتيس .

(*) هذا التحديد بخطوط الطول والعرض هو حسب رؤية بطلميوس الفلكى والجغرافى حسب معايير عصره طبعاً ، وليست خطوط الطول والعرض الحالية .

ولمزيد من تأكيد هذا الترجيح فإننا نجد أن ميناء « كانى » يقع عند بطلميوس على خط طول ٨٤ (على الساحل الحضرمى) فى حين يبدأ أول موقع من منطقة « الساخاليتيين » عند خط طول ٨٧ ١/٣ ، (لكن فى المنطقة الداخلية من حضر موت) وآخر مواقعها يقع على خط طول ٩٣ (وهى منطقة طويلة وممتدة) ومعنى ذلك أن كلا من « الطواف » و « بطلميوس » قد جعلا منطقة « الساخاليتيس » تمتد من شرق ميناء « كانى » (حصن الغراب) حتى آخر حدود مملكة حضر موت فى الجزء المقابل لجزر زنوبيوس (كوريا موريا) التى تبدأ بعدها منطقة أجنبية تابعة للفرس . الفارق ببساطة هو أن « الطواف » أطلق مسمى « الساخاليتيس » على الجزء الساحلى من هذه المنطقة - بصفته تاجراً وملاحاً يتعامل مع الموانئ والمناطق الساحلية - ولذلك اسمى هذا الامتداد الكبير «خليج ساخاليتيس» ، أما بطلميوس فقد أطلق مسمى أرض « الساخاليتيس » على « المناطق الداخلية » لنفس هذا الامتداد السابق وهى المناطق المنتجة للبان فى مملكة حضر موت . والأصح - فى تقديرى - هو تحديد بطلميوس الجغرافى ، بمعنى أن المناطق الداخلية المنتجة للبان فى مملكة حضر موت حسب الامتداد الذى ذكره بطلميوس هى التى كانت تسمى فى الأصل « أرض الساخليتيس » ثم صارت المنطقة الساحلية المقابلة لها تسمى باسم المنطقة الداخلية ، أى « خليج الساخاليتيس » إجمالاً حتى وإن اكتسبت مناطق منه مسميات محلية كخليج عمان مثلاً .

هذا التفسير - خصوصاً لوصف بطلميوس الجغرافى - يفسر عبارة وردت فى الكتاب الأول لبطلميوس يقول فيها « إن مارينوس حدد خليج ساخاليتيس بأنه يقع على الساحل الغربى من رأس سياجروس ، ولكن كل من يبحرون فى هذه البقاع يجمعون معى أنه (يمتد) إلى الشرق من سياجروس وأن الساخاليتيس منطقة عربية ومنها اكتسب خليج ساخاليتيس اسمه(٢٠) . (الكتاب الأول - فقرة ١٧). اعتقد أنه فى ضوء الوصف الجغرافى التفصيلى لبطلميوس لمنطقتى « أرض حضر موت » Αδραμιτων χωρας ثم منطقة « الساخاليتيين » Σαχαλιτων (فى

الكتاب السادس - الجزء السابع - فقرتـى ١٠ ، ١١) فـإن بطلميـوس يعنـى فـى فقرته السابقة أن خليج الساخاليتيس لا ينتهى شرقاً عند رأس سياجروس وبالتـالى لا يقع غربها فقط ، بل يمتد كذلك إلى الشرق من هذه النقطة بإجماع مـن أبحـروا فى تلك البقاع ، أى أنه لم يقصد القول أنه يقـع إلى الشـرق - فقـط - مـن رأس سياجروس .

لكن ما تزال هناك مشـكلة فـى وصـف بطلميـوس للمنطقـة السـاحلية مـن «أرض حضر موت» وهى أنه جعل « سياجروس » (التـى حـدد معظـم العلمـاء موقعها بـ « رأس فرتك ») نقطة النهاية للساحل الحضرمى ، فى حـين رأينـا فـى «الطواف» أن آخـر المواقـع الهامـة علـى هـذا السـاحل هـى « موسـخا » (خـور رورى) . هل معنى هذا أن بطلميوس لم يذكر « موسخا » فـى وصفـه الجغرافـى لحدود منطقة حضر موت الساحلية ؟ بلى أوردها وتحت اسـم « مينـاء موسـخا » كما أورد قبلها « ثياالليلا » وهى صلالة الحالية فى ظفار قبل « خـور رورى » أو موسخا القديمة . معنى هذا أن بطلميوس قد أخطأ فى تحديد موقع « سياجروس » وبدلاً من أن يجعلها قبـل صلالـة وموسـخا جعلهـا تقـع بعدهمـا . إذن فقـد ذكـر بطلميوس الجغرافى موانىء مملكة حضر موت على الساحل الجنوبى لشـبه الجزيـرة العربية وهى كانى وسياجروس وموسخا ولكنه أخطأ - على الأرجح - فى تحديد موقع سياجروس .

ومن الأمور الطريفة التى ألقت مزيـداً مـن الضـوء علـى موقـع سـاخاليتيس وميناء « موسخا » (خور رورى) أن بعثـة أمريكيـة تابعـة للمؤسسـة الأمريكيـة لدراسة الإنسان قامت فى أعوام ١٩٥٢ ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦٢ بحفائر فـى موقع « خور رورى » وكان من بين اكتشافاتها من هذا الموقع ستة نقوش بـالخط المسند تتحدث عن تأسيس مدينة أو ميناء فـى منطقـة « سـكلان (الاسـم العربـى للإقليم الذى يكتب «ساخاليتيس» باليونانية كما رأينا عند الطواف وبطلميوس) .

هذه النقوش نشرتها جاكلين بيرين فى العدد الأول من « مجلة دراسات عمان » عام ١٩٧٥ (هامش رقم ٧٢) .

تتحدث هذه النقوش عن إقامة أو إنشاء مدينة تسمى « سمارام » (بمعنى «المبتغى السامى» من كلمتى سما يسمو ، ورام يرام(٢١) . أى يبتغى وينشد ، وقد وردت فى خريطة فى مقدمة كتاب الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الأنصارى عن حفائر « الفاو » باسم « سامراء ») فى أرض «سكلان » بأوامر من الملك «العز يالوط» ملك حضر موت أصدرها إلى قائد الجيش الحضرمى ويدعى أبياتاع صالحين بن ذمر على ، وأشرف هذا الأخير على كل مراحل التنفيذ . وكتب هذه النقوش موظفون ملكيون أسندت إليهم مهام مثل تنظيم موقع المدينة الجديدة وإمدادها بالمياه (النقش الأول) وبالبناء والتشييد (النقش الثانى)، كما قام بعض المستوطين الجدد بكتابة نقوش أخرى مثل الرابع الذى كتبه جماعة من النساجين .

وهذه النقوش تكاد تسير على وتيرة واحدة إذ يذكر كاتب النقش اسمه (أو أسماءهم لو كانوا مجموعة) ، كما يذكرون مواطنهم الأصلية التى قدموا منها إلى هذا المكان الجديد . وقد أتى معظمهم - إن لم يكن كلهم - من العاصمة «شبوة» ورحلوا عنها بأوامر ملكية لتوطين المدينة الجديدة « سمارام » . ويذكر فى نقشين من هذه النقوش (النقشين الثالث والرابع)(٢٢) . أن المستوطنين الجدد كانوا ينتمون إلى أحد بطون قبيلة حاتم فى شبوة هو بطن عميس حيث يذكر فى النقشين حرفيا أنهم من أهل (عميس ثلث حاتم ويضمون ذلك الجزء الذى اختير للتهجير) .

وهناك بعض التعليقات العامة للربط بين محتويات هذه النقوش وما ورد عند « الطواف » و« بطلميوس » . أول هذه الملاحظات هو أن مدينة « سمارام » الجديدة التى أمر الملك الحضرمى « العزيالوط » - من القرن الأول ق. م. حسب تأريخ جاكلين بيرين لهذه النقوش من خلال خطوطها - تقع فى موقع (خور

روری) أو موسخا التی وردت عند « الطـواف » ، وورد اسمهـا عنـد بطلميـوس رغـم أنه لم يحدد موقعها بدقة كما رأينا أعلاه . إذن فـإن « سمـارام » هـى نفسـها «موسخا» *(الأولى التسمية العربية والثانية اليونانية القديمـة)* مينـاء تصديـر اللبـان لمنطقة « سكلان » (سا خاليتيس) المنتجة للبان . والملاحظة الثانية هو اسم الملك الحضرمى من القرن الأول ق. م. الذى أمر بإقامة المدينة وهو « العز يالوط » ومنه يتضح أن اسم « العز » كان اسماً مألوفاً فى العائلة الملكية الحضرميـة حينـذاك ، إذ نجد فى مؤلف « الطـواف » - مـن حـوالى منتصـف القـرن الأول الميـلادى - أن *مملكة حضر موت وعاصمتها شبوة مقر إقامـة الملـك الحضرمـى كـانت تعـرف بـ* «مملكة إليازوس» والتى تعنى بلا شك « مملكة العز » . والملاحظـة الثالثـة هـو ان الموظفين الملكيين الذين أسندت إليهم بعض مهـام تعمـير وتخطيـط المدينـة الجديـدة يصفون أنفسهم فى هـذه النقـوش (النقشـين الأول والثـانى) بـأنهم « عبـد العـز يالوط ملك حضر موت » . هذه الإشارة فى النقوش تفسر ما سبق أن ذكـر عنـد « الطواف » من أن القائمين علـى جمـع لبـان منـاطق السـاخاليتيس (السـكلان) كانوا من العبيد الملكيين وممن أرسلوا لقضاء فترة عقوبة فى هـذه المنـاطق (الفقـرة ٢٩) . من خلال نقوش « سمارام » يبدو أن كل من كان يكلف بمهـام مـن قبـل الملك كان يعد من « عبيد الملك » كما رأينا أعـلاه ، بمعنـى أنهـم ينفـذون أوامـر الملك تنفيذاًدقيقاً وصارماً أكـثر مـن دلالتهـا علـى العبوديـة بمعناهـا الحرفـى . أمـا الإشارة عند «الطواف» إلى أن بعضـاً مـن جـامعى لبـان السـاخاليتيس كـانوا ممـن يقضون فترة عقوبة هناك فربما ارتبطت من طرف خفى ببعـض الإشـارات الـواردة فى بعض نقوش « سمارام » فمن المحتمل أن يكون مؤسسو هذه المدينة الجديدة قـد هجروا قسرا من موطنهم الأصلى من بطن عميس فـى قبيلـة حـاتم فـى شـبوة ، لا سيما أن هناك كلمـات وردت فـى ختـام بعـض هـذه النقـوش - بصـورة منفـردة منفصلة عن السياق - تعبر عـن المعانـاة مثـل كلمـة « أذيـت » فـى ختـام النقـش الثالث ، وكلمة «يشقى» فى النقش الثامن .

الهوامش

(1) Herodotus, Historiae III, 97,,107-112.

(2) Theophrastus, Enquiry into Plants IX. 4.2.-6, 10.

(3) Strabo, Geography XVI.4.2-4.

(4) Diodorus Siculus, Historical Library III, 45; 47.2-3, 5-6.

(5) L. Casson, PME,27 :

· ἐμπόριόν ἐστιν ἕτερον παραθαλάσσιον Κανή, Βασιλείας Ἐλεάζου, Χώρας Λιβανωτοφόρου ....

πᾶς δ' ὁ γεννώμενος ἐν τῇ χώρᾳ λίβανος εἰς αὐτὴν ὥσπερ ἐκδοχεῖον εἰσάγεται καμήλοις τε καὶ σχεδίαις ἐντοπίαις δερματίναις ἐξ ἄσκων καὶ πλοίοις.

(6) Ibid., 29 :

Μετὰ δὲ Κανὴ ..... ἄλλος ἐκδέχεται βαθύτατος κόλπος, ἐπὶ πολὺ παρεκτείνων, ὁ λεγόμενος Σαχαλίτης, καὶ Χώρα Λιβανωτοφόρος ....

ἔστιν δὲ τὰ δένδρα τὰ λιβανοφόρα οὐ μεγάλα λίαν οὐδὲ ὑψηλά .....

Μεταχειρίζεται δὲ ὁ λίβανος ὑπὸ δούλων βασιλικῶν καὶ τῶν ὑπὸ τιμωρίαν πεμπομένων.

(7) Ibid., 30 :

Τούτο<υ> δ' ἐστὶν ἀκρωτήριον τοῦ κόλπου μέγιστον, ἀποβλέπον εἰς ἀνατολήν, ὁ καλούμενος Σύαγρος, ἐφ' οὗ φρούριόν ἐστι τῆς χώρας καὶ λιμὴν καὶ ἀποθήκη τοῦ συναγομένου λιβάνου.

(8) Ibid., 32 :

.....καὶ μετ' αὐτοὺς ὅρμος ἀποδεδειγμένος τοῦ Σαχαλίτου λιβάνου πρὸς ἐμβολήν, Μόσχα λιμὴν λεγόμενος ....

παρὰ τῶν βασιλικῶν πρὸς ὀθόνιον καὶ σῖτον καὶ ἔλαιον λίβανον ἀντιφορτίζουσιν παρ' ὅλον δὲ τὸν Σαχαλίτην.

(9) Pliny the Elder, NH 12. 30. 51 - 52 :

Tura praeter Arabia nullis, ac ne Arabiae quidem universae. in medio eius fere sunt Astramitae, pagus Sabaeorum, capite regni Sabota in monte excelso, a quo octo mansionibus distat regio eorum turifera Sariba appellata - hoc significare Graeci mysterium dicunt .

(10) Ibid., 12. 30. 54 :

Nec praeterea Arabum alii turis arborem viderunt, ac ne horum quidem omnes, feruntque III non amplius esse familiarum quae ius per successiones id sibi vindicent, sacros vocari ob id, nec ullo congressu feminarum funerumque, cum indicant eas arbores ut metant, pollui, alque ita religione merces augeri.

(11) Ibid., 12. 32. 63 :

Tus collectum Sabotam camelis convehitur, porta ad id una patente; degredi via capital reges facere. ibi decumas deo quem vocant Sabin mensura, non pondere, sacardotescapiunt, nec ante mercari licet :

(12) Gus W. Van Beek, Art. Cit., p. 142 and note 9.

(13) L. Casson, PME, 27 :

Τρουλλάς, ἀπὸ σταδίων ἑκατὸν εἴκοσι τῆς Κανῆς, Ὑπέρκειται δὲ αὐτῆς μεσόγειος ἡ μητρόπολις Σαυβαθά, ἐν ᾗ καὶ ὁ βασιλεὺς κατοικεῖ. πᾶς δ' ὁ γεννώμενος ἐν τῇ χώρᾳ λίβανος εἰς αὐτὴν ὥσπερ ἐκδοχεῖον εἰσάγεται. . . .

انظر كذلك هامش رقم ٥٩ أعلاه .

(١٤) إن ما ورد فى فقرات بلينى المقتبسة - وخاصة حول اهتمام ملوك حضر موت بضـرورة نقل محصول اللبان كله إلى شبوة أولاً واعتبار عدم الامتثال لهذه الأوامر الملكيـة فى هـذا الصدد جريمة كبرى - يشير بوضوح إلى احتكار ملكـى للسـلعة . كمـا أن مـا ورد عنـد الطواف عن العبيد الملكين والمسجونين الذين يقومون بجمع المحصـول مـن غابـات اللبـان فى إقليم خليـج « سـاخاليتيس » ، وكذلـك تعـامل التجـار مـع « الوكـلاء الملكيـين » وحصولهم على اللبان منهم مقابل سلعهم يشير بوضوح إلى هذا الاحتكار الملكى للبان .

(15) L. Casson, PME.33 :

(15) L. Casson, PME.33 :

<'Απὸ δὲ Μόσχα> λιμένος ἐπ' ἄλλους σταδίους ὡς χιλίους πεντακοσίους ἕως 'Ασίχωνος ἄχρι <ὄρος> τῇ γῇ παρατείνει καὶ κατὰ τὸ ἀπολῆγον αὐτοῦ μέρος ἑπτὰ νῆσοι πρόκεινται κατὰ τὸ ἑξῆς, αἱ Ζηνοβίου λεγόμεναι, μεθ' ἃς ἄλλη παράκειται χώρα βάρβαρος οὐκέτι τῆς αὐτῆς βασιλείας ἀλλ, ἤδη τῆς Περσίδος.

(16) Ibid., note on 29 : 9. 22-23, pp. 165 - 66.

(17) Ibid., Van Beek, Art. Cit., p. 142 and note 10.

(18) Jacqueline Pirenne, « The Incense Port of Moscha (Khor Rori) in Dhofar », Journal of Oman Studies, vol., 1, 1975, pp. 81 - 96, p. 95.

(19) Claudius Ptolemaeus(ptolemy); Geography, 6. 7. 10 :

'Αδραμιτῶν Χώρας

Ἴβισμα πόλις	πβ	ια	∠′ δ

ساكتفى بذكر أهم الموانى التى تعنينا على هذا الساحل ومواقعها ولن أذكر كل المواقع التى أوردها بطلميوس :

Κάνη ἐμπόριον καὶ ἄκρον	πδ		ιβ	∠′
Θιάλληλα κώμη	πζ		ιδ	
Μόσχα λιμὴν	πη	∠′	ιδ	
Σύαγρος ἄκρα	Ϙ		ιδ	

ثم الفقرة التالية مباشرة عند بطلميوس (6. 7. 11) والخاصة بمواقع « الساخاليتيين »

Σαχαλιτῶν

Μέτακον κώμη	πη		ιϛ	∠′
Αὔσαρα πόλις	πζ	γ′	ιϛ	∠′ δ
Ἄγγη κώμη	πζ	∠′	ιζ	∠′

ثم ترد بعد ذلك مواقع عديدة سأذكر آخرها وهو :

Κοροδαβον	Ϙ	γ	κ	δ′

(20) J. Pirenne, loc, cit.

(21) Ibid., p. 82.

(22) Ibid., pp. 85 - 87.

الاستعراضات العسكرية عند الرسول ﷺ وأساليبها

د. عبد العزيز بن عبد الله السلومي(*)

مقدمة :

كانت هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة بداية الانطلاق لتأسيس دولة إسلامية مستقلة ، ذات نظم شتى مستمدة منهجها ودستورها مما ينزل على رسول الله ﷺ من وحي ، وبما يعمله أو يقوله أو يأمر به أو يقره عليه الصلاة والسلام ، فهو القدوة وهو المثل ، فقد ضرب لنا رسول الله ﷺ أروع الأمثلة فى البطولات والفداء ، فساس هذه الأمة سياسة حكيمة ، وقادها إلى الرفعة والسمو وإلى العز والتمكين فى شتى المجالات .

ومن هذه المجالات ما تمتع به الرسول الله ﷺ من شخصية عسكرية متميزة أبهرت الجميع ، مما يصعب الاستطراد فيه هنا ، بل يحتاج إلى بحوث وكتب كثيرة لدراسة هذا الجانب من شخصيته عليه الصلاة والسلام .

وحيث أن موضوع البحث هو « الاستعراض العسكرى عند الرسول ﷺ وأساليبه » كأحد جوانب فنه وتعبئته واعداده لجيش الدولة الإسلامية الناشئة التى تحتاج – بالطبع – إلى جيل متميز وفريد وجديد بأسلوبه العسكرى ، كما هو جديد بانتمائه لعقيدته السليمة الصادقة ، لذا نجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام ربى هذا الجيل ودربه وأشرف بشكل مباشر على تدريبه ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يستعرض جنده بين الحين والآخر ليتأكد من سلامتهم واقتدارهم ، كما يوجههم بالتوجيه المناسب حسب مقتضى الحال .

ومن هنا نجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام أبدع فى هذا المجال ، وتفنن ونوع وجدد مما يدل على عمق شخصيته العسكرية .

(*) قسم الحضارة والنظم الإسلامية – جامعة أم القرى .

فنجده وهو فى بدر يستعرض جنده - رغم قلة عددهم - وينظمهم صفوفاً أمام عدوهم اللدود « قريش » - الذين جاءوا حسب زعمهم لمناجزة محمد والتخلص منه والقضاء عليه - فكان يحرص على الدقة فى تنظيمهم ليحقق واحداً من أهداف هذا التنظيم وهو إظهار العدد كبيراً أمام الأعداء .

أما فى أحد فنجده ينظم جيشه تنظيماً مغايراً لما سبق فى بدر ، كما أنه استعرض جنده بأسلوب مختلف ، حتى أننا نجده يعرض الغلمان الذين تسابقوا وحرصوا على الاشتراك فى الجهاد ، فكان عليه الصلاة والسلام يستعرض هؤلاء الأولاد فمن كان جديراً بالقتال وحمل السلاح أثبته ومن كان صغيراً خاف عليه ورده .

إن نظم الاستعراض فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام جاءت متنوعة بين عرض للجند أمام الرسول ﷺ إلى استعراض للجيش أمام الأعداء .

ففى غزوة خيبر عبأ جيشه وسار على تعبئته بنظام الخميس ، حتى فاجأ اليهود بهذه التعبئة فقض مضاجعهم وأوهن عزائمهم وبث الرعب فى نفوسهم .

وفى الحديبية - وكجانب من جوانب عرض قوة المسلمين أمام رسل قريش - تمت بيعة العقبة بين المسلمين وبين الرسول ﷺ بأقوى صورها وأشكالها « على الموت وعدم الفرار » ، كل ذلك على مرآى ومسمع من مندوبى قريش ، كوسيلة ضغط على أهل مكة .

أما فى غزوة الفتح ، فبعد أن أسلم أبو سفيان ، وقبل أن يرجع إلى مكة ليخبر قومه بما حدث ، أمر الرسول ﷺ عمه العباس أن يحبسه عند خطم الجبل ، حتى تمر جنود الله فيراها . وبعد أن تم العرض العسكرى أمام قائد مكة وزعيمها قبل الفتح ، رجع إليها حاملاً أكبر صورة وأبلغ أثر ليشعر قومه بأنه جاءهم أمر لا طاقة لهم به ، ولا قوة فكان ذلك درساً بليغاً حمله من خلال ذلك العرض

العسكرى المهيب وبذلك نجح الرسول ﷺ بدخول مكة بأقل خسائر ممكنة من خلال تلك الخطة المحكمة .

و لم يقتصر الاستعراض على ذلك بل تعداه إلى استعراض الخيول ، والاهتمام بها وعمل المسابقات لها نظراً لما تشكله الخيول من أهمية بالغة فى الفروسية وفى الميادين الحربية ، لذا نجد الرسول ﷺ هو الذى يتولى عرض الخيول بنفسه .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الرسول ﷺ استعمل أسلوب إشعال النيران أمام الأعداء حتى يبث الرعب والوهن فى قلوب الأعداء ، ونلمس ذلك واضحاً فى كل من غزوة حمراء الأسد وفتح مكة .

وهكذا كانت أساليب الاستعراض التى عمل بها الرسول ﷺ وأمر بها أو دعى إليها متعددة ومتنوعة ، بحسب طبيعة وظروف المعركة فالرسول ﷺ هو القائد القدوة الذى كان على علم بكيفية اكتشاف طاقات أمته شيوخاً وشباناً وأحداثاً وصبياناً بل ونساءً . كما كان على دراية واسعة بأدوات العدة الجهادية من سلاح وخيل وأساليب قتالية ، مع العمل على الأفادة من هذه الطاقات وتوجيهها نحو الخير فى خدمة الدعوة ، وتحقيق فرضية الجهاد التى تميزت بها هذه الأمة لتكون أمة هداية وخير ، كل ذلك ليتأسى به قادة الإسلام فى حركاتهم الجهادية ، وتفقدهم لأساليب القتال وإعداد العدة للجهاد فى سبيل ا لله .

وقد سرت فى هذا البحث على جمع المادة العلمية من كتب الأحاديث النبوية وكتب المغازى والسير التى تحدثت عن غزوات الرسول ﷺ وحرصت على نقل الروايات الصحيحة والاسشهاد بها قدر المستطاع ، وإذا لم أجد شيئاً فى الصحيحين ، اعتمدت على اقوال أهل الحديث فى الحكم عليه ، كما قمت بتخريج الأحاديث وعزوها إلى مصادرها حتى يسهل الرجوع إليها برواتها وأسانيدها، سائلا ا لله عز وجل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير والصلاح إنه سميع مجيب.

استعراض(١) الصفوف :

من وسائل الاستعراض العسكرى الذى عمله الرسول ﷺ فى حربه مع الأعداء تنظيم الجيش الإسلامى على هيئة صفوف أمام الأعداء استجابة لدعوة الله سبحانه وتعالى للمقاتلة بنظام الصف كما جاء فى القرآن الكريم ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيا مرصوص ﴾(٢) . أورد ابن كثير قولاً لابن عباس فى معنى ذلك « أنه مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض وقال قتادة ألم تر إلى صاحب البنيان لا يحب أن يختلف بنيانه ، فكذلك الله عز وجل لا يحب أن يختلف أمره »(٣) .

وفى بدر بالذات كان نظام الصف الذى عمله الرسول ﷺ مفاجئاً للمشركين مما كان عاملا فى إحداث خلل فى خططهم وصعوبة فى إعادة ترتيب وضعهم وكان ذلك مهما فى انتصار المسلمين على أعدائهم . ولعل فى ذلك فوائد كثيرة منها :

- ظهور جميع المقاتلين أمام القائد والتعرف عليهم واحداً واحداً .
- الايحاء للأعداء بكثرة عدد المسلمين وإظهار قوة المسلمين لبث الرعب فى قلوب أعدائهم(٤) .
- اختبار كفاءة المقاتلين وقدراتهم القتالية .
- سهولة حركة القائد بين الصفوف بشكل فيه مرونة وسرعة .
- أن القتال بالصف يصلح لأى من الظروف القتالية سواءاً كان هجوماً أو دفاعاً.
- الاستماتة والاستمرارية فى القتال لأطول فترة ممكنة .
- وجود قوة احتياطية متمثلة فى الصفوف الخلفية لمعالجة أى طوارئ غير متوقعة(٥) .

ومن هنا رغب الرسول ﷺ بذلك روى الإمام أحمد بسنده(٦) عن أبى سعيد الخدرى ﷺ عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة يضحك الله إليهم :

الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال » . فعمل المسلمون بذلك .

كما أن الرسول ﷺ طبقه في بدر حيث دلت على ذلك الأحداث الكثيرة وتواترت فى كتب المغازى والسير . من ذلك ما رواه الإمام أحمد(٧) . بسنده عن يونس بن محمد حدثه شيبان بن عبد الرحمن عن قتاده . قال : حدثنا انس بن مالك أن أبا طلحة رضى الله عنه قال : « غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم بدر»(٨).

وأورد ابن كثير رحمه الله من رواية للترمذى عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال : « صفنا رسول الله ﷺ يوم بدر ليلاً »(٩) .

وقد أورد البيهقى بسنده(١٠) من رواية الفضل بن دكين عن حمزة بن أبى أسيد عن أبيه قال : « قال رسول الله ﷺ يوم بدر حين صفنا لقريش وصفوا لنا ، إذا أكثبوكم فارموهم بالنبل » وهو بسند صحيح حيث أورده البخارى بقوله : «إذا أكثبوكم يعنى أكثروكم فأرموهم بالنبل واستبقوا نبلكم »(١١) .

ومن ذلك أيضاً ما رواه الطبرانى(١٢) وأحمد(١٣) من رواية عبد الله بن لهيعة حدثه يزيد بن أبى حبيب أن أسلم أبا عمران التجيبى حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنصارى يقول : « صففنا يوم بدر فندرت منا نادره - وفى رواية فبدرت منا بادرة - أما الصف فنظر رسول الله ﷺ إليهم فقال معى معى » ، قال ابن كثير رحمه الله فى هذا الحديث تفرد به أحمد وإسناده حسن(١٤) ، وقال الهيثمى رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح(١٥) .

وفى هذا المقام أيضاً ما تواتر عند أهل المغازى والسير فى قصة سواد بن غزية الأنصارى(١٦) ﷺ عندما كان الرسول ﷺ يسوى الصفوف ويعدلها يوم بدر .. فقد أورد ابن اسحاق بسنده عن حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ من قومه : « أن رسول الله ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر ، وفى يده قدح يعدل به القوم فمر بسواد بن غزيه حليف بنى عدى بن النجار وهو مستنتل(١٧) من

الصف فطعن فى بطنه بالقدح وقال : استو يا سواد . فقال يا رسول الله أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني- فكشف الرسول ﷺ عن بطنه فقال : استقد.. وذكر تمام الحديث »(١٨) .

وأورد الهيثمى رواية عن عبد الله بن جبير الخزاعى قال : « طعن رسول الله ﷺ رجلاً فى بطنه إما بقضيب وإما بسواك . فقال : أوجعتنى فأقدنى ، فأعطاه العود الذى كان معه فقال : استقد . فقبل بطنه . ثم قال : بل أعفو لعلك أن تشفع لى بها يوم القيامة » .

قال الهيثمى أورد هذه الرواية الطبرانى ورجاله ثقات(١٩) .

إن هذه القصة لتدل دلالة واضحة على مدى الدقة والانضباط فى الاستواء بالصفوف من دون أية تقدم أو تأخر ولو حتى بجزء من الجسم كما هو واضح من قصة سواد وبروز بطنه فى الصف ، ولهذا وجد الرسول ﷺ بدًا من إشعار سواد بأهمية الاعتدال والاستواء والإلتزام بذلك ولو جاء ذلك بأسلوب التأديب كما هو الحال هنا .

ثم أن موقف سواد ﷺ وطلبه القود من الرسول القائد ﷺ وعرض الرسول ﷺ نفسه والكشف عن بطنه لسواد فى مثل هذه الظروف الحرجة بل والحالكة لتؤكد عدالة الرسول ﷺ والاستجابة من القائد لهذا الجندى فى وقت العرض لما طلبه ، حيث أنه كان يطمح ، أن يكون آخر العهد أن يمس جلده جلد رسول الله ﷺ على ما أوردته المصادر فى سياق تلك القصة .

كما أن الرسول ﷺ استعمل نظام الصف أمام الأعداء يوم أحد ، فقد روى أبو طلحة ﷺ بسند صحيح قال : « غشينا ونحن فى مصافنا يوم أحد حدث أنه كان فيمن غشيه النعاس يومئذٍ . قال فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه ويسقط وآخذه ، والطائفة الأخرى . المنافقون ليس لهم إلا أنفسهم أجبن قوم وأرعبه وأخذله للحق »(٢٠) .

استعراض الغلمان لاختبار كفاءتهم القتالية :

فى غزوة أحد عندما علم رسول الله ﷺ بتعبئة المشركين لمهاجمة المسلمين بعد هزيمتهم فى غزوة بدر استشار ﷺ أصحابه فى مكان القتال ، فهناك من أشار عليه بداخل المدينة وكان عليه الصلاة والسلام يرى هذا الرأى ، وهناك من أشار عليه بالخروج عن المدينة ليجنبها ويلات الحرب وكان هذا هو الرأى الراجح ، فعندئذٍ عبأ الرسول عليه الصلاة والسلام جيشه وخرج إلى أحد ثم انسحب المنافقون بقيادة عبد الله بن أبى المنافق من جيش المسلمين . ولم يبق مع الرسول ﷺ إلا سبعمائة رجل(٢١) . وقبل المعركة وضع فرقة من الرماة عليهم عبد الله ابن جبير ﷺ ووجههم إلى جبل الرماة لحماية ظهور المسلمين لئلا يلتف عليهم المشركون من الخلف(٢٢) ... كما استعرض الرسول ﷺ جيشه ، وقبل من قبل ورد من رد وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ التى تثبت أنه استعرض أبناء الصحابة الصغار واحداً واحداً ، فمن كان سنه أقل من خمس عشرة سنة رده ، ومن كان أكثر من ذلك أجازه ، ولهذا نجد أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله جعل سن الخامسة عشر الحد ما بين من يثبتهم فى عطاء المقاتلة من عطاء الذرية(٢٣) .

أورد البخارى بسنده ، حدثه نافع ، حدثه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه « ثم عرضنى يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى »(٢٤) . قال نافع : «فقدمت على عمر بن عبد العزيز وهو خليفة فحدثته هذا الحديث فقال : إن هذا لحد بين الصغير والكبير، وكتب إلى عماله أن يفرضوا لمن بلغ خمس عشرة»(٢٥).

وقد رواه البيهقى بلفظ آخر بسنده ، من طريق محمد بن المثنى ومحمد بن بشار ، قالاً حدثنا عبد الوهاب الثقفى ، حدثنا عبيدا الله عن نافع ، عن ابن عمر،

قال : « عرضنى رسول الله ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فاستصغرنى وردنى مع الغلمان ، فلما كان يوم الخندق عرضنى وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى .. الحديث »(٢٦) .

وأوردت كتب السير مجموعة من الغلمان الذين استعرضهم رسول الله ﷺ بعد العصر وقبل غروب الشمس(٢٧) منهم ، عبد الله بن عمر ، وأسامه بن زيد وزيد بن ثابت ، البراء بن عازب ، وأسيد بن ظهير ، وعرابة بن أوس بن قيظى ، وابن سعيد بن خيثمة ، وسمرة بن جندب ، ورافع بن خديج(٢٨) . وزاد المقريزى عليهم الأسماء التالية : النعمان بن بشير ، وزيد بن أرقم ، وعمرو بن حزم، وسعد بن حبتة الأنصارى(٢٩) .

وفى أثناء العرض رد الرسول ﷺ سمرة بن جندب ورافع بن خديج ، وهما ابنا خمس عشرة سنة . فقيل للرسول ﷺ : إن رافعاً رام ، فأجازه رسول الله ﷺ ثم قال سمرة لقد اجزت رافعاً ورددتنى ولو صارعنى لصرعته ، قال فصارعته فصرعته فأجازنى فى البعث(٣٠) .

يقول ابن حجر : « أن عرض الجيش هنا هو اختبار لأحوالهم قبل مباشرة القتال ، للنظر فى هيئتهم وترتيب منازلهم ... »(٣١) .

أما قصة المصارعة وقت العرض فقد وردت فى كتب المحدثين ، إذ أوردها الحاكم فى المستدرك بسنده من رواية عبد الحميد بن جعفر ، عن أبيه ، عن سمرة ابن جندب رضى الله عنهم ... وذكر الحديث ... وقال هذا حديث صحيح الإسناد ، و لم يخرجاه(٣٢) ، أى البخارى ومسلم .

كذلك رواه البيهقى والطبرانى أيضا(٣٣) :

ثم إن بعض المصادر أشارت إلى أن الرسول ﷺ كان يقيم مثل هذه العروض فى كل سنة ، وليس خاصاً فى غزوة من الغزوات ، فقد وردت بذلك روايات عدة، منها على سبيل المثال : ما رواه البيهقى بسنده ، أخبره أبو عبد الله

الحافظ ، حدثه أبو الحسن محمد بن الحسن ، أنبأه على بن عبد العزيز ، حدثه إبراهيم بن عبد الله الهروى ، حدثه هشيم ، حدثه عبد الحميد بن جعفر الأنصارى ، عن أبيه، عن سمرة بن جندب ﷺ قال : « كان رسول الله ﷺ يعرض غلمان الأنصار فى كل عام فيلحق من أدرك منهم ... الحديث »(٣٤) .

غير أن الملاحظ هنا فى نصوص هذا الحديث أن العرض فى كل عام كان خاصاً بغلمان الأنصار دون المهاجرين . لكن سبق معنا فى أحاديث صحيحة وردت عند البخارى ومسلم ما يدل على أن العرض كان حتى لأبناء المهاجرين. من ذلك ما رواه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : « أن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه ، ثم عرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه »(٣٥) . وعبد الله بن عمر من أبناء المهاجرين .

كذلك أورد ابن حجر حديثاً لأبى واقد الليثى ﷺ قال : « رأيت رسول الله ﷺ يعرض الغلمان وهو يحفر الخندق »(٣٦) . هكذا مطلقاً ، و لم يحدد الراوى هل هم غلمان الأنصار ، أم غلمان الصحابة بشكل عام ، وهو الأرجح ، لثبوت الأدلة على ذلك بما سبق . ثم أن القصد من هذا العرض أمام الرسول ﷺ إنما هو لمعرفة من تكون له قدرة على القتال من هؤلاء الأبناء ، ممن لم يبلغ تلك المنزلة . فقصة رافع الذى أجازه الرسول ﷺ لأنه كان يجيد الرمى كما مر معنا آنفاً، على الرغم من وجود غلمان كانوا فى سنه و لم يجزهم الرسول ﷺ ابتداءاً لكن لأن المسألة هنا كانت مسألة قوة واقتدار على القتال ، فإن سمرة بن جندب ﷺ اعترض على ذلك وبين أنه يصرع رافعاً لو تصارع معه ، عندها وافق عليه الصلاة والسلام على المصارعة . فلما تمكن سمرة من مصارعة رافع ، أجازه الرسول عليه الصلاة والسلام . ولهذا يقول ابن حجر فى رواية أبى واقد الليثى : « أن الرسول ﷺ أجاز من أجاز ورد من رد إلى الذرارى »(٣٧) .

استعرض الجيش بنظام الخميس :

وفى غزوة خيبر نجد أن الرسول ﷺ عبأ جيشه نحو يهود خيبر مستخدماً عنصرين أساسيين هما :

- عنصر المفاجأة حيث أنه صبحهم بكرة ، فما أن خرجوا إلى مزارعهم فى الصباح إلا وقد فوجئوا بجيش الرسول ﷺ أمامهم . وذلك أسلوب من أساليب بث الرعب والوهن فى قلوب الأعداء .
- العنصر الثانى هو استعراض جيش المسلمين للأعداء وفق تنظيم عسكرى دقيق ، وهو نظام الخميس حيث تحرك الجيش إلى خيبر بهذه التعبئة التى فاجأت اليهود وجعلتهم يفزعون منها .

وأورد البخارى بسنده من رواية محمد بن سيرين عن أنس بن مالك ﷺ قال : « صبحنا خيبر بكرة فخرج أهلها بالمساحى ، فلما بصروا بالنبى ﷺ قالوا : محمد والله ، محمد والخميس . فقال النبى ﷺ الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين ... الحديث(٣٨) .

وقد أورده من طريق آخر بلفظ « أن رسول الله ﷺ آتى خيبر ليلاً وكان إذا أتى قوماً بليل لم يغز بهم حتى يصبح ، فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم ، فلما رأوه قالوا : محمد والله ، محمد والخميس ... وذكر تمام الحديث »(٣٩) .

إضافة إلى ذلك فإن رسول الله ﷺ حاصر يهود خيبر ، واستمر فى محاصرتهم ومحاربتهم . وكان بذلك صافا عساكره وجيوشه فى ليله ونهاره ، ومحاولاً فتح خيبر وهو على تعبئته تلك . وأثناء تلك المحاولات أعلن عليه الصلاة والسلام أنه سيدفع اللواء غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه . عندها أخذ الناس يتطاولون ويعرضون أنفسهم على رسول الله كل واحد منهم يرجو أن يكون هو ، إلى أن سأل عن على ﷺ ثم دفعها له

فتم فتح خيبر ، وقد روى أحمد(٤٠) بسنده من رواية عبد الله بن بريده أنه سمع أبا بريدة يقول : « حاصرنا خيبر فأخذ اللواء أبو بكر و لم يفتح له ، وأخذ من الغد عمر فانصرف و لم يفتح له ، وأصاب الناس يومئذ شدة وجهد ، فقال رسول الله ﷺ : إنى دافع لوائى غداً إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، لا يرجع حتى يفتح له، وبتنا طيبة أنفسنا أن الفتح غداً ، فلما أصبح رسول الله ﷺ صلى الغداة ثم قام قائماً ودعا باللواء والناس على مصافهم فما منا إنسان له منزلة عند رسول الله ﷺ إلا وهو يرجو أن يكون صاحب اللواء ، فدعا على بن ابى طالب وهو أرمد فتفل فى عينيه ومسح عنه ودفع إليه اللواء وفتح الله له . قال : وأنا فيمن تطاول لها »(٤١) .

استعراض قوة المسلمين عن طرق تجديد البيعة :

فى مستهل ذى القعدة من السنة السادسة من الهجرة خرج الرسول ﷺ ومعه من المسلمين ما يقارب ألفاً وأربعمائة على ما رواه البخارى من رواية جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما(٤٢) ، لقصد العمرة وذلك إظهاراً لتعظيم المسلمين للبيت الحرام ودحضا لأقاويل المشركين من أهل مكة الذين أدعوا على المسلمين عدم احترامهم للكعبة ، حيث بدأت مثل هذه الأقاويل تنتشر عند بعض قبائل الجزيرة العربية .

وتحسباً لوقوع صدام مع قريش فقد استعد الرسول ﷺ ومن معه بالسلاح وسار الرسول عليه الصلاة والسلام متجهاً نحو مكة عبر طرق بعضها غير معتادة ، حتى وصل إلى الحديبية - بالقرب من مكة بين الحل والحرم - على أن قريش حينما علمت بمقدمه اعترضت على دخوله مكة ، فأرسل الرسول عليه الصلاة والسلام رسلاً إلى قريش يخبرهم أنه لا يريد حرب أحد وإنما يريد زيارة البيت الحرام وتعظيمه . ومع ذلك رفضت قريش ، وظنت أن ذلك خدشاً بمكانتها عند العرب ، فكان ذلك عاملاً من عوامل إرسال عثمان بن عفان ﷺ إلى مكة ،

علهم يستجيبوا لرغبة المسلمين . وحدث أن تأخر عثمان بن عفان فى مكة ، وكان فى الوقت نفسه عروة بن مسعود الثقفى مفاوضاً من قبل قريش ، فكان خلال وجوده مع الرسول ﷺ شديد الملاحظة ، فهاله تقدير واحترام المسلمين للرسول ﷺ ومكانته عندهم ، ومدى فداءهم له فنقل هذه الصورة لقريش فكان مما قال : « ... أى قوم واالله . لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى ، واالله أن رأيت مليكاً قط يعظمه أصحابه ، ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً ... الحديث»(٤٣).

ولما أشيع أن عثمان بن عفان ﷺ قد قتل ، دعا الرسول ﷺ أصحابه للبيعة فهبوا إليه جميعاً ليبايعوه وتسابق المسلمون لمبايعته على القتال(٤٤) .

إن هذه الصورة من المبايعة وصلت إلى مسامع قريش ، مما جعلهم يعيدون النظر فى أسلوبهم وتعاملهم مع هذا الحدث العظيم ، الذى أصبح خطراً يقض مضاجعهم ، فانصاعوا إلى الصلح بدلاً من إشعال الحرب التى خافوا أنها لا تكون فى صالحهم ، لما رأوا من عزيمة المسلمين وقوتهم وثباتهم ومبايعتهم للرسول ﷺ على القتال . فكان ذلك عرضاً عسكرياً بالغاً لتحويل توجيه الحدث وقبول مبدأ التفاوض مع المسلمين وتحقيق مطالبهم ولو آجلا ، مما جعل قريش لا تقوم لها قائمة بعد هذا الصلح ، حيث تكتفت يداها ، وأصبحت فى حكم المدافع ، وانتهى دورها كمهاجم للمسلمين .

عرض كتائب المسلمين أمام الأعداء :

وإذا ما انتقلنا إلى غزوة الفتح ، أو فتح مكة نجد أن العرض العسكرى هناك أخذ طابعاً مميزاً عن غيره من العروض العسكرية السابقة ، والتى كانت تعتمد على رؤية الرسول القائد ، ومتابعته لها ، والإشراف عليها ، وإبداء التوجيهات اللازمة،

واختبار كفاءة المقاتلين ، وخاصة الشباب الجدد منهم . أما هنا فإن الوضع مختلف والأسلوب مغاير ذلك أن الرسول ﷺ لما خرج قاصداً مكة حرص على أن لا تعلم قريش بخبره ، حتى أتى إلى مر الظهران(٤٥) . وأحست قريش بخروج الرسول ﷺ والمسلمون إليهم . وكان أبو سفيان زعيم المشركين وأهل مكة آنذاك . فخرج يستروح الأخبار حتى ظفر به العباس ﷺ ، فاخبره خبر جيش المسلمين . ومازال العباس ﷺ بأبى سفيان يدعوه للدخول فى الإسلام حتى وضعه بين يدى النبى ﷺ، حتى أسلم ثم أعطاه الرسول ﷺ الأمان ولكل من يدخل بيته أو المسجد الحرام أو من يغلق عليه بابه . ولكن قبل أن ينصرف إلى مكة وإلى قومه - على ما ذكره المحدثون وأهل السير - أمر الرسول عليه الصلاة والسلام عمه العباس أن يأخذ أبا سفيان ويحبسه عد خطم الجبل(٤٦) . حتى يرى جنود الله بكامل عدتهم وعتادهم ، لينقل هذه الصورة إلى قومه ، وقد أورد البخارى هذه القصة بحديث طويل فى صحيحه(٤٧) . يمكن إيراد ما يخص هذه الحادثة وهو قول النبى ﷺ للعباس « ... احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين . فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة(٤٨) على أبى سفيان ، فمرت كتيبة قال يا عباس : من هذه ؟ قال هذه غفار . قال : مالى ولغفار ، ثم مرت جهينة ، وقال مثل ذلك . ثم مرت سعد بن هذيم فقال مثل ذلك ، ومرت سليم فقال مثل ذلك، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها ، قال من هذه ؟ قال هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية ... الحديث » .

وقد ورد هذا الحديث من طرق متعددة(٤٩) وذكر الطبرانى وغيره رواية مثل تلك إلا أنه وصف الكتيبة التى فيها الرسول ﷺ بقوله : « ... فلما مرت كتيبة فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق(٥٠) ، قال سبحان الله من هؤلاء يا عباس ؟ قلت هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة .. الحديث »(٥١) .

يقول ابن حجر فى فتح البارى مبيناً أمر الرسول ﷺ للعباس فى حبس أبى سفيان عند خطم الجبل ... « وإنما حبسه هناك لكونه مضيقاً ليرى الجميع ولا يفوته رؤية أحد منهم »(٥٢) .

كما أن ترتيب الرسول ﷺ لجيشه وتقسيمه إلى عدة فرق كل فرقة تتجه إلى مكة من طريق غير الطريق الذى تسلكه الفرقة الأخرى ، لهو نوع أيضاً من أنواع استعراض القوة أمام أهل مكة ، مما لا قبل لهم به ولا حول ولا قوة ، فيجعلهم يستسلمون وتسهل السيطرة على مكة وشعابها وجبالها . فقد أوردت كتب المغازى والسير والمحدثون ما يفيد بتقسيم الجيش ، حيث دخل رسول الله ﷺ من كداء بأعلى مكة(٥٣) ، وأمر خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى أن يدخل من الليط أسفل مكة ، إضافة إلى فرقة أبى عبيدة بن الجراح على فرقة الرجاله ، والزبير بن العوام على المجنبة اليسرى(٥٤) ، ومعه الراية التى أمره الرسول ﷺ أن تركز بالحجون ، على ما رواه البخارى(٥٥) .

عرض الرسول ﷺ نفسه بين فلول الهاربين من المسلمين :

أما فى غزوة حنين فإن المسلمين لما خرجوا لملاقاة هوازن بعد فتح مكة ، وبعد أن انضم إليهم ما يقارب الألفى شخص من مسلمة الفتح ، وبعد أن احتدمت المعركة وانتصر المسلمون فى بادئ الأمر وأخذوا فى جمع الغنائم ، إنهالت عليهم سهام هوازن ، حيث كانوا يجيدون الرمى ، فانكشف المسلمون فولوا هاربين إلا الرسول ﷺ ومن ثبت معه وهم قلة . فكان الرسول عليه الصلاة والسلام يستعرض وبنفسه وعلى بغلته البيضاء المسلمين وهو متجه نحو هوازن ويدعو الناس للثبات وعدم الفرار ، ويطلب من يذكر المسلمين بمواقفهم وبيعتهم تحت الشجرة ، وهى بيعة الرضوان يوم الحديبية . وكان النبى ﷺ وهو على بغلته يصرخ فى المسلمين ويقول :

أنا النبى لا كذب ** أنا ابن عبد المطلب

وأخذ المسلمون فى التوافد نحو ذلك الصوت . ثم صفهم الرسول ﷺ على ما أورده مسلم (٥٦) ، وأعاد المسلمون قواهم فكروا على عدوهم ، حتى كتب الله لهم النصر . وقد أورد البخارى ومسلم(٥٧) حديثاً من رواية البراء بن عازب ﷺ أن رجلاً قال له : « أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين . قال : لكن الرسول الله ﷺ لم يفر . إن هوازن كانوا قوماً رماة ، وإنا لما لاقيناهم حملنا عليهم فأنهزموا ، فأقبل المسلمون على الغنائم واستقبلونا بالسهام ؛ فأما رسول الله ﷺ فلم يفر ، فلقد رأيته وإنه لعلى بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بلجامها ، والنبى ﷺ يقول :

أنا النبى لا كذب ** أنا ابن عبد المطلب

استعراض القوة بالنيران أمام الأعداء :

ومن الاستعراضات العسكرية التى كان الرسول ﷺ يثبت بها قوته واقتداره أمام الأعداء ، ما كان يعمله عليه الصلاة والسلام من إشعال النيران أحياناً ليرهب بها الأعداء وليشعرهم بقدومه ، وحرصه عليه الصلاة والسلام من تكثير هذه النيران وتوزيعها حتى يدرك الراءون لها كثرة عدد أصحابها . من ذلك مثلاً ما حدث فى غزوة حمراء الأسد(٥٨) ، فبعد أن انتصر أهل مكة على المسلمين فى أحد هموا بالرجوع إلى المدينة من أجل استئصال المسلمين دفعة واحدة ، فلما علم الرسول ﷺ بذلك أمر الناس بالاستعداد لطلب العدو ، وأن لا يخرج معهم إلا من حضر فى أحد - على الرغم مما اصاب المسلمين من الجراح والتعب - يقول ابن حجر رحمه الله فى ذلك « وإنما خرج مرهباً للعدو ، وليظنوا أن الذى اصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوهم»(٥٩) .

وقد أورد ابن سعد فى قصة إيقاد النيران أنه « ... كان المسلمون يوقدون تلك الليالى خمسمائة نار ، حتى ترى من المكان البعيد . وذهب صوت معسكرهم

ونيرانهم فى كل وجه ، فكبت الله تبارك وتعالى بذلك عدوهم »(٦٠) ، ووافق ابن سعد هنا كل من ابن سيد الناس ، وعلى الحلبى(٦١) .

أما المقريزى فقد ذكر أنهم أوقدوا خمسمائة ناراً وأن الرسول ﷺ كان يأمر المسلمين بجمع الحطب نهاراً وإشعالها ليلاً على انفراد(٦٢) ، وقد أقام الرسول ﷺ بحمراء الأسد على ذلك ثلاث أيام ، وهى الاثنين والثلاثاء والأربعاء . ثم رجع إلى المدينة لما علم برجوع المشركين إلى مكة(٦٣) .

وكان هذا الاستعراض مصدر قوة للمسلمين ليس فقط تجاه المشركين أهل مكة ، وإنما حتى على المنافقين فى المدينة الذين كانوا يخذلون المسلمين ، وكذلك اليهود ، الذين كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر .

وإذاما انتقلنا إلى فتح مكة ، فإننا نجد جميع المصادر التى تحدثت عن هذه الغزوة أشارت إلى ما كان يعمله الرسول ﷺ من ايقاد النيران الكثيرة التى تشعر العدو بكثرة عدد المسلمين . وتلك النيران جعلت أبا سفيان - على ما ذكرت المصادر - هو ومن معه من كبراء مكة يخرجون إلى خارج مكة تحسساً للأخبار . وفى ذات ليلة ، وكما أورد البخارى فى صحيحه(٦٤) « ... أن أبا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء خرجوا يلتمسون الخبر عن رسول الله ﷺ ، فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مر الظهران ، فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفه ، فقال أبو سفيان : ما هذه لكأنها نيران عرفه . فقال بديل بن ورقاء : نيران بنى عمرو فقال أبو سفيان : عمرو أقل من ذلك ... وذكر تمام الحديث » وقد اتفقت جميع المصادر على هذا الحديث ، وتلك المحاورة بين أبا سفيان ورفاقه(٦٥) .

وعن عدد ما أوقد تلك الليلة من النيران ، فأننا نجد إشارة عند ابن سعد تفيد بأن الرسول ﷺ « .. أمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار ... »(٦٦) . وهذا العدد يمثل عدد جيش المسلمين الذى ذهب إلى مكة لفتحها .

عرض الرسول ﷺ للخيل :

تمثل الخيول أهمية بالغة فى العسكرية الإسلامية . فالرسول عليه الصلاة والسلام أهتم اهتماماً بالغاً بالخيل من حيث تنشئتها وتكثيرها ، وتدريبها والتدرب عليها ، ومعالجتها ، والحرص على إقتنائها . ووضع الحمى الخاصة بها . وكذلك عمل العروض اللازمة لها ، ثم الإسهام لها فى الغنيمة ، وقد ورد فى الحديث من رواية جرير بن عبد الله البجلى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيمة الأجر والغنيمة »(٦٧) .

إن كل موضوع من هذه الموضوعات يحتاج إلى بحث مستقل بذاته ، وحيث اننا بصدد الحديث عن استعراض الخيول وعرضها فى عهد الرسول ﷺ وما يتعلق فى ذلك فلابد من الإشارة هنا إلى الأحاديث الواردة فى هذا الشأن ، حتى يتبين لنا مدى العناية البالغة من الرسول ﷺ برياضة الخيول وتدريبها لغرض الجهاد فى سبيل الله . من ذلك مثلاً ما رواه الحاكم(٦٨) بسنده عن أبى بكر أحمد القاضى ، حدثه محمد بن سعد العوفى ، حدثه يعقوب الزهرى ، حدثه محمد ابن طلحة التيمى ، حدثه أبو سهل بن مالك عن سعيد بن المسيب عن سعد بن أبى وقاص ﷺ قال : « كان رسول الله ﷺ يجهز أو كان يعرض جيشاً ببقيع الخيل(٦٩) فأطلع العباس بن عبد المطلب ، فقال رسول الله ﷺ : هذا العباس عم نبيكم أجود قريش كفاً وأحناه عليها » ، وقد أورد هذا الحديث أحمد فى مسنده وابن حبان فى صحيحه وأبى يعلى فى مسنده والطبرانى فى المعجم الأوسط(٧٠) من طريق محمدبن طلحة .

وأورده الهيثمى بروايات متعددة . قال : « كنا عند النبى ﷺ ببقيع الخيل»، وفى رواية أنه قال : « خرج النبى ﷺ يجهز جيشاً فنظر إلى العباس فقال ... وذكر تمام الحديث » ، قال الهيثمى عن رواة أحمد وأبى يعلى ثقات ورجالهم رجال الصحيح(٧١) .

ومما يدل أيضاً على استعراض الرسول ﷺ للخيل ما رواه الإمام مسلم فى صحيحه والإمام أحمد فى مسنده(٧٢) من طريق أبى عثمان عن أبى موسى قال: « أخذ القوم فى عقبة أو ثنية ، فكلما علا رجل عليها نادى لا إله إلا الله والله أكبر ، والنبى ﷺ على بغلة يعرضها فى الخيل . فقال يا أيها الناس : إنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً ... الحديث » ، كما روى هذا الحديث أيضاً البخارى وابن حبان فى صحيحه وأبو داود فى السنن ، والنسائى فى سننه الكبرى(٧٣) .

وهناك حديث آخر ورد وبروايات متعددة يبين لنا مدى معرفة الرسول ﷺ بالخيل ، وحرصه عليها ، واستعراضه لها بين الحين والآخر ، وهو ما رواه أحمد بسنده ، حدثه صفوان بن عمرو ، قال حدثنى شريح بن عبيد عن عبد الرحمن بن عائذ الأزدى ، عن عمرو بن عبسة السلمى قال : « كان رسول الله ﷺ يعرض يوماً خيلاً وعنده عيينة بن حصن الفزارى. فقال له النبى ﷺ أنا أفرس بالخيل منك. فقال عيينه وأنا أفرس بالرجال منك ... وذكر تمام الحديث بطوله...»(٧٤). وقد أورده الحاكم فى مستدركه وقال « هذا حديث غريب المتن صحيح الإسناد » ولم يخرجاه(٧٥) أى البخارى ومسلم .

أما الطبرانى فرواه بلفظ آخر من رواية معاذ بن جبل ﷺ قال : « كان النبى ﷺ فى دارنا يعرض الخيل فدخل عليه عيينه ... الحديث »(٧٦) .

كما أورده الهيثمى من هذا الطريق وقال رواه الطبرانى ورجاله ثقات(٧٧) .

أما عن رواية أحمد فقد قال أنه رواه متصلاً ومرسلاً ورجاله ثقات(٧٨) .

وكما أن الرسول ﷺ اهتم بالخيول ورياضتها فإنه حرص أيضاً على تخصيص مكان لها فحمى النقيع(٧٩) للخيل - وهو على بعد عشرين فرسخاً من المدينة ، وقدره ميل فى ثمانية أميال على ما أورده ابن حجر(٨٠) - فقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة ، منها ما رواه البخارى بسنده من رواية عبد الله بن

دينار عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما « أن النبى ﷺ حمى النقيع لخيل المسلمين »(٨١) ، كما رواه البيهقى بسنده عن نافع عن ابن عمر بلفظ « أن النبى ﷺ حمى النقيع لخيل المسلمين ترعى فيه »(٨٢) .

وقد تواترت فى ذلك الأدلة وروى هذا الحديث أغلب المحدثين(٨٣) .

وبالإضافة إلى عرض الخيول أمام النبى ﷺ فإنه كان أيضاً يعمل المسابقة بينها عل حسب أنواعها ، وفئاتها وهو نوع من أنواع عرض الخيول ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا سبق إلا فى نصل أو خف أو حافر »(٨٤) .

ومن هنا كان عليه الصلاة والسلام يسابق بين الخيول المضمرة وغير المضمرة(٨٥) . فقد روى البخارى بسنده حدثه أبو إسحاق عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « سابق رسول الله ﷺ بين الخيل التى قد اضمرت فأرسلها من الحفياء وكان أمدها ثنية الوداع ، فقلت لموسى : فكم كان بين ذلك . قال : ستة أميال أو سبعة . وسابق بين الخيل التى لم تضمر فأرسلها من ثنية الوداع ، وكان أمدها مسجد بنى زريق . قلت : فكم بين ذلك؟ ... قال : ميل أو نحوه . وكان ابن عمر ممن سابق فيها »(٨٦) .

وذكر الخزاعى رواية عن الزهرى قال : « سبق سهل بن سعد الساعدى ﷺ على فرس لرسول الله ﷺ يقال له الظرب . فكساه رسول الله برداً يمانياً . وسبق أبو أسيد الساعدى على فرس لرسول الله ﷺ يقال له : لزاز فلما طلع الفرس جثا رسول الله ﷺ على ركبتيه وأطلع من الصف وقال : كأنه بحر . وكسا أبا أسيد حلة يمانية »(٨٧) .

وكان التشبيه له بأنه بحر مما يدل على سرعة الفرس وعدم انقطاع جريه ، مثل البحر لا ينقطع ماؤه(٨٨) ، ولهذا نجد هناك أحاديث رواها البخارى وذكر فيها أن الرسول ﷺ ركب فرساً لأبى طلحة يقال له « مندوب » فقال إنا وجدناه « لبحراً » . وقصة ذلك فيما رواه أنس بن مالك ﷺ قال : « كان » بالمدينة

فزع فاستعار النبى ﷺ فرساً لأبى طلحة يقال له مندوب . فركبه وقال ما رأينا من فزع وإن وجدناه لبحراً »(٨٩) .

ومن خيل الرسول ﷺ التى سابق فيها وسبقت كانت « السكب » و « سبحه » و « الأدهم » وغيرها(٩٠) .

و لم يكن أجراء العروض للسباق خاصاً بالخيل فقط وإنما شمل حتى الإبل ، فلقد سابق الرسول ﷺ بين الإبل ومعهن القصواء وعليها بلال ﷺ (٩١) . وذكر ابن جماعة أن للرسول ﷺ ناقة اسمها الجدعاء و كانت لا تسبق(٩٢) . مما يدل على أنه عمل لها ولغيرها سباق بين الإبل فسبقت ، كذلك أورد البخارى بسنده من رواية أنس ﷺ قال : « كانت لرسول ا لله ﷺ ناقة تسمى العضباء لا تسبق ، فجاء أعرابى على قعود فسبقها . فشق على المسلمين . فلما رأى ما فى وجوهم ، قالوا يا رسول ا لله : سبقت العضباء ؟ قال : إن حقاً على ا لله أن يرتفع من الدنيا شىء إلا وضعه »(٩٣) .

عرض الصحابة الفارون أنفسهم على رسول ا لله :

ومن أساليب العرض على رسول ا لله ﷺ ما كان يعمله بعض الصحابة رضوان ا لله عليهم ممن ارتكب خطأ فى القتال من فرار ونحوه ، أنهم يأتون ويعرضون أنفسهم على رسول ا لله ﷺ ليعفو عنهم أو يرى رأيه فيهم . من ذلك مثلاً ما رواه أبو داود وبسنده(٩٤) من رواية يزيد ابن أبى زياد ، أن عبد الرحمن ابن أبى ليلى حدثه أن عبد ا لله بن عمر حدثه ، أنه كان فى سرية من سرايا رسول ا لله ﷺ قال : « فحاص الناس حيصة(٩٥) فكنت فيمن حاص . قال : فلما برزنا قلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب ؟ فقلنا ندخل المدينة فنتثبت فيها ونذهب ولا يرانا أحد . قال فدخلنا فقلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول ا لله ﷺ ، فإن كان لنا توبة أقمنا ، وإن كان غير ذلك ذهبنا . قال فجلسنا لرسول ا لله ﷺ قبل صلاة الفجر فلما خرج قمنا إليه فقلنا : نحن الفرارون . فأقبل إلينا فقال : بل أنتم العكارون(٩٦) قال فدنونا فقبلنا يده فقال إنا فئة المسلمين » .

وقد أورد هذا الحديث بجموعة من المحدثين بأسانيدهم من طريق يزيد بن أبى زياد ، فقد أورده الترمذى فى سننه(٩٧) ، كما أورده ابن حبان فى صحيحه(٩٨)، وكذا الحاكم فى المستدرك على الصحيحين(٩٩)، وذكره الإمام أحمد فى مسنده(١٠٠) . والطبرانى فى المعجم الكبير(١٠١) ، وأبو يعلى فى مسنده(١٠٢) .

عرض الأسرى والمحاربين أمام الرسول ﷺ :

وكان الأسرى يعرضون على الرسول ﷺ بعد المعركة ليرى فيهم رأيه ، ويحكم عليهم بحكمه ، بحسب مقتضى حالهم ، ومدى إيغالهم فى العداوة للإسلام وأهله ، ومدى حرص الرسول ﷺ وطمعه بإسلام البعض منهم . ولهذا نجد أن الرسول ﷺ - بعد غزوة بدر وأنتصار المسلمين وأسرهم لعدد من المشركين وأثناء عودتهم قافلين إلى المدينة - أمر بقتل كل من النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط على ما رواه ابن اسحاق ، قال : « ... حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالصفراء قتل النضر بن الحارث ، قتله على بن أبى طالب ... ثم خرج حتى إذا كان بعرق الظبية قتل عقبة بن أبى معيط ... »(١٠٣) . وقد وردت روايات عدة عند المحدثين عن ذلك(١٠٤) .

أما المحاربون - وهم اليهود بعد نقضهم العهد مع رسول الله ﷺ - فقد وردت أحاديث فى غزوة بنى قريظة تبين أن الرسول ﷺ لما حاربهم وانتصر عليهم وجمع رجالهم وصبيانهم ونساءهم ، فإنه جعل النساء والذرارى من السبى . أما الرجال فتم قتلهم(١٠٥) . وأما الأولاد فإنهم عرضوا على النبى ﷺ فمن رآه قد أنبت شعره - أى وصل إلى البلوغ - قتل ، ومن لم ينت لم يقتل . من ذلك ما رواه الترمذى(١٠٦) بسنده قال حدثنا وكيع عن سفيان عن عبد الملك بن عمير عن عطية القرظى قال : « عرضنا على النبى ﷺ يوم قريظة فكان من أنبت قتل ، ومن لم ينبت خلى سبيله ، فكنت ممن لم ينبت فخلى سبيلى .. » قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح(١٠٧) .

وقد رواه ثلة من المحدثين بأسانيدهم ، عن سفيان حدثه عبد الملك بن عمير، حدثه عطية القرظى(١٠٨) ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير(١٠٩) ، من رواية أسلم بن بجره بلفظ « ... فكان ينظر إلى فرج الغلام فمن أنبت ضرب عنقه وإن لم ينبت ففى المغنم ... »(١١٠) .

وهكذا نجد أن الرسول ﷺ كان يشرف بنفسه على استعراض أولئك الغلمان للتأكد من واقع بلوغهم ، وإنزال الحكم فيهم ، وحتى لا يؤخذ أحد بالظنة أو الخطأ أو النسيان ، لأن فى هذا حكما من أحكام ا لله أجراه ا لله على لسان سعد ابن معاذ ﷺ ، حينما قال له الرسول ﷺ على ما أورده البخارى «... قضيت فيهم بحكم ا لله ... »(١١١) . وذلك بسبب جريمتهم البشعة فى نقض العهود فى أحلك الأوقات أيام غزوة الأحزاب » .

الهوامـش

(١) الاستعراض من العرض ، يقال عرضت الجند عرض العين ، إذا أمررتهم عليك ونظرت ما حالهم ، وقد عرض العارض الجند ، واعترضوا هـم . ومنـه اعـتراض الجنـد علـى قـائدهم ، واعترض الناس : عرضهم واحداً واحداً . وقيل هـو مـن عـرض الجنـد بـين يـدى السـلطان لإظهارهم واختبار أحوالهم . ومنه الاعتراض على الدابة ، إذا كـان وقـت العـرض راكبـاً . انظر ابن منظور - لسان العرب ٥/٢٨٨٥ .

(٢) الآية ٤ من صورة الصف .

(٣) انظر ابن كثير - تفسير القرآن العظيم ٤/٣٥٩ .

(٤) وبالمقابل فإن الله سبحانه وتعالى قلل عدد المشركين فى نظر المسلمين حتى تقوى عزائمهم ومعنوياتهم ومنه قوله تعالى : ﴿ إذ يريكهم الله فى منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشـلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور ﴾ الآية ٤٣ من سورة الأنفال.

(٥) انظر محمود شيت خطاب - الرسول القائد ٧٨ ، ٧٩ ، أكـرم العمـرى - المجتمـع المدنـى فى عهد النبوة ٤٧ .

(٦) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/٨٠ .

(٧) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/٢٩ .

(٨) انظر عن هذا الحديث البخارى - الجامع الصحيح المختصر ٤/١٤٩٣ - وسـنن الـترمذى ٥/٢٢٩ ، النسائى - السنن الكبرى ٦/٣١٦ ، الطبرانى - المعجم الكبير ٥/٩٥ .

(٩) انظر ابن كثير ، السيرة النبوية ٢/ ٤٠٩ .

(١٠) انظر البيهقى - السنن الكبرى ٩/ ١٥٥ وانظر أبى داود - السـنن ٣/ ٥٢ بلفـظ حين اصطففنا يوم بدر ، وانظر أيضاً الطبرانى - المعجم الكبير ١٩ / ٢٦٢ .

(١١) انظر البخارى - الصحيح ٥/١٠ - ١١ .

(١٢) سليمان الطبرانى - المعجم الكبير ٤/١٧٤ .

(١٣) مسند الإمام أحمد ٤٢٠/٥ .

(١٤) السيرة النبوية ٢/ ٤٠٩ ، وانظر أيضاً البداية والنهاية ٢٧١/٣ .

(١٥) انظر الهيثمى - مجمع الزوائد ٧٥/٦ .

(١٦) انظر عن ترجمته ابن عبد البر - الاستيعاب ٢٩٣/٤ ، ابن حجر - الإصابة ٢٩٢/٤ - ٢٩٣ .

(١٧) يقال نتل من بن أصحابه نتلاً ونتولاً واستنتل أى تقدم ، واستنتل القوم على الماء إذا تقدموا. انظر ابن منظور - لسان العرب ٤٣٣٧/٧ .

(١٨) انظر عن ذلك - ابن اسحاق - سيرة النبى ﷺ ٤٥٦/٢ - ٤٥٧ ، ابن هشام من رواية ابن اسحاق فى السيرة النبوية ٦٢٦/٢ ، وكذا ابن كثير فى البداية والنهاية ٣/ ٢٧١ ، والسيرة النبوية ٤٠٩/٢ - ٤١٠ ، وكل هؤلاء أوردوها من طريق واحد هو هذا الإسناد الذى فيه جهالة شيوخ حبان بن واسع بن حبان .

(١٩) انظر مجمع الزوائد ٦/ ٢٨٩ .

(٢٠) قال الترمذى حديث حسن صحيح ، انظر سنن الترمذى ٢٢٩/٥ كما رواه أحمد فى المسند ٢٩/٤ ، والطبرانى فى المعجم الكبير ٩٥/٥ .

(٢١) انظر ابن هشام - السيرة النبوية ٦٤/٣ ، ٦٥ ، ابن كثير - السيرة النبوية ٢٦/٣ - ٢٩ .

(٢٢) انظر المصادر السابقة وانظر أيضاً البخارى - الصحيح ٢٩/٥ .

(٢٣) انظر ابن سعد - الطبقات ٢٥٨/٥ ، ابن حجر العسقلانى - فتح البارى ٢٧٨/٥ ، ٢٧٩ ، ٣٩٣/٧ ، ٣٩٤ .

(٢٤) البخارى - الجامع الصحيح ٤٥/٥ ، صحيح مسلم ١٢/١٣ ، أبو داود - السنن ٥٦١/٤ ، ٥٦٢ ، الترمذى - السنن ٦٤١/٣ ، أحمد - المسند ١٧/٢ .

(٢٥) انظر - البيهقى - السنن الكبرى ٦/ ٣٥٢ ، الطبرانى - المعجم الكبير ٥٩/١ ، انظر فتح البارى ٢٧٦/٥ ، ٣٩٣/٧ حيث شرح هذا الحديث شرحاً وافياً .

(٢٦) انظر سنن البيهقى ٦/٥٥ ، كما أورد مسلم جزءاً من هذه الرواية ، انظر الصحيح ١٢/١٣ .

(٢٧) انظر المقريزى - إمتاع الأسماع ١/١١٩ حيث قال : « فلما فرغ العرض وغابت الشمس أذن بلال بالمغرب » .

(٢٨) انظر ابن هشام - السيرة النبوية ٣/٦٦ ، ابن كثير - السيرة النبوية ٣/٢٩ - ٣٠ المقريزى - إمتاع الأسماع ١/١١٩ .

(٢٩) انظر إمتاع الأسماع ١/١٩٩ ، انظر أيضاً ابن سيد الناس - عيون الأثر ٢/٧ حيث ذكر أن عدد من ردهم الرسول ﷺ من الأولاد بلغ أربعة عشر غلاماً .

(٣٠) انظر ابن هشام - السيرة النبوية ٣/٦٦ ، ابن عبد البر - الاستيعاب ٤/٢٥٨ ، الخزاعى التلمسانى - تخريج الدلالات السمعية ٢٤١ .

(٣١) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧/٣٩٣ .

(٣٢) انظر الحاكم - المستدرك على الصحيحين ٢/ ٧٩ وذكر محقق الكتاب عبد القادر عطا أن الذهبى قال فى التلخيص حديث صحيح .

(٣٣) انظر سنن البيهقى ١٠/١٨ ، الطبرانى - المعجم الكبير ٧/ ١٧٧ .

(٣٤) انظر سنن البيهقى ١٠/١٨ ، الحاكم - المستدرك على الصحيحين ٢/٦٩ ، الطبرانى ، المعجم الكبير ٧/١٧٧ ، وانظر ابن عبد البر - الاستيعاب ٤/ ٢٥٨ بلفظ « كان يستعرض غلمان الأنصار فى كل عام » .

(٣٥) انظر الجامع الصحيح للبخارى ٥/٤٥ ، صحيح مسلم١٣/ ١٢ .

(٣٦) انظر ابن حجر - فتح البارى ٧/٣٩٤ .

(٣٧) انظر المصدر السابق ٧/٣٩٤ حيث ذكر أن معنى الإجازة هنا هو « امضاؤه والإذن له بالقتال » .

(٣٨) انظر صحيح البخارى ٥/٥٧٣ ، وصحيح مسلم بلفظ : « فأتيناهم حين بزغت الشمس ... الحديث ١٢/١٦٥ .

(٣٩) انظر المصدر السابق ٧٣/٥ ، ابن حجر - فتح البارى ٤٦٧/٧ .

(٤٠) انظر مسند أحمد ٣٥٣/٥ .

(٤١) انظر السنن الكبرى ١٠٩/٥ ، ١٧٩/٥ ، وانظر أيضاً ، أحمد بن حنبل . فضائل الصحابة ٥٩٣/٢ وذكر المحقق أن أسناده هنا صحيح .

(٤٢) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ٤٤٣/٧ ، ٤٤٤ .

(٤٣) أورده البخارى مطولاً فى قصة الحديبية فى باب الشروط فى الجهاد ، وانظره مع الشرح فى فتح البارى ٣٢٩/٥ وما بعدها .

(٤٤) وردت روايات عدة عن صيغة البيعة وهل هى على الموت ، أو على عدم الفرار أو على الصبر حيث وردت أحاديث كثيرة فى ذلك ظاهرها التعارض ، وقد جمع العلماء بين هذه الآراء فمن ذلك ما ذكره الترمذى من أن هناك من بايعه من أصحابه على الموت ، وبايعه آخرون فقالوا : « لا نفر » انظر سنن الترمذى ١٥٠/٤ ، أما ابن الحجر فقال : « لا تنافى بين قولهم ، بايعوه على الموت وعلى عدم الفرار ، لأن المراد بالمبايعة على الموت أن لا يفروا ، وليس المراد أن يقع الموت ولابد وهو الذى أنكر نافع وعدل إلى قوله : « بل بايعهم على الصبر » أى على الثبات سواءاً أفضى ذلك إلى الموت أو لا « والله أعلم » . انظر ابن حجر فتح البارى ١١٨/٦ .

(٤٥) مر الظهران ، سمى مر لمرارته والظهران وادٍ قرب مكة بينه وبين البيت ستة عشر ميلاً . وببطن الوادى تخزعت خزاعة أيام سيل العرم ، وبه كان الرسول ﷺ ينزل إذا أتى إلى مكة، انظر البكرى - معجم ما استعجم ١٢١٢/٢ ، ياقوت - معجم البلدان ٦٣/٤ .

(٤٦) الخطم رعن الجبل وهو الأنف منه حيث يضيق الموضع الذى يخرج فيه . انظر ابن منظور - لسان العرب ١٢٠٣/٢ .

(٤٧) انظر صحيح البخارى ٩١/٥ ، وانظر ابن كثير - السيرة النبوية ٥٤٩/٣ ، ٥٥٣ .

(٤٨) الكتيبة هى القطعة العظيمة من الجيش والجمع كتائب . انظر الجزرى - النهاية فى غريب الحديث ١٤٨/٤ ، ابن منظور - لسان العرب ٣٨١٨/٦ .

(٤٩) انظر مثلاً مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٦٦/١ ، البيهقي - السنن الكبرى ١١٩/٩ البخاري - الجامع الصحيح المختصر ١٥٥٩/٤ .

(٥٠) الحدق هو السواد المستدير وسط العين ومنه التحديق وهو شدة النظر بالحدقة ، انظر ابن منظور - لسان العرب ٨٠٦/٢ .

(٥١) الطبراني - المعجم الكبير ٩/٨ ، وانظر ابن كثير - البداية والنهاية ٢٩٠/٤ .

(٥٢) انظر فتح الباري ٨/٨ ، وانظر أكرم العمري - المجتمع المدني في عهد النبوة ١٧٦ .

(٥٣) انظر البخاري - الصحيح ٩٣/٥ .

(٥٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٢٦/١٢ ، ١٢٧ ، ابن هشام - السيرة النبوية ٤٠٧/٣ ، ابن سعد - الطبقات ٩٨/٢ ، ابن الديبع الشيباني - حدائق الأنوار ٦٦٩/٢ ، ابن كثير - البداية والنهاية ٢٩٣/٤ ، الخزاعي التلمساني - تخريج الدلالات السمعية ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٥٥) انظر البخاري - الصحيح ٩١/٥ .

(٥٦) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١١٨/١٢ - ١٢٠ .

(٥٧) انظر صحيح البخاري ٢١٨/٣ ، وصحيح مسلم بشرح النووي ١٢١/١٢ .

(٥٨) حمراء الأسد : موضع على ثمانية أميال من المدينة إليه انتهى رسول الله ﷺ في اليوم الثاني من يوم أحد بطلب المشركين ، انظر البكري - معجم ما استعجم ٤٦٨/١ ، ياقوت معجم البلدان ٣٠١/٢ .

(٥٩) انظر فتح الباري ٣٧٤/٧ ، ابن كثير - البداية والنهاية ٤٩/٤ ، السيرة النبوية ٩٨/٣ .

(٦٠) انظر طبقات ابن سعد ٣٥/٢ الواقدي - المغازي ٣٣٨/١ .

(٦١) انظر عيون الأثر ٣٨/٢ ، علي الحلبي - السيرة الحلبية ٢/ ٣٣٩.

(٦٢) انظر امتاع الأسماع ١٦٩/١ .

(٦٣) انظر ابن كثير - البداية والنهاية ٤٩/٤ ، أما ابن سعد فقد أشار إلى أن الرسول ﷺ انصرف إلى المدينة ودخلها يوم الجمعة ، وقد غاب عنها خمس ليال ... انظر الطبقات ٣٥/٢ .

(٦٤) انظر الصحيح البخارى ٩١/٥ .

(٦٥) انظر مثلاً سنن البيهقى الكبرى ١١٩/٩ ، ومسند الإمام أحمد ٢٦٦/١ ، الطبرانى - المعجم الكبير ٩/٨ ، وانظر أيضاً ابن اسحاق - سيرة النبى ﷺ ٨٦١/٤ ، ابن هشام - السيرة النبوية ٤٠٢/٤ ، ابن كثير - السيرة النبوية ٥٧٤/٣ ، البداية والنهاية ٢٨٩/٤ .

(٦٦) انظر الطبقات ٩٧/٢ ، ابن اسحاق - سيرة النبى ﷺ ٨٦١/٤ ، وانظر ابن حجر - فتح البارى ٧/٨ حيث أشار إلى أن النيران قد أخذت الوادى كله .

(٦٧) الحديث رواه مسلم من رواية أبى هريرة ، انظر صحيح مسلم ١٤٩٣/٣ ، النسائى - السنن ٢٢١/٦ ، البيهقى - السنن الكبرى ١١٢/٦ ، أبى يعلى فى المسند ٥١/٥ ، ٥٢ ، الطبرانى - المعجم الكبير ٣٣٧/٢ .

(٦٨) قال الحاكم عن هذا الحديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه البخارى ومسلم ، انظر المستدرك ٣٧١/٣ .

(٦٩) البقيع هو الموضع الذى فيه أروم الشجر من ضروب شتى ومنه بقيع المدينة ، أما بقيع الخيل فهو مكان بالمدينة عند دار زيد بن ثابت . انظر ياقوت - معجم البلدان ٤٧٣/١ ، ٤٧٤ .

(٧٠) وانظر مسند أحمد ١/ ١٨٥ ، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٥٢٨/١٥ ، مسند أبى يعلى ١٣٩/٢ ، الطبرانى - المعجم الأوسط ٢/ ٥٥٢ .

(٧١) انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٢٧١/٩ .

(٧٢) انظر صحيح مسلم ٢٠٧٧/٤ ، ومسند الإمام أحمد ٤/ ٤٠٧ .

(٧٣) انظر الجامع الصحيح المختصر ٥/ ٢٣٥٤ ، ابن حبان - الصحيح ٨٤/٣ ، أبو داود السنن ٨٧/٢ ، النسائى - السنن الكبرى ٢٥٥/٥ ، ١٣٧/٦ .

(٧٤) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٨٧/٤ ، فضائل الصحابة ٢/ ٨٧٧ .

(٧٥) انظر المستدرك على الصحيحين ٩١/٤ ، وقال فى التلخيص صحيح غريب .

(٧٦) انظر المعجم الكبير للطبرانى ٢٠/ ٩٨ .

(٧٧) انظر الهيثمى حيث ذكر أن رجال الطبرانى ثقات إلا أن خالد بن معدان لم يسمع من معاذ بن جبل ، فى مجمع الزوائد ١٠/ ٤٧ .

(٧٨) انظر المصدر السابق ٤٦/١٠ .

(٧٩) النقيع : هى الأرض السهلة المستوية تنبت الرمث والبقل وأطايب العشب ، وقيل هى متسع الوادى ، فأصل النقيع كل موضع يستنقع فيه الماء ، انظر ابن منظور - لسان العرب ٤٥٢٦/٨ ، وانظر فتح البارى ٤٥/٥ .

(٨٠) انظر فتح البارى ٥/ ٤٥ .

(٨١) انظر الجامع الصحيح المختصر ٢/ ٥٣٥ .

(٨٢) انظر سنن البيهقى ١٤٦/٦ .

(٨٣) انظر مثلاً مسند الإمام أحمد ٢/ ٩١ ، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٥٣٨/١٠ ، سنن الدار قطنى ٢٣٨/٤ ، شرح معان الآثار ٢٦٩/٣ .

(٨٤) انظر النسائى - السنن بشرح الإمام السيوطى ٢٢٦/٦ .

(٨٥) من الإضمار او التضمير وهو تقليل علف الفرس مدة وتحليلها لتعرق ويجف عرقها فيخف لحمها وتقوى على الجرى ، وقيل هو تسمينها أولاً ثم ردها إلى القوت . انظر - السيوطى - شرح سنن النسائى ٢٢٦/٦ .

(٨٦) البخارى - الصحيح ٣/ ٢١٩ ، ٢٢٠ ، بروايات متعددة ، النسائى - السنن بشرح الإمام السيوطى ٢٢٦/٦ .

(٨٧) انظر تخريج الدلالات السمعية ٣٩٢ ، ٣٩٣ .

(٨٨) انظر الثعالبى- فقه اللغة ١٥٢ .

(٨٩) انظر صحيح البخارى ٣/٢١٨ ، كما رواه من طريق آخر بلفظ « ... أن النبى ﷺ ركب فرساً لأبى طلحة كان يقطف أو كان فيه قطاف فلما رجع قال : وجدنا فرسكم هذا بحراً . فكان بعد ذلك لايجارى » ، انظر البخارى ٣/٢١٩ .

(٩٠) انظر ابن جماعة الحموى - مستند الأجناد فى آلات الجهاد ٧٠ ، ٧١ ، الخزاعى التلمسانى تخريج الدلالات السمعية ٣٩٣ .

(٩١) انظر المقريزى - إمتاع الأسماع ١/٢٠٦ .

(٩٢) انظر مستند الأجناد لابن جماعه ٧٣ .

(٩٣) انظر صحيح البخارى ٣/٢٢٠ ، وانظر سنن النسائى بشرح السيوطى ٦/٢٢٧ .

(٩٤) انظر أبو داود - السنن ٣/ ٤٦ .

(٩٥) من الحيص : وهو الحيد عن الشيء ، يقال حاص عنه يحيص حيصاً أى رجع . يقال للأولياء : حاصوا عن العدو . وللأعداء انهزموا . انظر ابن منظور - لسان العرب ٢/ ١٠٧٠ .

(٩٦) من عكر على الشيء يعكر عكراً واعتكر أى كر وانصرف ، يقال رجل عكار فى الحرب أى عطاف كرار . وقال ابن الأعرابى العكار : الذى يولى فى الحرب ثم يكر راجعاً . انظر الجوهرى - الصحاح ٢/٧٥ ، ابن المنظور - لسان العرب ٥/٣٠٥٥ .

(٩٧) انظر الجامع الصحيح - سنن الترمذى ٤/٢١٥ قال عنه هذا الحديث حسن .

(٩٨) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٥/٣٦٦ .

(٩٩) المستدرك على الصحيحين ٣/ ٤٣٩ .

(١٠٠) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ١٠٨ .

(١٠١) المعجم الكبير ١٨/٥ .

(١٠٢) انظر مسند أبى يعلى ٩/٤٤٧ ، ١٠/ ١٥٨ وذكر المحقق له حسين سليم أسد أن إسناده ضعيف لضعف يزيد بن ابى زياد . أما الذهبى فقال عن يزيد بن أبى زياد أنه شيعى عالم فهم صدوق ردئ الحفظ لم يترك روى له مسلم والأربعة . انظر الكاشف ٣/٢٧٨ / أما ابن حجر فقال عنه ضعيف كبر فتغير ، انظر تقريب التهذيب ٢/٣٦٥ .

(١٠٣) ذكر ابن كثير من رواية ابن اسحاق أن عقبة بن أبى معيط لما أقتيد وقدم للقتـل قـال : فمن للصبية يا محمد . قال : النار ... ثم قال لما أقبل عليه عاصم بن ثابت لقتله : يا معشـر قريش علام أقتل من بين هؤلاء ؟ قال له : على عداوتك ا لله ورسوله . انظـر ابـن كثـير - السيرة النبوية ٤٧٣/٢ ، والبداية والنهاية ٣٠٥/٣ .

(١٠٤) انظر عن هذه الروايات أحمد باوزير - مرويات غزوة بدر ٣٠٤ - ٣١٢ .

(١٠٥) ذكر البخارى أن الرسول ﷺ طلب من سعد بن معاذ أن يحكم فيهم قـال سـعد فـإنى أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة وأن تسبى النساء والذريـة وأن تقسـم أموالهـم . انظـر صحيـح البخارى - ٥١/٥ .

(١٠٦) فى الجامع الصحيح - سنن الترمذى ١٤٥/٤ .

(١٠٧) الجامع الصحيح - سنن الـترمذى ٤/ ١٤٥ ، وذكـر المحقـق أيضـاً أن الألبانى صححه وانظر أيضاً الضحاك فى كتابه الآحاد والمثانى ٢٠٥/٤ .

(١٠٨) انظر مثلاً صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبـان ١٠٤/١١ ، الحـاكم - المسـتدرك علـى الصحيحين ٤٣٠/٤ ، ابن ماجه - السنن ٢/ ٨٤٩ ، سنن الدرامى ٢/ ٢٩٤ ، مسند أبى داود الطيالسى ١٨١ ، مسند الإمام أحمد ٣١٠/٤ .

(١٠٩) انظر المعجم الكبير ٤٣٦/١٩ .

(١١٠) أورده الهرثمى بسند أسلم بن بجره الأنصارى وقال فيـه جماعـة لم أعرفهـم. انظـر مجمـع الزوائد ١٤٤/٦ .

(١١١) انظر صحيح البخارى ٥٠/٥ .

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم :**

- **الآحاد والمثانى :**

أحمد بن عمرو بن الضحاك (ت ٢٨٧هـ) ، ط / الراية - الرياض عام ١٤١١هـ ، مراجعة باسم فيصل الجوابره .

- **الاستيعاب فى معرفة الأصحاب :**

يوسف بن عبد الله بن عبد البر ، تحقيق : طه محمد الزينى ، ط١ مكتبة الكليات الأزهرية .

- **الإصابة فى تمييز الصحابة :**

شهاب الدين أحمد بن على العسقلانى المعروف بابن حجر (ت ٨٥٢هـ) ، ط الأولى . دار إحياء الكتب العربية عام ١٣٩٣هـ .

- **البداية والنهاية :**

لأبى الفداء الحافظ بن كثير (ت ٧٧٤هـ) ط/ الثالثة ، مكتبة المعارف ، بيروت .

- **الجامع الصحيح المختصر :**

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارى (ت ٢٥٦هـ) . ط/ دار ابن كثير «اليمامة» بيروت عام ١٤٠٧هـ . مراجعة د. مصطفى ديب البغا .

- **الجامع الصحيح وهو سنن الترمذى :**

لمحمد بن عيسى الترمذى (ت ٢٧٩هـ) ، ط / دار أحياء التراث ، بيروت ، مراجعة أحمد محمد شاكر .

- الرسول القائد :

محمود شيت خطاب ، الطبعة المصرية - القاهرة .

- السنن لابن ماجه :

أبو عبيد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ) ط / المكتبة الإسلامية بتركيا . تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .

- السنن للدارمي :

أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدرامي (ت ٢٥٥هـ) ، الناشر : دار إحياء السنة النبوية .

- السنن لأبي داود :

سليمان بن الأشعث المعروف بأبي داود ، ط/ دار الفكر ، مراجعة : محمد محيي الدين عبد الحميد .

- السنن الكبرى للبيهقي :

أحمد بن الحسين بن علي بن موسى (ت ٤٥٨هـ) ، ط / مكتبة دار الباز بمكة عام ١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م .

- السيرة النبوية :

أبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤هـ) ، تحقيق : مصطفى عبد الواحد ، ط/ دار المعرفة - بيروت عام ١٣٩١هـ .

- السيرة النبوية :

لأبي محمد عبد الملك بن هشام (ت٥٨١هـ) ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ، ط/ الثانية عام ١٣٧٥هـ ، مطبعة البابي الحلبي .

- الصحاح :

إسماعيل بن حماد الجوهرى ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الثانية عام ١٤٠٢هـ .

- الكاشف فى معرفة من له رواية فى الكتب الستة :

للحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى (ت ٧٤٨ ، ط/ دار الكتب الحديثة - مصر ، ط / الأولى ١٣٩٢هـ ، تحقيق : عزت على عطيه ، موسى محمد الموسى .

- الطبقات الكبرى :

لمحمد بن سعد الزهرى مولاهم ، ط/ دار التحرير للطباعة والنشر - القاهرة .

- المجتمع المدنى فى عهد النبوة « الجهاد ضد المشركين » :

د. أكرم ضياء العمرى ، الطبعة الأولى عام ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

- المستدرك على الصحيحين :

أبو عبد الله محمد النيسابورى المعروف بالحاكم (ت٤٠٥هـ) ، ط/ دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١١ ، راجعه : مصطفى عبد القادر عطا .

- المعجم الكبير :

سليمان بن أحمد بن أيوب الطبرانى (ت٣٦٠هـ) ط / مكتبة العلوم والحكم - الموصل ١٤٠٤هـ . مراجعة : حمدى السلفى .

- المغازى :

لمحمد بن عمر الواقدى (ت٢٠٧هـ) ، ط/ عالم الكتب - بيروت ، تحقيق : د. ماردسن جونس .

- المسند :

للإمام أحمد بن حنبل - دار النشر ، مؤسسة قرطبة بمصر - مصورة عن الطبعة الميمنية .

- **النهاية فى غريب الحديث :**

لمجد الدين أبى السعادات بن الأثير الجزرى ، تحقيق : طاهر أحمد الزاوى ومحمود طناحى ، ط١ ، المطبعة عيسى البابى الحلبى عام ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.

- **إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع :**

تقى الدين أحمد بن على المقريزى ، صححه محمود شاكر ، ط/ الشؤون الدينية بقطر ، الطبعة الثانية .

- **إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون ، المعروفة بـ « السيرة الحلبية » :**

على بن برهان الدين الحلبى ، ط/ المطبعة المصرية عام ١٢٩٢هـ .

- **تخريج الدلالات السمعية على ماكان فى عهد الرسول ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية :**

أبى الحسن على بن محمد الخزاعى التلمسانى (ت ٧٨٩هـ) ، مطبوعات وزارة الأوقاف المصرية - عام ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م .

- **تفسير القرآن العظيم :**

لأبى الفدا إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤ هـ) ، طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت ١٣٨٨م - ١٩٦٩م .

- **تقريب التهذيب :**

شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ) ، ط/ دار المعرفة ، بيروت ١٣٩٥هـ ، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف .

- **حدائق الأنوار ومطالع الأسرار :**

لابن الديبع الشيبانى الشافعى ، تحقيق : عبد الله الأنصارى ، ط/ قطر عام ١٤٠٣هـ .

- سنن النسائى الكبرى :

أحمد بن شعيب بـن علـى النسـائى ، ط / المكتبـة العلميـة - بـيروت ، دار الكتـب العلمية/ بيروت ١٤١١هـ ، مراجعة : عبد الغفار البندارى وسيد كروى حسن .

- صحيح مسلم :

مسلم بن الحجاج النيسابورى ، ط/ إحياء التراث العربى - بيروت ١٣٧٤هـ ، وصحيح مسلم بشرح النووى - المطبعة المصرية .

- صحيح البخارى :

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارى (ت ٢٥٦هـ) ، ط/ المكتبـة الإسـلامى باستانبول - تركيا .

- عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير :

لابن سيد الناس (ت ٧٣٤هـ) . ط/ طبعة دار المعرفة للطباعة - بيروت .

- فتح البارى شرح صحيح البخارى :

لابن حجر . شهاب الدين أحمد بن على العسقلانى (ت ٨٥٢هـ) ، تحقيـق : سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز - نشر ادارات البحوث العلمية والافتاء .

- فضائل الصحابة :

لأبـى عبـد الله احمـد بـن محمـد بـن حنبـل (ت ٢٤١هـ) ، ط/ الأولى عـام ١٤٠٣هـ ، مؤسسة الرسالة ، تحقيق : د. وصى الله محمد عباس .

- فقه اللغة وسر العربية :

أبى منصور الثعالبى ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ، طبعة مصطفـى البـابى الحلبى ١٩٥٤م .

- لسان العرب :

جمال الدين أبو الفضل محمد بـن مكـرم ابـن منظـور ، تحقيـق : عبـد الله علـى الكبير وآخرون ط / دار المعارف بمصر .

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد :

للحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى (ت ٨٠٧هـ) ط:٢ عام ١٩٦٧م، دار الكتاب ، بيروت .

- مرويات غزوة بدر :

أحمد محمد باوزير ، ط١ ، مكتبة طيبة بالمدينة المنورة عام ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

- مستند الأجناد فى آلات الجهاد :

لابن جماعة الحموى (ت ٧٣٣هـ) ، تحقيق : أسامة ناصر النقشبندى ، منشورات وزارة الثقافة بالعراق ١٩٨٣م .

- مسند أبى يعل الموصلى :

أحمد بن على بن المثنى التميمى (ت ٣٠٧هـ ، ط/ دار المأمون للتراث ، ط الأولى ١٤٠٥هـ ، تحقيق : حسين أسد .

- معجم البلدان :

شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت الحموى ، طبعة دار صادر ودار بيروت عام ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع :

عبد الله بن عبد العزيز البكرى (ت ٤٨٧هـ) ، تحقيق : مصطفى السقا ، ط عالم الكتب - بيروت .

العباسيون والأمويون

دراسة فى العلاقات بين البيتين (١١-١٢٥هـ)

د. محمد بن ربيع بن هادي مدخلي(*)

يتصل البيتان العباسى والأموى بجد واحد يجمعهما ألا وهو عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة(١) .

فالعباس هو : العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف(٢) ، عم رسول الله ﷺ ، وصاحب المواقف الجلية معه بعد وفاة أبى طالب بن عبد المطلب (فى السنة العاشرة من البعثة النبوية) ، حيث شهد مع رسول الله ﷺ بيعة العقبة وهو مشرك(٣) ، ثم ساند رسول الله ﷺ معنوياً بعد الهجرة إلى أن هاجر إلى المدينة قبيل فتح مكة سنة ٨هـ(٤) .

وحظى العباس عند رسول الله ﷺ بمكانته اللائقة به ، وأنزله منه منزلة الوالد(٥) ، وكان يجله ، ويقدره ، ويعتز به بين صحابته(٦) ، وبقى على مكانته تلك بعد وفاة رسول الله ﷺ ، إذا أنزله الخلفاء الراشدون أبو بكر الصديق (ت ١٣هـ) ، وعمر (ت ٢٣هـ) ، وعثمان (ت ٣٥هـ) منزلته التى يستحقها حتى وفاته سنة ٣٢هـ(٧) ، رضي الله عنه . وكان له عدد من الأبناء منهم الفضل (ت ١٨هـ)، وعبد الله (ت ٦٨هـ) ، وعبيد الله (ت ٥٨هـ) (٨) ، وكان أشهرهم حبر الأمه ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما .

أما أبو سفيان فهو : صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصى بن كلاب بن مرة(٩) .

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى.

تولى قيادة جيوش قريش ضد رسول الله ﷺ والمسلمين فى أحد والأحزاب، وبعض الغزوات الصغيرة (١٠) ، ثم هداه الله للإسلام فى يوم الفتح ، وذلك عندما آمنه العباس بن عبد المطلب ، ودخل به على رسول الله ﷺ حيث أعلن إسلامه . وطلب العباس من رسول الله ﷺ أن يميز أبا سفيان بشىء لأنه كما قال رجل يحب الفخر ، فقال ﷺ : « من دخل دار أبى سفيان فو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن »(١١) .

وشهد أبو سفيان مع رسول الله ﷺ غزوة حنين ، وفقئت إحدى عينيه ، وأعطاه ﷺ مائة من الإبل ، وأعطى ابنه يزيد (ت ١٨هـ) ومعاوية (ت ٦٠هـ) يتألفهم على الإسلام(١٢) .

وهوقبل ذلك كله كان صهرا لرسول الله ﷺ قبل إسلامه إذ تزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبى سفيان(١٣) .

واستعمل رسول الله ﷺ ابنة معاوية على بعض الأعمال ومنها الكتابة(١٤).
وبعد وفاة رسول الله ﷺ شارك أبو سفيان فى حركة الفتح الإسلامى تحت راية ابنه يزيد ، ففقئت عينه الأخرى فى معركة اليرموك(١٥) ، فعاد إلى المدينة مكرماً من الخلفاء الراشدين إلى أن توفى سنة ٣٤هـ(١٦) .

وهكذا كان هذان العلمان من ذوى الشرف والسؤدد فى قومهما ، يضاف إلى ذلك أنه كانت تجمع بين العباس وأبى سفيان علاقة خاصة قبل الإسلام ، فالأخير كان نديماً للعباس فى الجاهلية(١٧) ، هذه الصداقة جعلت العباس ﷺ يعمل على حماية صديقه ، إجارته عام الفتح عندما التقى به فى مر الظهران(١٨) ، وأردفه على بغلة رسول الله ﷺ زيادة فى الحرص على سلامته حتى دخل به على رسول الله ﷺ وجادل عمر بن الخطاب ﷺ الذى كان يرى أن الله قد أمكن من

أبى سفيان من غير عهد ، فاتهم العباس عمر أنه متحامل على أبى سفيان لأنه من بنى عبد مناف(١٩) ، وهى تهمه نفاها عمر ﷺ وكان صادقاً فى ذلك .

هذا الإصرار من جانب العباس عم رسول الله ﷺ على حماية أبى سفيان ، والحرص على سلامته توضح مدى وفاء العباس لصديقه القديم ، ومن ناحية أخرى حب العباس لقريش عموماً وخشيته عليها إن لم يستأمنوا رسول الله ﷺ قبل وصوله ﷺ إلى مكة(٢٠) .

ولعل الصلة بين هذين البيتين والزعامة فيهما ، وقرابتهما من رسول الله ﷺ هى الدافع لأبى سفيان فى رواية(٢١) ، أو خالد بن سعيد بن العاص (ت ١٣هـ) فى رواية أخرى(٢٢) ، لمخاطبة عثمان وعلى رضى الله عنهما ، ينكر عليهما موافقتهما على بيعة الصديق ، وحسب رأى القائل أن الخلافة يجب أن تكون فى بنى عبد مناف . والملاحظ هنا أن هذا القائل لم يخص بنى هاشم أو بنى عبد المطلب ، وإنما عم بنى عبد مناف ، ومنهم بالطبع بنو أمية . ونستشف منه أن بنى أمية كانوا يرون لأنفسهم حقاً فى خلافة رسول الله ﷺ ، أو على الأقل إن نالها على بن أبى طالب فقد تحققت بواسطته زعامة بنى عبد مناف على قريش خاصة والمسلمين عامة .

وعلى كل فقد وضعت خلافة الصديق ﷺ لرسول الله ﷺ من قبل المهاجرين والأنصار(٢٣) ، حدا فى مسألة الوراثة سواء من بنى هاشم ، أو غيرهم، وأن مسألة الخلافة كما بين الصديق ﷺ هى فى قريش عموماً للحديث الذى رواه عن رسول الله ﷺ فى ذلك وأنها غير محصورة ببيت من البيوت بعينه .

ومما يجدر الإشارة إليه أن الخلفاء الراشدين لم يستعينوا بزعيمى بنى هاشم وبنى أمية فى أعمال الدولة الإسلامية ، وإنما جاءت الاستعانة بأبنائهما حيث برز كل من هؤلاء الأبناء فى مجال يختلف عن الآخر .

فعبد الله بن عباس رضى الله عنهما احتل مكانة مرموقة فى عهد الخلفاء الراشدين ، وخاصة فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ ، إذ كان يقدمه على الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ ، وذلك لعلمه ، وفقهه ، ودقة استنباطه للأمور الشرعية ، وخاصة تفسير كتاب الله العزيز ، الذى كان كثيراً ما يسأله عن معانى بعض آيات كتاب الله عز وجل . وكان أمير المؤمنين عمر ﷺ معجباً به أيما إعجاب وكان يقول عنه : « ذلك فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول»(٢٤) ، ويقول فيه : « كيف تلومونني على ابن عباس »(٢٥) ، وقد أوتى ابن عباس هذا العلم وهذا الفقه حتى نال هذه المكانة بفضل دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال رسول الله ﷺ : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل »(٢٦) .

هذا فى الجانب الدينى ، أما الجانب السياسى فقد برز دوره فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ وهو ما سنتطرق إليه فيما بعد .

أما أبناء أبى سفيان - يزيد ومعاوية - فقد جعل الصديق ﷺ يزيد بن ابى سفيان على رأس أحد الجيوش الأربعة المتوجهة إلى الشام لفتحها(٢٧) ، وبعدما توفى الصديق سنة ١٣هـ ، وخلفه عمر ﷺ استعمل يزيد على مدينة دمشق بعد فتحها ، واستمر فى منصبه ذاك حتى توفى سنة ١٨هـ ، فولى أمير المؤمنين عمر مكانه أخاه معاوية ، ثم جمع له ولاية الشام بعد ذلك(٢٨) .

ظل معاوية أميراً على الشام حتى مقتل عثمان ﷺ سنة ٣٥هـ فى الفتنة المعروفة . وكان من جراء ذلك أن دبت الفتنة والخلافات بين أبناء الدولة الإسلامية بسبب مقتل عثمان ﷺ ، وذلك لاختلافهم حول القصاص من قتلته ، بعد أن اختير على ﷺ ، (ت ٤٠هـ) من قبل المهاجرين والأنصار خليفة وأميراً للمؤمنين(٢٩) .

كان ابن عباس نظراً لظروف الفتنة قد نصح عليا بعدم قبول البيعة فـى مثـل تلك الظروف ، لأنه إن قبلها ، فسيلزمه الناس دم عثمان ، ولينتظر فسيجتمع عليه الناس لا محالة(٣٠) ، لكـن عليـا ﷺ رأى أن التأخـير فـى القيـام بـأمور المسـلمين ستترتب عليه مفاسد كبيرة أخطرها : أن الذين قتلوا عثمان ربمـا يصرفـون الخلافـة عن أهل الحل والعقد من أهل المدينة على صاحبها أفضل الصـلاة والسـلام ، وهـو ما هددوا به فعلاً أهل المدينة(٣١) . وبعد البيعة كان من رأى ابـن عبـاس أن يبقـى أمير المؤمنين على ﷺ معاوية فى إمارة الشام حتى تستقيم الأمور ، ثم إن شاء بعد ذلك عزله . وكان رأيه هذا بعد أن طلب منـه أمـير المؤمنـين علـى أن يتـولى بـلاد الشام ، لكن ابن عباس رفض ذلك لخطورة قدومه إلى تلك المنطقة فـى مثـل تلـك الأوضاع(٣٢) .

وعندما اشتد أوار الفتنة ، واحتكم إلى السيف فى الجمل وصفين شارك بنـو العباس - عبد الله ، عبيد الله ، قثم - فى تلك المعارك مـع علـى ﷺ . وكذلـك استعان بهم فى الإدارة حيث تولى عبد الله بن عباس البصرة ، وعبيد الله اليمــن ، وقثم مكة(٣٣) ، وظلوا معه حتى قتل سنة ٤٠هـ ، وبويع الحسن بـن علـى رضـى الله عنهما بالخلافة التى تنازل عنها اصلاحاً بـين النـاس وحقنـا لدمـاء المسـلمين ، وليتحقق فيه قول النبى ﷺ « إن أبنى هذا سيد ولعـل الله شـاء أن يصلـح بـه بـين فئتين عظيمتين من المسلمين »(٣٤) ، ومن ثم اجتمعت الأمـة علـى معاويـة وسمى عام ٤١هـ عام الجماعة(٣٥) .

ومن الطبيعى أن ينخرط بنو العباس فى هذه البيعـة الجديـدة ، بـل إن عبيـد الله بن عباس سارع إلى مكاتبة معاوية قبل أن يعقد الصلـح مـع الحسـن ، وشـرط لنفسه ولمن معه الأمان وله الأموال . فلبى معاويـة لـه شـروطه ، فـالتحق بـه عبيـد الله، فأكرمه معاوية ، وكافأة بـألف ألـف درهـم وقيـل ألفـى ألـف درهـم(٣٦) .

وأصبح عبيد الله مطاع الرأى عند معاوية ويتقبل مشورته فيمن يتولى أمور البصرة. وحسب الرواية فإن معاوية كان يريد أن يولى عليها أحد بنى القين ، فعدل عنه إلى عبد الله بن عامر بن كريز (ت ٥٩هـ)(٣٧) .

أما عبد الله بن عباس فتشير بعض الروايات إلى أنه كان قد غادر البصرة إلى الحجاز بعد أن استولى على بيت مالها ، وذلك عندما طلب منه أمير المؤمنين على ﷺ أن يرفع إليه الحساب(٣٨) . ويبدو من هذه الرواية الوضع والاختلاق ، فهناك عدة قرائن تشير إلى أن عبد الله بن عباس ﷺ ظل ملازماً لعلى ﷺ إلى اليوم الذى قتل فيه . ومن هذه الروايات ماورد فى ترجمة على بن عبد الله بن عباس حيث ذكرت بعض المصادر أن أمير المؤمنين علياً ﷺ افتقد عبد الله بن عباس فى اليوم الذى قتل فيه وذلك فى صلاة الظهر ، فسأل عنه فقيل له شغل بمولود ولد له . فلما قضى صلاته توجه إلى عبد الله بن عباس وهنأه بالمولود ودعا له ، ثم إن أمير المؤمنين سمى هذا المولود باسمه ، وكناه بكنيته ، فأصبح اسمه على بن عبد الله بن عباس(٣٩) .

وهناك رواية ذكرها الطبرى أن ابن عباس لم يبرح البصرة حتى قتل على ﷺ وبويع الحسن وشهد معه الصلح(٤٠) .

وهذه الروايات الأولى بالقبول والتصديق ، من تلك التى تقذف صحابياً جليلاً له من العلم والورع والتقوى ما يمنعه من استحلال مال المسلمين بغير حق(٤١) .

كما أنها تبين لنا أن ابن عباس صمد فى وجه معاوية إلى أن تنازل الحسن ، فلما أصبح معاوية خليفة دخل ابن عباس فيما دخل فيه المسلمون ، وبايع معاوية وتبعاً لما هو معروف عن معاوية الدهاء والحزم وحسن التصرف فى الأمور وقد

وصف نفسه بقوله : « لو كانت بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت »(٤٢) ، لذا كان من الطبيعى أن يقرب إليه أهل العلم ، والشرف ، ويجعلهم من خواصه ومقربيه ، فكيف برجل من بنى عبد مناف ، أقرب إليه رحماً ، ويتمتع بمكانة كبيرة فى عهد من سبقه لعلمه ، وفقهه ومكانته مثل عبد الله بن عباس . بل إننا نجد أن معاوية يقرب إليه بنى هاشم أكثر من تقريبه لبنى أمية ، ويجزل لهم العطايا أكثر من غيرهم؛ مثل الحسن والحسين ، وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب (ت ٨٠هـ) مما جعل بنى أمية يعاتبونه على تقريبهم أكثر منهم(٤٣) .

وفى المقابل فإن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، قابل ود معاوية بود ، واحتراما باحترام . وعبارات الثناء التى صدرت منه فى حق معاوية تدلنا على ذلك، ومن هذه الأقوال :

١ - « ما رأيت أحداً كان أحق بالملك من معاوية ، لله دره إن كان لحليما ، وإن كان الناس لينزلون منه بأرجاء واد خصب »(٤٤) .

٢ - فى إحدى قدمات ابن عباس إلى معاوية أمر الأخير ابنه يزيد أن يأتى ابن عباس ويسلم عليه ، فلم وصل إلى ابن عباس رحب به وحدثه . فلما خرج من عنده قال ابن عباس : « إذا ذهب بنو حرب ذهب حلماء الناس »(٤٥) . وقال هذا القول فى يزيد بحكم معرفته الوثيقة به عندما شاركه فى الحملة المتوجه إلى القسطنطينية لمحاولة فتحها سنة ٤٩هـ(٤٦) .

٣ - وقال عن معاوية : « لله در ابن هند ، ولينا عشرين سنة ، فما آذانا على ظهر منبر ولا بساط ، صيانة منه لعرضه ، وأعراضنا . ولقد كان يحسن صلتنا ويقضى حوائجنا(٤٧) .

وكان معاوية يستفيد من حضور ابن عباس إليه . روى على بن عبد الله بن عباس قال : « كنت مع أبى عند معاوية ذات ليلة فأتاه المؤذنون يؤذنون لصلاة

العشاء الآخرة ، فضن بحديث أبى ، فأمر رجلاً أن يصلى بالناس ، ثم تحدثنا حتى إذا فرغنا من حديثهما ، قام معاوية فصلى وليس خلفه غيرى وغير أبى ، وذلك بعدما أصيب ابن عباس فى بصره ... »(٤٨) .

ولما أنكر على بن عبد الله على معاوية وتره بركعة واحدة ، قال له ابن عباس إنه أعلم منك(٤٩) .

هذه الروايات التى ذكرناها تختلف تماماً عن الروايات الأخرى التى تصور ابن عباس ومعاوية رضى الله عنهما ، كشخصيتين متنافرتين يتربص كل منهما بالآخر سقط الكلام ، ويبدو التباغض منهما كل تجاه الآخر ، ومن هذه الروايات:

١ - « ... لما جاء معاوية نعى الحسن بن على استأذن ابن عباس على معاوية ، وكان ابن عباس قد ذهب بصره ، فكان يقول لقائده ، إذا دخلت بى على معاوية فلا تقدنى ، فإن معاوية يشمت بى ، فلما جلس ابن عباس قال معاوية : لأخبرنه بما هو أشد عليه من أن أشمت به . فلما دخل قال : يا ابا العباس هلك الحسن بن على ، فقال ابن عباس : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وعرف ابن عباس أنه شامت به ، فقال : أما والله يا معاوية ، لا يسد حفرتك ولا تخلد بعده، ولقد أصبنا بأعظم منه فجبرنا الله بعده ، ثم قام . فقال معاوية : لا والله ما كلمت أحداً قط أعد جواباً وأعقل من ابن عباس(٥٠) .

وحقيقة هذا الموقف بين الرجلين جاءت فى رواية أخرى ، هى أن معاوية قال لابن عباس : « يا عجبا من وفاة الحسن شرب من عسله بماء رومه فقضى نحبه، لا يحزنك الله ولا يسوؤك فى الحسن ، فقال ابن عباس : لا يسوؤنى ما أبقاك الله » ، فامر له معاوية بمائة ألف وكسوة . وفى رواية ثانية أنه أمر له بألف ألف ما بين عرض وعين ، وقال له : « اقسم هذه فى أهلك »(٥١) .

هاتان الروايتان تدلان على أن كثيراً من الروايات التى وردت فى بعض المصادر تحرف الكلام عن مواضعه وتنقل أخباراً كاذبة عنهما سواء فى المفاخرة أو المعاتبة أو غيرهما من الأمور(٥٢) .

ونخرج من هذا كله بأن ابن عباس أقر بخلافة معاوية ، حامداً لها ، راضياً عنها ، إلى أن توفى معاوية بن أبى سفيان ﷺ سنة ٦٠ هـ ، لتبدأ أحداث جديدة فى الدولة الإسلامية سنرى موقف ابن عباس منها عما قليل .

أدت وفاة معاوية بن أبى سفيان ﷺ إلى تغير الأوضاع فى الدولة الإسلامية. وكانت بيعة يزيد بن معاوية مقدمة لهذه الأوضاع ، ذلك أن الموقف من خلافته أخذ يزداد وضوحاً فى أهم إقليمين من أقاليم الدولة الإسلامية هما العراق ممثلاً فى أهل الكوفة ، والإقليم الثانى هو الحجاز حيث يسكن كبار الصحابة وصغار أصحاب رسول الله ﷺ وفى مقدمة هؤلاء الحسين بن على رضى الله عنهما ، وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما اللذين كانت لهما المواقف المعارضة بولاية العهد ليزيد فى حياة أبيه . وبعد البيعة وضحت معارضتهم لخلافة يزيد من خلال فرارهم من المدينة إلى مكة(٥٣) . وبالطبع لم يكن ابن عباس من المعارضين ليزيد ، إذ يذكر البلاذرى أن ابن عباس حين توفى معاوية كان فى مكة، فلما بلغه خبر وفاة معاوية استرجع ومدح معاوية ، وقال فى حقه أنه لن يأتى أحد بعده مثله . ومدح يزيدًا بأنه من صالحى أهله . ثم طلب ممن حوله أن يعطوا بيعتهم ليزيد . ومن ثم ذهب إلى والى مكة واعطى بيعته(٥٤) . ويذكر الطبرى رواية عن الواقدى أن ابن عمر وابن عباس لقيا الحسين وابن الزبير وهما فى طريقهما إلى مكة وسألاهما فأخبرهما بموت معاوية وبيعة يزيد ، فوعظهما ابن عمر، وسألهما ألا يفرقا جماعة المسلمين(٥٥) . فلما وصل الحسين إلى مكة قدمت رسل أهل الكوفة بمبايعته ودعوته للقدوم عليهم(٥٦) .

ويبدو أن يزيداً أحس بما يدبره شيعة الكوفة تجاهـه ، لـذا فإنـه أراد أن يمنـع الحسين بن على من الخروج عليه بواسطة كبير بنى هاشـم والمنظـور إليـه مـن قبـل أهل مكة عامة وبنى هاشم خاصة ، ألا وهو عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، الذى أمل فيه يزيد أن يمنع الحسين من الخروج عليه . ولذلـك كتـب إليـه يقـول : «... نحسب أنه جاءه رجال من المشرق فمنوه الخلافة ، وعندك منهم خبره ، فلـو فعل فقد قطع القرابة والرحم ، وأنت كبير أهل بيتك ، والمنظور إليه ، فاكففه عن السعى فى الفرقة »(٥٧) . وقد رد عليه ابن عباس فى رسالة بقوله : « إنى لأرجو أن لا يكون خروجه لأمر تكرهه ، ولست أدع النصيحة لـه ... »(٥٨) ، ويلاحـظ هنا أن ابن عباس رضى الله عنهما لم يلزم نفسه بشىء أمام يزيد غير الاجتهاد فـى النصح للحسين حتى يكف عن الخروج .

ومما لا شك فيه أن ابن عباس من خلال مرافقته لأمير المؤمنين على ﷺ فـى العراق ، عرف طبائع الشيعة هنـاك ، وأن الانقيـاد لهـم سـوف يـؤدى إلى عواقـب وخيمة لاتحمد عقباها ، ولذلك ذهـب إلى الحسـين مبينـاً لـه مـا يخشـاه عليـه مـن الذهاب إلى العراق ، وذلك من خلال قوله : « ... إنى لأظنـك سـتقتل غـداً بـين نسائك وبناتك كما قتل عثمان ... »(٥٩) ، فما كان من الحسـين إلا أن قـال لـه «إنك شيخ قد كبرت » ويبدو أن ابن عباس غضب من هـذه الإجابـة غيرالمتوقعـة من الحسين ، ولذلك رد عليه ابن عباس بقوله : « ... لولا أن يـزرى بـى وبـك ، لنشبت يدى فى رأسك ، ولـو أعلـم أنـك تقيـم إذا لفعلـت ... »(٦٠) . وهنـاك رواية أخرى أن الحسين استشار ابن عباس فى خروجـه مـن مكـة إلى العـراق فلـم يؤيده فى ذلك ورد عليه ابن عباس بقوله السابق ، مما يدلنا علـى الخـوف الشـديد الذى انتابه من جراء خروج الحسين إلى العراق الذى صمم على التوجه إلى شيعته. وفى الطريق تصدت له قوات عبيد الله بن زياد وقتلته فى كربلاء سنة ٦١هـ(٦١).

وقد ترك مقتل الحسين رضى الله عنهما آثار كبيرة أبرزها اعتصام ابن الزبير فى مكة والدعوة إلى نفسه فيها(٦٢) . ومن ناحية أخرى خرج أهل المدنية على يزيد ، ومن ثم حدثت وقعة الحرة التى قتل فيها الكثير من خيار أهل المدينة سنة ٦٣هـ(٦٣) .

هذه الأحداث وقعت وعبد الله بن عباس - كما يبدو من الروايات - فى مكة ، وبطبيعة الحال سيسعى ابن الزبير إلى أن يبايعه ابن عباس لتكون بيعته عونا أمام المسلمين من جهة ، ومن جهة أخرى ليثبت أن مناداته بالخلافة لها وجه شرعى ، بدليل مبايعة ابن عباس له . فما موقف ابن عباس من يزيد بن معاوية ؟ وما موقفه من عبد الله بن الزبير فى خضم هذه الأحداث ؟ .

يذكر البسوى فى تاريخه أن ابن الزبير دعا عبد الله بن عباس إلى بيعته بعد مقتل الحسين رضى الله عنهما فامتنع ابن عباس من بيعته ، فما كان من يزيد إلا أن بعث إليه رسالة يشكره فيها على موقفه من ابن الزبير ، ومحافظته على بيعته ، ويعده بالبر وتعجيل الصلة ، ويطلب منه فى رسالته أن يعلم الناس برأيه فى ابن الزبير ، لأنهم لرأيه أسمع ، وله أطوع(٦٤) . وكان يزيد يظن أن ابن عباس ﷺ كما كان عارفاً بحقه ، طاعة لله عز وجل دون أن يدرك الألم الكبير الذى شعر به المسلمون عموماً وبنو هاشم خصوصاً ، ومنهم بالطبع ابن عباس ، من جراء مقتل الحسين بن على ومن كان معه من أهل بيته ، لذلك كان رد ابن عباس إليه معبراً عن شعوره الغاضب من ذلك الحدث حيث كتب إليه « ... وسألت أن أحبب الناس إليك وأبغضهم وأخذلهم لابن الزبير فلا سرور ولا كرامة ، كيف وقد قتلت حسينا وفتيان عبد المطلب مصابيح الهدى ونجوم الأعلام ، غادرتهم خيولك بأمرك فى صعيد واحد مرملين بالدماء مسلوبين بالعراء ... »(٦٥) . ونرى من خلال هذه الإجابة أن ابن عباس كان فى شدة الغضب على يزيد ، إن التزم بالطاعة وفاء

للبيعة التى فى عنقه . ولم يلبث أن توفى يزيد عقب هذه الأحداث ، وخلفه ابنه معاوية بن يزيد الذى ما لبث أن مات هو الآخر بعد خلافته بشهر ونصف ، وذلك سنة ٦٤هـ(٦٦) . وأعقب وفاته اضطراب البيت الأموى ، مما أفسح المجال لابن الزبير أن ينتشر نفوذه من الحجاز إلى العراق إلى كثير من مناطق بلاد الشام ومصر ، حتى تولى مروان بن الحكم (ت ٦٥هـ) أمور الدولة الأموية ، لتنقلب الأمور مرة أخرى لصالح بنى أمية . وهذا بالطبع سيقودنا إلى الإجابة عن السؤال الثانى الذى طرحناه من قبل عن علاقة ابن عباس بابن الزبير خلال الفترة من وفاة يزيد إلى تولى عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ) وهى فترة أصبح فيها ابن عباس فى حل من البيعة بعد وفاة يزيد .

اشتهر فى بعض المصادر امتناع ابن عباس ومحمد بن الحنفية عن مبايعة ابن الزبير، وساق بعضها علة ذلك الامتناع وهى قولهم « لا نبايعك حتى تجتمع لك البلاد ويتفق عليك الناس »(٦٧) . وهذه المصادر توحى بالرفض المطلق لابن عباس لبيعة ابن الزبير الذى آذى كلا من ابن الحنفية وابن عباس بسبب موقفهم هذا .

والواقع أن ابن عباس كان قد بايع ابن الزبير وعضده ووقف معه فى بداية خلافته . لكن الأخير لم يستمر هذا التأييد من ابن عباس ويدنى ابن عباس منه ، بل نجده يدنى إليه جماعة من بنى أسد ، ويقصى ابن عباس على علمه ورأيه ومكانته ، مما جعل ابن عباس يصرف تأييده عنه إلى عبد الملك بن مروان . ونأخذ هذه الحقيقة من صحيح البخارى رواية عن ابن عباس نفسه الذى برر فيه انصرافه عن ابن الزبير فيقول : « ... ألا تعجبون لابن الزبير قام فى أمره هذا فقلت : لأحاسبن نفسى له ما حاسبتها لأبى بكر ولا عمر ، ولهما كانا أولى بكل خير منه وقلت : ابن عمة النبى ﷺ ، وابن الزبير ، وابن أبى بكر ، وابن أخى خديجة ، وابن أخت عائشة ، فإذا هو يتعلى عنى ولا يرد ذلك ، فقلت : « ما كنت أظن

أنى أعرض هـذا مـن نفسى فيدعـه ، ومـا أراه يريـد خـيراً ، وإن كـان لابـد لأن يربنى(٦٨) ، بنو عمى أحب إلى من أن يربنى غيرهم »(٦٩) ، وفـى روايـة أخـرى عنه يتضح سبب إحجام ابن عباس عن ابن الزبير وانصرافه إلى بنى أميـة بقولـه فـى حديث طويل « ... فآثر على التويتات ، والأسامات ، والحميدات » يريـد أبطنـا من بنى أسد(٧٠) . وبذلك فقد تـأزمت الأمـور بينهمـا إلى درجـة أن ابـن عبـاس صعد إلى الطائف تاركاً مكة لابن الزبير الذى ضايقـه فيهـا أشـد المضايقـة ، ومـن هناك أوصى ابنه عليا باللحاق بعبد الملك بن مروان(٧١) ، ولم يلبث أن توفـى ﷺ سنة ٦٨هـ(٧٢) ، لتبدأ علاقة جديدة بين عبد الملك وأبنائه وبين على بن عبـد الله ابن عباس سنذكرها عما قليل .

* * *

توجه على بن عبد الله بن عباس إلى عبد الملك بن مروان فى الشام حسـب وصية أبيه . وتذكر بعض المصادر أن عبد الملك بن مروان سأله عن كنيتـه فأخـبره بأنه يكنى بأبى الحسن ، فطلب منه أن يغير كنيته فغيرها إلى أبى محمد(٧٣) .

ويبدو فى هذه الرواية التى ساقتها تلك المصادر الوضع والاختـلاق ، سـواء بالنسبة لعلى بن عبد الله أو عبد الملك . ويتضح ذلك فى ضوء الأسباب التالية :

أولاً : أن عبد الملك بن مروان لم يكن رجلاً غريباً لدى علـى بـن عبـد الله ابن عباس ، وكذلك لم يكن غريباً عند عبد الملك ، فكلا الرجلين قرشى حجـازى يعرف أحدهما الآخر تمام المعرفة من خلال نشأتهما فـى المدينـة ، وتلقيهمـا العلـم على اصحاب رسول الله ﷺ فيها . وما حادثة ثورة المدينة عنا ببعيد ، فقد أخـرج منها بنو أمية ومنهم مروان بن الحكم وابنه عبد الملك(٧٤) ، وقبض على علـى بـن عبد الله بن عباس عقب موقعة الحرة ومطالبته بالبيعة ليزيد(٧٥) ، مما يدلنا على أن كلا الرجلين من خلال تواجدهما فى المدينة فى تلك الفـترة كـان معروفـاً للآخـر تمام المعرفة .

ثانياً : مولد محمد بن على بن عبد الله بن عباس سنة ٦٠ هـ أو سنة ٥٨هـ(٧٦) .

وثورة المدينة سنة ٦٣ هـ وكانت سن محمد بن على بين الثلاث إلى الخمس سنوات يومئذ فهل كان عبد الملك يجهل أن لعلى بن عبد الله ولداً يدعى محمداً ؟ الإجابة فيما يظهر هى أنه لم يكن يجهل ذلك .

لقد تغيرت كنية على بن عبد الله بن عباس من قبل معاوية بن أبى سفيان ﷺ ، وهو الذى طلب من عبد الله بن عباس أن يغير كنية على إلى أبى محمد ، ليس بغضا فى اسم على بن أبى طالب وكنيته ، وإنما كما قال معاوية ﷺ : « ليس لكم اسمه وكنيته ، وقد كنيته أبا محمد »(٧٧) ، وهذا فيما يبدو إشعار من معاوية لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما بمكانته عنده ، وأن منزلته لا تقل عن منزلته ومكانته عند أمير المؤمنين على ﷺ .

ثم إن على بن عبد الله بن عباس لم يحضر مرغماً إلى عبد الملك وإنما طوعاً واختياراً ورغبة منه . وليس من المعقول أن يفاتح عبد الملك بن مروان بعد استخلافه فى أول لقائه بعلى بن عبد الله بن عباس بأسلوب فظ « غير اسمك وكنيتك فلا صبر لى على اسمك وكنيتك »(٧٨) ، مما يؤكد لدينا زيف مثل هذه الروايات بناء على ما سبق .

ومهما يكن فإن على بن عبد الله أصبح من خواص عبد الملك حيث أجار عليه عددا من قادة العرب فى الكوفة من الذين خافوا غائلة عبد الملك ، فلجأوا إليه وقبل عبد الملك جواره ، وأمنهم حتى ظهروا(٧٩) . وتبعاً لمكانته تلك فإن على بن عبد الله اصبح بإمكانه أن يدخل على عبد الملك فى مجالسه الخاصة ويلقى منه الإكرام ، ويقبل منه النصح ويقضى عنه دينه(٨٠) . واستمرت تلك العلاقة

الحسنة حتى أقدم على بن عبد ا لله على الزواج من أم أبيها بنت عبد ا لله بن جعفر، والتى كان عبد الملك قد طلقها . واعتبر عبد الملك أن تصرف على هذا إهانة له ، ومن هنا بدأ يغير معاملته له(٨١) . ومما يجدر ذكره أن مروان بن الحكم تزوج أم خالد ابن يزيد بن معاوية حتى يضع منه ويصغر شأنه(٨٢) . ومن أجل ذلك كان غضب عبد الملك إذا اعتبر تصرف على بن عبد ا لله مثل تصرف مروان ابن الحكم مع خالد بن يزيد .

كانت هذه الفعلة من قبل على بن عبد ا لله سببا فى إقدام الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦هـ) على إساءة معاملته . وتذكر بعض المصادر أنه ضرب بأمر من الوليد بسبب ذلك . و لم يكتف بذلك فأمر بنفيه إلى الحميمة سنة ٩٥هـ(٨٣) ، واستقر بها هو وبنيه منذ ذلك التاريخ .

و لم نعد نرى أى لقاء بين على بن عبد ا لله بن عباس والخلفاء الأمويين : الوليد ، سليمان بن عبد الملك (ت ٩٩هـ) ، عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ) يزيد بن عبد الملك (ت ١٠٥هـ) ، بعد هذه الحادثة ، سوى لقاء واحد تحدث عنه ابن خلكان فى الوفيات وكان مع هشام بن عبد الملك من أجل ديون كثرت عليه فطلب من الخليفة الأموى قضاءها ، فوجد منه كل ترحاب وقضى عنه دينه ، كما طلب منه أن يستوصى خيراً بحفيديه ، وهما عبد ا لله وعبد ا لله المعروفان فيما بعد بالسفاح (ت ١٣٦هـ) ، والمنصور (ت ١٥٨هـ)(٨٤) .

وقد توفى على بن عبد ا لله بن عباس سنة ١١٧هـ(٨٥) ، ليحتل مكانته ابنه محمد بن على .

تذكر بعض المصادر أن محمد بن على بن عبد ا لله بن عباس ، هو أول عباسى عمل على إسقاط الدولة الأموية(٨٦) ، ووصول بنى العباس إلى الخلافة ،

وهذا يقودنا إلى سؤال : هو هل كـان محمـد بن على هـو أول صـاحب طمـوح سياسى للخلافة الإسلامية من بنى العباس ؟

وللإجابة على هذا السؤال لابد لنا من العودة مرة أخـرى إلى الجـذور بـدءاً من العباس بن عبد المطلب . وقد عرفنا مكانته عند رسول الله ﷺ ، تلك المكانة ، وذلك التقدير والاحترام من جـانب الرسـول ﷺ تجاهـه ، لم يعطـه الجـرأة لسـؤال رسول الله ﷺ فى مرضه الذى مات فيه عن خلافته ﷺ ، ولذلك لجأ إلى ابن أخيه على بن أبى طالب ليسأل رسول الله ﷺ عنها قائلاً له : « إنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت ، أذهب بنا إلى رسول الله فلنسأله فيمـن هـذا الأمـر ؟ إن كان فينا علمنا ذلك وإن كان فى غيرنا علمناه فأوصى بنا ، فقال على : إنـا والله لئن سألناها رسـول الله ﷺ فمنعناهـا ، لا يعطيناهـا النـاس بعـده ، وإنـى والله لا أسالها رسول الله ﷺ »(٨٧) . ويتضح من هذا الحـوار أن العبـاس ﷺ كـان يجهـل من سيكون له الأمر بعد رسول الله ﷺ ، ولنقل أنه كان يطمع أن يلى هذا الأمـر بنو عبد المطلب ، ولذلك قال : إن كان فينا علمنا . وكانت إجابة على ﷺ دالـة أيضاً على فقهه وعلمه وخبرته بمقاصد رسول الله ﷺ ، وأن مثل هذا السؤال ، لو أعطى فيه رسول الله ﷺ جوابـا فـى منعهـم فلـن يمكنهـم النـاس مـن الخلافـة فـى المستقبل ، ومعنى ذلك حرمانهم من حق مشاع فى قريش وهو الخلافة(٨٨) .

ثم إن عليا ﷺ كان يرى رسول الله ﷺ يقدم أبا بكر الصديق فـى الصـلاة عندما كان مريضاً ، ويرى إلحاحه فى ذلك(٨٩) ، ففهم ما يقصده ﷺ .

وجاء اختيار خلفاء رسول الله ﷺ بعد ذلك ليدلـل بشـكل قـاطع علـى أن السبق والقدم فى الإسلام ، والمكانة من رسول الله ﷺ ، هـى المرشـح للخلافـة ، ولا علاقة للقرابة من رسول الله ﷺ وحدها بهذه المسـألة . مـن أجـل ذلـك فـإن العباس رضى أن يكون كأحد أفراد المسلمين ، له مكانته وتقديره واحترامه من قبل

الخلفاء الراشدين . أما ابنه عبد الله بن عباس فقد أسهم مع أمير المؤمنين على ﷺ في جميع ما كلفه به ، واحتل لديه مكانة مرموقة . فلما قتل وتنازل ابنه الحسن ، عاد إلى ميدانه الذى وجد نفسه فيه وهو نشر العلم الذى فتح به الله عليه ، واكتسب مكانته ﷺ بين المسلمين ، وأحلوه من أنفسهم أيما محل . يروى أن معاوية حج ، وحج معه عبد الله بن عباس فكان معاوية فى موكب وابن عباس فى موكب فمن يسأل عن الفقه(٩٠) ، مما يعطينا الدليل على ما يحمله المسلمون من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من تقدير وإجلال ، وحب لهذا العالم لعلمه ولقرابته من الرسول ﷺ . واستمر فى هذا الميدان لم يتطلع لأى نفوذ سياسى . لقد قال له معاوية ذات مرة بعد وفاة الحسن بن على : « أصبحت سيد قومك ، قال ما بقى أبو عبد الله فلا »(٩١) ، دلالة على تواضعه وعدم سعيه للنفوذ السياسى .

وبعد مقتل الحسين وجدناه التزم بيعته ليزيد حتى وفاته ثم بايع لابن الزبير .

أما على بن عبد الله بن عباس - وإن لم يكن مثل أبيه - فإنه كانت له المكانة الكبيرة فى نفوس أهل الحجاز لعلمه وورعه وتقواه(٩٢) .

وعلى ذلك ارتضى بأن يكون مثل أبيه ، ولم يتطلع إلى الخلافة . ومن جانب آخر فإن الشيعة عموماً لم يتطلعوا إلى البيت العباسى كتطلعهم إلى البيت العلوى ، حتى أحدث أبو هاشم عبد الله بن محمد بن على بن أبى طالب (ت ٩٨، ٩٩هـ) هذا الانقلاب من خلال اتفاقه مع محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، ومن ثم أحدث هذا الاتفاق تحولاً كبيراً على يدى الأخير ، فتغيرت نظرة بنى العباس إلى الخلافة وبدأ تطلعهم نحوها .

وهذا يقودنا إلى محاولة التعرف على العلاقة بين هاتين الشخصيتين ومنذ متى بدأت ؟ وكيف انتهى المطاف بأبى هاشم بأن يخص محمد بن على العباسى

دون غيره من البيت الهاشمى بالدعوة السرية الهادفة إلى إسقاط بنى أمية والحلول محلهم فى الخلافة .

ويعد محمد بن على بن عبد الله بن عباس مؤسس الدعوة العباسية ومنظمها(٩٣) ، ذلك أنه كان قد ارتبط بأبى هاشم عبد الله بن محمد بن على بن أبى طالب الذى تذكر بعض المصادر أنه سلم أمور الدعوة السرية المناهضة لبنى أمية إليه عند دنو أجله فى الحميمة(٩٤) . ويرى البعض أن السبب الذى جعل أبا هاشم يوصى لمحمد بن على هو عدم وجود من يخلفه من الذكور من ذريته(٩٥) ، فأثر أن يوصى إلى محمد بن على . وهذا الافتراض غير صحيح ، لأن أبا هاشم كانت له ذرية من الذكور والإناث ، كما جاء فى ترجمته فى الطبقات لابن سعد(٩٥) ، ، كذلك ذكر كل من المزى ، وابن حجر أن له ابناً يدعى عيسى بن عبد الله وهو ممن روى عن والده(٩٦) . يضاف إلى ذلك أنه كان له أخ يدعى الحسن بن عبد الله بن محمد بن الحنفية(٩٧) ، توفى فى خلافة عمر بن عبد العزيز (٨٩ ، ١٠٠هـ) ، فإذا كانت المسألة هى عدم وجود من يخلفه من ذريته إذا افترضنا وفاة أولاده فى حياته ، فإن الشيء المؤكد أن أخاه الحسن قد توفى بعده بسنة على الأقل ، فلماذا لم يوص إليه إو إلى أحد من آل على بن أبى طالب ؟

ويفترض بعض الباحثين أن للظروف أثرها فى ذلك التنازل ، فعند وفاة أبى هاشم لم يكن بقربه إلا أولاد العباس ، وربما تنازل محمد بن على ، أو أخبره بأن يعطيها لغيره . وكان محمد طموحاً ، فأخذها لنفسه ، وبقدر ما يتعلق الأمر بمحمد، فإنه عرف الدعاة وأسماءهم ، وسأل عنهم أبا هاشم قبيل وفاته .. »(٩٨).

واعتقد أن كل هذه التساؤلات والافتراضات تأتى فى ظل غياب المعلومات الدقيقة فى المصادر التى ربما لم يطلعوا عليها ، إذ أن صداقة الرجلين كانت قديمة وطموحاتهما أيضاً كانت قديمة فى إسقاط الدولة الأموية ، إذ يذكر كل من ابن

عساكرو صاحب أخبار الدولة العباسية ، رواية عن عيسى بن علـى العباسـى ، أن أبا هاشم كان يقف موقفاً عدائياً من على بن عبد الله بن عباس ، فلما بعث علـى ابن عبد الله ابنه محمداً إلى الوليد بن عبد الملك ، وجد عنده أبـا هاشـم محمـد بـن على ، فتقرب محمد إلى أبى هاشم وأخذ عنه العلم ، وأظهر له التقدير والاحترام ، كما بعث له بالهدايا ، مما كون بينهما صداقة قوية ، كف بعدهـا أبـو هاشـم عـن تناول على بن عبد الله . وكانت هذه الصداقة أيضاً سبباً فى تحول دعاة خراسـان إليه فيما بعد(٩٩) .

ويؤكد هذه التلمذة والتلقى أن كتب تراجم رجال الحديث ذكـرت أن مـن الرواة عن أبى هاشم محمد بن على وابنه إبراهيم الإمام(١٠٠) .

ويبـدو مـن خـلال هـذه الصداقـة أن كـلٌ منهمـا عـرف الآخـر وعـرف طموحاته. ووجـد أبـو هاشـم فـى محمـد طموحـاً سياسياً للخـلاص مـن الخلافـة الأموية. والبلاذرى يذكر رواية عن المدائنى تستحق أن نتوقـف عندهـا وتحليلهـا . تقول هذه الرواية : أن على بن عبد الله بن عباس قال فى اجتماع بينـه وبـين ابنـه وأبى هاشم : « يا أبا هاشم أهل المغرب يؤملونك . وقـال لابنـه محمـد : أن أهـل المشرق يؤملونك . ثم نظر إلى حمار بين شجرتين ، فقال : والله لا تليان حتى يلى هذا الحمار ،كبرتما عن تبين صاحب هذا الأمر »(١٠١) .

هذه الرواية أوضحت : **أولاً** : أن أبا هاشم كان له أنصار يدعون إلى ولايته ويتزعمونه ، وأن كنت لم أتوصل إلى مـا قصـد علـى بـن عبـد الله بـأهل المغـرب بالنسبة إلى أبى هاشم ، فإنه من المؤكد أن الذين كانوا يقولون بأمامـة أبـى هاشـم هم طائفة من الفرقة الكيسانية(١٠٢) .

وثانياً : عرف على بـن عبـد الله بـن عبـاس أن لابنـه أنصـاراً مـن المشـرق يدعون لإمامته . ومعنى ذلك أن محمد بن على بن عبد الله بن عباس كان قد بـدأ

فى تكوين أنصار له من أهل المشرق لا علاقة لهم بأبى هاشم . ولعل الرواية التى ساقها البلاذرى والتى يذكر فيها أن رجالاً من أهل المشرق بحثوا عمن يقودهم ، تلقى أيضاً ضوءاً على ذلك . وهذا نص ما قال : « ... كان الخراسانيون الذين قدموا لطلب الإمام يقولون هذا أمر لا يصلح إلا لذى شرف ودين وسخاء ، فتبعه قوم لشرفه ، وآخرون لدينه ، وآخرون لسخائه ، وأتوا رجلاً من ولد على بن أبى طالب ، فدلهم على محمد بن على بن عبد الله وقال أفضلنا فأتوه »(١٠٣) ، ومع أن هذه الرواية لم تحدد تاريخ هذا اللقاء ، ولا الشخص العلوى الذى دلهم عليه ، إلاأنه من الراجح أن ذلك كان قبل وفاة أبى هاشم بمدة طويلة .

وهنا تبدو نقطة مهمة يجب إيضاحها وهى تتعلق بأبى هاشم ذلك أن بعض المصادر ذكرت أن الفرقة الكيسانية كانت تتعلق به وبأبيه من قبله . ومن الواضح أن محمداً بن الحنفية كان يتبرأ منهم لغلوهم فيه(١٠٤) . ولا يبعد أن أبا هاشم مثل أبيه . وكما قال ابن حجر ينتحلونه أى ينتسبون إليه(١٠٥) . ولم يذكر صراحة موقفه منهم . ومما يقوى عندنا براءة أبى هاشم منهم توثيق الزهرى (ت ١٢٤هـ) لأبى هاشم وقرنه بأخيه الحسن ، وكان عنده الحسن أوثق(١٠٦) . فلو كان أبو هاشم يؤمن بأفكار الفرقة الكيسانية لما وثقه الزهرى وهو من أعلام المدينة النبوية ومحدثيها ، ولولا معرفته الوثيقة به لما وثقه .

ويقودنا هذا مرة أخرى إلى طرح افتراض آخر وهو : أليس من الجائز أن أبا هاشم بحكم التجارب التى مر بها أهل بيته بدءاً من أمير المؤمنين على بن أبى طالب إلى الحسن إلى الحسين مع أهل الكوفة ، ومحمد بن الحنفية مع المختار بن أبى عبيد (ت ٦٧هـ) ، اتضح لديه بجلاء أنه لا فائدة من الاعتماد على الشيعة العلوية فى مثل هذه الأمور الكبيرة التى برهنوا فيها على عدم نصحهم وحديتهم تجاه أهل البيت ، مما ولد لديه القناعة الأكيدة بأنه من الأفضل أن يسلم زمام

الأمور إلى شخصية تتمتع بالقيادة وبعد النظر وحسن التنظيم ، وهى صفات يبدو لى أنه عرفها فى محمد بن على . فلما حانت وفاته أوصى دعاته بعد إقناعهم ، بأن ينضموا إليه ويقفوا إلى جانبه(١٠٧) . يضاف إلى ذلك السمعة الحسنة والمكانة الكبيرة للبيت العباسى من خلال مكانة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، ثم على بن عبد الله بن عباس ، وأخيراً محمد بن على الذى كانت له منزلة كبيرة أيضاً إلى درجة أن عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ) رحمه الله قال فى شأنه عندما زاره ثم خرج من عنده : « لو كان إلى من الخلافة شىء لقمصتها هذا الخارج »(١٠٨) .

كل هذه الأسباب والعوامل التى ذكرناها سابقاً تبين بوضوح سبب إقدام أبى هاشم على أن يسلم مقاليد الدعوة التى كان يديرها إلى محمد بن على العباسى لتضافر الجهود فى إسقاط الدولة الأموية .

ولا نريد أن ندخل فى تفاصيل الدعوة العباسية وتنظيماتها وكيف أدارها محمد بن على العباسى ، فهذا موضوع آخر ، ولكن الذى يعنينا فى المقام الأول هو علاقته بالخلفاء الأمويين بعد قيامه بالتنظيم للدعوة ، وهل ابتعد عنهم ؟ أم ظل كسابق عهده فى زيارتهم والتقرب إليهم ؟

تشير بعض المصادر إلى أن محمد بن على العباسى لم يقطع صلته بهم ، وكما مر معنا فإنه دخل على عمر بن عبد العزيز وزاره أثناء خلافته . ولم أجد فيما بين يدى من مصادر شيئاً عن اتصاله بيزيد بن عبد الملك (ت ١٠٥هـ) . وتأتى ذروة العلاقة فى خلافة هشام بن عبد الملك (ت ١٢٥هـ) الذى نشطت الدعوة العباسية فى عهده نشاطاً ملحوظاً ، إذ بدأت المصادر تتحدث بشكل ظاهر عن الدعاة العباسيين ، وذلك فى السنوات ١٠٥هـ ، ١٠٧هـ ، ١٠٩هـ ، ١١٧هـ ، ١١٨هـ(١٠٩) .

وهذا النشاط المحموم لدعاة بنى العباس فى عهد هشام بن عبد الملك يوضح لنا بجلاء استغلال محمد بن على ودعاته لهذه الفترة الحرجة من تاريخ الدولة الأموية. صحيح أن عهد هشام يعد من عهود الخلفاء الأقوياء من بنى أمية ، لكن يبدو أن قرب محمد بن على من بلاد الشام ، ومن البلاط الأموى جعله يطلع على كثير من أسرار هذا البيت ، ويعرف بوادر النزاع المقبلة بعد انقضاء خلافة هشام ، سيما وأن يزيد بن عبد الملك (ت ١٠٥هـ) كان قد اشترط على هشام أن يجعل الوليد بن يزيد ولى عهده(١١٠) . وربما كان هذا الشرط من العوامل التى جعلت الحسد والتنافس يدب فى أفراد البيت الأموى الحاكم . ولذلك نشط دعاة بنى العباس فى تلك الفترة ، استثمارا لما بعد هشام ، وتهيئة الناس لتلقى فكرة ظهور العباسيين والتى روجوا لها بالبشارات والأحاديث النبوية والطعن فى بنى أمية ، إلى غير ذلك من الأساليب التى استخدموها للتحضير لقيام دولتهم(١١١) .

ومن المؤكد أن هشام بن عبد الملك لم يكن غافلاً عن هذه الدعوة ، ولا عن أصحابها ، وذلك من خلال ولاته على خراسان ، وعلى رأسهم أسد بن عبد الله القسرى (ت ١٢٠هـ) الذى سبق له أن قبض على عدد من الدعاة ونكل بهم(١١٢) . وقد عبر هشام عن غضبه على محمد بن على العباسى أكثر من مرة بسبب هذه الدعوة ، ومن ذلك أن محمد بن على استأذن على هشام بن عبد الملك، فلما دخل عليه سأله عن سبب مجيئه ، فقال : حاجة يا أمير المؤمنين ، فقال له هشام : « انتظر بها دولتكم التى تتوقعونها وتروون فيها الأحاديث وترشحون لها أحداثكم »(١١٣) .

وأتهم هشام بنى العباس أنهم جعلوا رسول الله ﷺ لهم سوقاً(١١٤) . ويبدو أن هشام بن عبد الملك أدرك مدى خطورة الدعاية التى قام بها العباسيون فى أيامه، وأنها أثرت فى الناس واستمالت كثيراً منهم . لذلك نراه قد هم بسجن

محمد بن على وأبنائه ، لأنهم كما قال « يزعمون ان الخلافة تصير إليهم ، وقد استشرف لها الناس »(١١٥) ، وربما أن هشاماً لم يملك دليلاً قوياً ضد رجل بعينه منهم ، لشدة التكتم على صاحب الدعوة ، أو أنه خشى من الإقدام على هذه الخطوة إذ ربما يكون لها عواقب وخيمة ، أو ليتخذ عندهم يدا بالإحسان إليهم ليكافئوه عند وصول الأمر إليهم ، كما قال له الأبرش الكلبى(١١٦) .

وعلى كل فقد توفى هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥هـ(١١٧) ، وتوفى قبله محمد بن على سنة ١٢٤هـ ، أو سنة ١٢٥هـ(١١٨) ، ودخلت الأسرة الأموية فى صراع على السلطة ، وخاصة بعد مقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ ، وقيام فتنة عمت أرجاء الدولة الإسلامية استثمرها بنو العباس ، وأعلنوا ثورتهم المسلحة على الدولة الأموية سنة ١٢٩هـ ، ومن ثم إسقاطها سنة ١٣٢هـ .

الهوامش

(١) الزبيرى ، نسب قريش ، ص ١٥ - الكلبى ، جمهرة النسب ، ص ٢٦ -٢٧.

(٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، م٤ ، ص ٥ .

(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، حـ١ ، ص ٤٤١ .

(٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، م٤ ، ص ١٧ - ١٨ ، ابن حجر ، الإصابة فى تمييز الصحابة ، حـ٥ ، ص ٣٢٩ .

(٥) ابن عبد البر ، الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، حـ٦ ، ٩ ، ابن حجر ، الإصابة ، حـ٥ ، ص ٣٢٩ .

(٦) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، حـ٦ ، ص ١٠ - ابن حجر ، الإصابة ، حـ٥ ، ص ٣٢٩ .

(٧) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، حـ٦ ، ص ١٠ -١١ .

(٨) الزبيرى ، نسب قريش ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٩) ابن حجر ، الإصابة ، حـ٥ ، ١٢٧ .

(١٠) ابن هشام ، السيرة النبوية ، حـ٢ ، ص ٤٤ ، ٦٢ ، ٢١٥ .

(١١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، حـ٢ ، ص ٤٠٢ - ٤٠٣ .

(١٢) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، حـ٥ ، ص ١١٧ .

(١٣) أم حبيبة هى : رملة بنت أبى سفيان ، ولدت قبل البعثة بسبعة عشر عاماً ، تزوجت عبيد الله بن جحش الأسدى أسلما وهاجراً إلى الحبشة حيث ارتد فيها زوجها إلى النصرانية وتوفى عنها هناك ، فأرسل رسول الله ﷺ يخطبها ، وأصدق النجاشى عن رسول الله ﷺ وزوجه إياها ثم بعث بها إلى المدينة ، توفيت فى المدينة سنة ٤٤هـ انظر : ابن حجر ، الإصابة ، حـ١٢ ، ص ٢٦٣ .

(١٤) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، حـ١٠ ، ص ٣٥ ، ابن حجر ، الإصابة ، حـ٩ ، ص٢٣٣ .

(١٥) ابن حجر ، الإصابة ، جـ٥ ، ص ١٢٩ ، وانظر الزركلى ، الإعلام ، جـ٣ ، ص ٢٠١.

(١٦) خليفة بن خياط ، الطبقات ، ص ٣٩ ، ابن حجر ، الإصابة ، جـ٥ ، ص ١٢٩ .

(١٧) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص ٢٧ ، ٢٩ .

(١٨) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ١ ، ص ٤٠٣ .

(١٩) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ١ ، ص ٤٠٣ ، قال العباس : « مهلاً يا عمر فوا لله أن لو كان من بنى عدى بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف ، فقال عمر : مهلاً يا عباس ، فوا لله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أنى عرفت أن إسلامك أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم » . ويبدو لى وا لله أعلم أن العباس لم يقصد اتهام عمر بالعصبية والتحامل ، وإنما أراد أن يكسر حدة عمر فى ذلك الموقف ويصرفه عن أبى سفيان فقال له ما قال .

(٢٠) ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ١ ، ص ٤٠٣ .

(٢١) الطبرى ، تاريخ الأمم ، جـ٤ ، ص ٢٨ ، ونص الرواية : « لما استخلف أبو بكر قال أبو سفيان : ما لنا ولأبى فصيل إنما هى بنو عبد مناف » ، وهناك روايات أخرى حول موقف أبى سفيان من بيعة الصديق ﷺ يبدو عليها الوضع . انظر نفس المصدر ، ص ٢٦. وانظر البلاذرى ، أنساب الأشراف ، م٣ ، ص ٢٧١ .

(٢٢) الطبرى ، تاريخ الأمم ، جـ٤ ، ص ٢٠٥ ، ابن الأثير الكامل جـ٤ ، ص ٤٠٢ .

(٢٣) الطبرى ، تاريخ الأمم ، جـ٤ ، ص٢٣ - ٢٦ .

(٢٤) ورد فى صحيح البخارى ص ٧١٩ حديث رقم ٣٤٩٥ عن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال : « الناس تبع لقريش فى هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم » ، وفى مسند الإمام أحمد ، جـ١ ، ص ١٩٩ من رواية أبى بكر الصديق ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « قريش ولاة هذا الأمر ، فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم » .

(٢٥) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، حـ٣ ، ٣٤٤ .

(٢٦) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ٤٧ وسبب هذه المقولة أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ عاتبوا عمر بن الخطاب على دخول ابن عباس معهم عليه على حداثة سنه ، فطلب منهم عمر ﷺ تفسير سورة النصر فكان ابن عباس رضى الله عنهما أحسن تفسيراً وأكثر فهماً لمعانيها ومقاصدها . وانظر أيضاً أحمد بن حنبل ، كتاب فضائل الصحابة ، حـ٢ ، ص ١٣٨ - ١٤٠ .

(٢٧) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد بن صامل ، حـ٢ ، ص ٤٨٦ .

(٢٨) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ١٩٩ ، الطبرى ، تايخ الأمم حـ٤ ، ص ٢٠٥ ، الذهبى سير أعلام النبلاء ، حـ٣ ، ص ١٣٢ .

(٢٩) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، حـ٢٤ ، ص ٤٠٢ ، ابن حجر ، الإصابة ، حـ٩ ، ص ٢٣٢ .

(٣٠) الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٥ ، ص٢٢٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، حـ٧ ، ص١٥٨.

(٣١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد بن صامل ، حـ١ ، ص ١٧٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، حـ٣ ، ص ١٩٨ .

(٣٢) الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٥ ، ص٤٥٦ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، حـ٧ ، ص ٢٤٧.

(٣٣) ابن حنبل ، فضائل الصحابة ، حـ ٢ ، ص ٥٧٣ - الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٥ ، ص ٤٤٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، حـ٧ ص ٢٤٩ .

(٣٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، حـ٧ ص ٢٤٩ .

(٣٥) صحيح البخارى ، ص ٥٤٢ ، حديث ٢٧٠٤ .

(٣٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ، حـ٧ ص ٢٤٩ .

(٣٧) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص ٧٨ - ٧٩ ، الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٦ ، ص٧٩ .

(٣٨) الطبرى ، تايخ الأمم حـ٥ ، ص٨٢ .

(٣٩) ابن الأثير ، الكامل ، حـ٣ ، ص ٣٨٦ - ٣٨٧ .

(٤٠) المبرد ، الكامل فى الأدب ، حـ١ ، ص ٣٦٧ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ص ٢٧٤ .

(٤١) الطبرى ، تايخ الأمم حـ٦ ، ص ٥٨ .

(٤٢) علق محمد بركات البيلى فى بحثه الدعوة العباسية ، ص ٧ - ٨ على رواية استيلاء ابن عباس على بيت مال البصرة بقوله : « سواء كان هذا الاتهام صحيحاً أم باطلاً ، فيبدو أن الأموال التى استحوذ عليها عبد الله بن عباس ، قد جعلت بنيه فى سعة من العيش ومكنتهم فيما بعد من الانفاق على الدعوة العباسية وتحمل أعبائها المالية » ثم استند فى الحاشية على ما بذله محمد بن على بن عبد الله العباسى لبعض أهل خراسان من مال ، ليدلل على صحة استيلاء ابن عباس على بيت مال البصرة ، والواقع هو كذب تلك الرواية أولاً ، وثانياً لم يكن على بن عبد الله بن عباس الوارث الوحيد لأبيه ، فله أخوة كثيرون كما فى ترجمة العباس ولم يكن محمد بن على الوريث الوحيد لوالدهٔ فهو الآخر لديه أخوة كثيرون يشاركونه فى الميراث ، ويستبعد أن يكون مال البصرة المزعوم ما زال موجوداً إلى ما بعد المائة للهجرة .

(٤٣) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٢ ، ص ٣٠٩ .

(٤٤) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٢ ، ص ٣٠٩ .

(٤٥) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٥ ، ص ٥٤ - ابن الأثير ، الكامل ، حـ٤ ، ص ١٣.

(٤٦) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٥ ، ص ٥٤ .

(٤٧) الطبرى ، تاريخ الأمم ، حـ٦ ، ص ١٤٨ .

(٤٨) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٥ ، ص٩١ .

(٤٩) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، حـ٢ ، ص٩٨٤ - ٩٨٥ .

(٥٠) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، حـ٢ ، ص٩٨٥ .

(٥١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد بن صامل ، جـ١ ، ص ٣٦٢ - ٣٦٢ .

(٥٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق محمد بن صامل ، جـ١ ، ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .

(٥٣) انظر مثلاً : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ٤ ، ص ٨٠ - ٨٣ .

(٥٤) تاريخ خليفة بن خياط ، ٢٣٣ ، الطبرى ، تاريخ الأمم جـ٦ ، ص ٢٦٠.

(٥٥) أنساب الأشراف ، جـ٥ ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(٥٦) الطبرى ، تايخ الأمم جـ٦ ، ص ٢٦٣ .

(٥٧) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٣١ ، الطبرى ، تاريخ الأمم جـ ٦ ، ص ٢٦٧ .

(٥٨) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، جـ٣ ، ص٣٠٤ .

(٥٩) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، جـ٣ ، ص٣٠٤ .

(٦٠) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، جـ٣ ، ص٣٠٤ .

(٦١) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، جـ٣ ، ص٢٩٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٨ ص ١٧٣ .

(٦٢) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٤٣ ، الطبرى ، تاريخ الأمم جـ٦ ، ص ٣٢٥ .

(٦٣) يذكر خليفةبن خياط فى تاريخه أن ابن الزبير دعا إلى نفسه بعد موت يزيد بن معاوية وذلك سنة ٦٤هـ .

(٦٤) تاريخ خليفة بن خياط ، ص٢٣٧ - ٢٣٩ ، الدينورى ، الأخبار الطوال ، ص ١٩٦ - الطبرى ، تاريخ الأمم جـ٦ ، ص ٤٢١ - ٤٢٥ .

(٦٥) المعرفة والتاريخ ، مجلد ٢ ، ص ٥٣١ - وانظر ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ٤ ص ١٢٧ .

(٦٦) البسوى ، المعرفة والتاريخ ، مجلد١ ، ص ٥٣١ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ٤، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٦٧) تاريخ خليفة بن خياط ، ص٢٥٥ .

(٦٨) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٤ ص ١٧٢ ، وانظر : البسوى ، المعرفة والتاريخ ، مجلد١ ، ص ٥٣١ ، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، حـ٤ ، ص ١٢٧ .

(٦٩) يربنى : بفتح الياء وضم الراء والباء المشددة أى يكون على أميراً وذلك كما فسره ابن حجر ، أو بمعنى رباه وقام بامره وملك تدبيره . ومعنى كلام ابن عباس « لأن أكون فى طاعة بنى أمية أحب إلى من أن أكون فى طاعة بنى أسد » لأن بنى أمية أقرب إلى بنى هاشم من بنى أسد . انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ، حـ٨ ، ص ٣٢٠ .

(٧٠) ابن حجر ، فتح البارى ، حـ ٨ ، ص ٣٢٦ .

(٧١) ابن حجر ، فتح البارى ، حـ ٨ ، ص ٣٢٦ .

(٧٢) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص ١٤٤٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، حـ٤ ، ص ٢٥٤ .

(٧٣) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص ٧١ .

(٧٤) الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٧ ، ص٦٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، حـ٤ ، ص ٢٥٤ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٥ .

(٧٥) الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٦ ، ص٤١٨ .

(٧٦) ابن الأثير ، الكامل ، حـ٤ ، ص١٢٠ .

(٧٧) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، حـ١٥ ، ص ٧٤٩ .

(٧٨) المبرد ، الكامل فى الأدب ، حـ١ ، ص ٣٦٧ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣، ص ٢٧٤ .

(٧٩) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٥ ، وفى الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٧ ، ص٦٣٨ أن عبد الملك سأله عن اسمه وكنيته فأخبره فقال عبد الملك لا يجتمع فى عسكرى هذا الاسم والكنية لأحد وسأله هل له من ولد فأخبر بولده محمد فكناه به .

(٨٠) ابن الأثير ، الكامل ، حـ٤ ، ص ٣٣١ ، البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص ٩٩، ١٠٠ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد٤ ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٨١) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص ١٠١ - ١٠٢ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد٣ ، ص ٢٧٨ . وذكر أن التى تزوجها على هى لبابة بنت عبد الله بن جعفر .

(٨٢) الطبرى ، تاريخ الأمم جـ٦ ، ص ٥٥٢ .

(٨٣) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص ١٢ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد٣، ص٢٧٥ ، والحميمة - صقع بالشام فى طريق المدينة من دمشق بالقرب من الشوبك من إقليم البلقاء ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد٣ ، ص٢٧٨ .

(٨٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد٣ ، ص٢٧٦ .

(٨٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد٣ ، ص٢٧٧

(٨٦) ابن أسد ، الطبقات الكبرى ، مجلد ٥ ، ص ٣٢١ ، البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٤، ص ١٠٨ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد٣ ، ص١٨٧ .

(٨٧) ابن كثير ، البداية ، جـ٥ ، ص ٢٢٧ .

(٨٨) عليان ، قيام الدولة العباسية ، ص ١٥ . نقلاً عن محمد حلمى أحمد ، الخلافة والدولة فى العصر العباسى .

(٨٩) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، جـ١ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ ، ١٠٩ .

(٩٠) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، جـ٢ ، ص ٩٨٣ .

(٩١) ابن سعد ، الطبقات ، جـ١ ، ص ٣٦٣ ، تحقيق محمد بن صامل ، ويقصد بقوله : « ما بقى أبو عبد الله الحسين بن على رضى الله عنهما .

(٩٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٧ .

(٩٣) الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٢ ، أحمد مختار العبادى ، فى التاريخ العباسى والفاطمى ، ص١٩ .

ويرى فاروق عمر ، أن على بن عبد الله بن عباس هو أول شخصية تطمح لنيل الخلافة ، دون أن يسند ذلك إلى مصدر ، والواقع هو أن ابنه محمداً هو الذى بدأ العمل من أجل ذلك . انظر : العباسيون الأوائل ، جـ١ ، ص ٤٠ .

(٩٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، مجلد ٥ ، ص ٣٤٨ ، البلاذرى ، أنساب الأشراف ، جـ٢٠ ، ص ١٠٨ ، ابن خلكان ، مجلد ٤ ، ص ١٧٨ .

(٩٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، مجلد ٤ ، ص ١٨٧ ، الدورى ، العصر العباسى ص ٢٢، الكبيسى ، عصر هشام بن عبد الملك ، ص ٧٤ .

(٩٦) جـ٥ ، ص ٣٢٩ ، ومن هؤلاء الأبناء هاشم ، وبه كان يكنى ، ومحمد الأصغر وعلى ، وطالب ، وعون ، وعبيد الله ، ولم يذكر ابن سعد وفاة هؤلاء أو بعضهم فى حياة أبيه .

(٩٧) تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ، جـ٦ ، ص ٨٧ ، تهذيب التهذيب ، ص ١٦ .

(٩٨) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، مجلد ٥ ، ص ٣٢٨ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ص١٦ .

(٩٩) الكبيسى ، عصر هشام بن عبد الملك ، ص ٧٤ . وانظر فاروق عمر ، العباسيون الأوائل ، جـ١ ، ص ٣٩ أخبار الدولة العباسية ، ص ١٧٣ ، تاريخ دمشق ، جـ٥ ١٤ ، ص ٧٤٩ .

(١٠٠) المزى ، تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ، جـ١٦ ، ص ٨٧ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ص ١٦ .

(١٠١) أنساب الأشراف ، جـ٤ ، ص ١٠٥ .

(١٠٢) نسبة إلى رجل يدعى كيسان مولى لأمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ وقيل تلميذ لمحمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية ، والكيسانية تعتقد فى أبن الحنفية حده ودرجته من إحاطته بالعلوم كلها ، ويجمعهم القول بان الدين طاعة رجل ، حتى حملهم ذلك على تأويل الأركان الشرعية من الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، وغير ذلك على رجال وهم فرق متعددة ومنها المختارية أصحاب المختار بن أبى عبيد الثقفى . انظر : الشهرستانى ، الملل والنحل ، مجلد١ ص ١٤٧ - ١٥٤ .

(١٠٣) الأنساب ، جـ٤ ، ص ١٠٨ .

(١٠٤) الشهرستانى ، الملل والنحل ، جـ١ ، ١٤٩ .

(١٠٥) تهذيب التهذيب ، ص ٦٦ .

(١٠٦) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ص ١٦ .

(١٠٧) المزى ، تهذيب الكمال ، حـ١٦ ، ص ١٤٦ ، ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ص١٦.

(١٠٨) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص ١٠٨ .

(١٠٩) أحمد بن حنبل ، فضائل الصحابة ، حـ٢ ، ص ٩٨٧ .

(١١٠) انظر : الطبرى ، تاريخ الأمم حـ٥ ، ص ، ابن الأثير ، الكامل ، حـ٥ ، حوادث السنوات المذكورة .

(١١١) ابن الأثير ، الكامل ، حـ ٥ ، ص ٢٦٤ .

(١١٢) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص ١١٢ .

(١١٣) الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٣ .

(١١٤) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص ١١٢ .

(١١٥) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص ١١٢ - ١١٣ .

(١١٦) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص١١٣ .

(١١٧) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص١١٣.

(١١٨) كانت وفاته فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ . ابن الأثير ، الكامل ، حـ٥ ، ص ٢٦١ .

(١١٩) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، حـ٤ ، ص ١١٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، حـ٥ ، ص ٢٧٥ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

ابن الأثير : عز الدين على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى (ت ٦٣٠هـ) .

١ - الكامل فى التاريخ ، جـ ٣ ، جـ٤ ، بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

البخارى : الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ) .

٢ - صحيح البخارى : الطبعة الأولى ، الرياض ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م .

البسوى : يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧هـ) .

٣ - المعرفة والتاريخ ، مجلدا ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٤١٠هـ .

البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ) .

٤ - كتاب جمل من أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ٤ ، ٥ ، تحقيق سهيل زكار ، ورياض زركلى ، بيروت ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .

ابن حجر : الحافظ شهاب الدين أحمد بن على العسقلانى (ت ٨٥٢هـ) .

٥ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، جـ٨ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، ومحب الدين الخطيب ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٦ - الإصابة فى تمييز الصحابة ، جـ٥ ، ٩ ، ١٢ ، تحقيق طه محمد الزينى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

٧ - تهذيب التهذيب ، جـ٦ ، الطبعة الأولى ، حيدر أباد الدكن .

حنبل : الإمام أبو عبد الله أحمد بن بن حنبل (ت ٢٤١هـ) .

٨ - مسند الإمام أحمد ، جـ١ ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، بيروت .

٩ - كتاب فضائل الصحابة ، جـ١ ، ٢ ، تحقيق وصى الله بن محمد عباس ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر (ت ٦٨١هـ) .

١٠ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، مجلد ٣ ، ٤ ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٨م .

خياط : خليفة بن خياط العصفرى (ت ٢٤٠هـ) .

١١ - تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمرى ، الطبعة الثانية ، الرياض ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م .

الدينورى : أبو حنيفة بن داود (ت ٢٨٢هـ) .

١٢ - الأخبار الطوال ، مراجعة وتصحيح حسن الزين ، بيروت ١٩٨٨م .

الذهبى : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) .

١٣ - سير أعلام النبلاء ، جـ٣ ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون الطبعة ١١ ، بيروت ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .

الزبيرى : أبو عبد الله المصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦هـ) .

١٤ - كتاب نسب قريش ، عنى بنشره وتصحيحه ليفى بروفنسال الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٨٢م .

ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع الزهرى (ت ٤٣٠ هـ) .

١٥ - الطبقات الكبرى ، الطبقة الخامسة من الصحابة ، جـ١ ، ٢ تحقيق محمد بن صامل السلمى ، الطبعة الأولى ، الطائف ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

الطبقات الكبرى ، مجلد ٤ ، بيروت ، بدون تاريخ .

الشهرستانى : محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر (ت ٥٤٨هـ) .

١٦ - الملل والنحل ، جـ١ ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) .

١٧ - تاريخ الأمم والملوك ، الأجزاء ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٧٨م .

ابن عبد البر : يوسف بن عبد الله (ت ٤٣هـ) .

١٨ - الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، جـ٥ ، ٦ ، ١٠ ، تحقيق طه محمد الزينى، الطبعة الأولى مذيلة بكتاب الإصابة ، القاهرة ١٣٣٦هـ ، ١٩٧٦م .

ابن عبد ربه : أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ) .

١٩ - العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م .

ابن عساكر : أبو القاسم على بن الحسن (ت ٥٧١هـ) .

٢٠ - تاريخ دمشق ، طبعة مصورة عن نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق ، وضع فهارس الموضوعات والتراجم الشيخ محمد بن رزق الطرهونى ، المدينة المنورة ١٤٠٧هـ .

ابن كثير : الحافظ أبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى الدمشقى (ت ٧٧٤هـ) .

٢١ - البداية والنهاية ، جـ٥ ، ٧ ، ٨ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٥١هـ / ١٩٣٣م .

الكلبى : هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤هـ) .

٢٢ - جمهرة النسب ، تحقيق ناجى حسن ، بدون ذكر لتاريخ ومكان الطبعة .

المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد النحوى (ت ٢٨٥هـ) .

٢٣ - الكامل فى اللغة والأدب ، جـ١ ، بيروت ، بدون تاريخ الطبع .

مجهول : من مؤرخى القرن الثالث الهجرى .

٢٤ - أخبار الدولة العباسية ، تحقيق عبد العزيز الدورى ، وعبد الجبار المطلب ، بيروت ١٩٧١م .

المزى : جمال الدين يوسف المزى (ت ٧٤٢هـ) .

٢٥ - تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ، جـ١٦ ، تحقيق بشار عواد معروف ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ .

ابن منظور : محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ) .

٢٦ - مختصر تاريخ دمشق ، جـ٤ ، أختصره على نهج ابن منظور وعنى بتحقيقه إبراهيم صالح .

٢٧ - مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، جـ٢٥ ، تحقيق مأمون الصاغرجى ، الطبعة الأولى ، دمشق ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

ابن هشام : عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣هـ) .

٢٨ - السيرة النبوية ، جـ١ ، ٢ ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م .

ثانياً : المراجع :

البيلى : محمد بركات :

٢٩ - الدعوة العباسية « ثورة بنى العباس على الخلافة الأموية » القاهرة١٩٨٦م.

الدورى : عبد العزيز :

٣٠ - العصر العباسى الأول ، دراسة فى التاريخ السياسى والإدارى والمالى ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٨م .

الزركلى : خير الدين :

٣١ - الأعلام ، جـ٣ ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٩م .

العبادى : أحمد مختار :

٣٢ - فى التاريخ العباسى والفاطمى ، بيروت ١٩٧١م .

عليان : محمد عبد الفتاح .

٣٣ - قيام الدولة العباسية ، وتفسير جديد لدوافع الفرس إلى مؤازرتها ، ط٢ ، القاهرة ١٩٩٤م .

فوزى : فاروق عمر :

٣٤ - العباسيون الأوائل ٩٧هـ / ٧١٦م - ١٧٠هـ / ٧٨٦م ، جـ١ الطبعة الأولى ، بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

الكبيسى : عبد المجيد صالح :

٣٥ - عصر هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ / ٧٢٤ - ٧٤٣م) بغداد ١٩٧٥م .

المقدسي مؤرخاً لبلدان العرب
من خلال كتابه : « أحسن التقاسيم »

د. عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح(*)

تقديم :

التاريخ والجغرافية عند العرب فرعان متقاربان من فروع شجرة المعارف العامة المعروفة بـ (الأدب) . ولذا فإن عدداً من الرواد كانوا مؤرخين وجغرافيين في الوقت نفسه(١) ، مثل : « هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩م »(٢) ، واليعقوبي المتوفى سنة (٢٨٤هـ / ٨٩٧م)(٣) .

وقد شهد القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) - وهو قرن ازدهار الحضارة الإسلامية - اهتماماً واسع النطاق بالمصنفات الجغرافية ، فيما عرف بكتب (المسالك والممالك) . وقد أطلق كراتشكوفسكي على عدد من أعلام المصنفين في ذلك المجال - من أمثال : البلخي(٤) ، (ت ٣٢٢هـ / ٩٣٤م) ، والاصطخري المتوفى حوالي منتصف القرن الرابع الهجري(٥) ، والمقدسي (أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر للميلاد) - لقب أصحاب (المدرسة الكلاسيكية) ، قاصداً بذلك اقتصارهم في مؤلفاتهم على أقاليم دار الإسلام ، وبلوغهم منزلة جيدة في فن رسم الخرائط(٦) ، وحول آخر هؤلاء الأعلام (المقدسي) يدور هذا البحث .

أولاً : التعريف بالمقدسي :

نبدأ بالإشارة إلى ندرة المادة العلمية المتاحة في تراجم ذلك العلم الجغرافي المؤرخ ، وإلى تناقل المراجع المتوالية لها واجترارها ، دونما إضافات حقيقية شافية . ولعل هذا النوع من العلماء ، الذين غلبت عليهم اهتماماتهم الجغرافية لم يحظ

(*) مدرس التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة .

باهتمام مصنفى كتب التراجم والطبقات ، الذين وجهوا انتباههم إلى المحدثين ، والفقهاء ، والمفسرين وغيرهم ، ولم يفطنوا إلى تراجم الجغرافيين . وإزاء ذلك النقص الشديد فى المادة ، حاولت سد الخلل عن طريق استخراج المزيد عنه من خلال كتابه : (أحسن التقاسيم) .

أولاً : نسبه وأسرته :

هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء المقدسى(٧) ، الحنفى(٨) ، المعروف بـ (البشارى)(٩) ، ومن خلال سياقه نسبه السابقة ، وما توفر لدىمن معلومات نلاحظ ما يلى :

(أ) أن (المقدسى) شامى فلسطينى ، ينتمى إلى مدينة (بيت المقدس) تحديداً ، كما هو ظاهر من نسبه ، وعلى نحو ما صرح به فى كتابه(١٠) .

(ب) أنه يتبع المذهب الحنفى فى الفقه ، وسنرى بعض التفاصيل عن ذلك عند تناول (ثقافته) .

(جـ) أن جده لأبيه(١١) المعروف بـ (أبى بكر البناء) كان من أشهر البنائين ، وأمهرهم ، وأبرعهم فى زمانه . ولعل ما قام به من تشييد التحصينات القوية الخاصة بميناء (عكا)(١٢) ، زمن أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠هـ / ٧٦٨ - ٨٨٣م) يشهد له بالريادة فى مجال (الهندسة المعمارية) ، التى تمكن - بمقتضاها - من الاهتداء إلى البناء فى الماء فى ذلك الوقت المبكر . وقد حظى بإعجاب ابن طولون ، فدفع إليه ألف دينار ، بخلاف الخلع وغيرها من المركوب ، علاوة على تخليد اسمه بتسجيله على الميناء ، اعترافاً بفضله فى حماية الميناء ومراكبه من إغارة الأعداء(١٣) .

(د) عرفنا - من خلال قراءة كتاب المقدسى - أن والده كان على درجة ما من الثراء ممتلكاً عدداً من الغلمان ، الذين روى عنهم المقدسى فى كتابه عند حديثه عن بناء الحمامات فى (إقليم فارس)(١٤) .

(هـ) كان عمه (أبو على الحسن بن أبى بكر) ، مهتماً بالآثار المعمارية القديمة في مدينة (بيت المقدس) ، وعنه روى المقدسى ما يتصل بموقع قبر سيدنا يوسف (عليه السلام) بأرض فلسطين . وقد ذكر أن عمه المذكور ، وجده، كانا يشرفان على عمليات حفر العمال ، حتى انتهوا إلى خشب العجلة - ربما التى يظن أن جثمان يوسف حمل عليها - قد أكلتها الأرض . و لم يزل المقدسى يجد من بقاياها عند عجائز قومه ، يستشفين بها من الرمد(١٥) .

(و) وردت إشارة سريعة إلى أسرة والدة المقدسى فى كتاب: (أحسن التقاسيم)، إذ ذكر المؤلف أن جده لأمه (أبا الطيب الشوا) ينسب - فى الأصل - إلى كورة (قوميس)(١٦) ، بـ (إقليم الديلم) ، وإلى مدينة (بيار) تحديداً ، تلك التى تعد إحدى مدن قصبة (قومس) المسماة بـ (الدامغان) . وقد رحل هذا الجد إلى بلاد الشام مع ثمانية عشر رجلاً(١٧) فى وقت لم يحدد بدقة . ويبدو أنه استقر مع أسرته هناك ، وطاب لهم المقام .

وأخيراً فقد أشار المقدسى - فى كتابه - إلى خاله (عبد الله بن الشوا)، وروى عنه خبراً يتصل بـ (قرية دير شمويل) القريبة من (ايليا) بـ (إقليم الشام)(١٨) .

وهكذا ، رسمنا الملامح العامة للأسرة التى نشأ فى رحابها المقدسى ، من خلال الشذرات المتناثرات فى كتابه . ويتضح منها مقدار ما تمتعت به هذه الأسرة من مكانة متميزة مادياً وعلمياً (من جهة الأب) ، وأنها تضرب بأصولها فى بلاد المشرق (من جهة الأم) . ولعل هذه الازدواجية كان لها تأثيرها فى تقسيم المقدسى كتابه إلى قسمين : (أقاليم العرب) ، و(أقاليم العجم) ، إلى جانب تأثيرات أخرى نتعرض لها عند دراسة كتابه فيما بعد .

ثانياً : حول مولده ، ووفاته :

لم تحدد سنة ميلاد (المقدسى) تحديداً مباشراً ، لكن أمكن معرفتها - على نحو قاطع - عن طريق التاريخ ، الذى حدده الرجل لظهور كتابه : (أحسن التقاسيم) ، إذ ذكر أنه أخرج إلى حيز الوجود سنة (٣٧٥هـ / ٩٨٥م) ، وهو فى الأربعين من عمره(١٩) . وبعملية حسابية يسيرة ندرك أنه ولد سنة (٣٣٥هـ/ ٩٤٦م)(٢٠) .

أما بالنسبة لتاريخ الوفاة ، فليست ثمة إشارة ، ترشدنا إلى تحديده على النحو الذى حدد به تاريخ مولده . وقد تباينت آراء الباحثين بهذا الصدد ما بين سنوات: (نحو ٣٨٠هـ / ٩٩٠م)(٢١) ، و (حوالى ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م)(٢٢) ، و(بعد سنة ٣٧٨هـ / بعد ٩٨٨م)(٢٣) ، و(بين (٣٧٥ - ٣٨١هـ/ ٩٨٥ - ٩٩١م)(٢٤).

والحق أنى لم أقف على دليل يؤدى إلى الجزم بأى من التواريخ السابقة ؛ فإن أحداث كتاب المقدسى إذا لم تتجاوز سنة ٣٨٠هـ ، أو وقفت أخباره عند ذكر (الخليفة الطائع ٣٦٣ - ٣٨١هـ / ٩٧٣ - ٩٩١م) دون تجاوزه إلى ما وراءه من الخلفاء ، ليس بدليل أكيد على وفاته فى عهد ذلك الخليفة(٢٥) ، خاصة أن الكتاب كتاب جغرافى فى المقام الأول ، ولا يسرد الأحداث التاريخية بشكل أساسى ، حتى نعلل توقفه عند خليفة محدد بالوفاة . وبالنسبة لمن جعل الوفاة سنة ٣٨٠ ، أو ٣٩٠هـ ، فلم أجد مسوغاً لذلك التحديد . ولعل القول بالوفاة بعد سنة ٣٧٨هـ أقرب الآراء رغم عدم تحديده . وربما اتكأ فى ذلك - فيما يبدو - على ما ورد من صدور إحدى مخطوطتى الكتاب سنة ٣٧٥ هـ ، والأخرى سنة ٣٧٨هـ ، فتكون الوفاة بعدها(٢٦) . وعلى كل ، فخروجاً من هذا الخلاف أقول: لعله توفى أواخر القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى .

ثالثًا : سماته الشخصية :

اهتم بإبراز هذه السمات من واقع نصوص (كتاب المقدسى) ؛ تعويضاً للنقص الشديد فى معلوماتنا عنه ، وتسليطاً لمزيد من الأضواء عليه ، بما يفيدنا عند دراسة كتابه كمصدر من مصادر تاريخ العرب .

١ - الجانب الخلقى :

من خلال بعض عبارات المقدسى يتبين لنا ما يتمتع به من حس دينى ، وخلقى رفيع ، ونية صادقة دفعته إلى تأليف كتابه . فمثلاً : يتوجه إلى الله سائلاً إياه التوفيق فى إتمام هذا العمل ، فيقول : « وسألت الله عز اسمه - أن يجنبنى الخطأ والزلل ، ويبلغنى الرجاء والأمل »(٢٧) . ويقول فى موضع آخر مبيناً هدفه منه ، فيذكر أنه يريد أن « يقيم علماً يحيى به ذكره، ويحقق به نفعاً للخلق ، يرضى به ربه »(٢٨) .

يرى بعض الباحثين أن المقدسى يتصف بالفخر والزهور ، والاعتداد بالنفس(٢٩)، إضافة إلى أنه ينقد سابقيه جميعاً فى أسلوب لاذع ، لا يغفره له أن كتابه أحسن ما الف المشارقة فى باب (المسالك ، والممالك ، والبلدان ، والرحلات)(٣٠) .

ولعل من أقوى العبارات ، *التى دفعت إلى هذا الاتهام ما ذكره المقدسى* - وهو يقارن بين كتابه ، وكتب الآخرين - من أن الناظر فى كتابه يجده (نسيج وحده ، يتيماً فى نظمه)(٣١) ، إلى جانب القصيدة التى نظمها فى ختام كتابه ، وافاض فيها فى ذكر ميزاته ، ومظاهر إبداعه(٣٢) .

والحق أن ما اتهم به المقدسى لا يمكن التسليم به على إطلاقة ؛ إذ يمكن تفسيره على أنه فرط ثقة بنفسه وقدراته ، وإنجازه ، حتى مدحه أحد الباحثين بقوله : إنه « لا يغمط حقه فى الفهم والذكاء والأصالة ، والطرافة، وقوة الملاحظة»(٣٣) . ويدعم هذا التفسير وجود عدة مواضع فى كتابه نفسه يظهر

تواضعه فيها جلياً ، مثل قوله : « ثم إنى لا أبرء نفسى من الزلل ، ولا كتابى من الخلل ، ولا اسلمه الزيادة والنقصان ، ولا أفلته من الطعن على كل حال »(٣٤) . ثم إننا نجد الرجل يذهب إلى مدى أبعد فى التنزه عن كل غرض وضيع من وراء تأليف كتابه ، ويسمو به إلى درجة الفرض الحتمى اللازم ، الذى يدفعه إلى أدائه ما امتلك من أسبابه وأدواته ، فيقول : (لو وجدنا رخصة فى ترك جمع هذا الأصل ما اشتغلنا به ، ولكن لما بلغنا الله (تعالى) أقاصى الإسلام ، وأرانا أسبابه، وألهمنا قسمته ؛ وجب أن ننهى ذلك إلى كافة المسلمين . ألا ترى إلى قوله تعالى : « قل : سيروا فى الأرض »(٣٥) ، و « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا»(٣٦) . وفيما نذكر عبرة لمن اعتبر وفوائد لمن سافر)(٣٧) ، وأخيراً، فإن نقده الموجه إلى السابقين كان قائماً على أساس علمى(٣٨) ، و لم يكن هدفه التقليل ، أو الحط من شأنهم ، ثم إنه لم يمنعه من الاعتراف بمكانة بعضهم(٣٩) . وهكذا يمكن القول : إن المقدسى لم يكن يتسم بالزهو والخيلاء على طول الخط ، وإنما كان فيه خلق التواضع أيضاً ، ولا يعيبه إلا ما يند عنه - أحياناً - من عبارات الثقة الزائدة بالنفس ، مما كان التورع عنها به أولى .

يتصف المقدسى - أيضاً - بالتقوى والورع ، والزهد . ونلمس ذلك مما كشفه لنا فى كتابه من حب الورعين والمتعبدين(٤٠) ، وإيراد بعض الروايات عن الزاهدين(٤١) . ويضاف - إلى ذلك - ما نثر من حكم فى الزهد فى كتابه ، عندما بين أن الأرباح - أبداً - مع الأخطار ، وأن على العبد أن يعلم أن الله يعطى العبد جزاء ركعتين ، يصليهما بالإخلاص ، أكثر من الدنيا بحذافيرها . وماذا يصنع العبد بنعمة الموت من ورائها ، وجمع أموال لابد من تركها(٤٢) ؟! وأخيراً الناظر فى خاتمة كتابه يقف على مدى تقواه وورعه من خلال تضرعه إلى الله (عز وجل)(٤٣) .

٢ - الجانب النفسى :

تمتع المقدسى بخلة أصيلة فيه هى (قوة الإرادة ، ومضاء العزيمة) . ولا ريب أن هذه السمة المهمة هى التى ارتكن إليها فى تحمله مشاق رحلاتـه ، التى اعتقـد انه جمع فيها خيرى الدنيا والآخرة (المال مـن العمـل والتجـارة ، والعلـم بجغرافيـة وتواريخ وأحوال البلدان التى زارها) . وقـد سـجل لنا الرجـل فـى كتابـه مـدى الجهود الكبيرة ، والصعاب الشديدة التى تجشمها فى جولاتـه بـالبلدان ، وزياراتـه أقاليم الإسلام (عربا ، وعجمـاً) ، ومنهـا يتبـين لنـا أنـه كـان يلتقـى بالعلمـاء ، ويخالط الملوك ويدخل فى خدمتهم ، ويجـالس القضـاة ، ويـدرس علـى الفقهـاء ، ويـتردد علـى الأدبـاء والقـراء والمحدثـين ، ويغشـى مجـالس الزهـاد والمتصوفـة ، والقصاص والمذكرين ، ويعاشر التجار وعوام الناس ، كل ذلـك مـع تفطـن قـوى وفهم جلى ، مع ملاحظة ما حوله من مناخ ومياه ، وتحكم عظيم فى النفس حيث الصبر عن المعصية ، ونصح المسـلمين ، والصـبر علـى ذل الغربـة ، مـع مراقبـة الله والخشية منه(٤٤) .

واتفق مع الأستاذ الدكتور حسين مؤنس علـى أن أمثـال تلـك الرحـلات ، على مـا فيهـا مـن تحمـل المخـاطر واستجلاء المجهـول ، ليسـت مـن قبيـل الفخـر آنذاك(٤٥) ؛ إذ لم يكن ركوب المخـاطر ، والمجازفـة بـالنفس مما يعلـى قـدر المـرء حتى يتجشم الكذب فيه ، اللهم إلا إذا ثبت بالدليل المقبول عدم تحـرى أصحابهـا الصدق(٤٦) ، وهو ما ننزه عنه عالماً من طراز المقدسى .

٣ - الجانب الثقافى :

لا شك فى أن شخصية طلعـة نهمـة كشـخصية المقدسـى ، لابـد أن تنهـل وتروى من معين الثقافة التى تعاصرها . والمطالع كتاب المقدسى يلمس - بوضوح - موسوعية ثقافته . ومن أبرز معالم ثقافته(٤٧) :

(أ) ثقافته العربية الأصيلة :

لقد امتلك المقدسى ناصية البيان بالعربية - لغة عدد غير قليل من الأقاليم التى زارها - التى أحسن الكتابة بها ، وذلك واضح من أسلوبه الجزل الرصين ، وجملة ذات الفواصل الموسيقية المؤثرة ، التى رآها البعض تصنعاً وتكلفاً ، وجد فى بداية ، وخاتمة ، وصلب الكتاب دون داع(٤٨) .

وبالنظر فى اسلوب الرجل ومراجعته ، ألفيته أسلوباً بلاغياً راقياً ، لا تكرار ولا إملال فيه غالباً ؛ مما يدل على تمكنه اللغوى وفصاحته . ومن ذلك قوله فى خطبة كتابه : (الحمد لله الذى خلق فقدر ، وصور فاتقن صنع البرية ، بلا مشير يناصره ، ودبرها بلا معين يعاضده . اتقنها أى اتقان ، وأحكمها بلا أعوان)(٤٩). وفى سياق حديثه عن جهاده فى رحلاته ، قال : (ودورانى على التخوم حتى حررتها ، وتنقلى إلى الأخبار حتى عرفتها ، وتفتشى عن المذاهب حتى علمتها)(٥٠) .

ويلاحظ على المقدسى - أيضاً - أنه متقن لمفردات المعجم اللغوى العربى ، ويميل إلى استخدام غريب اللغة نوعاً ما . ومن ذلك قوله : (فكركرهم عنى)(٥١). وذلك فى أثناء إشارته إلى إنقاذ أحد الكتبة له من بين أتباع أحد المفرطين فى حب معاوية ﷺ ؛ لأن المقدسى تجاسر ، وكذب حديثاً موضوعاً ، رواه ذلك الرجل فى فضل معاوية . وكذلك قوله عن هواء بيت المقدس شارحاً موضحاً : سجسج (لا حر ، ولا برد شديد)(٥٢) . وأيضاً قوله عن ذهابه إلى إحدى المناطق ، فوجدها خالية : (فلم أر بها دياراً)(٥٣) .

وأخيراً ، فإن بكتاب المقدسى شواهد ، تدلل على إلمامه بعدد من فنون العربية (رجزاً(٥٤) . وأمثالاً(٥٥) ، وشعراً)(٥٦) . ويضاف - إلى ما سبق - معرفته بمدلولات الألفاظ المستخدمة المتباينة بتباين الأقاليم(٥٧) .

(ب) ثقافته الجغرافية :

لا شك فى أن رحلات المقدسى إلى أقاليم الدولة الإسلامية المختلفة ، واهتمامه بمطالعة المصادر الجغرافية قدم له زاداً وفيراً ، ومادة علمية غزيرة ، منها ألف كتاب (أحسن التقاسيم) . وسأكتفى بمثال واحد كشاهد على دقة معرفته بالبلدان(٥٨) حيث عقد فصلاً لبلدان وكور ، تتفق أسماؤها ، وتتباين مواضعها ، ويشكل على الناس أمرها ، والمنسوبون إليها (مثل : البصرة بالعراق وبالمغرب(٥٩) ، وحلوان التى هى كورة بالعراق ، ومدينة بمصر ، وقرية بنيسابور)(٦٠) .

(جـ) ثقافته فى العلوم الإسلامية :

فى القراءات : تبين لنا – من خلال بعض نصوص كتابه – أنه لديه إلمام بـ (علم القراءات القرآنية) ، فهو – شخصياً – لديه ميل وإتقان لقراءة (عبد الله بن عامر)(٦١) ، وبها قرأ القرآن فى مصر(٦٢) . ومن خلال تناوله ثقافات أهل الأقاليم التى يحدثنا عنها ، أورد معلومات تدل على إحاطته باتجاهات الأقاليم المختلفة فى علم القراءات فى زمانه (فى القرن الرابع الهجرى) . فمثلاً : فى الحجاز توجد قراءات نافع ، وابن كثير ، وغيرهما . وقراءة أهل الشام – ومنهم : المقدسى – هى قراءة (عبد الله بن عامر)(٦٣) .

فى الحديث : أورد المقدسى عدداً من الأحاديث النبوية الشريفة فى كتابه ، وحرص على ذكر أسانيدها كاملة ومناسباتها الجغرافية ، مثل : حديث إعادة بناء الكعبة لدى تعريفه بـ (مكة)(٦٤) ، ومجموعة أحاديث عن مكان إحرام أهل المدينة ، والشام ، ونجد (وذلك عند تناول الجحفة ، وقرن)(٦٥) ، وغير ذلك من الأحاديث(٦٦) .

فى الفقه : اهتمام المقدسى بـ (علم الفقه ، ورجاله) اهتمام أصيل . فالرجل فقيه حنفى تتلمذ بالعراق على أيدى الفقهاء الأحناف ، وأختار مذهبهم ، وفضله عما سواه من المذاهب(٦٧) . وللفقهاء عنده منزلة سامية ، فيحترمهم ويعرف فضلهم ، ويرفعهم فوق أهل العلم والأدب عامة(٦٨) ، وقد تأثر المقدسى فى دراسته للأقاليم بمصطلحات الفقهاء ، فذكر أنه قد أجرى مسائل كتابه على (التعارف ، والاستحسان) ، كما أجرى الفقهاء كتابى (المكاتب ، والإيمان) ، ورتبه على مذاهب أهل العراق التى فيها تفقه ، وإياها اختار ، واستعمل القياس فى مواضع تحسن وتليق(٦٩) .

لقد احتوى كتاب (أحسن التقاسيم) على باب من (مقدماته) ، خصص لذكر المذاهب عامة (فقهية ، وكلامية ، وحديثية) . وتناول بالحديث المذاهب الفقهية وأصولها وأئمتها ، وما تفرد به كل مذهب منها عما سواه(٧٠) . هذا ، إلى جانب إشاراته المتعددة فى كتابه إلى المناظرات والمناقشات الفقهية الدائرة حول بعض المسائل الخلافية فى الأقاليم الجغرافية التى يعرضها(٧١) ، إلى جانب سرد بعض أحكام الدين عندما تلوح المناسبة(٧٢) .

رابعاً : (دراسة القسم الأول من كتاب : «أحسن التقاسيم»)(٥٠):

من المعلوم أن المقدسى قسم كتابه المذكور إلى قسمين :

أحدهما : خاص بأقاليم العرب .

وثانيهما : يتعلق بـ (أقاليم العجم) . ولما كانت دراستنا فى هذا البحث تنصب على جانب (تاريخ العرب) ، فقد اقتصرت الدراسة عل (القسم الأول) فقط ، كمحاولة لتسليط الأضواء على المادة التاريخية - تقليدية ، وغير تقليدية - المبثوثة فى ثنايا هذا المصدر الجغرافى الأصيل .

١ – عرض عام لمحتويات هذا القسم :

١ – بدأ المقدسى كتابه بمقدمة عامة ، أثنى فيها على الخالق المبدع سبحانه ، مبيناً قدرته فى بعض ظواهر الكون ، ثم ذكر أهداف تأليف كتابه ، وموضوعه ، وفوائده ، وأهميته ، وما بذل فى جمعه من جهد(٧٤) .

٢ – وتحت عنوان : (مقدمات وفصول لابد منها) أورد عدة موضوعات ، منها: الأسس المنهجية لكتابه ، وذكر البحار والأنهار ، والخصائص العامة للأقاليم الجغرافية والمواضع المختلف فيها ، وغير ذلك(٧٥) .

٣ – عرض أقاليم العرب واحداً بعد الآخر : (جزيرة العرب(٧٦) ، والعراق(٧٧)، وأقور(٧٨)، والشام(٧٩) ، ومصر(٨٠) ، والمغرب(٨١) ، وبادية العرب(٨٢). وكان المقدسى يقسم الإقليم إلى ثلاثة أقسام متباينة فى أحجامها حسب توفر المادة العلمية عن كل منها ، فيدرس فى الأول مدن الإقليم ، والمواضع العامرة فيه . ويبحث الثانى فى المناخ وطوائف السكان ، ولغتهم ، والأوزان، والنقود ، والعادات ، والمياه ، والمعادن ، والأماكن المقدسة ، وأخلاق سكانه، وتاريخه السياسى والاقتصادى ، ويتناول الثالث الحديث عن المسافات ، وطرق المواصلات فى كل إقليم(٨٣) .

٢ – موارده :

فى هذه الجزئية نركز الحديث عن المصادر الواردة فى قسم (أقاليم العرب) من كتاب (أحسن التقاسيم) للمقدسى ، والتى استمد منها مادته . وقبل الولوج إلى ذكر أنواع الموارد ، التى استمد منها مادته التاريخية غالباً ، نذكر القواعد النظرية العامة التى حكمت اختياره لهذه الموارد ، ونوعياتها ، وطريقته فى الأخذ منها(٨٤) ، وهى كالآتى :

(أ) البحث والتنقيب والتحرى فى اختيار وتحديد المصادر ، التى ينقل عنها مادته.

(ب) المشاهدة ، والقناعة العقلية ، سؤال أولى الألباب عن الناس ممن لم يعرفوا بالغفلة والالتباس ، وسؤالهم عن الكور والأعمال فى المناطق التى بعد عنها المقدسى ، ولم يقدر على الوصول إليها (كالأندلس مثلاً) . فإذا اتفق أكثر من مصدر سأله ، أثبت ما اتفقوا عليه ، وما اختلفوا فيه تركه ونبذه ، وما لم يكن له بد من الوصول إليه والوقوف عليه ، قصده .

(جـ) ما لم يقره قلبه ، ولم يقبله عقله ، أسنده إلى الذى ذكره ، أو قال : زعموا .

(د) الاجتهاد فى عدم ذكر شىء قد سطره أصحاب المصنفات قبله فى ذلك العلم ، ولا يشرح أمراً قد أوردوه وبينوه إلا عند الضرورة ؛ كى لا يبخسهم حقوقهم ، ولا يتهم بالسرقة من تصانيفهم(٨٥) .

(هـ) يذكر المقدسى فى كتابه ما رآه ، ويحكى ما سمعه . فما صح من الروايات بالمعاينة وأخبار التواتر ، أرسل به القول (أى : لم يذكر مصدره) ، وما شك فيه من أخبار ، أو رواه من طرق الآحاد ، أسنده إلى راويه . ويلاحظ أنه لم يذكر فى كتابه مصدراً إلا وهو (صدر مشهور ، أو عالم مذكور ، أو سلطان جليل) ، وباستثناء مواضع ذكر فيها موارد ، لا تندرج تحت هؤلاء المذكورين ؛ لضرورة ، أو لورودهم عرضاً خلال إحدى الروايات . ويميز هذا المصدر الأقل مكانة بتسميته رجلاً ذاكراً محله (مكانته) ، ليفرق بينه وبين جلة المذكورين .

أقسام موارده :

* لخص لنا المقدسى هذه الأقسام فى عبارة مجملة ، جاء فيها : أن موارد كتابه على النحو الآتى :

(أ) ما عاينه .

(ب) ما سمعه من الثقات .

(جـ) ما وجده فى الكتب المصنفة فى هذا الباب . وفى غيره . فما بقيت خزانة ملك إلا وقد لزمها ، ولا تصانيف فرقة إلا تصفحها ، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفها ، ولا أهل زهد إلا وقد خالطهم ، ولا مذكر وبلد إلا وشهدهم ، حتى استقام له ما ابتغى فى هذا الباب(٨٦) .

والأن ننتقل إلى الجانب التطبيقى الفعلى لمصادر المقدسى ؛ وهى على النحو الآتى :

(أ) مصادر ذكر عناوينها ، ولم يذكر أسماء مؤلفيها :

(قرأت فى أخبار المدينة)(٨٧) ، و (قرأت فى أخبار البصرة)(٨٨) ، وهو (قرأت فى كتاب الطلسمات)(٨٩) .

(ب) مصادر لم تحدد عناوينها ، ولا أسماء مؤلفيها :

(وجدت فى بعض خزائن الخلفاء)(٩٠) ، و(قرأت فى كتاب بخزانة عضد الدولة(٩١) ، و(قرأت فى بعض الكتب)(٩٢) .

(جـ) مصادر معلومة الاسم ، والمؤلف :

(وجدت فى كتاب ابن خرداذبه)(٩٣) ، و (قرأت فى كتاب ابن خرداذبه)(٩٤) ، و (ذكر قدامة بن جعفر الكاتب)(٩٥) ، وأما الدخل ، فقرأت فى كتاب (الخراج) لقدامة بن جعفر(٩٦) ، و (قرأت فى كتاب ابن الفقيه)(٩٧) .

ملاحظتان :

الأولى : هناك مصدر ، نقل عنه المقدسى ، ولم يذكر اسمه تحديداً ، واكتفى بذكر نسب المؤلف دون اسمه . ومثال ذلك قوله : (وذكر الشمشاطى)(٩٨) . فى (تاريخه)(٩٩) .

الثانية : هناك بعض المرويات المصدرة بلفظة (قال) ، لكن الرواية فيها عن أشخاص ، يستحيل على المقدسى النقل المباشر عنهم ؛ مما يدل على أنها منقولة عن مدونات مجهولة العناوين : (قال عبد الله بن عمرو(١٠٠) ، وقال قطرب(١٠١) ، وقال كعب الأحبار)(١٠٢) .

(د) مصادر شفهية :

توجد مرويات عديدة - فى كتاب المقدسى - مصدرة بألفاظ ، يغلب على الظن معها ، أنها نقلت شفاهاً . ولعلها دونت فيما بعد . وقد وردت هذه الروايات بأشكال متعددة منها :

- ما صدر بلفظة (سمعت) ، بعدها المورد مذكور :

(سمعت - يوماً - القاضى أبا الحسين القزوينى(١٠٣) ، وسمعت أبا على الحسن بن أبى بكر البناء(١٠٤) ، وسمعت عمى(١٠٥) ، وسمعت خالى عبد الله بن الشوا)(١٠٦) .

- ما صدر بلفظة (سمعت) بعدها المصدر غير مذكور تحديداً :

(سمعت بعض العثمانية(١٠٧) ، وسمعت هذه الحكاية من عدة من مشايخ الأندلس(١٠٨) ، وسمعت بعض مشايخ القيروان)(١٠٩) .

- ما صدر بلفظة (سألت) ، وبعدها مصدر غير محدد :

(وسألت بعض المصريين ببخارى عن الخراج)(١١٠) .

- وما صدر بلفظة (سألت) ، وبعدها غير محدد ، ثم سؤال أكثر من مصدر محدد :

(وسألت جماعة منهم (أى : من الروم) ، وسألت عربياً الخادم (وكان من أهل العلم والصدق) ، وذكرت قوله لأبى سعيد الجورى بـ (نيسابور)(١١١).

- روايات مصدرة بلفظة (**أخبرنا**) بعدها سلاسل إسناد كاملة ، تنتهى إلى أحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ(١١٢) ، وروايات أخرى مصدرة بلفظة (**حدثنا**) بعدها سلاسل إسناد كاملة فى معظمها ، وتنتهى إلى أحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ(١١٣) .

- الجمع بين مصدر شفهى غير محدد ، وآخر مكتوب غير محدد أيضاً :

(وسمعت بعض العلماء ، وقرأت فى بعض الكتب)(١١٤) .

- وأخيراً ، روايات مجهولة المورد ، مصدرة ببعض الألفاظ ، مثل:

(يزعمون(١١٥) ، وسمعتهم يزعمون(١١٦) ، و(قالوا)(١١٧) ، و(قيل)(١١٨) ، و(يقال)(١١٩) ، و(يقولون)(١٢٠) ، و(يحكى)(١٢١) ، و(حكى لى)(١٢٢) ، و (زعم)(١٢٣) ، و (حدثت)(١٢٤) ، و(حدثونا)(١٢٥).

ملاحظات على موارد المقدسى :

(أ) اتضح من النماذج المختارة السابقة تنوع المصادر ، التى استمد منها المقدسى مادته ما بين مصادر مكتوبة ، وشفهية (محددة ، وغير محددة) ، وأخرى مجهولة . وتنوعت الألفاظ المستعملة للتعبير عن النقل من تلك المصادر ، فاستخدم المقدسى (قرأت) فى التعبير عن مطالعة المصادر المكتوبة ، وكذلك (وجدت ، وذكر) . وفى المصادر الشفهية استخدم ألفاظاً ، مثل : سمعت ، وسألت ، وأخبرنا ، وحدثنا . وفى الموارد المجهولة استخدام عدداً من الألفاظ الدالة على الظن والتشكيك ، مثل : يزعمون ، وقيل ويقال .

(ب) بالنسبة للروايات المنقولة عن كتب جغرافيين سابقين ، فما تيسر لى الإطلاع عليه من المطبوع ، قارنت ما فيه من مادة تاريخية بما أورده المقدسى نقلاً عن

هذه الكتب . وقد تبين لى أن المقدسى كان دقيقاً فى نقله من كتاب (ابن خرداذبه) ما يتصل بعدد مدن الأندلس الأربعين(١٢٦) ، وكذلك كان دقيقاً فيما يتصل بمقادير خراج (حمص ، والأردن وفلسطين)(١٢٧) .وثبت دقته كذلك فى نقله عن (ابن خرداذبة) - أيضاً - ما يتصل بمقدار (خراج اليمن)، وإن لم يذكر المصدر الذى اعتمد عليه ابن خرداذبه فى ذلك (ووجد فى ديوان الخراج ، رفع لبعض عمال اليمن)(١٢٨) . ووقفت - أيضاً - على دقة المقدسى فى نقله عن (كتاب الخراج) لقدامة بن جعفر ، فيما يخص مقادير خراج (الحرمين واليمن ، واليمامة والبحرين ، وعمان)(١٢٩) .

وتجدر الإشارة إلى أن المقدسى كان يتصرف - أحياناً - فى نقله عن المصادر ، فهو عندما اقتبس من كتاب (ابن خرداذبه) قيمة خراج (ولاية اليمن) ، أغفل ذكر تعليق ابن خرداذبه بأن هذا هو أكثر ما ارتفع من خراج فى هذه الدولة . ثم إنه عندما ذكر (التقسيم الإدارى لليمن) ، عبر عن (الولاة) بلفظة (أعمال) ، فقال : مقسومة على ثلاثة أعمال (بدلاً من ثلاثة ولاة) . ونقل مختصراً ما قاله ابن خرداذبة ، فأسقط ذكر حجم ومنزلة ولاية من الولايات الثلاث، فقد قال ابن خرداذبه عنها ما يلى : الجند ومخاليفها (وهى أعظمها) ، وصنعاء ومخاليفها (وهى أوسطها) ، وحضر موت ومخاليفها (وهى أدناها)(١٣٠) .

وقد يبدو المقدسى مجانباً الدقة والصواب ، عندما نقل عن كتاب ابن خرداذبة أن خراج قنسرين أربعمائه ألف دينار(١٣١) ؛ لأنه بالعودة إلى كتاب ابن خرداذبه ، ألفينا هذا الرقم خاصاً بخراج قنسرين والعواصم معاً(١٣٢) . وقد ذكر ياقوت فى حديثه عن (العواصم)(١٣٣) ، أن البعض يزعم أن (حلب) ليست منها ، والبعض يزعم أنها منها ، ثم استحسن دليل من قال : إن حلب ليست من أعمال (العواصم) أنهم اتفقوا على أنها من أعمال (قنسرين) وهم يقولون : قنسرين

والعواصم ، والشيء لا يعطف على نفسه(١٣٤) . فتكون (قنسرين) شيئاً، و (العواصم) شيئاً آخر ، ويكون المقدسي غير دقيق فيما ذكر . إلا أنه يمكن الرد على ذلك بما ذكره ياقوت نفسه بعد ذلك في التعريف بـ (قنسرين)(١٣٥) ، لما قال : وبعض يدخل قنسرين في العواصم(١٣٦) . فلعل المقدسي من هؤلاء ، فيكون ما نقله عن خراج قنسرين معبراً عن خراجها وخراج العواصم معاً ، فيسلم بذلك من المؤاخذة .

وثمة جزئية أخيرة يمكن أن تؤخذ على (المقدسي) بهذا الصدد ، وتتعلق بمقدار دخل مصر ، حيث نقل عن (قدامة) أن هذا الدخل بلغ من العين ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار . وبالعودة إلى كتاب (قدامة) وجدت أن هذا الرقم يختص بـ (مصر ، والإسكندرية) معا(١٣٧) . والراجح أن المقصود بـ (مصر) مدينة الفسطاط العاصمة الإسلامية لمصر . أما الإسكندرية ، فهي العاصمة القديمة قبل دخول الإسلام مصر ، وكانت تعامل معاملة خاصة في ظل النظام الإداري بعد الفتح الإسلامي ، فهي مدينة بارزة من مدن الوجه البحري ، ولها وال يحكمها ، ودخل تختص به ، بخلاف دخل العاصمة (الفسطاط)(١٣٨) .

(جـ) كان المقدسي دقيقاً في استخدام الألفاظ ، التي تصدر بها روايات كتابه ، فالمرويات التي لا يستطيع التحقق من صحتها يستخدم معها ما يدل على ميل إلى عدم الاقتناع بمضمونها ، مثل : يقولون(١٣٩) ، ويزعمون(١٤٠) .

(د) حرصه على ذكر الأسانيد الكاملة للمرويات الحديثة ، وإن لم يتعرض لها بتحديد مدى صحتها من عدمه . وفي الوقت نفسه أتى في إحدى الروايات ، التي تغلب عليها الأسطورة والخرافة بالإسناد الكامل(١٤١) . وأحياناً كان يروي عن مصدر له صلة غير واضحة بموضوع الرواية(١٤٢) ، وأحياناً يسأل أهل الاختصاص(١٤٣) . ويكرر السؤال نفسه لدى أكثر من مصدر ، واصفاً أحدها بأنه من أهل العلم والصدق(١٤٤) ، وكل ذلك لمزيد من التدقيق والتثبت .

(هـ) وأخيراً ، فإن هذا القسم الخاص بـ (أقاليم العرب)من كتاب (أحسن التقاسيم) به كثير من المعلومات والروايات ، التى لم يذكر المقدسى لها مصدراً ، وهى من الكثرة بحيث يصعب حصرها . ويغلب على الظن أنها من المواضع التى اتفق عليها ، وصحت للمقدسى بالمعاينة والتواتر (على نحو ما ذكر فى منهجه فى ذكر الموارد سابقاً) . وهذا يعنى أن كثيراً من مرويات المقدسى قائمة على (المشاهدة والمعاينة) ، وهى ناتجة - ولا شك - عن الرحلات الطويلة التى قام بها لأقاليم الإسلام(١٤٥) .وجولاته فى البلاد(١٤٦) ، وكثرة أسفاره فى البحار والمحيطات(١٤٧) . وهكذا ، فإن المشاهدة تأتى فى المقام الأول بين موارده(١٤٨) . وما لم يطالعه بنفسه ، اعتمد فى معرفته على المصادر المكتوبة ، سؤال أهل العلم(١٤٩) .

٣ - منهجه :

قبل الحديث عن عناصر المنهج التطبيقى ، الذى سلكه المقدسى فى عرض قسم (أقاليم العرب) من كتابه ، نضع أيدينا - أولاً - على الأسس والقواعد النظرية التى أتبعها المقدسى قبل وعند وضع كتابه ، وهى كما يلى :

أولاً : دوافع التأليف : هناك دافع عام رغب المقدسى فى تأليف كتابه ، يشاركه فيه عامة العلماء(١٥٠) ، ودافع خاص يتعلق بالمقدسى . لقد نظر فى العلوم عامة ، فوجد أن الأمور تسير على هذا النحو : علماء لهم قدم السبق والريادة ، يقومون بالتأليف فى البداية ، ثم يأتى آخرون بعدهم ، فينظرون فى مؤلفات الأولين ، فإما أن يشرحوها ، أو يختصروها أما هو ،فرأى أن يكتب فى علم قد أغفلوه ، وينفرد بفن لم يذكروه إلا وعليهم فيه مآخذ ؛ إذ عالجوا بإخلال . فرأى هو أن يذكر الأقاليم الإسلامية ذكراً شاملاً متكاملاً ، يصف طبيعة الإقليم الجغرافية ، ويصف مدنه المشهورة ، ويذكر الطرق الموصلة إليه ، مع بيان ما فيه من أنشطة بشرية صناعية وتجارية وغيرها ، مع التعرض للغة أهل

الإقليم ، وأشكالهم ، وأزيائهم ، ومطاعمهم وشرابهم، وصادراتهم ووارداتهم ، ومكاييلهم وأوزانهم ، ونقودهم ، ومذاهبهم ، وغيرها(١٥١) .

ثانياً : مطالعة الكتب السابقة عليه في هذا العلم ، وقراءتها قراءة نقدية . وانتهى - بعد ذلك - إلى اقتناع بأن هؤلاء الذين تقدموه ، جاءت مصنفاتهم مختلة ، واعتمدوا فيها على السماع(١٥٢) . فالجيهاني(١٥٣) صاحب معرفة بالفلسفة والنجوم والفلك . قام بالاعتماد على سؤال الغرباء عن ممالكهم ، ودخلها ، وكيفية الوصول إليها (فلم يعتمد على الرحلة إلى تلك الأقطار) .ومما أخذه عليه المقدسي أنه اهتم بذكر منازل مجهولة ، ومراحل مهجورة ، ولم يفصل ذكر الكور ، ولم يرتب أجنادها ، ولم يصف مدنها ، ولا استوعب ذكرها . وكذلك انتقده المقدسي بالإطالة في الكتاب ؛ نتيجة شرح ما في الطرق من سهول وجبال ، وأودية ، وتلال ، وأنهار ، ثم أغفل أكثر طرق الأجناد(١٥٤) .

* وطالع المقدسي كتاب (أبي زيد البلخي) ، وعاب عليه تركه كثيراً من أمهات المدن ، وعدم الارتحال إلى البلدان والأعمال .

* وأخذ على ابن الفقيه الهمداني عدم ذكره إلا المدن العظمى ، وعدم ترتيبه الكور والأجناد ، وإدخاله في كتابه علوماً ، لا علاقة له بها (زهد في الدنيا ورغبة فيها وحكايات مبكية وأخرى ملهية مضحكة) .

* وأما كتاباً الجاحظ ، وابن خرداذبه ، فذكر أنهما مختصران جداً ، ولا يحصل منهما كثير فائدة(١٥٥) .

* ولا شك في أن المقدسي حاد في نقده ، لكني لا استطيع القطع بانه كان ناقداً متعسفاً - أحياناً - على السابقين في هذا المجال(١٥٦) . لأن بعض الكتب التي ذكرها في حكم المفقودة .

ثالثاً : القيام بزيارات ميدانية ، ورحلات شخصية مطولة ؛ لجمع مادة كتابه بنفسه عن طريق المشاهدة والمعاينة ، ومخالطة الناس والعلماء في البلاد المختلفة التي

زارها وحضور مجالس علمائها ، وعقد صلات مع بعض الحكام ، وتصفح خزائن الكتب ومطالعة الدفاتر والخرائط(١٥٧) .

رابعاً : أثناء كتابة المقدسى مصنفة راعى تجنب الكذب والطغيان (مجاوزة الحدود والمبالغة) ، والتحرز بالحجج (الإتيان بالأدلة) من الطعان (الطعن والنقد)، فلم يودعه المجاز والمحال (الخيالات ، والمستحيلات) ، و لم يسمع إلا قول الثقات من الرجال(١٥٨) .

خامساً : وأخيراً التأنى والمراجعة قبل إخراج الكتاب : ذكر المقدسى أنه حرص على استشارة الأئمة والعلماء قبل إخراجه إلى الناس ، فكل أشار به وقبله ، وبعث على إحضاره ومدحه(١٥٩) .

العناصر الإيجابية فى منهج المقدسى التطبيقى :

أولاً : توضيح مفاهيم مختصراته ، ومصطلحاته ، وجغرافية أقاليمه :

* قبل أن يدخل المقدسى فى صلب كتابه ، أوضح مفاهيم عدد من الألفاظ المختصرة التى يستخدمها ، فقال : لا نظير له تعنى : ليس مثل بتة . فإن قال : غاية ، فإنها تعنى : غاية فى الجودة . وإن قال : جيد ، فقد يوجد أجود منه(١٦٠) .

* وقد يجمل المقدسى القول ، ويدع شرحه إلى حينه ، مثل قوله : ﴿ ولا أعز من أهل بيت المقدس ﴾(١٦١) .

ومن مصطلحات المقدسى التى شرح مقصوده منها ما يلى :

البلد : وتشمل - عنده - المصر ، والقصب ، والرستاق ، والكورة ، والناحية .

* عند ذكر قصبة فى كورتها ، يذكرها باسمها (مثل : الفسطاط) ، فإذا أوردها فى موضع آخر ، جعلها باسمها المعروف عند الناس ، فيقول : (مصر) .

المشرق : دولة آل سامان . فإن قال : الشرق ، فإنه يعنى كرمان ، وفارس، والسند أيضاً .

المغـرب : هـو الإقليـم المعروف . فإن قـال : الغـرب ، ضم إليه (مصر ، والشام)(١٦٢) .

* **وأخيراً** ، فإن المقدسى لم يكتف بكل هذه التوضيحات ، وإنما ابتكر لونـاً جديداً من التوضيح ، تمثل فى رسـم خرائـط ملونـة لأقـاليم كتابـه ، فكـان يرسـم حدودها وخططهـا ، ويميز طرقهـا المعروفـة بـالحمرة ، ويشـير إلى رمالهـا الذهبيـة باللون الأصفر ، ويجعل بحارها المالحة باللون الأخضـر ، وأنهارهـا المعروفـة بـاللون الأزرق ، وجبالها المشهورة بالغبرة . وقد لجأ الرجل إلى ذلـك ؛ لتقريـب الوصـف إلى الأفهام ؛ كى يقف عليه الخاص والعام(١٦٣) . وللأسف ، فـإن هـذه الخرائـط الملونة لم تصل إلينا فى النسخة التى بين أيدينا ، ويبدو أنها سقطت من مخطوطـات الكتاب ، لكن عبارات المقدسى تشير إلى وجودها فى كتابه(١٦٤) .

ثانياً : الدقة فى توزيع مادة كتابه :

نلمح تلك الجزئية المنهجية من خلال قراءة كتاب المقدسى ، حيـث لا نجـد تداخلاً بين معلومـات الأقـاليم المختلفـة . فـالرجل يحسـن توزيـع مادتـه العلميـة ، ويضعها فى مكانها اللائق بها . فمثلاً : عند تناوله (ذكر المذاهب ، وأهل الذمـة) فى فصوله الموجودة بـ (مقدمات كتابه) ، قال : واخترت مـن المذاهـب مذهـب أبى حنيفة (رحمة الله) ؛ للخلال التى ذكرها فى (إقليم العراق)(١٦٥) . وعنـد إشارته إلى أتباع المذاهب الكبرى ، قال : قد بينت ذلك فى شرح الأقاليم من هـذا الكتاب(١٦٦) . وعندما تناول القراءات ، قال : ومن الحروف مقرأ (أبى عمـران عبد الله بن عامر اليحصبى) ؛ للمعانى التى أصفها فى إقليم (أقور)(١٦٧).

ثالثاً : وضوح شخصيته فى كتابه :

هذه جزئية مهمة فى الوقوف على عقل وفكر المقدسى ، ودرجة تفاعله مع المعلومات التى يكتبها ، من حيث القدرة على التعليـل ، والاسـتدلال ، والتعليـق، والنقاش العقلى المدعوم بالأدلة والبراهين . ولا شك فـى أن عنـاصر ثقافـة الرجـل

الموسوعية تفاعلت معاً ، حتى أفرزت لنا تلك الشخصية الحاضرة المتوقدة فهماً وذكاء ، حتى قال عنه كراتشكوفسكى : تمتع المقدسى بشخصية واضحة للعيان ، حتى من خلال مقدماته ومداخله المطولة بعض الشىء ، إلا أنها لا تخلو من الأصالة عند المقارنة بسابقيه(١٦٨) .

١ - التعليل : وقد اتخذ أشكالاً وأنماطاً ، منها : تعليل فى منهج التناول ، فكثيرا ما يعلل طريقته فى عرض كتابه ، فقد حرص أن يودعه شيئاً من الغوامض والمعانى ؛ ليجل (يعظم قدره) ، ويقل (أى : المتهاونون بشأنه) ، وأورد فيه الحجج توثقاً (زيادة فى التوثيق) ، والحكايات تحققاً (أى : من صدق ما يورد)، والسجع تظرفاً (درءاً للسآمة) ، والأخبار تبركاً . وبسط أكثره ؛ ليقف عليه العوام إذا تأملوه . وأوضح الطرق ؛ لأن الحاجة إليها أشد ، وصور الأقاليم ؛ لأن المعرفة بها أروج ، وفصل الكور ؛ لأن ذلك أصوب(١٦٩) .

وتنوعت تعليلات المقدسى بين التوسط والإيجاز . ومن النوع الأول ما ورد عن تخصيص باب مستقل لـ (بادية الشام) ؛ بأن أحداً من أهل الأقاليم لا طريق له إلى مكة فى البر إلا فيها ، ولا غنى عن معرفتها ، كما أن بها طرقاً ومياها قد تجهل ولا تعرف وبها فوائد لا تحصى(١٧٠) . وكذلك تعليله بدءه عرض (أقاليم العرب) بـ (إقليم جزيرة العرب) ؛ لما يتمتع به من وجود بيت الله الحرام ، والمدينة المنورة ، ومقر الخلفاء الراشدين ، والمهاجرين والأنصار ... إلخ(١٧١) .

ومن التعليلات الوجيزة ما قاله عن سبب تركه التعريف بـ (طرسوس ، وأعمالها) ؛ لأنها بيد الروم(١٧٢) . وأيضاً تركه ذكر بعض مدن الإسلام فى الأندلس غالباً ؛ لجهله إياها(١٧٣) . وإعجابه بالبصرة أكثر من بغداد ؛ لرفقها ، وكثرة الصالحين بها(١٧٤) . وسر تسمية (واسط) ، التى اختطها الحجاج ؛ لأنها بين قصبات العراق والأهواز(١٧٥) .

٢ - **الاستدلال** : دلل المقدسى على انقاص (سعيد بن العاصى) مقدار الصاع ، الذى قرره عمر بن الخطاب فى إقليم (شبه جزيرة العرب) بحضور الصحابة، وبه كان يكفر الإيمان ، فهبط به سعيد من (ثمانية أرطال) إلى (٥ $\frac{١}{٣}$) من الأرطال . وقد استدل على مجمل عمل سعيد هذا - معتمداً على ثقافته الأدبية - بقول الراجز :

وجاءنا بجوعا سعيد ينقص فى الصاع ولا يزيد(١٧٦)

٣ - النقاش العقلى المدعوم بالأدلة والبراهين المطولة نوعاً ما :

هذا الملمح المهم إن هو إلا إنعكاس واضح لثقافة المقدسى الفقهية ، وذكائه وتوقد ذهنه ، وكثرة مطالعاته ، ومشاهداته مجالس الفقهاء والعلماء ، وما يدور به من مناظرات ومناقشات . ومن أمثلة ذلك :

(أ) استدلاله على تسمية (إقليم العراق) بهذا الاسم بشيوع تلك التسمية، وعدم معرفة الناس تسمية (إقليم بابل) ، وهو متمسك بتلك التسمية ؛ لأنه يرى كتابه على المعروف المشهور . ثم قال : بالضبط كمن حلف على ألا يأكل رءوساً ، فأكل من رءوس البقر والغنم ، فإنه يحنث على رأى أبى حنيفة ، خلافاً لما قاله الفقيهان الحنفيان (أبو يوسف ومحمد) . وقد شرح بعض الأئمة من مشايخ القدس ذلك بأنه لا خلاف ، فقد كانت تؤكل الرءوس وتباع زمن أبى حنيفة ، ثم زالت تلك العادة زمان أبى يوسف ومحمد . وأيضاً استدل على تسمية (إقليم العراق) بهذا الاسم ، دون (إقليم بابل) بقول أبى بكر لعمر ، عندما سأله إرسال جيوش إلى العراق ،/ فبين له أبو بكر أن فتح شبر من الأرض المقدسة (الشام) أحب إليه من رستاق من رساتيق العراق . قال المقدسى : ولم يقل : (من رساتيق بابل) . ويواصل المقدسى نقاشه ، فيحشد مزيداً من البراهين ، فيقول: وأما ما جاء فى آية : « وما أنزل على الملكين ببابل »(١٧٧) ، فيجوز أن يتناول ذلك الإقليم والمدينة جميعاً ، ووقوعه على المدينة مجمع عليه ، لكن إطلاق اسم (بابل) على (الإقليم) مختلف فيه ، فمن أطلقه على الإقليم ككل ، فعليه وجب الدليل(١٧٨) .

(ب) الأدلة الكثيرة التى ساقها المقدسى ؛ دفاعاً عن إتباعه مذهب أبى حنيفة الفقهى ، والتى منها : اعتماد ذلك المذهب على أقوال وفتاوى الإمام على ﷺ ، وقدم ذلك المذهب ، واقترابه من عهد الصحابة ، وصوابه عما سواه من المذاهب الفقهية الأخرى . ولا حجة لمن طعن على أبى حنيفة ومذهبه ، فقد سبق أن طعن الطاعنون على الخلفاء الراشدين(١٧٩) .

٤ - التعليق :

اتخذ تعليق المقدسى على بعض الأخبار الواردة فى كتابه عدة صور على النحو الآتى :

(أ) **تعليق على فضائل الأمصار** : دخل عبد الرحمن بن أخى الأصمعى على الجاحظ ، فقال : افدنى فى البلدان فائدة . فذكر له ميزات عشرة أمصار ، ومن ذلك قوله : (الصنعة بالبصرة ، والمروءة ببغداد ، والتجارة بمصر) .

فعلق المقدسى : وقد صدق لعمرى . ثم استدرك قائلاً : إلا أن بنيسابور - أيضاً - صناعاً حذاقاً ، وبالبصرة تجارات ، وبمكة فصاحة ، وبيت المقدس حسنة البناء ... إلخ(١٨٠) .

(ب) **تعليق على رواية بها معلومة اقتصادية** : لقد تساءل المقدسى دهشاً ، لما قرأ عند ابن خرداذبه أن خراج اليمن ستمائة ألف دينار ، إذ قال : فلا أدرى ما أراد بذلك ، و لم أر ذلك فى كتاب (الخراج) ، بل المعروف أن جزيرة العرب عشرية(١٨١) . وهذا يعنى أنه مر فى تعليقه - أولاً : بمحاولة تفهم النص الاقتصادى الوارد ، ثم شكك فى صحته ؛ لعدم مطالعته إياه فى كتاب (الخراج)، الذى أرجح أنه كتاب (قدامة بن جعفر) ؛ لاحتوائه على قوائم الخراج فى أقاليم الدولة الإسلامية ، ثم بين أن الغالب عدم تصديق النص ؛ لأن أرض الجزيرة يؤخذ من أهلها الزكاة ؛ إذ لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان . فكأن المقدسى يتحفظ على النص ، ويميل إلى رفضه بطريقة غير مباشرة .

(جـ) تعليق على نص به معلومة عن إحدى الفرق المنحرفة : قرأ المقدسى فى كتاب صنفه بعض مشايخ الكرامية بنيسابور : أن بالمغرب سبعمائه خانقاه (رباط الصوفية) لهم . فعلق قائلاً : لا ، والله ولا واحدة(١٨٢) .

(د) تعليق فقهى على حادثة تاريخية : ذكر المقدسى أن المنصور العباسى لما حج ، رأى ضيق المسجد الحرام هناك فأراد شراء ما حوله من الدور ، وزيادتها فيه مع تفخيمه ، فعرض على اصحاب الدور أموالاً جمة ، لكن رفضوا البيع . وقد علم أبو حنيفة بحيرة الخليفة ، ولم يكن اشتهر فقهه بعد ، فلقى المنصور وعرض عليه أن يسأل هؤلاء الناس : هل الكعبة نزلت عليهم أم العكس ؟ فلما ذكروا أنهم حلوا بها ، قال : ردوا فناءها ، فقد كثر زوارها ، واحتاجت إليه . فرضى الناس بالبيع . ثم علق المقدسى قائلاً : وهذه الحكاية تقوى إحدى الروايتين عن أبى حنيفة فى كراهية بيع دور مكة وأخذ أجورها ، إلا على تأويل(١٨٣) .

٥ - آراء نقدية يبديها :

(أ) رأيه فى سر رخاء العراق : قال المقدسى : (واعلم أن العراق ليس ببلد رخاء ولكن جل وعمر بهذين النهرين ، وما يحمل فيهما ، وببحر الصين المجاور له(١٨٤) . فهو يضع يده على عوامل ثراء ورخاء العراق عن طريق ما حباه (الله عز وجل) من عوامل الخصب والرخاء والتجارة (وجود نهرى دجلة ، والفرات ، والمحيط الهندى) .

(ب) رفضه اتهام الأمويين بالجبن أمام أعدائهم : حيث ذكر أبياتاً لمن يهجو الأمويين فعلق على واحد منها يقول :

أسد على الجيران أعداؤهم   آمنة تخطر فى دارهم .

علق المقدسى قائلاً : وكذب فى هذا البيت ؛ لأن الأعداء - أبداً - يخافونهم(١٨٥) .

(جـ) نقده كثرة إنفاق الوليد بن عبد الملك على بناء جامع دمشق ، إذ قال لعمه يوماً : يا عم ، لم يحسن الوليد ، حيث أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق، ولو أنفق ذلك فى عمارة الطرق والمصانع ، وترميم الحصون ، لكان أصوب وأفضل . فرد عمه عليه قائلاً : لقد وفق الوليد فيما فعل ؛ لأنه رأى الشام بها النصارى ، ولهم فيها بيع حسنة مزخرفة انتشر ذكرها ، مثل : كنيسة القيامة ، وبيعة الرها . فأراد أن يشغل المسلمين عن ذلك بالمسجد ، وجعله أحد عجائب الدنيا . وقد فعل والده (عبد الملك بن مروان) ذلك ، لما رأى عظم قبة القمامة ، فخشى أن تعظم فى قلوب المسلمين ، فنصب على الصخرة قبة(١٨٦) .

٦ - القدرة على الاختيار والترجيح :

(أ) من المواضع إلى برزت للمقدسى فيها هذه القدرة ذكره خبراً مرفوعاً إلى النبى ﷺ عند حديثه العام عن المذاهب فى (أقاليم العرب) - فيه أن الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ؛ اثنتين وسبعين فى الجنة ، وواحدة فى النار . وذكر أن بقية الأئمة يحتجون بخبر آخر فيه (اثنتان وسبعون فى النار ، وواحدة ناجية)(١٨٧) . فالمصيب من وافق الحق ، وهم صنف واحد . ثم قال المقدسى : وهذا أشهر إلا أن الأول أصح إسناداً ، والله أعلم . فإن صح الأول ، فالهالكة هم الباطنية ، وإن صح الثانى فالناجية السواد الأعظم(١٨٨) .

(ب) **وثمة نموذج آخر** : جعل المقدسى الأمصار - فى كتابه - كالملوك ، والقصبات كالحجاب ، والمدن كالجند ، والقرى كالرجالة . ثم أراد تعريف الـ (مصر) ، فذكر قول الفقهاء : هو كل بلد جامع يقام فيه الحدود (مثل : نابلس). وبه أمير لإدارته ، يجمع ضرائبه ، وينفق عليه . ثم ذكر تعريف فى اللغة : هو كل ما حجز بين جهتين (مثل : البصرة ، والرقة) . **ثم أورد تعريفه لدى العوام** : كل بلد كبير جليل (مثل : الرى والموصل ، والرملة) . **ثم اختار لنفسه تعريفاً ، قال فيه** : وأما نحن فجعلنا الـ (مصر) كل بلد حله السلطان الأعظم ، وجمعت

له الدواوين ، وقلدت منه الأعمال ، وأضيفت إليه مدن الإقليم (مثل : دمشق ، والقيروان)(١٨٩) .

العناصر السلبية فى منهج المقدسى التطبيقى :

(أ) التكرار ، وضعف التنسيق والترابط :

رغم إحكام المقدسى تنظيم مادته ، وإحسانه توزيعها على أماكنها المناسبة، إلا أنه وقع - أحياناً - فى خطأ التكرار ، الذى أفضى إلى الإحساس بضعف التنسيق والترابط والتسلسل فى عرض مادته . ومن أمثلة ذلك : تكراره الحديث عن أهداف تأليف كتابه فى أكثر من موضع(١٩٠) .، رغم أن ذلك يكتفى بذكره فى المقدمة فحسب ، وكذلك تكراره ذكر منهجه النظرى الذى ارتضاه لنفسه عند جمع مادته من مصادرها ، والذى سيسير عليه فى تأليف كتابه(١٩١) ، وأخيراً تكراره نقد كتب السابقين عليه فى مجال التصنيف الجغرافى(١٩٢) .

(ب) التطويل ، والاستطراد :

على الرغم من توخى المقدسى الإيجاز فى كتابه ، ونصه على ذلك فى بعض المواطن وخوفه الإطالة ؛ كراهية الملال(١٩٣) ، إلا أنه حتى فى بعض المواضع التى توقف فيها عن مواصلة السرد ، فعل ذلك بعد أن أطال إلى حدما فعلاً(١٩٤) . وبالإضافة إلى ما تقدم ، فإن المقدسى أطال بعض الشىء فى محتويات (مقدمات كتابه)(١٩٥) . رغم أهميتها إلا أنه كان يمكنه تجميعها وتركيزها ، وعرضها على نحو مختصر منظم . ويلاحظ أنه بينما نجد الإطالة فى بعض المواضع ، فإننا نشكو ندرة وشحاً فى ذكر الشخصيات العلمية المنسوبة إلى بعض الأقاليم الجغرافية . والتعريف الوافى بها(١٩٦) ؛ مما دفع أحد الجغرافيين اللاحقين لسد هذا النقص فيما بعد ، ألا وهو (ياقوت الحموى) فى كتابه (معجم البلدان) .

وبالنسبة للاستطراد فأرى أن سيل المعلومات الفقهية لدى المقدسى دفعه للوقوع - أحياناً فى عيب (الاستطراد) . ونلحظ ذلك عند الحديث عن

(الجحفة) ميقات أهل الشام فقد استطرد في ذكر بقية مواقيت أهل الأمصار الأخرى ، وذكر الروايات الواردة في ذلك . ثم انتهز الفرصة ، فاستطرد متحدثاً عن مناسك الحج (فرائض ، وواجبات ، وسننا) . وبعد أن استطرد ، آب إلى نفسه قائلاً : نرجع - الآن - إلى وصف مدائن هذه الكورة ونواحيها(١٩٧) . (يقصد كورة الحجاز) ؛ لأنه قسم شبه الجزيرة إلى اربع كور : الحجاز ، واليمن، وعمان ، وهجر)(١٩٨) . وكذلك أفاض - قبل ذلك الموضع بعض الشيء - في ذكر مدن كور إقليم (شبه الجزيرة) ، ثم قال : الآن نرجع إلى وصف ما أمكن من بلدان الكور ، وندع ما لا فائدة فيه(١٩٩) .

(جـ) مجانبة الحياد والموضوعية ، والوقوع في التناقض والغموض :

مما يحسب للمقدسي في كتابه أنه أعطانا صورة شاملة متكاملة في دراسة جيدة متميزة لأقاليم العرب ؛ إلا أنه جانبه التوفيق ، وتجاوز الحياد الواجب ، وظهر منه شيء من التحيز نحو العلماء عامة والفقهاء منهم خاصة . وخير مثال على ذلك قوله : (وكل ما نذكر من عيوب أهل البلدن فأهل العلم والأدب عنه بمعزل ، خاصة الفقهاء ؛ لأني رأيت الفضل فيهم)(٢٠٠) . وواضح أن الرجل - هنا - يلجأ إلى تعميم الأحكام ، وهذا يبعده عن الموضوعية ؛ إذ إن لكل قاعدة شواذ ، فلا نستطيع تبرئه كل المنتسبين إلى العلم والفقه من العيوب والمذمات . وكذلك يؤخذ عليه كثرة استخدام صيغة (أفعل التفضيل) في مجال المدح(٢٠١) ، واستخدامها بعيداً عن التفصيل - في مجال الذم(٢٠٢) ، مما كان الأولى الاحتراز منه . وثمة نماذج أخرى : نأى الرجل فيها عن (الموضوعية) ، وذلك عندما خصص فقرة تقريباً عن عجائب كل إقليم شرح لنا جغرافيته . يلاحظ أنه لم يذكر أسانيد بعض تلك المرويات المتصلة بهذه العجائب ؛ اعتماداً على اشتهارها وذيوع الحديث عنها في الأقاليم التي زارها . وبالنظر إلى مجموع هذه العجائب نجدها كثيرة ، وكنا نود أن يتحقق من مدى صدقها ، وألا يترك واحدة منها غفلاً من التعليق . ومن تلك العجائب ما ورد في (إقليم أقور) عن دير الكلب الموجود

بأرض الموصل ، حيث يحمل إليه من عضه كلب عقور ، فيقيم خمسين يوماً عند رهبانه ، فيبرأ ، بإذن الله تعالى(٢٠٣) . وكذلك عين الماء التى من شرب منها مات بعد ثلاثة أيام(٢٠٤) . وأيضاً منارة الإسكندرية التى يقال : إنها من عمل الأنبياء ، وكان الناظر فيها يبصر مراكب العدو ، فيخبر أمير البلد بذلك ، ثم احتال الروم ، فذهبوا بها ، أو كسروها(٢٠٥) .

ويعلق د. حسين مؤنس(٢٠٦) على ورود تلك العجائب ، وأخبار المستبعدات وأوصافها فى الكتب ، بأن ذلك راجع إلى ولع أصحابها آنذاك بذكرها ، وسذاجة فى تصوراتهم ؛ إذ يسارعون فى تصديق ما يسمعون ، ويبالغون فى تصوير ما يجاوز المعقول ، رغم أنهم لدينا من أهل الثقة والصدق ، ويؤكدون أنهم رأوا وشاهدوا ما يصفون . وذلك كله نابع من إحساس غير صادق ولا دقيق لديهم ؛ رغبة فى تشويق السامعين ، ولفت انتباه المتلقين عن نيه حسنة ورغبة ساذجة فى المتعة والتسلية . والحق أن ذلك التفسير عام ، ويغلب على ظنى أنه لا ينطبق على المقدسى تمام الانطباق ، فلم يكن الرجل بمثل هذه السذاجة ، ثم إنه ينقل لنا ما شاع وذاع فى البلد الذى يتحدث عنه ، أو ما طالعه فى بعض الكتب ذاكراً رأيه أحياناً بالموافقة(٢٠٧) ، أو المخالفة(٢٠٨) . وأخيراً فإننى أرى أن هناك حلقة مفقودة فى مثل روايات العجائب السابقة ، فمثلاً : من عضه كلب عقور ، لعل ذهابه إلى هذا الدير كان للاستشفاء على يد بعض الرهبان الأطباء طيلة الفترة المذكورة . وقد يكون الماء الذى يموت منه شاربه مسموماً ، أودى بحياة بعض شاربيه بعد فترة قصيرة ، فشاع بين الناس خبره . وقد تكون منارة الإسكندرية اخترعت وفق نظام هندسى معين - والإسكندرية مشهورة بعلمائها منذ القديم - بحيث تؤدى الغرض الدفاعى منها . إذا هناك تفسيرات لم ينقب المصنفون عنها ، مكتفين بما سمعوا ، أو قرأوا ، ولعلهم لو دققوا البحث ، واستقصوا الظاهرة ، لتوصلوا إلى نتائج طيبة .

وأخيراً ، فإن المقدسى كان - أحياناً - يأتى بالشىء ، ثم يذكر نقيضه بعد قليل ، فيوقعنا بين أمرين : إما أننا لم نفهم مراده حق الفهم ، فنتهم أنفسنا

بالقصور وتتهمه بالغموض ، وإما أنه لم ينقح هذا الجـزء جيداً ، فـأتى علـى هـذا النحو من التضارب والتناقض (كما هو الحال فى حديثه عـن أهـل حمـص(٢٠٩) ، وبلدة بيت المقدس)(٢١٠) .

٤ - المادة التاريخية : عرض ، وتحليل :

أحـاول - خـلال الصفحـات التاليـة - رصـد المـادة التاريخيـة التقليديـة (الأحـداث السياسية خاصة) ، التى أوردها فى القسم الأول من كتابـه : (أحسن التقاسيم) ، فـأقوم بعرضها ، والتعليق على ما يتيسر لى منها . ثم بعدها أذكـر مجمـل المـادة التاريخيـة غـير التقليدية الموجودة فى القسم نفسه (بجوانبها الاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، إلى جانب ملمح من ملامح العلاقات الدولية) ، باعتبارها مادة جديدة وغزيـرة ، يصعـب رصد كافة جزئياتها ، أو الحكم عليهـا ، وإنمـا نثبـت بهـا مـع سـابقتها . أن (أحسـن التقاسيم) - فى شقه الأول - يعد - بحق - مصدراً من مصـادر (تـاريخ العـرب) ؛ إذ يجد فيه الباحثون مادة جديدة فى مصـدر غـير تقليـدى (جغرافـى فـى الأسـاس) ، تعينهم على كتابة تواريخ أقاليم العرب بصورة شاملة متكاملة ما أمكن ، وتسـد بعـض النقص فى مصادر التاريخ المعروفة .

أولاً : المادة التاريخية التقليدية :

(أ) **حادثة ضرب الحجاج الكعبة بالمنجنيق** : ساق المقدسى ذلك الحدث، وهـو يتحدث عن (إقليم شبه الجزيرة) ، وبالتحديد عند تناوله (مكة) ، وأشـار إلى إدخال ابن الزبير - قبلها - عشرة من مشايخ الصحابة ، حتى سمعـوا مـن عائشة ما روته عن الرسول ، مـن أن (الحجـر) جـزء مـن (البيـت) ، وأن قريشاً لم تدخله فى بنائه ؛ لقصور النفقة عـن ذلـك ، وأن الرسـول ﷺ كـان يرغب فى إعادة بناء الكعبة ، وإدخال الحجـر فيهـا لـولا أنهـم حديثـو عهـد بالجاهلية . ومن هنـا فـإن ابـن الزبـير أصر علـى تنفيـذ مـا كـان يتطلـع إليـه الرسول، وقد اجتمع الناس وخشوا عاقبة الإقدام على ذلك ؛ خشـية أن يحـل

بهم العذاب ، لكن أبن الزبير أعاد بناءها على ما حكت عائشة ، وكان في ذلك الخير وسكن الناس .

فلما قدم الحجاج ، تحصن ابن الزبير بالكعبة ، فأمر الحجاج بوضع المنجنيق على (جبل أبي قبيس) بمكة ، وقال : أرموا الزيادة التى ابتدعها هذا ، فرموا موضع الحطيم ، وتم إخراج ابن الزبير بعد قتله ، فصلب . وأعاد الحجاج الحائط ، كما كان قديماً ، وأخذ بقية الأحجار ، فسد بها الباب الغربى ، ورصف بقيتها فى البيت ؛ كى لا تضيع(٢١١) .

(ب) فى حديثه عن (المدينة) ذكر (جبل أحد) ، وبين أن به موضعاً ، اختبأ فيه النبى ﷺ ، باعتباره أقرب الجبال إلى المدينة(٢١٢) .

(جـ) فى (إقليم شبه الجزيرة) ، وعند تناوله مدينة (صحار) ، قال المقدسى : هى قصبة عمان . ثم قال : بها مسجد صحار على نصف فرسخ . ثم (هناك) بركت ناقة الرسول وقد بنى المسجد أحسن بناء(٢١٣) .

(د) الأحساء : قصبة هجر (البحرين) . بها مستقر القرامطة من آل أبى سعيد. ثم نظر وعدل ، غير أن الجامع معطل . وبالقرب خزانة المهدى ، وخزائن أخرى أيضاً ، فبعض الأموال بتلك ، بوقيته فى خزائنهم(٢١٤) .

(هـ) أهم حكام شبه الجزيرة : هى أبداً لصاحب مصر ، لأجل الميرة . واليمن . لآل زياد ، وأصلهم من (همدان) . وعلى صنعاء أمير غير أن ابن زياد يحمل إليه أموالاً ؛ ليخطب له . وربما أخرجت عدن عن ايديهم . وآل قحطان فى (الجبال) ، وهم أقدم ملوك اليمن . والعلوية على (صعدة) يخطبون لآل زياد . وعمان للديلم ، وهجر للقرامطة ، وعلى (الأحقاف) أمير منهم(٢١٥) .

(و) فى إقليم العراق : قال المقدسى : هى مستقر خلفاء ولد العباس ، وظل الأمر أمرهم حتى ضعفوا ، وغلب عليهم الديلم . والآن لا يرون ، ولا

يلتفت إلى رأيهم . ثم ذكر خلفاء العباسيين ، وبداية ونهاية حكم كل منهم ، ومكان وفاة بعضهم ، وعدداً كبيراً من قضاتهم . ووصل فى الخلفاء حتى (الطائع لله) . ثم قال : وأول من استولى من الديلم : أبو الحسن ابن بويه ، ثم ابنه (بختيار) ، ثم عضد الدولة ، ثم ابنه بلكارزار ، ثم ابنه الأكبر (أبو الفوارس)(٢١٦) .

(ز) وفى (إقليم الشام) : اكتفى بقوله : والولايات لصاحب مصر ، وقد كان سيف الدولة غلب على أعلاه(٢١٧) .

(ح) وفى إقليم (مصر) قال : وأما الولايات ، فللفاطمى(٢١٨) .

(ط) وفى إقليم (المغرب) قال المقدسى : وأما الولايات ، فلم يخطب لغير بنى أمية بالأندلس قط .

وأما السوس الأقصى ، فأول من غلب هناك (إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب) ، وذلك أن إدريس أفلت من وقعة من وقعة العباسيين بالطالبيين بـ (فخ) فى خلافة الهادى ، وأتى إلى مصر فساعده صاحب بريدها (واضح مولى المنصور) الشيعى ، فحمله على البريد إلى المغرب بـ (طنجة) ، فاستجيب لدعوته هناك . وقام الرشيد فى خلافته بضرب عنق (واضح) ، وصلبه . ثم دس إلى إدريس رجلاً ، يدعى الشماخ (مولى المهدى) ، وكتب له كتاباً إلى عامله (إبراهيم بن الأغلب) على إفريقية ، فخرج حتى وصل إلى (زويلة) ، وأعلمهم أنه طبيب ، وأنه من أوليائهم . فاطمأن به إدريس، ثم شكا له علة فى أسنانه فأعطاه ما يستن به مسموماً ليلاً ، وأمره باستخدامه عند الفجر . فقتل إدريس ، ولم يلحق بالشماخ ، فولاه الرشيد بريد مصر(٢١٩) .

* ملاحظات على ما تيسر من المادة التاريخية التقليدية السابقة :

١ - المعلومات الواردة مختصرة وسريعة ، فهى لم تقصد لذاتها ، وإنما أتت عرضاً أثناء دراسة الأقاليم الجغرافية الشاملة ، فرأى المقدسى أن يتحدث عن حكام كل إقليم بسرعة ولذلك فهى ليست تاريخاً مفصلاً ، لكنها كتابات طالت شيئاً ما عند خلفاء العباسيين بالعراق ، بينما تضاءلت جداً عند تناول إقليمى (الشام ، ومصر) ، وكأنه اكتفى فيهما بالإشارة إلى القوى التى حكمتهما مؤخراً . بينما أتى حديث المقدسى عن حكام (شبه الجزيرة) خالياً من ذكر مواقيت ولاياتهم مقتضبا . وبخصوص المغرب فقد عاد إلى بدايات حكم الأدارسة فى المغرب الأقصى ، وأشار إلى سيطرة بنى أمية على الأندلس .

٢ - بعض المعلومات التاريخية الواردة تلقى ظلالاً جديدة على بعض الأحداث ، فالحجاج لم يهدم الكعبة ويضربها بالمنجنيق لذات الهدم والتخريب ، وإنما فعل ما فعل لإزالة ما أحدثه عبد الله بن الزبير من تعديل على بنيانها ؛ نكاية فى خصمه اللدود . ولا شك فى أن الحجاج كان يهدف من الضرب - ايضاً - إجبار ابن الزبير على الاستسلام . وقد ذكر أبو حنيفة الدينورى : أن الحجاج نصب المنجنيق على (ابى قبيس) ؛ ليضرب ابن الزبير ، وأهل المسجد المتحصنين بالكعبة ، فنالها شر حتى مقتل ابن الزبير سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م[٢٢٠] . ويتفق الطبرى مع هذا القول ، وتزيدنا روايته أن الحصار دام سبعة شهور ، وأن الرعد والبرق أصاباً مكة وبعض جند الشام مع الحجاج ، عندما سلط المنجنيق على الكعبة ، لكن الحجاج طمأن جنده بأن ما اصابهم يصيب عدوهم كذلك : فواصلوا الضرب[٢٢١] .

ويذكر لنا ابن كثير أن حجارة المنجنيق سقطت فى الكعبة ، وأن ابن الزبير قتل فى المسجد الحرام ، ودخلت جيوش الحجاج من أبواب المسجد[٢٢٢] .

ويضيف الطبرى قائلاً : إن الحجاج نقض بنيان الكعبة ، الذى كان بناه ابن الزبير، لما أدخل الحجر فى الكعبة ، وجعل لها بابين ، فأعادها الحجاج إلى بنائها الأول سنة ٧٤هـ/٦٩٣م(٢٢٣) .

٣ - بعض المعلومات المذكورة مخالف للمعروف المتواتر ، فناقة رسول الله لم تبرك قرب مسجد صحار بعمان وإنما بركت بالمدينة عند دار بنى مالك بن النجار ، وذلك فى مكان مربد لغلامين يتيمين من بنى النجار(٢٢٤) . وكذلك لم يؤثر أن الرسول ﷺ اختبأ فى جبل أحد ، وإنما كان الجبل فى ظهر جيش المسلمين، ووضع الرسول عليه الرماة ؛ حماية لظهورهم من خيل عدوهم(٢٢٥) . وبخصوص كلام المقدسى عن (القرامطة) ، فمن الواضح الربط بينهم وبين الفاطميين ، لكن غير المفهوم أن يذكر المقدسى أن دولتهم بالبحرين كان بها نظر وعدل ، ولا أدرى كيف يتأتى ذلك وأحكام الشرع معطلة ، وانحرافاتهم على أشدها ، وقد قال المقدسى نفسه : إن الجامع هناك معطل ؟!

٤ - بالنسبة لفرار إدريس إلى مصر ، فقد ذكر المقدسى إن إدريس نزل على واضح (مولى المنصور) ، الذى سهل له مهمة الانتقال إلى المغرب . وبالعودة إلى (تاريخ الطبرى)(٢٢٦) . تبين أن (واضحاً) هذا هو (مولى صالح ابن المنصور) ، وأنه كان رافضياً خبيثاً . وقد قال بنسب (واضح) السابق ابن عذارى أيضاً(٢٢٧) ، خلافا لما قاله المقدسى . ويلاحظ أن المقدسى ذكر أن واضحاً حمل إدريس على البريد حتى نزل به (زويلة) بالمغرب . والصواب ما ذكره الطبرى(٢٢٨) ، وابن عذارى(٢٢٩) : أنه نزل (وليلة)(٢٣٠) . وقد ذكر المقدسى أن الشماخ كوفىء بتوليته بريد مصر ، وهى معلومة صحيحة ، وردت لدى الطبرى(٢٣١) من قبل ، وابن عذارى من بعد(٢٣٢) .

٥ - إذا ألقينا نظرة فاحصة على المادة التاريخية ، التى أوردها المقدسى عن (الخلافة العباسية) ، والحكام الديلم (البويهيين) ؛ فإننا نخرج بعدة ملاحظات على النحو الآتى :

(أ) ورد نسب الخليفة العباسى السفاح فى كتاب المقدسى هكذا : (عبد الله بن محمد بن على بن العباس)(٢٣٣) . وبالعودة إلى الطبرى ، وجدت أن الصواب كالأتى : (عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس)(٢٣٤) .

(ب) أسقط المقدسى الخليفة (المهتدى) ، فلم يذكره ، رغم أنه ولى الخلافة بين (المعتز والمعتمد)(٢٣٥) ، من شهر رجب سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م ، حتى عزل وتوفى فى الثامن عشر من شهر رجب سنة ٢٥٦هـ ٨٦٩م(٢٣٦) . ومن قبل لم يذكر خلافة (الأمين ١٩٣ - ١٩٨هـ/ ٨٠٨ - ٨١٣م ، واكتفى بالإشارة إلى خروج أخيه المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ/ ٨١٣ - ٨٣٣م) عليه ، وقتله إياه(٢٣٧).

(جـ) وقع خلل فى نسبة بعض الخلفاء لمن قبلهم : فمثلاً : قال المقدسى بعد مقتل المنتصر (٢٤٧ - ٢٤٨هـ / ٨٦١ - ٨٦٢م) : فبويع لابنه أبى العباس أحمد المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦م)(٢٣٨) . والصواب : فبويع لعمه (أحمد بن المعتصم) ؛ لأن الأتراك - بعد مقتل المتوكل ، وابنه المنتصر على أيديهم - خشوا أن يلى أحد أبناء المتوكل ، فلا تبقى لهم باقية ، فولوا ابن أستاذهم (أحمد بن المعتصم)(٢٣٩) .

وأيضاً وقع خلط عندما قال المقدسى بعد وفاة المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩هـ / ٨٦٩ - ٨٩٢م) :

ثم بويع لابنه أبى العباس (أحمد بن ابى أحمد المعتضد)(٢٤٠) . والصواب : بويع لابن أخيه الموفق : فالموفق يكنى أبا أحمد ، والذى ولى هو ابنه أبو العباس(٢٤١) .

وكذلك وقع خطأ فى قول المقدسى بعد وفاة المكتفى (٢٨٩ -٢٩٥هـ/ ٩٠١ - ٩٠٧م) ، حين قال : ثم بويع ابنه (أبو الفضل جعفر المقتدر بالله ٢٩٥- ٣٢٠هـ / ٩٠٧ - ٩٣٢م(٢٤٢) . والصواب : ثم بويع أخوه (جعفر بن المعتضد بالله)(٢٤٣) ؛ لأن المقتدر والمكتفى أخوان ، فهما ابنا الخليفة (المعتضد).

(د) بالنسبة لذكر الخلفاء العباسيين : فإننا نلاحظ عدم ذكر قضاة (الأمين، والمهتدى) ، فهما لم يذكرا أصلاً ، ومن ثم لم يشر المقدسى لقضاتهما ، وكذلك لم يشر إلى قضاة الخلفاء : القاهر ٣٢٠ - ٣٢٢هـ / ٩٣٢ - ٩٣٣م ، والراضى ٣٢٢ - ٣٢٩هـ / ٩٣٣ - ٩٤٠م ، والمتقى ٣٢٩ - ٣٣٣هـ / ٩٤٠ - ٩٤٤م. وأيضاً الخليفة المطيع (٣٣٤ - ٣٦٣هـ / ٩٤٥ - ٩٧٣م)(٢٤٤) .

وجدير بالذكر أن المقدسى كان يذكر أكثر من قاض فى عهد الخليفة الواحد عند تعددهم ، لكنى أرصد الملاحظات الآتية :

١ - أن الاسم الصحيح لجد قاضى المهدى (محمد بن عبد الله بن علاقة) هو (علاثة)(٢٤٥) .

٢ - أن أبا يوسف (يعقوب بن إبراهيم الأنصارى ١١٣ - ١٨٣هـ / ٧٣١ - ٧٩٨م) قاضى القضاة المشهور لم يكن أحد قاضيين ولاهما الخليفة الهادى (١٦٩ - ١٧٠هـ / ٧٨٥ - ٧٨٦ م) فقط(٢٤٦) ، وإنما الصحيح : أنه ولى القضاء لثلاثة من خلفاء بنى العباس (المهدى ١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٤ - ٧٨٥هـ ، والهادى ، والرشيد ١٧٠ - ١٩٣هـ / ٧٨٦ - ٨٠٨م)(٢٤٧) .

٣ - أن ابن أبى الشوارب (الحسن بن محمد بن أبى الشوارب) كان قاضياً للمعتز ، كما ذكر المقدسى ، لكن الأخير عاد وجعله قاضياً للمعتمد(٢٤٨) . وقد وجدت لدى الطبرى أن هذا الرجل حبس أواخر عهد المهتدى ، وولى مكانه (عبد الرحمن بن نائل البصرى) قضاء سامرا(٢٤٩) .

ثم وجدت له ذكراً ثانياً سنة ٢٦١هـ / ٨٧٤م أيام (المعتمد) عند إعطائه نسخه من كتابه ولاية العهد ؛ ليقوم بتعليقه فى الكعبة(٢٥٠) . فلعله أعيد للقضاء ثانية . وعلى كل فقد وافته المنية فى العام نفسه(٢٥١) .

(هـ) وأخيراً ، فبالنسبة لحكام الديلم ، الذين سيطروا على الخلفاء العباسيين إبان ضعفهم فلى عدة ملاحظات هى :

١ - ذكر المقدسى أن أول من استولى من الديلم (أبو الحسن بن بويه ، ثم ابنه بختيار) . والصواب : أول من استولى من الديلم (البويهيين) على العراق هو أبو الحسين بن بويه(٢٥٢) ؛ حتى يصح أن يكون الحاكم بعده ابنه (بختيار) المذكور(٢٥٣) .

٢ - ما ذكره المقدسى عن ولاية (عضد الدولة) (٢٥٤) حكم العراق بعد (بختيار) صحيح . أما ابن عضد الدولة (بلكارزار) هذا ، الذى ولى بعد أبيه ، فلم أقف عليه فيما تحت يدى من مصادر .

٣ - وبخصوص أبى الفوارس (الابن الأكبر لعضد الدولة) ، فاعتقد أنه هو الذى أشار إليه ابن الأثير ، وقال : هو شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة . ولى العراق سنتين ، وثمانية أشهر ، وأياماً ، وتوفى مستهل جمادى الآخرة سنة ٣٧٩هـ(٢٥٥) .

ثانياً : مجمل المادة التاريخية غير التقليدية :

بعد أن استعرضنا المادة التاريخية الواردة فى القسم الأول من (أحسن التقاسيم) للمقدسى ، وكانت تتعلق - فى غالبها - بالجانب السياسى ، ننتقل إلى أبرز معالم المادة التاريخية غير التقليدية ، التى يمكن أن تخدم الباحثين فى مجال التاريخ وهى على النحو الآتى :

١ - فى المجال الاقتصادى : اهتم المقدسى برصد العديد من المظاهر الاقتصادية فى (**أقاليم بلاد العرب**) كما يلى :

(أ) **فى مجال الزراعة** : اهتم الرجل بالحديث عن الكثير من النواحى المرتبطة بالمجال الزراعى ، مثل : ذكر الأنهار لموجودة فى الأقاليم الجغرافية ، التى قام بالتعريف بها والتى تروى الأراضى الزراعية عن طريقها ، وكذلك طرق الرى المستخدمة كالسدود المقامة على بعض الأنهار(٣٥٦) ، والاستفادة من ظاهرة المد والجزر(٣٥٧) . وأشار - أيضاً - إلى مصادر الرى الأخرى ، مثل : الآبار العذبة ،

والعيون ، والبرك العظيمة ، والقنوات(٢٥٨) . ولم يفت المقدسى الاهتمام بالإشارة إلى المقاييس المقامة على الأنهار(٢٥٩) ، باعتبارها خطوة مهمة متقدمة ، تبرز مدى الاهتمام بكمية المياه الواردة إلى الأنهار الكبيرة ، لتوسيع الرقعة الزراعية التى يمكن استغلالها ، ويحقق عدالة توزيع المياه بين الناس ، وتجنب حدوث الكوارث بالاحتياط لها(٢٦٠) . وأخيراً ، تناول المقدسى بالذكر المحاصيل الزراعية التى تجود زراعتها فى أقاليم العرب المختلفة من حبوب ، وبقول ، وخضراوات ، وفواكه على مختلف أنواعها ، ذاكراً ما تشتهر به المدن المختلفة ، والظروف المناخية ووسائل الرى الملائمة لذلك(٢٦١) .

(ب) فى مجال الثورة الحيوانية : أورد المقدسى بعض المعلومات المتصلة بالنشاط السكانى فى أقاليم العرب ، فذكر الخيول ، والأغنام ، والأنعام ، والأسماك ، وبعض أنواع الطيور(٢٦٢) ، إلى جانب الإشارة إلى بعض التماسيح الموجودة فى بعض المناطق(٢٦٣) .

(جـ) فى مجال الصناعة : أطلع المقدسى على عدد من الثروات المعدنية التى تحويها أقاليم العرب ، مثل : الذهب والحديد والفضة ، والرخام ، واللؤلؤ ، والمرجان(٢٦٤) . وقد قامت بتلك الأقاليم عدد من الصناعات اليدوية كالمنسوجات والملابس خاصة الثياب الصوفية الرفيعة ، والأردية الملونة ، والستور، والأنماط(٢٦٥) . وكذلك وجدت صناعة الأرحية ، التى أقيمت على أفواه الأنهار، وتدار بوسطة المياه(٢٦٦) . وفى البلدان التى راجت فيها زراعة الزيتون ، أقيمت معاصر الزيوت . ويضاف إلى ذلك صناعة الصابون الجيد ، والمكاتل ، والسلاسل، والسيور الجلدية ، والأقلام والشمع ، والحلوى(٢٦٨) .

(د) فى العمران : أكثر المقدسى من الاهتمام بمظاهر العمران فى أقاليم العرب ، وسجل لنا العديد من شواهد ذلك فى وصف بارع دقيق . ولا شك أن نبوغ جده وعمه فى الفن المعمارى كان له تأثيره فى رؤية المقدسى الثاقبة لفنون المعمار فى الأقاليم التى زارها وكتب عنها . اهتم المقدسى فى كتابه بالإشارة إلى

قيام المدن (مثل : بغداد ، وسامرا) ، والعوامل المساعدة على قيامها (بيئية ، وزراعية ، ودينية ، وإدارية ، ومناخية ، ودفاعية وتجارية ، وغيرها) . وكذلك أهتم بإبراز عوامل ضعف المدن وانهيارها كتحول مركز الدولة عنها ، وضعف الخلفاء وسوء الإدارة ، وغير ذلك(٢٦٨) . ولا شك فى أن المساجد باعتبارها فنوناً معمارية مهمة جذبت انتباه المقدسى بتميزها وفخامتها ، فقام بوصف العديد منها كالمسجد الحرام بمكة وتطورات زيادة ةمساحته(٢٦٩) ، والمسجد النبوى بالمدينة(٢٧٠) ، وبيت المقدس بفلسطين(٢٧١) ، والجامع الأموى بدمشق(٢٧٢) ، وجامع عمرو بن العاص فى مصر(٢٧٣) .

(هـ) التجارة : تطرق المقدسى فى كتابه (أحسن التقاسيم) إلى ذكر مختلف أنواع الصادرات والواردات المتبادلة بين أقاليم العرب من مصنوعات جلدية، وغزل ونسيج ، ومواد غذائية ، وجلود ، ومنتجات حيوانية وصناعات معدنية ، وزيتية ، وغيرها(٣٧٤) . ولا شك فى أن الترابط والتكامل كان قائماً بين هاتيك الأقاليم من خلال الأسواق الداخلية ، وشبكة المواصلات البرية الرابطة بين مختلف الأجزاء والبلدان(٢٧٥) ، وكان المقدسى حريصاً على بيانها مع نهاية حديثه عن كل من هذه الأقاليم . ولا شك فى أن الدولة الإسلامية كانت تتمتع بالرخاء، ويدخل خزينتها أموال طائلة من جراء هذا التبادل التجارى ، إلى جانب مصادر الدخل الأخرى من خراج وجزية وضرائب أخرى(٢٧٦) . ونعتقد ومن خلال الصورة التى نقلها المقدسى - أن الرخاء كان منتشراً فى عدد غير قليل من تلك الأقاليم إذ كانت أسعار السلع رخيصة على نحو ما لمس المقدسى بنفسه ، مثل : أسعار اللحوم ، والتمور ، والتين ، والزبيب ، والأعناب ، والزيتون ، وغيرها(٢٧٧). وأخيراً ، حوى كتاب المقدسى الكثير عن المكاييل والأوزان ، والنقد المستعمل فى الأقاليم العربية التى درسها(٢٧٨) .

٢ - فى الناحية الاجتماعية : سلط المقدسى الأضواء على حياة سكان الأقاليم العربية المختلفة من كافة زواياها بشكل يدعو إلى الإعجاب والانبهار .

فأهتم بالحديث عن عناصر السكان الغالبة على بعض الأقاليم(٢٨٠) وذكر حرفهم وأنشطتهم وأعطانا صورة واضحة لدورهم وأماكن سكناهم ، وعدد سكان الدار الواحدة(٢٨١) . واهتم بدراسة نفسيات شعوب هذه الأقاليم ، وطبائعهم ، وأخلاقياتهم وسلوكياتهم بإيجابياتها وسلبياتها(٢٨٢) . وتعرض ايضاً - للحديث عن عاداتهم وتقاليدهم المتبعة فى حياتهم ، وأحوال حماماتهم(٢٨٣) ، والإضاءة فى مساجدهم(٢٨٤) . وكذلك اهتم بأزيائهم وملابسهم التى يرتدونها(٢٨٥) ، وبمظاهر احتفالاتهم وأعيادهم(٢٨٦) ، ومستوى معيشتهم(٢٨٧) .

٣ - فى الناحية الثقافية : حرص المقدسى على دراسة الأوضاع الفكرية والثقافية بعامة فى كافة الأقاليم الجغرافية التى تعرض لها ، فدرس المذاهب الدينية الموجودة ، واتجاهات الفقهاء ، وأحوال الفرق الدينية الموجودة(٢٨٨) ، وعلماء القراءات(٢٨٩) ، ومظاهر الخلافات والصراعات بين أتباع الشيعة والسنة(٢٩٠) ، إلى جانب تركيز الأضواء على أهل الذمة الموجودين فى كل إقليم (من يهود ، ونصارى ، ومجوس)(٢٩١) . ويضاف إلى ذلك - اهتمامه بأحوال العلم فى الإقليم ومدى توافر حلقاته فى المساجد(٢٩٢) . وأخيراً ، فقد كان يركز على بيان الأوضاع اللغوية فى الأقاليم(٢٩٣) ، ومدى قوة وازدهار الواقع اللغوى ، وفصاحة ألسن سكانه من عدمها .

٤ - وأخيراً ملمح من ملامح العلاقات الدولية : وتمثل فى معلومات جديدة عن تفاصيل عمليات تبادل الأسرى بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية ، ومراسم الفداء بالشام(٢٩٤) ، وتتبع أحوال هؤلاء الأسرى من المسلمين فى القسطنطينية(٢٩٥) .

وبعد فقد انتهينا - بعد هذا التطواف الكبير - من دراسة القسم الأول من (أحسن التقاسيم) للمقدسى ، فبينا موضوعاته ، وأقسام موارده ، ومنهجه فى التناول بإيجابياته وسلبياته . وأخيراً ، عرضنا وحللنا - ما أمكن - المادة التاريخية التقليدية لديه ، وعرضنا جوانب المادة التاريخية غير التقليدية (اقتصادياً ،

واجتماعيا، وثقافيا ، وجانبا من العلاقات الدولية) فى هذا القسم ؛ كى نصل - فى النهاية - إلى قناعة بأننا أمام مصدر جديد من مصادر تاريخ العرب .

وقد يرى البعض أن هذا المصدر مساعد وغير أصيل فى باب (التاريخ). ونرد بأن المهم أنه بمنهجه المتميز ، وبمادته المبثوثة فى ثناياه ، به من المادة التاريخية الجديدة ربما ما لا نجده فى كتب التاريخ العام الأصيلة . وثمة ملاحظة أخرى ، وهى أن (أحسن التقاسيم) لم ينقل عنه المؤرخون . والحق أننى وقفت على نقول منه لدى ياقوت صاحب (معجم البلدان) فى عدة مواضع جغرافية بالطبع(٢٩٦) ، إذ لم يفطن الأقدمون إلى أهميته التاريخية .

والخلاصة :

١ - أننا أمام باحث جاد ، وجغرافى بلغ أعلى درجة فى وصف البلدان بعد طول الارتحال(٢٩٧) ، وكثرة الإطلاع ، وهو - أيضاً باحث ناقد يتحرى تمحيص ما ينقل(٢٩٨) .

٢ - أننا أمام باحث موسوعى الثقافة منهجى التفكير ، استطاع أن يصهر عناصر ثقافته فى بوتقه مؤلفه ، ونجح فى عرض جغرافى شامل متميز ، حيث تركنا وكأننا نعايش هذه البلدان ، ونعاصر ما فيها (بعد أن عالجها من كافة زواياها) .

٣ - أن الدراسة الشاملة التى قدمها المقدسى أعطتنا نموذجاً عملياً ناجحاً ، ومثلاً يحتذى فى التآزر والتناسق ، والتعاون والتكامل بين فروع المعرفة ؛ إذ نجح فى أن يوائم بين المعلومات الجغرافية والمادة التاريخية ، فقدم للباحثين المعاصرين فى مجال التاريخ مادة حضارية غزيرة ، تسد كثيرا من الثغرات الموجودة فى كتب التاريخ الأصيلة . ومن هنا حق لنا أن نعد (أحسن التقاسيم) مصدراً جديداً من مصادر تاريخ العرب .

الهوامش

(١) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، للدكتور حسين مؤنس (ط٢ - ١٩٨٦م ، طبعت بعناية المنظمة العربية للتربية والثقافية والعلوم) ص ١ .

(٢) أورد له ابن النديم عدة مؤلفات ، يمكن - من عناوينها - أن نعدها فى كتب الجغرافية مثل : (كتاب البلدان الصغير) ، و (كتاب البلدان الكبير) ، و(قسمة الأرضين) و (كتاب الأقاليم) . (الفهرست ، ط . دار المعرفة - بيروت) ص ١٤٢ .

(٣) راجع ترجمته فى (معجم الأدباء) لياقوت (ط٣ - دار الفكر ١٩٨٠م ، ١٥٤/٥) .

(٤) راجع ترجمته المفصلة الواردة فى (المصدر السابق) ٦٤/٣ - ٦٨ ، وكذلك دراسة كراتشكوفسكى عنه فى كتابه : (تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣م) ١٩٧ - ١٩٩ (من الترجمة العربية لصلاح الدين عثمان هاشم) .

(٥) راجع الدراسة التى كتبها كراتشكوفسكى عنه فى (المرجع السابق) ١٩٩/١ - ٢٠١ . وتجدر الإشارة إلى أن مصنف الاصطخرى (المسالك والممالك) قد نشر فى سلسلة (تراثنا) ، التى كانت تصدرها (وزارة الثقافة والإرشادالقومى) بالقاهرة ، بتحقيق : دكتور محمد جابر الحينى سنة ١٩٦١م .

(٦) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١٩٧/١ .

(٧) كذا ضبط النسبة ابن خلكان فى (وفيات الأعيان ، طبعة دار صادر ، تحقيق د. إحسان عباس) حـ٣ ص ٢٩٢ ، وجعل النسبة إلى (بيت المقدس) . وكذا ذكر السمعانى فى (الأنساب ، ط دار الجنان - بيروت) حـ٥ ص ٣٦٣ ، زاد قائلاً بلدة (بيت المقدس) هى البلدة المشهورة ، التى ذكرها الله فى القرآن فى غير موضع ، وبها المسجد الأقصى ، وقبة الصخرة ، والمواضع الشريفة ، وإليها قبلة المسلمين سبعة عشر شهراً أول مقدم الرسول المدينة .

وتجدر الإشارة إلى وجود صيغة أخرى لهذه النسبة هى (المقدسى) . وقد أشار بروكلمان إلى استخدام (دى غويه) لهذه الصيغة فى نشرته لكتاب (أحسن التقاسيم).

ويضيف بروكلمان أن هذه ربما كان المقدسى نفسه يستخدمها ، بدليل ما ورد فى قصيدة له فى نهاية كتابه (ص ٣٧٣ ، ط . دار إحياء التراث العربى) ، حيث وصف كتابه بأنه (حكمة مقدسة) . (تاريخ الأدب العربى ، طبعة الهيئة العامة ، القسم الثانى ص ٦٦١ ، هامش١). والحق أن هاتين الكلمتين وردتا متفرقتين فى آخر بيتين من القصيدة المذكورة . لكنى أرى أن هذ التخريج بعيد . والصواب لدى أن كلتا الصيغتين صحيح ، فالمقدسى نسبة إلى (بيت المقدس) ، أى : البيت المطهر الذى يتطهر به من الذنوب . و (المقدسى): نسبة إلى (البيت المقدس) ، أى : المبارك ؛ لأن القدس تعنى البركة . (راجع مادة : المقدس فى (معجم البلدان) لياقوت ، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت) ١٩٣/٥ - ١٩٤ ، و(لسان العرب) لابن منظور (ط . دار المعارف) ، مادة (ق. د. س) جـ ٥ ص ٣٥٥٠، و(المعجم الوسيط ، ط٢ - مجمع اللغة العربية) جـ٢ ص ٧٤٦ .

(٨) كشف الظنون ، لحاج خليفة (طبعة دار العلوم الحديثة - بيروت) ١٦/١ .

(٩) ورد لقبه هذا فى (معجم البلدان) لياقوت ١٩٦/٥ ، لكنى لم أقف على أصل تلك النسبة فيما تيسر لى من معاجم اللغة ، ومصادر الأنساب .

(١٠) أحسن التقاسيم ص ٣٣٥ .

(١١) جعله د. فلاح شاكر والد المقدسى ، لا جده . (المقدسى ، طبعة دار الشئون الثقافية - بغداد ص ٧) . والصواب ما اثبت بالمتن .

(١٢) قال عنها المقدسى : مدينة حصينة على البحر ببلاد الشام ، كبيرة الجامع ، وبه غابة زيتون . وتم تحصينها فى عهد (أحمد بن طولون) بعد زيارته لها . (أحسن التقاسيم ص ١٤٢) .

(١٣) المصدر السابق .

(١٤) السابق : ص ٣٣٥ . وأرى أن سفر المقدسى ، وترحاله الطويل مع ما يتطلبه ذلك من نفقات باهظة ، إلى جانب ما عرفنا عن مكانة جده ، وامتلاك والده الغلمان ، كل ذلك يجعلنى أميل إلى جعل أسرته فى مصاف الأثرياء ، خلافاً لما رآه محرر مادة (المقدسى) من أن أسرته من الطبقة المتوسطة .

(M. Miquel : AL - Muk addasi, Published in the Encyclopaedia of Islam (New edition), Leiden - New York, vol. 7, 1993, p. 492).

(١٥) أحسن التقاسيم : ص ٥٣ .

(١٦) كذا ضبطها ياقوت بالحروف ، وقال : هي كورة كبيرة واسعة ، تشتمل على مدن وقرى ومزارع ، وهي في ذيل جبال طبرستان ، وأكبر ما يكون في ولاية ملكها قصبتها مشهورة هي (مامغان) ، ومن مدنها المشهورة (بيار) . (معجم البلدان ٤/٤٧٠) .

(١٧) أحسن التقاسيم ص ٢٧٣ .

(١٨) المصدر السابق ص ١٦١ .

(١٩) السابق ص ٢٣ (أيام دولة أمير المؤمنين أبي بكر عبد الكريم الطائع لله ٣٦٣ - ٣٨١هـ) في المشرق ، وأبي منصور نزار العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) أمير المؤمنين بالمغرب) .

(٢٠) وقد نص على ذلك كراتشكوفسكي في (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) حـ١ ص ٢٠٩ ، ود. فلاح شاكر في كتابه : (المقدسي) ص ٧ .

Maqdisi, al published in the New Encyclopaedia Britannica, Chicago, U. S. A vol. 7, 1985, P. 809.

مع ملاحظة أن (دائرة المعارف البريطانية) أشارت إلى ذلك التاريخ بالميلادى فقط (946) . وبناء على ما تقدم ، فإن تحديد الزركلي ، وكحالة تاريخ ميلاد المقدسي بـ (سنة ٣٣٦هـ) تنقصه الدقة (الأعلام ، ط٩ ، دار العلم للملايين - بيروت ، ١٩٩٠م) ٥/٣١٢ ، ومعجم المؤلفين (ط . مؤسسة الرسالة) ٣/٥٢ .

(٢١) الأعلام ٥/٣١٢ .

M. Miquel : Al - Muk addasi, published in the Encyclopaedia of Islam (New edition), Leiden - New York, vol. 7, 1993, p. 492.

(٢٢) تاريخ الأدب الجغرافي العربي حـ١ ص ٢١٠ .

Maqdisi, al published in the New Encyclopaedia Britannica, Chicago, U. S. A., vol.7, 1985, p. 809.

مع ملاحظة أن (دائرة المعارف البريطانية) أشارت إلى ذلك التاريخ بالميلادى فقط (1000) .

(٢٣) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، للدكتور حسين مؤنس ص ١٠ .

(٢٤) المقدسى ، للدكتور فلاح شاكر ص ٨ .

(٢٥) والشىء نفسه يمكن أن يقال رداً على أن المقدسى توقف فى ذكر حكام الديلم (البويهيين) عند ولاية (أبى الفوارس بن عضد الدولة) المتوفى مستهل جمادى الآخرة سنة ٣٧٩هـ (الكامل لابن الأثير ، ط. دار الكتب العلمية) حـ٧ ص ٤٣٦.

(٢٦) تاريخ الأدب الجغرافى العربى حـ١ ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

M. Miquel : Al - Muk addasi, published in the Encyclopaedia of Islam (New edition), Leiden - New York) , vol.7, 1993, p. 493.

(٢٧) أحسن التقاسيم ص ١٩ .

(٢٨) المصدر السابق ص ١٥ .

(٢٩) تاريخ الأدب الجغرافى العربى حـ١ ص ٢١٥ .

(٣٠) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ص١٠ .

(٣١) أحسن التقاسيم ص ١٩٩ . والملاحظ أن كلمة (نسيج) الواردة فى النص قد حرفت إلى (تسبح) ، ولم يصوبها المحقق (د. محمد مخزوم) . ومن قبل قرأها كراتشكوفسكى (تسبح)، كما ورد فى الأصل ، لكن المترجم صوبها . (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ٢١١/١ (راجع الهامش) .

(٣٢) أحسن التقاسيم ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .

(٣٣) هو كراتشكوفسكى فى كتاب (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ٢١٥/١ .

(٣٤) أحسن التقاسيم ص ٢١ .

(٣٥) تمام الآية : (ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) . (سورة الأنعام ٦ الآية ١١) .

(٣٦) تتمة الجملة من الآية : (كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) . (سورة يوسف ١٢ / من الآية ١٠٩) .

(٣٧) أحسن التقاسيم ص ١٩٩ .

(٣٨) مما أخذه على السابقين نقلهم الكثير عن كتب سبقتهم (كما هو الحال فى احتواء كتاب الجيهانى على جميع أصل ابن خرداذبه) . (راجع المزيد عن ذلك فى المصدر السابق ، والصفحة نفسها) .

(٣٩) مثل قوله عن (ابى زيد البلخى) فى أحد المواضع : أما أبو زيد ، فهو إمام فى هذا العلم ، خاصة فى إقليمه . (السابق ص ٧٣) .

(٤٠) السابق ص ١١٣ .

(٤١) السابق ٢٠٨ .

(٤٢) السابق ص ٩٣ .

(٤٣) السابق ص ٣٧٢ .

(٤٤) السابق ص١٦ - ١٧ . ويمكن مراجعة المزيد عن كثرة رحلاته ، والبلدان التى حل بها حتى نسب إليها (ص ٤٩ - ٥١ ، ٨٥ - ٨٦ ، ٩١ -٩٢ ، ٩٥) .

(٤٥) يرى الدكتور مؤنس أن الرحلة فى ذاتها لم تكن من مواضع الفخر فى تلك العصور . ثم يستثنى قائلاً : اللهم إلا إذا كانت رحلة حج ، أو رحلة لقاء شيوخ ، وسماع منهم (تاريخ الجغرفية والجغرافيين فى الأندلس) ص ٤١٧ . وفى ص ٣٢٤ : يرى أن هذه الرحلات كانت حزءاً من ذلك النزوع العلمى ، الذى ملأ قلوب أمة العرب فى عصور النشاط والازدهار العلمى .

والحق أننى إذا كنت أوافق على الشطر الأخير من كلامه ، فإن لى تحفظاً على شطره الأول ؛ لأن تجشم مشاق الحج آنذاك بما كان يكتنف رحلاته من مخاطر جمة لم يكن - أيضاً - دافعه الفخر . والشىء نفسه يقال عن رحلات طلاب العلم ، وإذا كان بعضهم يذكر كثرة رحلاته وشيوخه ، فلأن ذلك مرتبط بوثاقة الرواية عموماً ، ورواية الحديث النبوى على وحه الخصوص ، اللهم إلا إذا وحد كذابون مدلسون ، فهذا موضوع آخر .

(٤٦) المرجع السابق ص ٤١٧ - ٤١٨ .

(٤٧) سوف أغفل الحديث عن (ثقافته التاريخية) ؛ لأنى سأتناولها فى مبحث خاص بها فى نهاية البحث ، حيث يتم رصد ما يتيسر لى من (المادة التاريخية التقليدية ، وغير التقليدية) فى القسم الأول من الكتاب الذى ندرسه (أحسن التقاسيم) .

(٤٨) تاريخ الأدب الجغرافى العربى حـ١ ص ٢١٤ .

(٤٩) أحسن التقاسيم ص ١٥ .

(٥٠) المصدر السابق ص١٦ .

(٥١) السابق ص١١٣ . وبتحقيق اللفظة لغوياً نقول : كركر فلاناً عن الشىء :دفعه ورده وكركر الشىء : أعاده مرة بعد أخرى . (اللسان ، مادة : ك . ر. ر) ٣٨٥٢/٥ ، والمعجم الوسيط (مادة : ك . ر . ك. ر) ٨١٥/٢ .

(٥٢) احسن التقاسيم ص ١٤٣ . وبتحقيق اللفظة لغوياً وجدت أن الهواء السجسج هو المعتدل الطيب ، والأرض السجسج لا سهلة ولا صلبة . والجمع : سجاسج (اللسان ، مادة : س. ج. س. ج) حـ٣ ص ١٩٣٩ ، و(المعجم الوسيط ، مادة) س. ج. س. ج) ٤٣٣/١.

(٥٣) أحسن التقاسيم ص ٢٠٨ . وديار معناها : أحد . تقول : ما بالدار ديار . قال الله (تعالى) : ﴿ وقال نوح : رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾(سورة نوح : ٧١ الآية ٢٦) . راجع المعنى اللغوى فى (اللسان ، مادة : د . و . ر) حـ٢ ص ١٤٥٢ ، و(المعجم الوسيط) ٣١٣/١ .

(٥٤) أحسن التقاسيم ص ٩٤ .

(٥٥) راجع المصدر السابق ص٧٩ .

(٥٦) هناك شعر يحفظه ويرويه (راجع السابق ص ١٤٠) ، إلى جانب شعر نظمه فى كتابه (ص ٣٧٢ - ٣٧٣) .

(٥٧) وفيها تختلف الأسماء المطلقة على المدلول الواحد (مثل : لحام ، وجزار ، وقصاب - وقطة، وهرة ، وسنور) (السابق ص ٣٩) .

(٥٨) راجع السابق ص٣٥ - ٣٩ تحت عنوان : (ذكر الأسامى واختلافها) .

(٥٩) السابق ص ٣٥ .

(٦٠) السابق ص ٣٥ - ٣٦ .

(٦١) السابق ص ١٢٦ .

(٦٢) السابق ص ١٧٢ .

(٦٣) السابق ص٤٦ .

(٦٤) الحديث فى (السابق) ص ٧٦ - ٧٧ .

(٦٥) راجع فى (السابق) ص ٧٩ - ٨٠ .

(٦٦) راجع هذه الأحاديث فى (السابق) ص ١٢١ - ١٢٢ ، ١٤٩ - ١٥٠ .

(٦٧) راجع السابق ص ٤٠ ، ١١٣ - ١١٤ .

(٦٨) السابق ص٤٣ .

(٦٩) السابق ص٤٠ .

(٧٠) السابق ص٤٤ - ٤٧ .

(٧١) السابق ص٧٨ ، ١٦٠ - ١٦١ .

(٧٢) كحديثه عن فرائض ، وواجبات ، وسنن الحج عند حديثه عن (مشاهد مناسك الحج). (السابق ص ٨٠) .

(٧٣) اعتمدت فى دراسة هذا القسم من ذلك المصدر على طبعة (دار إحياء التراث العربى) - بيروت ، ١٩٨٧ ، بتقديم ، وهوامش ، وفهارس : (د. محمد مخزوم) .

(٧٤) السابق ص١٥ - ١٧ .

(٧٥) السابق ص١٩ - ٧٢ .

(٧٦) يمتد الحديث عن هذا الإقليم فى (السابق) من ص ٧٣ - ١٠٢ .

(٧٧) يمتد الحديث عن هذا الإقليم فى (السابق) من ص ١٠٣ - ١٢٠ .

(٧٨) يمتد الحديث عن هذا الإقليم فى (السابق) من ص ١٢١ - ١٣٢ . قال المقدسى فى تعريفه ص ١٢١ : منطقة واسطة بين العراق ، والشام ، ومنازل العرب فى الإسلام . وقال عنها ياقوت : اسم كورة بالجزيرة ، أو هى الجزيرة - بين الموصل والفرات - بأسرها . (معجم البلدان) ٢٨٢/١ . ويبدو أن مترجم كتاب (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) اعتمد على (ياقوت) فى تعريفه ؛ إذ قال : (أقور ، أو أثور : منطقة شمال العراق ، أى : الجزيرة) . المرجع السابق ٢١٤/١ بالهامش) .

(٧٩) يمتد الحديث عن هذا الإقليم من ص ١٣٣ - ١٦٤ .

(٨٠) يمتد الحديث عن هذا الإقليم من ص ١٦٥ - ١٨٢

(٨١) يمتد الحديث عن هذا الإقليم من ص ١٨٣ - ٢٠٤ (وفيه جمع بين المغرب والأندلس).

(٨٢) يمتد الكلام على هذا الإقليم (وهو بادية الشام) من ص ٢٠٤ - ٢٠٨ .

(٨٣) بين هذه الأقسام الثلاثة كراتشكوفسكى فى (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ٢١٣/١ - ٢١٤ ، وعنه نقل - دون إحالة عليه - د. فلاح شاكر فى كتابه : (المقدسى) ص١١.

(٨٤) راجع (أحسن التقاسيم) ص ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ .

(٨٥) وهذا يدل على رغبة أصيلة لدى المقدسى فى أن يجعل كتابه على غير منوال سابقيه ، ومثالاً للدقة والأمانة العلمية ، خلافاً لنقل الجيهانى كتاب (ابن خرداذبه) ، ونقل ابن الفقيه كتاب (الجاحظ) ، وغيره . (راجع المصدر السابق ص ١٩٩) .

(٨٦) راجع السابق ص٤٩ .

(٨٧) وذلك فى رواية تتصل بأمر معاوية بن أبى سفيان حمل منبر المسجد النبوى إلى جانب المحراب كسائر المنابر ، وما ترتب على ذلك (السابق ص٨٢) .

(٨٨) فى رواية تتصل بأثر ريح الشمال والجنوب فى حياة السكان بالبصرة (السابق ص١١٢) .

(٨٩) فى روايتين تتعلق إحداهما بتماسيح مدينة الفسطاط ، والأخرى بوضع طلسم ؛ لئلا يغلب ماء البحر على ارض مصر (السابق ص ١٧٩) . والطلسمات جمع طلسم ، وهو - فى علم السحر - خطوط وأعداد ، يزعم أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية ؛ لجلب محبوب ، أو دفع أذى . وهو لفظ يونانى لكل ما هو غامض مبهم كالألغاز والأحاجى . (المعجم الوسيط ٥٨٢/٢) .

(٩٠) فى رواية تتعلق بمقدار ما أنفقه المنصور على مدينة السلام ، وأجرة بعض العمال (أحسن التقاسيم ص ١٠٨) .

(٩١) عن مقادير غلة أرض السواد بالعراق (السابق ص ١١٨) .

٩٢) حول مقدار ما انفق على جامع دمشق (السابق ص ١٤٠) .

(٩٣) حول خراج اليمن ، وتقسيمها الإدارى (السابق ص ٩٨) .

(٩٤) حول خراج قنسرين ، وحمص ، والأردن ، وفلسطين (السابق ص ١٦٣) .

(٩٥) حول خراج الحرمين ، واليمن ، واليمامة ، والبحرين ، وعمان (السابق ص ٩٨) .

(٩٦) حول دخل مصر (السابق ص ١٨٠) .

(٩٧) حول دخل مصر قديماً أيام فرعون ، ثم الحجاج ، ثم ولد العباس (السابق : الصفحة نفسها) .

(٩٨) هو أبو الحسن على بن محمد الشمشاطى . من بلاد أرمينية من الثغور . كان معلم أبى تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان وأخيه ، ثم نادمهما . وكان شاعراً مجيداً ومصنفاً مفيداً، كثير الحفظ . ذكر محمد بن إسحاق النديم أنه كان حيا فى عصره (سنة ٣٧٧هـ) ، وترك كثيراً من أخلاقه لما علت سنه . (راجع ترجمته فى : الفهرست ص ٢٢٠ ، ومعجم الأدباء ٢٤٠/١٤ - ٢٤٤) . ويلاحظ أن (الشمشاطى) حرفت إلى (السميساطى) فى (الفهرست ص ٢٢٠) . والراجح ما ورد فى (معجم البلدان) جـ٣ ص ٤١١ ، حيث قال : شمشاط (وضطبها بالحروف) غير (سميساط) بمهملتين ، وإن كانت كلتاهما على الفرات ، إلا أن التى ينسب إليها هذا المؤرخ تقع فى طرف أرمينية، والأخرى من أعمال الشام .

(٩٩) للشمشاطى مؤلفات عديدة ذات طابع أدبى ، منها : (أخبار أبى تمام والمختار من شعره) ، و (أخبار أبى نواس والمختار من شعره) . (الفهرست ص ٢٢٠ ، ٢٢٨) . وقد اشار ابن النديم فى (المصدر السابق) ص ٣٢٧ ، إلى أن الشمشاطى أحد من اختصر (تاريخ الطبرى) ، وحذف أسانيده . وأرجح أن النص الذى اقتبسه المقدسى من (تاريخ الشمشاطى) هنا ، ويتعلق باستقدام المنصور ذوى الخبرة والكفاءة عند بناء بغداد، اقتبسه من (تاريخ الطبرى) بشىء من التصرف والتجميع والتنسيق ، ويمكن التحقق من ذلك بمقارنة ما ورد فى (أحسن التقاسيم) ص ١٠٨ - منقولاً عن (تاريخ الشمشاطى) - بما جاء فى (تاريخ الطبرى ، ط . دار المعارف بالقاهرة) جـ٧ ص ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٥٢ .

(١٠٠) حول مقدار مسيرة الدنيا (أحسن التقاسيم) ص ٦٩ .

(١٠١) حول معنى البصرة لغوياً (المصدر السابق) ص ١٠٦ .

(١٠٢) حول سؤال الخضر ملكاً من الملائكة عن ظاهرة المد والجزر . (السابق ص ٢٦) .

(١٠٣) فى رواية تدور حول نقاش دار بين المقدسى ، وهذا القاضى عن عالم بغدادى (السابق ١٠٩ - ١١٠) .

(١٠٤) حول قبر يوسف بالشام (السابق ص ٥٢ - ٥٣) .

(١٠٥) حول بناء جامع فى الرملة فى عهد هشام بن عبد الملك (السابق ص ١٤٣) .

(١٠٦) حول ذكاء رجل ، وصف دير شمويل بالشام لأحد الملوك وصفاً ، نفره من السيطرة عليه . (السابق ص ١٦١) .

(١٠٧) حول مكانة قرطبة ، وصفتها (السابق ص ١٩٢) .

(١٠٨) ذيل بها المصدر حديثاً مطولاً عن (المذاهب فى الأندلس) (السابق ص ١٩٥ - ١٩٦) .

(١٠٩) فى رواية تتصل بحج الخليفة المنصور ، وتوسيع المسجد الحرام بعد شراء دوره المجاورة له بمكة ، ودورأبى حنيفة فى حل إشكال فقهى وقع آنذاك . (السابق ص ٧٧ - ٧٨).

(١١٠) فى رواية عن خراج مصر ، وحوار بين المقدسى ، والمصدر الذى روى عنه حول هذا الشأن . (السابق ص ١٨٠ - ١٨١) .

(١١١) فى روايات متتابعة حول الخصاء وكيفيته لدى الروم ، وحديث عن العبيد والصقالبة بالأندلس) (السابق ص ٢٠٠) .

(١١٢) راجع هذه الروايات بأسانيدها فى (السابق) ص ٢٨ ، ٧٦ - ٧٧ ، ٧٩ (بها روايتان) ، ٩٩ ، ١٠٧ - ١٠٨ ، ١١١ ، ١٢١ .

(١١٣) راجع (السابق ص ٤٨ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ١٢٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ - ١٣٧ ، ١٤٩ - ١٥٠ ، ١٧٦ .

(١١٤) فى رواية حول مغارة ، ترجع إل عهد قوم موسى ، وتعد من عجائب إيليا (السابق ١٥٩) .

(١١٥) السابق ص ١٢٩ ، ١٤٧ (روايتان) ١٤٩ ، ١٧٩ .

(١١٦) السابق ص ٦٢ .

(١١٧) السابق ص ٨٤ .

(١١٨) السابق ص ١٣٤ ، ١٦٥ ، ١٧٨ .

(١١٩) السابق ص ٢٨ ، ٤٣ (ويقال عن الأندلس : أنها جنات) ، ٨٢ ، ٨٥ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٧٥ ، ١٨٥ .

(١٢٠) السابق ص ١٢١ .

(١٢١) يحكى عن سفيان بن عيينة رواية عن تشجيع وتأييد عزم العزب الذى يريد الزواج والمريد الذى يسأل الحج وليس معه زاد ؛ لأنه حق على الله أن يعينهما (السابق ص٢٠٨).

(١٢٢) حكى لى عن بعض الزهاد (رواية عن تيسير الله الحج لمن أراد) ص ٢٠٨ .

(١٢٣) السابق ص ٢٦ .

(١٢٤) السابق ص ٩٠ .

(١٢٥) وحدثونا عن ابن عباس (رواية عن وصف الساهرة أرض القيامة) ص ١٤٧ .

(١٢٦) راجع النص فى (أحسن التقاسيم) ص ٦٥ ، وقارنه بـ (المسالك والممالك ، طبعة صورتها ، ونشرتها مكتبة الثقافة الدينية عن طبعة دى غويه) لابن خرداذبه ص ٨٩ .

(١٢٧) راجع النص فى (أحسن التقاسيم) ص ١٦٣ ، وقارنه بـ (المسالك والممالك) لابن خرداذبه ص ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ (بترتيب ذكر البلدان الواردة) .

(١٢٨) راجع النص فى (أحسن التقاسيم) ص ٩٨ ، وقارنه بـ (المسالك والممالك) لابن خرداذبه ص ١٤٤ .

(١٢٩) راجع النص فى (أحسن التقاسيم) ص ٩٨ ، وقارنه بـ (كتاب الخراج) لقدامه ابن جعفر المنشور بقيته بعنوان : (نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة) فى طبعة (صورتها. ونشرتها مكتبة الثقافة الدينية عن طبعة دى غويه ، ملحقة بكتاب ابن خرداذبه فى مجلد واحد) ص ٢٥١ .

(١٣٠) راجع (أحسن التقاسيم) ص ٩٨ ، وقارنه بـ (المسالك والممالك) لابن خرداذبه ص ١٤٤ .

(١٣١) أحسن التقاسيم ص ١٦٣ .

(١٣٢) المسالك والممالك ، لابن خرداذبه ص٧٥.

(١٣٣) العواصم : جمع عاصم ، وهو المانع . وهى اسم ناحية ، وليس موضع بعينه يسمى (العواصم) . وهى حصون موانع بين حلب وأنطاكية أكثرها فى الجبال ، وربما دخل فى هذا ثغور المصيصة وطرسوس . وقصبتها أنطاكية . (المسالك والممالك للاصطخرى) ص ٤٦ ، و (معجم البلدان لياقوت جـ٤ ص ١٨٦) .

(١٣٤) المصدر السابق ، الجزء والصفحة نفسها . وتجدر الإشارة إلى أن (الاصطخرى) ممن يجمعون بين (قنسرين ، والعواصم) ، ويضيف إليهما (الثغور) ، فيقول : (جند قنسرين والعواصم والثغور) . (المسالك والممالك) ص ٤٣ .

(١٣٥) قنسرين : كورة بالشام منها مدينة حلب ، وهى عامرة آهلة بالسكان ، تقع على طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات . وظلت كذلك حتى غلب الروم على مدينة حلب سنة ٣٥١هـ ، وقتلت من كان بضواحيها ، ففر أهل قنسرين ، وتفرقوا فى البلاد،

فعبر بعضهم الفرات ، وآخرون نقلهم سيف الدولة بن حمدان إلى حلب ، كثر بهم من بقى من أهلها . (المسالك والممالك للاصطخرى ص ٤٦، ومعجم البلدان لياقوت ٤٥٨/٤) .

(١٣٦) المصدر السابق ، الجزء والصفحة نفسها .

(١٣٧) راجع (أحسن التقاسيم) ص ١٨٠ ، وقارنه بـ (الخراج) لقدامة بن جعفر ص٢٥١.

(١٣٨) ولعل مما يقوى هذا المنطق أن المقريزى ذكر بعض ولاة الإسكندرية فى العصر الإسلامى (مثل : محمد بن هبيرة سنة ١٩٩هـ) . (الخطط ، نشر : مكتبة الثقافة الدينية) جـ١ ص ١٧٢ ، و(معاوية بن عبد الواحد سنة ٢١٦هـ) . (والمصدر السابق ١٧٣/١ - ١٧٤) . وترى د. سيدة الكاشف أن المدن الساحلية ، وغيرها من المناطق البعيدة كان يولى عليها حاكم ، يعينه الأمير أو الخليفة مباشرة (مصر فى عصر الإخشيديين ، طبعة الهيئة المصرية للكتاب) ص ١٦٩ . والظاهر أن هذا الوضع تمتعت به الإسكندرية حتى تولية أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٧٠هـ / ٨٦٨ - ٨٨٣ م) الأعمال الخارجة عن قصبة مصر (الفسطاط) ، ومنها الإسكندرية التى كان يتقلدها (إسحاق ابن دينار) ، ثم أقره عليها سنة (٢٥٦هـ / ٨٦٩م) (الخطط ٣١٤/١ - ٣١٥) . وأخيراً ، فإن مقدار الدخل الخاص بمصر والإسكندرية الذى نقله إلينا المقدسى عن (قدامة ابن جعفر) ، إنما يرجع - فى الأساس - إلى ما وجد من وثائق الأوضاع المالية فى الخلافة العباسية بدءاً من سنة ٢٠٤هـ /٨١٩م ، لأن الدواوين السابقة على ذلك أحرقت فى الفتنة التى كانت بين الأمين والمأمون (سنة ١٩٧هـ / ٨١٢م) . (الخراج) لقدامة ابن جعفر ص ٢٣ - ٢٣٧ . وهذا يعنى أنها قوائم الخراج الخاصة بعصرى المأمون والمعتصم (من خلال السياق العام لكلام قدامة) . (الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية) للدكتور الريس (ط٥ - ١٩٨٥ ، دار التراث بالقاهرة) ص ٤٩٤ . وهذه الفترة - أيا ما كانت - سابقة على حكم ابن طولون ، فيكون للإسكندرية فيها والٍ خاص بها ، ودخل خاص بها .

(١٣٩) كما فى رواية تذكر أن من زار مسجد يونس بإقليم (أقور) سبع مرات ، فإنهن يعدلن حجة (أحسن التقاسيم) ص ١٢١ .

(١٤٠) كما فى (المصدر السابق) ص ١٢٩ (بخصوص عين يونس فى إقليم أقور ، يزعمون أن يونس خرج منها ، ويستشفى بمائها من البرص .

(١٤١) كما فى (السابق) ص ١٧٦ (عن عروس النيل فى مصر ، وأسطورة إلقاء فتاة بكر فيه ؛ ضماناً لجريانه) .

(١٤٢) مثل : سؤاله بعض المصريين فى بخارى عن خراج مصر (السابق ص ١٨٠) .

(١٤٣) كسؤاله بعض الروم عن الخصاء وكيفيته (السابق ص ٢٠٠) .

(١٤٤) مثل : عريب الخادم ، وعرض كلام عريب هذا على أحد الثقات لديه . (السابق : الصفحة نفسها) .

(١٤٥) كرحلاته إلى (مدينة زبيد باليمن) . (السابق ص ٨٥) ، ورحلته إلى عدن (ص ٩٤ - ٩٥) ، وبغداد (ص١٠٥ - ١٠٦) ، وجبل لبنان بالشام (ص ١٦٢) .

(١٤٦) مثل : تجواله بالبصرة ، يعاين حديث الناس بعضهم إلى بعض ، يقررون حالة فى بلادهم يعايشونها (حديث الرحل إلى صاحبه فى البصرة عن دور ريح الشمال فى تلطيف الجو عندهم ، وسوء حالهم فى ظل ريح الجنوب) . (السابق ص ١١٢) . وكذا ما ذكره عن مسحه بادية الشام يميناً وشمالاً ، وشرقاً وغرباً (ص ٢٠٤) .

(١٤٧) مثل : جوبانه المحيط الهندى أكثر من مرة ، ومطالعة المقدسى الخرائط النظرية التى معه للتوضيح ، ومعرفة مواقع البلدان ، ومقارنتها بالخرائط العملية الموجودة مع إمام التجار (أبى على بن حازم) فى البحر ، ومجالسته ، حيث تجوب مراكبه هذا المحيط أبداً . (ص ٢٤ - ٢٥ .

(١٤٨) على رأس أنواع المشاهدة ما يتصل برؤية (المشاهد الأثرية) ، تلك التى رصدها المقدسى بدقة من واقع زياراته الميدانية لأقاليم العرب ، وكأنه يضع أمام المؤرخين صورة للأماكن الأثرية ، التى تفيدهم زيارتها فى دعم كتابتهم التاريخية عن أحداث هذه البلدان. (راجع ذلك فى صفحات ٧٦ ، ٨٣ ، ٩٦ ، ١١٦ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٧٨ ، مثل : أثر قدم إبراهيم (عليه السلام) ، ومكان مولد الرسول ، ودار خديجة ، وقبور طلحة والزبير وعلى) .

(١٤٩) وذلك في البلدان التي لم يزرها المقدسي ، مثل : بلاد الأندلس ، التي عرضها - باختصار - مختلطة بإقليم المغرب ، معتمداً على النقل والسؤال . (ص ١٨٣) .

(١٥٠) السابق ص١٥ .

(١٥١) السابق ص ١٥ - ١٦ .

(١٥٢) السابق ص٤٩ .

(١٥٣) هناك غموض يعترى هذه الشخصية السياسية الجغرافية في آن . وقد اختلف حول اسم هذا العالم ، فبينما ياقوت يسميه في موضع بـ (أحمد بن محمد بن نصر الجيهاني) ، ويكنيه بـ (أبي عبد الله) . (معجم الأدباء) حـ٤ ص ١٩٠ ، ويسبقه إلى ذلك ابن النديم في (الفهرست) ص ١٩٧ ، فإن صاحب (معجم الأدباء) يعود ثانية في حـ١٧ ص ١٥٦ - ويسميه (محمد بن أحمد بن نصر الجيهاني ، ويكنيه الكنية نفسها) . وقد تبع التسمية الأولى بروكلمان في (تاريخ الأدب العربي) القسم الثاني ص ٦٥١ . أما كراتشكوفسكي ، ود . حسين مؤنس فقد تبعاً التسمية الأخيرة (تاريخ الأدب الجغرافي ٢١٩/١ ، وتاريخ الجغرافية والجغرافيين ص ١٩٦ ، وإن لقبه بالجيحاني ، او الجياني ، وهو ما انفرد به دون غيره) . والراجح - عندى - التسمية الأخيرة ؛ لمجيئها في مصادر أخرى ، ألقت لنا بعض الأضواء على حياة هذا الرجل ، كما سنرى .

وحول التعريف بهذا الرجل ذكر بروكلمان أنه وزير (نصر بن أحمد بن نصر الساماني ٢٦١ - ٢٧٩هـ / ٨٧٤ - ٨٩٢م) . (تاريخ الأدب العربي ، القسم الثاني ص ٦٥١). واعتقد أن بروكلمان نقل ذلك عن ابن النديم في (الفهرست) ص ١٩٨ ، وكذلك عنه نقل ياقوت في (معجم الأدباء) ١٩٠/٤ . ولى ملاحظتان حول هذه المعلومة :
الأولى : أن نسب الأمير المذكور الصحيح هو (نصر أحمد بن أسد بن سامان) أول حكام الدولة السامانية (راجع تاريخ الطبرى ٥١٤/٩ ، والكامل ٥٣/٦) ، وفيات الأعيان ١٦١/٥ ، ونهاية الأرب للنويرى (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب) حـ٢٥ ص ٣٣١) .

والثانية : أن الجيهانى كان وزيراً للأمير نصر الثانى (نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد ابن أسد بن سامان ٣٠١ -٣٣١هـ) . وقد لعب الجيهانى دوراً مهماً فى عهد ذلك الأمير الصغير ، الذى ولى بعد مقتل والده ، وهو ابن ثمانى سنين ، فتولى أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهانى تدبير الدولة ، فأمضى الأمور ، وضبط المملكة ، واتفق هو وحشم والد الأمير (نصر بن أحمد) على تدبير المملكة . (معجم الأدباء ١٥٧/١٧ ، والكامل ٤٧٩/٦ ، ونهاية الأرب ٢٥ / ٣٤١- ٣٤٢) . هذا وقد ورد ذكر الجيهانى فى (أحداث سنة ٣٠٢هـ) ، عندما خلص من الأسر رجلاً يدعى (الحسين بن على) فى بخارى ، أثناء فترة الصراعات المحتدمة ؛ مما أعاد هذا الرجل إلى الطاعة (الكامل ٤٨٥/٦، ونهاية الأرب ٣٤٤/٢٥) . ولا نجد ذكراً - بعد ذلك - للجيهانى ، لا ندرى تاريخ وفاته ! غير أنى وجدت فى (معجم الأدباء) ١٩٢/٤ ، وفميا نقله عن كتاب محمد بن سليمان (فريد التاريخ فى أخبار خراسان) : أن الجيهانى كان على وزارة نوح بن منصور ، ثم صرفت عنه الوزارة فى (شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٧هـ ، ووليها أبو الحسين عبد الله بن أحمد العتبى) . فلئن صح هذا الخبر ، فيكون الجيهانى توفى بعد السنة المذكورة ، لكن يحترز من ذلك بأنه لم يرد له ذكر فى فترة حكم هذا الأمير (نوح بن منصور (٣٦٦ - ٣٨٧هـ / ٩٧٦ - ٩٩٧م) ، والذى ذكر هو الوزير العتبى الذى قتل سنة ٣٧٢هـ (نهاية الأرب ٢٥ / ٣٥٩) ، بالإضافة إلى امتداد حياة الرجل - بناء على ذلك التاريخ - فترة طويلة ، خاصة أن الراجح أنه ألف كتابه (المسالك والممالك) المذكور فى الفهرست ص ١٩٨م ، ومعجم الأدباء ١٩٠/٤ - بين عامى (٢٧٩ هـ / ٨٩٢م ، ٢٩٥ / ٩٠٧م) ، بناء على صلاته بالجغرافيين الآخرين . ونقلهم عنه (مثل : ابن خرداذبه المتوفى سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٢م) . (تاريخ الأدب الجغرافى ٢٢١/١) .

(١٥٤) أحسن التقاسيم ص ١٩ - ٢٠ .

(١٥٥) المصدر السابق ص ٢٠ - ٢١ .

(١٥٦) قال بذلك كراتشكوفسكى فى (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) جـ١ ص ٢١٠ .

(١٥٧) راجع المصدر السابق ص ٢٢ ، ٢٤ - ٢٥ ، ٨٥ ، ٩٤ - ٩٥ ، ١٠٥ - ١٠٦ ، ١٦٢ .

(١٥٨) السابق ص ١٧ .

(١٥٩) السابق ص٢٣ .

(١٦٠) السابق ص٢١ (وبها أمثلة ضربها للتوضيح) .

(١٦١) السابق ص ٢٢ (وقد علل ذلك بعلل ، نذكرها عند تناول وضوح شخصيته) .

(١٦٢) السابق : الصفحة نفسها .

(١٦٣) السابق ص٢٣ .

(١٦٤) من ذلك قوله : (وهذا مثاله وشكله ، هذا شكله ومثاله ، وهذا شكل الإقليم ومثاله في الصفحة المنقلبة . (راجع صفحات ١٠٣ ، ١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٦٥ ، ١٨٣) ولعل خرائط المقدسى المشار إليها تفوق تلك الخرائط النظرية ، التى أشار إليها د. حسين مؤنس ، والموجودة لدى الخوارزمى وغيره من الرحالة الجغرافيين (كأبن حوقل) ، التى كانت لمجرد التوضيح ، وبيان مواقع البلاد بالنسبة لبعضها دون تدقيق ، ولمجرد بيان الهيئة العامة للأرض وبحارها . (تاريخ الجغرافية والجغرافيين) ص ٢٦٧ .

(١٦٥) أبو حنيفة فقيه عراقى ، فناسب ذلك ذكر مذهبه فى (إقليم العراق) ، وقد ذكر بالفعل (راجع أحسن التقاسيم) ص ١١٣ - ١١٤ .

(١٦٦) المصدر السابق ص ٤٦ .

(١٦٧) فهى القراءة المختارة فى ذلك الإقليم (راجع السابق) ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(١٦٨) تاريخ الأدب الجغرافى العربى جـ١ ص ٢١١ .

(١٦٩) أحسن التقاسيم ص ٢٢ .

(١٧٠) المصدر السابق ص ٢٠٤ .

(١٧١) السابق ص ٧٣ .

(١٧٢) السابق ص ١٣٤ .

(١٧٣) السابق ص٦٥ .

(١٧٤) السابق ص١٠٥ .

(١٧٥) السابق ص١٠٦ .

(١٧٦) السابق ص٩٤ .

(١٧٧) سورة البقرة : ٢ / من الآية ١٠٢ .

(١٧٨) أحسن التقاسيم ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(١٧٩) المصدر السابق ص ١١٣ - ١١٤ .

(١٨٠) السابق ص ٤١ - ٤٢ .

(١٨١) السابق ص٩٨ .

(١٨٢) السابق ص١٩٧ .

(١٨٣) السابق ص٧٧ - ٧٨ .

(١٨٤) السابق ص ١١١ .

(١٨٥) السابق ص١٤٠ .

(١٨٦) السابق ص ١٣٩ .

(١٨٧) فى (سنن ابن ماجة ط. دار الريان) حديث ورد فى (كتاب الفتن) ، باب (افتراق الأمم) جـ٢ ص ١٣٢٢ (حديث رقم ٣٩٩٢) ، رواه بسنده إلى راشد بن سعد ، عن عوف بن مالك ، عن الرسول ﷺ ، قال : (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة فى الجنة وسبعون فى النار . وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، فإحدى وسبعون فى النار ، وواحدة فى الجنة . والذى نفس محمد بيده ، لتفترقه أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ؛ واحدة فى الجنة ، وثنتان وسبعون فى النار . قيل يا رسول الله ، من هم ؟ قال : الجماعة) . وعلق المحقق أن إسناد الحديث فيه مقال .

(١٨٨) أحسن التقاسيم ص ٤٥ - ٤٦ .

(١٨٩) المصدر السابق ص ٥٤ .

(١٩٠) السابق ص ١٥ - ١٦ ، ١٩٩ .

(١٩١) السابق ص ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٤٩ ، ١٩٩ .

(١٩٢) السابق ص١٩ - ٢١ ، ٤٩ .

(١٩٣) من أمثلة ذلك : وصفه المحيط الهندى (ولا أحب أن أطول هذا الأصل ، وإلا ذكرت مراسى هذا البحر ، والطرق فيه) . السابق ص ٢٦) . وكذلك قوله فى (إقليم المغرب): (ولولا خوف الملال وطول الكتاب ، لوصفت بقية مدائن إفريقية ، وأكثر مدائن الكور فى جميع الإسلام ، وكلنا نميل إلى الإيجاز ، ونذكر ما لا بد منه) . (السابق ص ١٨٩).

(١٩٤) وذلك فى موضع (الأشياء التى يختلف فيها أهل الأقاليم) ص ٣٩ .

(١٩٥) امتدت من (ص ١٥ - ٧٢) ، وهى ضرورية على اختلاف فصولها ، لكنها كان يمكن اختصار مادة بعضها من الداخل ، فتكون أوجز وأخصر وأعمق (مثل : توسعه فى ذكر البحار والأنهار ص ٢٤ - ٣٤ ، والباب الذى اختصره للفقهاء ، واكتفى فيه بسرد الأمصار ومدنها من ص ٥٤ - ٦٥ ، وفصل ذكر اقاليم العالم ومركز القبلة ص ٦٦ - ٧٢) . والملاحظ أن عدداً من تلك الفصول سيأتى بيان ما فيها داخل الأقاليم الجغرافية عند وصفها .

(١٩٦) من الأمثلة النادرة : إشارته السريعة الخاطفة إلى الفقيه الإمام (أبى جعفر الأزدى - ولعله يقصد الطحاوى عند تعريفه بمدنية (طحا) فى مصر . (ص ١٧١) .

(١٩٧) ص ٧٩ - ٨٠ .

(١٩٨) ص ٧٤ .

(١٩٩) ص ٧٤ - ٧٥ .

(٢٠٠) ص ٤٣ .

(٢٠١) مثل قوله ص ٤٢ : « ولا أعف من أهل بيت المقدس ... ولا أصح موازين من أهل الكوفة ، وعسكر مكرم ... ولا أحسن من أهل حمص ... ولا أوطأ من أهل مصر » .

(٢٠٢) قال المقدسى فى الصفحة نفسها : (وليس أكثر ولا أرذل من مذكرى نيسابور ، ولا أطمع من أهل مكة ... ولا أفقر من أهل يثرب ... ولا أبخس من أهل عمان ، ولا أجهل من أهل عمان) .

(٢٠٣) ص ١٢٩ .

(٢٠٤) الصفحة السابقة نفسها .

(٢٠٥) ص ١٧٩.

(٢٠٦) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢٠٧) فمثلاً : يبدى المقدسى موافقته على ما طالعه فى كتاب (الطلسمات) ، حول وجود طلسمين فى مصر ؛ للوقاية من خطر تماسيح النيل ، حيث يقول : ألا ترى أن التماسيح فى كورة (الفسطاط) لا تضر مع عظمها وكثرتها . (أحسن التقاسيم ص ١٧٩) .

(٢٠٨) يظهر ذلك عند حديثه عن (عجائب إيليا بالشام) ، حيث المغارة العظيمة الموجودة بظاهر البلد ، تلك التى قرأ عنها فى بعض الكتب ، حيث أرجع تاريخها إلى قوم موسى . قال المقدسى : وما صح لى ذلك . (المصدر السابق ص ١٥٩) .

(٢٠٩) حيث وصفهم مادحاً بقوله : (ولا أحسن من أهل حمص) ، ثم قال بعدها بقليل (ولا أحمق من أهل حمص) . (السابق ص ٤٢) . وكان الأولى أن يوضح جمال إحسانهم ، وموطن حمقهم .

(٢١٠) هذه بلدة المقدسى ؛ ولذلك أظهر كثيرا من محاسنها ، وأفرط فى مدحها ، وفضلها على ما سواها ، شارحاً ومحللاً ومعللاً . فمن ذلك قوله : (لا ترى بها بخسا ولا تطفيفا، ولا شرباً ظاهراً ، ولا سكران ، ولا دور فسق سراً ولا إعلاناً ، مع تعبد وإخلاص . ولقد بلغهم أن الأمير يشرب ، فتسوروا عليه داره ، فرقوا أهل مجلسه) (السابق ص٢٢). وبلغ به الإعجاب ببلده أنه كان وهو يتحدث عن السوق العامر بمدينة (حلوان) بالعراق ، وبساتينها ، والفاكهة بها ، لا ينسى بلده ، فيعقد مقارنة بينهما لصالح بلده ، فيقول : (وبيت المقدس أكبر وأجل ، وأعمر وأظرف ، وأكثر مشايخ وعلماء منها) . (السابق ص ١١٠) . ويواصل فى موضع آخر الحديث عن بلده ، وطيب هوائها ، فلا ترى

أحسن من بنيانها ، ولا أنظف منها ، ولا أكثر من خيراتها (السـابق ١٤٣ - ١٤٤) . ويقال في القسم الثاني من كتابه ، وهو يذكر مدينة (سرخس) من (إقليم خراسان) : بيت المقلس مثل سرخس ، غير أن بيت المقلس بلد نظيف حسـن ظريف (السـابق ص ٢٤٦) . وبعد هذا الإغراق في المدح لبلده ، إذا به يقول : إلا أن لها عيوباً عدة ، فيذكر منها ما يلي : (ثم لا ترى أقذر من حماماتها ، ولا أثقل مؤنة . قليلة العلماء ، كثيرة النصارى ... لا مجلس نظر ولا تدريس ، وقد غلب عليها النصارى واليهود ، وخلا المسجد من الجماعات والمجالس) . (السابق ص ١٤٤) .

(٢١١) السابق ص ٧٧ .

(٢١٢) السابق ص ٨٣ .

(٢١٣) السابق ص ٨٧ .

(٢١٤) السابق ص ٨٨ .

(٢١٥) السابق ص ٩٧ - ٩٨) .

(٢١٦) السابق ص ١١٦ - ١١٨ .

(٢١٧) السابق ص ١٦٢ .

(٢١٨) السابق ص ١٨٠ .

(٢١٩) السابق ص٢٠١ .

(٢٢٠) الأخبار الطوال (طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي) ص ٣١٤ - ٣١٥ .

(٢٢١) تاريخ الطبري ٦/ ١٨٧ - ١٨٨ .

(٢٢٢) البداية والنهاية (طبعة دار الريان للتراث) جـ٨ ص ٣٣٤ - ٣٤٩ .

(٢٢٣) تاريخه جـ٦ ص ١٩٥ .

(٢٢٤) راجع (السيرة النبوية ، لابن هشام ، الطبعة الثانية ١٩٥٥م ، طبع ونشر : مصطفى الحلبي) ، القسم الأول ص ٤٩٥ .

(٢٢٥) راجع أحداث غزوة أحد تفصيلاً فى (المصدر السابق) ، القسم الثانى ص ٦٠ وبعدها .

(٢٢٦) جـ٨ ص١٩٨ .

(٢٢٧) البيان المغرب (ط٣ - دار الثقافة بيروت) جـ١ ص ٨٣ ، فيما ينقله عن (تاريخ الرقيق).

(٢٢٨) فى تاريخه جـ٨ ص ١٩٩ .

(٢٢٩) البيان المغرب ٨٣/١ .

(٢٣٠) كتبت فى (معجم البلدان) لياقوت جـ٥ ص ٤٤٢ بالقصر هكذا : وليلى ، وقال عنها: مدينة بالمغرب قرب طنجة ، دخلها إدريس بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن على ناجياً من وقعة (فخ) ، وحصل بها سنة ١٧٢هـ أيام الرشيد إلى أن مات بها مسموماً - فى قصة طويلة - سنة ١٧٤هـ .

ويلاحظ أن هذا هو الاسم الصواب لتلك المدينة . أما (زويلة) الواردة فى كتاب (المقدسى) ، فغير مقصودة هنا ، ولعلها تحريف من النساخ ، لم يفطن إليه المحقق ، ولعل مطالعتنا تعريف ياقوت لها يؤكد صحة ما نقول ، فهناك (زويلة السودان) ، وتقع بين بلاد السودان وإفريقية وسط الصحراء (أول بلاد السودان) . (معجم البلدان) جـ٣ ص ١٧٩ . وهناك (زويلة المهدية) ، وهى مدينة بإفريقية ، بناها عبيد الله المهدى ، وأسكنها العامة (المصدر السابق ١٨٠/٣) . وواضح أن كلتا المدينتين غير مقصود فى هذا السياق .

(٢٣١) تاريخه جـ٨ ص ١٩٩ .

(٢٣٢) البيان المغرب ٨٣/١ .

(٢٣٣) أحسن التقاسيم ص١١٧ .

(٢٣٤) تاريخ الطبرى ٤٢١/٧ .

(٢٣٥) ولى المعتز سنة (٢٥٢ - ٢٥٥هـ / ٨٦٦ - ٨٦٨م) ، والمعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩هـ / ٨٦٩ - ٨٩٢م) .

(٢٣٦) راجع أخباره فى (تاريخ الطبرى) حـ٩ ص ٣٩١ - ٤٥٦ .

(٢٣٧) أحسن التقاسيم ص ١٧٧ .

(٢٣٨) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٢٣٩) تاريخ الخلفاء للسيوطى (ط . دار القلم - بيروت) ص ٤٠٥ .

(٢٤٠) أحسن التقاسيم ص ١١٧ .

(٢٤١) تاريخ الخلفاء ص ٤١٩ .

(٢٤٢) أحسن التقاسيم ص ١١٧ .

(٢٤٣) تاريخ الخلفاء ص ٤٣١ .

(٢٤٤) أحسن التقاسيم ص ١١٨ .

(٢٤٥) تاريخ الطبرى ١٧٣/٨ .

(٢٤٦) أحسن التقاسيم ص ١١٧ .

(٢٤٧) راجع (وفيات الأعيان) لابن خلكان ٣٧٩/٦ .

(١٤٨) راجع (أحسن التقاسيم) ص ١١٧) ، وتاريخ الطبرى ٣٧١/٩ .

(٢٤٩) المصدر السابق ٤٣٧/٩ .

(٢٥٠) السابق ٥١٤/٩ .

(٢٥١) السابق ٥١٥/٩ .

(٢٥٢) معلوم أن أولاد بويه ثلاثة : الأكبر (ابو الحسن عماد الدولة على بن بويه) ، والأوسط (ركن الدولة الحسن بن بويه) ، وهو والد عضد الدولة المشهور ، والأصغر أبو الحسن أحمد فى حكم بلاد فارس (٣٢٠-٣٣٨هـ/٩٣٢ - ٩٤٦م) . (راجع ترجمته فى : الكامل ٢٣٠/٧ ، ووفيات الأعيان ٣٩٩/٣ ، والنجوم ٣٤٣/٣) . أما معز الدولة الذى ولى العراق ، فقدم بغداد سنة ٣٣٤هـ ، توفى سنة ٣٥٦هـ ، وعهد لولده (بختيار) من بعده . وكان يحكم إلى جانب العراق - الأهواز - وهو عم عضد الدولة .

له ترجمة فى تكملة تاريخ الطبرى للهمذانى ص ٤٠٧ ، ووفيات الأعيان ١/١٧٤ - ١٧٦ ، والنجوم الزاهرة ٤/١٦ (وفيه حرفت كنيته من أبى الحسين إلى ابى الحسن) .

(٢٥٣) هو أبو منصور بن معز الدولة . ملك العراق بعد وفاة أبيه ٣٥٦هـ / ٩٦٧م ، وكانت بينه وبين ابن عمه (عضد الدولة) منازعات ، حتى قتل فى إحدى معاركه أمامه بعد فترة إمارة ، امتدت أحد عشر عاماً وشهوراً ، سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م . (راجع تكملة تاريخ الطبرى للهمذانى ص ٤١٠ ، والكامل ٧/٣٧٨ ، والنجوم ٤/١٣٣ - ١٣٤) .

(٢٥٤) هو فنا خسرو بن ركن الدولة أبى على الحسن بن بويه الديلمى . ولى سنة ٣٦٧هـ ، وتوفى ٣٧٢هـ بالعراق . (وفيات الأعيان ٤/٥٠ - ٥٥) .

(٢٥٥) الكامل ٧/٤٣٦ .

(٢٥٦) أحسن التقاسيم ص ١٧٥ .

(٢٥٧) المصدر السابق ١١١ .

(٢٥٨) كتاب (المقدسى) للدكتور فلاح شاكر ص ١٣٤ .

(٢٥٩) أحسن التقاسيم ص ١٧٥ .

(٢٦٠) كتاب (المقدسى) د. فلاح شاكر ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٢٦١) أحسن التقاسيم ص ١٦٦ - ١٦٧ ، ١٦٩ - ١٧١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ .

(٢٦٢) السابق ١٢٩ ، ١٧٠ .

(٢٦٣) السابق ١٧٧ .

(٢٦٤) السابق ١٥٨ ، ١٦٧ ، ١٩٧ - ١٩٨ .

(٢٦٥) السابق ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٢٦٦) السابق ص ١١١ .

(٢٦٧) السابق ص١٢٥ ، ١٢٩ .

(٢٦٨) كتاب (المقدسى) د. فلاح شاكر ص ١٠٣ - ١٢٧ .

(٢٦٩) أحسن التقاسيم ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢٧٠) المصدر السابق ص ٨٢ .

(٢٧١) السابق ١٤٤ - ١٤٥ .

(٢٧٢) السابق ص١٣٩ - ١٤٠ .

(٢٧٣) السابق ص١٦٩ .

(٢٧٤) السابق ص ٨٦ ، ٩٢ ، ١١٤ - ١١٥ ، ١٢٨ ، ١٥٤ - ١٥٦ ، ١٧٣ ، ١٩٧ .

(٢٧٥) السابق ١٦٧ ، وكتاب (المقدسى) د. فلاح شاكر ١٤٧ - ١٤٨ .

(٢٧٦) أحسن التقاسيم ٧١ - ٧٢ ، ١١٨ - ١١٩ ، ١٨٠ - ١٨١ .

(٢٧٧) المصدر السابق ٨٣ ، ١٢٥ ، ١٦٩ ، ١٨٦ .

(٢٧٨) السابق ص٩٣ - ٩٤ ، ١١٥ ، ١٢٩ ، ١٥٦ ، ١٧٤ ، ١٩٨ . وراجع (المقدسى) د. فلاح شاكر ص ١٥٧ - ١٦١ (وما يقابل المكاييل والأوزان الآن ص ١٦٢ - ١٦٧) . وراجع ما يتصل بالنقود ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٢٧٩) أحسن التقاسيم ص ٨٤ ، ١١٢ .

(٢٨٠) السابق ص ١٥٧ ، ١٩٧ .

(٢٨١) السابق ص١٦٨- ١٦٩ (الدور فى الفسطاط اربع طبقات وخمس طبقات ويسكن الدار نحومائتى نفس ، والناس كالجراد ، هكذا رآهم الحسن بن أحمد القرمطى ، فهاله ما رأى ، فقيل له : هؤلاء نظارة فقط ، وما لم يخرج أكثرهم) .

(٢٨٢) السابق ص٩٧ (جفاء أهل مكة ، وظرف أهل اليمن ، وتطفيف وتخسير وفسق أهل عمان ، ٩٩ (نحافة وقناعة سكان شبه الجزيرة العربية ، وأكتفاؤهم بالخفيف من الثياب)، ص ١٦٩ (أهل مصر وخوفهم من القحط ، وتربصهم البلاء ، وإشرافهم على الجلاء ؛ خوف انقطاع النهر) .

(٢٨٣) السابق ص١١٥ ، وعن الحمامات راجع ص ٨٤ ، ١٢٥ ، ١٧٧ .

(٢٨٤) السابق ص ١٥٦ .

(٢٨٥) السابق ص ٩٤ ، ١٩٧ .

(٢٨٦) السابق ٩٤ ، ٩٥ (زينات فوق المنازل ، ونصب للقباب ، وتزيين للأسواق) .

(٢٨٧) السابق ١٦٩ .

(٢٨٨) السابق ص٤٤- ٤٦ ، ١٩٦ - ١٩٧ .

(٢٨٩) السابق ص ٤٦ ، ٩١ ، ١١٤ ، ١٢٦ - ١٢٧ ، ١٥٤ ، ١٧٢ ، ١٩٧ .

(٢٩٠) السابق ص٩٦ ، ١١٦ ، ١٢٦ .

(٢٩١) السابق ص ١١٢ .

(٢٩٢) السابق ص ١٧٤ .

(٢٩٣) السابق ص ٩٠ - ٩١ ، ١١٤ ، ١٢٩ ، ١٧٢ ، ٢٠٠ .

(٢٩٤) السابق ص ١٥١ .

(٢٩٥) السابق ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٢٩٦) جـ٣/١٩٤ ، ١٩٦ ، ٤٦٤ ، جـ٤ /١٧١ ، ٥١٦ ، ٥/١٩٦ ، ٣٢٦ . ويلاحظ أنه سمى كتاب المقدسى (أخبار بلدان الإسلام) . ونقل عنه فى (معجم الأدباء) ٣/٨٦ ، وسماه (كتاب البلدان) . وتجدر الإشارة إلى أن د. حسين مونس ذكر أن كتاب الروض المعطار) للحميرى حافل بالنقل عن المقدسى وغيره ، لكن صاحبه لم يكن يصرح بمصادره . (تاريخ الجغرافية والجغرافيين) ٥٣٨ .

(٢٩٧) الحضارة الإسلامية فى ق ٤ هـ ، لآدم متز (من الترجمة العربية - طبعة ١٩٤١) جـ٢ ص ٤ .

(٢٩٨) المرجع السابق ص ٧ .

مصادر ومراجع البحث(*)

*** القرآن الكريم :**

- **أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم** : لأبى عبد الله محمد بن أبى بكر البناء المقدسى (المتوفى أواخر ق ٤هـ) . دار إحياء التراث العربى - بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م . وضع مقدمته ، وهوامشه ، وفهارسه : : د. محمد مخزوم .

- **الأخبار الطوال** : لأبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى (ت ٢٨٢هـ) . سلسلة (تراثنا) . نشر : وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، د. ت . تحقيق : عبد المنعم عامر . مراجعة : د. جمال الدين الشيال .

- **الأعلام** : لخير الدين الزركلى ، الطبعة التاسعة ، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٩٠م .

- **الأنساب** : الإمام أبى سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمى السمعانى (ت ٥٦٢هـ) . الطبعة الأولى ، ملتزم الطبع والنشر والتوزيع دار الجنان - بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م . تقديم ، وتعليق : عبد الله عمر البارودى .

- **البداية والنهاية** : أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى (ت ٧٧٤هـ) الطبعة الأولى ، دار الريان للتراث بالقاهرة ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ . دقق أصوله، وحققه : د. أحمد ملحم ، وآخرون .

(*) القرآن الكريم هو المصدر الأول ، ويوضع على رأس القوائم . ويتم ترتيب المصادر والمراجع معاً ترتيباً هجائياً حسب عنوا الكتاب ، مع إسقاط (ال) من الترتيب ، ويتم إفراد المراجع الأجنبية وحدها فى نهاية المصادر والمراجع العربية .

- **البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب** : لابن عذارى المراكشى (توفى حوالى نهاية ق ٧هـ) ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة - بيروت ، ضمن سلسلة (المكتبة الأندلسية) رقم (٢٢) ، ١٩٨٣م . تحقيق ، ومراجعة : ج . س . كولان ، أ. ليفى بروفنسال .

- **تاريخ الأدب الجغرافى العربى** : تأليف : كراتشوفسكى . طبعة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٣م . ترجمة إلى العربية : صلاح الدين عثمان هاشم .

- **تاريخ الأدب العربى** : لكارل بروكلمان . نشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م .نقل الكتاب إلى العربية : أ . د. عبد الحليم النجار ، وآخرون . الإشراف على الترجمة العربية : أ. د. محمود فهمى حجازى .

- **تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس** : ، للدكتور حسين مؤنس . الطبعة الثانية ، طبعت بعناية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٦م .

- **تاريخ الخلفاء** : لجلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين السيوطى (ت ٩١١هـ) الطبعة الأولى ، دار القلم - بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م . حققه ، وقدم له ، وخرج آياته ، قاسم الشماعى الرفاعى ، ومحمد العثمانى .

- **تاريخ الرسل والملوك** : لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ) ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٧م ، تحقيق : محمد أبى الفضل إبراهيم .

- **تكملة تاريخ الطبرى** : لمحمد بن عبد الملك الهمذانى (ت ٥٢١هـ) . الطبعة الثانية ، دار المعارف بالقاهرة (نشر ضمن ذيول تاريخ الطبرى فى جـ١١ منه)، ١٩٨٢ م . تحقيق : محمد أبى الفضل إبراهيم .

- **الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى** : لآدم متز ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م . نقله إلى العربية : محمد عبد الهادى أبو ريدة .

- **الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية** : للدكتور محمد ضياء الدين الريس ، الطبعة الخامسة ، مكتبة دار التراث بالقاهرة ، ١٩٨٥م .

- **سنن ابن ماجة** : للحافظ أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى (ت ٢٧٥هـ)، مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، د. ت . حقق نصوصه ، ورقم كتبه ، وأبوابه، وأحاديثه ، وعلق عليه : محمد فؤاد عبد الباقى .

- **السيرة النبوية** : لأبى محمد عبد الملك بن هشام المعافرى (ت ٢١٨هـ) . الطبعة الثانية ، ملتزم الطبع والنشر : مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبى ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م . حققها ، وضبطها وشرحها ، ووضع فهارسها : مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى .

- **الفهرست** : لأبى الفرج محمد بن ابى يعقوب إسحاق المعروف بـ (ابن النديم) (ت حوالى سنة ٣٧٧هـ) . الناشر : دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت ، د. ت .

- **الكامل فى التاريخ** : لأبى الحسن على بن أبى الكرم الشيبانى (ابن الأثير المتوفى ٦٣٠هـ) . الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م . راجعه وصححه : د. محمد يوسف الدقاق .

- **كشف الظنون** : لحاج خليفة (ت ١٠٦٧هـ) . طبعة : دار العلوم الحديثة - بيروت ، د. ت.

- **لسان العرب** : لجمال الدين بن منظور (ت ٧١١هـ) . نشر : دار المعارف بمصر ، د. ت. تحقيق : نخبة من العاملين بدار المعارف .

- **المسالك والممالك** : لأبى القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بـ (ابن خرداذبه) المتوفى حوالى (٣٠٠هـ) . نشر : دى غويه (صورته . ونشرته :مكتبة الثقافة الدينية) د. ت .

- **المسالك والممالك** : لإبراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى (توفى فى النصف الأول من ق٤ هـ) سلسلة (تراثنا) ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ١٣٨١هـ / ١٩٦١م . تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحينى . مراجعة : محمد شفيق غربال .

- **مصر فى عصر الإخشيديين** : للدكتوره سيدة إسماعيل كاشف . نشر فى سلسلة (تاريخ المصريين برقم ٢٩) . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩م.

- **معجم الأدباء** : لياقوت بن عبد الله الحموى (ت ٦٢٦هـ) . الطبعة الثالثة ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨٠م .

- **معجم البلدان** : لياقوت بن عبد الله الحموى (ت ٦٢٦هـ) . الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م . تحقيق فريد عبد العزيز الجندى .

- **معجم المؤلفين : تراجم مصنفى الكتب العربية** : لعمر رضا كحالة ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

- **المعجم الوسيط** : إعداد ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ، مطابع الأوفست بشركة الإعلانات الشرقية ١٩٨٥م .

- **المقدسى** : للدكتور فلاح شاكر أسود . سلسلة (نوابغ الفكر العربى ، الطبعة الأولى ، دار الشئون الثقافية العامة بالعراق - بغداد ١٩٨٨م .

- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** : لتقى الدين أحمد بن على المقريزى (ت ٨٤٥هـ) ، الطبعة الثانية . الناشر : مكتبة الثقافة الدينية ١٩٨٧م .

- نبذ من كتاب الخراج وصنعه الكتابة) لأبى الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى (ت ٣٢٠هـ) . نشر : دى غويه (صورته ، ونشرته : مكتبة الثقافة الدينية فى نفس مجلد كتاب ابن خرداذبه) د. ت .

- **نهاية الأرب فى فنون الأدب** : لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى (ت ٧٣٣هـ) ، الجزء الخامس والعشرون ، مركز تحقيق التراث بالهيئة المصرية العامة الكتاب ، ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م . تحقيق جابر عبد العال الحينى ، مراجعة د. عبد العزيز الأهوانى .

- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** : لأبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان (ت ٦٨١هـ) . دار صادر - بيروت ، د. ت . حققه : د. إحسان عباس .

1 - M. Miquel : AL - Mukaddasi, published in the Encyclopaedia of Islam (New edition), Leiden - New York, vol.7, 1993.

2 - Maqdisi, al, published in the new Encyclopaedia Britanniica, Chicago, U. S. A., vol.7, 1985.

المنهج التاريخى للحافظ أبى الطاهر السِّلَفى في تأليف كتابة « معجم السَّفر »

د. هشام عطية عطية أحمد(*)

زخرت الحضارة الإسلامية على مدى تاريخها الطويل بالعديد من العلماء ورجال الفكر الذين أثروا تراثها الحضارى فى مختلف ميادين العلم والمعرفة ، أفنوا أعمارهم المديدة في مجال البحث والدراسة المتعمقة . ولم يدخروا وسعاً في سبيل تحصيل العلم وتقديمه لطالبيه .

وجدير بنا ونحن نقتفى آثار أولئك السلف الصالح ، ونترسم خطاهم ، ونفيد من علومهم وما جادت به قرائحهم . أن نكون أوفياء لهم ، فنقدرهم حق قدرهم ، ونحيى بالدراسة ذكراهم ونعرف الأجيال بنتاجهم ومكانتهم ، وما أسهموا به فى خدمة تاريخنا الإسلامى .

ومن بين أولئك الأعلام :

الإمام الحافظ أبو الطاهر السلفى . أحد الشخصيات البارزة التى أسهمت بجهد وافر فى مجال علم التاريخ خلال القرن السادس الهجرى .

وكتاب « معجم السفر » ، الذى نحن بصدد الحديث عنه يعد واحداً من أهم وأبرز الكتب التى قام السلفى بتأليفها فى مجال علم تاريخ الرجال «أو ما اصطلح على تعريفة بين جماعة المؤرخين » بتاريخ السير والأعلام .

وسوف تتركز دراستى - بمشيئة الله تعالى وعونه - فى هذا البحث فى بيان المنهج التاريخى الذى سلكه السلفى فى تأليف كتابة « معجم السفر » ، وقد مهدت لذلك بالحديث عن حياة السلفى وطلبه للعلم بصورة موجزة ، ثم توثيقة

(*) مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية - كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر بالمنصورة .

وعدالته من قبل علماء الجرح والتعديل الذين أرخوا لحياته ، ثم توضيح مكانته التاريخية ، مع عرض موجز لجهوده العلمية فى هذا الميدان ، ثم تطرقت للحديث عن عدة مسائل هامة مرتبطة أشد الارتباط بمنهجه ، منها : نسبة الكتاب إليه ، وبيان الكيفية التى وصل بها إلينا فى صورته الحالية . وأخيرا عرضت لمنهجه فى تأليف الكتاب ، وغير ذلك من مسائل جاءت مبسوطة فى ثنايا البحث .

السلفى - حياته - طلبه للعلم :

هو : أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم سلفة (١) الأصبهانى . وكان مولده بـ « جرواءان »(٢) سنة (٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م) وقد أوردت المصادر ما يؤيد صحة هذا التاريخ على لسان السلفى نفسه، حيث كان دائما يردد« أنا أذكر قتل نظام الملك الوزير (٣) الذى وقف المدرسة النظامية ببغداد فى سنة (٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م) وكان عمرى عشر سنين » (٤) كذلك كان السلفى يحكى عن نفسه أنه حدث سنة (٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م) وما فى وجهه شعره وأنه كان ابن سبع عشرة سنة (٥).

واللقب الذى اشتهر به منذ ذلك الحين ، وأصبح علما عليه وحده ، هو «السلفى» بكسر السين وفتح اللآم ـ نسبة إلى لقب جد جده « إبراهيم » الذى كان يطلق عليه اسم سلفة(٦) . وإذا انتقلنا إلى بيئة السلفى نرى أن والده محمداً كان رجلاً صالحاً من العلماء المتصوفين المشهورين بالثقة ، وصفه ابن كثير بقوله « أبو أحمد كان شيخا عفيفا ثقة سمع الكثير » (٧) .

وتربى السلفى فى كنف أبيه منذ صباه ثم ارتحل لطلب العلم وعمره أقل من عشرين عاما . ومن يتتبع رحلته فى هذا المجال يندهش لهذه العزيمة التى امتاز بها والتى لا تعرف الكلل ولا تقف عند مطمح ، ذلك أنه جاب الكثير من البلاد طولا

وعرضا للقاء المشايخ أصحاب الأسانيد العالية ، ببغداد والحجاز والشام ، وسمع الكثير ببلدان المشرق الإسلامى وغيرها ، حتى صار طالبا للعلم من الطراز النادر . ويكفى ما قاله الذهبى عنه « وبقى فى الرحلة بضع عشرة سنة ، وسمع مالا يوصف كثرة »(٨) .

ولاشك فى أن هذه الرحلة الواسعة أكسبت السلفى علما غزيرا ومعرفة واسعة ، فأتقن علوما كثيرة من بينها : علم القراءات والحديث والفقه على المذهب الشافعى ، وتقويم البلدان ، والتاريخ ، والأدب واللغة (٩) .

واستقر به المقام أخيرا بمدينة الإسكندرية ، وذلك فى سنة (٥١١ هـ / ١١١٧ م) فاستوطنها بضعا وستين سنة ، ينشر فيها العلم ، حتى توفى بها سنة (٥٧٦هـ / ١١٨٠م) وما خرج منها سوى مرة واحدة إلى القاهرة للأخذ عن كبار العلماء فيها (١٠).

وقد ذاعت شهرة السلفى بالإسكندرية ، واكتسب تقدير أهلها وحبهم ، حتى علا قدره ونبه ذكره ، وأفاد بعلمه خير إفادة ، فكان لايكل ولايمل من تحصيل العلم وإفادة طلابه . ولعل خير أمثلة على ذلك ما قاله عنه المؤرخون الثقات . فقد وصفه الذهبى بقوله : « ومن شدة انشغاله بالعلم يروى عنه أنه قال: لى ستون سنه بالإسكندرية ما رأيت منارتها إلا من هذه الطاقة . وأشار إلى غرفة يجلس فيها » (١١) .

ويقول عنه فى موضوع آخر « وكان مكبا على الكتابة والاشتغال بالراوية»(١٢) وذكره اليافعى بقوله : « واستوطن الإسكندرية بضعاً وستين سنة مكبا على الاشتغال والمطالعة والنسخ » (١٣).

واتخذ السلفى من « المدرسة العادلية » التى بناها له الأمير « أبو الحسن على ابن السلار » بالإسكندرية سنة (٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م) (١٤) مكانا للتدريس وإفادة طلاب العلم . وقد أنشئت هذه المدرسة بهدف نشر المذهب السنى ، يقول ابن خلكان عن منشئها « وشد من مذهب أهل السنة فقدم عليه الحافظ السلفى فأكرمه وبنى له مدرسة بالإسكندرية »(١٥) .

ومن العلوم التى كانت تدرس بهذه المدرسة : القراءات ، والحديث ، والفقه وعلى الأخص الفقه الشافعى (١٦) :

• أخلاق السلفى ـ عدالته وسعة علمه ـ مذهبه :

كان للسلفى ـ رحمه الله ـ شخصية متميزة جعلت الكثير يثق فيه ويحترمه ويجله ، فقد كان حليما متواضعا يألف الناس ويألفونه ، ويقبل على الجميع بالتلطف معهم ، والإخلاص لهم ، يقول عنه الذهبى « وكان حليما متحملا لجفوة الغرباء »(١٧)، ويصفه الصفدى بقوله « لا يكاد تبدو منه جفوة فى حق أحد وإن بدأته بادرها حتى لا ينفصل عنه أحد إلا طيب القلب » (١٨).

ومن الآداب التى التزم السلفى بها عند جلوسه لتعليم الحديث أو إلقاء درس من الدروس ، أنه كان ، يجلس من أول المجلس إلى آخره لا يبصق ، ولا يتنخم ، ولا يشرب ، ولا يتورك فى جلوسه ، ولا يبدو له قدم ، وإن بدت غطاها(١٩) . وإذا نظرنا إلى عدالته وسعه علمه ، وما قيل فى شأنه من قبل المؤرخين وعلماء الجرح والتعديل ، نجد أن هناك شبه إجماع بينهم على الثقة به وبعلمه ، وبمدى تحريه وضبطه لما ينقل .

وها هم أولا أبرز العلماء الذين تحدثوا عنه :

قال عنه ابن الآبار الاندلسى « تفرد [أى السلفى] فى الدنيا بالإمامة فى علم الحديث وعلو الدرجة فى الإسناد، وأخذ عنه أهل الأرض جيلا بعد جيل»(٢٠) . وقال عنه ابن خلكان « أحد الحفاظ المكثرين .... و لم يكن فى آخر عمره فى عصره مثله » (٢١) . ووصفه الذهبى بقوله : « كان السلفى جيد الضبط كثير البحث عما يشكل ، وكان أوحد زمانه فى علم الحديث وأعرفهم بقوانين الراوية والتحديث ، جمع بين علو الإسناد وعلو الانتقاء وبذلك تفرد عن أبناء جنسه » .

كذلك وصفه الصفدى ، وصفا جامعا ، كشف لنا فيه عن عالم قلما يجود الزمان بمثله فقال : «كان (السلفى) إماما مقرئا مجودا محدثا حافظا جبهذا ، فقيها مفننا ، نحويا ماهرا ، لغويا محققا ، ثقة فيما ينقله ، حجة ثبتا » (٢٣).

وذكره ابن الجزرى فقال عنه « كان السلفى أعلى أهل الأرض إسنادا فى الحديث والقراءات مع الدين والثقة والعلم »(٢٤)

وأخيرا يقول عنه السيوطى « كان إماما حافظا متقننا ، ناقدا ، ثبتا ، دينا خيرا ، انتهى إليه علو الإسناد ، روى عنه الحفاظ فى حياته ..... وكان أوحد زمانه فى علم الحديث وأعلمهم بقوانين الراوية »(٢٥) .

هذه أشهر الروايات التى وصف بها السلفى من علماء ثقات ، وعلى الرغم من بعض المبالغات التى نلمسها فى بعض الألفاظ التى قيلت فيها ، إلا أنها جاءت مجمعة على أنه كان ثقة فى رواياته متحريا ناقدا صاحب ورع وتدين امتد به العمر حتى أصبح أعلى أهل زمانه إسنادا .

أما عن مذهب السلفي وعقيدته ، فقد اشتهر بأنه كان سني المذهب حسن الاعتقاد متقننا للفقه على المذهب الشافعي ، وشيخه في هذا المجال هو « الكيا الهراسي » البغدادي(٢٦) وكان السلفي دائما ما يعتز بانتسابه إلى مذهب الإمام الشافعي ـــ رحمه الله تعالى ــ وقد سجل ذلك عن طريق بعض الآبيات التي يقول فيها :

إمَامي الشافعي وحين أفتي　　　بمذهبه المهذب طال عيشي

وإني لا أبالي بانفرادي　　　وبقوة حجتي في ألف جيش(٢٧)

ولم يكن السلفي متشددا في مذهبه ، بل كان ذا عقليه متفتحة لا يعميها التعصب ، وآية ذلك أننا نراه ينقل في كتابه بعض الأشعار عن مدح المذهب المالكي وإمامه ، منها رواه مسنداً إلى " ابن العسال " بقوله :

أيا من غدا جاهلا ناسكا　　　إن أحببت أن لا ترى هالكا

فأم إمام الهدى مالكا　　　ولا تك مذهبه تاركا

فمذهبه ناشر من كـ　　　ـفن لمن كان مذهبه في جهله قد دفن(٢٨)

ونراه أيضا يعلق بعض الأشعار الحسنه عن أناس اشتهروا بالتشيع ، ويصرح بذلك ، فيقول مثلا عن " أبي الوفاء صادق بن عبد الله " قاضي الإسكندرية أنشدني لنفسه :

العلم فرع طيب أصله　　　لا شك والعقل له أصل

فارجع إلى العقل وخل الهوى　　　فما لك العقل له الفضل

ويترجم له فيقول : أبو الوفاء هذا كان من أهل الوفاء حسن العشرة عارفا بالأحكام . . . . وكان إسماعيلي المذهب " (٢٩) كذلك بلغ من عدم تعصب السلفي وحسن دينه وحياده ، أن كاتب الزمخشري (٣٠) وهو معتزلي المعتقد يستجيزه في مسموعاته ومصنفاته (٣١).

مكانته التاريخية :

كان للسلفى ميل كبير لدراسة التاريخ وروايته وتدوينه ، والتصنيف فيه ، خاصة علم الرجال أو ما اصطلح على تسميته « بتاريخ السير والإعلام » ، لما لهذا اللون من التأليف من صلة وثيقة بعلم الحديث الشريف الذى كان السلفى متخصصا فيه ، وكرس حياته لخدمته ودراسته .

وسوف نتناول بشىء من التفصيل هذه الجوانب التاريخية من حياة السلفى حتى يمكننا الوقوف على مدى إسهاماته ومكانته فى هذا المجال .

وأول ما نلحظه فى تنفيذ هذا المنهاج هو روايته لكتب الأقدمين المشهورين بالثقة فى تدوين التاريخ الإسلامى أمثال ، المؤرخين : « ابن هشام »« وابن عبد الحكم » فى كتابيها « السيرة النبوية » ، « وفتوح مصر وأخبارها ».

أما عن السيرة النبوية لابن هشام فإن رواية السلفى لهذا الكتاب قد لاقت شهرة كبيرة فى أكثر من بلد (٣٢) وآية ذلك أننا نجد بعض الطلاب الذين سمعوه منه وقرأوه عليه . يحدثون بروايته (٣٣) وبما نسخوه عن الأصل المكتوب بخط يده فى البلاد التى رحلوا إليها ومنها مكة والشام (٣٤) ويعنى ذلك أن الكتاب محاط بأكبر قدر من التثبت والتحرى ، مادام منقولا عن طريق السلفى الذى اشتهر بالصدق والعدالة ، وهذه شهادة تحسب له .

أما عن روايته لكتاب فتوح مصر وأخبارها ـــ للمؤرخ « ابن عبد الحكم » الذى يعد أبرز وأهم وثيقة تاريخية عن الفتح الإسلامى لمصر وقيام دولة الإسلام فيها فنجدها (أى رواية السلفى) مصدرة فى الصفحة الأولى من الكتاب (٣٥) بإسناد متصل بدءا من شيخه « أبى صادق مرشد بن يحيى المدينى » وانتهاء بعلى ابن الحسن المعروف بابن قديد الذى يعتبر أخر من تلقى كتاب فتوح مصر مباشرة كما دون عن صاحبه الأصيل ابن عبد الحكم (٣٦) .

وقد اتضح من خلال هذا الإسناد أن « السلفى » هو الراوى الأخير ، الذى وصلنا عن طريقه كتاب « فتوح مصر وأخبارها » بنصه الحالى ، فهو أخر حلقات الاتصال بيننا وبين ابن عبد الحكم مدون الراوية وصاحبها(٣٧) .

ومع ما اشتهر به السلفى من حفظ وتحقيق وعدالة ، فضلا عن تعمقه فى مجال الجرح والتعديل ، فإننى أرجح الرأى القائل : بالاطمئنان والثقة إلى أن كتاب فتوح مصر بنصه الحالى مطبوع بطابع عميق من التثبت والصحة والضبط مع خلوه من أى دس أو لبس (٣٨) .

وأزيد على ذلك بقولى : أننا مدينون لهذا الرجل العظيم (السلفى) بالفضل ، إذ لو لا أن قيده الله تعالى لهذا العمل ، لكان من الجائز جدا أن تحوم الشبهات وتتدخل الاساطير فى أقدم وأنفس وثيقة وصلتنا عن الفتح الإسلامى لمصر .

ومن الكتب التاريخية التى رواها السلفى أيضا : كتاب « فضائل مصر وبيت المقدس والشام » للمؤرخ عمر بن يوسف الكندى (ت٣٥٠هـ / ٩٦١م)(٣٩) كذلك من مجهوداته المشكورة وإسهاماته فى علم التاريخ ، مختصراته لبعض الكتب المشهورة مثل « مختصر كتاب تاريخ بخارى » لمحمد بن أحمد البخارى (ت ٤١٢ هـ / ١٠٢١ م) (٤٠) .

« وكتاب تاريخ طرابلس » لأبى الحسن على بن عبد الله الطرابلس (ت٥٢١ هـ / ١١٢٧ م) وذكره السلفى فى كتابه « معجم السفر » بقوله : «أبو الحسن هذا كان من بين الصلاح ... وكان له اهتمام بالتواريخ وصنف لطرابلس تواريخ وقفت عليه وانتخبت منه ما استغربته وحدثنى به » (٤١) .

وإلى جانب ذلك قام السلفى بانتقاء بعض المصنفات من كتب التاريخ ، وتحقيقها والتعليق عليها والتدريس منها . من أشهرها : كتاب « الإرشاد إلى معرفة علماء الحديث والبلاد » لأبى يعلى الخليل بن عبد الله القزوينى (ت٤٤٦ هـ / ١٠٥٤م) (٤٢) .

• أما عن أهم الكتب التاريخية التى قام السلفى بتألفيها فهى على النحو التالى :

« معجم أصبهان » أو « المشيخة الإصبهانية » وهذا المعجم عبارة عن تراجم جمعها السلفى عن شيوخه بمدينة أصبهان وهم يزيدون على ستمائة شيخ . يقول الذهبى : « وله معجم لمشيخة أصبهان فى مجلد أزيد من ستمائة شيخ »(٤٣) ووصفه السبكى بقوله : « وعمل معجما حافلا لشيوخه الإصبهانيين »(٤٤) وهذا الكتاب مفيد لدارسى تاريخ الحركة الأدبية والفكرية لمدينة أصبهان خلال القرن الخامس الهجرى.

« معجم بغداد » أو « المشيخة البغدادية » قام السلفى بتأليفه لشيوخه الذين أخذ عنهم ببغداد ، وأورد ذكره ضمن كتابه « معجم السفر » (٤٥) ومعجم بغداد لاغنى عنه للمشتغلين بتاريخ الحركة الفكرية ببغداد فى أواخر القرن الخامس الهجرى .

• أما أخر هذه المعاجم وأهمها وأشهرها ذكراً فهو « كتاب معجم السفر» الذى نحن بصدد الحديث عنه ، وقد ذكره السخاوى ضمن كتابه «الإعلان بالتوبيخ » (٤٦) وسوف اقتصر على ذلك فى الإشارة إليه ، كى أخصه بمزيد من التفصيل بعد قليل .

ولم تقف مجهودات السلفى فى التأليف التاريخى عند هذا الحد ، بل ترك لنا عددا أخر من المؤلفات عبارة عن تراجم مفردة - لبعض العلماء الذين تأثر بهم - واصطلح على تعريفها « بالسير الذاتية » من أشهرها :

• كتاب : « ترجمة حياة محمد بن أحمد الأبيوردى » المعروف بأبى المظفر(٤٨) .

• ترجمة : « حياة أبى نعيم الأصبهانى » قال عنه الذهبى قد جمع ... السلفى أخبار أبى نعيم وذكر من حدثه عنهم وهم نحو ثمانين رجلا (٤٩) .

وبعد فهذه هى أبرز إسهامات السلفى فى ميدان علم التاريخ ، ما بين رواية لكتب المؤرخين الأقدمين المشهورين بالثقة ، ومختصرات لبعض الكتب وانتقاء المستغرب منهما وتحقيقه ، ثم مؤلفاته القيمة فى مجال علم الرجال أو السير والإعلام الذى كان فارسه المجلى خلال القرن السادس الهجرى .

والآن يأتى دور الحديث عن أهم وأبرز الكتب التى ألفها ، وهو كتاب «معجم السفر» .

نسبة الكتاب إلى السلفى :

لا يدور أدنى شك حول نسبة كتاب « معجم السفر » إلى السلفى ، فقد أجمع أكثر من مؤرخ موثوق به على نسبته إليه . من بينهم :

« ابن خلكان » الذى أشار إليه فى كتابه « وفيات الأعيان » فى أكثر من موضع نقل فيه عن السلفى (٥٠) .

وها هو ذا أحد الأمثلة :

يقول ابن خلكان فى ترجمته لأبى الحسن على بن محمد المعروف بابن القابسى « وذكر الحافظ السلفى فى « معجم السفر » أن شخصا قال فى مجلس القابسى وهو بالقيروان .... »(٥١) .

وبمقارنة ذلك المثال على ما ورد بالنسخة المطبوعة لكتاب «معجم السفر»، والتى اعتمدت عليها هذه الدراسة وجدت أنهما متطابقتان تماما مما يوضح أن الكتاب للسلفى (٥٢) .

وهناك أيضا ما ذكره « الذهبى » فى كتابه « تذكرة الحفاظ » بقوله : « وله (أى للسلفى) معجم لباقى البلاد سماه « معجم السفر »(٥٣) بالإضافة إلى ما أورده فى كتابه سير اعلام النبلاء بقوله « وقد جمعوا له من جزازة وتعاليقه " معجم السفر "فى مجلد كبير »(٥٤) .

وأخيرا يؤكد السخاوى على نسبة الكتاب للسلفى ، ليس هذا فحسب بل نراه يصنف كتابه ضمن أهم المؤلفات التاريخية فى التراجم تحت باب« الرواة المعتمدون أو المصنفون » ، يقول السخاوى « ومعجم السفر . للسلفى وهو فى مجلد كثير الفوائد »(٥٥) . وفى باب « المعاجم والمشيخة » يؤكد السخاوى مرة أخرى على ذلك بقوله : « ... ومنهم السلفى له ... معجم السفر »(٥٦) . وعلاوة على هذه المصادر ، فأن الكتاب الذى بين أيدينا نشر عن نسخ خطية معترف بها فى أكثر من خزانة لكتب التراث فى أنحاء العالم ، منها نسخة محفوظة فى مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة رقم ١٧٦ حديث ، وهى التى اعتمدها المحقق فى طبع الكتاب (٥٧).

• هل « معجم السفر » هو ذاته معجم الشعراء ؟

ذكر « كارل بروكلمان » فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » أن للسلفى معجما بعنوان « معجم الشعراء » وقد نقل ذلك عن ياقوت الحموى من كتابه الشهير « إرشاد الأريب أو معجم الأدباء » (٥٨) .

وهذا المعجم المذكور لم أجد له شبيها بهذا الاسم ضمن المصادر التى اطلعت عليها سوى فى كتاب « معجم الأدباء » فالمشهور والمتواتر فى المصادر التاريخية الأخرى أن للسلفى ثلاثة معاجم فقط هى : معجم أصبهان ، ومعجم بغداد ، ومعجم السفر (٥٩) .

فكيف انفرد إذا ياقوت الحموى بذكر هذا المعجم دون سواه من المصادر التاريخية الأخرى ؟

وللإجابة نقول : لقد اتضح من خلال المقارنة بين ما صرح به ياقوت فى معجم الأدباء بالنقل من معجم الشعراء وبين ما دونه السلفى بكتاب « معجم السفر » أن ما نقله ياقوت هو ذاته ما وجد مدونا « بمعجم السفر » دون أدنى تبديل أو تغيير (٦٠) وعلى سبيل المثال :

ذكر ياقوت فى ترجمة « الحسن بن أحمد بن على الفارسى » ما نصه : «قرأت فى معجم الشعراء للسلفى : أنشدنى أبو جعفر أحمد بن محمد بن كوثر المحاربى الغرناطى بديار مصر قال : أنشدنى أبو الحسن على بن أحمد بن خلف النحوى لنفسه بالأندلس فى كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى :

أضع الكرى لتحفظ الإيضاح وصل الغدو لفهمه برواح

إلى أخر الأبيات (٦١) .

ونص ما ذكر موجود بتمامه فى كتاب « معجم السفر » المطبوع الذى بين أيدينا ص ٣٩ ــ ٤٠ .

وغير ذلك فهناك أكثر من مثال يتمشى مع هذا النمط (٦٢) .

وإزاء ذلك فإننى أرجح احتمالاً واحداً وهو : أن كتاب معجم الشعراء الذى انفرد بذكره ياقوت هو نفسه كتاب « معجم السفر »

ومما يجعلنى أرجح هذا الاحتمال عدة أمور :

أولها : أن ياقوت هو الوحيد من بين جميع المصادر التى اطلعت عليها هو الذى نسب هذا الكتاب للسلفى .

ثانيها : أن ما نقله هو ذاته ما وجد فى « معجم السفر » .

ثالثها : أن الاسم الأخير للكتاب وهو « معجم السفر » هو الذى ظل مشهوراً وتناقله الخلف عن السلف حتى يومنا هذا .

وبناء على ما تقدم فإن ياقوت قد جانبه الصواب فى تحديد الاسم الأصلى للكتاب بيد أنه من باب الإنصاف أن نذكر أن كتاب « معجم السفر » قد ضمنه صاحبه السلفى الكثير من الأشعار ، حتى أنه يخيل للقارئ أن كل من التقى بهم السلفى وجمعهم فى معجمه هذا من الشعراء (٦٣) .

ويبدو أن كارل بروكلمان ، اعتمد على ما نقله ياقوت دون تمحيص أو تحليل . وثمة ملاحظة أخرى جديرة بالتسجيل فى هذا الصدد وهى : أن أحد المستشرقين ذكر – فى مقال له نقل فيه بعض الأخبار الخاصة بمسلمى صقلية عن كتاب « معجم السفر » – أن كارل بروكلمان لم يصنف فى كتابه « تاريخ الأدب العربى « معجم السفر » من بين مؤلفات السلفى التى ذكرها (٦٤) .

ويعلق على ذلك فى موضع آخر فيقول « ربما جهل بروكلمان وجوده » (٦٥) .

والحقيقة أن هذا المستشرق يشترك مع بروكلمان فى عدم الإحاطة بهذا الكتاب « معجم الشعراء » ، و بالتالى فإنه لم يدرك أن معجم الشعراء ما هو إلا « معجم السفر » .

•كيف وصل إلينا كتاب « معجم السفر » ؟ :

ورد فى صدر الصحيفة الأولى من مخطوطة « معجم السفر » المحفوظة فى مكتبة عارف حكمت والمعتمدة لدى المحقق النص الآتى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله على آلائه وصلواته على محمد خاتم أنبيائه ، وعلى آله وأصحابه وأصفيائه وسلم كثيرا وبعد ، فإن جزازات من معجم السفر وقعت بخط الحافظ أبى طاهر أحمد بن محمد الاصبهانى رضى عنه فبيضتها ورتبتها كما يجب ، والله أسأل النفع بذلك إنه رحيم كريم » (٦٦) .

ويتضح من هذا النص عدة أمور على جانب كبير من الأهمية : أفصلها على النحو التالى :

أولا : أن كلمة « جِزَازَات » الواردة جمع جِزَازَة من كل شئ ما قطع منه فهى مأخوذة من جَزَّ بمعنى قطع (٦٧) . وغاية ما نستطيع أن نفهمه من ذلك أن كلمة « جزازات » عبارة عن قطع من الورق أشبه بمسودات أو صحائف صغيرة تكتب لأول مرة ثم تنقح وتحرر وتبيض (٦٨) ومعنى هذا أن السلفى - رحمه الله - اتبع هذه الطريقة فى تدوين كتابه ، فكان يسجل ما يسمعه أو يعرفه من تعليقات - على عدة مراحل بما يشبه الكشف المتدرج - فى بطاقات أو صحائف، على أن يعاود تنظيمها وضبطها فى مواضعها ، وهذه الطريقة تتطلب أن يترك المؤلف فراغات واضحة بمسوداته لما قد يضيفه من معلومات طارئة أو متجددة(٦٩) وهذا ما وجدناه متبعا فى كتاب « معجم السفر » فالكثير من التراجم التى أوردها السلفى جاءت ناقصة وبها فراغات واضحة . وعلى سبيل المثال لا الحصر:

يقول السلفى : « أنشدنا أبو محمد بن توهيب الوراق لنفسه .... » (٧٠) ثم نرى بعد ذلك فراغا ولا نجد شعرا لابن توهيب . وعلى هذا يمكننا قياس الكثير من التراجم والأخبار التى وردت فى المعجم (٧١) .

وهناك أيضا سبب آخر جعل الكتاب به ثغرات كبيرة لم تكتمل ـ بناء على الطريقة التى اتبعها السلفى - وهو : أن مجموعات كبيرة من التعليقات التى دونها عن شيوخه كان قد تركها وديعة فى بعض البلاد التى زارها أثناء رحلته ، على أمل أن يهيئ الله له إحضارها بطريقة أو بأخرى . غير أن هذا الأمل لم يتحقق ، ولم يمهله القدر فى إحضارها ووضعها فى كتابه ، ولذلك جاءت معظم ترجماته فى « معجم السفر » ناقصة .

ويمكننا أن نتبين هذا من خلال الإشارات الكثيرة التى أوردها فى ثنايا كتابه والتى تفيد أيضا أن هذه المجموعات كانت ذات قيمة كبيرة لديه .

وها هى ذى بعض النماذج :

يقول السلفى فى ترجمته للفقيه شريف بن فياض « وقرأت عليه أحاديث.... وهى مودعة فى جملة ما أودعته بثغر آمد » (٧٢) .

وفى ترجمته « لشفاء بن عبد الجبار » يقول :« وما كتبته عنه فى جملة ما خلفته بثغر سلماس مودعا » (٧٣) .

وفى ترجمة عبد الله بن الحسين يقول :« وما كتبته عنه ففى جملة الأجزاء المودعة بسلماس أوصلها الله تعالى إلى بكرمه » (٧٤) .

وذكر فى ترجمته « لـ عبد الله بن أبى نصر الشيرازى » « وعلقت عنه من حكايات الشيوخ وهى كلها فى جملة الأجزاء المودعة بسلماس جمعها الله على قبل الممات بفضله وكرمه » (٧٥).

وفى ترجمة « على بن السند » يقول : « ولم أظفر الآن بما كتبته عنه فهو بثغر آمد مع فوائد ديار بكر مودع سهل الله وصول الكل إلىّ »(٧٦) .

ولا أطيل بذكر هذه الأمثلة العديدة(٧٧) وحسبى أن يكون فيما أوردته بيانا على أن الكثير من أجزاء هذا الكتاب لم تدون ، والتـى تركـت معهـا ثغـرة كبـيرة جعلت الكتاب يبدو ناقصا من نواحى كثيرة (٧٨) .

وهذه النقطة تحيلنا إلى تساؤل على جانب كبير من الأهميـة ، وهـو : متـى انتهى السلفى من تدوين كتابه ؟

والإجابة على هذا التساؤل تبدو عسيرة بعض الشئ ، لأن آخر تاريخ صرح به السلفى فى معجمه كان سنة ٥٦٣ هـ(٧٩) مما يعنى أنه وقف فى تدوين كتابـه عند هذا التاريخ .

بيد أن ذلك الحكم يؤخذ بتحفظ ، لأن السلفى توفى سنه ٥٧٦ هـ . ومن المستبعد أن يظل ثلاثة عشرة سنة لا يدون فيها شيئا عن شيوخه سواء الذين كـانوا بالإسكندرية أو الوافدين عليها ، خاصة بعد ما عرفنا من المصادر أنـه ظـل متمتعـا بالصحة والحواس السليمة ودقة الملاحظة حتى آخر ليلة من وفاتـه . ويؤكـد ذلـك الذهبى بقوله : « وحدث ليلة موته ، وهو يرد اللحن الخفى على القارئ ، وصلى الصبح ومات فجأة » (٨٠) .

وهذا يجعلنى أعتقد أن السلفى لم يتوقف فـى كتابـه عنـد سنة ٥٦٣ هـ . ولعل ما يقوى هذا الاعتقاد ويرجحه أنه أورد تراجم فى كتابه « معجـم السـفر » لبعض الرجال الذين عاصرهم وقابلهم عاشوا بعد هذا التاريخ بمـدة . وقـد وجدنـا تاريخ وفاتهم مدون فى المصادر الأخرى ، منهم على سبيل المثال :

« اليسع بن عيسى بن حزم الغافقى الأندلسى»(ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م)(٨١) و «عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى اليـابس»(ت٥٧٢هـ/١١٧٦م)(٨٢) و « أبـو الطاهر إسماعيل بن عوف » ، (ت ٥٨١هـ ١١٨٥ م) (٨٣) .

والذى يمكن أن نستخلصه أخيراً بعـد هـذا العرض هـو : أن السـلفى جمع أجزاء كثيرة من مادة كتابه ، ولكنه لم يتمها علـى الوجـه الأمثـل الـذى أراده هـو

وأردناه نحن ، بل ظل نمو جمعه للمادة العلميــة يطرد مـع الأيـام لم يصـل فيهـا إلى نهاية محددة تنتهى بتاريخ معين . و لم يمهله القدر ليدون ما جمعه فى كتـاب خـاص بذاته مرتب ومبوب عن طريقه هو ، بل ظلت مادة كتابه علـى هيئـة مسـودات أو صحائف أو ما أطلق عليه « جزازات » إلى أن هيأ الله تعالى مـن يقـوم مـن بعـده بجمعها وترتيبها ثم نسخها فى شكل كتاب .

ومن هنا نصل إلى « ثـانى الأمـور » المتعلقـة بمـا ورد فـى صـدر الصحيفـة الأولى من المخطوط الذى طبع عنه الكتاب الذى بين أيدينـا . وهـذا الأمـر متعلـق باسم الناسخ الذى قام بتبييض وترتيب هذه الجزازات .

وبما أن النص لا يشير إلى اسم الناسخ ، فقد وجدنـا مـا يدلنـا عليـه ، وهـو السخاوى فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ » . يقول السـخاوى « ومعجـم السـفر ، للسلفى وهو فى مجلد كثير الفوائد بخط محمد بن المنذرى ، قال عن أبيـه الزكـى : أنه وقع له بخط السلفى فى جزازات ، كل ترجمة فى جزازة ، فبيضها ورتبها كمـا تجئ لا كما يجب ، وكذا لم يكن ترتيبه كما ينبغى » (٨٤).

وحلقة الاتصال الأولى كما تبدو من هذا النص شملت الزكى المنذرى بصفته الجامع الأصلى لمسودات السلفى ، والقائم بترتيبهـا . أمـا الحلقـة الثانيـة فهـى ابنـه محمد الذى أوكل إليه المنذرى مهمة نسخ الكتاب . ، ويفسر ذلك قوله « فَبَيَّضَهـا ورَتَّبها كما تجئ لا كما يجب « بالكسرة المشددة فى حرف اليـاء فـى (بيضهـا) والتاء فى (رتِّبها) ومع أن هاتين الكلمتين لم يضبطا بالشكل فى النص الـوارد إلا أن ذلك يتمشى مع سياق الجملـة، فضـلا عـن أنـه يتفـق مـع مـا ورد فـى صـدر الصحيفة الأولى من المخطوط فى قوله « فبيضتها ورتبتها كما تجئ لا كما يجب» بلفظ المتكلم على لسان محمد بن المنذرى ناسخ المخطوط كما بين السخاوى .

ولعل ما يفسر قول المنذرى الوارد فى النص « كما تجئ لا كما يجب » أنـه أضاف إلى جانب ترتيبه لمسودات تراجم السلفى بعض القول والإشـارات ، فـأراد بذلك أن يضع قاعدة لابنه « محمد » يسير عليها عند نسخ الكتاب فلا يشذ عنها.

وربما يكون هذا ما قصده السخاوى من قوله عن المنذرى « وكذا لم يكن ترتيبه كما ينبغى » .

بيد أن الشئ الذى يحسب للمنذرى فى نقوله وإشاراته التى أوردها فى معجم السفر ، أنه أضاف نصوصا بأكملها ، من المرجح أنها ضاعت من أصول السلفى ، وعثر هو عليها مدونه بخطوط أصحابها . ليس هذا فحسب بل كان ينبه القارئ بين ما كتبه السلفى بخطه ، وبين ما كتبه غيره له . وفى كل هذه المواضع كان المنذرى يصرح باسمه ، فإذا ما كان الكلام للسلفى بعد ذلك أبانه بقوله «قال الحافظ» أو « رأيت بخط السلفى » كى يفطن القارئ بين هذا وذاك فلا يحدث التباسا ، والأمثلة على ذلك قليلة فى « معجم السفر » (٨٥) مما يعنى أن مداخلات المنذرى كانت بغرض حفظ تراث السلفى وإثباته .

كذلك يحسب « للمنذرى » ترتيبه وتنسيقه للكثير من الورقات التى قام السلفى بتعليقها ولم يضعها فى مظانها . وكان « المنذرى » ينص على ذلك صراحة مكتفيا ببعض العبارات مثل « وفى ورقة أخرى » (٨٦) و « بخطه يعنى السلفى يقول » (٨٧) و « قال السلفى فى رقعة أخرى » (٨٨) وهكذا .

وإزاء ذلك فنحن أمام حقيقتين : الأولى : أن المنذرى هو الجامع الأصلى لمسودات « معجم السفر » وصاحب الترتيبات والإضافات التى فيه ، والثانية : أن ابنه محمداً هو الناسخ الذى يمثل الحلقة الرئيسية فى سلسلة توصيل الكتاب إلينا .

فمن هو إذا المنذرى ، وما مدى توثيقه وعدالته ، وكيف استطاع الحصول على مسودات كتاب « معجم السفر » ؟ ومن هو ابنه محمد ، وما مدى عدالته ؟

ولاريب فى أن الإجابة على هذه الأسئلة سوف تعيننا كثيرا على الاطمئنان والتثبت من أصول الكتاب ، وبأنه دون فعلا عن صاحبه السلفى .

أما عن المنذرى : فهو : عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله الشهير «بزكى الدين المنذرى» أصله من الشام ، وولد بمصر سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥م ،

ونشأ وتوفى بها سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، أى أنه مصرى المولد والدار والوفاة. وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية بمصر وانقطع بهما مدة عشرين سنة، وكان من المتبحرين فى علم الحديث على اختلاف فنونه ، وله اليد الطولى فى علم اللغة والفقه والتاريخ (٨٩) .

وعن توثيقه وعدالته ، فقد قال فيه ابن خلكان « الحافظ زكى الدين .... محدث مصر فى زمانه » (٩٠) .

ووصفه ابن كثير بقوله « الإمام العلامة ... سمع الكثير ورحل وطلب ، وعنى بهذا الشأن حتى فاق أهل زمانه ... وكان ثقة حجة متحريا زاهداً»(٩١).

وذكره ابن تغرى بردى فقال : « الإمام الحافظ الحجة ، سمع الكثير ، ورحل وكتب وصنف وخرج وأملى وحدث بالكثير ... وهو أحد الحفاظ المشهورين »(٩٢).

وأخيرا يصفه السيوطى بقوله « الحافظ الكبير الإمام شيخ الإسلام ... كان عديم النظر فى علم الحديث .... إماما حجة ، بارعا فى الفقه والعربية والقراءات ورعا متبحراً » (٩٣) .

إذن كان المنذرى آيه عصره فى الحفظ والتثبت وحجية القول ، وفى ذلك ما يرفع من قيمة ما دونه من كتاب «معجم السفر» ويطبعه بطابع عميق من الصحة .

أما عن كيفية حصوله على مسودات كتاب « معجم السفر » فقد ثبت تاريخيا استحالة أن يكون أخذها من السلفى مباشرة ، لأنه لم يتقابل معه أصلا . والسبب بسيط وهو : أن السلفى توفى سنة ٥٧٦ هـ ، والمنذرى ولد سنة ٥٨١هـ أى أن السلفى توفى و لم يكن المنذرى قد ولد بعد .

ولم يبق أمامنا إزاء ذلك إلا احتمالين :

أما الأول : فهو ما ذكرته المصادر من أن السلفى كانت لديه مكتبة ضخمة حوت كل تراثه ومدوناته وغيرهما من نفائس الكتب ، لدرجة أن وصفها الذهبى

بقوله « قل ما اجتمع لعالم مثلها فى الدنيا » (٩٤) ولكن الشىء المؤسف أن هذه المكتبة تلف أكثرها بعد وفاته ، ويصور لنا ذلك المنذرى (٩٥) بقوله : وكان عنده (أى السلفى) خزائن كتب لا يتفرغ للنظر فيها فعفنت وتلصقت لنداوة البلد (الإسكندرية) فكانوا يخلصونها بالفأس فتلف أكثرها »(٩٦) .

وما نستطيع تفسيره من هذا النص هو : أن مكتبة السلفى ظلت مغلقة حينا من الدهر بعد وفاته ربما حتى زمن المنذرى ، وبأمر من سلطان الدولة أو حاكم الإسكندرية مثلا تم فتحها للتصرف فى محتوياتها . وكان المنذرى حاضرا هذا المشهد ، وبطريقة أو بأخرى وقعت فى يده هذه المسودات فجمعها ودونها . وهذا الاحتمال بعيد فيما اعتقد .

وأما الاحتمال الثانى الذى ارجحه فهو أن يكون تراث السلفى هذا انتقل بعد وفاته إلى ابنته الوحيدة « خديجة » التى نشأت فى كنفه وتعلمت منه الحديث وروته عنه بالإسكندرية ، وتوفيت سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م (٩٧). ولكى تحفظ « خديجة » هذا التراث لأبيها رأت أن تجيز لطلاب العلم النبهاء فيدونوه ويحفظوه ثم تتناقله الأجيال جيلا بعد جيل حتى يصبح أثرا خالدا . ويؤيد هذا التصور أن المنذرى كان أحد الطلاب الذين اجازتهم خديجة ، وقد أكد بنفسه على ذلك بقوله « ولنا منها إجازة ، كما مدحها بـ « الشيخة الأصيلة »(٩٨).

لهذا فإنه من المرجح أن تكون خديجة هى التى أعطت المنذرى مسودات «معجم السفر» وأجازت له تدوينها وحفظها وهى تعى تماما أنها ستكون يد أمينة لأن المنذرى ـ كما بينا ـ هو من هو فى علمه وفهمه وتحريه وزهده .

أما عن إجابة الشق الثانى من الأسئلة الخاصة « بمحمد بن المنذرى » ناسخ كتاب « معجم السفر » فما نعلمه من أمر حياته أنه ولد سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦م (٩٩) وقام أبوه المنذرى باصطحابه إلى العلماء الأفاضل للسماع عليهم ، ثم أكب على طلب العلم بنفسه فرحل وسمع بدمشق وحلب ، حتى وافته المنية وهو شاب فى سنة (٦٤٣ وقيل ٦٤٤ هـ) (١٢٤٥ - ١٢٤٦) (١٠٠) .

وعلى الرغم من تلك الفترة القصيرة التى عاشها « محمد بن المنذرى » إلا أنه أظهر فيها نبوغا وفطانة وفضلا . وقد دلنا على ذلك تلك الأسطر القليلة التى وصفه فيها بعض المؤرخين :

فقد قال فيه الذهبى : « الحافظ الزكى ... أحد الشباب الفضلاء .... كتب الكثير .... ولو عاش لساد » (١٠١) .

ووصفه الصفدى بقوله : «الحافظ المتقن ... كان ذكياً فطناً حافظا»(١٠٢).

نستخلص من هذا : أن شخصية محمد بن المنذرى كانت على شاكلة أبيه من الأخلاق الحسنه والذكاء والإتقان والحفظ . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على نقاء سريرته والثقة به وبعلمه مما يجعلنا نطمئن إلى الاعتقاد بأن ما نسخه من كتاب « معجم السفر » على أعلى قدر من التثبت والضبط .

وثمة تساؤل أخير ينبغى أن نعالجه فى هذا الموضوع . وهو : هل كتاب «معجم السفر» الذى بين أيدينا تم نشره مباشرة عن النسخة التى كتبها محمد بن المنذرى بخطه ، أم أن هناك حلقه أخيرة فى سلسلة توصيل الكتاب ؟

وللإجابة أقول : بعد الإطلاع على خاتمة كتاب « معجم السفر » وجدنا عبارتين تفيدان أن هناك ناسخ أخير كتب تلك النسخة التى خطها محمد بن المنذرى ، وعنها طبع الكتاب الذى بين أيدينا .

العبارة الأولى « آخر ما وجد من معجم السفر » بخط الإمام الحافظ أبى طاهر الأصبهانى فى جزازات . « ويبدو أنها عبارة المنذرى » « التى خطها بقلمه ابنه محمد»(١٠٣).

أما العبارة الثانية : فهى كلمة الفراغ من الناسخ الأخير للمخطوط ونصها « فرغ من نسخه العبد الفقير إلى ربه الجواد « عبد الحفيظ بن المرحوم محمد صالح حماد » يوم الأربعاء لخمس وعشرين من شوال سنة١٢٣٩هـ»(١٠٤).

وبناء على ذلك فإن « عبد الحفيظ » هذا يكون آخر حلقات الاتصال فى سلسلة نسبة سياق الكتاب إلى مؤلفة الأصيل السلفى .

بالإطلاع على المصادر التى تحت يدى لم أعثر لهذا الناسخ على ترجمة ، وكل ما استطعنا معرفته « فى ضوء النص السابق » أنه كان موجودا عام١٢٣٩هـ ، وهى سنه انتهائه من كتابة « معجم السفر » ، فهو إذًا من رجال القرن الثالث عشر الهجرى .

وحتى يمكننى التأكد من نزاهة وأمانة هذا الناسخ ، للتحقق من صحة أصول الكتاب ، لم يكن أمامى إلا التعرف على أسلوب السلفى ذاته فى « معجم السفر » وهل هو يتفق مع ذات الأسلوب الذى اشتهر به فى أعمال أخرى له أم لا ؟ ثم مقارنة ذلك على أساليب وصيغ كتاب العصر الذى عاش فيه السلفى ، وفى هذه الحالة إما أن يجعلنا الناسخ مرتبطين بأصول وجذور الكتاب كما دون عن صاحبه الأصيل ، وأما أن يخرجنا عن هذا الإطار .

والمطلع على أسلوب السلفى فى معجمه هذا يلحظ بوضوح أنه يغلب عليه طبع المحدثين ، فهو لا يلقى بالاً للأناقة اللفظية أو الجمال الفنى بقدر ما يعطى من الحرص على سلامة السند ، وصحة الرواية ودقة التاريخ وضبط الأسماء .

فأسلوبه سهل بيِّن يعتمد الألفاظ الدقيقة المؤدية للمعنى المراد بلا تعقيد ولا إبهام ، بالإضافة إلى أن أسلوبه يتسم بالزهد والتواضع ونزاهة النفس والإيجاز الذى يتحقق به التيسير على القارئ فيصل إليه ببساطه وعدم تكلف لدرجة أننا نجد فى بعض عباراته بعض الأساليب التى تصل إلى مستوى لغة العامة .

وإليك بعض النماذج :

فمن أساليبه التى ليس فيها تعقيد ولا إبهام وتؤدى إلى المعنى المراد قوله : «المهذب هذا كان مهذبا كاسمه فى العربية وحسن الصحبة » (١٠٥) و«مفرج هذا كان كفيفا وفقيها عفيفا» (١٠٦) ومن أساليبه التى تتسم بالزهد والتواضع :

نقتطف هذه العبارات : فيقول مثلا فى ختام تراجمه التى يوردها عن شيوخه وأصحابه « رحمه الله ــ والله أعلم ــ عفا الله عنا وعنه ــ رحمه الله وإيانا ــ والله تعالى يوفقنا ويحلنا دار كرامته ــ رحمه الله وتجاوز عن سيئاته » وهكذا(١٠٧) .

ومن أساليبه التى تصل إلى مستوى لغة العامة قوله : « ابن خير هذا كان معجونا من الخير » (١٠٨) أو « وعمل الشعر قد كان أسهل عليه من شرب الماء»(١٠٩) .

وتتجلى صفه المروءة والتواضع فى أسلوبه ، فى أنه لم يثبت فى كتابه أية قصيدة أو مقطوعة قيلت فى مدحه ، مع أنها كانت كثيرة ، وإنما كان يكتفى - أثناء ترجمته لحياة الشاعر الذى يمتدحه ــ بقوله «له فىَّ غير قصيدة» و « له فىَّ قصائد جمة » « وقد مدحنى بغير قصيدة » (١١٠) إلى غير ذلك من أمثلة.

وبالكشف عن درجة هذا الأسلوب ومستواه فى أعمال السلفى الأخرى أدركنا الكثير من نواحى الاتفاق بين الأسلوبين . وها هو ذا مثال : من طلب الإجازة التى كتبها بخطه إلى « الزمخشرى » كى يجيز له مسموعاته وما ألفه فى فنون العلم نلمس فيها تواضع السلفى فى مخاطبة العلماء ، وأسلوبه السهل اليسير ، وكثير من الصفات التى تجتمع مع أسلوبه فى معجمه ــ ونقتطف من تلك الإجازة العبارات التالية : يقول السلفى « إن رأى الشيخ الأجل العالم أدام الله توفيقه أن يجيز جميع مسموعاته وإجازاته ومروياته .... لأحمد بن محمد بن أحمد السلفى الأصبهانى ويذكر مولده ونسبه إلى أعلى أب ... وإن تمم إنعامه أبيات قصار ومقطوعات مستفادة من الحكم والأمثال .... والشرط فى كل هذا أن يكون بالإسناد المتصل إلى قائله .... ويعلم وفقه الله ــ أنه وقع إلينا كتاب من « يعقوب ابن شرين الجندى ... والحاجة داعية إلى تعرف اسمه ونسبه وضبطه » (١١١) .

كذلك اتضح لنا بعد قياس أسلوب السلفى فى « معجم السفر » على كتابه « معجم بغداد » الكثير من نواح الاتفاق بين الأسلوبين ، ففى الأول نراه

معنيًا برواية ما سمعه عن شيوخه من أحاديث متصلة الإسناد إلى قائلها ، إلا أنه يستطرد بين الحين والحين إلى ذكر حادثه طريفة أو نادرة أو أبيات من الشعر مسندة أيضا إلى قائلها وهذا ما وجدناه متبعا فى أسلوبه « بمعجم بغداد »(١١٢) .

وأعتقد أن فى هذه الأمثلة التى أوردتها كفاء لما أردت بيانه عن هذه النقطة.

نأتى بعد ذلك إلى مقارنة هذا الأسلوب مع أساليب وصيغ كتاب القرنين الخامس والسادس للهجرة حيث كان السلفى موجوداً .

والمحصلة التى استطعنا أن نخرج بها فى النهاية أن أسلوب السلفى فى «معجم السفر» والصيغ التى استخدمها فى كتابته متفقه أيما اتفاق مع الأساليب التى كان يستخدمها كتاب هذا العصر ويصوغون فى قالبها كتبهم المتخصصة التى تدور حول رجال الحديث وعلومهم وتوضيح أخبارهم وإيراد الحكايات والأشعار عنهم مع ذكر أنسابهم وتواريخ ميلادهم ووفاتهم ..... الخ .

ومن أمثال هؤلاء الكتاب « الإمام المحدث عبد الكريم السمعانى » (ت٥٦٢ هـ) وكتابه الشهير « الأنساب » وابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ) وكتابه « غوامض الأسماء المبهمة الواقعة فى متون الأحاديث المسندة » والحافظ أبو بكر الحازمى (ت ٥٨٤هـ) وكتابه « عجالة المبتدئ وفضالة المنتهى فى النسب » وغير هؤلاء كثيرون ممن يزخر بهم تراثنا الإسلامى حتى وقتنا الحاضر .

وأساليب هؤلاء الكتاب فى الغالب الأعم ، أساليب محدثين يتبين منها الحرص على الأسانيد ، والكشف عن أحوال الرواة ، والاعتناء بمعرفة شيوخهم وتلاميذهم ، والتمييز بين الخبيث والطيب وبين المجروح والمعدل منهم . وكل ذلك بأسلوب سهل من غير تكلف ولا تعقيد(١١٣) .

وأخيراً، وبعد هذا العرض لأسلوب السلفى وبيان درجته ومستواه وقياسه على أسلوبه فى أعماله الأخرى ، وعلى أساليب الكتابة التى كانت سائدة فى عصره نقرر حقيقتين :

أولا هما : أن الأسلوب الذى صيغ به كتاب « معجم السفر » الـذى بـين أيدينـا هو لمؤلفه السلفى وذلك عن طريق الأدلة التى بيناها .

ثانيهما : أن الناسخ الأخير للكتاب وهو « عبد الحفيظ بن محمد صالح حماد ـ الذى لم نعثر له على ترجمة فى المصادر التى تحت أيدينا ـ كان أمينا فى مـا نقلـه . إلينـا عن السلفى من أصول كتابه « معجم السفر»وهذا يجعلنا نطمئـن إلى أنـه لم يخرجنا عن أصل صورته الأولى . ولعل الشئ الذى يؤكد نزاهته أيضا هو : أنـه لم يتدخل فى أصول الكتاب ألا فى حدود ضيقة كإبراز كلمـة مثـلا غير واضحـة فى الأصل الذى كان ينسخ عنه ، أو تصحيح كلمة تحتمـل معنيـين مختلفـين وهكذا. وكان ينص على ذلك صراحة فى هامش النسخة التـى طبـع عنهـا هذا الكتاب، وقد أورد لنا المحقق بعض الأمثلة التى تشير إلى هذا(١١٤).

وإذا كان الفضل ينسب بادئ الأمر فـى جمـع شـتات هـذا السـفر التـاريخى القيم ـ إلى عبد العظيم المنذرى ، ويليه ابنه محمد الناسخ الأصلى للكتاب . فـإننى أرى أن هذا الرجل « عبد الحفيظ بـن محمـد صـالح » لا يقـل فضـلا عنهمـا لأنـه حافظ على ما دوناه رغم الفارق الزمنى الهائل بينهما وبينه ، وبذلك وصل الكتاب إلينا فى صورته الحالية التى بين أيدينا مما جعلنا مرتبطين بأصوله وجذوره .

* أهم محتويات الكتاب :

كتاب « معجم السفر » يضم بين دفيته تراجم حياة شيوخ السلفى ورفاقـه وأصحاب الفكر والثقافة الذين التقى بهم وسمع منهم خـلال رحلتـه الطويلـة التـى طاف فيها الكثير من بلـدان المشـرق الإسـلامى ، والذيـن عـاش بينهـم مـن أهـالى الإسكندرية وعلمائها منذ أن استقر فيها حتى وفاته ، ويشتمل الكتاب أيضا علـى تراجم لأعداد من شيوخ القاهرة الذين التقى بهم السلفى وسمع عليهم .

كذلك يتضمن الكتاب تراجم لأعداد غفيرة من العلماء المغاربة والأندلسيين وغيرهما ، من الذين وفدوا على الإسكندرية والتقوا فيها بالسلفى ، سواء فى بيتـه

أم مدرسته ، فضلا عن أن الكتاب يتضمن الكثير من الأخبار والحكايات والحكم التي فيها الكثير من العبر والفضائل ، وغير ذلك من معلومات هامة عن الحركة الفكرية والعلمية خلال القرن السادس الهجرى ، فى الإسكندرية بصفة خاصة ، وبلدان المشرق الإسلامى بصفة عامة .

الخصائص المتعلقة بمنهج السلفى فى تأليف كتابه " معجم السفر " .

وقد رأيت أن أبدأ بالحديث عن الغرض من تأليف الكتاب ثم بيان مصادر السلفى التى اعتمد عليها فى تأليف كتابه . وأخيراً نعالج مسألة المنهج الذى سلكه فى عرضه التاريخى .

* الغرض من تأليف الكتاب :

كان من عادة العلماء فى كل فن أن يقدموا لمصنفاتهم بمقدمات يشرحون فيها مقاصدهم وأغراضهم التى دعتهم إلى التأليف ، حتى ينيروا السبل أمام القارئين ليكونوا على بينة وإدراك عما بداخل هذه المؤلفات . ومن هنا تصبح المقدمة جزءاً مكملا لكل كتاب .

وكتاب « معجم السفر » الذى بين أيدينا جاء خاليا من أى تقديم(١١٥) نستطيع من خلاله التعرف على دواعى ومقاصد مؤلفه . ولعلنا نلتمس للسلفى العذر فى ذلك لأنه لم يكمل كتابه على النحو الذى أراده _ كما بينا آنفا _ فكيف إذا يضع له مقدمة ! ؟

لهذا كان البحث فى ثنايا الكتاب وقراءة موضوعاته وقضاياه المختلفة هو الطريق الأمثل لبيان ذلك .

وبعد بحث وتدقيق ، هدانا الله أخيراً إلى أن الغرض الأساسى والهدف الواضح الذى سعى السلفى من أجله لتأليف كتابه هو : « خدمة السنة النبوية »: فى جميع مجالاتها المتمثلة فى إيضاح الصحيح والضعيف من الأحاديث ، وأحوال الرواة جرحاً وتعديلاً ، مع إفراد تراجم خاصة لرجال عصره تحوى معلومات وافية

ودقيقة توضح حقيقة الأشخاص ، بما لهم وما عليهم من غير ظلم أو مجاملة فى ثناء لا يستحقوه .

والمتتبع لكتاب « معجم السفر » يلحظ هذه الغاية بدقة ووضوح ، فقد حوى الكتاب على ما يقرب من مائتين وخمسة وثلاثين حديثا نبويا رواها السلفى عن شيوخه(١١٦)، مفردا تراجم عن كل واحدا منهم ، بالإضافة إلى أن هناك شواهد أخرى فى الكتاب ترجح ما ذهبنا إليه فى هذا الصدد وتقويه ، من أبرزها: تلك الأشعار والحكايات الصالحة التى يوردها على لسان أصحابها والتى تدل على حماسته وتأثره وحبه لسنة النبى ﷺ والرغبة الصادقة لديه فى خدمة دينه العظيم - الدين الإسلامى . وإليك بعض النماذج من الشعر والحكايات الهادفة التى تدخل فى إطار غايته الأساسية من تأليف كتابه :

فمن الشعر : تلك القصيدة التى أوردها فى مدح النبى ﷺ « على لسان أبى الفضل جعفر بن الطيب الصقلى » جاء فيها :

يَا سَيِّدَ الرُّسُلِ الكِرَا ... مِ وَمَنْ أَتَى بالمُعْجِزَاتِ
لَو لَمْ يَكُن لكَ غَيْر مَا ... أُوتِيتَ من حَسَنِ الصِّفاتِ
لَقَهَرْتَ كُلَّ مُعَانِدٍ ... وَعَلَوْتَ فَوْقَ النَّيِّرَاتِ
لَكَ هَيْبَةٌ وجَلاَلَةٌ ... سَارَت إلى كُلِّ الجِهَاتِ
ومودة تلقاك من ... كل العيون الناظرات
صَلَّى الإِلَهُ عَلَيكَ مَا ... قَطَرَتْ دُمُوعُ الجَارِيَاتِ(١٧٧)

ومن صريح ما أورده السلفى فى تمجيد السنة النبوية المطهرة ، تلك الحكاية التى سمعها من « أبى العز نصرون بن فتوح » حيث يقول « أى السلفى » سمعت نصرون يقول : « مرضت مرضه أشفيت منها على الموت وبعت فيها كتبا أدبية وغير أدبية ، ومن جملتها صحيح البخارى وصحيح مسلم ، فذكرت ذلك بعد أفاقتى

من مرضى لأبي القاسم بن القطاع (١٨٨) فغضب عليَّ غضباً شديداً وقال : كنت تقنع ببيع كتب الأدب فعنها عوض وتترك عندك الصحيحين . هل رأيت مسلماً يخرج الصحيحين من داره ، هل رأيت مسلما يخرج الصحيحين من داره و لم يزل يردد ذلك حتى استحييت من نفسي ومن الحاضرين وندمت غاية الندم»(١٩٩).

وإلى جانب ذلك فقد ضمن السلفي كتابه الكثير من الأخبار عن المتصوفين الحقيقيين ، وذكر الحكايات ذات العظة والعبرة عنهم ، التي تدعو إلى مكارم الأخلاق والصفات الحميدة التي يجب أن يتحلى بها كل مسلم(١٢٠) والسلفي بذلك يفتح أكثر من نافذة لكي توصله إلى هدفه المنشود وهو خدمة السنة النبوية ، وليكن التصوف الحقيقي وأخبار رجاله أحد هذه النوافذ التي توصله إلى غرضه السامي والنبيل .

وإضافة إلى ما ذكر : فإن ثمة شئ جدير بالتسجيل في هذا الصدد ، وهو . أن تلك الغاية التي ارتضيناها من وراء تأليف هذا المعجم نراها تتمشى بوضوح مع مذهب السلفي الذي كان يدين به وهو : المذهب السني.

مصادر السلفي في « معجم السفر » :

اتخذ السلفي لنفسه منهجاً خاصاً في ذكر مصادره ربما اختلف عن الطريقة التي سلكها المؤلفون السابقون له أو الخالفون من بعده .

فالمصادر التي استقى منها مادته الخبرية ، تعتمد على المصادر المباشرة التي تقوم على المقابلة والمشافهة والأخذ المباشر عن ألسنة الرواة . وقد التزم السلفي بذلك التزاما شديداً فلم يجمع مادة كتابه من مؤلفات الذين سبقوه أو عاصروه ،

و لم يسجل ترجمة دون أن يكون قد قابل صاحبها وتحدث معه وكتب إليه ، ليس من بينهم ترجمة لعالم من الذين ماتوا قبله .

والصيغ التى وردت فى الكتاب واستخدمها السلفى فى التلقى تكاد تجمع على ذلك ، وهى : إما : (سمعت فلانا) أو (اخبرنى) أو (أنشدنى) ، أو (حدثنى) أو (رأيت فلانا وقال لى) وهكذا تطالعنا هذه الصيغ فى كل صفحات الكتاب .

وهذه المصادر التى تلقى عنها مادته العلمية : كثيرة بشكل ملحوظ حيث يبلغ عددها على وجه التقريب - ٧٩٤- مصدرا الغالبية العظمى منها لشيوخ وعلماء عاشوا بالإسكندرية ، فهم إما من أهلها أو من بلاد أخرى نزلوا بها واتخذوها مقر إقامة دائمة ، وما عدا ذلك لعلماء من بغداد والحجاز أو غيرهما من البلاد ، أخذ عنهم السلفى وسمع منهم ببلادهم أو أثناء عبورهم بالإسكندرية .

ولو أردنا التحدث عن جميع هذه المصادر لا تسع بنا المدى ، وابتعدنا بعض الشئ عن مقصدنا ، لذلك سوف نكتفى بالحديث الموجز عن أشهرهم ذكراً وأكثرهم مساهمة فى إعداد المادة العلمية ، وعليهم كان اعتماد السلفى فى تدوين معلوماته ثم نعقب بالحديث عن بعض الرواة المشهورين الذين اكتفى السلفى بإيراد القليل من الأخبار عنهم ، ثم نعرض للقلة غير المشهورة من الرواة الذين أخذ عنهم ، وأخيرا نعرض لبعض المصادر المباشرة التى تجاهل السلفى ذكرها .

*** أما عن الفريق الأول فمن أبرز أفراده :**

- « أبو الكرم خميس بن على الحوزى » (ت٥١٠هـ / ١١١٦ م) :

وينسب إلى قرية حَوْز بمدينة واسط (١٢١) وهو من الرجال الذين عثرنا لهم على ذكر وصدى طيبين فى المصادر ، فمن أشهر ما قيل عنه : أنه كان من حفاظ الحديث المحققين بمعرفة رجاله ، ومن أهل الأدب البارع ، وفى شيوخه كثرة ، وكان معلما لم يزل يعرف فضله ومؤدبا كل متأدب . أنار بواسط لأهلها كل ليل من الجهل (١٢٢) .

وعلاوة على ذلك فقد خصه السلفى بترجمة فى كتابه « معجم السفر » . تحمل هذه المعانى وتبين درجة اعتماده عليه فقال : « علقت عنه فوائد ، وسألته عن رجال من الرواة فأجاب بما أثبته فى جزء ضخم هو عندى (١٢٣) وقد أملى على نسبه ... ومولده سنة (٤٤٧هـ) والله تعالى يرحمه وإيانا إذا صرنا إلى ما صار إليه ، فقد كان إتقانه ممن يعول عليه » (١٢٤) .

و« خميس بن على » هذا من أكثر شيوخ السلفى الذين اعتمد عليهم فى السؤال عن أحوال الرواة، فعليه كان معول السلفى الأساسي في تدوين معلوماته - فقد أخذ عنه بطريق مباشر فى حوالى اثنى عشر موضعاً . مصرحاً باسمه فى جميعها (١٢٥) .

- و « أبو صادق مرشد بن يحيى المدينى المصرى » (ت٥١٧هـ / ١١٢٣م) كان من المحدثين المنفردين بعلو الإسناد بمصر ، مشهوراً بالثقة والصلاح والخير، يقول عنه السيوطى « كان أسند من بقى بمصر » (١٢٦) .

وأبو صادق هذا سافر إليه السلفى خصيصا من الإسكندرية للأخذ عنه وعن طبقته خلال رحلته الوحيدة التى قام بها إلى القاهرة (١٢٧) ومن خلال تتبعنا لـ«معجم السفر» وجدنا أن أبا صادق كان له أثر كبير فيه ، إذ أفاد منه السلفى فى كثير من التراجم التى جمعها عن شيوخ مصر الذين التقى بهم فى مجالس أبى صادق . وقد ذكرها السلفى فى كتابه حوالى أربعة عشر مرة (١٢٨) .

- و« أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى »(١٢٩) (ت٥٢٠هـ /١١٢٦م).

كان إماما عالما زاهدا ، فقيها على المذهب المالكى ، عنده تواضع وتقشف راضيا من الدنيا باليسير(١٣٠) ولد سنة (٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م) بالأندلس ورحل إلى المشرق سنة (٤٧٦هـ / ١٠٨٣ م) واستقر به المقام بالإسكندرية فقطنها حتى وفاته دفن بها (١٣١) ويكفى لتوضيح مكانتة ما قاله عنه ابن تغرى بردى « وفضله مشهور لايحتاج إلى بيان » (١٣٢) ومن خلال ما ورد فى « معجم السفر »

نستطيع أن نتعرف على أن السلفى قابل الطرطوشى بالإسكندرية ، وكان يحضر مجالس علمه ، التى استفاد منها فى بعض نقوله التى صرح بها فى معجمه (١٣٣)

*** أما عن الفريق الثانى فى ترتيب مصادر السلفى :**

فهؤلاء كثيرون ، وقد استطعنا من خلال تتبعهم فى كتب التراث الأخرى أن نتعرف على أصالتهم والثقة بهم ، ومن أبرز هؤلاء على سبيل المثال :

- « أبو القاسم عبد الرحمن بن عتيق المقرئ » المعروف بابن الفحام (ت٥١٦ هـ / ١١٢٢ م) ، قال عنه السلفى « من كبار القراء .... وكان حافظاً صدوقاً متقناً عالماً كبير السن » (١٣٤) .

وما قاله عنه المؤرخون لا يختلف عن هذه المعانى بل يؤكد عليها ويبين مدى الصدق بها فقد قال فيه ابن تغرى بردى : « كان من كبار شيوخ القراء سكن الإسكندرية وقصده الناس من النواحى لعلو إسناده وإتقانه » . (١٣٥)

وقال عنه السيوطى « إنتهت إليه رئاسة الإقراء بالإسكندرية علواً ومعرفة وروى عنه السلفى » (١٣٦) .

- كذلك صرح السلفى بالرواية عن « أبى عبد الله محمد بن أحمد الرازى الإسكندرانى » المحدث المعروف بابن الحطاب (ت ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م) ، وذكره فى بعض مواضع من كتابه تفيد بالسماع منه ومقابلته ، والإستخبار عن أحوال بعض الرواة (١٣٧) .

وأبو عبد الله هذا من الرجال المشهورين والرواة المعروفين الذين وقفنا لهم على ذكر حسن فى المصادر ، فهو مسند الديار المصرية فى وقته . وشيخ الإسكندرية وأحد عدولها المبرزين فى علم الحديث ، وقد ذكره السيوطى فى جملة المحدثين المنفردين بعلو الإسناد (١٣٨) .

وما أورده السلفى عـن هذيـن العـالمين يمكننـا قياسـه علـى معظـم مصـادره المباشرة أو رجاله الذين روى عنهم فى هذا الباب حيث أنهـم معروفـين مـن قبيـل ابن الفحام ، وابن الحطاب السابق ذكرهما (١٣٩) .

* وأما عن الفريق الثالث فى ترتيب مصادر السلفى :

فهؤلاء يختلفون عن سابقيهم من حيث الشهرة والمعرفة ، ربما لأنهـم كـانوا من عامة الناس أو أرباب المهن الأخرى . ومع ذلك قابلهم السلفى وسمع منهم لمـا رأى أن هناك فائدة مرجوة من ذكرهم وتدوين أخبارهم فعلى سبيل المثـال : نـراه أى « السلفى » يكتب عن أحد الأشخاص ويدعى : « وجيه الدين بن شـبل بـن ذى القرنين » فيقول : عنه « وعلقت عنه ما علقت لغرابة اسمـه لالعلـو سـنده ولا علمه » (١٤٠) .

ويقول عن « وهيب بن مـترف بـن مهيـوف » الـذى انشـد السـلفى شـعر بمدينة تَدْمُرْ - « وإنما كتبت عنه لغرابة اسمه وللموضع كذلك » (١٤١).

كذلك يورد لنا السلفى شعرا عن شخص اسمـه « علـى بـن عبـد المعطـى » كانت له صَبْوَة ثم تاب على يديه ، ويقول عنـه « كـان يحفـظ مـن الشـعر كثـيرا وصحب الشعراء وكان من أذكى البرية .... وكانت له صبوة ثم تاب على يـدى ويجلب إلى واحدا بعد واحد فيتوبون عن الشرب وغيره » (١٤٢) .

* أما عن الفريق الرابع والأخير من مصادر السلفى المباشـرة التـى تجـاهل ذكرها :

فقد وجدنا أنه فى بعض الأحيان يترك تعيين الشيخ أو المصدر المباشـر الـذى أبلغه عن أحوال بعض الرواة فيقول مثلا عن « أبى محمد عبد الرحمن الدونـى » «

وبلغنا أنه توفى سنة .... » (١٤٣) ويقول عن « أبى المحاسن عبد الواحد بن اسماعيل » « بلغنا أن أبا المحاسن أملى بآمل وقتل بعد فراغه من الإملاء (ت٥٠٢هـ)(١٤٤) ونلمس شبيه ذلك بعض العبارات مثل « وقد بلغنى بعد خروجى من مصر » و « ثم قال لى من أثق به » و « توفى سنة .... على ما حكاه لى من أثق به من أهل المغرب » (١٤٥) .

والظاهر من هذه الأخبار القليلة ، أن السلفى قد استقاها من مصادر مباشرة، مجهولة لنا معروفة عنده . وذلك الشيء يؤخذ بتحفظ لأنه بعد مقارنة إحدى هذه الروايات - بالمصادر التاريخية الاخرى - وأخص منها ما تعلق بوفاة أبي المحاسن عبد الواحد بن اسماعيل « الذى ذكر السلفى موته سنة ٥٠٢ هـ قد ثبت أن هذه الرواية لها شاهد ، فقد أوردها ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٩٩ نقلا عن السلفى بل وأكد صحتها عن طريق ما اعتمد عليه من مصادر أخرى .

ولعل ذلك يدعونا إلى نفى الشبهة عن السلفى فى التدليس فى رواياته ، ويرشدنا إلى الباعث الذى دفعه إلى عدم ذكر اسماء الذين روى عنهم تلك النصوص القليلة ، فربما كان الباعث هو ميله إلى عدم الإكثار من ذكر رواته ، وربما كان هؤلاء الرواة أو بعضهم ثقة لا يقلون عمن صرح بأسمائهم ، وهذا فى رأيى هو الأقرب إلى الصواب .

وأخيراً ، وبعد دراسة هذه المصادر : فأن الانطباع الذى خرجت به هو : أن السلفى قد تعمد ، وبدون مواربة ، أن يكون لكتابه مصادر واضحة محددة يستمد منها نصوصه ويؤسس عليها بناء معجمه ، باعتباره كتاباً عماده وأساسه الرواية المباشرة بطريق المشافهة والمقابلة . وغنى عن البيان أن سلوك هذا السبيل فى التصنيف التاريخى يضفى على الكتاب الاحترام اللائق ويزيد من قيمته العلمية ،

ومن ثم يصبح الكتاب محل تقدير لدى كـل مـن يطلـع عليـه ، ويصـير بعـد ذلـك مصدراً يعتمد عليه الباحثون ، ليس هذا فحسب بل إن ما يزيد من قيمتـه أن تـأتى رواياته وأخباره عن مؤرخ ثقة حافظ ، أجمع المؤرخون على عدالتـه وصدقـه كمـا بينا سالفا .

* منهج السلفى فى العرض التاريخى :

وصل إلينا كتاب « معجم السفر » مرتبا حسب حـروف الهجـاء ، بمراعـاة الحرف الأول فقط من كل إسم ، دونما النظر إلى ترتيب باقى الحروف . ففى باب الهمزة مثلا لم يراع فى الترتيب الحرف الثانى من بعد الهمزة أو ما هو أقرب اليها .

وهكذا يمكننا قياس ذلك على باقى التراجم التى تبدأ بحرف الباء إلى آخره . ولهذا لم يكن ترتيب الكتاب كما ينبغى .

والحقيقة أن السلفى - رحمه الله - برئ من هذا الترتيب الذى حـل بكتابـه لأنه - كما أوضحت سابقا - كتبه على شكل « جزازات » فى بـادئ الأمـر و لم يتمه على الوجه الأمثل . لهذا فإن المسئول أمامنـا عـن ترتيـب الكتـاب علـى هـذا النحو هو : الزكى عبد العظيم المنذرى كما ذكر السخاوى .

والمتتبع لمنهج السلفى فى عرضه التاريخى ، فإن أول ما يلحظه بوضوح هـو: التزامه الشديد بالإسناد المتصل لكل من ينقل عنهم بـدءاً مـن راوى الخـبر مباشـرة ووصولاً إلى الشاهد الحقيقى للواقعة ، سواء أكـانت حديثـا نبويـا أو حكايـة ، أو شعراً .

وأغلب أسانيده تأتى بصيغة التحديث والإخبار والسـماع مثـل « حدثنـا - أخبرنا- سمعت » خاصة فـى الأحـاديث النبويـة ، واذا كـان المروى شـعرا يقـول «أنشدنى - أنشدنا» .

وهذا اللون من التأليف له صلة وثيقة بعلم الحديث الذى يتخذ الإسناد شرطا أساسيا لصحة الخبر . ولا عجب فى ذلك فقد كان السلفى ذاته محدثا قبل أن يكون مؤرخا ، ومن هنا تأتى أهمية كتابته للتاريخ كعلم يتخذ الإسناد شرطا أساسيا لصحة الخبر أيضا . لذا فإن السلفى كان يكتب التاريخ عن دراية ووعى بنظرة الفاحص المدقق .

وعلى الرغم من أن أغلب روايات السلفى جاءت مسندة إلى الشاهد الحقيقى للحدث ، فقد شذ عن ذلك فى حالات قليلة ، تاركا العهدة على الراوى.

فعلى سبيل المثال : يقول : « أنشدنى عبد الله بن قاسم قال : أنشدنى أبو عبد الله التونسى بمكة ، و لم يسم قائله » (١٤٦) .

وفى موضع آخر يقول « أنشدنى قيس بن غالب .... وقد أنشدنى قبل قيس غيره ببغداد و لم يذكر أحد منهما قائله » (١٤٧) .

والشئ الجدير بالملاحظة هنا هو : أن السلفى لم يكن يترك الأمر على علته هكذا ، بل كان فى بعض هذه الحالات يسعى جاهدا وراء المعلومة حتى يعرف قائلها الأصلى عن طريق رواة آخرين ، ومثال ذلك قوله : « أخبرنى أبو القاسم عمر بن الحسين - أخبرنى أبى الحسين ، أخبرنى أبى عمر أنه قال عمن تقدمه :

بُنَــيَّ إن البِرَّ شئٌ هَيِّنٌ   وَجْهٌ طَلِيقٌ وَكَلامٌ لَيِّــنٌ

ثم يرد السلفى معقبا على هذا الشعر بقوله « هذا الكلام لخالد بن صفوان ويورد إسناداً آخر يتصل بخالد بن صفوان هذا »(١٤٨) . وينهج السلفى فى تأليف معجمه منهجا لا يكاد يشذ عنه فهو يبدأ بما رواه له صاحب الترجمة من حديث أو شعر أو حادثة أو نادرة من النوادر ثم يعقب ذلك بترجمة له قد تطول أو تقصر(١٤٩).

وعناصر الترجمة عنده تتكون - فى أغلب الأحوال - من سياق اسم المترجم له ونسبه ولقبه وبلده وشيوخه ، والزمن والمكان الذى تمت فيه المقابلة بين السلفى وبينه والسؤال عن سنه أو ميلاده ، وتحديد سنة الوفاة إن أمكن ذلك ، ثم ينقد المترجم له فيوثقه إن كان أهلا للثقة ، أو يجرحه إن كان يستحق التجريح ، وأخيرا ينبه إلى ضبط اسمه إن كان من الأسماء التى تتشابه مع غيرها(١٥٠) .

ولعل فى تفصيل هذه الأمور وغيرها ما يعيننا على بيان وتفسير هذا المنهج والصفات العامة التى انفرد بها السلفى وميزت كتابه عن غيره من المؤلفات فى هذا المجال وهى على النحو التالى :

* **أولاً** : كان السلفى يدقق فى أمور معينة ، منها ما هو خاص بالمكان الذى التقى فيه بالراوى والسماع منه كأن يقول مثلا « سمعت القاضى أبا بكر عتيق .... بالإسكندرية » أو « أخبرنى أبو عبد الله محمد .... بدمشق » (١٥١) .

ومنها ما هو خاص بالرواية فكان يحدد حتى لا يختلط الأمر أن هذا الشعر مثلا (للقاضى فلان) أو (للشاعر الفلانى) وذلك بقوله « لنفسه » ، واذا كانت الرواية لغيره أوضحها بإسناد يتصل إلى الشاهد الحقيقى ، وهذه السمات نجدها واضحة تمام الوضوح فى جميع صفحات كتابه .

أيضا من الأمور التى دقق فيها السلفى ، التحديد التاريخى لمن ينقل عنهم ، فكان يحرص على تسجيل تواريخ ميلادهم معتمداً على ذلك بصيغة السؤال بنفسه كأن يقول « وسألته عن مولده » أو ما يذكره له صاحب الترجمة بصيغة « ذكر لى مولده » أو « قال لى » أو « سمعته يقول » (١٥٢) .

وفى بعض الأحيان نراه يسأل المترجم له عن مولده فيمتنع كما حدث مع «عبد الملك بن على» يقول عنه السلفى « وسألته عن مولده فامتنع من ذكره»(١٥٣)

وفى مناسبات قليلة يذكر مكان ميلاد المترجم له ولايحدد السنة (١٥٤) كذلك حرص السلفى على تسجيل تاريخ الوفيات فى معظم تراجمه (١٥٥) .

* **ثانيا : من الأمور الرئيسية التي سار عليها السلفي في منهجه ، الاهتمام الكبير بالجانب الجغرافي وأعني بذلك ضبطه لأسماء الأماكن وتحديد مواقعها بدقة،** والمطلع على الكتاب يندهش إلى حد الإعجاب لكثرة البلاد التي أوردها ، إلى درجة يمكن معها وصف كتابه - فوق ما تميز به - بأنه معجماً للبلدان (١٥٦) .

وقد استطاع السلفي أن يكتسب هذه الخبرة عن طريق رحلاته العلمية الكثيرة التي طاف فيها المئات من المدن والقرى ، فرأى أماكنها بعينه . وسمع نطق أسمائها بأذنه ، وبسؤال من يترجم لهم عن الأماكن التي ينتسبون اليها ، عرف أسماء بلدانهم وحدد أسماء مدنهم وقراهم .

كذلك يستفاد مما ذكره في معجمه أنه كان يصاحب العلماء الذين لهم معرفة وخبرة ودراية بالأماكن ، ومن المرجح أنه قد استفاد منهم في تحديد الكثير من البلاد التي أوردها ومن هؤلاء على سبيل المثال : أبو الحسن على النهاوندى المعروف بالأشترى « يقول عنه السلفي » سمعته .... بهمذان وهو من المعروفين المشهورين وممن لم يكن له نظير في وقته في معرفة المنازل التي بين الكوفة ومكة... ولا يعرف أحد طريق البادية مثله ، وبه يضرب المثل في جملة مسافرى الحجاز ومقديمهم ، وقد سافر إلى الشام ... ودخل خراسان ووصل إلى غزنة»(١٥٧) .

أما عن المنهج الذي سلكه السلفي في ذكر أسماء البلاد وتحديد مواقعها ، فقد كان يذكر اسم المدينة أو البلد بعد أن يذكر اسم من يترجم له أو في نهاية ترجمته ، ولعل في ذكر هذه الأمثلة المختارة التي نعرضها من نص « معجم السفر » ما يغني عن جميعه ، فمن ذلك قول السلفي :

« ضياء هذا رجل صالح ... وسمعته يقول حطين قرية من قرى طبرية وبها قبر يوشع بن نون » .

« ظافر هذا من أهل رشيد مدينة من مضافات الإسكندرية » .

« ابن الصُغْدِى هذا من بيت العلم ... ونسبته مستفادة من الصُغْدى ومع الصَغْدى وصَغْدَة مدينة باليمن » .

« حدثنى عبد الله بن محمد ... الفَلِيشى ... وفَلِيشْ قرية من قرى لُرْقَة بشرق الأندلس » .

« عبد الحميد هذا سألته عن مولده ، فقال ولدت ... بمدينة بَلَغَى بشرق الأندلس » (١٥٨) .

* ثالثا : من الأمور المتميزة أيضا التى استطعنا أن نتبينها من منهج السلفى ، وتكاد تطالعنا فى كل صفحة من صفحات معجمه ، النقد لكل من دون عنهم . وبيان مكانتهم العلمية ، فيوثق من كان ثقة ، ويضعف من كان ضعيفا مبينا السبب وعلته ، ومكانة روايته ومدى صحتها . كل ذلك من غير مجاملة لأحد .

وكلماته التى يستخدمها فى النقد عبارة عن جمل قصيرة مركزة ذات مدلول واضح يبدو فيها بارز الشخصية ، واضح الرأى قوى الاستدلال .

ومن الأمثلة على ذلك قوله :

« أبو البركات هذا من أهل العفاف قليل الرواية والسماع » .

« عبد الكريم هذا ... كان مائلا إلى الخير ، وشعره فى غاية الجودة » .

« عبد الرازق هذا ... أخرج إلَّى كتابا بخط جده من تأليفه ... وليس فيه سماع وقال أخبرنى به أبى عن أبيه عن جده ، والعهدة فى ذلك عليه ، وكان ظاهر الصلاح محموداً عند أهل بلده »

« أبو البركات هذا ... تغير بأخره ودخل فيما لايرضى عفا الله عنه » .

« أبو الحسن هذا كان من أهل الأدب والفقه وكانت دعاويه أكثر من علمه » .

« أبو الحسين هذا كان من فقهاء المالكية ....وكان غيره أوثق منه »(١٥٩).

* **رابعا** : ضبط أسماء الأشخاص بالشكل ، وذكر الأسماء التى قد تتشابه معها فى النسبة .

ومن الشواهد على ذلك قوله :

« ابن هَرَّاش » : ربما قيل فى ابن الهراش بالتعريف فيذكر حينئذ مع إلكيا الهراس».

« ابن حرَّان » : وإن قيل فى ابن حران هذا الحرانى فيستفاد أيضا فى بابه .

« ابن ثُنيَّة » : وثنية فى نسبه مستفاد يذكر مع بُنَيه وبتنه ، ونَبِيْه وغيرهم .

« ابن تاكُرات » : وربما قيل تاجُرات بالجيم بدلا من الكاف فيستفاد حينئذ ويذكر مع « جواب » و « خوات » وغيرهما (١٦٠) إلى غير ذلك من الأمثلة.

* **خامسا** : كذلك من أهم وأبرز الأمور التى تبيناها فى منهج السلفى ، التجديد فى عرض المادة التاريخية وليس التجديد هنا سوى اعتماده المقابلة والسماع شرطا أساسيا لكل من ترجم لهم ، فالكتاب رغم ضخامته وكثرة عدد أشخاص لم نجد فيه ترجمة واحدة منقولة من كتاب أوهى لشخص لم يقابله ، وهذا يخالف منهج الكثير من كتاب التراجم الذين كان جل اعتمادهم فى تدوين الأخبار على المصادر غير المباشرة أو الأخذ من كتب السابقين أو المعاصرين لهم .

* أثر السلفى فى من جاء بعده من المؤرخين :

المادة العلمية التى قدمها إلينا السلفى فى كتابه والتى عرضناها فى الصفحات السابقة ، وبينا منهجه المتميز فيها تعد من أنفس المصادر التاريخية التى قدمت إلينا صورة صادقة ودقيقة عن رجال القرنين الخامس والسادس الهجريين .

ويكفى الحافظ السلفى فخراً فى هذا المجال أن تراجمه للرجال والأخبار التى دونها عنهم وسجلها فى كتابه بتحر واضح وشمول ودقة ، ظلت موردا ومعينا لا

ينضب ، ومرجعاً أصيلاً يعتز به الخالفون من بعده ، ويستعينون بما كتبه فى مؤلفاتهم سواء ، التاريخية أو الجغرافية أو الأدبية ، بل أكثر من هذا أن معظمهم اتخذ ما كتبه السلفى حجة دونها ما سواها وحكماً فصلا عند تعارض الأقوال أو اختلاف الروايات التى كتبوها فى مصنفاتهم .

ويتضح هذا وذاك فى بعض النماذج التى اخترناها من نقول بعض المؤرخين اللاحقين عن السلفى ، لنرى كيف انتفع هؤلاء بجهده المتمثل فى «معجم السفر».

* ونبدأ هذه النماذج بذكر ما اقتبسه «ياقوت الحموى» (ت٦٢٦هـ) وذلك فى كتابيه الشهيرين « معجم البلدان » و « معجم الأدباء » .

وقد اعتمد ياقوت على السلفى فى هذين الكتابين اعتماداً كبيراً دون غيره من المؤرخين ، فنراه فى كتابه الأول « معجم البلدان » ينقل عنه أكثر من مائة مرة متفرقة فى أجزائه الخمسة (١٦١) ورغم أنه كان يصرح باسم السلفى فى كل موضع من هذه المواضع ، إلا أنه يؤخذ عليه عدم ذكره له ولكتابه «معجم السفر» ضمن المصادر التى اعتمد عليها فى جمع مادته والتى ذكرها فى مقدمة كتابه «معجم البلدان » (١٦٢) .

واليك نموذجا من اقتباسات ياقوت :

يقول ياقوت عن تعريف بليده « زَرَنْد » بالجزء رقم (٣) ص ١٣٨من كتابه معجم البلدان : قال السلفى : « أنشدنى القاضى أبو العميد بن أحمد بن على الجرجانى بمأمونية زرند فى مدرسته ، وهى بين الرى وساوة » .

وقرين هذا النموذج فى كتاب « معجم السفر » ص - ١٨٨.

أما عن كتاب « معجم الأدباء » فقد نقل فيه ياقوت أيضا الكثير من النصوص عن السلفى مصرحاً بالأخذ عنه ، ولكن جانبه الصواب فى تحديد اسم الكتاب الذى نقل منه فبدلاً من أن يذكر « معجم السفر » صرح باسم آخر هو «معجم الشعراء»«وقد فصلنا القول فى هذه المسألة مما سبق من هذا البحث»(١٦٣) .

وهذا نموذج لما اخترناه من كتاب « **معجم الأدباء** » :

يقول ياقوت فى ترجمة « عثمان بن على السرقوسى النحوى » بالجزء رقم(٣) ص ٤٨٨ - ٤٨٩ من كتابه .

قال السلفى « كان من العلم بمكان نحواً ولغة وقد قرأ القرآن على ابن الفحام وابن بليمة وغيرهما وله تواليف فى القراءات والنحو والعروض ، وصارت له فى جامع مصر حلقه للأقراء وانتفع به ولا زمنى مدة مقامى بمصر وسمع على كثيراً وعلى من كنت أقرأ كأبى صادق والفراء الموصلى وآخرين ».

وقرين هذا فى كتاب « معجم السفر » ، ص٢٤٤ - ٢٤٥ .

* أما المؤرخ التالى من الذين انتفعوا بجهود السلفى فى « معجم السفر » فهو : « **جمال الدين على بن يوسف القفطى** » (ت ٦٤٦هـ) فى كتابه « إنباه الرواة على أنباه النحاة » الذى نقل فيه عن السلفى قدراً كبيراً من نصوصه بلغت على وجه التقريب ثلاثة وعشرين صفحة(١٦٣) وقد اخترنا منها النص التالى :

يقول القفطى فى كتابه جـ٤ ص ٤٣ أنبانا أبو طاهر السلفى فى أجازته العامة « أنشدنا أبو الحسن يونس بن يحيى بن سلامة الحصكفى التاجر بديار مصر قال : أنشدنى أبو الفضل يحيى بن سلامة بن الحسين بميافارقين لنفسه :

وا لله لو كانت الدنيا بأجمعها تبقى علينا يأتى رزقها رغداً

ما كان من حق حر أن يذل لها فكيف وهى متاع يضمحل غداً

وقرين هذا فى كتاب « معجم السفر » ص ٤٥٩ - ٦٤٠.

والحقيقة التى يجب أن تذكر فى هذا المقام هى : أن القفطى من خلال نقوله هذه ينقل ترجمات كاملة من معجم السفر(١٦٥) ، مما يوضح الأثر البارز للسلفى

فى كتابه وثمة شىء آخر وهو : أنه نقل عن السلفى فى بعض المواضع دون أن يصرح بذلك(١٦٦) .

* كذلك من المؤرخين اللاحقين الذين أفادوا من « معجم السفر » المؤرخ الشهير « **ابن خلكان** » (ت ٦٨١هـ) فى كتابه « وفيات الإعيان وأنباء أبناء الزمان » .

وبعد الإطلاع على هذا الكتاب المذكور وجدت أن ابن خلكان صرح فيه بالنقل عن السلفى فى الكثير من المواضع . ليس هذا فحسب ، بل اتخذ ما كتبه السلفى حجة وحكماً فصلاً دون ما عداه من الكتب التاريخية الأخرى وذلك فى بعض المواضع .

ولكن ما يؤخذ على ابن خلكان أنه أضاف إلى بعض نقوله التى أخذها عبارات من عنده لم يصرح بها السلفى ، مما يوضح عدم دقته فى النقل .

وفيما يلى سوف أقدم نموذجاً عن كل موضع من المواضع السالفة التىنقل فيها:

١ - نموذج لما صرح فيه بالنقل عن السلفى : وذلك فى الجزء رقم (١) ص١٦١ من كتابه وفيات الأعيان « ترجمة القاضى الرشيد بن الزبير » .

قال عنه السلفى « ولى النظر بثغر الإسكندرية فى الدواوين السلطانية بغير اختياره فى سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، ثم قتل ظلماً وعدواناً فى المحرم سنة ثلاث وستين وخمسمائة رحمه الله وقرين هذا النموذج فى «معجم السفر» ص٥٨.

٢ - نموذج لما نقله عن السلفى واتخذه حجة دون ما عداه من الكتب الأخرى : قال ابن خلكان فى جـ٧ ص١٤٦ عندما اختلفت الأقوال فى تاريخ دخول جيش أسد الدين شيركوه مصر لأول مرة « قال شيخنا القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف المعروف بابن شداد فى كتابه الذى وسمه بـ « سيرة صلاح

الدين » أنهم دخلوا مصر فى ثانى جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة والقول الأول (فخرجوا من دمشق فى جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وخمسمائة فدخلوا مصر واستولوا على الأمر فى رجب من نفس السنة) أصح ، لأن الحافظ أبا طاهر السلفى ذكر فى « معجم السفر » أن الضرغام بن سوار قتل فى سنة تسع وخمسين وخمسمائة وأنه كان فى أول وصولهم - والحافظ السلفى أخبر بذلك لأنه كان مقيماً فى البلاد أول وصولهم وهو أضبط لهذه الأمور من غيره لأن هذا فنه وهو من أقعد الناس به وقرين ما ذكره عن السلفى نجده فى « معجم السفر » ص١٢٨ .

٣ - نموذج لما نقله ابن خلكان وأضاف إليه عبارات لم يصرح بها السلفى:

قال ابن خلكان فى جـ٣ ص ١٩٩ ، بصدد حديثه عن ابى المحاسن الرويانى: « قال الحافظ أبو طاهر السلفى : بلغنا أن أبا المحاسن الرويانى أملى بمدينة آمل ، وقتل بعد فراغه من الإملاء (بسبب التعصب فى الدين) فى المحرم سنة اثنتين وخمسمائة ».

وقرين هذه الترجمة نجدها فى « معجم السفر » ص ١٨٣ بيد أن العبارة التى بين القوسين لم يذكرها السلفى ولم يصرح بها .

كانت هذه أبز النقول التى دونت من كتاب « معجم السفر » ، ولعلنا بهذا نكون قد وقفنا على أثر السلفى الواضح فى مصنفات هؤلاء المؤرخين الذين جاءوا من بعده . ولو اتسع بنا المقام أكثر من ذلك لأفردت غير هؤلاء الكثيرين ممن انتفعوا بهذا العمل الرائد لذا فليس أمامى سوى أن أجملهم على النحو الآتى : مبينا أمام كل منهم اسم الكتاب الذى استرشد فيه بالمادة العلمية لكتاب « معجم السفر » .

- « المنذرى » فى كتابه « التكملة لوفيات النقلة » .

- « الذهبى » فى كتابيه « العبر » و « تذكرة الحفاظ » .

- « ابن حجر العسقلانى » فى كتابيه « لسان الميزان » و « تبصير المنتبه بتحرير المشتبه » .

- « السخاوى » فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » .

- « السيوطى » فى كتابه « بغية الوعاة » .

- « ابن العماد الحنبلى » فى كتابه « شذرات الذهب » .

وهكذا لبث كتاب « معجم السفر » على مر العصور مورداً لا ينضب لمؤرخى الإسلام بعامة ، فعرفوا له قيمته وانتقعوا به على أكمل وجه ، ووثقوا به مصنفاتهم .

الهوامش

(١) سلفة : ضبطها ابن خلكان وبين معناها بقوله : ونسبته (أى سلفة) إلى جده إبراهيم سلفة - بكسر السين المهملة وفتح اللام والفاء وفى آخره الهاء - وهو لفظ أعجمى الأصل فيه (سلبه) بالباء فأبدلت بالفاء ، ومعناه بالعربى ثلاث شفاه لأن إحدى شفتيه كانت مشقوقة فصارت مثل شفتين غير الأخرى الأصلية .

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان جـ١ ص ١٠٧ دار صادر بيروت د. ت . وانظر فى هذا المعنى ابن كثير البداية والنهاية مجلد ٦ جـ١٢ ص ٣٢٨ تحقيق دكتور أحمد أبو ملحم وآخرون ، دار الريان للتراث القاهرة ط١ ١٩٨٨م . ويقول د. السيد يعقوب بكر مترجم كتاب تاريخ الأدب العربى لكارل برو كلمان عن هذا اللفظ (سلية) بأنه مركب من « سه أى ثلاثة + لب أى شفة » فى الفارسية جـ٦ ص ٢٤٨ هامش (١) دار المعارف القاهرة ط٢ ١٩٨٣م .

(٢) جرواءن : محلة بأصبهان ويقال لها بالأعجمية « كرواءان » ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ٢ ص ١٣٠ دار صادر بيروت د. ت .

(٣) نظام الملك : هو أبو على الحسن بن على الطوسى ولد سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧م بقرية من نواحى طوس عمل فى بداية حياته فى دواوين الدولة الغزنوية بخراسان ، فلما أفل نجمهم انتقل إل خدمة السلاجقة ، واتخذه الب أرسلان سلطان السلاجقة وزيراً له ثم عينه ابن ملكشاه فى المنصب نفسه إلى أن قتل سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م . ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم جـ٩ ص ٦٤ دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن بالهند ط١ ١٩٤٠م .

(٤) الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ٢١ ص ٧ تحقيق بشار عواد معروف ، ومحيى هلال سرحان ، مؤسسة الرسالة بيروت ط١ ١٩٨٤ ، السبكى : طبقات الشافعية الكبرى جـ٦ ص ٣٣ تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحى ، مطبعة عيسى البابى الحلبى القاهرة ١٩٦٨م .

(٥) الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ١٢٩٨ دار الكتب العلمية بيروت د . ت ، السبكى : طبقات الشافعية جـ٦ ص ٣٣ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ١٠٧ .

(٧) البداية والنهاية جـ١٢ ص ١٧٦ .

(٨) تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ١٢٩٩ .

(٩) انظر الفقرة الخاصة بأقوال المؤرخين فى عدالته وسعة علمه ، ص ٣ .

(١٠) الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ١٢٩٩ ، الصفدى : الوافى بالوفيات جـ٨ ص ٣٥٢، اعتناء محمد يوسف نجم ، ألمانيا ط٢ ١٩٨٢ : الزركلى : الأعـلام جـ١ ص ٢١٥ ، دار العلم للملايين بيروت ط٥ ١٩٨٠م .

(١١) سير أعلام النبلاء جـ٢١ ص ٢٢ ، الصفدى : الوافى جـ٨ ص ٣٥٢ .

(١٢) سير إعلام النبلاء جـ٢١ ص ٢١ .

(١٣) مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حوادث الزمان جـ٣ ص ٤٠٤ ، مؤسسة الأعلمى بيروت ط٢ ١٩٧٠م .

(١٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا جـ٣ ص ١٩٨ ، تحقيق د. محمد حلمى محمد أحمد ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٧٣ .

(١٥) وفيات الأعيان جـ١ ص ١٠٥ .

(١٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٣ ص ٣١٧ .

(١٧) سير اعلام النبلاء جـ٢١ ص ٢٤ .

(١٨) الوافى بالوفيات جـ٨ ص ٣٥٤ ، وانظر أيضاً السبكى : طبقات الشافعية جـ٦ ص ٣٧.

(١٩) الصفدى : المرجع السابق والجزء والصفحة .

(٢٠) المعجم فى شيوخ أبى على الصدفى ص ٥١ ، بجريط ١٨٨٥م .

(٢١) وفيات الأعيان جـ١ ص ١٠٥ .

(٢٢) تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ١٣٠١ .

(٢٣) الوافى بالوفيات جـ٨ ص ٣٥٢ .

(٢٤) غاية النهاية فى طبقات القراء جـ١ ص١٠٢ ، نشر ج . برجستراسر دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٢ .

(٢٥) حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة جـ١ ص ٣٥٤ ، د. ت .

(٢٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ١٠٥ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ٢١ ص ١٢ ، وإلكيا الهراس هو : على بن محمد بن على ، تفقه ببلده ببغداد ، ورحل فى طلب العلم وعمره ثمانى عشرة سنة ، وكان بارعاً فى الفقه الشافعي وأصوله ، وأماماً قوى البحث دقيق النظر . ومن أشهر مؤلفاته « شفاء المسترشدين » وتوفى سنة (٥٠٤هـ/١١١٠م) ابن عساكر : تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى ص ٢٨٨ ، دمشق ١٩٢٨م ، ابن هداية : طبقات الشافعية ص ١٩١ ، تحقيق عادل نويهض ، بيروت ط٣ ١٩٨٢ .

(٢٧) البلوى : ألف يا للألبا جـ٢ ص ٢٩٤ القاهرة ١٨٧٠م .

(٢٨) السلفى : معجم السفر ص ٢٢٣ ، تحقيق عبد الله عمر البارودى ، دار الفكر بيروت ١٩٩٣م ، وهذه النسخة من معجم السفر هى التى اعتمدنا عليها فى دراستنا .

(٢٩) السلفى : معجم السفر ص ١٢٣ .

(٣٠) هو : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى ، كان أماماً كبيراً فى التفسير والحديث والنحو واللغة والبيان تشد إليه الرحال فى فنونه ، وكان معتزلى الاعتقاد متظاهراً به ، حتى نقل عنه أنه إذا قصد أحداً واستأذن عليه فى الدخول : يقول لمن يأخذ له الأذن : قل له أبو القاسم المعتزلى بالباب . وتوفى سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م . ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٥ ص ١٦٨ - ١٧٣ .

(٣١) المصدر السابق جـ٥ ص ١٧٠ .

(٣٢) معجم السفر ص ٢٨٣ .

(٣٣) المصدر نفسه ص ٣٩٢ - ٣٩٣ .

(٣٤) المصدر نفسه ص ٢٨٤ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء جـ٢٣ ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٣٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٣ ، تحقيق محمد صبيح ، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر القاهرة ١٩٧٤م .

(٣٦) المصدر نفسه والصفحة .

(٣٧) محمد عبد الله عنان : مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى ص ١٤ ، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٩١م .

(٣٨) المرجع نفسه ص ١٥ .

(٣٩) حسن عبد الحميد : الحافظ أبو طاهر السلفى ص ٢١١ ، بيروت ط١ ١٩٧٧م .

(٤٠) السخاوى : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٢٥٢ ، تحقيق وتعليق فرانز وروزنثال ، ترجمة د. صالح أحمد العلى ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٦٣م .

(٤١) معجم السفر ص ٢٧٢ ، السخاوى : الإعلان ص ٢٦٧ .

(٤٢) السلفى : الوجيز فى ذكر المجاز والمجيز ص ٣٩ ، تعليق محمد خير البقاعى ، دار الغرب الإسلامى بيروت ط١ ١٩٩٣م .

(٤٣) تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ١٢٩٩ .

(٤٤) طبقات الشافعية الكبرى جـ٤ ص ٤٤.

(٤٥) ص ١١٣ ، ومعجم بغداد توجد منه نسخة خطية بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم ٧٩ ، أدب .

(٤٦) ص ٢٢٤ .

(٤٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص ٥١٢ .

(٤٨) السخاوى : الإعلان بالتوبيخ ص ٣٧٨ .

(٤٩) تذكرة الحفاظ جـ٣ ص ١٠٩٣ ، السخاوى : الإعلان ص ٣٧٠ .

(٥٠) انظر المبحث الخاص بأثر السلفى فى من جاء بعده من المؤرخين فى هذه الدراسة .

(٥١) وفيات الأعيان جـ٣ ص ٣٢٠ .

(٥٢) معجم السفر ص ٢٣٠ ، قارن ما ورد فى هذه الصفحة بما ذكره ابن خلكان فى الجزء والصفحة السابقة .

(٥٣) جـ٤ ص ١٢٩٩ .

(٥٤) جـ٢١ ص ١٦ .

(٥٥) الإعلان بالتوبيخ ص ٢٢٤ .

(٥٦) المصدر السابق ص ٢٣٧ .

(٥٧) انظر مقدمة المحقق لكتاب معجم السفر ص ٣ .

(٥٨) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى حـ٦ ص ٢٤٩ .

(٥٩) سبق الحديث عن هذه المعاجم فى هذا البحث .

(٦٠) انظر ص ٢٩ من هذا البحث .

(٦١) معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب حـ٢ ص ٤٢١ ، دار الكتب العلمية بيروت ط١ ، ١٩٩١م .

(٦٢) انظر المصدر السابق حـ٣ ص ٢٢٧ ، وقارن بمعجم السفر ص ٨٦ - ٨٧ ، وللمزيد انظر المبحث الخاص بأثرالسلفى فى من حاء بعده من المؤرخين ، آخر هذه الدراسة .

(٦٣) انظر على سبيل المثال : ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، وهكذا إلى آخر الكتاب مع تفاوت بسيط بين الصفحات .

(٦٤) أميرنو ريزتيانو : أخبار عن بعض مسلمى صقلية الذين ترجم لهم السلفى فى معجم السفر مجلد ٣ ص ٤٩ هامش(١) مجلة كلية الآداب عين شمس ، عدد يناير ١٩٥٥م .

(٦٥) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٦٦) انظر مقدمة المحقق لكتاب معجم السفر ص٨ ، بيد أن هذا النص سقط من طبعة الكتاب ولم يرد منه سوى الجزء الأخير الذى يبتدى بعبارة « محمد الأصبهانى » إلى آخره ، المصدر نفسه ص١٣ .

(٦٧) الفيروز آبادى : القاموس المحيط ص ٦٤٩ مادة حزء ، بيروت ط٢ ١٩٨٧م .

(٦٨) المعجم الوجيز ص ٣٢٧ ، القاهرة ١٩٩٠م .

(٦٩) شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون حـ٣ ص ٦٢ ، دار العلم للملايين بيروت ط١ ، ١٩٩١م .

(٧٠) معجم السفر ص ٢١٩ .

(٧١) انظر على سبيل المثال - معجم السفر صفحات ٢٥١ ، ٢٦٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٨٨، ٤٣٩ ، ٤٥٦ .

(٧٢) معجم السفر ص ١١٣ - ١١٤ .

(٧٣) المصدر السابق ص ١١٤ - ١١٥ .

(٧٤) المصدر السابق ص ١٤٣ .

(٧٥) المصدر السابق ص١٤٦ .

(٧٦) المصدر السابق ص ٢٥٣ .

(٧٧) للمزيد انظر معجم السفر : صفحات ١٥٤ - ٢٤٧ - ٢٧٤ - ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٣١٦، ٣١٩ ، ٣٣٢، ٣٤٢ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٧٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٧، ٤٠١ .

(٧٨) يحدونا الأمل فى العثور على هذه الأجزاء الهامة من معجم السفر فى القريب العاجل أن شاء الله تعالى حتى يتمكن الباحثون من الاستفادة من هذه الوثيقة الهامة على النحو الأمثل.

(٧٩) ورد هذا التاريخ فى ثلاثة تراجم فقط بمعجم السفر ، انظر ص ٥٨ ، ٤٠٠ ، ٤٤٠ .

(٨٠) تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ١٣٠٣ .

(٨١) معجم السفر ص ٤٦٤ ، ابن الجزرى : غاية النهاية جـ١ ص ٤٣ .

(٨٢) معجم السفر ص ١٦٨ ، الذهبى : العبر جـ٣ ص ٦٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٨٠ القاهرة د. ت.

(٨٣) معجم السفر ص ٤٦٤ ، الذهبى : سير إعلام النبلاء جـ٢١ ص ١٢٢ - ١٢٣ ، العبر جـ٣ ص ٨١ .

(٨٤) الإعلان بالتوبيخ ص ٢٢٤ .

(٨٥) انظر ص ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٥٦ ، ٤٤٣ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ .

(٨٦) انظر معجم السفر ص ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٨٦ .

(٨٧) المصدر السابق ص ١٧١ .

(٨٨) المصدر السابق ص ١٨٨ .

(٨٩) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٦٧ السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٣٥٥ .

(٩٠) وفيات الأعيان جـ١ ص ١٠٦ .

(٩١) البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٩٢) النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٦٧ .

(٩٣) حسن المحاضرة جـ١ ص ٣٥٥ .

(٩٤) سير أعلام النبلاء جـ٢١ ص ١٧ .

(٩٥) وهو : المنذرى جامع مسودات « معجم السفر » الذى نحن بصدد الحديث عنه .

(٩٦) نقلاً عن الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ١٣٠٣ ، سير إعلام النبلاء جـ٢١ ص ٢٨ .

(٩٧) المنذرى : التكملة لوفيات النقلة جـ٣ ص ١٨٧ ، تحقيق د. بشار عواد معروف ، بيروت ط٢ ١٩٨١م منصور بن سليم : ذيل مشتبه الأسماء والنسب ورقة ٢٥ ، مخطوط بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٦٧٨ تاريخ .

(٩٨) التكملة لوفيات النقلة جـ٣ ص ١٨٧ .

(٩٩) الذهبى : سير اعلام النبلاء جـ٢٣ ص ٢١٨ ، الصفدى الوافى بالوفيات جـ٣ ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(١٠٠) الذهبى : المصدر السابق جـ٢٣ ص ٢١٩ ، الصفدى : المصدر السابق جـ٣ ص ٢٦٥.

(١٠١) سير اعلام النبلاء جـ٢٣ ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

(١٠٢) الوافى بالوفيات جـ٣ ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(١٠٣) معجم السفر ص ٤٦٧ .

(١٠٤) المصدر نفسه ص ٤٦٨ .

(١٠٥) ، (١٠٦) المصدر نفسه ص ٣٧٩ .

(١٠٧) المصدر نفسه ص٤٧ ، ٨٨ ، ٣٨٥ ، ٤٢٠ ، وهذا على سبيل المثال لا الحصر .

(١٠٨) المصدر نفسه ص ١٧٤ .

(١٠٩) المصدر نفسه ص ١٦٣ .

(١١٠) انظر المصدر نفسه الأمثلة بترتيب الصفحات ٢٤٤ ، ٢٥٦ ، ٣٢٧ .

(١١١) استجازة السلفى الأولى من الزمخشرى مجلد ٢٢ ص ١٧٧ - ١٧٨ى ، تحقيق د. بهيجة الحسنى ، مجلد المجمع العلمى العراقى بغداد ١٩٧٣م.

(١١٢) انظر على سبيل المثال : معجم السفر ص ٤٣٩ وقارنها بمعجم بغداد : ورقة ٤٦ - ٤٧ .

(١١٣) انظر على سبيل المثال : السمعانى : كتاب الأنساب حـ١ ص ١٨ - ١٩ تحقيق عبد الله عمر البارودى بيروت ط١ ، ١٩٨٨م .

(١١٤) انظر معجم السفر : ص ٧٩ هامش (٣) ، ٩٢ هامش (٢) ، ٩٤ هامش (١) (٢) ، ١١٣ هامش (١) ، ١٥٨ هامش (٢) ، ٢٦٠ هامش (٤) ، ٣٥٤ هامش (٢) .

(١١٥) كذلك لم يقدم له المحقق ، اللهم إلا بعض شذرات تتعلق بتعريف كلمة «معجم» اصطلاحاً مع نبذة مختصرة عن حياة المؤلف « السلفى » ، معجم السفر ص ٤ - ٧ .

(١١٦) انظر فهرس الأحاديث بمعجم السفر ص ٤٧٤ - ٤٩٣ .

(١١٧) معجم السفر ص ١٧٦ .

(١١٨) وهو : على بن جعفر بن على الصقلى المعروف بابن القطاع ، أحد العلماء المبرزين فى علم اللغة والنحو ، وله فى علم المعانى والشعر حظ كبير ، وكان موجوداً بصقلية حوالى سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م ، القفطى : إنباه الرواة على إنباه النحاه ص ٣٠٠ - ٣٠١ ، تحقيق محمد بو الفضل إبراهيم ، نشر دار الفكر العربى بالقاهرة ، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ط١ ١٩٨٦م ، وابن القطاع هذا أورد عنه السلفى الكثير من الأخبار عن تلاميذه - انظر على سبيل المثال : معجم السفر ص ٤٠٣ ، ٤١١ ، ٥٨٢ .

(١١٩) معجم السفر ص ٤٠٣ .

(١٢٠) انظر على سبيل المثال المصدر نفسه ص ١٥٣ ، ٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٧١ ، ٣٥٩ .

(١٢١) ياقوت الحموى : معجم البلدان حـ٢ ص ٣١٨ .

(١٢٢) القفطى : انباه الرواه جـ١ ص ٣٩٣ - ٣٩٤ ، ياقوت : معجم البلدان جـ٣ ص٣١٨.

(١٢٣) لعل السلفى يقصد بذلك كتابه « معجم السفر » .

(١٢٤) ص ٨٠ .

(١٢٥) الأمثلة على ذلك ص ١٩ ، ٢٠ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٥ .

(١٢٦) حسن المحاضرة جـ١ ص ٣٧٤ .

(١٢٧) صرح السلفى فى معجمه أكثر من مرة بأخبار هذه الرحلة التى استغرقت ثلاث سنوات من عمره ، مكث خلالها بالقاهرة من سنة ٥١٥ إلى ٥١٧ هـ انظر ص ١٩٩ ، ٢٣٤ ، ٣١٧ .

(١٢٨) انظر على سبيل المثال ص ٧٩ ، ١٧١ ، ١٩٢ ، ٢٠٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٥ ، ٢٨٩ ، ٢٣٦ ، ٤١٦ .

(١٢٩) الطرطوشى : نسبة إلى طرطوشة وهى مدينة بالأندلس تقع بالشرق من قرطبة ، ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ٤ ص ٣٠ .

(١٣٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان ـ٤ ص ٢٦٢ .

(١٣١) المصدر نفسه جـ٤ ص ٤٦٢ - ٤٦٤ .

(١٣٢) النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٢٣٢ .

(١٣٣) انظر ص ٣٢٥ ، ٣٣٢ .

(١٣٤) معجم السفر ص ١٧٥ .

(١٣٥) النجوم الزاهرة جـ٥ ص٢٢٥ .

(١٣٦) حسن المحاضرة جـ١ ص ٤٩٥ .

(١٣٧) انظر على سبيل المثال ص ١٤٠ ، ١٦٩، ٣٤٠ .

(١٣٨) السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٣٧٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : جـ٥ ص ٢٤٧ .

(١٣٩) انظر على سبيل المثال : ترجمة « أبو المحاسن الرويانى » بمعجم السفر ص ١٨٣ - ١٨٤ وقرينها بكتاب وفيات الأعيان جـ٣ ص ١٩٨ -١٩٩ .

(١٤٠) معجم السفر ص ٤٣٤ .

(١٤١) المصدر نفسه ص ٤٣٣ .

(١٤٢) المصدر نفسه ص ٢٧٥ .

(١٤٣) المصدر نفسه ص١٧٩ .

(١٤٤) المصدر نفسه ص١٨٣ .

(١٤٥) المصدر نفسه والعبارات الثلاث على التوالى بترتيب الصفحات الآتية : ١٩٦ ، ٢٦٠، ١٤٩ .

(١٤٦) المصدر نفسه ص ١٦٥ .

(١٤٧) المصدر نفسه ص ٣٣٨ .

(١٤٨) المصدر نفسه ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(١٤٩) أمثلة ذلك فى معجم السفر ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٩١ ، ٤٢٩ .

(١٥٠) انظر على سبيل المثال ترجمة « على بن المشرف الأنماطى » معجم السفر ص ٢٩٩ .

(١٥١) المصدر نفسه ص ٣٠٥ ، ٣٤٨ .

(١٥٢) هذه العبارات نطالعها بكثرة فى معظم صفحات الكتاب ، والأمثلة على ذلك ص ١٢٢ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢٥٣ .

(١٥٣) المصدر نفسه ص ٢١٤ .

(١٥٤) المصدر نفسه ص ١٥٣ - ١٥٦ .

(١٥٥) انظر على سبيل المثال ص ٢٤٧ ، ٢٩٨ .

(١٥٦) من ضمن خطة الباحث - أن شاء الله تعالى - عمل معجم للبلدان التى وردت بمعجم السفر وذلك فى القريب العاجل .

(١٥٧) معجم السفر ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(١٥٨) انظر هذه الأمثلة على التوالى بترتيب الصفحات الآتية : بالمصدر نفسه ص ١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٢٠٥ .

(١٥٩) انظر هذه الأمثلة على التوالى بترتيب الصفحات الآتية : بالمصدر نفسه ص١٨٤ ، ١٨٧ ، ٢٠٢ ، ٢١٦ ، ٢٥١ ، ٤٤٦ .

(١٦٠) انظر هذه الأمثلة ، بترتيب صفحاتها كالتالى : ص ١٦١ ، ١٦٣ ، ٣٠٧ .

(١٦١) لا يتسع المقام لذكر كل هذه المواضع : واحيل من يريد الإطلاع عليها إلى الأجزاء الخمسة من كتاب معجم البلدان وقرائنها فى كتاب معجم السفر .

(١٦٢) انظر ص ١٠ - ١٢ .

(١٦٣) انظر ص ٨ - ٩ .

(١٦٤) انظر على سبيل المثال لا الحصر جـ١ ص ١٠٨ ، ١٨٩ ، ٢٠٢ ، ٢٢٣ وجـ٢ ص ١١٥ ، ١٦٤ ، ١٩٢ ، ٢٢٨ ، ٢٩٠ ، وجـ ٣ ص ٥٢ ، ١٩١ ، ٢١٧ ، جـ٤ ص ٤٣ .

(١٦٥) انظر على سبيل المثال جـ٢ ص ١٠٨ - ١٠٩ ، جـ٣ ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(١٦٦) مثال ذلك فى انباه الرواة جـ٢ ص١١٥ ، وقرينه فى معجم السفر ص ١٦٢ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

ابن الأبار : محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨هـ/١٢٥٩م) .

- المعجم فى شيوخ أبى على الصدفى بجريط ١٨٨٥م .

البلوى : يوسف بن أحمد (ت ٦٠٥هـ / ١٢٠٩م) .

- ألف با للأبا جـ٢ القاهرة ١٨٧٠م .

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م).

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١٢ جزء المؤسسة العربية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، د. ت .

ابن الجزرى : شمس الدين محمد (ت ٨٣٣هـ/١٤٢٩م) .

- غاية النهاية فى طبقات القراء جزأن نشر ج . برجستراسر دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٢م .

ابن الجوزى : جمال الدين أبو الفرج (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) .

- المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم جزء ٩ دائرة المعرف العثمانية بحيدر إباد الدكن - الهند - ط١ ، ١٩٤٠م .

ابن خلكان : أبو العباس أحمد (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) .

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان سبعة أجزاء تحقيق د. إحسان عباس دار صادر بيروت د. ت.

الذهبى : محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) .

- سير أعلام النبلاء جزء ٢١ ، ٢٣ تحقيق بشار عواد معروف ، محيى هلال سرحان مؤسسة الرسالة بيروت ط١ ١٩٨٤م .

- تذكرة الحفاظ جزء ٤ دار الكتب العلمية بيروت د. ت.

السبكى : أبو النصر عبد الوهاب (ت٧٧١هـ / ١٣٦٢م) .

- طبقات الشافعية الكبرى جزء ٦ تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، ومحمود محمد الطناحى مطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة ١٩٦٨م .

السخاوى : محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م) .

- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ تحقيق وتعليق فرانز روز نثال ترجمة د. صالح أحمد العلى دار الكتب العلمية بيروت ١٩٦٣م .

السلفى : أبو الطاهر أحمد بن محمد (ت ٥٧٦هـ / ١١٨٠م) .

- معجم السفر تحقيق عبد الله عمر البارودى دار الفكر بيروت ١٩٩٣م .
- معجم بغداد مخطوط بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٤٧٩ أدب .
- الوجيز فى ذكر المجاز والمجيز تعليق محمد خير البقاعى دار الغرب الإسلامى بيروت ط١ ١٩٩٣م .
- استجازة السلفى ألأولى من الزمخشرى تحقيق د. بهيجة الحسنى مجلة المجمع العلمى العراقى بغداد مجلد ٢٣ ، ١٩٧٣م .

ابن سليم : وجيه الدين منصور (ت ٦٧٣هـ/١١٦٦م) .

- ذيل مشتبه الأسماء والنسب مخطوط بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٦٧٨ تاريخ .

السمعانى : عبد الكريم (ت ٥٦٢هـ / ١٠٥م) .

- كتاب الانتساب جزء (١) تحقيق عبد الله عمر البارودى بيروت ط١ ١٩٨٨م.

السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) .

- حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة جزء (١) د. ت.

الصفدى : صلاح الدين خليل (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) .

- الوافى بالوفيات جزء ٨ اعتناء محمد يوسف نجم ألمانيا ط٢ ، ١٩٨٢م .

ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧هـ / ٨٦٧م) .

- فتوح مصر وأخبارها تحقيق محمد صبيح دار التعاون للطبع والنشر القاهرة١٩٧٤.

ابن عساكر : أبو القاسم على (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م) .

- تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى دمشق ١٩٢٨م.

الفيروز آبادى : مجد الدين محمد (٨٠٣ هـ / ١٤٠٠م) .

- القاموس المحيط بيروت ط٢ ١٩٨٧م .

القفطى : جمال الدين أبو المحاسن (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) .

- أنباه الرواة على انباه النحاة أجزءا ١ : ٤ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم نشر دار الفكر العربى بالقاهرة ومؤسسة الكتب الثقافية بيروت ط١ ، ١٩٨٦م .

ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) .

- البداية والنهاية ١٤ جزء تحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرون دار الريان للتراث ، القاهرة ط ١ ، ١٩٨٨م .

المقريزى : تقى الدين أحمد (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) .

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء جزء ٣ تحقيق محمد حلمى محمد أحمد المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٧٣م .

المنذرى : زكى الدين عبد العظيم (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) .

- التكملة لوفيات النقلة أجزاء ١ : ٤ تحقيق بشار عواد معروف مؤسسة الرسالة بيروت ط٢ ، ١٩٨١م .

ابن هداية : أبو بكر الحسينى (ت ١٠١٤هـ/١٦٠٥م) .

- طبقات الشافعية تحقيق عادل نويهض بيروت ط٣ ، ١٩٨٣ م .

اليافعى : أبو محمد عبد الله (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) .

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حوادث الزمان جـ٣ مؤسسة الأعلمى بيروت ط٢ ، ١٩٧٠م .

ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) .

- معجم البلدان خمسة أجزاء دار صادر بيروت د. ت .

- معجم الأدباء أو ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب « خمسة أجزاء دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٩٩١م .

ثانياً : المراجع العربية الحديثة والمعربة :

بروكلمان : كارل :

- تايخ الأدب العربى جزء ٦ ترجمة د. السيد يعقوب بكر دار المعارف . القاهرة ط٢ ١٩٨٣م .

ريز تيانو : اميرنو .

- أخبار عن بعض مسلمى صقلية الذين ترجم لهم السلفى فى معجم السفر مجلة كلية الآداب عين شمس مجلد ٣ عدد يناير ١٩٥٥م .

الزركلى : خير الدين .

- الاعلام جزء (١) دار العلم للملايين بيروت ط٥ ١٩٨٠م .

صالح : حسن عبد الحميد (دكتور) .

- الحافظ أبو طاهر بيروت ط١ ، ١٩٧٧م .

عنان : محمد عبد الله .

- مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى القاهرة ١٩٩١م .

مصطفى : شاكر .

- التاريخ العربى والمؤرخون دار العلم للملايين بيروت ط١ ١٩٩٠م .

عمران سبته
كما شاهده ووصفه الأنصاري السبتى

د . كمال عنانى إسماعيل(*)

نظرة عامة حول تاريخ سبته منذ خضوعها للمسلمين حتى سقوطها فى أيدى البرتغاليين :

سبته بفتح السين وسكون الباء مدينة ساحلية قديمة(١) ، من مدن المغرب الأقصى . وتحتل سبته موقعاً استراتيجياً يتحكم فى مضيق جبل طارق وتحيط بها الجبال من ناحية الغرب . وهذا الوضع الجغرافى جعل اتصالها بالأندلس أقوى بكثير من اتصالها بالمغرب الذى تقوم على أرضه . ولهذا قدر لسبته منذ بداية الحكم العربى فى بلاد المغرب أن تلعب دوراً رئيسياً فى شئون الأندلس إذ كانت على صلة وثيقة ومستمرة به بحيث أصبحت مدينة عربية ذات طابع أندلسى فى مظهرها وثقافتها وفى وضعها السياسى(٢) .

والواقع إن قرب مدينة سبته من الشاطىء الأندلسى جعل تاريخها على مر العصور مرتبطاً بتاريخ الأندلس ، فمن سبته كان جواز الفاتحين المسلمين الأوائل من بر العدوة المغربية إلى الأندلس . وقد نجح الأمويين بالأندلس فى السيطرة على مدينة سبته التى كان يحكمها يوليان(٣) . واتخذوها قاعدة استراتيجية لهم لمقاومة الخطر الفاطمى فى القرن ٤ هـ/١٠م زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر(٤) . كما استولى عليها الحموديون حكام مالقة زمن ملوك الطوائف فى القرن ٥هـ/١١م(٥). ولقد تعرضت سبته فى عصر الطوائف لنفس ما تعرضت له سائر بلاد المغرب والأندلس من تمزق وفوضى سياسية فانتهز سقوط البراغواطى(٦) . فرصة تدهور أوضاع الحموديين ، وأعلن استقلاله بسبته ، مكوناً دولة من دول الطوائف العديدة التى ظهرت فى بلاد المغرب والأندلس فى تلك الفترة(٧) .

(*) مدرس بكلية الآداب – جامعة الأسكندرية .

وقد دخل سقوط البراغواطى فى صراع مع المرابطين انتهى بدخول سبته فى طاعة المرابطين على يد المعز بن يوسف بن تاشفين(٨) . ولم تبق سبته طويلاً في يد المرابطين حيث خضعت للموحدين على أثر مصرع تاشفين بن على بن يوسف أمير المرابطين فأعلن أهل سبته طاعتهم لعبد المؤمن بن على عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٥ م (٩).

وكان أن ظلت سبته خاضعة للموحدين حتى وفاه الرشيد الموحدى عام ٦٤٠هـ/١٢٤٢م حيث أعلن واليها اعترافه بالخليفة الموحدى الجديد السعيد بن المأمون ، وأعلن بيعته للأمير الحفصى أبى زكريا يحيى عام ٦٤٠هـ/ ١٢٤٣م ، وبذلك صارت سبته تابعه للحفصيين(١٠) إلى أن استقلت بها أسرة أندلسية تعرف ببنى العزفى فى القرن ٧هـ/١٣م(١١) . وفى عام ٧٠٥هـ/١٣٠٥م استولى سلطان غرناطة محمد بن نصر على سبته ، ونقل بنى العزفى إلى غرناطة حيث بقوا هناك إلى أن عاود المرينيون استخلاص سبته من يد النصريين سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م على أثر ثورة داخلية بالمدينة . وفى سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م عاد يحيى بن أبى طالب العزفى والياً على سبته من قبل السلطان المرينى أبى سعيد(١٢). وأخيراً سقطت سبته في أيدى البرتغاليين عام ٨١٨هـ/١٤١٥م نتيجة الصراع عل السلطة بين أبناء البيت المرينى ، وكذلك المنازعات بين بنى مرين وبنى عبد الواحد أصحاب تلمسان(١٣) وفى عام ١٥٨٠م آلت سبته إلى أسبانيا عندما ضم ملك أسبانيا فيلب الثانى البرتغال إلى مملكته . ومازالت سبته فى أيدى الأسبان إلى الآن(١٤) .

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أن مدينة سبته اشتهرت على مر العهود الإسلامية كدار للعلم والعلماء ، ويكفى أنها أنجبت من العلماء القاضى عياض بن موسى السبتى ، والشريف الإدريسى . وقد أورد صاحب كتاب بلغة الأمنية أسماء سبعة وأربعين رجلاً وامرأة واحدة من علماء سبته من القرن ٨هـ/١٤م . فى مختلف الفنون والعلوم(١٥) . نذكر منهم أبو عبد الله محمد بن هانى اللخمى الذى كان

يتولى التدريس والقراءة بمسجد القفال(١٦) وأبو القاسم بن عمران الحضرمى ناظر خزانة الجامع الأعظم(١٧) . وأبو محمد قاسم بن أبى حجه الأنصارى أستاذ المدرسة الجديدة(١٨) . والطبيبة الشهيرة عائشة ابنة الشيخ الكاتب أبى عبد الله ابن الجيار المحتسب بسبته(١٩) .

وفى ضوء الثبت المفصل لمعالم مدينة سبته الذى زودنا به الأنصارى يتضح أن مدينة سبته ظلت حتى أوائل القرن ٩هـ/١٥م تنعم بالرخاء والازدهار والعمران إلى أن سقطت المدينة فى أيدى البرتغاليين عام ٨١٨هـ / ١٤١٥م فتعرضت لأعمال السلب والنهب ونزح عنها معظم سكانها وتلاشت الآن معظم معالمها التى سنحاول كشف النقاب عنها من خلال ما دونه الأنصارى عن أثار تلك المدينة ومعالمها .

نبذه عن الكتاب ومؤلفه :

الواقع أننا لا نعرف شيئا عن مؤلف كتاب اختصار الأخبار سوى أنه كان من أبناء سبته حيث عرف نفسه فى مقدمة الكتاب بأنه محمد بن القاسم بن محمد ابن محمد بن أحمد عن بن عبد الملك الأنصارى السبتى الدار والنشأة والمولد(٢٠) . وسوى ما ذكر من أن أبا العباس بن أبى الخير الأنصارى جده من قبل الأم . وأن أبا العباس الدقاق من أصهار سلفه(٢١) .

وفى رأى الأستاذ عبد الوهاب بن المنصور أن أصل هذا السلف من قرية بحوز سبته تسمى بزبج ، لأنه يسميها قريتنا عندما يذكرها ، حيث كانت لهم بها أملاك ثم انتقلوا منها إلى سبته حيث تملكوا بعض العقارات(٢٢) .

وقد أشار الأنصارى فى كتابه اختصار الأخبار إلى ثلاثة كتب الأول بعنوان « بغيه السامع » وقد ذكر صراحة أنه من تأليفه(٢٣) . والكتاب الثانى يسمى الأعلام. ورغم أنه لم يشر صراحة إلى أنه من تأليفه إلا أنه يحيل عليه كثيراً فى كتابه اختصار الأخبار، كقوله «حسبما استوعبنا وصفه فى الأعلام» . وبسطنا القول فى الأعلام وبالغنا فى وصفه فى الأعلام(٢٤) . مما يدل على أن كتاب الأعلام أيضاً من تأليفه .

أما الكتاب الثالث فعنوانه الكواكب الوقادة(٢٥) ، وربما كان من تأليفه أيضاً .

الكتــاب :

أما عن كتاب اختصار الأخبار موضوع الدراسة فإن النظرة المتأنية في محتويات هذا الكتاب تجعلنا نضعه بين كتب الخطط ، التى تعالج عمران المدن وتعين فى رسم خرائطها الطبوغرافية .

وتبرز أهمية الكتاب وقيمته فى أن مؤلفه كان من أبناء سبته ، وأنه استقى معلوماته من خلال المعاينة والمشاهدة الشخصية ، بحيث لا يدين لأحد بشئ من معلوماته الغزيرة وأوصافه الدقيقة لمختلف مظاهر عمران سبته . ففى هذا الكتاب ما ليس فى غيره مما صدر من مصنفات عن مدينة سبته ، لا سيما ما يتعلق بعمران المدينة فى عصرها الإسلامى . ومن هنا تتأكد قيمته وأهميته من حيث إنه زودنا بصورة واضحة لعمرانها الإسلامى قبل أن يحتلها البرتغاليون ويتحول مظهرها الإسلامى إلى تراث أسبانى برتغالى .

• وتجدر الإشارة إلى أننى لست أول من عنى بكتاب اختصار الأخبار ، فقد نشره لأول مرة الأستاذ ليفى بروفنسال عام ١٩٣١م بمجلة هيسبريس ثم أعيد طبعه بتطوان سنة ١٩٤٠م(٢٦) اعتماداً على نسخة كانت فى حوزة آل بنونه بتطوان ، كما نشر هذا النص أيضاً الأستاذ محمد بن تاويت سنة ١٩٥٨ فى العددين الثالث والرابع من مجلة تطوان . وفى سنة ١٩٦٢م قام الأستاذ خواكين بالبين بترجمة هذا النص إلى اللغة الأسبانية ، ونشر الترجمة بمجلة الأندلس تحت عنوان وصف سبته فى القرن ١٥م(٢٧) .

وأخيراً نشره الأستاذ عبد الوهاب بن منصور فى الرباط سنة ١٩٨٣م .

ورغم أهمية كل هذه النشرات التى صدرت لهذا النص ، إلا أن جهود الناشرين اقتصرت على مقابلة نصوص الكتاب ، وإبراز ما بينها من اختلافات بسيطة مع إبداء بعض الملاحظات والتعليقات حول الشخصيات التى استفدت منها فى دراستى ، لاسيما ، ما نشره كل من الأستاذين خواكين بالبين وعبد الوهاب بن منصور .

وهكذا تحدد عملى الذى يهدف على خلاف كل النشرات سالفة الذكر- إلى إبراز قيمة كتاب اختصار الأخبار فى رسم صورة واضحة لعمران سبته الإسلامية فى ضوء مقابلة ما ذكرته المصادر التاريخية والجغرافية فى الفترة الطويلة التى سبقت تأليف هذا الكتاب ، وما استجد من أبحاث فى الفترة التى تلت تأليفه والتى تقدر بنحو ستة قرون إلا قليلاً .

التخطيط العام لمدينة سبته الإسلامية وأهم المظاهر العمرانية فى ضوء وصف الأنصارى :

الواقع إن دراسة العمران فى مدينة سبته ومحاولة رسم صورة واضحة لها فى العصر الإسلامى من حيث تخطيطها ومظاهر عمرانها الاجتماعى والاقتصادى يتسم بالصعوبة . ذلك أن تلك المدينة فقدت طابعها كمدينة إسلامية منذ أن احتلها البرتغاليون فى عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م حيث تبدل مظهر المدينة ، ولم يبق الآن من الفن المعمارى الإسلامى ما يمكن أن تقع عليه عين الملاحظ العابر ، إذ أن معظم تراثها المشاهد الآن هو تراث أسبانى برتغالى حل محل التراث المعمارى الإسلامى. ولذا فإننا نجد حاجة ملحة إلى إلقاء الضوء حول عظمة التراث المعمارى المندرس بمدينة سبته فى العصر الإسلامى .

أولاً : النطاق المسور للمدينة :

(أ) الأسوار :

تعد الأسوار من أهم المنشآت العسكرية التى تميزت بها المدن الإسلامية . وتؤدى الأسوار إلى جانب وظيفتها الحربية فى حماية المدينة من أى عدوان خارجى، وظيفة اجتماعية ، وهى تحديد النطاق العمرانى الآهل بالسكان(٢٨) .

ولما كانت مدينة سبته-بفضل موقعها الاستراتيجى- تعتمد فى الدفاع عن نفسها على البحر المتوسط الذى يدور بها شمالاً وجنوباً وشرقاً(٢٩) مشكلاً خندقاً طبيعياً مانعا يكفل حمايتها ، ويتيح لعمرانها المرتفع التحكم فى الدفاع عنها، بحيث

أصبحت على حد تعبير ياقوت الحموى « ضاربة فى البحر داخلة كدخـول كـف على زند »(٣٠) .

وهكذا نرى أن المنطقة الوحيدة التى تحتاج إلى حماية هى الجهة الغربيـة(٣١). ولذلك استلزم الأمر إحاطتها بسور يحميها من هذه الجهة بحيث يصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصانتها .

وللأسف أن الأنصارى لم يزدنا بأية معلومـات عـن هـذا السـور . غـير أن البكرى أكد على أن المدينة كـانت مسـورة بسـور محكـم البنـاء بنـاه عبـد الرحمـن الناصر(٣٢) ، وذلـك عندمـا اقتحـم مدينـة سبته وأقـام الدعـوة الأمويـة بهـا عـام ٣١٩هـ/٩٣١م . وقد أشار ابن عذارى إلى ذلك بقوله (وقد عمل النـاصر على تحصين تلك المدينة فشكها بالرجال وأتقنها بالبنيان وبنـى سـورها بـالكذان(٣٣) . وألزم فيها من رضيه من قواده وأجناده)(٣٤) .

وقد تهدم هذا السور وأعيد بناؤه فـى عهـد البرتغـاليون ، وبذلـك اختفـت معالمه الإسلامية باستثناء بعض أجـزاء شـوهتها أعمـال التجديـد والترميمـات التـى ألحقت بها منذ أن سقطت سبته فى أيدى البرتغاليين(٣٥) . و لم يعـد باقيـاً الآن من السور سوى برج مربع(٣٦) نسبه الأستاذ تراس إلى عصر الدولـة الأمويـة ، وبالتحديد لعصر الخليفة عبد الرحمن الناصر ، على أساس أن البرج مبنى بقطـع ضخمة وغير منتظمة من الحجارة على نظام أديـه وشـناوى ومثـل هـذا النظـام وكذلك مادة البناء كانت من أكثر مواد البناء شـيوعاً فـى بـلاد الأندلـس فـى عصـر الخلافـة علـى حـين نـدر استـخدام هـذا النـوع مـن الحجـارة فـى بـلاد المغرب(٣٧) .

هذا عن السور الغربى لمدينة سبته ، أمـا عـن النظـام الدفـاعى لبقيـة أجـزاء المدينة الشمالية والشرقية والجنوبية فلا تظفر فى وصف الأنصارى أيضاً بأية إشـارة تتعلق بما كان عليه النظام الدفاعى للمدينة فى تلك الجهات .

وفى ظل هذا الصمت من قبل الأنصارى ، نتسأل هل ظلت تلك الجهات تعتمد فى تحصينها على البحر المتوسط كخط الدفاع الأول عن المدينة . أم أنها كانت مسورة هى الأخرى بأسوار لحمايتها؟

ومع أن ما وصلنا فى المصادر العربية عن أسوار سبته وتحصينها يعتبر شحيحاً للغاية ، بحيث لا تعين بشكل كاف على دراستنا التحليلية لهذه الأسوار ، ولا تتضمن أية تفاصيل عن موقعها ، إلا أننا نستطيع من هذه المادة الهزيلة التى زودنا بها مؤرخو العرب وجغرافيهم أن نجيب على التساؤل السابق . فنقول بأن الجهة الشرقية من المدينة كانت محاطة بسور بناه المنصور محمد بن أبى عامر عندما شرع فى بناء قصبة أو مدينة جديدة فى الجهة الشرقية من مدينة سبته فوق جبل الميناء(٣٨) والتى عزم على نقل سكانها إليها . ولكنه توفى قبل أن يتم مشروعه . وفى ذلك تشير المصادر العربية فتقول (وفى آخر المدينة بشرقها جبل كبير يسمى جبل الميناء . وقد كان محمد بن أبى عامر أمر أن يبنى لهذا الجبل مدينة ويتصل إليها أهل سبته ، فبنى سورها ، ومات، ولم يتم ما أراد . والسور باق إلى وقتنا هذا كأنه بنى بالأمس وهو يظهر من بر الأندلس لبياضه . ومن غريب ما فى ذلك السور أن فيه شقة مستطيلة بأبراجها ومبنية بالزيت عوضاً من الماء . وكان غرضه إتمام عمله على هذا ، لولا الإنفاق الكثير فإن البناء بالزيت أصلب وأبقى مع مرور الدهور والأزمان فلم يساعده الأجل رحمه الله)(٣٩) .

وإلى الشمال الشرقى من هذا السور الذى بناه المنصور بن أبى عامر ، أقام أبو القاسم العزفى سوراً آخر ، حيث أشار ابن أبى زرع فى سياق حديثه عن أحداث عام ٦٤٩هـ/١٢٥١م إلى أن أبا بكر أبى قاسم العزفى بنى فى السنة المذكورة سور سبته بجانب المنارة . وقيل بل كان ذلك فى سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م وهو الأصح(٤٠) .

وفى ضوء الإشارة السابقة نستدل على أن الجهة الشمالية الشرقية من مدينة سبته حيث كانت تقع المنارة أو الناظور -كما هو موضح فى

الخرائط التى تبين مواقع المدينة ومعالمها الإسلامية(٤١) - ظلت بدون سور إلى أن دعت الضرورة أبا القاسم العزفى أن يطوق هذه الجهة بسور لحمايتها من الأخطار الخارجية .

وتوضح المخططات التى وضعت لأسوار سبته قبل تهدمها ، أن السور الشرقى كان يمتد شمالاً ثم يتجه شرقاً فى شكل زاوية قائمة إلى المنطقة المعروفة بجبل المينا ، حتى يصل إلى باب المينا ، ثم يواصل سيره صعوداً إلى أن يصل أقصى ارتفاع له عند الربوة التى يوجد بها مسجد المقبرة(٤٢) .

أما عن الجهة الجنوبية فعلى الرغم من أن المصادر العربية لم تبين الوضع الذى كان عليه النظام الدفاعى للمدينة فى هذه الجهة ، إلا أن أحد الباحثين أكد بأن الجهة الجنوبية من المدينة والتى كان يحيط بها بحر أبى السول فى الشاطئ الجنوبى ، كان يحيط بها هى الأخرى سور يرجع تاريخه إلى العصر الإسلامى(٤٣). وقد استند فى ذلك على المخططات التى وضعت لمدينة سبته فى القرن ١٥م ، والتى نرى فيها بوضوح جزءاً من سور إسلامى قد فتح فيه باب يعرف بباب مضرب الشبكة أو باب الزلاقه ، يتقدمه برج يعرف ببرج الماء(٤٤) . كما نلاحظ أيضاً من خلال أحد هذه المخططات أن مدينة سبته كانت محاطة تقريباً بأسوار تبدأ من الجهة الشمالية الشرقية وتمتد مارة ببابين فى السور الشرقى المشار إليهما برقمى٢،٣ لتصل إلى أقصى الجهة الجنوبية الغربية من المدينة(٤٥) . ونخرج من ذلك بنتيجة هامة وهى أن الجهة الجنوبية من المدينة كان يحيط بها هى الأخرى سور يرجع إلى العصر الإسلامى ، أقيم لحماية تلك الجهة التى كان يتركز فيها أهم أحياء سبته ومراكزها العمرانية ، مثل الجامع والمدرسة الجديدة والقيسارية .

وأما عن الجهة الشمالية من المدينة ، فكانت فيما يبدو هى الجهة الوحيدة غير المسورة ، حيث اعتمدت فى حمايتها بشكل رئيسى على بحر الرملة فى الطرف الشمالى من المدينة . ويؤكد ذلك ، المخططات التى وضعت للمدينة ، والتى لا نرى فيها أية آثار لأسوار تطوق المدينة من هذه الجهة(٤٦) . كما أكد الأستاذ

كارلوس جوثالبث على هذه الحقيقة بقوله أن المسلمين لم يقيموا أسوار حول هـذا القطاع الممتد بطول بحر الرملة فى شمال المدينـة ، ويدلـل علـى ذلـك بـأن جيـوش البرتغاليين عندما فكرت فى غزو المدينة دارت حولها ثم استقر رأى قائد الأسـطول البرتغالى على أن يكون غزوها من الجهة الشمالية المطلة علـى بحـر الرملـة ، حيـث إنهـا الجهـة الوحيـدة التـى يسـهل الوصـول منهـا إلى داخـل المدينـة لأنهـا غـير مسورة(٤٧) .

وفى تصورى أن إحجام أهل سبته عـن تسـوير الجهـة الشـمالية مـن المدينـة يرجع إلى أن التوسع العمرانى فى العصر الإسلامى لمدينة سـبته-وفقـاً لمـا نـراه فـى الخرائط التى توضح مواقع المدينة ومعالمها-كـان مركـزاً بصفـة أساسـية فـى ثلاثـة قطاعات رئيسية ، هى القطاع الشرقى حيث كانت المدينة التـى شـرع فـى بنائهـا المنصور بن أبى عامر . والقطاعان الجنوبى والغربى حيث كـان يضمـان بداخلهمـا كافة المراكز العمرانية للمدينة الدينية والمدنيـة والاقتصاديـة ، والتـى سـوف نشـير إليها بعد ذلك فى دراستنا لمراكز المدينة العمرانية .

وبهذا نكون قد أوضحنا فى ضوء المصادر العربية والمخططات التى وضعت للمدينة ، الشكل الذى كان عليه النطاق المسور لمدينة سبته فى العصر الإسلامى .

والواقع أن تتبع ذلك النطـاق فـى الوقـت الحـالى أمـر بـالغ الصعوبـة ، لأن معظم أسوار المدينة قد تهدم واختفى فى جملة ما أختفى من آثارها الإسلامية التـى كانت تزهو بهـا فـى العصـر الإسـلامى . ومـا تبقـى مـن تلـك الأسـوار تعرض للسقوط وتحول إلى أسوار درست عبر السنين . وهـذا مـا تبينـه المخططـات التـى أعدت لسبته منذ القرن ١٥م وحتى بداية القرن ١٩م(٤٨) .

(ب) أبواب المدينة :

أحصى الأنصارى عدد أبواب سبته فى العصر الإسـلامى بـ ٥٠ (خمسين باباً)(٤٩) . ونظراً لاندثار معظم هذه الأبواب فمن الصعب تحديد مواقعها ، وتتبـع

أسمائها التى أطلقت عليها عبر حقب التاريخ الإسلامى لمدينة سبته . كما أن الأنصارى نفسه لم يذكر من أسماء تلك الأبواب سوى تسعة أبواب ، وهى حسب ترتيب ذكره لها .

أولاً : الأبواب ذات الطابع الحربى :

١ - الباب الأحمر :

أورد الأنصارى ذكر هذا الباب بمناسبة حديثه عن أحد مقابر سبته بقوله (ومن أشهرها بمقبرة مضرب الشبكة البرانى خارج الباب الأحمر قبور الشرفاء الحسينين وهم عدد كثير جمعتهم روضة واحدة(٥٠) . وكانوا رضى الله عنهم ونفعنا بمحبتهم أهل علم وصلاح ودين)(٥١) .

ويبدو أن هذا الباب كان ينفتح فى سور المدينة الجنوبى ، المعروف بسور البحر لإطلاله على بحر أبى السول فى الشاطئ الجنوبى . ويؤكد ذلك ما ذكره الأنصارى فى موضع آخر عن مقبرة أخرى من مقابر المدينة بقوله : (وبمقبرة الربض البرانى داخل سور البحر من الموضع المعروف بمضرب الشبكة قبر الشيخ الفقيه أبى عبد الله عمر بن مسعود والعكس المعروف بابن الكنغر)(٥٢) .

وبإمعان النظر فى هذا النص والنص السابق ، يمكن الاستدلال على أن الباب الأحمر كان يقع داخل النطاق المسور الجنوبى لمدينة سبته ، بحيث يفضى من الجهة الجنوبية إلى خارج المدينة ، ومن الجهة الشمالية إلى داخلها ، فيصبح موضع مضرب الشبكة بقبورها خارج السور من الداخل وفقاً لما ورد فى نص الأنصارى.

٢ - باب فاس :

كان يقع هذا الباب فى القطاع الغربى من سور المدينة(٥٣) الذى يطوق منطقة أفراك Afrag(٥٤) على مقربة من أحد زوايا المدينة التى شيدها السلطان أبو عنان بن أبي الحسن(٥٥) . وقد أشار الأنصارى إلى اسم هذا الباب وموقعه ومشيده فى أكثر من موضع . فمرة يذكره بمناسبة حديثه عن زوايا مدينة سبته

بقوله (ومن الزوايا الزاوية الكبرى التى أبتناها السلطان الأشهر مولانا أبو عنان بن أبى الحسن بخارج باب فاس أحد أبواب أفراك)(٥٦) .

ومرة أخرى يشير إليه بمناسبة حديثه عن أبواب المدينة ، فيؤكد أنه كان أحد أكبر أبواب قصبة أفراك ، وفى هذا الصدد يقول (وأبواب أفراك ثلاثة أكبرها باب فاس الذى وضعه السلطان أبو الحسن المرينى ، بانيه على شكل باب السبع من فاس الجديد كرسى مملكته وعلى مثاله)(٥٧) ومرة ثالثة يشير الأنصارى إلى هذا الباب فيقول (وبخارج باب فاس من أبواب أفراك المذكور سبقتان سبقة(٥٨) من ألف باع ومائتين وسبقة من ألف باع)(٥٩) .

وإذا فحصنا بقايا هذا الباب التى لا تزال قائمة بين أسوار حديثة بنيت فى العهد البرتغالى(٦٠) نلاحظ أنه كان يحظى بمظهر الحصانة والفخامة التى تتجلى فى ضخامة واجهته التى يتوسطها فتحة متسعة يكتنفها من الخارج على الجانبين بروزان أو كتفان يبدوان من ضخامتها أشبه ببرجين مبنيين بقطع حجرية منتظمة الشكل . أما بنية جدران الباب ، فتشير بقاياه إلى أنه كان مشيداً بالدبش والآجر المصقول والمنتظم فى صفوفه .

ويقارن الأستاذ بافون مالدونادو بين هذا الباب وبين غيره من الأبواب الموحدية ، فيؤكد أنه كان مطابقاً فى تصميمه لبعض الأبواب الموحدية ذوات المداخل المستقيمة المقسمة إلى ثلاثة ممرات متتابعة فى خط محورى(٦١) . ويذكر بأن هناك تطوراً واضحاً طرأ على نظام العمارة الحربية المغربية ، بتأثير من الأندلس. فنظام هذا الباب يعد امتداداً للتقاليد الموحدية وتطوراً لما وصلت إليه العمارة الحربية فى عصر بنى نصر من حيث تطبيق فكرة نظام التقسيم الثلاثى المدرج فى تتابع(٦٢) الذى طبق على نحو رائع فى العديد من أبواب غرناطة لاسيما باب السلاح(٦٣) والعدل(٦٤) .

وبوجه عام يعد باب فاس رغم تهدم أجزاء كثيرة منه الوحيد بين أبواب المدينة الذى لا يزال فى حالة أقرب ما تكون إلى حالته الأصلية فلولا آثار هذا

الباب ما كنا قد عرفنا شيئاً عن أبواب سبته الإسلامية التى تهدمت فى جملتها ، وأقيم مكانها أبواب حديثة .

٣ - الباب الجديد أو الأعظم :

كان يقع هذا الباب فى الجهة الشمالية الغربية من سور المدينة على مقربة أيضاً من قصبتها(٦٥) . وكان يمثل حلقة الوصل بين مدينة سبته وربضها الخارجى، حيث يقع على مشارف الطريق المؤدى إلى ذلك الربض(٦٦) .

ويصف الأنصارى هذا الباب بقوله (وعدد الأبواب خمسون باباً ، منها الباب الأعظم الشهير الضخم ، والهيكل الذى لا يلقى له نظير ، المعروف بالباب الجديد . هذا الباب من مفردات سبته، ومن آثار الملوك بها اكتنفته قلهره(٦٧) ، عظيمة البناء هائلة المنظر ، سامية فى الجو ، قد استقلت على عشرة قباب وأربعة عشر قوساً . وبابه الأوسط بين قلهرتين ثنتين بارزتين من القلهرة العظمى . والباب فى اتساعه والارتفاع قد أربى على الغاية وجاوز الحد والنهاية . وقوسه وفياصله قد أحكم بناؤها بالكذان بأعجب صفة وأبدع واتقان(٦٨) .

ويبدو من وصف الأنصارى لهذا الباب وأسلوب بناءه أنه كان أكبر أبواب سبته الحربية ،وأكثرها فخامة وضخامة ، وبذلك صحت تسميته بالباب الأعظم . كما يفهم أيضاً من وصف الأنصارى لهذا الباب بأنه كان يتألف من فتحتين إحداهما تؤدى إلى خارج المدينة ، وكان يكتنفها برجين بارزين عن البرج الذى يحمى الفتحة التى تؤدى إلى داخل المدينة .

وإذا كان وصف الأنصارى السابق لهذا الباب هو الشاهد الوحيد لما كان عليه فى العصر الإسلامى ، إذ اختفى فى الوقت الحاضر بين أطلال المدينة بحيث لا نستطيع التعرف على شكله المعمارى ونظامه التخطيطى ، فإن الأستاذ كارلوس جوثابلس استطاع أن يرسم صورة تقريبية افتراضية لهذا الباب(٦٩) من خلال بعض بقاياه التى تم الكشف عنها ، فضلاً عن الرواية البرتغالية التى دونها المؤرخ البرتغالى

جوميث ايانيش دى ازورارا ، Gomez Ennes de Azurara والتى تحكى قصة غزو البرتغاليين لمدينة سبته على يد الملك البرتغالى خوان الأول . وقد اعتمد الأستاذ كارلوس على الأحداث التاريخية التى ساقها ازورارا والتى تؤكد أن جيوش البرتغاليين قد دخلت مدينة سبته عبر باب مكون من ثلاثة مداخل(٧٠) تتصل فيما بينها عن طريق ممر منكسر مقسم من الداخل إلى ثلاثة أقسام متتابعة ، يقطعها ساحتان أو رحبتان(٧١) يشغلها غرف مقبية ، يفصلها فى مراحل أو مسافات منتظمة جدران بها فتحات معقودة تؤلف فيما بينها ممرات جانبية بها شرفات صغيرة، تمكن المدافعين عن الباب من قذف العدو بالسهام والمواد الملتهبة(٧٢) .

وتجدر الإشارة إلى أن الأستاذ تراس نسب هذا الباب إلى بداية القرن ٦هـ/١٢م(٧٣) ، وقيّمه بأنه كان من نوع الاستحكامات الضخمة التى تمتاز بقيمتها العظيمة فى الدفاع عن المدن ، لاشتمالها على العديد من النقاط الدفاعية، مثل الممر متعدد الانكسار ، والأبراج الضخمة التى تحيط بفتحة الباب . ومثل هذا النوع من الأبواب فى رأى تراس يماثل الأبواب المرابطية وأبواب عصر بنى مرين ، وإن كان ارتفاعه الهائل يجعله قريب الشبه بأبواب عصر بنى نصر فى القرن ٨هـ/١٤م (٧٤) .

ثانياً : الأبواب ذات الطابع المدنى :

يقتصر استخدام هذا النوع من الأبواب على أوقات السلم ، فليس لها أية قيمة حربية وتنحصر وظيفتها فى تسهيل مهمة الاتصال بين العمران الداخلى للمدينة من حيث إفساح الطريق أمام المارة أو القوافل التجارية ، أو لتصريف مياه الأمطار . ويستدل من أسماء أبواب سبته ذات الطابع المدنى التى زودنا بها الأنصارى أن بعضها كان يتسمى عادة باسم المنطقة المؤدية إليها مثل باب الفرج(٧٥) وباب المينا(٧٦) وباب الزلاقة(٧٧) أو بأسماء أصحاب الحرفة التى يزوالها سكان تلك المنطقة مثل باب المشاطين(٧٨) وباب الحلويين(٧٩) وباب الحلفاويين(٨٠) وباب القصابين(٨١) .

ومن أهم ما أمدنا به الأنصارى أيضاً من معلومات عن أبـواب مدينـة سبته ذات الطابع المدنى ، ذكره لخمسة أبواب كـانت تنفتـح فـى سـور الربـض الـبرانى الذى هدمه السلطان أبو سعيد(٨٢) .

وفى ضوء الإشارة السابقة نستطيع أن نقرر حقيقة مـا ذكـره العلامـة ليفـى بروفنسال بأنه قد تنمو خارج هـذه الأبـواب (أى أبـواب المدينـة بنوعيهـا الحربـى والمدنى) . أرباض تزدهر عبر مرور السنين ، وتنتهى بالاندماج فى المدينة ، فيبنى سور جديد أوسع يضم هذه الأرباض فتصبح بدورها حومات ، وفى هذه الحالة لا يحدث تعديل فى أسماء الأماكن وقد يهدم الباب بعد انعدام سـبب وجـوده ، وقـد يهدم السور الذى فتحت فيه الأبواب أيضاً ، ولكن الأسماء تظل باقية(٨٣) .

ثانياً : أرباض سبته فى نص الأنصارى

المقصود بالربض البؤرة العمرانية أو الضاحية التى تقع خارج أسوار المدينة ، والتى تنشأ غالباً نتيجة اتساع العمران داخل نطـاق المدينـة ، وفيضـه إلى خارجهـا بعد تسويرها . وفى بعض الأحيان تطلق لفظة ربض خطئاً على الأحياء الداخليـة الواقعة داخل النطاق المسور للمدينة ، حتى ولو كانت قريبة جدا من مركز المدينـة العمرانى ، وليست كما تعنى هذه الكلمـات فـى معناهـا المتعـارف عليـه وهـو أن الربض يكون خارج النطاق المسور للمدينة وليس بداخله .

وقد فسر الأستاذ توريس بلباس هذا اللبس فى استعمال كلمـة ربـض هـذه فى غير موضعها بأن هذه الكلمة - وهى كلمة حى أو حارة- تطلق بصفـة عامـة على المواضع المبهمة غير المحددة بحدود معينة ولذلك نشأ الخلط بين كل منهما(٨٤).

وعن أرباض مدينة سبته يقول الأنصارى (وعدد الأرباض فى الحقيقة ستة: الثلاثة العامرة المتصلة بالبلد ، والربض الـبرانى حيـث الحـارة(٨٥) والكسـابون(٨٦) الذى هد سوره السلطان أبو سعيد المرينى من حافة (٨٧) الغد إلى مضرب الشبكة)(٨٨) .

ويكشف نص الأنصارى عن حقيقة ما ذكرناه آنفاً من أن لفظة ربض كانت أعم وأشمل من كلمة حى ، وأن هناك خلطاً بين الاصطلاحين بحيث أصبحت كلمة ربض تطلق على الأحياء الداخلية . ومن أمثلة ذلك الخلط ما ذكره الأنصارى عن الربض البرانى تميزًا له عن الأرباض الداخلية المتصلة بالبلد .

ويفهم من نص الأنصارى أيضاً أن الربض البرانى كان محاطاً بسور لحمايته من الأخطار الخارجية ، ويبدو أن هذا السور قد فقد أهميته بمرور الزمن بعد اتساع النطاق العمرانى للمدينة واندماج الربض داخل المدينة ، وهو الأمر الذى دعى السلطان أبا الحسن إلى هدم السور المذكور حسبما نص على ذلك الأنصارى.

وللأسف ليس فى إمكاننا أن نعرف على وجه التحديد مواقع الأرباض الستة التى أشار إليها الأنصارى وأسماءها ، وإن كان قد ذكر فى أكثر من موضوع فى ثنايا وصفه لمعالم مدينة سبته اسم ربضين هما : الربض الأسفل والربط الأوسط ، فضلاً عن الربض البرانى سالف الذكر . ويستدل من اسم الربضين الأولين (الأسفل والأوسط) على وجود ربض ثالث علوى لم يذكره الأنصارى ، لعله ربض زكلو الذى ورد ذكره فى المدونات البرتغالية فى سياق عرضها لسقوط سبته فى أيدى البرتغاليين(٨٩) وبذلك يكتمل عدد الأرباض الثلاثة المتصلة بالبلد التى حسب نص الأنصارى كانت عامرة بالمنشآت ، لاسيما الأسواق ، حيث كان يوجد بها وحدها ٣٢ (اثنان وثلاثون سوقاً) . من مجموع ١٧٤ (مائة وأربعة وسبعين سوقاً) وهو عدد أسواق المدينة كلها(٩٠) .

وإذا كان الأنصارى لم يشر إلى مواقع الأرباض الستة التى ذكرها ، ولم يزودنا بأية تفاصيل عنها ، فإن أحد المصادر البرتغالية عوضتنا عما أغفل الأنصارى بشأن مواقع تلك الأرباض ، حيث أمكن الأستاذ كارلوس جوثابلس أن يرسم صورة تقريبية لمواقع الأرباض الثلاثة التى أشار إليها الأنصارى من خلال رواية المؤرخ البرتغالى ازورارا Azurara فمن خلال الوصف التفصيلى الدقيق لأحداث

المعارك التى دارت بين البرتغاليين وأهل سبته داخل تلك الأرباض ، استنتج بأن تلك الأرباض كانت تقع فى القطاع الأوسط من المدينة ، والمحصور بين سورين يمتدان شرقاً وغرباً ، ويصل بينهما سور أوسط يفصل بينهما ، ويحدد النطاق العمرانى للأرباض الثلاثة(٩١) . وكان ينفتح فى السور الشرقى بابان الأول مشار إليه فى المخطط الذى وضعه جوثابلس برقم (٢) ، ويعرف بالباب العلوى والثانى مشار إليه برقم (٣) ويعرف بالباب السفلى ، ومن هذين البابين حسب رواية ازورارا دخلت جيوش البرتغاليين إلى أرباض المدينة الثلاثة(٩٢) .

وقد أشاد الأنصارى باتساع عمران أرباض سبته ، وكثرة مبانيها الجنائزية التى كانت لها مكانة روحية ودينية فى نفوس أهل سبته ، لما تضمه من قبور العلماء والفقهاء . فيذكر بأنه كان فى الربض السفلى قبر الشيخ الفقيه الحافظ أبى الربيع سليمان بن سبع العجيسى(٩٣) مؤلف شفاء الصدور(٩٤) .

وفى الربض الأوسط كانت توجد مقبرة الشريعة ومن أشهر مقابرها قبر الشيخ الصالح العابد أبى عبد الله القرمونى من أهل سبته ، وقبر الفقيه القاضى أبى الحسن ، وقبر الإمام الصوفى أبى محمد عبد الجليل الأوسى الأندلس(٩٥) .

كذلك يشير الأنصارى إلى وجود العديد من المبانى الدينية ، والأسواق التجارية ، والصناعية ، بتلك الأرباض ، مثل خزانة جامع الربض الأسفل(٩٦) ، وسوق العطارين(٩٧) فضلاً عن مصليات الأرباض التى كانت تقع فى أرض عظيمة الاتساع(٩٨) .

ثم يوضح الأنصارى بعد ذلك أن تلك الأرباض كان يفصلها عن بعضها البعض حفائر(٩٩) مثل الحفير الكبير المحيط بالربض البرانى ، والحفير بينه وبين الأرباض الثلاثة من الشطابين(١٠٠) إلى مضرب الشبكة ، والحفير الهائل المعروف بالسهاج(١٠١) الفاصل بين الأرباض والمدينة(١٠٢) .

ثالثاً : الأزقة :

من الثابت أن معظم الشوارع الرئيسية بمدن المغرب الإسلامى تمتاز بضيقها وتعرجها وتتفرع من تلك الشوارع شبكه من الأزقة والدروب والزنقات بعضها نافذ ومعظمها غير نافذ(١٠٣) .

وقد أخبرنا الأنصارى بأن عدد أزقة مدينة سبته كان ٢٥٠ (مائتا زقاق وخمسون)(١٠٤) . كما حفظ لنا العديد من أسماء تلك الأزقة المندثرة . مثل زقاق ابن عيسى(١٠٥) وبنى العزفى ، وغيرهم من أعلام الفقهاء وأكابر التجار ، وزقاق أبى عبد الله القاضى الزاهد من أشياخ القاضى عياض . وزقاق ابن يربوع(١٠٦) . وزقاق العزفى أبى العباس وزقاق أبى على ابن الشراك وأبى القاسم ابن الشاط(١٠٧) وزقاق خطاب(١٠٨) .

وفى ضوء ما ذكره الأنصارى من أسماء أزقة سبته يتضح أن معظمها كان يحمل اسم أعلام الأسرات التى كانت تعيش فيها واسم شخصية هامة . كما أن بعضها يحمل اسم المنطقة التى تقع بجوارها أو يوجد فيها أو يؤدى إليها الزقاق مثل زقاق الخندق الكبير الذى يعرف فى القديم بخندق المين(١٠٩) ويعرف الآن بخندق الدجاج(١١٠) .

ويضيف الأنصارى أن كل زقاق من العدد المذكور تنغلق عليه دروب ، وعلى تلك الدروب بيات تجرى عليهم الجرايات إلى غير ذلك (١١١) .

وفى الفقرة السابقة إشارة إلى الأمور المتعلقة بالتحكم فى تلك الأزقة وتوفير الآمان لسكانها عن طريق حراس لها يسمون بالدرابين(١١٢) .

ويفهم مما ذكره الأنصارى عن أزقة سبته أن بعضها كان من الاتساع بحيث كان يضم العديد من المنشآت مثل القصور والحمامات(١١٣) والأفران(١١٤) .

أما عن شوارع سبته الإسلامية فلم يرد فى نص الأنصارى أى ذكر لها غير أن الدراسات الطبوغرافية الحديثة المعتمدة على المصادر الأسبانية والبرتغالية المتعلقة

باسترداد المدينة أكدت على أن بعض شوارع سبته كانت موجودة على هيأتها فى العصر الإسلامى ، واحتفظت بأسمائها العربية بعد الاسترداد البرتغالى للمدينة وتوزيع عقاراتها على النصارى البرتغاليين . ومن أهم تلك الشوارع ، الشارع الكبير الذى كان يخترق الجهة الشرقية من المدينة والمعروف الآن باسم شارع Sanjurjo(١١٥) ، ومن هذا الشارع كان يتفرع زقاق أبى عيسى المعروف الآن باسم الطريق الأعظم Gran via (١١٦) والذى كان يقسم المدينة إلى قسمين أو شطرين حسب نص الأنصارى(١١٧) .

وفضلاً عن هذا الشارع كانت تشتمل المدينة على شارعين متعامدين يؤلفان محوري المدينة ، أحدهما كان يطلق عليه شارع العطارين والمعروف حالياً باسم شارع خاودينس Calle jaudenes (١١٨) والآخر كان يسمى بشارع الموثقين أى كتاب الوثائق Calle de los Notarior(١١٩) والمعروف حالياً باسم شارع سان اودنيا Calle de O'donnell(١٢٠) .

ويفيد الباحث كارلوس جوثابلس بأن هذين الشارعين كانا يخترقان القطاع الشمالى الشرقى من المدينة ، ويمتدان إلى مسجدها الجامع ومدرستها المعروفة بالمدرسة الجديدة(١٢١) . وكانت المنطقة التى يشقها الشارعان المذكوران من أهم أحياء المدينة إذ تضم العديد من المنشآت الدينية والمدنية الملتفة حول مسجد المدينة الجامع والذى تتفرع من ساحته الحارات والدروب المؤدية إلى معظم أحياء المدينة(١٢٢) .

رابعاً : المراكز العمرانية بمدينة سبته :

١ - المراكز الدينية :

كانت مدينة سبته فى العصر الإسلامى تضم عدداً من المنشآت الدينية من مساجد ومدارس وأربطة وزوايا ، بحيث شكلت تلك المنشآت نصيباً كبيراً من التكوينات المعمارية لمدينة سبته الإسلامية ، تدل عليه الإحصاءات التى أوردها الأنصارى لتلك المنشآت . وفيما يلى دراسة لأهم هذه المنشآت الدينية حسب ترتيب ذكر الأنصارى لها .

- المساجد :

يصور لنا الأنصارى أهمية المساجد وكثرتها بمدينة سبته بقوله (وعدد المساجد ألف مسجد . وأعظم هذه المساجد وأشرفها على التحقيق المسجد الجامع العتيق . بلاطاته اثنان وعشرون بلاطاً وبقبلتها شمسيات من الزجاج الملون بصناعات شتى معقودة بالرصاص ، والقنوات الفاصلة بين البلاطات ومجارى القسائم والميازيب من الرصاص كذلك . ودرجات المنبر اثنتا عشرة درجة(١٢٣). وتميز عن سائر جوامع بلاد المغرب كلها بالبلاط الأوسط الضخم والبناء المرتفع السمك ، وبالمقصورة الهائلة الغريبة الشكل(١٢٤) . وبه صحنان ، أحد الصحنين أكبر من الآخر وبكل واحد منهما جبان اثنان ، وصومعته قديمة من عمل الأوائل)(١٢٥) .

ومن أهم ما يمكن تسجيله من ملاحظات على النص السابق ما يلى :

١ - أنه على الرغم من مغالاة الأنصارى فى تقدير أعداد مساجد سبته فإن ذلك يبين مدى كثرتها . ويمكن تحديد العدد الضخم الذى ذكره الأنصارى لمساجد سبته بأنه يشمل المصليات الملحقة بالمنازل العامة .

٢ - لم يشر الأنصارى إلى موقع الجامع بالنسبة لعمران سبته أو الأصل الذى أقيم عليه ، ولا إلى تاريخ تشييده . وعلى الرغم من ذلك نستطيع بفضل الإشارات التاريخية المقتضبة التى أمكن استخلاصها من المصادر العربية والمدونات المسيحية الأسبانية والبرتغالية ، أن نجيب عما أغفل ذكره الأنصارى . فالنسبة لموقع الجامع فأغلب الظن أنه كان يقع فى وسط المدينة(١٢٦) فى نفس الموضع الذى تشغله الكاتدرائية الحالية على مقربة من البحر . ويؤكد هذا الافتراض إشارة أحد المدونات البرتغالية الخاصة بالاسترداد البرتغالى للمدينة فى سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م . وفى ذلك يقول المؤرخ البرتغالى جوميث ايانيس دى ازورارا (وفى اليوم الثالث والعشرين من

شهر أغسطس قام ملك البرتغال بتحويل المسجد الجامع بمدينة سبته إلى كنيسة كاثوليكية وأقيم فيها حفل كبير وصلاة شكر في يوم الأحد التالي ٢٥/٨/١٤١٥م وجرى في ذلك الحفل ترسيم أبناء الملك الثلاثة حسب رغبتهم فرساناً) .

ويضيف أزورارا أن المسجد المذكور كان مفروشاً بالحصير وفقاً لما هو متبع في عادة المسلمين من فرش أرضية مساجدهم بنبات الحلفا . وأنه عندما تم استرداد المدينة والاستيلاء على المسجد لم ينزع هذا الحصير وإنما أضيف إليه حصير جديد فوق الحصير القديم (١٢٧) .

أما عن أصل البقعة التي أقيم عليها جامع سبته فكان موضعه الأول كنيسة بيزنطية ، هدمها فيما يبدو الفاتحون المسلمون ، وأقاموا على أرضها مسجدهم الجامع . ونستند في ذلك على نص رواه البكري في ذكر مدينة سبته نصه (ومدينة سبته مدينة قديمة سكنها الأول . وبها آثارهم بقايا كنائس وحمامات وماؤها مجلوب من نهر آويات مع ضفة البحر القبلي في فناءٍ إلى الكنيسة التي هي اليوم الجامع)(١٢٨) .

وأما عن تاريخ جامع سبته فيكتنفه الغموض . ولعل قلة ما أورده مؤرخو العرب عن هذا الجامع كان سبباً في أننا لا نعرف على وجه التحديد تاريخ أو أسماء العرفاء الذين أشرفوا على بنائه . ومع ذلك فمن الممكن أن نضع تاريخاً تقريباً لهذا الجامع بفضل نص أورده الأستاذ خواكين بالبين جاء فيه أن الخشني صاحب كتاب تاريخ قضاة قرطبة الذي عاش السنوات الأولى من حياته في القيروان ، كان قد خرج منها إلى الأندلس ، وفي طريقه إلى الأندلس مر على سبته في عام ٣١٢هـ/٩٢٤م وفيها تعلم أصول الفقه وشارك في تصحيح اتجاه قبلة مسجد سبته التي كانت منحرفة عن الاتجاه الصحيح(١٢٩) . ومعنى ذلك أنه شرع في تشييد هذا الجامع في التاريخ المشار إليه أو قبله بقليل .

ويبدو أن جامع سبته ظـل موضـع اهتمـام الأمـراء والخلفـاء الذيـن تنـاولوه بالزيادة والتعديل على مر العهود ، حيث أن سنة ٤٨٤هـ/١٠٨٧م تسـجل تـاريخ قيام الأمير يوسف بن تاشفين بالزيادة في جامع سبته . وفي ذلك يقول صـاحب كتاب الحلل الموشية (ولما كان سنة ٤٨٤هـ تحـرك يوسـف بـن تاشـفين إلى سبته لجواز عساكره اللمتونية إلى الأندلس لمنازلة ملـوك الطوائـف وحصـار بلادهـم . وفي أثناء مقامه بها أمر ببناء المسجد الجامع بسبته والزيادة فيه . فـزاد فيـه حتـى أشرف على البحر وبنى البلاط الأعظم منه)(١٣٠) .

وقد أورد ابن عذاري نص أخر أشار فيه إلى الزيادة المذكورة بقولـه (وكـان يوسف بن تاشفين أمر القاضي محمد بن عيسى ببنيان جـامع سبته وزاد فيـه حتـى أشرف على البحر وكان بنيانه عام واحد وتسعين)(١٣١) .

ومن الملاحظ أن ابن عذارى لم يكمل تاريخ البناء حيـث أشـار إلى التـاريخ المذكور (٩١) ضمن حوادث عام ٥٢٨هـ/١١٣٣م . والراجـح أن تـاريخ هـذه الزيادة حسب نـص ابـن عـذارى كـانت سـنة ٤٩١هــ/١٠٩٧م على أسـاس أن يوسف بن تاشفين توفي في سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م(١٣٢) .

وأيا ما كان اختلاف النصين المذكورين في تحديـد تـاريخ الزيـادة المذكـورة فإن الذي لاشك فيه أنها تمت في عهد يوسف بن تاشفين ، وأنها نفذت من الجهة الجنوبية أي من جهة جدار القبلة حيث كان يطل الجامع من هذه الجهـة علـى بحـر أبي السول في الشاطئ الجنوبي كما أن الأمير يوسف بن تاشـفين هـو الـذي أقـام البلاط الأوسط الضخم المرتفع السمك حسب وصف الأنصاري(١٣٣) أو الأعظـم كما يسميه صاحب الحلل الموشية(١٣٤) .

ويفهم من وصف الأنصاري للبلاط الأوسط بمسـجد سبته أنـه كـان أكـبر بلاطات الجامع وأكثرها ارتفاعاً ، وأن هذه ميزة مـيزت جـامع سبته عـن جوامـع بلاد المغـرب كلهـا . والحقيقـة غـير ذلـك ، لأن ظـاهرة ارتفـاع البـلاط الأوسـط واتساعه عن بقية البلاطات تمثلت في العديد من المساجد المغربيـة والأندلسـية قبـل

جامع سبته ، مثل جامع القيروان والزيتونة وقرطبة . كما طبقت أيضاً فى قصور عصر الخلافة التى تتبع فى تخطيطها نظام البلاطات . وعلى هذا فإن تلك الظاهرة تعد من الظواهر الهامة التى تميزت بها أغلب عمائر المغرب والأندلس الدينية والمدنية بحيث أصبحت الطابع المميز لتخطيط تلك المنشآت(١٣٥) . وتجدر الإشارة إلى أن جامع سبته قد تعرض لزيادة أخرى على يد القاضى عياض(١٣٦) وذلك فى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م(١٣٧) .

وتصمت المصادر العربية خلال القرون الثلاثة التالية وحتى سقوط مدينة سبته فى أيدى البرتغاليين عام ٨١٨هـ/١٤١٥م عن ذكر شىء عن هذا الجامع بحيث يعد وصف الأنصارى سالف الذكر هو الشاهد الوحيد لما كان عليه جامع سبته بعد احتلالها بنحو سبع سنوات (٨٢٦هـ/١٤٢٢م) . وهو تاريخ تأليف الأنصارى لكتابه موضوع الدراسة والذى أكد فيه بأن بلاطات الجامع قد بلغت اثنتين وعشرين بلاطة(١٣٨) .

ولا يجب أن نترك ماذكره الأنصارى دون مناقشة ، لأن الرقم الذى أورده بشأن عدد بلاطات الجامع مبالغ فيه . وأغلب الظن أن هذا الرقم يمثل عدد الأساكيب الممتدة بعرض الجامع وليس عدد البلاطات أو الأروقة الطولية ، لأنه لو صح هذا الرقم (٢٢ بلاطة) لأصبح الجامع ، عميقاً جداً(١٣٩) . كما أن البكرى الذى وصف الجامع فى عصر المرابطين ، وهو العصر التى تمت فيه زيادة كل من الأمير يوسف بن تاشفين والقاضى عياض أشار بأن الجامع كان يتألف من خمس بلاطات فقط(١٤٠) . ومهما بلغ عدد البلاطات التى أضيفت للجامع فيما بعد فمن المستبعد أن يصل عددها إلى أثنين وعشرين بلاطة . لاسيما وأن هناك مساجد أخرى فى بلاد المغرب والأندلس تعرضت لزيادات عديدة على مدار عهود متباينة. ومع ذلك لم يصل عدد بلاطاتها إلى هذا العدد الذى ذكره الأنصارى . ومثال ذلك جامع القيروان أكبر المساجد الجامعة الباقية وأعظمها مظهراً ، كان يتألف بعد أن بلغ منتهاه من سبع عشرة بلاطة تمتد على عشرة أساكيب(١٤١) وكذلك

جامع الزيتونة الذى بلغ عدد بلاطاته (١٥) خمس عشرة بلاطة(١٤٢) وأيضاً جامع قرطبة الذى على الرغم من عظم مساحته لم تزد عدد بلاطاته عن ١٩ تسع عشرة بلاطة(١٤٣) .

مساجد أخرى جامعة وغير جامعة بمدينة سبته :

وإلى جانب جامع سبته الكبير كان يوجد بالمدينة جامعان آخران هما مسجد زكلو أكبر مساجد سبته بعد المسجد الأعظم حيث كان يتألف من سبع بلاطات ، وقد بناه أبو القاسم العزفى صاحب سبته(١٤٤) وجامع التبانين الذى كانت تقام فيه صلاة الجمعة ، وكان يقع فى ربض المدينة السفلى(١٤٥) .

ونضيف إلى تلك المساجد الجامعة عدد آخر من المساجد غير الجامعة التى كانت تزخر بها مدينة سبته فى العصر الإسلامى ، والتى اندثرت شأن مساجدها الجامعة ولم يعد لها أى أثر ولم يرد بشأنها أية إشارات لافى المصادر أو فى المدونات المسيحية ، وإن كان الأنصارى قد زودنا بأسماء بعضها مثل مسجد الحلفاويين(١٤٦) ومسجد المحلة(١٤٧) ومسجد القفال(١٤٨) .

- المصليات :

أشار الأنصارى إلى توافر المصليات خارج أسوار مدينة سبته ، حيث بلغ عددها ستة مصليات(١٤٩) وقد دلت أوصاف الأنصارى لتلك المصليات على حسن تصرف المعمار ، وإقامة نماذج منها مختلفة عن بعضها البعض ، بسبب اختلاف مساحتها وموقعها ووظيفتها . فالمصلى الكبير أو مصلى المدينة أتاح موقعه المتميز خارج أسوار المدينة فى مساحة واسعة فرصة استخدامه كمصلى للعيدين جرياً على سنة الرسول فى إقامة الصلاة فى أماكن واسعة خارج المدينة(١٥٠) . كما أعطى هذا الموقع المتميز لهذا المصلى المتمثل حسب وصف الأنصارى فى أنه يقع فى موضع منقطع وسط البحر(١٥١) ميزة أمنية بحيث أوجبت الضرورة فى أوقات الحصار والفتن استخدامه للصلاة ، لما يتوفر فيه من

شروط أمنية قد لا تتوفر فى غيره من المساجد والجوامع التى كانت تتركز فى قلب المدينة(١٥٢) . ويتجلى أيضاً أثر الموقع والوظيفة فى اختيار مصليات سبته فى المصلى الملكى الذى كان خاصاً بسكان القصر الملكى (أفراك) من الأمراء والسلاطين وما يتبع هؤلاء من جنود وحراس(١٥٣) وفى تخصيص بقيه مصليات سبته حسب ما نص عليه الأنصارى لأهل الأرباض والقصبه(١٥٤) .

- المدارس :

بعد ما كانت جوامع سبته ومساجدها تؤدى مهمتها فى خدمة الدين والعلم صارت المدارس تبنى للمشاركة فى القيام بهذه المهمة . والغالب أنها كانت تقوم بمهمة التعليم والإسكان للطلبة الوافدين على سبته للتعلم على أساتذتها(١٥٥) فقد كانت مدينة سبته منذ القرن ٥هـ/١١م مركزاً مرموقاً للدراسات العربية الفقهية والطبية بفضل العناصر الأندلسية الوافدة إليها ، وهى العناصر التى تزايد عددها منذ أوائل القرن ٧هـ/١٣م .

وتزخر كتب التراجم بأسماء قضاة ومحدثين وقراء ومفسرين ونحويين من أبناء سبته من أصول أندلسية(١٥٦) .

ويمكن أن نستنتج من النصوص التاريخية أهمية مدينة سبته كمركز إشعاع ثقافى حيث أكد ذلك وصف البكرى لها فى قوله (إنها لم تزل دار علم)(١٥٧) كما يؤكده ابن الخطيب فى قوله (بأنها بصره علوم اللسان وخزانة كتب العلوم)(١٥٨) . وكذلك يبين المقرى المناظرات الأدبية التى كانت تجرى بين علماء سبته كالمناظرة التى جرت حول استعمال (ماذا) بين النحوى الشهير أبى الحسن ابن أبى الربيع وبين الأديب مالك ابن المرحل(١٥٩) .

ويكفى دليلاً على مكانة سبته العلمية أن الباعث على كتابة رسالة الشقندى فى فضائل أهل الأندلس كان الجدل الذى وقع فى مجلس صاحب سبته أبى يحيى ابن زكريا حول علماء الأندلس والمغرب(١٦٠) .

ويذكر الأنصارى مدرستين شهيرتين بسبته هما مدرسة الشيخ المحدث على الشارى الغافقى السبتى(١٦١) والمدرسة الجديدة التى ابتناها السلطان المرينى أبو الحسن(١٦٢) .

و لم يصرح الأنصارى بآية تفاصيل عن المدرسة الأولى التى بناها أبو الحسن الشارى ، على حين أفاض بعض الشيء فى وصف المدرسة الجديدة التى بناها أبو الحسن المرينى بقوله (والمدرسة الجديدة العظيمة البناء المتسعة الزوايا ذات الصنائع العجيبة وأعمدة الرخام والواحة المتعددة الغالية الثمن التى ابتناها السلطان أبو الحسن المرينى مخلد الآثار الدالة على شماخة الملك وعلو المقدار)(١٦٣) .

وفى موضع آخر يشيد الأنصارى بميضأة تلك المدرسة بقوله (وأبدعها صناعة وأحكمها بناء ميضأة المدرسة الجديدة تحتوى على بيوت ثمانية ومطهرة كبير(١٦٤) وفى كل منها نقير من الرخام(١٦٥) يصب فيها ميزاب من النحاس ، وفرش الجميع ألواح منحورة من الصخر ، وبوسطها صهريج مفروش بالزليج(١٦٦) الملون . وقبتها مؤلفة(١٦٧) ومن بعض صنائعها نوّر البابونج(١٦٨) يخاله الناظر إليه خلقة من أحكام الصناعة يجلب الماء إلى ذلك كله بالدواليب) (١٦٩).

ووفقاً لما أوردته الوثائق البرتغالية الخاصة بسقوط مدينة سبته في أيدى البرتغاليين فإن هذه المدرسة تحولت بعد الاسترداد مباشرة إلى دير ، وأنه قد أطلق عليها بعد تنصيرها اسم مصلى سنتياجو ermita de santiago(١٧٠) .

وفى عام ١٥٦٠م أقيم فى المدرسة مصلى آخر يبعد عن الأول الذى كان قد أقيم فى وسط المدرسة(١٧١) وقد ظلت المدرسة رغم تحويلها إلى عدة أديرة ومصليات مسيحية محتفظة بصورتها التى كانت عليها فى العصر الإسلامى ، حيث ورد ذكرها فى الأدب البرتغالى عام ١٦٤٨م (بأنها بناء عظيم من عمل المسلمين يضم ١٠ (عشرة) أعمدة من الرخام الأبيض ، قواعدها من الرخام الأسود وجدرانها منقوشة بزخارف رائعة . ولا يزال يتوج مدخلها - حتى بعد

تحويلها إلى دير - لوحتان من الرخام تتضمنان نقوشاً كتابية بـالخط العربـى نصهـا «الحمد لله. تم بحمـد الله هـذا البنـاء رجـاء ثـواب الله بـأمر مـن أبـى عنـان سـنة ٧٤٧هـ»(١٧٢) .

وإذا نظرنا إلى نهاية هذا النص الـذى نقلـه الكـاتب الأسـبانى مسـكرنيلاس Mascarenilas عن أحد المدونات البرتغالية ، يتضح أن ما ورد يشوبه الخلط والخطأ، حيث ذكرت الرواية أن السلطان أبا عنان هو الـذى شيد المدرسـة الجديـدة على أساس أن ذلك مسجلاً بنقش كتابى كـان لا يـزال يتـوج مدخلهـا حتـى منتصـف القرن ١٧م . وهذا يتعارض مع ما ذكره الأنصارى الذى أكد بأن المدرسة من بناء السلطان أبى الحسن . ويؤكد صحة ما ذكره الأنصــارى أن التـاريخ المسـجل فـى النص الكتابى لا يقع فى فترة حكم السلطان أبى عنان الذى كان قد ثار على أبيـه أبى الحسن بتلمسان عام ٧٤٩هـ واستولى على المغرب الأقصـى(١٧٣) ، فـى حـين يقع التاريخ المذكور ٧٤٧هـ فى النص الكتابى فى فترة حكم أبى الحسـن . وعلـى هذا فمـن المؤكـد أن هـذه المدرسـة قـد شيدت فـى عهـد السـلطان أبـى الحسـن واستكملت فى عهد ابنه أبى عنان الذى ربما حاول طمـس أعمـال أبيـه . لاسـيما وأنه قد ثار عليه فأزال اسم أبيه ووضع مكانه اسمه دون أن يغير التاريخ الأصلى.

وفى الربع الأول من القرن الثامن عشر الميلادى ، تم تجديد المدرسة بما فيهـا من أديرة ومصليات . ومع ذلك لم تمـس التغيرات المتواليـة جوهـر البنـاء . ويقـرر ذلك وصف Carrea de Franca أحد كتاب القرن الثـامن عشـر الميـلادى لهـا بقولـه (بأنها كانت عبارة عن قاعـة مقسـمة إلى ثلاثـة أروقـة تقـوم علـى عمـد وتيجـان وقواعد من الرخام والحجارة السوداء) . كما وصف محرابها بأنه (ظل قائماً علـى حاله لم يحدث فيه شىء سوى أنهم جعلوا عليه صليباً)(١٧٤) .

مما سبق ذكره يتبـين مـدى إسـهام أعمـال الإضافـات والـترميم والهـدم فـى تشويه المدرسة الإسلامية وطمس معالمها التى تحتـاج مـن أجـل الكشـف عنهـا إلى دراسات مبنية على حفائر علمية . وهذا أمر يصعب تحقيقـه بعـد أن أقيـم مكانهـا

الآن مبنى حديث عبارة عن ثكنات للجند . ومن هنا فإن تصورنا لنظام المدرسة التخطيطى يبدو صعباً . ومع ذلك فقد قام الأستاذ كارلوس جونالبس Carlos Gozalbes بوضع رسم افتراضى لتلك المدرسة(١٧٥) اعتمد فيه على أوصاف بعض الكتاب والرحالة من القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادى . فضلاً عن بعض الرسوم التوضيحية التى سجلتها الخرائط القديمة للمدرسة بعد تحويلها إلى دير أو مصلى كنسى .

وقد اعتمد الأستاذ كارلوس فى نظريته الافتراضية لتخطيط أو منظور المدرسة على تجريدها من كل الملحقات غير الإسلامية ، بحيث يبقى منها عناصر المدرسة الأصلية التى رجح أنها كانت تتألف من قاعة مكونة من ثلاثة أروقة عمودية على جدار المحراب الذى كان يقع فى الجهة الجنوبية من القاعة ، ويغطى الأروقة الثلاثة أسقف هرمية مسنمة تمتد من الغرب إلى الشرق . وتطل القاعة على بهو يتوسطه صهريج ، ويكتنف هذا البهو من جهاته الشرقية والغربية والجنوبية سقائف معقودة تشغلها حجرات لإقامة الطلبة . وخلف السقيفة الجنوبية توجد قاعة كبيرة للوضوء والاغتسال مغطاه بقبة نصف أسطوانية.

أما المئذنة فكانت تتوج الجهة الشمالية من المدرسة . وكان ارتفاعها حوالى ٢٥م وكانت تتكون من طابقين الأول مربع الشكل ينفتح فيه على مستويين نوافذ توأمية فى المستوى الأول من أسفل ومفردة فى المستوى الثانى من أعلى.

أما الطابق الثانى من أعلى فكان أصغر من الطابق الأول وهو على شكل مثمن يعلوه سقف أو خربوش مسنم.

ويضيف الأستاذ كارلوس بأن أبواب المدرسة كانت تنفتح فى جهتيها الشرقية والغربية(١٧٦) .

الأربطة والزوايا :

من المنشآت الدينية بمدينة سبته الأربطة[١٧٧] والزوايا[١٧٨] فمع شيوع وانتشار التصوف بتلك المدينة التى تكون فيها تفكير صوفى لم تنطفئ شعلته من سبته إلا بانتهاء السيادة الإسلامية عليها[١٧٩] .

أقيمت العديد من الربط والزوايا كمساكن للفقراء والزهاد والغرباء . وكان يتولى إنشاء تلك الربط والزوايا الحكام والأثرياء من أهل سبته . ويشيد الأنصارى بكثرة ما شيد بمدينة سبته من تلك الربط والزوايا بقوله(وعدد الروابط والزوايا سبع وأربعون زاوية ورابطة محازية للبحر من جانب الجنوب والشمال داخل المدينة والأرباض وخارجاً عنها. أضخمها بناء وأعظمها هيكلاً الرابطة المعروفة برابطة الصيد ، مربعة الشكل قائمة فى الهواء على اثنى عشر عموداً منها ثمانية من الرخام سبعة ساطعة البياض وواحد حالك السواد . والأربعة الباقية مبنية بالأجور تحت معاقد أركان القبة ، ولكل عمود منها خمسة أركان واستدارت بها ثمانية عشر سرجباً[١٨٠] فى أربع بلاطات وبابها مبنى بالكذان[١٨١] المنجور وتتصل بها دار للقيم بخدمتها)[١٨٢] .

وفى النص السابق عدة أمور هامة منها تحديده لمواقع ربط سبته على سواحلها الشمالية والجنوبية . وفى ذلك تأكيد لصفة تلك الربط ودورها فى حماية السواحل والثغور كنقاط حصينة على شواطئ البحر أو داخل البلاد ، تقوم بالدفاع عن المدينة فى المواقع الهامة منها أو تقوم بوظيفة نقط مراقبة يرسل منها التحذيرات والإنذارات بالخطر ، حيث كانت تزود هذه الربط بأبراج أو منارات عالية على مسافات تسمح بأن يرى الواحد منها الآخر ويمكن إرسال إشارات الإنذار من رباط إلى آخر بواسطة النار أو الدخان.

وهكذا نلاحظ أن ربط سبته لم يكن مقصود إقامتها فقط على السواحل وإنما داخل المدينة ، وفى الأرباض ، وذلك على غرار الربط الداخلية التى أقيمت على حدود مصر الجنوبية . ويتضمن النص السابق أيضاً صورة تقريبية لعمارة

الرباط ساعدت فى الكشف عن تخطيطه المربع ، ودلت فى وضوح على فخامة بنائه وسعة مساحته وتباين ألوان أعمدته وتنوع ألوان بناته ما بين الرخام والأجر المستخدم فى صنع الأعمدة وحجر الكذان المستخدم فى تشييد بابه.

ومع أن الأنصارى أكد استخدام القبة كوسيلة من وسائل تغطية رباط الصيد سالف الذكر ، إلا أنه لم يحدد الشكل الذى اتخذته هذه القبة . وفى تصورى أنها كانت من نوع القباب ذات الضلوع المتقاطعة التى شاع استخدامها على نطاق واسع فى معظم عمائر المغرب والأندلس منذ ابتكارها فى زيادة الحكم المستنصر بجامع فرجة وجامع قرطبة وعلى نطاق واسع فى معظم عمائر المغرب والأندلس . ويدعونى إلى إبداء هذا الرأى ما نستقيه من وصف الأنصارى الذى أشار فيه إلى عقود ونوافذ القبة ، فربما قصد بالمعاقد والأركان هو أشكال الضلوع التى تتكون من خمسة عقود تقوم على أربعة أعمدة تحمل هذه العقود التى يستند عليها غطاء القبة، وذلك على غرار قبة المحراب بجامع قرطبة التى تقوم على أثنى عشر عموداً محاطاً بركائز فى قاعدة القبة تحمل رؤوس الضلوع التى تتكون من أنصاف دوائر متقاطعة . كما أن كلمة شرجباً تشير إلى أن ضلوع القبة كانت تترك فراغاً تنفتح فيه بقاعدة القبة ثمان عشرة طاقة مشبكة تشبه النوافذ أو القناطر المدفوعة على عمد مندمجة فى ركائز قاعدة القبة .

ويذكر الأنصارى رباطاً آخر بسبته دون أن يوضح اسمه ، كان مجاوراً لرباط الصيد سالف الذكر ، ووصفه بأنه كان يضم فى وسطه قبر جارية لأحد أمراء الموحدين(١٨٣) . كما يذكر المقرى أن أبا الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتى - وكان من قضاة سبته - قد بنى بجبل المينا رباطا يعرف برباط العباد(١٨٤) .

- الزوايا :

أما عن زوايا سبته التى تقابل فى المشرق الخانقاوات ، فقد حفظ الأنصارى اسم واحدة منها فقط وهى الزاوية الكبرى التى ابتناها السلطان أبو عنان بن أبى

الحسن خارج باب فاس لنزول الغرباء . ولمن اضطر إلى المبيت بها من التجار وغيرهم . ثم ينتقل الأنصارى إلى وصف عمارة تلك الزاوية فيشير إلى عظمة بنائها وكثرة زخارفها وتعدد مساكنها وروعة صومعتها(١٨٥) .

- ثانياً المراكز الاجتماعية :

المقصود بالمركز الاجتماعى القطاع العمرانى الذى تتركز فيه منشآت المدينة ذات السمة الاجتماعية مثل دور الإمارة ودور العامة والخاصة والحمامات والقناطر أو السواقى .

- دار إمارة سبته :

الواقع أن دراسة دار إمارة سبته وقصورها الملكية تعد من الأمور الصعبة للغاية ، ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة نخص بالذكر منها اختفاء تلك المنشآت ، كما أن الأنصارى وكذلك بقية المصادر العربية لا تتضمن أى وصف لها ، وتكاد تقتصر معلوماتنا عن دار إمارة سبته على ما ذكره البكرى فى سياق حديثه عن المدينة بقوله (ودار الإمارة فى جوفى المدينة وطولها من السور الغربى الذى يدخل منه المدينة قاطعاً إلى أخر الجزيرة خمسة أميال . والمدينة فى الجانب الغربى منها)(١٨٦).

وأهم ما نستنتجه من هذا الوصف تحديده بشكل واضح لموقع دار الإمارة فى الجهة الشمالية من المدينة . كما يستشف منه مدى اتساع تلك الدار بحيث بلغ طولها من جهة سور المدينة الغربى خمسة أميال.

- قصر قصبة سبته (أفراك) :

من الجدير بالذكر أن أى بلد فى المغرب الإسلامى حين يصل إلى درجة معينة من النمو ويتحول إلى مدينة وتصبح هذه المدينة قصبة إقليم(١٨٧) ، وبالتالى تصبح مقراً للعامل أو الأمير صاحب الكلمة فى المصالح الإدارية التى لابد منها لتيسير النظم المدبرة لشئون الحياة الاجتماعية فى المدينة . وكان ممثلو السلطة

المركزية يقيمون عادة إلى جوار العامل أو الأمير القائم بولاية المدينة فى موقع يسهل منه الدفاع عن المدينة فى حالة تعرضها لأى عدوان خارجي ، ويتمثل ذلك فى قصبة المدينة أو حصنها المنيع . وفى داخل هذه القصبة كان يوجد القصر الملكى حيث مقر الإدارة والحكم(١٨٨) .

وكان لسبته قصبة أو كما يسميها الأنصارى وبعض المؤرخين المغاربة أفراك(١٨٩).

ويبدو أن هذه القصبة أقيمت فى نفس موضع دار الإمارة القديم التى أشار إليها البكرى ، وذلك بعد أن تطور عمران سبته فى عهد بنى مرين وأصبحت قصبة إقليم . ويستدل على ذلك من إشارة ابن خلدون إلى أن السلطان أبا سعيد المرينى هو الذى أمر ببناء البلد المسمى أفراك على سبته سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م(١٩٠) .

وباستثناء تلك الإشارة لا تتضمن المصادر العربية أى وصف لها كما أن منطقة القصبة المعروفة بأفراك اختفت الآن ، وذلك بعد حوالى عشرة سنوات من سقوط مدينة سبته في أيدى البرتغاليين (١٥٤٠-١٥٥٠م)(١٩١) .

ولعل اندثار هذه القصبة ٩٤٧هـ - ٩٥٧هـ كان من أهم الأسباب التى أدت إلى عدم اهتمام المؤرخين العرب بها ، لاسيما الأنصارى الذى لم يزودنا للأسف بأية تفاصيل عن موقعها أو نظامها التخطيطى . وإن كان الأستاذ كارلوس جوثابلس قد وفق بفضل دراسته لطبوغرافية مدينة سبته التى اعتمد فيها على بعض الخرائط والصور فى تحديد الشكل الذى كانت عليه قصبة سبته بما فى ذلك القصر الملكى الذى كان يتخذه حاكم سبته مقراً لولايته . فذكر أن قصبة سبته المعروفة بأفراك ، والتى أطلق عليها أسماء أخرى مثل المنصورة(١٩٢) . كانت تقع فى القطاع الشمالى الغربى للمدينة(١٩٣) وأنها كانت تتخذ شكلاً مستطيلاً ضلعه الغربى ، يؤلف جزءاً من أسوار حفير السهاج(١٩٤). وكان يدعم هذا الضلع أو السور الغربى من القصبة أربعة أبراج أوسطها أكبرها ، حيث أقيم هذا

البرج فوق برج آخر قديم أصغر منه ، وسقف هذا البرج مسنم . وكان يتوسطه باب مقبى يفضى إلى خارج المدينة . ومن خلال هذا الباب كان يمكن الدخول إلى القصبة والخروج منها دون الحاجة إلى اجتياز المدينة(١٩٥) .

أما السور الشرقى للقصبة الموازى للسور الغربى فكان يدعمه ثلاثة أبراج(١٩٦) أوسطها أصغرها ، وهو البرج المعروف ببرج سابق Torre Sabek الذى ذكره البكرى . وأكد على أنه كان يفتح به باب يدخل منه إلى دار الإمارة(١٩٧).

وفى ضوء إشارة البكرى السابقة والدراسات الحديثة التى أجريت حول منطقة القصبة يتأكد صحة ما أشرت إليه سابقاً من أن القصبة وقصرها أقيمت فى نفس موضع دار الإمام القديم.

ويضيف الأستاذ كارلوس جوثابلس أن الضلعين الشمالى والجنوبى كان يطوقهما سورين يمتدان طولاً من الشمال إلى الجنوب . وأن هذين السورين كانا يضمان بداخلهما ساحة القصر ، ويفصلان فى ذات الوقت منطقة القصبة عن أرباض المدينة الخارجية.

وهكذا يتضح من خلال الدراسة التى قام بها كارلوس جوثابلس أن منطقة القصبة كانت تنقسم إلى قسمين : قسم شمالى شرقى يضم بداخله مبنى القصبة أو الحصن . وقسم جنوبى غربى كان يضم القصر وساحته(١٩٨) . كما كان يضم وفقاً لما ذكره الأنصارى مسجداً كان يصلى فيه السلطان أبو الحسن بجيشه وحمام ودار للإشراف على دار السكة(١٩٩) .

- الدور :

لم يصلنا أى أثر لدور سبته الإسلامية التى تعد واحدة من أهم المنشآت المعمارية فى المركز العمرانى الاجتماعى . كما أن أخبار تلك الدور فى المصادر العربية يكتنفها الغموض بحيث لا نستطيع التعرف على المظاهر العامة لبنائها أو نظامها التخطيطى. وكل ما وصلنا من أخبار عن دور سبته الإسلامية يكاد يقتصر على ما زودنا به الأنصارى من إشارات متناثرة عن بعض دور المدينة دون أن يذكر أى وصف لها.

وأهم ما نستنتجه من هذه الإشارات عن هذه الدور هو أن المدينة كانت تكتظ بالدور الموزعة حول مسجدها الجامع ، وفى الطرق الرئيسية والدروب والأزقة والزنقات والحارات ، بحيث يبلغ عددها ما يزيد عن ٤٠ ألف دار(٢٠٠) .

وتتميز معظم هذه الدور باشتمالها على حمام ومصلى لتأدية الصلوات الخمس(٢٠١) .

كما تتميز جميعاً بأنها لا تخلو من المياه الجارية التى تعتبر من ضرورات الحياة المنزلية . وكانت جميع دور سبته الخاصة والعامة تتصل بشبكة من الأنابيب والقنوات لجلب المياه من الأودية والأنهار والآبار ، بحيث كانت مساكن سبته بمياهها العذبة الدائمة على حد تعبير الأنصارى (لا تفتقر ولا تحتاج إلى شراء ماء من سقاء حيثما كانت بأقطار المدينة) (٢٠٢) .

وبالإضافة إلى دور الخاصة والعامة كانت تقوم فى بعض الدروب والحارات التجارية مصريات وعليات(٢٠٣) وهى عبارة عن دور صغيرة للغاية تتكون من طابق واحد أو من غرفة واحدة تعلو فى الغالب حانوتاً أو مصنعاً أو فندقًا . وكان أهل المغرب والأندلس يكرونها للتجار الغرباء أو للعزاب من القومة والخدم . وفى بعض الأحيان كان أرباب الحرف يتخذونها لمزاولة صناعتهم فقط ، إذ كانوا يبتون فى مساكن أخرى(٢٠٤) . وذلك بعكس ما كان معروفاً عند الصناع فى المشرق الإسلامى حيث كانت المصانع والورش تقام فى الطابق الأرضى فى حين كانوا يبتون مع أسرهم بالغرف العليا التى تعرف فى المشرق بالعليات وفى بلاد المغرب بالمصريات(٢٠٥) .

وقد طبعت دور سبته بطابعها الاقتصادى ، فكانت تشتمل بعض دور الصناع على غرفة أو محل أو ورشة تزاول فيها أى صنعة من الصناعات التى كان يزاولها صاحب الدار . ويستدل على وجود مثل هذا النوع من الدور من خلال

إشارة الأنصارى إلى ورش التجارة المخصصة لعمل القسى بقوله (وعدد المنجـرات المعدة لعمل القسى أربعون منها عشرون بمنازل المسلمين والصناع كبنـى القنطرى وبنى العاقل وبنى ابن غالب وغيرهم)(٢٠٦).

- الحمامات :

أشار الأنصارى إلى كـثرة حمامـات سبته بقولـه (وعـدد الحمامـات العامـة المبررة للناس اثنان وعشرون حماماً)(٢٠٧) . كما أمدنـا بأسمـاء بعضهـا ، وبصـورة واضحة عن بعض المظاهر العامة لبنائها ، فيذكر أن من بينها (حمام القائد وهو أبـو على ناصح الذى كان بناؤه على يده. وهـذا الحمـام بلـغ الغايـة فـى الكـبر يسـع المئين(٢٠٨) من الناس مرتفع السمك طيب الهواء قائم على أعمدة الرخـام مفـروش بالواحة الساطعة البياض . والمسلخ(٢٠٩) متسع الساحة له بابان اثنان ، وسقفه قبـه مؤلفة(٢١٠) متقنة على أربع حنيات . وبالصحن صهريج كبير مرتفع عن الأرض . وفى وسط الصهريج سارية مجوفة فوقها طيفور(٢١١) من الرخـام يصعـد المـاء فـى حوض السارية إلى أن يفور فى الطيفور ، وفيضه يملأ الصهريج . ومن الحمامـات ذات الرخام سواه بسبته حمام ابن عيسى ، وحمام اليانشتى وحمام عبود بناحيـة المينـاء ، وهـو نظير حمام القائد فى الفخامة والهيكل ، وبمسالخها طيافير من الرخام على سـوار مجوفـة أيضاً فى وسط الصهريج على نحو ما وصفنـاه . وبالقصبـة عشـرة حمامـات سـوى العدد المذكور أبدعها حمام القصر . وبكل دار مـن ديـار سبته حمـام ومسـجد إلا القليل)(٢١٢).

وفى ضوء النص السابق والمطول للأنصارى عـن حمامـات سبته الإسـلامية يتضح ما يلى :

أولاً : أن الحمامات كانت تشكل عنصـراً مـن أهـم عنـاصر عمـارة المنـافع العامة أو منشآت المركز الاجتماعى ، حيث اكتظت بها شوارع وأحياء المدينة فى

شكل حمامات عامة ، كما حفلت بها بعض المنشآت كقصبة المدينة وقصرها ، وكذلك شيد معظمها داخل المنازل.

ثانياً : ساعد النص فى الكشف عن مدى فخامة بناء حمامات سبته وسعة مساحتها ومدى العناية بتكسية أرضيتها بألواح الرخام . كذلك أمدنا النص بصورة واضحة عن نظامها التخطيطى حيث أنها كانت من النوع الذى يتألف من أربع قاعات رئيسية مقباه (٢١٣) . وقد ركز الأنصارى بشكل أساسى على قاعة المسلخ فبين حدودها المتسعة وسقفها المقبى بقبة تقوم على أربع حنايا ركنية . ويستدل من وصفه لها بأنها كانت تعتمد فى تخطيطها على وجود فراغ مركزى أو صحن يتوسطه صهريج للمياه.

ويتجلى الاهتمام بتجميل هذه القاعة فى أنها كانت مزودة بحوض كبير يتوسطه فسقية ، وذلك على غرار الفساقى التى كانت تتوسط مسالخ حمامات المغرب والأندلس والتى بلغت أوج ازدهارها فى حمامات قصور الحمراء(٢١٤) .

- المنشآت المائية :

تعتبر عذوبة الماء من السمات التى تميز مدينة عن أخرى . ويمكننا أن نستنتج من النصوص المختلفة وروايات الجغرافيين أن مدينة سبته لم تكن تفتقر إلى الماء العذب منذ أقدم العصور . ويؤكد ذلك وصف ابن حوقل لها فى قوله (إن ماء سبته من داخلها يستخرج من آبارها كما أن فى خارجها أيضا آباراً كثيرة عذبة الماء)(٢١٥) .

وقد تنوعت أساليب تغذية مدينة سبته بالمياه . فالبكرى يقول (إن حمامات سبته يجلب إليها الماء على الظهر من البحر) . ويضيف فى موضوع آخر بأن الماء يجلب فى قناة من نهراويات على بعد ثلاثة أميال من المدينة على ضفة البحر القبلى إلى الكنيسة التى هى اليوم الجامع(٢١٦) .

كذلك يشير الإدريسى إلى وجود (عين ماء لاتجف البته بأعلى الجبل فى وسط المدينة)[٢١٧] . وتشير الروايات التاريخية إلى مدى عناية حكام سبته بجلب الماء العذب إلى المدينة . ومن هذه الروايات ما ذكره صاحب كتاب الاستبصار من أن ثالث خلفاء الموحدين أبا يعقوب المنصورى أمر سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م بجلب الماء من قرية بليونش التى تبعد عنها بنحو (٦) ستة أميال وذلك فى قناة تحت الأرض غير أن الأعمال لم تتم حتى سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م[٢١٨] .

وقد اكتسب أهل سبته خبرة عظيمة فى استغلال مائها العذب استغلالاً حسناً حيث أنشئت بها أنواع أخرى من المنشآت المائية ، وهى السقايات التى تساعد على خزن الماء العذب لسقاية الناس والحيوانات ومد كافة مرافق المدينة بمصادر دائمة للمياه . وقد أشار الأنصارى إلى تلك السقايات بشىء من التفاصيل بقوله (وعدد السقايات خمس وعشرون سقاية أبدعها صنعة ووضعاً السقاية التى بطرف العطارين وأول سماط العدول . وبازاء باب الشوائين من أبواب الجامع ذات الأنابيب[٢١٩] النحاسية والألواح الرخامية والزخرفة والتنميق . ومن السقايات المعدة لسقى الدواب من الخيل وغيرها سقاية جب الميناء العظيم الهيكل المشهور ، الذى ابتناه الفقيه الرئيس أبو القاسم العزفى المذكور ، وخلده أثراً غريباً بعده رحمه الله . صهريجان مشتركان يمد إحداهما الآخر وقد أحكم الأسفل والأعلى منهما فرشاً بألواح الصخر المنجور أتم إحكامه وأكمله . ومن ذلك سقاية القبة بالربض البرانى صهريج مستطيل متصل ببئر معينة قريبة التناول طيبة الماء عليها قبة على أربعة أعمدة وإلى جانبها آبار متعددة للسبيل[٢٢٠] وربما تبلغ الثمانين[٢٢١].

وفى ضوء الوصف السابق يتضح أن السقايات التى ذكرها الأنصارى كانت عبارة عن صهاريج ضخمة شيدت بنظام دقيق يشهد بالبراعة وحسن التنفيذ بحيث كان يجرى توزيع الماء بتلك الصهاريج المعبر عنها بالسقايات بحيل هندسية

دقيقة . ويتجلى ذلك فى إشارة الأنصارى إلى أسلوب من الأساليب التى يمكن بها تكثير مياه السقاية عن طريق جعل السقاية الواحدة تتكون من صهريجين متجاورين يمد أحدهما الآخر بالمياه . وهذه الطريقة استخدمت بكثرة فى حفر معظم آبار مدن الغرب الإسلامية لاسيما مدينة مجريط أو مدريد العربية . كما انتشرت فى الفسطاط فكرة حفر الآبار المتجاورة المتصلة ببعضها مع اختلاف مستوياتها بهدف تكثير الماء المستمد من جوف الأرض(٢٢٢).

ثالثاً – المراكز الاقتصادية بمدينة سبته :

إن أهل سبته بحكم موقع بلدهم على بحر الزقاق بين المغرب والأندلس توفرت لديهم إمكانيات اقتصادية هائلة ساعدت على ازدهارها التجارى والصناعى . ففى مجال التجارة عبر الجغرافيون والمؤرخون العرب عن هذا الازدهار فيما كتبوه عن سبته . فابن سعيد المغربى يشبه سبته بمدينة الإسكندرية فى كثرة الحط والإقلاع وفيها التجار الأغنياء الذين يبتاعون المراكب بما فيها من بضائع الهند وغيرها فى صفقة واحدة(٢٢٣) . كما يذكر ابن الخطيب فى سياق وصفه للمدينة (أنها كانت محط قوافل العصير (زيت الزيتون)والحرير والكتان)(٢٢٤) ويتبين من رحلة ابن جبير أن سبته كانت نقطة البداية والنهاية للرحلات البحرية إلى المشرق(٢٢٥) .

ويبدو أن التجارة بين سبته وجنوة كانت نشطة ، وأن ثراء سبته من التجارة أطمع فيها الجنويين. ويستدل على ذلك مما ذكره ابن عذارى من أن الجنويين حاولوا الاستيلاء على سبته بالخديعة عام ٦٣٣هـ/١٢٣٤م ولكنهم فشلوا وانتهبت أموالهم التى فى فنادقهم ، ثم وقع الصلح وبموجبه عوض أهل سبته الجنويين عما فقدوه(٢٢٦). ويستدل أيضاً مما رواه المقرى على أن تجار جنوة كانوا يجلبون إلى سبته طرائف السلع . ويوضح ذلك قصة القائد أبى السرور صاحب ديوان سبته الذى أنعم على الأديب النحوى أبى عمران موسى الطريانى بتحف مما كان فى الديوان مما يجلبه الإفرنج إلى سبته(٢٢٧) .

هذا ويشير ابن بطوطه إلى أن التجار السبتيين كانت لهم علاقات تجارية مربحة مع الصين وبلاد السودان الغربى . ففى أثناء وجوده بمدينة قنجنفو بالصين قابل تاجراً من سبته وهو قوام الدين السبتى كان قد وصل إلى الصين وفيها عظم شأنه واكتسب الأموال الطائلة وبعد ذلك ببضع سنوات قابل ابن بطوطه أخا لهذا التاجر السبتى من السودان الغربى(٢٢٨) .

ونتيجة لهذا الازدهار التجارى الذى نعمت به مدينة سبته غزت أسواق مرسيليا الدراهم السبتية ، فكان تجار مرسيليا عن طريق وكلائهم من اليهود فى سبته يبيعون عملات عربية فى مونبليه(٢٢٩).

أما بالنسبة للصناعة التى تعتبر من أهم مصادر الثروة الاقتصادية لسبته فقد عرف أهل سبته كيف يفيدون من ثروة مياهها من المرجان الجيد الذى أمد المدينة بفائض من الإنتاج ، فكانت تصدره إلى الأندلس والمشرق والهند ، وذلك بعد تجهيزه تجارياً على هيئة قطع صغيرة تصنع منه الأوانى الطريفة(٢٣٠) .

وقد امتدح الأدريسى مرجان سبته وأشار إلى شهرتها فى إنتاجه وصناعته وتصديره بقوله (ويصاد بمدينة سبته شجر المرجان الذى لا يعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار . وبمدينة سبته سوق لتفصيله وحكه وصنعه خرزاً وثقبه وتنظيمه . ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد)(٢٣١) .

وهكذا أدى الازدهار التجارى والصناعى الذى نعمت به مدينة سبته إلى العناية بتشييد العديد من المنشآت التجارية والصناعية بحيث شغلت تلك المنشآت أكبر مراكز المدينة العمرانية التى وصلتنا أخبار عنها . ويكفى لتأكيد هذه الحقيقة أن نطالع ما سجله الأنصارى من أوصاف لتلك المنشآت على النحو التالى :

١ - الأسواق :

المقصود بالأسواق الأماكن التى تتجمع فيها الحوانيت والمتاجر ويكثر فيها الباعة والتجار وأصحاب الحرف . ولم تكن أسواق مدن الغرب الإسلامى تقام فى موضع معين من المدينة ولكنها تتوزع فى عدة مواضع داخل المدينة وخارجها .

وتتنوع الأسواق بأنواع السلع التى تباع فيها من ذلك سوق العطارين وسوق النحاسين وسوق البزازين[٢٣٢].

وقد أشار الأنصارى إلى أسواق سبته الإسلامية وتعدد مواضعها وتنوعها حسب أنواع السلع التى كانت تباع فيها بقوله : (وعدد الأسواق (١٧٤) مائة وأربعة وسبعون سوقاً تخص منها المدينة بمائة واثنين وأربعين سوقاً. والأرباض الثلاثة باثنين وثلاثين.ومن أشرفها قدراً وأجملها مرأى سوق العطارين الأعظم[٢٣٣].وسماط العدول الموثقين المتصل حيث المدرسة الجديدة وكلاهما بجوفى الجامع الأعظم . والقيسارية خلف ذلك . ومن أسواق المأكول والمطعوم والفواكه والأدم ، وغير ذلك السوق الكبير . وسوق مقبرة زكلو من الجانب الشرقى من المدينة . ومن الأسواق المعلومة لتجارة الآنية الصفرية[٢٣٤] القوية الصبع العجيبة الصنعة الخاصة بسبته دون غيرها سوق السقاطين[٢٣٥] . ما أدراق ما سوق السقاطين رفاهية متجر وكثرة أنواع وحسن ترتيب)[٢٣٦] .

– القيسارية :

تعد القيساريات من أهم المؤسسات التجارية فى المركز العمرانى الاقتصادى فى المدن الإسلامية بوجه عام . وكلمة قيسارية هى تعريب للكلمة اليونانية اللاتينية Kaisareie وتعنى السوق القيصرى . وكان يباع فى القيساريات أفخر أنواع السلع التى يندر وجودها فى الأسواق الأخرى[٢٣٧] .

وقد أشار الأنصارى إلى أن قيسارية سبته كانت تقع بجوار مسجدها الجامع وبالتحديد خلف هذا الجامع[٢٣٨] . ويرجع أحد الباحثين أن تلك القيسارية كانت تقع فى الجهة الجنوبية الشرقية من مدرسة سبتة المعروفة بالمدرسة الجديدة . وأنها ظلت تحتفظ بعد حركة استرداد المدينة بنفس الموضع الذى كانت تقوم به فى العصر الإسلامى إلى أن تهدمت فى العصر الحديث وأقيم مكانها فندق يعرف بـ Hotel Muralla . ويضيف أنه من الصعب أن تحدد بدقة حدود قيسارية سبته ، ولكن يبدو أنها كانت تمتد فى شارع واحد معلق من جهته الجنوبية بواسطة برج يعرف اليوم ببرج كمبانيا Torre de la compana[٢٣٩] .

وفى رأى الأستاذ خواكين بالبين أن قيسارية سبته كانت تقع بالقرب من سوق سبته الحالى وبالتحديد فى الموضع الذى يقوم عليه الآن مبنى بنك أسبانيا حيث كان يشغل هذا الموضع وفقاً لوثيقتين مؤرختين بالقرن ١٨م شارع كبير كان يعرف بشارع القصر الأسقفى . ومن هذا الشارع كانت تتفرع عدة أزقة منها زقاق مسدود كان يعرف بزقاق القيسارية[٢٤٠].

• الحوانيت والتربيعات التجارية :

كانت أحياء سبته التجارية تزخر بالعديد من الحوانيت التى كانت تتسمى باسم السلعة التى تباع فيها أو بأسماء أصحابها . وقد أحصى الأنصارى حوانيت سبته بـ ٢٤ ألف حانوت (أربعة وعشرون ألفاً).

وعلى الرغم مما فى هذا الرقم من مبالغة ظاهرة إلا أنه يدل على أن الحوانيت التجارية كانت من المنشآت البارزة بين التكوينات المعمارية التجارية لمدينة سبته.

- التربيعات :

يقصد بالتربيعات حى أو سوق تجارى مربع أو دائرى أو مستقيم تتجمع فيه الحوانيت التجارية ويتخذ تكوين هذه المربعات أو التربيعات هيئة كتلة معمارية تضم مجموعة من الحوانيت ظهورها إلى الداخل وتطل جميعها على الشوارع التى تحيط بها من الجوانب الأربعة مقابلة أيضاً صفوفاً من الحوانيت على الجوانب الأخرى لهذه الشوارع[٢٤١] .

وقد كانت هذه التربيعات من المنشآت التجارية الهامة بمدينة سبته الإسلامية ويؤكد ذلك وصف الأنصارى لها بقوله (وعدد التربيعات المعلومة للحرارين والقزازين خاصة إذ هناك تربيعات غيرها داخلات فى حكم الأسواق إحدى وثلاثون تربيعة مفترقات بالممرات والأسواق خلال الأطرزة[٢٤٢] من أول المدينة

إلى أخرها أعظمها التربيعة التى بأسفل زقاق خطاب سامية فى الهواء كأنها معقل أو قلعة على ثلاث طباق وفى صحنها مسجد)[٢٤٣] .

ويبدو أن مثل هذه التربيعات كانت تمثل امتداداً لحوانيت قيسارية سبته فى الأزقة الجانبية المتفرعة من الشارع الأعظم الذى كانت تشغله قيسارية المدينة الرئيسية ، والتى يمكن أن تطلق عليها قيساريات الأزقة . ويرجح ذلك وصف ليو الأفريقى لمصطلح قيساريات الأزقة التى انتشرت فى مدن الغرب الإسلامى على أنه شبكة الأزقة التى تتفرع على جوانبها الحوانيت[٢٤٤] . كما يدعم هذا الاستنتاج ما ورد فى وثيقتين مؤرختين بالقرن ١٨م تشيران إلى وجود زنقات بمدينة سبته كانت تسمى بزنقات القيسارية[٢٤٥] .

• **الفنادق :**

تعتبر الفنادق من أهم المؤسسات التجارية فى المركز الاقتصادى فى المدن الإسلامية بوجه عام وهى تقابل فى بلاد المغرب والأندلس الخان فى المشرق الإسلامى[٢٤٦] .

وتمتاز الفنادق بأنها تجمع بين الصفة الاقتصادية التجارية والاجتماعية فلم تكن وظيفتها مقصورة على إيواء المسافرين من التجار الغرباء فحسب بل كانت سوقاً لبيع السلع بالجملة[٢٤٧] .

ويشير الأنصارى إلى توفر عدد كبير من الفنادق فى مدينة سبته فيذكر أنه كان بها ٣٦٠ فندقاً[٢٤٨] .

ورغم ما فى هذا الرقم من مبالغة إلا أنه يتأكد لنا مما سبق أن أشرنا إليه أن مدينة سبته كانت محطاً للتجار من مختلف الأنحاء ، الأمر الذى دعا إلى توفير هذا العدد الهائل من الفنادق لإقامتهم بل وتخصيص أكبر هذه الفنادق وهو الفندق الكبير فقط لحفظ المنتجات الزراعية[٢٤٩] .

ويستدل مما ذكره الأنصارى عن فنادق سبته بأنها كانت تمتاز فى جملتها بالضخامة وتعدد طوابقها وبيوتها المخصصة لإقامة التجار[٢٥٠] . فضلاً عن العناية بتجميلها بالنقوش الجصية وأعمال النجارة ، إذ تعرض الأنصارى لذكر أحد التفصيلات التى تتعلق بأعمال الزخرفة فى فندق الوهرانى ، والتى أشار إليها بقوله (وأبدعها صفة فندق الوهرانى جمع هذا الفندق صنائع الجص والنجارة وعلى بابه عقاب غريب الشكل مفقود النظير)[٢٥١] .

• المنشآت الصناعية :

من الملامح الرئيسية لمدينة سبته أنها ذات طابع صناعى تجارى ، ولذلك كثرت بها المنشآت الصناعية التى شكلت جانباً هاماً فى تكوينها المعمارى . ومن أمثلة تلك المنشآت التى ذكرها الأنصارى.

• المقاصر (٢٥٢) :

كانت الصباغة من الصناعات الشهيرة بمدينة سبته الإسلامية حيث أحصى الأنصارى الأماكن المعدة لتلك الصناعة بـ ٢٥مقصراً وحدد لنا موقعها بقوله (وكلها تحت الأسوار والأبراج والأبواب . ولكل مقصر برج من أبراج السور خاص به تحط فيه الأمتعة ليلاً وتنشر نهاراً إلى أن تتم قصارتها وتتخلص فلا يخاف عليها طول تلك المدة من لص ولا يتكلف بحملها بالغداة والعشى مؤنه كما فى سائر البلاد)[٢٥٣] .

وهذا النص على جانب كبير من الأهمية ، إذ يوضح لنا مدى شهرة سبته فى صناعة المنسوجات على أساس أن صباغتها من العمليات الأساسية فى تلك الصناعة . كما يدلنا على أن تلك المقاصر أو المصابغ كانت تقع فى أطراف المدينة بالقرب من أسوارها وأبوابها وأبراجها . وواضح أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن حرفة الصباغة تستلزم وجود ورشها أو مقاصرها خارج أبواب المدينة حتى لاتؤذى السكان ، فضلاً عما توفره أبراج الأسوار من حماية للمنسوجات المعدة للصباغة. وقد تحقق ذلك لمقاصر سبته بحكم

للصباغة. وقد تحقق ذلك لمقاصر سبته بحكم وقوعها داخل أبراج المدينة ، وبذلك توفرت فى تلك المصابغ كافة الشروط المناسبة لتفى بالغرض من إنشائها .حيث كان الأمان شرطاً أساسياً فى إقامة تلك المقاصر(٢٥٤) كما أوجبت الضرورة الوظيفية إقامة المقاصر الغزلية بمدينة سبته البالغ عددها ١٩ (تسعة عشر مقصراً) عند مجرى مائى حيث تم توزيع تلك المقاصر على ستة أماكن تتوفر فيها المياه ، منها قالة البسابس وقالة الصندل وقالة العين(٢٥٥) . ويعكس ذلك بوضوح تعريف مصطلح القالة بأنه كان يطلق بالمغرب فى القديم على بعض الأسوار التى يجرى فوقها الماء داخل قواديس(٢٥٦) .

• المنجرات :

المقصود بالمنجرات المكان الذى ينجر فيه الخشب والعود . وكان يطلق خاصة على دور صناعة السفن بالمراسى ودور صناعة السلاح بها وبغيرها . وقد يطلق تجاوزاً على المكان الذى يجلس به جباة الأموال وولاة الأحكام(٢٥٧) . ومعظم تلك المنجرات كان معداً لصناعة القسى(٢٥٨) التى اشتهرت سبته بصنعتها معتمدة فى ذلك على ما لديها من مواد خام ، وأيدى صناعية ماهرة وقد أشار الأنصارىإلى تلك المنجرات المعدة لصناعة القسى وأحصاها بـ ٤٠ منجرة بقى منها فى زمانه ١٥ (خمس عشر منجرة) . كما أشار إلى أشهر الشخصيات المتخصصة فى هذه الصناعة منذ القدم مثل الشيخ أبو عبد الله محمد الحسنى . والشيخ أبو عبد الله محمد عبد الله المعروف بالعقدة ، وكان متقدماً فى هذه الصناعة فى زمانه ، فضلاً عن الشيخ أبى الحسن العبادى الذى اشتهربكثرة أدواته ومتعلقاته التى كانت تعينه على اتقان هذه الصنعة(٢٥٩) .

• المضارب والمصايد :

المقصود بالمضارب المكان الذى تضرب فيه شباك صيد الأسماك من البحر فى عامية المغرب والأندلس . وهذه الكلمة العربية -مضربة أو المضربة- بقيت فى اللغة الأسبانية بهذا الشكل Almadraba (٢٦٠) .

أما عن المصايد فيقول (وعدد ما وقفنا عليه من المصايد سوى ما لم نقف عليه مئتان واثنتان وتسعة وتسعون مصيداً) (٢٦٢) .

وإذا كان النص قد أورد فيه الأنصارى أرقاماً مغالى فيها بالنسبة لعدد تلك المضارب والمصايد ، إلا أنها تدل فى وضوح على أن تلك المنشآت الصناعية الخاصة بصناعة أدوات الصيد كانت من الصناعات الزاهرة بمدينة سبته . وقد ساعد على هذا الازدهار تعدد مواقع مصايد الأسماك على امتداد سواحل سبته على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى ، حيث اشتهرت تلك السواحل بثرائها فى الأحياء البحرية لاسيما المرجان(٢٦٣) . فضلاً عن تعدد أنواع أسماكها إلى أن بلغت نحو مائة نوع(٢٦٤) .

المطامير :

ومن المنشآت الاقتصادية بمدينة سبته المطامير أى الأهراء تحت الأرض والتى كانت تستخدم كمستودعات لطمر القمح وخزن الغلال . من أجل تصديره أو استهلاكه محلياً.

وقد أحصى الأنصارى مطامير سبته بأربعين ألفاً - ٤٠ ألف -وأشاد بقدرتها فى المحافظة على ما كان يحفظ بها من القمح بقوله(يمكث الزرع فى هذه المطامير الستين سنة والسبعين سنة ولا يلحقه تغير ، لطيب البقعة واعتدال الهواء وكونها جبلية)(٢٦٥).

ويبدو أن العناية بإنشاء تلك المطامير ترجع إلىأن أحواز سبته كانت فقيرة ووعرة ، مما جعل المدينة تعانى دائماً من قلة الحبوب(٢٦٦). وإن كانت قد توافرت بها الخضروات والفواكه حيث كان بسبته من البساتين والأجنة ما يقوم بأهلها وفقاً لما ذكره ابن حوقل(٢٦٧).

• ديار الإشراف المالى(٢٦٨) :

كان لسياسة حكام سبته فى مراقبة نشاطها التجارى والصناعى أثرها الواضح فى تطور هذه المدينة وازدياد عمرانها ، حيث اهتم هؤلاء الحكام بإنشاء دور للإشراف المالى

لعبت دوراً هاماً فى تنظيم الشئون الاقتصادية والتجارية ، وأثرت تأثيراً واضحاً فى المحافظة على المنشآت التجارية والصناعية.

ويحدثنا الأنصارى عن دور الإشراف المالى بمدينة سبته فيقول إنها أربعة وهى دار الإشراف على عمال الديوان(٢٦٩) . ودار الإشراف على سكة المسلمين بقصبة المدينة ودار الإشراف على شد الأمتعة وحلها (الجمارك) وهى المعروفة بالقاعة(٢٧٠)حيث تجارة العطر(٢٧١) .

• المقابر :

الواقع أن ما ورد فى المصادر العربية عن مقابر سبته يعد شحيحاً . ولكن بفضل ما زودنا به الأنصارى عن تلك المقابر نستطيع أن نحدد على نحو مؤكد وجود نوعين من المقابر الإسلامية بمدينة سبته. أحدهما . مقابر الأولياء الصالحين والعلماء والفقهاء ، والآخر مقابر العامة.

(أ) مقابر الأولياء الصالحين أو المزارات المباركة :.

اتخذت المنطقة الممتدة بسفح جبل الميناء شرقى مدينة سبته(٢٧٢) نواة لإقامة قبور الأشخاص المشهود لهم بالورع والتقوى من الأولياء الصالحين من أهل سبته. وكان لتلك القبور مكانة روحية ودينية فى نفوس أهل سبته ، فكانوا يقصدونها للزيارة والتبرك . وقد أحصى الأنصارى بعض تلك المقابر بـ٨٢(اثنين وثمانين قبراً). فضلاً عن بعض المزارات التى تضم قبور عديدة ليست بداخلة فى هذا العدد(٢٧٣).

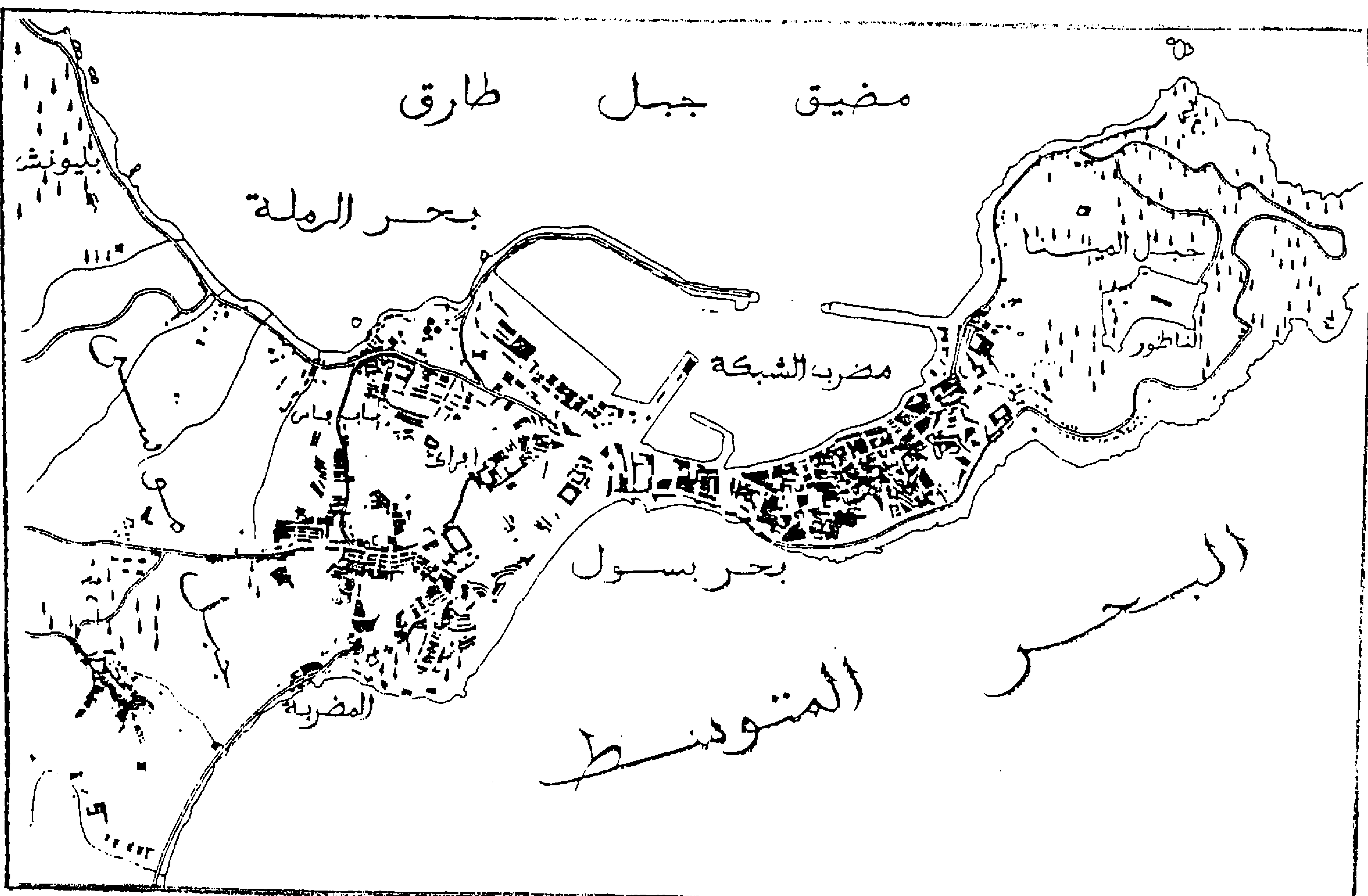
وتتجلى أهمية نص الأنصارى الخاص بوصف تلك المقابر فى أنه زودنا بأسماء من دفن بهذه المقابر من أهل العلم والفقهاء الصالحين ، بحيث يعد ما سجله عنها من أسماء من دفن بها سجلاً وافياً ودليلاً كاملاً لمعظم كبار أعلام سبته فى مختلف الفنون والعلوم . وأهم المزارات أو مقابر الصالحين التى وصفها الأنصارى مقبرة التوته من الميناء بشرقى المدينة وفيها قبر الولى أبى ذرعه وهو مزار مشهور . وأبى ذرعه هذا

هو الذى أدخل القرآن الكريم إلى المغرب (٢٧٤) والدعاء عند قبره مستجاب على حد قول الأنصارى (٢٧٥). ومن مزارات سبته الشهيرة أيضاً المقبرة الكبرى التى بسفح جبل الميناء ، وفيها كان يوجد قبر الشيخ الأستاذ العلامة المصنف أمام النحويين أبى الحسن بن أبى الربيع القرشى الأموى العثمانى الأشبيلى نزيل سبته(٢٧٦) ومقبرة المنارة(٢٧٧) ومقبرة الحافة(٢٧٨) ومقبرة مسجد المحلة(٢٧٩) ومقبرة الشريعة بالربض الأوسط(٢٨٠) .

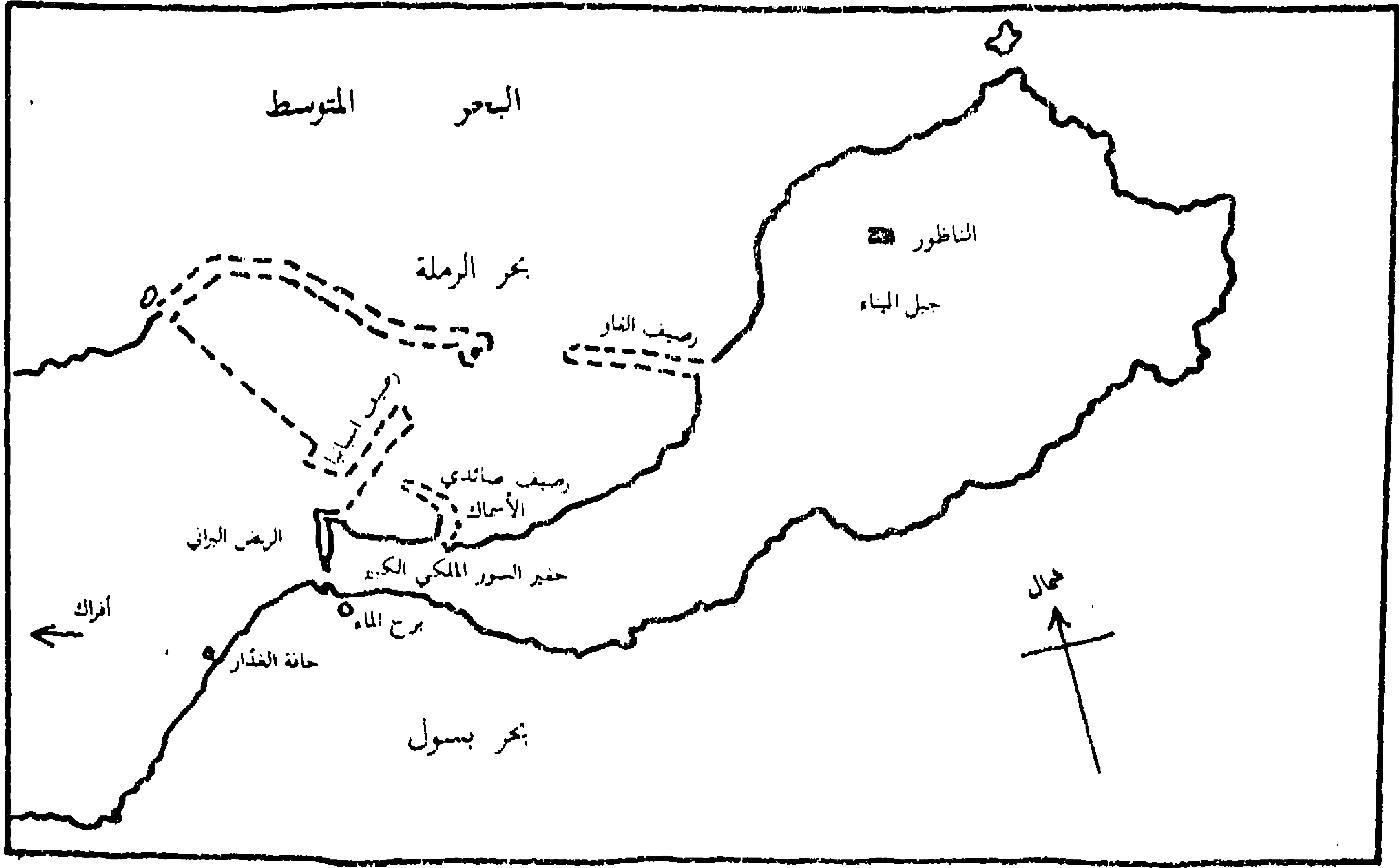
(ب) مقابر العامة :

أما مقابر العامة فقد أحصاها الأنصارى بـ١٣ ثلاث عشرة ، موزعة بداخل المدينة وخارجها ، منها مقبرة المنارة . ومقبرة البلد القديم ومقبرة الحارة ومقبرة مضرب الشبكة ومقبرة أحجار السودان الأولى والثانية(٢٨١).

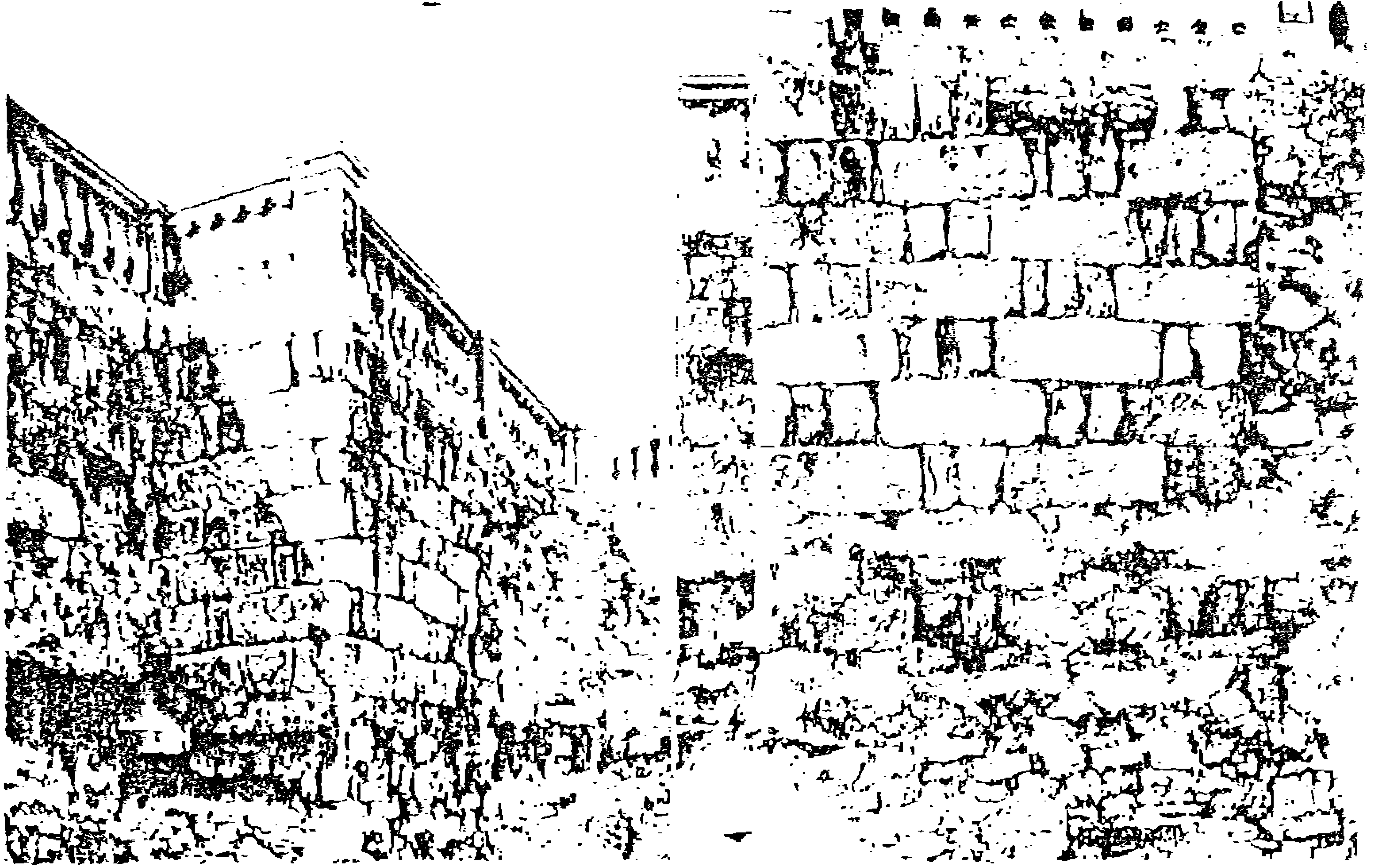
و لم يزودنا الأنصارى فى وصفه لتلك المقابر بأسماء من دفن بها . ومرجع ذلك أنها كانت على عكس مقابر الفقهاء والأولياء الصالحين ، كان يدفن بها عامة الناس من غير المشاهير .



ش (١) (أ) خريطة سبته وضواحيه (عن عبد الوهاب بن منصور)

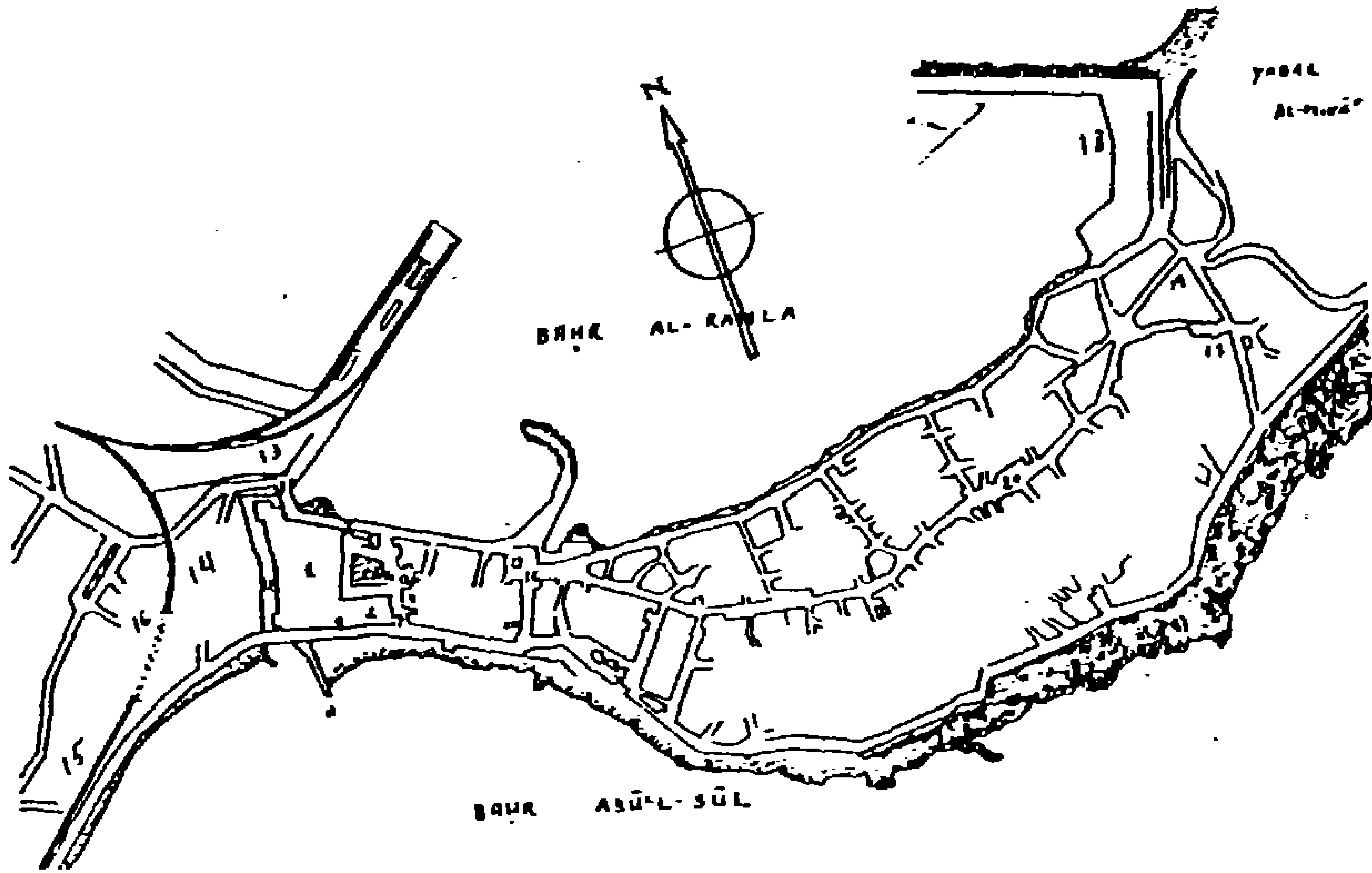


س (١ ب) خريطة تقريبيه لسبته فى أواخر الفترة الإسلامية (عن . ج. د. ليثام)



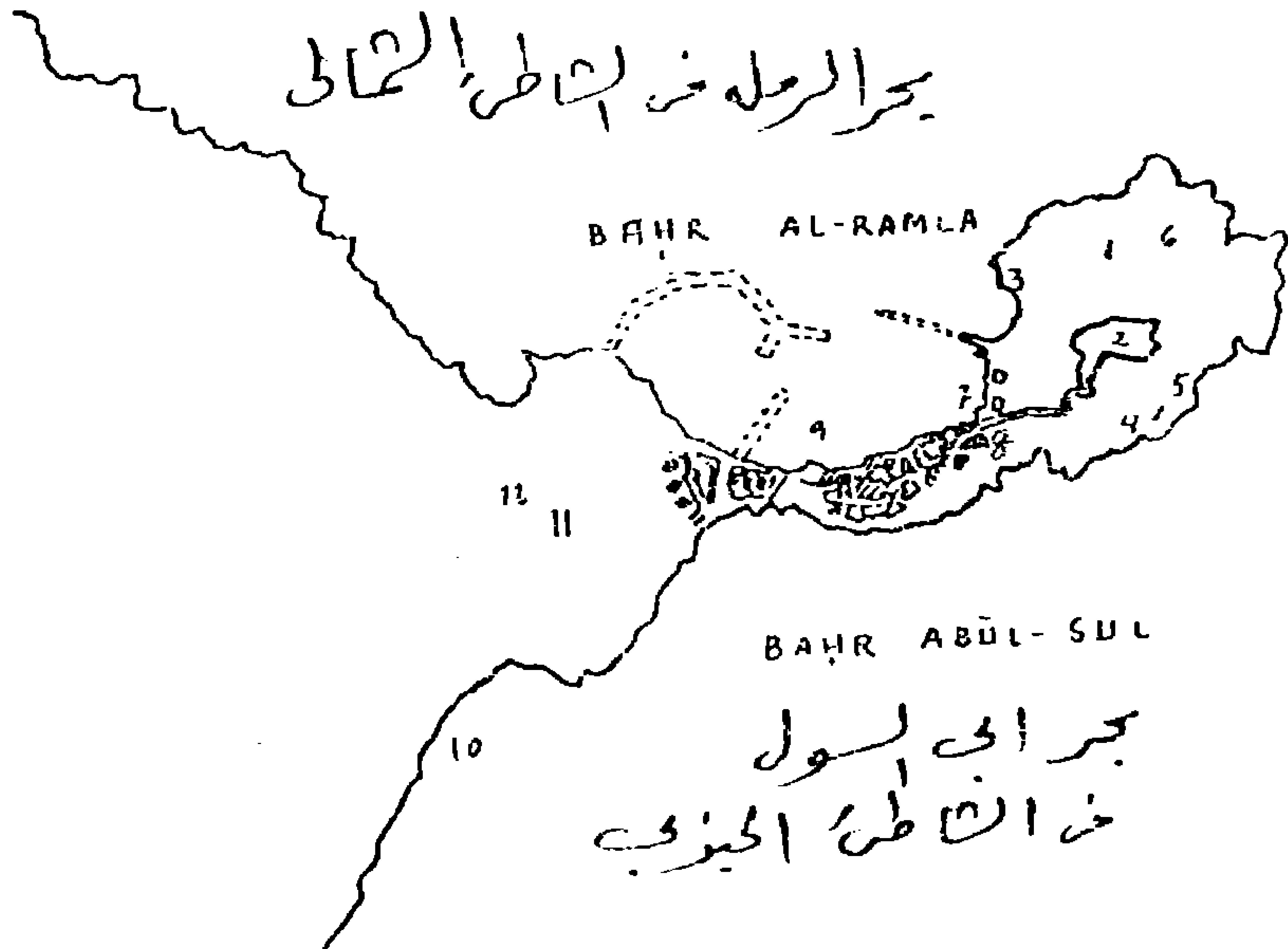
شكل (٢)

أحد أبراج السور الشمالى لمدينة سبته (عن تراس)



(شكل ٣أ) (عن خواكين بالبين) خريطة توضيحيه لمواقع مدينة سبته ومعالمها الإسلامية

(١) القصر ، (٢) الجامع ، (٣) المدرسة الجديدة ، (٤) سوق العطارين ، (٥) المسجد ، (٦) سماط العدول ، (٧) القيساريه ، (٨) الباب لأعظم ، (٩) باب الزلاقة ، (١٠) باباالقصابين ، (١١) برج للماء ، (١٢) حفير الماج ، (١٣) القصابون ، (١٤) الربض البراني، (١٥) حافة القدر (الكدار) (١٦) حفير، (١٧) مسجد المقبرة ، (١٨) الميناء ، (١٩) باب الميناء ، (٢٠) زقاق ابن عيسى.



شكل (٣ب) (عن خواكين بالبين) خريطة أخرى لمواقع مدينة سبته و معالمها الإسلامية

(١) الناضور ، (٢) القصبه ، (٣) دار الصناعة ، (٤) رباط أبى العباس ، (٥) المصلى ، (٦) المقبرة ، (٧) حفير أو حفرة المختار ، (٨) عرقوب ، (٩) مضرب الشبكة ، (١٠) مضضرب أويات ، (١١) أفراك ، (١٢) باب فاس.

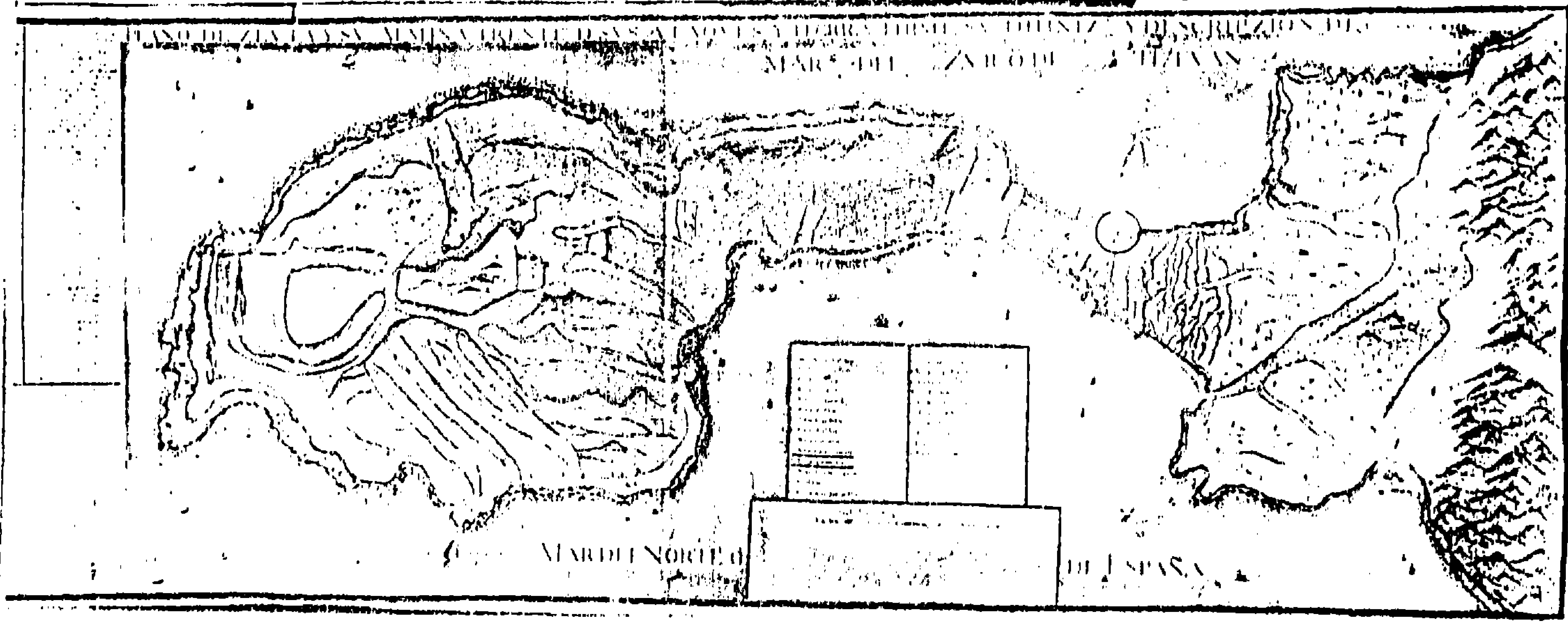
شكل (٤) رسم كروكي لأسوار سبتة من خلال الرسوم التخطيطية القديمة للمدينة (عن كارلوس جونثالبس)



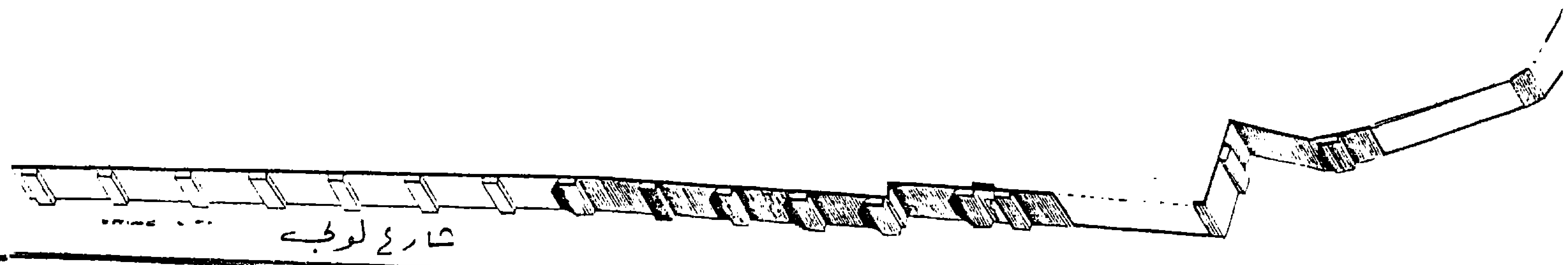
شكل (٥)

الجانب الغربى لمدينة سبته كما وردت صورته فى مصدر برتغالى مؤرخ بالقرن ١١هـ/١٧م

(عن أمين توفيق الطيبى)



شكل (٦) خريطة كونتريه لمدينة سبته فى بداية القرن ١٨م محفوظة فى مصلحة المساحة العسكرية (عن بافون)

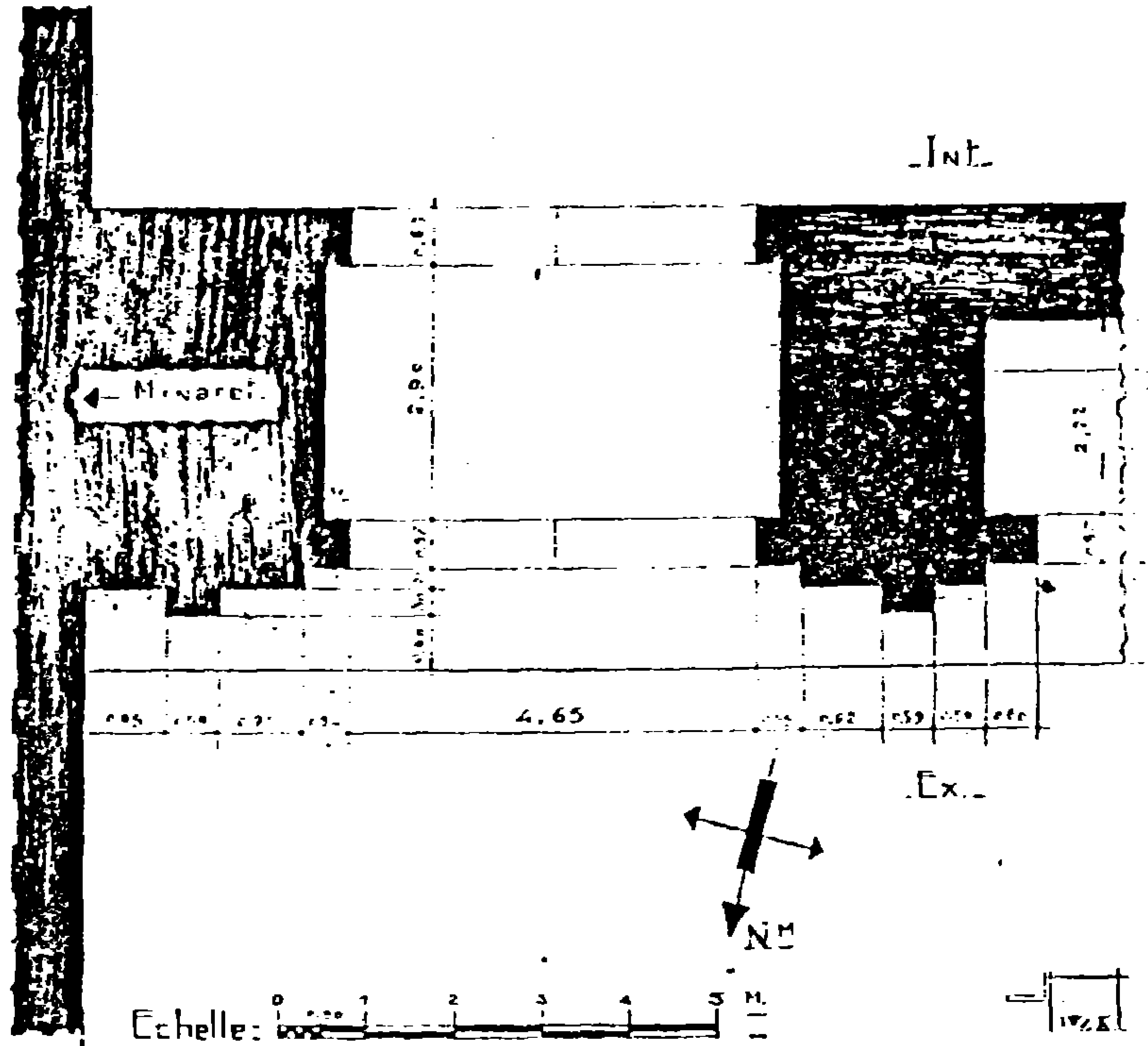




شكل (١٧أ) رسم افتراضي لمنطقة أفراك في ضوء مخطط في سبته في القرن ١٨م (عن بافون)

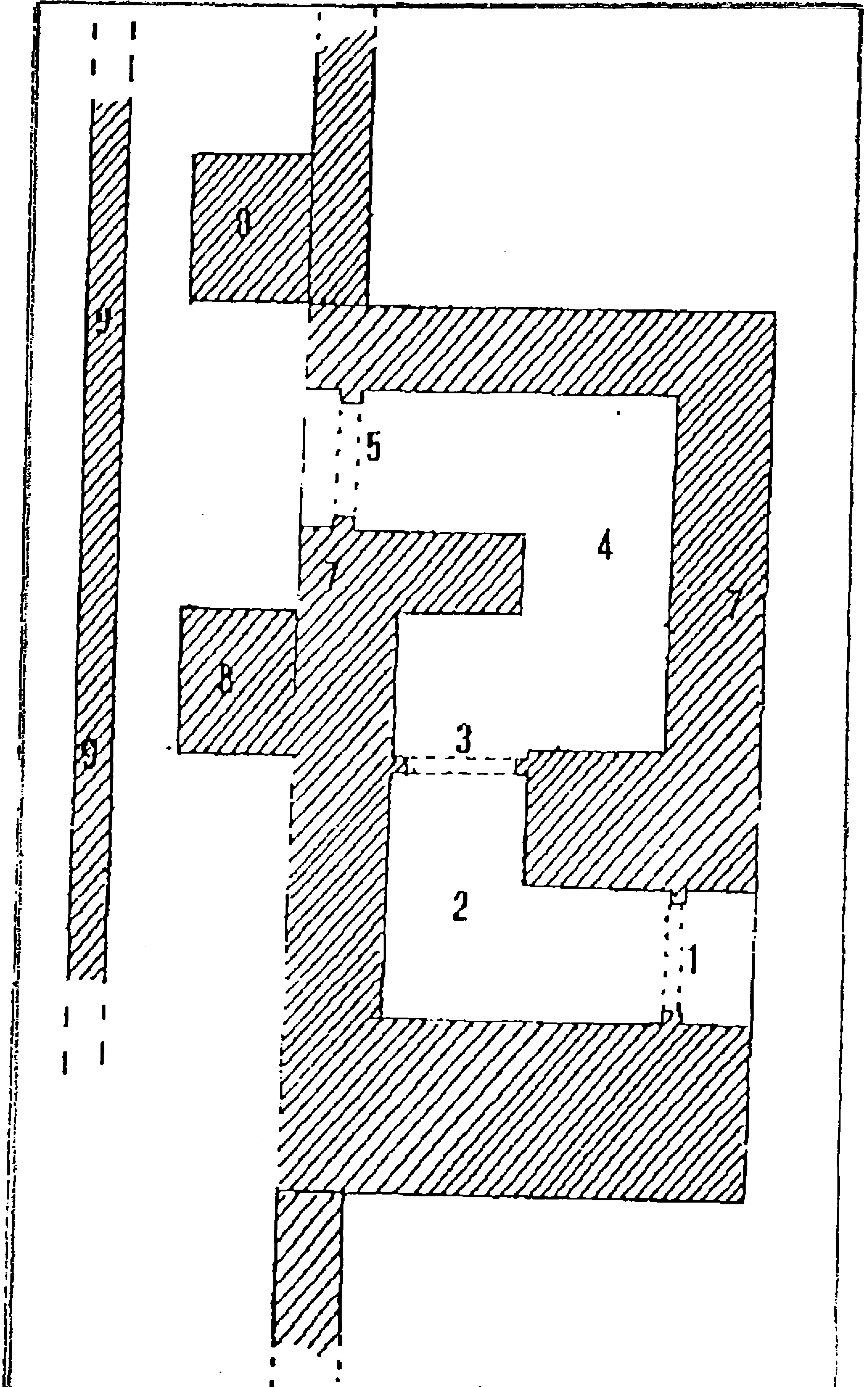


شكل (٧ب) خريطة كونترية لمنطقة أفراك (عن بافون)

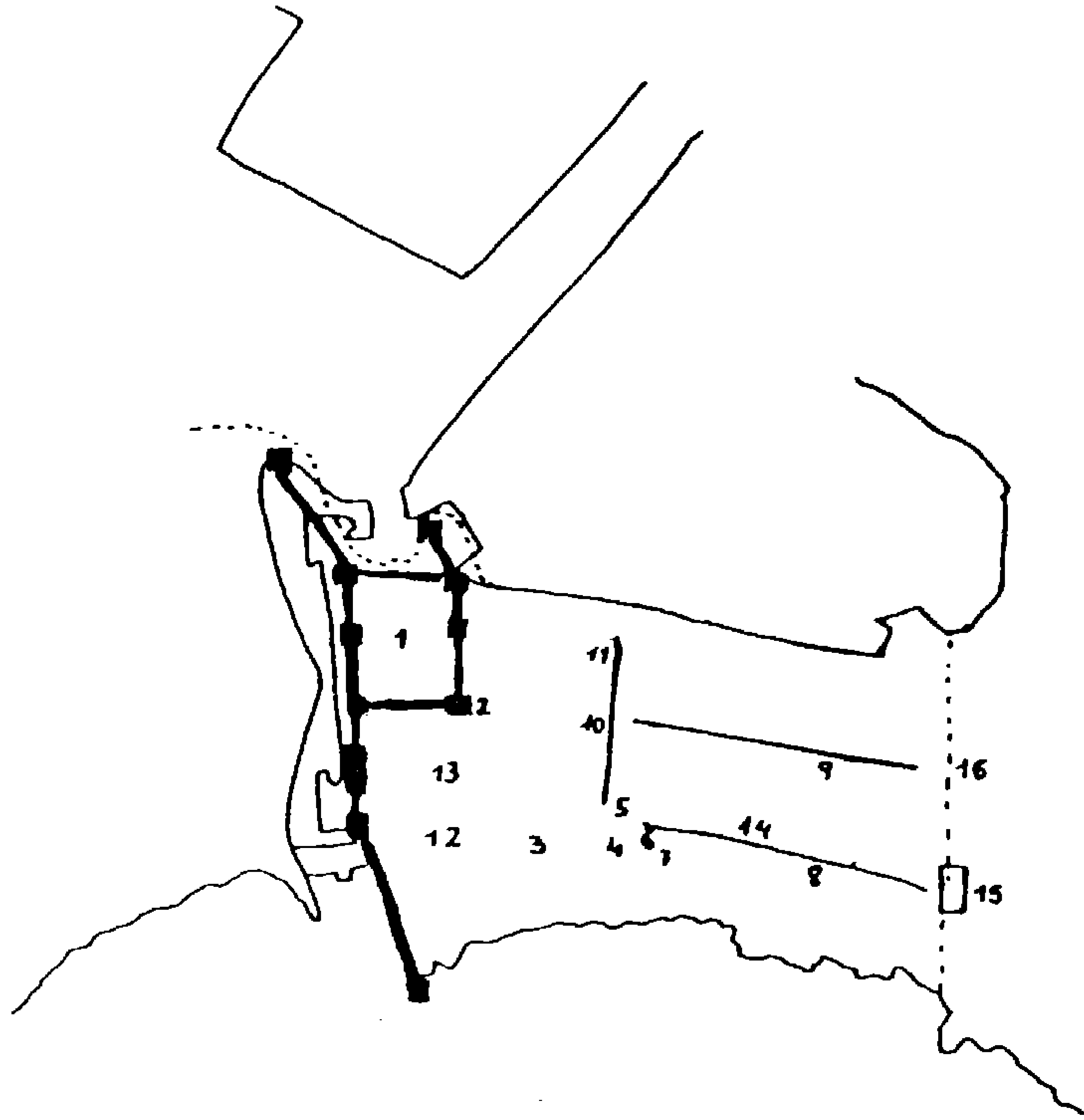


شكل (٨)

رسم تخطيطي لباب مسجد حسان بالرباط (عن بافون)



شكل (٩) رسم افتراضى لباب سبته المعروف بـ (الباب الجديد) (عن كارلوس جوثابلس)



شكل (١٠)

رسم تخطيطي لمركز سبته العمرانية (عن كارلوس جوثابلس)

١ - القصبة أو القلعة .

٢ - برج الحراسة .

٣ - المسجد الجامع .

٤ - حمام القائد .

٥ - المدرسة الجديدة .

٦ - نافورة .

٧ - حباب .

٨ - سوق العطارين الموجود الآن بشارع خاودينس) .

٩ - شارع ابن عيسى (المعروف الآن بالشارع الأعظم) .

١٠ - شارع الموثقين (المعروف ان بشارع سان اودنيا)

١١ - مسجد الموثقين .

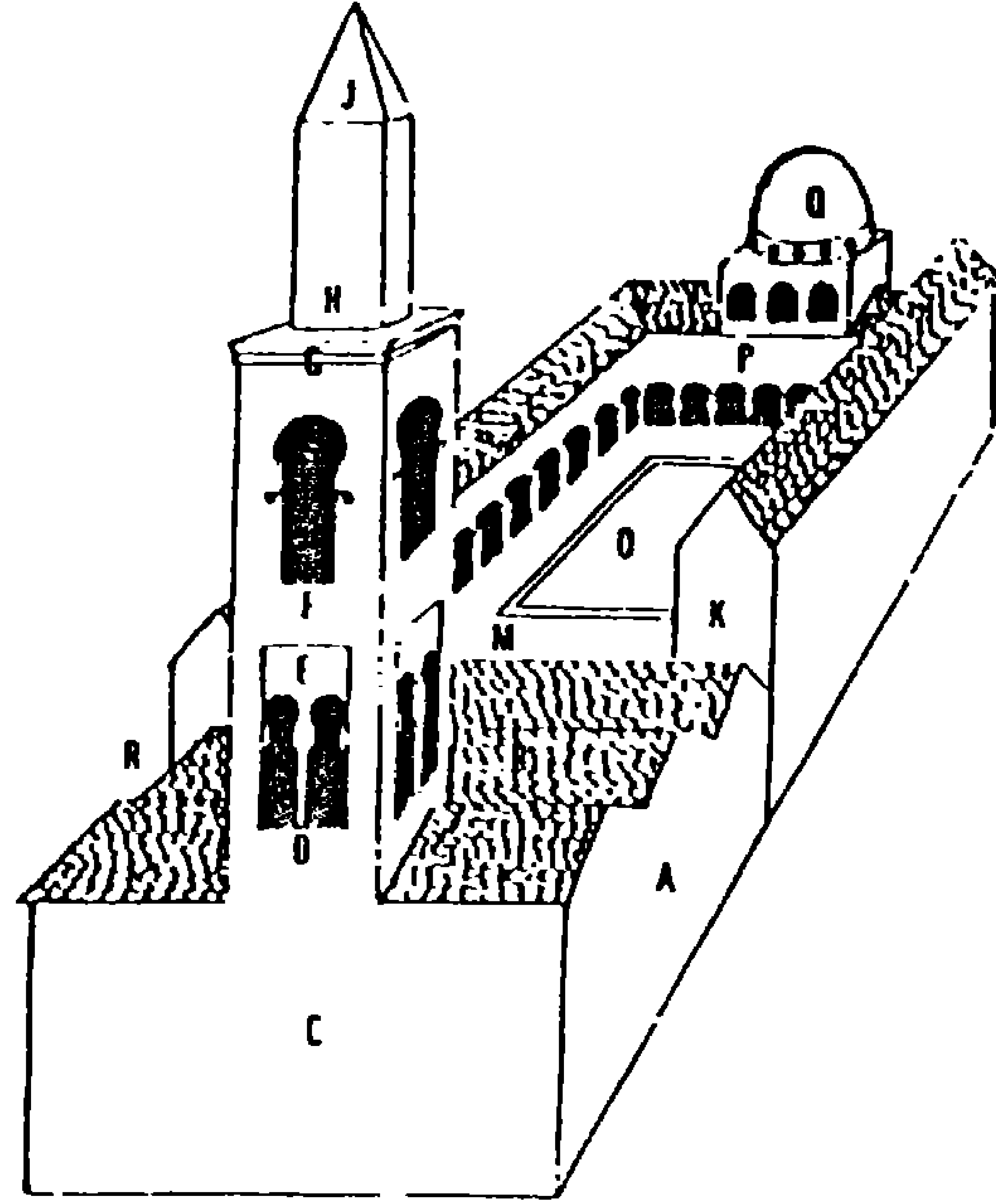
١٢ - القيسارية .

١٣ - سوق السقاطين .

١٤ - دابة الأشراف الأدارى .

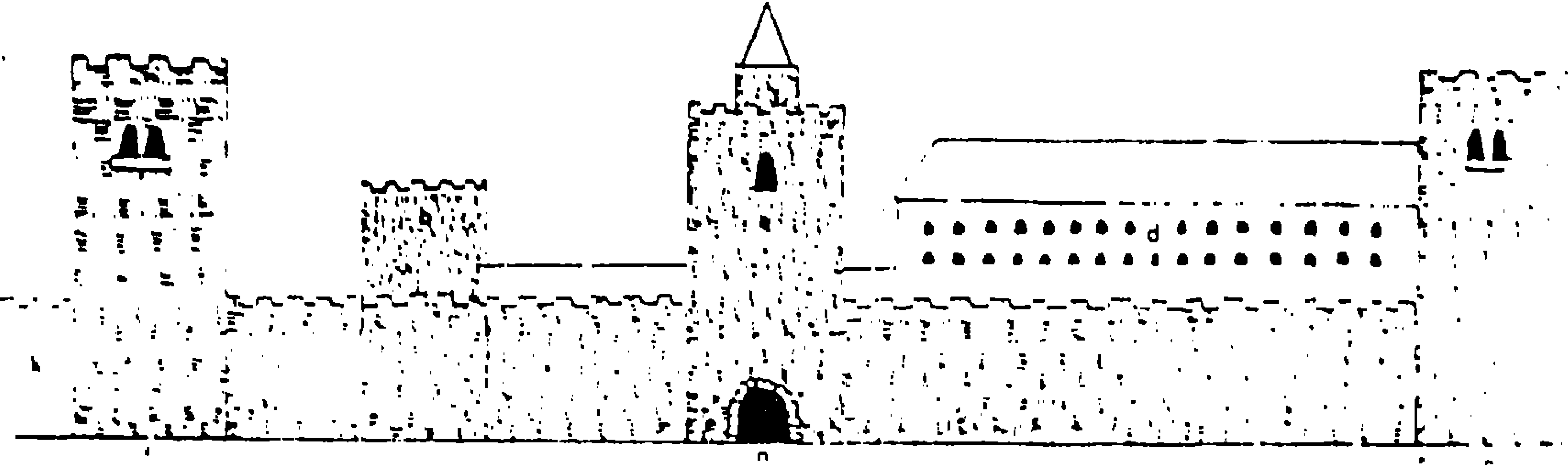
١٥ - منطقة الجمرك .

١٦ - باب الربض الأوسط .



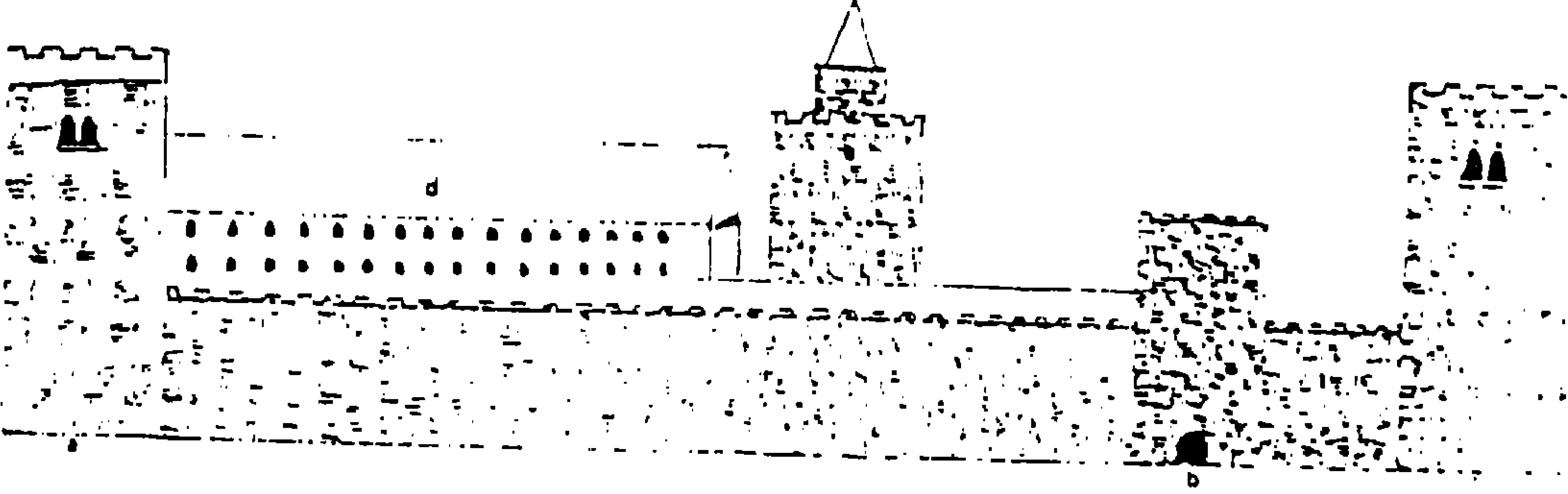
شكل (١١)

رسم افتراضي للمدرسة الجديدة بمدينة سبته (عن كارلوس جوثابلس)



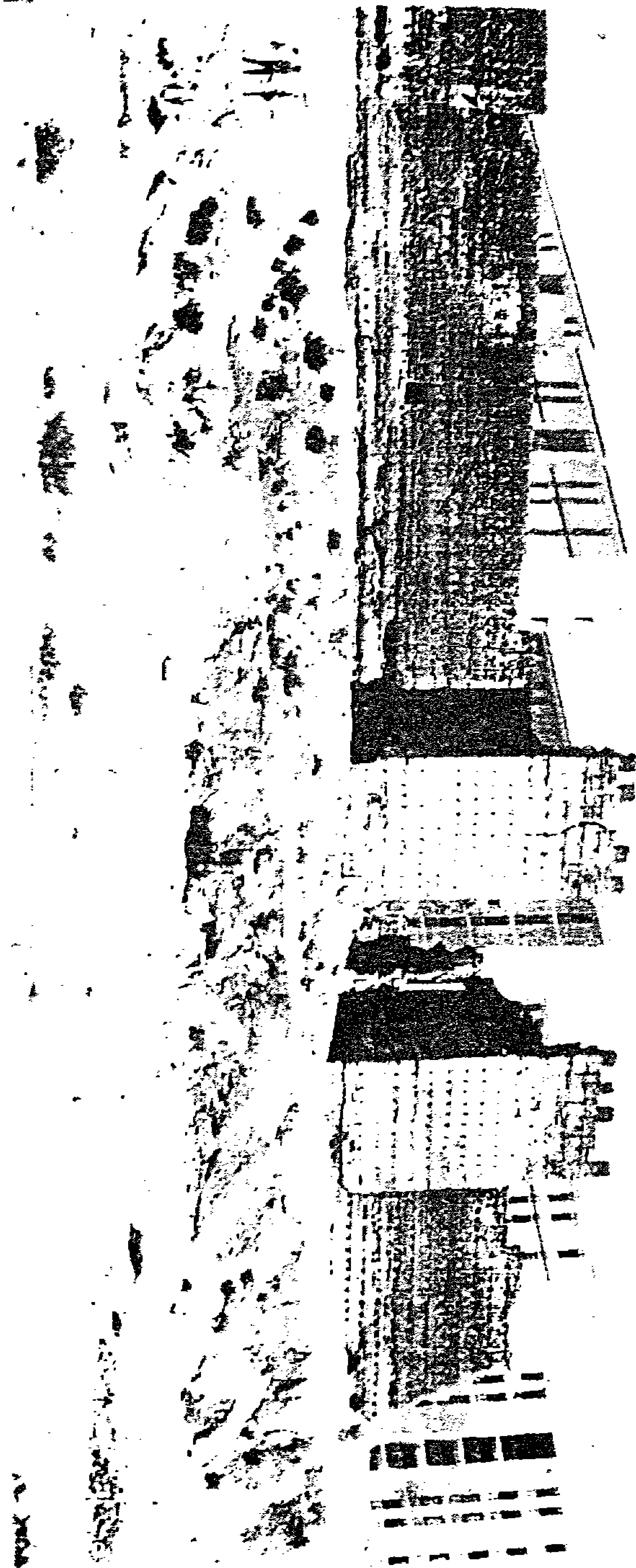
شكل (١٢)

رسم افتراضي للسور الغربي لقصبة سبته (عن كارلوس جوثابلس)



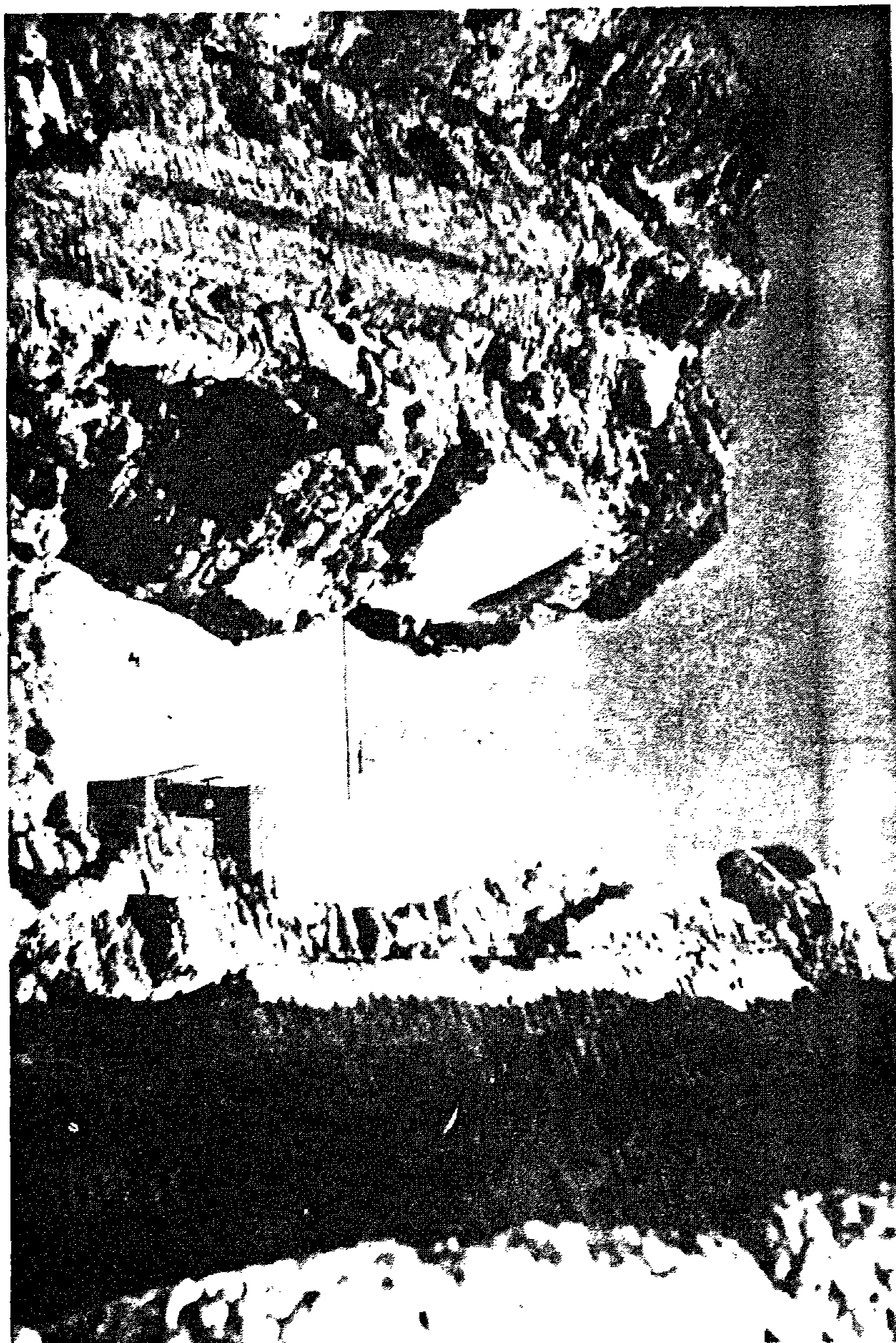
شكل (١٣)

رسم افتراضى للسور الشرقى لقصبة سبته (عن كارلوس جوثابلس)



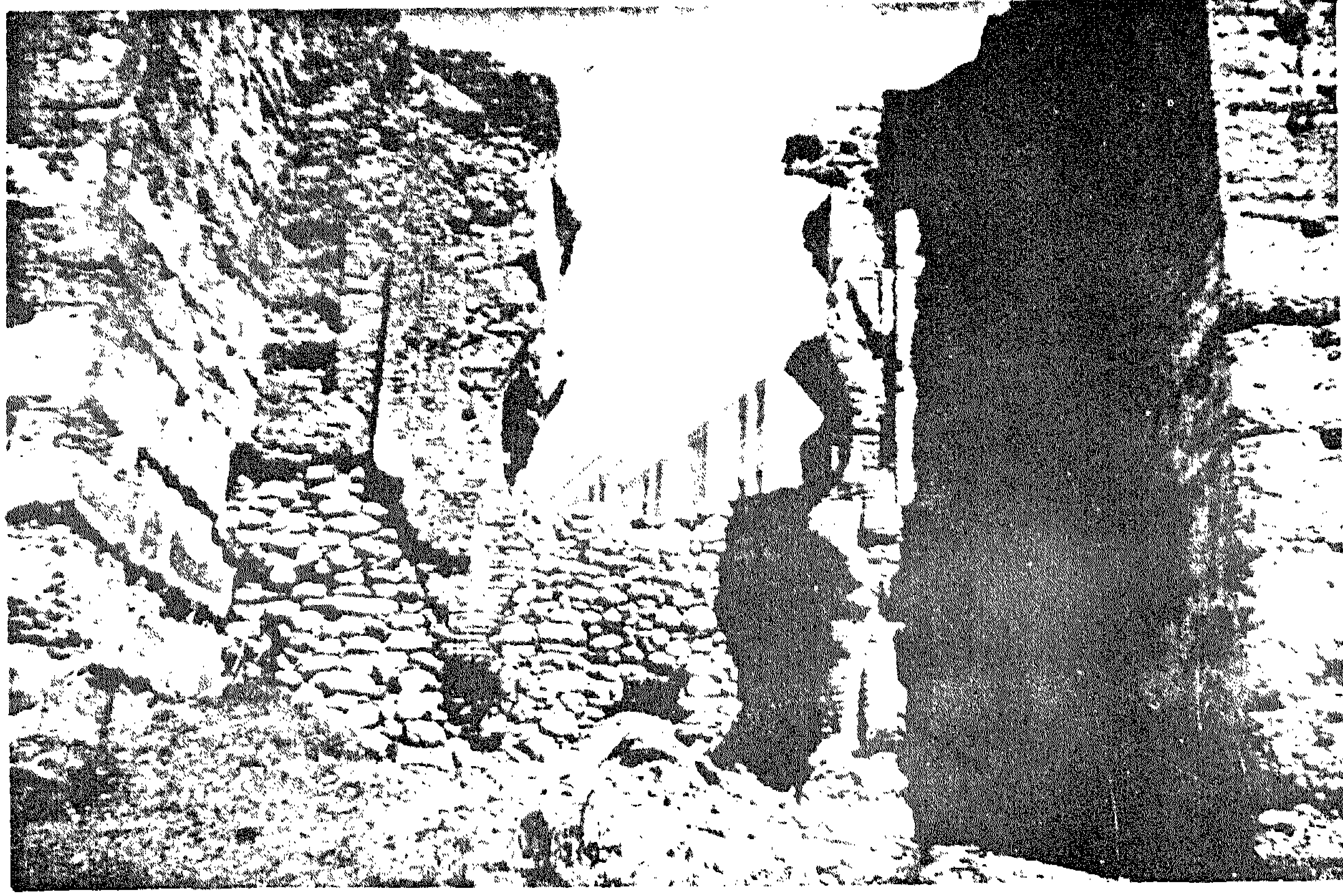
لوحة (١)

باب فاس بمدينة سبتة (عن بافون)



لوحة (٢أ)

بقايا باب فاس بمدينة سبتة (عن بالون)



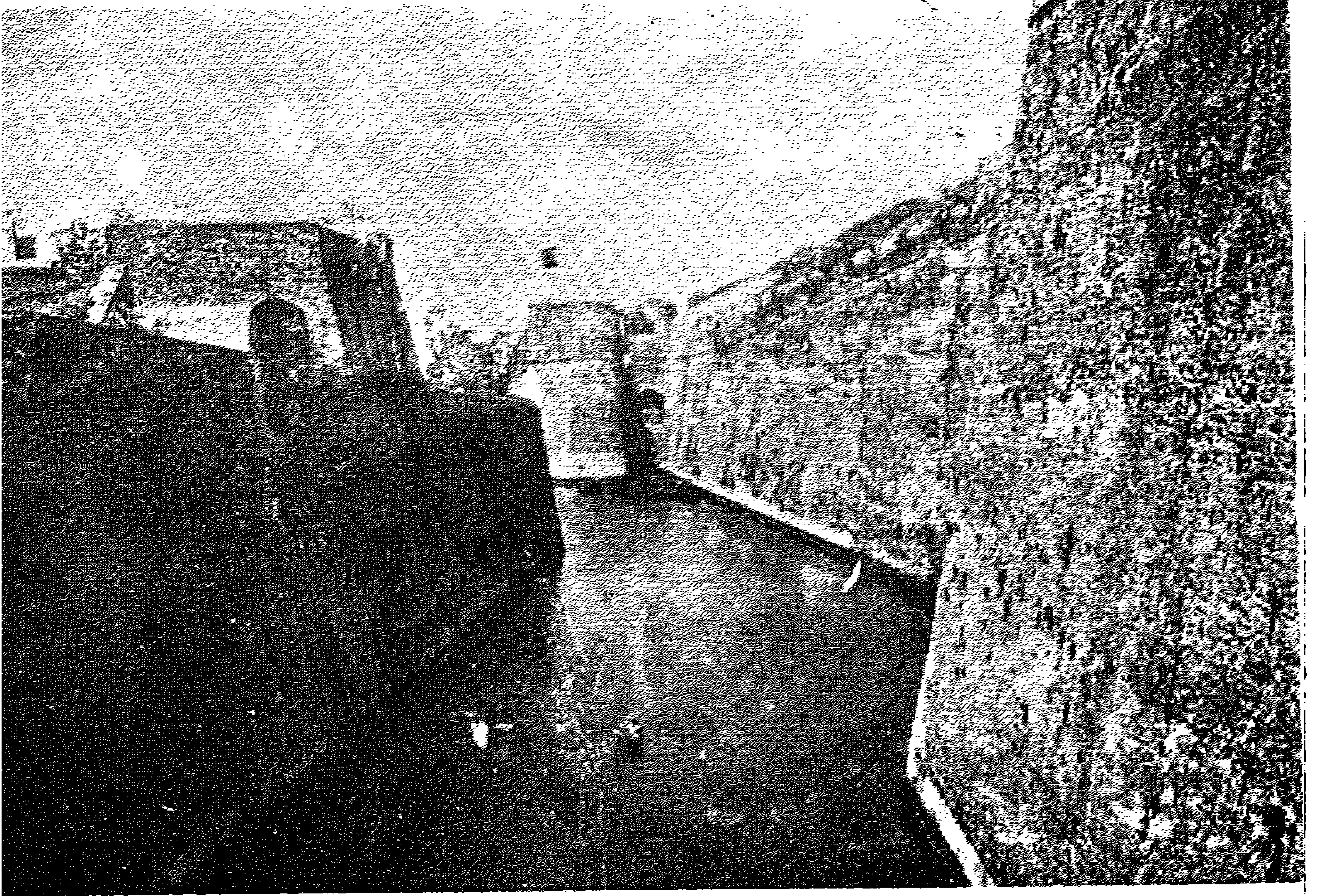
لوحة (٢ ب)

بقايا باب فاس بمدينة سبته (عن بافون)



لوحة (٣)

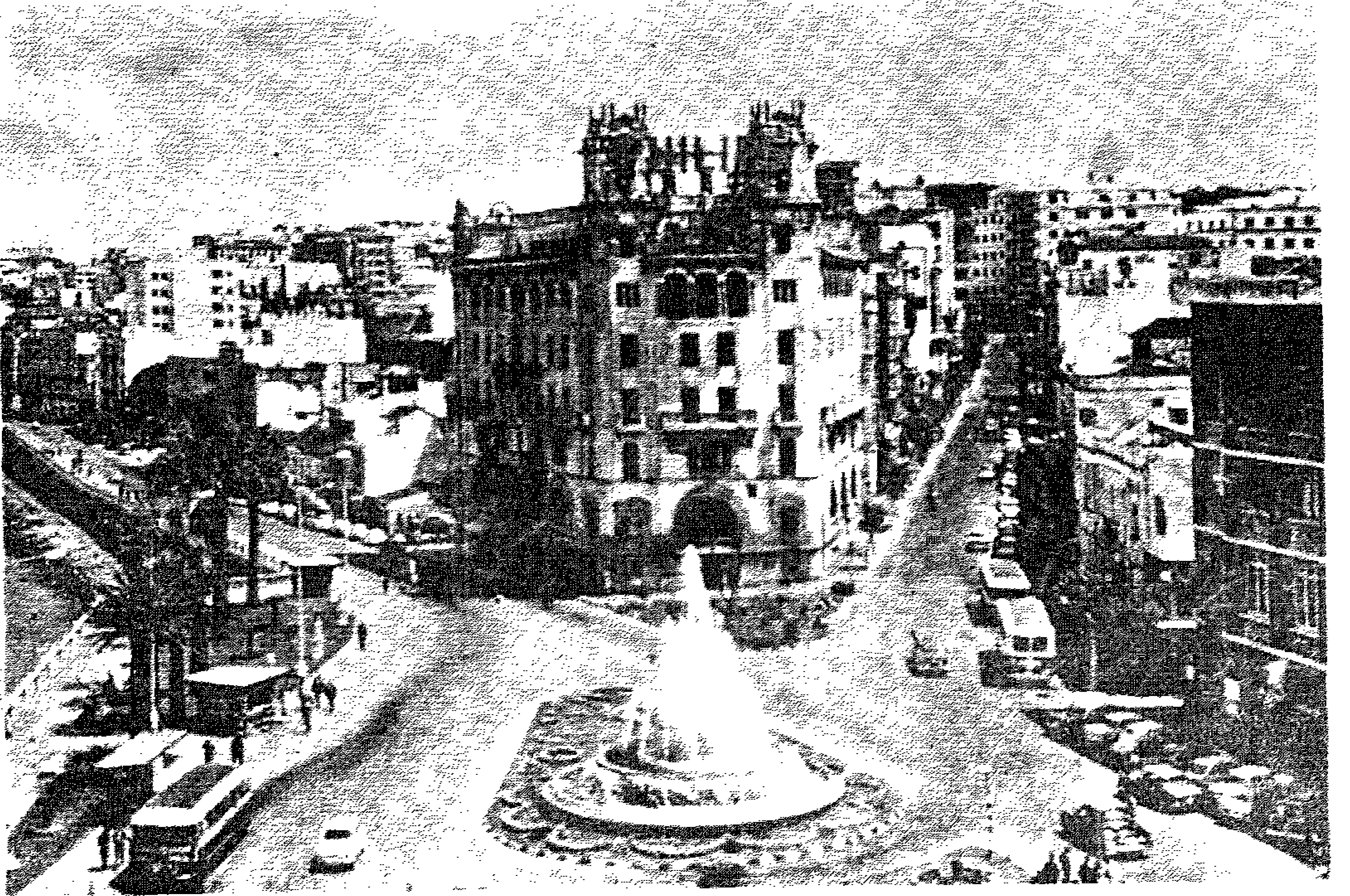
باب السلاح بغرناطة (عن بافون)



لوحة (٥)

بقايا حصون أسبانية وبرتغالية مواجهة للمغرب يفصلها بحرابى السول

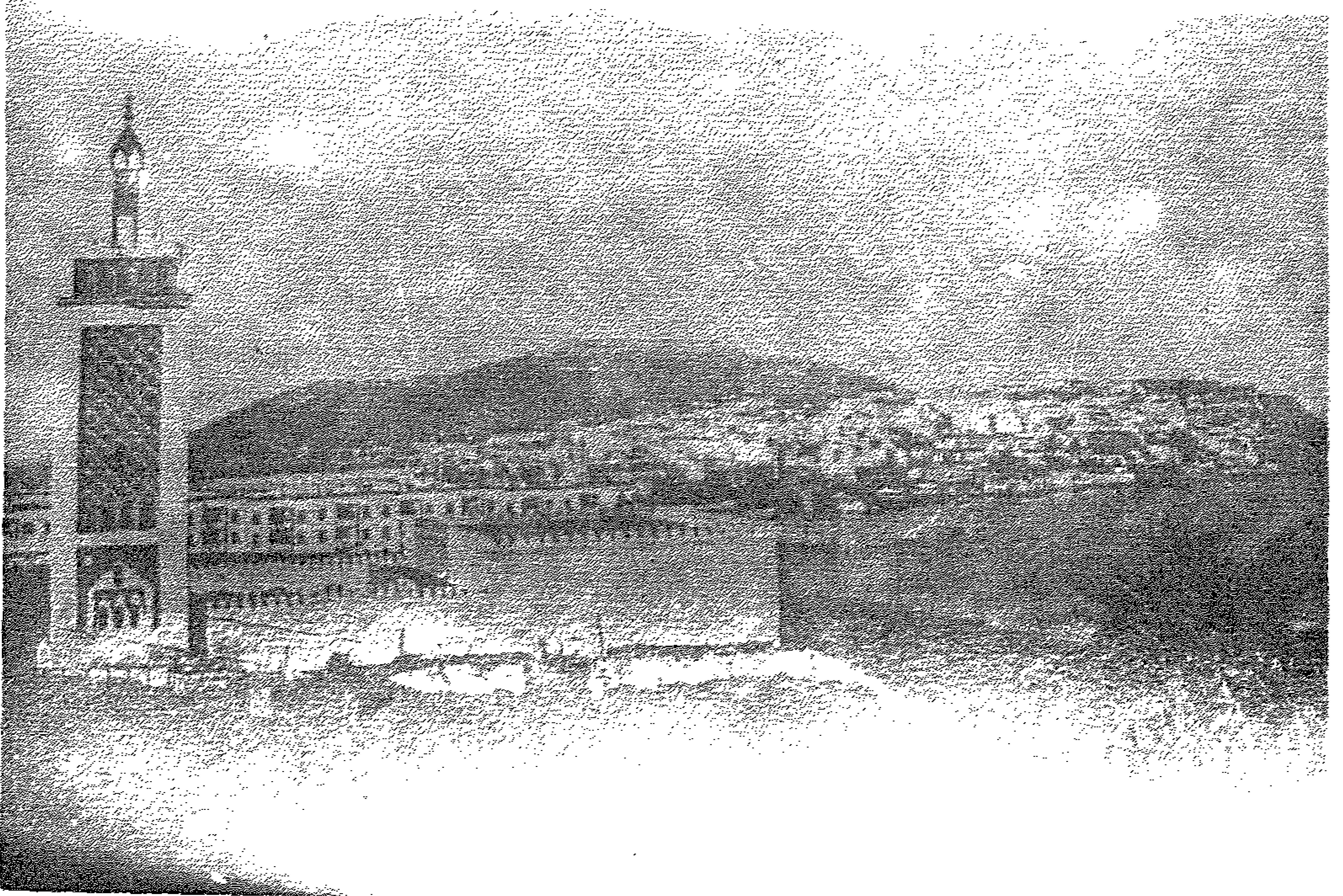
(عن عبد الوهاب بن منصور)



لوحة (٤)

أحد شوارع سبته المعروف بالشارع الكبير والى اليمن

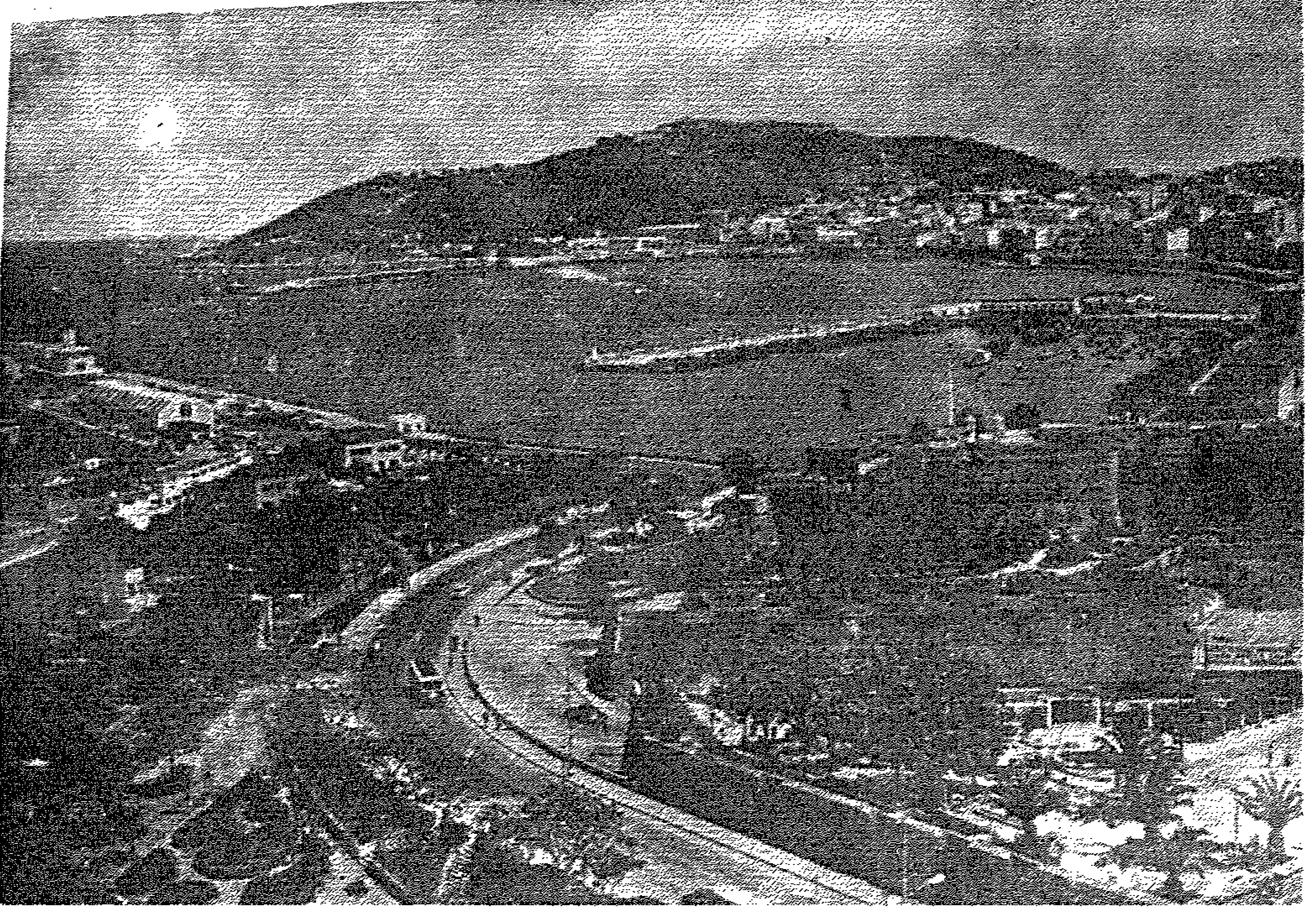
كان يوجد زقاق ابن عيسى (عن عبد الوهاب بن منصور)



لوحة (٦)

مسجد حديث يمثل الأثر الإسلامي الوحيد بمدينة سبته

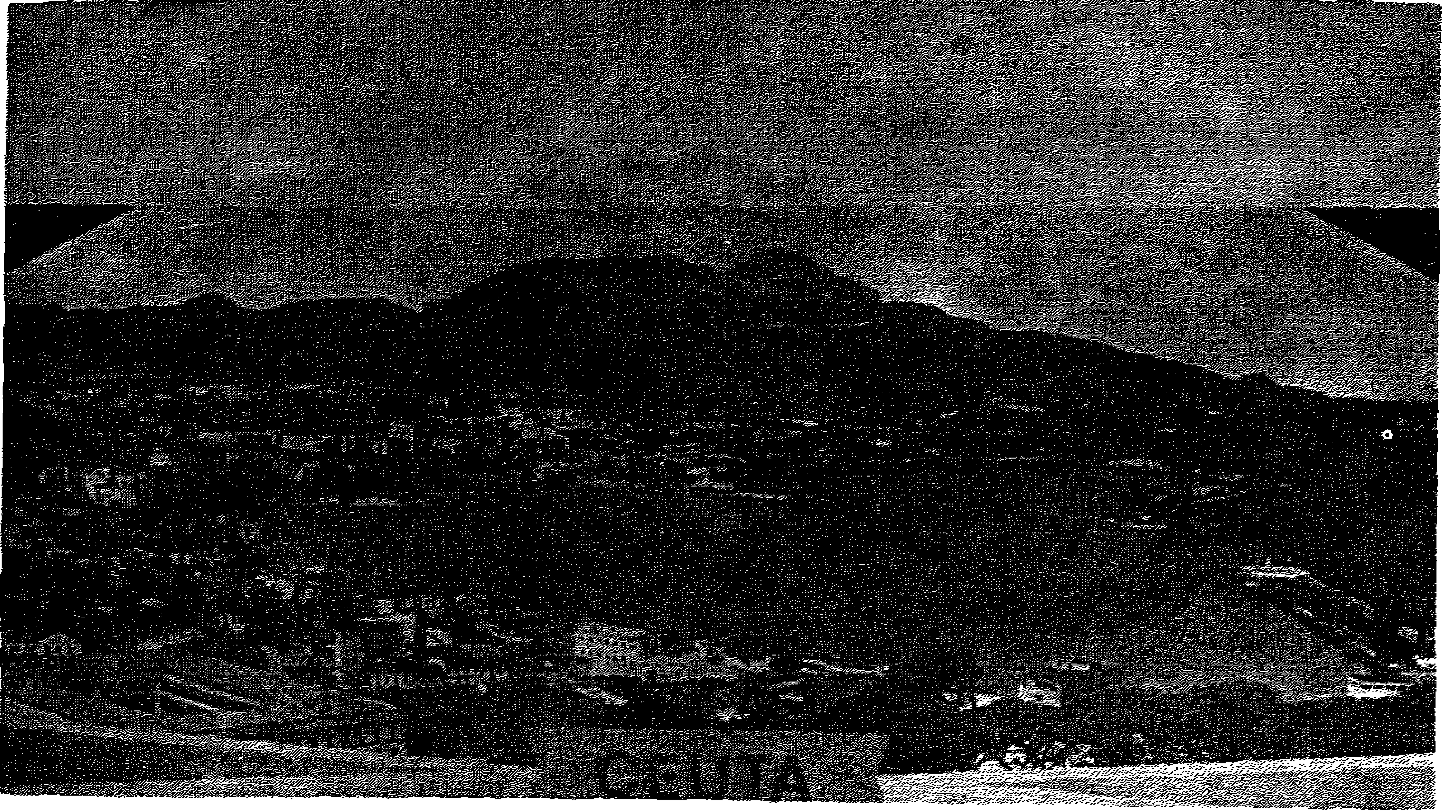
(عن عبد الوهاب بن منصور)



لوحة (٧)

منظر عام سبته

(عن عبد الوهاب بن منصور)



لوحة (٨)

منظر آخر لمدينة سبته وفى الخلفية يظهر جبل طارق

(عن عبد الوهاب بن منصور)

الهوامش

(١) راجع البكرى (عبيد الله بن عبد العزيز) : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب من كتاب المسالك والممالك . مكتبة المثنى بغداد (مصور من طبعة دى سلان . الجزائر ١٨٥٧ م .) ص ١٠٣ حيث الإشارة إلى أن مدينة سبته مدينة قديمة سكنها الأول وبها آثارهم وبقايا كنائس وحمامات .

وكذلك راجع : مؤلف مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار . نشر وتعليق د. سعد زغلول عبد الحميد . مطبعة الإسكندرية ١٩٥٨. ص ١٣٧ ، الحميرى (أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن عبد المنعم): الروض المعطار فى خبر الأقطار . تحقيق . د. إحسان عباس. بيروت . ١٩٨٤. ص ٣٠٣.

وقد اختلف المؤرخون حول تفسير اسم مدينة سبته فالبكرى والإدريسى يذكران بأنها سميت بهذا الاسم لأنها جزيرة منقطعة ، والبحر يطيف بها من جميع جهاتها إلا من ناحية الغرب ، والبحر يكاد يلتقى بعضه ببعض هناك ، ولم يبق بينهما إلا أقل من رمية سهم (راجع البكرى : المصدر السابق . ص ١٠٣) ، كذلك راجع الإدريسى (أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . تحقيق مجموعة من العلماء . نشر مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة . بدون تاريخ . جـ٢. ص ٥٢٨ .

أما المقرى فيذكر نقلاً عن ابن سعيد بأن سبته سميت بهذا الاسم نسبه إلى سبت بن تافث ابن نوح) : المقرى (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق د. إحسان عباس . بيروت ١٩٨٨. جـ١. ص ١٢٥. ويفيد ليو الأفريقى بأن الرومان كانوا يطلقون عليها اسم سيفيسطاس ، وسماها البرتغاليون سوتبة : ليو الأفريقى (الحسن ابن محمد الوزان الفاسى) : وصف أفريقيا ، ترجمة عن الفرنسية د. محمد حجى ، د. محمد الأخضر . منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر دار الغرب الإسلامى . الطبعة الثانية ١٩٨٣.جـ١. ص ٣١٦. وفى رأى أحد الباحثين أن اسم سبته مشتق من الكلمة اللاتينية (سبتوم أو سبقوم) Septum بمعنى سبعة لأن سبته كما يذكر الأدريسى ، عبارة عن سبعة جبال صغار متصلة بعضها ببعض . (راجع الإدريسى . المصدر السابق . جـ٢. ص ٥٢٨ ، كذلك راجع . رضوان البارودى . التاريخ السياسى لمدينة سبته منذ القرن الرابع الهجرى حتى منتصف القرن السابع الهجرى . فصلة من المجلة التاريخية المصرية . المجلد السادس والثلاثون ١٩٨٩. ص ٣٥ - ٣٦ حاشية (١).

(٢) ابن الخطيب (لسان الدين) : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس (مجموعة رسائله) . نشر وتحقيق د. أحمد مختار العبادى . مؤسسة شباب الجامعة . إسكندرية ١٩٨٣ . ص١٠١ . هامش (١).

(٣) عندما سيطرت جيوش الدولة البيزنطية على مدينة سبته قام جستنيان بتحصينها عام ٥٣٥م. ومنذ ذلك التاريخ وولاة الدولة البيزنطية يقومون على حكمها إلى أن كان آخرهم يليان الكونت فى أواسط القرن السابع الميلادى ، والمشهور أنه كان مغربياً من قبيلة غمارة التى استمرت صاحبة هذه الجهات حتى فى العصر الإسلامى (راجع محمد ابن تاويت . تاريخ سبته . منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر . الطبعة الأولى. ١٩٨٢. (ص١٤ - ١٥) . وقد لعب يوليان دوراً هاماً فى تحريض العرب على فتح الأندلس حيث اتصل بطارق بن زياد حاكم طنجة وطلب منه فتح الأندلس . (راجع السيد عبد العزيز سالم . تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس . مؤسسة شباب الجامعة. إسكندرية ١٩٩٧. ص ٦٦- ٦٧ كذلك راجع . أحمد مختار العبادى . فى تاريخ المغرب والأندلس . مؤسسة شباب الجامعة . إسكندرية بدون تاريخ . ص ٥٤ - ٥٥) .

(٤) بعد فتح المسلمين للأندلس عن طريق سبته ساعدتهم الظروف فى ضم هذه المدينة إلى دائرة نفوذهم . وقد خضعت سبته لحكم قبيله غمارة وزعيمها ماجكس أوما جكن .كما كانت من المدن التى ولاها الإمام محمد بن ادريس الثانى عام ٢١٣هـ/٨٢٨م .

ولمزيد من التفاصيل عن أحداث تلك الفترة راجع : سعد زغلول عبد الحميد. تاريخ المغرب العربى : نشر منشأة المعارف . إسكندرية ١٩٩٠.جـ٢.ص١١٠-١١ ، كذلك جـ٣ ص٢١١،٢٣٤ ، رضوان البارودى المرجع السابق . ص٣٩-٤٠ .

(٥) كان سليمان المستعين بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر قد عين على بن حمود على سبته عام ٤٠٣هـ/١٠١٣م . مكافأة له على انضمامه معه فى صراعه ضد الخليفة الأموى هشام المؤيد : ابن الخطيب : أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام . القسم الثانى . الخاص بأسبانيا الإسلامية . تحقيق أ. ليفى بروفنسال. بيروت. ١٩٥٦.ص١١٩ ولمزيد من التفاصيل راجع (سعد زغلول عبد الحميد. المرجع السابق . جـ٣.ص٥٠٦،٥٠٨ .

(٦) عن سقوط البراغواطى وكيف قدر له أن يظهر فى هذه الفترة من تاريخ سبته . راجع البكرى . المصدر السابق . ص١٣٤-١٤١ ، ابن عذارى المراكشى (أبو عبد الله محمد). البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق .ج.س. كولان أ. ليفى بروفنسال بيروت ١٩٨٣. جـ١ . ص٢٢٣-١٣٨، سعد زغلول. المرجع السابق . جـ٣ . ص ٥٠٨-٥٠٩، رضوان البارودى. المرجع السابق. ص ٥٧- ٦٠.

(٧) لمزيد من التفاصيل عن تاريخ سبته خلال فترة حكم سقوط البراغواطى . راجع . ابن بسام. المصدر السابق. م٢.ق٢.ص٦٥٨- ٦٦٠، ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) العبر وديوان المبتدأ والخبر. طبعة بولاق. ١٨٢٤. جـ١. ص١٥٧ رضوان البارودى : المرجع السابق ص ٦٠-٦٥.

(٨) راجع : ابن أبى زرع : الأنيس المطرب : ص٩٣. حيث الإشارة إلى أنه بمجرد دخول سبته فى طاعة المرابطين خرج إليها يوسف بن تاشفين «فهدنها وأصلح أحوالها وسفنها ولحقت به العساكر والجنود وقدمت عليه الوفود».

(٩) ابن عذارى . البيان المغرب. قسم الموحدين . تحقيق كل من محمد ابراهيم الكتانى ، محمد ابن تاويت ، محمد زنيبر ، عبد القادر زمامة . بيروت. ١٩٨٥ص ٢٤-٢٦، ولمزيد من التفاصيل عن تاريخ سبته على عهد الموحدين راجع ابن خلدون. العبر . جـ٦ ص٢٣٥. محمد بن تاويت : تاريخ سبته . ص ٦٥-٧٦.

(١٠) عن تاريخ سبته فى عهد الحفصيين راجع : أمين توفيق الطيبى. بنو العزفى أصحاب سبته بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مدينة سبته الإسلامية. طرابلس. بدون تاريخ . ص ٦٨-٧٦، محمد بن تاويت. تاريخ سبته . ص١٠٨-١٠٩.

(١١) يبدأ تاريخ ابن العزفى بفقيه سبتى هو أبو العباس أحمد العزفى الذى يوصف والده أبو عبد الله محمد بأنه كان فقيهاً وعالماً ومحدثاً وقاضياً ، وقد أعلن سلطانه على سبته واستقل بها عن الحفصيين ٦٤٧هـ/١٢٤٩ م وظل يحكمها حوالى ثلاثين سنة إلى أن توفى عام ٦٧٧هـ /١٢٦٨م، ولمزيد من التفاصيل عن الظروف التى ساعدت أبا العباس أحمد فى السيطرة على مدينة سبته ومدى حب وتقدير أهلها له راجع . ابن عذارى . البيان المغرب. قسم الموحدين . ص٣٩٧ - ٣٩٩ ، كذلك راجع محمد بن تاويت. المرجع السابق ص ١١٠ -١١٣ .

(١٢) أمين توفيق الطيبي . النشاط الاقتصادى والعلمى بمدينة سبته ، بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مدينة سبتة- ص٤٦ - ٤٧ ، كذلك راجع محمد بن تاويت. المرجع السابق ص ١٣٤ وما بعدها.

(١٣) نفس المرجع ص ٤٧- ٤٨ ، كذلك راجع :

جوليان شارل أندرى : تاريخ أفريقيا الشمالية . ترجمة : محمد مزالى والبشير بن سلامة : تونس ١٩٧٨ ص ٢٤٩.

(١٤) أمين توفيق الطيبى : احتلال البرتغاليين مدينة سبته المغربية (مقدماته ودوافعه ونتائجه) . (بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مدينة سبته) ص ١٣٧ .

(١٥) مؤلف مجهول : بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبته من الدول المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب . تحقيق : عبد الوهاب المنصورى . الرباط ١٩٨٤ .

(١٦) مؤلف مجهول : بلغة الأمنية . ص٢٣ حيث الإشارة إلى أنه توفى فى عام ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م. وكان موضع أقرانه بمسجد القفال وكان يدير ظهره إلى جوار القبلة من بعد صلاه الصبح ويمشى دوله أثر دوله فى الفنون العلمية إلى أن تزول الشمس.

(١٧) نفس المصدر . ص٣١ -٣٢ . حيث الإشارة إلى أنه توفى فى عام ٧٥٠هـ/١٣٤٩م. وكان يحمل صحيح البخارى عن الحجار وهو سند عادل متصل السماع لانظير له فى المغرب .

(١٨) نفس المصدر. ص٤٤ - ٤٥ . حيث الإشارة إلى وفاته عام ٨٠٢هـ/١٤٠٠م وإلى أنه كان فقيهاً محدثاً حسابياً مشاركاً فى أصول الدين والنحو والتاريخ وكان متودداً للطلبة حسن التعليم والإلقاء .

(١٩) نفس المصدر : ص٥٥ - ٥٦ . حيث الإشارة إلى أنها قرأت الطب على صهرها الشيخ أبى عبد الله الشريشى ونبغت فيه .وكانت عارفة بالطب والعقاقير كما كان لها رباع تفتلها عهدت بتوقيفها فى وجوه البروسبيل الخيرات .

(٢٠) الأنصارى : اختصار الأخبار. نشر بروفنسال. ص١

(٢١) المصدر السابق . ص٣ .

(٢٢) محمد بن القاسم الأنصارى السبتى : اختصار الأخبار عما كان بثغر سبته من سنى الآثار تحقيق عبد الوهاب بن منصور . الطبعة الثانية . الرباط . ١٩٨٣ ص٧ .

(٢٣) المصدر السابق نشر بروفنسال . ص٩ . حيث الإشارة إلى أنه استوعب وصف جامع سبته وذكر ما ينبغي أن يذكر من تاريخ وخبر فى بغية السامع من تأليفنا .

(٢٤) نفس المصدر . ص ١٤ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٦ .

(٢٥) نفس المصدر . ص٢ .

(٢٦) يظن الأستاذ عبد الوهاب بن منصور . أن الكتاب طبع بعد طبعة تطوان طبعتين أخرين إحداهما بطنجة والأخرى بالرباط ولكنه لم يشر إلى سنة الطبع ولا إلىاسم الناشر راجع الأنصارى . اختصار الأخبار . نشر عبد الوهاب بن منصور ص٨ .

(27) Joaquin Valve Bermejo : Descripcion de cetua Musulmana. En el siglo XV;, Alandalus vol, XXVII. Madrid 1912.

(٢٨) كمال عنانى إسماعيل : العمارة الإسلامية فى طليطلة فى العصر الإسلامى . رسالة ماجيستير (غير منشورة) إسكندرية ١٩٨٩ . ص ٦٣ .

(٢٩) شكل رقم (١) .

(٣٠) ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى) معجم البلدان . دار صادر بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٥. ص ١٨٣ .

(٣١) حبت الطبيعة مدينة سبته موقعاً استراتيجياً جعلها من أمنع مدن الغرب الإسلامى . فهى تقع على برزخ يصل اليابسة فىالغرب بشبه جزيرة الميناء فى المشرق . وتطل على البحر المتوسط من الشرق ويكتنفها خليجان أحدهما فى الشمال والثانى فى الجنوب بحيث لايمكن الوصول إليها براً إلا من الغرب . (راجع مؤلف مجهول الاستبصار . ص ١٣٧ حيث الإشارة إلى أن البحر قد أحاط بها (أى بسبته) شرقاً وجنوباً وقبله وليس لها إلى البر غير طريق واحد من ناحية الغرب لو شاء أهلها أن يقطعوه لقطعوه .

(٣٢) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب . ص ١٠٣ .

(٣٣) الكذان : أو كدان نوع من الحجارة البيضاء يستعمل فى تشييد الجدران وتبليط الأرضيات . وقد شاع استخدام هذا النوع من الحجارة فى بلاد المغرب والأندلس منذ عصر الدولة الأموية (عبد الرحمن غالب . موسوعة العمارة الإسلامية بيروت ١٩٨٨ ص ٣٢٣ .

(٣٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ٢ . ص ٢٠٤ .

(35) Carlos Gozalbes cravioto: ceuta Hispano portugesa (instituto de estudios ceuties):, cetua, 1993. p.p 93-94.

(٣٦) شكل رقم ٢ .

(37) Henri Terrasse: un vestige des fortifications omeiyades: Alandalus. v, XXVII. Fasc I. 1992. p, 245.

(٣٨) شكل رقم (١) أ ، ب .

(٣٩) الإدريسي : نزهة المشتاق جـ٢ ص ٥٢٨ ، مؤلف مجهول : الاستبصار ص ١٣٧ ، الحميرى : الروض المعطار . ص ٣٠٣ .

(٤٠) ابن أبى زرع : (أبو الحسن بن عبد الفاسى) : الزخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية. منشورات دار المنصور للطباعة . الرباط . ١٩٧٢ ص ٨٠ .

(٤١) شكل رقم (١) أ ، ب ، شكل رقم (٣) أ ، ب .

(٤٢) شكل رقم (٤) ، شكل رقم (٣) أ ، ب .

(43) Carlos Gozalbes : op .cit, p.p . 195-198 .

(٤٤) شكل رقم (٣) أ .

(٤٥) شكل ٤ .

(٤٦) شكل رقم (٣) أ ، ب ، شكل رقم (٤) .

(47) Carlos Gozalbes: op cit, p.p 193-194 .

(٤٨) شكل رقم (٥ ، ٦) ، شكل رقم (١) أ ، ب شكل رقم (٣) أ ، ب .

(٤٩) الأنصارى اختصار الأخبار . نشر بروفنسال . ص ٢٠ .

(٥٠) تقع هذه الروضة عند رابطة الفصيل ، وكانت تضم ثلاثين مقبرة دفن فيها كل أفراد أسرة الأشراف الحسينين الذين أتوا إلى سبته من صقلية ، وهناك صاهروا بنى العزفى أمراء سبته وبعد أسرة بنى العزفى نفوا إلى أسبانيا وظلوا تحت الحكم المسيحى إلى أن افتداهم السلطان أبو سعيد فعادوا إلى سبته واستقروا بها .

Joaquin vallva : opcit, p, 411. Not46.

(٥١) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص٧ .

(٥٢) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص٦ ، وكذلك راجع نشره محمد بن تاويت حيث الإشارة إلى أنه الشيخ الفقيه المشاور الخطيب الزاهد الشهير المعروف بالبركة الذى تراب ضريحه شفاء لذوى العاهات أبى عبد الله محمد بن مسعود المكى المعروف بابن الكنغر .

(٥٣) شكل رقم (٣) ب .

(٥٤) كلمة أفراك أو أفراق تعنى الحصن أو القصبة التى كان يوجد بها قصر الحاكم . وفيه كانت تدار شئون المدينة والإقليم حيث كان يقيم السلطان وحراسه وحاشيته (راجع الأنصارى . نشرة بروفنسال ص٢٢) حيث الإشارة إلى أن منطقة أفراك كانت مخصصة لسكن الأمراء والأجناد وغيرهم . وفى موضع آخر يشير الأنصارى إلى أن أفراك المدينة كانت تمثل القصر الملوكى الذى أعده بنى مرين هناك لنزولهم. (الأنصارى . ص٢٠) . كذلك راجع ابن الحاج النميرى (فيض العباب وإفاضة قدح الآداب فى الحركة السعيدة إلى قسطنطينة والزاب . (تحقيق محمد بن شقرون . الرباط ١٩٨٤ . ص٦٤-٦٧ .

(٥٥) هو السلطان فارس المكنى بابى عنان والملقب بالمتوكل على الله ولد عام ٧٢٩هـ/١٣٢٨ م بفاس وثار على أبيه أى الحسن بتلمسان علم ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م واستولى على المغرب الأقصى وكان محباً للعلوم ومغرماً بالبناء وقد توفى فى عام ٧٥٩هـ/١٣٥٧ م بعد أن حكم سبع سنين وتسعة أشهر (ولمزيد من التفاصيل عنه راجع: مؤلف مجهول : الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية . نشر غلوس . رباط الفتح ١٩٣٦ . ص ١٥٠ (كذلك راجع أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر : روضة النسرين فى دولة بنى مرين . مطبوعات القصر الملكى . الرباط ١٩٦٢ ص: ٢٧-٢٨ ، لسان الدين بن الخطيب : نفاضة الجراب من غلالة الاغتراب) تحقيق أحمد مختار العبادى ومراجعة عبد العزيز الأهوانى . دار الكتب العربية بالقاهرة . بدون تاريخ) . ص ٧٤ حاشية (٥) .

(٥٦) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ١١ .

(٥٧) نفسه : ص ٢١ .

(٥٨) المقصود بالسبقة المسافة المحددة لرمى السهم (ج.س لثيام موقع سبته الاستراتيجى ووسائل الدفاع عنها فى أواخر الفترة الإسلامية . بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ سبته : ص ٣٤١ حاشية ٧٥ .

(٥٩) الأنصارى : المصدر السابق ص ٢٣ .

(٦٠) لوحة ١ ، ٢ .

(٦١) شكل رقم (٨) .

(٦٢) يطلق على هذا الأسلوب فى المصطلح الأسبانى اسم **escalo de Los tres plano que integran el alzado** التقسيم الثلاثى المتتابع والمقصود تقسيم الامتداد الأفقى

والرأسى لواجهات الأبواب إلى ثلاثة فواصل متساوية ثم تجزئة القسم المركـزى المصمت بنفس الطريقة ، بحيث يتمكن المعمار من تحديد اتساع وارتفاع فتحة المدخل من خلال تقسيم الاتساع الكلى للواجهة ، بحيث يكون ارتفاع فتحة الباب فى الغالب تساوى ربع الاتساع الكلى للواجهة . وقد طبق هذا النظام على نحو رائع فى أبواب قصر قمارش بالحمراء Antonio Fernadez puertas : La fachada del palacio de comares Granada McMLXXX, p. 34 وكذلك راجع كمال عنانى إسماعيل عمارة القصور الإسلامية فى الأندلس وتطورها . رسالة دكتوراة غير منشورة إسكندرية ١٩٩٥ . ص ٣٧٧-٣٧٨ .

(٦٣) لوحه رقم (٣) .

(64) Pavon Maldonado : opcit, p, 75.

(٦٥) شكل رقم (٣) أ .

(66) Carlos Gozalbes Cravioto : ceuta Hispano Protuguesa, p, 199.

(٦٧) قلهرات جمعها قلهرات Calahorra بمعنى قلعة أو برج القلعة - راجع . Doz R supplement aux diccionnaires arabes, Tom, II leiden. Paris 1972. p. 401. وتعنى الكلمة فى اللغة الأسبانية القلعة الحرة أو البرج البرانى.

(٦٨) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ٢٠-٢١ .

(٦٩) شكل رقم (٩) .

(٧٠) شكل رقم (٤) حيث الإشارة إلى المدخل الأول برقم (١) والمدخل الثانى برقم (٢) والمدخل الثالث برقم (٥) .

(٧١) شكل رقم (٩) حيث الإشارة فى الرسم الافتراضى للباب إلى هاتين الساحتين برقمى ٤، ٥ .

(72) Carlos Gozalbes: ceuto Hispano portuguesa p. 199.

(٧٣) أشار الأستاذ خواكين بالبين نقلاً عن الأستاذ أويثى ميراند فى - كتابه التاريخ السياسى للموحدين بأن هذا الباب قد أمر بتشييده أبو العلاء إدريس ابن السلطان الموحدى يوسف ابن عبد المؤمن عندما كان حاكماً على مدينة سبته وذلك فى الفترة من ٥٩٩هـ- إلى ٦١٨هـ. (راجع :

Joaquin vallve : Decripcion de ceuta en el siglo XV, p. 430. Not . 96.

(74) Henri Terrasse les Monuments de ceuta d'apres la Description D'Al-Ansari : Al-Alandalus : VXXVII, 1962 p, 444.

(٧٥) الأنصارى : اختصار الأخبار نشره بروفنسال ص١ .

(٧٦) شكل رقم (٣) أ (رقم ١٩) ويقع هذا الباب فى القطاع الشمالى من المدينة ويبدو من موقعه أنه كان يستعمل لتحصيل رسم خاص نظير المرور من خلاله Carlos Gozalbes : op .cit, 196 وربما يدعم هذا الظن أن سبته اشتهرت فى ميدان التجارة براً وبحراً بحيث احتلت مكان الصدارة بين موانى شمال أفريقيا وأصبحت محط رحلات المراكب من جنوة إلى أسبانيا وفرنسا. (امين توفيق الطيبى : النشاط الاقتصادى والعلمى بمدينة سبته المغربية، بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ سبته ص ٤٩) .

(٧٧) الأنصارى : نشره بروفنسال ص٢٨ حيث الإشارة إلى أن هذا الباب كان أحد أبواب بحر أبى السول وكان يقع أمام ميضأة جامع سبته . وبمطالعة الخريطة الموضحة لمعالم مدينة سبته ، يتضح أن هذا الباب كان يقع فى القطاع الجنوبى من المدينة (شكل رقم (٣) أ ، (رقم ٩) . ويبدو أن الهدف من إقامة هذا الباب هو تصريف مياه الأمطار المتدفقة فى هذه المنطقة لتنحدر نحو بحر أبى السول حتى لا تكتسح مياه الأمطار المنشآت التى كانت قائمة فى تلك المنطقة لاسيما جامع المدينة . وكان يتقدم هذا الباب برج يعرف ببرج الماء، شيده السلطان المرينى أبو الحسن ، بهدف التحكم فى حركة المراكب التى كان تحط فى ساحل سبته الجنوبى (راجع ابن مرزوق (محمد التلمسانى) المسند الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن مولانا أبى الحسن : الجزائر ١٩٨١ . ص٣٩٩ .

(٧٨) الأنصارى : نشره بروفنسال ص٢١ .

(٧٩) نفس المصدر ص٢٢ .

(٨٠) نفس المصدر ص٢٥ .

(٨١) شكل رقم (٣ أ (رقم ١٠) وتجدر الإشارة إلى أن موقع هذا الباب خارج المدينة يتفق مع ما جرت عليه العادة فى معظم مدن الغرب الإسلامى حيث كان القصابون أو اللحامون (الجزارون أو باعة اللحوم) يشترون الدواب حية من تجار المدينة ثم يسوقونها إلى مذابح تقع خارجها ، ثم تحمل إلى حوانيت القصابين بالسوق (السقطى) (أبو عبد الله محمد بن أبى محمد) كتاب آداب الحسبة نشر كولان وليفى بروفنسال . باريس ١٩٣١ . ص٩٠) وكانت حوانيت القصابين فى سبته تقع بالقرب من الباب المذكور ،

فكان ذلك سبباً فى أن يطلق اسمهم على الحى الذى كان يرتبط بذلك الباب عبر طريق يصل بينهم (شكل رقم (٣ أ - رقم ١٣) .

(٨٢) الأنصارى : نشره بروفنسال ص ٢١ .

(٨٣) ليفى بروفنسال : سلسلة محاضرات عامة فى آداب الأندلس وتاريخها . ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة ومراجعة عبد الحميد العبادى . المطبعة الأميرية ١٩٥١ . ص٨٩ .

(84)Torres Balbas : ciudades Hispano Musulmanas Pulibicado Por instituto Hispano arabe de cultura Madrid. Sin Fecha V.I. p, 179.
Torres Balbas : aspectos de la ciudades Hispano Musulmanas : Revista del instituto Egipcio de Estudios islamicos en Madrid Vol, II, Madrid. 1954. p 92.

كمال عنانى إسماعيل : العمارة الإسلامية فى طليطلة فى العصر الإسلامى ص ٧٨-٧٩.

(٨٥) الحارة فى اللغة محلة متصلة المنازل تدل على معنى الحومة (أى الحى) فى عرف أهل المغرب . أما فى العامية المغربية فتدل على حفير تلقى فيه جيف الدواب ، يكون بعيداً عن المدن حتى لا تؤذى السكان (الأنصارى : اختصار الأخبار نشرة عبد الوهاب بن منصور ص٤٣ هامش ٨٧ .

(٨٦) اختلفت الآراء حول تفسير كلمة (الكسابون) فمنهم من يرى بأن صحتها الكناسون (الأنصارى: اختصار الأخبار نشرة محمد بن تاويت . ص٥٨ هامش ٥٧) بينما يرى الأستاذ خواكين بالبين أن المقصود بالكسابين هم رعاة البقر ، والقصابون أى باعة اللحوم (الجزارون) . ودليله على ذلك أنه ورد فى المدونات المسيحية ما يشير إلى أنه كان يوجد فى هذا الموضع حظيرة مسورة للمواشى ، يشغل مكانها الآن رصيف يعرف برصيف أسبانيا ، حيث ترسو عبارات أو مراكب الجزيرة الخضراء . Joaquin Vallve: opcit, p. 429 No T . 93. (راجع شكل رقم (٣ أ رقم (١٣) حيث الإشارة إلى مكان القصابين .

(٨٧) شكل رقم (٣) أ رقم (١٥) حيث الإشارة إلى موضع حافة الغدر .

(٨٨) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص٢٠ ، كذلك راجع شكل رقم (٣) وشكل رقم (١) أ ، ب .

(89) Carlos Gozalbes : ceuta Hispano Portuguesa, p. 195.

(٩٠) الأنصارى . ص١٤ .

(٩١) شكل رقم (٤) .

(٩٢) Carlos Gozalbes: opcit, p.p 195 - 196.

(٩٣) الأنصارى : نشره بروفنسال ص٦ .

(٩٤) هذا الكتاب فى فضل النبى ﷺ وفضل صحابته . ويقال إنه أقدم مؤلف مغربى معروف إلى الآن . ويوجد منه الجزء الثانى محفوظاً بالخزانة الحسنية تحت رقم ٥٧٣٣ وكان فى ملك عبد العزيز بن أبى بكر بن عبد الكبير الفرديسى . (راجع الأنصارى اختصار الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور ص٢٢ . حاشية (٣١) .

(٩٥) الأنصارى : نشره بروفنسال ص٦ .

وعن ترجمات شخصيات العلماء وأصحاب تلك المقابر راجع ص٢٣ من نشرة عبد الوهاب بن منصور .

(٩٦) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص ١١ .

(٩٧) نفس المصدر ص ١٤ (شكل رقم ((١٠) رقم (٨)) .

(٩٨) نفس المصدر ص٢٢ وكذلك راجع شكل رقم ((١٠) حيث ورد فى المخطط الخاص بمراكز عمران مدينة سبته أن منطقة الأرباض الثلاثة الداخلية كانت تضم أيضاً مسجداً يعرف بمسجد الموثقين Mezquita de lo Notarios (رقم ١٠) نسبة إلى موضع يعرف بسماط العدول الموثقين القريب من سوق العطارين (الأنصارى : ص١٤) . كما ورد فى المخطط ما يشير إلى وجود المدرسة الجديدة (رقم ٥) وحمام القائد (رقم ٤) وباب الربض الأسود (رقم ١٦) فى تلك المنطقة .

(٩٩) جمع حفير وهو الخندق ، وينطق به عوام المغرب سبرباً (١ حفير) راجع نشره عبد الوهاب بن منصور ص٤٦ . هامش (٩٨) .

(١٠٠) جمع شطاب وصانع الشطابة أى المكنسة (راجع نشره عبد الوهاب بن منصور ص٤٦. هامش ٩٨ .

(١٠١) يبدو أن تلك السلسلة من الحفائر قد أقيمت بصورة رئيسية لدرء أى هجوم قد يقع من ناحية الغرب فأول عائق كان يترتب تذليله على القوات المهاجمة من هذه الناحية هو الربض البرنى ، وهناك كان يترتب عليها أن لا تواجه التحصينات فحسب بل أيضاً حفيراً يحيط بها وكان من ورائه حفير ثان يفصل الربض البرانى عن بقية سبته . (ج.د.

ليثام . موقع سبته الاستراتيجى . ترجمة أمين توفيق الطيبى « بحث ضمن كتاب دراسات في تاريخ سبته ص٢٧ .

(١٠٢) الأنصارى : نشره بروفنسال ص٢١ .

(١٠٣) لمزيد من التفاصيل عن سمات شوارع مدن المغرب الإسلامى ونظامها التخطيطى راجع Torres Balbas : aspectos de las ciudades, p. 93 - Torres Balbas : ciudades Hispano Musulmanes. V,I p.p 327 - 328 p. 335 p, 340.

(١٠٤) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص١٢ .

(١٠٥) هو محمد بن عيسى بن حسين التميمى السبتى ويكنى ابا عبد الله ، وكان من أهل العلم والفضل وتولى القضاء بسبته وبفاس أيضاً . وقد توفى فى سنة ثلاث أو أربع وخمسمائة وقيل فى سنة « خمسة » وخمسمائة « وكان مولده سنة » ثمان وعشرين وأربعمائة (راجع ابن بشكوال . (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) كتاب الصلة «نشر الدار المصرية» للتأليف والترجمة . « القاهرة » ١٩٦٦ . جـ٢ . ص٦٠٥ ترجمة رقم ١٣٢٧) . (راجع شكل رقم (٣ أ رقم (٢٠) ، شكل رقم (١٠ رقم (٩) .

(١٠٦) هو إبراهيم بن أبى العيش بن يربوع السبتى ويكنى أبا إسحاق ، وكان من فقهاء سبته فى القرن الخامس الهجرى . وقد توفى فى سنة ٤٣٠هـ (ثلاثين وأربعمائة) وهو ابن ثمان وسبعين سنة وقيل أنه توفى سنة ٤٣٣هـ (سنه ثلاث وثلاثين وأربعمائة) . راجع ابن بشكوال جـ١ نفس المصدر . ص١٠١ ترجمة رقم (٢٣٠) .

(١٠٧) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص١٣ . أما أبو القاسم بن الشاط فقد ولد بمدينة سبته عام ٦٤٣هـ/١٢٤٥ م وتوفى بنفس المدينة عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣ م . (راجع ترجمته فى (Joaquin Vallve. Opcit, p. 420. Not. 74

(١٠٨) نفس المصدر ص ١٥ .

(١٠٩) وردت فى نشرة محمد بن تاويت بأنه خندق أيمن ص ٨٤ .

(١١٠) الأنصارى : نشره بروفنسال ص١٢ ويوجد مكان هذا الخندق الآن أحد أودية المدينة. راجع . Joaquin vallve: Opcit. 420. Not 70

(١١١) الأنصارى : ص١٣ .

(١١٢) شاع فى بلاد المغرب والأندلس الاستعانة بهؤلاء الداربين فى حماية الأزقة من اللصوص حيث أكد على ذلك المغزى بقوله (لأن بلاد الأندلس لهادروب بإغلاق تغلق

بعد العتمة . ولكل زقاق بائت فيه له سراج معلق وكلب يسهر وسلاح معد . وذلك لشطارة عامتها وكثرة شرهم واغياتهم (راجع المقرى (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق : إحسان عباس . دار صادر بيروت ١٩٨٨ . حـ١ ص٢١٩ ، ومن طريف ما يذكر أن عادة إغلاق الأبواب مازالت متبعة حتى الآن فى أسبانيا منذ الساعة العاشرة ليلاً بواسطة درابين يعرفون باسم سيرنيوس Serenos وعلى كل من يريد الخروج أو الدخول أثناء الليل أن ينادى هذا الحارس الليلى بواسطة التصفيق (راجع أحمد مختار العبادى : الحياة الاقتصادية فى الدولة الإسلامية . مقال ضمن كتاب تاريخ الحضارة الإسلامية العربية . الطبعة الثانية دار ذات السلاسل ١٩٨٦. ص٣١٥ .

(١١٣) الأنصارى : ص١٣ حيث الإشارة إلى زقاق ابن عيسى أشهر أزقة مدينة سبته والمعروف عندهم بزقاق الأكابروية يضرب المثل بينهم متسع المساحة يحتوى على أزقة ودروب وقصور ملوكية ومصانع هائلة وفيه أربعة وعشرون حماماً ، حمامان ميرزان وباقى العدد بدور السادة من الشرفاء.

(١١٤) الأنصارى : ص١٥ - ١٧ .

(115) Carlos Gozalbes cravioto: La Madinao Nuclo urbano central en la ceuta Hispano Musulmana , cuadernos del archivo Municipal de ceuta año, II No, 4. 1989. p,. 47.

(١١٦) شكل رقم (١٠) رقم ٩ ، لوحة (٤) .

(١١٧) الأنصارى : ص١٣ .

(١١٨) شكل رقم (١٠) رقم ٨ .

(١١٩) شكل رقم (١٠) رقم (١٠) .

(120) Carlos Gozalbes: opcit, p.p 47 - 48.

(121) I Bid. P, 47 .

(١٢٢) الأنصارى : ص١٤ حيث الإشارة إلى سوق العطارين الأعظم وسماط العدول الموثقتين المتصل حيث المدرسة الجديدة وكلاهما بجوفى الجامع الأعظم والقيسارية خلف ذلك . وفى موضع أخر أشار الأنصارى إلى أهمية تلك المنطقة بمناسبة حديثه عن سقايات المدينة بقوله (وعدد السقايات خمس وعشرون سقاية أبدعها صنعة الساقية التى بطرف العطارين وأول سماط العدول بازاء باب الشوائين من أبواب الجامع) . الأنصارى ص١٧.

(١٢٣) لم يرد فى نشرة ليفى بروفنسال تاريخ صناعة هذا المنبر فى المتن وإنما أشار فى الحاشية إلى ذلك هكذا (فى الطره كان صنع هذا المنبر فى شعبان المكرم سنة ٤٠٨هـ (الأنصارى نشرة بروفنسال - ص٩) على حين ورد تاريخ صناعة هذا المنبر فى المتن فى نشرة كل من محمد بن تاويت وعبد الوهاب بن منصور على النحو التالى (ودرجات المنبر اثنتا عشرة درجة صنع فى شعبان المكرم سنة ثمان وأربعمائة) راجع نشرة محمد بن تاويت ص٨٢ ، نشرة عبد الوهاب بن منصور ص٢٨ .

(١٢٤) تضمنت نشرة كل من ابن تاويت وعبد الوهاب بن منصور الإشارة إلى تاريخ صناعة المقصورة المذكورة على النحوالتالى (والمقصورة الهائلة الغريبة الشكل (كان صنعها فى رجب سنة ثمان وعشرين وأربعمائة (٤٢٨هـ) . راجع نشرة ابن تاويت ص٨٢ ، نشرة عبد الوهاب بن منصور ص٢٨ .

(١٢٥) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص٩ .

(١٢٦) شكل رقم (٣) أ (رقم ٢) ، شكل رقم (١٠) رقم (٣) .

(127) Carlos Gozalbes: la Medina o Nucleo urbano central en la ceuta hispanomuslmana. p. 63

وكذلك راجع أمين توفيق الطيب. احتلال البرتغاليين مدينة سبته المغربية ٨١٨هـ/١٤١٥م مقدماته ودوافعه ونتائجه (مقال ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مدينة سبته الإسلامية ص١٣٣ .

(١٢٨) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقيه والمغرب ص١٠٣ - ١٠٤ ، وكذلك راجع (مؤلف مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار) ص١٣٧ ، الحميرى : الروض المعطار ص٣٠٢ .

(129) Joaquin vallve: Decripcion de ceuta Musulmana. p. 414. Not. 56.

(١٣٠) مؤلف مجهول : الحلل الموشيه ص ٥٨ - ٥٩ .

(١٣١) ابن عذارى البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب جـ٤ تحقيق إحسان عباس بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٣ ص٥٨ .

(١٣٢) مؤلف مجهول : المصدر السابق ص ٦٧ .

(١٣٣) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص٩ .

(١٣٤) مؤلف مجهول : المصدر السابق ص٥٩ .

(١٣٥) عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة جـ١ ص٣٢٠ .

Christin Ewert: Die Moschee am Bab al Mardum in toledo. Emi kopic. der Moschee vceu cordoba. Hidberg 1994. p. 352.

كمال عنانى إسماعيل : العمارة الإسلامية فى طليطلة فى العصر الإسلامى ص ٢٢٤.

(١٣٦) هو عياض بن موسى بن عياض اليحصبى من أهل سبته ويكنى أبا الفضل ، وقد كان من كبار أعلام سبته إذا كان من أهل العلم والذكاء واليقظة ، وقد تولى قضاء سبته مدة طويلة حمدت سيرته فيها ثم نقل منها إلى قضاء غرناطة . وقدم إلى قرطبة فى ربيع الآخر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة . وقد ولد فى منتصف شعبان سنة ست وسبعين وأربعمائة وتوفى أواسط سنة أربع وأربعين وخمسمائة (لمزيد من التفاصيل راجع ابن بشكوال كتاب الصلة القسم الثانى ص٤٥٣ - ٤٥٤ - ترجمة رقم ٩٧٤) .

(١٣٧) عياض (أبو الفضل عياض بن موسى) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك . تحقيق أحمد بكير محمود منشورات دار مكتبة الحياه بيروت ١٩٦٥ ص١٩ .

(١٣٨) الأنصارى : نشرة بروفنسال - ص٩ .

(139) Terrassi: les Monuments de ceuta, p. 445

(١٤٠) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريفيه والمغرب ص١٠٣ .

(١٤١) أحمد فكرى : مساجد الإسلام (مسجد القيروان) نشر دار المعارف . القاهره ١٩٣٩ ص١٩ .

(١٤٢) أحمد فكرى : المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها جـ١ نشر دار المعارف ١٩٦٩ ص٣٥٨ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى . نشر مؤسسة شباب الجامعة . إسكندرية. ١٩٨٢ ص٣٥٢ .

(١٤٣) سالم : قرطبة . جـ١ . ص ٣٤٨ .

(١٤٤) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص١٠ - ١١ أما عن أبى القاسم العزفى فهو محمد بن أحمد بن محمد اللخمى العزفى ولد بسبته فى منتصف شوال . عام ٦٠٧هـ/١٢١٠م . وتولى إمارتها فى ٢٧ رمضان عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩ م فى دولة الخليفه الموحدى المرتضى. وتوفى فى ١٣ ذى الحجه عام ٦٧٧هـ/١٢٧٨ م . وهو الذى أكمل كتاب الدر المنظم فى مولد النبى المعظم الذى بدأ والده القاضى أحمد العزفى تأليفه (راجع . المقرى ،

أزهار الرياض . جـ٢ . ص٣٧٤ - ٣٧٧ ، كذلك راجع . اختصار الأخبار. نشره عبد الوهاب بن منصور ص٣٠ هامش (٥٠) .

(١٤٥) الأنصارى : نشره بروفنسال . ص٦ .

(١٤٦) الأنصارى : نشره بروفنسال . ص٣ .

(١٤٧) نفس المصدر . ص٥ .

(١٤٨) نفس المصدر . ص ١٠ .

(١٤٩) نفس المصدر . ص٢١ .

(١٥٠) نفس المصدر ص ٢١-٢٢ حيث وصف الأنصارى المصلى الكبير بقوله (وأشرفها وأسناها المصلى الكبرى مصلى المدينة . ومن ما اتصف به هذا المصلى كونها (كونه) خارجة عن المدينة داخلة فى حكمها فوجه خروجها أنها خلف السور فى براح متصل بأرض عظيمة الاتساع مشتملة على جنات ودمن ومجاشر وحبال وخنادق وشعار وسوى ذلك دور الجميع سته أميال فصارت المصلى فى حكم الصحراء على السنه فى ذلك) .

(١٥١) نفس المصدر . ص٢٢ .

(١٥٢) نفس المصدر ص٢٢ حيث أشار الأنصارى إلى اتصل اسخدام المصلى الكبير فى أوقات الفتن بقوله (ووجه دخولها هو أن البراح الموصوف بما اتصل به منقطع فى وسط البحر فلا يلحق أحد فى هذه المصلى خوف من عدو عاد ولا تتعطل من إقامة الصلاة فى أيام الفتن والقتال ، وفى حالة الحصر والنزال بخلاف غيرها) . ويبدو أن الأحداث السياسية والحربية التى تعرضت لها سبته فى عصورها المتتابعة أثرها المباشر فى تشييد هذا النوع من المصليات .

(١٥٣) نفس المصدر . ص٢٢ حيث أشار الأنصارى إلى المصلى الملكى بمدينة سبته بقوله (وفيها بأعلى حافة الغدر المصلى الملوكية المتسعة المستوية الأرض المشرفة على البحر هنالك المختصة بسكان أفراك من الأمراء والأحناد وغيرهم وبها كان يصلى السلطان أبو الحسن المرينى بجيشه) .

(١٥٤) نفس المصدر . ص٢٢ .

(١٥٥) محمد بن تاويت : تاريخ سبته . ص ٨٨ .

(١٥٦) أمين توفيق الطيب : النشاط الاقتصادى والعلمى بمدينة سبته المغربية . ص ٥٥ .

(١٥٧) البكرى : المغرب فى وصف أفريقيا والمغرب . ص ١٠٣ .

(١٥٨) ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب . ص١٠٢ .

(١٥٩) المقرى : نفح الطيب . جـ٤ . ص١٤٥ .

(١٦٠) نفس المصدر . جـ٣ . ص ١٨٦ .

(١٦١) هو على بن محمد بن على بن محمد بن يحيى الغافقى من أهل سبته وبها ولد ويعرف بالشارى نسبة إلى شاره فلين معقل بجوفى مرسيه ومنها أصل سلفه وكان انتقال والده محمد منها إلى سبته سنة ٥٦٢هـ حيث سمع من العلماء والأدباء بسبته وفاس وغيرهما من بلاد المغرب (راجع اختصار الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور ص ٢٧ حاشية (٤٤) - وقد أشار ابن الخطيب إلى شخصية الشيخ على الشارى بما يفيد بأنه كان جماعه للكتب وذلك بقوله (انتقى منها جمله وافره فى مدرسته التى احدثها وعين لها من خيار املاكه وجيد رباعه وقفاً صالحاً سالفاً فىذلك ما بين أهل المشرق راجع ابن الخطيب الإحاطة فى أخبار غرناطة - تحقيق محمد عبد الله عنان - القاهرة ١٩٧٧ - جـ٤ ص١٨٨) ولمزيد من التفاصيل عن هذه الشخصية راجع محمد بن تاويت . تاريخ سبته ص ٨٨ ، Joaquin vallve: Descripcion ceuta Musulmana p, 409. Not. 34

(١٦٢) الأنصارى : ص٩ أما السلطان المرينى أبو الحسن فهو أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق (تولى فى الفترة من (٧٣١هـ/١٣٣٠ م - إلى ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م) وقد كان مجاهداً فى سبيل الله واستطاع أن يوحد المغرب تحت سلطانه ثم اتجه بجيوشه نحو الأندلس لغزو الأراضى المسيحية ، غير أن الجيوش الأسبانية انتصرت عليه فى موقعه بالقرب من مدينة طريف وذلك فى عام ٧٤١هـ/١٣٤٠ م . وبعد هذه الهزيمة ثار المغرب الأوسط عليه كما ثار عليه ابنه فارس أو عنان . ولم يتحمل السلطان أبو الحسن هذه الكوارث المتلاحقة فمات حزيناً شهيداً عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م) . ولهذا السلطان آثار معمارية كثيرة فى المغربين الأوسط والأقصى وبالأندلس . ومن آثاره الهامة بسبته فضلاً عن المدرسة الجديدة برج الماء ببحر السول من ساحل سبته الجنوبى (ولمزيد من التفاصيل عن هذا السلطان راجع ابن مرزوق : المسند . ص٣٣٩) وقارن تاريخ وفاته فى كتاب روضة النسرين فى دولة بنى مرين لأبى الوليد إسماعيل بن الأحمر ص ٢٥ حيث الإشارة إلى أنه توفى بعد التاريخ الذى حدده ابن مرزوق وذلك فى عام ٧٥٢هـ/١٣٥١ م ،

كذلك راجع المقرى : المصدر السابق . جـ٤ . ص٤٠٠-٤٠٤ ، ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب ص١٢٣ - ١٢٤ حاشية (٤) .

(١٦٣) الأنصارى - ص٩ .

(١٦٤) ربما قصد بها ميضأه المدرسة التى من المحتمل أنها كانت تشتمل إلى جانب تلك المطهرة على مراحيض عبر عنها الأنصارى بالبيوت الثمانية . فالميضأه فى عرف أهل المغرب اسم جامع لمكان التغوط والوضوء ويسمى أيضاً مطهرة أى مكان الطهارة وإذا كان خاصاً بالتغوط سمى بيت الماء . وكلمات المرحاض والكنيف والمستراح كلمات عربية طرأت حديثاً على ألسنة الناس (راجع اختصار الأخبار نشره : عبد الوهاب بن منصور . ص٤٠ حاشية (٤٥) .

(١٦٥) المقصود بهذا النقير الأحواض أو الصهاريج الخاصة بحفظ المياه . وقد تعنى فى رأى الأستاذ عبد الوهاب بن منصور كتلة من الحجر أو الرخام منقورة الوسط تكون بالميضأت والمطاهر ينصب فيها ماء الاستنجاء من عيون أو أنابيب (الأنصارى : اختصار الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور . ص٤١ حاشيه (٧٧) .

(١٦٦) يطلق على هذه الكلمة فى اللغة الأسبانية Azulejas أى الزليج بمعنى القراميد أو البلاطات الخزفية وتعرف فى العراق باسم القاشانى وفى مصر باسم الزليزلى (محمد عبد العزيز مرزوق . الفنون الزخرفية فى المغرب والأندلس بدون تاريخ ص٧٦ - ٧٨حاشية(١) . كما تسمى عند الأوربيين بالمزيكو ويقال فى بعض المدن المغربية الزلايج وصانعه زلايجى جمع زلايجيه واشتقوا منه زلج المضعف . ويقال زلج فلان دار بمعنى رصفها بالزليج (راجع اختصار الأخبار نشره عبد الوهاب بن منصور ص٤١ حاشية (٤٨) .

(١٦٧) قد يكون صحتها مؤنقة حيث وردت على هذا النحو فى نشره عبد الوهاب بن منصور . راجع ص٤١ .

(١٦٨) البابونج نبات عشبى من فصيلة المركبات يستعمل فى الصباغة أو التداوى (المعجم الوسيط جـ١ . الطبعة الثالثة مجمع اللغة العربية . ص٣٧ . وقد فسر أحد مؤرخى الفن نور البابونج على أنه التوريقات النباتية التى كانت تكسو قبه الميضأة والتى كانت منقوشة نقشاً غائراً بحيث تجسمت فبدت لمن يتأملها كأنها رسوم حيه مجسدة) .
Corlos Gozalbes - Ia Medina o Nuclo urbano central en La ceuta p. 55.

(١٦٩) الأنصارى . ص١٨ .

(170) Mascarenilas: jeronimo de Historia de la ciudad de ceuta. Iisboa. 1918. p. 17.

(171) Carlos Gozalbes . op. cit, p. 56

(172) Mascarenilas: Op .cit, p.p 24 -25 .

(١٧٣) راجع هامش (٨) من البحث ص٢٩ .

(174) Carlos Gozalbes: opcit. p. 58.

(١٧٥) شكل رقم ((١١) .

(176) Carlos Gozalbes: opcit. p.p 59 - 60

(١٧٧) الأربطة مفردها رباط وتجمع على أربطة ورباطات وربط . وهى لفظة تعنى فى الأصل إعداد الخيل وربطها وملازمة ثغور العدو تأهباً للجهاد فى أية لحظة . وعلى هذا فإن الرباط بناء عسكرى دينى شيد ليكون مقراً للمجاهدين في سبيل الله . ولكن مع فتور الهمم أصبح مأوى للمنصرفين إلى ذكر الله وللمتعيشين على نفقة السلطان ولأبناء السبيل (عبد الرحيم غالب موسوعة العمارة الإسلامية ص١٩٥-١٩٦) ولهذا فقد كانت تشمل مساكن لهؤلاء الزهاد ومسجد لأداء الصلوات . وكانت إلى جانب أنها مؤسسات صوفية كانت أيضاً معاهد علمية لتدريس العلوم الدينية . وكان لكل رباط شيخ يرأسه وله خادم يتولى العناية بالرباط . وعلاوة على دور الربط فى حماية الثغور والسواحل كانت تستخدم أيضاً كمراكز للإنذار وإرسال الأخبار الملحة فى حالة تعرض البلاد للخطر . ويؤكد ذلك قول المقريزى (ولما ولى إبراهيم بن محمد بعد الأغلب أفريقية فى سنة احدى وستين ومائتين حسنت سيرته فكانت القوافل والتجار تسير فى الطريق وهى آمنة . وبنى الحصون والمحارس على ساحل البحر حتى كانت توقد النار من مدينة سبته إلى الإسكندرية فيصل الخبر منها إلى الإسكندرية فى ليلة واحدة وبينهما مسيرة أشهر) (راجع المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . نشر مكتبة الثقافة الدينية . الطبعة الثانية. ١٩٨٧ م جـ١ ص١٧٤ . وعن الاشارات التى كانت تستخدم فى إرسال الأخبار يذكر المقدسى (وفى كل رباط قوم يعرفون لسانهم وينهبون إليهم من الرسالات ويحمل إليهم أصناف الأطعمة فإن كان ليل أوقدت منارة ذلك الرباط وإن كان نهاراً دخنوا . ومن كل رباط إلى القصبة عدة منابر شاهقه قد رتب فيها أقوام فتوقد المنارة التى للرباط ثم التى تليها ثم الأخرى فلا يكون ساعة إلا وقد انفز بالقصبة وضرب الطبل على المنارة) ، راجع المقدسى (شمس الدين بن عبد الله محمد المقدس) أحسن

التقاسيم فى معرفة الأقاليم : طبعة ليدن ١٩٠٦ م ، دار صادر بيروت ص١٧٧ . ولمزيد من التفاصيل عن الرباط : نشأته وتطوره راجع (فريد شافعى العمارة العربية فى مصر الإسلامية (عصر الولاة) المجلد الأول نشر الهيئة المصرية ١٩٧٠ ص ٥٢٩ - ٥٣١ ، كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية فى مصر . الطبعة الثانية . نشر الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٣ . ص ٩ ، حسين مجيب المصرى : أثر الفرس فى حضارة الإسلام ، مقال ضمن دراسات فى الحضارة الإسلامية . جـ١ . القاهره ١٩٨٥ ص١٩٦ .

(١٧٨) تقابل الزاوية فى المغرب الإسلامى الخانقاه فى المشرق أى أن كليهما يودى وظيفة واحدة كمبان للمتصوفة الذين يريدون أن يقضوا بقية حياتهم للعبادة . ويؤكد تطابق وظيفة الزاوية فى المغرب مع وظيفة الخانقاة فى المشرق ما ذكره ابن بطوطة عن كثرة الزوايا فى مصر بقوله (وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقة والأمراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا) (راجع ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . تحقيق محمد عبد المنعم العريان . ومراجعة : مصطفى القصاص. بيروت . الطبعة الثانية ١٩٩٢ .جـ١ ص٥٦ ، محمد محمد الكحلاوى : آثار مصر الإسلامية فى كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين. الدار المصرية اللبنانية . الطبعة الأولى ١٩٩٤ . ص٩٧ .

(١٧٩) اشتد تيار التصوف بمدينة سبته منذ عهد المرابطين وازداد عدد المتصوفة سواء منهم السبتيون أصلاً ومنشأ والأندلسيون الوافدون عليها مقيمين أو عابرين . ومن بين أشهر هؤلاء المتصوفه أبو العباس أحمد العزفى الذى كان فقيهاً وعاملاً محدثاً وقاضياً(راجع المقرى . أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض . القاهرة ١٩٤٠-١٩٤٥ جـ٢ ص٣٧٥. وقد تولى التدريس طيلة حياته فى المسجد الجامع بسبته . ويشتهر أبو العباس أحمد العزفى بأنه كان أول من أدخل الاحتفال بعيد المولد النبوى الشريف إلى الأندلس (راجع المقرى نفس المصدر جـ١ ص٣٩ ، ٢٤٣) ولمزيد من التفاصيل عن انتشار تيار التصوف وكثرة المتصوفة بمدينة سبته راجع محمد بن تاويت : تاريخ سبته . ص٦٠-٦٢.

(١٨٠) وردت هذه الكلمة فى نشرة عبد الوهاب بن منصور (شرجباً) وهى عبارة عن نافذة تفتح فى جدار بيت أو غرفة للتهوية والتزيين . وقد تثبت بها قضبان من حديد فى أشكال جميلة لمنع الدخول منها والخروج تسمى حيئذ شباك . وإذا كانت مجرد كوة صغيرة فهى الطاقة ، ويكتب الأدباء الشرجب وينطقون به بشين مثلثة وعند العوام بسين

(راجع الأنصارى ، نشرة محمد بن تاويت ص٣١ هامش (٥٣) وكذلك راجع ابن الرامى : الإعلان بأحكام البنيان دراسة أثرية معمارية ، تحقيق محمد عبد الستار عثمان نشر دار المعرفة الجامعية . إسكندرية ١٩٨٩ . ص ١٨٦ .

(١٨١) الكذان : نوع من الحجارة فيها رخاوة وربما كانت نخرة مثل الأحجار الرملية الموجودة بشطوط الأنهار ومجارى المياه وتسمى الكذان بالبربرية (تافزة) وقد يطلق على الصلصال المتحجر المنعقد من صعود البخار داخل الأباريق والبراريد عند غليان الماء وهو ما يسمى عند البربر أيضاً (بتافكرة) (راجع الأنصارى : نشرة محمد بن تاويت ص٣١ حاشية رقم (٥٤) . وقد عم استخدام هذا النوع من الحجارة فى بلاد المغرب والأندلس لاسيما فى بناء الجدران وتبليط الأرضيات (عبد الرحيم غالب : المرجع السابق . ص٢٣) .

(١٨٢) فريد شافعى . العمارة العربية ص ٥١٣ .

(١٨٣) الأنصارى نشرة بروفنسال ص ١١حيث الإشارة إلى هذا الرباط بقوله (وإلى جانبها (أى رابطة الصيد) رابطة أخرى على شكلها ومثالها وفى وسطها القبر المعروف بقبر حيدة (صيدة) جارية لأحد أمراء الموحدين . وعلى القبر قطعة رخام أبيض فى طول أثنى عشر شبراً وارتفاع خمسة أشبار أو ما يقرب منها وبجوانبها خمسة أدراج منجورة طريفة الصنعة .

(١٨٤) المقرى : ترتيب المدارك . جـ١ . ص١٩ .

(١٨٥) الأنصارى : نشرة بروفنسال ص١١-١٢ حيث الإشارة إلى هذه الزاوية بقوله (ومن الزوايا الزاوية الكبرى التى ابتناها السلطان الأشهر مولانا أبو عنان بن أبى الحسن بخارج باب فاس وأعدها هنالك للغرباء ولمن اضطر إلى المبيت بها من التجار أو غيرهم . ملوكية البناء كثيرة الزخرفة والتنميق متسعة المساحة متعددة المساكن وصومعتها من أبدع الصوامع بسبته وأتمها إحكاماً).

(١٨٦) البكرى : وصف أفريقية . ص١٠٣ .

(١٨٧) يطلق على القصبة الأسبانية Alcazaba أو المدينة Almudiana تصغير للفظ مدينة والاسم الثانى وإن كان أقل شيوعاً من الأول فهو كثير فى مختلف مدن أسبانيا الإسلامية (محمود على مكى : مدريد العربيـة . وزارة الثقافة . المؤسسة المصرية العامة للتأليف

والنشر . دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بدون تاريخ ص٧٤-٧٥ ويلاحظ أن كلمة قصبة لها معنى آخر حيث كانت تطلق على الشارع الأعظم فى بعض المدن كالقاهرة ، وأحياناً أطلقت على قطاع مستوى من هذا الشارع الأعظم بها وكان له صفة تجارية بارزة كأن يقال قصبة رضوان وكانت تطلق أيضاً على المدن الكبيرة وفى الأقاليم كأن يقال صنعاء قصبة بلاد اليمن (راجع . محمد عبد الستار عثمان . المدينة الإسلامية . عالم المعرفة . (الكويت) . عدد ١٢٨ . أغسطس ١٩٨٨ . ص١٦٧ .

(١٨٨) ليفى بروفنسال : سلسلة محاضرات فى أدب الأندلس وتاريخها . ترجمة محمد عبد الهادى شعيره ومراجعة عبد الحميد العبادى . مطبوعات كلية الآداب . جامعة فاروق الأول إسكندرية . ص٧٩ ، ٩٦-٩٧ .

(١٨٩) راجع ص ٣٥٦ هامش ٥٤ من البحث .

(١٩٠) ابن خلدون . تاريخ ابن خلدون . بيروت ١٩٧٩ جـ٧ . ص٢٤٧ .

(191) Carlos Gozalbes: opcit. p. 50.

(192) Pavon Maldonado: arte Hispano Musulman en ceuta ytetuan p.72 .

(١٩٣) شكل رقم (٣) ب (رقم ١١) .

(١٩٤) شكل رقم (٣) أ (رقم ١٢) .

(١٩٥) شكل رقم (١٢) .

(١٩٦) شكل رقم (١٣) .

(١٩٧) البكرى : وصف أفريقيا . ص ١٠٣ حيث الإشارة إلى هذا البرج وبابه بقوله (ولها باب ثانى مما يلى الجوف فى برج يعرف ببرج سابق يدخل منه إلى دار الإمارة).

(198) Carlos Gozalbes : opcit. p.p 49-50

(١٩٩) الأنصارى : اختصار الأخبار نشرة بروفنسال . ص ١٤، ١٨ .

(٢٠٠) نفس المصدر . ص١٩ حيث الإشارة إلى عدد المطامير (أى مكان طمر القمح خاصة وخزن الغلال) المعدة لخزن الزرع والتى تبلغ أربعون ألفاً مفترقة بالديار .

(٢٠١) نفس المصدر ص١٤ حيث الإشارة إلى أنه كان بكل دار من ديار سبته حمام ومسجد إلا القليل .

(٢٠٢) المصدر السابق ص ١٩-٢٠ .

(203) Torres Balbas: algunos aspectos da la casa Hispano musulmano. Alandalus. V,XV. 1950 p. 185 .

(204) Torres Balbas : ciudades Hispanomusulmanas V,I p. 31 .

(205) Torres Balbas: opcit. p. 179.

وكذلك راجع كمال عنانى إسماعيل ، العمارة الإسلامية بمدينة طليطلة ص١٦٤ .

(٢٠٦) الأنصارى : اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص١٥ .

(٢٠٧) الأنصارى نفس المصدر . ص ١٣٥ .

(٢٠٨) ربما صحتها المثات .

(٢٠٩) المسلخ لغويا يعنى المكان المخصص للراحة وتناول المشروبات وكانت تعقد فيه حفلات السمر (عبد الله البستانى . معجم البستان . جـ١ بيروت ١٩٢٧ ص ١١٢١-١١٢٢ وقد تعنى خلع الثياب والتأهب للأنتقال إلى الغرفة الثانية ثم ارتداء هذه الثياب قبل الخروج من الحمام . ولذلك فهى تقابل فى الحمامات الرومانية Apdoyierum وفى هذه االحالة كانت تزود بخزائن أو طاقات غير نافذة توضع فيها الملابس ولوازم المستحمين (عبد الرحيم غالب . موسوعة العمارة الإسلامية ص١٤٠) . وقارن الأنصارى اختصار الأخبار . نشر محمد عبد الوهاب منصور ص٣٤ حاشية (٦٣) حيث الإشارة إلى أن المسلخ تعنى المكان الذى يجرد فيه المستحمون من ثيابهم قبل دخول الحمام. ويسمى اليوم فى العامية االمغربية الجلسة .

(٢١٠) وردت فى نشرة عبد الوهاب بن منصور هذه الكلمة على أنها (مرتبة بدلاً من مؤلفه) ص٣٤ .

(٢١١) المراد هنا بالطيفور الجفنة أو الحوض أو البيله/ الرخامية المستديرة المرتفعة التى يفور منها الماء وينزل إلى الصهريج (راجع الأنصارى : اختصار الأخبار . نشره عبد الوهاب ابن منصور ص٣٥ حاشية (٦٤) , أما الطيفور أو التيفور فيعنى فى المصطلح الفنى الطبق أو الصحن الكبير العميق الذى يقدم فيه الطعام لاسيما اللحم . وقد انتقل هذا اللفظ العربى إلى اللغة الأسبانية بهذه الكلمة Ataifor . وكان هذا اللفظ يدل فى غرناطة الإسلامية على نوع من الموائد الصغيرة (سيكودى لو ثينا : وثائق عربية غرناطية : صحيفة المعهد المصرى فى مدريد ١٩٥٦ . ص١٧٧ حاشية (١) .

(٢١٢) الأنصارى : المصدر السابق . ص ١٣-١٤ .

(٢١٣) تنقسم حمامات المغرب والأندلس إلى نوعين ، الأول يتألف من أربع قاعات هى بيت المسلخ والبيت البارد والوسطانى والساخن ، أما النوع الثانى فلا يشتمل على قاعة المسلخ التى كان يستعاض عنها بممر طويل مقبى يفضى إلى الغرف الثلاثة الأخرى
(Pavon Maldonado: Tratado de Arquitecturea Hispano Musulmana. Madrid 1990. p. 311.)

(٢١٤) كمال عنانى إسماعيل : الحمامات الإسلامية فى الأندلس (دراسة أثرية) بحث تحت الطبع .

(٢١٥) ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبى) : كتاب صورة الأرض . طبعة ليدن ١٩٣٨ . ص ٧٨-٧٩ .

(٢١٦) البكرى : وصف أفريقيا . ص ٣-١-٤-١ .

(٢١٧) الادريسى : نزهه المشتاق . جـ٢ . ص٥٢٨ .

(٢١٨) مؤلف مجهول : الاستبصار . ص ١٣٧-١٣٨ .

(٢١٩) قارن نشرة عبد الوهاب بن منصور ص٤٠ حيث الإشارة إلى هذه الكلمة على أنها العنابيب بدلاً من الأنابيب والعنبوب فى نطق عوام المغرب لفه فى أنبوب يقصد بها القناه التى يخرج بها الماء مطلقاً من القادوس إلى الساقية . وإذا كان الماء يخرج منها مقيداً بإدارة لولب سميت بزبوراً أى ما يعادل الحنفيه أو الصنبور عند أهل المشرق (راجع نفس المصدر . ص ٤٠ هامش (٧٣) .

(٢٢٠) أى للعموم مجاناً بدون مقابل . وأهل المغرب يطلقون كلمة السبيل على كل مرفق من المرافق العامة أو لكل شئ معد للعموم . حيث يقال جنان السبيل للحديقة العمومية ، وكذلك ماء السبيل ، واشتقوا من الكلمة فعل سبل المضعف ومعناه إعطاء الشئ وهبته من غير مقابل حيث يقال سبل فلان قربه الماء وسبل نفسه فى سبيل الله (راجع اختصار الأخبار. نشره عبد الوهاب بن منصور . ص ٤٠ هامش (٧٤) .

(٢١٢) الأنصارى : اختصار الأخبار نشره بروفنسال . ص ١٧ - ١٨ .

(٢٢٢) محمد عبد الستار : المدينة الإسلامية .ص ٢٨١ .

(٢٢٣) ابن سعيد المغربى . كتاب الجغرافيا . بيروت . ١٩٧٠ ص١٣٩ نقلاً عن أمين توفيق الطيبى النشاط الاقتصادى والعلمى بمدينة سبته ص ٤٨ حاشية (١٨) .

(٢٢٤) ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب . ص ١٠٢ .

(٢٢٥) ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد) : رحله ابن جبير . دار صادر بيروت ص٨ حيث الإشارة (فلما كان ظهر يوم الثلاثاء من اليوم الثانى يسر الله علينا فى عيون البحر إلى القصر مصمودة تيسيراً عجيباً . ونهضنا منه إلى سبته غدوة يوم الأربعاء الثامن والعشرين منه والفينا بها مركباً للروم الجنويين مقلعاً إلى الأسكندرية بحول الله عزوجل فسهل الله علينا فى الركوب منه) كذلك ص ٤٨ حيث الإشارة (ويمكن أن يجد مركباً من الروم يقلع إلى سبته أو سواها من بلاد المسلمين) .

(٢٢٦) ابن عذارى : البيان المغرب من أخبار الأندلس والمغرب . قسم الموحدين . تحقيق محمد ابراهيم الكتانى ، محمد بن تاويت ، محمد زنبير ، عبد القادر رزمامه . نشر دار الثقافة للنشر والتوزيع . الدار البيضاء . الطبعة الأولى ١٩٨٥ . ص ٣٥٠ .

(٢٢٧) المقرى . جـ٣ ص ١٣١ ، كذلك راجع : أمين توفيق الطيب . المرجع السابق ص٥٠.

(٢٢٨) ابن بطوطه : المصدر السابق رحل . ص ٦٤٩-٦٥٠ .

(٢٢٩) أندرية جوليان : تاريخ أفريقيا الشمالية ، ترجمة محمد مزالى . والبشير بن سلام . تونس ١٩٧٨ . ص ١٦١ ، أمين توفيق الطيب . المرجع السابق .ص٤٩ .

(٢٣٠) ابن حوقل . صورة الأرض . ص ٧٩ حيث الإشارة إلى أنه كان يعمل من المرجان بسبته قويريات لطاف .

(٢٣١) الأدريسى : نزهة المشتاق . جـ٢ .ص ٥٢٩ .

(232) Torres Balbas : cuidades hispano musulmana V.I.P. 301 .
كمال عنانى إسماعيل . العمارة الإسلامية فى طليطلة . ص ١٨٠ .

(٢٣٣) كان يقع هذه السوق فى الشارع المعروف الآن باسم شارع خوادينس
Call de: jaudenes - carlos Gozalbes; La Madima o Nuclo urbano central en la ceuta Hispano Musulmana p. 40
شكل رقم (١٠) (رقم ٨) .

(٢٣٤) كانت صناعة التحف المعدنية لاسيما النحاسية من أهم الصناعات التى ازدهرت بمدينة سبته وذاعت شهرتها بحيث صار انتاجها من التحف النحاسية يصدر إلى إيطاليا وقد عبر الحسن الوزان عن هذا الازدهار فيما دونه عن سبته بقوله (وفيها عمال مهره فى المصنوعات النحاسية كالشمعدانات والجنان والمحاجر وغيرها . فكانت هذه الأشياء تباع كما لو كانت من الفضة . وقد رأيت بعضها فى ايطاليا وكثير من الناس يظنون أنها من

صنع دمشق راجع : الحسن بن محمد الوزان الناسى المعروف بليو الأفريقى : وصف أفريقيا. ترجمة محمد حجى ، محمد الأخضر . دار الغرب الإسلامى بيروت ١٩٨٣ الطبعة الثانية جـ١ ص٣١٧ .

(٢٣٥) شكل رقم (١٠ (رقم ١٣) والمقصود به هو السوق المخصص لبيع الملابس المستعمله وكان يقع فى وسط المدينة بالقرب من مسجدها الجامع . ومثل هذ النوع من الأسواق المخصصة لبيع الملابس القديمة عم انتشاره فى معظم مدن الأندلس لاسيما غرناطة وأشبيلية ومالقه والغريب أن الأنصارى يؤكد أنه كان مخصص لبيع الأوانى النحاسية Carlos Gozalbes : opcit. p. 43.

(٢٣٦) الأنصارى اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص ١٤ - ١٥ .

(٢٣٧) السيد عبد العزيز سالم : العمارة المدنية بالأندلس . دائرة معارف الشعب . العدد ٦٤ ، ١٩٥٩ ص١٤٤ - ١٤٥ ، كذلك راجع أحمد الطوخى . القيساريات الإسلامية فى مصر والمغرب والأندلس . فصله من مجله كلية الآداب . جامعة الإسكندرية العدد ١٨ سنة ١٩٨١ ص ٩٢ - ٩٥ ,Torres Balbas ; Alcaicerias. Alandalus, v, XIVI p. 434 كمال عنانى إسماعيل . العمارة الإسلامية فى طليطلة . ص١٩٤ .

(٢٣٨) الأنصارى : اختصار الأخبار : نشرة بروفنسال ص١٤ ، شكل رقم (٣ أ رقم (٧) ، شكل رقم (١٠) رقم (١٢) .

(239) Carlos Gozalbes: La Medina o Nucleo urbano central en la ceuta. p.p 41 - 42 .

(٢٤٠) الأنصارى . المصدر السابق . ص ١٥ .

(٢٤١) محمد عبد الستار : المدينة الإسلامية . ص ٢٦٢ كذلك راجع عبد الرحيم غالب. موسوعة العمارة الإسلامية ص ١٠١ . ((ويقال فى بعض المدن أيضاً التربيعة سوق صغير مربع الشكل رقم يشتمل على عديد من حوانيت الحرارين والخياطين وأمثالهم . وهو ليس كاطرزه الصناعة ولا كأسواق التجارة ولا كالازقة العمومية بل هو بينها جميعاً. ولا تزال بفاس تربيعات معروفة بهذا الاسم إلى اليوم إشهرها تربيعة العطارين راجع الأنصارى . اختصار الأخبار : نشرة عبد الوهاب بن منصور . ص ٣٧ حاشية(٦٧) .

(٢٤٢) جمع طراز وهو مكان صنع الثياب الرقيقة كثياب السلطان . ودلالته فى المغرب أوسع فهو يشمل أماكن صنع الثياب وتوشيتها كما يشمل أماكن خرز الأحذية وتنميق المصنوعات الجلدية . وينطق به عوام المغرب دراز بقلب الطاء ذالاً ويجمعونه على درازات ويطلقونه أحياناً مجازاً وتهكماً على الحبس (راجع الأنصارى . اختصار الأخبار . نشر عبد الوهاب بن منصور ص ٣٧ حاشية (٦٨) .

(٢٤٣) الأنصارى . اختصار الأخبار نشرة بروفنسال . ص ١٥ .

(٢٤٤) ليو الأفريقى : وصف أفريقيا . جـ١ . ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(245) Joaquin vallve : opcit, p.p 423. Not . 82

(٢٤٦) ابن بطوطه . المصدر السابق ص٧٢ حيث الإشارة إلى أن الفنادق فى المغرب تعرف فى المشرق باسم الخانات .

(247) Torres Balbas : aspectos de las ciudades, p. 92 .

عبد العزيز سالم : العمارة المدنية . ص ١٤٣ ، كمال عنانى . العمارة الإسلامية فى طليطلة ص ١٩٥ ولمزيد من التفاصيل عن الفنادق نشأتها وتطورها ونظامها المعمارى ، راجع : أمال العمرى : المنشآت التجارية فى القاهره فى العصر المملوكى . رسالة دكتوراه كلية الآثار جامعة القاهره ١٩٧٤ ص١٣٩ وما بعدها . ابن الرامى الإعلان بأحكام البنيان . تحقيق محمد عبد الستار . ص ١٩٨ ، د. عبد الرحيم غالب : موسوعة العمارة الإسلامية . ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٢٤٨) الأنصارى . اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص١٦ .

(٢٤٩) نفس المصدر . ص١٦ حيث الإشارة إلى الفندق الذى بناه أبو القاسم العزفى بأنه معداً لاختزان الزرع .

(٢٥٠) نفس المصدر . ص١٦-١٧ حيث أشار الأنصارى إلى نموذج من هذه الفنادق وهو فندق غانم بقوله (ويليه فى الكبر من الفنادق المعدة لسكن الناس من التجار وغيرهم الفندق المعروف بفندق غانم يشتمل على ثلاثة طباق وثمانين بيتاً وتسع مصريات وهو قديم أظنه من بناء المرابطين) .

(٢١٥) نفس المصدر . ص١٧ .

(٢٥٢) جمع مقصر ويقصد بها ورش صباغة الملابس وتطلق على المكان الذى تدق فيه الثياب وتحور وتبيض والكلمة فارسية الأصل . وقد كان لحرفة القصارة أهمية فى المغرب القديم ولكنها اندثرت الآن . ولم يبق ما يذكر بها إلا بعض الألفاظ المشتقة منها كالقصار . اسم أسرة شهيرة . والقصرية هو الأنية التى تقصر فيها الثياب (الأنصارى . اختصار

الأخبار . نشره عبد الوهاب بن منصور ص ٤٩ حاشيه (١٠٢) ، وكذلك راجع Joaquin vallve : op . cit p .435 أمين توفيق الطيبي : النشاط الاقتصادى والعلمي بمدينة سبته . ص ٥٢.

(٢٥٣) الأنصارى . اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص ٢٤ .

(٢٥٤) يعكس ذلك بوضوح وصف الأنصارى لمقاصر سبته بقوله : (ولكل مقصر برج من أبراج السور خاص به تحط فيه الأمتعة ليلاً وتنشر نهاراً فلا يخاف عليها طول المدة من لص) راجع الأنصارى . اختصار الأخبار ص ٢٤ .

(٢٥٥) الأنصارى . نشر بروفنسال ص ٢٤ .

(٢٥٦) الأنصارى . نفس المصدر . نشرة عبد الوهاب بن منصور . ص ٤٩ حاشية (١٠٣) .

(٢٥٧) الأنصارى . نفس المصدر ص ٣٧ حاشية (٦٩) .

(٢٥٨) اشتهرت مدينة سبته بأسلحة الرمى حتى صارت بعض الأسر تتوارث صناعتها . ومما ذكره الأنصارى عن مهنة الرمى يتضح بانها كانت مهنة شريفه ومحترمة حيث عبر عن ذلك بقوله (إذ الرمى طبع لأهل سبته طبعوا عليه فلا تلقى منهم شريفاً ولا مشروفاً ولا كبيراً ولا صغيرًا إلا وله بصر بالرمى وتقدم فيه ومعظم رميهم بالقوس العقارة وهو من جملة الأشياء التى تميزوا بها) . (الأنصارى . نشرة بروفنسال ص ٢٢ - ٢٣) .

وفى الفقرة الأخيرة من النص إشارة واضحة إلى أن قوس العقارة كان أكثر الأقواس استعمالاً بسبته ، وقد كان هذا النوع من الأقواس معروفاً فى أوربا فى العصور الوسطى باسم arbalista ad duo pedos وقد عرف بهذا الاسم لأن الرامى لكى يجذب القوس كان يثبته بوضع قدميه على طرفيه . واستعمال كلتا القدمين بهذه الطريقة كان يمكن الرامى من رمى سلاح أثقل وزناً وبالتالى أقوى مما كان سيرميه لو أنه استعمل قدماً واحدة فقط كما هو الحال فى قوس الركاب راجع ج.د. ليثام: موقع سبته الاستراتيجى ووسائل دفاعها فى آواخر الفترة الإسلامية (بحث ضمن كتاب دراسات فى تاريخ مدينة سبته الإسلامية . ترجمة . أمين توفيق الطيبي. طرابلس. بدون تاريخ ص٣٥ .

(٢٥٩) الأنصارى . اختصار الأخبار نشر بروفنسال ص ١٥ - ١٦ .

(٢٦٠) الأنصارى . اختصار الأخبار نشرة عبد الوهاب بن منصور ص ٥١حاشية (١٠٥).

(٢٦١) نشر بروفنسال ص ٢٦ .

(٢٦٢) نفس المصدر ص ٢٦ .

(٢٦٣) ابن حوقل : صورة الأرض . ص ٧٩ حيث الإشارة إلى أنه كان يعمل منه بسبته قويريات لطاف .

(٢٦٤) الإدريسى . جـ٢ . ص٥٤١ حيث الإشارة إلى أنه كان يصاد بها من السمك نحو من مائة نوع ويصاد بها السمك المسمى التن الكبير وصيدهم له يكون زرقاً بالرماح فى اسنتها أجنحة بازرة تنشب فى الحوت ولا تخرج . وفى أطراف عصيها شرائط القنب الطوال ، ولهم فى ذلك دربه وحكمه سبقوا فيها جميع الصيادين لذلك .

(٢٦٥) الأنصارى . اختصار الأخبار . نشرة بروفنسال ص١٩ .

(٢٦٦) ليون الأفريقى . وصف أفريقيا جـ١ ، ص ٣١٧ .

(٢٦٧) ابن حوقل . صورة الأرض . ص ٧٨ .

(٢٦٨) المقصود بديار الإشراف . كلمة إدارية مغربية قديمة معناها الإشراف على جباية الأموال لخزينة الدولة . متوليها يسمى المشرف وقد حل محلها فى القرون الأخيرة كلمة أمين (راجع . اختصار الأخبار . نشرة عبد الوهاب بن منصور ص ٤١ حاشية (٧٩) .

(٢٦٩) المقصود بالديوان هنا هو مكان تسجيل المكوس و الأعشار وأدائها . ثم تخصصت كلمة (الديوان) بالمراكز المقامة بالحدود بين قطر وقطر لمراقبة السلع المجلوبة والموسوقة أى المستورده والمصدرة . واستخلاص الضرائب المفروضة عليها . فهى تعادل كلمة كمرك أو جمرك عند المشارقة (راجع اختصار الأخبار . نشرة عبد الوهاب بن منصور . ص ٤١ حاشية (٨٠) .

(٢٧٠) لكلمة القاعة خصوصية فى عرف المغاربة فهى تدل فقط على السوق التى توضع فيها أنواع الأدام لبيعها بالجملة كالزيت والسمن والعسل ويظهر انها كانت تشمل فى عرف السبتيين سوق بيع العطور (اختصار الأخبار . نشرة . عبد الوهاب بن منصور . ص ٤٢ حاشية (٨٢) .

(٢٧١) الأنصارى ، اختصار الأخبار ، نشرة بروفنسال . ص ١٨ -١٩ .

(٢٧٢) شكل رقم ٣ (ب) رقم ٦ .

(٢٧٣) الأنصارى ، اختصار الأخبار ، نشرة بروفنسال . ص ٢ .

(٢٧٤) من المعروف أن عقبة بن نافع كان قد ترك بين البربر جماعة من الفقهاء يعلمونهم القرآن وأحكام الدين منهم صاحبه شاكر المنسوب إليه الرباط المشهور والمشهور كما أن

موسى ابن نصير أنتدب أيضاً عدداً من الفقهاء لتعليم البربر القرآن وأنزل من حفاظة جماعة بين بربر طنجة وقبائل غمارة المصمودية التى تقع سبته فى ترابها أما أبو ذرعه المشار إليه فلم يذكره من المؤرخين سوى الأنصارى (راجع اختصار الأخبار ، نشرة عبد الوهاب بن منصور . ص ١٣ حاشية(٧) .

(٢٧٥) الأنصارى ، اختصار الأخبار ، نشرة بروفنسال ص ٢ - ٣ .

(٢٧٦) نفس المصدر ص٣ وصاحب هذا القبر ولد بأشبيلية فى رمضان عام ٥٩٩هـ وأخذ عن شيوخها وقرأ بأشبيلية إلى أن استولى النصارى عليها فخرج منها واستقر بسبته يقرء ويعلم إلى أن توفى بها فى عام ٦٨٨هـ . ولمزيد من التفاصيل عن هذه الشخصية راجع الأنصارى ، اختصار الأخبار ، نشرة عبد الوهاب بن منصور ص ١٤ هامش(٨) .

(٢٧٧) من أشهر مقابر هذه المقبرة قبر الفقيه القاضى ابن الدراج الأنصارى وهو محمد بن محمد بن عمر ابن الدراج الأنصارى . فقيه من أهل سبته وأصله من تلمسان (راجع اختصار الأخبار . نشرة . عبد الوهاب بن منصور ص١٩حاشية (٢٥) وقبر الفقيه القاضى عبد الله ابن محمد ابن عبيد الله الحجرى السبتى . ولد بقناجر فى شهر ذى الحجة سنة ٥٠٥هـ وعلم بمالقه القرآن والحديث واللغة ثم سكن سبته ثم فاس مدة، وعاد إلى سبته فاستقر بها وولى قضاء سبته يوماً واحداً . وكان مما جمع الله له بين العلم والعمل واتساع الرواية وعلو الذكر إلى أن توفى لسبعة ليله الأحد ٢١محرم عام ٥٩١ هـ (راجع الأنصارى . اختصار الأخبار . نشرة . عبد الوهاب بن منصور ص ١٣ حاشية (٦) .

(٢٧٨) بها قبور الشهداء وهى مزار مشهور بموضع متسع جامع لعدد كبير (الأنصار ص٥).

(٢٧٩) من أشهر قبور تلك المقبرة قبر الفقيه محمد بن عبد الله الأموى السبتى (الأنصارى . ص٥) وقد تولى صاحب هذا القبر قضاء سبته مرتين فى عهد أسرة برغواطه والآخر فى أيام المرابطين ، وقد ولد عام ٤٣٣هـ وتوفى فى عام ٥١٧هـ (راجع اختصار الأخبار نشرة محمد عبد الوهاب بن منصور . ص ٢١ حاشية (٣٠) .

(٢٨٠) كان بها قبر الشيخ أبى عبد الله القرمونى . من أهل سبته (راجع الأنصارى اختصار الأخبار . ص ٦) .

(٢٨١) الأنصارى . اختصار الأخبار نشرة بروفنسال ص ٢٥ .

علم الجراحة فى الأندلس

د. حنان عبد الفتاح مطاوع(*)

تمهيـــد :

(أ) الطب ومفهومة الحضارى :

الطب علم من العلوم القديمة التى عرفها الناس عن طريق التجربـة والخـبرة ، وهو ضرورى لكافة المجتمعات لما له من اتصال بحياة الإنسان وصحتـه فـى جسـمه ونفسه ، وهو يعود عليه بالراحة والسعادة فى حالة الصحة ، ويخلصه من الألم فـى حالة المرض. وقد عرَّف ابن خلدون صناعة الطب فقال : « هذه الصناعة ضرورية فى المدن والأمصار لما عرف من فائدتها فان ثمرتها حفظ الصحة للأصحاء ، ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم »(١) .

(ب) أهمية الطب فى الحضارة الإسلامية(٢) :

اهتم الإسلام منذ مولده بالطب اهتماماً بالغاً ، وفى ممارسة مهنة الطب اتجه المسلمون نحو تراث اليونانيين يشجعون على نقلة إلى العربية ليفيدوا منه ، فأشـادوا بابقراط(٣) . وجالينوس(٤) . وغيرهما من أطباء اليونـان، وأخـذوا عنهـم المبـادئ والأساليب التى تستهدف السمو بمهنة الطب(٥) .

(جـ) الجراحة فرع من فروع الطب :

كانت الجراحة عند العـرب تسـمى صناعـة اليـد(٦) . وهـى ترجمـة حرفيـة لكلمة Chirurgie اليونانية ، و لم تكن علمـاً مستقلاً بـل كـانت فـى بدايـة الأمـر

(*) مدرس بقسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية .

ترتبط بصناعة الحجامين الذين يقومون بالكى والفصد والبتر(٧) . ولعل ترفع العرب عن الجراحة فى أيامهم الأولى وتقليلهم من شأنها يرجع إلى انهم اعتبروها صناعة يدوية ، أما الطب فكان نتاج العقل ، والعقل فى اعتقادهم كان اسمى من اليد(٨).

واستمر العرب فى ترفعهم عن مهنة الجراحة فى فجر العصر الإسلامى(٩) . لا سيما وان الإسلام منع التمثيل بالجسم الإنسانى(١٠) . ومن ثم فان الطب الإسلامى لم يعن كثيراً فى أول الأمر بالجراحة على أساس فكرة المحافظة على جسم الإنسان كما خلقه الله(١١) . وقد تغلب العلماء فى العصور الإسلامية الأولى على هذه العقبة بتشريح أجسام القردة بوصفها أقرب الحيوانات فى تركيبها إلى الإنسان(١٢) ، وقد استقى العرب معلوماتهم فى التشريح عمن سبقوهم من اليونان(١٣) والفرس(١٤) . ومن مشاهدة الهياكل العظمية بالمقابر . ولكن لابد انهم مارسوا التشريح ولو بصورة سرية ومحدودة(١٥) . وعلى أية حال فانه مع تقدم الطب العربى الإسلامى تقدمت معه الجراحة ، وأقبل العرب على ترجمة أمهات الكتب اليونانية(١٦) . التى ألفها أبقراط وجالينوس وغيرهما . وفى هذه المؤلفات معلومات جراحية غاية فى الأهمية ، تمكن الأطباء المسلمون من دراساتها وتفهم ما فيها من معلومات جراحية ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى ازدهار علم الجراحة فى الدولة الإسلامية على يد جراحين مسلمين اعتمدوا فى البداية على ما أخذوه فى هذا المجال من العلماء اليونان، ثم كان لهم فى النهاية نظرياتهم الخاصة التى توصلوا إليها بالبحث والتجارب الشخصية . وعلى يد هؤلاء الأطباء أصبح للعرب المسلمين طب جراحى أصيل تناولوه بالشرح والنقد ومارسوه عملياً(١٧). حيث استخدموا (الكى) فى علاجٍ كثيرٍ من الأمراض ، وفضل بعضهم (الكى) بالنار على (الكى) بالمواد الكاوية ، واشترطوا أن تكون المكواة من الحديد وليست من الذهب ، وأوصوا بان يكون (الكى) فى الربيع(١٨) . كما قاموا

باستخراج الحصاة أو تفتيتها فى المسالك البولية ، وباشروا جراحات الأنف والأذن والحنجرة والفم والأسنان. وفى خياطة الجروح استخدموا الخيوط المصنوعة من أمعاء بعض الحيوانات وبخاصة القطط(١٩) .

وكان العرب أول من استعمل المخدر فى الجراحة حيث نجح الأطباء المسلمون الأوائل فى اكتشاف نباتات لها قوة التخدير . كما أن استخدام الإسفنجة المخدرة فن عربى أصيل . وقد دخل هذا الاكتشاف العلمى إلى أوروبا بطرق كثيرة ومختلفة ، وظل معمولاً به حتى القرن ١٨ م حيث اكتشف التخدير بواسطة الاستنشاق عام ١٨٤٢ م . وكان الطبيب العربى المسلم أبو القاسم الزهراوى يستخدم خليطاً من نباتات الشيلم والسيكران، وكانت هذه الخلطة تخدر المريض لفترة طويلة تكفى لأجراء العمليات الجراحية التى يقوم بأجرائها بنفسه(٢٠) .

أولاً: نبذة عن الطب فى الأندلس :

كان الطب الأندلسى بدائياً فى مطلع الحكم العربى الإسلامى . ذلك لان معظم الباحثين والدارسين المسلمين كان اهتمامهم فى تلك المرحلة بالعلوم الدينية واللغوية(٢١) .

وهكذا لم يكن فى بلاد الأندلس منذ الفتح الإسلامى وحتى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢ م) علم طبى يعوِّل عليه إلا ما كان يقوم به بعض الأفراد من النصارى الذين اكتفوا بالإطلاع على كتاب واحد مترجم من كتب النصارى يقال له (الأبريشم) ومعناه المجموع أو الجامع ، يأخذون منه معلومات سهلة وسطحية ، تساعدهم فى ممارسة مهنة الطب بالقدر الذى يكفى لكسب قوتهم دون الوصول إلى تفهم ما فيه من معلومات بشكل صحيح . وقد عبر ابن جلجل عن سطحية معلومات هؤلاء الأطباء بقوله « ولم تكن لهم

بصاره (أى رؤية) بصناعة الطب والفلسفة والهندسة فى أيام عبد الرحمن بن الحكم»(٢٢) .

غير انه سرعان ما تقدمت الحركة الطبية فى الأندلس فى زمن الأمير محمد ابن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨هـ/٨٥٢م-٢٧٣هـ/٨٨٦م) على أثر قدوم بعض الأطباء المشارقه إلى الأندلس ، ومعهم أفضل ما توصلوا إليه من أدوات طبية ، وآخر ما صدر عن علماء المشرق من نظريات علمية. وعلى رأس هؤلاء الطبيب المشرقى الشهير « الحرانى » الذى استقر فى قرطبه ، وحمل معه إلى بلاد الأندلس معجوناً كان يبيع السقيه منه بخمسين ديناراً لأوجاع الجوف(٢٣) .

وفى نفس الفترة الزمنية أقدم « ابن اياس » القرطبى - ولأول مرة فى تاريخ الأندلس - على التصدى لدراسة العلوم الطبيعية فكان أول من اشتهر بالطب فى الأندلس من المسلمين فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط(٢٤) .

وفى عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر أصبح لأهل الأندلس علم طبى راسخ الأركان بعد أن أخذ الأطباء الأندلسيون يسعون لاكتساب الخبرات الطبية عن طريق زيارة بلدان المشرق الإسلامى(٢٥) ، وجلب أفضل المصنفات الطبية الشرقية(٢٦) ، وتشجيع ترجمة الكتب الطبية اليونانية والتى كان من أهمها كتاب ديسقوريدس فى الأعشاب . ونتيجة لكل ذلك ازدهرت الدراسات الطبية فى أسبانيا الإسلامية زمن الخليفة الناصر ، وظهرت مجموعة من الأطباء كان لهم فضل كبير على الطب ، جمعوا بين المهارة وحسن التصرف والقدرة على العلاج حتى أن الخليفة الناصر اختار منهم أطباء البلاط . ويأتى على رأس هؤلاء حسداى بن شبروط الذى كان أحرص الأطباء على التقرب من عبد الرحمن الناصر ، وكذلك عالم النبات المعروف « بالشجار » الذى كان من الأطباء الباحثين عن تصحيح أسماء عقاقير ديسقوريدس ، فعرف منه ما هو صحيح وما هو مخالف للواقع(٢٧) .

وفى عهد الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ / ٩٦١-٩٧٦م) واصلت الدراسات الطبية تقدمها حيث انه شمل الباحثين فى الطب برعايته عن طريق إنشاء ديوان الأطباء ، يقيد فيه اسم كل طبيب يحترف مهنة الطب والصيدلة ، ويزاولها ، فإذا ارتكب خطأ يستوجب العقاب يسقط اسمه من الديوان، كما هو الحال بالنسبة للطبيب أحمد بن حكيم بن حفصون(٢٨) . كذلك جعل الحكم فى قصره خزانة للطب رتب لها اثنى عشر صبياً من الصقالبة لتجهيز الأدوية والمعجونات ، وكان يتولى الإشراف عليها أحمد الحرانى(٢٩) .

وإذا انتقلنا إلى عصر الطوائف (٤٢٢هـ / ١٠٣١م) نجد أن طليطلة كانت أشهر مراكز الدراسات الطبية حيث شمل ملوك بنى ذنون أصحاب طليطله كل من برع من الأندلسيين فى العلوم الطبية من طليطليين أو ممن كانوا يقيمون فى طليطله. وكان من أبرزهم ابن وافد الذى اهتم بدراسة علم الأدوية المفردة ووضع فيها مصنفاً جامعاً كان نتاج إطلاعه العميق على كتب اليونان القديمة وتجاربه الشخصية خلال عشرين عاماً من البحث والدراسة(٣٠) .

ويكفى دليل على تقدم حركة الطب فى مدينة طليطله زمن الطوائف ما ذكره لكلرك مؤرخ الطب العربى من انه كان يوجد بطليطله تسعون كتاباً مترجماً من العربية إلى اللاتينية فى الطب ، منها أربعة لأبقراط وخمسة وعشرون لجالينوس والباقى لحكماء العرب والمسلمين(٣١) .

وقد تابعت الدراسات الطبية فى الأندلس تطورها بعد عصر الطوائف ولا سيما فى عصر الموحدين « أواخر القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر للميلاد ، وأوائل القرن التالى » حيث بلغ الطب فى هذا العهد قمة تطوره(٣٢) . وقد يطول بنا القول إذا أردنا تتبع هذا التطور الأمر الذى قد يبعدنا عن موضوع البحث الذى يركز بشكل أساسى على علم الجراحة فى الأندلس ، ولكن يمكننا الإشارة فى هذا المجال إلى الرواد من مؤرخى العلوم الذين بذلوا جهداً بالغاً فى دراسة تاريخ الطب

الأندلسى ، ووصفوا كيف نشأ ونما وازدهر هذا العلم حتى بلغ أوجه فى عهد بنى نصر - فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر للميلاد - ، ويكفى أن نشير هنا إلى كتابين شهيرين هما « طبقات الأطباء والحكماء » لابن جلجل الأندلسى وكتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعه (ت ٦٦٨هـ) الذى افرد فيه الباب الثالث عشر لطبقات الأطباء الذين ظهروا فى بلاد المغرب وأقاموا بها.

ففى ثنايا هذين الكتابين نستطيع أن نستخلص العديد من الحقائق ونوجزها فيما يلى :

١- أن الأطباء الأندلسيين كانوا من النوع الموسوعى بمعنى انهم مارسوا إلى جانب الطب علوم الشريعة والفلسفة والفلك والكيمياء والصيدلة وغيرها(٣٣) .

٢- بلغ من تكريم الأطباء الأندلسيين انهم وصلوا إلى اعلى مراتب وظائف الدولة إلى جانب الطب فكان منهم من ولى الوزارة ، وبلغ بعضهم من الجاه والسلطان مبلغاً جعلهم يتبارون مع الخلفاء فى الإنفاق عن سعه والعيش فى أبهة ورخاء(٣٤).

٣- يمكننا من خلال الدراسة التحليلية لتاريخ الطب الأندلسى أن نستخلص حقيقة هامة وهى أن مهنة الطب كان يتوارثها أحياناً كثيرة الأبناء عن الأباء(٣٥) .

ونكتفى بهذا القدر من الإشارة إلى ابرز سمات الطب الأندلسى حتى يتسع المجال لإلقاء نظرة عامة على علم الجراحة فى الأندلس فى ضوء ما جاء فى مخطوط الزهراوى وما عثر عليه فى متاحف أسبانيا من آلات جراحية .

ثانياً: الطب الجراحى فى الأندلس :

إذا كانت الجراحة لم تتقدم عند العرب كما سبقت الإشارة لارتباطها بفن التشريح ، ولاعتبار الجراحة من المهن اليدوية التى لا تليق بمقام الأطباء . فان

المسلمين فى شرق وغرب العالم الإسلامى مارسوا مهنة الجراحة فى إطار دعوة الإسلام إلى الأخذ بالعلم بوجه عام ، حيث أطلق الإسلام العلم من عقاله وحث المؤمنين على طلبه أينما كان، وفصل بين الطب القائم على العلم المتوارث عن معارف الأقدمين أو التجربة ، وبين السحر ، وأقر العلاج بالنباتات والوصفات الطبية والحجامة والكى وغيرها(٣٦) .

ونتيجة لذلك عنى المسلمون بمؤلفاتهم الطبية التى أفرد بعضهم فيها فصولاً عن علم الجراحة ، ولعل من أشهرهم فى بلاد الأندلس :

١- أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى الأندلسى :(٣٢٥هـ- ٤٠٤هـ / ٩٣٦م-١٠١٣م)

هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى الأندلسى(٣٧) ، وكنيته بالزهراوى تدل على انه عاش وتعلم ومارس مهنة الطب ، وتوفى بمدينة الزهراء . وقد كان طبيباً خاصاً للحكم المستنصر ، وكان يعرف عند اللاتينيين باسم أبولكاسيس Abulcasis تحريفاً من أبى القاسم وAlsaharavius تحريفاً من الزهراوى(٣٨) .

ويعد الزهراوى أشهر من كتب فى علم الجراحة عند العرب ، وأكبر من نبغ فيها ، وللزهراوى مصنفات طبية عديدة من أبرزها وأكثرها شهرة كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » ، وهو موسوعة طبية كاملة تضم جميع فروع الطب المعروفة فى زمانه(٣٩) . إلا إن ما رفع قدرة وخلد ذكره هو ذلك الجزء من كتابه « المقالة الثلاثون » التى خصصها للجراحة(٤٠) وهى أكبر وأغنى مصدر علمى فى الجراحة ، كما تعتبر مرجعاً حتى الآن لطلبة الطب ومعيناً للأطباء فى مواجهة مشاكلهم الجراحية(٤١). وتنقسم هذه المقالة التى عثرنا لحسن الحظ على نسخة خطية منها(٤٢) إلى ثلاثة أبواب :

* **الباب الأول** : يتعلق بالكى وينقسم إلى ٥٦ فصلاً .

* **الباب الثانى** : يتناول الشق والبط والفصد ومختلف العمليات الجراحية وينقسم إلى ١٠٠ فصل .

* **الباب الثالث** : تحدث فيه عن جبر الكسور والفك الحادثين فى العظام .

وتبرز قيمة هذه المقالة وأهميتها فى أن الزهراوى زودها برسوم توضيحية للعديد من الآلات الجراحية مثل آلات الكى ، والمباضع ، والمقصات ، والمجسات ، وأدوات التوليد ، وخافض اللسان، والصنانير ، والملاقط ، والموسعات منها ما هو مصنوع من النحاس أو الزجاج أو الرصاص .

ولأهمية هذه المقالة سوف نعرض مقتطفات ملخصه من أقوال الزهراوى التى توضح ما وصلت إليه معرفته فى علم الجراحة . ففى الباب الأول الذى خصصه للكى ناقش فيه أساليب الكى فى الأمراض المختلفة من الرأس إلى القدم موضحاً ذلك بالرسوم التفصيلية للمكاوى التى كان يستعملها ، والتى من بينها المكواة السكينية والهلالية والمسمارية وذات السفودين وذات السفافيد الثلاثة .

وفى ثنايا عرض الزهراوى للمكاوى الجراحية أوضح أنواع الأمراض التى يصلح فيها العلاج بالكى ومنها :

١- برودة المعدة(٤٣) وعلاجها ويتم بكيها كية واحدة فوق المعدة بمكواة دائرية أو يكوى ثلاث كيات بمكواة مسمارية(٤٤) .

٢- فى أمراض الكبد(٤٥) ويكوى المريض ثلاث كيات فوق الكبد ويكون ذلك بمكواة سكينية(٤٦) .

٣- فى أمراض الطحال(٤٧) يكـوى ثـلاث أو أربعـة كيـات علـى طـول الطحـال ويستخدم فى ذلك مكواة خاصة ذات سفودين أو ثلاث سفافيد(٤٨) .

٤- فى علاج النقـرس وأوجـاع المفـاصل(٤٩) ويتـم الكـى بعـد الاسـتفراغ حـول مفصل الرجلين وتكون المكواة زيتونية متوسطة(٥٠) .

٥- فى علاج الأورام السرطانية نصح الزهراوى بكى السرطان(٥١) إذا كان مبتـدأ واستعمل فى ذلك مكواة دائريـة جـاعلاً الـورم السـرطانى فـى داخـل حلقـة المكواة بحيث يكون الكى حول الورم . وهو فى ذلك يختلـف عـن الأسـلوب الذى اتبعه بعض الأقدمين فى علاج الورم السرطانى بكيه كيه بليغة فى وسط الورم ، ويوضح سبب عدوله عن استخدام هذا الأسلوب بأن كى الـورم فـى الوسط يؤدى إلى تقرحه .

٦- فى علاج الـنزف الحـادث عـن قطـع الشـريان يقـول الزهـراوى « واعلـم أن الشريان إذا نزف منه الدم فانه لا يستطاع وقفه ولا سيما إذا كـان الشـريان عظيماً إلا بأحد أربعة أوجه :

(أ) أما بالكى .

(ب) وأما ببتره إذا لم يكن قد أبتر فانه إذا انفصل طرفاه انقطع الدم .

(جـ) وأما أن يربط بالخيوط ربطاً وثيقاً .

(د) وأما أن توضع عليه بعض الأدويـة التـى مـن شـانها قطـع الـدم والشـد بالرفائد شداً محكماً. وان عرض لأحد ذلك و لم يحضره طبيـب ولا دواء فليبادر ويضع الإصبع السبابة على فم الجرح نفســه وبشـده جيـداً حتـى ينحصر الدم(٥٢) .

وفى الباب الثانى من مقالة الزهراوى المخصص لعلاج الشق والبط والفصد والخراريج وغيرها . يبدأ بتوجيه بعض النصائح التى تقوم عليها تقاليد ممارسة هذا النوع من الجراحة والتى ينبغى للجراح مراعاتها(٥٣) . وأهم ما تناوله بالشرح والتحليل فى فصول هذا الباب ما يلى :

١- وصف الأورام الصغيرة ويسميها العقد وتظهر فى الشفتين ، وقد بين أسلوب علاجها عن طريق قلب الشفه ويشق على كل عقدة ثم يملئ الموضع بزاج مسحوق حتى ينقطع الدم ويتمضمض المريض بالخل(٥٤) .

٢- تعرض للقشور العالقة بأسطح الأسنان بألوانها المختلفة الصفراء والسوداء والخضراء(٥٥) . ووضح مدى خطورة تلك القشور على الأسنان وما قد تسببه من تقيح . وأكد على ضرورة جردها جيداً ، وربما يحتاج المريض إلى أكثر من جلسة لتنظيفها تماماً ، وبين أن الضرس يحتاج فى جرده إلى مجارد كبيرة ومتنوعة وأتى بأربعة عشره مجرد تصلح لهذا الغرض(٥٦) .

٣- فيما يتعلق ببط الأورام وشقها يقول(إن أنواعها كثيرة وهى تختلف فى بطها من وجهين أحدهما نوع الورم والثانى مكان الورم لأن الورم الحادث فى المقعد والورم الحادث فى المفصل لكل منهما حكم فى العمل) (٥٧) . ثم يشير إلى أنه من الأورام مالا ينبغى أن يبط إلا بعد نضج التقيح فيها وكماله . ومنها ما ينبغى أن يبط وهى نيه لم تنضج على التمام ، ويعطى مثلاً لذلك الخراج الحادث بقرب المقعد لئلا يعفن فينفذ إلى داخل المقعد فيصير ناصوراً(٥٨) .

٤- وفى علاج أورام الحنجرة يقول أن الأطباء الأوائل كانوا يعمدون إلى شق الحنجرة وأمروا بترك الجرح مفتوحاً حتى تنقضى سوره المرض ، وتكون سورته ثلاثة أيام ونحوها وحينئذاً أمروا بخياطة الجرح حتى يبرأ(٥٩) .

٥- فى الفصل السادس والأربعين زودنا الزهراوى بمجموعة رائعة من صور الآلات المستخدمة فى الشق والبط(٦٠) . وفى هذا الباب تتجسد مكانه الزهراوى كأعظم من أرخ للطب الجراحى التطبيقى(٦١).

٦- يعتبر الزهراوى من أفضل من وصف علاج السرطان ، ففى الفصل الثالث والخمسين ينصح الأطباء باستئصال الورم السرطانى متى كان فى موضع يمكن استئصاله ، وضرب المثل لذلك بسرطان الثدى أو الفخذ ، كما حذر من استئصال الورم السرطانى متى كان عظيماً ويشير إلى تجربته الشخصية فى ذلك بقوله (فإنى ما استطعت أن أبرئ أحداً منه ، ولا رأيت قبلى من وصل إلى ذلك الحد والعمل فيه إذا كان متمكناً) وبعد ذلك يشرح إذا دعت الضرورة القصوى لاستئصال الورم العظيم بقوله :

« ثم تلقى فى السرطان الصنانير التى تصلح له ثم تقوره من كل جهة مع الجلد على استقصاء حتى لا يتبقى شيئاً من أصوله. فإن اعترضك فى العمل نزف دم عظيم من قطع شريان أو وريد فاكوى العروق حتى ينقطع الدم»(٦٢) .

٧- وفى ختان الصبيان يشير الزهراوى إلى طريقة جديدة من ابتكاره يسميها (التطهير بالمقص والرباط بالخيط) وقد عدَّد مزايا هذه الطريقة وتناولها بالشرح(٦٣) .

٨- يعتبر الزهراوى من أفضل من كتب فى كيفية استخراج الحصاة حيث فرق بين حصاه الكلية والمثانة ونصح بالشق فقط على حصاه المثانة أو قناة مجرى البول(٦٤) . وقد سمى جراحه حصاه المثانة بالشق على (العجان) المسمى فى الطب الحديث Perineal Urethero Tomy(٦٥) وقد حذر من أن يكون القطع كبيراً حتى لا يحدث سلس البول ، وأشار إلى انه فى حالة إذا ما كانت

الحصوه كبيرة فإنه يجب تكسيرها بـالكلاليب وإخراجهـا قطعـاً ، ويعـد هـذا أول وصف فى الجراحة لعملية تفتيت الحصوه المعروفة الآن فى الطب الحديث باسم Litholapay(٦٦) .

٩- فى الفصل السابع والستين أمدنا الزهراوى بمعلومات هامـة عـن عـلاج الفتـق الذى فى الأربيـة(٦٧) وهـو مـا يسـمى الآن باسـم الفتـق « الأربـى المباشـر» Direct Inguinal Hernia(٦٨) . وفى هذا النوع من الفتق لا يستأصل الزهراوى كيس الفتق بل يكتفـى بدفعـه إلى الداخـل بواسـطة المـرود ثـم يخيـط القطعـة الضعيفة التى برز منها كيس الفتق من خلال جدار البطن ، وهذه أول محاولـة فى تاريخ الجراحة لعمل الرتق الجراحى للفتق الأربىHernial Repair(٦٩) .

١٠- فى الفصل السابع والسبعين زودنا الزهراوى بمجموعة رائعة من الصور التـى تستخدم فى إخراج الجنين(٧٠) وبين نوعيه المـواد المسـتخدمة فـى صناعتهـا . حيث نصح بأن تكون من الأبنوس أو من خشب البقس(٧١)

١١- فى الفصل الثمانين يصف الزهراوى كيفية علاج النواصـير التـى تحـدث فـى الأسفل ، وقـد أجـاد فـى بيـان الفـرق بـين النـاصور النـافذ وغـير النـافذ إلى المستقيم(٧٢) . ويقر المتخصصون بأن وصـف الزهـراوى لعمليـه الشـق علـى الناصور غير النافذ يتفق مع ما يمارسـونها فـى هـذه العمليـة حتـى الآن(٧٣) . وقد أمدنا الزهراوى فى هذا الفصل بصور لبعض الآلات المستخدمة فى قطـع النـاصور مثـل المسـبار المثقـوب الطـرف كـإبره الأسـكاف أو المبضـع الشوكى(٧٤).

١٢- فـى الفصـل الثـالث والثمـانين أمدنـا الزهـراوى بصـور لبعـض الآلات التـى تستعمل فى الحقن ، ونصح بأن تكون مصنوعه من فضـه أو صينـى أو نحـاس مفروغ أو مضروب ، وفرق بين حقن الكبار وحقن الصغار(٧٥) .

بقوله « وقد تصنع من هذه الآلات صغاراً وكباراً على حسب المستعملين لها فيكون التى تستعمل فى علاج الصبيان الصغار صغار والذين مقعدهم ضيقه أو متوجعة يكون محاقنهم لطاف جداً »(٧٦) .

١٣- فى الفصل الرابع والثمانين يتحدث الزهراوى عن الجروح الناتجة عن الإصابات بالسيف أو السكين أو بطعنه رمح أو سهم أو نتيجة لصكه حجر ، وقد وضع الزهراوى لهذا الفصل عنواناً مختصراً هو علاج الجراحات(٧٧) . وتناول فيه بالتفصيل كيفيه علاج جروح الرأس والصدر وما بين الكتفين . وفى علاج الرأس مثلاً فرَّق بين الجروح البسيطة بالرأس التى تعالج بوضع قطنه مغموسة فى دهن الورد على مكان الجرح . أما إذا كان الجرح كبيراً من قطع سيف أو نحوه ولم يجتمع شفتاه بالرفائد بأجمعها بالخياطة(٧٨) .

١٤- يتناول الزهراوى فى الفصل السادس والثمانين علاج الزكام والناصور(٧٩)، وأهم ما فى هذا الفصل صور الآلات التى كان يستعملها فى إزالة العظام المريضة مثل المناشير بأحجامها المختلفة ما بين كبيره وصغيره ، وكذلك المجارد بأشكالها المتباينة من مجارد مستقيمة ومجوفة ومعطوفة الطرف(٨٠) .

١٥- فى الفصلين التسعون والواحد والتسعون زودنا الزهراوى بصور واضحة عن كيفيه قطع الدوالى وعلاجها . حيث عرف فى الفصل التسعين الدوالى على أنها « عروق ملتوية غلاظ ، مملوءة فضولاً سوداوية تحدث فى أكثر أعضاء الجسم ، وأكثر حدوثها فى الساقين ولا سيما سوق الشيوخ والاكارين والحمالين »(٨١) . ثم يصف بعد ذلك عملية سل العروق التى تبدأ بحلق شعر المريض إذا كان فيه شعر ، ثم توضع فى حمام ساخن حتى يسخن العضو ويشق الجلد قبالة العرق بالطول ويشد الجلد بالصنابير ويسلخ العرق من كل جهة حتى يظهر للحس ، ثم يدخل تحته مروداً حتى إذا أرتفع وخرج من

الجلد علق بصناره عمياء ملساء(٨٢) . ويختم هذا الوصف المطول لعملية سل العروق بقوله « فإذا سللته كله تضع على مواضع الجراحات صوفاً مغموساً فى شراب ودهن ورد أو زيت »(٨٣) .

أما الباب الثالث والأخير من مقالة الزهراوى فقد أفرده لجبر الكسور والفك الحادثين فى العظام ويبدأ هذا الباب بمقدمه يشير فيها إلى أن فن جبر الكسور كان من الفنون المعروفة فى بلده ، وأنه أعتمد فى ممارسته لهذا الفن على إطلاعه الواسع فى كتب الأوائل وحرص على فهمها ، ويشير إلى أن ما ذكره فى هذا الباب هو نتاج خبرته وتجربته الخاصة .

وينقسم هذا الباب إلى خمس وثلاثين فصلاً . تناول فى جملتها وصفاً تفصلياً لكل أنواع الكسور وأعراضها وطرق علاجها وأساليب لف الكسور حسب حجم الكسر صغيراً أو كبيراً ، وطريقة وضع العضو المكسور داخل اللفائف وصور لتلك اللفائف(٨٤) .

ونظراً لأن فصول هذا الباب كلها تتناول موضوع واحد وهو الكسور التى تصيب مختلف أعضاء الجسم مثل كسور الضلوع والظهر والذراع والفك والساقين وعظام القدم (الرجل) والأصابع(٨٥) . لذا فإننا نكتفى هنا بالقول بأنه من خلال إطلاعنا على تلك الفصول نستطيع أن نقرر فى ثقة واطمئنان بأنها لا تختلف عن فصول البابين السابقين من حيث وضوح التفكير وسلامة ودقة التعبير مما يعطينا فكره عن مدى إحاطة الزهراوى بهذا الفرع من فروع الطب ، ومدى ما وصلت إليه الكتابة العلمية فى بلاد الأندلس والتى كانت بمثابة الأسس القوية التى قامت عليها أصول الطب الحديث فى كثير من الأفكار والأصول التى قدمها الزهراوى للطب الجراحى ما زالت متبعة ومعترف بها حتى الآن ، ويكفى دليلاً

على ذلك أن كثيرًا من الآلات الجراحية التى استخدامها الزهراوى وزودنا بمجموعة رائعة منها لحسن الحظ ما زال منها ما يستعمل حتى الآن رغم اختلاف الوسائل منذ تلك القرون الطويلة .

وآخر ما نسجله من ملاحظات على مقالة الزهراوى أن كل ما كتبه فيها أتسم بالأمانة العلمية المطلقة فنراه ينسب فى كثير من المواضع كل معلومة إلى صاحبها .

٢ - جراحون آخرون من الأندلس :

بخلاف الزهراوى نبغ فى علم الجراحة فى الأندلس عدد من الجراحين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر .

(أ) ابن ملوكه النصرانى :

كان فى أيام الأمير عبد الله وأول دولة الأمير عبد الرحمن الناصر ، وقد أورد كل من ابن جلجل ، وابن أبى أصبيعه ما يفيد بأنه كان يصنع بيده (أى جراحًا) وكان يفصد العروق ، ويبدو أنه كان يعالج الناس فى ذاره حيث كان على باب داره ثلاثون كرسيًا لجلوس الناس(٨٦) .

(ب) خالد بن يزيد :

كان معاصرًا لقسطاس بن جريح المصرى الذى كان فى دولة الإخشيد (٣٢١هـ - ٣٣٤هـ) (٩٣٣م - ٩٤٥م) . وقد أورد ابن جلجل فى ترجمته ما يفيد بأنه كان جراحًا (صانعًا بيده) . إلى جانب أنه أمتاز بخبرته فى الأدوية الشجارية(٨٧) .

(جـ) يحيى بن إسحاق :

كان معاصرًا للخليفة عبد الرحمن الناصر ، وعنه يقول ابن جلجل (كان طبيبًا نبيلاً عالمًا حاذقًا بيده وكان فى صدر دولة الناصر وأستوزره وولى الولايات والعمالات وكان قائد بطليموس زمانًا وكان له من أمير المؤمنين الناصر كبير محل ينزل منزله الثقة)(٨٨) .

(د) أبو موسى بن هارون الأشبونى :

كان معاصرًا لكل من الخليفة عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر ، وكان من شيوخ الأطباء وخيارهم وكان خادمًا بيده (أى جراحًا)(٨٩) .

ثالثًا : فن صناعة أدوات الجراحة الأندلسية :

لا شك أن صناعة أدوات الجراحة فى الأندلس كانت من الصناعات القديمة المعروفة بها قبل العصر الإسلامى . بدليل وجود نماذج لها من العصرين الرومانى والقوطى فى متحف مدريد الوطنى . وقد واصلت صناعة أدوات الجراحة نشاطها فى الأندلس فى العصر الإسلامى حيث وصلنا منها أحد عشر آلة أو نموذج مصنوعة من البرونز والنحاس الأصفر . وتكشف لنا تلك النماذج مدى التنوع فى أساليب تشكيلها الأمر الذى يوضح تباين استخداماتها حيث تراوحت أشكالها ما بين آلات فى شكل ملاعق أو شكل صنابير أو مباضع أو ابر أو مثاقب ويمكن تقسيم آلات الجراحة الأندلسية التى وصلت إلينا بحسب مكان العثور عليها إلى مجموعتين .

١ - مجموعة متحف قرطبة الأثرى :

يمثل هذه المجموعة تسع آلات تمتاز بتنوع أشكالها بحيث يمكن تقسيمها إلى خمسة أنماط أو طرز فنية فى صناعتها وهى :

(أ) الطراز الأول : (آلات فى شكل ملاعق) لوحة (٢) أ ، ب ، جـ ، لوحة ٣ - أ :

يمتاز هذا الطراز من حيث الشكل ببدنه المكون من قضيب أسطوانى المقطع مدبب من أسفل على هيئة سن القلم . وينتهى من أعلى بحلقه دائرية ذات فراغ مقعر يشبه تجاويف الملاعق . وينصف بدن القضيب أو ساق الآلة مقبض يختلف فى شكله من آلة إلى أخرى فأحيانا نجده فى شكل مستطيل مقطوع الزوايا محزوز

فى أقسام مضلعة مدقوقة وأحيانًا أخرى نجده عبارة عن خطوط دائرية محـزوزة موزعة فى تراكب رأسى . كما يختلف طول المقبض باختلاف طول السـاق أو بدن الآلة فكلما زاد طول القضيب زاد طول المقبـض وتتفـق جميـع آلات هـذا الطراز فى خلوها من آيه حليات زخرفيه حيث بـدا سـطحها الخـارجى أملـس مصقول باستثناء الجزء العلوى الواقع أسفل الرأس الملعقية حيـث زوده الصـانع بخطوط محزوزه أفقية موزعه فى تراكب مما أضفى شيئًا من الجمال النسبى على الآلة .

وهكـذا تتوافـق تشـكيلات آلات هـذا الطـراز فـى الصياغـة والتنسيق مـع وظيفتها العلمية فى كحت الأورام والخراريج وفـى جراحـه بعـض أمـراض النسـاء والتوليد(٩٠) .

(ب) الطراز الثانى : (آلات فى شكل قضبان صناريه) (لوحة ٣ ب):

يمثل هذا الطراز آلة واحدة فقط . ويمتاز البـدن فـى هـذا الطـراز باسـتطالته ويتشكل من لوح عريض أصم ينتهى من أسفل بسن مدبب ومـن أعلـى تبـدو فيـه آثار كسر يتجه ناحية اليسار الأمر الذى يجعلنا نرجح بأن هذه الآلة كانت مـزوده برأس منكسرة يمينًا أو يسارًا فى شكل خطاف أو صناره . ويتخلـل البـدن مقبـض مستطيل المقطع محزوز البدن يشبه مقابض آلات الطراز الأول وأن اختلف عنها فى إنه أكثر استطالة . ويخلو البدن من آيه زخارف .

أما عن استخدام هذه الآلة فمن المرجح بأنها كـانت تستخدم فـى جراحـه الفـم والأسـنان لا سيما قطـع اللحـم الزائـد فـى اللثـة . وفـى سـحب الأوعيـة والأعصاب والأوتار التى تصل العضل بالعظم أو فى ثقب القصبـة الهوائيـة لتثبيـت الغضروف الحلقى(٩١) .

(جـ) الطراز الثالث : قضبان مثقابيه (لوحه ٣ - جـ) :

يمثل هذا الطراز آلة واحدة ورغم الاتفاق فى تشكيل هذه الآلة مع الآلة السابقة إلا أن بدنها وكذلك مقبضها أقل طولاً . كما أن طرفيها مدببان تدبيبًا خفيفًا . وأغلب الظن أن هذه الآلة كانت تستخدم كمثقب أو مبرد لإزالة العظام المريضة(٩٢) .

(د) الطراز الرابع : آلات على شكل مبضع أو مشرط (لوحة ٤ أ) :

يمثل هذا الطراز آلة واحدة تختلف شكلاً ونظامًا عن الآلات السابقة حيث يتشكل بدن الآلة من صفيحه عريضة ذات مقطع مستطيل أحد طرفيه منحنى فى شكل ربع دائرى . أما الطرف المقابل فعبارة عن مقبض عُنى بتشكيله فى صورة جديدة قوامها بدن أسطوانى ملفوف تجاوز فى أتساعه ساق الآلة بحيث يعكس المبالغة فى تغليظ مقابض آلات هذا الطراز مع العناية بتقسيم بدن المقبض إلى ثلاث حشوات مستطيلة بواسطة خطوط أفقية محفورة على مستويين مما ساعد على بروز تلك الحشوات بشكل واضح . وأغلب الظن أن هذا النوع من آلات الجراحة كان يستخدم كمبضع أو مشرط لشق الأورام أو شق الجلد فوق الشرايين(٩٣) .

(هـ) الطراز الخامس : آلات على شكل عتله (لوحة ٤ ب) :

يمثل هذا الطراز آلة واحدة عبارة عن ساق طويلة مستطيلة المقطع تنتهى من أعلى برأس مستديرة مثقوبة الوسط حافتها الخارجية تفتقر إلى التشذيب ويستوقف النظر فى هذا الطراز من الآلات ما يلى :

١ - أن ساق الآلة يخلو من المقابض المركزية المستطيلة المقطع التى أقترن ظهورها بمثل هذه الهيئة فى معظم الآلات السابقة حيث استعاض عنها الصانع هنا بحلقه دائرية مثقوبة الوسط فى أحد طرفى ساق الآلة .

٢ - شدة المبالغة فى استطالة ساق الآلة بحيث يصل طوله إلى ذارعين وعرضه أربع أصابع ويستدل من هيئة هذه الآلة على أنها كانت عبارة عن عتلـه تستخدم فى استعدال وفرد العظام المكسورة(٩٤) .

(و) الطراز السادس : آلات مسمارية الشكل (لوحة ٤ جـ) :

يمثل هذا الطراز آلة واحدة عبارة عن ساق طويلة مصنوعة من سلك صلب يصعب طيه أو ثنيه مما يتيح المتانة والثبات عند استخدامه ينتهى من أسفل بسن مستدق شديد التدبب ومن أعلى بمقبض عبارة عن رأس مستديرة مصمتة مخروطية المقطع . ويستدل من شكل هذه الآلة على أنها كانت عبارة عن آلة لثقب العظم(٩٥) .

٢ - مجموعة متحف مدريد الوطنى (لوحة ٥ - ٦) :

عثر على هذه المجموعة من الآلات الجراحية فى أماكن متفرقة من أسبانيا . وللأسف أن معظمها قد وصل إلينا فى حالة سيئة من الحفظ باستثناء آلتين يعدان من بين أهم نماذج هذه المجموعة. وهما عبارة عن آلات مسمارية الشكل تستخدم كمجسات أو مسابر للكشف عن النواصير كما تصلح لتفتيش الأورام والجراحات.

وجدير بالذكر أنه رغم وجود تشابه واضح فى الشكل بين هاتين الآلتين إلا أن هناك اختلاف فى التفاصيل يتمثل فى أن مقبض الآلة الأولى لا يتوسط ساقها ويمتاز بتكوينه المقعر حيث يتألف من عشر حشوات مستطيلة ملساء يفصل بينها خطوط محفورة حفرًا عميقًا .

أما الآلة الثانية فالمقبض يتوسط الساق تقريبًا كما أنه أقل استطالة من السابق إذ يتألف من ثلاث حشوات فقط الأولى والثالثة فى شكل معين أما الثانية المركزية فتأخذ شكل مثمن الأضلاع . ويدور بالحشوات الثلاثة من أعلى وأسفل خطين أفقيين .

رابعًا : أساليب صناعة وتشكيل آلات الجراحة الأندلسية فى ضوء ما وصلنا منها :

لم تختلف أساليب صناعة وتشكيل أدوات الجراحة عبر العصور المختلفة وإن اختلفت قدرتها على الأداء نتيجة لبعض التطورات التى تتفق مع سنه التطور التى سارت عليها الحضارات المختلفة .

وفى ضوء ما وصلنا من آلات الجراحة الأندلسية يتضح أنها قد صنعت إما من البرونز أو النحاس ونظرًا للارتباط الوثيق بين نوع المادة وأسلوب صناعتها فيمكن حصر أساليب صناعة أدوات الجراحة الأندلسية فى أسلوبين رئيسيين هما :

(أ) أسلوب الصب بطريقة الشمع أو الرمل المفقود الذى يعد أنسب الطرق فى تهيئة معدن البرونز(٩٦) .

(ب) أسلوب الدق أو الطرق ويعد هذا الأسلوب من أنسب الطرق التى تصلح لمادة النحاس(٩٧) .

أما عن أساليب تشكيل أدوات الجراحة الأندلسية ففى ضوء ما وصلنا منها يتضح أنه على الرغم من تنوع استخدامات تلك الأدوات إلا أنها فى مجملها تفتقر إلى التنوع فى أشكالها حيث اعتمدت فى تشكيلها على عنصرين رئيسيين هما الساق المطروقة أو المصبوبه والمقبض المحفور فى بدن الساق . ويتسم العنصر الأول وهو الساق فى العادة بشكله المستطيل أو شبه الدائرى أو السفودى المسمارى الشكل.

أما المقبض فقد تراوحت أشكاله ما بين حشوات مربعة أو مستطيلة أفقية موزعة فى تراكب رأسى(٩٨) أو حشوه واحدة مستطيلة تميزت باعتمادها على أسلوب واحد فى تشكيلها يقوم على تقسيمها إلى خطوط زجزاجية على شكل حرف V(٩٩) .

خامسًا : أساليب وعناصر زخرفة آلات الجراحة الأندلسية :

من أهم ما نسجله من ملاحظات على آلات الجراحة الأندلسية أنهـا تفتقـر إلى الناحية الزخرفية بحيث يمثل ذلك اتجاه فنى سارت فيه زخارف أدوات الجراحـة الأندلسية .

والواقـع أن لهـذا الاتجـاه مـا يـبرره لأن هـذه الأدوات تسـتخدم بكـثره فـى العمليات الجراحية وعلى هذا فليس من المنطقى استخدام أيـة زخـارف فـى تزيـين مثل هذه الأدوات لأنها سوف تتعرض للطمس والتلوث .

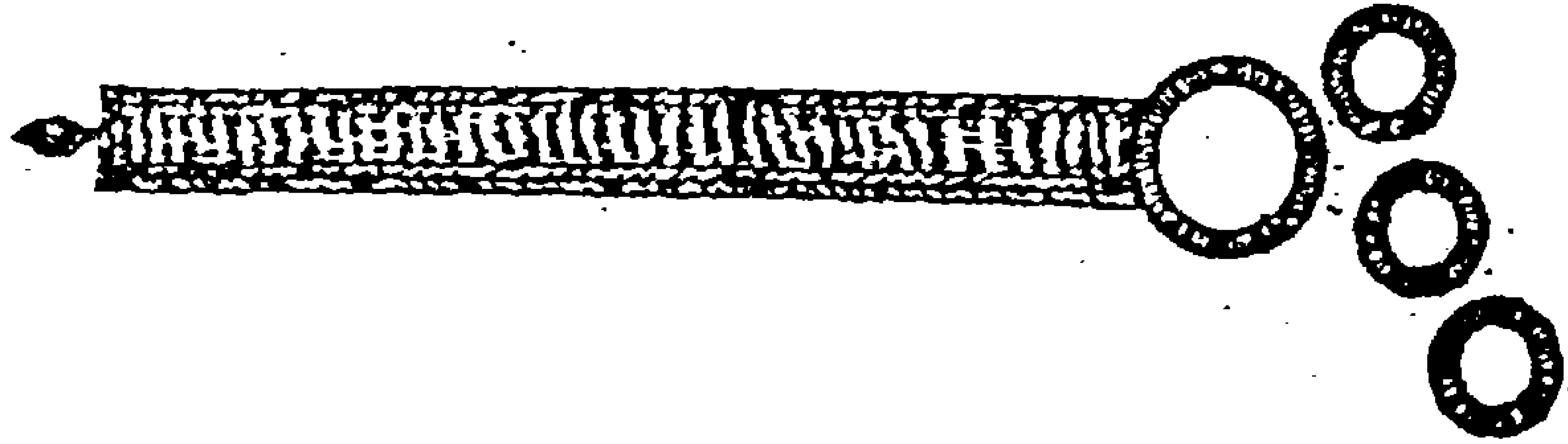
وهكذا يمكن القول بأن الصانع استبعد زينه أدوات الجراحة قسرًا لا طواعية بمعنى أن أشكال الزخرفـة فـى تلـك الأدوات تتحكـم فيهـا مقتضيـات الوظيفـة لا الصنعة الفنية بحيث اقتصرت فى زخارفها على خطوط محزوزه ذات طابع هندسـى تتألف فى مجموعها من أشرطة زخرفيه يمكن تقسيمها إلى الأنواع التالية :

(أ) **النوع الأول** : أشرطة تتكون من خطوط صغيرة مائلة ومتراكبـة فـى تـدرج تقع أسفل رؤوس الآلات الملعقية(١٠٠) .

(ب) **النوع الثانى** : أشرطة مكونة من خطوط متداخلة ومترابطة بحيث يتولد مـن ترابطها شبكة من المعينات(١٠١) .

(جـ) **النوع الثالث** : ظهرت فيه الخطوط أكثر وضوحـًا وأكـبر حجمـًا وتنوعـت حركاتها فأصبحت زجزاجية متموجة تربطها من أسفل ألسنة أبدانها مشدودة وملساء على التناوب(١٠٢) علـى نحـو يذكـر بأشكال الصلبان المعقوفة(١٠٣) .

وقد تم تنفيذ كل هذه الزخارف بأنواعها المختلفة بأسلوب الحز على سـطح المعدن بواسطة أداه نهايتها مدببة تعرف بالأزميل أو المثقب .



(أ)

(شكل - ١)

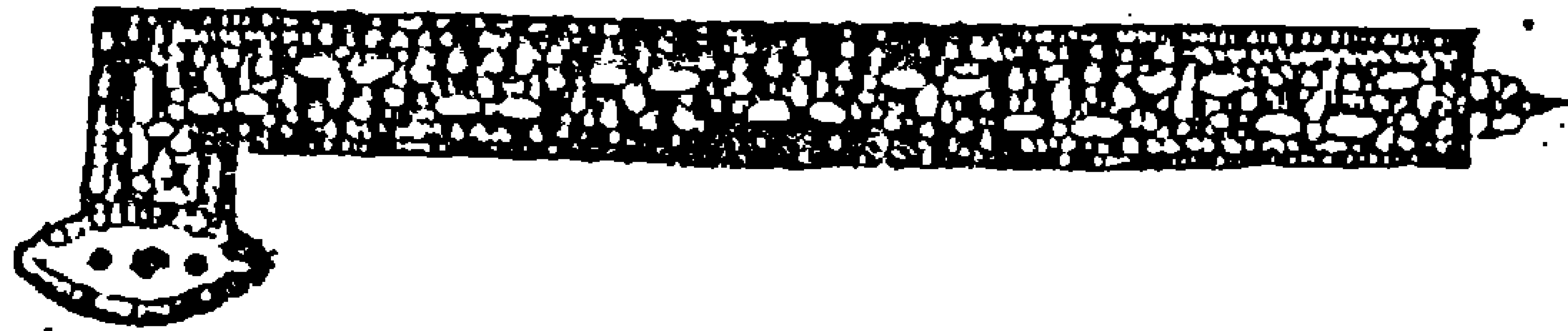
مكواة دائرية تستخدم فى كى الرطوبة التى قد تصيب المعدة

(عن الزهراوى)

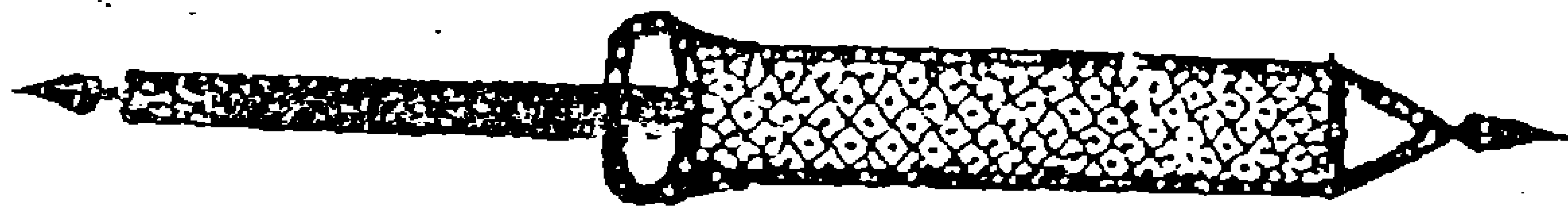


(شكل - أ - ب)

مكواة مسمارية (عن الزهراوى)



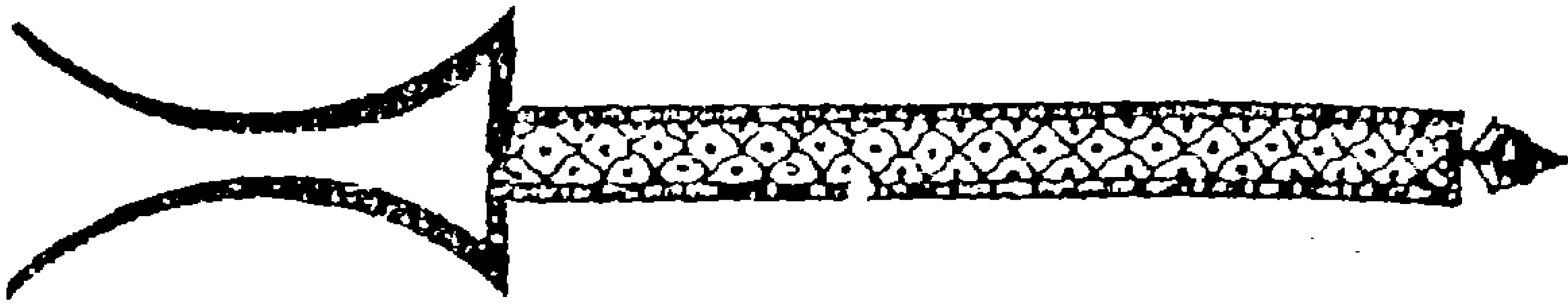
(شكل - ٢)



(شكل - ٣)

أشكال من المكاوى الخاصة بالكبد

(عن الزهراوى)



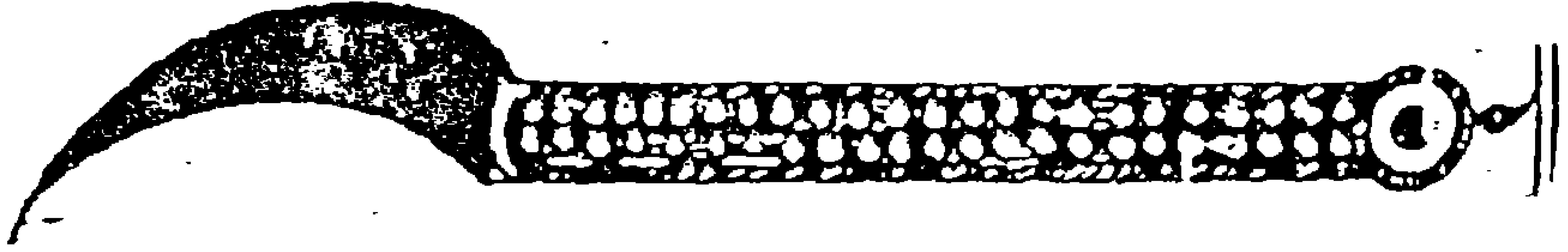
(شكل - ٤)



(شكل - ٥)

مكواة ذات سفودين وأخرى ذات ثلاث سفافيد خاصة بكي الطحال

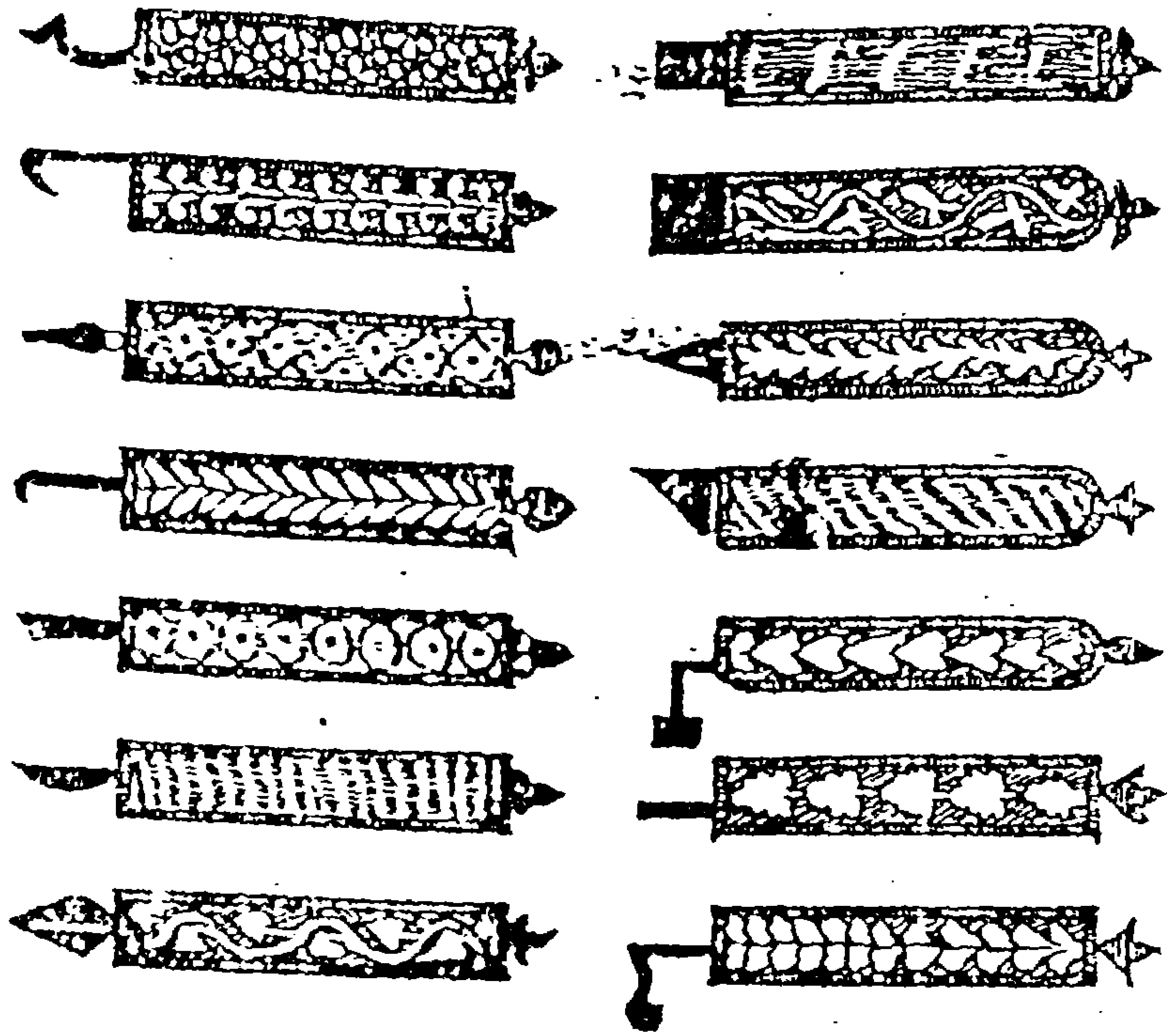
(عن الزهراوى)



(شكل - ٦)

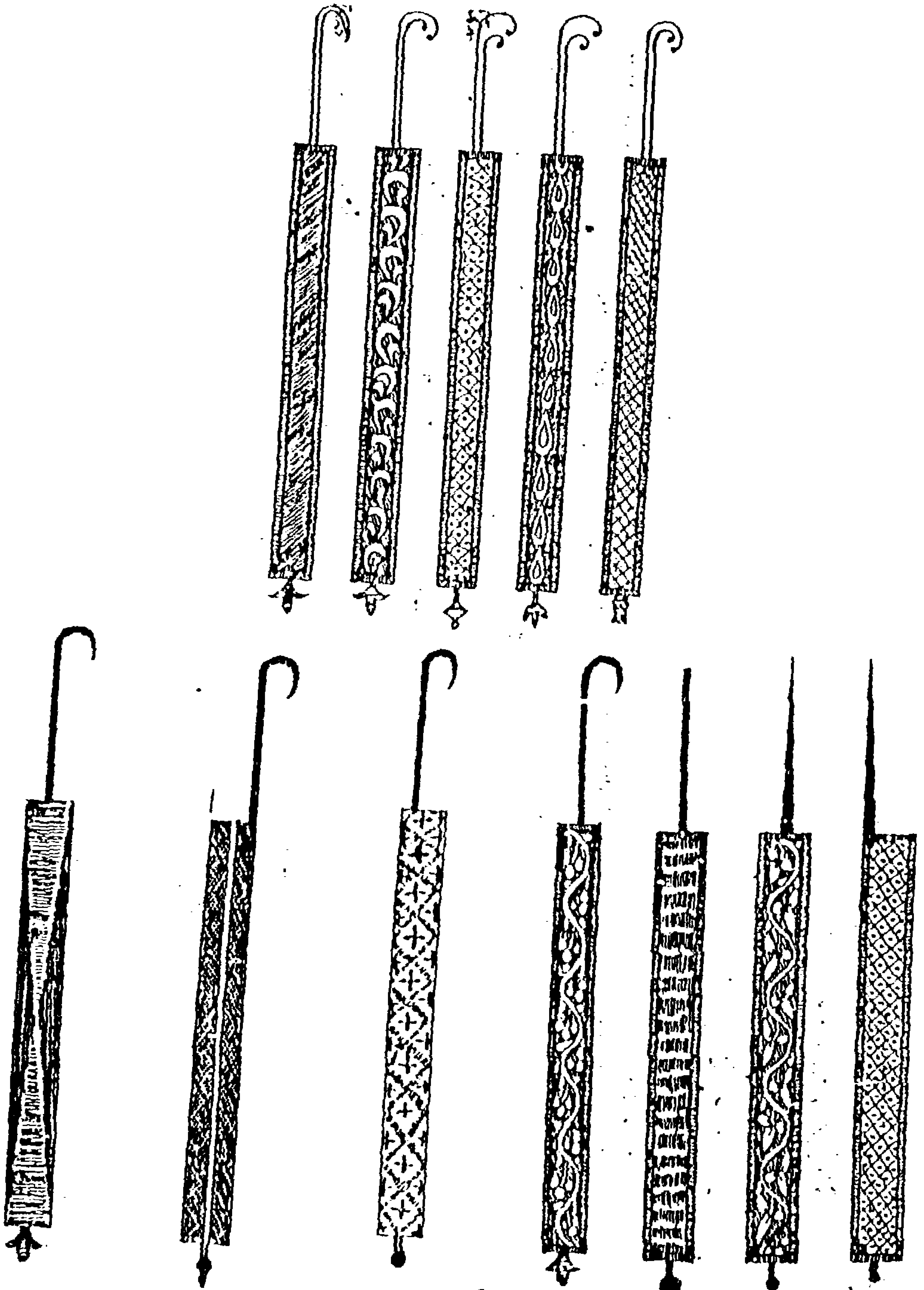
مكواة زيتونيه لكى النقرس وأوجاع المفاصل

(عن الزهراوى)



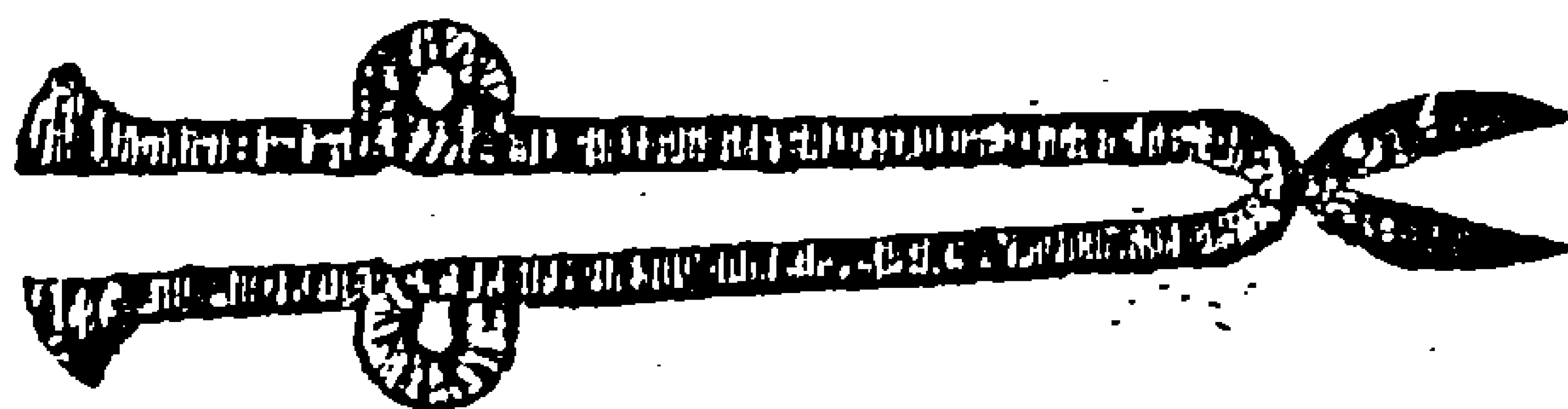
(شكل - ٧)

مجارد للأسنان والضروس (عن الزهراوى)

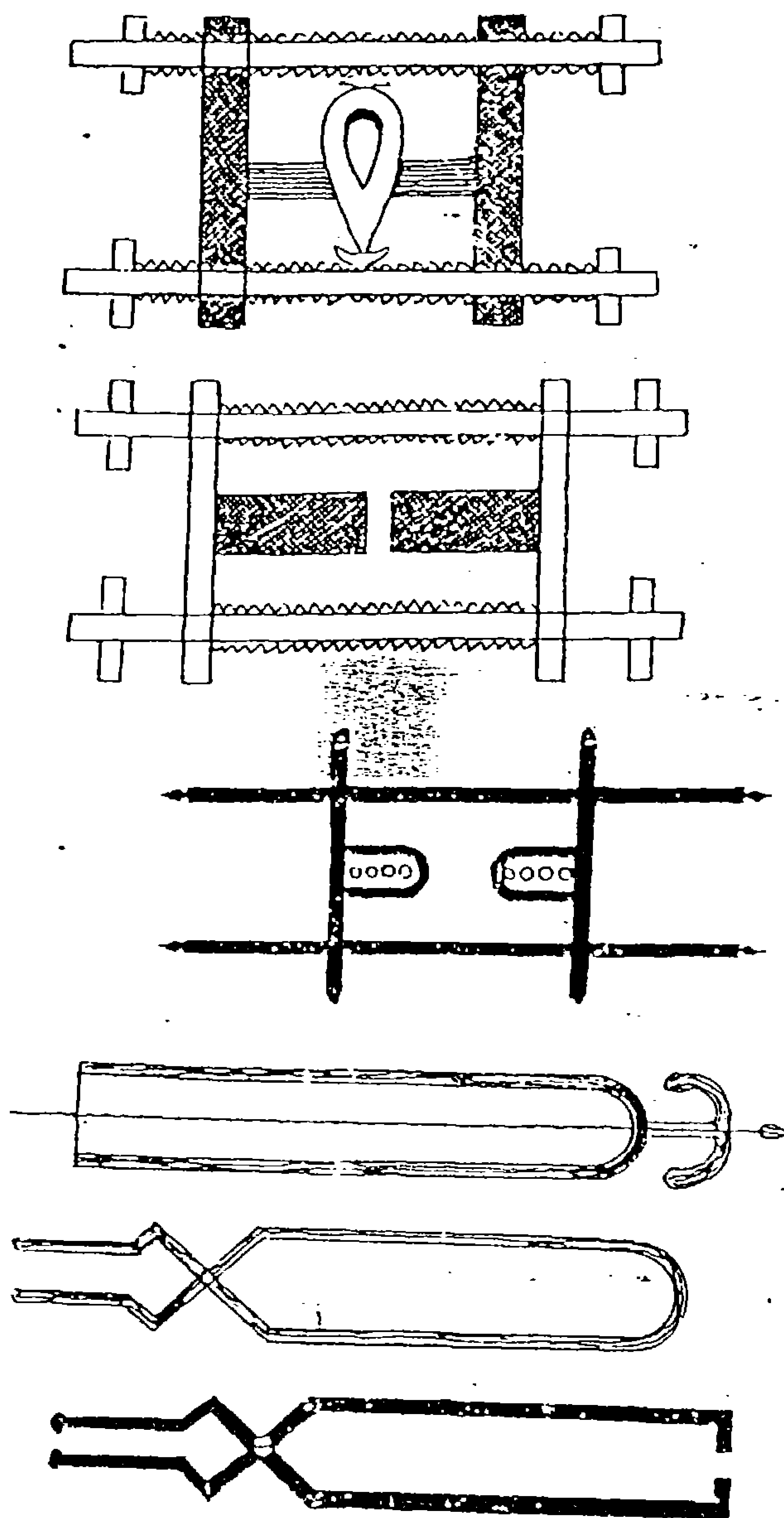


(شكل – ٨)

مجموعة من آلات الجراحة الصنارية الشكل التى تستخدم فى الشق والبط

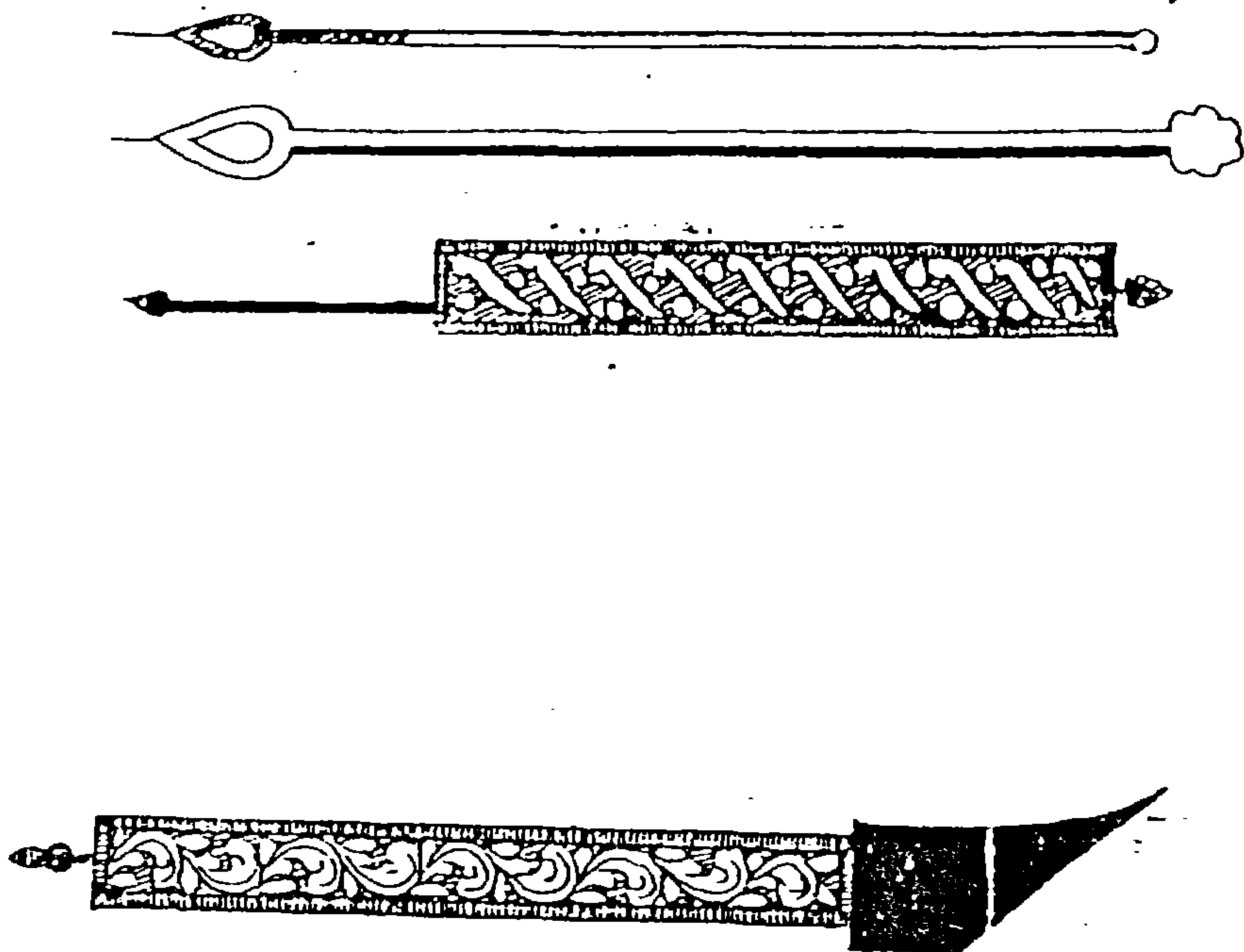


(شكل – ٩) مقص خاص بختان الذكور (عن الزهراوى)



(شكل - ١٠)

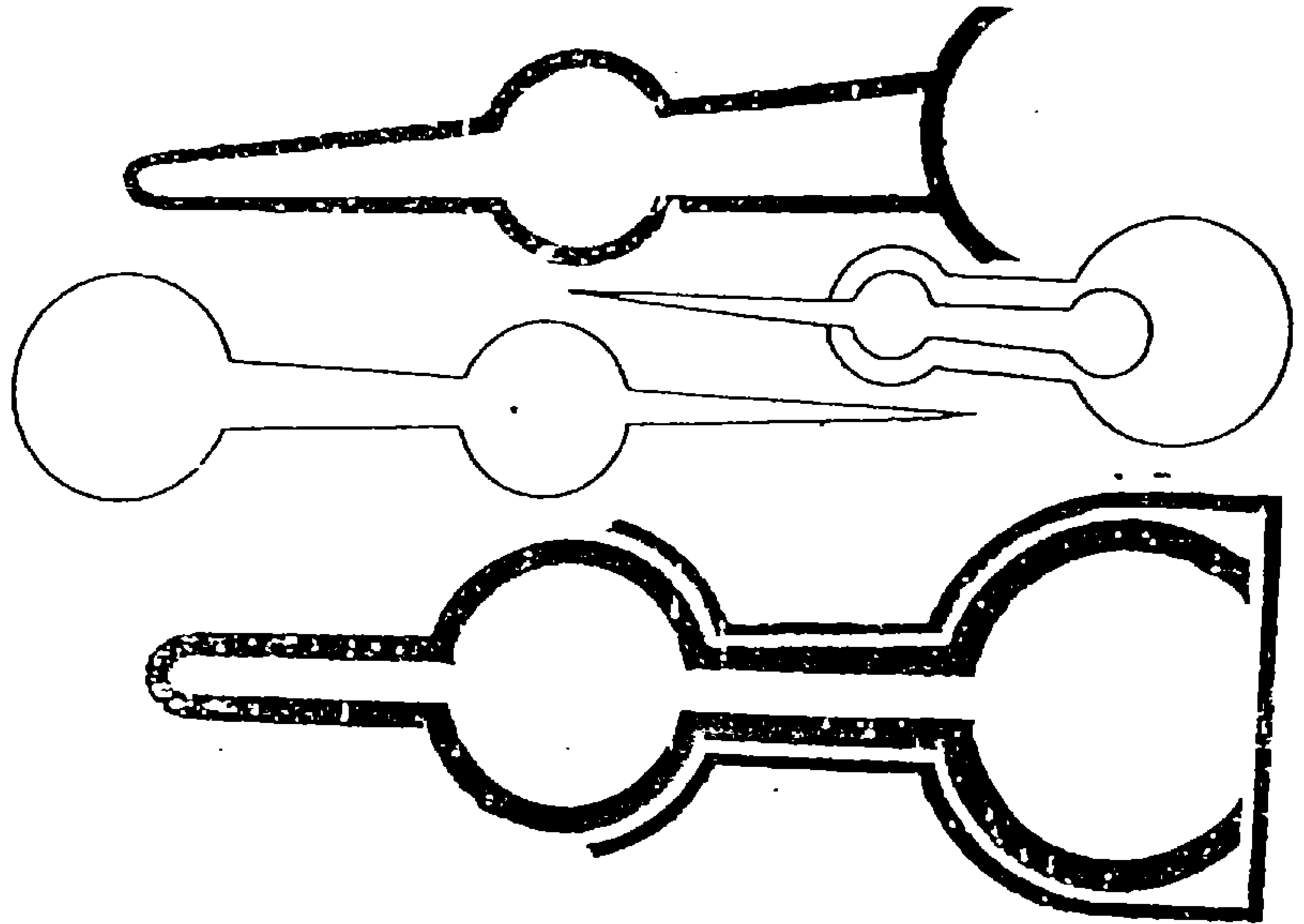
(شكل - ١٠) صور لآلات التوليد وإخراج الجنين (عن الزهراوى)



(شكل ١١)

صور للإبر والمباضع التى تستخدم فى علاج النواصير

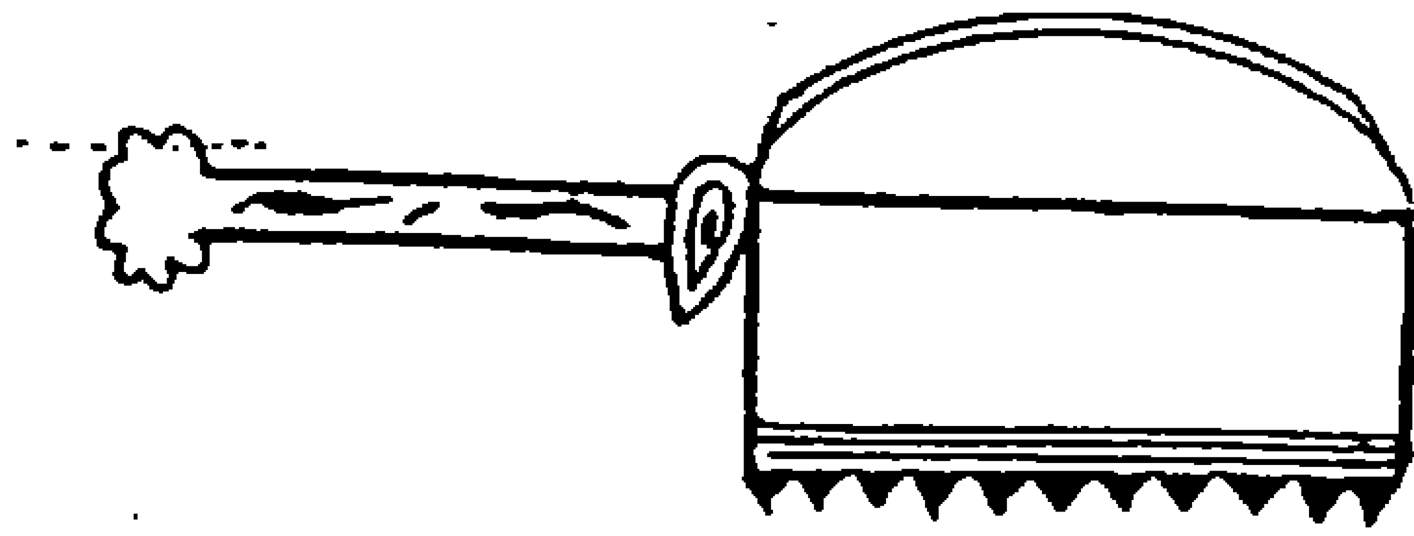
(عن الزهراوى)



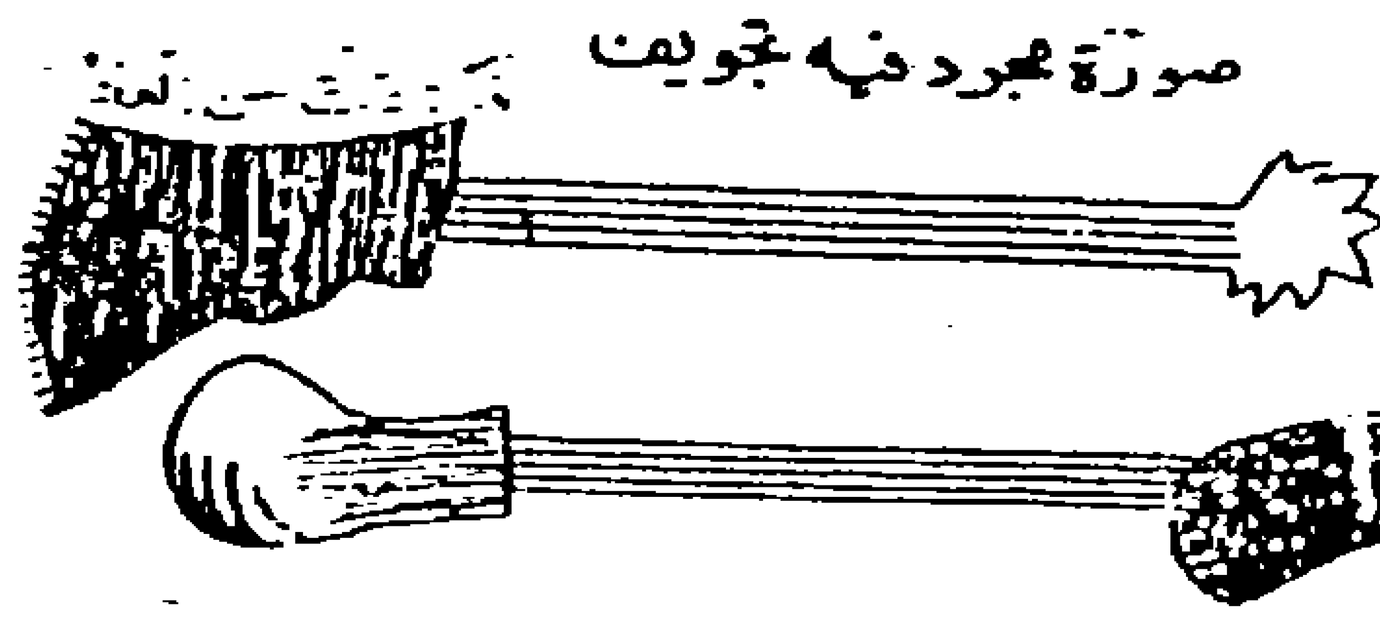
(شكل - ١٢)

صور مختلفة التى يستعملها الكبار والصغار

(عن الزهراوى)



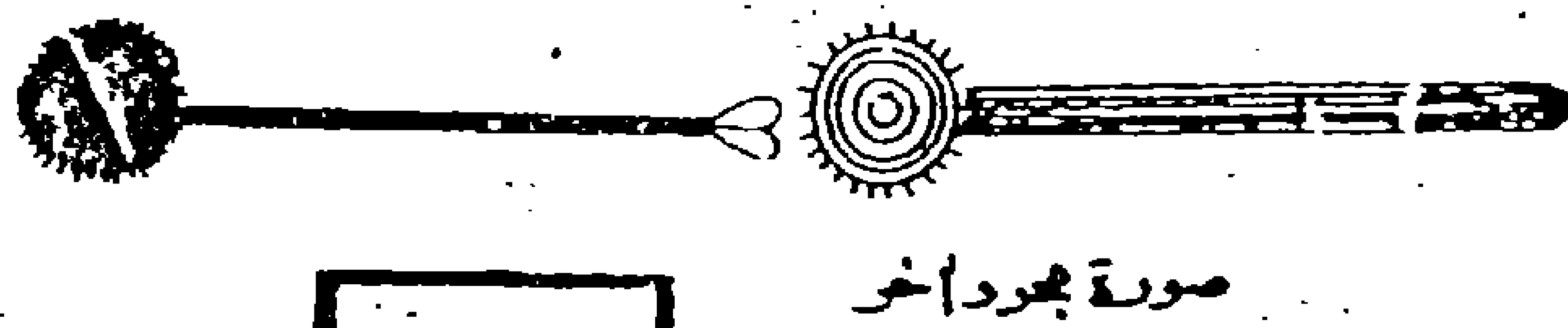
صورة مجرد فيه تجويف



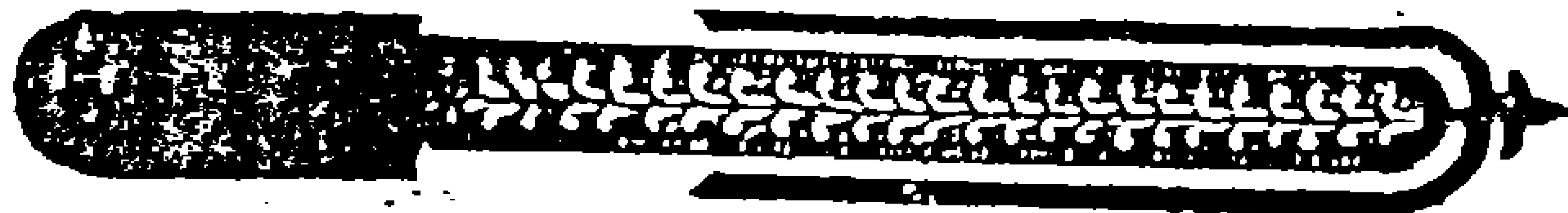
صورة مجرد معطوف الطرف

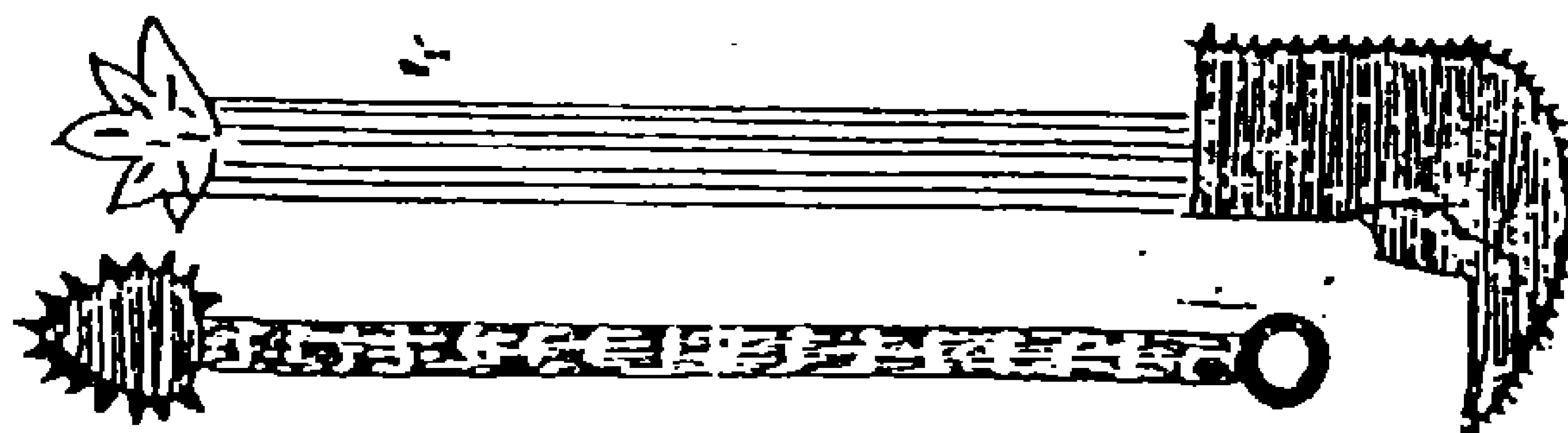


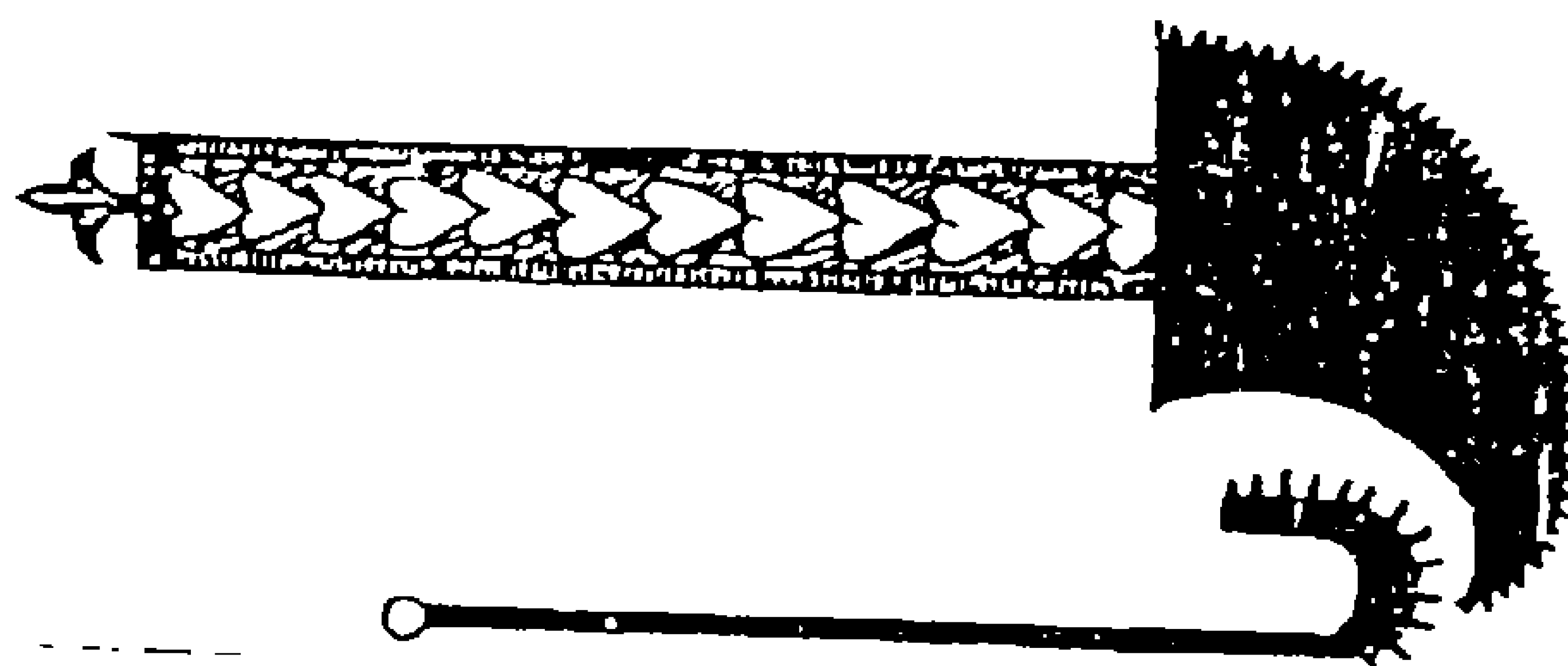
صورة مجرد آخر صغير



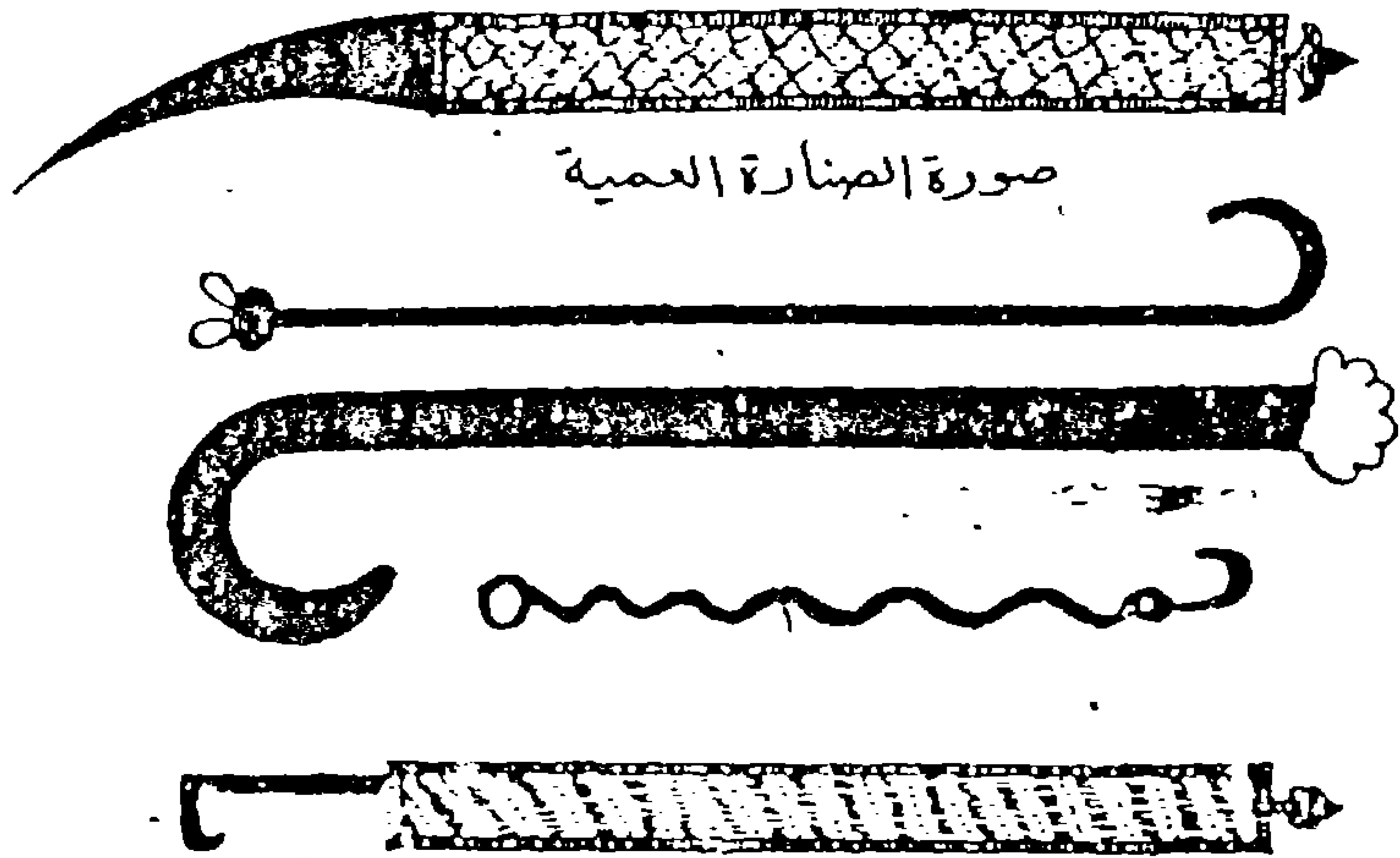
صورة مجرد آخر





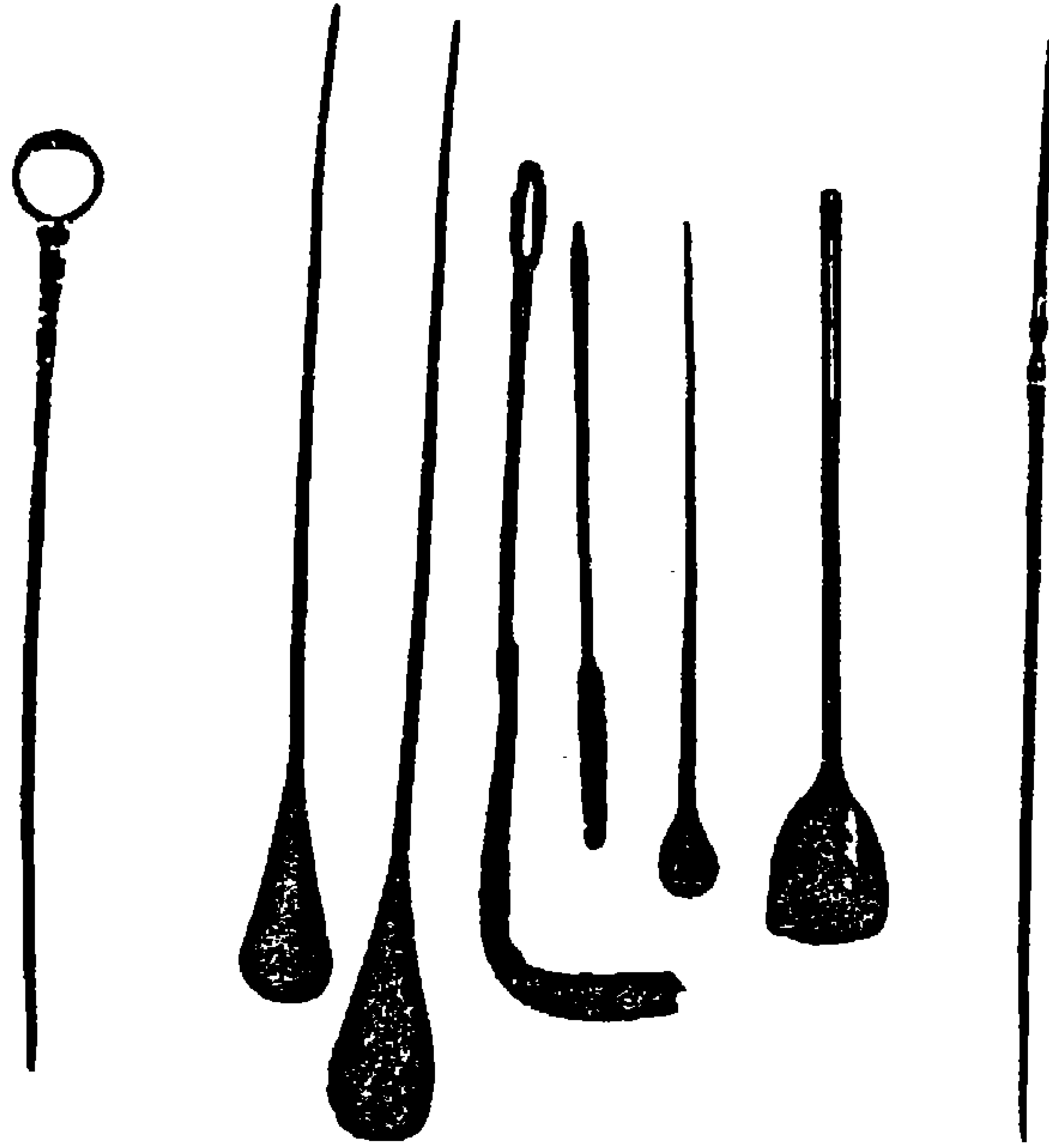


(شكل - ١٣) صور مناشير ومجارد لقطع وتسوية العظام (عن الزهراوى)



(شكل - ١٤)

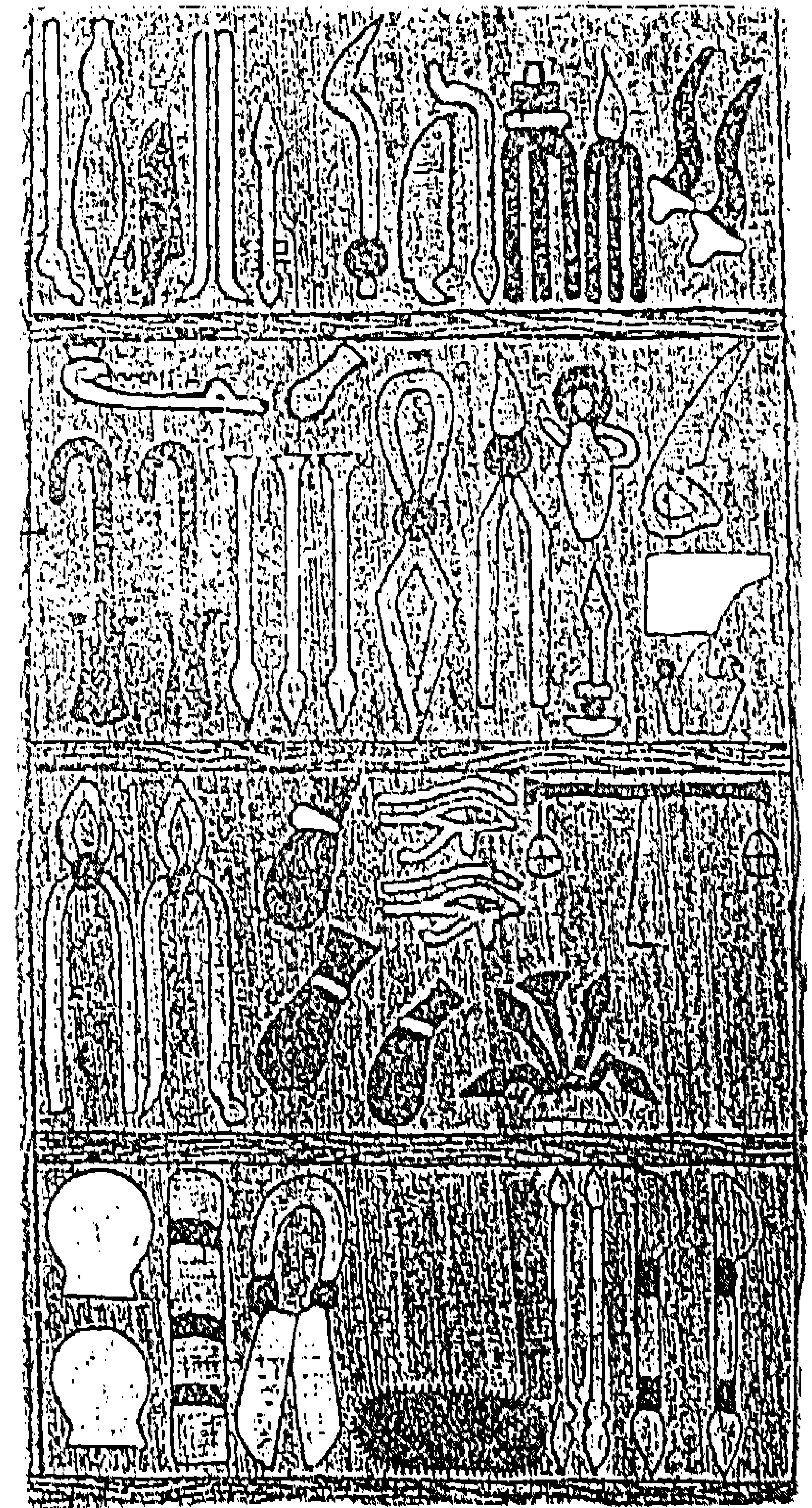
(عن الزهراوى)



(شكل – ١٥)

مجموعة من الملاعق المكحتية من العصرين اليونانى والرومانى
محفوظة بتحف كلية الآثار بالقاهرة (عن د. عنايات محمد)

(لوحة – ١) أدوات جراحة بمعبد كوم آمبو Carnelius, S. Medizin der Pharaonen



القسم الأول يضم : ١ – قسطرة مثانة . ٢ – تميمة . ٣ – مشرط .
٤ ، ٥ أبر طبية ٦ – ملعقة مكحتية ٧ ، ٩ – مثاقب نارية
٨ – منشار لنشر العظام ١٢ ، ١٣– قرون حيوانية .

القسم الثانى : ١ ، ٣ – ثلاث صنانير ٤ ، ٦ – ثلاث ملاعق مكحتيه
٧ – حافظة كتانية ٨ ، ٩ – ماسكات فوط (حفت)
١٠ – شعلة ١١– أناء
١٢ – منجره ١٣ ، ١٤ – أناء وسكين .

القسم الثالث : ١ ، ٢ – كلابتان ٣ ، ٤ – حافظتان
٥ ، ٦ – تميمتان ٧ – ميزان ٨ – علامة

القسم الرابع : ١ ، ٢ – أنائين ٣ – لفافة ٦ ، ٧ – ملاعق
٤ – حفت ٥ – أسفنجبة ٨ ، ٩ – قنطرتان

(شرح د. عنايات محمد)

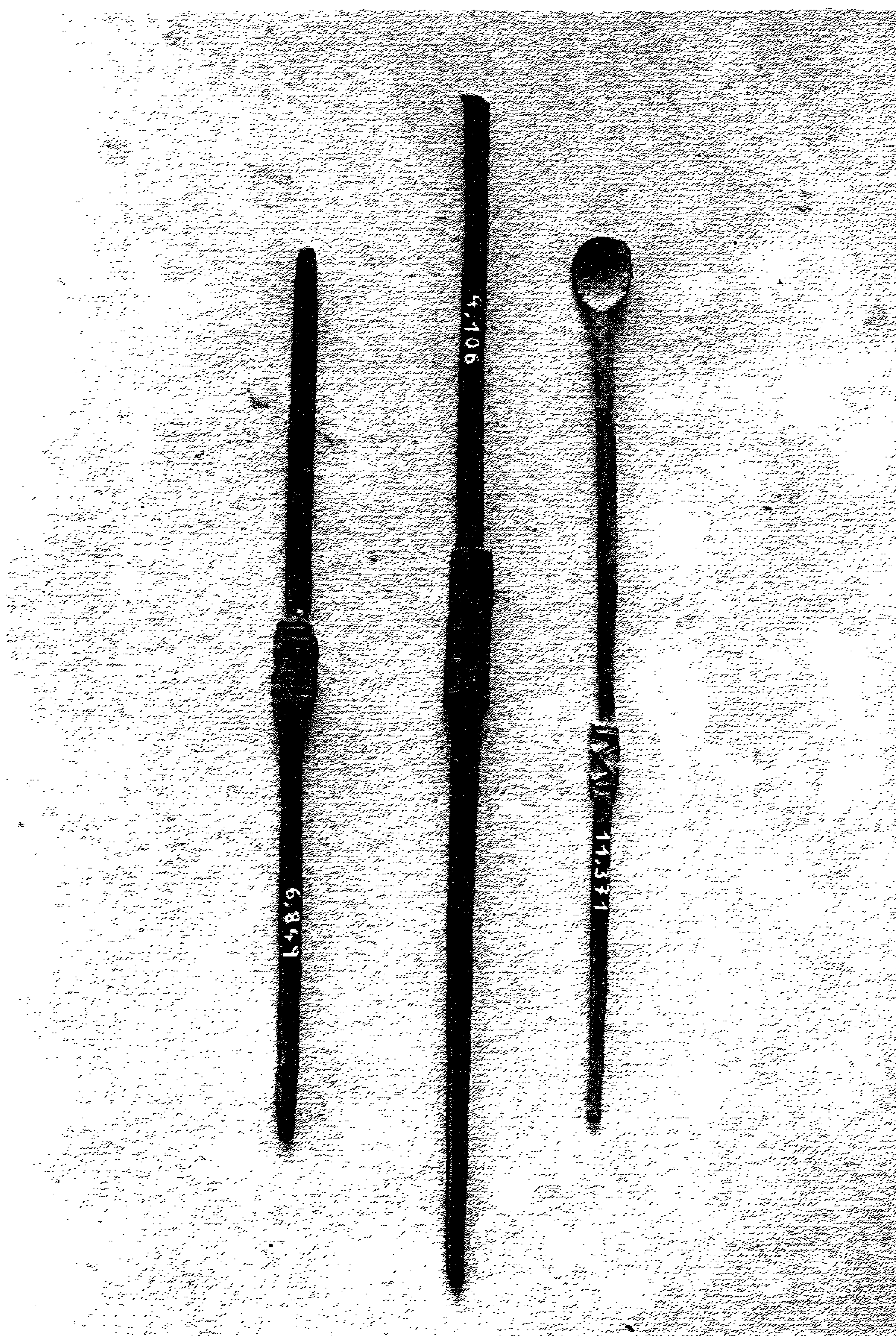


جـ　　ب　　أ

(لوحة — ٢)

ثلاث آلات جراحية محفوظة فى متحف قرطبه الأثرى

(نشر الباحثة)

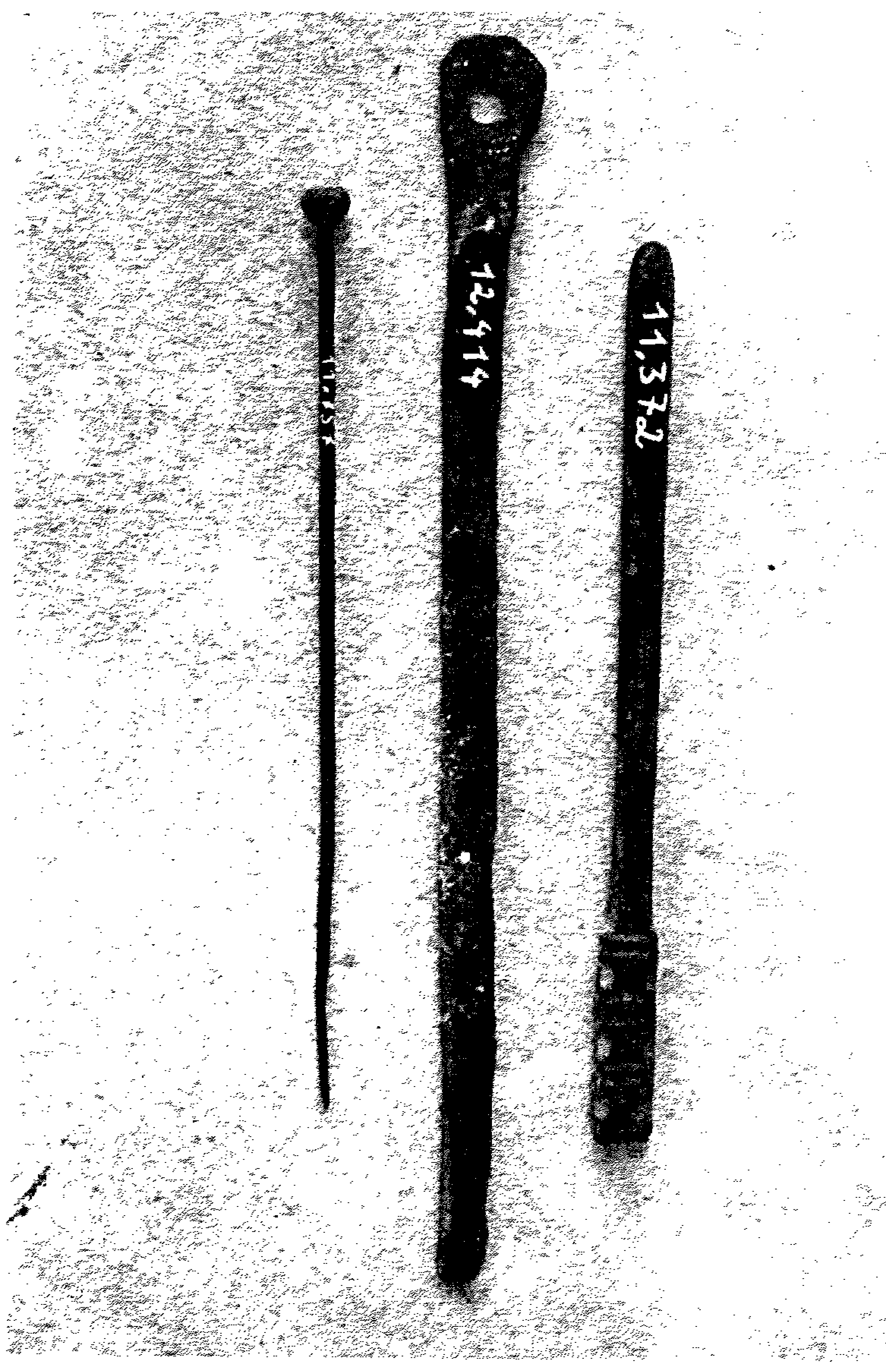


أ . ب جـ

(لوحة – ٣)

ثلاث آلات جراحية محفوظة فى متحف قرطبه الأثرى

(نشر الباحثة)



أ ب جـ

(لوحة – ٤)

ثلاث آلات جراحية محفوظة فى متحف قرطبه الأثرى

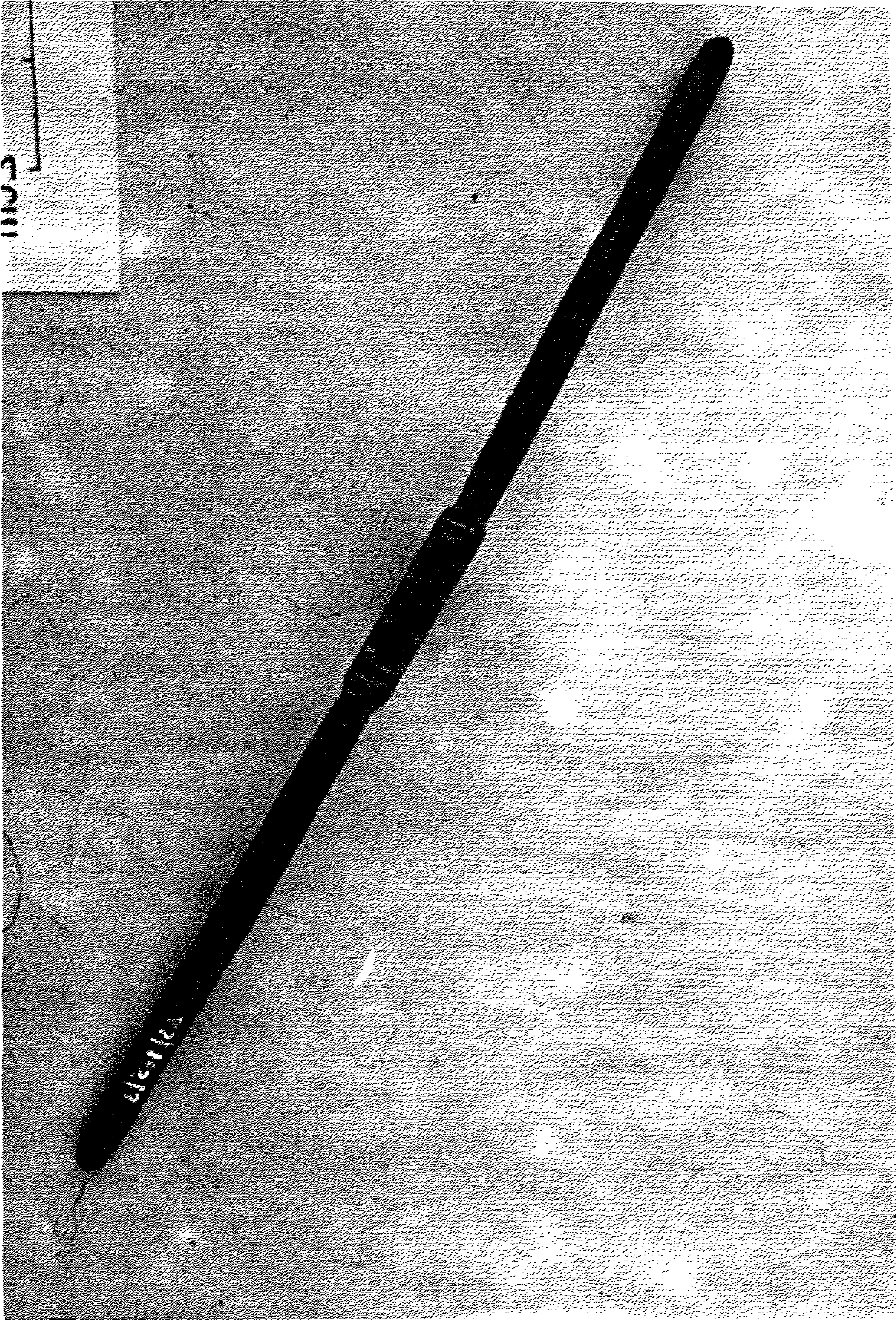
(نشر الباحثة)



(لوحة – ٥)

آلة جراحية محفوظة فى متحف مدريد الوطنى

(نشر الباحثة)



(لوحة - ٦)

آلة جراحية فى متحف مدريد الوطنى

. (نشر الباحثة)

الهوامـش

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): المقدمة - الطبعـة الرابعة - دار الهـلال - بـيروت. ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م - ص٤١٥ .

راجع : المعجم الوسيط - تحقيق مجمع اللغة العربيـة - الطبعة الثالثة - ١٩٨٥ - الجزء الثانى - ص٥٦٩ . ومن يقوم بحرفة الطب أو الطبابـة يعـرف باسـم الطبيـب جمـع أطبـه وأطباء - راجع - نفس المعجم - ص٥٦٩ .

(٢) كان العرب يبحثون عن العلاج لأمراضهـم التـى تصيبهـم بمـا يتوافـر لهـم فـى بيئتهـم مـن أعشاب ونباتات أو بطرق أخرى كالكى بالنار أو الحجامة ، وحينما جاء الرسول شـجع على التداوى والبحث عن العلاج .

راجع: ابن القيم (الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب الجوزى) زاد المعارف فى هدى خير العباد - أربعة أجزاء - المكتبة العلمية - بيروت - بدون تـاريخ - ج٣ - ص٦٣ ، وكذلك راجع عبد العزيز بن إبراهيم العمرى - الحرف والصناعات فى الحجاز فى عصر الرسول - مركز التراث الشعبى - الدوحة - ١٩٨٥ - ص ٢٤٢ .

(٣) أبقراط من مشاهير الطبقة الحكمية الرومية اليونانية ومسكنه (قو) وهى مدينـة حمـص مـن أرض الشامات ، وهو الذى تكلم فى الطب وألف فيه الأسفار والكتب ، وهـو صـاحب كتاب الفصـول ، وكتـاب تقـدم المعرفـة وكتـاب أفيزيميـا ، وكتـاب الأمـراض الحـادة ، وكتاب الجبر والخلع ، وكتاب طبيعة الإنسان ، وكتاب الاخلاط ، وغيرها كتب كثيرة، ولعله قد توفى فى عام ٣٥٧ ق. م. راجع

ابن جلجل (أبى داود سليمان بن حسان الأندلسى) - طبقات الأطباء والحكماء تحقيـق فؤاد سيد - نشر المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية - القـاهرة - ١٩٥٥ - ص ١٦ ترجمة رقم ٦ .

(٤) من أهل مدينة برغمش ببلاد آسـيا شـرقى القسـطنطينية ، وهـو سـادس القيـاصره الذيـن ملكوا روما ، وبرع فى الطب وجميع العلوم الرياضية ، وحدد من علم أبقراط وشرح من

كتبه ما كان قد درس وغمض على أهل زمانه ، وهو مفتاح الطب وله فيه ستة عشر(١٦) ديواناً منها كتاب فى الأدوية المفردة وآخر فى الأدوية المركبة وثالث فى العلل والأعراض ، وألف فى علم التشريح سبع عشرة مقاله - (المزيد من التفاصيل راجع ابن جلجل - نفس المصدر - ص٤١-٤٤) .

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة الإسلام. معهد الدراسات الإسلامية - الطبعة الأولى - ١٩٨٧ م - ص١٢٨ .

(٦) ورد فى تراجم طبقات الأطباء ما يفيد بأن من كان يمارس مهنة الجراحة فى الطب يسمى صانعاً بيده أو حاذقا بيده أو خادماً بيده راجع - ابن جلجل. طبقات الأطباء والحكماء - ص٩٦ ترجمة رقم ٣٨ ، ص٩٧ ، ترجمة رقم ٣٩ ، ص٩٧ - ٩٨ ، ترجمة رقم ٤٠ ، ص١٠٠ ، ترجمة رقم ٤٣ .

وكذلك راجع: ابن أبى أصيبعه (موفق الدين أبى العباس أحمد بن القاسم الخزرجى) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء. تحقيق د. نزار رضا. بيروت ١٩٦٥ . ص٤٨٦ ، ص٤٨٨ ، ص٤٩٢. أما الطبيب فهو الذى يقوم بمهنة الطب. راجع ابن حجر (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن محمد العسقلانى). فتح البارى بشرح صحيح البخارى. ٢٨جزءاً فى ١٤ مجلداً. مكتبة الأزهرية القاهرية - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م - ج٢١ - ص٢٤٨ .

(٧) الحجامة: الحجم هو المص ، يقال للحاجم (أحجام) لامتصاصه فم المحجم ، والمحجم والمحجمة بالكسر. ما يحجم به ، وهى الآلة التى يجمع فيها دم المحجوم عند المص ، والمحجم أيضاً مشرط الحجام وحرفته الحجامه .راجع الزبيدى (محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى بن محمد الحسينى الواسطى) تاج العروس من جواهر القاموس - عشرة أجزاء - الطبعة الأولى - المطبعة الخيرية - مصر - ١٣٠٦هـ- ج٨ - ص٢٣٧ .

والحجامه كانت شائعه عند العرب وهى من ضروب العلاج والتداوى وتكون بإخراج الدم من الجسم بكميات معينة ، وفى مواضع معينه ، وأوقات محدده ، وليس أدل على أهميه الحجامة وتداولها فى بداية العصر الإسلامى من أن البخارى وضع فى صحيحه

أبواباً تتعلق بالحجامة وهى « باب الحجامة من الداء » و« باب الحجامة على الرأس » و« باب الحجامة من الشقيقة والصداع » .

راجع : ابن حجر - فتح البارى - ج٢١ - من ص٢٦٧ إلى ص٢٧٠ ، وكذلك عبد العزيز العمرى- الحرف والصناعات - ص ٢٥٢ .

(٨) لم يكن التقليل من شأن الجراحة بالنسبة للطب مقصوراً على العرب فقط ، بل وجد هذا الوضع أيضاً عند اليونان وقد جاء فى قسم أبقراط لممارسة مهنة الطب نص على العبارة التالية « وألا استعمل المبضع ولو على يقين فى علاج المرضى بالحصيات وإنما أعالجهم بمقتضى ما يراه ذو الخبرة بمثل هذا العلاج » .

راجع : الجراحة عند العرب - مقال ضمن كتاب الموجز فى تاريخ الطب عند العرب - ج١ - أشترك فى تأليفه مجموعه من العلماء - من مطبوعات الجمهورية العربية الليبية - بدون تاريخ - ص٩٧ .

ومن الأمثلة الواضحة أيضاً على عدم العناية بمهنه الجراح فى الطب حتى عهد قريب فى أوربا أن مدرسة مونبيليه الطبية الشهيرة فى فرنسا ألغت خلال القرن السابع عشر دراساتها الجراحية وأصدرت أمراً يحرم على تلاميذها دراسة الجراحة ومزاولتها.

راجع - نفس المرجع - ص ٢٤٦ .

(٩) لعل من دواعى الابتعاد عن الجراحة فى بداية العصر الإسلامى بالإضافة إلى كونها من الصناعات اليدوية أنها مهنة طبية شاقة يحتاج صاحبها لكثير من الدقة والمهارة لضمان أحسن النتائج ويفسر الزهراوى ذلك بقوله « يا بنى ينبغى لكم أن تعلموا أن العمل باليد ينقسم إلى قسمين عمل تصحبه السلامة وعمل يكون معه العطب فى أكثر الحالات » راجع.

(أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى - المقالة الثلاثون من مخطوط التأليف لمن عجز عن التصريف -ص٣ .)

ولعل هذا السبب يرتبط بما كان شائعاً قديماً عند اليونان حيث ذكر الزهراوى نقلاً عن أبقراط بأن « الأطباء بالاسم كثير وبالفعل قليل ولاسيما فى صناعة اليد »

راجع - نفس المصدر - ص٢.

(١٠) عبد المنعم ماجد-تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى-القاهرة-١٩٧٣-ص٢٤٤.

(١١) على عكس القاعدة الشرعية التى تحرم تشريح جسم الإنسان نجد ابن رشد يجعل التشريح وسيلة من وسائل الإيمان با لله حيث عبر عن ذلك بقوله : « من اشتغل بعلم التشريح أزداد إيماناً با لله » راجع . ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، ص٥٣٢.

كما أن الزهراوى جعل من التشريح أساس علم الجراحة حيث أكد على ذلك بقوله : « وينبغى لصاحبها (أى مهنة الجراحة) أن يرتاض قبل ذلك فى علم التشريح الذى وضعه جالينوس حتى يقف على منافع الأعضاء وهيأتها ومتدرجاتها واتصالها وانفصالها ومعرفة العظام والأعصاب والعضلات وعددها ومخارجها » .

راجع الزهراوى - التصريف لمن عجز عن التأليف - المقالة الثلاثون - ص٢.

(١٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة الإسلام . ص١٣٠ ، وهذه الطريقة فى التعرف على الجسم البشرى عرفها المصريون القدماء حيث كانت الحيوانات المذبوحة تمثل مصدراً لمعرفة أجزاء الجسم البشرى والدليل ذلك على أنهم عبروا عن بعض أجزاء من الجسم البشرى بما يقابله فى الحيوان مثل الأسنان التى كان يعبر عنها بناب الفيل ، والأذن التى يعبر عنها بأذن ثور - راجع .

Ghalioungui, P.; Medicine in ancient Egypt, Amx Ray Atlos of Royal mumies,London, 1980, P. 58 .

ويرجع اتجاه الطب الفرعونى إلى الذبائح من الحيوانات الثديه إلى تحريمهم لفكرة التشريح الآدمى وذلك لأن عقيدة البعث والخلود عندهم تستلزم ضرورة وجود الجسد وقت الوفاة فى حالة سليمة ولعل هذا ما عاق تقدم الطب الفرعونى الذى أحيط بسياج من الدين فقيد انطلاقته - راجع

Peck H . W ., Mummies of Ancient Egypt, Mummies disease and ancient cultures, New York, 1980, P. 12 .

(١٣) يرجع الفضل فى تطبيق علم التشريح على الآدميين لأول مرة فى تاريخ البشرية إلى مدينة الإسكندرية ومدرستها المعروفة (بدار الحكمة) والتى تبوت مركز الصدارة فى العلوم الطبيعية فى العصرين اليونانى والرومانى أى على مدى خمسة قرون (منذ

بداية القرن ٣ ق. م. وحتى نهاية القرن ٢م) وكانت دروس التشريح تتم عملياً فـى قاعات أعدها الملوك البطالمة خصيصاً لهذا الغرض وفيها مارس الأطباء وعلى رأسـهم « هيروفيلوس» فنون التشريح على جثث الموتى والأحياء من المجرمين المحكـوم عليهـم بالإعدام - راجع :

Aluguste couat Alexandria poetry under the first theree (324-222 B.C.) London, P. 77.

(14)Hurry Y. B; lmhotep the vizier and physicion of king zoser and of terwards the Egyptian Good of Medicine - Oxford, 1926, P.77.

(١٥) يدل على ذلك شرحهم الدقيق والصحيح فى التشريح ومخالفتهم لكثير من آراء السابقين من أطباء اليونان ، فقد ناقش ابن النفيس فى كتـاب (شـرح تشـريح القـانون) تشـريح العظام والقلب والرئة ، ووصف الدورة الدموية الصغرى (الدورة الدمويـة) وكثـير مـن مكونات الجسم مما يدل على ممارسته للتشريح ، وموفـق الديـن البغـدادى فـــى كتـاب (الإفادة والاعتبار) أول من أشار إلى مواطن الخطأ فى وصـف جـالينوس وقـد ذكـر أن الفك مكون من قطعتين ولكن الرازى أثبت أنه قطعة واحدة .

راجع : هنرى أمين عوض - الجراحة فى العصر الحديث الإسلامى . مجلة دراسات أثريـة إسلامية نشر هيئة الآثار المصرية - المجلد الثالث - القاهرة - ١٩٨٨ -ص٢٧٢ .

(١٦) من أشهر ناقلى كتب الطب اليونانى من العرب يوحنا بن ماسويه - راجع ابـن جلجـل - طبقات الأطباء - ص٦٥ترجمة رقم ٢٥، وحنين ابن اسـحاق - نفـس المصـدر - ص ٦٨ترجمة رقم ٢٤، قسطا بن لوقا البعلبكى - نفس المصدر ، ص ٧٦، ترجمة رقم ٢٧.

(١٧) هنرى عوض - المرجع السابق ص ٢٧٦،٢٧٥حيث الإشارة إلى مشاهير الأطباء الذيـن مارسوا الجراحة فى العصور الإسلامية المختلفة.

(١٨) أبو القاسم الزهراوى - التأليف لمن عجز عن التصريـف - ص٥،٦، ويجـدر بـالذكر أن القدماء المصريين عرفوا الكى وحذا حذوهم اليونان والرومـان وأن كـان استخدم الكـى عند القدماء المصريين قد أقتصر فقط على علاج بعض الأورام السرطانية ويؤكد ذلك مـا جاء فى برديتى آدوين سميث وايبرس الخاصة بالجراحة عن الفراعنة - راجع :

Breasted, Y. H, The edwin Smith surgical papyrus, 2Vols, Chicago 1930 , cases nos 7, 9, 10, 12, 30

Ebbell, B; The papyrus Ebers, copenhagen, 1937 وكذلك

وكذلك راجع وفاء احمد السيد بدار : الطب والأطباء فى مصر الفرعونية حتى نهاية الدولة الحديثة . دراسة تاريخية وحضارية . مخطوط رسالة ماجستير - الإسكندرية ١٩٩٣-ص٨٤ .

(١٩) استخدام الخيط فى تضميد الجروح كان معروفاً منذ أقدم العصور حيث أستعمله المصريون القدماء ولكن على نطاق ضيق حيث كانوا يفضلون فى الغالب أسلوب آخر لتضميد الجروح يعتمد على ضم حافتى الجرح ووضع قطعة من اللحم الطازج عليها لوقف النزيف -

Petrie F; Tools and Weapons, London, 1917, P. 58 .

أما فى العصرين اليونانى والرومانى فقد أختلف الأمر تماماً حيث شاع استخدام الخيط فى تضميد الجروح ، والدليل على ذلك ما عثر عليه من أبر طبية محفوظة الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة ومتحف كلية الآثار تحتفظ بآثار من تلك الخيوط التى يصعب التعرف على نوعها .

راجع : عنايات محمد أحمد - الأدوات الطبية فى مصر فى العصرين اليونانى والرومانى - مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية - المجلد الثانى والأربعين -١٩٩٤ص٤٢٨.

ومن جانبى أرجح أن الخيط الذى كان يستخدم فى تضميد الجروح عند قدماء المصريين وكذلك اليونان والرومان كان من مادة الكتان نظراً لشيوع استخدام هذه المادة فى صناعة الحافظات المخصصة لحفظ الفتائل الكتانية التى كانت تستخدم للحشو بعد أن تشبع بالعقاقير ، بالإضافة إلى استخدامها فى صناعة الفوط الكتانية المعقمة التى كانت توضع على الجلد حول المنطقة التى سيجرى فيها العملية الجراحية ، ويستدل على ذلك وجود بعض أشكال هذه الأدوات على لوحة طبية بالجدار الغربى من معبد كوم أمبو فى أدفو - (لوحة رقم -١-القسم الثالث).

(٢٠) محمد مصطفى السمرى - التخدير عبر التاريخ - مجلة العربى - العدد ٤٠٢ - السنة الخامسة والثلاثون - مايو ١٩٩٢ - ص١٠٤.

(٢١) عبد المجيد نعنعى - الإسلام فى طليطلة - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت بدون تاريخ ص٢٥١-٢٥٢.

(٢٢) ابن جلجل - طبقات الأطباء - ٩٢.

(٢٣) نفس المصدر - ص٩٤، وكذلك ابن أبى أصيبعة - عيون الأنباء - ص٤٨٦-ص٤٨٧.

(٢٤) السيد عبد العزيز سالم - قرطبة حاضرة الخلافة - نشر مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية - ١٩٧٠-حزآن - الجزء الثانى -ص ٢١٢، عبد المجيد نعنعى - الإسلام فى طليطلة- ص٢٥٢.

(٢٥) كان من أشهر من رحل إلى المشرق لتلقى العلوم الطبية :

أ - أحمد وعمر ابنا يونس بن أحمد الحرانى حيث رحلا إلى المشرق فى دولة الخليفة عبد الرحمن الناصر وأقاما هناك عشرة أعوام ، ودخلا بغداد وقرأ فيها على ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الصابئ كتب جالينوس عرضاً ، وخدما ابن وصيف فى علل العين ، وانصرفا إلى الأندلس فى دولة المستنصر با لله ، وذلك فى عام إحدى وخمسين وثلثمائه وألحقهما فى خدمته بالطب وأسكنهما مدينة الزهراء وأستخلصهما لنفسه دون غيرهما مما كان فى ذلك الوقت من الأطباء . راجع

- ابن أبى أصيبعه - عيون الأنباء - ص٤٨٧.

(ب) أبو جعفر يوسف بن أحمد بن حسداى الذى سافر من الأندلس إلى الديار المصرية وأشتهر فى أيام الآمر بأحكام ا لله .

- ابن أبى أصيبعه - نفس المصدر - ص٤٩٩.

(حـ) أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت ، وهو من بلده دانيه من شرق الأندلس ، وكان من أكابر الفضلاء فى صناعة الطب ، وقد رحل من الأندلس إلى مصر وأقام بها عدة سنوات ثم عاد بعد ذلك إلى الأندلس وكان رحيله إلى مصر فى حدود عام ٥١٠هـ/١١١٦م.

- ابن أبى أصيبعه - نفس المصدر - ص ٥٠١ -ص٥٠٢.

(٢٦) ابن جلجل - طبقات الأطباء ص٩٧ - ص٩٨حيث الإشارة إلى أنه فى عهد عبد الرحمن الناصر تتابعت الخبرات فى أيامه ودخلت الكتب الطبية من المشرق وجميع العلوم وقامت الهمم وظهر الناس ممن كان فى صدر دولته من الأطباء المشهورين .

(٢٧) ابن أبى أصيبعة - المصدر السابق - ص٤٩٣ - ص٤٩٤حيث الإشارة إلى تفاصيل ما نقله عن ابن جلجل بشأن وصول الراهب البيزنطى نقولا إلى قرطبة بناء على طلب الخليفة عبد الرحمن الناصر ليساهم فى نقل مخطوطة ديسقوريدس الطبية إلى العربية والتى كان قد أهداها قسطنطين السابع أرمانيوس إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر فى سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م.

(٢٨) ابن أبى أصيبعة - عيون الأنباء - ص٤٩٢. وكذلك عبد العزيز سالم - قرطبة حاضرة الخلافة -جـ٢-ص٢١٤.

(٢٩) نفس المصدر -ص٤٩٢.

(٣٠) نفس المصدر -ص٤٩٦.

(٣١) نظرة العلماء والمؤرخين غير العرب للطب العربى - مقال ضمن كتاب الموجز فى تاريخ الطب عند العرب -ج١-ص٢٤٩.

(٣٢) من مشاهير أطباء عصر الموحدين :

(أ) أبو جعفر بن هارون الترجالى : وقد خدم لأبى يعقوب والد المنصور .

راجع ابن أبى أصيبعة - المصدر السابق -ص٥٣٠.

(ب) أبو الوليد بن رشد : وقد ترك كتباً عديدة فى الفلسفة وعلم الكلام والطب جعلته من أشهر مفكرى العصور الوسطى ، ومن مؤلفاته الخاصة بالطب والعقاقير كتاب الكليات ، وتلخيص كتاب الأدوية المفردة لجالينوس وكتاب الحميات .

راجع ابن أبى أصيبعة - نفس المصدر -ص٥٣٠-٥٣٣.

(جـ) أبو الحجاج يوسف بن موراطير ، وقد خدم بصناعة الطب المنصور أبا يوسف يعقوب ، ولما توفى المنصور خدم لولده الناصر ، ومن بعد الناصر خدم لولده أبى يعقوب يوسف المستنصر بن الناصر وكان حظياً عند المنصور .

راجع - ابن أبى أصيبعة - نفس المصدر - ص٥٣٣-٥٣٤.

(٣٣) راجع ابن جلجل - طبقات الأطباء - ص٩٤، ص١٠٤، ١١٠، وكذلك ابن أبى أصيبعة - عيون الأنباء ٤٧٩، ص٤٨١، ص٤٨٩، ص٤٩١، ٤٩٥ ، ص٤٩٧ ، ٤٩٩، ص٥٣٥ -حيث الإشارة إلى نماذج من هؤلاء الأطباء الذين مارسوا إلى جانب الطب أيضاً علوم أخرى .

(٣٤) راجع ابن جلجل - المصدر السابق -ص١٠٠،ص١٠٤، ص١١٢، وكذلك ابن أبى أصيبعة - المصدر السابق -من ص٤٨٧، إلى ص٤٨٩، ص٤٩٢، ص٤٩٥، ص٤٩٦، ص٥٣٤، حيث الإشارة إلى بعض من الأطباء الذين تولوا مناصب فى الدولة .

(٣٥) من بين هذه الأسر الطبية أسرة الحرانى ومن أشهر أبنائها أحمد وعمر ويونس بن أحمد راجع ابن جلجل - المصدر السابق ص١١٢، وابن أبى أصيبعة - المصدر السابق ص٤٨٦-ص٤٨٧.

وأيضاً أسرة أسحق الطبيب ، وأسرة الكتانى ، وأسرة حسداى بن أسحق ، وأسرة ابن زهر ومن أشهر أبنائها أبو مروان ، وأبو العلا ، وأبو مروان بن أبو العلاء ، والحفيد أبو بكر ، وأبو محمد بن الحفيد .

راجع ابن أبى أصيبعة . المصدر السابق ص٤٨٨، ص٤٩١، ص٤٩٨، ص٤٩٩، ص٥١٧، - ٥٣٠.

(٣٦) تقاليد وآداب المهنة الطبية عند العرب . مقال ضمن كتاب الموجز فى تاريخ الطب عند العرب .جـ١. ص٢٣٦-ص٢٣٧.

(٣٧)ابن أبى أصيبعة . عيون الأنباء ص٥٠١ حيث الإشارة إلى أنه كان طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة جيد العلاج .

(٣٨) سالم - قرطبة حاضرة الخلافة . جـ٢،ص٢١٤، عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية .ص٢٤٨.

(٣٩) ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية والعبرية ، وطبع باللاتينية بعنوان .

Liber Azaragui de cirurgia

كما نشر بالعربيـة واللاتينيـة فـى Oxford عـام ١٧٧٨م، ولـه ترجمـة فرنسـية علـى يـد Leclerc بعنوان . La chirurgi de, Abulcasis, Paris 1861

عبد المنعم ماجد . المرجع السابق ص٢٤٨، حاشية رقم ٣.

كما ترجم هذا الكتاب إلى العبرية ونال شهرة واسعة فى البـلاد المسيحية حيث كـانت شهرته فى الجراحة عظيمة حتى بين المحدثين ، وهكذا أنتشـر هـذا الكتـاب وجـذب إليـه الاهتمـام فـى الجراحـة أكـثر مما احتذبتـه جراحـة الثلاثـة العـرب المشـهورين الـرازى . والمجوسى. وابن سينا.

مشاهير العرب فى الصيدلة . مقال ضمن كتاب الموجز فى تاريخ الطـب والصيدلـة عنـد العرب ، جـ٢. ص٤٠٨.

(٤٠) عبر الزهراوى عن مدى استيائه لما كانت عليـه الجراحـة حتـى زمانـه الامـر الـذى دفعـه لتقديم تلك المقالة الجراحية موضحاً منهجـه والجديـد الـذى سـوف تقدمـه المقالـة حيـث يقول: « العمل باليد مخسة فى بلدنا وفى زماننا معدوم البتة حتـى كـاد أن يـدرس علمـه وينقطع أثره وإنما بقى منه رسوم يسيره فى كتب الأوائل قد صفحته الأيدى وواقعة الخطأ والتدنس حتى استغلت معانية وبعدت فائدته فرأيت أن أحيه واؤلف فيه هذه المقالة علـى طريق الشرح والبيان والاختصار وأن أتى بصور حديدة للكى وسائر الآلات للعمل بـاليد إذ هو من زيادات البيان ومن وكيد ما نحتاج إليه »

الزهراوى . التصريف لمن عجز عن التأليف . المقالة الثلاثون . ص٢.

(٤١) هنرى عوض . الجراحة فى العصر الإسلامى . ص٢٧٨.

(٤٢) المقالة المذكورة عبارة عن نسخة خطية نسخها أحد تلاميذ الزهراوى وقد كانت بحوزة الأستاذ الدكتور محمد رفيق خليل أستاذ الجراحة العامة بكلية الطب جامعـة الإسـكندرية وقد تفضل سيادته بإعارتى لهـذه النسـخة التـى اسـتفدت منهـا اسـتفادة كبـيرة ، وبهـذه المناسبة أتوجه لسيادته بخالص الشكر وعظيم التقدير على أنه سمح لى بالإطلاع على تلـك النسخة فضلاً عما قدمه لى من آراء وتفسيرات لاستخدامات بعض أدوات الجراحـة التـى تضمنها البحث .

(٤٣) الزهراوى . التصريف لمن عجز عن التأليف .ص١٩-ص٢٠.

(٤٤) شكل ١.

(٤٥) نفس المصدر ص٢٠-٢١.

(٤٦) شكل ٢،٣.

(٤٧) نفس المصدر . ص٢٢.

(٤٨) شكل ٤،٥.

(٤٩) الزهراوى . نفس المصدر . ص٢٩.

(٥٠) شكل ٦.

(٥١) الزهراوى - نفس المصدر ص٣٣.

(٥٢) نفس المصدر . ص٣٥ص٣٦.

(٥٣) لخص الزهراوى تلك النصائح بقوله « ... ولا تقدموا على شئ من ذلك إلا بعد علم يقين يصح عندكم بما تصير إليه العاقبة المحمودة . واستعملوا فى علاج مرضاكم تقدمه المعرفة والإنذار إلى ما يؤول إليه السلامة ، فإن لكم فى ذلك عوناً على اكتساب الثناء والمجد والذكر الكريم » .

الزهراوى . نفس المصدر . ص٣٦-٣٧.

(٥٤) نفس المصدر . ص٦٢.

(٥٥) نفس المصدر . ص٦٢-٦٣.

(٥٦) شكل ٧.

(٥٧) الزهراوى . نفس المصدر . ص٧٤-٧٥.

(٥٨) هو رأى صحيح لا يزال الآن . راجع الموجز فى تاريخ الطب ، ص١١٣.

(٥٩) الزهراوى . نفس المصدر . ص٧٩.

(٦٠) نفس المصدر . ص٨٢.

(٦١) شكل ٨.

(٦٢) الزهراوى . المصدر السابق . ص٩٠-٩١.

(٦٣) شكل ٩.

الزهراوى - نفس المصدر ص٩٦ حيث الإشارة إلى أن « الأوائل لم تذكر الاختتان فى شئ من كتبها لأنه لم يكن يستعمل فى شرائعهم وإنما هو ما اكتسبناه بالتجربة » .

وواضح من نص الزهراوى أن عملية الختان لم تكن معروفة عند القدماء غير أن الواقع غير ذلك ، فالدراسات الحديثة أثبتت أن المصريين القدماء قد مارسوا عملية ختان الذكور حيث وجدت تلك العملية مصوره على العديد من الرسوم الجداريه المصرية القديمة (الفرعونية) . راجع

Mahmoud Karim, Circunncision & mutilations Male & Female, London, 1995 .

(٦٤) الزهراوى . المصدر السابق . ص ١٠٠-١٠١ .

(٦٥) الموجز فى تاريخ الطب . ص١٢٣.

(٦٦) نفس المرجع . ص١٢٣.

(٦٧) الزهراوى . المصدر السابق . ص١١١ .

(٦٨) الموجز فى تاريخ الطب ص١٢٨.

(٦٩) نفس المرجع . ص١٢٩.

(٧٠) الزهراوى . التأليف لمن عجز عن التصريف . ص١٢١-١٢٤.

(٧١) شكل ١٠.

(٧٢) الزهراوى . نفس المصدر . ص١٣٨.

(٧٣) الموجز فى تاريخ الطب . ص١٣٢ .

(٧٤) شكل ١١.

(٧٥) الزهراوى . المصدر السابق . ص١٣٤.

(٧٦) شكل ١٢.

(٧٧) الزهراوى . المصدر السابق . ص ١٣٥.

(٧٨) نفس المصدر . ص١٣٥-١٣٨.

(٧٩) الزهراوى . التصريف لمن عجز عن التأليف .ص١٤٤-١٥٥.

(٨٠) شكل ١٣.

(٨١) الزهراوى . نفس المصدر . ص١٥٩.

(٨٢) شكل ١٤.

(٨٣) الزهراوى . نفس المصدر . ص ١٦٠.

وينطبق هذا الوصف تماماً مع ما يقوم به الأطباء فى العصر الحالى حيث تسمى هذه العملية Stripping of the veins وبهذا يكون الزهراوى أول جراح أستخدم طريقة سل العروق لعلاج دوالى الساق وذلك منذ حوالى ألف عام تقريباً . و لم تستخدم هذه الطريقة فى وقتنا الحاضر إلا منذ حوالى ثلاثين عاماً فقط بعد إدخال بعض التعديل عليها.

راجع . الموجز فى تاريخ الطب .ص١٤٢.

(٨٤) الزهراوى . نفس المصدر . ص١٨٤.

(٨٥) الزهراوى - التصريف . ص١٨٤-٢٣٨.

(٨٦) ابن حلجل . طبقات الأطباء ص٩٧ ، ابن أبى أصيبعه . عيون الأنباء .ص٤٨٦.

(٨٧) ابن حلجل . نفس المصدر . ص٩٦ترجمة رقم ٣٨ ، ابن أبى أصيبعة . نفس المصدر . ص٤٨٥-٤٨٦.

(٨٨) ابن حلجل . طبقات الأطباء ص ١٠٠، وابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء . ص٣٨٨.

(٨٩) ابن حلجل . نفس المصدر . ص١١٢، ابن أبى أصيبعة . نفس المصدر . ص٤٤٨.

(٩٠) فى مقابلة مع الأستاذ الدكتور محمد رفيق أستاذ الجراحة بكلية الطب جامعة الإسكندرية أكد لى بأن هذه الآلات كانت تستخدم فى كحت الأورام الخاصة بالنساء . وتتفق

أشكال تلك الأدوات مع مجموعة من الأدوات المحفوظة حالياً فى متحف كلية الآثار بالقاهرة (شكل -١٥) والمصورة على جدران معبد كوم أمبو (لوحه رقم ١-القسم الأول رقم ٤، القسم الثانى من ٤-٦، والقسم الرابع من ٦-٧ والتى كانت تستخدم فى مجال أمراض النساء فى العصرين اليونانى والرومانى وبخاصة فى إزالة الأجزاء غير الصحية من جدار الرحم ويؤكد ذلك أن هيروفيلوس فى العصر البطلمى قام بتشريح الرحم عند المرآة على سيدات مسنات -راجع

Fraser P. M, Ptolemaic Alexandria, Oxford, 1972, P. 250.

وكذلك عنايات محمد : الأدوات الطبية فى مصر فى العصرين اليونانى والرومانى ، ص٤١٦، ص٤٢٣، ص٤٢٩،

وفى ضوء ذلك يمكن القول بأن تلك الأدوات الملعقيه تمثل استمراراً لما كانت عليه نظائرها فى العصرين اليونانى والرومانى من حيث الشكل والاستخدام .

(٩١) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه

ويصف الزهراوى عملية قطع اللحم الزائد فى اللثة فيقول « كثيراً ما ينبت على اللثة لحم زائد فينبغى أن تعلقه بصناره أو تمسكه بمنقاش وتقطعه عند أصله » .

الزهراوى . التصريف . ص٦٢.

وقد ظهرت تلك الصنانير على اللوحة المصورة بمعبد كوم أمبو (لوحه -١ القسم الثانى) (١-٣) مما يؤكد أن استخدام تلك الآلات كان استمراراً لما كانت عليه فى العصرين اليونانى والرومانى .

(٩٢) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه .

(٩٣) أ.د. محمد رفيق. مقابله شخصيه .

(٩٤) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه .

(٩٥) أ.د. محمد رفيق . مقابله شخصيه .

(٩٦) تتم هذه الطريقة على مراحل متعددة تبدأ بعمل الشكل المطلوب من الشمع ثم تحفر عليه جميع التفاصيل المطلوبة ويسمى ذلك « النموذج » ثم يغطى هذا النمـوذج بطبقـات مـن عجينه الفخار حتى يطبع عليها التفاصيل المنحوتة معكوسة ويسمى ذلك القالب ويراعـى دائماً وجود دعائم لتماسك النموذج مع القالب فضلاً عـن وجـود فتحتـين أحدهمـا فـى الجزء العلوى من القالب لصب المعدن المنصهر والأخرى فى أسفله للتخلـص مـن الشـمع الذائب والغازات أثناء عملية الصب .

لطفى خليل : تعدين النحاس . مجلة المتحف . العدد الثـانى . ١٩٨٧ ص٦٢، مرجريت ترويل : الفن الزخرفى فى أفريقيا . ترجمة مجدى فريد . القاهرة . بدون تاريخ ص.٧٣.

(٩٧) يبدأ هذا الأسلوب بقطع الرقائق حسب الشكل المطلوب ثم طرقها على آلة مصنوعة من الحديد طرفها من الصلب تعرف بآلة السندال . ويطرق على المعدن بأداة تشبه الجـاكوش أو الأجنه التى لاتزال مستعمله حتى اليوم والهدف من عملية الطرق تجميـع ذرات المعـدن حتى يكتسب مزيداً من الصلابة وإعطاؤه الشكل المراد تنفيذه وبعد تشـكيل التحفـه فـى الصورة المطلوبة تنعم وتصقل بسكين أو بواسطة دواليب حتى تصير ملساء (حنـان عبـد الفتاح مطاوع . التحف والصناعات المعدنية فى الأندلس منذ قيـام الدولـة الأمويـة حتـى سـقوط مملكة بنى الأحمر . رسـالة دكتـوراه . كليـة الآداب جامعـة الإسـكندرية . ١٩٩٦ص ٣١٩) .

(٩٨) لوحه ٢-ب ، لوحه ٣ب ، لوحه ٤-أ ، لوحه ٦،٥.

(٩٩) لوحه ٢-جـ ، لوحه ٣أ.

(١٠٠) لوحه ٢أ ، ب، ح

(١٠١) لوحه ٦. وجدير بالذكر أن أشكال المعينات المتداخلة رأسياً أو أفقيـاً قـد اسـتخدمت على نطاق واسع فى العديد من المنتجات الفنيـة الأندلسـية لاسيما فـى زخـارف الحجـر والرخام حيث تمثلت على نحو رائع فى زخـارف الدعامـات الرخاميـة فـى زيـادة الحكـم المستنصر بجامع قرطبه وفى العضادات الرخامية بالمجلس الغربى بقصر الزهراء وفى شرفات مسجد الزهراء .

George Marcais : Manuel d'art musulman C, I.Paris. 1926.P . 285.

Pavon Maldonado: Memoria de la excavacion de la Mazquita de Medina Alzahra. Madrid. 1966. P . 87 .

(١٠٢) لوحه ٢جـ ، (لوحه ٣ أ) .

(١٠٣) كان الصليب المعقوف من رموز البوذية فى الديانة الهندية وهو عبارة عـن خـط رأسـى قائم يمتد منكسراً فى أعلاه إلى جهة تعكس انكسـاره عنـد القـاعدة ويتقـاطع هـذا الخـط القائم مع خط أفقى منكسر بدوره يميناً ويساراً فى اتجاه الانكسار السـابق . وقـد تمثلـت الصلبان المعقوفة بكثرة فى الفنون القديمـة لاسـيما الفـن الإغريقـى واليونـانى والساسـانى والبيزنطى .

Pavon Maldonado: El arte Hispona musulman en su de coracion geomtrica, instituto hispano arabe de cultura, Madrid. 1975 . Labla. I.

فريد شافعى : العمارة العربيـة فـى عصـر الـولاة . نشـر الهيئـة العامـة للتـأليف والترجمـة . ١٩٧٠. ص٢١٧.

مصادر ومراجع البحث

أولاً: المصادر العربية :

١- **ابن أبي أصيبعة** (موفق الدين أبى العباس أحمد بن القاسم الخزرجى) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء - تحقيق د. نزار رضا - بيروت - ١٩٦٥ .

٢- **ابن القيم** (الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب الجوزى) زاد المعارف فى هدى خير العباد - أربعة أجزاء - المكتبة العلمية - بيروت - بدون تاريخ .

٣- **ابن جلجل** (أبى داود سليمان بن حسان الأندلسى) - طبقات الأطباء والحكماء - تحقيق فؤاد السيد - نشر المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية - القاهرة - ١٩٥٥ .

٤- **ابن حجر** (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد العسقلانى) فتح البارى بشرح صحيح البخارى - ٢٨جزءاً فى ١٤مجلداً - مكتبة الأزهرية القاهرية - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

٥- **ابن خلدون** (عبد الرحمن بن محمد) - المقدمة - الطبعة الرابعة - دار الهلال - بيروت - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

٦- **أبى القاسم** خلف بن عباس الزهراوى - المقاله الثلاثون من مخطوط التأليف لمن عجز عن التصريف .

٧ - **الزبيدى** : (محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى بن محمد الحسينى الواسطى) تاج العروس من جواهر القاموس - عشرة أجزاء - الطبعة الأولى - المطبعة الخيرية - مصر - ١٣٠٦هـ .

ثانياً : المراجع العربية الحديثة :

١ - **السيد عبد العزيز سالم** : قرطبة حاضره الخلافة - جزأن - نشر مؤسسه شباب الجامعة - الإسكندرية - ١٩٧٠م .

٢ - **سعيد عبد الفتاح عاشور** :حضارة الإسلام - معهد الدراسات الإسلامية - الطبعة الأولى - ١٩٨٧م .

٣ - **عبد العزيز بن إبراهيم العمرى** : الحرف والصناعات فى الحجاز فى عصر الرسول - مركز التراث الشعبى - الدوحة ١٩٨٥ .

٤ - **عبد المجيد نعنعي** : الإسلام فى طليطله - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - بدون تاريخ .

٥ - **عبد المنعم ماجد** : تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى - القاهرة - ١٩٧٣م .

٦ - **عنايات محمد أحمد** : الأدوات الطبية فى مصر فى العصرين اليونانى والرومانى - مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - المجلد الثانى والأربعين ١٩٩٤م .

٧ - **فريد شافعي** : العمارة العربية فى عصر الولاة - نشر الهيئة العامة للتأليف والترجمة - ١٩٧٠م .

٨ - **لطفى خليل** : تعدين النحاس - مجلة المتحف - العدد الثانى - ١٩٨٧م .

٩ - **محمد مصطفى السمرى** : التخدير عبر التاريخ - مجلة العربى - العدد ٤٠٢ - للسنة الخامسة والثلاثون - مايو ١٩٩٢م .

١٠ - **مرجريت ترويل** : الفن الزخرفى فى أفريقيا - ترجمة مجدى فريد - القاهرة - بدون تاريخ .

١١ - **هنرى أمين عوض** : الجراحة فى العصر الإسلامى - مجلة دراسات أثرية إسلامية - نشر هيئة الآثار المصرية - المجلد الثالث - القاهرة ١٩٨٨ .

- كتاب الموجز فى تاريخ الطب - جـ١ اشتراك فى تأليفه مجموعة من العلماء مـن مطبوعات الجمهورية العربية الليبية - بدون تاريخ - المعجم الوسيط - تحقيق مجمع اللغة العربية - الطبعة الثالثة .

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

1. Aluguste Couat : Alexandria poetry under the first theree (324- 222 B. C) London, 1990.
2. Breasted Y. H : The edwin Smith surgical papyrus, 2 Vols, Chicago, 1930.
3. Ebbell, B: The papyrus Ebers, Copenhagen, 1937.
4. Fraser P. M. : Ptolemaic Alexandria, Oxford, 1972.
5. George Marcais : Manuel d' art musulman, Paris, 1926.
6. Ghalioungui : P. Medicine in ancient Egypt, Amx Ray Atlas of Royal mumies, London, 1980.
7. Hurry, Y, B : Imhotep the vizier and physicion of king Zoser and of terwards Egyptian Good of Medicine - Oxford, 1926.
8. Mahmoud Karim : Circunncision y mutilations male y female, London, 1995.
9. Pavon Maldonado : El arte hispano musulman en su decoracion geomtrica, instituto hispano arabe de cultura, Madrid, 1975.
10. Pavon Maldonado : Memoria de la excavacion de la Mezquita de Medina Alzahra, Madrid, 1966.
11. Peck, H. W : Mummies of ancient Egypt, mumies disease and ancient, cultures, New York, 1980.
12. Petrie, F : Tools and weapons, London, 1917.

رابعاً : الرسائل العلمية :

١ - حنان عبد الفتاح مطاوع : التحف والصناعات المعدنية فى الأندلس منذ قيام الدولة الأموية وحتى سقوط مملكة بنى الأحمر - رسالة دكتوراه - كلية الآداب جامعة الإسكندرية ١٩٩٦م .

٢ - وفاء السيد بدار - الطب والأطباء فى مصر الفرعونية حتى نهاية الدولة الحديثة - دراسة تاريخية وحضارية - مخطوط رسالة ماجستير - الإسكندرية ١٩٩٣م .

ابن أبى طىّ : مؤرخا وأديبا

أ. د. محمد زيود(*)

عاش المؤرخ ابن أبى طىّ فى عصر له مكانة خاصة فى النواحى السياسية والعسكرية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية أنه عصر الحروب الصليبية الذى شهد العديد من التطورات وبخاصة فى منطقة الشرق الأوسط . ومن المعروف أن والد المؤرخ ابن أبى طىّ عاصر الشهيد نور الدين محمود بن زنكى (٥٤١ - ٥٦٩هـ /١١٤٦ - ١١٧٣م) . ثم السلطان المظفر صلاح الدين بن أيوب (٥٦٤ - ٥٨٩ هـ / ١١٦٨ - ١١٩٣م) . وبانتقال صلاح الدين إلى جوار ربه فى سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م كان عمر مؤرخنا ابن أربعة عشر عاماً ، لاتفاق معظم المصادر أنه ولد سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م .

وقد اعقبت وفاة صلاح الدين فترة قلقة فى تاريخ مصر والشام وما حولهما، إذ تنافس أهل بيته على اقتسام دولته ، فظهر فى دمشق ابنه الأفضل نور الدين على (٥٨٩ - ٥٩٢هـ / ١١٩٣ - ١١٩٦م) وفى القاهرة العزيز عثمان (٥٨٩ - ٥٩٦هـ / ١١٩٣ - ١٢٠٠م) ، وفى حلب الظاهر غازى (٥٨٩ - ٥٩٦هـ / ١١٩٣ - ١٢١٦م) ، واستمرت حلب بيد الظاهر غازى وأبنائه من بعده إلى سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م ، حيث كان الظاهر واليا على حلب قبل وفاة أبيه ، وانفرد بحلب إلى أن توفى فى عام ٦١٣هـ/١٢١٦م حيث نصب ابنه العزيز غياث الدين محمد ملكاً على حلب فى سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م واستمر حكمه إلى سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م . وكانت المنية قد اتت على مؤرخنا قبل أربع سنوات من انتهاء حكم العزيز محمد ، وهذا يعنى أن « ابن أبى طى » عاصر كلا من صلاح

(*) [illegible] كلية الآداب - جامعة دمشق .

الدين ، وابنه « الظاهر غياث الدين غازى » وحفيده العزيز محمد . واستمر يوسف بعد العزيز يحكم حلب إلى سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ، حيث قتل مع أخيه الظاهر غازى . فى جمادى الأول من سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م ، على يد هولاكو ، عندما اجتاح حلب وأباحها لجيشه . وبقى ولده الصغير المسمى العزيز فى أيدى المغول .

وفى حين استمر الحكم الأيوبى فى حلب بيد الظاهر غازى وأبنائه إلى ٦٥٨هـ/١٢٦٠ ، فإن العادل سيف الدين أخا صلاح الدين تمكن فى سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م من أخذ دمشق من الأفضل، وعزل الملك المنصور الذى خلف أباه العزيز بالقاهرة سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م وبذلك استأثر العادل بالسلطنة بعد صلاح الدين .

والواقع أن الشام ومصر كانتا فى تلك الحقبة تخضعان لسلطة واحدة فى أغلب الأحيان ، أو لأفراد من أسرة واحدة ، ولأول مرة تشهد الشام ومصر وشمال العراق ، منذ تفكك الدولة العباسية وحدة سياسية بقيادة نور الدين محمود ابن زنكى الذى عمل بكل طاقته لتوحيد الشام وشمال العراق ومصر وهى الوحدة التى جنى ثمارها صلاح الدين ومكنته من انزال الهزائم بالصليبيين .

وفى ظل هذه الوحدة السياسية ، وخضوع المنطقة لسلطة واحدة عاد العلماء ينتقلون بين هذه الأقطار ، وبخاصة بين الشام ومصر فى سهولة ، مما جعل من الصعب أن نربط عالماً من العلماء بقطر واحد دون سواه ، وكان هذا مما ساعد على قيام وحدة فكرية متقاربة ، وثقافة أدبية وعلمية متناظرة ، وخاصة بين مصر والشام .

ومع ظهور المدارس فى الدولة الإسلامية منذ القرن الخامس للميلاد ، إلا أن المسجد ظل يشكل المركز الدراسى الأساسى للعلم ، ففى مصر قام جامع عمرو ابن العاص (الجامع العتيق) ، والجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، وجامع الأقمر ،

والعطارين بالإسكندرية بدور كبير ، وأما فى الشام فكان الجامع الأموى (جامع دمشق) وجامع حلب ، والمسجد الأقصى .

وظلت حلقات العلم تعقد بالجامع العتيق فى مصر ، وتتطرق إلى مختلف فروع الثقافة ، وذلك فى العصرين الفاطمى والأيوبى(١) ، وكان الأزهر الذى شيد فى مطلع الدولة الفاطمية فى مصر ، فعلى الرغم من أن التعليم فيه اصطبغ بالصبغة المذهبية الشيعية الإسماعيلية وألقيت فيه رسائل هذا المذهب وعلى رأسها كتاب « الاقتصار » ، ودعائم الإسلام وكتاب الأخبار فى فضل الأئمة الأبرار ، وغيرها من الكتب والرسائل التى ألفها القاضى النعمان وابنائه من بعده وغيرهم من أئمة المذهب الشيعى فيه الرسالة الوزيرية فى الفقه الشيعى الإسماعيلى التى وضعها الوزير « ابن كلس » هذا فى حين وجدت العلوم الفلسفية والحكمية ، مجالالها فى دار الحكمة التى أسست فى عهد الخليفة الحاكم الفاطمى (٣٧٦ - ٤١١هـ / ٩٩٦ - ١٠٢١م). وبظهور صلاح الدين على المسرح ، قام بإجراءات كثيرة استهدفت وقف الدعوة الإسماعيلية فأقدم فى سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م على إسقاط اسم الخليفة العاضد الفاطمى من الخطبة ، وأعلنها باسم الخليفة العباسى ، وعين على القضاء « صدر الدين عبد الملك بن درباس » ، الشافعى المذهب ، وأبطل الخطبة بالجامع الأزهر ، وأقرها بالجامع الحاكمى ، قاصداً إهمال الأزهر باعتباره رمزاً للمذهب الفاطمى ، كذلك قام صلاح الدين بأنشاء عدة مدارس أخذت تنافس مراكز الدعوة الفاطمية وكان أن أقبل المدرسون والطلاب على هذه المدارس أكثر من إقبالهم على بقايا المؤسسات الفاطمية .

على أن الدراسة فى الأزهر لم تتوقف تماماً ، اثر انقطاع الخطبة فيه وإهماله من قبل السلاطين لمدة تزيد عن مائة عام(٢) ، وكان ذلك فى صدر دولة سلاطين المماليك - فى عهد السلطان الظاهر بيبرس - عندما عادت الحياة إلى الأزهر وأذن

القاضى الحنفى بإعادة الخطبة فيه ، فأعيدت يوم الجمعة ١٨ ربيع الثانى سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م ودرست فيه القراءات والتفسير ، والمنطق والحساب والهيئة والطب ، واللغة والعروض والقوافى والتاريخ . وهكذا لم تقتصر الدراسة فى الأزهر على علم الفقه أو علم الكلام والنحو والأدب بل كانت تدرس به كذلك فروع المعرفة الأخرى . هذا فضلاً عن جوامع أخرى فى مصر ساهمت فى التدريس والنهضة الثقافية ، أمثال الجامع الطولونى ، وجامع الحاكم ، والأقمر ، والأفخر، والعطارين ، وغيرها من الجوامع التى بنيت لتكون دور عبادة ومعاهد علم وينابيع ثقافة ومعرفة .

أما المساجد فى بلاد الشام فعلى رأسها جامع دمشق الذى بناه الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ / ٧٠٥-٧١٥م) وتم بناؤه فى سنة (٩٦هـ / ٧١٤م) وهو من أشهر مساجد بلاد الإسلام حسناً واتقاناً وغرابة صنعه . وفيه مقصورات عديدة بعضها للحنفية يجتمعون فيها للتدريس كما أنه به أماكن وزوايا خصصت لطلبة العلم .

وتردد على هذا الجامع فى عصر الحروب الصليبية طائفة من العلماء الذين لا تزال آثارهم لامعة فى تاريخ الحركة الفكرية . وبقيت آثارهم إلى ايامنا ومن علمائه الأفذاذ فى ذلك العصر :

- علم الدين السخاوى ، شيخ القراء والنحاة ، والفقهاء(٦٤٣هـ)(٣) .
- الحافظ ابن عساكر ، شيخ دار الحديث بدمشق(٥٧١هـ) .
- أحمد بن فرج الأشبيلى (٦٩٩هـ) .
- ضياء الدين الدولعى (٥٩٨هـ) .
- عبد الله بن سعد القطرى .

- عماد الدين بن الحرستانى (٥٩٧هـ) .

- محمود بن عبد الله أبو المثنى المراغى (٦٨١هـ) .

- أبو القاسم الدمشقى المشهور بابن الماسح (ت ٥٩٢هـ/١١٦٦) من أعيان الفقه الشافعى والقراءات(٤) .

- عبد الغنى بن عبد الواحد بن سرور المقدسى (ت ٦٠٠هـ /١٢٠٣) وكان يقرئ القرآن بالجامع الأموى ليلة الخميس والجمعة(٥) .

وغيرهم كثيرون .

أما جامع حلب فكان فى تلك الحقبة من أهم المراكز العلمية فى بلاد لشام، حيث كانت حلب ذات دور هام فى العصر الصليبى فى الشام ، وكان جامعها من أحسن الجوامع وأعمرها ثقافة .

واستمرت حلب من أعظم مراكز العلم فى تلك الحقبة ، باستثناء فترات قصيرة محدودة ، بسبب التهديد الذى تعرضت له فى عصر الحروب الصليبية . على أن حلب لم تلبث أن استعادت بعد ذلك مركزها العلمى ، وغدت أم البلاد الشامية ، وغصت بالعلماء ، وأشار ابن خلكان إلى ذلك عندما زارها فى سنة ٦٢٦هـ(٦) / ١٢٢٨م ، وبذلك عاد جامعها مركز إشعاع للعلم والعلماء .

و لم تتوقف مسيرة هذه الحركة العلمية فى حلب إلا عندما انطفأت شعلتها على يد التتار سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م . فأحرقوا جوامعها ودمروا معاهدها ، وقضوا على مدارسها ، وخربوا دور السلطنة ، وقصور الأمراء وأفسدوا كل شىء فيها . وظلت حلب تعانى من تلك الضربة زهاء ثلث قرن ، ثم بدأت العمارة والحياة تعود إليها فى سنة ٦٩٠هـ(٧) /١٢٩١م .

يتضح مما تقدم أن حلب في عهد مؤرخنا - ابن أبي طيّ - الذى عاش فيما بين (٥٧٥-٦٣٠هـ / ١١٧٩-١٢٣٢م) مرت فى مرحلة انفتاح علمى ، واستعادت مركزها الذى انتكس فى بداية الحروب الصليبية . واستمرت بعد ذلك محافظة على نشاطها العلمى حتى قدوم التتار واستباحتهم لمدن الشام كغيرها من المدن الأخرى التى استباحوها فى البلاد الإسلامية . وفى تلك المرحلة كان ابن أبى طيّ قد مضت على وفاته بضعة عقود ، وربما ضاعت بعض كتاباته فى هذا الغزو التترى ، الذى أحرق الأخضر واليابس . وبعبارة أخرى فإن فترة حياة المؤرخ «ابن أبى طيّ» التى استمرت زهاء خمسة وخمسين عاماً ، تمثل أحد العصور الذهبية لحلب ، فى المجال الأدبى والثقافى ، والسياسى أيضاً . لقد استعادت فى تلك الفترة قواها وشكلت قاعدة هامة للدفاع عن الأمة الإسلامية وتراثها الحضارى والسياسى .

٣ - ابن أبى طى فى المصادر العربية :

هو منتجب الدين « أبو زكريا »(٨) ، وقيل « أبو الفضل » يحيى بن حامد أو حميده(٨) بن ظافر بن على بن الحسين بن على بن محمد بن الحسن بن صالح بن على بن سعيد بن أبى الخير الطائى(٩) الغسانى الحلبى النجار(١٠) المؤرخ والأديب، الحلبى المولد والمنشأ ، ولد حسب ما ذكرته معظم الروايات فى سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م ومات سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م(١١) ، وقيل غير ذلك ، حيث لا تعرف سنة وفاته بدقة .

أما والده فتذكر بعض المصادر أنه ولد فى العقد الأول من القرن السادس الهجرى ما بين (٥٠١هـ - ٥٠٩هـ) ، وكان من وجهاء حلب ، ورئيس حرفة النجارين فيها . وكانت هذه المهنة ولا تزال من المهن المشهورة فى حلب ، وتعود

أهميتها إلى أن حلب ، من الأماكن الهامة فى إستنبات الأشجار الضرورية لمهنة النجارة . ومما يدل على كثرة الأشجار وتنوعها ما ذكره كل من ابن العديم مؤرخ حلب المشهور(١٢) ، والشاعر الصنوبرى الحلبى وغيرهما ، وقد حظى والد ابن أبى طىّ فى حلب على التقدير والاحترام بوصفه أحد زعماء الشيعة فيها . غير أن هذا الأمر عرضه للخلاف الشديد مع حكام حلب فى عهد نور الدين (٥٤١هـ - ٥٦٩هـ / ١١٤٦م-١١٧٣م) ومن جاء بعده . ونتيجة لما تعرض له والد ابن أبى طىّ من اضطهاد ، فإنه اضطر إلى الفرار من حلب أكثر من مرة نتيجة للتحول الذى حصل فى تلك الحقبة من التحول إلى المذهب السنى ، وما رافق ذلك من مضايقات لبعض الناس والأسر التى كانت تعتنق المذاهب الشيعية ، وكانوا أكثرية فى حلب . وأخذت بعض أسر ذات الصلة بالأمور الإدارية تتحول إلى السنة كأسرة ابن أبى جرادة(١٣) ، و« ابن العديم » وغيرها . ومن هذه الإجراءات منع الشيعة من استخدام الزاوية الشرقية فى جامع حلب ، وحظر عليهم الآذان (بحى على خير العمل) ، وغير ذلك من مضايقات ، أدت إلى رضوح الشيعة على مضض أو إلى الهروب . ومن الذين هربوا أو أخرجوا - من حلب أكثر من مرة - والد المؤرخ يحيى بن حميد المرة الأولى سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م ، والمرة الثانية لم تحددها المصادر . ومكث والد مؤرخنا فى حران(١٤) ، بعض الوقت بحدود سنة ٥٢٥هـ/١١٥٧م . وفيها ألف كتاباً فى التاريخ . وكان أولاده يموتون صغاراً . ولم يسلم له أحد من أبنائه . وبعد مضى وقت من اليأس رزق بعد طول انتظار - وبعد أن تقدم به العمر - بولده يحيى - مؤرخنا هذا - فى حدود سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م كما أشرنا . وقدر لهذا المولود أن يعيش ، ويكبر ويتعلم على أبيه، ويأخذ عنه مذهبه الفكرى ، وتوجهه الأدبى ، وعمله المهنى . فتعلم على يده مهنة النجارة وورثها عنه ، وكذلك مذهبه الشيعى .

أما والدته حميدة(١٥) أو فضائل ، فإنها ماتت سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م وهى السنة التى ولد فيها مؤرخنا . ولهذا كثيراً ما كان يقال عنه يحيى بن حامد أو حميدة ، نسبة إلى أمه وهى عادة عربية معهودة ومتبعة .

كذلك تعلم مؤرخنا من علماء حلب ، ونهل عنهم أصناف العلوم كالبلاغة واللغة والأدب والتصوف وغيرها من العلوم . وأما أساتذته فهم كثيرون ويأتى على رأسهم والده ، ومجموعة من المحدثين منهم : إدريس بن حسن ابن على الأدريسى (ت ٦١٠هـ) وقد عرف به ياقوت فى معجمه .

كذلك درس مؤرخنا الفقه الشيعى أيضاً وتعمق به على يد ابن جعفر بن على بن شهر أشوب المازرائى . وعرف عن هذا الفقيه البراعة والفقه الإسلامى على المذهب الشيعى الإمامى وعرف عنه بأنه كان عالم الشيعة فى القرن السادس الهجرى ، وخطيبهم وناقل أدبهم المذهبى فى كتابه « مناقب آل أبى طالب » وله مشاركة فعالة فى علم الأصول والقراءات وقدم مؤلفات كثيرة فى هذه العلوم الدينية(١٦) ، وقد قدم ابن شهر أشوب إلى حلب ومكث فيها وتزوج أخت ابن أبى طىّ ، ودرس هذا عليه شيئاً مما كان يعلمه . ومات ابن شهر أشوب فى حلب.

كذلك اعتمد ابن أبى طىّ فى إعداد نفسه فكرياً وعلمياً على مجموعة كبيرة من الأعلام فى الفكر والأدب وممن عرفتهم الشام وحلب خاصة نذكر من هؤلاء:

- ابن أبى زريق : صاحب كتاب أو تاريخ آمد وما فارقين .
- وابن أبى جراده (جد ابن العديم) :
- وحمدان بن عبد الرحيم الأثاربى (٥٤٢هـ/١١٤٧م) : مؤرخ حلبى ، وكان أماميا له مصنفات عدة أهمها المفوف . والمصباح(١٧) .

- والعظيمى : (ت ٥٥٦هـ/١١٦١م) وتاريخه عن حلب وهو تاريخ شامل .

- وابن القلانسى الدمشقى (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م) : وقرأ عنه كتابه المشهور ذيل تاريخ دمشق .

- والعماد الأصبهانى : (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) فى كتابه البرق الشامى ، وتايخ السلاجقة والفتح القسى فى الفتح القدسى .

- وابن عساكر (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م) نشأ بدمشق وبلغ عدد شيوخه الذين أخذ عنهم بالسماع فيها ألفا وثلاثمائة شيخ وتاريخه عن مدينة دمشق خرج فى ثمانين مجلدة .

- وابن دحيه :

- وأسامة بن مرشد بن منقذ الأمير مؤيد الدولة (ت ٥٨٤هـ/١١١٨م) وكتابه الاعتبار .

- وابن شداد ، بهاء الدين بن رافع (٦٣٢/١٢٣٣هـ) .

- ابن الأعز (ت ٦١٠هـ / ١٣١٣م) الأشرف بن الأعز وقيل أبو العز . درس ما عرفه من علم التأريخ لطلابه(١٨) .

- والصنهاجى فى تاريخ القيروان .

- ومؤلفاً مجهولاً فى تاريخ مصر .

وكل هؤلاء أعلام فى عصرهم قدموا الكثير، وتركوا لنا الدلائل على عظمتهم.

وكثيراً ما كانت تشغله الوثائق التى اعتمد مؤرخنا عليها وعلى كتب هؤلاء المؤرخين ، كما كان ينجذب إلى رسائل وروايات متعددة ، منها رسائل القاضى الفاضل وأخباره ، فضلاً عن مصادر أخرى كثيرة ومتنوعة بعضها شفهى والآخر مخطوط .

وخلاصة القول فإن ابن أبى طىّ اعتمد فى كتاباته التاريخية أسلوب معاصريه كابن الأثير وغيره . كما اعتمد على المصادر الشفهية ، وهى إحدى المصادر الرئيسية للكتابة التاريخية فى ذلك العصر . ثم اعتمد على مصنفات المتقدمين فى التاريخ ، ومنها استقى مواد كتاباته . أما الأحداث المعاصرة . فقد اعتمد على مشاهداته لها عن كثب ؛ معتمداً على خبراته الشخصية ، كما استند على الوثائق الرسمية التى أعدها كل من العماد الكاتب ، والقاضى الفاضل .

وعلى العموم فمؤرخنا هو من أدباء حلب ، وخريج مدرستها الأدبية والفكرية والمذهبية ، والتى نشطت منذ ما قبل منتصف القرن الرابع الهجرى واستمرت طيلة القرنين الخامس والسادس الهجريين تعطى ثمارها وتخرج علماء فى كل فروع العلوم والمعرفة ، كما أشرنا أثناء الحديث عن عصر المؤرخ .

وكما عاش والد المؤرخ محنة الاضطهاد والإهمال والنفى نتيجة لعقديته المذهبية ، كذلك تعرض الابن للضنك والإهمال ، وربما للنسيان المتعمد من الكثيرين ، فلم يعهد له بأى منصب إدارى أو رسمى ، لا فى التدريس ولا فى القضاء ، أو غير ذلك من الأعمال الحكومية ، على الرغم من أن حلب فى عهده كانت بحاجة لمثل هذه الخدمات وغيرها ، نتيجة لما كانت تمر به فى تلك الأثناء من ظروف حرجة .

وفى هذه الأجواء غير الطبيعية نشأ المؤرخ ابن أبى طىّ . ولا شك فى أن ذلك أثر تأثيراً كبيراً فى مجريات حياته ، إذ أجبرته هذه الظروف المؤقته أن يعيش فترة طويلة من حياته متكسباً بما تدره عليه مهنته وعمله بالنجارة التى اشتغل بها وورثها عن أبيه كما أشرنا . واستمر كذلك إلى أن انتقل إلى عمل أقل جهداً ، وافضل قيمة ، وهى مهنة تعليم الصغار والصبية ، فمارس هذه المهنة فى المكاتب حتى نهاية القرن السادس الهجرى ، واختص بتعليم أبناء أحد الوزراء سنة

٦٠٠هـ/١٢٠٣م ، وبعد ذلك انتقل إلى مهنة الوراقة وتصنيف الكتب ، مترفعاً عن التعليم وأنف منه ولزم داره ، وطلب مشايخ الأدب فقرأ عليهم ، وتعلم منهم ونظم الشعر ، فمدح الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين ، وارتفعت منزلته عنده، حتى ولاه نقابة الفتيان فى حضرته سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م وغدا نقيب الحضرة السلطانية فى الفتوة .

وكان أن تابع ابن أبى طىّ عمله الجديد فى التأليف والتصنيف ، فصنف كتباً فى التاريخ وتفسير القرآن الكريم والآداب والفقه والأصول ، وهكذا انتقل إلى عمل مفضل ، ظل يمارسه بقية حياته ، واتخذ من ذلك مصدراً لرزقه وعيشه ، إذ فتح له هذا العمل الأبواب الفكرية والمعرفية على مصراعيها عاملاً بمهنة الوراقة ، ونسخ الكتب . ويبدو أن هذا العمل حقق له كسباً كبيراً ، جعل ياقوت الحموى الأديب المعروف المعاصر له يحسده ويغمز عليه فقال عنه أنه : « كان يدعى العلم بالأدب والفقه والأصول على مذهب الإمامية ، وجعلْ التأليف حانوته ، ومنه قوته ومكسبه ولكنه كان يقطع الطريق على تصانيف الناس ، يأخذ الكتاب الذى اتعب جامعه خاطره فيه فينسخه كما هو ، إلا أنه يقدم فيه ويؤخر ، ويزيد وينقص ويختار له اسماً غريباً ، ويكتبه كتابة فائقيه لمن يشبه عليه ، ورزق من ذلك حظاً » . وربما أراد ياقوت أن يتهم ابن أبى طىّ ، فذكر أن عدداً من الكتب التى تعزى إليه ليست سوى مستنسخات تصرف بها ابن أبى طى على هواه . ومعلوم أن ابن أبى طى معاصر لياقوت ولا شك فى أن كلا منهما كان يحمل فى نفسه شيئاً للآخر. وقد يكون كلام ياقوت الحموى عن ابن أبى طىّ نوعاً من الغمز ، والطعن بأديب معاصر له ، مختلف معه فى المذاهب والمشارب والاتجاهات ، وجمعتهما حلب الشهباء التى كثيراً ما عرفت أمثال هذه المنافسات والمشاحنات بين العلماء منذ ايام سيف الدولة الحمدانى .

ومهما يكن الأمر ، فهذه المنافسات بين العلماء كثيرة الحدوث . غير أن موقف ياقوت من ابن أبى طىّ لا ينكر وسيظل كل من يريد التعرف على ابن أبى طىّ يعترف بموقف ياقوت منه وما قدمه من معلومات عنه . ومع ذلك فإن ياقوت ترجم له بوصفه من الأدباء المرموقين وذكره بين الأحياء الذين عاصروه فى حلب. وجاءت ترجمته من المصادر المهمة والمفيدة للكثيرين ممن أرخ لابن أبى طىّ وترجم سيرته بعد ياقوت : وقد تكون هذه المعلومات على الرغم مما جاء بها من طعن وغمز من افضل ما كتب عنه ، وساهمت فى التعريف به ، ولكن مما يؤسف له أشد الأسف أن ترجمة ابن أبى طى التى جاءت فى الجزء السابع من المخطوط ، لم تظهر فى النص المطبوع من معجم الأدباء ، ولعل ذلك فات على المحقق ، فزاد ذلك من سوء حظ هذا المؤرخ الذى عده بعض الباحثين من طبقة(١٩) ، المؤرخين الأول فى الإسلام . وهكذا خانه الحظ فلم يبق من إنتاجه التاريخى والأدبى والعلمى أى أثر ظاهر الآن وليس أمامنا عن هذا المؤرخ سوى مقتبسات مبعثرة فى كتب المؤرخين الذين أتوا بعده أو أخذوا عنه ، مع الإشارة إلى أن بعضهم لم يذكره عندما نقل رواياته ولا ندرى أكان ذلك متعمداً أم غير متعمد . وفى جميع الأحوال فقد زاد ذلك فى إغفاله ، حتى استمر فى طى النسيان .

والواقع إن مؤلفات ابن أبى طى كثيرة ، يعصب حصرها ، وتحديدها . وما قدمه ياقوت عنها ربما كان بعض مسودات لم تكتمل ، وأثبتها فى معجمه قبل أن يستكمل إعدادها كما قدمها له ابن أبى طى فيما أظن . ولهذا جاءت غير متفقة مع الكتب التى عرفها المؤرخون ونقلوا عنها ، والتى أتت على ذكرها المصادر التى أطلعنا عليها والتى تضم حوالى بضعة وثلاثين مؤلفاً ، منها مؤلفات عديدة فى علم القراءات والفقه ، والأدب ، والنحو ، والبلاغة ، والنبات ، والتراجم ، وجاء معظمها فى التاريخ . ويمكن أن نذكر من مؤلفاته وكتبه كما أوردتها بعض

المصادر والمراجع ، وإن جاءت مختلفة فى أسمائها وعددها . وبعد المقارنة تمكنا من إحصاء المؤلفات الآتية :

١ - معان الذهب فى تاريخ حلب ، وجاءت فى بعض المراجع . معادن الذهب فى تاريخ الملوك والخلفاء ، وذوى الرتب ، وكان فى عدة مجلدات .

٢ - كتاب شرح لامية العرب أو المنتخب فى شرح لامية العرب .

٣ - كتاب سلك النظام فى تاريخ الشام .

٤ - كنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين ، ومنه مقتطفات عديدة لدى أبى شامة (الروضتين) .

٥ - حوادث الزمان على حروف المعجم ، وأهم ما فيه أنه ألف على أساس أبجدى ، فهو موسوعة لمعارف التاريخ وكان فى خمس مجلدات .

٦ - أطباء الشعراء الشيعة .

٧ - طبقات العلماء ، وربما يكون هو الكتاب الذى ورد عند الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى « طبقات أو تاريخ الإمامية » .

٨ - عقود الجواهر فى سيرة الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبى صاحب حلب بين سنتى (٥٨٩- ٦١٣هـ/١١٩٣-١٢١٦م) . بينما يرد عند الأستاذ شاكر ما بين (٥٨١-٦١٣هـ / ١١٨٥-١٢١٦م) وهو فى تاريخ حلب نقل عنه ابن شداد فى الإعلاق الخطيرة (قسم حلب) صفحات هامة منها قطعة فى تفصيل ارتفاع (ضرائب) حلب فى مطلع القرن السابع الهجرى ٦٠٩هـ أخذها عن مستوفى حلب(٢٠) .

٩ - مختار تاريخ العرب، وهى التى وردت عند بعض الباحثين مختار تاريخ المغرب.

١٠ - مناقب الأئمة الأثنى عشر .

١١ - تاريخ مصر . ولعله اهتم فيه بالتاريخ الفاطمى واقتبس من ابن ميسر والمسبحى وغيرهم كالمقريزى .

١٢ - مختار تاريخ المغرب . وقد يكون له كتابات .

١٣ - تاريخ الشيعة ، ورد عند بعض الباحثين أسماء رواة الشيعة ومصنفيها ، وجاء عندمحسن الأمين كتاب الحاوى ذكر فيه رجال الشيعة وعلماءهم وفقهاءهم وشعراءهم وأئمتهم .

١٤ - تهذيب الاستيعاب فى معرفة الأصحاب (لابن عبد البر) جاءت عند الطباخ للقرطبى .

١٥ - كتاب الأول والعذب والزلال .

١٦ - بيان العالم .

١٧ - ذيل معادن الذهب فى تاريخ حلب أى أنه ذيل كتابه هذا فى التاريخ(٢١)، وتتمة له .

١٨ - سيرة ملوك حلب .

١٩ - البستان فى محاسن العلمان .

٢٠ - اشتقاق أسماء البلدان .

٢١ - مجموعة كتب حول الجاهلية والرسول ﷺ وأجداده فى ثلاث مجلدات يعطيها صاحب كشف الظنون عنوان السيرة(٢٢) .

٢٢ - له ديوان فى المدائح(٢٣) .

٢٣ - كتاب التنبيه على محاسن التشبيه .

٢٤ - وشرح نهج البلاغة فى ست مجلدات يقال أنه درسه على ابن الأغـر[٢٤] ، وعلى ابن شهر أشوب المازندرانى عالم الشيعة فى القـرن السـادس وخطيبهـم وناقل أدبهم المذهبى فى كتابه مناقب آل البيت[٢٥] .

٢٥ - ولمح القرآن فى تفسير القرآن .

٢٦ - البيان فى اسباب نزول القرآن .

٢٧ - غريب القرآن مختصر .

٢٨ - كتاب المجالس الأربعين فيه فضائل الأئمة الطاهرين .

٢٩ - خلاصة الخلاص فى آداب الخواص .

٣٠ - شفاه المعليل فى ذم الصاحب والخليل .

٣١ - كتب الحاوى ذكـر فيـه رجـال الشـيعة وعلمـاءهم وفقهـاءهـم وشـعراءهم أئمتهم المصنفين فى مذهبهم .

٣٢ - تراجم رجال الأدب والشعراء وهو مخطوط موجود فى القاهرة تيمورية رقم ١٤١٨ تاريخ وهوفى عداد كتبه المفقوده أيضاً ، ولم نجده تحت هذا الرقم.

ولا يمكننا أن نؤكد أن هذه المؤلفات جميعاً من نتاجه ، أو أن هذه هى كـل مؤلفاته ، فقد تأتى الأبحاث بأمور جديدة ، وقد تكشف السنون القادمة بعضاً مـن تراث هذا المؤرخ . أو ربما يكشـف البـاحثون عـن أسمـاء بعـض كتبـه لم تـرد فـى المصادر التى تم الإطلاع عليها . ولا ندعى أن مـا أتينـا عليـه ، وذكرنـاه ، فـاصل وقطعى. وإنما نعترف بأننا لم نتمكن من الوقوف على جميـع المصـادر التـى أخـذت عنه ، ولم نتعرف على كل النقولات منه ، وكل مـا نرجـوه هـو أن ندفـع بـالهمم ونحثها للبحث لاكتشاف الجديد والمفيد عن هذا المؤرخ .

وأما الذين أخذوا عن ابن أبى طىّ من المؤرخين فكثيرون ، وغالباً ما أغفل بعضهم التنويه عنه . و لم يوضحوا مقتبساتهم عنه . وإن فعلوا ذلك فقد أغفلوه من قائمة المصادر الأساسية . ومن هؤلاء أبـو شـامة فـى كتابـه « الروضتـين » فعلـى الرغم من كثرة مقتبساته عنه ، لم يذكره فى قائمة مصـادره التـى اشـار إليهـا فـى بداية كتابه ، مع أنه ذكر مصـادر أقـل مـن مصـادره إفـادة ، وبعـض المؤرخـين لم يشيروا لا من قريب ولا من بعيـد إلى الأخـذ عنـه أو الاعتمـاد عليـه . وكثيراً مـا كانت تـأتى الإشـارات بكتابـات لاحقـه . وعلـى الرغـم مـن ذلـك فقـد أوردت المصادر مجموعة من المؤرخين اعتمدوا على مؤلفاته وكتبه ، جاء بعضها على لسان أصحابها ، وبعضها فى مصادر أخرى .

ويمكن أن نذكر من المؤرخين الذين افادوا منها كلا منه :

١ - ابن العديم : كمال الدين عمر (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م) فـى كتبـه الكثيـرة وخاصة فى تاريخه « زبدة الحلب فى تاريخ حلب » الذى صنفه لحلـب علـى الحوادث ، وجاء بثلاثة مجلدات ثم « بغيـة الطلـب » . والـذى خطـه لحلـب ورجالاتها وترجم لمن نشأ أو مر أو ذكـر فـى تاريخهـا وجـاء فـى أكـثر مـن عشرة مجلدات ، وكلا الكتابين حققا ونشرا فى دمشق . ولابد مـن الإشـارة إلى كثرة ما نقل عن ابن ابى طى ، مثل القول : ذكر أو قال أو ورد عند ابـن أبى طى ... إلخ .

٢ - وكانت مؤلفاته فى المصادر المهمة التى اعتمد عليهـا الإمـام العلامـة ، شمـس الدين الذهبى (ت ٧٤٨هـ/١٢٤٧م) فى تاريخ الإسلام وطبقـات المشـاهير والأعلام أو دول الإسلام وغيرها من مؤلفات اسـتقت معلومـات كثـيرة مـن أخبار ابن أبى طىّ .

٣ - أما المؤرخ الكبير أبو شامة (٦٦٥هـ / ١٢٦٦م) فى كتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية « فاقتباساته كثيرة وواضحة ، وتعطينا فكرة بينة عن تراث هذا المؤرخ الواسع إطلاعه ، كما تقدم لنا الدليل الأكيد على إهمال المؤرخين له ونكران فضله ، و لم يضعوه فى المكان اللائق به ، والمناسب لجهده ومكانته .

٤ - وأخذ عنه ابن شداد (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) فى مؤلفاته . ومنها كتابه «الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة» ، ولا سيما ما اقتبسه منه عن مؤلفه عقود الجواهر فى سيرة الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبى ، وأخذ عنه ابن شداد التاريخ المتعلق بحلب فى مطلع القرن السابع الهجرى سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م . وابن أبى طى أخذها بدوره عن مستوفى حلب ، وهى صفحات مهمة منها قطعة فى تفصيل ارتفاع ضرائب حلب ، وهى قائمة مهمة تفيد كل باحث فى التاريخ الاقتصادى أو الاجتماعى ، هذا إضافة لما اقتبسه ابن شداد عنه فى كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » .

٥ - كذلك استفاد منه ابن عبد الظاهر فى كتاباته (ت ٦٩٢هـ) .

٦ - وابن ميسر (ت ٦٧٧هـ/١٢٧٨م) ومؤلفه « أخبار مصر » وهو من المؤلفات المهمة عن مصر الفاطمية بخاصة ، ويعد ما كتبه ابن ابى طى عن الفاطميين من المصادر المهمة كونه قريب الصلة بهم ، وكانت كتب ابن ميسر مصدر أساسياً لكل من النويرى والمقريزى وابن حجر العسقلانى ، وهؤلاء من مؤرخى القرن التاسع الهجرى ، واعتمدوا على ابن أبى طى بشكل مباشر أو غير مباشر .

٧ - أما المقريزى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) فيعد أفضل من كتب عن الدولة الفاطمية ، وخاصة فى كتابه « اتعاظ الحنفا » فقد أورد المقريزى فى كتاباته

روايات عديدة أخذها عن ابن أبى طى وكثيراً ما اشار إلى بعضها ، وأهمل الإشارة إليها فى بعض مقتبساته الأخرى فى كتبه الكثيرة كالسلوك ، والمواعظ والمقفى ، والاتعاظ .. إلخ .

٨ - ولابد أن نتذكر فى هذا الصدد مقتبسات ابن قاضى شهبه (ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م) فى كتابة الأعلام . عن ابن أبى طيّ ، فقد ذكر أنه أخذ عنه الكثير عندما أرخ لأعلام الشيعة . كما وردت مقتبساته فى كتاباته عن « طبقات الشافعية » والكواكب الدرية فى السيرة النورية .

٩ - ويظهر أن كتب ابن أبى طى استمرت إلى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى أو بعض منها حين استخدمها ابن الفرات (ت٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) واستفاد منها ناقلاً معلومات كثيرة عنها .

لكن من المؤسف أنه لم يبق لهذا المؤرخ الآن فيما هو معروف من المخطوطات إلا كتاب فى التراجم الأدبية والشعرية يحتاج نسبته إليه إلى أمور كثيرة ، وتحقيق مضن ، وقد أورد الأستاذ المرحوم شاكر مصطفى أن هذه التراجم مخطوطة فى المكتبة التيمورية بالقاهرة رقم ١٤١٨ تاريخ . وقد حاولت كثيراً الحصول عليها ، فلم أتمكن من ذلك ، ولا شك أن هذا المخطوط مفقود كغيره من كتب مؤرخنا العديدة .

٤ - أسلوب كتاباته :

يعبر معظم ما كتبه ابن ابى طى وذكره عن وجهات نظر أصلية ، وفيها مكان واسع للمجادلات الدينية والأثرية ، ورفض للعجائب ، بأسلوب سلس ومقبول ، ابتعد فيه عن أسلوب العماد الأصفهانى الذى طغت عليه فنون اللغة من سجع وطباق وغير ذلك من فنون الكتابة التىيكثر فيها الوصف ويمل الناظر

فيها ويصاب بالذهول والتعب قبل التأكد من معرفة الأحداث والوقائع التاريخية(٢٦) .

ولابن أبى طيّ موقف خاص من الأيوبيين ، يستند على أن ابن صلاح الدين، الظاهر غازى لم يكن متعصباً للسنة كثيراً ، ولم يكن هو الذى أخرج والد مؤرخنا ابن أبى طيّ من حلب ؛ فقد أخرج فى عهد نور الدين محمود كما أسلفنا، وكما يتضح من مقارنة الأخبار(٢٧) ، والروايات المتعلقة بهذا الموضوع . ولهذا نراه فى كتاباته عن صلاح الدين وغيره من الأيوبيين يأتى بأخبار مفصلة ودقيقة ، ويتحرى فيها الابتعاد عن المشاعر والعواطف التى كانت تلون الكتابات التاريخية ، وتؤثر فيها وتجعل النزعة المذهبية مسيطرة عند بعض المؤرخين . وضمن توجهه هذا نراه يؤرخ لصلاح الدين ويكتب سيرته ، ويقربه الابن الظاهر غازى فيمدحه بقصائد شعرية ، وغدا نقيب الفتيان فى حلب ، وربما ساهم ابن أبى طيّ وغيره فى تضخيم الخلاف بين صلاح الدين وسيده نور الدين .

ويجب أن ندرك أنه لا يمكننا أن نحكم على هذا المؤلف إلا من خلال ما اقتبس عنه مما أشارت إليه المصادر صراحة ، مع العلم بان هذه المقتبسات العديدة قد يكون مقتبسوها قد حوروا فيها ، أو غيروا أسلوبها ، أو بدلوا من عباراتها ، وصبغوها بأساليبهم الخاصة . وربما تصرفوا بهذه النقولات . ولم يكتبوها حرفياً حتى غدت هذه المقتبسات لا تمثله بقدر ما تمثل الذى صاغها . غيرأنه إذا جاز لنا أن نحكم على هذا المؤرخ من خلال ما وصلنا عنه من هذه النقولات والمقتبسات ، وما سمحت به الظروف المتعلقة بها ، فإنه يمكننا أن نقول : أن كتابه « معادن الذهب فى تاريخ حلب » قد يكون كتاباً عاماً فى التاريخ ، إلا أنه اهتم فيه بتاريخ حلب أساسًا ، وما كتبه عنها يمكن اعتباره مصدراً مهماً ومباشراً ، لا سيما فى حياته . وعندما نقول أن معظم كتاباته قد فقدت أوجهلت فإن علينا أن نذكر أنه

كثيراً ما اعتمد على المصادر الشفهية . فروى عن والده ، كما كان يعتمد على الوثائق ومنها رسائل القاضى الفاضل . ومعظم كتبه لا تخرج عن هذا السياق. ويمكننا الاطمئنان إلى أن كتاباته عن صلاح الدين وابنه الظاهر غازى فى كتابه « عقود الجواهر فى سيرة الملك الظاهر » قد كتب أحداثها معاينة ومعاصرة .

أما أسلوب ابن أبى طىّ فلا يخرج كثيرًا عن أسلوب معاصريه ، ويقترب من أسلوب المؤرخ الكبير ابن الأثير وهو معاصره ، وتوفيا فى سنة واحدة . فكتاباته تتسم بالإيجاز ، والسرد البسيط ، الذى يبتعد فيه عن الأسلوب الأدبى لعصره ، فهو يحاول تجنب الزخرفة والصنعة ، والتكلف والألفاظ البديعة والمنمقة ، وغير ذلك من أساليب الصنعة ، ويحاول أن يختار الألفاظ المقبولة السهلة الوقع على السامع والتى تحافظ على الخبر وتظهره .

كذلك يلاحظ عليه أنه كان أحياناً يسرد دقائق الأمور ، ويغوص فى التفاصيل إيضاحاً أو جواباً . وهذا ما يجعلنا نقول : إنه كان يقدم الأحداث الجزئية للاقتراب من الحقائق . وهذا الأمر يدل على سعة إطلاعه وبعد نظره ورؤيته التاريخية الواضحة فى رواياته .

والآن وبعد ما تقدم فإننا نضع بين أيدى القراء بعض الإشكالات المثارة حول هذا الموضوع ، آمل أن تتضافر الجهود للوصول إلى مقترحات محددة ومفيدة حيالها . ونضع لمن يعمل على هذا الطريق الحلول والتصورات المناسبة والرؤية الواضحة المفيدة . علنا نساعد كل من يبحث فى هذا التراث المفقود ليجد ضالته المنشودة الصعبة المنال .

الهوامش

(١) السيوطى : طبقات المفسرين ص ٢١ ، حسن المحاضرة جـ١ ص ٢٣٥ ، ياقوت : معجم الأدباء جـ١ ص ٢٣٢ ، ابن أيبك الصفدى : نكت الهميان فى نكت العميان ص ١٠٦.

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ١٥٥ ، المقريزى : السلوك جـ١ ص ٥٥٦ .

(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٧٧ ، الذهبى : العبر جـ٥ ص ١٧٨ ، طبقات الشافعية جـ٤ ص ٢٦١ للسبكى ، النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ١ص٣١٦ - ٣٢٢ ، ابن العماد : شذرات جـ٥ ص ٢٢٢ .

(٤) القفطى : أبناء الرواة جـ٢ ص ٢٤١ / ٢٤٢ ، الذهبى : سير اعلام النبلاء ، جـ٢ ص٤٦٧ ، السبكى : طبقات جـ٥ ص ١٥٤ ، المقريزى : السلوك ص٨١ ، طبقات الشافعية: جـ٧ ص ١٤ ، السيوطى : بغية الوعاء جـ٢ ص ١٥٥ ، النعيمى : الدارس جـ١ ص ٢٠٣ .

(٥) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان جـ٢ ص ٥١٩ - ٥٢٢ ، العماد : شذرات جـ٤ ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص ٣٤١ .

(٧) أبو المحاسن : النجوم جـ٧ ص ٢٩٩ .

(٨) ورد أبو الفضل : انظر عمر رضا كحاله ، معجم المؤلفين جـ١٣/١٤ ، ص١٩٥ « بيروت دار إحياء التراث العربى » ، شاكر مصطفى : المؤرخون جـ٢ ص ٢٥٢ ، البغدادى : هدية العرافين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين : المجلد الثانى ص ٥٢٤ (طهران ط٣ ١٣٨٧هـ / ١٩٤٧م) .

(٩) قيل ابن حميده : وهى أمه ، انظر شاكر مصطفى : المرجع السابق ص ٢٥٢ ، قيل أن اسم أمه فضائل بنت صفيد وهى ابنة قاضى صور : كما جاء عند كلود كاهن Le Syrie du Nord P. 55/56/57 .

(١٠) الطائى : نسبة إلى اسمه ابن أبى طى وليس كونه من قبيلة طى .

(١١) يذكر عمر رضا كحاله : أنه بخارى ص ١٤٥ ، المرجع السابق . لكن ليس بخارى أنما نجارى لأنه ورث مهنة التجاره عن والده .

(١٢) لا تعرف سنة وفاته ولعلها ما بين ٦٢٥ أو ٦٢٧- ٦٣٠هـ ، شاكر مصطفى : المرجع السابق ص ٢٥٢ .

(١٣) ابن العديم : بغية الطلب ورقة ١٦٣، ١٧٣ ، والغزى : نهر الذهب جـ١ ص ١٢٥ ، زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية ص ١٤٤ ، بيروت ١٩٩٢ .

(١٤) انظر ذلك فى ترجمة ابن العديم فى معجم الأدباء لياقوت الحموى : حيث يورد أن أحد أجداد ابن أبى جراده كان شيعياً .

(١٥) شاكر مصطفى : المورخون جـ٢ ص ٢٥٢ ، محسن الأمين : أعيان الشيعة جـ١ ص ٢٨٦ ، « تحقيق حسن الأمين ، بيروت ١٩٨٣ » .

(١٦) ورد اسمها كما أشرنا فضائل بنت صفيد وهى ابنة قاضى صور انظر كلود كاهن Le Syrie du Nord P. 55/56/57 . وشاكر مصطفى : المرجع السابق، جـ٢ ص٢٥٢.

(١٧) ابن حجر العسقلانى : لسان الميزان جـ٦ ص ٢٦٣ / ٢٦٤ ط بيروت ١٩٧١م .

(١٨) ياقوت : معجم البلدان جـ١ ص ٧٩ (مادة أثارب) ومعجم الأدباء ص ١٤٢ . ابن العديم : بغية الطلب جـ٤ ص ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٢ ، جـ ، ص ٢٩٢٦ ، ٢٩٢٧، دمشق ١٩٧٩م .

(١٩) ابن العديم : بغية الطلب جـ٤ ص ١٨٧٥ ، ١٨٨٤ .

(٢٠) شاكر مصطفى : المرجع السابق والصفحة .

(٢١) انظر : ابن شداد : الأعلاق قسم حلب ص ١٥٠ ، ١٥٣ .

(٢٢) انظر : كل من شاكر مصطفى جـ٢ ص ٢٥٣ - ومحسن الأمين جـ١ ص ٢٧٦ .

(٢٣) شاكر مصطفى : المورخون جـ٢ ص ٢٥٤ ، حاجى خليفة : كشف الظنون جـ١ ص ٥٨٢ .

(٢٤) محسن الأمين : أعيان الشيعة جـ١٠ ص ٢٨٦ .

(٢٥) عمر رضا كحالة : معجم المولفين جـ١٣ ، ١٤ ، ص ١٩٥ .

(٢٦) مصطفى جواد : مجلة الكتاب ص ٤٧٧ ، مصر دار المعارف للطباعة والنشر العدد ٦ لعام ١٩٤٨ .

(٢٦) أبو شامة : الروضتين جـ١ ص ٤ ، ٥ .

(٢٧) انظر فيما سبق من هذا البحث ، كلود كاهن : المرجع السابق والصفحات .

المصادر والمراجع

- **ابن الأثير** : الكامل فى التاريخ ، القاهرة ١٣٠١هـ .
- **أحمد أحمد بدوى** : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ١٩٧٢ .
- **البغدادى** : هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين جـ٢ استانبول سنة١٩٥٥ و جـ٣ طهرن ١٩٤٧م (١٣٨٧هـ) .
- **ابن حجر العسقلانى** : لسان الميزان جـ٦ ، ط٢ بيروت ١٩٧١ .
- **حاجى خليفة** : كشف الظنون (الاستانه ١٩٤١م) .
- **حسن إبراهيم حسن** : تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر والشام وبلاد العرب ، القاهرة ١٩٥٨م .
- **خليل بن ايبك الصفدى** : نكت الهميان فى نكت العميان (مصر ١٩١١م) .
- **ابن خلكان** : وفيات الأعيان جـ٢ ، بيروت ١٩٨٨ .
- **ابن خلدون** : العبر وديوان المبتدأ والخبر .
- **الذهبى** : تاريخ الإسلام (بيروت ١٩٨٨م) .
- **الزركلى** : الإعلام جـ٨ « بيروت دار العلم للملايين » .
- **السبكى** : طبقات الشافعية جـ٤ (ط ١٣٢٤هـ) .
- **السيوطى** : طبقات المفسرين (ليدن ١٨٣٨م) - حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (ط مصر ١٣٢١هـ) .
- **سرور جمال الدين** : الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٩٥) .
- **ابن الشحنة** : تاريخ مملكة حلب (بيروت ١٩٠٩) .
- **أبو شامه** : الروضتين فى أخبار الدولتين (طبع مصر ١٢٨٠هـ) .

- **شاكر مصطفى** : التاريخ العربى والمؤرخين جـ٢ الكويت .

- **ابن شداد** : الإعلاق الخطيرة - قسم حلب (دمشق ١٩٩١م) .

- **عمر رضا كحاله** : معجم المؤلفين جـ١٣ ، جـ١٤ دار أحياء التراث العربى «ونسخة دمشق ١٩٦١م » .

- **ابن العديم** : زبده الحلب فى تاريخ حلب (دمشق ١٩٥٤م) بغية الطلب فى أخبار حلب جـ٤ و جـ٦ ، دمشق ١٩٧٩ .

- **محمد راغب الطباخ** : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء جـ٤ « حلب دار القلم العربى » طبعة ١ ، ١٩٢٣ وطبعة ٢ ، ١٩٨٩ .

- **محسن الأمين** : أعيان الشيعة جـ١٠ ، بيروت ١٩٨٣ .

- **مصطفى جواد** : « مجلة الكتاب » مصر العدد ٦ لسنة ١٩٤٨م .

- **الغزى** : نهر الذهب فى تاريخ حلب « المطبعة المارونية » .

- **الشيخ اقابزرك الطهرانى** : الذريعة إلى تصانيف الشيعة جـ١ وجـ٣ ، بيروت ١٩٨٣ .

- **المقريزى** : الخطط جـ١ ، ١٣٢٥هـ - وكتاب السلوك جـ١ وجـ٣ طبع القاهرة ١٩٣٩م .

- **ابن قاضى شهبه** : الكواكب الدرية فى السيرة النورية - والإعلام .

- **القفطى** : تاريخ الحكماء « طبعة ليبسك ١٩٠٣م وطبعة القاهرة ١٣٢٦هـ .

- **كرد على** : خطط الشام جـ٢ ، جـ٤ (دمشق ١٩٣٨م) ,طبعة ١٩٢٥م .

- **ابن كثير** : البداية والنهاية جـ١٢ ، مصر السعادة .

- **ياقوت الحموى** : معجم البلدان (١٣٢٣هـ) معجم الأدباء (١٩٣٦م) .

موقف مصر من قضية التعويضات الألمانية لإسرائيل

فى ضوء وثائق الخارجية المصرية

د. عبد الحميد عبد الجليل شلبى(*)

تعددت مصادر تاريخ العرب منذ فجر التاريخ حتى الآن من نقوش وآثار وكتابات وكانت الوثائق بطبيعة الحال مصدر من مصادر تاريخ العرب ومعرفة أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وحينما دونت الوثائق لم يكن يدر بخلد كاتبيها أنها ستكون مرجعا تاريخيا ، بل كانت تدون لحفظ الحقوق ولتنظيم العلاقات سواء على مستوى الدول (كمعاهدات واتفاقيات) أو على مستوى الأفراد (كوثائق البيوع والوثائق الشرعية وغيرها) ووثائق وزارة الخارجية المصرية(*) تعد من أهم مصادر تاريخ العرب الحديث والمعاصر نظر لأنها أقدم زمنيا من غيرها فى الدول العربية الأخرى.

ولأهمية هذه الوثائق التاريخية قسمت هذه الدراسة قسمين :

(أ) قسم نظرى .   (ب) قسم تطبيقى .

أولاً : القسم النظرى :

(أ) كيفية تصنيف هذه الوثائق فى دار الوثائق القومية :

تعد وثائق الخارجية المصرية من الوثائق البكر التى تم السماح للباحثين بالاطلاع عليها منذ فترة ليست بالبعيدة ، وتحفظ معظم هذه الوثائق بدار الوثائق القومية(*) بالقاهرة وهناك مجموعة أخرى محفوظة بقصر عابدين ، وتتناول وثائق الخارجية المصرية كافة المسائل التى تتعلق بالشئون السياسية (داخلية وخارجية)، ، والاقتصادية ، والاجتماعية و لم ترصد هذه الوثائق كل ما يتعلق بمصر فحسب بل أنها ترصد ما يتعلق بالدول العربية والدول الأجنبية - أحياناً .

(*) جامعة الأزهر .

ويوجد فى دار الوثائق - فيما يخص وثائق الخارجية - ما يقرب من خمسة فهارس هى :

١ - الأرشيف السرى القديم « جزءان » .

٢ - الأرشيف السرى الجديد « جزءان » .

٣ - أرشيف الإدارة الاقتصادية .

٤ - أرشيف الإدارة الأوربية .

٥ - الأرشيف العادى .

وقد تم الانتهاء من فهرسة الأرشيفين الأول والثانى ، ويجرى العمل فى الأرشيفات الثلاثة الباقية .

أما الأرشيف السرى القديم فيحتوى على ما يقرب من (٩٢٣) محفظة ، بكل محفظة عدد من الملفات المختلفة التى قد يصل بعضها إلى ثلاثين (٣٠) ملف وبحصر ملفات هذا الأرشيف ، نجد أنه يهتم بالأمور القنصلية والاجتماعية والصحية والاقتصادية ، وجاءت غالبية الوثائق بهذا الأرشيف مكتوبة باللغة الفرنسية باستثناء بعض الوثائق التى كتبت باللغة العربية .

أما الأرشيف السرى الجديد ، ففيه ما يقرب من ألف وستمائة وسبع عشرة محفظة (١٦١٧) تصل الملفات فى بعضها إلى (١٧) ملف .

وتتناول معظم الوثائق الخاصة بهذا الأرشيف الأمور السياسية ، بالإضافة إلى الأمور التجارية . ويتناول هذا الأرشيف الفترة من العشرينات حتى بداية الستينات من هذا القرن .

وجدير بالذكر ، أن الأرشيف السرى الجديد به مادة غزيرة جدًا لفترة الخمسينات ، حيث الأحداث السياسية الهامة التى أعقبت الثورة المصرية عام ١٩٥٢ م . واللغة السائدة فى كتابة هذا الأرشيف هى اللغة العربية ، اللهم بعض

الوثائق الخاصة بفترة العشرينات والثلاثينات والتى كتب بعضها باللغة الفرنسية ، ويعود السبب فى كتابة بعض هذه الوثائق باللغة الفرنسية إلى أنها فرضت كلغة أساسية للعمل الدبلوماسي .

وبالإضافة إلى الأرشيفات الخمسة - المذكورة آنفا - هناك بعض الأرشيفات الخاصة بدول معينة ، فهناك على سبيل المثال ثلاث محافظ خاصة بالمراسلات الواردة من السفارة المصرية بجدة والرد عليها ، وهى تغطى الفترة من ١٩٣٨ حتى ١٩٥٩ م وكلها تقارير سياسية ، اللهم بعض الملفات التى تتناول بعض الأمور الاقتصادية وأمور الحج . هذا بإيجاز عرض لكيفية تصنيف هذه الوثائق وكيفية فهرستها ، وهنا يبرز سؤال وهو : هل من الممكن تزييف تلك الوثائق ؟

الإجابة فى رأيى لا ، حيث تعد هذه الوثائق من الوثائق الرسمية ولا يعتد بها إلا إذا كانت ممهورة بخاتم الوزارة أو خاتم السفارة ، مع توقيع الراسل عليها ، فضلا عن أن هذه الوثائق ترسل عادة بالحقيبة الدبلوماسية حسب درجة الأهمية أو السرية .

وهناك أمر آخر وهو أنه حينما كان يتم الرد على الوثائق الصادرة والواردة من وإلى الوزارة كان يرمز إليها برقمها وملخصها فإذا ما دست برقية على السفارة أو على الوزارة كان من اليسير اكتشافها ، خاصة وأن هناك بعض الرموز الاصطلاحية المتفق عليها بين الوزارة والبعثات الدبلوماسية فى الخارج ، وإذا زيفت وثيقة خاصة بالسفارة أو الوزارة كان يمكن اكتشافها من ألفاظها أو من الخاتم الذى تختم به .

وهناك بعض الأمثلة على ذلك حيث دست بعض المستندات على السفارة المصرية فى بيروت ووصلت المستندات المزيفة إلى السفارة السعودية فى بيروت على أنها صورة طبق الأصل لتقارير صادرة من السفارة المصرية ولكن تم الكشف عن هذه الوثائق من خلال الصياغة التى صيغت بها ، حيث أستعمل المزورون

ألفاظا ، وتعابير سورية ، أو لبنانية ، مما لا يستخدم فى الصياغـة المصريـة(*) ومـن هنـا كان الجواب على سـؤال عما إذا كان من الممكن تزييـف الوثائق المصريـة أم لا ؟ ، بالنفى .

(ب) كيفية الاطلاع على هذه الوثائق :

هناك العديد من الإجراءات التى على البـاحث أن يتبعهـا حتـى يتسنى لـه الاطلاع على وثائق الخارجية المصرية ، وتكون هذه الإجراءات على النحو التالى:

١ - خطاب موجه مـن الجهـة المسـجل بهـا موضـوع البحـث إلى مدير عـام دار الوثائق القومية ، يحدد فيه الموضوع والفترة الزمنية .

٢ - يملأ الباحث الاستمارات اللازمة لاستخراج التصريح .

٣ - ضرورة الحصول على موافقة الأمن بدار الوثائق وتستغرق هذه الموافقة ما بين ١٥ - ٤٥ يوما .

٤ - خطاب موجه من الجهة المسجل بها موضوع البحث إلى السيد السفير مديـر إدارة المعلومات بوزارة الخارجية المصرية، يحدد فيه الموضوع والفترة الزمنية.

٥ - تستغرق هذه الموافقة عدة أشهر تتراوح ما بين شـهر إلى ستة أشـهر حسـب أهمية الموضوع .

٦ - بعد موافقة الأمن بدار الوثائق يتم استخراج تصريـح بـالاطلاع علـى الوثـائق يدون فيه رقم التصريح ورقم الموافقة ، وجميع البيانـات الشـخصية للبـاحـث ، وموضوع البحث .

٧ - لا يحق للباحث الاطـلاع على الوثـائق إلا بعـد الحصـول علـى موافقـة إدارة المعلومات بوزارة الخارجية .

٨ - غير مسموح بتصوير هذه الوثـائق لأنهـا تعـد مـن الوثـائق السـيادية ولا يتـم التصوير منها إلا إذا وافقت الجهات المعنية بوزارة الخارجية .

٩ - هناك مدة اعتبارية للتصريح الذى يحصل عليه الباحث وهى خمسة أعوام وأحيانا يتم التجاوز عنها لحين الانتهاء من البحث .

١٠ - تسرى هذه الإجراءات على المصريين والعرب والأجانب بدون استثناء .

(جـ) أهمية وثائق الخارجية المصرية :

قبل استعراض أهمية هذه الوثائق ينبغى أن نحدد أهميتها وخصائصها . والواقع إن هذه الوثائق عبارة عن تقارير يومية ترسل من الهيئات الدبلوماسية المصرية (سفارات - مفوضيات - قنصليات) فى الخارج إلى الوزارة والعكس ، وهى تتناول الأحداث الجارية - زمن كتابة الوثيقة - ويستعرض فيها السفير أو الوزارة الآراء المختلفة فى موضوع ما ، وأحيانا يرفق بالمراسلات التى يبعث بها السفراء بعض التقارير التى يكتبها المستشارون والملاحق بناء على تكليف من السفير أو القنصل أو الوزير المفوض . وتكون هذه التقارير ، فى معظم الأحيان مستخلصات للقاءات تمت بين المستشار أو الملحق مع بعض المسئولين فى بلد ما ، بالإضافة إلى مستخلصات لأهم ما تناقلته الصحافة ووكالات الأنباء فى ذلك البلد. وهذه الوثائق ليست خاصة بالمراسلات بين الوزارة والهيئات الدبلوماسية فحسب ، بل تضم أيضا محاضر الجامعة العربية والمراسلات التى تبودلت بين الحكومة المصرية وغيرها من الحكومات العربية والأجنبية ، بالإضافة إلى نصوص بعض المعاهدات والاتفاقيات (تجارية - اقتصادية - زراعية - سياسية ... الخ) وربما يوجد فيها بعض المذكرات لكبار الشخصيات كمذكرات الملك فاروق ملك مصر ، وكانت تنشر فى بعض الصحف الأجنبية .

أما أهميةهذه الوثائق فلا يمكن الحكم عليها إلا بقراءة بعض النماذج ومنها:

١ - وثائق تبرز التضامن العربى :

فمن الوثائق الهامة التى تبرز التضامن العربى والوحدة العربية تلك المراسلات التى تبودلت قبيل عقد اللجنة التحضيرية لتكوين الجامعة العربية ، والتى انعقدت

فيما بين يوليو / تموز - أغسطس / آب ١٩٤٤ م بين مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر والزعماء العرب ، من أجل تكوين الجامعة العربية وبرز خلال تلك المراسلات حرص العرب على ضرورة إيجاد ممثل لفلسطين فى هذه الاجتماعات ، ومدى تضافر الجهود العربية للحفاظ على عروبة فلسطين ، وتتجلى هذه المراسلات وهذه الروح من خلال الرسالة التى بعث بها الملك عبد الله بن الحسين إلى رئيس الوزراء النحاس باشا بتاريخ ٢٥ شعبان ١٣٦٣ هـ الموافق ١٤ أغسطس / آب ١٩٤٤ م مبينا له أهمية تمثيل الفلسطينيين فى هذه اللجنة، وموضحا خطر الصهيونية ليس على فلسطين وحدها بل على ما وراءها من بلاد عربية أيضا ، وفى مقدمتها الأردن . وفى نهاية الرسالة اقترح الملك عبد الله بعض الأسماء الفلسطينية لتمثل الجانب الفلسطينى فى اللجنة التحضيرية(*) وهناك أيضا الرسالة التى تلقاها النحاس باشا من السيد رياض الصلح رئيس وزراء لبنان معربا عن موافقته على الاشتراك فى اللجنة التحضيرية ، وكذلك عن أمله فى أن يكون هناك ممثلون لفلسطين فى تلك الاجتماعات . وفى نهاية الرسالة أعرب له عن أن غياب فلسطين عن الاجتماعات لن يزيد ممثلى شقيقاتها إلا عطفا على قضيتها وتمسكا بحقوقها (**).

٢ - وثائق تبرز سياسة مصر تجاه بعض القضايا العربية :

من الأمور الهامة التى تناولتها الوثائق المصرية على المستوى السياسى المصرى واتجاهات وزارة الخارجية تجاه القضايا العربية ، ذلك الاجتماع الذى عقد تحت اسم « المؤتمر الدبلوماسى العربى » بتاريخ ٤ فبراير / شباط ١٩٥٠ م ، وهو خاص بوزارة الخارجية المصرية ، حيث حضره وزير الخارجية والسفراء المصريون فى الدول العربية وفى نهاية المؤتمر تم إصدار عدة قرارات سرية للغاية ، ومن أهم - وأخطر - تلك القرارات ما كان يتصل بموقف مصر وسياستها تجاه موضوع

(*) انظر الملحق رقم (١) .

(**) انظر الملحق رقم (٢)

اتحاد سوريا والعراق (مشروع الهلال الخصيب) حيث صدر عن المؤتمر عدة قرارات فى هذا الشأن منها :

١ - يكون الموقف الرسمى للحكومة المصرية هو الحياد المطلق بين جميع التيارات الموجودة داخل سوريا .

٢ - معارضة الاتحاد بين البلدين بطريق مفتعل .

٣ - تشجيع مظاهر التقارب بين مصر وسوريا .. إلخ(*) .

أى أن القرارات طالبت بأن تكون سياسة مصر فى هذا الموضوع ذات شقين ، شق ظاهرى وهو الحياد المطلق بين جميع التيارات السياسية السورية سواء التى تدعو للوحدة مع العراق أو التى تدعو للوحدة مع مصر ، وشق آخر سرى وهو عرقلة هذا المشروع ومعارضته بصور مفتعله مع تشجيع مظاهر التقارب بين مصر وسوريا حتى يتم فشل المشروع .

٣ - وثائق تبرز تعاون مصر مع جامعة الدول العربية :

وهناك وثائق تظهر مدى التعاون بين مصر وجامعة الدول العربية فيما يختص بالشئون الدولية والعربية ومن ذلك ، تلك المذكرة التى بعثت بها الإدارة السياسية بجامعة الدول العربية إلى وزارة الخارجية المصرية تحيطها علما بطلب إمامة عمان الداخلية الانضمام إلى الجامعة ١٩٥٤ م ، وتطلب من وزارة الخارجية المصرية تزويدها بما تستطيع من بيانات أو دراسات أو وثائق خاصة بشئون إمامة عمان ووضعها السياسى(**)

(*) انظر وثائق الخارجية المصرية . محفظة ١٤٠١ ملف ٤ / ١٩٨ / ١ سرى جدًا " المؤتمر الدبلوماسى العربى ٤ فبراير ١٩٥٠ م "

(**) انظر الملحق (٣) .

٤ - وثائق تبرز التأييد الشعبى للقضايا العربية :

ومن الوثائق التى تبرز التضامن العربى على المستوى الشعبى ما جاء إبان أزمة السويس من برقيات تندد بالاستعمار والمستعمرين ، وتؤيد الموقف المصرى . ومن هذه الوثائق البرقية التى أرسلها أحد خطباء المساجد فى سوريا إلى الرئيس جمال عبد الناصر مؤيدا له ولسياسته،وينقل إليه عاطفته وعاطفة الشباب السورى تجاه مصر ورئيسها وقضيتها.

٥ - وثائق تصحح بعض الأخبار المغلوطة :

وكما توجد وثائق هامة تبرز لنا التعاون العربى والسياسة العربية وبعض المواقف الشعبية ، فهناك وثائق أخرى على درجة كبيرة من الأهمية ومهمتها تصحيح بعض الأخبار المغلوطة ، ومنها - على سبيل المثال - ما ذكرته إحدى الدوريات الأجنبية Middle East Journalفى عددها شتاء عام ١٩٥٧ م العدد (١١) رقم (١) بتاريخ ٢٢ ديسمبر / كانون أول ص ٧٦ ، بأن وزير خارجية ألمانيا الغربية صرح بأنه «يستعجل حكومته لوقف دفع التعويضات لإسرائيل ودفعها لمصر بدلا منها » فالباحث فى موقف حكومة ألمانيا الغربية من أزمة السويس عام ١٩٥٦ م حينما يعتمد على هذه الدورية سوف يورد هذا الخبر على أنه حقيقة مسلم بها ، ولكن بالرجوع إلى وثائق الخارجية المصرية ، نجد أن الخارجية المصرية قد تعجبت حينئذ من هذا الخبر لأنه يخالف الواقع ويتنافى مع ما كان يذكره وزير خارجية ألمانيا الغربية من أن بلاده سوف تستمر فى دفع التعويضات لإسرائيل بدون النظر إلى النزاع العربى / الإسرائيلى ، فأرسلت الخارجية بدورها إلى المستشار الصحفى بالسفارة المصرية فى واشنطن - حيث تصدر المجلة - تستعلم منه عن صحة هذا الخبر ، فأرسل الأخير بدوره إلى رئيس تحرير المجلة الذى أفاد « بأن خطأ مطبعيا قد وقع فى كتابة الخبر ، وأن التصريح المشار إليه صدر عن وزير خارجية ألمانيا الشرقية وليس الغربية كما ورد خطأ فى المجلة »(*)

(*) انظر وثائق الخارجية المصرية - محفظة ٣٩٥ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ جـ٨ وثيقتان بتاريخ ١٩٥٧/٥/٢١ م ، ١٩٥٧/٦/١١ م من وكيل الخارجية إلى المستشار الصحفى لسفارة مصر بواشنطن والرد عليها برقم ١١٥ .

وكان الأمر يستلزم نشر تكذيب أو تصحيح للخبر فى العدد التالى أو فى الأعداد التالية فى نفس المكان كما تنص الأعراف ، إلا أن شيئا من ذلك لم يحدث وظل الأمر كما هو بصورته المغلوطة ولكن الوثائق على هذا النحو قد صححت خطأ لم تصححه المجلة التى أوردت الخبر المكذوب .

٦ - وثائق تبرز مساعدات مصر لبعض الدول على المستوى الفردى :

تكتظ وثائق الخارجية المصرية بالعديد من الوثائق التى توضح المساعدات المصرية لبعض الأقطار العربية الشقيقة ، وعلى سبيل المثال تلك البرقية التى وردت إلى الإدارة العربية بوزارة الخارجية من السفارة المصرية بالرباط بشأن الوضع السياسى فى المغرب وكيفية مساعدة مصر والدول العربية لهذا البلد الشقيق . وأهم ما ذكره التقرير فى هذا الشأن هو ضرورة طرد الكادر الفنى الفرنسى الذى تستعين به الحكومة المغربية وإحلال العرب من الفنيين محله وضرورة مناصرة مصر للعناصر المغربية للاتجاه نحو الدول العربية (**) .

هذا عرض موجز لأهمية هذه الوثائق سواء فى مجال التعاون العربى أو فى مجال تصحيح بعض المفاهيم والمواقف السياسية .

- أضواء على القسم النظرى :

جدير بنا قبل البدء فى الجزء التطبيقى أن نلقى الضوء على القسم النظرى من خلال الصعوبات التى تواجه الباحث فى هذه الوثائق ، والاقتراحات التى يمكن بها تلافى تلك الصعوبات .

- من الصعوبات التى تواجه الباحثين فى هذه الوثائق منع التصوير منعا باتا إلا بالحصول على موافقة الخارجية المصرية ، وهذا لا يحدث إلا فى القليل النادر جدا ، وبجهود خاصة ، مما يجعل بعض الباحثين يحصلون على الوثائق بطرق غير مشروعة . وهنا يجب فتح باب التصوير من هذه الوثائق ، كما هو متبع

(**) انظر الملحق رقم (٤).

فى كبرى دور الوثائق ، وهذا من شأنه أن يعود بالنفع على تطوير دار الوثائق، كما يكون مصدر دخل للدولة ، نظرا لأهمية هذه الوثائق ، التى اتجهت إليها أنظار الباحثين من كل مكان .

- ومن الصعوبات التى تواجه الباحثين أيضا ،كثرة تكرار صور الوثائق فى الملف الواحد . ويجب هنا تنقية هذه الملفات من الوثائق المتكررة ، حتى لا تكون مطمعًا لبعض الباحثين من ضعاف النفوس بنزعها من الملفات .

- من الصعوبات التى تواجه الباحثين وجود بعض الوثائق الممزقة ، نتيجة لسوء التخزين والاستخدام ، مما يستدعى ضرورة نقل هذه الوثائق على مصغرات فيلمية أى / « ميكروفيلم » لسهولة حفظه والاطلاع عليه والتصوير منه دون أضرار .

- ومن الصعوبات -أيضا- عدم التطابق بين ملفات المحفظة الواحدة فى الموضوع.

- فى أغلب الأحيان - وعلى سبيل المثال المحفظة رقم ١٣٢٨ بها عدد ثلاث ملفات وهى :

١ - ملف رقم ٤١/١٤٢/١٣٩ج٢ « عرض مسألة قناة السويس على مجلس الأمن أكتوبر ١٩٥٦ » .

٢ - ملف رقم ١/١٤٣/١٣٩ « المجلس الدولى للأرز - اجتماعات اللجان ».

٣ - ملف رقم ٩/١٤٣/١٣٩ « اللجنة الخاصة ببحث مشاكل تصريف ومداركة السلع الغذائية والزراعية » .

فنلاحظ أن ملفات المحفظة لا يربطها موضوع واحد كما أن الفترة الزمنية متباعدة فالملف الأول فى عام ١٩٥٦ م ، والثانى عام ٥٢ - ١٩٥٣ م ، والثالث ٤٩ - ١٩٥٠ م ، فيجب حصر الملفات الخاصة بموضوع واحد ووضعها فى محفظة أو محفظتين حسب عدد الملفات وتأخذ أرقاما مسلسلة حتى يسهل الاطلاع عليها .

- ومن الصعوبات التى تواجه الباحثين وجود عناوين لبعض الملفات فى المحافظ ، وبالرجوع إلى محفظة ما ، نجد أن هذا الملف مسحوب وبالسؤال عنه لا تجد إجابة ؟ وعلى سبيل المثال ملف رقم ٣٧ / ٤٠ / ١٣ (أحداث فلسطين السياسية) مسحوب من المحفظة رقم (١٥١٦) .

ومن الأمور التى توضح عدم الدقة فى التصنيف ما لاحظه الباحث فى الملف رقم ١٤ / ١٤ / ١ فى المحفظة رقم ١٢٤٧ حيث أخذ الملف اسم ((الحالة على الحدود النجدية / العراقية)) وبالرجوع إلى الملف وجد أن الورقة الأولى فقط هى التى تتناول هذا الموضوع وباقي الملف لا يمت للموضوع بصلة . وهذا الأمر يستدعى تأليف لجنة متخصصة لقراءة هذه الوثائق وتصنيفها حسب الموضوعات وحسب درجة الأهمية .

وبعد ، فهذه بعض الصعوبات التى قد تواجه الباحثين فى وثائق الخارجية المصرية ، ولكنها لا تمثل شيئا فى سبيل الحصول على المعلومة المفيدة والجديدة ، وتجعلنا نقف على وجهة النظر المصرية والعربية من خلال وثائق عربية صميمة وليست من خلال الوثائق الأجنبية وحدها .

* * *

ثانيًا : القسم التطبيقى :

هذا القسم أفردته للحديث عن « موقف مصر من قضية التعويضات الألمانية لإسرائيل ». وهذه القضية تعد من القضايا السياسية ذات الصبغة الاقتصادية ، فالاقتصاد والسياسة عاملان متداخلان ممتزجان من الصعب الفصل بينهما . وترجع فكرة التعويضات إلى عام ١٩٤٣ م وكان صاحبها أحد اليهود الصهاينة فى الولايات المتحدة وهو جورج لاندوير George Landauer ، ثم تولى الصهيونى زجفريد موسى Siegfried Moses أمر عرضها أمام الرأى العام العالمى منذ عام ١٩٤٤(١) .

وقد بدأت المفاوضات المباشرة بين ألمانيا وإسرائيل بشأن هذه التعويضات اعتبارا من مارس (آذار) ١٩٥٢ م ، حيث وافق الكنيست الإسرائيلى على الدخول فى مفاوضات مباشرة مع ألمانيا بشأن التعويضات بأغلبية ٦١ - ٥٠ صوتا . وقد استمرت المفاوضات ما يقرب من سبعة أشهر تم خلالها الاتفاق على حجم التعويضات وكيفية سدادها ، وانتهت بعقد اتفاقية لوكسمبورج Luxembourg فى ١٠ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٢ م(٢) .

وقد تم التصديق على هذه المعاهدة من قبل البرلمان الألمانى بمجلسيه البوندستاج(*) Bundestag فى ١٨ مارس (آذار) ١٩٥٣ م ووافق عليها بأغلبية ٢٣٨ ضد ٣٤ وامتناع ٨٦ صوتا ، والبندسرات(**) Bundesrat فى ٢٠ مارس ١٩٥٣ م الذى وافق عليها بالإجماع ، وعقب ذلك وقع عليها رئيس الجمهورية د. هس Heuss وأصبحت قانونا نافذا منذ ٢٠ مارس (آذار) ١٩٥٣ م على أن يبدأ تنفيذها من أول إبريل (نيسان) ١٩٥٣ م(٣) .

وتم استيفاء اتفاق بر وكسيل بحلول عام ١٩٦٥ م ولكن كانت هناك بعض التعويضات الفردية تقوم ألمانيا بدفعها للأفراد اليهود الذين تعرضوا أو ذووهم للاضطهاد ، وسوف تستمر هذه التعويضات حتى عام ٢٠٣٠(٤) .

وكان السبب فى عقد ألمانيا لهذه الاتفاقية كما يقول « الهر فون برنتانو Von Brantono وزير خارجية ألمانيا » (أن هذه التعويضات أعطيت لإسرائيل نتيجة لضغوط معينة - حدثت فى الماضى - على ألمانيا) (٥) هذا عن اتفاقية التعويضات ، أما عن موقف مصر من هذه الاتفاقية فيدور فى محورين :

(*) البوندستاج : أحد مجلسى الهيئة التشريعية فى جمهورية ألمانيا الاتحادية (الغربية) وأهمها وهو يمثل الشعب وينتخب انتخابا مباشرا . وينتخب المستشار .

(**) البوندسرات : المجلس التشريعى الثانى فى جمهورية ألمانيا الاتحادية وهو أقل أهمية من البوندستاج لأن السلطة تتركز فى البوندستاج وهو يتكون من أعضاء يمثلون حكومات الولايات الألمانية .

(أ) موقف مصر فى الإطار العربى .

(ب) موقف مصر منفردة .

المحور الأول : موقف مصر من اتفاقية التعويضات فى الإطار العربى :

أخذت جامعة الدول العربية على عاتقها منذ إنشائها - وحتى الآن - الدعوة للقضية الفلسطينية ، والعمل على نصرة عرب فلسطين ، وحث الحكومات العربية على انتهاج هذه السياسة (٦). وعقب بدأ المفاوضات الألمانية / الإسرائيلية - بشأن التعويضات ، جاء أول تحرك عربى فى مارس (آذار) ١٩٥٢ م وكان هذا التحرك من جانب سوريا ، التى اقترحت أن تتحرك الدول العربية لمنع وصول هذه التعويضات إلى إسرائيل ، وفى مقابلة بين الوزير المفوض المصرى بدمشق (حسين عزيز) والأمين العام لوزارة الخارجية السورية ، اقترح الأخير أن تسعى الدول العربية لدى الدول الكبرى الثلاث (أمريكا - فرنسا - بريطانيا) لكى يعملوا على تحويل مبلغ التعويضات المقرر إعطاؤه لإسرائيل من ألمانيا لصالح لاجئ فلسطين الذين شردتهم الحكومة الإسرائيلية وعددهم ما يقرب من مليون عربى(٧).

وبناء على الاقتراح السورى ، أرسلت الجامعة العربية مذكرة إلى الحكومة الألمانية عن طريق القنصل المصرى بفرانكفورت ، وخلال استفسار القنصل المصرى عن مصير هذه المذكرة من الهر (فون اتسدورف) Von Etzdorf مدير الشئون السياسية بوزارة الخارجية الألمانية ، يقول القنصل المصرى (إننى فهمت من حديث اتسدورف أن حكومة ألمانيا الغربية لا تربطها أية صله رسمية أو غير رسمية بجامعة الدول العربية ، ولهذا يهم حكومة ألمانيا الغربية أن تعرف هل يمكن اعتبار المذكرة المقدمة من الجامعة هى مذكرة الحكومة المصرية فقلت أن مذكرة الجامعة مقدمة فقط عن طريق الحكومة المصرية (٨) . وفى نهاية التقرير ينصح القنصل المصرى بضرورة تقديم مذكرة احتجاج مصرية إلى الحكومة الألمانية ، وأن تحذو باقى الدول العربية حذو مصر ، على أن يصر العرب فى احتجاجاتهم على ضرورة تعويض اللاجئين العرب خاصة وأن المعاهدة لم توقع بعد(٩) .

وبعد توقيع معاهدة لوكسمبورج ، وحينما لم تأت مذكرة الجامعة العربية بنتيجة مرجوة ، سعت سوريا بطريقة منفردة لدى الحكومة الألمانية ، حيث أرسلت د . مأمون الحموى المستشار بوزارة الخارجية السورية لمقابلة المسئولين فى الحكومة الألمانية لبحث موضوع التعويضات ، وعقب لقائه بهم تقابل الحموى مع القنصل المصرى فتباحثا فى أمر التعويضات ، ثم استقر رأيهما على عدة أمور كمقترحات تعرض على مجلس الجامعة العربية للنظر فيها ومنها :

١ - اتخاذ قرار جماعى بقطع العلاقات الاقتصادية مع ألمانيا فى حالة إذا ما أقر البرلمان الألمانى مشروع الاتفاق .

٢ - إجراء مباحثات بين الدول العربية وبين حكومة ألمانيا على أساس عدم الموافقة على تعويض إسرائيل بتاتا ، وإلا فيكون تعويضها لأفراد اليهود فقط الذين أضيروا .

٣ - الاحتجاج لدى الحكومة الأمريكية بسبب ضغطها على ألمانيا لدفع التعويضات لإسرائيل .... الخ (١٠).

وفى اقتراح آخر من القنصل العام المصرى - مع قرب تبادل التمثيل الدبلوماسى بين العرب وألمانيا - اقترح أن تطلب الحكومات العربية من ألمانيا التريث فى إرسال ممثليها إلى البلاد العربية إلى أن يتضح موقفها من مسألة التعويضات ، وذلك حتى تشعر الحكومة الألمانية بأن البلاد العربية جميعها جادة فى موقفها مع ألمانيا من اتفاقية التعويضات لإسرائيل (١١).

وعلى الرغم من احتجاجات العرب على توقيع اتفاقية التعويضات أعلن المستشار الألمانى آديناور Adenauer أنه وقع على الاتفاقية « وبذلك فإنه حافظ على كلمته » (١٢). أى أن هذه الاحتجاجات لم تؤثر فى قرارات المستشار الألمانى ، وإن كانت قد أحدثت بعض التأثيرات لدى بعض المسئولين حيث أعلن وزير الخارجية الألمانية - آنذاك - (فون اكاردت Von Ekardet) أن هذه الاتفاقية لن تضر بالعرب بأى شكل من الأشكال (١٣). كما أثرت الدعاية العربية

فى بعض الأوساط الألمانية حيث قدم ما يقرب من ثلاثين عضو فى البوندستاج Boundstag يمثلون أربعة أحزاب رسالة إلى الحكومة تحذرها وتطالب بعدم التصديق على معاهدة لوكسمبورج وضرورة مراعاة رد الفعل العربى(١٤) .

ومع منتصف شهر أكتوبر (تشرين أول) ١٩٥٢ م سافر إلى بون وفد يمثل أعضاء جامعة الدول العربية لمباحثة الحكومة الألمانية فى اتفاقية التعويضات . وقد أجرى الوفد مقابلات مع المسئولين الألمان ، و لم تؤت هذه الاتصالات ثمارها بل أن الوفد لم يفلح فى إقناع المسئولين فى ألمانيا بوجهة النظر العربية(١٥) .

وبعد فشل الوفد وعودته من ألمانيا ، اجتمعت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية فى نوفمبر (تشرين ثان)١٩٥٢ م واتخذت عدة قرارات كان منها:

١ - تقديم مذكرة احتجاج إلى حكومة ألمانيا الغربية تتضمن أنه فى حالة التصديق على معاهدة التعويضات الألمانية مع إسرائيل فستجد دول الجامعة العربية نفسها مضطرة إلى اتخاذ الإجراءات التى ولا شك ستؤثر على العلاقات الاقتصادية بين ألمانيا الغربية والدول العربية .

٢ - قبول الدخول فى محادثات مع حكومة جمهورية الاتحاد الألمانى بشأن معاهدة التعويضات بينها وبين إسرائيل ، على أن تجرى هذه المحادثات فى القاهرة بين وفد يمثل ألمانيا ووفد يمثل حكومات دول الجامعة العربية ، ويؤلف من عضو أو أكثر من كل هذه الدول(١٦) .

وبالفعل أرسلت الجامعة العربية مذكرة إلى الحكومة الألمانية ، أوضحت فيها التهديد الذى تمثله اتفاقية التعويضات للدول العربية ، وأن هذه الدول لا يمكنها أن تغض النظر عن المساعدة الضخمة التى تقدمها ألمانيا لدولة هى فى حالة حرب معها . وبينت المذكرة أنه نظرا لعدم استجابة الحكومة الألمانية للاحتجاجات العربية - فردية وجماعية - وعزمها على التصديق على المعاهدة ، فإنها مضطرة للدفاع عن مصالحها ، وأنها قد تضطر إلى قطع العلاقات الاقتصادية مع

الجمهورية الاتحادية فورا « ولما كانت الدول العربية تأمل فى ألا تضطر إلى اتخاذ أى إجراء من هذا النوع فهى تنتظر أن تقوم الجمهورية الاتحادية فورا بعمل يتفق مع ما عرضته من بدء محادثات مع الدول العربية بالطرق الدبلوماسية »(١٧) .

ونتيجة للمذكرة العربية ، حذر السياسى الألمانى « فرانز جوزيف شتراوس Franz Josef Strauss » أحد زعماء الحزب الاشتراكي المسيحى فى بيان له فى ٥ يناير (كانون ثان) ١٩٥٣ م ، أن توقيع الاتفاق مع إسرائيل ربما يكلف ألمانيا خسارة فى السوق العربى تصل إلى مليار ومائه وتسعون مليون دولار خلال السنوات العشر المقبلة(١٨) .

واستمرت جهود مصر بالتعاون مع جامعة الدول العربية فى التضييق على هذه الاتفاقية ، حيث طلبت مصر من الجامعة إدراج قضية التعويضات فى جدول الجامعة ٢ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٣ م وذلك نتيجة لخرق ألمانيا وإسرائيل بنود هذه المعاهدة بالسماح لإسرائيل بشراء منتجات من إنجلترا وخصم قيمتها من حساب التعويضات المستحق لها قبل ألمانيا الغربية ، إذا أن إسرائيل بهذا العمل تستطيع الحصول على كل ما تحتاجه من سلع أساسية حربية كانت أو غيرها من كافة أنحاء العالم على حساب اتفاقية التعويضات(١٩).

وفى لقاء جمع السفير المصرى والقائم بأعمال المفوضية السورية ووزير العراق المفوض ببون اقترحوا خلال اللقاء ضرورة مراقبة تنفيذ نصوص الاتفاقية بدقة كما جاءت ، والحيلولة دون مساعى إسرائيل لتزيد من حصتها باسترعاء انتباه الحكومة الألمانية إلى أن هذا الموقف يعتبر موقفا عدائيا ضد العرب(٢٠) .

ونتيجة لرصد الدول العربية لنوعية البضائع التى تحصل عليها إسرائيل من أموال التعويضات ، أصدرت الجامعة العربية فى جلستها الثامنة من دور الانعقاد العادى العشرين بتاريخ ٢٧ / ١ / ١٩٥٤ م عدة قرارات كان منها « أن تقوم الحكومات العربية بالاتصال بالحكومة الألمانية وإفهامها أن هناك مواد وخامات وآلات تصدر إلى إسرائيل من شأنها أن تساعد على تنمية اقتصاديات إسرائيل

وزيادة قدرتها على الإنتاج الحربى ولا يسع الدول العربية السكوت على مثل هذه الأمور »(٢١) .

وحينما أعلنت إسرائيل عزمها على عقد قرض من ألمانيا الغربية بناء على اتفاقية التعويضات ، وقرض آخر من البيوتات المالية الألمانية ، تدارست اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية هذا الأمر فى ١٩٥٤/٩/١٠ م وقررت ما يلى «تبذل الحكومات العربية المساعى اللازمة للتثبت من الأخبار التى وردت من البعثات العربية فى ألمانيا والمتعلقة بسعى إسرائيل لعقد قرض بمائة مليون دولار من الحكومات الألمانية وخمسة وثلاثين مليون دولار من البيوتات المالية ، واتخاذ الوسائل اللازمة لإحباط ذلك المسعى » (٢٢).

وبناءا على ذلك استدعى وكيل وزارة الخارجية بالإدارة الاقتصادية ، القائم بأعمال السفارة الألمانية بالقاهرة وأبلغه ما سيترتب على ذلك النبأ - إن صح - من استياء شديد فى مصر وفى الدول العربية مما يعرض العلاقات بينهم وبين ألمانيا للخطر ، فأنكر القائم بالأعمال معرفته بهذا الخبر حتى يستعلم عنه من حكومته وفى ٩ / أكتوبر (تشرين أول) ١٩٥٤ م تقابل مرة أخرى مع مدير الإدارة الاقتصادية بالوزارة وأخبره نفى حكومته نفيا باتا لهذا الخبر ، وأنه لا علم لها بالمفاوضات الدائرة بين بعض البيوتات التجارية الألمانية وإسرائيل (٢٣).

واستمرارا لجهود الجامعة العربية لوقف أى قروض جديدة من ألمانيا لإسرائيل قررت فى اجتماعات اللجنة السياسية بتاريخ ١٤ أكتوبر ١٩٥٥م (بمواصلة السعى الدبلوماسى لدى ألمانيا الغربية لإحباط محاولة إسرائيل الحصول على قروض منها) (٢٤) .

وتوالت اجتماعات العرب الرسمية وغير الرسمية ، ومن بينها ذلك الاجتماع الذى عقده رؤساء البعثات الدبلوماسية للدول العربية فى بون بتاريخ ١٩٥٦/٦/٢٢ م ناقشوا خلاله موافقة المجلس النيابى الألمانى البوندستاج Bundestag فى جلسته بتاريخ ٦ / يونية (حزيران) ١٩٥٦ م على مشروع

قانون لزيادة المبالغ المخصصة لتعويض جميع من اضطهدوا فى ألمانيا خلال الحكم النازى . وفى نهاية اللقاء أصدر المجتمعون قرارا بضرورة الاتصال بحكوماتهم لشرح الموقف ذاكرين (أن ما يخشى الآن ليس صدور القانون الجديد لزيادة مبالغ التعويضات فحسب ، بل يخشى أيضا ألا تكون هذه الزيادة هى الأخيرة ، وأنه يجب اتخاذ إجراء جماعى سريع للإضرار بمصالح ألمانيا الاقتصادية فى البلاد العربية ، حتى تشعر ألمانيا بسخط الدول العربية على موقفها إزاء اليهود عسى أن يتحرك الرأى العام الألمانى ويندد بسياسة حكومته (٢٥). وعقب انتهاء العدوان الثلاثى على مصر أرسلت الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية مذكرة إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بتاريخ ١٥ ديسمبر (كانون أول) ١٩٥٦ م أخبرتها فيها بأن ألمانيا - رغم وقوع العدوان على مصر واشتراك إسرائيل فيه - لا زالت مستمرة فى دفع التعويضات مما يقوى الجانب المعتدى ، واقترحت أن تقوم وزارات خارجية الدول العربية باستدعاء ممثلى الحكومة الفيدرالية وإبلاغهم (قلق الحكومات العربية من سياسة ألمانيا الغربية فى هذا الشأن) (٢٦) . وقد أرسلت الحكومات العربية مذكرات بهذا المعنى إلى الحكومة الألمانية ولكنها لم تجد نفعا(٢٧) . وفى الاجتماع الذى عقده المبعوثون الدبلوماسيون العرب فى بون فى ٨ مايو (آيار) ١٩٥٧ م تدارسوا أمر إرسال برقية احتجاج موحدة للحكومة الألمانية حول استمرارها فى دفع التعويضات لإسرائيل ، فرأى المجتمعون أن هذه المذكرة قد تحرج موقف البعثات العربية فى ألمانيا إذ أن الحكومة الألمانية قد تمتنع عن قبولها من الناحية الشكلية ، وقد رأى المجتمعون « أنه من المتعذر حمل ألمانيا على الرجوع عن قرارها بدفع التعويضات بعد مضى فترة طويلة وبعد أن تم دفع معظم هذه التعويضات»(٢٨) .

وهكذا اقتنع الدبلوماسيون العرب فى ألمانيا باستحالة تغيير هذه الاتفاقية وأدركوا أنه يجب على العرب أن يتخذوا خطوات أخرى بديلة للعمل الدبلوماسى وهو العمل الموحد من كافة الدول العربية باتخاذ إجراءات اقتصادية ضد ألمانيا ،

مع الإشارة إلى أن أى تهديد كلامى يضعف موقف العرب من مشكلة التعويضات ومن أى مشكلة مستقبلية بين العرب والحكومة الألمانية (٢٩) .

- المقاطعة العربية :

كانت المقاطعة العربية خاصة بإسرائيل ، وكان الهدف منها عمل حصار اقتصادى على إسرائيل حتى تضعف ويسهل بعد ذلك القضاء عليها ، وعقب التوقيع على اتفاقية التعويضات أعلنت دول الجامعة العربية مرارا وتكرارا أنها سوف تقاطع ألمانيا اقتصاديا إذا تم التصويت على المعاهدة . وعقب التصويت عليها اتخذت اللجنة السياسية عدة قرارات بعدم استيراد بضائع ألمانية بصورة غير مباشرة حتى لا يكون ذلك وسيلة لتهريب بضائع لحساب إسرائيل ، وإجبار المستوردين من ألمانيا على الحصول على شهادات من السلطات الحكومية المختصة والغرف التجارية أو اتحاد الصناعات بألمانيا تثبت أن البضائع المصدرة للبلدان العربية هى لحساب المصانع ولا تشكل جزءاً من التعويضات الألمانية لإسرائيل ، على أن تعتمد هذه الشهادة من إحدى القنصليات أو المفوضيات العربية بألمانيا . ولتنفيذ هذه التوصيات ، أوصت اللجنة بتعين موظف أو أكثر يتبع المكتب الرئيسى للمقاطعة ويكون مقره ألمانيا (٣٠) .

وأضاف المجلس الاقتصادي للجامعة بندا ينص على مطالبة مكاتب المقاطعة بتحرى وجمع المعلومات والوثائق الخاصة بتصريف بضائع التعويضات الألمانية المسلمة لإسرائيل فى بلد آخر(٣١) ، حتى لا تتسرب تلك البضائع إلى الدول العربية عن طريق بلد ثالث .

وبناء على ذلك أخذت مكاتب المقاطعة العربية تتحرى عن الشركات التى يشتبه فى تعاملها مع إسرائيل وتصدر بضائع إلى الدول العربية (*) .

(*) انظر على سبيل المثال : محفظة رقم ٧٨٩ ملف ١٤٠/١٢٣/ج١٣ (مكتب مكافحة التهريب لإسرائيل) . تقرير عن الاجتماع الرابع الذى عقدته لجنة الاتصالات العربية فى بون بتاريخ ١٩٦٠/٧/٨ م بتاريخ ١٩٦٠/٨/٢٢ م برقم ب/م/٤ .

وقد يتسائل البعض ، ما مدى تأثير هذه المقاطعة على إسرائيل ؟

مما لا يدع مجالا للشك أن المقاطعة العربية لإسرائيل قد أثرت بصورة كبيرة على مصالح إسرائيل الاقتصادية ، وأنها - كانت - تمثل خطرا حقيقيا على إسرائيل . ومما يؤيد ذلك ، أن إسرائيل سعت فى تلك الفترة إلى إنشاء إدارة خاصة فى وزارة الخارجية الإسرائيلية تسمى «إدارة التخطيط السياسى الاقتصادى» وتكون مهمتها إعداد الخطط اللازمة لمقاومة المقاطعة الاقتصادية التى يفرضها العرب ضد إسرائيل (٣٢) .

وهنا تبرز أهمية العامل الاقتصادي فى تحقيق الأغراض السياسية إذا ما توحدت الكلمة والجهود وخلصت النيات .

هذا عن موقف مصر من قضية التعويضات فى الإطار الجماعى العربى .

المحور الثانى : موقف مصر من قضية التعويضات منفردة :

كانت العلاقات المصرية الألمانية تسير سيرا طيباً عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فكانت مصر أول دولة عربية تعلن إنهاء الحرب مع ألمانيا ، ثم تبعتها باقى الدول العربية (٣٣) . وعلى الجانب الاقتصادي دخلت مصر مع ألمانيا فى عدة اتفاقيات تجارية كان أولها ذلك الاتفاق الذى أبرم فى ٢١ ديسمبر / كانون أول ١٩٤٨ م . (*) ولكن عقب إعلان اتفاقية التعويضات تحركت مصر لأن مركزها فى العالم العربى هو مركز الزعامة الأدبية الذى يتطلب منها عناية كبرى بجميع الحوادث التى تقع فى تلك البلاد مع الإلمام بجميع التيارات السياسية القائمة فيها ودراسة الاتجاهات التى تنتهجها تلك التيارات والمرامى التى تستهدفها . ومن هذا المنطلق جاء موقف مصر المتتبع لقضية التعويضات الألمانية لإسرائيل ، فقبل إبرام الاتفاقية سعت مصر لعمل دعاية مضادة لها إلا أن قنصل مصر العام فى

(*) لمزيد من التفاصيل عن هذا الاتفاق انظر : وثائق الخارجية المصرية محفظة ١٣٢٩ ملف ١٣٠ / ٧٤ / ٢ (العلاقات الاقتصادية بين مصر وألمانيا) .

فرانكفورت نصح حكومته بالقيام أولا « بجس نبض » الولايات المتحدة قبل اتخاذ أية خطوة علنية ، كما نصح « بجس نبض » الجهات الألمانية بصفة سرية لمحاولة وقف أى اتفاق مع اليهود (٣٤) . وبالفعل قام السفير المصرى بواشنطن بمساعيه لدى المسئولين فى الولايات المتحدة ، بناء على طلب الحكومة المصرية ، فتقابل مع وكيل الوزارة المساعد لشئون الشرق الأوسط، فأوضح له الأخير أن الحكومة الأمريكية لا يمكنها من الناحيتين القانونية والدبلوماسية التدخل فى مفاوضات تجرى بين الطرفين فى شأن يخصهما (٣٥) . وعقب عقد الاتفاقية أعدت الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية مذكرة لخصت فيها موقف مصر من الاتفاقية ، وكيف أن ألمانيا بهذه الاتفاقية قد انتهجت سبيلا مناقضا لسياسة الصداقة التقليدية نحو المسلمين والعرب ، وأن إسرائيل لم تكن دولة حينما وقع عدوان على اليهود من النازى - إن صح - فليس لها الحق فى أن تحصل على التعويضات نيابة عنهم ، وقد أبلغت إدارة الصحافة بهذه المذكرة لإبلاغها لبعض الصحفيين الألمان لتنشر فى ألمانيا(٣٦) .

وفى أحد التقارير الواردة للوزارة من السفارة المصرية ببون تعرض السفير للأسباب التى دعت ألمانيا لعقد تلك الاتفاقية وحصرها فى عاملين :

١ - حاجة ألمانيا الشديدة - فى ذلك الوقت - لمساعدة أمريكا السياسية والاقتصادية وتوسلها لذلك عن طريق إرضاء الصهيونية الأمريكية.

٢ - وجود نوع من التعاطف - عند بعض من يتولون الحكم فى ألمانيا - تجاه اليهود .

وتوقع السفير - فى نهاية التقرير - أن لا تصمد الاتفاقية أمام تفاعل الزمن، وأوضح أنه خلال لقاءاته مع المسئولين الألمان كان يؤكد لهم بأن الحكومة المصرية وسفارتها بصفة خاصة لن تغفل عن مراقبة كل ما تلجأ إليه إسرائيل من الأحابيل فى تنفيذ الاتفاقية(٣٧) .

وبالفعل بدأت الحكومة والمخابرات المصرية فى تتبع سير تطبيق الاتفاقية ، ومن ذلك ما قامت به إدارة المخابرات من تحر عن استلام إسرائيل لأربعة سفن من ألمانيا بموجب اتفاقية التعويضات ، وأن هذا يخالف نصوص الاتفاقية لأن السفن تعتبر من المعدات الإستراتيجية ، وهذا لا يتفق مع ما سبق أن أعلنته الدول الكبرى من ضرورة مراعاة الحياد التام بين البلاد العربية وإسرائيل (٣٨) .

ومحاولة منها لمنع تسرب بضائع التعويضات إلى مصر والدول العربية، سعت مصر من خلال سفيرها فى بون لدى الحكومة الألمانية تطلب منها ضرورة وضع علامة مميزة على المصنوعات التى ترسل إلى إسرائيل كجزء من التعويضات ، واقترحت أن يكتب عليها Made In Germany For Israel حتى يمكن تمييزها عن باقى البضائع والمصنوعات الألمانية العادية(٣٩).

وفى تحريات أخرى قامت بها السفارة المصرية فى بون عن طريق السيد عبد اللطيف فهمى العيسى المستشار فى السفارة خلال لقائه بالدكتور « فوجت » Dr. Voigt رئيس قسم الشرق الأوسط وأفريقيا بوزارة الخارجية الألمانية حول الشائعات التى كانت تثار حول حصول إسرائيل على أسلحة من ألمانيا بموجب اتفاقية التعويضات نفى الأخير تلك الشائعات وأوضح أن اتفاقية التعويضات بها نص صريح يحرم على ألمانيا تزويد إسرائيل بأى نوع من أنواع السلاح بموجب هذه الاتفاقية(٤٠) .

وفى لقائه بوزير الاقتصاد الألمانى إرهاد Erhard أبلغه القنصل العام المصرى رسميا فى ٣٠ أكتوبر (تشرين أول) ١٩٥٢ أن مصر - والدول العربية - سوف تقطع علاقاتها الاقتصادية بألمانيا فى حالة التصديق على الاتفاقية ، فإجابة الوزير بأن تصريحه يخالف تصريحات اللواء محمد نجيب خلال لقائه مع السفير الألمانى فى القاهرة ، فأجابه القنصل بأنه تلقى تعليمات جديدة من وكيل الخارجية بالتليفون فى ٢٨ أكتوبر (تشرين أول) تؤيد ما قاله وهى أن اللواء نجيب كان شخصيا ضد

الاتفاقية ، وأن حديثه مع السفير الألمانى كان لمجرد الترحيب به لمناسبة وصوله إلى القاهرة(٤١) .

وبمناسبة طرح موضوع مقاطعة ألمانيا اقتصاديا اختلفت الآراء فى مصر حول هذا الموضوع ، حيث طالبت بعض الأصوات الدبلوماسية بضرورة مقاطعة ألمانيا اقتصاديا ، لما سببته اتفاقية التعويضات من أضرار معنوية وسياسية لمصر وللعرب جميعا وطالبت بعض تلك الأصوات - المؤيدة للمقاطعة - بضرورة دراسة موضوع المقاطعة من جميع نواحيها ونتائجها قبل الخوض فيها(٤٢) . كما علقت وزارة التجارة والصناعة (مصلحة التجارة الخارجية) على موضوع المقاطعة بأنه يجب دراسة العلاقات الاقتصادية بين العرب وألمانيا جيدا بمعرفة إخصائيين على ضوء حاجة الاقتصاد العربى(٤٣) .

وعلى الجانب الآخر نجد من يحذر وبشدة اتخاذ أى قرار بمقاطعة ألمانيا اقتصاديا . ومن ذلك تلك البرقيات التى وردت إلى الوزارة من السفارة المصرية بنيويورك توضح أن جميع الدول العربية إذا قاطعت ألمانيا لن تفقد هذه الدول شيئا، إذ أنه يكاد ألا يكون هناك تعامل بينها وبين ألمانيا ، هذا بخلاف مصر التى لها معاملات مع ألمانيا أكثر من أى دولة عربية أخرى ، وفى النهاية نبهت تلك البرقيات إلى « أن ألمانيا الغربية تتمتع الآن برخاء اقتصادي ، فقد يكون من المناسب أن نطلب إليها منحنا بعض الامتيازات الاقتصادية نظير ما تقوم بدفعه من تعويضات لإسرائيل » (٤٤) .

وبناء على هذا الرأى لم تأخذ مصر بالرأى القائل بالمقاطعة ، والدليل على ذلك أن العلاقات الاقتصادية بين مصر وألمانيا لم تتأثر بعد اتفاقية التعويضات (*) .

وحينما أثارت سوريا مسألة تحويل بعض أموال التعويضات لحساب لاجئ فلسطين سعت مصر لدى ألمانيا وبعض الحكومات الغربية عسى أن تحصل على

(*) انظر جدول الصادرات والواردات بين ألمانيا والدول العربية . Feldman : op . cit . p.p. 195, 197

موافقتها على ذلك ففى لاهاى سعى السفير المصرى لدى نظيره الألمانى حتى يثير هذه المسألة لدى حكومته . وحينما أرسل السفير الألمانى إلى حكومته فى هذا الأمر أجابت عليه الخارجية الألمانية « بأن الجهات المسئولة فى ألمانيا الغربية ترى أنه ليس من اختصاص السفارة الألمانية بلاهاى البحث مع ممثل الحكومة المصرية فى هذا الموضوع بل هو من اختصاص ممثل مصر لدى حكومة ألمانيا الغربية»(٤٥). وقد قامت مصر بمساعى مماثلة لدى تركيا وفرنسا إلا أنها باءت بالفشل(*) ، أما على الجانب الأمريكى ، والتى رأت الإدارة العربية ضرورة مفاتحته فى أمر تعويض اللاجئين العرب بسبب نفوذ الولايات المتحدة على إسرائيل، وما تفيض عليها به من مساعدات مالية متنوعة ، فقام السفير المصرى فى واشنطن بمقابلة وكيل الوزارة المساعد المختص بشئون الشرق الأوسط فى الخارجية الأمريكية ، وأوضح له وجهة نظر مصر - والدول العربية - فى هذه المسألة ، فكان رده أن الحكومة الأمريكية لا يمكنها من الناحيتين القانونية والدبلوماسية التدخل فى مفاوضات تجرى بين طرفين فى شأن يخصهما ، فذكره السفير المصرى بأن أمريكا سوف تساعد ألمانيا فى دفع هذه المبالغ وتخصيصها لتعويض اللاجئين العرب ، فرد عليه الوكيل المساعد بأن أمريكا سوف تدفع هذه التعويضات عينا - حاصلات ومصنوعات - على آجال طويلة(٤٦) .

وبذلك فشل المسعى المصرى فى إقناع الحكومة الألمانية وبعض الحكومات الغربية فى تحويل جزء من مبالغ التعويضات لحساب اللاجئين العرب ، - وجاءت تلك المساعى - على الرغم من إدراك الحكومة المصرية جيدا باستحالة تحقيق

(*) انظر ذلك المسعى فى : المصدر نفسه نفس المحفظة والملف ، برقية من وكيل وزارة الخارجية (الإدارة العربية)إلى سفير مصر بباريس سرى بتاريخ ١٠ / يونيو ١٩٥٢ م ، رد السفير المصرى بأنقرة على برقية وكيل وزارة الخارجية سرى بتاريخ ٣ / يونيو ١٩٥٢ م برقم ١٤٨ ، ورد السفير المصرى بباريس (محمد وحيه رستم) على برقية وكيل وزارة الخارجية سرى بتاريخ ١٧ / ٦ / ١٩ برقم ٤١ .

الغرض منها من النواحى القانونية ، إذ أن ذلك قد يعرض ألمانيا للمطالبة مرة ثانية بالتعويضات إلا إذا وافقت إسرائيل على دفع التعويض المستحق لها إلى جهة أخرى(٤٧) .

وحينما تسربت بعض الأنباء عن تصريف بضائع التعويضات فى بعض البلدان العربية عن طريق بلد ثالث كان على الحكومة المصرية أن تعمل على التحرى عن كيفية تصريف تلك البضائع ، فأرسلت الخارجية المصرية إلى نظيرتها الألمانية تستعلم منها عن محاولة إسرائيل تصدير بضائع ألمانيا إلى تركيا ، فردت الحكومة الألمانية عن طريق السفير المصرى فى بون بضرورة أن تكون هذه الوقائع مستندة إلى أدلة ثابتة على وقوع المخالفة ليتيسر للحكومة الألمانية أن تتخذ الإجراءات المناسبة بتوقيع الغرامة المنصوص عليها فى المادة الخامسة على إسرائيل ، ولحفظ البضائع الألمانية فى الأسواق العالمية فى مستواها المعروف دون خلق منافس لها وهو أمر يهم الاقتصاد الألمانى(٤٨) .

وقد ظل موضوع تصريف البضائع فى الدول العربية عن طريق بلد ثالث يشغل بال الحكومة المصرية ، حيث نما إلى علمها أن إسرائيل قد صدرت إلى تركيا سيارات من أموال التعويضات ، وسوف تقوم تركيا بدورها بإعادة تصديرها إلى مصر ، فأرسلت الخارجية المصرية بذلك إلى سفيرها فى أنقرة الذى كلف القنصل العام المصرى فى إستنبول بإجراء التحريات اللازمة فى هذا الشأن ، فجاء تقريره ينفى هذا الخبر ، وأن السيارات التى تستوردها تركيا من إسرائيل هى من السيارات التى يتم تجميعها فى إسرائيل وليست من السيارات الألمانية ، وأن تركيا تستوردها للاستخدام المحلى ، وفى نهاية التقرير أكد القنصل العام «أن إعادة تصدير السيارات الألمانية إلى مصر فكرة بعيدة الاحتمال»(٤٩) .

ويمكن القول ، أن الحكومة المصرية قد ارتاحت لتأكيدات المسئولين فى ألمانيا الغربية بأن تصريف البضائع الألمانية المصدرة إلى إسرائيل إلى بلد ثالث أمر غير وارد نظرا لمخالفته لاتفاقية التعويضات ولأضراره الجسيمة على الاقتصاد الألمانى وهو أمر لا تقبله ألمانيا .

وعقب انتهاء العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ م أعلن وزير خارجية ألمانيا الهر (فون برنتانو - Von Brentano) - أثناء نظر العدوان الثلاثى على مصر أمام هيئة الأمم المتحدة - أن ألمانيا سوف تستمر فى دفع التعويضات إلى إسرائيل حتى لو أوصت الجمعية العامة للأمم المتحدة بتوقيع العقوبات على إسرائيل(٥٠) . وفى ردها على مذكرة الخارجية المصرية ، أعلنت الخارجية الألمانية أنها لا توافق على وجهة نظر السفارة المصرية التى أوضحتها فى مذكراتها بتاريخ ١٩ / ١١ / ١٩٥٦ م بأن النزاع القائم بين الدول العربية وإسرائيل قد يكون له تأثير فى تنفيذ الاتفاقية المبرمة بين الحكومة الألمانية وإسرائيل(٥١) .

ومع إصرار الحكومة الألمانية على دفع التعويضات إلى إسرائيل أوعزت الخارجية المصرية إلى جامعة الدول العربية بأن تطلب من الدول الأعضاء الإيعاز إلى ممثليها فى ألمانيا بتقديم مذكرة احتجاج إلى الحكومة المذكورة لاستمرارها فى دفع التعويضات إلى إسرائيل رغم عدوانها على مصر(٥٢) . ولكن الخارجية الألمانية ردت على مذكرة الدول العربية بعدم قبولها وجهة النظر العربية(٥٣) .

وعلى الرغم من موقف ألمانيا غير الودى تجاه مصر أبان أزمة السويس ، فإن الخارجية المصرية استبعدت نهائيا قطع العلاقات مع ألمانيا الغربية ، وعللت ذلك بأن دول أخرى اتخذت نفس الموقف و لم تقطع مصر علاقاتها معها ، وأن ألمانيا كان يحركها عامل آخر وهو أنها إحدى الدول الأعضاء فى حلف شمال الأطلسى وارتباط سياستها بعجلة السياسية الغربية، ووازنت الخارجية المصرية بين الفوائد والأضرار التى ستجنى من وراء قطع العلاقات مع ألمانيا الغربية ، وأن إسرائيل سوف تكون المستفيد الأول من وراء ذلك(٥٤) .

أما فيما يتعلق بموضوع إقامة علاقات دبلوماسية بين ألمانيا وإسرائيل، فقد أعلنت ألمانيا مرارا وتكرارا خلال الخمسينات أنها لن تقيم أى علاقات دبلوماسية مع إسرائيل خشية إغضاب الرأى العام العربى الذى مازال متأثرا باتفاقية التعويضات(٥٥) . وقد أكد الدكتور « فوجت VOIGT » رئيس قسم الشرق فى الخارجية الألمانية لمستشار السفارة المصرية ببون أن القنصلية العامة البريطانية فى حيفا هى التى تتولى نيابة عن ألمانيا الشئون القنصلية الخاصة بها(٥٦) .

وعلى الرغم من تأكيدات المسئولين فى الخارجية الألمانية بعدم تبادل التمثيل الدبلوماسى مع إسرائيل ، إلا أن ذلك لم يغير شيئا من حقيقة اعتراف ألمانيا بإسرائيل ، حيث أكد كبار الفقهاء الألمان فى القانون الدولى أن اتفاقية التعويضات التى وقعت مع إسرائيل ترتب عليها اعتراف واقعى بإسرائيل De Facto (٥٧). وأكدوا على أن الخطوة التالية لهذا الاعتراف هى إنشاء العلاقات الدبلوماسية بين البلدين(٥٨) .

وحينما عرضت مسألة اعتراف ألمانيا بإسرائيل على بساط البحث فى أروقة السياسة العربية ، أثيرت معها مرة أخرى مسألة قطع العلاقات مع ألمانيا ، فكان رأى بعض السياسيين المصريين أن قطع العلاقات مع ألمانيا فيه ضرر كبير على المصالح المصرية ، إذ أنه سيحرم مصر من مصدر كبير لاحتياجاتها ، وسوقا مهمة لمنتجاتها ، فالمصلحة - كما يقول الوزير المفوض المصرى بالسفارة المصرية بواشنطن - تقتضى « أن تغلب الاعتبارات العملية عند بحث موضوع اعتراف ألمانيا بإسرائيل ، لأن أى عمل نتخذه ضد ألمانيا سيكون ضرره علينا أكبر من ضرره على ألمانيا »(٥٩) .

أضواء على القسم التطبيقى :

بعد دراسة موقف مصر من قضية التعويضات على المستويين الجماعى العربى والفردى ، نجد أن مصر قد تعاونت تعاونا طيبا مع باقى الدول العربية من أجل إبطال مفعول هذه الاتفاقية ، أو الحصول على بعضها للاجئين العرب ،

وعلى الرغم من الجهود المشتركة فى تلك القضية إلا أنها لم تؤت ثمارها ، حيث أدرك السياسيون فى ألمانيا أن العرب يقولون ولا يفعلون وهذا ما أكدته بعض المصادر ، فالمستشار الألمانى أديناور Adenauer أدرك أن تهديد العرب بمقاطعة ألمانيا كان عقيما (٦٠) ، ومن ناحية أخرى فإن د . ويسترش Dr : Westrich - الذى كان قد أرسله أديناور إلى القاهرة قبيل التصديق على المعاهدة لمقابلة الزعماء العرب - نصح حكومته عقب عودته من القاهرة بالتصديق على المعاهدة فورا لأنه شعر خلال لقاءاته بالزعماء العرب فى القاهرة أنهم لن يفعلوا شيئا أكثر من تقليل علاقاتهم مع بون (٦١) . وهذا يعنى أن ألمانيا لم تعر معارضة العرب للاتفاقية التفاتا ، وسارت فى تطبيق الاتفاقية بحذافيرها ، بل كانت تعطى لإسرائيل قروضا إضافية طالما أن العرب لن يفعلوا شيئا !

أما موقف مصر منفردة فقد عملت على إتباع سياستين ، إحداهما علنية والأخرى سرية ، فالعلنية جاءت لتعلن رفضها للاتفاق وتهديد من حين لأخر بقطع العلاقات الاقتصادية مع ألمانيا ، بينما جاءت قراراتها غير المعلنة بالعمل على الحصول من ألمانيا على أكبر قدر من الفوائد ، حيث أدركت أن قطع العلاقات - سياسية واقتصادية - مع ألمانيا سوف يضر بمصر ولا ينفعها ويؤثر على التوازن الذى تريد أن تحافظ عليه فى سياستها الخارجية ، أى أن مصر من خلال الموقف الفردى كانت تنظر لمصالحها الاقتصادية والسياسية ، مع القيام فى الوقت نفسه بمجهودات أخرى لمتابعة الممنوعات التى تصدر من ألمانيا لإسرائيل كأسلحة وغيرها ، والقيام بمسعى للحصول على بعض أموال التعويضات لحساب لاجئ فلسطين .

وهنا يبرز سؤال وهو ما السبب فى عدم تحقيق الأهداف العربية تجاه قضية التعويضات ؟

من خلال الدراسة وضح مدى تأثير المقاطعة العربية على إسرائيل من الناحية الاقتصادية ، مما جعل الأخيرة تقوم بإنشاء إدارة خاصة لمواجهة هذه المقاطعة ،

ويرجع السبب فى ذلك أن الدول العربية جميعها الأعضاء وغير الأعضاء فى الجامعة العربية تكاتفت من أجل إنجاح المقاطعة لأن المصلحة العربية اقتضت ذلك ولخطورة ذلك العدو على الجميع على حد سواء وإذا كانت المقاطعة العربية قد كان لها تأثير على إسرائيل بسبب اتحاد موقف الدول العربية ، فإن موقف هذه الدول إزاء ألمانيا لم يحقق نفس النجاح لأن كل دولة من الدول العربية لم تتخذ موقفا موحدا ، بل كانت كل دولة من الدول العربية تنظر إلى الموضوع نظرة فردية ، ماذا ستكسب وماذا ستخسر من الضغط على ألمانيا وقطع العلاقات معها؟

ويقينى أن الاقتصاد هو المحرك الأول للسياسة ، ونحن كعرب نستطيع أن نحقق الكثير من الأهداف عن طريق الضغط الاقتصادى مع دائرة توسيع التعاون الاقتصادى بحيث تشمل كتلة الدول الإسلامية التى يهددها الخطر- إن عاجلاً أو آجلاً - فالعالم العربى والإسلامى من الأهمية الاقتصادية بمكان حيث يستطيع التأثير على مجريات الأحداث السياسية والاقتصادية .



عبد الله بن الحسين

عمان في ٢٥ شعبان ١٣٦٣

الموافق ١٤ اغسطس ١٩٤٤

حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الوزارة الجليلة المصرية

يا صاحب الرفعة ،

لقد عاد عبد المنعم بك الرفاعي بما شرح الصدر واثلج الفؤاد كما هو المأمول والمعروف عن رفعتكم . وسيتشرف رئيس الوزارة الأردنية لحضور اللجنة التحضيريه لمؤتمر الوحدة ان شاء الله في الوقت المحدد . واتماما للفائدة رأيت أن أبث رفعتكم افكاري من خصوص فلسطين وتمثيلها في المؤتمر وانه أمر ضروري غاية في الخطورة لأنني اعتقد جازما أن اغفال فلسطين هو اسقاط حق لها يجب ان لا يغفل ، ولذلك كنتم رفعتكم تصرون على هذا التمثيل وتفعلون المعجزات لطلب التئام ممثلين كان منهم في المؤتمر العربي بلندن . أما الآن فلي أن اقول بأنه لما وقع الاعتداء الأخير من الصهيونيين على المندوب السامي المودع تبين بجلاء خطر اليهود على فلسطين وتوثبهم الى ما وراء فلسطين ، واننا بنسبة جوارنا القريب فأن الدعوى الصهيونيه تهددنا هنا قبل اي قطر آخر وعليه فأمر حفظ كيان فلسطين وسلامتها هو أمر حيوى لشرق الأردن ، واننا أشرنا على حكومتنا بأمر اصدرناه في ان تتخذ ما يجب لتأمين هذا الغرض الشريف وان تذاكر الجهات البريطانية وتعلمها بأن فلسطين هي الخط الأول للدفاع عن شرق الأردن وعما وراءها من الأقطار العربيه واننا ستتخذ الحيطة اللازمه لسلامة فلسطين بعد أن بلغ من الصهيونيين الأمر الى التجاوز على الحكومة ومراكزها وعلى مندوبها السامي وانه مع هذا فأن الأمة العربية لا تغلق الباب متى عرضت عليها التسويه الكافلــــه لفلسطين العربيه سلامتها وسيادتها . فوالحالة هذه ترون رفعتكم أن أمر تمثيل فلسطين في المؤتمر هو بالنسبة الينا في الدرجة الأولى وأن الاراء في شرقي الأردن وفلسطين واحدة في هذه المعضلة القومية ، لذلك استدعيت سعادة القنصل العام لمصر بالقدس لينقل الى رفعتكم كتابي هذا بالواسطة السريعة الأمينه ولتنوير المسألة اقدم لرفعتكم قائمة بأسماء الذوات الذين ارجوان تتفضلوا بأرسال كتب الدعوى الى حضراتهم ليحضروا المؤتمر موضحا فيها اسم الحزب الذي ينتمي اليه كل من حضراتهم .

ملحق رقم	١

RÉPUBLIQUE LIBANAISE

N°

الجمهورية اللبنانية

عدد

حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر

تلقيت دعوتكم الكريمة للاشتراك في اللجنة التحضيرية التي ستنعقد بمصر في اواخر يوليو – اغسطس سنة ١٩٤٤ تمهيدا لمؤتمر الوحدة العربية الذي كان لكم فضل الدعوة اليه .

ويسرني ان اجيب رفعتكم بان الحكومة اللبنانية قررت تلبية هذه الدعوة على ان يمثلها في اللجنة رئيس وزرائها ووزير خارجيتها .

وانني انتهز هذه الفرصة لاعرب لرفعتكم عن وافر تقديري للجهود التي تبذلونها في هذا السبيل وعن ثقتي الكاملة بالنجاح بفضل حكمتكم واخلاصكم

ولقد اسفت اشد الاسف لبقاء الزعيمين الفلسطينيين السيدين جمال الحسيني وامين التميمي في الاعتقال برغم الجهود الكريمة التي بذلتموها لاعادة الحرية اليهما حتى يتمكنا من تمثيل فلسطين العزيزة في هذه الاجتماعات خير تمثيل .
واني لشديد الرجاء ان جهودكم التي لن تنقطع في هذا السبيل ستؤول الى النجاح قريبا باذن الله . على ان غياب فلسطين لن يزيد ممثلي – شقيقاتها الا عطفا على قضيتها وتمسكا بحقوقها .

وتفضلوا رفعتكم بقبول جزيل الاحترام ./.

بيروت في ١٥ تموز سنة ١٩٤٤

رئيس مجلس وزراء لبنان

رياض الصلح

ملحق رقم	٢

الامانة العامة
ـ
الادارة السياسية
١-٢٠/٢/٢٢ د

القاهرة في ٢٠ ديسمبر ١٩٥٤

١٦

٥٥٥٠

مذكـــــرة

تهدي الامانة العامة لجامعة الدول العربية أطيب تحياتها الى وزارة خارجية جمهورية مصــــــــر وتتشرف بابلاغها ان مجلس الجامعة وافـــق بجلسة ١١ ديسمبر ١٩٥٤ على التوصية الآتية للجنة السياسية في اجتماعها مـــن ٢٦ نوفمبر الى ١١ ديسمبر ١٩٥٤ ، وهي :

* طلب عمان الداخلية الانضمام الى الجامعـة :

" احيطت اللجنة علما برسالة امام عمان الداخلية ، واوصت بانتظار نتيجة ماتقوم به الامانة العامة مستعينة بالدول الاعضاء من دراسات لامامة عمان . "

وذلك رجاء التفضل بتزويد الامانة العامة بما قد يكون لديها او تقف عليه مـن بيانات او دراسات او وثائق تعرف بشئون امامة عمان ، او تبين وضعها السياسي .

وتنتهز الامانة العامة هذه الفرصة لتعرب للوزارة الجليلة عن فائق احترامها . . .

الى وزارة خارجية جمهورية مصـــر

القاهرة

٦/١٢١

ملحق رقم ٣



عبد الله بن الحسين

عمان في ....

وانني اعتقد أن هذا هو الحل الرائق لنا جميعا وان سعادة القنصل العام سيقدم اليكم رجاء خاصا بعد عريضتي هذه كي تتفضلوا بالقيام بتنفيذ ملتمسنا في ارسال كتب الاعتراف .

وتفضلوا مقامكم الرفيع بقبول فائق المودة والاحـــــــــترام .



عبد الله بن الحسين

اللجنة التمثيلية الفلسطينية العربية المقترح ايفادها لمؤتمر الوحدة العربية

عوني بك عبد الهادي	عن	حزب الاستقلال
الدكتور حسين بك الخالدي	:	الاصلاح
عبد اللطيف بك صلاح	:	الكتلة الوطنية
راغب بك النشاشيبي	:	الدفاع
موسى بك العلمي	:	مستقل
يعقوب بك الغصين	:	حزب الشباب
توفيق افندي الحسيني	:	الحزب العربي (نيابة عن جمال بك)
رفيق بك ~~[illegible]~~ التميمي	.	نيابة عن [illegible]
انطون بك عطا الله / فؤاد افندي سابا	:	الاقليات

وزارة الخارجية

٦/١٢١/١٤٠

سري

رقم الصادر ١٧٦٩
١٧ نوفمبر ١٩٥٧

السيد حامد محمود
مدير مكتب السيد وزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية

اتشرف بأن ابعث لسيادتكم رفق هذا صورة من كتاب سفارتنا بالرباط رقم ٢٩٨ سرى بتاريخ ١٩٥٧/١٠/٢١ بشأن مشاكل المغرب ومدى المساعدات التى يمكن ان تقدمها مصر والدول العربية الاخرى .

والحكومة الحالية فى المغرب اغلب اعضائها من حزب الاستقلال ، وهى ترى تصفية مشاكلها المعلقة مع فرنسا وأسبانيا وذلك بالمفاوضة المستمرة البعيدة عن سياسة العنف .

وقد قامت مفاوضات بين المغرب وفرنسا بشأن قروض يحتاجها المغرب تبلغ حوالى مائة مليار من الفرنكات لمدة ثلاثة اعوام . وتضغط فرنسا على المغرب لكى تفوز بامضاء معاهدة الاستيطان التى تكسب ما استولى عليه الفرنسيون من اراضى زراعية ـ صبغة قانونية .

وقد حصل المغرب فى اوائل عام ١٩٥٧ من فرنسا على قرض حوالى ١٥ مليار من الفرنكات وعلى التزامات باربعة مليارات . هذا بخلاف المعونة الامريكية وهى ٢٠ مليون دولار قرض و ٥٠ الف طن هبة .

والمغرب يسير على سياسة غربية مع مبادلة الشعوب العربية الود تقديرا لمساعدتهم اليه فى دفاعه عن قضيته ، وهذا هو رأى الحكومة الحالية الآن ـ الشعب والمعارضة يقفان مثوقى الايدى من الناحية الاخرى .

وقد ظهرت حركة بين بعض المتذمرين من هذه السياسة وهى (كحركة التحلل الشعبى) الا انها اخذت بالشدة .

ولما كان الكادر الفنى فى المغرب جله من الفرنسيين فان مصر والبلاد العربية يمكنها ان تعاون فى طرد هذا الكادر الفرنسى واحلال العرب من الفنيين محله . ولكن يظهر ان المغرب يعتمد على الفرنسيين مؤقتا حتى يتعلم ابنائه بمعاونة العرب . فلا بأس من اسداء المعاونة لهم بكل وسيلة ممكنة .

اما اذا اريد الاتجاه بالبلاد الى السياسة العربية التى ينشدها الشعب المغربى فلا بد من القيام بعمل ايجابى وذلك بمناصرة جميع العناصر المؤيدة لهذا الاتجاه .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ،،،

وكيل الوزارة المساعد

ملحق رقم	٤

الهـــوامش

(١) د .وجيه عتيق : السياسة الدولية وخفايا العلاقات المصرية / الألمانية ٥٢ - ١٩٥٦ م (دار النهضة العربية - ١٩٩١ م) ص . ص ٢١ - ٢٢

(2) Feldman, Lily Gardner : The Special Relationship Between West Germany And Israel (George Allen & Unwin 1st ed 1984) P. 89.

(٣) وثـائق الخارجيـة المصريـة : محفظـة ٣٩٩ - ملـف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٤ (حجـز التعويضات التى تطلبها إسرائيل مـن ألمانيـا لحسـاب لاجئ فلسـطين) مـن القنصـل العـام المصرى بفرانكفورت (حسـن سـليمان) إلى وكيـل وزارة الخارجيـة بتـاريخ ٢١ / ٣ / ١٩٥٣ م برقم ٨٢ بتاريخ ٢١ / ٣ / ١٩٥٣ م عاجل جداً .

(٤) أحمد السيد النجار : بناء دولة -دور المساعدات الخارجيـة لإسـرائيل (٤٨ - ١٩٩٦) (مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية - الأهرام - القـاهرة - ١٩٩٨ م ، ص.ص ٤٩ - ٥١ .

(٥) انظر لقاء برنتانو وعبد الخالق حسونه أمين عام الجامعة العربية فى مايو ١٩٦١ م فى :

British Embassy, Cairo to Dept. May 20, 1961. (Burdett, Anita-ed.) The Arab League " British Documentary Sources 1943 - 1963 " Archive ed . 1995, Vol. 10, P . 446 .

(٦) انظر فى ذلك : وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٧٤٦ ملـف ١٤٠ / ١٤٠ / ٧ (الـدورة السادسة لجامعة الدول العربيـة - مـارس ١٩٤٧ م - قـرار سـرى مرفـق برسـالة الأمانـة العامة لجامعة الدول العربية إلى وزير خارجية المملكة المصرية ، بتاريخ ١٧ جمـادى الأولى ١٣٦٦ هـ ٩ إبريل ١٩٤٧ م .

(٧) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٧٤٩ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج١ / حجـز التعويضـات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين « رسالة من الوزير المفوض المصرى بدمشق (حسين عزيز) إلى وكيل وزارة الخارجية » ، سرى بتاريخ ٢ / ٣ / ١٩٥٢ م .

(٨) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٣٤٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٢« حجـز التعويضـات التى تطلبها إسـرائيل مـن ألمانيـا لحسـاب لاجـئ فلسـطين » مذكـرة مـن القنصـل العـام بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجيـة سـرى جـدا بتـاريخ ٥ / ٩ / ١٩٥٢ م برقـم ٦ سرى .

(٩) المصدر نفسه .

(١٠) انظر هذه المقترحات كاملة فى : وثائق الخارجية المصرية ، محفظة ٣٤٥ الملف السابق ، من القنصل العام المصرى بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن « تقرير عن محادثات مندوب خاص الحكومة السورية مع الحكومة الألمانية بشأن تعويضات ألمانيا الغربية لإسرائيل واليهود ومقترحات فىهذا الشأن» سرى وعاجل بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٩٥٢م.

(١١) المصدر نفسه ملف رقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٣ « حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » من القنصل العام المصرى بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية ، سرى بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٩٥٢ م .

(12) Feldman : op. cit., p 79.

(13) Deutschkron, Inge : Bonn and Jerusalem "the strong coalition" (Chilton Book Company, Philadelphia, N.y ., London, 1st ed . 1970) P. 79

(14) Ibid : P . 81 & Feldman : op . cit . P . 79

(١٥) وثائق الخارجية المصرية : محفظة رقم ٣٤٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٢ . تقرير من القنصل العام المصرى بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن « وصول وفد الجامعة العربية » سرى بتاريخ ٢٤ / ١٠ / ١٩٥٢ م .

(١٦) المصدر نفسه ملف رقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٣ ، مذكرة من وكيل وزارة الخارجية إلى حضرة القائم بالأعمال المصرى بالسفارة الملكية بطهران سرى جدا بتاريخ نوفمبر ١٩٥٢ م .

(١٧) المصدر نفسه ، نفس الملف . مذكرة من مدير إدارة الصحافة إلى إدارة المحفوظات بوزارة الخارجية - مرفق بها مذكرة اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية - مرسلة إلى حكومة الجمهورية الاتحادية الألمانية . بتاريخ ١٦ / ١١ / ١٩٥٢ م.

(18) Deutschkron : Op. Cit. p.p. 80 - 81 .

(١٩) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٣٩٩ ملف رقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٤ «حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » مذكرة من وزارة الخارجية المصرية إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية - عاجل مع مخصوص - بتاريخ ٣١ / أغسطس ١٩٥٣ م .

(٢٠) المصدر نفسه ملف رقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٥ « حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » تقرير من السفير المصرى ببون إلى وكيل وزارة الخارجية - سرى بتاريخ ١٨ / ١ / ١٩٥٤ م برقم ٨ سرى .

(٢١) المصدر نفسه – نفس الملف .مذكرة من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية (إدارة فلسطين) إلى وزارة خارجية جمهورية مصر العربية بشأن نص قرار الجامعة فى جلسته الثامنة من دورة انعقاده العادى العشرين بتاريخ ٢٧ / ١ / ١٩٥٤ م.

(٢٢) المصدر نفسه – نفس الملف . مذكرة من الأمانة العامة لـ ج.د.ع. إلى وزارة خارجية جمهورية مصر سرى وعاجل بتاريخ ١٦ / ٩ / ١٩٥٤ م.

(٢٣) المصدر نفسه – محفظة ٣٧٢ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٦ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » مذكرة من إدارة الشئون الاقتصادية بوزارة الخارجية – إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بتاريخ ١٧ / ١٠ / ١٩٥٤ م .

(٢٤) المصدر نفسه : محفظة ١٢٨٥ ملف ٣ / ١ / ٤ سرى قرارات اللجنة السياسية ولجنة الشئون السياسية بتاريخ ١٤ / أكتوبر ١٩٥٥ م (سرى جدا وغير قابل للنشر) .

(٢٥) المصدر نفسه – محفظة ٣٧٢ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٧ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » ، مرفق بمذكرة الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية إلى مكتب الرئيس للشئون السياسية ومدير إدارة شئون فلسطين بوزارة الحربية برقم ١٣٣٥، ٥٨٥ سرى .

(٢٦) المصدر نفسه – نفس المحفظة والملف ، مذكرة من الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية – بتاريخ ١٥ ديسمبر ١٩٥٦ م .

(٢٧) المصدر نفسه : محفظة ٣٩٥ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج٨ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » مذكرة بشأن اجتماع المبعوثين الدبلوماسيين العرب فى بون ، مرفقة بكتاب المكتب الإقليمي لمقاطعة إسرائيل إلى وكيل وزارة الخارجية برقم ٥٧/٣٤٧ سرى بتاريخ ٨ / ١٠ / ١٩٥٧ م .

(٢٨) المصدر السابق نفس المحفظة والملف والتقرير .

(٢٩) المصدر نفسه : محفظة ٨٢٢ ملف ١٤٠ / ١٤٠ – ٣١ « الوحدة الاقتصادية لبلاد الجامعة العربية » قرارات ممثلى الدول العربية فى بون – ملحق الجلسة الثانية بتاريخ ١٤/ مايو ١٩٥٧ م .

(٣٠) المصدر نفسه : محفظة ٣٩٩ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٥ من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية « إدارة فلسطين » إلى وزارة خارجية مصر العربية ، بشأن نص قرار الجامعة فى جلسته الثامنة من دور انعقاده العادى العشرين بتاريخ ٢٧ / ١ / ١٩٥٤ م بشأن التعويضات الألمانية لإسرائيل .

(٣١) المصدر نفسه : محفظة ١٢٨٥ ملف ٣ / ١ / ٥ سرى (هيئات ومنظمات دولية وإقليمية - الجامعة العربية - قرارات المجلس الاقتصادى) مذكرة بقرارات المجلس الاقتصادى التى اتخذها فى دور انعقاده العادى الثانى - ديسمبر ١٩٥٤ م برقم (م/ق/د/٢) سرى .

(٣٢) المصدر نفسه : نفس المحفظة ملف ١٤٠ / ١٢٣ / ١٢ ج١١ ، مذكرة من وكيل الخارجية (إدارة الشئون الاقتصادية) إلى المشرف العام على المكتب الإقليمي لمقاطعة إسرائيل ، بتاريخ ٨ مارس ١٩٦٠ برقم ١٤٠ / ١٢٣ / ١٢ م.

(33) Deutschkron : op. cit . P . 75 .

(٣٤) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٣٤٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٢ (حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين) مذكرة بشأن التعويضات التى تطالب بها إسرائيل ألمانيا الغربية أعدتهما الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية بتاريخ ٢٣ / ٩ / ١٩٥٢ م .

(٣٥) نفس المصدر والمحفظة والتقرير .

(٣٦) المصدر نفسه : نفس المحفظة والتقرير .

(٣٧) المصدر نفسه : محفظة ٣٧٢ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٦ (تعويضات إسرائيل من ألمانيا) مذكرة من السفير المصرى فى بون إلى وكيل وزارة الخارجية - سرى بتاريخ ١١ / يناير ١٩٥٤ برقم ٥ سرى .

(٣٨) المصدر نفسه : محفظة ٣٩٩ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٧ مذكرة من مدير مكتب نائب رئيس مجلس قيادة الثورة « صاغ أمين شاكر » . إلى وزير الخارجية سرى جدا بتاريخ ١٣ / ٧ / ١٩٥٤ م برقم ٦ / ٧ - ٤٠٢٧

(٣٩) المصدر نفسه ، نفس المحفظة ، ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٥ (تعويضات إسرائيل من ألمانيا وحجزها لحساب لاجئ فلسطين) مذكرة من وكيل الخارجية (قسم الأبحاث) إلى سفير مصر ببون - بتاريخ ١٩٥٤ م .

(٤٠) المصدر نفسه ، محفظة ٦٨٤ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ١٧ ج٧ « النشاط الصهيونى» مذكرة من السفير المصرى ببون (أحمد جلال الدين عبد الرازق) إلى وكيل وزارة الخارجية (إدارة غرب أوروبا - إدارة الشئون العربية) بتاريخ ٢٢ / يناير ١٩٥٨ م برقم ١٣ سرى جدا .

(٤١) المصدر نفسه : محفظة ٣٤٥ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج٣ (حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين) مذكرة من القنصل العام المصرى بفرانكفورت إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ١٩٥٢/١١/١ م برقم٢٠ .

(٤٢) انظر فى ذلك : محفظة ٣٧٢ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج٦ «تعويضات إسرائيل من ألمانيا» مذكرة من السفير المصرى ببون إلى وكيل وزارة الخارجية - سرى بتاريخ ١٩٥٤/١/١١ م برقم ٥ سرى ، محفظة ٣٩٩ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج٤ « حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » مذكرة من الملحق الصحفى بفرانكفورت « كمال الدين جلال » إلى وكيل الخارجية - بتاريخ ١٩ / ٣ / ١٩٥٣ م برقم ٨٣ سرى .

(٤٣) المصدر نفسه : محفظة ٧٤٩ ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ مذكرة من وزارة التجارة والصناعة (مصلحة التجارة الخارجية - إدارة الاتفاقات التجارية) إلى وكيل وزارة الخارجية للشئون الاقتصادية بتاريخ ١٢ / ٣ / ١٩٥٦ م برقم ١/١١٢/١٣٢ .

(٤٤) المصدر نفسه محفظة ٣٤٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٣ ، برقيتان رمزيتان رقم ٩ ، ١٠ من السفارة المصرية بنيويورك صادرتان فى ٢ / ١١ / ١٩٥٢ م.

(٤٥) وثائق الخارجية المصرية : محفظة ٧٤٩ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج١ برقيات من الوزير المفوض المصرى بلاهاى إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ٢١ / ٣ / ١٩٥٢ م سرى برقم ٤٦ سرى ، وتاريخ ٢٧ / ٣ / ١٩٥٢ م سرى برقم ٥٠ سرى ، وبتاريخ ١٩٥٢/٥/١٦ م سرى ، برقم ٧٥ سرى ، برقية من وكيل وزارة الخارجية إلى وزير مصر المفوض بلاهاى سرى بتاريخ ١٩ / ٤ / ١٩٥٢ م .

(٤٦) نفس المصدر والمحفظة والملف : مذكرة أعدتها الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية بتاريخ ٢٠ / ٥ / ١٩٥٢ م ومذكرة من السفير المصرى بواشنطن إلى وكيل وزارة الخارجية (الإدارة العربية) سرى بتاريخ ٢ / ٧ / ١٩٥٢ م برقم ٦٩ سرى .

(٤٧) المصدر نفسه : محفظة ٣٤٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٣ مذكرة من مستشار الدولة « وحيد رأفت » إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن « التعويضات التى تنوى ألمانيا دفعها لإسرائيل بتاريخ ١٧ / ١١ / ١٩٥٢ م » .

(٤٨) المصدر نفسه : محفظة ٣٩٩ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٥ مذكرة من السفير المصرى ببون إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن « تصدير بضائع ألمانية مخصصة لإسرائيل إلى بلد ثالث » سرى بتاريخ ١٦ / ١٠ / ١٩٥٤ م برقم ٨٩ سرى .

(٤٩) نفس المصدر والمحفظة والملف : من وكيل الخارجية إلى سفير مصر بأنقرة سرى وعاجل بتاريخ ٩ / ٣ / ١٩٥٤ م ، ومن السفير المصرى بأنقرة (أحمد حقى) إلى وكيل وزارة الخارجية سرى بتاريخ ١٢ / ٤ / ١٩٥٤ م برقم ٤٤ سرى .

(٥٠) نفس المصدر : محفظة ٣٩٥ ملف ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ ج٨ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » من السفير المصرى ببون « أحمد جلال الدين عبد الرازق » إلى وكيل وزارة الخارجية « بشأن التعويضات الألمانية لإسرائيل » سرى بتاريخ ١٩٥٧/٥/٣م برقم ٥٥ سرى.

(٥١) نفس المصدر والمحفظة والملف : مذكرة من وزارة الخارجية الألمانية إلى السفارة المصرية ببون بتاريخ ٢١ / ديسمبر / ١٩٥٦ م برقم ٢٠٦ / ٢٤٤ / ١٣ .

(٥٢) نفس المصدر والمحفظة والملف : مذكرة من الإدارة العربية بوزارة الخارجية إلى السيد السفير الوكيل المساعد للشئون السياسية بوزارة الخارجية - بتاريخ ١٩٥٧/٢/٧م.

(٥٣) نفس المصدر والمحفظة والملف والتقرير .

(٥٤) نفس المصدر والمحفظة : ملف ٢٨/٤٨/١٤٠ ج٩ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا » مذكرة أعدتها إدارة غرب أوروبا بوزارة الخارجية برقم ١٤٠ / ٤٨ / ٢٨ م ردا على مذكرة الطلبة العرب فى ألمانيا الشرقية بتاريخ ٢٨ / يناير / ١٩٥٨ م .

(٥٥) نفس المصدر ومحفظة ١٤٧٩ ملف ٣٧ / ٤٠ / ١٠ ج٤ « الاعتراف بدولة إسرائيل » مذكرة من وكيل الخارجية للشئون السياسية إلى مدير مكتب الرئيس للشئون السياسية .

(٥٦) نفس المصدر والمحفظة والملف : مذكرة من السفارة المصرية ببون إلى وكيل وزارة الخارجية بتاريخ ١٧ / يوليو ١٩٥٧ م برقم ١٢٨ سرى جداً .

(٥٧) نفس المصدر ومحفظة ١٥١٢ ملف ٣٠ / ٤٥ / ١٨ « شكاوى الشركات الأجنبية ضد هيئة إدارة القنال » مذكرة أعدها مدير إدارة غرب أوروبا « محمد شفيع » بشأن « مقابلته لدكتور موتزل السكرتير الأول لسفارة ألمانيا الغربية بالقاهرة » سرى بتاريخ ١٩٥٧/٦/٢٣ م .

(٥٨) نفس المصدر : محفظة ١٤٧٩ ملف ٣٧ / ٤٠ / ١٠ ج٤ « الاعتراف بدولة إسرائيل » مذكرة أعدتها الإدارة السياسية بوزارة الخارجية بشأن « اعتزام حكومة ألمانيا الفيدرالية إنشاء علاقات دبلوماسية مع إسرائيل » بتاريخ أكتوبر ١٩٥٧ م . وجدير بالذكر أن العلاقات الدبلوماسية بين ألمانيا وإسرائيل قد عقدت فى عام ١٩٦٥ م .

Feldman : cip, cit, P. 48, Note .

(٥٩) نفس المصدر والمحفظة : ملف ١٠/٤٠/٣٧ ج٥ « الاعتراف بدولة إسرائيل » مرفق بتقرير السفير المصرى بواشنطن «أحمد حسين » إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن «احتمال اعتراف ألمانيا الغربية بإسرائيل » سرى بتاريخ ٣٠ / سبتمبر / ١٩٥٧ م برقم ٢١٤ .

(60) Feldman : op. cit . P . 196 .

(61) Deutschkron : op. cit . P . 87 .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

وثائق الخارجية المصرية :

- محفظة٣٤٥ملف١٤٠/٤٨/٢٨ جـ٢/جـ٣ «حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين »
- محفظة ٣٧٢ ملف١٤٠/٤٨/٢٨ جـ٦ «تعويضات إسرائيل من ألمانيا»
- محفظة ٣٩٥ ملف ١٤٠/٤٨/٢٨ جـ٨ ، جـ٩ « تعويضات إسرائيل من ألمانيا »
- محفظة ٣٩٩ ملف ١٤٠/٤٨/٢٨ جـ٤ ، جـ٥ ، جـ٧ «حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين».
- محفظة ٦٨٤ ملف ١٤٠/٤٨/١٧ جـ٧ «النشاط الصهيوني ».
- محفظة ٧٤٦ ملف ١٤٠/١٤٠/٧ .
- محفظة ٧٤٩ ملف ١٤٠/٤٨/٢٨ جـ١ « حجز التعويضات التى تطلبها إسرائيل من ألمانيا لحساب لاجئ فلسطين » .
- محفظة ٨٢٢ ملف ١٤٠/١٤٠/٣١ «الوحدة الاقتصادية لبلاد الجامعة العربية».
- محفظة ١٢٨٥ ملف ٣/١/٥ سرى .
- محفظة ١٢٨٥ ملف ١٤٠/١٢٣/١٢ جـ١١ .
- محفظة ١٤٧٩ ملف ٣٧/٤٠/١٠ جـ٤ ، جـ٥ « الاعتراف بدولة إسرائيل ».
- محفظة ١٥١٢ ملف ٣٠/٤٥/١٨ « شكاوى الشركات الأجنبية ضد هيئة إدارة القنال » .

وثائق أجنبية منشورة :

- The Arab League « British documentary sources 1943-63 » Archive ed. 1995 . vol. 10.

ثانيا : المراجع :

مراجع عربية :

- أحمد السيد النجار : بناء دولة - دور المساعدات الخارجية لإسـرائيل ٤٨-١٩٩٦م « مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية - الأهرام - القاهرة - ١٩٩٨ م »
- د . وجيه عتيق : السياسة الدوليـة وخفايـا العلاقـات المصريـة / الألمانيـة ٥٢ - ١٩٦٥ م « دار النهضة العربية ١٩٩١ م »
- د . يونان لبيب رزق : الخارجية المصريـة ١٨٢٦ - ١٩٣٧ م « الهيئـة المصريـة العامة للكتاب ١٩٨٩ م »

مراجع أجنبية :

- Deutschkron, inge: Bonn and Jerusalem "the strong coalition" "Chilton book company Philadelphia N . Y, London 1st ed . 1970" .
- Feldman, Lily Gardner : the special relationship between west Germany and Israel " George Allen unwin 1st ed . 1948"

ثالثا : دوريات :

عربية :

- جريدة أريف الأرمينية « الملحق الشهرى العربى العدد الخامس مـايو ١٩٩٨ م» مقال عن « ملامح تطور وزارة الخارجية المصرية » إعداد د . صفاء شاكر .
- جريدة القراءة للجميع - تصدرها الهيئة العامة لدار الكتـب والوثـائق القوميـة - السنة الثالثة العدد الثالث - الأحد ٢١ / ٦ / ١٩٩٨ م

أجنبية :

- Middle East Journal Outonn, 22 dec. 1957 vol. 11 no 1

عرب الخليج فى وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية ويوميات جمبرون لشركة الهند الشرقية الإنجليزية

د. محمد مرسى عبد الله(*)

أولاً : ظهور وثائق شركة الهند الهولندية والإنجليزية :

يعتبر تكوين هذه الشركات مرحلة جديدة فى تاريخ أوربا فهى شركات سرعان ما أصبح لها أسطول وجيش إلى جانب المراكز التجارية ونشاطها التجارى. وكانت هذه الشركات مخولة لتمثيل بلدها فى عقد الاتفاقيات الاقتصادية والسياسية مع الدول الآسيوية . وكان نشاطها هذا نواة تكوين الإمبراطورية الهولندية والبريطانية فى مياه المحيط الهندى .

تأسست شركة الهند الهولندية عام ١٦٠٢ وهى مؤسسة كبيرة وتسمى رسمياً شركة الهند الشرقية المتحدة V. O. C. وهى وليدة اتحاد فدرالى لست شركات تجارية تمثل المقاطعات الهولندية المتحدة وقد قام بها سياسيون هولنديون فى ذلك العام .

وتوجهت سفن هذه الشركة ورجالها نحو أندونيسيا وأسست لها فى عام ١٦١٩مدينة أوربية فى قرية جاكرتا بجزيرة جاوة وسميت بتافيا وأصبحت بتافيا المقر الرئيسى للشركة ويقيم فيها الحاكم العام .

وسرعان ما نشأ لهذه الشركة مؤسسات فى كثير من المواقع مثل كولومبو ومالابار وكيبتون والبنغال . ومنها مؤسسة فى بندر عباس عام ١٦٢٣ . وكان من المتوقع أن يشارك الهولنديون فى حملة الشاه عباس ضد موقع البرتغاليين فى جزيرة هرمز والجسم ولكن سبقهم بذلك الإنجليز وتطور مبنى الوكالة الهولندية فى

(*) مدير مركز الوثائق والدراسات أبو ظبى

أواخر القرن السابع عشر إلى فندق يحيط به ساحة المكاتب وورش العمال ووحدات سكنية ومخازن للبضائع والأسلحة والمؤن وقطع غيار السفن ومعداتها . ثم بني مجمع عسكرى أواخر القرن خارج المدينة وبه مرسى آمن .

وفى عام ١٧٥٠ انتقل مقر وكالة الشركة الهولندية فى الخليج إلى البصرة وظلت هنالك حتى عام ١٧٥٥ ثم انتقلت بعد ذلك إلى جزيرة خارج بين عام ١٧٥٥ وعام ١٧٦٥ . ورحل الهولنديون نهائياً عن الخليج فى عام ١٧٦٦ .

أما شركة الهند الشرقية الإنجليزية فقد تأسست عام ١٦٠٠ . وتوجهوا إلى أندونيسيا أيضاً . ولكن طردهم منها الهولنديون . وحصلت الشركة على فرمان تأسيس وكالة لها فى جاسك عام ١٦١٦من إمبراطور المغل فى الهند . ونشأت ٧ مراكز أخرى فى داخل إيران فى شيراز وأصفهان فى عام ١٦١٧ وتعاونت بحرية الشركة مع الشاه عباس فى احتلال جزيرة الجسم وطرد الحامية البرتغالية من هرمز. وكافأهم الشاه بإعطائهم وكالة فى جمبرون التىسرعان ما سميت بندر عباس .

وهنا بدأت تظهر لنا وثائق الشركة الإنجليزية المعروفة باسم وثائق جمبرون وامتدت فترتها حتى عام ١٧٦٣ بعد أن قررت شركة الهند الشرقية الإنجليزية التخلى عن موقعها فى بندر عباس بعد أن حطمت مبنى الوكالة البحرية الفرنسية علم ١٧٥٩ وانتقل مقر الوكالة إل البصرة ثم استقر فى بوشهر عام ١٧٦٣ واستمر هنالك المقر الرئيسى للنشاط البريطانى فى الخليج حتى عام ١٩٤٧ .

ثانياً : أحداث القرن السابع والثامن عشر فى الخليج :

هذه الفترة غنية بالأحداث والتطورات فى دول الخليج . فى إيران بدأ القرن السابع عشر بوجود الشاه عباس الذى نقل مقر الحكم من تبريز إلى أصفهان وتعاون مع شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى القضاء على مقر النفوذ البرتغالى فى

هرمز عام ١٦٢٢ . وبدأ النفوذ البريطاني والهولندى التجارى يحل مكان النشاط البرتغالى حتى اختفى تماماً فى نهاية القرن السابع عشر الوجود البرتغالى فى المنطقة.

كما شاهد هذا القرن استمرار ضعف نفوذ الدولة العثمانية فى العراق والحسا وقد استقلت إمارة عائلة أفرسياب فى البصرة التى استقلت بها منذ عام وسقطت هذه العائلة عام .

وفى عمان ظهرت دولة اليعاربة التى لعبت دوراً كبيراً منذ عام ١٦٢٤ فى تحرير عمان من النفوذ البرتغالى وسقطت قلاع مسقط فى يدهم عام ١٦٥٠ . وأصبح لهذه الدولة أسطول كبير وهاجمت مواقع البرتغال الباقية فى الخليج وعلى ساحل أفريقيا الشرقى وقضت عليهم .

وفى إقليم الحسا كان ظهور إمارة بنى خالد فى عام . واستمرت هذه الإمارة تسيطر على أحداث الحسا حتى سقوطها على أيدى الوهابيين فى عام ١٧٩٦ .

وشهد القرن الثامن عشر الكثير من التغيرات التاريخية مثل :

- سقوط الدولة الصفوية عام ١٧٢٢ على يد محمود الأفغانى وقبائل الأفغان وعاشت إيران فى حالة من الفوضى حتى استعاد النظام فيها نادر شاه بين عام ١٧٣٠ وعام ١٧٤٧ . ثم سادت الفوضى ثانية حتى اقام فى بلاد فارس كريم خان زند بين عام ١٧٥٩ وعام ١٧٧٩ لوناً من الاستقرار والأمن وكانت عاصمته شيراز . وفى نهاية القرن قامت قبيلة قاجار بالسيطرة على الحكم فى تبريز ونشرت نفوذها فى كل أنحاء إيران عام ١٧٩٦ .

- ظهور الحركة الوهابية فى قلب نجد وسيطرتها على الدرعية عام ١٧٤٥ وانتهى هذا القرن بفرض هذه الدولة لنفوذها على الحسا عام ١٧٩٦ ودخلت

قواتها قطر . كما بدأت نشاطها فى عمان عام ١٨٠٠ . وبدأت تتجه إلى السيطرة على إقليم الحجاز حيث مكة والمدينة منذ عام ١٨٠٥ .

• أما فى عمان فقد سقطت دولة اليعاربة . وحدث انقسام بين قبائل عمان بين عام ١٧١٨ وعام ١٧٢٨ . ثم كانت غزوة نادر شاه لعمان بين عام ١٧٣٧ وعام ١٧٤٧ التى أدت إلى ظهور الإمام أحمد بن سعيد الذى حرر مسقط وصحار من الفرس . وأقام دولة ألبوسعيد . ولكن ظهر فى نفس الوقت قيادة لقبائل الشمال تحت قيادة الزعيم رحمة بن مطر القاسمى الذى استقل بإقليم الشميلية والظاهرة فى عمان وأنشأ إمارة القواسم .

• كما شاهد هذا القرن جذور قيام الإمارات العربية فى الخليج . إمارة آل صباح فى الكويت وإمارة آل خليفة فى شمال قطر والبحرين . ووضعت النواة الأولى لاستقلال قطر تحت حكم آل ثانى فى القرن التاسع عشر أما فى ساحل عمان الشمالى فقد قام هنالك حلفان كبيران حلف القواسم وعاصمته مدينة رأس الخيمة التى قامت على أنقاض ميناء جلفار . وكان للقواسم زعامة على القبائل العربية على الساحل الإيرانى وتكونت لهم إمارة هنالك فى ميناء لنجة . كما قام أيضاً فى ساحل الإمارات حلف بنى ياس الذى اتخذ من مدينة أبو ظبى عاصمة له .

• هذه هى الأحداث الهامة فى منطقة الخليج خلال القرنين السابع والثامن عشر وهذه الفترة تعاصر حدثاً كبيراً فى الخليج وهو نشأة وجذور الإمارات العربية على الساحل العربى . ماذا تضيف لنا وثائق جمبرون أى وكالة بندر عباس الإنجليزية وكذلك وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية من جديد عن عرب الخليج الذين جاء القليل عنهم فى المخطوطات العمانية ؟

ثالثاً : أضـواء جديـدة عـن عـرب الخليـج فـى الوثـائق الهولنديـة والبريطانية :

كيف تحولت قبائل إقليم الظاهرة وفى منطقة الظفـرة وليوا فـى عمـان مـن قبـائل بدويـة إلى أحـلاف سياسية وإمـارات وكيـف استقلت عـن جسـد دولـة آلبوسعيد فى منتصف القرن الثـامن عشـر ؟ لا تسـعفنا المخطوطـات العمانيـة فـى تاريخ هذه الفترة بمعلومات كثيرة عن هذا الموضوع وكل ما جاء عنه جمل متنـاثرة هنا وهناك لا تكفى لتكوين صورة عن الظـروف التاريخيـة التـى نشـأ فيهـا حلـف القواسم وحلف بنى ياس . ومن هم زعماء هذه الأحلاف وما هـى سيرتهم ؟ إن هذه الإمارات تشكل اليوم دولة الإمارات العربية المتحدة . كمـا نتـج عـن هجـرة القبائل العربية المعاصرة لهذه الأحلاف قيام إمارة آل صباح فى الكويت وقيام إمارة آل خليفة فى البحرين .

وكان لابد مـن البحـث عـن أضـواء ومصـادر جديـدة للإجابـة علـى هـذه الأسئلة لهذا قام مركز الوثائق والدراسات . وعمله الرئيسـى البحـث عـن المصـادر الجديدة فـى تـاريخ الخليـج بعمـل مشـروعين كبـيرين منـذ عشـرين عامـاً . الأول التعرف على وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية المحفوظة فى لا هـاى . علـى أمـل ترجمة هذه الوثائق إلى اللغة الإنجليزية والعربية وقد قام بجمع هـذه الوثـائق للمركـز الدكتور سلوت نائب مدير الأرشيف هنالك . وبعد مرور هذه السـنوات الطويلـة على فهرسة هذه الوثائق . وبسبب صعوبة قراءة لغة هـذه الوثـائق الهولنديـة وهـى مكتوبة فـى فـترة متقدمـة حتـى ليصعـب علـى أبنـاء هولنـدا إلا المتخصـص منهـم قراءتها. فكر المركز فى تكليف الدكتور سلوت بعمل دراسة عن عرب الخليج فـى الفترة ما بين عام ١٦٠٢ وعام ١٧٨٤ . ونشرت هـذه الدراسـة باللغـة الإنجليزيـة عام ١٩٩٣ كما ترجمها المجمع الثقافى فى أبو ظبى إلى اللغة العربية . وفى رأيى أن

هذا من أكبر الإنجازات التى حققها المركز فى عمله خلال هذه السنوات . وقد اضافت لنا هذه الوثائق معلومات طيبة جديدة عن عرب الخليج . وسوف نرى مثالاً لذلك دراستنا عن الشيخ رحمة بن مطر القاسمى مؤسس حلف القواسم .

وتعتبر وثائق شركة الهند الشرقية الإنجليزية ووثائق حكومة الهند البريطانية التى ورثت عملها من المصادر الجديدة الهامة فى تاريخ الخليج الحديث إذ هى تشمل الفترة من عام ١٦٢٢ وحتى عام ١٩٤٧ . وقد عاشت الوكالة فترتها الأولى فى جمبرون وهى بندر عباس بين عام ١٦٢٢ وعام ١٧٦٣ . فهى بذلك قريبة من أحداث عمان بصفة خاصة وتلقى هذه الوثائق الضوء على هذه الفترة المبكرة من تاريخ حلف القواسم وحلف بنى ياس . وهذه الوثائق محفوظة فى أرشيف الوكالات فى مكتبة حكومة الهند فى لندن . كما أن الجزء الأكبر منها محفوظ فى ارشيف بومباى فى الهند فى مجموعة G/29 تحت عنوان فارس وخليج فارس وتسمى وثائق الوكالات . لم تحفظ أوراق هذه الوكالة فى جمبرون بل أرسلت إلى سورات ولندن بين عام ١٦٢٢ - ١٦٨٠ ثم بعد ذلك أرسلت إلى بومباى مقر الشركة الرئيسى فى غرب الهند . ويبدو ان وثائق هذه الوكالة قد فقد أغلبها أثناء تحطيم مدفعية الأسطول الفرنسى لمبنى هذه الوكالة فى بندر عباس عام ١٧٥٩ . وكان انتقال مقر الشركة عام ١٧٦٣ إلى بوشهر خيراً للتاريخ . لأن الشركة الإنجليزية هنا وكذلك الشركة الهولندية التى انتقلت بين عام ١٧٥٥ وعام ١٧٦٥ إلى جزيرة خارج فى شمال الخليج استطاعت أن تتعامل مع البصرة والعرب الوافدين الجدد فى الكويت من آل صباح . وسجلت لنا معلومات مفيدة عن هذه الإمارة .

ومن ضمن مجموعة وثائق بندر عباس التى انقذت من قذائف الأسطول الفرنسى عام ١٧٥٩ مجموعة تسمى رسائل مبكرة من فارس ورقمها G/29/1 وتشغل الفترة من ١٦١٩ - ١٦٩٧ . ويوميات جمبرون وتشمل الأجزاء من

الثانى إلى الرابع عشر وتشغل الفترة من ١٧٠٨ وحتى عام ١٧٦٣ . وهنالك مجموعة رسائل وملحقات من بندر عباس وتشمل الجزء ١٥ إلى السابع عشر وتشغل الفترة من عام ١٧٠٤ وحتى عام ١٧٦٣(١) .

وقراءة يوميات جمبرون وأوراق الشركة الإنجليزية فى تلك الفترة أمر فى غاية الصعوبة بسبب تهالك الأوراق من جراء الرطوبة فى الخليج وفى ميناء بومباى . وهى مكتوبة بخط اليد . ولغتها قريبة من لغة عصر شكسبير . وتحتاج قراءتها مرانا طويلاً . وقد قام مركز الوثائق والدراسات فى أبو ظبى منذ سنوات بإرسال ستة من الباحثين عام ١٩٩٥ لمدة شهرين لحصر المتيسر الموجود فى أرشيف بومباى وتصويره . وجاء ذلك فى ٢٢ ميكروفيلم كل فيلم حوالى ألفى صفحة . وجرى خلال عامين قراءة هذه الوثائق وفهرستها . وأعيد طباعة هذه الرسائل بالكمبيوتر لتسهل قراءتها واستخرجت من هذه المجموعة الموضوعات المختلفة ومنها الرسائل واليوميات التى تهم الشيخ رحمة بن مطر القاسمى .

ماذا تقول الوثائق الهولندية والوثائق البريطانية عن الشيخ رحمة بن مطر القاسمى ؟

رابعاً : رحمة بن مطر القاسمى مؤسس حلف القواسم :

القواسم هم العائلة أو القبيلة التى ينتسب إليها فى إيامنا هذه العائلة الحاكمة فى كل من إمارتى الشارقة ورأس الخيمة . وقد تزعمت هذه العائلة من قبائل ساحل عمان وأرض الظاهرة وساحل الشميلية على خليج عمان فى بداية القرن الثامن عشر ، واعتبرت التقارير البريطانية فى وكالة جمبرون (بندر عباس) وهى حديثة العهد يومذاك فى التعامل مع عمان كل القبائل المتحالفة مع هذه العائلة أفراداً فى قبيلة واحدة تسكن هذه المنطقة وتسمى القواسم . وذاع اسم القواسم

فى التاريخ الحديث لجنوب شرقى الجزيرة العربية إذ تزعمت هذه العائلة بقيادة الشيخ رحمة بن مطر القاسمى حلف القبائل الغافرية فى ساحل عمان أول نشأة دولة ألبوسعيد وأنشأت لها إمارة مستقلة عاصمتها رأس الخيمة .

كما ذاع اسم القواسم فى بداية القرن التاسع عشر لظهور نزعة المغامرة لديهم واعتناقهم مذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب وترصدهم لسفن دولة آلبوسعيد حكام مسقط وعمان وكذلك سفن حلفائهم شركة الهند الشرقية الإنجليزية مما أدى إلى قيام عدة حملات مشتركة بين البريطانيين فى بومباى وحكومة ألبوسعيد فى مسقط ضد القواسم وكان آخرها حملة حكومة بومباى ضد رأس الخيمة عام ١٨١٩ .

تنتشر جماعات القواسم فى أماكن متفرقة داخل عمان فى ملتقى بوادى سمايل وفى نفعا بوادى منصح وفى صحم بساحل الباطنة . وكذلك يوجدون فى المزرعة العلوى فى وادى الخليج وفى بندر جصة جنوبى مسقط . كما تعيش عائلات منهم مع بنى بو على فى صور وأرض جعلان . كما سكنت جماعات من القواسم على ساحل إيران فى الخليج وكان لهم إمارة فى لنجة فى بداية القرن الثامن عشر .

ويغلب على الظن أن القواسم كانوا نشطين فى التجارة وفى المناصب العسكرية فى مملكة هرمز العربية وسكن بعضهم على الساحل الإيرانى كما سكن مجموعة أخرى فى جلفار . ولما سقطت مملكة هرمز عام ١٦٢٢ على يد الإنجليز والشاه عباس بدأت حركة هجرة واسعة للقبائل والعناصر العربية هرباً من اضطهاد الفرس لعرب هذه الدول . وهنا تفرق القواسم كما رأينا فى توزيعهم فى أنحاء عمان .

تذكر وثيقة برتغالية أنه فى عام ١٦٢٣ نجح القائد البرتغالى جاسبارو ليته Gasparo Leite فى دخول قلعة كلبا وأخذها من قائدها القاسمى الذى كان يتمتع بشهرة واسعة وقد تم هذا الهجوم تنفيذاً لأوامر القائد العام فريرى دى اندرارى(٢). و لم يكن تثبيت البرتغال أقدامهم على الساحل العربى للخليج بعد سقوط دولتهم فى جزيرة هرمز والجسم عام ١٦٢٢ بالأمر الهين . إذ اندلعت حركة مقاومة شرسة لهم فى إقليم الشميلية وفى روس الجبال وفى جلفار وأرض الظاهرة . واجتمع قادة القبائل العمانية وعلماؤها وانتخبوا لهم إماماً هو ناصر بن مرشد اليعربى عام ١٦٢٤ لتحرير بلادهم من الوجود البرتغالى .

وقد جاء فى وثائق شركة الهند الشرقية الهولندية فى بندر عباس رصد طيب لحركة التحرير التى قام بها أول حكام دولة اليعاربة ناصر بن مرشد إذ جاء فيها :

« وصل إلى بندر عباس أنباء تفيد بأن العرب حاصروا جلفار ثم هزموا البرتغاليين الذين كانوا هناك ، كما غزا العرب الحصن وقتل أربعون جندياً برتغالياً وفر الباقى هاربين إل مسقط»(٣) .

ويأتى ذكر للقواسم فى الوثائق الهولندية عام ١٦٤٨ فى نهاية حكم الإمام ناصر اليعربى أثناء ضربه الحصار على البرتغاليين فى حصون مسقط ، وقد تم التوصل إلى اتفاقية بين قادة جيشه والبرتغاليين لتسليم الحصون . وكان أحد قادة الحصار سيف بن على بن صالح القاسمى . وقد جاء فى الاتفاقية الموقعة فى ٣٠ أكتوبر ١٦٤٨ بين الإمام ناصر بن مرشد وقائد مسقط العام جيلينز دى نورونها Gileames De Noronha ما يلى :

« لقد اجتمع فى شاطىء ريام الشيخ سلطان بن سيف اليعربى القائد العام لقوات الإمام وقادة الجيش وهم راشد بن سالم بن على وعلى بن عبد الله الرستاقى والشيخ سيف بن على بن صالح القاسمى »(٤) .

وقد وقع الاتفاق هؤلاء القادة وذكر أن الشيخ سيف بن على بن صالح القاسمى هو الذى كتب الاتفاق العربى بيده كما جاء فى الوثائق البرتغالية .

وقد رسم لنا الوكيل الهولندى فى بندر عباس ويلمسون صورة مفصلة عن الإمام سلطان بن سيف فقال :

« يتحد الجميع فى طريقة لباسهم . وعندما نصف الإمام الكبير فكأننا نصف أيضاً جندياً عادياً أو راكب جمال أو فلاح . وعندما استقبلنا الإمام بحضور الجمهور كان على رأسه عمامة صنعت من القطن الخالص . ويبلغ طول هذا الجزء الخلفى منه ثلاثة أرباع الذراع . ولم تكن هذه العمامة عادية لأنه كان يضع على رأسه تحتها قلنسوة صنعت من خيوط الذهب فيما كانت قبعات الآخرين بسيطة ومصنوعة من القطن . ويضع الإمام سيفه إلى جانبه . ولكنه يحمله عادة فى حزام عريض على كتفه الأيسر ولا تختلف سترة الإمام عن سترات الأشخاص العاديين . فهى مصنوعة من الصوف ومقلمة بالطول بأقلام بيضاء عرض الكف وتتعلق على كتفيه كأنها غطاء أو عباءة أو كأنها معطف قائد السفينة . وهى دون أكمام . وكان يرتدى تحتها ثلاث عباءات أخرى وبعض القمصان المصنوعة من القطن أحدها ذو أكمام واسعة تصل

إلى رسغ قدميه . وكان يتمنطق بحزام يضع فيه خنجره وقد نسج عرضاً بخيوط الذهب . وكان حذاؤه أصفر اللون على الطراز الفارسى . والإمام متوسط القامة داكن البشرة »(٥) .

وينطبق هذا الوصف فى بساطة الملبس وتوحده والمساواة الواضحة بين الرئيس ورعيته فى المجلس مع وصف الرحالة البريطانى Thesiger الذى عبر الربع الخالى عام ١٩٤٧ وسمع كثيراً بين البادية عن اسم الشيخ زايد . وزار الشيخ زايد ابن سلطان آل نهيان فى مجلسه بمدينة العين حيث يجلس هو ومن معه على الأرض فى حلقة ، ولباسهم جميعاً واحداً ولا تستطيع أن تعرف الشيخ إلا من هيبته ونظر الجميع نحوه ومتابعة الشيخ فى وقوفه لتحية القادمين وقيام الجميع معه(٦) .

جاء أول ذكر للشيخ رحمة بن مطر القاسمى مؤسس حلف القواسم فى الوثائق الهولندية عام ١٧١٨ كأحد قادة جيش الإمام سلطان بن سيف الثانى فى حصار قلعة هرمز . ففى فبراير من هذا العام كانت سفينة هولندية فى طريقها من بتافيا إلى بندر عباس . وعندما دخلت الخليج نفذت منها المواد الغذائية الطازجة . وقرر بعض البحارة فيها أن يتوجهوا على مركب صغيرة إلى جزيرة لارك لتلبية حاجاتهم ، وأوقفتهم سفينة مراقبة عمانية ظناً منهم أن هؤلاء الهولنديين برتغال . ونقل هؤلاء البحارة إلى قيادتهم فى جزيرة هرمز . وهذا وصف لمقابلة هؤلاء البحارة الهولنديين لقادة الجيش العمانى :

« حوالى الساعة الثامنة قادنا ذلك الكابتن وبعض الضباط الآخرين إلى القائد العمانى ، ومررنا بصف من الجنود عددهم ألف جندى مسلح يحيون ببندقياتهم . وذهبنا إلى مبنى قديم شبه متهدم حيث شاهدنا رجلين جالسين على سجادة جميلة يحملان السيوف والدروع وبدا لنا أنهما من الأعيان . ودعانا

الرجلان للجلوس على السجادة بجانبهما وسألانا عن جنسيتنا فأجبنا أننا من هولندا وأننا نخدم الوكالة الهولندية فى بندر عباس . وسألنا أحدهم عن الجهة التى قدمنا منها وأجبنا أنا قادمون من بتافيا ووجهتنا بندر عباس . ثم سألانا عن طريقة معاملتنا فى جزيرة لارك وأجبته أنها حسنة وأننا مدينون لهم بالشكر . ثم سألنى عن سبب قدومنا إلى لارك وأعطانا رسالة منهما إلى الوكيل الهولندى فى بندر عباس وسمح لنا بالمغادرة. ثم غادرنا ومررنا بصف من الجنود إلى حيث كان الكابتن . وهنالك دعينا لتناول الغداء . وبعد الطعام غادرنا إلى مركبنا»(٧) .

ومن قراءة هذه الرسالة التى سلمت لهؤلاء البحارة الهولنديين يتضح أنها من القائد ناصر بن عبد الله الحبسى والشيخ رحمة بن مطر القاسمى وتقول هذه الرسالة:

« بعد التحية نؤكد لكم برسالتنا صداقتنا تجاهكم . أما من حيث احتجاز رجالنا للمركب الشراعى فى لارك وهى تحت حكم الأمام فقد حدث ذلك نتيجة لجهلهم تماماً ما إذا كان البحارة من الهولنديين أو الإنكليز أو البرتغاليين أو الفرنسيين أو الدنماركيين . وفور علمنا بأنهم هولنديون أطلقنا سراحهم وقد أمرنا الإمام أن نحترم الشركة الهولندية الموقرة فى جميع المسائل وعلينا الطاعة »(٨) .

وقد عاصر الشيخ رحمة بن مطر القاسمى الحرب الأهلية فى عمان التى اندلعت بعد وفاة الإمام سلطان بن سيف اليعربى . وتزعم الشيخ رحمة قبائل

جلفار والظاهرة وإقليم الشميلية وانضم إلى الحزب الغافرى فى عام ١٧٢٣ . وقد كتب سرحان بن سعيد فى مخطوطته كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة وهو معاصر لهذه الأحداث ما يلى فى العام ١٧٢٣ :

« وأقام محمد بن ناصر بالرستاق وأشهر أن الأمام هو سيف ابن سلطان وهو مع ذلك غير بالغ الحلم . ووصل رحمة بن مطر بن رحمة الهولى بقدر خمسة آلاف من بدو وحضر ومنهم من لا يعرف العربية ولا يعرف صديقه من عدوه » .

ويتابع صاحب كشف الغمة حديثه عن نشاط الشيخ رحمة بن مطر القاسمى فيقول :

وكان خلف بن مبارك المعروف بالقصير قد قهر حصنى بركا وعسكر فيه ومعه بنو هناة . فأمر محمد بن ناصر الغافرى الجيش بالسير إلى بركا فسار رحمة بن مطر الهولى بقومه . وثم ورد كتاب من فرع الدرمكى من بنى هناة إلى رحمة بن مطر يقول : إنك لا تصل إلينا فنحن واصلون إليك على سبيل التهدد . فلما قرأه رحمة وعرف معناه أمر بالسير إلى بركا . والتقاهم رحمة بمكان يسمى القاسم فوثب عليه قضيب الهولى عل فرس والقوم على أثره فقتل منهم عشرة رجال وانكسر أصحاب فرع وجرح قضيب جرحا هينا .

وسار رحمة بالقوم . ثم إنه بعث عيونا فوجدوا خلف بن مبارك القصير قد طلع بقومه برا وبحرا بجيش لا يعلم عدده إلا الله . وكان عدد القوم الذين هم أصحاب محمد بن ناصر خمسة عشر ألف من بدو وحضر فالتقوا غربى بركا فوقعت

بينهم معركة عظيمة . وكانت عند أصحاب رحمة مدافع فضربوا الخشب التى بالبحر وانكسر خلف بن مبارك وأصحابه . ورجع رحمة إلى بلده »(٩) .

وقد ورد اسم الشيخ رحمة بن مطر أيضاً فى يوميات الشركة الهولندية خلال شهر أكتوبر عام ١٧٢٨ أثناء قصة التنافس على امتلاك جزيرة هرمز نتيجة الفوضى التى دبت على الساحل الإيرانى لسقوط الدولة الصفوية عام ١٧٢٢ ، إذ حدث تنافس لامتلاك جزيرة هرمز بين الشيخ رحمة بن مطر القاسمى والشركة الهولندية والشركة الإنجليزية . تقول اليوميات الهولندية :

« أرسلنا جورج جوتشى مندوبنا للتفاوض حول حصولنا على القلعة وجزيرة هرمز حسب إمكانيات الشركة والقضاء على محاولة الإنجليز وقد حمل مندوبنا معه خاتم الشركة والكثير من الهدايا . وجاءت طلقات المدافع من قلعة هرمز ترحب بمقدمنا. وقد وجدنا هنالك إلى جانب مندوب الإنجليز منافس آخر وهو الرجل الثرى الشيخ رحمة بن مطر الذى يطمع فى الحصول على الجزيرة والقلعة . ويبدو أن أهل هرمز لا يفضلون كثيراً مطالب الشيخ رحمة . ولقد علمت أن الشيخ رحمة حاكم جلفار الغنى يحاول جاهداً لامتلاك الجزيرة. وهو قادر على العطاء لأن هذا الرجل معروف أنه من أكبر وأكثر التجار المحليين العرب »(١٠) .

وفى يوليو ١٧٣٦ جاء فى وثائق جمبرون نبأ وفاة الشيخ راشد فى باسيدو وشاع خبر أن قوة من الفرس أرادوا القبض على زوجته الشيخة بيبى ومصادرة ما لديها من حلى وأموال . وقد أغضب ذلك الخبر القبائل العربية على الساحل

الفارسى والشيخ رحمة بن مطر . وكانت زوجة الشيخ راشد إمرأة ذات إرادة وعقل راجح ولجأت إلى الشيخ رحمة بن مطر وغيره من شيوخ العرب . وقد جاءت السفن محملة برجال القبائل العربية وكثير من عرب جلفار لنجدتها وقد نجح تهريبها إلى جلفار(١١) .

وفى أثناء الحملة الفارسية التى أرسلها نادر شاه إلى عمان تلبية لطلب الإمام الشاب سيف بن سلطان الثانى عام ١٧٣٧ على أثر هزيمته أمام منافسه الإمام بلعرب بن حمير يظهر مرة أخرى اسم الشيخ رحمة بن مطر القاسمى زعيماً جمع القبائل فى شمال عمان لمقاومة هذا الغزو الفارسى . وقد شغلت هذه الحملة الفترة ما بين عام ١٧٣٧ وحتى عام ١٧٤٧ . فى بداية عام ١٧٣٧ وصلت الحملة الفارسية إلى جلفار ولحق بها الإمام سيف بن سلطان الثانى . وقاوم الشيخ رحمة ابن مطر القاسمى القوات الفارسية ولكنه وقع أسيراً فى يدهم . ونقل إلى بندر عباس. وبعد فشل هذه الحملة أعيد الشيخ رحمة بن مطر إلى جلفار فى نهاية عام ١٧٣٨(١٢) .

وقد غضبت عمان من تصرفات الإمام سيف بن سلطان الثانى الذى جلب على البلاد مصائب الغزو الفارسى . واختار العلماء وزعماء القبائل إماماً جديداً هو سلطان بن مرشد اليعربى فى عام ١٧٣٨ . وحاول نادر شاه فى عام ١٧٤٠ إرسال حملة فارسية أخرى إلى عمان ولكن ثورة البحارة العرب فى أسطوله فى بندر عباس فى هذا العام حالت دون قيامه بهذه الحملة . وقد تطلب إخماد هذه الثورة العربية فى البحرية الفارسية عاماً كاملاً . وقد أرسل قادة هذه الثورة قباطنة السفن الفارسية العرب رسالة إلى الوكيل الإنجليزى فى بندر عباس وهم رحمة بن شاهين وإبراهيم بن على ومحمد بن عبد الله يحذرون الإنجليز فيها من المشاركة بمراكبهم فى إخماد ثورتهم حسب طلب السلطات الفارسية . وهدد هؤلاء

الشيوخ العرب الإنجليز بما سيصيب سفنهم وتجارتهم من خسران . وبدأ نادر شاه فى عام ١٧٤٢ يعد أسطولاً جديداً لتحقيق أحلامه فى غزو عمان . اشترى بعض قطعة من الشركة الهولندية والشركة الإنجليزية . وبنى القطعة الأخرى فى ميناء بوشهر بعد أن جلب لها الأخشاب من جبال بحر قزوين على بعد ألف كيلو متر(١٣) .

وفى فبراير عام ١٧٤٢ حاصر الإمام سلطان بن مرشد الشاب سيف بن سلطان الثانى فى قلعة مسقط . وهرب سيف بن سلطان . ومرة أخرى اتجه إلى نادر شاه يستنجد به . وكان قد تم انجاز بناء الأسطول البحرى الفارسى الجديد فى الخليج ، ووصلت قوات الحملة الجديدة إلى جلفار . وبعد مقاومة من قبائل الظاهرة والشيخ رحمة بن مطر القاسمى لهذه الحملة لجأ الشيخ رحمة بن مطر إلى المرتفعات فى منطقةروس الجبال(١٢) . وظهرت شخصية الوالى أحمد بن سعيد فى الدفاع عن مدينة صحار وقد استشهد الإمام سلطان بن مرشد فى عام ١٧٤٣ وهو يحاول فك الحصار عن قلعة صحار .وتمكن الوالى أحمد بن سعيد من تحرير مسقط عام ١٧٤٦ وخرجت بقايا الحملة الفارسية من عمان نهائياً فى أغسطس ١٧٤٧ بعد أن جاءت أنباء اغتيال نادر شاه فى يونيو ١٧٤٧ .

وبرز أثناء كفاح عمان ضد هذه القوات الفارسية زعيمان الأول أحمد بن سعيد والى صحار ، كما برز اسم الشيخ رحمة بن مطر القاسمى حاكم جلفار وبطل المقاومة فيها . ومنذ عام ١٧٤٩ طمح الوالى أحمد بن سعيد وقد خضعت له القبائل فى ساحل الباطنة ومسقط ، وبعد أن اختفى من مسرح الحياة السياسية فى عمان الإمام سيف بن سلطان الثانى والإمام سلطان بن مرشد ، فى أن يحكم عمان . وبدأ سلسلة من الحملات لتوسيع نفوذه وسلطته وإخضاع القبائل لحكمه. ولكن برزت أمامه عقبتان كبيرتان الأولى رفض الشيخ رحمة بن مطر القاسمى

الخضوع لزعامته ورغبة الشيخ رحمة وقادة حلفه فى الاستقلال . والثانية وجود الإمام بلعرب بن حمير فى نزوى . وكانت معركة البثنة فى الخمسينات فى وادى حام قرب الفجيرة حاسمة فى حصول حلف القواسم على استقلال . وبدأت مرحلة جديدة فى التاريخ العمانى . وقضت هذه المعركة على آمال أحمد بن سعيد فى توحيد عمان كما كان الحال ايام مجد دولة اليعاربة . وقد سجل هذه المعركة المؤرخ العمانى ابن رزيق فى مخطوطته الفتح المبين إذ يقول :

« ولما انتظم سلك عمان للإمام الحميد أحمد بن سعيد غاظ النزارية شأنه ، فمضى أكابر اليعاقيب إلى بلعرب بن حمير اليعربى وهو يومئذ ببلدة البزيلى من القاهرة وقالوا له لم تركت هذا الأمر لغيركم وقد جالدت عليه سيف بن سلطان اليعربى والإمام سلطان بن مرشد وهما أقرب الناس إليك نسبا . فما برحوا يترددون عليه وهو يماطلهم حتى وقعت بين الإمام أحمد بن سعيد وأهل الصير ملحمة عظيمة بالبثنة . وذلك أن أهل الصير أجمعوا على حرب الإمام أحمد بن سعيد فحشدوا خلقاً كثيراً وأرادوا أن يهجموا على صحار ، فالتقاهم الإمام احمد بن سعيد بمن معه من الجند فكانت الملحمة بينهم بالبثنة ثم رجع أهل الصير إلى الصير . ورجع عسكر الإمام إلى صحار »(١٤) .

وتركزت همة الوالى أحمد بن سعيد الآن بعد هزيمته أمام القواسم واستقلالهم عنه فى التغلب على وجود الإمام بلعرب بن حمير . وقد حسم الموقف معركة فرق عام ١٧٥٣ فى نزوى . وقتل الإمام بلعرب بن حمير . واجتمع العلماء وشيوخ القبائل وأعلنوا محرر عمان من الفوضى ومن الغزوة الفارسية أحمد بن سعيد إماماً على عمان .

أعقب مقتل نادر شاه حالة من الفوضى فى إيـران . وتنـازعوا علـى الحكـم وفى ظل هذه الفوضى تنازع النفوذ فى إقليم فـارس منـذ عـام ١٧٥١ شـخصيتان هما كريم خان زند فى شيراز وناصر خان فى إقليم لار . وكان الوضع فـى بنـدر عباس وما حولها قلقاً . وسيطر قائد بحرية نادر شاه ملا على شاه على بندر عبـاس وهو عربى من ميناء كنج . واصبح فى حوزته أكبر قوة بحريـة فـى الخليـج . كمـا استقلت القبائل العربية على الساحل الإيرانـى بشؤونها . ومـن هـذه القبـائل بنـى معين فى جزيرة الجسم وآل على فى شارك وجزيـرة قيـس . والقواسـم فـى لنجـة ودوان وبستانه وشيغوه . وبنى حماد فى نخليوه ومقام ومرباغ قلعة وجزيرة الشـيخ شعيب . أما قبيلة العبيد لى فكان نفوذها فى شبكوه وشـيغوه وعرمكـى وشـيروه والشيخ . وكان المرازيق فـى موغـوه وبسـتانه وجزيـرة فـارور . وسـيطرت قبيلـة النصور فى طاهرى وكنجون . وتغلبت قبيلة الحرم فـى عسيلوه ونابـاند . وكـان آلبوفلاسة من بنى يـاس فـى جزيـرة هنجـام . وفـى مينـاء بوشـهر سيطرت قبيلـة المطاريش العمانية . وفى شمالهـا تغلـب شيـخ مـن الزعـاب علـى بنـدر رج . وقـد وصف هذه القبائل العربية الوكيل الهولندى كنيبهاوزن بعد ما استقر به المقـام فـى جزيرة خارج عام ١٧٥٦ وشرح قتالها فيما بينها وقال أن هذه القبـائل العربيـة لـو اتحدت فيما بينها لتمكنت من أن تعيد سيطرة العرب على الساحل الإيرانى كاملـة كما كان العهد أيام مملكة هرمز العربية .

وفى أثناء هذا الصراع على السـلطة فـى الجـزر ومنطقـة بنـدر عبـاس ألقـى الشيخ رحمة بن مطر بثقله فى تأييد ملا على شاه ضد عدوه ناصر خـان فـى لار . وتزوج فى عام ١٧٥١ من ابنته . بينما وقفت قبيلة بنى معـين فـى جزيـرة الجسـم بقيادة عبد الشيخ إلى جانب ناصر خـان حـاكم لار . وكـان عبـد الشـيخ ضـابط بحرى سابق وأحد قادة التمرد العربى فى القوة البحرية الفارسـية عـام ١٧٤٠ أيـام نادر شاه بسبب الحملة الفارسية على عمان .

وفى عام ١٧٥٥ كتب الوكيل الهولندى كنيبهاوزن من جزيرة خارج معلومات عن الشيخ رحمة بن مطر وقال :

«منذ عامين قام الشيخ رحمة بمساعدة ملا على شاه أدميرال جمبرون الذى ينتسب إليه بالزواج من ابنته . وقد تغلبوا على ميناء لفت فى جزيرة الجسم وكان هذا الميناء فى يد بنى معين منذ أيام نادر شاه . وقد قاوم بنى معين ستة أشهر ولم يستسلموا إلا بعد موت شيخهم المفاجىء على الشيخ»(١٥).

وقد ساعد ملا على شاه بأسطوله الشيخ رحمة بن مطر عام ١٧٥٨ حينما هاجم الإمام أحمد بن سعيد القواسم فى ميناء دبا .

وكانت آخر أخبار الشيخ رحمة بن مطر فى يناير ١٧٦٠ حينما غضب من زواج أحد بنات ملا على شاه من ملا حسين . احتل الشيخ رحمة جزيرة هرمز وقلعتها لمدة ١٤ يوما وأخذ ما يقارب من ١٢ ألف روبية من قلعتها . وكان لهذا النزاع بين الحليفين أثره المباشر إذ أن أهل هرمز نتيجة تقدم خان لار وانتصاراته فى بندر عباس سلموا قلعة هرمز لأخية جعفر خان . وقبض جعفر خان فى شهر فبراير ١٧٦٠ على ملا على شاه .

وحدث صراع فى الجزر بين القواسم وبنى معين . وحاصرت فى شهر مارس ١٧٦٠ قبيلة معين يساعدها آل على فى شارك قلعة لفت فى جزيرة الجسم. وكانت هذه القلعة فى يد الشيخ رحمة بن مطر . وأخذ عرب جلفار المركب رومانيا أقوى قطع أسطول ملا على شاه وهاجموا بها عرب بنى معين فى جزيرة الجسم . وجرت معركة بين المتصارعين فى مياه لنجة(١٦) .

وهنا وسط هذه الاضطرابات يختفى اسم الشيخ رحمة بن مطر من مسرح الأحداث ويظهر اسم أخيه الشيخ راشد بن مطر فى رئاسة حلف القواسم . ولكن يظهر فى ١٨ سبتمير ١٧٦١ اسم الشيخ رحمة بن مطر فى يوميات جمبرون الإنجليزية وأنه قد وصل فى هذا اليوم إلى بندر لنجة .

مدينة رأس الخيمة الناشئة :

ذكر أحمد بن ماجد مدينة رأس الخيمة كأحد بنادر الخليج فى أرجوزته المشهورة بنادر خليج فارس فى القرن الخامس عشر . ولكنها لم تكن عامرة ولا مسكونة . وعاشت قرية بسيطة فى ظل جلفار . وبعد أن دارت معارك كثيرة حول جلفار أيام قيام دولة اليعاربة لطرد البرتغال منها وطرد الفرس الذين حاولوا احتلالها أيام نادر شاه فى الفترة ما بين ١٦٢٢ و ١٦٣٣ ، وكذلك المعارك التى دارت حولها أيام غزوة نادر شاه على عمان بين عام ١٧٣٧ وعام ١٧٤٧ تحطمت أسوارها وقلعتها . وهدمت بيوتها . وبدأت هجرة القبائل العربية سواء الوافدة من الساحل الإيرانى أو القادمة من عمان ونجد إلى جلفار تتخذ من مدينة رأس الخيمة الواقعة جنوب جلفار مقراً لها . وسرعان ما زاد العمران فيها حينما اتخذها الشيخ رحمة بن مطر القاسمى عاصمة لحلف القواسم . وقد بنيت المدينة الجديدة من حجارة أنقاض جلفار التاريخية التى بدأت تختفى معالمها . وظهر فى رأس الخيمة ميناء جديد صالح لرسو السفن فى خورها . وقد أطلق الهولنديون على هذه المدينة الناشئة أول الأمر فى عهد الشيخ رحمة بن مطر اسم صير . والواقع أن الصير اسم المنطقة التى تقع فيها مدينة رأس الخيمة . وقد كتب الوكيل الهولندى عام ١٧٥٦ كنيبهاوزن يصف مدينة الصير :

> « الصير مدينة كبيرة محصنة بطريقة محلية وبها بعض قطع المدافع . وتسكنها قبيلة من الهولة تدعى القواسم وكانوا فى

الماضى تابعين لإمام مسقط ولكنهم الآن لا يعتنون بنفوذه . وقد قام الإمام بعدة حملات ضدهم لإخضاعهم ولكن دون جدوى ولم يستطع التغلب على الشيخ المسمى كايد او رحمة ابن مطر . ويعتبر هذا الشيخ أقوى شيوخ الهولة ولديه ٤٠٠ رجل مسلح بالبنادق فى الصير التى لديها ميناء تجد فيه السفن الكبيرة مرساها . وبالميناء ٦٠ سفينة أغلبها كبيرة ومجهزة للسفر إلى مخا . ويوجد فى الصير تجارة رائجة وكذلك التعامل فى اللؤلؤ وأنواع التجارة المطلوبة لدى البدو فى الصحراء »(١٧) .

وبدأت المدينة الجديدة رأس الخيمة تفرض اسمها فى عهد الشيخ صقر بن راشد . وجاء أول ذكر لها فى وثائق حكومة بومباى البريطانية فى عام ١٧٩٧ . وقد كتبت على نحو بدائى لأول مرة Razil Khima(١٨) .

وانتشر اسم المدينة الناشئة وجاء أسمها لأول مرة فى الوثائق البريطانية فى عام ١٧٩٧. وذاع اسم رأس الخيمة فى التاريخ العربى الحديث لارتباطها بالقواسم بعد اعتناقهم مذهب أهل السلف الوهابى وترصدهم للسفن البريطانية عند مدخل الخليج وتعرض هذه المدينة بعد ذلك لهجمات الحملات البريطانية وخاصة الحملة الضخمة عام ١٨١٩ التى حطمت قلعتها وأسوارها ومبانيها وأشعلت فيها النيران.

الهوامـش

(1) Penelope Tuson, The Records of the British Residency and Agencies in the Persian Gulf, London 1979, pp. 173 - 174 .

(2) B. J. Slot, The Arabs of the Gulf 1602 - 1784, Leidschendam, The Netherlands, second edition 1995, p. 425.

(3) ARA (Dutch General State Archives) VOC (Archives of the Dutch East India Company, Vol.1113, Fol. 214 - 229.

(4) Portugeuse Archives, Tore De Tombo, Lisbon, ANTT Moncoes, livro59, Fol. 88, Muscat 30 October 1648.

(5) ARA, VOC, Vol 1288, Fol. 441-442.

(6) Thesiger, W., Arabian Sands, London 1960. p. 220.

(7) ARA, VOC, Vol 1913, Fol.442-443.

(8) Ibid, vol. 1913, Fol. 437 - 438.

(٩) سرحان بن سعيد ، مخطوطة كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة ، نسخة المكتبة الظاهرية - دمشق ، ص .

(10) ARA, VOC, Vol 2114, Fol.3558.

(11) Ibid, vol. 2416, Fol. 1389-1392.

(12) IOR, (India Office Records, London), EGD Vol.4, p. 3- 5. 1737 & Vol. 23, p. 2 1738.

(13) Lockhart L., Nadir Shah, London 1938, p. 216.

(١٤) حميد بن محمد بن رزيق ، الفتح المبين فى سيرة السادة آلبوسعيديين ١٢٧٥ (١٨٥٨) تحقيق محمد مرسى وعبد المنعم عامر الطبعة الرابعة ص ٣٢٤ .

(15) ARA, VOC, Vol 2468, Fol.12.

(16) IOR, EGD 18-1, 1760.

(17) ARA, VOC, Vol 1304, Fol.383.

(18) IOR, EGD, 29-23, 1797.

سياسة ألمانيا تجاه الشريف حسين
في الحرب العالمية الأولى

د. وجيه عبد الصادق عتيق(*)

ربما من المفيد للباحثين في تاريخ العرب الحديث والمعاصر التعرف على الوجه الآخر لعلاقة الشريف حسين بالقوى المتصارعة في الحرب العالمية الأولى . وتكشف لنا الوثائق الألمانية خبايا علاقة الألمان بالشريف حسين خلال سنوات تلك الحرب كما تكشف عن ملامح سياستهم تجاهه . ومن دراسة وتحليل هذه الوثائق، يتبين لنا أن الألمان أخذوا يلتفتون بجدية إلى أهمية زعماء نجد والحجاز بعد نشوب الحرب العالمية الأولى بعدة أسابيع . أما قبل ذلك ، فلم يضع ساستهم في حسبانهم أن هؤلاء الزعماء في استطاعتهم أن يلعبوا أدواراً مساعدة أو حيوية في حسم أي صراع قد ينشب بين القوى الدولية ، ويعد هذا في الواقع خطأ استراتيجياً ارتكبه الساسة الألمان منذ البداية في حق أنفسهم عند وضع خطط احتمالات نشوب الحرب مع دول الوفاق . وأغلب الظن أن هذا الخطأ جاء نتيجة تصور خاطئ آخر تكون لدى القيادة الألمانية أنذاك وانتشر على نطاق واسع مفاده أن قوة ألمانيا الحربية قادرة على ردع أعدائها ، وفي إمكانها على وجه السرعة حسم الأزمات الطارئة التي قد تنشب بينها وبين هؤلاء الأعداء من دول الوفاق ، وأن هذه الأزمات لو نشبت فسوف تنحصر داخل القارة الأوروبية ، ولن تتحول إلى حرب كونية واسعة النطاق ، يلجأ كل طرف فيها لاستقطاب القوى المحلية الصغيرة ضد الطرف الآخر .

وحتى عندما التفت الألمان إلى أهمية زعماء نجد والحجاز ، فقد جاء التفاتهم هذا من خلال حرصهم على إقحام الدولة العثمانية للدخول في الحرب بجانبهم ، ومن منطلق المحافظة على أملاك هذه الدولة ونفوذها في الشام ونجد

(*) الأستاذ المساعد للتاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

والحجاز . أى أن هذا الالتفات لم يكن عملاً هجومياً أو مبادرة يقطعون بها الطريق على أعدائهم بقدر ما كان عملاً دفاعياً قصد به الحيلولة دون انهيار الدولة العثمانية بعد دخولها الحرب إلى جانبهم ، ومتابعة لتحركات زعماء نجد والحجاز سواء أكانت ضد بعضهم البعض أو ضد العثمانيين . كما أن هذا الالتفات من جانب الألمان لم يبلغ حد العمل على الاستعانة بقدرات هؤلاء الزعماء المحليين فى الثورة على أعدائهم وطرد الإنجليز من الكويت والساحل المهادن وعدن فى وقت مبكر من قيام الحرب .

وتذكر ملفات وزارة الخارجية الألمانية أن أول التفات من جانب حكومة ألمانيا لزعماء نجد والحجاز فى الحرب حدث فى أواخر أغسطس ١٩١٤م . ويعود الفضل فى هذا إلى فنجنهايم Wangenheim سفير ألمانيا فى العاصمة التركية ، الذى نصح حكومته بالتقرب من زعماء المشرق العربى وكبار رجال العشائر فى الشام عن طريق تقديم الهدايا والرشاوى ، حتى يمتنع هؤلاء الزعماء عن عرقلة إعداد الحملة التركية على مصر . كما يعود الفضل إلى فنجنهايم فى لفت أنظار حكومته إلى أهمية أشراف الحجاز بصفة خاصة ، لما يحتلونه من مكانة دينية رفيعة فى نفوس المسلمين . واستأذن فنجنهايم حكومته فى أواخر أغسطس فى أن يستقبل بمقر عمله فى استنبول عددا من أشراف الحجاز الذين وصلوا من الحجاز فى زيارة للعاصمة التركية . وفى ٣٠ أغسطس ١٩١٤ م استدعى فنجنهايم - بعد موافقة حكومته على ذلك - هؤلاء الأشراف وأهداهم باسم الإمبراطور مبالغ متساوية من المال ، مقابل تعهدهم بتأييد ألمانيا وتركيا فى مناهضة الإنجليز(١) .

وفى الحقيقة ، جاء اهتمام الألمان بهؤلاء الأشراف فى إطار الاهتمام العام بزعماء المشرق العربى . ولم يكن هناك فى البداية اهتماماً خاصاً بمنطقة محددة أو بشخصية بعينها . ولم يبدأ هذا الاهتمام فى التحول من العام إلى الخاص إلا منذ النصف الأول من شهر سبتمبر ١٩١٤ م ، عندما اقترح أحد المستشرقين الألمان العارفين بشئون المشرق العربى على حكومته أن توجه عنايتها إلى استقطاب

الشريف حسين . واقترح هذا المستشرق أن تضغط حكومته على الدولة العثمانية لكى تعين الشريف حسين فى منصب شيخ الإسلام لما يمثله هذا الشريف من خلال مكانته الدينية من خطر على الخليفة العثمانى إذا نجحت بريطانيا فى تجنيده لصفها ضد الدولة العثمانية . وكعادة الخارجية الألمانية كانت تبعث بمثل هذه المقترحات إلى خبرائها المختصين لدراستها وتقديم رأيهم فيها .

وبعثت الخارجية تسأل البارون ماكس فون أوبنهايم **Max Von Oppenhaim** رئيس الوكالة الألمانية لاستخبارات الشرق حول جدوى الأخذ باقتراح تعيين الشريف حسين فى منصب شيخ الإسلام . وفى ١٤ سبتمبر رد أوبنهايم فى تقرير مطول رافضاً ذلك الاقتراح بحجة أن هذا سوف يغضب الأتراك كثيراً ، وبحجة عدم وجود حاجة لكسب الشريف حسين بهذه الوسيلة فى ذلك الوقت المبكر من الحرب . وقدم أوبنهايم بدلاً من ذلك اقتراحاً مضاداً يدعو لتقوية مركز الخليفة فى العالم الإسلامى من خلال حملة دعائية موسعة ، معتبراً أن هذا وحده كفيل بتحقيق الاستقرار للدولة العثمانية فى المشرق العربى(٢) .

وفى تقديرنا فإن رفض أوبنهايم تأييد فكرة تعين الشريف حسين فى ذلك المنصب يدعونا للشك فى إخلاص ذلك الرجل للإمبراطورية الألمانية . إذ أن موقفه هذا أضاع على الأتراك والألمان فرصة ثمينة لكسب الشريف لصفهم فى هذه المرحلة من الحرب ، كما أضاع هذا الموقف فرصة ذهبية على الأتراك والألمان لقطع الطريق على محاولات الإنجليز الرامية للتقرب من الشريف حسين . ومما يدعونا للشك فى إخلاص أوبنهايم أن وزارة الخارجية الألمانية ، بناء على رفضه لذلك الاقتراح ، أغلقت تماماً باب الحديث فيه ، وبدلاً من ذلك راحت تبحث فى مشروع كان أوبنهايم نفسه يروج له بقوة داخل أروقة هذه الوزارة ، ويدعو هذا المشروع إلى قيام ألمانيا بحملة دعائية على نفقتها لتقوية مركز الخليفة العثمانى فى العالم الإسلامى . وعلى هامش تقرير أوبنهايم خط وكيل وزارة الخارجية الألمانية تسمرمان **Zimmermann** بقلمه يقول : « أوافق على اقتراح السيد أوبنهايم الخاص

بالحملة الدعائية »(٣) . وبذلك يكون أوبنهايم قد نجح فى توجيه مثل هـذا القـرار الخاص بسياسة ألمانيا تجاه الدولة العثمانية والمشرق العربى فـى تلـك الظروف الدقيقـة الوجهة التى كان يريدها لنفسه ، حيث كان يتطلع لأن يتولى بنفسه الإشراف من الشام على هذه الحملة الدعائية ، الأمر الذى تحقق له فيما بعد كما سيتضح لنا .

إلا أن آراء ومقترحات أوبنهايم كانت تجد فى بعض الأحيان من يفندها من بين المسئولين الألمـان العـارفين بشئون الدولـة العثمانيـة والمشـرق العربـى. وكـان البارون فنجنهايم سفير ألمانيا فى تركيا والجنرال ليمان فون ساندرس رئيـس البعثـة العسكرية الألمانية فى الجيش العثمانى علـى رأس هـؤلاء المسئولين الذيـن عـارضوا كثيراً توجهات أوبنهايم . إذ كان من رأيهم ، عندما علموا باقتراح أوبنهايم ، أنـه ليس من الحكمة تجاهل سيد الحجاز ، فى الوقـت الـذى يجـرى فيـه إعـداد الحملـة التركية على مصر على قدم وساق فى الشام . واقترح فون ساندرس على حكومته أن ترسل إلى العقيد كريس رئيس هيئة أركان الحملة التركية فـى الشـام عـددا مـن القلادات والأوسمة الألمانية التى هى من الذهب الخـالص لكـى يتـم توزيعهـا باسـم إمبراطور ألمانيا على كبار الزعماء العرب وفى مقدمتهم الشريف حسين(٤) .

وكان ياجوف Ygow وزير خارجية ألمانيا يتوقع أن يرفض هؤلاء الزعمـاء الأوسمة والقلادات الألمانية ، خاصة وأنهـا جميعـاً كـانت تحمـل شـكل الصليـب . وراح يستفسر من فون ساندرس صاحب الاقـتراح فـى برقيـة عاجلـة حـول ذلـك الأمر . إلا أن ياجوف فوجئ برد يأتيه يؤكد أن هؤلاء الزعماء لـن يبـالوا بمـا هـو منقوش على هذه الأوسمة والقلادات بقدر ما يحرصون على إمتلاكها ذهباً(٥) .

ومن الواضح أن الحكومة الألمانية كانت حتى أواخر أكتوبر ١٩١٤ م تفتقر لاستراتيجية محددة المعالم لكى تتعامل من خلالها مع الشريف حسين وكبار زعمـاء المشرق العربى . بدليل أن وزارة الخارجية أخذت باقتراح أوبنهـايم الداعـى لحصـر اهتمام ألمانيا بالمشرق العربى فى حـدود اهتمامهـا بـالرأى العـام الإسـلامى . وفـى نفس الوقت أخذت باقتراح ليمان فون ساندرس الداعى للاهتمام بالزعماء العـرب

المحليين . ووافق الإمبراطور الألمانى فى ١٤ نوفمبر ١٩١٤ م على منح هؤلاء الزعماء تلك الأوسمة والقلادات التى اقترحها فون ساندرس ، والتى تقرر أن يتسلمها العقيد كريس فى مقره بدمشق لكى يوزعها بنفسه عليهم نيابة عن الإمبراطور فيلهم الثانى(٦) .

ولقد حاولت وزارة الخارجية الألمانية حسم هذا التضارب ، الذى كان يعكس قلة خبرتها بالشئون العربية . وأرسلت فى أوائل نوفمبر ١٩١٤ م تستطلع رأى أحد مبعوثيها فى الشام فى كبار زعماء المشرق العربى . وفى مذكرة مطولة وصلت من دمشق إلى برلين فى أواخر شهر نوفمبر ذكر المبعوث بروفر Pruefer "أن الشريف حسين إنجليزى الميول حتى النخاع ، لكنه تحت السيطرة الآن بفضل سياسة الدولة العثمانية الحازمة معه"(٧) . وفى الحقيقة أحدث تقرير بروفر هذا حول الشريف حسين وميوله الإنجليزية ردوداً واسعة داخل وزارة الخارجية ، التى قررت - لكن بتكاسل مثير للدهشة - وضع خطة تعامل خاصة بالشريف بعيدة عن خطط التعامل مع الزعماء العرب الآخرين ، ومنفصلة كذلك عن مشاريع دعم مركز الخليفة العثمانى بين الرأى العام الإسلامى .

ومرة أخرى كلفت الخارجية الألمانية أوبنهايم بوضع خطة عاجلة لاستقطاب الشريف حسين وإبعاده عن السقوط فى أحضان الإنجليز . وبدلاً من أن يمعن البارون أوبنهايم الفكر فى وضع خطة تعتمد على الاتصال المباشر بالشريف حسين وإغرائه بالابتعاد عن الإنجليز ، أو يجتهد فى صياغة عروض مُجزية تفتح آفاق المستقبل أمام الشريف ونفوذه السياسى وتجعله يشعر بأن توسيع هذا النفوذ مرتبط بانتصار دول الوسط فى الحرب ، إذ بالبارون يضع خطة تقوم على وضع الشريف تحت المراقبة اللصيقة للسلطات الألمانية ورجال الوكالة الألمانية للاستخبارات التى يرأسها ، وذلك من خلال قنصلية ألمانية يتم إنشائها لهذا الغرض فى جدة . ورشح أوبنهايم من جانبه الأستاذ ليتمان Prof. Dr. Littmann المستشرق بجامعة جوتنجن لتولى منصب القنصل ، كما رشح شخص مصرى

يدعى على أحمد عنانى ، كان يعمل مدرساً للغة العربية بجامعة برلين ، لكى يعاون ليتمان فى القيام بمهام واجباته الرسمية . أما بخصوص الجهاز الرقابى ، الذى كان من المفترض أن يتحرك تحت الغطاء الدبلوماسى فى تلك القنصلية ويبلغ الخارجية الألمانية أولاً بأول بكل ما يدور فى الحجاز ، فقد تولى أوبنهايم أيضاً ترشيحهم من بين رجاله(٨) . ولاقت خطة أوبنهايم عناية بعض كبار موظفى الخارجية الألمانية ، الذين عكفوا على دراستها لوضعها موضع التنفيذ عندما تحين الفرصة .

وتعكس الوثائق الألمانية التى تتعلق بتلك الفترة مدى انقسام المسئولين فى برلين عند وضع خطط السياسة الألمانية تجاه العرب . حيث انقسموا على أنفسهم على نحو بيّن فى إختيار أفضل السبل المؤدية لإنجاح تلك السياسة . وقد برز هذا الانقسام عندما حذر فنجنهايم ، من خلال خبرته الواسعة بشئون الشرق ، حكومته من الإقدام على تحمل أعباء حملة الدعاية للخليفة العثماني فى العالم الإسلامى، راجياً ترك هذه المسألة للأتراك لكونهم مسلمين قادرين على التأثير فى أقرانهم من المسلمين أكثر من أى جهاز دعائى ألمانى آخر قد يثير نشاطه بينهم حفيظتهم ، ويتيح للأعداء فرص إفشال هذه الحملة ، ومن ثم إحداث نتائج عكسية(٩) .

وكاد فنجنهايم أن يكسب لوجهة نظره هذه فريقاً من كبار رجال الخارجية الألمانية المختصين بالشئون العربية . إلا أن فريقاً ثانياً داخل هذه الوزارة انبرى يدافع عن مشروع حملة الدعاية للخليفة ، مطالبين أن يبدأها القناصل الألمان فى القدس وبغداد دون أدنى تأخير ، كما طلب هذا الفريق فنجنهايم بأن يتدخل لدى السلطات التركية لكى ترفع أى قيود على تحركات العميل الألمانى بروفر فى الشام والجزيرة العربية(١٠) .

ولم يكن هذا الانقسام بين هذين الفريقين ، والصراع الخفى بين فنجنهايم وأوبنهايم ، سوى بعض من صور الضعف الذى اكتنف السياسة الألمانية تجاه الشرق العربى خلال تلك الفترة ، والتى أدت إلى ارتباك وتردد الحكومة الألمانية فى اتخاذ قرارات مصيرية فى أوقات كانت تتطلب سرعة الحسم . ولعل ما كان

يزيد من ارتباك الحكومة الألمانية فى المشرق العربى هو حساسية الموقف العثمانى داخل هذه المنطقة . والشعور بأن يد العملاء الألمان هناك مغلولة وتحت المراقبة من قبل السلطات العثمانية .

ثم أدى انشغال الألمان الشديد بترتيبات إعداد الحملة التركية على مصر فى الفترة الانتقالية بين عامى ١٩١٤ - ١٩١٥ م إلى تأجيل اتخاذ القرار المناسب فى مسألة القنصلية الألمانية فى جدة ، وكذلك إلى عدم التوصل لأفضل سبل التعامل مع الشريف حسين فى الوقت المناسب . حيث ساد لدى الكثير من الألمان اعتقاد بأن نجاح هذه الحملة فى طرد الإنجليز سوف ينهى مشاكلهم ومشاكل الدولة العثمانية فى المشرق العربى من جذورها(١١) .

إلا أن فشل هذه الحملة فى اجتياز قناة السويس وعودة قواتها مدحورة إلى الشام أوائل فبراير ١٩١٥ م ، ونجاح الإنجليز من قبل فى احتلال البصرة ، أصاب فنجنهايم شخصياً بالكثير من الإحباط ، الذى دفعه بشكل مفاجئ إلى التسليم على مضض بوجهات نظر أوبنهايم فى معالجة الوضع المتدهور فى المشرق العربى، كما ترتب على هذا الإحباط علو كعب أوبنهايم ونظرياته فى أعين كبار المسئولين فى وزارة الخارجية الألمانية . وعندئذ وجدها أوبنهايم فرصة لأن يتقدم فى ٢ مارس ١٩١٥ .بمشروع مفصل، يقوم مرة أخرى على فكرة الحملة الدعائية فى العالم الإسلامى بأسره لمعالجة الوضع المتدهور للدولة العثمانية فى المشرق العربى ، والتصدى لمحاولات تقارب الإنجليز من الشريف حسين ، تلك المحاولات التى كان الألمان يشعرون بوجودها ، دون أن يعرفوا شيئاً عن مضمونها(١٢) .

وبالفعل استطاع أوبنهايم أن يدخل فى روع عدد لا بأس به من المسئولين الألمان أن مشروعه الدعائى واسع النطاق جدير بأنه يوقف ذلك التدهور الذى أخذ ينتشر فى أوساط الرأى العام العربى فى أعقاب فشل الحملة التركية على مصر . ومن ثم قررت الحكومة الألمانية فى ١٥ مارس ١٩١٥ م الموافقة على ذهاب أوبنهايم على رأس بعثة من عدة أفراد إلى الشام ليمسك بزمام الحملة

الدعائية هناك ، واضعة تحت يده مبالغ طائلة من المال للإنفاق منها على هذه الحملة ، التي كان من المفترض أن تؤدى أيضاً - طبقاً لما وضعه أوبنهايم من تصورات - إلى نشوب ثورة عارمة فى أنحاء العالم الإسلامى فى وجه بريطانيا وروسيا وفرنسا وإيطاليا ، فى حالة إعلان هذه الأخيرة الحرب على ألمانيا . كما كان من المفترض أن تحول هذه الحملة الدعائية دون تقارب الشريف حسين مع الإنجليز . وبناء على هذا التصور الأخير خولت الحكومة الألمانية لأوبنهايم الاتصال المباشر بالشريف حسين ، كما أطلقت يداه فى إجراء المباحثات التى يراها مناسبة معه(١٣) .

وبينما كان أوبنهايم يعد نفسه فى برلين للرحيل إلى الشام عاد وطرح مرة أخرى على المسئولين فى الخارجية الألمانية فكرة مراقبة الشريف حسين عن طريق إنشاء قنصلية ألمانية فى جدة . واقترح أوبنهايم هذه المرة أن يتولى منصب القنصل فيها أحد أعوانه من اليهود ويدعى بروبسترProebster ، الذى كان من المفترض أن يقيم صداقة حميمة مع الشريف حسين ، وأن يبعث بتقارير مفصلة عن تحركات الشريف وصلاته أولاً بأول إلى الخارجية الألمانية عن طريق أوبنهايم فى الشام ثم عن طريق فنجنهايم فى استنبول .

إلا أن السلطات التركية عارضت فكرة إنشاء القنصلية الألمانية فى جدة فى ذلك الوقت ، خوفاً من أن يؤدى هذا العمل إلى إثارة غضب الشريف حسين ، أو أن يؤدى شعوره بالمراقبة من قبل الألمان إلى إثارته وإقدامه على الاتفاق مع الإنجليز . ومما لا شك فيه أيضاً أن فشل الحملة التركية على مصر وإرسال أوبنهايم وبعثته إلى الشام قد أدى إلى توتر العلاقة بين الأتراك والألمان . ففى أعقاب هذه التطورات عبر العديد من المسئولين الأتراك عن ضيق صدورهم من تدخل الألمان - من أمثال ليمان فون ساندرس - فى شئونهم . كما ساورتهم شكوك بأن ألمانيا تسعى لإقامة علاقة مباشرة من خلف ظهورهم مع الزعماء المحليين فى المشرق العربى ، وأنها ربما تعمل ضد مصلحة الدولة العثمانية فى هذه

المنطقة . أو ربما تخطط لبسط سيطرتها على كـل الأراضـى العثمانيـة . وقـد تـولى أنور باشا مسئولية إبلاغ سفير ألمانيا فى استنبول بفحوى تلـك المخـاوف ، حيـث أبلغه فى ٢ إبريل ١٩١٥ م باعتراض الحكومة التركية على قيام القناصل الألمان فى الشام بالاتصال دون إذن من السلطات العثمانية بالزعمـاء المحليـين للعـرب ، كمـا أبلغه بمعارضة الحكومة العثمانية لافتتاح القنصلية الألمانية فى جدة(١٤).

وقد أبدى فنجنهايم لحكومته تفهمه لمخاوف الأتـراك ، وطلـب منهـا الحد من نشاط أوبنهايم وبعثته المثيرة للجدل فى الشام والحجاز . كما اقترح أن يشارك الأتراك بشكل مكثف فى الحملة الدعائية فـى العـالم الإسـلامى ، وأن يقتصـر دور أوبنهايم على التخطيط والإشراف ، وأن يبذل المسئولون الألمان كل ما فى وسعهم لكى يبدو الأمر أمام الجميع وكأن ألمانيا وتركيا تعملان يد فى يد(١٥) .

إلا أن أوبنهايم كان قد سار فى تنفيذ خطته عدة خطوات إلى الأمام ، غـير عابئ بمخاوف الأتراك . ونجح منذ أوائل مايو ١٩١٥ م فى إقامة علاقة وطيدة مع الأمير فيصل نجل الشريف حسين . وقد ساعده فى هذا معرفتـه الشخصية بالشـريف حسين نفسه . منذ أن كان الشريف يقيم فى استنبول فـى أواخـر عهـد السـلطان عبد الحميـد . كما لعب أحمـد شفيـق باشـا ، رئيس ديوان الخديوى عباس حلمـى الثانى ، دوراً بارزاً فى الإعداد للقاء الأول الذى جمع أوبنهايم بالأمير فيصل(١٦) .

وكان الشريف حسين قد بعث بابنـه الأمـير فيصـل إلى استنبول فـى أوائـل إبريل ١٩١٥ م لكى يزيل من نفوس المسئولين الأتـراك أى شـكوك مـن ناحيتـه ، وليؤكد على ولائه التام لهم . وتعد هذه مناورة ذكية مـن جـانب الشـريف ، أراد بها أن يغطى من ناحية علاقته القويـة بـالإنجليز وإقدامـه علـى التـآمر معهـم ضـد الأتراك ، كما أراد بها من ناحية أخرى أن يبعد الأتراك عـن الاتفـاق مـع خصمـه اللدود الشريف على حيدر ، الذى كان يتطلع لمنصب الشريف فى مكة ، ويؤيـده فى هذا عدد من رجال الحكومة التركية . وفى تقديرنا أن الشـريف حسين بعث بابنه إلى استنبول لكـى يتحسـس أيضـاً مـا عسـى أن يقدمـه الأتـراك والألمـان مـن

عروض قبل أن يعقد اتفاقه النهائى مع الإنجليز . ويبدو أن الشريف حسين نجح من خلال رحلة ابنه تلك فى أن يخدع الجميع فى إستنبول ، وأن يحسن من صورته كثيراً لدى الأتراك والألمان . فتقرير أوبنهايم مليئ بعبارات الإطراء حول إخلاص الشريف حسين للأتراك والألمان ، ونفى أى علاقة له بالإنجليز ، إلى الحد الذى جعل فنجنهايم نفسه يعتقد أن العناصر التركية سيئة النية هى التى كانت تقف من وراء تلطيخ صورة الشريف حسين واتهامه بالعمالة للإنجليز(١٧) .

وبناء على طلب الأمير فيصل ، الذى كان يميل للتعاون مع الأتراك والألمان، لعب أوبنهايم دوراً ملموساً فى الدفاع عن موقف الشريف حسين وإخلاصه لدول الوسط لدى رجال الحكومة التركية . كما لعب دوراً مشبوهاً فى تضليل المسئولين الألمان ، سواء فى استنبول أو برلين ، وتمكن من إقناع حكومته بأنه توصل مع الأمير فيصل إلى وضع أسس سليمة لعلاقة وطيدة بين الشريف حسين وكل من تركيا وألمانيا . خاصة وأنه فى لقائه الأول بالأمير فيصل فى ٨ مايو ١٩٢٥ م وفى حضور شفيق باشا كان قد توصل بالفعل إلى اتفاق حول دور الشريف حسين فى الدعاية ضد بريطانيا فى العالم الإسلامى(١٨) .

وبادر أوبنهايم بالتوسط للشريف حسين لدى أنور باشا لكى تقبل الدولة العثمانية تمويل مشروع وصفه بأنه ثورة عربية كبرى بقيادة الشريف ضد الإنجليز فى الخليج العربى . وفى ١٠ مايو ١٩١٥ م وقع الأمير فيصل نيابة عن والده مع أنور باشا على اتفاق آخر مكتوب فى ورقتين حول التعاون بين الشريف والدولة العثمانية فى ترتيب هذه الثورة . وطبقاً لبنود هذا الاتفاق كان على تركيا أن تتحمل التكاليف المالية التى يقررها الشريف للنهوض بالثورة ضد الإنجليز ، وأن تمده بالأسلحة والذخيرة اللازمة لذلك . مقابل أن يشارك الشريف فى أعمال الدعاية ضد دول الوفاق ، وأن يشارك فى إعلان الجهاد المقدس ضد أعداء الخليفة ، وأن يجند جيشاً من بدو الحجاز تحت قيادة أحد أبنائه لمهاجمة الإنجليز فى الخليج وقناة السويس(١٩) .

ونلاحظ هنا أن مشروع هذا الاتفاق كان لا يختلف كثيراً عن نفس الترتيبات التى كان الشريف يعدها مع الإنجليز للثورة على الأتراك . وربما أنه استخدم أسلحتهم التى أمدوه بها فى أعقاب ذلك الاتفاق فى الثورة عليهم وليس معهم . وساد لدى الأتراك والألمان اعتقاد بأن الشريف حسين أصبح رجلهم الأول فى الجزيرة العربية ، وتصور أنور باشا نفسه أن عقد مثل ذلك الاتفاق مع الشريف حسين سوف يحول دون نجاح الإنجليز فى العودة للتقرب منه مرة أخرى . ووعد أنور باشا الأمير فيصل بأن تكف الحكومة التركية تماماً عن التعاون مع المنافسين لوالده ، كما وعده بالعمل على منع الولاة الأتراك فى جدة من التدخل فى اختصاصات والده(٢٠).

وفى لقاء ثان بين الأمير فيصل وأوبنهايم ، برر الأمير اتصال والده بالإنجليز بحاجته المُلحة للمؤن والغلال التى تحضرها السفن الإنجليزية إلى موانئ الحجاز ، لتلبية حاجات رعايا الشريف . وعبر فيصل عن استعداد والده التام لقطع كل صلة له بالإنجليز فى حالة تدبير احتياجات سكان الحجاز من الغلال والمواد الغذائية ، ووعده أوبنهايم بالنظر أيضاً فى تلك المسألة(٢١) .

وإذا عقدنا مقارنة بين اتفاق الشريف حسين مع الأتراك والألمان من جانب ، واتفاقه مع الإنجليز من جانب آخر ، نجد الاتفاق الأول يفتقر لكل ما يشبع تطلعات الشريف . فى حين أن الاتفاق الثانى كان مليئاً بكل الإغراءات التى يسعى إليها . وبذلك كان الإنجليز أكثر إدراكاً بما يجول فى صدر الشريف حسين ، وقدموا له وعوداً براقة بمملكة واسعة فى الأراضى الخاضعة للدولة العثمانية ، مقابل الثورة عليها . كما أن الأتراك والألمان حملوه فى اتفاقهم معه الكثير من الأعباء والواجبات ، دون أن يقدموا له الأجر المناسب نظير القيام بهذه الأعباء وتلك الواجبات . وبذلك كان من الأحرى بالشريف حسين أن ينفض يديه من اتفاق ابنه فيصل مع الأتراك والألمان . ويقطع صلاته بهم ، ويتزعم الثورة عليهم بالاتفاق مع الإنجليز وبدعم منهم . فى حين وقف أوبنهايم فارغ الفاه ، ومن خلفه كل المسئولين الألمان ، أمام أحداث تلك الثورة التى نشبت فى الحجاز والشام ، والتى

كان من المفترض أن تتحرك فى اتجاهات أخرى ولحساب الأتـراك والألمـان وليـس عليهم .

ومن هنا يتبين لنا أن نشوب هذه الثورة إنمـا يعـود بالدرجـة الأولى لأخطـاء سياسة كل من ألمانيا وتركيا تجاه الشريف حسين والمشرق العربى ، تلـك السياسـة التى وجد الألمان فيها أنفسهم أسيرى مشروع الحملة الدعائية العقيم منذ البدايـة . كما لا نستبعد تفوق الأمير عبد الله نصير الإنجليز على شقيقه الأمير فيصـل نصـير الألمان فى التأثير على القرار النهائى الذى اتخذه الشريف حسين عندما أعلن الثـورة على الدولة العثمانية .

الهوامش

(١) Das Auswaertige Amt Weltkrieg R 21123, A 19592, S. 49.

أرشيف وزارة الخارجية الألمانية ، برقية رقم ٦٥٠ بتاريخ ٣٠ أغسطس من فنجنهايم إلى برلين .

(٢) A.A, R 21124, A 21910, S. 58.

تقرير بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٩١٤ من أوبنهايم إلى الخارجية الألمانية .

(٣) المصدر السابق .

لأسباب غامضة ، تعود لحجب أوراق أوبنهايم الخاصة فى الأرشيف الألمانى عن الباحثين حتى عام ٢٠٠٥ ، كانت مقترحات آراء ذلك الرجل تلقى آذاناً صاغية فى وزارة الخارجية الألمانية ، وهى الوزارة التى كانت ترسم سياسة ألمانيا تجاه المشرق العربى والدولة العثمانية فى هذه الفترة . وينتمى أوبنهايم إلى الأسرة اليهودية الشهيرة بامتلاكها لعدد من بيوت المال فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

(٤) A.A . R 21125, A 26829. S. 26.

برقية رقم ٢٩٧ بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٩١٤ من ياجوف إلى استنبول .

(٥) Ebenda , A 27782, S. 27.

برقية رقم ١٠٨٤ بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٩١٤ من فنجنهايم إلى الخارجية الألمانية .

(٦) Ebenda, A 30868, S. 103.

برقية رقم ٣٨٠ بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٩١٤ من ياجوف إلى استنبول .

(٧) Ebenda, A 32559, S 154.

تقرير بتاريخ ٣ نوفمبر ١٩١٤ من بروفر إلى برلين .

(٨) A.A, R 21126, A 33263, S. 32 - 33.

تقرير رقم ٧٤ بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٩١٤ من أبنهايم إلى وكيل الخارجية الألمانية .

(٩) Ebenda, A 33830, S. 60 - 61.

تقرير رقم ٢٩١ بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩١٤ من فنجنهايم إلى المستشار الألمانى .

(١٠) Ebenda, A 34468, S. 106.

برقية رقم ١٥٩١ بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٩١٤ من فنجنهايم إلى برلين . وقد اعترض فنجنهايم فى برقيته هذه على السماح لبروفر بالتحرك دون قيود بين القرى والمدن العربية فى الشام ، كما اعترض على العلاقة المباشرة بين بروفر وأوبنهايم .

(١١) A.A. R 21126. A 35110, S. 151.

تقرير بتاريخ ٢ مارس ١٩١٥ من أوبنهايم إلى وزير خارجية ألمانيا .

(١٢) A.A. R 21129, A 7805, S. 63.

تقرير بتاريخ ٢ مارس ١٩١٥ من أوبنهايم إلو وزير خارجية ألمانيا .

(١٣) A.A. R 21130, A 9005, S. 2 - 8.

مذكرة بتاريخ ١١ مارس ١٩١٥ من أوبنهايم إلى وكيل الخارجية الألمانية ، وقد سجل تسمرمان بخط يده على هامش هذا التقرير موافقته على مشروع أوبنهايم ، وتخويله سلطة الاتصال بالشريف حسين .

(١٤) Ebenda . A 12291 , S 191 - 192.

برقية رقم ٢١٠ بتاريخ ١٢ أبريل ١٩١٥ من فنجنهايم إلى برلين .

(١٥) A.A. R 21133, A 14495, S. 6.

برقية رقم ٩٨٨ بتاريخ ٢٧ أبريل ١٩١٥ من فنجنهايم إلى برلين .

(١٦) A.A. R 21133, A 18460, S. 90 - 105.

تقرير مطول بتاريخ ٢٢ مايو ١٩١٥ من أوبنهايم إلى الخارجية الألمانية .

(١٧) المصدر السابق ص ٨٧ ، وهى وثيقة تحمل رأى فنجنهايم الشخصى ومرفقة بتقرير أوبنهايم .

(١٨) المصدر السابق ص ٩٧ .

(١٩) المصدر السابق ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢٠) المصدر السابق ص ١٠١ .

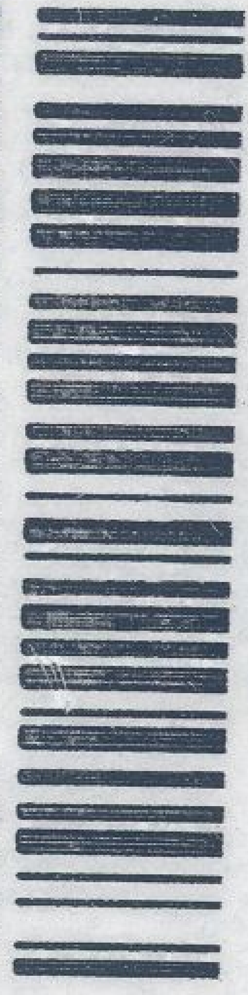
(٢١) المصدر السابق ص ١٠٢ .

رقم الإيداع ١٩٩٩/٦٥٤٩

الزهراء كمبيو سنتر

طباعة – نشـــر – إعلان

القاهرة – ت : ٢٩٦٠٦٦٧

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة
المؤرخ العربى

تصدر عن
اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

العددالأول | المجلد الأول | مارس ٩٣

اتحاد المؤرخين العرب
بالقاهرة

مجلة المؤرخ العربى

العدد الأول - المجلد الأول

هذه المجلة

- علمية تاريخية بحتة،تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .
- البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها؛ وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من آراء علمية .
- تصدر مؤقتا سنوية فى شهر مارس من كل عام، على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق.
- لا يزيد البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة منسوخة على الآلة الكاتبة ، ويكون البحث من نسختين: أصل وصورة .
- تأخذ الهوامش والإحالات رقما مسلسلا على أن تثبت فى نهاية البحث .
- تخصص أقسام فى المجلة لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .
- يراعى فى البحوث التى تقدم للنشر أن تكون جديدة لم يسبق نشرها .
- الأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة.
- يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر ولا علاقة إطلاقا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .
- جميع المراسلات تكون باسم الاستاذ الدكتور رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالمقر المؤقت للاتحاد (كلية الآداب - جامعة القاهرة - أورمان - جيزة - مصر) .

المؤرخ العربى

مجلة تاريخية علمية محكمة تصدر عن

إتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العددالأول - المجلد الأول - مارس ١٩٩٣

في هذا العدد

كلمة الافتتاح

بسم الله الرحمن الرحيم.

إذا كان البعض يأخذ على علم التاريخ ارتباطه بالماضى، فإن البحث فى الماضى ليس غاية فى حد ذاته، وإنما هو أداة لشحذ الهمم وغرس الثقة فى النفوس من ناحية، والإفادة من تجارب ودروس الماضى فى مواجهة مشاكل الحاضر وبناء مستقبل أفضل من ناحية أخرى. ولذا صارت مهمة المؤرخ إلقاء الأضواء على خفايا الماضى بكل ما يحويه من حسنات وسيئات،ومزايا ومثالب، ملتزما بالصدق والأمانة، مستهدفا الوصول إلى الحقيقة التاريخية، واتخاذها محوراً لما يقول أو يكتب.

وبتتبع مسيرة التاريخ يتضح أن عجلته لا يمكن أن تعود إلى الوراء، وإنما تقضى سنة التطور التاريخى بالسير قدما إلى الأمام . حقيقة إن تاريخ أمة من الأمم أو بلداً من البلدان ربما يبدو فى بعض حلقاته وقد تعرض للجمود والتوقف، ولكن مثل هذه الظاهرة لا يصح تفسيرها مطلقا بأنها عودة إلى الماضى. فالماضى بأبعاده الحضارية، وأوضاعه ، وظروفه، ولت أيامه، ومن الصعب أن يعود بنفس الصورة والملامح .

إن حوادث التاريخ قد تتشابه ولكن من العسير أن تتطابق ؛ فلكل عصر أوضاعه وظروفه ونظرة الناس فيه إلى الحياة، وهذه كلها عوامل تكيف التاريخ تكييفا خاصا مميزا فى كل عصر من العصور .

ونحن عندما نتكلم عن حضارة - أو حضارات - العرب قبل الإسلام، فإننا لا نستهدف تمجيد الوثنية وتراثها - مثلما يتوهم البعض ، وإنما نستهدف تأكيد أصالة

هذه الأمة، وكشف النقاب عن جذورها الحضارية التى امتدت بعيدا فى أعماق التاريخ، والتدليل على أنه فى الوقت الذى كان جيران العرب - من فرس وروم وغيرهم - يمثلون قوى حضارية، لم يكن العرب فى جنوب شبه الجزيرة وشمالها وقلبها، بعيدين عن موكب الحضارة البشرية، وإنما أسهموا إسهاما جادا مفيدا فى بناء صرح الحضارة، بقدر ما سمحت به ظروف البيئة وإمكاناتها .

وعندما يعنى المؤرخ بالكشف عن جوانب التراث العربى فى ظل الإسلام، فإن هدفه البعيد ليس مجرد التغنى بأمجاد السلف والإشادة بما بلغه الأمويون وما حققه العباسيون، وإنما يستهدف ما هو أهم وأكبر، أعنى بيان قدرة السلف على الانفتاح الحضارى على العالم أجمع، وعدم الإنغلاق وإغماض العين عما حققه الغير من انجازات، ثم ابتكار الجديد النافع، ومواجهة مشاكل العصر بأسلوب يجمع بين الذكاء والمثابرة والشجاعة واتساع الأفق .

وإذا عالج المؤرخ العربى موضوع سقوط دولة المسلمين فى الأندلس وما حلّ بهم فى تلك المحنة من قتل وطرد وتعذيب وتشريد، فإن المفروض منه عدم الوقوف عند حد الرثاء والبكاء، وإنما عليه أن يوضح فى أمانة وشجاعة أسباب تلك الكارثة المؤلمة وما وقع فيه مسلمو الأندلس من أخطاء أدت إلى سوء العاقبة. وبذلك يتحقق الهدف الأساسى من دراسة التاريخ وهو أن يصبح المدرسة الكبرى التى يستفيد فيها الإنسان من دروس الماضى .

ولكن يبدو أن حكام إيران والعراق اليوم لا يدركون هذه الحقائق، وأنهم يعيشون فى خيال الماضى وليس فى واقع الحاضر؛ محاولين استخدام التاريخ فى تبرير أوهام يسعون لتحقيقها .

أما عن حكام إيران فإنهم يتباكون على مجد الأجداد، ولا يريدون أن ينسوا أو يتناسوا أن العراق بأكمله والخليج برمته كانا فى يوم من الأيام داخل إطار دولتهم الفارسية الكبرى ، حتى ظهر العرب على المسرح فى ظل الإسلام فهدموا دولة الفرس ودكوا عرش الأكاسرة وأدخلوا الجميع تحت سيادتهم . ويمتد الخيال بحكام إيران إلى محاولة العودة بالتاريخ إلى الوراء ومحاولة استعادة ما كان للفرس من أمجاد على حساب جيرانهم، متجاهلين ما حدث على مدى قرون طويلة من تغييرات جذرية سطرت على صفحة التاريخ، تبدلت فيها أوضاع العالم أجمع، وتم فيها تعريب الشاطئ الغربى للخليج بأكمله، فضلا عن تعريب بلاد الرافدين ، وصارت هذه البلاد كلها أعضاء لها كيانها فى جسد الأمة العربية .

وأما حكام العراق اليوم، فإنهم يعيشون أيضا تحت مظلة الأوهام، ويتطلعون إلى تحقيق مجد لأنفسهم على حساب التاريخ، ولكنهم يخطئون الحساب. إنهم يتوهمون أن بإمكانهم العودة بعجلة التاريخ إلى أيام بنى العباس، عندما كان والى البصرة يحكم اقليم الخليج لحساب خليفة بغداد، متناسين أن التاريخ قد دار دورته وأن المجوس لم يعودوا مجوسا، وأن بلاد الفرس لم تعد ولاية من ولايات بغداد، وأن الشاطئ الغربى للخليج قامت عليه إمارات عربية مستقلة فضلا عن سلطنة عمان ، وكلها وحدات سياسية ذات كيان وقوام، بحيث تمثل كل وحدة عضوا فى جامعة الدول العربية . بل فى هيئة الأمم المتحدة . ونقول حكام العراق لا أهل أو شعب العراق، لأن هؤلاء الأخيرين إخوة مغلوبون على أمرهم، نعتز جميعا بهم وبعروبتهم، وإسهامهم على مر القرون فى دعم الأمة العربية والحفاظ على حاضرها والإشفاق على مستقبلها .

وفى جو مشبع برائحة الدماء، تسوده روح الإرهاب، لا يعرف أسلوبا لتحقيق أغراضه إلا أسلوب القتل والإغتيال وسفك دماء الأبرياء، قدر لاتحاد المؤرخين العرب أن يعيش فى بغداد بضع سنين ، يعمل تحت رئاسة صبيانية فرضها حاكم العراق على هذا الاتحاد، فى محاولة منه لتسخير التاريخ والمؤرخين العرب لخدمة مخططاته العدوانية على حساب الحقيقة التاريخية، مستخدمين سلاح الارهاب والتهديد من جهة وسلاح الابتزاز وفرض الاتاوات على دول الخليج من جهة أخرى .

وكان أن وقع العدوان الفاشل على الكويت سنة ١٩٩٠، وعندئذ كشف اتحاد بغداد عن حقيقة وجهه القبيح، فأصدر بيانات باسم المؤرخين العرب - والمؤرخون العرب أبرياء منها - تؤيد العدوان ، واستغل الأموال التى كان قد ابتزها من دول الخليج لنشر دعاية واسعة لقطع الأيدى التى أحسنت إليه، معتمدا على أساليب رخيصة بعيدة عن واقع الحقيقة والتاريخ .

ولم يرتض المؤرخون العرب ذلك الوضع الذى اعتبروه إهانة فى حقهم وفى حق التاريخ، فعقدوا اجتماعا فى القاهرة بمقر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية خلال شهر سبتمبر سنة ١٩٩٠ . وضم هذا الاجتماع لفيفا من المؤرخين ينتمون إلى شتى البلدان العربية. وكان أهم ما تمخض عنه هذا الاجتماع عزل الرئيس الذى فرضته حكومة العراق على الإتحاد، ونقل مقر الاتحاد إلى القاهرة ، والدعوة لعقد جمعية عمومية تضم المؤرخين العرب فى كافة انحاء الوطن العربى .

وفى الاجتماع الذى عقدته الجمعية العمومية لاتحاد المؤرخين العرب فى القاهرة (جمادى الآخر ١٤١٢ هـ ، ديسمبر ١٩٩١م) والذى ضم أكثر من مائة وخمسين عضوا يمثلون كافة البلدان العربية باستثناء ثلاث دول فقط ، تم وضع القانون

الأساسى للاتحاد فى عهده الجديد، وعن طريق الانتخاب الحر المباشر تم اختيار رئيس للاتحاد ونائب للرئيس ومجلس أمناء وأمين صندوق. وهكذا بدأت المسيرة لتبدأ صفحة جديدة تستهدف كل ما يعود بالخير على العرب وأمة العرب وتاريخ العرب ، ومؤرخى العرب .

ولئن بدت هذه المسيرة فى نظر البعض بطيئة فى هذه المرحلة، فذلك لأنها مرحلة النشأة، ولا يمكن أن ننتظر من الوليد أن يجرى ويسرع الخطى حال ولادته. وحسب الاتحاد الجديد أن يتحرك داخل إطار واضح من القيم الخلقية ، ويلتزم بأخلاق العروبة فى أنقى صورها، بعيدا عن أسلوب الارهاب والابتزاز والتهديد، وهو الاسلوب الذى طالما أساء إلى التاريخ والمؤرخين فى العهد البائد. ثم إن اتحاد المؤرخين العرب فى عهده الجديد لا يعمل لحساب حاكم بعينه أو تحت سيطرة حكومة بذاتها، وإنما يعمل ليرى الله عمله ورسوله والمؤمنون، مستهدفا الحق والعلم والخير للعرب وللمؤرخين العرب . وكل ما نرجوه هو أن يحظى اتحاد المؤرخين العرب فى وضعه الجديد بثقة الحكومات والمؤسسات العربية فتتقدم له من العون ما يمكنه من النهوض بالأمانة الكبرى الملقاه على عاتقه فى هذه الفترة الحرجة التى تمر بها الأمة العربية .



وإذا كنا باسم الله العلى القدير ، نقدم للباحثين فى حقل الدراسات التاريخية هذا العدد الأول من مجلة المؤرخ العربى التى يصدرها اتحاد المؤرخين العرب من مقره

الجديد بالقاهرة، فإننا نود أن نؤكد أن هذا العدد يمثل نقطة البدء . إنه يمثل النواة الأولى التى نرجو لها أن تنمو بفضل جهود الأخوة الزملاء لتصبح شجرة وارقة الظل تعود بالخير على المشتغلين بتراث الأمة العربية وحاضرها ومستقبلها ؛ بل تعود بالخير والبركة على مسيرة الحضارة الإنسانية فى كل زمان ومكان . فالعرب لم يعيشوا مطلقا منغلقين على أنفسهم وإنما انفتحوا على العالم أجمع مشرقه ومغربه . وليست العبرة بأن يبدأ الإنسان عملا ما ، وإنما العبرة بأن تكون البداية قائمة على أسس سليمة وبنوايا طيبة مستهدفة الخير والصلاح . وصدق الله العظيم إذ يقول (فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) .

رئيس التحرير

النزاع العربى الايرانى حول جزر
أبو موسى والطنبين
الأصول التاريخية والتطورات المعاصرة

للأستاذ الدكتور
جمال زكريا قاسم
أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة عين شمس

برزت على سطح الأحداث العربية فى الآونة الأخيرة قضية جزر الخليج الثلاث التى قامت إيران بالاستيلاء عليها من دولة الامارات العربية المتحدة ولم تلبث تلك القضية أن تحولت من نزاع بين ايران ودولة الامارات إلى بند أساسى فى الاجتماعات الخليجية والعربية نظرا لتأثيرها على الأمن الخليجى بصفة خاصة والأمن القومى العربى بصفة عامة .

ولعل ما اتجهت إليه ايران من فرض اجراءات إدارية وقانونية استهدفت بها ضم هذه الجزر إلى سيادتها الاقليمية قد أثبت بجلاء أن الاتجاهات التوسعية الايرانية لم تختلف بالتغير الذى حدث فى نظامها السياسى إذ لايزال التوسع الايرانى فى منطقة الخليج من الثوابت الرئيسية فى السياسة الخارجية الايرانية وأصبح واضحا أن ايران لاتزال أسيرة تقاليد سياسية مسيطرة على إدراك قياداتها المتعاقبة والتى يأتى فى مقدمتها عقدة التوسع فى اتجاه الخليج على حساب السيادة العربية فى محاولة لتحقيق الهدف التاريخى والاستراتيجى وهو جعل الخليج " بحيرة فارسية " وذلك على الرغم من اختلاف الشعارات من " الخليج الفارسى " على عهد النظام الامبراطورى الشاهنشاهى إلى الوحدة الاسلامية التى يرددها نظام الآيات الحالى بهدف إخفاء المطامع الايرانية التقليدية فى منطقة الخليج .

ومما تجدر الاشارة إليه أن النفوذ الايرانى ظهر فى منطقة الخليج منذ أواخر القرن الماضى مقترنا بنمو الحكم المركزى والنزعة العنصرية التى ترتب عليها القضاء على الوجود العربى فى الساحل الشرقى من الخليج وماتبع ذلك من سياسة تفريس قسرى لسكانه ثم التطلع إلى الجزر العربية المجاورة لذلك الساحل والساحل المقابل له عن طريق التغلغل البشرى والاقتصادى فضلا عن الادعاءات الاقليمية على

البحرين ومن ثم ظلت السياسة الايرانية التوسعية فى منطقة الخليج تؤثر سلبا على العلاقات العربية الايرانية .

وعلى الرغم من أن ايران قد تخلت عن إدعاءاتها التقليدية فى البحرين واعترفت باستقلالها فى عام ١٩٧١ فإنها لم تلبث فى الوقت نفسه أن قامت بتكثيف إدعاءاتها على جزيرة أبو موسى التابعة لامارة الشارقة وجزيرتى طنب الكبرى والصغرى التابعتين لامارة رأس الخيمة تمهيدا للسيطرة عليها حتى تحقق لها ذلك فى نوفمبر ١٩٧١ قبل يومين اثنين من الانسحاب البريطانى من الخليج مما أثار التوتر من جديد فى العلاقات العربية الايرانية .

إذ كان من الطبيعى أن ينظر العرب إلى خطورة تلك السيطرة لما تشكله المنطقة التى تقع فيها تلك الجزر من أهمية كبيرة لقربها من مضيق هرمز وهى بموقعها هذا بمثابة البوابة الرئيسية لذلك المضيق ومن ثم فإن استمرار سيطرة ايران عليها يعزز من هيمنتها على مدخل الخليج ويمكنها من التحكم فى مواصلاته البحرية مع العالم الخارجى[١].

ومن ناحية أخرى فإن فرض تلك الهيمنة يهدد أمن وسلامة الدول العربية فى الخليج ويظهر خطورة هذا التهديد بوجه خاص بالنسبة إلى دولة الامارات العربية المتحدة وقطر والبحرين من حيث أن إيران قربت كثيرا بسيطرتها على تلك الجزر مواقعها الامامية من سواحل تلك الدول فضلا عن فقدان العرب لثرواتهم النفطية وموارد طبيعية لا يستهان بها سواء فى تلك الجزر أو فى مناطق البحر الاقليمى

---

(١) نادرة نعيم زكى : دراسة حول الخلاف بين دولة الامارات العربية المتحدة وايران ، إصدار الهيئة العامة للاستعلامات ، القاهرة ١٩٩٢ ص ص ٤ - ٧ .

والجروف القارية التى تحيط بها والاهم من ذلك كله فقدان العرب لسيادتهم على أجزاء من ترابهم الوطنى[1] .

وقد تمثلت السيطرة الايرانية على تلك الجزر فى مظهرين مختلفين :

الأول الاحتلال السافر لجزيرتى طنب الكبرى والصغرى التابعتين لامارة رأس الخيمة.

والثانى عقد اتفاق أو مذكرة تفاهم بين ايران وإمارة الشارقة عن طريق المساعى البريطانية انطوت على تجميد وضع السيادة على جزيرة أبو موسى واتاحة الفرصة لايران لاحتلال بعض المواقع الاستراتيجية التى تقع فى الجزء الأعلى من الجزيرة مع بقاء الجزء الأدنى تحت إدارة الشارقة (٢) .

وعلى الرغم من ردود الفعل العربية التى أثيرت ضد ايران فإن السياسة العربية كانت حريصة بوجه عام على عدم قطع جسور التقارب العربى الايرانى ومن ثم أصبح وضع تلك الجزر من القضايا المعلقة فى العلاقات العربية الايرانية لأكثر من عقدين من الزمان حتى عاودت إيران إثارة المشكلة من جديد بالنسبة إلى جزيرة أبو موسى فى ابريل ١٩٩٢ حين عمدت إلى انتهاك الاتفاقية الخاصة بها وفرض بعض الاجراءات الادارية والقانونية التى استهدفت من ورائها الانفراد بالسيادة على تلك الجزيرة مما دفع بدولة الامارات العربية المتحدة التى انضوت كل من إمارة رأس الخيمة والشارقة تحت لوائها ليس فقط بالاحتجاج على انتهاك ايران لاتفاقيتها

---

(١) عبد الحسين القطيفى : الجزر العربية الثلاث فى الخليج العربى ، من أعمال المؤتمر الدولى للتاريخ ، بغداد مارس ١٩٧٣ ، ص ٦٤ .

(٢) حسين البحارنة : دول الخليج العربى الحديثة ، علاقتها الدولية وتطور الأوضاع السياسية والقانونية والدستورية فيها ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٧٧ .

السابقة مع الشارقة وانما بالمطالبة بعودة الجزر الثلاث إلى سيادتها الاقليمية .

ويقينا أنه ليس من صالح العرب أو ايران أن تتصاعد تلك الأزمة لما يعنيه ذلك من إتاحة الفرصة لبعض القوى الخارجية من استغلالها تحقيقا لمصالحها الخاصة ولذا فقد يكون الحل الأمثل هو أن يتم تسوية النزاع سلميا فى اطار علاقات الجوار وما يجمع الطرفين المتنازعين من روابط إسلامية أو اللجوء إلى التحكيم الدولى أو إلى المنظمات الدولية لاقرار الحقوق الشرعية إلى ذويها .

وسوف نحاول فى هذه الدراسة أن نتتبع الجذور التاريخية للنزاع العربى الايرانى حول تلك الجزر والذى يرجع فى تقديرنا إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حين بدأ ملوك آل قاجار فرض هيمنتهم على الساحل الجنوبى الشرقى للخليج مستغلين التفكك الذى بدأت تعانى منه الكيانات العربية الواقعة على ذلك الساحل وما هيأته بريطانيا لهم من التطلع إلى الجزر العربية المجاورة لذلك الساحل مما جعلها وكانت عربية دائما مجالا للنزاع بين العرب وايران .

وقد يكون من المناسب قبل الخوض فى تتبع الأصول التاريخية لتلك المشكلة أن نعرف بعض الشىء بتلك الجزر .

ونبدأ بجزيرة أبو موسى وهى أكبرها مساحة وتقع على بعد أربعة وتسعين ميلا من مدخل الخليج العربى عند مضيق هرمز وتبعد ما يقرب من خمسين ميلا من ساحل الامارات وعلى ما يقرب من ثلاثة وثلاثين ميلا من الساحل الايرانى .

ويبلغ عدد سكانها قرابة الالف نسمة معظمهم من العرب الذين ينتمون بأصولهم إلى قبائل الساحل العربى المواجه لهم وإن كانت إيران قد عمدت فى الوقت الراهن إلى تغيير تركيبتها الديموجرافية فضلا عن أوضاعها القانونية والادارية .

وتتميز جزيرة أبو موسى بثرائها من المعادن خاصة المغر الأحمر (أكسيد الحديد) بالاضافة إلى ما بها من ثروة نفطية ولاتزال تقوم فى الجزيرة بعض الحرف التقليدية بما فيها الصيد البحرى والرعى والزراعة حيث تتوافر بها المياه الصالحة للشرب .

وعلى الرغم من أن إمارة الشارقة ثم دولة الامارات العربية المتحدة فيما بعد قد أقامت بها بعض المرافق الصحية والتعليمية والأمنية إلا أنها لم تقم بانشاء ميناء بحرى فى الجزء الواقع تحت إدارتها مما سيعطى الفرصة لايران لكى تتحكم فى حركة المرور إلى الجزيرة عن طريق الميناء الذى أنشأته فى القسم الخاضع لها[1].

أما عن جزيرة طنب الكبرى فتقع بدورها عند مدخل خليج هرمز وتتميز بأهميتها للملاحة البحرية وتبعد ما يقرب من خمسين كيلو مترا عن جزيرة أبو موسى فى الاتجاه الشمالى الشرقى مقابل إمارة رأس الخيمة التى تتبعها تلك الجزيرة إضافة إلى جزيرة طنب الصغرى التى تقع إلى الجنوب منها وإلى الشمال الغربى من جزيرة أبو موسى وعلى مسافة تسعين كيلومترا من ساحل رأس الخيمة وهى غير مأهولة بالسكان ، وذلك على خلاف الجزيرة الكبرى التى كان يقطنها قبل الاحتلال الايرانى ما يقرب من سبعمائة نسمة معظمهم من العرب وإن كان الاحتلال الايرانى قد قلص عددهم بحيث أصبحوا لايتجاوزون فى الوقت الحاضر أكثر من مائة وخمسين نسمة وقد أقامت رأس الخيمة فى تلك الجزيرة قبل الاحتلال الايرانى لها مدرستين ابتدائيتين ومركزا صحيا ومخفرا للشرطة وغير ذلك من المرافق الاخرى التى تتناسب وعددسكانها .

---

(١) مركز الدراسات السياسية – جامعة القاهرة : ورقة عمل حول المشكلات الحدودية الراهنة فى منطقة الخليج ، اكتوبر ١٩٩٢ .

ويستدل من الوثائق التاريخية أن تلك الجزر الثلاث كانت من الممتلكات التابعة للقواسم منذ ظهورهم إلى القوة حول منتصف القرن الثامن عشر وقد ظل شيوخ القواسم فى كل من إمارة الشارقة ورأس الخيمة يتمتعون بحقوق الملكية على تلك الجزر والتى تمثلت فى رفع الاعلام الخاصة بهم وإدارة المرافق العامة واستيفاء الرسوم من الأفراد الذين يغوصون على اللؤلؤ أو يقومون بالرعى أو بمنح التراخيص والامتيازات للشركات العاملة فيها ، وخاصة جزيرة أبو موسى ، حيث منح حاكم الشارقة فى عام ١٩٥٢ لاحدى الشركات البريطانية ، وهى شركة الوادى الذهبى[١] ، امتياز الاستغلال الغاز واكسيد الحديد الأحمر[٢] .

كما منح حاكم رأس الخيمة فى عام ١٩٦٤ امتيازا لاحدى الشركات الأمريكية للتنقيب عن النفط فى الطنبين ، وصدقت الحكومة البريطانية على تلك الامتيازات بحكم العلاقات التعاهدية التى كانت تربطها بتلك الامارتين ودون الرجوع إلى الحكومة الايرانية مما كان يشكل فى حد ذاته اعترافا صريحا من قبل بريطانيا بملكية الشارقة ورأس الخيمة لتلك الجزر[٣] .

ولم تكن الجزر الثلاث هى وحدها التى امتلكتها القبائل والاسر العربية إذ لا نبالغ فى القول بأن جميع السواحل الشرقية للخليج بما فيها من موانى ومايجاورها من جزر كانت خاضعة بصورة أو بأخرى للسيطرة العربية .

ولذلك فقد يكون من المفيد أن نتعرف على وضعية العرب فى تلك

(١) Golden valley ochre and oxide ltd .

(٢) حسين القطيفى ، المرجع السابق ص ص ٦٧ - ٦٨ .

(٣) جابر إبراهيم الراوى : الحق العربى فى الجزر العربية الثلاث وموقف القانون الدولى من اكتساب الأقاليم عن طريق القوة ، من أعمال المؤتمر الدولى للتاريخ ، بغداد ١٩٧٣ ، ص ٤٣٢ .

السـواحل من أجل القـاء بعض الأضـواء على الأصـول التـاريخـيـة للمشكلة التى نحن بصددها .

فمن الحقائق الثابتـة أن مـوقع الخليج بين العرب وايران جعله عـامل اتصـال بين الجانبين ومن ثم شهـد الخليج فى مـختلف عـصوره التـاريخـيـة العـديد من مـوجـات الهجرة بين سواحله الشرقية والغربية وإن كانت الهجرات العربية هى الغالبة والاكثر تأثيرا وقد تدفقت الهجرات الايرانية على سواحل الخليج العربية بصفة خاصة خلال الفتـرة التى أعـقـبت الحرب العـالمـيـة الثـانيـة بسـبب توافر فـرص العـمل المصـاحـبـة لاكتشاف النفط غير أن كثيرا من تلك الهجرات كانت تتم بطرق غير مشروعة فضلا عما اصطبغ به بعضها من دوافع سياسية أو رغبة فى تنفيذ مخططات توسعية[1] .

أمـا عن موجـات الهـجرة العـربيـة التى تواجدت على سـواحل الخليج فـقد تمثلت فى موجتين رئيسيتين ترتبط الأولى منهـا بالهجرات التى رافقت الفتوحات الاسلاميـة فى فـارس وأتاحت للعرب فرض سيطرتهم على سواحل الخليج وانتزاع مـوانيـه من أيدى الفرس بينمـا ترتبط الموجة الثـانيـة بالهـجـرات التى تدفـقت من قلب الجزيرة العربيـة خلال السنوات الأولى من القرن الثـامن عشر وترجع فـى أسبابهـا إلى العديد من العوامل السياسية والاجتماعية لعل من أبرزها انهيار النفوذ البرتغالى فى منطقة الخليج بما كان يتسم به من قيود احتكارية وسيطرة عسكرية إضافة إلى القحط

---

(١) تقرير بعثة الجامعة العربية عن زيارتها لامارات الخليج العربى فى ١٠ نوفمبر ١٩٦٤ ، انظر ملحق رقم (٢) من تقرير الأمين العام إلى مجلس جامعة الدول العربية فى دور انعقاده الثالث والأربعين، ١٥ مارس ١٩٦٥ ص ١٧٧ وما بعدها . وعن التسلل والهجرات الايرانية غير المشروعة يمكن الرجوع إلى كتاب ماذا يجرى فى خليجنا العربى اصدار الاتحاد الوطنى لطلبة الكويت ، مارس ١٩٦٧ ص ٥٣ وما بعدها .

الشديد الذى أصاب أواسط الجزيرة العربية مما دفع بالعديد من القبائل العربية للانطلاق إلى سواحل الخليج وكان لها أثرها فى تكوين الوحدات السياسية التى ظهرت على سواحل شرق الجزيرة العربية منذ منتصف القرن الثامن عشر[1] .

ولما كان معروفا عن الفرس انزوائهم داخل الهضبة الايرانية فقد انفسح المجال أمام تلك الهجرات للانسياب إلى الساحل الشرقى من الخليج الذى تطل عليه ايران ذاتها ولم يمض وقت طويل حتى أصبح ذلك الساحل عربيا فى ثقافته وتكوينه البشرى[2] .

وقد ساعدت الظروف السياسية والاقتصادية فضلا عن عدم وجود نفوذ مؤثر لفارس على سواحلها على عملية الاستقرار هذه خاصة بعد سقوط الدولة الصفوية فى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر وعودة الفوضى والتفكك إلى الأقاليم الفارسية وكان ذلك مما مهد لظهور العديد من المدن والامارات العربية التى انتمت بأصولها إلى هجرات يمنية أو نجدية كالعبادلة وبنى حماد والمرازيق وآل بشر وبنو مالك[3]أو تلك التى كانت تنتمى إلى الساحل العربى المقابل كبنى معين فى قسم والقواسم فى لنجة وآل مذكور فى بوشهر الذين يرجعون بأصولهم إلى قبيلة المطاريش العمانية . وقد أثرت تلك الانتماءات القبلية فى قوة العلاقات الاسرية

(١) عبد الأمير محمد أمين : المصالح البريطانية فى الخليج العربى ١٧٤٧ / ١٧٧٨ ، بغداد ١٩٧٧، ص ٤٧ .

(٢) محمد بهجت سنان : الشخصية العربية للخليج العربى والاحتلال الايرانى للجزر العربية الثلاث ، بغداد ١٩٧٢ ص ٣٨ وما بعدها ، انظر أيضا ر. ج . لاندن : عمان منذ عام ١٨٥٦ ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٨ .

(٣) للتعرف على هذه الامارات وشجرات أنساب حكامها انظر حسين بن على الخنجى · تاريخ لنجة حاضرة العرب على الساحل الشرقى للخليج ، دبى ١٩٨٥ ، ص ١٠٧ وما بعدها .

التى ربطت بين العرب على جانبى الخليج[١] .

ومما هو جدير بالذكر أن القبائل العربية التى استقرت على الساحل الجنوبى الشرقى من الخليج قد عاشت فى عزلة عن بقية سكان فارس ولم يكن هذا الانعزال لأسباب جغرافية مرتبطة بطبيعة الهضبة الايرانية العالية فحسب وإنما أيضا لأسباب عقائدية أومذهبية إذ تعتنق تلك القبائل المذهب السنى على خلاف الفرس الذين ينتمون بصفة عامة إلى المذهب الشيعى الاثنى عشرى[٢] . ومما لاشك فيه أن الاستقرار العربى على السواحل الايرانية أدى إلى أن تصبح تلك السواحل عربية مما أضفى على الخليج سمته العربية من جانبيه .

وقد تحدث العديد من الرحالة الأوربيين عن المدن والامارات التى أقامها العرب على تلك السواحل ولعل الرحالة الدانمركى كارستن نيبور Niebuhr كان أول من أشار إلى المدن والموانئ العربية التى صادفها خلال رحلته إلى سواحل الخليج فى عام ١٧٦٣ واكد أن العرب الذين استقروا فيها كانوا مستقلين تماما عن فارس وشبه المدن التى قاموا بتأسيسها بدول المدينة التى عرفت قديما لدى الاغريق أو تلك التى عرفتها المدن الايطالية فى العصور الوسطى خلال اشتغالها بالوساطه التجارية بين الشرق والغرب [٣] .

ولم يكد يمضى أكثر من قرن واحد على رحلة نيبور حتى قام الرحالة الانجليزى وليام بالجراف Palgrave برحلته إلى أواسط الجزيرة العربية والخليج فى عام ١٨٦٢

(١) مصطفى عقيل : سياسة ايران فى الخليج العربى على عهد ناصر الدين شاه ١٨٤٨/ ١٨٩٦ الدوحة ١٩٨٧ ، ص ١٠٣ .

(٢)محمد مرسى عبد الله : دولة الامارات العربية المتحدة وجيرانها ،الكويت ١٩٨١، ص ٣٠٧ .

(٣) Carsten Niebuhr, Travels Through Arabia and other Countries in the East, Edinburgh 1792, Vol. II, p. 137.

وأشاد بدوره بالازدهار الذى حققه العرب على الساحل الشرقى وذكر أن الموانى العربية فى ذلك الساحل استطاعت أن تجذب إليها الكثير من العناصر والأجناس بفضل سياسة التسامح والحرية الاقتصادية التى اتبعها الحكام العرب حيث انتعشت التجارة مع الهند وشرق إفريقيا وتدفقت البضائع إلى تلك الموانى باعتبارها موانى حرة (١) .

ومن المؤكد أن الوجود العربى على السواحل الشرقية للخليج لم يكن موضع خلاف بين الباحثين إذ يقرر المؤرخ البريطانى جون كيلى Kelly أن معظم تلك السواحل والجزر المجاورة لها كانت تخضع لسيطرة القبائل العربية وأنها نأت عن أية تبعية للفرس الذين كانوا كلما حاولوا اخضاعهم لنفوذهم انسحبوا فى مراكبهم إلى بعض الجزر القريبة منهم (٢) ولعل ذلك الوجود التاريخى الذى سجله العرب على سواحل الخليج هو الذى جعل الباحثين العرب يؤكدون على الصفة العربية للخليج من جانبيه وشايعهم فيما ذهبوا إليه بعض الباحثين الأجانب ومن بينهم رودريك أوين Owen فى كتابة " الفقاعة الذهبية " (٣) كما أكد الكاتب الفرنسى جان جاك بيريبى Berebey على عروبة الخليج وإن سمى كتابه الذى صدر فى عام ١٩٥٩ " بالخليج الفارسى " اتباعا للتسمية التى كانت سائدة عند صدور كتابه هذا (٤) .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن التكوينات السياسية التى أوجدها العرب على الساحل الشرقى من الخليج لم تكن منعزلة عن الكيانات والوحدات السياسية التى

---

(١) William Palgrave . Personal Narrative of a year' s Journey through Central and Eastern Arabia, london 1877, P 392.

(٢) John Kelly , Britain and the Persian Gulf , london 1968 . P . 40

(٣) Roderick owen , The Golden Buble , Arabian Gulf documentary London 1957,pp. 13 - 16.

(٤) Jean Jack Berebey, Le Golfe Persique , paris 1959

أوجدها العرب على كلا جانبى الخليج كانوا على اتصال دائم ببنى جلدتهم وفى حركة مستمرة من الهجرة إلى ذويهم (١) . ورغم تقلبات السلطة السياسية فى فارس ظلت الهجرات العربية تفد إلى سواحلها حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومن ثم استمرت تلك السواحل محتفظة بهويتها العربية وبصلات سكانها المستمرة مع أقرانهم فى السواحل المواجهة لهم .

وقد ارتبط الوجود العربى فى الساحل الشرقى للخليج بافتقاد فارس إلى حكومة مركزية قوية حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وقد يكون حقيقة أن بعض حكام الفرس الأقوياء من أمثال نادر شاه الافشيارى ١٧٢٧ / ١٧٤٧ أو كريم خان الزندى ١٧٥٦ / ١٧٧٩ قد بذلوا محاولات دائبة لتقوية قبضة يدهم على السواحل الفارسية إلا أن الأمور كانت تعود إلى ما كنت عليه بسبب عجز أولئك الحكام عن فرض سيطرتهم البحرية فمنذ المحاولة التى بذلها نادر شاه لبناء قوة بحرية أثبت الفرس أنهم بحارة عاجزون تعوزهم الخبرة فى شئون البحر أو إدارة الأسطول.ولعل خير تعليل لذلك ما ذكره السير برسى سيكسSykes فى أنه ليس هناك شئ يوضح تأثير العوامل الطبيعية على ميول الناس وسلوكهم أكثر من النفور الذى يظهره الفرس للبحر الذى تفصلهم عنه حواجز جبلية شاهقة (٢) ومن ثم اضطر كثير من أولئك الحكام إلى استخدام الملاحين العرب ليكونوا بحارة لأساطيلهم بينما اسندوا قيادة تلك الأساطيل إلى قباطنة من الفرس تعوزهم الدراية البحرية ولعل

---

(١) ج . ج . لوريمر : دليل الخليج – القسم التاريخى الجزء السابع ،الدوحة ١٩٦٧ انظر الملاحق الخاصة بفروع الأسر العربية الحاكمة فى السواحل الشرقية من الخليج .

(٢) Percy Sykes ,History of Persia , Vol II, London 1951 P . 271

انظر أيضا عبد الأمير محمد أمين : القوى البحرية فى الخليج العربى فى القرن الثامن عشر، بغداد١٩٦٦ ص ص ١٩ ، ٢٢ – ٢٣ .

ذلك يتجلى فى أمير البحر الفارسى الذى اختاره نادر شاه لقيادة أسطوله ولم يكن قد سبق له أن ركب البحر أو رأى سفينة من قبل ! ولذلك كان من الطبيعى أن يسيطر الملاحون العرب على القوة البحرية لفارس ولكى تؤول إليهم معظم سفن الأسطول الفارسى بعد اغتيال نادر شاه مما أعان القواسم فى الوصول إلى القوة والتفوق البحرى والامتداد بنفوذهم من الساحل العمانى إلى الساحل المواجه لهم(١).

وعلى الرغم من استقرار الحكم فى فارس على أثر ظهور الأسرة القاجارية منذ أواخر القرن الثامن عشر إلا أنه لم يكن لتلك الأسرة نفوذ ملموس على سواحلها ولم يتحقق لها ذلك إلا بداية من النصف الثانى من القرن التاسع عشر حين أخذ ملوكها يعملون على تقوية حكمهم المركزى والقضاء على النفوذ العربى من السواحل الشرقية للخليج فمنذ عام ١٨٥٤ بدأ ناصر الدين شاه ١٨٤٨ / ١٨٩٢ فى العمل على تقليص نفوذ سلطنة مسقط وعمان من الموانى التى كانت تديرها فى بندر عباس وقشم وهرمز مستغلا الصراع الأسرى والتفكك الداخلى الذى دب فى أوصال تلك السلطنة التى ترجع سيطرتها على تلك الموانى والبنادر التابعة لها فى شهبار وجوادور إلى عام ١٧٩٣ بموجب فرمان تحصلت عليه السلطنة من الحكومة الفارسية يمنحها حق إدارة تلك الموانى عن طريق الإيجار السنوى (٢) وكان من الطبيعى أن يترتب على الازدهار الاقتصادى الذى حققته السلطنة العربية فى تلك الموانى أن يعمل ملوك آل قاجار على استرجاع نفوذهم ومن أجل ذلك خاضت فارس

---

(١) G . N . Curzon,Persia and the Persian Question, Vol II,London 1892,P.239 see also Carsten Neibuhr,Description de l' Arabie,Copenhagen 1773,pp. 267-268

(٢) Percy Sykes , History of Persia,vol II, London 1951 pp. 252 - 253.
انظر أيضا أرنولد ويلسن : تاريخ الخليج ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ١٤٥

حرباً ضد سلطنة مسقط وعمان فى عام١٨٥٤(١) ونتيجة للقيود التى فرضها الانجليز على الملاحة العربية فى الخليج استطاعت فارس أن تصل إلى اتفاقية مع السيد سعيد بن سلطان فى عام١٨٥٦رفعت بمقتضاها قيمة الإيجار السنوى وحددت فترة الإدارة العمانية بعشرين عاما غير أنها لم تلبث أن أقدمت على إلغاء تلك الاتفاقية برمتها فى عام١٨٦٨على أثر تغير نظام الحكم فى سلطنة مسقط وعمان وانتقاله إلى فرع آخر من فروع الأسرة الحاكمة ومن ثم تحولت تلك الموانى من الإدارة العربية إلى الإدارة الفارسية المباشرة (٢).ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا المقام أن كثيرا من الرحالة الأوربيين قد نوهوا بالازدهار الاقتصادى الذى حققته الإدارة العربية على خلاف الإدارة الفارسية التى وصفوها بقدر كبير من الجور والتعسف .

وعلى أثر خضوع بندر عباس وتوابعها للإدارة الفارسية اتجهت فارس بعد ذلك إلى القضاء على نفوذ القواسم فى إمارة لنجة وتم لها ذلك فى عام ١٨٨٩ وليس من شك فى أن ما أقدم عليه ناصر الدين شاه من فرض سيطرته على السواحل الجنوبية سيمهد الطريق لرضا شاه بهلوى مؤسس الأسرة البهلوية فى استكمال سلطة الدولة المركزية على سواحلها الشمالية وقد تحقق له ذلك فى عام ١٩٢٥ حين نجح فى القضاء على إمارة المحمرة العربية التى كانت تشغل إقليم عربستان حيث تم إعلان دمج ذلك الاقليم فى الأقاليم الإيرانية بعد تغيير اسمه إلى الاسم الفارسى

---

(١) G. N. Curzon, History of Persia, Vol II, London 1892 P. 423

(٢) C. U. Aitchison, Acollection of Treaties, Engagements and Sanads relating to India and Neighbouring Countries, v o l XI Calcutta 1892 P. 100

انظر أيضا جمال زكريا قاسم : الخليج العربى دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ / ١٩١٤ القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٩٠ .

خوزستان (١) . وهكذا أدى الحكم المركزى القومى إلى اصطدام الامارت العربية بطموحات حكام الفرس مما أسفر عنه تلك الصراعات التى وقعت بين الفريقين وترتب عليها الإطاحة بالوجود العربى من السواحل الشرقية للخليج (٢) ومع ذلك فإن الإطاحة بذلك الوجود لم يكن يرجع إلى الجهود التى بذلها ملوك آل قاجار أو رضا شاه بهلوى فحسب وإنما كان يرجع أيضاإلى الصراعات الأسرية التى عانت منها كثير من الإمارات العربية على تلك السواحل يضاف إلى ذلك أن السياسة البريطانية شكلت بدورها عاملا هاماً من عوامل نجاح الفرس فى القضاء على تلك الإمارات إذ ترتب على فرض بريطانيا المعاهدات البحرية على شيوخ الساحل العمانى حرمان سفنهم من الوصول إلى جزر وموانى السواحل الشرقية للخليج ومن ثم فقد العرب المقيمون هناك الدعم الذى كانوا يتلقونه دائما من أقرانهم (٣) وبالاضافة إلى ذلك فقد ترتب على تدهور النفوذ العربى وتصاعد النفوذ الفارسى واتجاه السياسة الإيرانية منذ العهد البهلوى إلى التفريس القسرى لسكان تلك السواحل أن أخذت الأجيال الجديدة تخضع للمؤثرات الثقافية الإيرانية وإن لم تنس بطبيعة الحال أصولها العربية (٤).ولعل الأمر الأكثر خطورة هو أنه ما كادت إيران تنتهى من تفريس سواحلها حتى أخذت تمتد بادعاءاتها الأقليمية إلى السواحل المقابلة لها رغم تطور كياناتها السياسية من مشيخات أو إمارات إلى دول حديثة

---

(١) عبد السلام عبد العزيز فهمى : تاريخ إيران السياسى فى القرن العشرين ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ص ٥١ - ٥٢ وكذلك شفيق الرشيدات : عربستان الجزء العربى المغتصب ، من أعمال المؤتمر التاسع لاتحاد المحامين العرب ، القاهرة ، فبراير ١٩٦٧ ، ص ٩٠ .

(٢) N . J . whigham , The Persian Problem London 1903 . P . 18

(٣) مصطفى عقيل : مرجع سبق ذكره ص ص ١١٥ - ١١٦ .

بدءاً من آل صباح فى الكويت إلى آل أبى سعيد فى سلطنة مسقط وعمان ومن ثم ظلت السياسة الإيرانية تسير وفق ثوابت معينة استهدفت هيمنتها على الخليج واعتباره بحيرة فارسية تقع وسط أقاليم إيرانية .

وإذا كنا قد تعرضنا إلى نمو السلطة المركزية فى إيران فلا يعنينا من ذلك النمو فيما يتعلق بموضوع تلك الدراسة سوى تأثيره على إمارة القواسم فى لنجة وما كان يتبعها من موانى وجزر مجاورة وذلك نظرا لارتباط قواسم لنجة بقواسم الساحل العمانى بصلة النسب والقرابة فضلا عن كونهم امتداداً للاتحاد القاسمى الكبير الذى ظهر إلى القوة إثر انفصالهم عن الكتلة الغافرية فى عمان وعلى وجه التحديد عقب سقوط دولة اليعاربة وقيام دولة البوسعيد فى عام ١٧٤١ ولم يلبث أن تعاظم نفوذهم البحرى فى خلال الفوضى التى عمت فارس عقب اغتيال نادر شاه فى عام ١٧٤٧ وتمكنوا من الحصول على لنجة وتوابعها فى عام ١٧٥٢ وكان ذلك مكافأة لهم على تحالفهم مع الملا على شاه قائد منطقة بندر عباس حين آزروه فى الصراع الذى كان قائما بينه وبين ناصر خان قائد منطقة لارستان (١) .

وعلى الرغم من المحاولات التى بذلها كريم خان الزندى ١٧٥٦ / ١٧٧٩ للحد من نفوذ القواسم فى لنجة إلا أنهم نجحوا فى تثبيت أوضاعهم وخاصة بعد اغتياله فى عام ١٧٧٩ (٢) وبفضل من تدفق عليهم من القبائل المتحالفة معهم ونشاطهم البحرى استطاعوا أن يحققوا ازدهارا اقتصاديا كبيرا حتى غدت إمارتهم فى لنجة

(١) عبد الأمير محمد أمين : القوى البحرية فى الخليج العربى فى القرن الثامن عشر ص ص ٢٣ - ٢٤ وكذلك فالح حنظل : المفصل فى تاريخ الإمارات العربية المتحدة ، الجزء الأول ، أبو ظبى ١٩٨٣، ص ١٩٦ ولوريمر : مصدر سبق ذكره جـ ١ ص ٢١٦

(٢) Kelly , J , o p . cit . pp . 40 - 41 see also Donald Hawley , The Trucial States , Lonon 1970 , p . 93

بمثابة حاضرة للساحل الجنوبى الشرقى من الخليج وتميزت بمسحتها العربية وطبيعتها العقائدية كموطن لأهل السنة والجماعة (١) وتأكد وضعها المستقل نتيجة حالة الفوضى التى تردت فيها المملكة الفارسية كما كانت مؤهلة بطبيعتها للحكم العربى حيث سبق القواسم فى حكمها العديد من الأسرات العربية التى هاجرت إليها من عمان أو غيرها من سواحل الجزيرة العربية (٢) .

وقد استمر حكم القواسم فى لنجة وما حولها من جزر على الساحل أو قرى على البر الفارسى منذ عام ١٧٥٢ حتى أطاحت الحكومة القاجارية بالشيخ محمد بن خليفة القاسمى وهو آخر شيخ عربى حكم لنجة فى عام ١٨٨٩ (٣) وليس من شك أن استقرار الحكم للقواسم فى لنجة كان يرجع فى الدرجة الأولى إلى القوة البحرية التى حققها تحالف القواسم فى معقلهم الرئيسى برأس الخيمة (٤) حيث أصبحوا يمتلكون حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر أسطولا كبيرا أجمعت العديد من المصادر أنه كان يتألف من ثلاثة وستين سفينة كبيرة وأكثر من ثمانمائة سفينة صغيرة كما بلغ عدد مقاتليهم أكثر من تسعة عشر ألف رجلا ومن ثم أصبح ذلك

١ - حسين بن على الوحيدى : تاريخ لنجة حاضرة العرب على الساحل الشرقى للخليج ، دبى الإمارات العربية المتحدة ١٩٨٥ ، ص ص ١٥ -١٦ .

٢ - المرجع السابق ص ٧ .

٣ - انظر لوحة نسب عائلة القواسم حكام لنجة فى المجلد السابع من القسم التاريخى للوريمر .

٤ - التفصيلات الكثيرة عن حلف القواسم يمكن الرجوع إليها فى وثائق حكومة بومباى :

Selection From The Records of Bombay Govt . Vol XXIV Bombay 1856 : Historicd Sketsh of the Joasmee Tribe of Arabs 1747 - 1853 , pp 299 - 359

انظر أيضا عبد القوى فهمى:القواسم ونشاطهم البحرى ،راس الخيمة ١٩٨٣ ، ص ٨٧ وما بعدها

التحالف القوة البحرية الأولى التى كانت تحسب حسابها القوى الإقليمية والأجنبية (١) .

ولقد كان من الطبيعى أن تلفت تلك القوة البحرية أنظار الإنجليز منذ أن أخذوا يتطلعون إلى منطقة الخليج فى أوائل القرن التاسع عشر وحتى يتمكنوا من القضاء على تلك القوة البحرية التى باتت تهدد مصالحهم البحرية والتجارية ارتكزت خطتهم على تفكيك ذلك التحالف وتدمير القواعد الرئيسية للقواسم فى الساحل العمانى . وليس من شك أن الإجراءات السياسية والعسكرية التى اتخذها الإنجليز كان لها أثر كبير فى إضعاف الروابط بين قواسم الساحل العمانى وأقرانهم فى الساحل الجنوبى الشرقى من الخليج (٢).

وكان مما ساعد الإنجليز على هزيمة القواسم تلك الصراعات المستمرة التى كانت قائمة بينهم وبين سلطنة مسقط وعمان (٣) بالاضافة إلى سقوط الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى فى عام ١٨١٨ على أيدى القوات المصرية التركية إذ كان القواسم من أشد المتحمسين للدعوة السلفية ومن ثم أدى فقدانهم للدعم السعودى إلى عدم قدرتهم على مواجهة الحملات البريطانية وخاصة حملة ١٨١٩ التى تمكن الإنجليز فى أثنائها من تدمير معظم قلاعهم وإحراق سفنهم رغم استبسالهم فى الدفاع (٤) . وكان من أهم النتائج التى ترتبت على تلك الحملة سقوط رأس الخيمة

---

(١) G . Fenelon:The united Arab Emirates , an Economic and Social Survey , london 1973 , p. 10

(٢) Kelly , J . , o p . cit , pp, 160 - 161

(٣) س . ت . مايلز : الخليج ، بلدانه وقبائله (مترجم) ، ١٩٨٦ ، ص ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٤) للتفاصيل الخاصة بهذه الحملة انظر Charles low , History of The Indian Navy Vol 2 , London 1877 , P . 351 ff.

انظر أيضا : جمال زكريا قاسم : الخليج العربى : دراسة لتاريخ الإمارات العربية فى عصر التوسع الأوربى الأول ، القاهرة ١٩٨٥ ص ٣٢١

التى كانت أهم وأبرز مشيخة شهدها الخليج العربى خلال تلك الفترة (٥) .

ومما هو جدير بالملاحظة أنه على الرغم من أن الإنجليز تحاشوا التقدم إلى القواسم فى لنجة إلا أن ما تعرض له أقرانهم فى الساحل العمانى قد أثر بطبيعة الحال على قوتهم وإن ظلوا محتفظين بتماسكهم غير أن حرص الإنجليز على عدم اشراكهم فى التوقيع على المعاهدة العامة التى أبرمت مع شيوخ الساحل العمانى فى عام ١٨٢٠ وما تلاها من اتفاقيات ومعاهدات أخرى سيتيح الفرصة لفارس للقضاء على حكمهم نظرا لافتقادهم للحماية البريطانية .

ولعل من أهم الأسباب التى أدت إلى إضعاف الروابط بين قواسم الساحل العمانى وأقرانهم فى لنجة ما ترتب على توقيع معاهدات الهدنة البحرية من مراقبة سفن الأسطول البريطانى للنشاط البحرى العربى ومنع امتداده إلى الساحل الشرقى من الخليج . ومن أجل ذلك حدد الكولونيل هنل Hennell المقيم البريطانى فى الخليج فى عام ١٨٣٦ خطا مقيدا للملاحة Restrictive line لا يجوز للسفن العربية بصفة عامة وسفن القواسم بصفة خاصة اجتيازه وقد راعى هنل فى رسمه لذلك الخط الفاصل أن يكون بعيدا عن الساحل الشرقى للخليج . وعلي الرغم من أن الشيخ سلطان بن صقر القاسمى حاكم الشارقة ١٨٠٣ / ١٨٦٦ لم يوافق على ذلك الخط وأبدى اعتراضه فى أنه لابد له من الاتصال ببنى عمومته فى إمارة لنجة وتفقد ممتلكاته فى خورفكان على خليج عمان إلا أن هنل لم يأبه بهذا الاعتراض وأكثر من ذلك فإنه حينما خلف الكابتن موريسون Morrison الكولونيل هنل فى منصب المقيمية البريطانية فى الخليج فى عام ١٨٣٧لم يكتف بالخط الذى وضعه

(١) مايلز ، مصدر سبق ذكره ، ص ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .

هنل وإنما أراد حصر السفن العربية فى مساحة أضيق حتى يسهل مراقبتها ومن ثم حدد خطا آخر يبدأ من جزيرة قشم وينتهى إلى مسافة عشرة أميال جنوب جزيرة أبو موسى وحتى جزيرة صير بونعير (١) مما أدى إلى فصل جزر أبو موسى والطنبين عن الساحل العمانى وقطع الصلات التى كانت تربط سكانها بذلك الساحل ولعل صعوبة الاتصالات البحرية هى التى دفعت بقواسم الشارقة إلى الاتفاق مع أقربائهم قواسم لنجة على إدارة تلك الجزر دون اخلال بتبعيتها لهم .

ومن ناحية أخرى فقد ترتب على اقتراب الخطوط الملاحية المانعة من الساحل العربى وابتعادها عن السواحل الشرقية من الخليج إلى إتاحة الفرصة لفارس للقضاء على الوجود العربى فى تلك السواحل ولم يستطع عرب الساحل العمانى نظرا لانهيار قوتهم البحرية من ناحية ولوجود الخطوط الملاحية الفاصلة من ناحية أخرى أن يبادروا بتقديم العون لهم .

أتاحت إذن الرقابة البريطانية على الملاحة العربية الفرصة لفارس لكى تفرض سيطرتها على القواسم فى لنجة ولما كان هؤلاء يعتمدون فى مصدر قوتهم على التجارة والملاحة فقد اتجهت السلطات الفارسية إلى فرض نفوذها الاقتصادى على السواحل الشرقية للخليج ومن أجل ذلك اعتمد الشاه ناصر الدين ١٨٤٨-١٨٩٦على ألمانيا فى بناء سفينتين حربيتين تجاريتين لاستخدامهما فى مياه الخليج كانت أكبرهما السفينة برسوبوليسPersopolis التى وصلت فى عام١٨٨٥إلى ميناء

(١) عن الخطوط المقيدة للملاحة بين السواحل الشرقية والغربية للخليج العربى انظر : عبد العزيز عبد الغنى : بريطانيا والساحل العمانى ، دراسة فى العلاقات التعاهدية ، بغداد ١٩٧٨ ، ص ص ٢٦٤ - ٢٦٨ ، انظر أيضا مصطفى عقيل ، مرجع سبق ذكره ص ص ٤٤١ - ٤٤٢ وكذلك :
Kelly , OP, cit . , p. 359.

بوشهر واختصت بتنظيم الأوضاع الادارية والاقتصادية على موانى الساحل الجنوبى الشرقى بينما عملت السفينة الثانية سوزا Sousa فى رقابة الملاحة النهرية فى نهر كارون على رأس الخليج العربى (١) .

وقد اعتمدت السلطات الفارسية فى بوشهر على السفينة برسوبوليس فى مواصلة قضائها على الكيانات العربية خاصة إمارة لنجة وتوابعها غير أن العامل الهام الذى ساعد الحكومة المركزية فى طهران فى بسط سيطرتها على تلك الإمارة لم يكن يرتبط باستخدام القوة البحرية بقدر ما كان يرتبط إلى حد كبير بالمنازعات الأسرية التى نشبت داخل فرع القواسم فى لنجة خاصة بعد أن عمدت السلطات الفارسية فى الخليج إلى تعميق شقة الخلاف بين المتنافسين على الحكم حتى تتمكن من تحقيق أهدافها ، فعلى أثر وفاة الشيخ خليفة أقوى شيوخ لنجة فى عام ١٨٧٤ خلفه ابنه على ولما كان صبيا صغيرا لم يبلغ سن الرشد فقد خضع لوصاية أحد أقربائه وهو الشيخ يوسف بن محمد الذى لم يلبث أن انفرد بالسلطة بعد اغتياله للشيخ على حين شب إلى رشده فى عام ١٨٨٧ وبدأت لنجة تتعرض منذ ذلك الحين لسلسة من المنافسات والاغتيالات الأسرية كان أبرزها فى عام ١٨٨٥ حين قفز إلى حكم لنجة الشيخ قضيب بن راشد بعد قتله للشيخ يوسف بن محمد . (٢)

تواكب عدم استقرار الحكم فى لنجة مع مرحلة هامة فى تاريخ فارس حين اتجهت إلى التخلص من الكيانات المستقلة والتحول من حكم الشيوخ العرب أو حتى الخانات الفرس إلى سيطرة الحكومة المركزية ومن ثم قضى هذا التحول الذى طرأ على السياسة الفارسية على تلك المحاولة التى بذلها الشيخ قضيب بن راشد

(١) ويلسن ، مصدر سبق ذكره ص ١٨٦ .

(٢) مصطفى عقيل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٣٤ - ٤٣٥ .

للانفصال عن السلطة المركزية عن طريق توثيق علاقاته بأقربائه شيوخ القواسم فى الساحل العمانى (١) هذا بالإضافة إلى أن الانجليز كانوا سببا فى إفشال محاولته حين أصدر المقيم البريطانى تحذيرا لأولئك الشيوخ بعدم التدخل فى الصراعات الدائرة بين قواسم لنجة والسلطات الفارسية فى الخليج (٢) ومن ثم كان من الطبيعى ألا يستقر الشيخ قضيب فى حكمه طويلا وخاصة بعد أن كلفت الحكومة المركزية فى طهران الدريابيكى حاجى أحمد خان بإدارة موانى الساحل الجنوبى الشرقى من الخليج وما كاد يصل إلى مركز عمله فى بوشهر فى سبتمبر١٨٨٧حتى أخذ يعمل على توحيد الموانى التى صارت تابعة لادارته ومن أجل ذلك أرسل حملة بحرية ألحقت الهزيمة بالشيخ قضيب حيث اقتيد أسيرا إلى طهران وبقى فيها سجينا حتي وفاته (٣)

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أنه على الرغم من الهزيمة التى أحاقت بالشيخ قضيب فإن السلطات الفارسية لم تستطع أن تتجاهل الأسرة القاسمية فى لنجة حيث بادر الدريابيكى بتنصيب أحد شيوخ القواسم حاكما عليها تحت التبعية الفارسية ولم تكد تنقضى أكثر من سنتين على ذلك الوضع حتى قام الشيخ محمد بن خليفة الشقيق الأصغر للشيخ على بمحاولة لطرد الحامية الفارسية من لنجة واستعادة القواسم لنفوذهم وعلى الرغم من أنه قد تمكن من اسقاط قلعة لنجة بالفعل وأجبر الحامية الفارسية على التسليم إلا أن السلطات الفارسية فى بوشهر لم تلبث أن استردت

(١) Government of India , Precis of the affairs of the Persian Coast and Islands 1854 - 1905 Calcutta , 1906

(٢) مصطفى عقيل ، مرجع سبق ذكره ص ص ٤٣٧ - ٤٣٨ .

(٣) فالح حنظل ، مرجع سبق ذكره ، الجزء الثانى ، ص ٦٧٩ .

أن استردت سيطرتها وكانت الهزيمة التى منى بها القواسم فى عام ١٨٨٩ سببا فى سقوط إمارتهم فى لنجة (١) .

ويمكننا أن نحدد بسقوط إمارة لنجة بداية لمشكلة الجزر ويرجع السبب فى ظهور تلك المشكلة إلى أن الحكومة المركزية فى طهران لم تكتف بفرض سيطرتها على إمارة لنجة وإنما تجاوزت ذلك بإصدار تعليماتها إلى السلطات التابعة لها فى الخليج بفرض سيطرتها على الجزر العربية التى تواجه تلك الإمارة وهى جزيرة صيرى وأبو موسى وطنب الكبرى والصغرى وبنى فرارو وغيرها .وتنفيذاً لتلك التعليمات بادرت السلطات الفارسية بإرسال بعض القطع البحرية التى تمكنت بواسطتها من احتلال جزيرة صيرى ورفع العلم الفارسى عليها وكان ذلك تمهيدا للسيطرة على ما يجاورها من جزر غير أنها لم تلبث أن أوقفت عملياتها على أثر احتجاج الحكومة البريطانية بعد أن أثار حكام القواسم فى الشارقة ورأس الخيمة مسألة تبعية تلك الجزر لهم وحملوا الحكومة البريطانية مسئولية المحافظة على ممتلكاتهم بحكم التزاماتها بحمايتهم (٢) وبينما تقاعست السلطات البريطانية عن الاحتلال الفارسى لجزيرة صيرى إلا أن جزرأبو موسى والطنبين ظلت موضع نزاع بين بريطانيا باعتبارها ممثلة لمصالح رأس الخيمة والشارقة وبين الحكومة الإيرانية حتى الاحتلال الإيرانى لتلك الجزر فى نوفمبر من عام ١٩٧١ وتحوله منذ ذلك الحين إلى نزاع بين إيران ودولة الإمارات العربية المتحدة .

وقبل أن نستعرض المراحل المختلفة لذلك النزاع الذى استغرق أكثر من مائة عام تجدر الإشارة إلى أن الخلاف حول ملكية الجزر قد ظهر فى بداية الأمر بين حكام

(١) مصطفى عقيل ، مرجع سبق ذكره ص ٤٤٠ .

(٢) فالح حنظل : مرجع سبق ذكره ، الجزء الثانى ، ص ص ٦٧٩ - ٦٨١ .

القواسم فى لنجة وقواسم الساحل العمانى فى الشارقة ورأس الخيمة ولم يلبث أن تعقد بصورة أكبر حين طالبت إمارات عربية أخرى بملكية تلك الجزر بينما لم تكن الحكومة الفارسية حتى سقوط إمارة لنجة فى عام ١٨٨٩ طرفا فى ذلك النزاع وفيما يبدو أن الجزرفى تلك الفترة المبكرة لم تكن تثير اهتمام الحكومة الفارسية بل لعلها لم تكن تعرف شيئا عنها لعدم وضوح أهميتها الاقتصادية فضلا عن عدم توافر الاحتياجات الضرورية للمعيشة وندرة مياه الشرب بها ومن ثم لم يكن يتردد عليها سوى جماعة من الصيادين أو الرعاة وانحصرت أهميتها فى لجوء بعض السفن إليها وقت الضرورة كما كانت ملجأ للعرب المقيمين على السواحل المجاورة لها عندما يتعرضون للضغوط من قبل السلطات الفارسية فى الخليج .

ولعل ما يؤكد أن الحكومة الفارسية لم تكن تبدى اهتماما بتلك الجزر عدم ورود شئ يذكر عنها فى المصادر الفارسية الخاصة بتاريخ الخليج ويركز على تلك الحقيقة أحد الباحثين العرب فى دراسته عن السياسة الإيرانية فى الخليج بعد رجوعه إلى العديد من المصادر الفارسية التى كتبت فى القرن التاسع عشر (١) وحتى فى المصادر الإيرانية الأكثر حداثة التى رجعنا إليها ومن بينها تاريخ الخليج السياسى "لصادق نشأت" و" مطالعاتى درباب بحرين وسواحل وجزاير خليج فارس " لعباس إقبال لا نجد إشارات واضحة عن تلك الجزر . غير أن الروايات المتناقلة والمكاتبات المحلية بين قواسم الشارقة والمقيمية البريطانية فى الخليج أو بينهم وبين القواسم فى لنجة تشير إلى تبعية تلك الجزر لقواسم الساحل العمانى كما يبدو ذلك واضحا فى رسالة بعث بها الشيخ سلطان بن صقر حاكم الشارقة ١٨٠٣ - ١٨٦٦ إلى

١ - مصطفى عقيل : السياسة الإيرانية فى الخليج على عهد ناصر الدين شاه ١٨٤٨- ١٨٩٦ ، الدوحة ، ١٩٨٧ ، ص ٤٤٤ .

الكولونيل لويس بلى Pelly المقيم البريطانى فى الخليج فى ديسمبر ١٨٦٤ بأن جزر أبو موسى وطنب الكبرى والصغرى هى من ممتلكات الشارقة بينما تخص جزيرة صيرى فرع القواسم فى لنجة (١) ومن المعروف أن إمارة رأس الخيمة كانت تابعة للشارقة آنذاك ولذلك لم تنص الرسالة على تبعية الطنبين لها .

ويمكننا استخلاصاً من المصادر البريطانية ومن المكاتبات المحلية أن نؤكد بأن إيران لم يسبق لها أن فرضت سيطرتها على تلك الجزر أو مارست أى نفوذ عليها كما أن الادعاءات الإيرانية التى تركز على تبعية الجزر لإمارة لنجة تبدو واهية لأن حكام القواسم فى لنجة كانوا مستقلين تماما عن السلطات الفارسية وإن كنا نستثنى مع ذلك بعض الفترات القصيرة التى أعلن فيها بعض الشيوخ المغتصبين للحكم تبعيتهم لفارس وأيدوا تبعية تلك الجزر للسلطات الفارسية ونعنى بذلك الشيخ يوسف بن محمد السابق إشارتنا إليه والذى لم يستغرق حكمه فى لنجة أكثر من سبع سنوات ومن الطبيعى أن يضعف قيمة الإدعاء الإيرانى إذا ما عرفنا أن الشيخ يوسف كان مغتصبا للحكم ومن ثم كان فى حاجة إلى تدعيم مركزه أمام معارضيه بالاعتماد على التأييد الفارسى وبالإضافة إلى ذلك حاولت إيران تدعيم مطالبها على تلك الجزر بادعائها بأنها كانت تتلقى رسوما من القواسم فى لنجة وحتى إذا افترضنا أن بعض شيوخ لنجة كانوا يدفعون رسوما للسلطات الفارسية فإنه من الصعب التدليل على أن هذه الرسوم كانت تنسحب على تلك الجزر وخاصة أن الحكومة الإيرانية قد عجزت عن إظهار الوثائق الخاصة بايصالات تلك الرسوم (٢)

---

(١) محمد مرسى عبد الله : دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها،الكويت ١٩٨١ ، ص ٣٢٥.

(٢) مصطفى عقيل : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٥٣ .

ومن ناحية أخرى فإن سقوط حكم القواسم فى لنجة فى عام ١٨٨٩ لا يعطى لإيران حق السيطرة على تلك الجزر بدعوى تبعيتها لإمارة لنجة إذ أن تلك التبعية مع افتراض حدوثها لا تنفى الصفة العربية عنها .

إذا كانت السلطات الفارسية قد توقفت عن مواصلة زحفها على جزر أبوموسى والطنبين بعد احتلالها لجزيرة صيرى فى عام ١٨٨٩ فلم يكد يمضى أقل من أربعة عشر عاما حتى عادت الحكومة الفارسية إلى إثارة تلك المشكلة فى السنوات الأولى من القرن الحالى ويرجع ذلك إلى ما ترتب على خضوع لنجة للسلطات الفارسية من هجرة تجارها الأثرياء إلى جزيرة أبو موسى خاصة حين أخذت تلك السلطات فى تطبيق القوانين الجمركية التى صدرت فى عام ١٩٠١ على الموانى التابعة لها . ولما كانت جزيرة أبو موسى قد نأت عن التبعية الفارسية فقد أدى ذلك إلى انتعاشها الاقتصادى وخاصة بعد أن اتخذتها كثير من شركات الملاحة الأجنبية بمثابة مركز توزيع لتجارتها بدلا من ميناء لنجة وليس من شك فى أن الازدهار الاقتصادى الذى حققته جزيرة أبو موسى كان من وراء تجدد مطالبة الحكومة الفارسية بها فضلا عن الجزر المجاورة لها . وخوفا من أن تقدم السلطات الفارسية على احتلالها طلب المقيم البريطانى في الخليج من حاكم الشارقة فى إبريل ١٩٠٣ أن يبادر برفع علم ساحل الصلح البحرى على جزيرة أبو موسى والطنبين وقد ظل ذلك العلم مرفوعا لأكثر من عام حتى أصدر وزير الخارجية الفارسية خير الدولة تعليماته إلى السلطات الفارسية فى بوشهر بالتحرك إلى تلك الجزر وبادرت تلك السلطات بإرسال قوة مسلحة على ظهر سفينة العوائد " مظفرى " وتمكن المسيو دامبرين Damprain وهو من الخبراء البلجيكيين الذين استعانت بهم الحكومة

الفارسية لتنظيم جماركها مع بعض مساعديه من إنزال علم الشارقة ورفع العلم الفارسي بدلا منه [1] .

وقد أثارت تلك الحادثة التى وقعت فى مارس عام ١٩٠٤ ردود فعل شديدة لدى الدوائر البريطانية فى حكومة الهند التى كانت تخشى فى أن تكون البعثة الروسية فى طهران من وراء تلك التحركات الفارسية خاصة وأن روسيا كانت من القوى الأوربية المناوئة للإنجليز وكانت تعمل على عدم تمكينهم من إنشاء قواعد لهم عند مدخل الخليج معتمدة فى ذلك على توثق العلاقات بينها وبين الحكومة الفارسية وخاصة بعد أن تم عقد معاهدة سرية بين الدولتين فى مارس١٩٠٣ وعلى الرغم من أن بنود تلك المعاهدة التى أفصح عنها فيما بعد كانت تستثنى الأقاليم الجنوبية لفارس من أى نشاط روسى [2] إلا أن اللورد كيرزون Curzon نائب الملك فى الهند كان يبدى تخوفا ملحوظا من خطورة المنافسة الروسية لبريطانيا فى الخليج فضلا عن استيائه الشديد من عدم استقبال السلطات الفارسية له الاستقبال اللائق به كنائب للملك أثناء الزيارة التى قام بها إلى سواحل الخليج فى نوفمبر ١٩٠٣ ولذلك طلب من وزارة الخارجية البريطانية الموافقة على أن تقوم حكومة الهند بإرسال بعض القطع البحرية وبرفقتها مندوب عن حاكم الشارقة لكى تزيل الأعلام الفارسية وإخلاء الجزر من أى وجود فارسى فيها ولكن وزارة الخارجية البريطانية التى كانت أكثر مرونة فى علاقاتها الدولية من حكومة الهند قررت الاكتفاء بتوجيه احتجاج شديد اللهجة وترك المجال مفتوحا للحكومة الفارسية لكى تخفض أعلامها بنفسها ولعدم إراقة

---

(١) ج . ج . لوريمر : مصدر سبق ذكره ، القسم التاريخى جـ ٢ ص ص ١١٣٢ - ١١٣٣ .

(٢) صادق نشأت : تاريخ الخليج السياسى ، ترجمة أحمد كمال حلمى وتحقيق بدر الدين الخصوصى ، الكويت ١٩٧٢ ، ص ٢٢٠.

ماء الوجه أنكرت وزارة الخارجية الفارسية ، خلافا للواقع ، في ردها على الاحتجاج البريطاني علمها بالحادث وأصدرت تعليماتها على الفور بانسحاب حامياتها العسكرية التي استقرت في أبو موسى وطنب الكبرى وإزالة الأعلام الفارسية وإن كانت قد أكدت في ردها على الاحتجاج البريطاني أحقيتها في السيادة على تلك الجزر وطالبت بعدم رفع أعلام أي من الأطراف المتنازعة حتى الانتهاء من إيجاد حل لتلك المشكلة إلا أن الحكومة البريطانية تجاهلت تلك المطالب [1] وبادرت برفع علم عمان المتصالحة في ١٤ يونيه ١٩٠٤، وظل ذلك العلم مرفوعا فوق جزيرتي طنب الكبرى والصغرى حتى وقع الاحتلال الإيراني للجزيرتين في نوفمبر ١٩٧١ بينما ظل علم الشارقة مرفوعاً على جزيرة أبو موسى ثم استبدل بعلم دولة الإمارات العربية المتحدة في ٢ ديسمبر ١٩٧١ حتى أعلنت إيران مؤخرا انفرادها بالسيادة على تلك الجزيرة في سبتمبر من عام ١٩٩٢ .

وليس من شك في أن رفع الأعلام العربية على الجزر موضع النزاع وعدم توقف رفعها إلا لفترات قصيرة لم تتجاوز عدة أسابيع وعلى وجه التحديد من نهاية إبريل ١٩٠٣ إلى ١٤ يونيه ١٩٠٤ إنما يقدم في حد ذاته دليلا قويا على ممارسة السيادة العربية على تلك الجزر وفضلا عن ذلك كان حكام الشارقة ورأس الخيمة يستوفون الرسوم من المشتغلين في مهنة الصيد ومن غواصي اللؤلؤ ومن رعاة الإبل والماشية من جراء استخدامهم لتلك الجزر ومن البديهي أن فرض الرسوم يعد تأكيدا لأعمال السيادة التي ظل الحكام في رأس الخيمة والشارقة يمارسونها دون انقطاع ، وإلى جانب فرض تلك الرسوم كان لحكام الشارقة ورأس الخيمة حق منح الامتيازات

١ - روز ماري زحلان : النزاع حول الجزر العربية ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، جامعة الكويت إبريل ١٩٧٦ ص ٢٤ وما بعدها .

الخاصة باستغلال الموارد الطبيعية فى تلك الجزر أو إصدار التراخيص بإقامة بعض المنشآت الحيوية بها وليس من شك فى أن تمتعهم بتلك الحقوق يؤكد تبعية تلك الجزر لهم ويمكن الإشارة بصدد ذلك أنه فى عام ١٩٠٦ منح حاكم الشارقة شركة الونكهاوس wonkhaus الألمانية امتيازا لاستغلال أكسيد الحديد فى جزيرة أبو موسى وعلى الرغم من أن ذلك الامتياز قد ألغى فى العام التالى فإن ذلك لم يكن بسبب اعتراض الحكومة الفارسية وإنما كان بسبب معارضة الحكومة البريطانية التى اعتبرت منح حاكم الشارقة لذلك الامتياز اخلالا بمعاهدة ١٨٩٢ التى كانت تلزمه بعدم منح أى امتياز فى أراضيه إلا لمن توافق عليه الحكومة البريطانية خاصة وأن التنافس الألمانى البريطانى كان قائما على أشده فى منطقة الخليج ومن ثم اضطر حاكم الشارقة إلى الغائه فى أكتوبر ١٩٠٧ وذلك بعد أن أدخلت السلطات البريطانية فى روعه بأنه إذا تم اكتشاف الأكسيد وأصبحت الجزيرة تتمتع بأهمية اقتصادية فإن ذلك سيثير الأطماع الفارسية فيها . ومع ذلك فإن صلاحية حاكم الشارقة فى منح أو الغاء الامتياز إنما تؤكد تبعية الجزيرة له .

وكان لحاكم الشارقة صلاحيات أيضا فى جزيرتى طنب الكبرى والصغرى بحكم تبعية إمارة رأس الخيمة للشارقة [1] وظهر ذلك وضحا فى عام١٩١٢حين استطاع المقيم البريطانى فى الخليج برسى كوكسCox أن يحصل من الشيخ صقر بن خالد القاسمى على ترخيص بإقامة فنار لإرشاد السفن عند مدخل الخليج وبهذه المناسبة تم تبادل المراسلات بين الجانبين وفيهاأكد المقيم البريطانى لحاكم الشارقة على أهمية اقامة فنار فى الجزيرة التابعة له وهى طنب الكبرى لإرشاد السفن نظرا للموقع الذى تتمتع به الجزيرة عند مدخل الخليج وفى الرد الذى تلقاه المقيم البريطانى من حاكم الشارقة فى ٢٢أكتوبر١٩١٢ أكد الأخير موافقته على منح الترخيص مع التشديد

(١) تم انفصال رأس الخيمة عن إمارة الشارقة فى عام ١٩٢١ .

على ملكيته للجزيرة وبشرط أن يبقى علمه مرفوعا عليها وقد أجابه المقيم البريطاني بأنه من المرغوب فيه دائما أن يستمر علمه قائما كما أن إنشاء فنار في الجزيرة يؤكد ملكيته لها وأن حقوقه لن تضار بإنشاء ذلك الفنار ، (١) وليس من شك في أن اتصال برسي كوكس المباشر بحاكم الشارقة ودون رجوعه إلى السلطات الفارسية في الخليج إنما يؤكد ملكية الشارقة لتلك الجزيرة وفضلا عن ذلك فإنه حين أثارت الحكومة الفارسية اعتراضها على حصول السلطات البريطانية في الخليج على ذلك الترخيص أجاب الوزير البريطاني المفوض في طهران بناء على المشاورات التي تمت بينه وبين السير برسي كوكس بأن ملكية الجزيرة لحاكم الشارقة ليست موضع شك وأنه من الأفضل ألا تثير الحكومة الفارسية تلك المشكلة من جديد لأن اثارتها قد تؤدي إلى إثارة مشكلة جزيرة صيري التي سبق واحتلتها السلطات الفارسية وتغاضت السلطات البريطانية عن ذلك الاحتلال في عام ١٨٨٩. وعلى الرغم من توقف الادعاءات الفارسية لعدة سنوات إلا أن السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى شهدت تجدد تلك الادعاءات فقد ترتب على انفصال رأس الخيمة عن الشارقة واعتراف الحكومة البريطانية بتبعية الطنبين لها مع التأكيد على تبعية جزيرة أبو موسى للشارقة أن احتجت الحكومة الفارسية على استقرار وضعية الجزر على ذلك النحو وأخذت في إثارة العديد من الأزمات ففي عام ١٩٢٣ أوعزت لسلطاتها في بوشهر بإرسال بعض القطع البحرية إلى جزيرة أبو موسى بهدف تفقد مناطق الأكسيد الأحمر بها حيث كانت الحكومة الفارسية تعمل على أن يمتد نطاق الامتياز الذي منحته لاحدى الشركات العاملة في أراضيها إلى جزيرة أبو موسى وعلى أثر ذلك بادر السير برسي لورين Loraine الوزير البريطاني المفوض في طهران

---

(١) Percy cox to sheikh Saggar Bin Khahid and from chief of Shargah to Percy Cox no 8 - 9 - 10 , October 1912 in treaties and engagements in force between the British Government and the Trucial Chiefs of Arab Coast,Calcutta,1913- see also Aitchison ,C.U. op . cit., vol.XI,P. 258 ff.

بالكتابة إلى حكومته لابلاغها بحقيقة الوضع وردت وزارة الخارجية البريطانية بإصدار تعليماتها إلى ممثلها في طهران بأن يلفت نظر الحكومة الفارسية إلى ما حدث في عام ١٩٠٤ حين امتثلت السلطات الفارسية للإرادة البريطانية وبادرت بإزالة الأعلام الفارسية من الجزر ومن ثم فإن تجديد الادعاءات الإيرانية سوف يدفع بالحكومة البريطانية إلى اتخاذ اجراءات أكثر تشدداً .

وعقب انتهاء تلك الأزمة ظل الموقف متسما بالهدوء النسبى حتى يوليو من عام ١٩٢٨ حين أقدمت السلطات الإيرانية فى الخليج بالتعرض لاحدى السفن الشراعية التابعة لامارة دبى كانت فى طريقها من طنب الكبرى إلى خصب حيث اقتيدت إلى ميناء لنجة وصودرت حمولتها من المواد التموينية وتم اعتقال ركابها بعد أن اتهمتهم السلطات الإيرانية بالاشتغال فى عمليات التهريب وقد أدى هذا الحادث إلى إثارة حكام الساحل العمانى وكاد الموقف يتطور إلى حدوث مواجهة بين السلطات البريطانية والسلطات الإيرانية فى الخليج(١)،غير أن وزارة الخارجية البريطانية اكتفت بطلب اعتذار من الحكومة الإيرانية عن تسببها فى وقوع ذلك الحادث كما طلبت تعويضا عن الأضرار التى لحقت بالسفينة وركابها وأكدت فى مذكرة بعثت بها إلى الحكومة الإيرانية بأنها لن تتحمل من الآن فصاعداً أية ادعاءات جديدة على أبوموسى والطنبين،(٢) بينما ردت الحكومة الإيرانية على المذكرة البريطانية بتأكيد حقوقها على تلك الجزر وأبدت دهشتها فى عدم اعتراف السلطات البريطانية

---

(١) F . O . 371 / 13010 incident arising out of seizure of Dhow at Dubai by persian officials , July , 1928

(٢) F . O . 371 / 13721 Status of Islands of Tamb , Abu Musa and Sirri , Documents Showing rights of Trucial Coast Arabs , 1929

بصلاحيتها فى ممارسة الاجراءات اللازمة على سفن تشتغل بتجارة التهريب [١] ، وذهبت إلى أبعد من ذلك فى إدعائها بحقوق السيادة على جميع الساحل العربى من الخليج بدءاً من إمارة الكويت شمالا إلى سلطنة مسقط وعمان جنوبا مؤكدة أن جميع سكان ذلك الساحل رعايا تابعين لها وأنها بصدد إصدار جوازات سفر إيرانية لهم[٢].وكان من الطبيعى أن تتصدى الحكومة البريطانية لتلك الادعاءات بالتركيز على معاهدات الحماية التى عقدتها مع حكام الامارات العربية والتى من شأنها عدم اعترافها بوجود ثمة علاقات بين إيران أو غيرها من الدول وبين أولئك الحكام [٣] .

ومما هو جدير بالذكر أن الادعاءات الإيرانية على الخليج بدأت تأخذ طابعاً قوميا فى أعقاب سقوط الأسرة القاجارية وقيام الأسرة البهلوية بزعامة رضا شاه بهلوى ومن ثم تميزت سنوات حكمه ١٩٢٥ - ١٩٤١ بالمنازعات المستمرة التى قامت بينه وبين الحكومة البريطانية وخاصة حين أخذ يوجه ضرباته المتتالية ضد الامتيازات الأجنبية فى إيران ولم يلبث أن طلب من الحكومة البريطانية أن تبادر بسحب قواعدها العسكرية التى أقامتها فى باسيدو وهنجام متعللا بحاجة إيران إلى تلك المواقع لرسو سفن أسطولها الجديد ، ولما كانت الدوائر البريطانية فى الخليج لا يزال يحدوها الأمل فى استمرارية الابقاء على قواعدها البحرية فى السواحل الإيرانية فقد اقترحت الحكومة البريطانية على الحكومة الإيرانية الدخول فى مباحثات لتسوية الخلافات القائمة بينهما وقد استغرقت تلك المباحثات ما يقرب من ستة أعوام وعلى

---

(١) India office,Confidential B.297 , 1928

(٢) I . O . B . 403 The Trucial chiefs 1908 - 1928

(٣) جمال زكريا قاسم : الخليج العربى دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٩١٤ / ١٩٤٥ القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٣٠٧

وجه التحديد بين عامى ١٩٢٩ و ١٩٣٤ نوقشت فى خلالها بنوداً لمشروع معاهدة بريطانية إيرانية لم يقدر لها أن تخرج إلى حيز التنفيذ .

ولا يهمنا من تلك المباحثات سوى مايتعلق منها بجزرأبوموسى والطنبين إذا كانت المشكلات المتعلقة بتلك الجزر واصرار الحكومة البريطانية على أن تعترف الحكومة الإيرانية بالمعاهدات التى عقدتها مع الحكام العرب فى الخليج من أهم العقبات الرئيسية التى اعترضت سير تلك المباحثات وأدت إلى توقفها فى نهاية الأمر (١).

ويتضح من العروض التى قدمتها إيران خلال مفاوضتها مع بريطانيا ضعف الأسانيد التى كانت تعتمد عليها فيما يتعلق بادعاءاتها على تلك الجزر . وعلى الرغم من أن المفاوض البريطانى كان يحاول فى كثير من الأحيان ترضية إيران على أمل أن تظل بريطانيا محتفظة بقواعدها البحرية على بعض الجزر والسواحل الإيرانية إلا أن الحكومة البريطانية لم تستطع التسليم بالادعاءات الإيرانية على جزر أبو موسى والطنبين ولعل ذلك مما دفع بالمفاوضين الإيرانيين إلى تقديم عروض تقضى بشراء الحكومة الإيرانية لجزيرة طنب مقابل موافقتها على تأجير قاعدة هنجام للبحرية البريطانية غير أن الحكومة البريطانية كانت عاجزة عن إتمام تلك الصفقة خاصة وأن حاكم رأس الخيمة التى كانت تتبعه تلك الجزيرة كان من أكثر الحكام العرب فى الخليج شدة وعناداً حيث أعلن رفضه القاطع بيع جزيرته مهما كان الثمن الذى سوف تقدمه له إيران (٢) .

---

(١) Memorandum of Certain Aspects of the Situation in the Persian Gulf between His Majesty's Government in the United Kingdom and the Persian Government , 1931 See also Memorandum of Persian claim to Tamb and Abu Musa , 1934 F . O . 371 /18901.

(٢) Question of persian Purchasing Tamb From Sheikh of Sharjah 1929.

ولعل مما يثير الانتباه أن الحكومة الإيرانية كانت تركز فى ذلك الوقت على جزيرة طنب الكبرى أكثر من تركيزها على جزيرة أبو موسى ويرجع ذلك إلى أن الجزيرة الأولى أقرب إلى سواحلها هذا بالإضافة إلى أن السلطات الجمركية الإيرانية كانت تعتبر تلك الجزيرة المركز الرئيسى لعمليات تهريب المئون والأسلحة وما قد تؤدى إليه تلك العمليات من إضرار باقتصاد إيران أو إخلال بأمنها القومى وكان اهتمام الحكومة الإيرانية بجزيرة طنب دافعا لكى توالى تقديم عروض أخرى ومن بين تلك العروض التنازل عن إدعاءاتها فى جزيرة أبو موسى مقابل اعتراف الحكومة البريطانية بملكيتها لجزيرة طنب ولم يجد هذا العرض بدوره تجاوبا من بريطانيا التى أوضحت عدم قدرتها على التنازل عن أراضى مملوكة لحكام مشمولين بحمايتها ضد رغباتهم. ثم كان هناك عرض آخر قدمه المفاوضون الإيرانيون ويقضى بتأجير الحكومة الإيرانية جزيرة طنب الكبرى لمدة خمسين عاما وقد بذل المفاوضون الإيرانيون جهداً كبيرا لحث المفوضين البريطانيين للموافقة على ذلك العرض خاصة وأن ذلك سيدفع بالحكومة الإيرانية إلى الموافقة على تأجير جزيرة هنجام لبريطانيا لاستمرار اتخاذها قاعدة للأسطول البريطانى فى الخليج كما أن حصول الحكومة الإيرانية على عقد إيجار جزيرة طنب قد يكون فيه تعويضا وارضاءاً للرأى العام الإيرانى عندما يعرض مشروع المعاهدة البريطانية الإيرانية على المجلس النيابى للموافقة عليه رغم ما أشارت إليه بعض بنود تلك المعاهدة من تخلى إيران عن إدعاءاتها الإقليمية فى كل من البحرين وجزيرة أبو موسى [1] .

واستجابة لذلك العرض الأخير طلبت الحكومة البريطانية من مقيمها السياسى

---

١ - محمد مرسى عبد الله ، مرجع سبق ذكره ص ٣٦٢ .

فى الخليج مناقشة الأمر مع حاكم رأس الخيمة وتحت المساعى البريطانية أبدى الأخير موافقته على تأجير جزيرته فى مايو ١٩٣١ بعد أن وضع شروطا صعبة لم تكن قابلة للتنفيذ إذا أصر على احتفاظه بحقوق السيادة على الجزيرة وأن يبقى ممثله فيها ويستمر رفع العلم الخاص به وألا يتدخل أحد فى شئون رعاياه وأن يتمتع باعفاءات جمركية كما اشترط أيضا أن تقوم الحكومة الإيرانية بدفع الإيجار السنوى مقدما وأن تضمن الحكومة البريطانية تنفيذ تلك الشروط [١]،وفيما يبدو أن الحكومة البريطانية رأت أنه لا جدوى من تبليغ تلك الشروط إلى الحكومة الإيرانية خاصة بعد أن أخذت العلاقات البريطانية الإيرانية طريقها إلى التوتر وبعد أن استقر رأى حكومة الهند البريطانية على التحول بقاعدتها البحرية من هنجام إلى البحرين [٢].

ومع ذلك فقد تكررت المحاولات الإيرانية للاتصال مباشرة بحاكم رأس الخيمة متخطية بذلك السلطات البريطانية غير أن تلك المحاولات لم تحقق نجاحا يذكر ازاء الموقف المتصلب للشيخ تجاه العروض الإيرانية التى وجد فيها مساسا بسيادته الاقليمية [٣].

وعلى أثر توقف المفاوضات البريطانية الإيرانية فى عام ١٩٣٤ وضح تشدد الحكومة البريطانية ازاء المحاولات التى كانت تبذلها إيران للوصول إلى منطقة النفوذ البريطانى فى الخليج والتى وضحت فى الزيارات المتكررة التى كانت تقوم بها بعض القطع البحرية الإيرانية إلى الجزر الثلاث واستمرار جهودها الرامية لإيجاد

(١) F . O . 371 / 15278 Islands of Tamb - Posistion in regard to Anglo - Persian Treaty Negotiations , Proposed Lease of Tamb to Persian Govern ment , May , 1931.

(٢) Fenelon , G . B . , op . cit . P., 15.

(٣) F. O. 371 / 16852 Alleged Persian attempt to obtain lease of Tamb.

اتصالات مباشرة مع حاكم رأس الخيمة مستغلة الضائقة المالية الناجمة عن كساد مواسم الغوص على اللؤلؤ خلال حقبة الثلاثينيات وإن كان من الملاحظ فى نفس الوقت أن الحكومة البريطانية لم تعد تبدى اهتماماً بالادعاءات الإيرانية سواء على الجزر أو غيرها من مناطق الخليج الأخرى ولعلها قد أدركت ضعف تلك الادعاءات وحتى إذا ما اتجهت الحكومة الإيرانية لاثارتها لدى عصبة الأمم فإنها ستواجه بردود فعل معاكسة وقد يصل الأمر إلى تدعيم الوجود البريطانى فى الخليج باعتباره ضروريا لحماية " الشعوب الصغيرة " .

ومع أن جزيرة طنب الكبرى كانت موضع اهتمام الحكومة الإيرانية فقد أخذت جزيرة أبو موسى تجذب الانتباه إليها منذ عام ١٩٣٤ حين منح حاكم الشارقة ترخيصا للكوماندور بايلدون R . Bayldon لفحص الأكسيد الأحمر فى الجزيرة لحساب شركة الوادى الذهبى وحين قام بعض مهندسى الشركة بزيارة الجزيرة وجاءت نتائج الفحص مشجعة بادرت الشركة بالحصول على امتياز للاستغلال فى نوفمبر ١٩٣٤ وليس من شك فى أن حاكم الشارقة وجد فى منحه لذلك الامتياز علاجاً للأزمة المالية الحادة التى كان يعانى منها (١) ، وعلى أثر ذلك قدمت الحكومة الإيرانية احتجاجاً ضد منح حاكم الشارقة لذلك الامتياز واعتبرته لاغيا وكأنه لم يكن Null & Void (٢) .

ولعل مما يسترعي الانتباه أن المواقف المتشددة لبريطانيا ضد الإدعاءات الإيرانية لم تكن تهدف بها إلى حماية الحقوق المشروعة للحكام العرب وإنما كانت ترتبط إلى حد

---

(١) Fenelon , G . B . , op . cit . P., 15.

(٢) F . O . 371 / 18911 - Bahrein Intelligence Report No 3 , 1935

انظر أيضا : لؤى بحرى : الأطماع الإيرانية فى جزيرة أبو موسى ، بغداد ١٩٧٢ .

كبير بتوتر العلاقات بينها وبين إيران خاصة في خلال السنوات الأخيرة من عهد رضا شاه بهلوى ولعل ما يؤكد ذلك أنه بعد تنحيته عن الحكم فى عام ١٩٤١ وتولية ابنه محمد رضا بهلوى فترت المواجهة البريطانية لإيران وخاصة بعد أن أصبح الشاه الجديد حليفا لها فى الحرب العالمية الثانية ومن ناحية أخرى أدت ظروف الحرب إلى توقف الادعاءات الإيرانية على جزر الخليج حتى عادت إيران تجدد مطالبها على تلك الجزر فى عام ١٩٤٨.وقد حاولت إيران أن تستغل انضمامها إلى حلف بغداد فى عام ١٩٥٥ وللحلف المركزى فى عام ١٩٥٩ لكى تحصل على تنازلات من بريطانيا عن تلك الجزر بيد أنها فشلت فى تحقيق أهدافها ولا يعزى ذلك إلى الموقف البريطانى الذى لم يعد متشدداً مع إيران كما كان عليه الحال من قبل وإنما يرجع إلى مواجهة إيران بالمد العربى الذى أخذ تياره ينساب إلى إمارات الخليج العربى عقب الحرب العالمية الثانية وازداد انسيابا نتيجة الأحداث المتتالية التى شهدها العالم العربى بدءا من الحرب العربية الإسرائيلية فى عام ١٩٤٨ونشوب ثورة يوليه ١٩٥٢ والعدوان الثلاثى على مصر فى عام١٩٥٦ وقيام الجمهورية العربية المتحدة ونشوب ثورة تموز فى العراق فى عام ١٩٥٨[١].ومن ثم أخذت إيران تتصدى لتلك الاتجاهات القومية باعتمادها على بريطانيا وعلى غطاء دولى يضمن لها التحرك فى منطقة الخليج فبالاضافة إلى تكثيف إدعاءاتها الاقليمية على البحرين أقدمت على احتلال جزيرة أبوموسى خلال المناورات المشتركة التى أجرتها البحرية الإيرانية مع الأسطول الأمريكى فى مارس١٩٦٤فى نطاق عضوية إيران للحلف المركزى غير أنها سارعت بالجلاء عن الجزيرة بعد عشرين يوما من انزال

---

(١) جمال زكريا قاسم:الخليج العربى دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥-١٩٧١ القاهرة ١٩٧٤،ص٣٣ .

(٢) سيد نوفل : الأوضاع السياسية لامارات الخليج العربى الكتاب الثانى - إمارات الساحل العمانى، طـ ٢ ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٩٤ .

قواتها إثر الاحتجاجات العربية العنيفة واضطر وزير الخارجية الايرانية إلى التصريح بأن الانزال الايراني كان مناورة عسكرية طارئة وبادرت السلطات البريطانية في الخليج بإرسال سفينة حربية عليها بعض الجنود ومندوبين من حاكم الشارقة لانتزاع العلامات البحرية التي كان من شأنها إدخال جزيرة أبو موسى في المياه الاقليمية الايرانية .

وعلى الرغم من أن الحكومة البريطانية كانت ملتزمة بالمحافظة على حقوق السيادة الاقليمية للحكام العرب المشمولين بحمايتها في منطقة الخليج إلا أنه كان واضحا التغير الذي بدأ يظهر في السياسة البريطانية من حيث التنسيق مع إيران بهدف مواجهة التحديات التي كانت تتعرض لها المصالح الغربية في منطقة الخليج ومن ثم أصبح ذلك التنسيق يمثل حجر الزاوية لأمن الخليج وضمان الملاحة الدولية في مضيق هرمز . وقد وضح التنسيق البريطاني الإيراني خلال فترة الانتقال التي حددتها الحكومة البريطانية منذ اعلان سياستها الخاصة بالانسحاب في يناير ١٩٦٨ حتى تصفية وجودها العسكري قبل نهاية عام ١٩٧١ وفي خلال تلك السنوات الثلاث قامت الحكومة البريطانية بمساعي مكثفة لضمان استقرار الأمن وتسوية بعض المطالب الاقليمية [١] في الوقت الذي لعبت فيه السياسة الأمريكية دورا كبيرا في استغلال نزعة الشاه التوسعية واعداده ليقوم بدور الشرطي أو الوكيل الذي يحافظ على المصالح الغربية وفي مقدمتها النفط وظهر ذلك واضحا في زيادة حجم التسليح الإيراني والوقوف إلى جانبه في فرض هيمنته السياسية على الخليج .

---

(١) Hussain Sirriyeh , Security and Stability in the Gulf , Background to United States Policy , Center For Contemporary Arab Studies Georgetown University , London 1984 , pp . 44 - 46

ولعل ذلك مما دفع بالولايات المتحدة الأمريكية إلى تأييد استيلائه على جزر الخليج الثلاث [1] خاصة بعد أن أخذ يركز على الأهمية الاستراتيجية لتلك الجزرمبديا قلقه من احتمال سيطرة عناصر يسارية عليها على أثر تصاعد الثورة فى إقليم ظفار وتحول جبهة تحرير عمان إلى جبهة يسارية أعلنت الاطاحة بالمصالح الغربية والأنظمة السياسية الحاكمة وطالبت بتحرير عمان والخليج العربى بكامله .

وبينما أعلن الشاه تخلى إيران عن إدعاءتها التقليدية فى البحرين إلا أنه طالب العرب أن يتخلوا فى المقابل عن تشددهم بالنسبة لجزر الخليج الثلاث وأكد فى العديد من التصريحات التى أدلى بها بأن تلك الجزر تابعة لإيران ولا يسع إيران سوى استردادها سلميا أو باستخدام القوة إذا ما لزم الأمر، [2] وإلى جانب تصريحات الشاه صدرت تصريحات أخرى من رئيس حكومته أمير عباس هويدا أكد فيها حاجة إيرن لتلك الجزر لحماية مصالحها وثرواتها وأنها ستدافع عن مجراها المائى بكل ما لديها من قوة بحرية وبرية وجوية [3]

ومما يسترعى الانتباه أن التصريحات الإيرانية التى كان يدلى بها الشاه أو المسئولون فى حكومته كانت تختلف فى لهجتها بين أساليب التهديد أو الترغيب كتقديم المساعدات الاقتصادية والاجتماعية لامارتى الشارقة ورأس الخيمة لقاء تنازلهما عن تلك الجزر ،غير أنه مع اقتراب انتهاء الوجود العسكرى البريطانى من الخليج بدأت تتصاعد حدة الادعاءات الإيرانية ففى مايو ١٩٧٠ هددت الحكومة الإيرانية باستخدام القوة ضد شركة أوكسيتندال Occidental البريطانية التى تقوم

(١) عبد الله الأشعل :الاطار القانونى والسياسى لمجلس التعاون الخليجى،الرياض ١٩٨٣ ،ص٦٩

(٢) جابر الراوى : المرجع السابق ص ٤٢٩ .

(٣) نفسه ، ص ٤٢٩ وما بعدها .

باستغلال النفط فى إمارة الشارقة إذا لم توقف عملياتها التنقيبية فى جزيرة أبو موسى مما اضطر الحكومة البريطانية إلى إصدار تعليماتها إلى تلك الشركة بوقف عملياتها فى الجزيرة . وفى أكتوبر من نفس العام أكدت الحكومة الإيرانية معارضتها التامة لقيام اتحاد بين الامارات العربية ما لم يتم التوصل إلى حل لمشكلة الجزر وبصدد ذلك صرح أردشيرزاهدى وزير الخارجية الإيرانية بأن بلاده لن تعترف بالاتحاد بل وستقاومه [1] .

وعلى أثر تسليم إيران باستقلال البحرين فى أغسطس عام ١٩٧١ أخذ الشاه يعمل على تثبيت صورته فى المنطقة بتكثيف مطالبته بالجزر الثلاث وأشار إلى أنه إذا كانت المحاولات السابقة التى بذلها والده من أجل استرداد تلك الجزر قد أحبطتها بريطانيا فإن الأمور قد تغيرت الآن إذ أصبح لديه أسطولا من السفن والطائرات التى يمكنه بواسطتها أن يتحدى بريطانيا ويعيد الجزر إلى السيادة الإيرانية . [2] ويظهر من ذلك التصريح محاولة الشاه أن يعطى انطباعاً بأنه يعمل على استرجاع سيادة سابقة لإيران على تلك الجزر حال الانجليز دون ممارستها لها ومثل ذلك الادعاء لا يستند على أى أساس من الصحة التاريخية ويؤكد ذلك ما صرح به السير ويليام لوس Luce الذى كان يشغل من قبل منصب المقيم البريطانى فى الخليج ، ثم عهدت إليه حكومة المحافظين القيام بزيارات استطلاعية إلى دول وإمارات الخليج قبيل تنفيذ سياسة الانسحاب من أن الحكومة البريطانية لم تستول على تلك الجزر من إيران وتسلمها للحكام العرب وقت دخولها منطقة الخليج إذ أن

(١) جابر الراوى : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٢٩ أنظر أيضا محمد مرسى عبد الله ، مرجع سابق ص ٣٨٢ .

(٢)محمد عزيز شكرى:مسألة الجزر فى الخليج العربى وموقف القانون الدولى ، دمشق ١٩٧٢، ص ص٤٢٩- ٤٣٠

الجزر عـربيـة طبقـا لوثائق الخارجيـة البريطانيـة وحكومـة الهند وتقـارير المقيـمـيـة البريطانية فى الخليج [1] .

وليس من شك فى أنه كان بوسع الحكومة البريطانية لولا تساهلها مع إيران أن تحتفظ بوضعيه تلك الجزر لأصحابها الأصليين ولعل ما تجدر الإشارة إليه فى هذا المقـام أن حـاكم الشـارقـة بادر على أثر التـهـديدات الإيرانيـة بتكليف أحـد الخـبرا ء القانونيين باعداد تقرير مدعم بالأسانيد التاريخية والقانونية حول جزيرة أبو موسى وقـد ثبت من هذا التـقـرير الذى أرسل حـاكم الشـارقـة نسـخـا منه إلى الأمين العـام لجامعة الدول العربية وإلى المسئولين فى الدول العربية فى يوليو من عام ١٩٧١ أن جزيرة أبوموسى كانت منذ أقدم تاريخ سجل فى الوثائق البريطانية ملكا للشارقة وأكد الخبير القانونى أن قضية امتلاك الشارقة للجزيرة ستكون غـيـر قـابلة للنقـاش إذا مـا قـدمت للتحكيم الدولى وأنه بغض النظر عن إثبات الملكيـة ،فإن التهديد الإيرانى باستخدام القـوة العسكرية للسيطرة على جزر الخليج هو انتـهـاك صـريح لميثـاق الأمم المتحدة الذى يحظر تغيير حالات إقليمية مثبتة بواسطة القوة أو التهديد باستخدامها [2] .

وفـيـمـا يبدو أن بريطانيـا التى ظلت تدافع عن حقـوق الشارقة ورأس الخيـمـة فى تبعية تلك الجزرلهما طوال فترة وجودها فى منطقة الخليج قد أدركت أن انسحابها من الخليج سيؤدى حتما إلى احتلال إيران لتلك الجزر ويظهر ذلك فيما رددته الصحف

---

(١) جابر الراوى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٣٦ - ٤٣٧ .

(٢) انظر بصـدد ذلك تقرير كوارد تشانس فى ٢٣ يوليـو ١٩٧١ إلى المستـر نورث كـات أيلى مستشار حاكم الشارقة حول ملكية الشارقة لجزيرة أبو موسى ، نجيب رياض الريس : صراع الواحات والنفط - هموم الخليج العربى ١٩٦٨ - ١٩٧١ ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٥ .

البريطانية من أنه من الأفضل أن تقوم بريطانيا بتسليم تلك الجزر لإيران قبل أن تنهى وجودها العسكرى وبذلك يمكن حصر مشكلة الجزر بينها وبين إيران لأن الاحتلال الإيرانى للجزر بعد انسحابها سيؤدى إلى إثارة المشكلات بين العرب وإيران وما سيترتب على ذلك من إشاعة حالة من التوتر وعدم الاستقرار فى المنطقة (١)

وانطلاقا من تلك المفاهيم حاولت الحكومة البريطانية التوصل إلى حلول سلمية لتلك المشكلة وظهر ذلك واضحا فى الدور الذى قام به السير ويليام لوس والذى تميز بالوساطة وليس بالدفاع عن السيادة الإقليمية للشارقة ورأس الخيمة . وعلى الرغم من أن المبعوث البريطانى ومعاونوه كانوا يكنون اعجابا لموقف الشاه تجاه البحرين ويرون أنه ينبغى أن يأخذ العرب موقفا معتدلا فى مسأله الجزر والوصول إلى حلول سلمية مع إيران فإن الدول العربية فى الخليج خاصة السعودية والكويت كانت تنظر إلى قضية استقلال البحرين على أنها حق مقرر وليست صفقة تجاريه وأنه لا توجد ثمة رابطة بين المسألتين .

وعلى أى الأحوال فقد تميزت الأسابيع القليلة التى سبقت الاحتلال الإيرانى للجزر بمباحثات مكثفة بين إيران وكل من حاكم الشارقة ورأس الخيمة بوساطة ويليام لوس وفى خلال تلك المباحثات أصر الحاكمان على إصدار بيان تؤكد فيه الحكومة الإيرانية احترامها لسيادتهما على الجزر الثلاث مما أدى إلى انهيار تلك المباحثات ومع ذلك فقد كان للمساعى البريطانية أثرها فيما يتعلق بما صار إليه الوضع بالنسبة لجزيرة أبو موسى فعلى حين رفض حاكم رأس الخيمة أية حلول تمس سيادته

---

(١) A . G . Duke,The Union of The Arab Amirates, Middle East Journal, Summer , 1972 , P. 27

الإقليمية على الطنبين أبدى حاكم الشارقة استعداده للتوصل إلى حل سلمى حرصا على إقامة علاقات طيبة مع إيران ، [1] واقترح بصدد ذلك إحالة موضوع النزاع إلى التحكيم الدولى أو هيئة الأمم المتحدة غير أنه لم يجد استجابة من الحكومة الإيرانية وحينما أدرك أن الدول العربية ليست على استعداد لمواجهة إيران عسكريا أو حتى دبلوماسيا لأن قضية الأراضى العربية الواقعة تحت الاحتلال الاسرائيلى كانت هى القضية الملحة آنذاك فقد قبل الاتفاق مع إيران فيما يتعلق بجزيرة أبو موسى خاصة بعد أن كثفت إيران تصريحاتها باستخدام القوة العسكرية . وفى ١٨ نوفمبر ١٩٧١ وجه خطابا إلى وزير الخارجية البريطانية أكد فيه قبوله للترتيبات المبينة فى مذكرة التفاهم التى تم الاتفاق عليها مع الجانب الإيرانى وجاء الرد الإيرانى فى ٢٥ نوفمبر ١٩٧١ بقبول الترتيبات المتفق عليها والخاصة بجزيرة أبو موسى [2] والتى وقع عليها كل من الشيخ خالد حاكم الشارقة وعباس على حلقبرى وزير الخارجية الإيرانية والسير دوجلاس هيوم وزير الخارجية البريطانية .

وتشتمل مذكرة التفاهم على مقدمة وستة بنود تم الاتفاق عليها بضمان الحكومة البريطانية وفيها أكدت إيران والشارقة بأنهما لن يتخليا عن المطالبة بأبو موسى ولن تعترف أى منهما بمطالب الأخرى وقد نصت الترتيبات المتفق عليها على وصول قوات إيرانية واحتلال مناطق ضمن الحدود المبينة فى خريطة أرفقت بالمذكرة ، وعلى أن يكون لإيران صلاحيات كاملة فى المناطق المحتلة بقواتها كما نصت الترتيبات من ناحية ثانية على أن تمارس الشارقة صلاحياتها الكاملة على بقية أنحاء الجزيرة وعلى أن يتمتع مواطنو إيران والشارقة بحقوق متساوية للصيد فى المياه الاقليمية

(١) جابر الراوى : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤٣ .

(٢) محمد عزيز شكرى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦ .

للجزيرة والتي حددت باثنتى عشر ميلا بحريا [1] .

وعلى أثر موافقة الشارقة على تلك الترتيبات وجه الشيخ خالد بن محمد أمير الشارقة بيانا إلى مواطنيه من إذاعة صوت الساحل أعلن فيه تسوية الأوضاع مع إيران فيما يتعلق بجزيرة أبو موسى كما صدر بيان من ديوان الحاكم فى ٣٠ نوفمبر ١٩٧١ حرص على التأكيد بأن الترتيبات التى تم الاتفاق عليها لن تمس نظرة الشارقة فى سيادتها على الجزيرة إذ سيبقى علمها مرفوعاً على مركز الشرطة وعلى الدوائر الحكومية كما سيظل المواطنون المقيمون فى الجزيرة تحت سلطة واختصاص حكومة الشارقة وتستمر شركة بيوتزجاز آند أويل بالكشف والتنقيب عن النفط والمصادر الطبيعية فى الجزيرة ومياهها الإقليمية وأنه سيجرى تقسيم دخل تلك المصادر مناصفة بين الشارقة وإيران . وتضمن البيان النص على توقيع اتفاقية للمساعدات المالية سوف تحصل الشارقة بمقتضاها على مبلغ مليون ونصف مليون من الجنيهات الاسترلينية سنويا ولمدة تسع سنوات على التوالى فى صورة إعانة يجرى انفاقها فى مصالحها العامة على أن تتوقف إيران عن دفع تلك الأعانة السنوية حين يبلغ دخل الشارقة من النفط ثلاثة ملايين من الجنيهات وعند ذلك يتم تقسيم الدخل بالتساوى بين الجانبين [2] .

وعلى الرغم من العبارات الهادئة التى وردت فى ذلك البيان إلا أنه كان من الواضح أن الاتفاق الذى تم التوصل إليه قد أبرم تحت التهديد الإيرانى باستخدام القوة العسكرية ومن ثم يمكن القول أن الشارقة قد أجبرت على قبول ذلك الاتفاق

١ - انظر بيان الاتفاق بين الشارقة وإيران حول جزيرة أبو موسى الصادر عن ديوان حاكم الشارقة وملحقاتها - جريدة الاتحاد أبو ظبى ١٩٧١/١١/٣٠ ، محمد مرسى عبد الله ، دولة الامارات العربية المتحدة وجيرانها ص ٤٨٣ - ٤٨٤ .

٢ - محمد عزيز شكرى : المرجع السابق ص ٤١ - ٤٢ .

نتيجة ظروف قسرية . ولعل مما تجدر الإشارة إليه أيضا أنه على الرغم من أن الاتفاق نص على نزول قوات إيرانية فى الجزء الأعلى من الجزيرة مما كان يعنى أنه قد أصبح هناك سيادة مشتركة إلا أن الاتفاق لم يشر بصراحة إلى الأمور المتعلقة بالسيادة . ومن ناحية أخرى كان الشيخ خالد بن محمد حاكم الشارقة حريصا على التركيز على مجموعة من الأسباب التى برر بها موقفه ففى حديث أدلى به لإحدى الصحف العربية ذكر أن الدول العربية لم تتخذ أية اجراءات ايجابية تجاه النوايا الإيرانية وأكد أن إيران لم تكن لتسلم بقيام دولة الإمارات العربية المتحدة قبل أن تصل إلى حل لانهاء مشكلة الجزر وأن بريطانيا كانت حريصة على انهاء تلك المشكلة قبل تنفيذ انسحابها النهائى من الخليج فضلا عن أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت مساندة لإيران ونتيجة لتلك الظروف جميعها لم يكن أمامه من سبيل سوى التفاهم مع إيران أو على حد قوله " ماذا أستطيع أن أفعل فأنا حريص على قيام الاتحاد وعلى عروبة الجزر وعلى حقن دماء أبناء شعبى " [1] .

وعلى العكس مما ذهب إليه حاكم الشارقة فإن الشيخ صقر حاكم رأس الخيمة قد رفض التوصل إلى اتفاق مع إيران رغم التحذيرات المتكررة التى وجهها إليه السير ويليام لوس بأن إيران سوف تحتل جزيرتى طنب الكبرى والصغرى ما لم يصل إلى تسوية بشأنهما وأن الحكومة البريطانية لن تعتبر نفسها مسئولة عن ذلك وهى بصدد انهاء علاقاتها التعاهدية مع رأس الخيمة وغيرها من الإمارات العربية فى الخليج [2]ولعل مما تجدر الاشارة إليه أن الشيخ صقر لم يستجب للعروض الإيرانية

(١) جريدةالأنوار ، بيروت ١٩٧١/١٢/٨ ، سجل الآراء حول الوقائع السياسية فى البلاد العربية، بيروت ١٩٧١ .

(٢) جمال زكريا قاسم : الخليج العربى ، دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ - ١٩٧١ ، القاهرة ١٩٧٤ ،ص ٢١٧ .

التى أبدت فيها إيران استعدادها لشراء الجزيرتين مقابل خمسة عشر مليونا من الجنيهات الاسترلينية تدفع على مدى تسع سنوات إلى جانب منح رأس الخيمة ٤٩٪ من أية ثروة نفطية أو موارد طبيعية أخرى يتم اكتشافها فى هاتين الجزيرتين وقد رد الشيخ صقر على تلك العروض التى حملها إليه السير وليام لوس " بأننا لن نتخلى أبدا عن أرضنا ولسنا مستعدين للدخول فى صفقات لبيع أراضينا " [١] .

اختلفت السياسة الإيرانية بشأن جزر الخليج الثلاث عن سياستها ازاء البحرين فبينما أعلنت بأنها لن تلجأ إلى استخدام القوة فى ضم البحرين إلى أقاليمها اتبعت سياسة الاحتلال القسرى بالنسبة لجزيرتى طنب الكبرى والصغرى والاحتلال السلمى المستند إلى اتفاق مع إمارة الشارقة بالنسبة لجزيرة أبو موسى [٢] .

بدأت إيران عملياتها العسكرية باحتلال جزيرة طنب الكبرى فى ٣٠ نوفمبر ١٩٧١ حين حلقت بعض الطائرات من طراز الهليوكوبتر التابعة لسلاحها الجوى على الجزيرة فى نفس الوقت الذى أحاطت بها بعض القطع البحرية وعلى أثر الانزال الإيرانى حدثت بعض المناوشات بين أفراد الشرطة المحلية البالغ عددهم ستة أشخاص وبين بعض الجنود الإيرانيين مما أسفر عن مقتل أربعة أفراد من العرب بينما قتل ثلاثة آخرون من القوات الإيرانية وفر كثير من السكان أو طردوا من الجزيرة بينما بقى الآخرون تحت سيطرة السلطات الإيرانية . أما فيما يتعلق بجزيرة طنب الصغرى فقد تم احتلالها دون وقوع اشتباكات مسلحة نظرا لخلوها من السكان

(١) محمد عزيز شكرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٥ .

(٢) حسين البحارنه ، دول الخليج العربى الحديثة ، علاقاتها الدولية وتطور الأوضاع السياسية والقانونية والدستورية فيها ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٧٧ - ٧٨.

وفى نفس الوقت أيضا نزلت بعض القوات الإيرانية فى جزيرة أبو موسى واحتلت الجزء الأعلى منها [1] .

وبينما أعلنت حكومة الشارقة أنه قد سبق لها أن تفاهمت مع إيران على وضعية جزيرة أبو موسى أعلنت رأس الخيمة استنكارها الشديد لوقوع العدوان على أراضيها وأشار البيان الذى صدر عن ديوان الحاكم أن قوة الشرطة التابعة للامارة تصدت بشجاعة للهجوم الإيرانى المباغت وبادر الشيخ صقر القاسمى حاكم رأس الخيمة بتقديم احتجاج شديد اللهجة إلى الحكومة البريطانية محملا إياها مسئولية ذلك العدوان وعدم التزامها بحماية ممتلكاته الإقليمية بحكم ما يربط الامارة من معاهدات مع بريطانيا لم يكن قد تم الغاؤها بعد ، فى الوقت الذى سارع فيه العراق باعلان وقوفه إلى جانب رأس الخيمة ، وعن طريقه تم إبلاغ السكرتير العام للأمم المتحدة ومجلس الأمن ورؤساء الدول العربية بالاحتلال الإيرانى كما أرسل حاكم رأس الخيمة إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية مجموعة من الوثائق والأسانيد التاريخية التى تؤكد حقوقه على الجزيرتين المحتلتين ولم يلبث أن أعلن بأنه على استعداد لاستقبال أية قوة عربية للدفاع عن الجزر التى احتلتها إيران سواء كانت من دولة عربية واحدة أو من عدة دول عربية وذهب إلى أبعد من ذلك فى الدعوة إلى القيام بحملات انتقامية ضد المصالح الاقتصادية البريطانية والإيرانية فى العالم العربى مؤكدا أن الواجب القومى الأول لدولة الامارات العربية المتحدة هو تخليص تلك الجزر من الاحتلال الإيرانى ومشيرا إلى أن الشرط الرئيسى لانضمام إمارته إلى الدولة الاتحادية الجديدة هو تبنيها موقفا متشددا من العدوان الإيرانى وعدم

---

١ - تقرير الأمين العام لجامعة الدول العربية ، دور الانعقاد السابع والخمسين ،١١ مارس ١٩٧٢ ، ص ٢٦ .

إقامة علاقات مع إيران وترحيل جميع الإيرانيين من الإمارات التابعة لها .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن الاحتلال الإيرانى للجزر حدث قبل يوم واحد من إلغاء المعاهدات التى كانت تربط الامارات العربية ببريطانيا وقبل يومين اثنين من إعلان قيام دولة الامارات العربية المتحدة ومن الواضح أن توقيت الاحتلال على ذلك النحو كان ينبئ بحدوث اتفاق بين بريطانيا وإيران كان الهدف منه عدم احراج الدولة الناشئة وتحمل الحكومة البريطانية عنها نقمة الرأى العام العربى .

وكان مما يخفف الإحراج أيضا عن تلك الدولة أن إمارة رأس الخيمة التى وقع العدوان الإيرانى على أراضيها لم تكن قد انضمت إليها بعد . أما الاحتلال الإيرانى لبعض المواقع فى جزيرة أبو موسى فقد بدا وكأنه أمر مشروع بحكم الاتفاقية المبرمة بين إمارة الشارقة وإيران [1] .

وعلى الرغم من تلك المبررات النظرية فإن المجلس الأعلى للاتحاد وهو السلطة العليا فى دولة الإمارات العربية المتحدة لم يتردد فى الاجتماع الذى عقده فى الرابع من ديسمبر ١٩٧١ عن إصدار بيان استنكر فيه العدوان الإيرانى وعبر عن غضب حكام الإمارات تجاه أسلوب القوة الذى استخدمته إيران ،وفضلا عن ذلك فقد اتسمت ردود الفعل المحلية لمواطنى الدولة بالاستياء البالغ الذى ظهر فى تعرض المصالح الإيرانية لبعض الأضرار التى نجمت عن مظاهرات الاحتجاج التى قامت فى بعض الإمارات سيما فى الشارقة ورأس الخيمة ودبى وغيرها .

وعلى أثر وقوع الاحتلال حاولت الحكومة البريطانية تبرير موقفها بابداء أسفها الشديد لعدم توصل حاكم رأس الخيمة إلى اتفاق مع إيران على غرار الاتفاق الذى أبرم مع الشارقة رغم العروض السخية التى قدمتها الحكومة الإيرانية له وأملت بألا

(١) Duke , A . J . , op .cit . pp ,. 286 - 287

يعلق العرب أهمية كبيرة على احتلال إيران لجزيرتين صغيرتين بالقياس إلى النجاح الذى أحرزته السياسة البريطانية فى معالجة قضايا الخليج الأخرى كاستقلال قطر والبحرين وإعلان قيام دولة الإمارات العربية المتحدة وطالبتهم بتكثيف جهودهم لتوثيق العلاقات بينهم وبين إيران [1] .

أما عن الجامعة العربية فعلى الرغم مما أولته من اهتمام كبير بمسألة الاحتلال الإيرانى للجزر وهو الأمر الذى بدا واضحا فى المناقشات التى أثيرت خلال الجلسات التى عقدت فى السادس والسابع من ديسمبر ١٩٧١ إلا أن مجلس الجامعة لم يستطع مع ذلك التوصل إلى قرارات حاسمة تدين العدوان إذ لم تسفر القرارات التى صدرت عن مجلس الجامعة عن أمور إيجابية سوى التأكيد نظريا على عروبة الجزر باعتبارها جزء من الوطن العربى استنادا إلى التاريخ والواقع والقانون وينبغى أن تؤول السيادة عليها إلى أصحابها الشرعيين . وبصدد ذلك كلفت الجامعة العربية أمينها العام المساعد بزيارة منطقة الخليج بهدف تقصى الحقائق ووضع تقرير عن حقيقة الموقف فى الوقت الذى تولت فيه اللجنتان السياسية والقانونية للجامعة إعداد دراستين عنيتا فيهما بابراز المقومات الجغرافية والتاريخية وحقوق السيادة العربية على الجزر الثلاث ، [2] وإن كان مما يثير الانتباه عدم توصل وزراء خارجية الدول العربية إلى قرار جماعى ضد إيران ويرجع ذلك إلى تغلب الاتجاهات العربية الداعية إلى التقارب العربى الإيرانى ومن ثم فقد اكتفى مجلس

(١) جمال زكريا قاسم : الخليج العربى دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ - ١٩٧١ ، ص ٢١٨ .

(٢) تقرير الأمين العام إلى مجلس جامعة الدول العربية فى دور الانعقاد العادى السابع والخمسين، ١١ مارس ١٩٧٢ ، ص ص ٢٨ - ٢٩ .

الجامعة العربية فى القرارات التى أصدرها بالتأكيد على أن الاحتلال الإيرانى للجزر إنما يعرض الصداقة العربية الإيرانية للخطر [١] ، فى الوقت الذى أعلنت فيه إيران تمسكها بموقفها وطالبت الجامعة العربية بتكثيف جهودها لمنع العراق من إثارة المشاكل ضدها .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن العراق كان من أكثر الدول العربية تحديا لإيران ويعزى ذلك إلى صراعه التقليدى معها وحتى قبل وقوع العدوان الإيرانى على الجزر كان قد طالب فى ١٣ نوفمبر ١٩٧١ بتكوين تحالف عربى لمواجهة الأطماع الإيرانية فى الخليج [٢] ، وعلى أثر وقوع الاحتلال بادرت الحكومة العراقية بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع إيران [٣] ، وطالبت جميع الدول العربية أن تحذو حذوها وتقطع علاقاتها مع إيران وبريطانيا فى الوقت الذى أصدرت فيه الأحزاب والمنظمات وبعض المؤسسات العراقية العديد من البيانات التى شجبت فيها العدوان باعتباره يستهدف عروبة الخليج ويمهد للمخططات الإمبريالية فى المنطقة ويؤدى إلى وجود مرتكزات وثوب استعمارية ضد حركات التحرر الوطنى فضلا عن الاستحواذ على الموارد الطبيعية التى تحتويها أراضى الجزر الثلاث [٤]

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٢) Fred Halliday : The Iranian Revolution in international affairs programme and Practice center for Contemporay Arab Studies Georgetown University , Washington D . C . Croom - Helm , london &Canberra ,1984 , P . 21.

(٣) لؤى بحرى ، مرجع سبق ذكره ص ص ٥ – ٦ .

(٤) انظر بصدد ذلك البيانات الصادرة عن الأحزاب والمنظمات الوطنية فى العراق عن العدوان الإيرانى للجزر الثلاث وكذلك المنشورات التى أصدرتها جمعية الدفاع عن عروبة الخليج والمذكرات التى رفعتها إلى الشيخ زايد رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة وكذلك التقرير الصادرعن مشاريع مصلحة الموانى العراقية والذى يؤكدان أن جميع جزر الخليج تسكنها قبائل عربية.

وكانت الجمهورية الليبية من أوائل الدول العربية التى حذت حذو العراق حين أعلنت شجبها للعدوان وبادرت بتأميم شركة البترول البريطانية العاملة فى أراضيها وأطلقت عليها شركة الخليج العربى كما سحبت أرصدتها الاسترلينية من بريطانيا ردا على ما اعتبرته مؤامرة وتواطئا بينها وبين إيران [1] .

وظهرت ردود الفعل قوية فى الكويت حين طالب مجلس الأمة الكويتى باتخاذ اجراءات مشددة ضد الأطماع الإيرانية فى الخليج ووافق المجلس على التجنيد الإجبارى لأول مرة فى تاريخ الكويت كما طالب وزير الدولة الكويتى وزراء الخارجية العرب باتخاذ استراتيجية عربية موحدة وفاعلة لمواجهة العدوان الإيرانى [2].

وفى دولة الإمارات العربية المتحدة كاد الاحتلال الإيرانى للجزر أن يؤثر على الوضع الاتحادى للدولة وحدث ذلك حين دبر الشيخ صقر بن سلطان القاسمى الحاكم السابق لإمارة الشارقة فى ٢٥ يناير ١٩٧٢ مؤامرة لاغتيا ل الشيخ خالد بن محمد حاكم الشارقة الذى عقد اتفاقا مع إيران بشأن جزيرة أبو موسي ومندوبه الذى استقبل القوات الإيرانية التى نزلت فى الجزيرة ، ورغم عدم استبعادنا الدوافع الشخصية من وراء هذه المؤامرة فإنه مما لا شك فيه كانت بمثابة رد فعل للاحتلال الإيرانى للجزر(٣) ، وقد كشفت التحقيقات التى أجرتها السلطات الاتحادية فى دولة الامارات إثر اغتيال حاكم الشارقة على أنه كان هناك مخططا يستهدف إلغاء الشارقة لاتفاقيتها مع إيران والانسحاب من دولة الامارات حيث تؤسس اتحاداً

(١) جمال زكريا قاسم ، الادعاءات الإيرانية فى الخليج العربى ، من أعمال المؤتمر الدولى للتاريخ بغداد ، مارس ١٩٧٣ .

(٢) سيد نوفل ، مرجع سبق ذكره ، الكتاب الثانى ، ص ص ٣٣ - ٣٤ .

(٣) جمال زكريا قاسم:الخليج العربى دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥/١٩٧١،ص ص.٢٢٠- ٢٢١.

بينها وبين رأس الخيمة التى لم تكن قد انضمت بعد إلى الدولة الاتحادية [١] .

وقد أثيرت مشكلة الجزر على المستوى الدولى حين تقدمت كل من العراق وليبيا والجزائر وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بطلب عرضها على مجلس الأمن وقد بدأ المجلس مناقشته لتلك المشكلة فى الثامن من ديسمبر ١٩٧١ حيث طالب مندوبو الدول العربية باتخاذ اجراءات تأديبية ضد بريطانيا لعدم الوفاء بالتزامات الحماية بموجب معاهداتها مع الإمارات العربية ووصف المندوبون العرب ما قامت به إيران باعتباره خرقا صريحا لميثاق الأمم المتحدة وأن الاحتلال الإيرانى للجزر كان تواطئا بينها وبين بريطانيا وبتأييد من الولايات المتحدة الأمريكية [٢] .

وبينما ارتكزت وجهة النظر العربية خلال مناقشة تلك المشكلة على حقوق السيادة العربية وانتهاك إيران لمبدأ تصفية الاستعمار وعدم التزامها بالطرق السلمية لتسوية المنازعات الدولية ارتكزت وجهة النظر الإيرانية إلى أن الجزر تشكل جزءاً من الأقاليم الإيرانية . [٣] ونتيجه لاختلاف وجهتى النظر العربية والإيرانية لم يستطع مجلس الأمن أن يصل إلى قرار بشأنها ومن ثم قرر تأجيل النظر فى تلك المشكلة مع السماح لطرف ثالث بالتوسط بغية الوصول عن طريق الدبلوماسية الهادئة إلى تسوية يرضى بها الجانبان المتنازعان [٤] . وعلى الرغم من أن إيران قد اعترفت رسميا بدولة الامارات العربية المتحدة وتبادلت التمثيل الدبلوماسى معها إلا أن ذلك

(١) Duke, A J., Op. cit., pp. 286-287

(٢) جريدة الأنوار ، بيروت ١٩٧١/١٢/٩ ، سجل الوقائع والأراء السياسية فى العالم العربى ، بيروت ١٩٧١ .

(٣) جريدة الأنوار ، بيروت ١٩٧١/١٢/٩ انظر أيضاً حسين القطيفى ، مرجع سابق ، ص ٧٨ .

(٤) United Nations Official Records, Security Council Provisional Records qth December, 1971

الاعتراف لم يثن الدولة عن موقفها الرافض للاحتلال واستمرار مطالبتها بعودة الجزر إلى سيادتها الإقليمية .

وقد يكون من المناسب أن نعرض لأهم الادعاءات التى بررت بها إيران سيطرتها على تلك الجزر والتى ورد ذكرها سواء فى التصريحات التى كان يدلى بها الشاه أو المسئولين فى حكومته أو عند مناقشة المشكلة فى مجلس الأمن الدولى . وتبدو المبررات الأمنية والاستراتيجية من أهم الادعاءات التى اعتمدت عليها إيران لتبرير سيطرتها على تلك المشكلة غير أن تلك الادعاءات تفقد فاعليتها لعدم استنادها إلى أسس من الشرعية الدولية فموقع الجزر قرب مضيق هرمز لا يعطى لإيران مبررا للانفراد بحماية ذلك المضيق الحيوى إذ أنه ليس ممرا إيرانيا خاصاً بها وإنما هو مضيق دولى حيث تشارك سلطنة عمان إيران فى الاشراف عليه هذا فضلا عن أن أمن الخليج ليس قاصرا على إيران وحدها وإنما يهم دول المنطقة جميعها[١] .

ومن الادعاءات الأخرى التى استندت عليها إيران هى ما ورد فى بعض الخرائط التى ترجع إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر من اعتبار تلك الجزر تابعة لإيران حيث ظهرت ملونة بنفس اللون الذى لونت به السواحل الإيرانية غير أن تلك الادعاءات لا تنهض دليلا كافيا لصحة الادعاءات الإيرانية إذا أن الخرائط التاريخية أو الجغرافية لا يعتد بها فى التسليم بصحة المطالب الاقليمية حيث تتحفظ هيئات التحكيم الدولية عن التسليم بما جاء بها لعدم معرفة مصدر المعلومات التى اعتمد عليها رساموها إلا إذا كانت ملحقة بوثائق تؤكد مصدر تلك المعلومات[٢] ، وفضلا عن ذلك فإنه لما كانت الخرائط التى تعللت بها الحكومة

---

(١) جابر الراوى ، مرجع سابق ص ٤٤٠ .

(٢) محمد عزيز شكرى ، مرجع سابق ص ص ٣٤ - ٣٥ .

الإيرانية خرائط بريطانية فإن مما يضعف من أهميتها التأكيدات التى صدرت عن السلطات البريطانية نفسها خلال فترة الوجود البريطانى فى الخليج والتى كانت تنفى بشكل قاطع تبعية تلك الجزر لإيران وتؤكد تبعيتها للشارقة ورأس الخيمة ومن المسلم به قانونا أن الاعتراف الصريح يسمو على الاعتراف الضمنى أو المفترض .

أما ما استندت عليه إيران فى تبرير احتلالها بأنها قد استردت سيادة سابقة بعد ثمانين عاما من انتزاع بريطانيا للجزر الثلاث وتسليمها إلى رأس الخيمة والشارقة كما نص على ذلك البيان الذى أصدره رئيس الوزراء الإيرانى عند اعلان نبأ احتلال القوات الشاهنشاهية المسلحة لتلك الجزر فى ٣٠ نوفمبر ١٩٧١ فهى بدورها مبررات واهية لأنها تفترض خضوع الجزر لإمارة القواسم فى لنجة ومن ثم أصبحت تابعة تلقائيا لإيران منذ سقوط هذه الإمارة فى أيدى الفرس فى عام ١٨٨٩ . ومن الواضح أن تلك المبررات تتناقض تاريخيا مع ما سبقت الإشارة إليه من تبعية الجزر الثلاث لقواسم الشارقة ورأس الخيمة . وحتى إذا أخذنا بصحة الادعاءات الإيرانية من حيث التأكيد على أن تلك الجزركانت تابعة لإمارة لنجة فإن ذلك لا يعطى لإيران حق المطالبة بها لأن قواسم لنجة كانوا يمارسون حكما عربيا مستقلا عن سلطة الحكومة الفارسية . وفضلا عن ذلك فإن تصريح رئيس الوزراء الإيرانى كان ينضوى فى حقيقته على اعتراف ضمنى بأن إيران لم تمارس سيادة فعلية على الجزر الثلاث خلال الثمانين عاما التى ورد ذكرها ،وحتى إذا ما اقتصرنا على تلك السنوات فهى تعد فى حد ذاتها كافية لتأكيد الحيازة العربية الفاعلة . وعلى الرغم مما أثارته إيران من أن سيطرة العرب على تلك الجزر لا تعطى لهم الحق فى المطالبة بالتقادم حيث أنها لم تتوان عن تقديم احتجاجاتها المستمرة ضد السيطرة العربية على الجزر

فإن تلك الاحتجاجات لا يعتد بها قانونا لعدم اقترانها بالبحث فى أصول النزاع ومن ثم فهى لاتعدو كونها نوعا من"الاحتجاجات الورقية "التى لا قيمة لها [1] .

ولعل المبرر الهام الذى استندت عليه إيران فى التأكيد على مشروعية احتلالها لبعض المواقع فى جزيرة أبو موسى هى الاتفاقية التى تمت بينها وبين إمارة الشارقة وإن كانت النظرة المتأنية فى الظروف التى سبقت توقيع تلك الاتفاقية تؤكد أن إيران قد فرضتها قسرا بتهديداتها المتواصلة لإمارة الشارقة باستخدام القوة العسكرية مما يضع الاتفاقية تحت دائرة الاكراه ويجعلها تتنافى وقواعد القانون الدولى العام من حيث امكانية الاعتداد بها كوثيقة ملزمة للطرف المضار ناهيك عن إن إيران وليست الشارقة هى التى قامت بانتهاكها أخيراً [2] .

لم تسفر ردود الفعل العربية والخليجية الناجمة عن رفض الاحتلال الإيرانى لجزر الخليج الثلاث عن نتائج إيجابية إذ لم تلبث أن طغت الاحداث العربية والاقليمية والعالمية على تلك المشكلة بما فى ذلك حرب أكتوبر ١٩٧٣ وأزمة الطاقة العالمية وتعاظم الدور الذى كانت تقوم به إيران لفرض هيمنتها وسعيها لكى تكون أكبر قوة ضاربة فى منطقة الخليج . ومن ثم كان من الطبيعى بعد أن أطيح بالنظام الامبراطورى ابان قيام الثورة الإسلامية فى فبراير ١٩٧٩ أن يبدأ النظام الجديد صفحة جديدة فى العلاقات العربية الإيرانية خاصة منذ أن ظهر من التصريحات الأولى التى صدرت عقب قيام الثورة اتجاه قادتها إلى اسقاط نظرية التوسع الاقليمى التى كان ينتهجها الشاه مما كان يبشر بالأمل والتفاؤل [3]. غير أنه لم تكد

(١) حسين القطيفى ، مرجع سابق ص ٧٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٤ .

(٣) محمد مرسى عبد الله ، مرجع سابق ، ص ٣٨٥ .

تمضى بضعة شهور حتى ظهرت النزعة التوسعية من جديد فى السياسة الإيرانية حتى وصل الأمر إلى تجديدها الادعاءات السابقة على البحرين والمطالبة باعادة النظر فى شأنها لأن موافقة المجلس الإيرانى على استقلالها على عهد الشاه من الأمور التى لا تقرها الثورة الأسلامية [١] .

وقد أدت تلك التصريحات إلى إثارة قلق كبير لدى دول الخليج العربية التى أدركت أن النظام الثورى فى إيران لا يختلف فى توجهاته التوسعية عن النظام البهلوى السابق يضاف إلى ذلك ما روجه القادة الإيرانيون الجدد عن اتجاههم إلى تصدير الثورة إلى الدول المجاورة لهم مما جعل أهدافهم أكثر خطورة من أهداف الشاه الخاصة باحياء الامبراطورية الفارسية القديمة [٢] .وكان لتلك التوجهات أثرها فى القلاقل التى نشبت فى بعض دول الخليج خاصة الكويت والبحرين والمملكة العربية السعودية ناهيك عن التهديدات الإيرانية باغلاق مضيق هرمز خلال الحرب العراقية الإيرانية بما يحتله هذا المضيق من حيوية بالغة [٣] ولم تجد محاولات الحكام العرب فى الخليج للحوار مع النظام الإيرانى أى تشجيع نتيجة التصريحات الإيرانية التى بدأت تأخذ شكلا متشددا وأكثر عنفا [٤] .

---

(١) Halliday . F, op . cit., p.24 see also John Bulloch, Aportrait of Kuwait ,Qatr, Bahrein and the United Arab Emirates,london 1984, p . 52

(٢) محمد حسنين هيكل ، مدافع آية الله ، قصة إيران والثورة ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ٢٥١ .

(٣) نفسه ، ص ٢٥١ .

(٤) عن الأضرار التى ألحقتها إيران بكل من الكويت والمملكة العربية السعودية انظر ، خطاب وزير خارجية الكويت فى الأمم المتحدة سبتمبر ١٩٨٧ ، والمذكرة السعودية الخاصة بقطع العلاقات مع حكومة الجمهورية الإسلامية الإيرانية ١٩٨٩ ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد ٥٥ ص ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

غير أن التطورات السريعة التى حدثت على الساحة الخليجية بدءا من نشوب حرب الخليج الأولى والاحتلال العراقى للكويت ونشوب حرب الخليج الثانية كان لها تأثيرها على قضية الجزر التى لم تعد فى ظل توالى تلك الاحداث تشغل الرأى العام العربى أو الخليجى ومن ثم ظلت كامنة حتى تفجرت مرة أخرى بعد أن هدأت أحداث الخليج وبعد تراجع دور العراق السياسى والعسكرى وذلك حين أقدمت إيران على تطبيق سلسلة من الاجراءات الادارية بداية من مارس عام ١٩٩٢ استهدفت بها الانفراد بسيادتها على جزيرة أبو موسى حيث أصرت السلطات الإيرانية فى الجزيرة على مراجعة الهويات التى يحملها المواطنون والوافدون وقامت باغلاق المؤسسات التابعة لدولة الإمارات العربية المتحدة ونشر قواتها العسكرية فى القسم الخاص بالدولة مما أدى إلى مغادرة كثير من السكان للجزيرة فى الوقت الذى منعت فيه أيضا دخول الوافدين العاملين لدى دولة الامارات العربية من خلال الميناء الذى أقامته فى القسم التابع لها ما لم يكن لديهم سمة دخول إيرانية كما ربطت بقاءهم فى الجزيرة بحصولهم على تأشيرات تحدد فترات إقامتهم ومن الواضح أن السلطات الإيرانية قد استغلت فرصة عدم وجود ميناء عربى لكى تنفرد باتخاذ تلك الاجراءات المقيدة لحركة المرور والاقامة فى الجزيرة (١) .

وعلى أثر تعنت السلطات الإيرانية فى تطبيق تلك الاجراءات دارت اتصالات بين دولة الامارات العربية وإيران انتهت باستثناء المدرسين من الحصول على تلك التأشيرات وعلى الرغم من ذلك فلم تكد تنقضى أربعة أشهر وعلى وجه التحديد فى ٢٤ أغسطس ١٩٩٢ حتى عادت الأمور إلى التوتر مرة أخرى حين أقدمت السلطات الإيرانية على منع إحدى السفن التابعة لدولة الامارات من الوصول إلى

(١) مركز الدراسات السياسية - جامعة القاهرة ، ورقة عمل حول المشكلات الحدودية الراهنة فى منطقة الخليج أكتوبر ١٩٩٢ .

الجزيرة بعد ثلاثة أيام من احتجازها فى عرض البحر وتبع ذلك أن أعلنت إيران صراحة بأن الجزيرة بكاملها قد أصبحت تابعة لها وقامت بعد ذلك باصدار التنظيمات الادارية التى جعلت من الجزر الثلاث محافظة إيرانية جديدة عاصمتها أبو موسى منتهكة بذلك الاتفاقية التى سبق أن عقدتها مع إمارة الشارقة فى نوفمبر ١٩٧١ بشأن تجميد وضع السيادة على تلك الجزيرة .

وقد ترتب على تصاعد حدة الموقف الإيرانى أن أفصحت دولة الإمارات العربية المتحدة عن نزاعها مع إيران لما عدته من مساس بسيادتها الاقليمية خاصة وأن الوضع لم يعد قاصرا على مشكلة الجزر الثلاث وإنما أصبح يتعلق بالسلطة الاتحادية ذاتها إذ أن التغاضى عن الاجراءات الإيرانية سيجعل إمارتى الشارقة ورأس الخيمة على وجه خاص تشعران بضعف السلطة المركزية للدولة كما أن المجال سيصبح مفتوحا لكى تسيطر إيران على جزر عربية أخرى خصوصا تلك الجزر التى تحيط بها الحقول النفطية ولاسيما جزيرة داس التابعة لإمارة أبو ظبي . ومن ثم بادرت دولة الإمارات بطرح نزاعها مع إيران على المستويات الاقليمية والعربية والدولية بعد فشل المساعى التى قام بها وزير خارجيتها لاحتواء تلك الأزمة ولم يعد النزاع قاصراً على جزيرة أبو موسى فحسب وإنما امتد نطاقه بحيث شمل جزيرتى طنب الكبرى والصغرى السابق احتلالهما من قبل إيران فى الوقت الذى حاولت فيه إيران التعتيم على الأزمة باثارة موضوعات لاتمت إليها بصلة كاتهامها لدولة الإمارات بزيادة سقف انتاجها النفطى وخسارة إيران تبعا لذلك لملايين من الدولارات ومطالبة دولة الإمارات أن تدفع لها تعويضات عن الخسائر التى منيت بها فى حربها مع العراق مما أعاد إلى الأذهان نفس الدعاوى التى كان يرددها النظام

العراقى ضد الكويت إبان عدوانه عليها فى أغسطس ١٩٩٠ .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن دولة الامارات العربية تعاملت مع مشكلة الجزر باعتبارها قضية اتحادية وليست مشكلة خاصة بإمارة الشارقة أو رأس الخيمة ويبدو ذلك واضحا فى الرسالة التى بعث بها الشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة إلى الرئيس الإيرانى فى ١١ مايو ١٩٩٢ والتى أكد فيها على اعتبار الاتفاقيات المعقودة بين أية إمارة من الامارات التابعة للدولة قبل الاتحاد وبين الدول المجاورة لها تعد اتفاقيات بين تلك الدول ودولة الامارات العربية المتحدة وكان ذلك ردا على محاولة إيران حصر الخلاف بينها وبين إمارة الشارقة حول جزيرة أبو موسى ورفضها التعامل مع دولة الامارات على اعتبار أن الاتفاق الخاص بتلك الجزيرة قد أبرم أساسا بينها وبين الشارقة وكانت إيران تهدف بذلك إلى عزل الشارقة عن السلطة الاتحادية للدولة والتعامل معها ضمن علاقات خاصة وغير متكافئة .

وقد وجدت دولة الامارات دعما لموقفها السياسى وحقوق سيادتها من كثير من المنظمات العربية والخليجية كما يظهر ذلك واضحا فى العديد من البيانات والقرارات التى صدرت خلال النصف الأول من سبتمبر ١٩٩٢ ومن بينها بيان جده الصادر عن مجلس التعاون لدول الخليج العربية وبيان الدوحة الصادر عن المجلس الوزارى لدول ميثاق دمشق وبيان القاهرة الصادر عن المجلس الوزارى لجامعة الدول العربية وقد استنكرت تلك البيانات جميعها الاجراءات التى اتخذتها إيران مؤخرا فى جزيرة أبو موسى لما تمثله من انتهاك لوحدة أراضى دولة الامارات وطالبت إيران باحترام مذكرة التفاهم مع الشارقة مع التأكيد بأن جزيرة أبو موسى أصبحت من مسئولية الحكومة الاتحادية والرفض التام لاستمرار الاحتلال الإيرانى لجزيرتى طنب الكبرى والصغرى .

ونتيجة للدعم الذى تلقته الإمارات العربية من الدول العربية والخليجية حاولت إيران احتواء الموقف باعلانها بأنها سوف تصرح لمواطنى الشارقة بالاستمرار فى الاقامة داخل الجزيرة وأن الاجراءات التى اتخذتها لا تخرج عن كونها اجراءات أمنية مما يعنى أنها منحت لنفسها مسئولية الحفاظ على الأمن دون مشاركة دولة الإمارات وأكدت أن جزيرة أبو موسى جزيرة صغيرة لاتبرر تلك الضجة الكبيرة المفتعلة حولها متجاهلة أن الأمور المتعلقة بالسيادة الوطنية لا تقاس بالمساحة الجغرافية ، غير أنه إزاء تصاعد حدة الخلاف أخذت إيران توجه تحذيراتها للدول العربية بصفة عامة زاعمة أنه لو تم الأخذ بمنطق التاريخ فإن العرب سيكونون هم الخاسرين دون غيرهم وإنه إذا كان لابد من التمسك بمطالب تاريخية فإن من حق طهران العودة بمطالبها على البحرين بل وعلى أجزاء من العراق ، وطلبت من دولة الامارات والدول العربية المساندة لها بألا تقع ضحية لمخططات أجنبية مؤكدة أن تصعيد تلك الأزمة ليست سوى مؤامرة دبرتها بعض القوى الأجنبية لتبرير وجود قواتها العسكرية فى المنطقة فى إشارة واضحة إلى الولايات المتحدة الأمريكية بينما علل كثير من المراقبين أن اتجاه إيران للانفراد بالسيادة على جزيرة أبو موسى يرتبط ببنائها لقاعدة بحرية عميقة من أجل الغواصات التى قامت بشرائها مؤخرا من روسيا ومن ثم أصبحت إيران هى التى تخلق المبرر والذريعة لاستمرار الوجود الأجنبى فى الخليج خاصة بعد أن أخذت فى تعزيز قواتها العسكرية فى الجزيرة وأقامت فيها بعض القواعد الصاروخية .

ومع تأزم الموقف بين إيران ودولة الإمارات العربية المتحدة حاول العراق رغم تردى أوضاعه السياسية والاقتصادية والعسكرية إحياء تقاليده الموروثة فى الصراع مع

إيران ومحاولا فى الوقت نفسه التقارب مع دولة الإمارات العربية وذلك بتوجيه اتهاماته العديدة إلى إيران بأنها أصبحت تشكل خطرا على دول الخليج العربية .
أما مصر وسوريا وهما الدولتان المشاركتان فى التوقيع على ميثاق دمشق فقد أعلنت كل منهما دعمها السياسى لدولة الإمارات وقام وزير خارجية سوريا بمحاولة للوساطة بين الجانبين أسفرت عن اجراء مباحثات فيما بينهما غير أن تلك المباحثات كان مقدرا لها ألا تصل إلى نتائج إيجابية حيث أخذت إيران تؤكد حتى قبل بدايتها بأن سيادتها على الجزر الثلاث بات أمرا مفروغا منه مما أوضح التناقض فى الموقف الإيرانى بين رغبتها فى تسوية النزاع وبين استمرارها فى فرض سيطرتها .

وعلى الرغم من أن المباحثات بين إيران ودولة الإمارات قد أجريت بالفعل إلا أنها لم تلبث أن توقفت قبل اتفاق الطرفين على جدول للأعمال بينما حمل كل طرف الطرف الآخر مسئولية فشل تلك المباحثات إذا أوضح البيان الذى صدر عن دولة الامارات العربية المتحدة فى ٢٨ سبتمبر١٩٩٢ إصرار الجانب الإيرانى على رفض مناقشة مسألة احتلال جزيرتى طنب الكبرى والصغرى أو إحالة المشكلة إلى التحكيم الدولى مما ترتب على ذلك تعذرالاستمرار فى مناقشة المسائل المتعلقة بجزيرة أبو موسى ومن بينها التزام إيران بمذكرة التفاهم الخاصة بها وعدم التدخل فى ممارسة دولة الامارات لولايتها الكاملة على الجزء المخصص لها والغاء كافة التدابير

والاجراءات التى وضعتها إيران على أجهزة الدولة فى أبوموسى وعلى مواطنيها والمقيمين فيها وحرص البيان على التأكيد بأن السيادة على الطنبين كانت منذ أقدم العصور ولا تزال لدولة الإمارات العربية المتحدة إذ أن الاحتلال الناجم عن استخدام

القوة العسكرية لايكسب الدولة المحتلة سيادة على الاقليم المحتل مهما طال الزمن [1] .

أما البيان الذى صدر عن وزارة خارجية الجمهورية الإسلامية الإيرانية فى ٢٩ سبتمبر ١٩٩٢ فقد حمل وفد الإمارات مسئولية توقف المباحثات لاصراره على طرح مسائل ليست لها علاقة بالمسائل المطروحة حول جزيرة أبو موسى وقد حرص البيان على التأكيد على أن طرح إدعاء السيادة على أية أرض فى المنطقة بمقدوره أن يدخلها فى سلسلة جديدة من الادعاءات والخلافات مما سيكون له مضاعفات خطيرة تضر بأمنها وتخدم الأطماع الأجنبية فيها [2] .

وعلى أثر وضوح الخلاف بين الجانبين وتعذر التقريب بين وجهات النظر مضت دولة الامارات العربية فى تحركاتها السياسية غير أنها كانت حريصة فى الوقت نفسه على عدم الوصول بالمشكلة إلى حد القطيعة بينها وبين إيران ، وحاولت إقناعها بأن استمرار احتلالها للجزر بدعوى منع التدخل الأجنبى تبرير واهى ولا أساس له من الصحة لأن دولة الأمارات ترفض التدخل الأجنبى فى أراضيها وقد حرصت دولة الامارات على التأكيد أيضا بأن الاحتلال الإيرانى للجزر لا يعطى للدولة المحتلة سندا لممارسة سيادتها لأنه تم بالقوة العسكرية كما أن سنوات ذلك الاحتلال لا يمكن مقارنتها بالفترة الطويلة لممارسة السيادة العربية على تلك الجزر فضلا عن أن دولة الامارات لم تسكت عن هذا الاحتلال ولم تتنازل عن حقوقها

(١) انظر البيان الصادر عن دولة الإمارات العربية المتحدة فى ١٩٩٢/٩/٢٨ بشأن توقف المباحثات مع الجمهورية الاسلامية الإيرانية . ملحق (د) من الدراسة التى أعدتها هيئة الاستعلامات المصرية عن الخلاف بين دولة الإمارات العربية المتحدة وإيران ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص ص ٦٢ - ٦٣ .

(٢) انظر البيان الصادر عن وزارة خارجية الجمهورية الاسلامية الإيرانية حول جزيرة أبو موسى فى ٢٩ سبتمبر ١٩٩٢ ، المرجع السابق ، ص ص ٦٤ - ٦٥ .

ضمنا أو صراحة فضلا عن أن موقف الوطنيين فى تلك الجزر لم يشر علنا إلى قبولهم بالسيادة الإيرانية [1] .

وقد يكون من المناسب فى ختامنا لتلك الدراسة أن نصل إلى تقرير الحقائق التالية :

أولا : ليس من شك فى أن السلوك الإيرانى الأخير ضد السيادة الاقليمية لدولة الامارات العربية المتحدة قد أضاع جهدا طويلا تم فيه بناء جسور من الصداقة بين إيران والدول العربية وقد قويت تلك الجسور نتيجة معارضة إيران للاحتلال العراقى للكويت حين أعلنت رفضها التوسع والاستيلاء على الأرض بالقوة وهو أمر أخذت فى ممارسته على الجزر العربية مما يتناقض مع ما ذهبت إليه .

ثانيا : انه لا ينبغى النظر إلى النزاع القائم حاليا بين دولة الإمارات العربية المتحدة وإيران على أنه مشكلة خاصة بدولة الإمارات وحدها وإنما يتعين النظر إلى ذلك النزاع باعتباره مشكلة تهدد الأمن الخليجى بصفة خاصة والأمن القومى العربى بصفة عامة .

ثالثا : انه على الرغم من أنه لا يوجد ثمة خلاف على أن الطرق المشروعة لاستعادة دولة الإمارات سيادتها ورد العدوان على أراضيها قد تصل إلى حد استخدام القوة للدفاع عن حقها الشرعى وهذا الحق يعود للدولة المعتدى على أراضيها كما يعود للدول الأخرى لاسيما الدول العربية التى قد تتطوع فى الدفاع الجماعى إلا أن استخدام هذا الحق المقرر قانونا قد يؤدى إلى الاخلال بالأمن فى المنطقة وقد يستغل من بعض القوى الأجنبية لتكثيف وجودها العسكرى فيها .

رابعا : ان استخدام بديل آخر للبديل السابق وهو أسلوب المقاطعة الدبلوماسية

(١) مذكرة من أبناء طنب الكبرى إلى الشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الامارات العربية المتحدة ٢٤ ديسمبر ١٩٧٢ يعلنون فيها موقفهم برفض الاحتلال الإيرانى .

والاقتصادية لن يقدر له النجاح خاصة وأن هناك من الدول العربية والخليجية ومن بعض إمارات دولة الإمارات العربية ذاتها من له علاقات وثيقة مع إيران وحريصة على الحفاظ على علاقات حسن الجوار ، ومن ثم فليس هناك من سبيل سوى سلوك الطرق السلمية التى تمكن الدولة صاحبة الحق من ضمان سيادتها الاقليمية .

خامسا : إن ما أقدمت عليه إيران من انتهاك السيادة الاقليمية لاحدى الدول العربية فى الخليج يرجع إلى غياب قوة إقليمية فى المنطقة يمكنها أن توقف الأطماع التوسعية ومن ثم فإن الضمان الفعلى لمنع تكرار تلك الأزمات هو تطوير مجلس التعاون لدول الخليج العربية وزيادة فاعلية مؤسسات العمل العربى الجماعى حتى تكون قادرة على تأمين ردود فعل قوية ضد أى انتهاك للسيادة العربية .

وأخيرا فإنه مع التسليم بأن دولة الإمارات العربية المتحدة تمتلك القانون والشرعية إلا أنها لا تمتلك القوة القادرة على حماية سيادتها ومن ثم تبرز من جديد تلك القضية الشائكة وهى هل تأتى الحماية من الخارج كما حدث فى الأزمة العراقية الكويتية أم أن المنطقة قادرة على حماية سيادتها وثرواتها ... وإلى أن يتم حسم تلك المشكلة فليس هناك من مخرج سوى اللجوء إلى الشرعية الدولية والالحاح على رفض الاحتلال وهو ما لجأت إليه دولة الإمارات العربية المتحدة أخيرا حين أحالت النزاع بينها وبين إيران إلى هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولى وذلك للحيلولة دون اكتساب العدوان الإيرانى على أراضيها صفة الحيازة الفاعلة أو الهادئة كما حدث ذلك فى العديد من الأراضى العربية السلبية .

ولعل التجارب التاريخية السابقة كفيلة بتوعية العرب بخطورة التفريط فى حقوقهم المشروعة حتى لا تقع فى زوايا النسيان ....

المصادر والمراجع

أولا : الوثائق - العربية

- بيان الأحزاب والمنظمات الوطنية فى العراق عن العدوان الإيرانى على جزر الخليج الثلاث ، ديسمبر ١٩٧١ .
- البيانات الرسمية الصادرة عن دولة الإمارات العربية المتحدة والجمهورية الاسلامية الإيرانية عن توقف المباحثات بشأن مشكلة أبو موسى والطنبين سبتمبر ١٩٩٢ .
- تقارير الأمين العام لجامعة الدول العربية فى أدوار الانعقاد العادى لمجلس الجامعة والخاصة بمسألة الجزر .
-تقرير بعثة الجامعة العربية إلى إمارات الخليج العربى نوفمبر١٩٦٤.
- مذكرة من أبناء طنب الكبرى إلى رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، ديسمبر ١٩٧٢ .

- الأجنبية :

Aitchison . C'. U
A Collection of Treaties , Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Countries vols x - xi Calcutta 1892

- Bombay government.
Selections From The Records of Bombay Government , vol xxiv . Bombay 1856

- Foreign office (united Kingdom)
- The Trucial chiefs B , 403 1908 - 1928
- Incident Arising out of Seizure of Dhow at Dubai by Persian officials , July 1928
- Status of Islands of Tamb, Abu Musa and Sirri - - Documents Showing rights of Trucial Coastof Arabs, 1929
- Question of Persian Purchasing Tamb from The Sheikn of Shargah,1929
- Island of Tamb - Posistion in regard to Anglo - Persian Treaty negotiations , Proposed lease of Tamb to Persian government, 1931
- Memorandum of Certain aspects of the Situation
- in the Persian Gulf between His Majestys 'Govern ment in the United Kingdom and The Persian Government , 1931

- Island of Tamb - alleged Persian attempts to obtain lease of Tamb and unsatisfactory behaviour of The Sheikh . 1932
- Memorandum of Persian Claim to Tamb and Abu Musa 1934
- Bahrein Intelligence report No 3 , 1935
- Government of India (Department of state)- Treaties and Engagments in force between the British Government and the Trucial Sheikhs of the Arab Coast , Calcutta , 1913
- India office
- Annual Report of Trucial Oman, 1935
- Precis of the affairs of the Persian Coast and Islands , 1854 -1905 , Calcutta , 1912
- United Nations official Records
- SecurityCouncil Provisional Records , ath December , 1971

ثانيا : المصادر والدراسات

أ - العربية :

- جابر إبراهيم الراوى :

الحق العربى فى الجزر العربية الثلاث وموقف القانون الدولى من اكتساب الأقاليم عن طريق القوة . من أعمال المؤتمر الدولى للتاريخ ، بغداد ، مارس ١٩٧٣ .

- جمال زكريا قاسم :

- الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية فى عصر التوسع الأوربى الأول ١٥٠٧ - ١٨٤٠ ، القاهرة ١٩٨٥ .
- الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ - ١٩١٤ ، القاهرة ١٩٦٦
- الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٩١٤ - ١٩٤٥ ، القاهرة ١٩٧٣
- الخليج العربى ، دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥ - ١٩٧١ ، القاهرة ١٩٧٤ .
- مختارات من وثائق الكويت والخليج العربى المحفوظة فى دور السجلات البريطانية ، جامعة الكويت ، ١٩٧٢ .
- الادعاءات الإيرانية فى الخليج العربى ، مجلة الجمعية المصرية للدارسات التاريخية ، العدد العشرون .

- **حسين بن على الوحيدى الخنجى**

تاريخ لنجة حاضرة العرب على الساحل الشرقى للخليج ، دبى ، دولة الإمارات العربية المتحدة . ١٩٨٥ .

- **روز مارى زحلان**

النزاع حول الجزر ، مجلة دراسات الخليج العربى والجزيرة العربية ، جامعة الكويت ، إبريل ١٩٧٦ .

- **سليم طه التكريتى**

الصراع على الخليج العربى ، بغداد ١٩٦٦ .

- **سيد نوفل**

الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى - الكتاب الثانى، إمارات الساحل العمانى ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٢.

- **شفيق الرشيدات**

عربستان ، الجزء العربى المغتصب ، من أعمال المؤتمر التاسع لاتحاد المحامين العرب ، القاهرة ، فبراير ١٩٦٧ .

- **صادق نشأت (ميرد آماد)**

تاريخ الخليج السياسى ، مترجم عن الفارسية وتحقيق بدر الدين عباس الخصوصى ، طبعة أولية ، الكويت ١٩٧٢ .

- **عبد الله الأشعل**

الاطار القانونى والسياسى لمجلس التعاون الخليجى،الرياض١٩٨٣.

- **عبد الأمير محمد أمين**
القوى البحرية العربية فى الخليج العربى فى القرن الثامن عشر ، بغداد ١٩٦٦ .
- المصالح البريطانية فى الخليج العربى ، مترجم ، مركز دراسات الخليج العربى ، جامعة البصرة ، بغداد ١٩٧٧ .
- **عبد الحسين القطيفى :**
الجزر العربية الثلاث فى الخليج العربى ، من أعمال المؤتمر الدولى للتاريخ ،بغداد ، مارس ١٩٧٣ .
- **عبد السلام عبد العزيز فهمى**
تاريخ إيران السياسى فى القرن العشرين ، القاهرة ١٩٧٣.
- **عبد العزيز عبد الغنى :**
علاقة ساحل عمان ببريطانيا ، دراسة وثائقية فى العلاقات التعاهدية ، دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ، ١٩٨٢ .
- **عبد القوى فيهمى**
القواسم ونشاطهم البحرى ١٧٤٧ - ١٨٥٣ ، رأس الخيمة ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، ١٩٨٣ .
- **فالح حنظل :**
المفصل فى تاريخ الإمارات العربية المتحدة ، جزءان ، نشر لجنة التراث والتاريخ - أبو ظبى ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، ١٩٨٣ .

- **لؤى بحرى**

الأطماع الإيرانية فى جزيرة أبو موسى ، بغداد ١٩٧٢.

- **لوريمر (ج . ج)**

دليل الخليج - القسم التاريخى ، مترجم ،سبعة مجلدات الدوحة قطر ، ١٩٦٧.

- **لاندن(ر . ج)**

عمان منذ ١٨٥٦ ، مترجم ، القاهرة ١٩٧٠ .

- **مايلز (س . ب)**

الخليج ، بلدانه وقبائله . مترجم ، وزارة التراث القومى والثقافة ، سلطنة عمان ، ١٩٨٦.

- **محمد بهجت سنان**

الشخصية العربية للخليج العربى والاحتلال الإيرانى للجزر العربية الثلاثة ، بغداد ١٩٧٢.

- **محمد حسنين هيكل**

مدافع آية الله ، قصة إيران والثورة ، القاهرة ، ١٩٨٥.

- **محمد عزيز شكرى**

مسألة الجزر فى الخليج العربى وموقف القانون الدولى،دمشق ١٩٧٢

- **محمد مرسى عبد الله**

دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها ، الكويت ١٩٨١ .

- مركز الدراسات السياسية (جامعة القاهرة)

ورقة عمل حول المشكلات الحدودية الراهنة فى منطقة الخليج أكتوبر ١٩٩٢

- مصطفى عقيل

سياسة إيران فى الخليج العربى على عهد ناصر الدين شاه ، ١٨٤٨ - ١٨٩٦ الدوحة ، قطر ، ١٩٨٧ .

- نادرة نعيم زكى

دراسة حول الخلاف بين دولة الإمارات العربية المتحدة وإيران ، الهيئة العامة للاستعلامات،القاهرة ١٩٩٢.

- نجيب رياض الريس

صراع الواحات والنفط (هموم الخليج العربى ١٩٦٨ - ١٩٧١) بيروت ١٩٧٣ .

- ويلسن (أرنولد)

تاريخ الخليج - مترجم - وزارة التراث القومى والثقافة ، سلطنة عمان ، ١٩٨١

الأجنبية :

- Bulloch , John.
The Gulf , Aportrait of Kuwait . Qatr , Bahrein and The U . A . E , london 1984
- Curzon , George N.
Persia & The Persian Question 2 vols , london 1892
- Duke , Anthony John.
The Union of The Arab Amirates , prospects and problems , Middle East Journal , Summer , 1972
- Fenelon , K , G.
The United Arab Emirates , an Economic and Social Survey, London , 1973
- Halliday , Fred.
The Iranian Revolution in International Affairs, Programme and Practice, Center for Contemporary Arab Studies , Georgetown , washington D . C Croom - Helm , london 1984
- Hawley , Donald.
The Trucial States , london , 1970
- Kelly , J .B
nBritain and The Persian Gulf 1795 - 1880 London , 1968
- Low , Charles

History of the Indian Navy 1613 - 1863 , 2 vols
London 1877
- Niebuhr , Carsten.
-Travels Through Arabia and other Countries imthe
East,Edinburgh 1792
- Description de l, Arabie , Copenhagen, 1772
-Owen , Roderick
The Golden Buble , Arabian Gulf Documentary
London 1957
- Palgrave, William Gifford .
- Narrative of a year's Journey through Central and
Eastern Arabia 1862 - 1863 , 2 vols, London 1865
- Personal Narrative of a Journey through Central
& Eastern Arabia , London 1877
- Sirriyeh , Hussain
Security and Stability in the Gulf , Background to
United StatesPolicy , Center for Contemporary Arab
Studies , Croom - Helm , London , 1984
- Sykes ,Sir Percy .
A History Of Persia , 2 vols , London , 1951
- Whigham , N . J.
The Persian Problem , london , 1903

ثالثا : الدوريات العربية والأجنبية :

– سجل الآراء حول الوقائع السياسية فى البلاد العربية ، دار الابحاث والنشر ، بيروت ، ١٩٧١ .

– مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، جامعة الكويت ع٤٢ ، ٤٣ ، ٥٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ١٩٨٩ .

– المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، ع ٢٠ .

- Middle East Journal , Summer , 1972

" امارة أبو ظبى
فى عهد زايد بن خليفة "

١٨٥٥ - ١٩٠٩

الدكتور / محمد حسن العيدروس

كلية الاداب - جامعة الإمارات

امارة أبو ظبى فى عهد زايد بن خليفة

مقدمه :- نبذة عن التاريخ السياسى لامارة أبو ظبى

أولا : أختيار زايد بن خليفة لتولى السلطة فى امارة ابو ظبى

(أ) - حكم سعيد بن طحنون وخلعه .

(ب) - اختيار زايد بن خليفة لحكم عام ١٨٥٥

(جـ) - محاولة سعيد بن طحنون استعادة الحكم عام ١٨٥٦

(د) تمرد ابن عرار فى العين عام ١٨٥٨ .

ثانيا : تطور امارة ابو ظبى فى عهد زايد بن خليفه

(١) - الاقتصاد :

(أ) - الغوص على اللؤلؤ

١) جزيرة دلما

٢) جزيرة ابو ظبى

(ب) - اقتصاد اللؤلؤ

١) دور القطاع الخاص فى اقتصاد اللؤلؤ

٢) دور القطاع العام فى اقتصاد اللؤلؤ

(جـ) الزراعة

(د) التجارة

(٢) – بناء قلعة الجاهلى

(٣) – التنظيم الادارى والسياسى

ثالثا : عوامل نجاح زايد بن خليفه فى حكمه واستقرار امارته

(١) – عدم وجود اسباب للمواجهة مع بريطانيا

(٢) – الصداقة التقليدية بين ابو ظبى وعمان

(٣) – خبرة زايد بن خليفه بشؤون الامارات العربية

رابعا : بعض ماقيل عن شخصية زايد بن خليفه

خامسا : وفاة زايد بن خليفة عام ١٩٠٩

امارة ابو ظبى فى عهد زايد بن خليفه

مقدمة : نبذة عن التاريخ السياسى لامارة ابو ظبى :-

ان التاريخ السياسى لامارة ابو ظبى بدأ فى عام ١٧٦٠ حين استوطنتها قبيلة البوفلاج تحت زعامة رئيسها دياب بن عيسى وقد تمركز حكم البوفلاج من بنى ياس فى امارة ابو ظبى على مر السنين [١] ، ويعتبر شخبوط بن دياب هو المؤسس الاول لامارة ابو ظبى وقد حكم الامارة فى الفترة مابين ١٧٩٣ الى عام ١٨١٦ اذ يقترن عهده بنقل مركز حكمه من واحة " ليوا " الى جزيرة أبو ظبى ويرجع نزوح بنى ياس الى أبو ظبى فى صيف عام ١٧٩٧ وتم اتخاذ هذه الجزيرة عاصمة لهم وبها اصبحوا يشكلون قوة بحرية يمارسون نشاطهم الملاحى فى الخليج العربى ، بينما بقى موطنهم الأصلى فى " ليوا " فى أطراف الربع الخالى [٢] ، وكان ذلك الاستقرار على ساحل الخليج العربى خطوة هامة لها تأثيرها الكبير على وضع الامارة السياسى والاقتصادى وفى عام ١٨١٦ تنازل الشيخ شخبوط بن دياب عن الحكم لابنه محمد الذى ظل يحكم الامارة مدة عامين ثم خلفه أخوه طحنون الذى حكم حتى وفاته عام ١٨٣٣ [٣] وتبعه أخوه الشيخ خليفه بن شخبوط ١٨٣٣ - ١٨٤٥ ، وخلفه سعيد بن طحنون ثم حكم ابن عمه زايد بن خليفه بن شخبوط جد حاكم ابو ظبى ورئيس دولة الامارات العربية المتحدة حاليا الشيخ زايد بن سلطان بن زايد بن خليفه .

أولا : اختيار زايد بن خليفة لتولى السلطة فى مارة ابو ظبى

(أ) حكم سعيد بن طحنون وخلعه :

بعد نهاية حكم الشيخ خليفة بن شخبوط تولى سعيد بن طحنون حكم امارة ابو ظبى خلال الفترة مابين ١٨٤٥ الى ١٨٥٥ ، وطيلة هذه الأعوام تواترت على امارة ابو ظبى سنوات قاسية فى مواجهة الأخطار الخارجية وكان سعيد صلبا وقويا فى مواجهتها وفى الدفاع عن حدود امارته من الاعتداءات الخارجية (٤) .

واستطاع بحكمته ان يستميل الى جانبه قبائل النعيم والعوامر والظواهر وغيرها من قبائل المنطقة وقد اشتهر عنه انه كان قاضيا قديرا يفصل فى المنازعات بين مواطنيه طبقا لأحكام الشريعة الاسلامية وحفظ اصول الدين (٥) .

وتبدو قضية خلع سعيد بن طحنون مثيرة للجدل والنقاش ولكنه ليس مجال بحثنا ولكن سوف نورد روايتين عنها ، أحدهما للاستاذ فالح حنظل ويقول فيها : -

بأن أخوين من رعاياه اقتتلا فقتل احدهما الآخر وعندما جىء بالجانى الى سعيد ابن طحنون اصدر حكمه عليه بالاعدام وفقا للشريعة الاسلامية ، وتوسل اليه والده وابدى استعداده لدفع الدية او الجزاء القضائى المادى الا ان سعيد أصر على تنفيذ حكم الاعدام وذهب ابواه يتوسلا بأعيان ووجهاء " بنى ياس ": للعفو عن القاتل ولكن جهود هؤلاء لم تنجح واصر سعيد على الاعدام وفى المدينة تجمهرت الناس وصاروا يتناقلون القضية ، ويبدو ان الأمر أخذ صورة تحد بين سكان ابو ظبى وبين الحاكم وفى ساعة من ساعات الغضب اصدر الشيخ سعيد امره بتنفيذ حكم الاعدام فى القاتل فأعدم ، مماأحدث هرجا ومرجا فى المدينة واستاء الناس من هذا الحاكم ولجأوا للسلاح وهاجموا قصر الحصن وتبادلوا اطلاق النار مع حاميته ممانتج عنه

هروب سعيد بن طحنون . (٦)

اما الرواية الثانية " للوريمر " والذى يقول فيها : -

انه عندما سأل " كامبل " المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى ، سعيد ابن طحنون عن سبب هربه فأجاب بأن جماعة من رعاياه كانوا قد ارتكبوا بعض العمليات الاجرامية وانه اصر على القصاص والعقاب من مرتكبيها ، وحدد هذه الجريمة بأنها وقعت لسفينة تابعة لتاجر بحريني يدعى عبدالكريم وقد جنحت فى مياه خور العديد وان بعض افراد بني ياس هاجموا السفينة وقتلوا عبدالكريم وربانها ونهبوها ثم تبين انها من فعل احد الأخوين ولذا فانه عزم على قتل الجانى الشقيق الاكبر ، وبناء على وعد من سعيد بن طحنون بالايمسه بأى ضرر جاء اخوه لمقابلته لكن سعيدا لم يتخلى عمانوى عليه ونفذ حكم الاعدام وقام الناس الى السلاح وبعد ان احتمى سعيد بن طحنون فى قلعته زمنا بادر الى الفرار واستقر بجزيرة " قيس " على الساحل الشرقى من الخليج العربى ومعه معظم مايملكه من ماشية ومتاع(٧) .

ويقال بأن سعيد قد قرر اتخاذ قرار مفاجيء وأمر عددا من حراسه ان يجهزوا له سفينته الخاصة وان يحملوهاباحتياجاته الخاصة وان يملاء مخازنها بالطعام والزاد ، وفى نفس الليلة ترك مدينة ابو ظبى ومعه اخوه حمدان متجها الى جزيرة " قيس " وسكانها من القبائل العربية واوصى أخوه صقر بأن يتولى السلطة ومهام الحكم وقد يرجع ذلك الى شعوره بأنه اصبح غير مرغوب من شعبه اما سكان ابو ظبى فيبدو انه لم يشعر احد منهم بخروج سعيد حتى اقرب المقربين اليه ، وعندما توجه بعض رعاياه الى مجلسه كعادتهم كل يوم وجدوا اخاه صقرا يجلس مكان اخيه فى صدر المجلس واجاب بأن سعيد مصاب بمرض وحمى لاتمكنه من الحضور واستمرت

الامـور كـمـاهي دون ان يعـرف احـد الى أن وصلت سـفـينة احـد تجـار المواشى من السـاحل الشـرقى للخليـج العربى الى مدينة ابو ظبى فـاذا بأحد ركـابها يخبـرهم بأن سعـيـد مـوجـود فى جزيرة " قـيس " وهنا ثار كبـار اعـيـان البـلاد ودخلوا الى مـجلس صقر واجبروه على ان يعترف لهم بالحقيقة فلما اعترف لهم بما حدث فقرر زعماء بنى ياس اسقاط حكم سعيد بن طحنون [٨] وطلبوا من صقر ان يغادر مدينة ابو ظبى .

اما بريطـانيا فكانت قد اعطت لنفسها الحق فى التدخل بالنزاعات المحلية حسب تفـسيـرها لمعاهدة الهدنة البـحرية الدائمة لعام ١٨٥٣ ورغم ان هذه المعـاهدة تتـعلق بالمنازعات البـحرية فـيـما بين الامـارات الا ان دورها لم ينحـصر فى هذا المجـال بل راحت تتـدخل فى الشـؤون الداخليـة للامـارات من تنصـيب حـاكم او عـزله بطريقـة مباشرة او غـير مباشرة حسب مصلحتها فقد نجد فى قضية الشيخ سعيد عندما تعـرض لمشـاكل داخلية تتعلق بامـور السلطة وثار بعض افـراد عشيـرته المناوئين له ووقف رعـاياه ضده . ولم تكن بريطانيـا راغبـة فى دعم سلطة سعـيـد الذى اصبح مـهزوزا امـام رعاياه وخشـيـة من ان التدخل بجـانبه قد يؤدى الى مـزيد من التعـقيد لوضـعها فـقد غضت النظر عـما يجرى فى أبو ظبى ، حتى تم طرد سعـيد وتولى زايد بن خليـفه الحكم ولو ان بريطانيـا تريد بقـاء سعيد فى الحكم لعززت موقفه ولما تزعزع عن سدة الحكم [٩] .

(ب) : اختيار زايد بن خليفه للحكم عام ١٨٥٥ :-

وبعد ان هرب سعيد ثم اخوه صقر ، اجتمع كبار اعيان البلاد وقرروا اختيار زايد ابن خليـفه ابن عم الحاكم المخلوع لتنصيبه حاكما على ابو ظبى وكان زايد وقـتذاك لدى اخواله فـى بلدة " اللية " فى الشـارقة [١٠] واخواله من قـبيلة " السودان " التى

كانت تحت زعامه خاله الشيخ عبدالله ابو الهول السويدى ، وذهب وفد رفيع المستوى من بنى ياس وقابل زايد واخبروه بقرارهم كمايد وبارك هذا القرار حاكم دبى سعيد بن بطى وهو اول من اعترف بحكمه ، وعاد زايد الى ابوظبى وبرفقته اخوه ذياب والدته فتلقاه الشعب بالفرحة وفتحوا له ابواب قلعة الحصن واطلقت المدافع نيرانها بقدوم زايد ابتهاجا بالحاكم الجديد (١١) .

وبذلك تكون قبيلة بنى ياس قد اختارت زايد بن خليفه لحكم الامارة عام ١٨٥٥ ، وقدر لهذا الحاكم الجديد ان يدير شؤون الامارة لفترة طويلة كماقدر له ان يقوم بدور كبير فى تاريخ ابو ظبى والامارات العربية (١٢) ، على أن عصر زايد لم يخل من احداث جسام اثرت فى تاريخ ابو ظبى فعندما تم اختياره خلفا لسعيد بن طحنون لم يجد الطريق ممهدا ولكنه استطاع بسياسته ودرايته ان يذلل العقبات التى اعترضته ويتخطى الصعاب (١٣) .

ويقول الكاتب البريطانى " كلودموريس " بأنه فى عام ١٨٥٥ برز فجأة رجل كتب له ان يصبح شخصية أسطورية حيث أعتبر بطل الامارات العربية فى أيامه هو زايد بن خليفه المعروف بزايد الكبير الذى تولى الحكم من عام ١٨٥٥ الى عام ١٩٠٩ لقد كان محظوظا خلال فترة حكمه بشكل ملحوظ وبرغم مواجهته كل العوامل المثبطة التى تواجه عادة الزعماء فى هذه البرية المجدبة الحارقة شق زايد الكبير طريقة بنجاح بعدما اصر على ان يكون حاكما وحالفه الحظ فى ذلك دوما (١٤) .

اما حمدى تمام فيقول : بأن زايد كان لايزال شابا فى العشرين من عمره عندما استلم مقاليد الحكم خلفا لابن عمه سعيد بن طحنون اذا اجتمعت لزايد وهو فى هذا

السن المبكر الشجاعة والرأى وحسن التصرف وقد حالفه توفيق كبير من الاستقرار والهدوء والتلاحم بين القبائل (١٥) . ويعتبر زايد من الحكام الذين حكموا اطول فترة فى تاريخ امارة ابو ظبى الى يومنا هذا (١٦) .

وبدأ زايد بن خليفه بن شخبوط بن دياب بن عيسى بن نهيان بن فلاح مهام الحكم فى امارة ابوظبى فى عام ١٨٥٥ وقضى ايامه الاولى فى ترسيخ قواعد الحكم وتوزيع المناصب فعين اخاه ذياب نائبا عنه فى شؤون الحكم كماسلم خاله عبدالله بالهول السويدى منصبا مهما ولم يعارض زايد فى حكمه الا ولدان من ابناء عمه وهما ذياب وسلطان اولاد هلال بن شخبوط اما اخوهما الثالث خليفه بن هلال فكان احد اعوانه المخلصين ووقف مع زايد بكل قواه (١٧) .

(جـ) : محاولة سعيد بن طحنون استعادة الحكم عام ١٨٥٦ :

كان سعيد بن طحنون يعيش فى جزيرة " قيس " وفجأة قرر استعادة حكمه ولكن لماذا ؟ علما بأنه كان على اطلاع بمجريات الامور فى ابو ظبى بعد تولية ابن عمه الحكم ولذا فانه ادرك حقيقة فقدانه للسلطة والامارة مادفعته الى استعادة الحكم مهما كان الثمن ولهذا فلابد من ان يجد حليف قوى يساعده ويسنده فى العودة الى حكمه ، وتوجه سعيد بن طحنون الى الشارقة وبصحبته اخويه صقر وحمدان وبعض السفن ونزل فى بلدة " اللية " وكان فى استقباله احد اصدقائه من شيوخ البومهير ويدعى مانع بن بطى المهيرى واخذ الاثنان فى العمل لاعداد الخطط اللازمة للهجوم على أبوظبى والاستيلاء عليها وكان التخطيط دقيق ومحكم (١٨)

وعندما وردت انباء عن وفاة سلطان عمان سعيد بن سلطان البوسعيدى وهو على ظهر المدمرة البريطانية " كوين فكتوريا " فى طريقة متوجها الى زنجبار من مسقط

وكان بالقرب من سواحل جزر " سيشل " لفظ انفاسه الاخيرة ونقل جثمانه الى زنجبار ودفن هناك وكانت ابو ظبى ترتبط بعلاقات تقليدية خاصة مع عمان فمجرد ورود هذا الخبر قرر زايد الذهاب الى مسقط لتقديم تعازيه الى ابنه الذى تولى الحكم هناك السلطان توينى الذى كان يحكم عمان اثناء حياة والده وحتى وفاته ثم اصبح سلطان عمان (١٩) .

وتوقف زايد بن خليفه ليلة واحدة فى دبى ضيفا على الشيخ حشر بن مكتوم ثم غادرها الى مسقط . وكان سعيد بن طحنون يترقب الفرصة المواتية له فعندما علم بغياب زايد الى عمان قام بتجهيز سفنه بمقاتلين من آل بومهير بقيادة مانع بن بطى المهيرى متوجها نحو جزيرة ابو ظبى التى لم يشعر سكانها الا والسفن ترسو امام الجزيرة وينزل منها اعداد كثيفة من المهاجمين الذين باشروا باطلاق النيران على المارة الذين هربوا الى منازلهم (٢٠) .

وهكذا حدث الهجوم المفاجىء على مدينة ابو ظبى والتى لم يتوقع سكانها هذا الهجوم من قبل سعيد بن طحنون والذى قد اتخذ من الشارقة قاعدة له ، وكان اسطوله يضم ثلاث سفن صغيرة يملك منها واحدة والثانية كانت تابعة لاحد المالكين من جزيرة " قيس " والثالثة حصل عليها وجلبها من " ابو حيل " فى الشارقة واستطاع سعيد ان يمتلك المدينة التى قام اتباعه بنهبها وحرقها (٢١) .

وتوجه سعيد بن طحنون على رأس مفرزة نحو قصر الحصن الذى كان فيه ذياب ابن خليفه نائب الحاكم وشقيق زايد بن خليفه مع والدته وحرسه الخاص ، الذين قاموا باغلاق ابواب الحصن ووضع المتاريس وصعدوا الى الابراج وباشروا باطلاق النار على المهاجمين وبرغم شدة الهجوم الذى شنه اتباع سعيد بن طحنون الاانهم لم

يتمكنوا من اقتحامه نظرا للبسالة التى ابداها افراد حرس الشيخ ذياب بن خليفه ، مماجعل المهاجمين يكتفون بحصارها ، ونادى المنادى فى اسواق مدينة ابو ظبى بأن الحكم قد عاد لسعيد بن طحنون ، وفى صباح اليوم التالى تمكنت بعض السفن التابعة لزايد بن خليفه من الهرب الى دبى وتم ابلاغ حاكمها الشيخ سعيد بن بطى عن المعارك التى جرت وبعودة سعيد بن طحنون الى ابو ظبى وكان سعيد بن بطى طريح الفراش لمرضه فطلب من ابن اخيه حشر بن مكتوم استلام قيادة الجيش والقيام بدوره لابلاغ زايد والتشاور معه حول هذه القضيه وعلى الفور ارسل حشر مفارز ودوريات للعثور على زايد بن خليفه واستطاعوا ان يجدوه وهو فى طريق عودته من مسقط قرب بئر ماء يسمى " غفر " وكان برفقته عشرة رجال من حاشيته وحرسه الخاص وابلغ رجال حشر لزايد عن مجريات الامور فى ابو ظبى وطلبوا منه الانتظار فى موقعه لحين وصول النجدات من دبى وابو ظبى وفى مساء اليوم التالى وصل حشر بن مكتوم على رأس جيش كامل الى موقع زايد ووضع الاثنان خطة للقيام بهجوم معاكس لاسترجاع ابو ظبى وعندما وصلت تلك القوات الى مقربة من منطقة " المقطع " التى لم يكن هناك جسر للعبور يربط البر والجزيرة امر زايد قواته بالاختباء وعدم القيام بأية حركة حتى لايكتشف امرهم من قبل دوريات وحرس سعيد بن طحنون والذين يقيمون فى البرج المقام فى " المقطع " ويفقد معه عنصر المفاجئة وهنا ذكرت روايتان عن كيفية عبور زايد بن خليفه وقواته من البر الى ساحل الجزيره (٢٢) :-

(أ) : الرواية الاولى تقول :

بأن الحرس وضابط منطقة " المقطع " كانوا من أنصار زايد بن خليفه فلما رأوه

أفسحوا له المجال فقامت قواته بعبور الحاجز المائى بين البر والجزيره .

(٢) : اما الرواية الثانية فتقول :

بأن زايد استعمل حيلة بارعة عندما اوعز الى بعض افراد من رجاله الاقوياء بأن يعبروا الماء سباحة الى جزيرة ابو ظبى ويشعلوا النيران فى أماكن متفرقة خلف نقاط المراقبة التى توجد فيها ابراج " المقطع " باتجاه العاصمة ولما تقدم زايد الى نقطة البرج اوقفته القوة الموجودة هناك فطلب مقابلة ضابط النقطة والذى فوجىء بوجود زايد ومعه قوات كبيرة من الجنود فنصحه زايد بعدم المقاومة وطلب منه ان ينظر خلفه وان يرى أبو ظبى قد امتلأت بالنيران فأخبره زايد بأن القسم الاكبر من افراد قواته قد عبروا ودخلوا المعركة وهاهى النيران وان مايراه من قوة ليس الا جزء قليل من تلك القوة فقدم الضابط خضوعه مع حرسه لزايد وعبرت قوات زايد ومعه الشيخ راشد بن مكتوم الى داخل جزيرة ابو ظبى .

وفى صباح اليوم التالى بعد صلاة الفجر اطلق زايد اشارة بدء الهجوم ودارت المعارك العنيفة فى المدينة وحول قصر الحصن قتل فيه مانع بن بطى المهيرى من اتباع سعيد بن طحنون فى حين تمكنت قوات راشد بن مكتوم من كسر طوق الحصار الذى فرضه سعيد بن طحنون على ذياب بن خليفه وافراد عائلته وحرسه فى الحصن كمادارت معارك عنيفة فى أزقة المدينة وشوارعها انهزمت فيه قوات سعيد بن طحنون ، وهرب البعض فى حين حاول سعيد الهرب تجاه البحر للوصول الى سفينته ولكن افراد زايد تمكنوا من سعيد واحاطوه ولم يعرفوا ماذا يفعلوا به فارسلوا احدهم ليخبر زايد وعندما علم زايد الذى كان يقاتل على ظهر فرسه فى وسط المدينة بأن سعيد مطوق فى البحر اسرع متجها اليه على فرسه وقبل ان يخرج من احد ازقه

المدينة والمؤدية الى الشاطىء ولشدة سرعة الحصان وضيق الازقة اصطدم بخشبة بارزة من احد الجدران فسقط زايد من شدة الصدمة بينما خرج حصانه تجاه الشاطىء بدونه فظن الذين كانوا يطوقون سعيد بأن زايد قتل فقاموا واطلقوا نيران بنادقهم على سعيد فأصابوه بعدة رصاصات قاتلة وكانوا من قوات دبى الموالية لزايد ، وبعدها تم القبض على أخوى سعيد وهما صقر وحمدان وكان سعيد قويا ويعد من ابرز واشجع المقاتلين ومن اهم اثاره الجامع الذى كان يسمى بمسجد " العتيبات " وهذا المسجد قد بناه سعيد بن طحنون ويعتبر اول مسجد جامع كبير يتم بناءه من الحجارة والاجر فى ابو ظبى فى تلك الفترة التى كانت تبنى مساجدها من الخوص وسعف النخيل وقد قام خلف بن عبدالله العتيبه بترميم المسجد حديثا ولذا سمى بمسجد العتيبات (٢٣) . ويقع الان مقابل السفارة البريطانية بالقرب من سوق الخضار واعيد بناءه حديثا بعد هدم المسجد القديم .

وقد يكون للسلطان بن صقر دورا فى عملية استعادة السلطة للحاكم السابق لابو ظبى فى محاولة اعادة سعيد للحكم ويقول المؤرخ البريطانى " لوريمر " : - " ولما فشلت هذه المحاولة وقررت السلطات البريطانية اعتبار العملية عدوانا بحريا من جانب شيخ الشارقة واعتباره مسؤولا مسؤولية الشريك عن اتلافه لمدينة ابو ظبى ووقع معظمه بأيدى البدو من حلفاء الشيخ الموجود آنذاك فيها ممن كان استدعاهم لمعاونته فى الدفاع عن المدينة " (٢٤) .

وهذا يعنى ان لبريطانيا علاقة غير مباشرة ، وخاصة انها كانت على علم بخروج سعيد بن طحنون من جزيرة " قيس " ومجيئه الى الشارقة ثم الاستعدادات التى تمت للشيخ سعيد فى الشارقة بالقرب من الوكيل السياسى البريطانى ومن غير المعقول

انه لم يكن يعرف بتلك الاستعدادات وخاصة ان الوكيل كان يعرف كل صغيرة في المنطقة كلها فكيف لايعرف بمجريات الامور بالقرب من مقره في الشارقة ثم انه غضت بريطانيا طرفها في الفترة التي ابحرت قوات سعيد من الشارقة الى ابو ظبي ؟ الم تكن تعلم ؟ وسكوتها اثناء القتال الذى دار في أبو ظبي وكذلك سكوتها عندما استقرت الاحوال للشيخ سعيد بن طحنون ، ولم تتحرك الابعدما استعاد زايد ابن خليفه جزيرة ابو ظبي بمساعدة شيخ دبي ومقتل سعيد ونظرا لفشل العملية وحتى لاتتهم بريطانيا بان تورطها قد يثير عداء زايد بن خليفة عليها فانها فرضت غرامة على الشيخ سلطان بن صقر ومن ناحية اخرى كانت غير راضية بسياسة الزعيم القاسمى تجاه التواجد البريطاني في الامارات العربية وكانت تريد تأديبه بطريقة غير مباشرة واتهمته بتورطه في القضية في حين انها لم تمنعه او تحذره قبل اشتراكه كماهو المتبع في العادة وكانت بريطانيا تحذر قبل قيام اى شيخ بأى نوع من العمليات وبالتالي فان بريطانيا اظهرت نفسها بأنها لم تكن راغبة في تولية سعيد الحكم ولذلك اتهمت سلطان بن صقر بهذا العمل وفرضت عليه غرامة كبيرة.

ففي عام ١٨٥٧ قرر المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي الكابتن " جونز فيلكس " ايفاد بعثه الي ابو ظبي لتقصي الحقائق عن الاحداث التي جرت في العام الماضي ووصلت تلك البعثة وباشرت عملها وشاهدت اثار الدمار والخراب في ازقة وشوارع المدينة وتدمير سوق البلدة وجزءا من قصر الحصن[٢٥] .

كما استمعوا الى عدد من افراد السكان الذين اشتكوا ممن اصيبت ممتلكاتهم بأضرار فادحة وانهم قد خسروا الكثير بسبب الهجوم الذى شنه سعيد ورجاله ثم قامت اللجنة باجراء التحقيقات اللازمة لمعرفة اسباب الهجوم والقوى التي ساندتها

وقد توصلت الى نتيجة بأن سلطان بن صقر كان وراء هجوم سعيد وبعدها ارسل المقيم البريطانى رسالة الى سلطان بن صقر يبلغه فيها بنتائج اللجنه[٢٦] . وفيها اتهامات موجهة اليه بمساعدته لسعيذ بن طحنون ، ويخبره بأن الحكومة البريطانية قد حددت الغرامة التى يجب أن يدفعها الزعيم القاسمى ، مبلغ وقدره خمسة وعشرون الف جنيه تدفع على أقساط على أن يعفى الزعيم القاسمى من بعضها اذا أثبت حسن تصرفاته حسب المفهوم البريطانى ولكن مسلكه ظل لايبرر على الاطلاق انقاص شىء من الغرامة مماقررت معه الحكومة البريطانية الزام دفع المبلغ المقرر حتى أخر دفعة من تلك الاقساط فى شهر مايو عام ١٨٦٠[٢٧] .

(د) : تمرد ابن عرار فى العين عام ١٨٥٨ .

ومن اهم المشاكل الداخلية التى تصدى لها زايد بن خليفة بعد محاولة سعيد هو حركة التمرد التى شهدتها منطقة العين وكادت ان تنفصل عن ابو ظبى فى عام ١٨٥٨ ، عندما حاول احد اكبر زعماء المنطقة وهو الشيخ ابن عرار استغلال فرصة الاضطرابات التى وقعت فى ابو ظبى فأعلن الانفصال واستقلال مدينة العين والمناطق المجاورة لها وخضع له معظم زعماء المنطقة مثل الشيخ محمد بن احمد وكان على زايد ان يواجه هذه الحركة بحزم فتصدى لابن عرار وقاتله بشدة طيلة عام ١٨٥٨ ، وقد ارسلت امارة دبى بعض قواتها لمساعدة زايد في حربه ضد ابن عرار ووقعت خسائر كبيرة بين الجانبين ، كماقدم الزعيم النعيمى فى البريمى الشيخ محمد ابن على الحمود الشامى مساعدته لزايد ، وانتهت المشكلة عندماتدخل أحد وجهاء دبى السيد عبدالله بن حريز ، وبذل جهوده ووساطته لدى الطرفين فاستسلم ابن عرار بكرمه وجوده فقد قال احد الشعراء مادحا :-[٢٨]

حنت وتبغى ابن عرار يشيبها   بينها وبينه حزم مايدرى بها

والقصيدة كناية عن الشاعر نفسه فهو يحدث ابن عرار على لسان الناقة اظهار لكرمه . اما بقية زعماء منطقة العين فان زايد لم يتعرض لصلاحياتهم الخاصة وأقرهم فى مناصبهم فقد كان فى " الجيمى " احمد بن هلال وفى " المعترض " محمدبن مانع وفى " الهيلى " سعيد بن سلطان ،وبذلك استقر الوضع فى منطقة العين وعادت الى سيادة امارة ابو ظبى .

ثانيا : تطور امارة ابو ظبى فى عهد زايد بن خليفه

لقد شهدت امارة ابو ظبى فى عهد زايد بن خليفه تطورا ملحوظا فى شتى المجالات وكانت سياسته فى رفع مستوى بلاده وتطورها واضحة ونجح فيها نعلا[٢٩] ، حيث انتعشت التجارة بين مدن وموانى امارة ابو ظبى وبين جيرانها من مدن وموانى الامارات العربية وعمان وايضا التجارة الخارجية بدرجة اقل وشهدت الزراعة اثناء حكمه توسعا ملموسا فقد كان زايد يهتم شخصيا بها ، كما ساهم فى انجاز العديد من المشاريع وخاصة فى منطقة العين كماركز حكمه بالادارة القوية والرجال المخلصين اما علاقته بالقوى المجاورة[٣٠] فقد شهدت الصداقة والاحترام المتبادل اضافة الى شخصية زايد المرموقة بين قبائل المنطقة وسوف نتطرق الى هذه الامور : -

(أ) : الاقتصاد :

لقد كانت اقتصاديات الامارة فى تلك الفترة الزمنية بسيطة وتعتبر اقتصاد بدائى

يعتمد على الجهد الجسمانى ولكن مع ذلك استطاع زايد بسياسته وحسن ادائه ان يشجع مختلف الانشطة الاقتصادية فى الامارة واستطاع ان يكيف امارته مع هذه الموارد الاقتصادية المتواضعة .

(أ) : الغوص على اللؤلؤ :

وعند التطرق بالبحث على اقتصاديات امارة ابو ظبى فى عهد زايد بن خليفه تبرز التجارة والغوص على اللؤلؤ وبناء السفن من اهم مصادر الدخل الرئيسية بجانب الزراعة وتبرز صناعة اللؤلؤ فى المقدمة لما كانت تساهم به بنسبة عالية فى الدخل القومى لاقتصاد ابو ظبى .

وكانت صناعة اللؤلؤ فى عهد زايد العمود الفقرى بالنسبة للاقتصاد الوطنى وكان يشتغل بصناعة اللؤلؤ بصورة مباشرة او غير مباشرة معظم سكان امارة ابو ظبى وان صناعة اللؤلؤ كانت تساهم بنسبة كبيرة من مجموع الدخل القومى ويأتى الباقى من القطاعات الاخرى كالزراعة والتجارة والرعى وصيد الاسماك .

وساهم العنصر النسائى فى عملية الغوص ذاتها ولكن على نطاق محدود وخاصة بالنسبة لسكان الجزر القريبة من المياه الضحلة حيث كانت النساء تعمل بمعزل عن الرجال ، واقتصاد اللؤلؤ اقتصاد حر يلعب فيه القطاع الخاص الدور الرئيسى بينما يكون دور القطاع العام محدود .[٣١]

وكان سكان الامارة يعتمدون على دخل اللؤلؤ لشراء حاجياتهم الضرورية واليومية من الارز والشاى والسكر والبن والمنسوجات القطنية والملابس والخشب وهذه المواد غالبا ماكانت تستورد من السواحل الهندية ونتيجة للاستقرار الذى شهدته الامارة فى عهد زايد انتعشت الحياة الاقتصادية وخاصة بالنسبة لتجارة

اللؤلؤ والتى كانت لها سوق رائجة فى عواصم الدول الاوربية والهند واصبح لابو ظبي من السفن والصيادين فى مغاصات اللؤلؤ " والهيرات "[٣٢] اكثر مماكانت تملكه اية امارة اخرى وكانت نسبة صغيرة فقط من الصيادين تتألف من المحترفين اما الغالبية العظمى فكانت من قبائل البدو التى تقطن مختلف المناطق والاراضى التابعة لامارة ابو ظبى[٣٣] . ومن اهم موانىء اللؤلؤ فى امارة ابو ظبى : -

(ا) : جزيرة دلما :

كانت اهم واغنى " المغاصات " و " الهيرات " للؤلؤ فى الخليج العربى تقع فى المنطقة الممتدة بين سواحل ابو ظبى وشبه جزيرة قطر ، ونظرا لوقوع جزيرة " دلما " فى وسط هذه المنطقة فى مياه ابو ظبى الاقليمية فانها اصبحت تتمتع بمركز هام واهتمام خاص وكانت تعتبر من اكبر مراكز الغوص فى وسط " الهيرات " فى مياه الخليج العربى وكان يتم عن طريقها تقديم المؤن والاحتياجات الضرورية اللازمة لعملية الغوص ويقصدها كل من صائدى اللؤلؤ وتجاره بين فترة واخرى فى اثناء موسم الغوص للتزود بماء الشرب والطعام وبيع وشراء مالديهم من اللؤلؤ وبذلك اصبحت جزيرة " دلما " من اهم مراكز تجارة اللؤلؤ فى الخليج العربى كما كان يلجأ اليها عندما تشتد الرياح لوقوعها قرب " الهيرات " او " المغاصات " .

وجزيرة " دلما " مأهولة بالسكان طيلة فصول السنة ولكن عدد سكانها يرتفع فى موسم الغوص ويتصاعد الى حوالى عشرة اضعاف السكان فى غير موسم الغوص ثم يعودون الى عددهم الطبيعى فى فصل الشتاء وينشط سوقها التجارى فى موسم الغوص فيقصدها تجار اللؤلؤ من مختلف انحاء الخليج العربي والدول القريبة مثل الهند وان حركة البضائع والتجارة بمختلف انواعها تنشط فى جزيرة " دلما " اثناء

موسم الغوص وتكاد تكون الجزيرة من اهم الموانى فى الخليج العربى لصيد اللؤلؤ وتجارته[٣٤] بعد البحرين والكويت .

(٣) : جزيرة ابو ظبى :

تأتى جزيرة ابو ظبى فى المرتبة الثانية بعد جزيرة " دلما " من حيث اهميتها فى التجارة والغوص على اللؤلؤ ويقصدها العديد من تجار اللؤلؤ فى موسم الغوص ويقيمون فيها طيلة الموسم للمتاجرة باللؤلؤ فيمابينهم من جهة والمتاجرة مع تجار ابو ظبى من جهة اخرى ثم تأتى جزيرة " غاغة " ولكنها لاترقى فى الاهمية جزيرتى " دلما " و " ابو ظبى "[٣٥] وهناك موانى يقصدها صائد اللؤلؤ للالتجاء والاحتماء من الرياح والعواصف فقط وهذه الموانىء والجزر غير مأهولة بالسكان واهمها " جزيرة دبية " ، "جزيرة غشا "،" جزيرة الصير " ، " جزيرة حالة مبرز "، " جزيرة زركوه " ، " جزيرة فشت " ، "جزيرة أزرنة " .

وقد بلغ عدد السفن العاملة فى اسطول ابو ظبى بالنسبة لسفن الامارات الاخرى حوالى ٤١٠ سفينة والشارقة ٣٦٠ سفينة ودبى ٣٣٥ سفينة ورأس الخيمة ٧٠ سفينة ولعجمان ٤٠ سفينة وكانت ابو ظبى تحتل الدرجة الخامسة فى الثراء وفى قوة الاسطول البحرى العامل فى الخليج العربى وعبر البحار[٣٦] .

(ب) : اقتصاد اللؤلؤ :

وينقسم اقتصاد اللؤلؤ الى القطاع العام والقطاع الخاص من حيث دوره فى تنمية الاقتصاد الوطنى والدخل القومى لامارة ابو ظبى .

١: دور القطاع الخاص فى اقتصاد اللؤلؤ:

ان اقتصاد اللؤلؤ اقتصاد حر ولذا فان القطاع الخاص يلعب دورا مهما ، وان تجارة اللؤلؤ تعتمد على عاملى العرض والطلب ماجعل اسعارها عرضه لتقلب الارتفاع والانخفاض مايعرض الاقتصاد القومى لعدم الاستقرار ، ويشكل الفرد العنصر الأكثر أهمية بالنسبة لاقتصاديات اللؤلؤ وكان يتراوح متوسط الدخل السنوى للفرد العامل فى صيد اللؤلؤ بحوالى ١٥٠ روبية هندية والتاجركان يتراوح دخله السنوى مابين ٥٠٠روبية وألف روبية تقريبا(٣٧) .

٢: دور لقطاع العام فى اقتصاد اللؤلؤ :

ويأتى دور القطاع العام أو الحكومى فى اقتصاديات اللؤلؤ فى المرتبة الثانية ومع ذلك فان دخل الامارة الرئيسى يأتى مايتم جمعه من الضرائب على صناعة اللؤلؤ وتفرض الحكومة سهم بحار واحد على كل سفينة بغض النظر عن الكبر او صغر السفينة وترسل الحكومة ممثلا عنها فى موسم الغوص الى الموانىء الرئيسية للؤلؤ ويقوم هذا الممثل بجمع مايمكن جمعه من اموال عينية ومادية وخاصة من تجاراللولؤ كل حسب مقدرته المادية .

ويمكن القول بأن " مغاصات " اللؤلؤ فى ابو ظبى كانت مسموح بها لجميع العاملين فى الغوص سواء كانوا من امارة ابو ظبى او خارجها ولايحق لأى فرد او قبيلة ان تستأثر بأحد هذه المغاصات دون غيرها ويدفعوا مبالغ معينة كضريبة الدخل الى ممثل حاكم ابو ظبى والذى كان يتخذ من جزيرة " دلما " مقرا له ، وهذا ماأضاف عوائد جديدة للدخل القومى وساعد على نمو وازدهار امارة ابو ظبى الى جانب الجهود الذى بذلها زايد بن خليفه فى الحفاظ على هذه المكانة الاكتصادية لعملية

الغوص واستخراج وتجارة اللؤلؤحتى أصبح هذا العصر الذهبى لتجارة اللؤلؤ[٣٩] .

وكـان يقـال بأن أحسن ايام الرفـاه والرخـاء الذى عم ابو ظبى فى تاريخـهـا كـان يعرف باسم عهد صيد اللؤلؤ او عصر اللؤلؤ وظهر فى الواقع خلال النصف الثانى من حكم زايد بن خليفه واستمر هذا العصر المزدهر اثناء عهد ابنائه الذين خلفوه فى الحكم واستمروا فى تشجيع وتطوير هذه الصناعة واعداد السفن وامدادها بالرجال ذوى الخبرة بالغوص[٤٠] .

(جـ) : الزراعة :

تعتبر الزراعة من أقدم المهن فى ابو ظبى وخاصة فى منطقة العين وفى واحات " ليوا " حيث التربة الصالحة للزراعة وتتوفر المياه العذبه للرى . ومنطقة العين الاولى من حـيث اهمـيتـهـا للزراعـة وكـان سكـانهـا يعـملون بالزراعـة اثناء حكم زايد من النصف الثانى من القرن التاسع عشر بالطرق القديمة حتى بداية النصف الثانى من القرن العشرين حيث اصبحوا بعدها يستخدمون الآلات الحديثه.

وتزرع فى ابو ظبى أنواع عدة من الاشجار والنباتات تتناسب والظروف الطبيعية والمناخية ونوعية التربة ، واهم هذه الاشجار النخلة واهم النباتات البرسيم فالنخلة كانت اولى الاشجار التى زرعت منذ القدم فى أمارة أبوظبى وخاصة منطقة العين و" ليـوا " . وفى عـهد زايد بن خليـفـة كـان السكان يعـملون فى زراعـة النخـيل فى أماكن محدودة مثل واحات " ليوا " التى قدر بها ثلاث وثلاثون الف نخلة وقرى منطقة العين حوالى ثلاثون الف نخلة تقريبا[٤١] .

وكان زايد بن خليفة محبا للزراعة وذلك تمشيا مع تقاليد الأسرة فى رعاية شؤون الزراعة والرى فى منطقة العين وخاصة منطقة الجاهلى وعلى الحدود الجنوبية الغربية

وهي منطقة صالحة للزرعة اضافة الى مناطق اخرى ولذا قام بانشاء بعض المزارع هناك كمانشطت مجموعات من قبائل ابو ظبى وخاصة بنى ياس والعوامر والظواهر فى بناء المزارع والبساتين وتعمير المنازل فى منطقة العين ونمت هذه المنطقة بسرعة فى عهد زايد الى درجة اصبحت معها تنافس مدينة البريمى العمانية المجاورة لها ، وقرر زايد تقوية نفوذه واعطاء المنطقة اهمية فقام ببناء " حصن الجاهلى " وسط مزارع وقرى منطقة العين(٤٢) .

وقام زايد باعادة حفر " الجاهلى " الدائرى المندثر وقد استمر العمل فى اصلاحه ستة عشرشهرا ، كما أنشأ ابنه الأكبر الشيخ خليفه بن زايد مزرعة ومستوطنة جديدة غرب قرية " الهيلى " واطلق عليها اسم " المسعودى " وحفر لها فلجا هو فلج " المسعودى " وقد استمر هذا الفلج حوالى اربعة عشر شهرا(٤٣) .

(د) : التجارة :

كان سكان ابو ظبى يمتهنون التجارة منذ القدم ويرجع ذلك الى طبيعة امارة ابو ظبى وموقعها على الخليج العربى بشواطىء طويلة تصل الى حوالى٥٠٠ كيلو متر اضافة الي الجزر العديدة المتناثرة فى مياه الخليج العربى والتى كان بعضها مأهولة بالسكان ، وكانوا يمتلكون الاساطيل التجارية الشرعية ونقلوا عليها بضائعهم المحلية مثل اللؤلؤ والاسماك المجففة والتمور والجلود الى البلدان المجاورة ، ومقابل ذلك كانت تعود منها حاملة لابو ظبى ماتنتجه تلك البلدان من مواد غذائية ومنسوجات قطنية ، وكانت تجارة اللؤلؤ تشكل العمود الفقرى بالنسبة للتجارة الخارجية(٤٤) لامارة ابو ظبى فى عهد زايد بن خليفه .

اما فى المناطق الداخلية فنظرا لارتباطهم بالزراعة وخاصة منطقة " العين" و "

ليوا" فانهم كانوا يتاجرون بالمنتجات الزراعية مع سكان السواحل والبلدان المجاورة لامارة ابو ظبي وكانت قوافل الجمال هي الوسيلة الرئيسية لنقل منتجات تلك المناطق الى المناطق الاخرى التى تحمل التمور والفحم النباتى والمنتجات الزراعية وتعود محملة بالبضائع المستوردة من الخارج الى الموانىء الساحلية اضافة الى منتجات المدن الساحلية مثل الاسماك المجففة والسكان البدو الرحل فقد كانوا يمتهنون الرعى ولذلك تاجروا بالابل والاغنام والماعز والجلود والوبر والصوف ومن اهم الاسواق الرئيسية فى امارة ابو ظبى : سوق مدينة ابو ظبى وسوق مدينة العين وتتم فيها المتاجرة بين السلع المستوردة من الخارج والمعدة للتصدير، وكانت تفرض بعض الرسوم الجمركية التى لاتتعدى ٢٪على البضائع المستوردة اما البضائع المصدرة فكانت معفاة من كافة إنواع الضرائب .(٤٥)

(٢) : بناء قلعة الجاهلى :

اهتم زايد بالبناء والعمران حيث اقام العديد من الحصون والقلاع وغيرها من المرافق العامة وقام باصلاح وتجديد الافلاج وجعل عليها شبكة رى للمزارع والبساتين ومن اهم اعماله فى فن البناء والعمارةهو تشييد وبناء قلعة " الجاهلى الكبير " والتى استغرقت بناءها عدة اعوام وقد افتتحها زايد رسميا وسجل على مدخلها تاريخ البناء عام ١٣١٦هـ الموافق ١٨٩٨ م وكتبت هذه الابيات على مدخل القلعة(٤٦) :

فتح باب الخير فى باب العلا   هل فيه السعد وبالعليا المنيفه

فتهـان العـز قـالت ارخـو   دار جـد شاد زايد بـن خليفه

(٣) : التنظيم الادارى والسياسى :

لقد اهتم زايد بن خليفه بالشؤون الادارية والسياسية وكان يعتمد على الرجال

المخلصين له فى مختلف المراكز وفى بداية حكمه كان يعتمد على اخوه الشيخ ذياب بن خليفه وابن عمه خليفه بن هلال ، ولكن بعد مقتله فى معركة الجرف عام ١٨٧٣ ، أصبح يعتمد كثيرا على ابنه الاكبر الشيخ خليفه بن زايد فى جميع الامور الداخلية كما انه تولى قيادة جيش ابو ظبى فى كثير من المعارك المهمة وخاصة المعارك التى كانت مع قطر وكان زايد يعتمد على ابنه خليفه فى المهمات السياسية الخاصة الى حكام الامارات العربية وسلاطين عمان فى مسقط وايضا فان الشيخ خليفه بن زايد لعب دورا كبيرا فى حل الخلافات والمنازعات التى كانت تنشب بين القبائل ولسمعته بينهم فانهم كانوا يستجيبون لنصائحه واقواله ويمكن القول بأن خليفه كان الساعد الاول والايمن اثناء فترة حكم زايد بن خليفه اما الرجل الثانى بعد الشيخ خليفه فقد كان احمد بن هلال والذى شغل منصب والى منطقة العين وممثلا لزايد ، وكان يعتمد عليه زايد فى كثير من امور تلك المنطقة ومعظم المراسلات كانت تتم عن طريقه وانه كان همزة الوصل بين زايد ومقر الحكم فى مدينة ابو ظبى ومنطقة العين والمناطق الشمالية من عمان.

واستمر فى منصبه حتى مجىء حكم حفيده الشيخ شخبوط بن سلطان بن زايد ابن خليفه.

ثالثا : عوامل نجاح زايد بن خليفه فى حكمه واستقرار امارته :

لقد امتد حكم زايد لفترة طويلة حوالى نصف قرن من عام ١٨٥٥ الى عام ١٩٠٩ ، وذاع صيته ليس فى الامارات العربية وانما خارجها[٤٧] . ووصلت امارة ابو ظبى فى عهده اقصى درجات اتساعها ونفوذها وامتد سلطانه على الساحل حتي خور العديد غربا اما فى الداخل فكان سلطان عمان قد فوضه لادارة اراضيه

فى اقاليمه الشمالية مثل الظاهرة فوصل نفوذه حتى مدينة " عبرى " وبذل زايد جهوده لتحقيق تحالف بين قبائل وحكام الامارات العربية تحت لوائه وكاد ينجح لولا تنبه الحكومة البريطانية لاتساع نفوذه وخططه فى الامارات العربية فوقفت فى وجه زايد وضد طموحاته لتحقيق الوحدة وافشلتها بريطانيا لرغبتها فى ابقاء الحالة القائمة من التجزؤ والتمزق كماهى عليه الحال وكان زايد قد ورث امارة تنمو وتتسع وتهيأله الى جانب ذكائه وقوة شخصيته وشجاعته وفروسيته[٤٨] ، عدة عوامل للنجاح ماتركت بصماته واضحة فى تاريخ الامارات العربية الحديث وهى كمايلى :

(١) : عدم وجود أسباب للمواجهة مع بريطانيا :

لم تكن هناك اسباب للمواجهة بين ابو ظبى وبريطانيا فى البحر كتلك التى حدثت بين القواسم وبريطانيا فى الوقت الذى شكلت قبائل ابو ظبى قوة برية فى " الظفرة " و " العين " ومنطقة " اكدن " جنوب " ليوا " وكان القواسم فى صدام مع البريطانيين فى الخليج العربى فى اوائل القرن التاسع عشر ، سببا فى اضمحلال نفوذهم وتجزوء امارتهم كان نشاط قبائل ابو ظبى بعيدا عن الصدام مع البريطانيين ، احد اسباب نموهم كقوة برية محلية كبيرة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تحت زعامة زايد[٤٩] ، ويقول " كيلى" :- " ان قبائل ابو ظبى كانوا يمثلون مصدر القوة للبوفلاح ولذا فعندما شرعت القوة البحرية للقواسم تتضاءل فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ظلت القوة العسكرية " للبوفلاح) سليمه لم تتأثر ووصلت هذه القوة ذروتها فى عهد زايد بن خليفة "[٥٠].

(٢) : الصداقة التقليدية بين ابو ظبى وعمان :

لقد ورث زايد عن اجداده العلاقة والصداقة التقليدية عبر الاحداث التاريخية مع

سلاطين عمان ، فبينما كان القواسم منذ نشأتهم فى عداء شديد مع حكام وسلاطين البوسعيد فى عمان ، كان " البوفلاج " اصدقاء لهم وفى الوقت الذى كان القواسم يمثلون زعامة الحزب الهنائى المتحالف مع حكام عمان وكانت للصداقة الشخصية والقوية بين زايد وفيصل بن تركى سلطان عمان دورها فى اتساع نفوذ زايد بين اقاليم عمان الشمالية فى " الظاهرة " وحتى بادية الامارات وذلك عندما اسند سلطان عمان ادارة تلك الاراضى لزايد بن خليفة حتى مدينة عبرى كماهيأت الأحداث الكبرى لزايد فى وسط وشرق الجزيرة العربية الامن فى منطقة البريمى الذى ساعده على انجاز بعض طموحاته فى الامارات العربية ويقول "د .مرسى"(٥١) :-

" لقد ربط القواسم تاريخهم وازدهارهم مع الحركة الاصلاحية ودولة آل سعود فى نجد لهذا ماأن سقطت الدرعية عام ١٨١٨ حتى كانت الحملة البريطانية تدك قاعهم عام ١٨١٩ اما " البوفلاج " فقد اكتسبوا اسما لمقاومتهم هم واهالى ابو ظبى وهم قليلو العدد - جحافل الحملات السعودية وقد ساعدت امارة ابو ظبى صحراؤها الواسعة الممتدة فى التغلب على القوات السعودية وهى تعبرها فى طريقها الى عمان ومن ابرز مواقعهم مع السعوديين معركة العانكة ١٨٤٩ أيام الشيخ سعيد ابن طحنون وقد عاصر الشيخ زايد بن خليفة فترة افول الدولة السعودية الثانية الذى بدأ بوفاة اميرها فيصل بن تركى عام ١٨٦٥ وانتهت هذه الدولة فيما ترك الامير عبدالرحمن بن فيصل وابنه عبدالعزيز الرياض لاجئين الى الكويت عام ١٨٩٢ ".

(٣) : خبرة زايد بن خليفة بشؤون الإمارات العربية :

ان اقامة زايد فى الامارات الشمالية وخاصة فى دبى والشارقة اكسبته معرفة كبيرة بتلك المناطق فى ايام صباه الاولى وفى شبابه مماكان له ابلغ الاثر فى اكتساب

الخبرة والحنكة السياسية نظرا لاختلاطه بالشيوخ والتجار والموظفين البريطانيين مماانعكس ذلك عليه بعد تولى مقاليد الحكم والادارة فى امارة ابو ظبى خلفا للشيخ سعيد بن طحنون فان زايد لم يجد الطريق ممهدا ولم يخل عصره من احداث جسام اثرت فى تاريخ الامارة ولكنه بحنكته ودرايته السياسيه استطاع ان يزيل تلك العقبات ويتخطى الصعاب باقامة علاقات الصداقة مع القواسم[٥٢] .

ففى البداية حدث صدام بينه وبين القواسم وقتل فيها الشيخ خالد بن سلطان اثناء مبارزته مع زايد وكان الشيخ خالد من اعلام حكام القواسم وفارسا من فرسانهم وكانت هذه بداية الصعود لنجمه[٥٣] ، واستطاع بعدها ان يعقد حلفا وصداقة قوية مع القواسم والتى استمرت طوال فترة حكمه . كماورث زايد الصداقة والعلاقة المميزة مع حكام دبى من " البوفلاسه " الذين كانوا عضدا له فى ايام الشدة والازمات وكان زايد خير عون لهم وساعدهم فى جميع احتياجاتهم . وبهذه العوامل استطاع زايد بن خليفه ان يصبح من اقوى حكام الامارات العربية فى تلك الفترة ويحكم هذه المدة الطويلة ويسود عهده الامن والاستقرار والنمو والتقدم ليس فى امارة ابو ظبى وانما فى معظم ارجاء الامارات وسلطنة عمان وهذا راجع الى سياسته وحكمته فى شؤون تلك المنطقة .

رابعا : بعض ماقيل عن شخصية زايد :

لقد قيل عن شخصية زايد الكثير من قبل ابناء المنطقة وشيوخ القبائل وحكام الامارات والاداريين والمسؤولين البريطانيين وغيرهم ولكننا سوف نعرض هنا بعض ماقيل عن هذه الشخصية من قبل المؤرخين والكتاب الذين كتبوا فى التاريخ الحديث عن المنطقة والبعض منهم عاصره فى تلك الفترة وفى مايلى هذه الاقوال :-

١= يقول الكاتب اليمنى عوض العرشانى (٥٤) :

" لقد لعب دورا بارزا فى حياة ابو ظبى القبلية والسياسية والمشيخات المجاورة وقد صاهر لاسباب سياسية مجموعة من قبائل الساحل العمانى وكان مشهورا بالقوة والشجاعة والحزم والجود والكرم والسماحة والحلم والشهامة والرحمة وتلك من الصفات العربية الحميدة التى اتسم بها اجداده العرب وهذه الصفات المعنوية بالاضافة الى الصفات الجسدية المتمثلة بضخامة الجسم وكثافة اللحية وطوله الفارع ".

٢= اما "جون دانيال " الذى كتب عن امارة ابو ظبى فيقول :-(٥٥)

" يعتبر زايد بن خليفه من اعظم الحكام فقد حكم اطول فترة فى تاريخ امارة ابو ظبى وحافظ على وحدة اراضى امارته من أية اعتداءات خارجية " .

٣ = اما العقيد " مايلز" المعتمد السياسى البريطانى فى مسقط فقد قام فى عام ١٨٧٥ بزيارة الى واحة البريمى ليضيف دليلا جديدا الى الدلائل الكثيرة القائمة على مدى قوة زايد الكبير فقد ارسل تقريرا الى لندن جاء فيه (٥٦):-

" ان القبيلة الرئيسية هى قبيلة بنى ياس وان رئيسها الشيخ زايد بن خليفة وهو رجل قوى الشخصية وهو الرجل الوحيد الذى يتمتع حقيقة بالنفوذ والسلطة فهو وقبيلته يتزعمان كل المناقشات فى البريمى " .

٤ = ويذكر لنا " بيرسى كوكس " الذى عاصر زايد وكان معتمدا سياسيا فى مسقط فى عام ١٩٠٢ ثم اصبح مقيما بريطانيا فى الخليج العربى وقد زار ابو ظبى مرتين عندما اصبح مقيما والتقى فى المرتين بزايد فيقول : (٥٧)

" نعتقد ان زايد يقوم بعمله بارادة الله وان الايمان وحده هو مصدر قوته وحالفه

الحظ كما حالف اسلافه فى تقويم الانكليز الصابرين لقوته وكان اكثر حظاً فى منازعاته او مصاعبه المحلية القليلة مع جيرانه السعوديين حول واحة البريمى الواقعة على حدود عمان وابو ظبى والعربية السعودية لقد بنى زايد الكبير نفوذ بنى ياس فى هذه الواحة مع ان هناك قبائل اخرى أكبر عددا كانت تدفع الجزية راضية لزايد".

ثم يقول :

" ظل زايد الكبير ابرز حاكم فى شرق الجزيرة العربية لثلاثين سنه وامتد نفوذه فى كل الاتجاهات وحالف الحظ ايضا بنى ياس عموما عندما بدأ زعماء القبائل البعيدة عنهم اميالا يطلبون وساطة زايد الكبير فقد عرف انه رجل ذو صداقات كثيرة بين البدو وانه صديق الجميع واستمد قوته باستمرار من اصوله وكان يتمتع بعاطفة عفوية طبيعية تجاه المعوزين والمضطهدين وقد جنى بنوياس الخير من امتنان القبائل الاخرى له " .

٥ = ويقول " كلارنس مان " والذى عاش فى الشرق الاوسط وهو ضابط ومؤرخ امريكى(٥٨) :

" بأن الشيخ الحالى لابوظبى ، زايد بن خليفه يحكم امارة حدودها مترامية الاطراف وهو اقوى شخصية فى امارات الساحل المتصالح ويمتد سلطانه الى البريمى وعبرى فى سلطنه مسقط

ثم يقول :-

" كان الشيخ زايد من الحكام الذين يزداد سمعتهم فى الشرق الاوسط فى تلك الفترة " .

٦ = اما المؤرخ البريطانى " جى . بى . كيلى " فيقول[٥٩] :

" بأن الطبيعة المطلقة لصلاحيات زايد فى المناطق الواقعة بين " الظفرة " و " الظاهرة " لم تتعرض لتحدى في السنوات الثلاثين الاخيرة من حكمه باستثناء هجمات شيخ قطر على " ليوا " فى الثمانينات من القرن الماضى وعودة آل سعود الي الحكم فى نجد في نهاية القرن . ولم يسبق لأى من حكام البوفلاج او غيرهم من شيوخ الساحل ان يمارس نفس السلطان الذى وصل اليه زايد فى شرق الجزيرة العربية ولايرجع السبب فى هذا الى شخصية الشيخ زايد وكفايته وحدهما ولاالى الظروف المحددة لهذه الفترة كعدم وجود قوة وهابية طاغية فى نجد وانما يرجع الى ان ابو ظبي كانت دائما القوة الاقليمية القيادية بين مشيخات الساحل " .

٧ = ويقول " حمدى تمام " مؤلف كتاب القائد والمسيرة :-[٦٠]

" ولقد قدر لهذا الحاكم ان يدير شؤون امارة ابو ظبى مدة طويلة مابين (١٨٥٥ - ١٩٠٩) كماقدر له ان يقوم بدور كبير فى حياة امارة ابو ظبى او فى تاريخ ساحل عمان حتى لقبه الجميع اجلالا وتقديرا " بزايد الكبير " بعد ان اصبح بلامنازع اقوى شيوخ الامارات المتصالحة وتقدمت البلاد فى عهده الى مصاف القوى الكبرى بفضل ادراكه للمتغيرات السياسية فى المنطقة " .

خامسا : وفاة زايد عام ١٩٠٩

وفى عام ١٩٠٩ توفي زايد الكبير وزعيم بنى ياس وقائد البوفلاج وزعيم القبائل الهنائية بعد ان حكم اربعة وخمسين عاما ثم دفن فى مقبرة تقع على سفح تل رملي صغير فى منطقة " البطين " قرب مركز شرطة النجدة الان وقد رثاه الشعراء من كل حدب وصوب وهذا الزعيم الذى دانت له ابوظبى والاقسام الشمالية من

سلطنة عمان فى منطقة " الظاهرة ؛ وكانت كلمته مسموعة لدى الشرقيين فى " الفجيرة " وحكام دبى والشحيين فى منطقة رؤوس الجبال " . وبلغت القوة العسكرية لابوظبى اقصاها فى عهده ولعل بعض هذه الابيات للشاعر النبطى على بن ديين الكلبى تروى لنا لمحات براقة من مناقبه :-(٦١)

بلغ سلامى والتحية بتعريف	ولاتستوى راعى حكى هبادى
رده بالى من بيته على بوحيباين معاطيف	بوشارع بين اللحية انقادى
ياولد منته اليود والكرم والضيف	يدك على شيخ الحضر والبوادى
قم انشر وأقبل الواصيف والصيف	قم اسرحوا وانتوا هداكم الهادى
مايلحق دونه عبير مواقيت	ودونه دراويز عليها رصادى
دونه غدير السلال سوافنا طيف	وحزب البحر دونه سوى سوادى
هل بالضيوف المأخذ وأبا المساليف	ولاهانهم وقت سفينه شدادى
صلاة ربى عهد لحلام والطيف	محمد المبعوث يوم الزحامى

لقد توفى زايد الكبير وترك شؤون امارة ابو ظبى وهى مثال للأمن والنظام امانة فى ايدى ابنائه واحفاده من بعده فقد اجتمع مجلس " البوفلاج " ومعهم شيوخ واعيان بنى ياس لانتخاب الحاكم الجديد ففوضوا الأمر الى ابنه الاكبر الشيخ خليفة ابن زايد ولكنه لم يكن راغبا فى الحكم والسيادة بل كان يفضل ان يعيش هادئا فى مزارعه فى مدينة العين وضواحيها فقرر المجتمعون ان تؤول المشيخة الى ابنه الثانى طحنون ، الذى حكم ثلاث سنوات ١٩٠٩ - ١٩١٢ وبعد وفاته عرض الحكم امارة ابو ظبى على الشيخ خليفه بن زايد مرة الثانية ولكنه رفض مثلما رفضها فى المرة الاولى(٦٢) فتولى أخوه حمدان والذى حكم فى الفترة من ١٩١٢ - ١٩٢٢ وبعدها حكم الشيخ سلطان بن زايد فى الفترة من ١٩٢٢ الى ١٩٢٦ وهووالد

الشيخ زايد حاكم ابو ظبى ورئيس دولة الامارات وبعد وفاة الشيخ سلطان خلفه فى الحكم اخو الشيخ صقر بن زايد والذى حكم من عام ١٩٢٦ الى ١٩٢٨ وبعد ذلك تولى الحكم الشيخ شخبوط بن سلطان بن زايد اكبر ابناء الشيخ سلطان بن زايد سنا فقد حكم ثمانية وثلاثين عاما من عام ١٩٢٨ الى عام ١٩٦٦ ثم تولى الحكم شقيقه الشيخ زايد بن سلطان بن زايد بن خليفه فى السادس من اغسطس عام ١٩٦٦ حاكم امارة ابو ظبى ورئيس دولة الامارات العربية المتحدة حاليا .

الهوامش :

١ - د . حسين محمد البحارنه - دول الخليج العربى الحديثه ص ٢٤

(2) Suzanne St. ALbans - GreenGrows The Oil - p.36

٣ - د . جمال زكريا قاسم - دولة الامارات العربية المتحدة (دراسة مسحية شاملة) ص ٤٧

(4) John Daniels - Abu Dhabi aportrait - p . 25

٥ - حمدى تمام - زايد بن سلطان ال النهيان ص ٢٤

٦ - فالح حنظل - المفصل فى تاريخ دولة الامارات العربية المتحدة جـ٢ ص ٥٦٩

٧ - ج . ج لوريمر - دليل الخليج - القسم التاريخى جـ٢ ص ١١٦٤

(8) John Daniels - op . cit p 25

٩ - د. فؤاد سعيد العابد - سياسة بريطانيا فى الخليج العربى جـ٢ص ٨١ .

١٠ - د. محمد مرسى عبدالله - دولة الامارات العربية المتحدة وجيرانها ص ١٣٥

١١ - فالح حنظل - المرجع السابق ص ٥٧١

١٢ - د . محمد مرسى عبدالله - المرجع السابق ص ١٣٥

١٣ - دار الهلال - بلادنا العربية - ابو ظبى ص ٥٧

١٤ - كلود موريس - صقر الصحراء ص ٢٤

١٥ - حمدى تمام - المرجع السابق ص ٢٥

(16) : John Daniels - op . Cit . p . 25

١٧ - ج . ج لوريمر - المرجع السابق ص ١١٦٤

١٨ - فالح حنظل - المرجع السابق جـ٢ ص ٥٧٦

(19) : Calvin H . Allen . Jr - Sayyids . Shets and Sultans p . 111

٢٠ - فالح حنظل - المرجع السابق جـ٢ ص ٥٧٦

٢١ - ج . ج . لوريمر - المرجع السابق ص ١١٦٥

٢٢ - فالح حنظل - المرجع السابق ص ٥٧٧

٢٣ - فاح حنظل - نفس المرجع ص ٥٧٨

٢٤ - د . فؤاد سعيد العابد - المرجع السابق ص ٨١ .

٢٥ - جون - بى - كيلى - بريطانيا والخليج جـ٢ ص ٢١٣

٢٦ - فالح حنظل - المرجع السابق جـ٢ ص ٥٨١

٢٧ - ج . ج . لوريمر - المرجع السابق جـ٢ ص ١٠٩٤

٢٨ - فاح حنظل - المرجع السابق جـ٢ ص ١٠٩٤

(29) : John Daniels Op.cit P . 25 .

٣٠ - بالنسبة للأمور السياسية والعلاقات الدولية يمكن الرجوع الى كتابنا عن علاقة زايد بالقوى المجاوره

٣١ - مانع سعيد العتيبه - اقتصاديات ابو ظبى قديما وحديثا ص ٣٠

٣٢ - " الهيرات " جمع كلمة " الهير " وهى مناطق خصبة فى قاع البحر يتواجد فيه محار اللؤلؤ بكثرة وهى عبارة عن حقول لمحار اللؤلؤ فى مياه الخليج العربى واهم " الهيرات " توجد قرب سواحل الامارات العربية المتحده والبحرين والكويت وبعض الجزر فى الساحل الشرقى من الخليج العربى وكذلك يطلق عليه عادة " المغاصات " .

٣٣ - حمدى تمام - المرجع السابق ص ٣٧

٣٤ - مانع سعيد العتيبه - نفس المرجع ص ٢٣

٣٥ - مانع سعيد العتيبه - نفس المرجع ص ٢٣

٣٦ - وزارة الاعلام والثقافة - ابو ظبى فى مسيرة التقدم ص ١٠

٣٧ - مانع سعيد العتيبه -المرجع السابق ص ٣٠

٣٨ - مانع سعيد العتيبه - نفس المرجع ص ٣٠

٣٩ - عوض العرشانى - حياة زايد ص ٨٥

٤٠ - وزارة الاعلام والثقافة - المرجع السابق ص ١٠

٤١ - وزارة الاعلام والثقافة نفس المرجع ص ١٠

٤٢ - د . محمد مرسى عبدالله - المرجع السابق ص ١٣٨ .

٤٣ - مركز الوثائق والدراسات - ابو ظبى بين الامس واليوم ص ٣٢

٤٤ - مانع سعيد العتيبه - المرجع السابق ص ١٣٦

٤٥ - مانع سعيد العتيبة نفس المرجع ص ٨٢

٤٦ - مركز الوثائق والدراسات - المرجع السابق ص ٣٢ .

٤٧ - Rose marieSaid Zahlan , The Origins of the united Arab Emirats , p . x . , 111 .

٤٨ - د . محمد مرسى عبدالله - المرجع السابق ص ١٣٦

٤٩ - د . محمد مرسى عبدالله - نفس المرجع ص ١٣٦ .

٥٠ - جى - بى - كيلى - الحدود الشرقية للجزيرة العربية ص ١٥٠

٥١ - د . محمد مرسى عبدالله - المرجع السابق ص ١٣٧

٥٢ - حمدى تمام -المرجع السابق ص ٣٦

٥٣ - د . محمد مرسى عبدالله - المرجع السابق ص ١٣٧

٥٤ - عوض العرشانى - المرجع السابق ص ٨٤ .

(55) John Daniales - O P . Cit . p . 35

٥٦ - كلود موريس - المرجع السابق ص ٢٥

٥٧- كلود موريس - نفس المرجع ص ٢٥

(58) : Clarence C . Mann - Abu Dhabi p . 62

٥٩ - جى . بى . كيلى - المرجع السابق ص ١٦٤

٦٠ - حمدى تمام - المرجع السابق ص ٣٥

٦١ - حمدى تمام - نفس المرجع ص ٣٥

٦٢- حمدى تمام - نفس المرجع ص ٣٦

المراجع باللغة العربية :

١ - حمدى تمام - زايد بن سلطان النهيان - القائد والمسيرة - ابو ظبى ١٩٨١

٢ - جى .بى . كيلى - (١) : الحدود الشرقية للجزيرة العربية - ترجمة خيرى حماد - منشورات دار مكتبة الحياه - بيروت ١٩٧١

(٢) : بريطانيا والخليج - ترجمة محمد أمين - وزارة التراث القومي والثقافة مسقط ١٩٧٩

٣ - ج - ج - لوريمر - دليل الخليج - ترجمة باشراف ديوان حاكم قطر - الدوحة - الطبعة الثانية - السنة غير مكتوبه

٤ - حسين محمد البحارنه - (دكتور) دول الخليج العربى الحديثه - اصدار شركة التنمية والتطوير - بيروت ١٩٧٣ .

٥ - جمال زكريا قاسم (دكتور) دولة الامارات العربية المتحدة - معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٧٨ .

٦ - دار الهلال - بلادنا العربية - " ابو ظبى " - القاهره

٧ - كلود موريس - صقر الصحراء - منشورات وزارة الاعلام والثقافة - ابوظبى ١٩٧٥

٨ - عوض العرشانى - حياة زايد - القاهرة ١٩٨٠

٩ - فالح حنظل - المفصل فى تاريخ الامارات العربية المتحدة الجزء الثانى - لجنة التراث والتاريخ ابو ظبى ١٩٨٣

١٠ - فؤاد سعيد العابد (دكتور) سياسة بريطانيا فى الخليج العربى - الجزء الثانى - ذات السلاسل - الكويت ١٩٨٤

١١ - مانع سعيد العتيبه - اقتصاديات ابو ظبى قديما وحديثا - مطابع التجارة والصناعة - بيروت ١٩٧٣

١٢ - محمد مرسى عبدالله (دكتور) دولة الامارات العربية المتحدة وجيرانها - دار القلم - الكويت ١٩٨١

١٣ - مركز الوثائق والدراسات - ابو ظبى بين الامس واليوم - ابو ظبى ١٩٦٨

١٤ - وزارة الاعلام والثقافة - ابو ظبى فى مسيرة التقدم - ابو ظبى ١٩٧٢.

المراجع الاجنبية :

(1) : Clarence .C .Mann - Abu Dhabi - khayats - beirut 1969 .

(2) : Calvin H . Allen , Jr . - Sayyids , Shets and Sultans :- politics and Iradein Masgat Under the Al Busaid , 1785 - 1914 - Ann Arbor Michigan 1984 .

(3): John Daniels - abu Dhabi a Portrait - Longman - London 1977.

(4) : Rosemarie Said Zahlan - The Origins of The United Arab Emirates.

The Macmillan - London 1978 .

(5) : Suzanne St Albans - Green Grows The Oil - London 1978 .

العرب فى مقديشو
وأثرهم فى الحياتين السياسية والثقافية فى ظل الإسلام

للدكتور : غيثان على جريس
استاذ التاريخ الإسلامى المساعد ورئيس قسم التاريخ بكلية التربية
فرع جامعة الملك سعود - بأبها

بسم الله الرحمن الرحيم

العرب فى مقديشو وأثرهم فى الحياتين السياسية والثقافية فى ظل الإسلام

كانت الشعوب العربية هى أهم الشعوب التى اتصلت بساحل شرقى أفريقية منذ القدم ، وابقاها أثرا فى تلك البقعة من القارة، وقد ساعد على ذلك عامل القرب الجغرافى لأن العرب بصفة خاصة هم أقرب الشعوب دون غيرهم من شعوب آسيا، فهم يواجهون ساحل شرقى أفريقيه مما ساعد على كثرة التردد بين سواحل شبه الجزيرة العربية الجنوبية بصفة خاصة وبين شرقى افريقية، كما ساعد نظام الرياح الموسمية فى المحيط الهندى على كثرة الهجرات لأن العرب نظموا رحلاتهم وفقا لنظام هذه الرياح، فكانت لهم رحلتان فى العام . وهناك العامل الأساسى الذى دفع العرب لارتياد سواحل شرقى أفريقيه، كما دفع غيرهم من الشعوب الآسيويه وغيرها وهو الأهمية الاقتصادية لشرقى افريقيه وما فيه من سلع وثروات .

ولقد كان لدول عرب الجنوب معين من حوالى (١٣٠٠ - ٦٥٠ ق.م) وسبأ (حوالى ٩٥٠ إلى حوالى ١١٥ ق.م) ثم دولة حمير (١١٥ - ٥٢٥ م) ، كان لهذه الدول النشاط الكبير فى الحركة التجارية البحرية والبرية، كما عملت هذه الدول على تنظيم طرق القوافل وتأمينها داخل الجزيرة العربية . كذلك كان لعرب الحجاز دور كبير فى ازدهار التجارة، وقد نوه القرآن الكريم برحلات قريش التجارية، وكان عرب الحجاز قد تمكنوا من السيطرة على ناصية التجارة بعد تدهور عرب الجنوب منذ القرن السادس الميلادى، وكان من نتيجة هذا النشاط العربى تقدم فنون الملاحة

وبراعة العرب فى هذا المجال. كما أن البحار الجنوبية صارت مألوفة ومعروفة عند العرب، وقد وصفها الرحالة الجغرافيون أدق وصف ، كما وصفوا نشاط العرب البحرى والتجارى، ومن هؤلاء ياقوت الحموى[١] والمسعودى[٢] .

تدفقت الهجرات العربية إلىَ شرقى افريقيه فى العصر الإسلامى لأسباب دينية وسياسية، فضلا عن العامل الاقتصادى الذى كان مسيطرا على معظم الهجرات. وقد أشارت الروايات أن الصومال عرفت الإسلام منذ ظهوره، ومع ازدهار الإسلام كدين ودولة ازداد النشاط البحرى وتوافدت على سواحل الصومال مجموعات ضخمة من دعاة الإسلام من عرب وفرس وغيرهم لانشاء مراكز عربية اسلامية ثابته لنشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية بين القبائل الافريقية فى سواحل الصومال الشمالية والجنوبية المطلة على المحيط الهندى، بل استطاع العرب المسلمون التوغل إلى داخل هذه البلاد لنشر الإسلام واللغة العربية بين قبائل الداخل ، وذلك بعد أن قام العرب بتأسيس مدينة مقديشو التى أصبحت مركز انطلاق جنوبا وإلى الداخل[٣] كما سيجىء تبيان ذلك .

تتابعت الهجرات العربية لنشر الإسلام فى الساحل الافريقى الشرقى منذ عهد الخلفاء الراشدين وازدادت أيام الأمويين والعباسيين، ونذكر من هذه الهجرات على سبيل المثال لا الحصر، هجرة الخوارج الذين حاربهم على بن أبى طالب وهزمهم فى موقعة النهروان[٤]. وهجرات بعض العرب الأمويين الذين اشارت الروايات بأن عبد الملك بن مروان هو الذى أرسلهم إلى تلك الجهات لتأسيس المراكز الإسلامية. وقد أفاضت الروايات فى ذكر هجرات الأمويين إلى الساحل، وأشارت إلى أن عبد الملك عندما تناهى إلى مسامعه أخبار الهجرات العربية إلى أفريقيه أرسل أخاه حمزة لنشر

الدعوة الإسلامية ومد محاولة نفوذ الأمويين فى الصومال . وفى رواية أخرى أن ابنه جعفر هاجر إلى شرقى افريقيه وحكم فى منطقة كيوايو Kiwayu (فى جنوب مقديشو فى ارخبيل لامو) وتوفى بها[٥] .

وتنسب الروايات تأسيس الامارات العربية الأولى فى شرقى افريقيه لعهد عبدالملك بن مروان ورجاله الشاميين الذين تسميهم الروايات بالشاميين Mashami أو الواشامى Washami، ويظهر أنهم وصلوا إلى شرقى افريقيه فى مجموعات صغيرة حوالى ٧٠٠ م أو قبله بقليل . وطبقا لما ورد فى الرواية أن عبد الملك هو العامل الأساسى الذى دفع العرب لتأسيس امارة عربية فى لامو Lamu . ويذكر ستايقند Stigand أن عبد الملك بن مروان قام بانشاء امارات عربية على ساحل شرقى افريقيه عندما أرسل مهاجرين سوريين عام ٧٧ هـ (٦٩٦م) لمد نفوذ الأمويين هناك[٦]. وقد نجح هؤلاء المهاجرون فى تكوين مدن تطورت وأصبحت امارات عربية هامة مثل بيت Pate أو باتا Pata ، ومالندى Malindi وممبسه Mombassa زنجبار Zanzibar . ويواصل صاحب كتاب «أرض الزنج The land of Zing» حديثه ويضيف بأن الروايات قد ذكرت بأن المراكز التالية أنشأها عبدالملك بن مروان وجعل على كل واحدة منها وليا عربيا يحكمها نيابة عنه وهى كما يلى: براوه Brawa تيولا Tula - أموى Omui - كيزمايو Kismayu قمبى Vambi - كوياما Koyama - شانقا Shanga - پازا Paza - بيت Pate ولامو Lamu[٧]. وما زال اسم عبدالملك بن مروان يذكر فى تلك الجهات لدرجة أن السكان قد حرفوا اسمه، فمثلا ينطقون عبدالمالك، أو ابن مروانى ومرد ذلك ، ضعف اللغة العربية وظهور اللغة السواحيلية[٨] .

وفى أواخر عهد الدولة الأموية كانت هجرة الزيود عقب مقتل زيد بن على زين العابدين عام ١٢٢ هـ (٧٤٠م) فرارا من اضطهاد بنى أمية لهم، وعرف هؤلاء بالزيديه. واستقرت هذه الجماعات كما أشارت المصادر فى ساحل بنادر الصومالى وحكموا فيه ما يقرب من المائتى سنة، ونشروا الإسلام بين قبائل بنادر، كما اصلحوا الأراضى، وزرعوا بعض النباتات التى أرفدتهم بثروات طائلة، ودرت عليهم أموالا هائلة. بل وتوغل الزيديه إلى داخل الأراضى الصومالية ونشروا الإسلام بين قبائل انهار جوبا وشبيلى من بينها قبائل الجالا التى اعتنقت الإسلام بحماس كبير بدليل أن كثيرا من الصوماليين من أفراد هذه القبائل قد أصبحوا فقهاء ووعاظاً واضطلعوا بنشر الإسلام بين القبائل الوثنية (٩) .

تأسيس مقديشو :

إلا أن الذى يهمنا فى هذا الجانب هو وصول أكبر الهجرات العربية والإسلامية إلى ساحل الصومال المعروف بساحل بنادر، وأعنى بهذه الهجرة، تلك الهجرة التى حدثت خلال العصر العباسى والمعروفة بهجرة الأخوة السبعة . فقد هاجرت هذه الجماعة العربية فى بداية القرن العاشر فى حوالى عام ٣٠١ هـ (٩١٣م) من الأحساء عاصمة دولة القرامطة(١٠) والاخوة السبعة من قبيلة الحارث العربية، جاءوا فى ثلاث سفن محملة بالرجال والعتاد الحربى. وقد نما إلى علم هذه الجماعة العربية أخبار الجماعات العربية التى سبقتهم إلى ذلك الساحل، وربما سمعوا عنها من التجار أو من جنود سعيد الجنابى، وقد كان فى صفوفهم جند من الزنج والأرقاء الذين جاءوا إلى الجزيرة العربية والعراق فى فترة من الفترات. ولذلك قررت هذه

الجماعات العربية أن تحذو حذو الهجرات العربية التى سبقتها، يراودهم الأمل العريض فى تكوين وطن جديد، وقد تحقق لهم ما أرادوا بفضل جهودهم[١١] .

إستولى الأخوة السبعة على كل سواحل بنادر بعد أن قاموا بتأسيس مدينة مقديشو التى جعلوها عاصمة لدولتهم الجديدة، فامتد نفوذهم حتى جنوبى ممبسه، وربما وصلوا إلى جزيرة مدغشقر. وقد وصف المسعودى هذه الجزيرة، وذكر أن فيها قوما من المسلمين، غلبوا على هذه الجزيرة، وسبوا من كان من الزنج كغلبة المسلمين على جزيرة اقريطش فى البحر الرومى[١٢] .

لم تمضى فترة طويلة على إستقرار هذه الجماعات العربية، حتى أصبح كل الساحل شافعيا على المذهب السنى، وذلك بعد أن اصطدم الاخوة السبعة بالزيديه الشيعة الذين اضطروا للانسحاب إلى الداخل. ولا يزال المذهب الشافعى هو السائد فى بلاد شرقى افريقيه. وقد اكتفى هؤلاء العرب على بسط نفوذهم فى المنطقة الساحلية فقط إذ أن الداخل لم يكن معروفا لديهم، أما لأنهم يجهلونه، أو لصعوبة التوغل، فسيطروا على الساحل ريثما يتم لهم كشف مجاهل افريقيه المختلفة[١٣] وكان من نتيجة هذه الهجرة الأخيرة أن بسطت مقديشو نفوذها، وساعدت العرب المسلمين على انشاء مواطن استقرار على طول الساحل الممتد من مقديشو فى الشمال إلى مدينة سوفالا فى الجنوب[١٤] .

لقد حكم الأخوة السبعة هذا الساحل فترة لا تقل عن السبعين عاما، وإليهم يرجع الفضل فى انشاء مدينة مقديشو - كما سبق القول - فظلت هذه المدينة تتزعم الحركة الإسلامية والمد الإسلامى فترة طويلة خلال العصور الإسلامية المختلفة فى ذلك الجزء. وفى الوثيقة العربية التى عثر عليها البرتغاليون فى مدينة كلوة Kilwa

(فى تنزانيا حاليا) عام ٩١٠ هـ (١٥٠٥م) أمكن معرفة الأخبار الهامة عن مدينة مقديشو فى القرون الأولى للهجرة ، منها أخبار البعثات العربية الإسلامية القادمة من الاحساء على ثلاث سفن بقيادة سبعة أخوة نزلوا فى ساحل الزاهيه (بنادر) وقاموا بتأسيس مدينتي مقديشو وبراوة [١٥] . وهاتان المنطقتان من أول المناطق التى وطأتها أقدامهم، وطاب لهم فيها المقام. وخضع لنفوذهم فى فترة وجيزة كل الشريط الساحلى الممتد من مقديشو حتى ممبسه، لدرجة أنهم وصلوا أماكن لم يصلها العرب من قبلهم، وقد كان الأخوة السبعة من عرب الاحساء[١٦] .

وجاء أيضا فى وصف دى باروس De Baros لمقديشو، أن تأسيسها قد تم على أيدى جماعة عربية من الاحساء هم جماعة الاخوة السبعة، وأصبح لها وزنها وكيانها، ولها نظمها. وأصبحت مقديشو مركزا يتجمع فيه كل المسلمين الوافدين إليها من كل جهات الساحل، وهى أول امارة تحاول بسط سيطرتها ونفوذها التجارى على طول الساحل جنوبا حتى سوفالا[١٧]. وتذكر الرواية كذلك بأن تاريخ تأسيس مقديشو ربما كان فى عام ٣٠١ هـ (٩١٣م) . وتضيف الرواية أن على بن حسن الشيرازى مؤسس سلطنة الزنج الإسلامية فى كلوة عام ٩٧٥/٩٧٦م قد مر بمقديشو فعلا، إلا أن المقام لم يطب له فيها، لوجود جاليات عربية متعددة، فواصل زحفه حتى وصل إلى جزيرة كلوه حيث أسس له دولة إسلامية هناك، كان العنصر الفارسى فيها هو دعامتها وسندها. ويذكر أيضا أن بعض المهاجرين العرب قد هاجروا من عمان إلى ساحل أفريقيه الشرقى، وأن قبيلة الحارث من عمان أدعت تأسيس مراكز لها فى مقديشو وبراوة[١٨] .

ومهما يكن من أمر فإن مدينة مقديشو أسسها جماعة الاخوة السبعة من قبيلة

الحارث العربية من الاحساء في الطرف الغربي للخليج العربي، وقد وصلوها في عام ٣٠١ هـ (٩١٣م) وذكر ياقوت أن مقديشو مدينة في أول بلاد الزنج في جنوب اليمن في بر البربر في وسط بلادهم[١٩].

ويقول أبو الفداء أن مقديشو تطل على بحر الهند وأهلها مسلمون، ولها نيل عظيم يشبه نيل مصر في زيادته في الصيف. وقد ذكر أنه يخرج شقيقا لنيل مصر من بحيرة كورا، ويصب بالقرب من مقديشو في بحر الهند. ومقديشو مدينة كبيرة من الزنج والحبشة، قال ابن سعيد عن مقديشو: ومن شرقي خافوني بالنون في الآخر المشهور على البحر مدينة مركه وأهلها مسلمون وهي قاعدة الهاوية التي تزيد على خمسين قرية، وهي على شطي نهر يخرج من نيل مقديشو، ويصب على مرحلتين من المدينة في شرقيها، ومنه فرع يكون خورا لمركه، وفي شرقي ذلك مدينة الاسلام المشهورة في ذلك الصقع المترددة على ألسن المسافرين وهي مقديشو[٢٠].

وموقع مقديشو من أصلح مواقع الساحل لرسو السفن. وقد عرفه المصريون القدماء، وأهل بابل وآشور. والفينيقيون والرومان وكان يعرف عند الاغريق منذ ألفي عام باسم سيرابيون Serabion[٢١]. وعرف في العصور الوسطى باسم حمر Hamer وقد أتاح لها هذا الموقع القريب من خليج عدن التحكم في مدخل البحر الأحمر إلى حد كبير، والسيطرة على الحركة التجارية في المحيط الهندي. فكانت ترد لهذه النقطة سفن الجزيرة العربية محملة بأنواع المنتجات والسلع، وتأتي سفن الهند وغيرها من بلدان آسيا عبر المحيط الهندي، وتنقل هذه المنتجات إلى الحبشة وعبر البحر الأحمر إلى مصر شمالا وجنوبا حتى سوفالا[٢٢].

وتتضارب الآراء نحو تفسير اسم المدينة «مقديشو»، فمن قائل أنها من كلمتين

عربية وفارسية وهما (مقعد + شاه) ، اشارة إلى المكان المفضل الذى اتخذه الحاكم مقرا لحكمه، ونطق الكلمتين معا[٢٣] . أو نسبة للمكان الذى اتخذه الشيخ مكانا لجلوسه (مقعد الشيخ)[٢٤] والبعض يقل أن كلمة مقديشو معناها المكان الذى تتجمع فيه الأغنام للبيع[٢٥] وعبر عنها الرحالة الغربيون بأسماء مختلفة مثل: موجوديشيو Mougidishu وموجود سكوا Mougoudiskua - وموجاديشوا Mougadishu ومقدشيكو Makdishiku ومقد يكسو Magdiksu[٢٦]، أو مجدكسو Magdiksu [٢٧]، وكل حسب نطقه[٢٨] .

أما عن أقسام المدينة وأحيائها، فقد كانت مقديشو فى بداية نشأتها تتكون من ضاحيتين أساسيتين هما ضاحية حمروين، وضاحية شنفانى [٢٩]. وكانت ضاحية حمروين تمتد على طول الساحل من كران إلى ساحل حمر، أي المكان المعروف باسم حمر جب[٣٠]. أما ضاحية شنفانى، فهى مشتقة من اسم حى كان فى نيسابور ببلاد فارس، وقد سميت بهذا الاسم تخليدا لذكرى أهل نيسابور القاطنين بمقديشو. وكلمة حمروين، مركبة من كلمتين عربية وصومالية: فحمر معناها ذهب، وكلمة وين معناها بالصومالية كثير أو كبير[٣١] .

شكل الحكومة :

واجهت جماعة الأخوة السبعة العربية فى بداية أمرهم على الساحل بعض الصعوبات أهمها أن الزيديه الشيعة الذين كانوا قد سبقوهم، واستولوا على أجزاء من ساحل بنادر واستوطنوا حول ارخبيل لامو قد بدأوا فى نشر مبادئهم وأفكارهم، ولا سيما وأنهم كانوا من الشيعة المتعصبين لهذا المذهب، بينما كان الأخوة السبعة

على المذهب السنى الشافعى. وقد دافع الزيود عن عقيدتهم دفاع المستميت، وحاربوا جماعة الاخوة السبعة بكل ضراوة ، إلا أنهم غلبوا على أمرهم فى النهاية وهزموا أمام الاخوة السبعة أخيرا عام ٣٣٠ هـ (٩٤٨م)[٣٢] .

وبعد أن تغلب الأخوة السبعة على الصعاب التى واجهتهم فى بداية أمرهم، بدأوا فى وضع الأسس والتشريعات المختلفة التى تكفل لهم الاستقرار والحياة الكريمة. فتكون مجلس من كبار العرب، وأعضاؤه اثنا عشر شخصا يرأسهم شيخ لا يحمل لقب سلطان أو ملك، ويسمى هذا المجلس باسم «مجلس المدينة» ، وكان هذا النظام أفضل نظام طبقه العرب المسلمون فى ساحل بنادر فى العصور الوسطى، ويتمتع هذا المجلس بكل السلطات، وله حق النظر فى القضايا المدنيه والجنائية وفض المنازعات. وكان بجانب هذا المجلس مجالس فرعية فى كل حى من أحياء المدينة، وهى فى شكل طائفة تخضع لشيخها الذى يتولى أمرها، ويقوم باكرام الغرباء وقضاء حاجاتهم[٣٣] .

وباتساع المدينة حدث ترابط بين السكان العرب والصوماليين، وبموجب اتفاقية ابرمت فى القرن العاشر بين العرب والفرس من جهة، والقبائل الصومالية من جهة أخرى، تكون اتحاد على صورة مجلس من الاشراف وأعيان القبائل للنظر فى أمور البلاد . والقبائل التى تكون منها ذلك الاتحاد كانت نحو تسع وثلاثين مجموعة وهى مجموعة قبائل عربية وفارسية وافريقيه تفاصيلها كالآتى :

اثنى عشر عشيرة من قبيلة مكرى Mukri ، واثنى عشر من قبيلة جيداتى Djidati ، وستة من أكابى، وستة من الاسماعيلى، وثلاثة من عفيفى Afifi [٣٤].

كان اختصاص هذا المجلس هو حفظ الأمن، وتطبيق العدالة بين الجماعات،

ووضع حد لهجمات بعض القبائل الرعوية الصومالية على التجار من العرب والفرس، وبالتالى لمواجهة غزاة آخرين كانوا يأتون من البحر. وتم هذا الاتحاد بعد أن أصبحت مقديشو عاصمة لساحل بنادر الذى ضم هذه المشيخه واماراتها التابعة لها مثل مركه وبراوة التى سيجىء تفصيلهما، هذا بالاضافة إلى الأراضى المحيطة بهم. وكان يطلق على جميع هذه الأراضى (مقاديش)[٣٥] . وعرف أحيانا سكان هذه الجهات باسم سكان بنادر وبضائعهم بأسم بضائع بنادر[٣٦] .

لقد استمر مجلس هذه المشيخه والممثل فى سلطة الشورى بين العرب والفرس والصوماليين نحو أكثر من مائتى عام على ذلك النحو، حتى انتخب أبو بكر فخر الدين عام ١١٠٠م حاكما على جميع أراضى هذه البلاد، وهو من سلالة الأخوة السبعة بتعضيد من قبيلة بنى قحطان العربية التى أصبح لها النفوذ والسيادة، وبذلك أصبح اعلان سلطنة أبى بكر فخر الدين الوراثيه نهاية لعهد الادارة الفدراليه والتمثل فى مجلس المدينة الذى سبقت الاشارة إليه[٣٧] . وفى عهد أبى بكر فخر الدين احتفظت قبائل قحطان ومكرى بنفوذها ومكانتها الدينية الممتازة، لأن قاضى الوحدة قبل قيام السلطنه التى أسسها أبو بكر فخر الدين كان يختار من بين أبناء هاتين القبيلتين. وبفضل قبائل قحطان ومكرى استطاع أبو بكر فخر الدين أن يقيم سلطنة وراثيه فى مقديشو، كما أقر السلطان أبو بكر قبائل مكرى على امتيازاتها[٣٨]. وقد استمر حكم أبى بكر فخر الدين سبعة عشر عاما حتى توفى عام ١١١٧م[٣٩] .

امارات المشيخة :

كان امتداد مقديشو واتساعها قد غطي على جميع أجزاء الساحل المعروف بساحل الزاهيه (بنادر) ، وذكرت الوثيقة أن سكان مقديشو أول من وصل إلي بلاد سفاله فى موزمبيق، وأن سفنهم كانت تتردد على بلاد سفاله (سوفاله) Sofala لاكتشاف مناجم الذهب الموجودة فى تلك الجهات واستغلالها. وأشارت الوثيقة أيضا إلى هجرات قوامها من الفرس المسلمين جاءت إلى مقديشو حاملة معها معالم حضارة فارس(٤٠) .

أما أكبر الامارات التى خضعت لسيادة مقديشو وسيطرتها فهى مركه Maraka التى خضعت لسيطرة الأخوه السبعة ونفوذهم منذ الوهلة الأولى. ومركه من مجموعة المدن العربية التى نسب تأسيسها ستايقند Stigand إلى عبد الملك بن مروان (٤١). حتى إذا جاء الاخوة السبعة إلى الساحل جعلوها من أكبر مدنهم السياسية. وحتى يومنا هذا توجد طوائف فى مركه تدعى انتمائها إلى الأخوة السبعة(٤٢). ويقول أبو الفداء عن ابن سعيد أن مركه أهلها مسلمون(٤٣) . ومن الواضح أن سكان مركه اعتنقوا الاسلام بالقرب من حافون(٤٤) .

ومما يذكر أن جماعة الأخوة السبعة أتوا فى مراكب شراعية ورسوا فى ساحل مركه، وشيدوا لهم مسجدا صار فيما بعد مركزا لكثير من الأسر الصوماليه. وتتابعت هجرات العرب لتلك الجهة، حتى أن الكثير من الأسر الموجودة حاليا تدعى نسبها إلى الجماعات الأولى التى جاءت إلى مركه من بلاد العرب ، كما هو الحال عند كثير من الأسر فى الوقت الحالى فى كل من براوة ومقديشو(٤٥) . ومن المحتمل أن مدينة مركه قامت كمركز تجارى يقع على الطريق بين شمال وجنوب

الصومال، وأن سكانها كانوا فى بداية الأمر من العرب ثم صارت تمتلىء بالعنصر الصومالى فى كل مكان[٤٦] .

وتتمتع مدينة مركة الجميلة النشيطه بمركز ممتاز لموقعها الجغرافى وكثرة خيراتها. وفى الوقت نفسه تقع على الطريق البحرى التقليدى بين زنجبار وبلاد العرب. وقد حققت مركه مكاسب كثيرة للاسلام فى شرقى افريقيه، بالاضافة إلى المساهمة الفعالة فى نشر الدعوة الإسلامية على طول الساحل الصومالى وفى الأقاليم الداخلية[٤٧] .

أما امارة براوة Brawa فهى الأخرى امارة عربية خضعت لحكم الأخوة السبعة وجماعتهم من بعدهم. واجمعت بعض الروايات أن الذين اسسوا براوة هم جماعة عبد الملك بن مروان من السوريين المهاجرين[٤٨]، ثم جاء الأخوة السبعة من بعد ذلك وأضافوا عليها فنونهم، ثم توسعت المدينة فى عهدهم، فانتشر العمران واتسع البناء[٤٩]. وبراوة تقع فى شمال نهر جوبا وجنوبى مركه. وهذه الامارة لم يذكرها أحد من جغرافى العرب أو رحالتهم، وهى مدينة هامة كانت تعتمد عليها مقديشو فى أنها تلعب دور الوسيط بينها وبين الامارات العربية فى جنوبها .

وتنقسم مدينة براوة إلى عدد من الأحياء هى : بغداد، البمبا، بيرونى، سابى، وبلوبازى ، وأكثر منازلها من الحجارة البيضاء ، ومن طابق إلى ثلاثة أحيانا ، ومياؤها عذبه[٥٠] . وفى مسجد براوة نقشا يتضمن تاريخا يرجع إلى القرن التاسع الهجرى[٥١]. ويقال أن أول من سكنها رجل من قبيلة قرة يدعى (أو على) وصلها حوالى عام ٩٠٠م، وكانت براوة فى ذلك الوقت منطقة موحشه غابيه لا تسكنها إلا الوحوش الضارية، غير أن أو على أعجب بطيب هوائها على ساحل البحر، فاستعان

بالمواطنين الأوائل فى قطع اشجارها واعشابها، واقام بها عددا من المساكن أطلق عليها براوة بن أو على[٥٢] . ويقال ان هذا الاسم كان يطلق على ملك الجالا براوات[٥٣] وهناك رواية أخرى تشير إلى أن بعض أفراد قبيلة حاتم الطائى فى الجزيرة العربية قد استوطنت براوة فى فترة من الفترات، وقد وصلت إليها عام ٩٠٠م ، وقد ازداد سكان المدينة بوصول جماعات أخرى منها جماعات صومالية مسلمة عرفت باسم التن من سكان الساحل، وعمروا المساجد، وأقاموا كثيرا منها فى الداخل. ثم توافدت عليهم جماعات وردان أى الجالا، وقد قدموا مع ملكهم براوات. وأقام الجالا جنبا إلى جنب مع المسلمين نحو ثلثمائة عام. وكان بالقرب من براوة جماعة الأجوران (قبائل زنجية) التى امتد نفوذها على بعض أجزاء براوة، فاعلن التن الحرب عليهم، وكان للتن الانتصار على الاجوران. وانتهت المفاوضات بينهما على أن يبقى الاجوران فى الجانب الشرقى، ويحتل التن الجانب الغربى له، كما تعاهدوا فيما بينهم على ألا يدخل البلاد غير الحيوانات، وما عدا ذلك فكل قادم مصيره القتل. إلا أن تلك الاتفاقية لم يكتب لها الدوام كثيرا، إذ وصلت جماعة من الحمرانيين الصومال على سفن إلى براوة، وسكنوا مع التن فى سلام ومحبة[٥٤] .

اضمحلال سلطنة مقديشو :

منذ نهاية القرن العاشر بدأت مشيخة مقديشو فى التدهور والانحلال نتيجة الانقسام الداخلى فى حكومتها المركزية، هذا بجانب ضعف الروح العسكرية، وتفكك القوات، حتى إذا جاء الشيرازيون الفرس إلى الساحل لم يجدوا سوى قوة

عسكرية ضعيفة، ومشيخة تمزقها الخلافات، فضلا عن عدم اتحاد امارات المشيخة ووقوفها قوة واحدة ضد الشيرازيين الفرس الذين وصلوا إلى مقديشو ومركه وبراوة تحت زعامة على بن حسن الشيرازى، وتمكنوا من الاستيلاء على هذه الامارات فى سهولة ويسر، ثم واصلوا زحفهم جنوبا إلى كلوة حيث أسسوا سلطنة الزنج الإسلامية. إلا أن الشيرازيين الفرس ابقوا على كل النظم الموجودة فى تلك البلاد التى استولوا عليها دون تغيير، واكتفوا بوضع حاميات عسكرية قوية وفرضوا على تلك المدن الجزية التى تدفع بسنويا. ولم يقدر للشيرازيين الفرس البقاء فى مقديشو ومركة وبراوة بل زحفوا جنوبا، وذلك لأن تلك المناطق التى تركوها لم تكن صالحة لاستقرارهم، إذ أن الأمطار لم تكن غزيرة، فأبحروا جنوبا إلى كلوة وأسسوها[٥٥].

وفى القرن الرابع عشر جاءت أسرة المظفر وهى من قبيلة بنى نبهان العربية الذين كانوا يحكمون فى عمان وعاصمتها مسقط، وقد أصابها الاضمحلال والتفكك، وذلك عندما قامت بعض القبائل العربية الأخرى بطردها عن حكم مسقط، فأدى ذلك إلى فرار سليمان بن المظفر إلى ساحل شرقى افريقيه حيث أسس امارة عربية فى بيت Pate عام ٦٠١ هـ (١٢٠٣م) ، واستطاعت هذه الامارة أن تبسط سيطرتها على مقديشو حوالى ٧٤٠ هـ (١٣٣١م) وان تخلف أسرة فخر الدين التى خضعت لسلطان الشيرازيين منذ عام ٩٧٦م. وكان الرحالة ابن بطوطه قد زار مقديشو فى عام ١٣٣٠م / ١٣٣١م وذلك فى أثناء حكم ابى بكر بن الشيخ عمر بن المظفر، وذكر وصفا ضافيا لأحوال مقديشو الاجتماعية[٥٦] .

وفى عهد هذا الشيخ بلغت مقديشو ذروة مجدها فى القرن الرابع عشر الميلادى، ووصفها ابن بطوطة بأنها متناهية فى الكبر ولها صلات اقتصادية وثيقة مع مصر.

وقد ظلت مقديشو أقوى مدن الساحل فترة من الزمن، وذكرت فى حوليات الصين ولاسيما في عهد أسرة منج Ming ، وتجارتها مع الصين رائجه . ولاحظ فاسكو داجاما أنها مدينة عظيمة(٥٧) . وفى عهد السلطان أبى بكر بن عمر انتظمت أمور البلاد، وعم الرخاء ، وامتد نفوذ مقديشو التجاري الذى كان يضم مركه وبراوة كذلك حتى سوفالا فى أقصى جنوب الساحل .

لما وصل البرتغاليون إلى الساحل الشرقى لافريقيا، وتأكد لداجاما أهمية هذا الساحل، بدأوا فى توجيه ضرباتهم إلى المدن العربية والإسلامية على طول هذا الساحل، فاستولوا على كلوة عاصمة سلطنة الزنج، ثم واصلوا زحفهم شملا حتى وصلوا إلى مقديشو التى تعرضت لضربات البرتغاليين، ذلك أن البرتغاليين عندما وصلوا إلى مقديشو عام ١٤٩٨م وجهوا نيران مدافعهم نحو هذه المدينة وذلك فى أيام الشيخ فخر الدين حاكم مقديشو، إلا أن البرتغاليين لم ينجحوا فى الاستيلاء عليها بفضل حصونها المنيعة، ومقاومتها العنيدة الباسلة، مما جعل البرتغاليين ينصرفون عنها بسرعة(٥٨) .

لقد كانت الأحوال فى مقديشو تختلف عن غيرها من امارات الساحل، فقد قاومت جميع المحاولات التى بذلها البرتغاليون لاخضاعها، ولا سيما حينما حاولت البرتغال فى عام ١٥٠٧م غزوا مقديشو بكل ما لديها من قوة وامكانيات. إلا أن مقديشو قاومت كل محاولات البرتغاليين اليائسه بفضل وجود العنصر العربى الذى ساعد على المقاومة، بالإضافة إلى أنها تمتعت بمناعة أسوارها وحصونها، واشتهرت بثروتها الضخمة وكثرة عدد سكانها، فلذا كانت مركزا للمقاومة طيلة المائتى سنة التى قضاها البرتغاليون فى هذا الساحل. وفى المرات القليلة التى حاول فيها

البرتغاليون ضرب مينائها بالمدافع والنزول بها، صمدت هذه المدينة الباسلة ، وكان دفاعها قويا وصامدا. وذكرت المصادر البرتغالية بأن مقديشو من أقوى امارات الساحل، وتدعمها قوات ضخمة من الفرسان. لذلك كانت مقديشو هى المشيخة الوحيدة التى لم يستطع البرتغاليون اخضاعها، بل كانت تناصبهم العداء طوال مدة اقامتهم على الساحل(٥٩). وكان شيوخ مقديشو ورؤساء القبائل فيها قد بعثوا برسائل منهم إلى سلطان عمان، صاحب أقوى بحرية فى مياه البحار الشرقية يطلبون منه حق الإسلام والجوار، وذلك عندما تزايد الضغط البرتغالى على مقديشو، فكانت استجابة سلطان عمان سريعة وحازمة، إذ قدمت قوى بحرية عمانية بقيادة الأمير سالم الصارمى عام ١٠٦٧هـ (١٦٤٠م) لمعاونة اخوانهم مسلمى مقديشو وملحقاتها، وابعاد النصارى البرتغاليين عن تلك السواحل. فكان الانتصار لقوى المسلمين، والهزيمة للقوى البرتغالية. وقام أهل مقديشو بتنصيب الأمير سالم الصارمى سلطانا على مقديشو وملحقاتها فترة من الزمن لتنظيم أمورها. وقد ارتبطت سلطنة مقديشو منذ ذلك التاريخ بسلطنة عمان اقتصاديا وسياسيا وحربيا، كما كان لأئمة مسقط وسلاطينها نفوذ فى منطقة بنادر وعاصمتها مقديشو حتى مطلع القرن الثامن عشر(٦٠) .

معالم الحضارة والثقافة الإسلامية فى مقديشو :

كانت القبائل العربية التى هاجرت إلى مقديشو وملحقاتها تحمل معها دينها ولغتها، وكانوا يختلطون بالسكان وينقلون إلى لغات هذه البلاد الكثير من كلماتهم خصوصا ما كان منها متعلقا بأمور الدين. وقد ظلت اللغة العربية هى لغة التسجيل والتدوين والمراسلات فى العهد والاتفاقيات وغير ذلك سواء فى الساحل أو مع الدول الخارجية .

ومنذ فجر التاريخ والقلم العربى هو القلم المعروف فى الساحل دون غيره. والمعروف أن أسس الثقافة هى طريقة التعبير إلى اللغة، واللغة العربية اختلطت بلهجات قبائل الساحل الافريقيه عشرات القرون، وتوالد عنها لغة جديدة هى اللغة السواحيلية، كما أصبح الدين الإسلامى أساسى التشريع والقضاء ومصدر القيم الروحية .

وحظيت علوم الدين بنصيب وافر من العناية والخدمة فى الصومال وأثيوبيا، وقد عنى أهلها بكتاب الله حفظا وتجويدا وتفسيرا، فقد كان حظهم من هذه العلوم كبيرا كما كان نصيب اللغة العربية جزيلا وافرا، وازدهرت العربية وعلومها على أيديهم، وتركت أثرها القوى فى الساحل الصومالى وخاصة حول لامو(٦١). وصارت براوة(٦٢) بالقرب من مقديشو كجزيرة عربية كعبة المعرفة، ويأتى إليها طلاب العلم من الأماكن النائية لشهرة علمائها وتفوقهم فى الدين. وقد حملت مساجدها اسماء الخلفاء عمر وعثمان وعلى، وانتشر بها شيوخ الصوفيه ومنها القادرية والادريسيه والزيلعيه والاحمدية(٦٣) . ومن ثم اعتبرت براوة. كعبة المعرفة والهداية فى ساحل بنادر واجزاء الساحل الأخرى، وأصبح فى براوة وحدها أكثر من خمسة وعشرين

مسجدا عدا الزوايا فعددها كبير[٦٤] .

لقد نفخ المسلمون فى سكان الصومال حب الأدب وفنون الشعر، وخرج هولاء شعراء وخطباء مفوهون، وأصبح لهم أدبا يعتزون به. وبرز كثير من العلماء والشعراء والأدباء باللسان العربى كالفقيه البليغ فخر الدين أبى عثمان بن على بن محمد البارعى الزيلعى الذى قدم القاهرة من مقديشو فى القرن الرابع عشر، ونشر الفقه فيها ومات بها، وله كتاب سماه «شرح كنز الوثائق» ومن المؤرخين الصوماليين باللسان العربى شهاب الذين الملقب بعرب فقيه وله كتاب فتوح الحبشة[٦٥]. ومن الأدباء البارزين عبد الله منير الزيلعى[٦٦] .

أما عن أشهر دعاة الإسلام فى مقديشو خلال فترة العصور الوسطى حتى نهاية القرن الثامن عشر فنذكر منهم على سبيل المثال، الشيخ أبادير التى تذكر عنه حوليات مقديشو أنه جاء من الجزيرة العربية فى خلال القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) واستقر فى مملكة عدل (زيلع) ثم دخل هرر التى أصبحت بفضل جهوده قاعدة اسلامية لنشر الدعوة فى الصومال واثيوبيا. ويذكر ابن حوقل ان أهالى زيلع، كانوا مسيحيين فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى، ولكن أبا الفداء يذكر أنهم كانوا مسلمين فى القرن الرابع عشر، وقد يكون هذا التحول إلى الإسلام بفضل الشيخ أبادير الذى بشر بالإسلام، ودعا إليه بين أهل زيلع فى القرن العاشر[٦٧] .

ومن دعاة الإسلام كذلك أربعة وأربعون شيخا وفدوا من حضرموت إلى مقديشو وبراوة ومركة لنشر الدعوة الإسلامية، فنزلوا أول مرة فى مدينة بربرة على ساحل الصومال الشمالى، واستقروا بها فترة قصيرة، ثم نزلوا جنوبا إلى مقديشو وبراوة ثم انتشروا فى البلاد . واستطاع أحدهم وهو الشيخ الوقور إبراهيم أبو زرباى أن يسلك

طريقه إلى مدينة هرر حوالى عام ١٤٣٠ حيث قام بنشر الدعوة وانشاء المساجد، وما زال قبره معظما فى المدينة إلى يومنا هذا[٦٨] .

أما أشهر الدعاة الصوماليين وأبرزهم، فهو المجاهد الكبير أحمد بن إبراهيم الجران (أو أحمد بن جرا الملقب بالأشول أو الأعسر) . الذى ظهر فى القرن السادس عشر، واحدث تحولا كبيرا فى نشر الدعوة الإسلامية واتسم جهاده بالبطولة والفدائية. فقد قام هذا المجاهد الكبير بتحرير الأراضى الصومالية من نفوذ النصارى الأحباش، فانطلق من مقديشو، وجعل منها قاعدة ليبدأ منها الجهاد فى سبيل الله. وبذل أحمد بن جرا جهودا جبارة من أجل توحيد الجبهة الإسلامية والقيام بغزوات على التجمعات المسيحية والمقاطعات الحبشية التى تقوم بغزو أراضى المسلمين فى الصومال بزعامة بطارقتها، بل استطاع الصوماليون بقيادة هذا المجاهد الكبير أن يصلوا إلى أبواب العاصمة الحبشية، بل وتمكنوا بقيادته أن يضموا بلاد جديدة داخل الحبشة المسيحية دخلت فى الإسلام وتحمست له. لذلك يعتبر الإمام أحمد بن جرا علما من اعلام المسلمين فى بلاد أفريقية الشرقية، ومجاهدا كبيرا فى نشر الدعوة والثقافة الإسلامية[٦٩] .

استمر الدعاة يتدفقون على بلاد الصومال إلى زمن قريب، ففى عام ١٨٣٠ وفدت جماعات من الوهابيين النجديين من الجزيرة العربية واستقروا فى بلدة بارديرا، وقاموا بتنظيم دعاية قوية كان لها النجاح فى حالات كثيرة إلى الإسلام. ومن المجاهدين والدعاة المسلمين نذكر أيضا المجاهد والداعية محمد عبد الله بن حسن، وهو من المجاهدين الصوماليين الذين ظهروا خلال القرن التاسع عشر، وحارب المبشرين، ودعا إلى الكفاح المقدس تحت راية الإسلام، ووحد كلمة المسلمين فى

الجهاد[٧٠] . وبالطبع يضاف إلى هذه الأدوار ، دور الطرق الصوفية التى قامت بنشر الدعوة الإسلامية، وتفسير تعاليم الإسلام، بالإضافة إلى محاربة البدع، والعمل على جعل المسلمين أخوة متحابين فى الله .

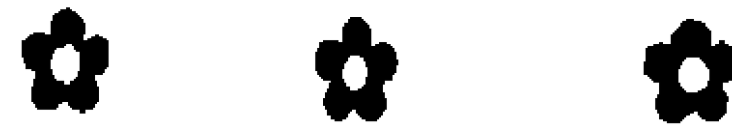
توالت الهجرات الإسلامية ودعاة الإسلام خلال عصور التاريخ الإسلامى المختلفة فخرج كثير من الصوماليين والأثيوبيين لطلب العلم، فخرجوا من مقديشو وبراوة وغيرها لطلب العلوم الدينية فى مكة والمدينة المنورة والقيروان وفاس وطرابلس والقاهرة وصنعاء. وإذا ما تحصلوا على علومهم ومعارفهم فى أحوال المسلمين، وتعاليم الإسلام، عادوا إلى بلادهم كدعاة للإسلام . وعلى ذلك ازدهرت بهم مراكز الثقافة الإسلامية فى هذه البلاد الافريقية. ونهضت بدور فعال فى نشر الثقافة والدعوة الإسلامية .

وكان لابد أن تتطور مراكز الدعوة الإسلامية مع مرور الزمن وأن تزداد الهجرات العربية الإسلامية من ناحية، ويزداد نشاط الدعاة فى الصومال واثيوبيا من ناحية أخرى، فهو عمل مشترك بين القادم الداعى وبين المستقر الموجهة إليه الدعوة، فتحولت المدن الصغيرة إلى مدن زاهرة تمثل حلقة تمتد من مقديشو فبراوة ومركه وهرر إلى أوفات وبقية الإمارات الإسلامية (دول الطراز الإسلامى) فى الحبشة. ويمكن معرفة مدن انتشار الإسلام وتلاقى هذه المراكز فى توحيد الجبهة الصومالية الإسلامية حتي أصبحت الصومال دولة اسلامية خالصة. وبالاضافة إلى المراكز الإسلامية الكبرى المشار إليها والتى نهضت بدور كبير فى حمل الثقافة والتراث الإسلامى ونقله إلى جهات مختلفة فى الساحل ثم إلى الداخل الأفريقى، وكان أثر مقديشو فيها بارزا. وظهرت مراكز إسلامية أخرى تأثرت بالنهضة الثقافية فى

مقديشو وملحقاتها، واسهمت هذه المراكز هى الأخرى بدور كبير فى الدعوة إلى الإسلام ونشر الثقافة الإسلامية ، ومن أهم هذه المراكز : حافون ووار شيخ وعظلة وكسمايو وبارديرا ولوخ وبيدوة وبربرة[٧١] .

والجدير بالذكر أن العرب نقلوا إلى هذه البلاد بالاضافة إلى ثقافتهم وتراثهم، فإنهم نقلوا أيضا نظام الشورى الإسلامى، وكانوا فى بداية أمرهم أقرب بذلك إلى نهج الخلفاء الراشدين. ففى مقديشو أدخلوا نظام الشياخة كما سبق القول، وهو نظام عربى قديم يعتمد على عراقة النسب والكرم والشجاعة والمروءة . وهذا النظام نقله الأخوة السبعة الذين أسسوا مقديشو، لذلك أصبح الحكم فى أيام الأخوة السبعة يعتمد على الشورى. وكان أساس الانتخاب لمنصب الشيخ هو السن والفضائل. يقول ياقوت عن سكان مقديشو: انما يدبر امورهم المتقدمون منهم[٧٢] . وفى وضع أخر يقول: وهم مسلمون لا سلطان عليهم، لكل طائفة شيخ يأتمرون له[٧٣]. وبجانب منصب السلطان والشيخ فى مقديشو، فقد وجدت مناصب أخرى رفيعة تلى الشيخ والسلطان من حيث الأهمية. فكان الوزير على رأس الأمراء والأعيان. وكان القاضى فى مقديشو شخصيته هامة وتلى الشيخ والوزير من حيث الأهمية والاختصاص، وكثيرا ما تولى القاضى بنفسه وظيفة الحسبه التى انتشرت انتشارا واسعا على طول هذا الساحل . وكانت مهمة المحتسب كما هو معروف الاشراف على الأسواق ومراقبة المكاييل والموازين ومعاقبة من يخل بالأمن، وهؤلاء جميعهم وعلى رأسهم الشيخ أو السلطان فى مقديشو وغيرها تحيط بهم هالة من التقديس، تظهر بجلاء فى المناسبات الدينية. كما تحيط بهم كذلك مجموعة من الوزراء والأمراء، بجانب ذكر اسم الشيخ فى خطبة الجمعة [٧٤].

في ضوء ما تقدم يتضح لنا أن سواحل افريقيه الشرقية وعلى الأخص منها ساحل بنادر (ساحل الصومال الحالى) قد كانت ومازالت جزءا هاما من دار الإسلام متميزا فى اطارها نابضا بكل ما نبضت به الحضارة الإسلامية أثناء العصور الوسطى من ألوان الحياة الفكرية والعلمية ونظمها السياسية والاجتماعية وابداعاتها الادبية والفنية، متفاعلة معطياتها فى كل تلك الأبواب مع معطيات رفيقاتها من الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية. وتمتعت هذه البلاد بحضارة إسلامية راقية ونظام اسلامى للحكم سليم لأنها كانت قريبة من ينبوع الحضارة والثقافة، وعلى صلة وثيقة بموطن أرقى الحضارات الإنسانية وهى الحضارة الإسلامية .



(الهوامش)

١ - شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى. معجم البلدان (بيروت، ١٣٢٤ هـ/ ١٩٠٦م) جـ ٣ ، ص ٣٤٣ .

٢ - أبو الحسن على بن الحسن المسعودى .مروج الذهب ومعادن الجوهر (القاهرة، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م) جـ ١ ، ص ١١٢ .

٣ - راشد البراوى . الصومال الكبير حقيقة وهدف (القاهرة، ١٩٦١م) ص ١٠، حسن ابراهيم حسن. انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية (القاهرة، ١٩٦٣م) ص٢٦ - ٢٧، R. Coupland. East Africa and its Invaders (Oxford , 1938) pp. 2,15-16; R. Reusch. History of East Africa (New York, 1961) pp. 17-18 .

٤- النهروان هى الموقعة التى انتصر فيها على بن أبى طالب على الخوارج الذين انشقوا عليه فحاربهم فى آواخر سنة ٣٩ هـ وهزمهم وشتتهم فى الآفاق . حسن إبراهيم حسن . تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى (القاهرة ، ١٩٦٤م) جـ١ ، ص ٣٧٨ .

٥ - C.N. Stigand. The Land of Zing (London, 1913) p.29.

٦ - The Land of Zind, pp. 30ff; Reusch, History of East Africa, p. 70 .

٧ - Stigand, The Land of Zing , p. 29 .

٨ - A. Warner. art "Mombassa" , Encyc of Islam Vol. 3(2) (London, 1943), p. 552, Stigand, Op. Cit, p. 30, Reusch,

Op. Cit, P. 74.

٩ - S. Trimingham. Islam in East Africa (London, 1964) p.4.

حمدى السيد ، الصومال، ١٩٥٠م ص ٣٥٠، عبد الرحمن زكى. الإسلام والمسلمون فى شرق أفريقيه (القاهرة، ١٩٦٥م) . جـ١ ، ص ٧٧. انظر تفصيلات أكثر عن الزيديه، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى. تاريخ الأمم والملوك، جـ ٥، ص ٤٨٢ - ٤٩١ ، المسعودى ، مروج الذهب ، جـ ٢ ؛ ص ١٨١ .

١٠ - القرامطة ينتسبون إلى حمدان قرمط الذى تحرك بسواد الكوفة ونشر الرعب مع جماعة فى جميع أنحاء الجزيرة العربية وسوريا والعراق ، وكانوا يعتقدون فى أئمة الشيعة الستة ما عدا موسى الكاظم، رغم أنهم قبلوا بأخيه اسماعيل. وكانوا فى البحرين بزعامة أبى سعيد الجنابى، وانتصروا على جيوش الخليفة المعتضد، وقتل أبو سعيد عام ٩١٣، وتولى ابنه أبو طاهر القيادة، وانقضوا على مكه فى عهد المقتدر سنة ٣١٧ هـ وقتلوا الحجاج ودنسوا الكعبة، وهب المسلمون قاطبة للقضاء على أعداء الانسانية، وانتهى أمرهم أخيرا بالقضاء على هذه الفتنة، إلا أنهم أحالوا جزيرة العرب وقسما من بلاد الشام إلى أراضى خراب. أبو الحسن على بن الكرم بن محمد الشيبانى ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ ٦ ، ص ٦٩ - ٧٠ - ٧١ و ص ١٧٥ - ٢٩٩ / انظر أيضا : سيد أمير على ، مختصر تاريخ العرب ، (القاهرة ، ١٩٦٧م) ص ٢٦١ - ٢٦٦ .

Trimingham , p . 4 , Reusch, p. 87 .
Reusch, Op. Cit., P. 90 -١١
١٢ - مروج الذهب ، جـ ١ ، ص ٩٨ .
Stigand, p. 30. ; J. Gray , History of Zanzibar from the- ١٣
Middle Ages to 1856 (London 1962,) p. 11 .
Z. March, & G.W., Kingsnorth,. An Introduction to the- ١٤
History of East Africa (London 1966) p.8.
١٥ - حمدى السيذ ، المرجع السابق، ص ٣٥٥، انظر أيضا توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام (ترجمة) حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين (القاهرة ١٩٤٧) ص ٢٨٧، وانظر كذلك: عبد الرحمن زكى، المرجع السابق، ص ٧٧. انظر أيضا :
Enrico Ceruli Cart. "Makdishu" , Encyc. of Islam, Vol III , p.165.
١٦ - مروج الذهب، جـ١ ، ص ١٩٨ / راشد البراوى ، ص ١٩ . انظر أيضا :
Reusch, p. 85., Stigand, pp. 7 - 8 .
Freeman & Crenville, The East African Coast (Select - ١٧
Documents from the first to the earlier Nineteenth Century (Clarendon Press 1962) p. 84 .
Gray p. 22 . - ١٨
١٩ - معجم البلدان ، جـ ٨ ، ص ١٢٠ .

٢٠ - عماد الدين اسماعيل بن محمد عمر أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١٦٠ - ١٦١ (مكان وتاريخ النشر بدون) .

٢١ - حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٥ .

٢٢ - Hamer ، معناها أرض الذهب الصومالية ، انظر : حمدى السيد ، ص٣٥٧ .

٢٣ - حمدى السيد، ص ٣٥٦ .

٢٤ - عبد الرحمن زكى - ص ٧٢ .

٢٥ - حمدى السيد ، ص٣٥٧، Reusch , Op. Cit., p. 86 .

٢٦ - حمدى السيد، ص ٣٥٧ .

٢٧ - أرنولد ، ص ٢٨٧ .

٢٨ - مقديشو (مقديشو) بالفتح، ثم السكون، وفتح الدال، وشين معجمه (ياقوت، المصدر السابق، جـ ٨ ، ص ١٢٠) ، مضبوط بالشكل كذا بفتح الميم، وسكون القاف ، وكسر الدال المهملة، وضم الشين المعجمة، وفى آخره واو : أبو الفداء ، ص ١٦٠ .

٢٩ - Enrico Ceruli, art. "Makdishu," Encyc. Of Islam, Vol. 111, p. 165 .

٣٠ - حمدى السيد ، ص ٣٥٧ .

٣١ - حمدى السيد ، ص ٣٥٨ .

٣٢ - Stigand, p.7 Freeman & Grenville, p. 84. Reusch, p. 85

٣٣ - Enrico Ceruli, art. "Makdishu," Encyc. Of Islam, Vol.

111, p. 165, Reusch, pp. 85-151, Stigand, p.7

انظر أيضا : ياقوت ، جـ ٨ ، ص ٢٠ .

٣٤ - Enrico Ceruli, art. "Makdishu," Encyc. Of Islam, Vol. 111, p. 165,

٣٥ - جمع لكلمة مقديشو (حمدى السيد ، ص ٣٥٦) .

٣٦ - Enrico Ceruli, Op. Cit., p. 165.

٣٧ - Enrico Ceruli, p. 165.

٣٨ - Op. Cit. p. 165.

٣٩ - Ibid, p. 165.

٤٠ -مروج الذهب، جـ ٢ ، ص ٦ / حمدى السيد، ص ٣٥٥ .

٤١ - مركه، امارة إسلامية على المحيط الهندى فى الساحل الشرقى لأفريقيه وهى جنوب مقديشو وشمال براوة. ومركه على شطى نهر يخرج من مقديشو ويصب على مرحلتين من المدينة فى شرقها ومنه فرع يكون خورا لمركه. ومركه بالميم والراء المهملة ثم كاف فى الآخر. أبو الفداء، المختصر فى تاريخ البشر، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

٤٢ - Reusch, Op. Cit., p. 85.

٤٣ - أبو الفداء ، المختصر ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

٤٤ - Stigand, Op. Cit., pp. 9 - 10.

٤٥ - حمدى السيد ، ص ٣٦٠ .

٤٦ - المرجع نفسه .

٤٧ - المرجع نفسه .

٤٨ - Stigand, p. 52 .

٤٩ - Trimingham, Op. Cit., p. 3 / Reusch, p. 85 .

٥٠ - حمدى السيد ، ص ٣٥٩ .

٥١ - عبد الرحمن زكى، ص ١١٨ .

٥٢ - بن معناها الفضاء الكبير كذلك، (حمدى السيد، ص ٣٥٨ - ٣٥٩) .

٥٣ - حمدى السيد ، ص ٣٥٩ .

٥٤ - المرجع نفسه .

٥٥ - Stigand, Op. Cit. , p. 30 ff. "Reusch, Op. Cit, p. 185 ff

Enrico Ceruli, art. "Makdishu," Encyc. Of Islam, Vol. 111, p. 165,

٥٦ - أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ابن بطوطه ، تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الأسفار (القاهرة ١٣٢٢ هـ) ص ١٨٩ - ١٩٢.

٥٧ - ابراهيم على طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية فى الحبشة (القاهرة ١٩٥٩) ص ٤٢ .

حسن ابراهيم حسن، انتشار الإسلام فى القارة الافريقية ، ص ٣٣ .

Enrico Ceruli, p. 165

٥٨ - W. Basil , & Worsfold. Portuguesse Nyassaland- (London - 1899) p. 22 .

٥٩ - James . Duffy, Portuguesse Africa (London, 1961)

p. 26 .

٦٠ - حمدى السيد ص ٤٨٩ - ٤٩١ .

Franz Babinger , art. "Sofala," Encyc, of Islam .
Vol. 4 (1) p. 472; Freeman & Grenville, Op. Cit., p. 59 .

٦١ - M., Guillian Documents sur l'histoire , la geographic et le commerce de l'Afrique Orientale, 3 Vols (Paris 1956, p. 33 See also Reusch, Op. Cit., p. 45 .

٦٢ - براوة، امارة عربية خضعت لحكم الأخوة السبعة عام ٩١٣، وهى بالقرب من مقديشو .

٦٣ - حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٦ .

٦٤ - حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٢٦ .

٦٥ - مخطوط نشره مع مقدمة بالفرنسية - رينيه باسيه حققه فهيم شلتوت (القاهرة ، ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م) .

٦٦ - حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٣ .

٦٧ - حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٣ .

٦٨ - انظر : عرب فقيه، فتوح الحبشة ، ص ٥٧ وما بعدها .

٦٩ - عرب فقيه ، ص ٧٦ .

٧٠ - حمدى السيد ، المرجع السابق ، ص ٣٦٠ .

٧١ - شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (القاهرة ١٣٥٣ هـ جـ ١ ، ص ٢٣٢ ، جمال الدين أبى المحاسن

يوسف ابن تغرى بردى .

المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، تحقيق أحمد نجاتى ، (القاهرة ١٩٥٦)

جـ ١ ص ٢٢٦ - ٢٢٧ . السخاوى ، الضوء اللامع، جـ ٥ ، ص ١٦٠ .

٧٢ - ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، جـ ٨ ، ص ١٥٢ .

٧٣ - ياقوت ، المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ص ٣٤٣ .

٧٤ - Trimingham, Op. Cit. p. 18 Seq.

الضياع الأموية فى الشام
فى العصر العباسى

بقلم : أ. د. عبدالمنعم ماجد
أستاذ التاريخ الإسلامى،
والخبير الوطنى لمركز الدراسات البردية
بجامعة عين شمس

وجد ديوان الضياع[1] فى عهد العباسيين ؛ لينظر أصلا فى أمر الضياع التى كانت فى حوزة الأمويين فى الشام «ضياع بنى أمية»[2] . فكان ظهوره يعنى أن العباسيين قد قضوا نهائيا على الأمويين، وأنه أصبحت لهم السيادة الكاملة على ممتلكاتهم . فهو ثمرة للانتصار الحربى ، والتفاعل النفسى عند العباسيين نحو الأمويين .

ومع أن البحث عن تفاصيل هذا الديوان أو غيره ؛ ليس بالأمر السهل ؛ لأن المادة التاريخية تكون عادة متوفرة لسرد تاريخ الحروب؛ إلا أنها تكون قليلة ، أو حتى نادرة ؛ لنظم الدولة السياسية . ومع ذلك ؛ فإن هذه المادة القليلة عن هذا الديوان ، مكنتنا من القبض على الخصائص والأهداف، التى استوجبت ظهوره ؛ ولا سيما أن المؤرخ يضخم المادة التاريخية المتاحة بحيثياته .

ولا شك أن الحفر وراء ظهور ديوان الضياع العباسى؛ يبيّن قبل كل شىء ؛ علاقته الوثيقة بالجهاز الادارى فى دولة العباسيين، الذى اتخذ شكلا بيروقراطيا ملحوظا؛ بهدف أن الأوامر الادارية تصدر عن العاصمة بغداد وحدها إلى الأقاليم. حقا إن كلمة ديوان فارسية الأصل، وتعنى الكتّاب والحيز المكانى الذى يجمعهم، وأن عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣ / ٦٣٤ - ٦٤٤) ؛ هو أول من عمل بنظام الدواوين الفارسى ؛ فقيل إن عمر دوّن الدواوين[3]، وهى التى انتقلت فى عهد

---

(١) الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتّاب ، تحقيق السقا والأبيارى ، ط ١ ، القاهرة ١٣٥٧ / ١٩٣٨، ص ٢٧٧ ؛ انظر Ency of Isl (art DIWAN) 2ed , T. 2, p. 324 .

(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ٩ ص ٣٠٨ س ١٨ .

(٣) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١٧٥ .

الأمويين من المدينة إلى دمشق ، ثم عرّبها[1] عبد الملك بن مروان (ت ٦٥ - ٨٦/ ٦٨٥ - ٧٠٥) ؛ بعد أن كانت تكتب بلغات الشعوب المفتوحة ؛ إلا أن التنظيم الديوانى البسيط، فى عهدى الراشدين والأمويين ؛ قد تضخم تضخما كبيرا على يد العباسيين .

ومع ذلك ؛ فإن ظهور ديوان الضياع العباسى ارتبط قبل كل شىء بالنظام المالى العباسى ، الذى قام على أنقاض النظام المالى السابق فى عهد الأمويين . فكانت الدولة العباسية بأيدولوجيتها من الشعوبية، التى قامت على أكتافها ، ولاسيما الفرس ؛ لديها القدرة على استيعاب أنظمة مالية جديدة. فديوان الضياع لم يكن له وجود قبل العباسيين؛ كما لم يكن للعباسيين ضياع من قبل .

وقد ظهر ديوان الضياع العباسى؛ بظهور دولة العباسيين فى عهد أبى العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦ / ٧٥٠ - ٧٥٤) ، أول الخلفاء العباسيين، باسم : ديوان المحجوزة [2] ؛ ليعنى الحجز على ممتلكات الأمويين ، بما فيها ضياع الخلفاء الأمويين وأفراد أسرتهم. فلدينا نص يقول[3] : إن أبا العباس استولى على ضياع مروان وآل مروان. ولكن فى عهد أبى جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ / ٧٥٤ - ٧٧٥) ، الذى اعتبر المؤسس الحقيقى للدولة العباسية، وتسلسل عنه بقية الخلفاء العباسيين ، وليس عن أخيه، ظهر هذا الديوان باسم : ديوان الضياع [4]؛ ليعنى فى مضمونه ، مثلما كان يعنى فى عهد سلفه؛ مصادره ضياع الأمويين فى الشام ؛

(١) كتب ديوان الجند بالعربية ؛ منذ عمر بن الخطاب .
(٢) الجهشيارى ، ص ٩٠ ؛ انظر : ماجد ، العصر العباسى الأول ، ط ٣ ، ١ ص ١١٠ .
(٣) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .
(٤) الجهشيارى ، ص ٢٧٧ ؛ وقبله .

لحساب العباسيين . حقا إنه وجد فى عهد المنصور ديوان آخر للمصادرة [١]؛ ولكنه لم يكن له علاقة بضياع الأمويين ، وإنما بالأولى بمصادرة ممتلكات أعدائه السياسيين، وهم كثيرون .

كذلك لا نظن بأن عمل ديوان الضياع العباسى، والدولة ناشئة ، اقتصر على مصادرة الضياع الأموية وحدها ، وإنما امتد نشاطه إلى مصادرات أخرى ؛ فقد ذكر أنه : استصفيت أموال الأمويين[٢] . فقد كان للأمويين اقطاعات عديدة؛ حدثت لهم فى الشام ؛ منذ عهد عثمان بن عفان (٢٤ - ٣٥ / ٦٤٤ - ٦٥٦) ؛ فيما عرف بأرض الصوافى [٣] ؛ وهى أرض امتلكها العرب من الروم ، وأصبح أمرها للخليفة الأموى[٤]، يقطع منها ما يشاء . ومن بعد قام معاوية ابن أبى سفيان ؛ بمسح شامل لأرض الصوافى فى بلاد الشام، واستصفى لنفسه ، وأقطع أهل بيته بل فى عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ / ٦٨٥ - ٧٠٥) ؛ من كثرة ما اقطع من أرض الصوافى؛ لم يبق شاغر فى الشام[٥] .

فكان ديوان الضياع العباسى ، مثل غيره من الدواوين العباسية الأخرى ؛ يوجد فى بغداد العاصمة؛ بالعراق. فالادارة فى الدولة العباسية إدارتان ؛ ادارة مركزية فى العاصمة ، وأدارة خاصة فى الأقاليم؛ وإن كانتا مرتبطتين. ولذلك اهتمت الدولة

---

(١) اليعقوبى ، تاريخ ، ٣ ص ١٢٧ ؛ ابن طباطبا ، الفخرى ، ص ١١٥ ؛
انظر . Ency of Isl , T. 2 p. 324 .

(٢) الطبرى ، ٩ ص ٣٠٨ س ١٤ .

(٣) ابن عساكر، التهذيب لابن بدران ، ١ ص ١٨٣ .

(٤) ابن عساكر ، التهذيب لابن بدران ، ١ ص ١٨٢ .

(٥) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٣٤ .

العباسية بالبريد[1] ووسائله ومحطاته والطرق المؤدية إلى الأقاليم، التى عرفت باسم: المسالك ؛ لربط بغداد العاصمة بالأقاليم. كذلك وجد فى عهد محمد المهدى العباسى (١٥٨ - ١٦٩ / ٧٧٥ - ٧٨٥) ، دواوين الزمام وزمام الأزمة [2]؛ لمراقبة الأموال فى الدواوين العباسية جميعها؛ بما فيها أموال الأقاليم؛ حيث وجد ديوان باسم: ديوان زمام الشام [3]. وربما كان الإشراف على ديوان زمام الأزمة ، وهو فى العاصمة ؛ للوزير ، الذى كان منصبه غير موجود فى العصر السابق ؛ إلا على سبيل المجاز .

وثمة أمر آخر أن ديوان الضياع العباسى لم يكن مقطوع الصلة بديوان الخراج[4] فى العاصمة بغداد، وهو يتعلق بضريبة الأرض ، حيث نشأت مجموعة من الدواوين تتبعه، منها ديوان خراج الشام[5] ، الذى اعتبر فرعا له فى الشام ، وكان المنصور يوليه لأهل الشام[6]. ولم يكن ديوان الخراج قبل المنصور ديوانا، وإنما يعبر عنه ببيت المال[7] ، الذى صار هو الآخر ديوانا؛ يجتمع فيه الفائض من الموارد

---

(١) الجهشيارى ، ص ١٠٠ - ١٠١ ؛ الفخرى ، ص ١٤٨ ؛ صبح الأعشى ، ١٤ ص ٣٩٥؛ انظر : سعداوى ، نظام البريد فى الدولة الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٣ ؛ Ency of Isl (art BARID) 2 ed, T I , p. 1045 sqq

(٢) الجهشيارى ، ص ١٤٦ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ؛ الطبرى ، ١٠ ص ١١ ؛ فتوح البلدان ، ص ٤٦٤ . ظهر ديوان الزمام فى عام ١٦٢ / ٧٧٨ ، أما ديوان زمام الأزمة فى ١٦٨ / ٧٨٤ .

(٣) الجهشيارى : ص ١٦٨ ؛ خليفة بن خياط ، تاريخ ، ٢ ص ٤٧٤ ، ٤٨٠ .

(٤) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٨٠ - ٨١ ؛ انظر Ency of Isl (art Kharadj) 2ed, T 4 , p. 1030 sqq. هى كلمة سريانية الأصل استعربت .

(٥) الجهشيارى ، ص ٧٧ . كفله المنصور لصالح بن علىّ ؛ مع خراج مصر وإفريقية .

(٦) الطبرى ، ٩ ص ٢٩٧ س ١١ .

(٧) الجهشيارى ، ص ٢٧٧ . بعامة ، انظر . Ency of Isl (art Bayt al - Mal) 2ed. T I , p. 114 sqq.

العامة، أو الصوافى من المال والبضائع، بل وجد بجانبه ديوان لهذه الصوافى؛ وهى الباقى عن حاجة الإقليم من النفقات المحلية؛ كأعطيات الجند، وما يلزم لحفظ الطرق، وصيانة المرافق العامة . فثراء الدولة يقاس عادة على أساس ما يتبقى لها من مال؛ على سبيل الاحتياط.

فالضياع والأقاطيع فى الشام هى أرض، والأرض تفرض عليها ضريبة الخراج. فكل قطعة أرض عليها بالضرورة مقدار من المال؛ حسب التشريع المالى فى الدولة الإسلامية. فكان الخراج أو ضريبة الأرض يفرض بالمساحة منذ أيام الخلفاء الأوائل، ثم أصبح يدفع بالمحصول منذ عهد المهدى العباسى، وهو ما عرف بطريقة المقاسمة[1]. ويؤكد على ذلك أن بعض أهالى الضياع من المزارعين بفلسطين، كانوا قد هجروها؛ فأرسل إليهم هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ / ٧٨٦ - ٨٠٩) ، قائده هرثمة بن أعين لعمارتها؛ على أن يخفف عنهم الخراج ؛ فعرفوا بأصحاب التخفيف[2]. فقد كان من يعمل فى ضياع الشام ، من أهل الشام ؛ حيث أن عرب الشام لم يعودوا مشغولين بالحروب . وتوجد ملاحظة بخصوص أرض الشام للكاتب الفارسى المعروف ابن المقفع[3] (حوالى ١٣٩ / ٧٥٦)، الذى عمل من قبل فى دواوين

---

(١) أبو يوسف ، الخراج، ص ٤٣؛ فتوح البلدان ، ص ٢٨٠ - ٢٨١؛ الماوردى ، أحكام ، ص ١٣٤ ؛ انظر الريس ، الخراج ، ص ٤٣٠ ؛ الخضرى ، محاضرات ، ص ٢١ .

(٢) فتوح البلدان ، ص ١٥٠ .

(٣) وهو من أهل جور، قرب شيراز؛ عمل لابن هبيرة والى العرق، من قبل الأمويين. الجهشيارى ، ص ١٠٩ ؛ انظر . Ency of Isl (art Ibn al - Mukaffa) 2ed. T 3 . p. 1883 - 5 .

الأمويين بالعراق ، فى رسالته للمنصور المعروفة : برسالة الصحابة[1]، يقول فيها: ومن العدالة أن تترك واردات خراج الشام لمتطلبات أهلها، وإرسال ما تبقى لبيت المال.

وقد استمر وجود ديوان الضياع فى عهود خلفاء المنصور؛ مما يبين أنه قد أصبح من أسس نظام الدولة العباسية؛ فقد وجد ديوان الضياع[2] فى عهد هارون الرشيد. وفى عام ٩٢٧/٣٢٥، أي حوالى زهاء قرنين من الحكم العباسى، وجد ديوان باسم: الضياع الخاصة والمستحدثه[3] ؛ مما يعنى الضياع العباسية السابقة، وما استحدث من ضياع بعد ذلك. كذلك بقى لديوان الضياع العباسى على طول حقب الحكم العباسى ؛ مضمونه فى شكل المصادرة، الذى وجد له منذ قيام الدولة العباسية. ففى عام ٩١٣/٣٠١، وجد ما سمى بديوان الضياع المقبوضة[4] ، أو ديوان المصادرة[5] .

فكان ديوان الضياع العباسى، مثل غيره من الدواوين فى بغداد عماده كاتب

---

(١) نشرت فى جمهرة رسائل العرب؛ لأحمد زكى صفوت، ٣ ص ٢٥ وما بعدها؛ انظر . الريس ، الخراج ، ص ٤١٢ - ٤١٤ .

(٢) الجهشيارى ، ص ٢٧٧ .

(٣) الصابى ، الوزراء ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ؛
انظر Ency of Isl (art DIWAN) 2ed . T. 2, p. 325 .

(٤) الصابى ، الوزراء ، ص ٢١ ، ٣٠ ؛ مسكويه ، تجارب ، ١ ص ٨٤؛
انظر Ency of Isl . T. 2, p. 325 .

(٥) الصابى ، الوزراء ، ص ٣٠٦ ، ٣١١ .

الديوان ، وهو من أرباب الأقلام ، وعرف عادة باسم : وكيل الضيعة[١] ، وهو فى العصر العباسى الأول كان من مواليهم الفرس[٢] ؛ وإن كان اختياره أصبح يتوقف على خبرته فى شئون المال، ومعرفته بالتقنية الزراعية ؛ لأن الضياع أصلها مزارع . ومن المعروف أن الشام تعد بأراضيها من أخصب البقاع المزروعة؛ فقد اعتبرت جنة الأرض[٣] للعرب الفاتحين الأوائل، وفضلوها على الحجاز، وبقوا فيها. ولما أصبحت الشام دار خلافة فى عهد الأمويين؛ فإن أرضها استغلت أعظم استغلال[٤]؛ فالأراضى تتميز إذا اعتنى بها. فقد ظهرت عناية فائقة من خلفاء الأمويين؛ بوسائل الرى، التى تساعد على الانتفاع بمصادر الماء . فتوجد فى الشام أنهار كبيرة وأخرى صغيرة عديدة؛ مثل : بردى، والعاصى ، والأردن، وقويق ، وأبى فطرس ، وغيرها. كذلك أحتفرت القنوات[٥] ، واهتم بالترع، والآبار، والعيون المائية، وببناء صهاريج الأمطار[٦] .

---

(١) الجهشيارى ، ص ١٨٠ .

(٢) أولهم مولى أبى العباس ، عمر بن حمزة . الجهشيارى ، ص ٩٠ ؛
انظر Ency of Isl (art Katib) 2ed , T 4 , p. 756 .

(٣) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ١١٨ س ١ وما بعدها ؛ انظر . ماجد ، الدولة العربية ، ١ ص ١٨٥ - ١٨٦ .

(٤) صبح ، ٤ ص ٨٦ - ٨٧ .

(٥) معجم البلدان ، ٣ ص ٤٨ ، ٤ ص ٤٧٠ .

(٦) فتوح البلدان ، ص ١٤٩ .

فكانت الضياع الأموية فى الشام ، التى استولي عليها العباسيون كثيرة ومنتشرة فى كل مكان؛ حيث أشار إلى ذلك البلاذرى فى عدة مواقع [1]. بل إن المنصور أمر مهندسين له بتصويرها[2] ؛ فصوروها ، وعرضوها عليه؛ حتى لا يفلت منها شيء. كذلك أمر المنصور بإحصاء أراضى الشام، وأرسل إلى دمشق إسماعيل بن عباس «عدّل أراضيها[3]» . فكان مسحها بذراع - وهو مقياس للأرض - سمى الهاشمية[4] ؛ نسبة إلى أسرتهم . فكان ما يثبت منها فى الدواوين فى عهد المنصور، يكون عادة فى صحف ؛ فقد ذكر القرطاس والقراطيس[5] ؛ وهى تسمية للفائف البردى المصرية ، التى كان يكتب فيها؛ ولكنها أصبحت فى دفاتر[6] منذ عهد الرشيد، ربما لظهور صناعة الورق. ولعل السبب فى إحصاء الأراضى فى عهد المنصور؛ على حسب ملاحظة أخرى لابن المقفع[7] ؛ أن فترة الانتقال بين الدولتين ؛ الأموية والعباسية؛ قد أضاع الأوراق الخاصة بالأراضى، ولاسيما فى الأقاليم .

وقد كثر استخدام لفظة «الضياع» ، ومفردها «ضيعة» ، فى الشام منذ عهد

---

(١) نفسه ، ص ١٥٧ - ١٥٨ ؛ انظر : الريس ، الخراج ، ص ٣٦٤ وما بعدها .

(٢) الجهشيارى ، ص ١٢٣ .

(٣) نفسه ، ص ٢٧٧ .

(٤) الماوردى ، الأحكام ، ص ١٣٧ ؛ انظر : صبحى الصالح ، نظم ، ص ٤١٣ .

(٥) الجهشيارى ، ص ١٠٢ ، ١٣٨ .

(٦) نفسه ، ص ٨٩ ؛ بعامة : Ency of Isl (art Daftar) 2ed, T2 , p. 77.

(٧) الجهشيارى ، ص ١٠٩ ؛ جمهرة رسائل العرب، ٣ ص ٢٥ وما بعدها .

معاوية؛ وإن أطلق عليها الزراعة»[1] أيضا ؛ لتعنى المزرعة. ومع ذلك : فلم تكن الضياع الأموية فى الشام أرضا للزراعة فقط ؛ وإنما دور وقصور وبساتين؛ حيث اشتهرت الشام فى وقت الأمويين بالبستنة. فشمل العمران فى عهد الأمويين البادية والحضر، واستحدثت المدن الجديدة ، بما فيها عواصمهم الصحراوية ، وامتلأت دمشق ذاتها بالقصور والدور والبساتين الكثيرة[2] .

فكانت الضياع التى استولى عليها العباسيون من الأمويين ؛ تعرف «بضياع الخلافه[3]» ؛ وهى الضياع النفيسة[4] ؛ كما أعطى البعض[5] لأفراد أسرة الخلفاء العباسيين، الذين أصبح يطلق عليهم الأشراف[6]؛ حيث كانت تجرى لهم فى دواوين الدولة الإموال ، أو ما عرف بعطاء الذرية[7] . كذلك وجد فى عهد العباسيين[8] بيع

---

(١) الكامل ، ٥ ص ٤٩٧ .

(٢) ابن عساكر ، تهذيب بدران ، ٦ ص ٥٥؛ اليعقوبى ، البلدان، ص ٣٢٦ .

(٣) فتوح البلدان ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(٤) الجهشيارى ، ص ١١٠؛ معجم البلدان ، ٤ ص ٣٢١ .

(٥) فتوح البلدان ، ص ١٥٧ - ١٥٨ ، ١٨٧ - ١٩٨ ؛ الطبرى ، ٩ ص ١٩٦ .

(٦) العيون والحدائق ، ص ٢٦٠ .

(٧) العبر ، ٣ ص ٣١٩ . أمر المنصور لعمومته ؛ لكل منهم بألف ألف «مليون» من بيت المال، وكان أول خليفة أعطى ألف ألف «مليون» . الطبرى ، ٩ ص ٣٠٨ س ٥ - ٧ .

(٨) الجهشيارى ، ص ١١٠ ؛ فتوح البلدان ، ص ١٥٣ - ١٥٤ ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ١٠٩ .

لبعض الضياع ؛ كما أجرت اقطاعات من الأرض لمدة معينة، بنظام الإيجار أو الإيغار[١] ، وهو ما عرف بالأرض المغلة[٢] ، أو حق رد بعض الضياع لأصحابها. واللافت أن بعض أصحاب الضباع من غير الأمويين ؛ كانوا يحولون[٣] اسم ضياعهم على اسم عباسين كبار ؛ حتى لا تضيع من أيديهم .

فنذكر من الضياع التى آلت إلى العباسيين من الأمويين فى الشام: ضيعة لمعاوية فى البلقاء، اسمها: «بقبش»[٤]، التى صارت لبعض أولاد المهدى. كذلك أخذت ضياع الوليد، التى كانت عند الساحل بأنطاكية[٥]، وصارت هى الأخرى لأبناء المهدى، ثم انتقلت من بعدهم إلى الخليفة المتوكل. كما أخذت ضياع سليمان[٦]، وضيعة الزيتونة لهشام [٧]. بل إن إقطاع «بالس»[٨] ، الذى كان لمسلمة بن عبد الملك، وحفر له نهر عرف باسمه؛ استولى عليه عبد الله بن على؛ لما كان بالشام، ثم أقطعه لمحمد بن سليمان، ثم صار للرشيد، ومن بعده المأمون .

---

(١) الماوردى ، الأحكام ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) لسان العرب ، ٨ ص ٢٣٠ .

(٣) الطبرى ، ٩ ص ٣٠٨ س ١٧ .

(٤) الجهشيارى ، ص ١١٨ .

(٥) فتوح البلدان ، ص ١٣٥ .

(٦) نفسه ، ص ١٥٣ - ١٥٤ ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ١٠٩ .

(٧) الكامل ، ٥ ص ٢٩٣ .

(٨) الطبرى ، ٧ ص ٢٥ ؛ مروج ، ٣ ص ٢١١ .

(٩) الجهشيارى ، ص ١١٠ ؛ معجم البلدان ، ٢ ص ٣٢١ .

وهكذا يتبين ، أن هذه الضياع اعتبرت فى الدولة العباسية ميراثا للخلافة ؛ على أساس أن الخليفة العباسي؛ له وحده الحق فى أموال المسلمين ؛ وهو ما يتمشى مع العقيدة الجديدة التى صارت إليها الخلافة فى عهد العباسيين؛ بحيث صيرت فى شكل فقهى أن الخلافة ميراث ؛ وليست كخلافة الراشدين أو الأمويين . فيؤثر عن المنصور قوله [1]: إنا سلطان الله فى أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وأنا خازنه على فيئه ، أعمل بمشيئته ، وأقسمه بإرادته، وأعطيه بإذنه .

* * *

وقصارى القول إن ديوان الضياع العباسى؛ ظهر باسمه فى عهد المنصور؛ بمضمونه فى مصادرة الضياع الأموية فى الشام ؛ وأن العقيدة العباسية وقتذاك اعتبرت ضياع الأمويين فى الشام ميراثا للخلفاء العباسيين ؛ يجرى عليها ما يجرى على الميراث .

---

(١) الطبرى ، ٩ ص ٣١٠ .

" المصادرات وأثرها
على استقرار الملكية "
فى عهد الخليفة المقتدر بالله
٢٩٥ - ٣٢٠ هـ / ٩٠٧ - ٩٣٢ م

اعداد

د . ضيف الله بن يحيى الزهرانى

الأستاذ المشارك بقسم الحضارة والنظم الاسلامية

بجامعة أم القرى

ص . ب (٦١٩٨)

" بسم الله الرحمن الرحيم "

المقدمة :

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . أما بعد :

فقد أولت شريعتنا السمحة الأموال كل عناية ورعاية وإهتمام ، وأمرت بضرورة المحافظة عليها ، فشرعت الرقابة العامة على الأموال ، وشرعت محاسبة كل من تسول له نفسه بالعبث او الاختلاس من أموال الدولة ، وقد جرت بالفعل محاسبة كل من شاب تصرفه شائبه فى هذا الشأن ، وقد شكلت أموال المختلسين والثائرين جزءا من موارد بيت المال فى القرن الأول الهجرى (١) .

وكانت المصادرة فى بادىء الأمر مؤقتة تكمن وراء عوامل سياسية أو تنظيمية ، أو شخصية ، إلا أن المصادرة تطورت خلال فترة خلافة المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) من ناحيتى الأسباب والمظاهر ، فقد وضح من خلال هذه الدراسة أن السبب الأساسي والرئيسى " هو الطمع فى أموال المصادرين بدافع الحاجة إلى الأموال " (٢) وقد رأى الباحث أن يلتمس هذا الخلل المدمر فى جسم دولة المقتدر ، فعقد العزم بإذن الله على الكتابة فى موضوع المصادرات لكشف هذا الداء والوقوف على أسباب المصادرة وفئات المصادرين ونوعية المادة المصادرة ، ثم الحديث عن الجهاز الإدارى الذى كان يتولى عملية الإشراف والتنظيم ، وأخيرا الكشف عن الأثر الذى سببته المصادرات على استقرار الملكية . وكانت الدراسة فى هذا البحث على النحو التالى :

المدخل :

يشتمل مدخل هذا البحث على جانبين مهمين : الجانب الأول : عن شخصية

الخليفة المقتدر موضوع الدراسة ، والجانب الثانى عن الحالة المالية فى عهد المقتدر بالله ، وذلك بشكل مختصر وموجز .

الجانب الأول : شخصية المقتدر بالله :

هو ابو الفضل جعفر بن أحمد المعتضد بالله بن أبى أحمد الموفق طلحة بن جعفر المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدى بن عبدالله المنصور ابن محمد ابن على بن عبدالله بن العباس (٣) ، ولد يوم الجمعة ٢٨٢/٩/٨ هـ / ٨٩٥ م ، نشأ الأمير جعفر فى قصر الخلافة بين أحضان والدته - شغب - وهى إحدى جوارى الخليفة المعتضد بالله ، وبحكم كونه ابنا من أم ولد ، فلابد أنه نشأ بين الجوارى والحريم ، لم يتعلم من أمور الخلافة شيئا ، فلم يسهم بأى نشاط إجتماعى ولم يشارك فى حملة عسكرية قبل تولية الخلافة .

تولى الخلافة بعد وفاة الخليفة المكتفى بالله ، وكان ذلك بتاريخ يوم الأحد ١٣ / ١٢ / ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م ، وهو يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام . وقد تولى الخلافة وهو صغير السن ، فغلب على الأمر أناس لاهم لهم إلا جمع الأموال وحيازة المناصب القيادية والإدارية فتعثرت أمور دولة المقتدر بالله وقاس خلال فترة حكمه أهو الا عظاما لم يكن فى مستواها وتكالبت عليه عناصر الغدر والخيانة حتى قتل فى ٢٦ / ١٠ / ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م مخلفا وراءه دولة مفككة العرى ، منهارة القوى فكان حكمه وصمة عار فى جبين الدولة الإسلامية

الجانب الثانى : الحالة المالية فى عهد المقتدر بالله ، ونهدف من وراء هذه الفقرة إيضاح موقف دولة المقتدر المالى . ذلك الموقف الذى اتسم بالعجز المالى طوال الفترة التى حكمها المقتدر التى تمتد مابين عامى (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ / ٩٠٧ -

٩٣٢ م) وقد أكدت جل المصادر والمراجع تلك الضائقة المالية ووصفت عهده بعهد التبذير والإسراف المفرطين .

ولعل هناك مجموعة من العوامل أدت إلى تفاقم الأزمة المالية نذكر منها :

(١) صغر سن الخليفة وضعف شخصيته ، فقد تولى الخلافة وعمره ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام .[٤]

(٢) تدخل النساء في شؤون الخلافة . بحيث صار الخليفة تحت تأثيرهن حتى " غلب على الأمر النساء والخدم وغيرهم " [٥] وبرز من النساء أم المقتدر (شغب) والتى تلقبت بلقب السيدة ، فكانت سيدة البلاط العباسى بدون منازع .

(٣) فساد النظام الإدارى ويأتى فى المقدمة ، فساد نظام الوزارة والمتتبع لنظام الوزارة فى عهد المقتدر يدرك الضعف الحاصل فى منصب الوزارة ، فقد تولاها كل من يدفع مالا أكثر وأسرف الخليفة فى تولية الوزراء وعزلهم ، وتعرض معظمهم للمصادرة والسجن والقتل ، ومن هنا كان هم الوزير هو الحصول على الأموال لنفسه أولا ، ثم لسد نفقات الخلافة ثانيا ، ونتيجة لذلك أصبح نظام الإدارة من أفسد النظم [٦] .

(٤) تفشى الرشوة ، ويعتبر داء الرشوة من أخطر الظواهر التى ساعدت على تفاقم الوضع المالى ، فقد انتشرت الرشوة بين كبار موظفى الدولة بمافيهم الوزراء[٧] ، وقد تعاطاها الغالبية العظمى من موظفى دولة المقتدر ، فكانت النتيجة ، أن الجميع وقع فى أمر محرم شرعا .

فعندما استشرى سرطان (داء) الرشوة صاحب ذلك فساد النظام الإدارى

والمالى فوقعت الدولة تحت طائلة العجز المالى .

(٥) تدخل الجيش فى سياسة دولة المقتدر ، فقد قام قائد الجيش مؤنس بالتدخل فى حياة الخليفة بالإضافة إلى التدخل فى اختيار الوزراء وعزلهم [٨] وأصبح شغب الجند وهياجهم وإحداثهم الفتن أمر مألوفا[٩] " ولاسيما فى سبيل الحصول على الأموال ، وكانت نتيجة تدخل الجيش فى سياسة الدولة أن تفاقمت الأزمة المالية أولا ، ثم الإطاحة بالخليفة وقتله على يد الجيش [١٠] فى ٢٦ / ١٠ / ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ثانيا .

المصادرات :

التعريف :

تحدثت كتب اللغة عن تعريف المصادرة بايجاز شديد ، فقد ذكرها ابن منظور بقوله " ومن كلام كتاب الدواوين أن يقال : صدر فلان العامل على مال يؤديه ، أى فيورق على مال ضمنه " (١١) وفى مختار الصحاح " صادره على كذا من المصادرة "(١٢) والمصادرة ، اصطلاح ، والصدر هو الرجوع بعد الامتلاء بالماء ويقابله الورد وهو عند اللغويين مثل الرجع وكلمة صدر هى المال الذى يؤخذ من المصادر (١٣) وقبل بزوغ مصطلح المصادرة كان يسمى المال المأخوذ من العمال مشاطرة أو مقاسمة ، وفى عهد الدولة الأموية كان يسمى المال المستخرج من العمال بالأموال المستخرجة (١٤) ، أما نشأت مصطلح المصادرات فظهر لأول مرة فى الدولة العباسية ، حينما كثرة المصادرات ولاسيما فى الفترة الثانية من العصر العباسى الثانى . وقد ترسخ هذا المصطلح فى عهد الخليفة المقتدر بالله عندما أنشأ لهذا الغرض ديوانا خاصا بالمصادرات .(١٥)

ونستطيع القول بأن تعريف المصادرات فى المصطلح العام هى :

" الأموال التى يستخرجها الخليفة وأعوانه من كل من مسته شائبة غدر وخيانة ، سواء من موظفى الدولة أو من فئات المجتمع الأخرى ووضع هذه الأموال تحت تصرف الخليفة ونظره " فتصادر الدولة الأموال او الممتلكات ، أى تنتزعها من صاحبها عقوبة له .

أسباب المصادرات :

لقد أصبحت المصادرات فى عهد الخليفة المقتدر بالله ظاهرة واسعة الإنتشار

وتعددت الأسباب التى أدت الى شيوع المصادرات وانتشارها ، وقد أجملنا تلك الأسباب على النحو التالى :

أولا : الأسباب المالية :

كان للأزمات المالية الدور الفعال فى وجود المصادرات والمتفحص لتاريخ الخليفة المقتدر يدرك أن أغلب المصادرات " قد جرت فى ظل أزمات مالية ، كانت الدولة فيها بأمس الحاجة الى ايجاد المال لسد نفقات الدولة ، ولكبح شغب الجيش الذى كان دائما يطالب بإرزاقه المتأخرة [١٦]

فكان الخليفة يلجأ إلى مصادرة أعضاء حكومته متى ماكانت خزينته فارغة من الأموال [١٧] ، ونضرب علىَ ذلك مجموعة من الأمثلة :

- لقد صادر الخليفة وزيره ، أبا الحسن بن الفرات على مبلغ عشرة ملايين دينار[١٨] لحاجة الدولة الى الاموال وفراغ بيوت الأموال ، وعجز الوزير عن توفيرها .

- وفى عام ٣٠١ هـ / ٩١٣ م ، صادر الخليفة وزيره الخاقانى [١٩] لعجزه عن توفير الأموال .

- وفى عام ٣١١هـ / ٩٢٣ م صادر الخليفة وزيره حامد بن العباس [٢٠] للسبب نفسه .

- وفى عام ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م صودر الوزير الخاقانى وأبعد عن الوزارة لعجزه عن معالجة الضائقة المالية [٢١] وكذلك كان حال الوزير الخصيبى ، فقد تفاقمت الأزمة فى عهده ، ولم تتوفر له الاموال اللازمة لسد نفقات الدولة مما جعله يلجأ إلى فرض الضرائب الباهظة على الناس واشتد فى المطالبة " ولم يدع عند أحد مالا

أحس به إلا أخذه بأتعس مايكون الأخذ "[٢٢] وكذلك كان الحال فى وزارة ابن مقلة (٣١٦ - ٣١٨ هـ / ٩٢٨ - ٩٣٠م) ثم فى وزارة سليمان بن الحسن بن مخلد (٣١٨ - ٣١٩ هـ / ٩٣٠ - ٩٣١ م) ، فكان العجز المالى هو السبب فى مصادرة الوزراء والتنكيل بهم ، وإبعادهم عن منصب الوزارة .

ثانيا : الأسباب السياسية :

" بلغت المصادرة ذروتها فى أيام المقتدر ، لأن الوزراء استخفوا به لصغر سنه ، وأفضى تدبير الأمور فى صدر أيامه الى أمه ونسائه وخدمه " [٢٣] وفى عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٨م قبض الوزير ابن الفرات على محمد بن عبدون [٢٤] وصادره ، وأوعز بقتله لأنه كان يطلب منصب الوزارة [٢٥]، وفى عام ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م سخط المقتدر على أم موسى القهرمانة [٢٦] وقبض عليها وصادرها ، وقيل فى سبب مصادرتها :

أ - أن المقتدر مرض فبعثت إلى بعض أهله ليتولى الحكم .

ب - وقيل أنها زوجت بنت أخيها لمحمد بن اسحاق بن المتوكل ، فوشى بها الناس أنهامافعلت ذلك إلا لكى تنصب محمد بن اسحاق فى الخلافة[٢٧] .

وهنا ندرك أن تلك الحالات من المصادرة كانت تتم لأغراض سياسية أو شخصية ، فكان تدهور الأوضاع السياسية " من الدوافع التى أدت إلى المغالاة فى المصادرة

لتتخلص الدولة – ولو مؤقتا – من حالة العسر المالى الذى يعانيه بيت المال "[٢٨]

ثالثا : فساد الأنظمة الإدارية :

يأتى فى مقدمة الأجهزة الإدارية التى واكبها الضعف جهاز الخلافة وذلك لصغر سن الخليفة ، ثم جهاز الوزارة والدواوين ولعل أخطرها على الإطلاق هو جهاز الوزارة ، فقد أصبح من الضعف بحيث تولاها كل من يدفع مالا أكثر ، فانحسرت هيبة الوزراء وأصبح نظام الإدارة من أسوأ النظم ، نتيجة لتسلط الخدم والحشم ، والنساء ، والجيش على شؤون الدولة ونتج عن ذلك تعدد الوزراء ، بحيث بلغ عددهم فى عهد الخليفة المقتدر اثنى عشر وزيرا صودر معظمهم ، وماتبع ذلك الإجراء " من تغيير العمال الأكفاء فى أرجاء الدولة وماصاحب ذلك من إستبداد الحكام بالناس وسيطرتهم على اموالهم بدون حق ، وأدت هذه المظالم الى قيام الثورات "[٢٩] ، ثم " إن بعض الطامعين بالوزارة كان يتعهد للخليفة بأداء مبلغ كبير من المال مقابل حصوله على منصب الوزارة فأدى هذا الاسلوب الى زيادة حدة المنافسة وإلى المساومة على طلب الوزارة وأدى أيضا الى اضطراب شؤون الدولة والإدارة ، وعدم كفاءة الوزير ، حيث تولى هذا المنصب شخصيات ضعيفة كانت تسىء إلى البلاد "[٣٠] أمثال الوزير الخاقانى ، والوزير حامد بن العباس والوزير الخضيبى ، والوزير ابن مقله ، والوزير الحسين بن القاسم .

رابعا : انتشار الرشوة ، والوشاية :

من أسوأ مظاهر عهد الخليفة المقتدر تفشى مرض الرشوة بين الوزراء وولاة الأقاليم ، ومرد ذلك إلى الخليفة نفسه ، وحاشيته ، ومن خلال استقراء فترة وزارة الخاقانى (٢٩٩ - ٣٠١ هـ / ٩١١ - ٩١٣ م) نجد أن أولاده سيطروا على مجريات امور الوزارة وسعوا جميعا للحصول على الرشوة وأسرف الوزير فى تولية العمال " حتى أنه ولى على الكوفة فى خلال عشرين يوما سبعة من العمال ، دفع كل منهم رشوة كبيرة له " [٣١]، وكان الخاقانى يحصل على الرشوة من كل عامل يوليه حتى قيل من الاشعار [٣٢]:

وزير مايفيق من الرقاعة　　　يولى ثم يعزل بعد ساعة

اذا أهل الرشا صاروا إليه　　　فأحظى القوم أوفرهم بضاعة

وقد استطاع ابن الفرات ان يتقلد الوزارة للمرة الثانية ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م بعد أن تعهد بتقديم مبلغ كبير للخليفة وحاشيته[٣٣] وقد أكد الأزدى على أن الخليفة ، كان يصانع الخدم ويستمع إليهم فى تولية الوزراء وعزلهم ، فقال فى ذلك " واستوزر المقتدر اثنى عشر وزيرا ، يولى هذا اليوم ، ثم يصانع الخدم فيعزله غدا ويولى الذى رشا ".[٣٤]

اما عن الوشاية

فقد قامت بالدور الأكبر فى نكبة الوزراء ، وسجنهم ، وقتلهم فى غالب الأحيان " وسبب ذلك أن الخليفة كان يستمع الى أقوال المنافسين ويصغى الى مقالة الحاقدين "[٣٥] وأتهم الوزراء بعضهم بعضا بسوء التصرف والخيانة ، وقد تكون هذه ألتهم صحيحة فى حق الوزير ، ولكن فى أوقات أخرى " قد تكون الاتهامات

ضد الوزير المعزول واهية ، وليس لها أى سند شرعى ولامسوغ منطقى ، ولايعدو أن يكون الدافع طابعه الحسد والغيرة وحب السيطرة والمنافسة المشوبة بالخداع والتآمر "(٣٦) فقد وقع ابن الفرات فى حبائل الوشاية حينما وشى به نصر الحاجب لدى الخليفة بقوله بأن الوزير يريد التآمر على الخليفة ، فنكبه الخليفة وصادر امواله(٣٧) ولم يسلم من الوشاية والحسد والحقد الوزير المصلح على بن عيسى ، فقد أفسد الخدم امره(٣٨) ، وأمر المقتدربالقبض عليه واحتجازه بدار الخلافة ، لعدم قدرته على الصمود أمام وشايات رجال القصر والحاشية الذين لم يرضوا باجراءاته الاقتصادية ، فوشت به عند الخليفة ، فعزله ونفاه إلى مكة واليمن ومصر (٣٩)، فالحقد والحسد والكراهية كانت من الأمور التى أودت ببعض الوزراء ومصادرتهم ، وإن كانوا من الوزراء المصلحين .

فئات المصادرين ومعاملتهم :

أمتد نطاق المصادرات ليشمل الوزراء ، والكتاب والنساء ، والخدم والتجار ، والعمال ، " فالعامل يصادر الرعية ، والوزير يصادر العمال والخليفة يصادر الوزراء والتجار "(٤٠) ويمكننا أن نفصل فئات المصادرين على النحو التالى :

(أ) فئة الوزراء :

كان الخليفة يلجأ إلى مصادرة الوزير متى ألجأته الحاجة الى اموال يعجز الوزير عن توفيرها وأسرف الخليفة فى تعيين الوزراء وعزلهم ، لأنهم " استأثروا بالأموال ، وحصلوا عليها بطرق مختلفة كالرشوة والهدايا التى ترد اليهم من العمال والولاة ، ومن كبار موظفى الدولة بالإضافة إلى مايغتصبونه من ضياع الخليفة ومن عامة الشعب ، ومصادرات بعضهم بعضا ومايسلبونه من اموال الجباية "(٤١) فقد كان

ابن الفرات يأخذ " أموال المصالحين والمصادرين . وعدل بها عن بيت المال [٤٢]" وكذلك كان ابنه المحسن ، وكان المعتاد أن يتهم كل وزير سلفه بسوء التصرف ويطلب منه افتداء نفسه بالأموال[٤٣] ويحصل الوزير الجديد على الأموال من الوزير المعزول بمصادرة امواله واملاكه . " وقد وجدت الدولة تبريرا لمصادرة أموال الوزراء والعمال لأن هؤلاء أنفسهم جنوا أموالهم عن طريق غير شرعى ، ذلك أن أغلب المصادرين قد أثروا على حساب الشعب ومن جراء سوء سلوكهم واستغلالهم مناصبهم "[٤٤] وقد تعرض جميع وزراء الخليفة المقتدر للمصادرة ماعدا الوزير عبيد الله الكلوذانى[٤٥] .

(٣) حاشية الوزراء :

لقد أمتدت المصادرات لتشمل أسرة الوزير وأهله وأولاده ، ففى عام ٢٩٩ هـ / ٩١١ م غضب الخليفة المقتدر على الوزير ابن الفرات ، فصادره وصادر اهله ، وأخذ كل ماوجد له ولهم ، وأنتهبت دوره ودور بنى أخوته وأهلهم[٤٦] وعندما عزل ابن الفرات عن الوزارة للمرة الثالثة (٣١١ -٣١٢ هـ / ٩٢٣ - ٩٢٤م) تمت مصادة أولاده ، ومنهم ابنه الأكبر المحسن الذى أخذ منه ثلاثة ملايين دينار[٤٧] ولم تسلم أسرة الوزير المصلح على بن عيسى من المصادرة ، ففى عام ٣٠٤ هـ / ٩١٦ ، إبان وزارته الأولى قبض عليه وعلى أقربائه ونهبت دورهم [٤٨] ونهبت منازل أخوى الوزير وهما ، إبراهيم وعبدالله [٤٩]، وعندما قبض على الوزير حامد بن العباس ٣١١ هـ / ٩٢٣ م تمت مصادرة صهره أبى الحسين بن بسطام[٥٠] وفى عام ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م تمت مصادرة الوزير الخاقانى وابنه[٥١]، وفى عام ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م صودر الوزير الخصيبى وابنه أبى الحسين [٥٢]، والمتأمل لهذه النصوص

يدرك أن أولاد الوزراء كانوا يساهمون في أعباء الوزارة بالدرجة الأولى ولذلك تتم معاقبتهم مع والديهم .

(٣) الكتاب :

استشرى الفساد الإدارى داخل الدواوين ، وضعف رئيس الديوان وكتابه واتهموا بالاختلاس فتمت معاقبتهم ومصادرة أموالهم فكان اول من عوقب بالمصادرة ، الكاتب ، محمد بن عبدون في عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٨م على يد الوزير ابن الفرات[٥٣] ، وفى عام ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م قبض على رئيس الدواوين على بن عيسى وقبض على إبنه وبيعت أموالهما وأملاكهما وحوسبا[٥٤] ، وكذلك تعرض على بن عيسى للمصادرة ، عندما كان رئيسا للدواوين إبان وزارة حامد بن العباس (٣٠٦ - ٣١١ هـ / ٩١٨ - ٩٢٣ م) فقد صودرت أملاكه وأملاك انصاره وأعوانه [٥٥]، وتمت مصادرة الكاتب ، محمد بن على ابن مقلة إبان وزارة ابن الفرات للمرة الثالثة (٣١١ - ٣١٢ هـ / ٩١٨ - ٩١٩ م)[٥٦] وفى عام ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م ، صودر كاتب الوزير الخاقاني ، جعفر الكرخي [٥٧] ، وفى عام ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م قبض الوزير على بن عيسى على الوزير الخصيبى وصادره وصادر كاتبه اسرائيل بن عيسي[٥٨] .

(٤) النساء والخدم :

طالت المصادرات أناسا لاحجة عليهم ، إلا فيضل نعمة كانت لهم ، وقد تميز عصر المقتدر بسلطة النساء ، فقد كان لهن شأن كبير فى دار الخلافة ، وقد أمتدت يد المصادرات إليهن ففى عام ٢٩٩ هـ / ٩١١ م غضب الخليفة على فاطمة القهرمانة وأخذ ماعندها من المال ، وكان لها مال عظيم[٥٩] وفي عام ٣١٠

هـ / ٩٢٢م سخط المقتدر على أم موسى القهرمانة وقبض عليها وصادرها على مليون دينار ، ولم تفلت من طائلة العقاب[٦٠] ولم تسلم أسرتها من المصادرة فقد صودر أخوها أحمد بن العباس وأختها أم محمد [٦١]، وفى عام ٣١٣ هـ / ٩٢٥ ألح الوزير الخصيبى فى المصادرة وكاشف أرملة المحسن بن الفرات ونساء ابن الفرات[٦٢] " ونساء أخريات لرجال عملوا فى الادارة ، مما أثار عليه نقمة الناس .. حتى طالب نساء موظفيه العاملين بين يديه ، إن لم يجد عند الرجال شيئا. وتعرض بعض الخدم للمصادرة فقد صادر الوزير ابن الفرات فى عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م وخادم الوزير السابق حامد بن العباس ويدعى مؤنسا صادره على مبلغ ثلاثين ألف دينار[٦٤] ، وفى عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م صور الخادم بشرى على مبلغ ثلاثمائة ألف دينار .[٦٥]

(٥) التجار ، وبعض فئات الشعب :

لقد تعرض التجار للمصادرات ، ونالوا طائلة العقاب ، ففى عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م صودر التاجر ، الحسين بن عبدالله المعروف بابن الجصاص وكانت مصادرته لأسباب سياسية ، وذلك لإشتراكه فى الحركة التى قام بها ابن المعتز الذى اختبأ عند ابن الجصاص[٦٦] ، وفى عام ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م صودر ابن الجصاص على مبالغ طائلة ، نقدية ، وعينية [٦٧] ، وفى عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م صودر أحد التجار بسبب مالوحظ عليه من فضل فيماابتاع من الضياع [٦٨] ، وقد شملت المصادرات أقواما ليسوا برسميين ، إلا أن لهم فضل نعمة ، ففى عام ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م ، قام الوزير ابن مقله بمصادرة ضياع الطبيب بختيشوع بن جبريل، وتم بيعها بثمن زهيد ، مع أن هذا الثمن مخالف لماتضمنه ثبت الشراء من أنها قد

أشتريت بمايزيد على بضعة عشر مليون درهم [٦٩] وتجمع المصادر على أن الوزير الخصيبى (٣١٣ / ٣١٤ هـ - ٩٢٥ - ٩٢٦ م) لم يدع عند أحد مالاأحس به إلا أخذه بأتعس مايكون الأخذ[٧٠] .

معاملة المصادرين :

لم يقتصر الأمر على المصادرة فحسب ، وإنما كان يصاحبها فى الغالب - إلحاق أشد الأذى بأولئك المصادرين ، بغض النظر عن المراكز القيادية او المكانة الإجتماعية التى كانوا يشغلونها فى الدولة[٧١] ، وقد قسمنا معاملة المصادرين على النحو التالى :

أولا : القبض على المصادرين والتحقيق معهم :

كان يبدأ الوزير الجديد ببذل المحاولات لإستخراج الأموال ، ومصادرتها عن طريق الإقناع [٧٢] .

ثانيا : السجن :

كانت المصادرة سبيلا يوصل إلى السجن - فى غالب الأحيان - " وسبب ذلك أن الخليفة كان يستمع إلى أقوال المنافسين ، ويصغى إلى مقالة الحاقدين ، فيأمر بعزل وزيره وسجنه ، فإذا لم يسجن جاء خلفه فسجنه انتقاما منه "[٧٣] ، ففى عام ٢٩٩ هـ / ٩١١ م ، غضب الخليفة على الوزير ابن الفرات ، وحبسه ، وانتهبت داره ودار أهله ، ودور كتابه[٧٤] ، وكان لهذه المصادرة أثرها السيء على المجتمع فى بغداد ، فقامت ثورة احتجاجات عارمة استمرت ثلاثة أيام ، نهب الناس بعضهم بعضا ، فلقى السكان من ذلك شدة شديدة [٧٥] ولم يكن نصيب الوزير الخاقانى بأفضل من سلفه[٧٦] ، وقد شمل السجن أغلب الوزراء المصادرين أمثال

على بن عيسى (بوصفه كاتبا ، ووزيرا) ، وحامد بن العباس ، وعلى بن الفرات ، وإبنه المحسن[٧٧] ، والخصيبى[٧٨] وابن مقله [٧٩]، والقهرمانة أم موسى[٨٠] .

ثالثا : التعذيب :

من ضمن الوسائل التى كانت تصاحب المصادرة ، التفنن فى تعذيب المصادرين ، فعندما نكب ابن الفرات فى عام ٢٩٩ هـ / ٩١١ م ، سجن فى دار القهرمانة ام موسى وأشرفت بنفسها على تعذيب الوزير المخلوع فأمرت بتقييده ، وعرك اذنيه ، وعدم التهاون معه[٨١] ، وفى عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م جرى على كتاب الدواوين من جهة ابن الفرات امر عظيم من الخبط والعسف باستعمال التعذيب ، فقد البس على بن عيسى جبة صوف واهانه بالأذى الفاحش[٨٢].وفى عام ٣١١ هـ / ٩٢٣م تعرض الوزير حامد بن العباس للاهانة والتعذيب ، وكان ابن الفرات (المحسن) يشتمه أمام الناس وهو فى سجنه ، ويلبسه جلد قرد له ذنب ، ويقيم من يرقصه ويصفعه " وأجرى على حامد أفاعيل قبيحة ليست من أفاعيل الناس ولايستجيزها ذو دين ولاعقل "[٨٣] إلاأن امر هذا الوزير (ابن الفرات) لم يطل إذ تعرض للمصادرة والتعذيب فقد حوكم ابن الفرات وابنه المحسن ، الذى القى القبض عليه وهو مقنع بزى النساء حليق اللحية ، فقد قيدا وألبسا جبة صوف ، وضربا على رأسيهما بالدبابيس حتى أن جسم المحسن تدود من أثر الضرب ، ومنع عنهما الطعام أياما عديدة [٨٤]، وقيل بأن الناس ضربوهما بالأجر ، ويقولون قد قبض على القرمطى الكبير[٨٥]، فنرى أن هذا الوزير وحاشيته قد لقيوا منتهى الإهانة ، والتعسف .

وتعرضت القهرمانة أم موسى وأخوها أحمد بن العباس ، وأختها ام محمد لاشد

انواع التعذيب ، وسلم أمرهم الى القهرمانة ثمل المشهورة بقساوة القلب ، وشراسة الأخلاق ، فقست عليهم أشد القسوة (٨٦) ، وتعرض الوزير على بن عيسى إبان وزارته الثانية (٣١٤ - ٣١٦ هـ / ٩٢٦ - ٩٢٨ م) للإهانة والتعذيب ، وأعتقل ثمانية عشر شهرا (٨٧) ولم يسلم الوزير ابن مقله فى عام ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م من الاهانة ، بل تعدى الأمر الى إحراق داره .(٨٨)

رابعا : النفى :

يعد النفى والإبعاد عن حاضره الخلافة من الأمور التى كانت تصاحب المصادرة ، فقد تعرض الوزير المصلح على بن عيسى للاعتقال ثمانية عشر شهرا ، ثم نفى الى مكة المكرمة واليمن ، ومصر (٨٩) ، إلا أن دار الخلافة لم تستطع الصمود أمام استحكام الأزمات المالية ، فعاودت فى طلبه المرة تلو المرة ، لعله يساعد فى فك تلك الأزمات الخانقة ، وكان يفعل فى كثير من الحالات ولم يسلم الوزير المعزول حامد بن العباس من النفى فقد تم نفيه إلى واسط وذلك فى عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م ، حيث استقر به المقام ، حتى تم قتله ، والتخلص منه نهائيا(٩٠) ، وفى عام ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ، تعرض الوزير الحسين بن القاسم للمصادرة ، والطرد أو النفى الى ارض البصرة (٩١) .

خامسا : القتل :

يعد القتل المحطة النهائية للخلاص من الشخصيات المصادرة ، ومن الشخصيات التى تم قتلها الوزير حامد بن العباس ، فقد لقى قبل قتله صنوفا شتى من العذاب ، والشتم ثم طرد الى واسط ، وهناك تم التخلص منه نهائيا وذلك بقتله(٩٢) فى عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م ، ولقى الوزير ابن الفرات وابنه

المحسن النتيجة نفسها ، فقد لقيا صنوفا شتى من التعذيب والإهانة وبعد ذلك تم قتلهما في نهر دجلة ورمى رأسيهما غرقا وكذلك غرقت الجثتان وتم ذلك في عام ٣١٢هـ /٩٢٤ م[٩٣] .

أنواع المصادرات :

تنقسم الأموال المصادرة إلى قسمين : القسم الأول : الأموال النقدية ، والقسم الثاني : الأموال العينية .

القسم الأول :

كانت الأموال المصادرة تختلف في مقاديرها بحسب الكفاءة المالية للأشخاص المصادرين ، وتتلاءم مع مكانة الشخص المصادر ، ومدى انصياعه وقبوله لمقدار المبالغ المفروضة عليه[٩٤] ، وكانت بعض المصادرات تقتصر على فرض مبلغ من المال يدفعه صاحبه حال وقوع المصادرة عليه ، دون تعرضه لأي أذى ، فبمجرد دفع المصادرة يتم الإفراج عنه [٩٥] ،وهناك طريقة أخرى يتم بموجبها دفع المصادرة ، وهي طريقة التعهدات لأجل معين ، ويتم ذلك بعد أخذ الإقرار الشخصي على المصادر كضمان بذلك " [٩٦] وكان كتاب الوزير المعزول وأعوانه يقدمون أحيانا معونة له عند مصادرته ، تضامنا معه وتخفيفا عنه .

إلا أن بعض الوزراء كانوا يرفضون ذلك " [٩٧] . فقد رفض علي بن عيسى أن يقبل معونة من أحد عندما صودر . وعن مقادير الأموال النقدية التي تمت مصادرتها نعرضها على النحو التالي :

السنة	الشخص المصادر	المبلغ	ملاحظات
٢٩٦ هـ / ٩٠٨م	علي بن عيسى	٥ر٠٠٠ دينار (٩٨)	
٢٩٦ هـ / ٩٠٨م	القاضي ، أبو عمر يوسف بن يعقوب	١٠٠ر٠٠٠ ،، (٩٩)	
٢٩٦ هـ / ٩٠٨م	التاجر، الحسين بن عبدالله ، ابن الجصاص	٦ر٠٠٠ ،، (١٠٠)	
٣٠١هـ / ٩١٣ م	علي بن أحمد الراسبي	١ر٠٠٠ر٠٠٠ ،، (١٠١)	
٣٠٢هـ / ٩١٤م	التاجر ، ابن الجصاص	٥ر٥٥٠٠ر٠٠٠ ،، (١٠٢)..	
٣٠٦هـ/٩١٨م	الوزير ، ابن الفرات ٠	٧٠٠ر٠٠٠ ،، (١٠٣)	
٣٠٦هـ/٩١٨م	ابن الوزير ،المحسن بن الفرات	٣٠٠ر٠٠٠ ،، (١٠٤)	
٣١٠هـ/٩٢٢م	القهرمانة ، أم موسى	١ر٠٠٠ر٠٠٠ ،، (١٠٥)	
٣١١هـ/٩٢٣م	الكاتب ، ابن الحواري	٧٠٠ر٠٠٠ ،، (١٠٦)	
٣١١هـ/٩٢٣م	أبو الحسين بن بسطام (نسيب حامد بن العباس)	٣٠٠ر٠٠٠دينار (١٠٧)	
٣١١هـ/٩٢٣م	الوزير ، حامد بن العباس	٨٠٠ر٠٠٠ دينار (١٠٨)	
٣١١هـ/٩٢٣م	مؤنس (خادم الوزير حامد)	٣٠ر٠٠٠ ،، (١٠٩)	
٣١١هـ/٩٢٣م	الكاتب : ابن مقلة	١٠٠ر٠٠٠ ،، (١١٠)	
،، ،،	الكاتب : علي بن عيسى	٣٠٠ر٠٠٠ ،، (١١١)	
،، ،،	كاتب حامد بن العباس (الكلوذاني)	٢٦٠ر٠٠٠ ،، (١١٢)	
،، ،،	أحمد بن محمد البسطامي	٧ر٣٠٠ ،،	
،، ،،	علي بن الحسن الباذيني (الكاتب)	١١ر٠٠٠ ،،	
،، ،،	أبو الفضل محمد بن أحمد بن بسطام	٥٠ر٠٠٠ ،،	
،، ،،	محمد بن عبدالله الشافعي	٣٠ر٠٠٠ ،،	عما تصرف فيه لعلي بن عيسى

السنة	الشخص المصادر	المبلغ	ملاحظات
٣١١هـ/٩٢٣م	محمد بن على بن مقلة	٨٠ر٠٠٠ ،،	
،، ،،	أبو طاهر ، محمد بن الحسن	١٠٠ر٠٠٠	
،، ،،	الحسن بن أبى عيسى الناقد	١٣ر٠٠٠	وديعة لعلى بن عيسى
،، ،،	الحسن بن أبى عيسى	٤ر٠٠٠ ،،	صلحا عن نفسه
،، ،،	ابراهيم بن أحمد المادرائى	٢٠ر٠٠٠	
،، ،،	عبدالواحد بن عبيد الله بن عيسى	٣٦ر٣٣٠ ،،	عن بقية مصادرة والده
،، ،،	أحمد بن يحيى (الكاتب)	١٠ر٠٠٠ ،،	عن مصلحة وجبت عليه
	ابراهيم بن أحمد بن ادريس (الجهبذ) (١١٣)	٦ر٠٠٠ ،،	صلحا عن نفسه
،، ،،	محمد بن عبدالسلام بن سهل	٤ر٠٠٠ ،،	وديعة لمحمد بن على ولابراهيم المادرائى صلحا عن نفسه
،، ،،	عبدالوهاب بن أحمد بن ماشاء الله	٤٠ر٠٠٠ ،،	
،، ،،	على بن حسن الباذينى	٢٠ر٠٠٠ ،،	صلحا عما تصرف فيه
،، ،،	محمد بن عبدالله بن الحارث	١٠ر٠٠٠ ،،	بالموصل عن نفسه
،، ،،	محمد بن أحمد بن حماد	٢٥٠ر٠٠٠ ،،	عماتصرف فيه بالموصل عن الباقى عليه من
،، ،،	ابراهيم بن أحمد المادرائى	١٥ر٠٠٠ ،،	جملة خمسين الف دينار
،، ،،	أبو عمر ، محمد بن أحمد الجرجرائى .	١٠٠ر٠٠٠ دينار	عن ضمانه من مصادرة ياسر بن اسحاق عن
،، ،،	أبو عمر بن الصباح	٣٠٠ر٠٠٠ ،،	أحمد بن محمد بن
،، ،،	على بن محمد الحوارى	٧٠٠ر٠٠٠ ،،	قرقر

السنة	الشخص المصادر	المبلغ	ملاحظات
٣١١هـ/٩٢٣م	عبدالله بن أحمد اليعقوبى	١٠٠ر٠٠٠ درهم	
،، ،،	هارون بن أحمد الهمذانى	٧ر٠٠٠ دينار	
،، ،،	الحسن بن ابراهيم الخرائطى	١٠٠ر٠٠٠ درهم	صلحا عما اقتطعه من مال الرئيس
،، ،،	الحسين بن على بن نصير	١٠٠ر٠٠٠ ،،	
،، ،،	عبدالله بن زيد بن ابراهيم	٢٠٥٠ دينار	
،، ،،	عبدالله بن زيد	١٥ر٠٠٠ ،،	صلحا عن نفسه
،، ،،	على بن محمد بن السمان	٢٥٠٠ درهم	من وراثة أحمد بن محمد ابن قرقر
،، ،،	على بن مأمون الاسكانى (كاتب ابن الحوارى)	٦٠ر٠٠٠ دينار	
	أبو بكر ، أحمد بن القاسم الجرجانى	١٠ر٠٠٠ درهم	من ضياع على بن عيسى
،، ،،	الحسين بن سعد القطربلى	١٣٠ر٠٠٠ ،،	
،، ،،	محمد بن أحمد بن ماسراد	١ر٥٠٠ر٠٠٠ ،،	
،، ،،	أبو الحسن ، محمد بن أحمد بن بسطام	٣ر٠٠٠ر٠٠٠ ،،	
،، ،،	أحمد بن محمد بن حامد بن العباس	٥٠ر٠٠٠ ،،	
	يحيى بن عبدالله بن اسحاق	٧٠ر٠٠٠ دينار	
،، ،،	حامد بن العباس (الوزير)	١ر٣٠٠ر٠٠٠ ،،	
،، ،،	محمد بن محمد الواسطى	١٥٠ر٠٠٠ ،،	
	على بن عيسى	٣٢١ر٠٠٠ ،،	
،، ،،	ابراهيم بن يوحنا (جهبذ حامد بن العباس)	١٠٠ر٠٠٠ ،،	
،، ،،	ابو محمد ، الحسن بن أحمد المادرائى	٢ر٢٠٠ر٠٠٠ ،،	

السنة	الشخص المصادر	المبلغ	ملاحظات
٣١١ هـ/٩٢٣ م	أبو بكر ، محمد بن على المادرائى	٠٠٠ر١١٠ر١ ،،	
،، ،،	سليمان بن الحسن بن مخلد	٠٠٠ر١٣٠درهم (١١٤)	
،، ،،	سليمان بن الحسن (كاتب ديوان المشرق)	٠٠٠ر٥٠ دينار (١١٥)	
،، ،،	ابراهيم بن عيسى (أخو على بن عيسى)	٠٠٠ر٢٠ دينار (١١٦)	
٣١١-٣١٢هـ/	رئيس الدواوين وكتابه وأنصاره	٦٨٠ر٥٧٥ر٧ ،، (١١٧)	
٩٢٣ - ٩٢٤ م		٠٠٠ر٣٠٠ر٥درهم	
٣١٢ هـ/٩٢٤ م	ولدى ابن الفرات	٠٠٠ر١٠٠ درهم (١١٨)	
،، ،،	ابن الفرات	٠٠٠ر٢٠٠٠ ،، (١١٩)	
،، ،،	المحسن ابن الفرات	٠٠٠ر٠٠٠ر٣ ،، (١٢٠)	
،، ،،	كاتب المحسن ابن الفرات	٠٠٠ر٢٠٠ ،، (١٢١)	
،، ،،	زوجة المحسن ابن الفرات	٠٠٠ر٧٠٠ ،، (١٢٢)	
،، ،،	الخاقانى (الوزير)	٠٠٠ر٢٥٠ ،، (١٢٣)	
،، ،،	جعفر بن قاسم الكرخى	٠٠٠ر١٥٠ ،، (١٢٤)	
٣١٣هـ/٩٢٥م	ابو طالب النوبندجانى	٠٠٠ر١٠٠ دينار (١٢٥)	
٣١٤هـ/٩٢٦م	الوزير الخصيبى	٠٠٠ر٤٠ ،، (١٢٦)	
،، ،،	مجموع المصادرات فى عهد الخصيبى	٠٠٠ر٠٠٠ر١ ،، (١٢٧)	
٣١٥هـ/٩٢٧ م	البريديون (عمال واسط والبصرة)	٠٠٠ر٠٠٠ر٩ درهم (١٢٨)	
٣١٦هـ/٩٢٨ م	مصادرات العمال فى عهد الوزير ابن مقلة	٠٠٠ر١٠٠ دينار (١٢٩)	
،، ،،	القاسم بن دينار وأحمد بن محمد ابن رستم	٠٠٠ر٦٠٠ درهم (١٣٠)	
٣١٨هـ/٩٣٠م	الوزير ابن مقله	٠٠٠ر٢٠٠ دينار (١٣١)	
٣١٩هـ/٩٣١م	الخادم بشرى (خادم مؤنس)	٠٠٠ر٣٠٠ ،، (١٣٢)	تمت المصادرة فى عهد الوزير الحسين بن القاسم
٣١٩/٩٣١م	الوزير ، سليمان بن الحسن	٠٠٠ر٢٠٠ ،، (١٣٣)	
٣٢٠ هـ/٩٣٢ م	الوزير ، الحسين بن القاسم	٠٠٠ر٤٠ ،، (١٣٤)	

من خلال العرض السابق للجداول المالية التى تمثل المبالغ النقدية المصادرة من أصحابها يتضح مايلى :

أولا : بلغ مجموع الأموال النقدية بالدينار (٣١٧٦٨٣٦٠ دينار) وبلغ مجموع الأموال النقدية بالدراهم (٢٤٫٨٠٠٫٠٠٠درهم) وبعد تحويل الدراهم الى دنانير على حساب سعر الصرف (١٤) درهما للدينار الواحد ، يصبح مجموع الأموال المصادرة :

(٣٣٫٥٣٩٫٧٨٨) دينار ، وهذا المبلغ يقل كثيرا عن المبلغ الذى قدره جورجى زيدان حيث قال "وبلغ مجموع ماقبضه المقتدر من اموال المصادرات (٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠) دينار (١٣٥) .

وقد يكون جورجى زيدان أدخل فى حساباته الأموال المصادرة غير النقدية كالعقارات مثلا ، أو النقود التى وجدت مدفونة تحت الأرض ولايفرق الأمر كثيرا ، فمبالغ المصادرات كانت كبيرة جدا ومرهقة للغاية .

ثانيا : يتضح لنا أن المصادرات بدأت منذ تولية الخليفة مقاليد الأمور ، أوبعدها بأشهر قليلة ، واستمرت حتى نهايه حكمه ، وكانت تبلغ أوج قوتها عندما يبعد الوزير عن الوزارة ، ففى تلك الفترة تشتد المطالبة بالأموال ويحفها صنوف التعذيب والتنكيل .

ثالثا : بلغت المصادرة قوتها وكثرتها فى سنة ٣١١هـ / ٩٢٣ م ، خلال وزارة ابن الفرات للمرة الثالثة ، فقد طغى وتجبر على كثير من الكتاب واعوانهم واستخرج منهم الأموال الطائلة .

رابعا : يلاحظ ان بعض الفئات كانت تتعرض للمصادرة اكثر من مرة فى السنة الواحدة .

القسم الثانى :

المصادرات العينية ، تعرض كثير من المصادرين الى نهب أملاكهم ، ودورهم وتجاراتهم ، وقد شملت تلك المصادرات الأقرباء والأهل ، والذرية ، فقد صودر التاجر ابن الجصاص على أمواله النقدية ، والعينية ، وكان من ضمن الأموال التى أخذت عليه البضاعات التى كان يتاجر بها ، وهى عبارة عن أقمشة وخيول ، بما قيمته (١٦٫٠٠٠٫٠٠٠) دينار [١٣٦] ، وكان ذلك فى عام ٢٩٦ هـ ٩٥٨ م أما فى عام ٢٩٩ هـ / ٩١١ م فقد صودرت فاطمة القهرمانة على جميع أملاكها وأموالها وكان لها من مال عظيم[١٣٧] ، وفى العام نفسه ، صودر الوزير ابن الفرات ونهبت دوره ودور أهله ، وأخذ كل ماوجد لهم من الأثاث والمتاع [١٣٨] . وفى سنة ٣٠١ هـ / ٩٢٣ م صودرت أموال على بن محمد الراسبى الوالى على جند يسابور ، وكان مقدارها مليون دينار وآنية الذهب والفضة ومن الخيل والبغال الف رأس ومن الخز ألف ثوب ، وقيل : أنه كان له ثمانون طرازا ينسج فيها الثياب[١٣٩] ومرة ثانية يصادر التاجر ابن الجصاص فى عام ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م ، فقد قبضت تجارته من العين والورق ، والجواهر ، والفرش والثياب والمستغلات والبساتين[١٤٠] وكان من ضمن الجواهر التى صودرت عليه سبحة من الجواهر قيمتها (٣٠٠٫٠٠٠) دينار[١٤١] .

وعندما تمت مصادرة الوزير على بن عيسى فى عام ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م تمت ايضا مصادرة أملاكه وأمواله واموال اهله وذويه[١٤٢] . وفى عام ٣١٢هـ / ٩٢٤م كانت مصادرة الوزير ابن الفرات فقد أخذ منه " الضياع والأقطاع والأملاك والعقار والأموال ، والغلات ، والأثاث ، والكراع [١٤٣] والجمال ولم يأخذ من أحد

من الوزراء قبله ولابعده مثل ذلك .(١٤٤)

وفي عام ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م أقدم الوزير ابن مقله على مصادرة ضياع الطبيب بختيشوع بن جبريل وجرى بيعها تحت اشراف الوزير بثمن بخس(١٤٥) ، وحصل للوزير نفسه أن أحرقت داره بعد أن كان يضرب بها المثل في الحسن والجمال بما تحتويه من البساتين وانواع الطيور والحيوان وكان ذلك في سنة ٣١٨هـ / ٩٣٠ م(١٤٦) ، وفي عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م صودر أحد التجار ، وصودرت بضاعاته ، بسبب مالوحظ عليه من فضل فيما ابتاع من الضياع(١٤٧)

إدارة المصادرات :

قامت ضريبة المصادرات بالدور الأكبر في حل الأزمة المالية الخانقة ونظرا للأهمية القصوى لهذا المورد المالي ، فقد استحدثت له ادارات متعددة ،ففي صدر الدولة الإسلامية ، كانت (دار الإستخراج)كفيلة بإدارة الأموال المستخرجة من الموظفين الذين يختلسون أموال الجبايات ، ولايؤدونها للدولة فأنشىء لهم (دار الإستخراج) (١٤٨) وفي الدولة العباسية تحورت دار الإستخراج الى (ديوان الإستخراج) ، " ومهمته متابعة أخبار الوزراء والكتاب والعمال والولاة والمهتمين بالرشوة لكي تحصى أسماؤهم وتحدد أوضاعهم ، ثم تصادر أموالهم التي جمعوها من الحرام "(١٤٩) وفي عهد المقتدر كثرت المبالغ المصادرة ، وتعددت المصادرات مماجعل الدولة العباسية تستحدث ديوانا خاصا للإشراف على استيفاء أموال المصادرات سمي بـ (ديوان المصادرات) وعندما تكون المبالغ المصادرة من شخص واحد كثيرة ، فان الأمر يتطلب استحداث ديوان خاص لإدارة تلك الأموال والممتلكات المصادرة مثل دواوين (المقبوضات والمخالفين ، والمرافق) ونشرح

طبيعة عمل كل ديوان على حده وعلى النحو التالى :

ديوان المصادرين :

لقد أنشىء ديوان المصادرين للإشراف على جمع واستيفاء أموال المصادرات سواء المنقولة أم غير المنقولة التى كانت تقرر بعد أن يتعهد الأشخاص المصادرون بدفعها .[١٥٠]

وكان يتولى ديوان المصادرين رجال ثقاة ، ومن المقربين إلى الوزير وتلك القرابة ، كانت وبالا عليهم ، لأنهم كانوا يبعدون بمجرد ابعاد الوزير ، وعندما تظهر خيانتهم ، كانوا يتعرضون للمصادرة [١٥١] ، ونعطى على ذلك مثالا : فقد كان المحسن ابن الفرات ، يتقلد ديوان المصادرين أثناء وزارة والده للمرة الثالثة (٣١١ - ٣١٢ هـ / ٩٢٣ - ٩٢٤م) لقد تعرض للمصادرة والتعذيب والقتل .[١٥٢]

لقد كان ديوان المصادرين يتولى استلام الأموال المصادرة ، ثم تذهب الى أحد بيتى الأموال (الخاصة او العامة)[١٥٣] حسب رأى الخليفة أولا ، ثم حسب حاجة الدولة الى الأموال ثانيا ، إلا أن الوزير ابن الفرات لم يتبع هذا الأسلوب ، ففى أثناء وزارته للمرة الأولى (٢٩٦- ٢٩٩ هـ / ٩٠٨ - ٩١١ م) وكل الى شخصين استلام اموال المصادرات ، وأمر أحد كتابه بمراجعة الحسابات ، دون صاحبى بيت المال ، وبعد النظر فى الوارد والمنصرف يأمر صاحب بيت مال العامة باستلام الباقى[١٥٤] ، وكان النظام المتبع أن توضع خطوط المصادرين فى خزائن الوزارة ، وقد شذعن هذا التنظيم الوزير الخصيبى (٣١٣ - ٣١٤هـ / ٩٢٥-٩٢٦ م) الوزراء ليتسلمها وزير عن وزير وأن تكتب نسختين نسخة للديوان ونسخة عند الوزير [١٥٥] لأن بقاءها عند صاحب الديوان بنسخة واحدة قد

تكون عرضه لان تباع وبذلك يحصل ضرر لبيت المال(١٥٦) .

ديوان المرافق :

يعتبر هذا الديوان من الدواوين المهتمة بشؤون الأموال المصادرة أنشأه الوزير علي بن محمد بن الفرات أثناء وزارته الثانية (٣٠٤ - ٣٠٦هـ / ٩١٦- ٩١٨ م) وهذا الديوان أنشيء من أجل استيفاء الأموال المصادرة من الوزير المخلوع على بن عيسى ومن أخوته وعماله وكتابه(١٥٧) ، وتقلد العمل فى ديوان المرافق هارون بن عمران (١٥٨) الذى تعهد باستخراج المرافق التى عند على بن عيسى وأعوانه(١٥٩) .

ديوان المقبوضات :

كذك يعد هذا الديوان من الدواوين المهتمة بشؤون الأموال المصادرة أنشأه الوزير حامد بن العباس (٣٠٦ - ٣١١ هـ / ٩١٨ - ٩٢٣ م) وقام بتنفيذ العمل فيه على بن عيسى ، وهذا الديوان أنشيء لإدارة الأموال المقبوضة من أم موسى القهرمانة عندما تمت مصادرتها فى عام ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م وقد تقلد العمل فى هذا الديوان ابو شجاع الكاتب (١٦٠) ، وتقلد الزمام عليه ابو عبدالله اليوسفى الكاتب (١٦١) ، وقام ابو شجاع الكاتب باستخراج الأموال الكثيرة ، والجواهر النفيسة والثياب والكسوة والفرش ، والطيب ، حتى بلغ مجموع ماصودر من أم موسى من الأموال النقدية مبلغ مليون دينار (١٦٢) .

ديوان المخالفين :

يعتبر - ايضا - من الدواوين ذات العلاقة بالمصادرات أنشأه الوزير الحسين بن القاسم (٣١٩ - ٣٢٠ هـ / ٣١ ٩ - ٩٣٢م) وتقلد أعماله الكاتب محمد بن

جنى وقد أنشىء هذا الديوان لمصادرة أملاك قائد الجيش مونس المظفر ، وذلك اثناء تأزم العلاقات بين الخليفة المقتدر وبين قائد الجيش مؤنس فى عام ٣١٩ هـ/٩٣١ م . وفى أعقاب تأزم العلاقات استغل الوزير ذلك وأصدر أوامره " بقبض أملاك مؤنس وضياع أسبابه " ، (١٦٣) وقد نال اعجاب الخليفة ماأقدم عليه الوزير الحسين بن القاسم وارتفعت منزلته عنده فأصدر أمره بأن يلقب بـ " عميد الدولة " وأمر أن يضرب لقبه علي العملة (١٦٤).

ومن الملاحظ أن هذه الدواوين الثلاثة كانت مؤقتة تزول بزوال الوزير ، أو بعد عملية تنظيم استلام الأموال من قبل ديوان المصادرين بحيث أن الأموال التى كانت تصادر ، كانت من الكثرة بمكان بحيث لايستطيع ديوان المصادرين استلامها ورعايتها ، فينشأ دواوين مؤقتة تقوم برعاية الأموال المصادرة حتى يتم تسليمها لديوان المصادرين بعد مراجعتها وتنظيم استلامها .

أثر المصادرات على استقرار الملكية :

لقد شكلت المصادرات مصدرا مصدرا إضافيا من مصادر التوسع فى امتلاك الأسرة العباسية للضياع وتكوين الملكيات الواسعة من الأراضى الزراعية والعقارية فكانت المصادرات سلاح ذو حدين فهى من جهة كانت أكبر خطر على الملكية الفردية " (١٦٥) وكانت تصيب المثرين ولاسيما الموظفين منهم (١٦٦) " فقد منعت تراكم الثروة المفرط لدى بعض الأشخاص وقللت من التباين الإقتصادى (١٦٧) ، هذا من جهة ومن الجهة الأخري فقد عمل ذهاب الأموال المصادرة للخزينه على اعادة توزيعها على الموظفين في الرواتب من جهة واستفادة الشعب منها فى بعض الأحيان عن طريق الخدمات التي تقدمها الدولة لهم " (١٦٨) وقد ذكر جورجى

زيدان بأن نظرة الخليفة تجاه الأموال الفردية المصادرة بأنها حق مغتصب من بيت المال وبذلك فالخليفة يرى ان استرجاعها لايعد جورا ولاإجحافا بحق أولئك المصادرين [١٦٩]، وهذه النظرة التى أوردها جورجى زيدان فيها شيء من المغالطة لأنه ليس كل الأموال المصادرة كانت حقوقا مغتصبة من بيت المال فقد لمسنا من خلال العرض السابق ان المصادرات طالت اقواما لايمتون الى الدولة بصلة لارسمية ولاخلاف ذلك ، امثال مصادرة التجار واقرباء واهل واولاد المصادرين وغيرهم فقد وصلت المصادرة لدرجة التعسف غير المعقول ، فقد أقدم الوزير الخصيبى (٣١٣-٣١٤هـ/ ٩٢٥ - ٩٢٦ م) على مصادرة اموال الناس وقال صاحب كتاب الصلة فى ذلك " ولم يدع أحد مالاأحس به الا أخذه بأتعس مايكون الأخذ " [١٧٠] ففى مجال الاعتداء على الملكيات الفردية ، نرى ان التاجر ابن الجصاص تعرض للمصادرة مرتين الأولى عام ٢٩٦هـ / ٩٠٨ م والثانية عام ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م ، وفى كلا الفترتين صودرت تجارته وممتلكاته ، ففى المرة الأولى أخذ منه ماقيمته (١٦٫٠٠٠٫٠٠٠) دينار [١٧١] وفى المرة الثانية لم يبق له من الأموال شيئا سواء المنقولة او غير المنقولة وفى عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م صودرت املاك احد التجار بسبب مالوحظ عليه من فضل فيماابتاع من الضياع . [١٧٢]

وفى عام ٢٩٩ هـ / ٩١١ م صودرت اموال القهرمانة فاطمة "وأخذ ماعندها من مال " [٧٣] وفى عام ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م صودرت أملاك القهرمانة أم موسى واستخرج منها مليون دينار .

وهناك من تعرض للمصادرة من الوزراء بغير حق ، وقد شهدت بذلك جل المصادر وهو الوزير على بن عيسى بن الجراح ، فقد تعرض للمصادرة ولنهب املاكه

وتعـرض للتـعـذيب والطرد من بغـداد لا لأنه نهب واختلس من بيت المال وانما لانه حاول ان يسد عجز الدولة المالى من خلال التنظيمات الداخلية والتى تقضى باسقاط بعض المصروفـات والنفـقـات التى لايرى ضـرورة لهـا ، فـوقف الخدم والحشم واهل البلاط فى وجهه فوشوا به عند الخليفة ، فتعرض للمسألة وهو ولايستحق ذلك (١٧٥) ، وفى مجـال الاعتداء على الامـلاك الفردية نرى ان الوزير ابن الفرات قد نهبت دوره وامواله ، هو وابنه وزوجته وكاتبه اكثر من مرة بل تقريبا ثلاث مرات حتى قيل " لم يأخذ من أحد من الوزرا ؟ء قبله ولابعده مثل ذلك ". (١٧٦)

وفى عـام ٣٠١ هـ / ٩١٣ م تعرضت ثروة الراسبى للاعـتـداء والمصادرة وكـان مقدارها (١٠٠٠٠٠٠) دينار بالاضافة الى آنية الذهب والفضة والخيل والبغال وانواع الأقـمـشـة (١٧٧) ، وفى عـام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م تعـرضت امـلاك الوزير حامد بن العباس للمصادرة والنهب والاعـتدا وعلاوة على ذلك فقد حياته (١٧٨) ، وشمل الاعتداء على املاك الأطباء، فقد اعتدى الوزير ابن مقلة على ضياع الطبيب بختيشوع وباعها بثمن بخس مع انها تساوى اكثر من عشرة ملايين دينار(١٧٩) .

وازاء الهـروب من خطر المصادرات نشأت سنن غير مرغـوب فـيـهـا منهـا ان من خاف على ماله لجأ الى حيلة ليخفوا ثروتهم عن العيون فـمثلا اودعت الامـوال عند اشخـاص لايشتـبه فـيـهم فـقام الوزير ابن الفرات بوضع امواله عند القـاضى ابى عمر (١٨٠) كماوضع كاتبه (٧٠٠٠٠) عند أناس آخرين (١٨١) .

ومن السـنن غيـر المرغـوبة ، نشـأت عـادة دفـن النقـود ، وكـانت من أخطر الامـور التى جـرت وبالا مـدمرا على الأقـتـصـاد العـبـاسـى فـفى عـام ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م ، عندمـا صـودر التـاجـر ابن الجـصـاص و " حفـرت داره فـوجدت له فـى بسـتـانه أمـوال

جليلة مدفونة فى جرار خضر وقماقم مرصعة الرؤوس فحملت بهيئتها الى دار المقتدر " [١٨٢] وفى عام ٣١١ هـ / ٩٢٣م اعترف الوزير حامد بن العباس انه دفن (٥٠٠,٠٠٠) دينار [١٨٣] ، ووجد له فى بئر المستراح ببغداد (٤٠٠,٠٠٠) دينار [١٨٤] ، وكان المتمردون فى عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م قد أخرجوا من تربة السيدة ام المقتدر بالرصافة (٦٠٠,٠٠٠) دينار حيث كانت مخبأة هناك [١٨٥].

" وكان لدفن النقود أثر اقتصادى سيء ، اذ فقدت بذلك كميات كبيرة من النقود الذهبية والفضية بوفاة أصحابها ونتج عن ذلك حجز كميات كبيرة من النقود للتداول مما يؤدى إلى عرقلة الحركة التجارية وإلى اضعاف نمو المؤسسات الصيريفية " [١٨٦] ، وتشير عادة دفن النقود الى حالتين :

الأولى : أن المجتمع لم يعد يدرك تماما أهمية تشغيل الأموال ، وهذا يبدو أنه غير وارد بحكم كون العرب تجارا منذ الأزمنة القديمة .

الثانية : عدم استقرار أحوال الدولة العباسية (خلال حكم المقتدر) وهذا وارد بلاشك لعدم وجود الزمن والاطمئنان . " وفى كلا الحالتين شل للحركة التجارية ". [١٨٧]

وماقيل عن الأملاك العقارية ، يمكن أن يقال عن الأموال النقدية فيظهر لنا جليا ان المصادرات كانت تتم بطريقة عشوائية ، ولم تكن هناك نسب محددة لمبالغ المصادرة ، ولم تكن حسب قدرة الشخص المالية فقد يدفع الشخص المصادر جزءا من المبلغ مقدما ويكتب خطوطا بالمبالغ المتبقية تدفع على شكل دفعات مقسطة ، فقد صودر ابن الفرات فى عام ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م على مبلغ (٧٠٠,٠٠٠)

دينار ، وكان دخله من ضياعه (۱ر۰۰ ٥ر۰۰۰) دينار فان مصادرته تبلغ ٤٢٪ من دخله واحيانا بضطر المصادر الى بيع املاكه وجميع مقتنياته مثل الوزير حامد ابن العبـاس عندمـا صـدور عـام ۳۱۱ هـ / ۹۲۳ م . وهذا يعنى ان المصـادرة تجاوزت كل الدخل .

ومن خلال العرض السابق يتضح لنا ان المصادرات سببت ارباكا للناس واصبح الكل يخاف على أمواله وممتلكاته ، فقد وصل الحال - كما لمسنا - أن بعض الوزراء كان يصادر أى شخص يحس أن عنده اموال ومن هنا اثرت المصادرات على الملكيات وخاصة من لهم صلة قرابة بالشخص المصادر سواء كانت المصادرة ذات سند شرعى او خلاف ذلك ، فقد لمسنا ان المصادرات طالت فئات لاعلاقة لهم بأجهزة الدولة الرسمية .

الخاتمة :

تعد ضريبة المصادرات من الضرائب التعسفية التى ماانزل الله بها من سلطان والتى كانت تفرض او تؤخذ نظير دوافع سياسة او شخصية او اقتصادية بحته .

- وقد كثرت المصادرات حينما انعدمت وسائل الرقابة المالية فعمت الفوضى الإدارية وتوالت المؤامرات من قبل الوزراء والكتاب والحاشية على بعضهم البعض ، ولم يعد أحد يطمئن على نفسه وماله وتسبب عن هذا حدوث حركات تمردية استهدفت قطع علاقاتها بمركز الخلافة . الامر الذى ادى الى ضياع وحدة الدولة .

- لقد أدت المصادرات الى أمور غير مرغوب فيها فالوزراء والموظفين واعوانهم صاروا مضطرين الى جمع الاموال بوسائل غير مشروعة استعدادا لليوم الاسود (يوم المصادرة والتنكيل).

ثم ان المصادرات ادت الى خلق روح الكراهية والحقد والانتقام ، فكان بمجرد ان يأتى الوزير الجديد الى كرسى الوزارة يبدأ فى تصفية حساباته مع الوزير السابق وأعوانه وخاصه ممن تولى الوزارة لاكثر من مرة فيعود ومعه اعوانه وهم مشبعون بروح الانتقام وهذا بدوره يؤدى بلاشك الى اضطراب الامن وانتشار الظلم ويزيد ايضا فى الاحقاد والضغائن ، وحبك المكائد للايقاع بالخصوم ومن هنا تولدت روح الكراهية والانتقام .

- لقد ادت المصادرات الى الاعتداء على الملكيات الفردية ونهبت اموال الناس فى عهود بعض الوزراء وتسلط آخرون على ممتلكات وعقارات المصادرين حتى ان الامر قد امتد ليشمل اناسا غير رسميين ليست لهم علاقة بمؤسسات للدولة .

واخيرا لقد اصبحت المصادرة فى عصر الخليفة المقتدرة عادة متبعة يتم بموجبها استخراج الاموال بالقوة والعنف وكان حب المال هو الدافع الى ذلك وان تعارضت اساليبها مع الشرع والعرف والاخلاق .

" الهوامش والتعليقات "

(١) صالح العلى : التنظيمات الإجتماعية والإقتصادية فى البصرة فى القرن الأول الهجرى ص ١٢٤ .

(٢) السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٨٦ .

(٣) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، جـ ٧ ، ص ٢١٦.

(٤) الذهبى : دول الاسلام ، جـ١ ص ١٣١ .

(٥) المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ٣٢٨ ، ابن دحية : النبراس ، ص ١٠٩.

(٦) عن موضوع فساد نظام الوزارة يمكن الاطلاع على أهم ماكتب فى ذلك .
الصابى : الوزراء مسكويه :تجارب الأمم ، جـ١ ، ابن الطقطقا : الفخرى .

(٧) عريب : الصلة ص ٤١ ابن الطقطقا : الفخرى ، ص ٢٦٧ .

(٨) مسكويه : تجارب الأمم جـ١ ، ص ٢٦ / ٢٧ / ١٣٧ . عريب : الصلة ، ص ٧٢ . الصابى : الوزراء ، ص ٤٠ / ٦٩ / ٧٠ .

(٩) السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٦٥ .

(١٠) المسعودى : مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ٢٩٢ . التنبيه ، ص ٣٢٧ .

(١١) ابن منظور : لسان العرب ، جـ٤ ، ص ٤٤٧ .

(١٢) الرازى : مختار الصحاح . ص ٣٥٨ .

(١٣) آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، جـ١ ، ص ٢٢٠.

(١٤) جورجى زيدان : التمدن الإسلامى ، جـ١ ، ص ٤١٢ .

(١٥) الصابى : الوزراء ، ص ٤٤ . مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ،ص٨

(١٦) السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٨٦ / ٢٨٧ .

(١٧) الصابى : الوزراء ، ص ١٥٢ ، مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٢٨ ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٧٣ .

(١٨) الصابى : الوزراء ، ص ٢٤٥.

(١٩) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٥٧ .

(٢٠) ابن الاثير : الكامل جـ٨ ، ص ٤٣ .

(٢١) ابن الطقطقا : الفخرى ، ص ٢٧٣ .

(٢٢) عريب : الصلة ، ص ١٢٧ / ١٢٨ .

(٢٣) جورجى زيدان : التمدن الإسلامى ، جـ١ ، ص ٤١٥ .

(٢٤) محمد بن عبدون ، من الأهواز ، كان من كتاب الدواوين الحذاق ، طمع فى منصب الوزارة ، فأدى ذلك الى مصادرته وإبعاده عن الدواوين حتى جاء عهد الخليفة الراضى بالله فقلده دواوين الأزمة ، عريب : الصلة ، ص ٢٧ .

(٢٥) الصابى : الوزراء ، ص ٣١ .

(٢٦) ام موسى : هى بنت العباس بن محمد بن سليمان بن محمد بن ابراهيم الإمام ، والقهرمانة : تعنى الوكيل . كان لها اليد الطولى فى ادارة شئون الدولة . مجهول : العيون ، ص ٢٣١ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ٦ ، ص ١٦٦ .

(٢٧) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٦٧ .
(٢٨) خوله شاكر : بيت المال ، ص١٩٦
(٢٩) اليوزبكى : الوزارة ، ص ١٥٧ .
(٣٠) م . س .ن : ص ١٥٨ . ترمز هذه الأحرف الثلاثة إلى اختصار جملة (المصدر السابق نفسه) . م : المصدر . س . السابق . ن : نفسه.
(٣١) مسكويه : تجارب الأمم جـ١ ، ص ١٧.
(٣٢) عريب : الصلة ، ص ٢٢ .
(٣٣) مجهول : العيون والحدائق ، ص ٢٦٥ .
(٣٤) الأزدى : اخبار الدول المنقطعة ، ص ٢١٤ / ٢١٥ .
(٣٥)صلاح الدين المنجد : بين الخلفاء والخلعاء ، ص ١١٨ .
(٣٦) الكبيسى : المقتدر بالله ، ص ٥٥٥.
(٣٧) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٦٢.
(٣٨) الأزدى : اخبار الدول المنقطعة ، ص ٢٢٧ .
(٣٩) الصابى : الوزراء ، ص ٣٤٢ .
Sourdel : Le Vzirat , Abbassde, L . 448 .
(٤٠) جورجى زيدان : التمدن الاسلامى ، جـ ١ ، ص٤١٦ .
(٤١) الكبيسى : المقتدر بالله ، ص ٢٤١ .
(٤٢)الصابى : الوزراء ، ص ٣٨
(٤٣) عريب : الصلة ، ص ٣٩ .
(٤٤) الكبيسى : المقتدر بالله ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

(٤٥) عـريب : الصلة ، ص ١٦٤ ، ولم تطل أيام وزارة الكلوذانى أكـثـر من شهرين وثلاثة أيام .

(٤٦) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ١٠ ، ص ١٤٥ .

(٤٧) مسكويه : تجارب الامم ، جـ١ ، ص ١٢٨ .

(٤٨) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٣٨ .

(٤٩) عريب : الصلة ، ص ٦١ .

(٥٠) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٨٠ .

(٥١) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٤٥.

(٥٢) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ٢٠٢.

(٥٣) الصابى : الوزراء ، ص ٣١ .

(٥٤) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٤٧ .

(٥٥) الصـابى: الوزراء ،ص ٢٤٥، ٢٤٦ ، ابن الجـوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص١٧٣

Bown : Ali Ben Isa . P . 225

(٥٦) ابن الطقطقا : الفخرى ، ص ٢٧١ .

(٥٧)مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٤٥ .

(٥٨) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ٢٠٢ .

(٥٩) م . س . ن : جـ ٦ ، ص ١١٢ .

(٦٠) م . س . ن : جـ٦ ، ص ١٦٧ ، ابن الأثيـــر : الكامل ، جـ٦ ، ص ١٧٢

ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١١ ، ص ١٤٥ .

(٦١) Bown : Ali Ben Isa . P . 198 .

(٦٢) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٧٣ .

(٦٣) فهمى عبدالرازق : العامة فى بغداد ، ص ٣٧ .

(٦٤) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٧٣ .

(٦٥) عريب : الصلة : ص ١٦٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١١ ، ص ١٦٨ .

(٦٦) التنوخى : نشوار المحاضرة ، جـ١ ، ص ٢٥ . ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ٨٢ .

(٦٧) المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٤ ، ص ٣١٠ .

(٦٨) السامرائى : الإدارة المالية فى الإسلام ، جـ ٢ ، ص ٥٤١ .

(٦٩) م . س . ن : جـ٢ ، ص ٥٢٩ .

(٧٠) عريب : الصلة ، ص ١٢٧ / ١٢٨ .

(٧١) الصابى : الوزراء ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .

(٧٢) السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٨٨.

(٧٣)صلاح الدين المنجد : بين الخلفاء والخلعاء ، ص ١١٨ .

(٧٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ١٠ ، ص ١٤٥ .

(٧٥) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٠٩ . ابن الاثير : الكامل ، جـ٦ ص ١٣٩ .

(٧٦) ابن الطقطقا : الفخرى ، ص ٢٦٧ .

(٧٧) ابن الاثير : الكامل ، جـ٦ ، ص ١٧٩ . ابن الطقطقا : الفخرى ، ص ٢٧٠ .

(٧٨) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٥٥ .

(٧٩) م . س . ن : جـ١ ، ص ٢٠٣ .

(٨٠) م . س . ن : جـ١ ، ص ٨٣ .

(٨١) مجهول : العيون والحدائق ، ص ٢٤٧ .

(٨٢) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٧٣ .

(٨٣) عريب : الصلة ، ص ١١٢ .

(٨٤) م . س . ن : ص : ٦٩، مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص١٣٣ .

(٨٥) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٨٩ .

(٨٦) Bowen : Ali Ben Isa . P . 198

(٨٧)الأزدى : أخبار الدول المنقطعة ، ص ٢٢٧ ، الصابى : الوزراء ، ص ٢١٠ .

(٨٨) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ص ٢٠٣ ، وتعد دار الوزير ابن مقله من أجمل الدور العباسية ، وقد أنفق على تشييدها (٢٠٠,٠٠٠) دينار ، وكان يحيط بها بستانا جميلا ، به مكان خاص لتربية الطيور والحيوانات تضم أغرب وأجمل أنواع الطيور والحيوانات . انظر : ابن الأثير : الكامل ، جـ ٦ ، ص ٢٠٩ .

(٨٩) الأزدى : أخبار الدول المنقطعة ، ص ٢٢٧ .

(٩٠) ابن الأثير : الكامل ، ص ٦ ، ص ١٧٤ .

(٩١) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٢٢٨ .

(٩٢)مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

(٩٣) م . س . ن : جـ١ ، ص ١٣٨ .

(٩٤) الكبيسى : المقتدر بالله ، ص ٥٥٥، السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٨٩ .

(٩٥) الصابى : الوزراء ، ص ٣٣ ، ٥٤ ، مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٠٩.

التنوخى : الفرج بعد الشدة ، جـ١ ، ص ١٢٧.

(٩٦) التنوخى : نشوار المحاضرة ، جـ٨ ، ص ٢٥ .

(٩٧) السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٨٨ .

(٩٨)مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٨ .

(٩٩) م . س . ن : جـ١ ، ص ١٤ .

(١٠٠) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، جـ١ ، ص ٢٧١ ، بينما ذكر ابن كثير مبلغا اكبر من ذلك بكثير حيث قدر المصادرة بستة ملايين دينار وأعتمدنا رواية الكتبى لقلة مبلغها الذى كان فى حدود المقبول والمعقول ، لأن ابن كثير قد بالغ فى الرقم ، فهناك فرق كبير بين ستة آلاف دينار ، وستة ملايين دينار ، ولعل المبالغة فى رقم ابن كثير ناتجة عن خطأ فى نسخ المخطوط ، أو فى طباعته . انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١١ ، ص ١٠٧ .

(١٠١) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ص ١٢٦ ، وقد ذكرها مسكويه بنصف

مليون دينار ، جـ١ ،ص ٣٤٠ .

(١٠٢) المسعودى : مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ٣١٠ ، وقد اختلفت الروايات حول المبالغ المصادرة من ابن الجصاص ، فقد ذكر مسكويه بأنها أربعة ملايين دينار ، جـ١ ، ص ٣٥ ، وذكر عريب بأنها ستة ملايين دينار ، ص ٤٨ ، وذكر ابن الجوزى بأنها كانت ستة عشر مليون دينار ، جـ٦ ، ص ١٢٧ ، وقد اعتمدنا رواية المسعودى لسبقه فى نقل الرواية من جهة ، ثم لتقارب روايات مسكويه ، وعريب مماذكره المسعودى من جهة أخرى ، اما مبلغ ابن الجوزى فيبدو انه قد اشتمل على جميع الأموال المصادرة النقدية والعينية مجتمعة .

(١٠٣ ، ١٠٤) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٦٤ / ٦٦.

(١٠٥) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٦٧ .

(١٠٦) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٩٣ .

(١٠٧) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٨٠ .

(١٠٨) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٠٢ ، بينما ذكر ابن الجوزى بأن مقدار المصادرة كان (١٫٣٠٠٫٠٠٠) دينار ، المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٧٣ ، بالاضافة الى الأموال التى وجدت مدفونة فى بئر المستراح ببغداد ، ومبلغها (٤٠٠٫٠٠٠) دينار ، انظر ابن الجوزى ، المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٨٣ / ١٨٤.

(١٠٩) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٧٣ .

Jurgi Zaydan : History of Islamic Civilization .p.210

(١١٠) ابن الطقطقا : الفخرى ، ص ٢٧١ .

(١١١) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٧٣ .

(١١٢) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٠٠ .

(١١٣) الجهبذ : هو الشخص الذى يتولى رئاسة مجلس الجهبذ فى ديوان الخراج والجهبذة ضريبة تعسفية ليس لها أصل ، ويطلق مصطلح الجهبذ على الصراف الصابى : الوزراء ، ص ٣٧ / ٤٨ .

(١١٤) هذه قائمة وجدت فى ديوان المغرب من الدواوين المالية فى عهد المقتدر تضمنت زسماء من تمت مصادرتهم ابان وزارة ابن الفرات الثالثة (٣١١ - ٣١٢ هـ / ٩٢٣ - ٩٢٤م) بداء من أحمد بن محمد البسطامى وانتهاء بسليمان بن مخلد .

وردت هذه القائمة فى كتاب الوزراء للصابى ، ص ٢٤٥ - ٢٤٨ .

Jurgi Zaydan : History of Islamic Civilization .p.211

(١١٥) الصابى : الوزراء ، ص ٤٤ .

(١١٦) م . س . ن : ص ٥٠.

(١١٧) Bowen : Ali Ben Isa . p . 225 .

(١١٨) ابن مخلدون : العبر ، جـ٣، ص ٧٧ .

(١١٩) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٣١ ، ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٨٩ .

(١٢٠)ابن خلدون : العبر ، جـ٣ ، ص ٧٧ .

(١٢١) مسكويه : تجارب الإمم ، جـ١ ، ص ١٢٨ .

(١٢٢) م . س .ن : جـ١ ، ص ١٤١ .

(١٢٣) م . س .ن : جـ١ ، ص ١٤٤ .

(١٢٤) م . س .ن : جـ١ ، ص ١٤٤ .

(١٢٥) م . س .ن : جـ١ ، ص ١٤٧ .

(١٢٦) م . س .ن : جـ١ ، ص ١٤٧ .

(١٢٧) م . س .ن : جـ١ ، ص ١٥٠ .

(١٢٨) م . س .ن : جـ١ ، ص ٢٠٨ .

(١٢٩) الكبيسى : المقتدر بالله ، ص ٢٢٣ .

(١٣٠) م . س .ن : ص ٢٢٣ .

(١٣١) ابن الأثير : الكامل ، جـ٦ ، ص ٢٠٩ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ١١ ، ص ١٦٤ ، ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ، ص ٧٨٧ ، بينما ذكر مسكويه رقما كبيرا مبلغه (٢٫٠٠٧٫٠٠٠) دينار ، جـ١ ، ص ٢٠٩ . ويبدو أن هذا الرقم فيه مبالغة كبيرة جدا . وقد اعتمدنا المبلغ المثبت فى الجدول نظرا لتواتر رواته واتفاقهم على مبلغه .

(١٣٢) عريب : الصلة ، ص ١٦٧ .

(١٣٣) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٢١٢ .

(١٣٤) ابن الاثير : الكامل ، جـ٦ ، ص ٢٢٠.

(١٣٥) جورجى زيدان : التمدن الإسلامى ، جـ١ ، ص ٤١٦ .

(١٣٦) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، جـ١ ، ص ٢٧١ . التنوخى : نشوار المحاضرة ، جـ١ ص ٢٥ .

(١٣٧) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٦ ، ص ١١٢ .
(١٣٨) الطبري : تاريخ ، جـ١٠ ، ص ١٤٥ ، حتى ان الخليفة سمح للجند والعوام من نهب دوره ودور أبنائه .
(١٣٩) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٢٦ .
(١٤٠) المسعودي : مروج الذهب ، جـ٤ ، ص ٣١٠ .
(١٤١) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦، ص ٧٠.
(١٤٢) عريب : الصلة ، ص ٦١ ، ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٣٨ / ١٤٧.
(١٤٣) الكراع : من معانى الكراع انه كان يطلق على الخيل والبغال والحمير. الصابى : الوزراء ، ص ٢٣ .
(١٤٤) الصابى : الوزراء ، ص ٣٤ ، ٣٥ ، ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١٠٩ .
(١٤٥) السامرائى : الإدارة المالية فى الإسلام ، جـ٢ ، ص ٥٢٩ .
(١٤٦) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٢٠٣ . مجهول : العيون والحدائق ، جـ٤، ص ٣٥١، ابن الأثير : الكامل ، جـ٦ ، ص ٢٠٩ .
(١٤٧) مسكويه: تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٢٣١ .
(١٤٨) صالح العلى : التنظيمات الإجتماعية والإقتصادية فى البصرة ، ص ٢٢٨ .
(١٤٩) صبحى الصالح : النظم الإسلامية ، ص ٣١٧، اليوزبكى : دراسات فى النظم الإسلامية ، ص ١٤٥ .

(١٥٠) السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٩٠ .
(١٥١)مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٢١ .
(١٥٢) الصابى : الوزراء ، ص ٣٣٢ .
(١٥٣) بيت مال الخاصة : هو المحل الذى تحفظ فيه أموال الخلفاء وحاشيتهم وقد أنشىء لسدنفقات الخليفة وحاشيته ، ويعتمد فى دخله على الضياع السلطانية ، وبعض أموال المصادرات.
بيت مال العامة : هو المحل الذى تحمل إليه الأموال من الأقاليم لتعد للمصلحة العامة .
انظر : الماوردى : الاحكام السلطانية ، ص ٢٩ .
(١٥٤) التنوخى : نشوار المحاضرة ، جـ٨ ، ص ٢٤ ، السامرائى : المؤسسات الادارية ، ص ٢٩١ .
(١٥٥) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ص ١٥٥ .
(١٥٦) Sourdel : le Vzirat , Abbassde p . 440 .
(١٥٧) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ص ٤٢ . السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٩٩ .
(١٥٨) الصابى : الوزراء ، ص ٣٨ .
(١٥٩) م . س .ن : ص ٢٨ / ٣٧ / ٩٢ .
(١٦٠) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٥٤ . الصابى : الوزراء ، ص ٣١١ .
(١٦١) السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٣٠١ .

(١٦٢) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ١٣٠ .
(١٦٣) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ص ٢٢٢ ، الهمدانى : التكملة ، ص ٨٣ .
(١٦٤) م . س .ن ص ٨٣ . السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٣٠٣ .
(١٦٥) السامرائى : الإدارة المالية فى الإسلام ، جـ٢ ، ص ٥٢٣ .
(١٦٦) الصابى : الوزراء ، ص ٣٣٣.
(١٦٧) الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ، ص ٢٥٨.
(١٦٨) السامرائى : المؤسسات الإدارية ، ص ٢٩٠ .
(١٦٩) جورجى زيدان : التمدن الاسلامى ، جـ٢ ، ص ١٦٦ . الكبيسى : المقتدر ص ٥٥٥ .
(١٧٠) عريب : الصلة . ص ١٢٧ / ١٢٨ .
(١٧١) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ٨٢ .
(١٧٢) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ص ٢٣١ .
(١٧٣) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦ ، ص ١١٢ .
(١٧٤) م . س . ن : جـ٦ ، ص ١٦٧ .
(١٧٥) وتعرض أخويه ، ابراهيم وعبدالله وابنه للمصادرة ونهب املاكهم ودورهم وحوسبوا محاسبة عسيرة ، انظر : عريب : الصلة ، ص ٦١ . ابن الجوزى : المنتظم جـ٦ ، ص ١٤٧ .
(١٧٦) م .س . ن : جـ٦ ، ص ١٠٩ .
(١٧٧) م . س . ن : جـ٦ ، ص ١٢٦ .

(١٧٨) م . س . ن : جـ٦ ، ص ١٧٣ .

(١٧٩) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ، ص ٢٠٠

(١٨٠) م . س . ن : جـ١ ، ص ٦٧ .

(١٨١) التنوخي : نشوار المحاضرة ، جـ٨ ، ص ٥٣.

(١٨٢) عريب : الصلة ، ص ٤٨ .

(١٨٣) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ١ ص ١٠٢ .

(١٨٤) ابن الجوزى : المنتظم جـ٦ ، ص ١٨٣ .

(١٨٥) مجهول : العيون والحدائق ، ص ٣٤٢.

(١٨٦) الدورى : تاريخ العراق الإقتصادى ، ص ٢٦٠ .

(١٨٧) الكبيسى : المقتدر ، ص ٢٤٥ .

المصادر والمراجع

اولا : المصادر :-

ابن الاثير : ابو الحسن على بن أبى الكرم ، محمد بن عبدالكريم الجزرى : (ت ٦٣٠ هـ) -" الكامل فى التاريخ " ادارة الطباعة المنيرية ، القاهرة ١٣٥٣هـ.

ابن الجوزى : ابو الفرج ، عبدالرحمن بن على (ت ٥٩٧ هـ).
" المنتظم فى تاريخ الملوك والامم " حيدر آباد ، ١٣٥٧ هـ

ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)
العبر وديوان المبتدأ والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر " دار الكتاب اللبنانى ، المطبعة الباسلية ، بيروت ، ١٩٥٧ .

ابن دحية : مجد الدين ، عمر بن حسن بن على (ت ٦٣٣ هـ)
" النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس " تحقيق ، المحامى عباس الغزاوى ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٣٦٥ هـ .

ابن شاكر الكتبى : محمد بن احمد (٧٦٤ هـ)
" فوات الوفيات " تحقيق ، محمد محى الدين عبدالحميد ، نشر : مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٥١ م .

ابن الطقطقا : محمد بن على بن طباطبا (ت ٧٠٩ هـ)
" الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية " دار بيروت

للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٨٥ هـ .

ابن كثير : عماد الدين ابو الفداء ، اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ) " البداية والنهاية فى التاريخ " مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٣٢ م

ابن منظور : جمال الدين ، محمد بن مكرم بن على (ت ٧١١ هـ)
" لسان العرب " نشر : دار صادر ، ودار بيروت ، طبعة دار لسان العرب بيروت ١٣٨٩ هـ .

الازدي : جمال الدين ، ابو الحسن ، على بن ابى منصور (ت ٦١٣ هـ)
" اخبار الدول المنقطعة ، تاريخ الدولة العباسية " تحقيق د . محمد بن مسفر الزهرانى ، مطبعة العانى ، القاهرة ١٤٠٨
نشر : مكتبة الدار بالمدينة المنورة .

التنوخى : ابو على ، المحسن بن ابى القاسم على بن محمد (ت ٣٨٤ هـ)
" جامع التواريخ المسمى نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة " جـ٨ من مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ، مطبعة ابن زيدون دمشق ، ١٩٣٠ م.

التنوخى : " الفرج بعد الشدة " الطبعة الأولى ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ١٩٥٥ م .

الخطيب البغدادى : ابو بكر ، احمد بن على (ت ٤٦٣ هـ)
" تاريخ بغداد او مدينة السلام " دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٣١ م .

الذهبى : شمس الدين ، ابو عبدالله محمد بن احمد (ت ٧٤٨ هـ)

" دول الاسلام " مطبعة دار المعارف العثمانية ، حيدر آباد ،١٣٦٤ هـ
الرازي : محمد بن ابى بكر بن عبدالقادر (ت ٦٦٦هـ "
" مختار الصحاح " نشر : دار الكتب العربية ، بيروت .
الصابى : ابو الحسن ، الهلال بن المحسن بن ابراهيم بن زهرون (ت ٤٤٨هـ)
" الوزراء او تحفة الامراء فى تاريخ الوزراء " تحقيق : عبد الستار احمد فرج ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .
الطبرى : ابو جعفر ، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) " تاريخ الرسل والملوك "
تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ١٩٧٩ م القاهرة
عريب ، بن سعيد القرطبى ، (ت ٣٦٩ هـ)
" صلة تاريخ الطبرى " تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، طبع ونشر : دار المعارف بمصر ، القاهرة .
مجهول : " العيون والحدائق فى اخبار الحقائق " باعتناء دى خويه ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٨٧١ م .
المسعودى : ابو الحسن ، على بن الحسين بن على (ت ٣٤٦ هـ)
" مروج الذهب ومعدن الجوهر " تحقيق : محمد محى الدين عبدالحميد نشر : دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٣٨٣ هـ
المسعودى : " التنبيه والاشراف " باعتناء دى خويه ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩٨٣ م .

مسكويه : ابو على ، أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١ هـ)
" تجارب الامم " ، جـ١ ، مطبعة التمدن الصناعية بمصر ، ١٣٣٢ هـ .
الهمدانى : محمد بن عبدالملك (ت ٥٢١ هـ)
" تكملة تاريخ الطبرى " تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم طبع ونشر : دار المعارف ، القاهرة .

ثانيا : المراجع :-

ادم متز : " الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى او عصر النهضة فى الاسلام " ترجمة : عبدالهادى ابو ريدة . طبع ونشر : دار الكتاب العربى ، بيروت ومكتبة الخانجى بالقاهرة ، الطبعة الرابعة ، بيروت ، ١٣٨٧ هـ .
جورجى زيدان : " تاريخ التمدن الاسلامى " مؤسسة خليفة للطباعة منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، الطبعة الثانية (بدون تاريخ) .
خوله شاكر الدجيلى : " بيت المال نشأته وتطوره " مطبعة وزارة الاوقاف بغداد ، العراق ، نشر : جامعة بغداد ، ١٣٩٦ هـ .
الدورى ، عبدالعزيز : " تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى " . دار المشرق ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٤ م .
السامرائى : حسام الدين : " المؤسسات الادارية فى الدولة العباسية " دار الفكر العربى ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ هـ
السامرائى : " الادارة المالية فى الاسلام ، بحث تطور ملكية الارض فى العصور العباسية " جـ٢ ، طبع ونشر : المجمع الملكى لبحوث

الحضارة الاسلامية الاردن ، عمان ، ١٩٨٩ م .
صالح العلى : " التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الاول الهجرى " طبع ونشر : دار الطليعة ، بيروت الطبعة الثالثة ، ١٩٦٩ م .
صبحى الصالح : " النظم الاسلامية " دار الملايين ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٣٩٦ هـ .
صلاح الدين المنجد : " بين الخلفاء والخلعاء " دار الكتاب الجديد ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٠ م ، بيروت .
فهمى عبدالرازق سعد : " العامة فى بغداد فى القرنين الثالث والرابع الهجريين " الاهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٣ م .
الكبيسي ، حمدان عبدالمجيد : " الخليفة المقتدر بالله ، ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ " مطبعة النعمان ، النجف الاشرف ، ساعدت جامعة بغداد على طبعه ١٣٩٤ هـ .
اليوزبكى ، توفيق سلطان : " الوزارة ، نشأتها وتطورها فى الدولة العباسية " مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٣٩٠ هـ ، نشر : وزارة التربية والتعليم العراقية .

ثالثا : المراجع الأجنبية :-

Bown , H . " The Life and Times of Ali Ben Isa , The Good Vasier " Cambridge , 1928 .

Sourdel D . : " Le Visirate Abbassides , 749 A936 (132 A 324 de Heqiere " 3 Vol . : Damascus , 1959

Jurji Zaydan : " History of Islamic Civilization " Translated by D . S . Margoliouth , Published by : Nusrat Ali Nasri. Kitab Bhavan . (R ep . 1981) .

لمعان الضوء فى دياجير الظلام
دراسة لعهد الصدر الأعظم محمد كوبريلي
١٠٦٦ هـ - ١٠٧١ هـ
١٦٥٦ م - ١٦٦١ م

تأليف

د . يوسف بن على بن رابع الثقفى
الأستاذ المشارك فى التاريخ الحديث بكلية الشريعة
بجامعة أم القرى
مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

انتهى عصر القوة والمجد والسؤدد فى الدولة العثمانية بوفاة السلطان سليمان القانوني عام ٩٧٤ هـ - ١٥٦٦ م ، وبدأ بعده عصر الضعف والتفكك ، انتهي العصر الذى وصلت فيه الفتوحات العثمانية الى أواسط أوربا ليأتى بعده عصر التفكك ومنافسات داخلية ساهمت في ضعف الدولة وتدهور الأوضاع فيها حتى أصبحت مستهدفة لأعدائها في الداخل والخارج وأصبحت في موقف الدفاع بعد أن كانت في موقف الهجوم .

أن الفترة الزمنية التي سبقت تولى حكم كوبريلي منصب الصدارة العظمى (*) في حكومة الدولة العثمانية شهدت مآسي كثيرة مؤثرة . فالادارة تفشت فيها مظاهر الفساد وعدم الضبط ، والجيش الذى كان يفتح في أوربا تحت راية الاسلام قادته يتخبطون في المؤامرات الداخلية وتنصيب سلطان وعزل آخر ، والعامل الديني الذى كان المحرك الأول للفتوحات العثمانية في أوربا لم يعد كما كان حيث أصبح رجال الدولة من سادة وجنود مهتمون بجمع المال وملذات الدنيا . (١)

لقد انتشرت الفوضي في الأقاليم ، وسيطر بعض الثوار على مناطق كثيرة ، وازداد نفوذ القواد الانكشاريين ، وأكثر الموظفون من أخذ الرشوة ، وأصبح النفوذ

(*) الصدارة العظمى هي إلديوان العالي أو ديوان الهمايوني في اسطانبول والذى يتكون من الوزراء والمفتى ؛ والسلطان لا يجلس معهم في الديوان ولكنه يجلس في مكان يطل منه عليهم ، فيرى ويسمع ما يدور فيه ، وعلى أعضاء أن يرفعوا أصواتهم ويفصحوا في عباراتهم لكي لا يخفى على السلطان شيء ولكي يعرف الأصلح والأنفع منهم ، ورئيس هذا الديوان يسمى ب " الصدر الأعظم " .

" اتحاف الملوك الألباب " مؤلف مجهول ترجمه من الفرنسية خليفة محمود ص ٣٦٦

(١) اتحاف الملوك الألباب ، لا يعرف مؤلفه ، ترجمه من الفرنسية خليفة محمود ، ص ١٧٩ .

السلطاني في أيدي نساء القصر ، وزادت أطماع الدول الأجنبية في أملاك الدولة . [1]

يقول المؤرخ العثماني اسماعيل سرهنك :

" قد كانت أحوال الدولة في ذلك الوقت (يقصد النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادى) في أشد المضايقة ، وماليتها على شفا الافلاس ، وجنديتها البرية التي دبت بينها عوامل التحزب والانحطاط، وأباد البنادقة أساطيلها في عدة وقائع واستولوا على عشر جزر مهمة ببحر الأرخبيل ، كل ذلك والدولة في حالة سبات وخمول ، لا تتمكن من رتق فتق الا وقد فتح فيها فتوق ، ولا تقدر على سد شق الا واتسعت منها شقوق حتى قيض الله لها رجلا شهما حازما ، ووزيرا عالي الهمة نادرا ألا وهو كوبريلي محمد باشا ، وكان من الذين حنكتهم التجارب ودربتهم الأيام . ولما قبض علي مسند الصدارة شمر عن ساعد الجد لسد الخلل ورأب الصدع فتمكن من مراده لكونه كان يريد في الحقيقة الاصلاح ويبتغي بكل جوارحه النجاح ، وهكذا كل أمر خلصت له النية وحسنت فيه الطوية فأخذ في استئصال عروق الفساد ، والتفت الى توطيد دعائم السلطنة ، وتحسين نظام الادارة، وتقوية الجنود البرية والبحرية ، ، وترتيبها وتدريبها ، وغير ذلك من الأعمال المفيدة والآراء السديدة ، حتي اكتسبت الدولة حياة جديدة وطريقة حميدة » . [2]

---

(١) Kinross . Lord , The Ottoman Centuries . The Rise and Fall Of the Turkish Empire , P. 329

محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٩

(٢) اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٧ / ١٦٨

انه بلا شك أن هذه المقولة تعطينا الصورة واضحة بأن الفترة الذهبية للدولة العثمانية انتهت - كما أشرنا - بوفاة السلطان سليمان القانوني ، وأن الدولة مرت بعد ذلك في دياجير ظلام شديد الظلمة ، ثم لاح للأعيان بريق من الأمل وضوء لامع استمر فترة زمنية قصيرة بالنسبة لعمر الدولة العثمانية ؛ وكان هذا اللمعان على الرغم من قصر مدته له أهمية عظيمة لا سيما وأنه أدى الى تغيرات حاسمة وبناءة في كيان الدولة العثمانية في زمن قياسي ، وهذا ما سنناقشه في هذه الدراسة المتواضعة علنا نصل الى معرفة الدور الحاسم الذى لعبه هذا الوزير - محمد كوبريلي - في الحفاظ على سمعة الدولة العثمانية وتماسكها بعد أن كانت على شفا حفرة الانهيار ، وعلنا نصل أيضا الي توكيد ما ذهبنا اليه في عنونة هذه الدراسة بـ " لمعان الضوء في دياجير الظلام " خاصة وأن ما حققه هذا الوزير من أعمال عظيمة في زمن قياسي جعلني لا أتردد في تسمية فترة حكمه بالعنوان المشار اليه.

ان مما زاد الأمر سوءا في الدولة العثمانية قبل تولي محمد كوبريلي منصب الصدارة هو قيام السلاطين العثمانيين بقتل اخوانهم ومنافسيهم على العرش ، وازدياد القادة العسكريين ، والقضاء على محاولات الاصلاح التي حاول أن يقوم بها بعض السلاطين . ففي عام ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢ م قتل السلطان وزيره الصدر الأعظم [١] ، وشهد عام ١٠٥٨ هـ / ١٦٤٨ م اعدام السلطان ابراهيم [٢] وتولية ابنه الصغير محمد الرابع عشر الخلافة العثمانية ، وخلال الثمان سنوات

---

(١) عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٣٤

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٩ ، محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٩

الأولى لحكم الصبي(*) عانت الدولة من تمرد وعصيان الانكشاريين والسباهيين . كل هذه الأمور ساعدت على وقوع الدولة تحت التهديد الخارجي ، لا سيما وأن القيادة البحرية العثمانية لم تكن بالمستوى الذى كانت فيه في الماضي ، وهذا ما دفع البنادقة الي التحكم في شواطيء البحر المتوسط كما أرادت . [1]

وفي حقيقة الأمر أن البندقية استغلت تدهور الأوضاع في الدولة العثمانية فحاصرت المضايق وساحل بحر ايجة وموانيء المورة ، وعندما حاولت الدولة العثمانية مقاومتهم انهزم الاسطول العثماني وأسر البنادقة الفا من رجال الجيش العثماني وخسروا ست سفن مسجلين بذلك هزيمة نكراء للعثمانيين . [2]

لم يتوقف البنادقة عند هذا الحد بل قاموا بتعزيز قواتهم في جزيرة كريت واستولوا على تيندوس (Tenedos) وليمنوس(Lemmos) [3] من أهم المدن المطلة على المضائق مما أثر على وصول الامدادات الى اسطانبول ، وأساء أيضا الي مشاعر المواطنين العثمانيين،خاصة وأن خطوط الملاحة الموصلة الي مصر

(*) أدلى أحد الذين شاركوا في الاطاحة بالسلطان ابراهيم بتصريح قال فيه : " انه من الممكن مع ارتقاء العرش سلطان حدث أن يشغل الصدارة العظمى رجيل خصيف في مقدوره أن يضع الأمور في نصابها " .

" عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، جـ ١ ، ص ٢١٠ " .

(١) Kinross , Lord , The Ottoman Centuries ; P . 231

علي حسون ، الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ، ص ١٠٥ .

(٢) Ibid . P . 231 . , Shaw , Stanford , History Of the Ottoman Empire and Modern Turkey , P . 207

(٣) Creasy . Edward , S . History Of the OttomanTurks , P . 276 .

محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٣٠ .

وكريت أصبحت مقطوعة وأصبح مضيق الدردنيل مرة ثانية تحت رحمة البنادقة ومغلق أمام البحرية العثمانية . (١)

تحت هذه الأزمات ، وتحت هذه الظروف التي بدأت الأسعار فيها بالارتفاع مع قلة في الطعام ، بزغ فجر جديد عندما بادرت طرخانة (Turkhane) (*) والدة السلطان الصغير المعروفة باسم " السلطانة الوالدة " بدعوة أهم رجل فى القصر العثمانى لتولى منصب الصدارة العظمى.، ولمباشرة أعماله ، وانقاذ ما يمكن انقاذه مما لحق بالدولة من مآسي ومشاكل داخلية وخارجية . ومما روى عنها فى هذا الشأن، قبل تولى محمد كوبريلي هذا المنصب ، أنها راقبت ذات مرة الديوان الهمايونى تحت رئاسة الصدر الأعظم جوردج (GourdJ) البالغ من العمر المائة ، فأدركت أنه مجرد ألعوبة في أيدي الوزراء وبعيدا عن الكفاءة الادارية ، مما جعلها تفقد أعصابها وتصيح قائلة : " ياأبتي إن المسألة ليست لحية ذات شعر أبيض أو أسود ، أن المسألة أعمق من ذلك بكثير ، أنها تحقيق الحكم الصالح وإبداء الآراء السديدة.(٢)

---

(١) جلال يحيى ، تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة ، ص ٤٣٨ .

(*) سيدة روسية الأصل نافست جدة السلطان لأبيه منافسة شديدة على السلطة ونجحت في النهاية " عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، جـ ١ ، ص ٢٣٤ .

(٢) الشناوى ، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، جـ١ ، ص ٢٣٦ .٢٤

هذا الرجل هو محمد كوبريلي نسبة إلى القرية التي تربى فيها واسمها "كوبريلي"(*) ، وقيل أنه ولد في قرية البانية اسمها " رودنك ": قرب " برات " وذلك عام ٩٧٨ هـ من أسرة غير معروفة ، ثم ذهب إلى قرية " كوبريلي " وسط الأناضول (٢) ، وأخذ فيها تيمارا (**) وتزوج بنت السنجق (***) وهذا هو سبب تسميته نسبة الى القرية التي نشأ بها .

بدأ محمد كوبريلي حياته في القصر العثماني كطباخ ثم أصبح كبير الطباخين ثم رئيسا للخدم ، فمربي للصقور حتى وصل بمساعدة نساء القصر الى وظيفة سنجق في دمشق ثم طرابلس وأخيرا في القدس . (١)

وعندما بلغ السبعين من عمره أو الثمانين كما ذكرت بعض المصادر وبنصيحة من السلطانة الوالدة ، تم تعيينه في منصب الصدارة العظمى التي تعادل رئيس الوزراء اليوم . (٢)

(*) مدينة صغيرة في آسيا الصغري وقد نزح اليها جده من البانيا ، وعرفت عائلته بهذا الاسم نسبة الي هذه القرية :

" Eversly . L . The Turkish Empire " , P . 179

(**) التيمار : هو الاقطاع الأصغر وهو عبارة عن الأرض التي يمنحها السلطان بهدف استثمارها على أن يقدم صاحب التيمار خدمة للدولة مثل ضرائب أوفرسان أو بحارة للأسطول .

أحمد شلبي ، التاريخ الاسلامي والحضارة ، جـ ٥ ، ص ٦٧٥ .

(***) سنجق بمعنى راية ، ويطلق هذا الاسم على حاكم الولاية أو المدينة ، وللسنجق مميزات خاصة منها أن تعزف الموسيقى له أثناء دخوله وخروجه لمقر عمله ،

عبد الوهاب بكر ، الدولة العثمانية ومصر ، ص ١٧ .

(١) Eversly . L . The Turkish Empire , P . 180 .

(٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٥١٦ .

وعلى الرغم من وجود بعض المخلصين للدولة والمؤيدين الذين سعوا من أجل تعيين محمد كوبريلي في هذا المنصب ، ألا أن هناك فئات في القصر العثماني وخاصة من ذوى المصالح الشخصية لم يرق لهم هذا التعيين وحاولوا الأشاعة بأن رجل في السبعين من العمر لا يعرف القراءة والكتابة من الصعوبة بمكان أن يمسك زمام الأمور ويدير شئون الدولة بطريقة صحيحة . (١)

ويبدو أن دافع الغيرة هو الذى جعلهم يقولون بذلك لا سيما وهم يعلمون أن محمد كوبريلي مشهود له بالأمانة والسمعة الحسنة خلال سنوات عمله في القصر والمناطق التى حكمها .

ومما يدل على تميزه عن منافسيه وأن ما قام به أعداءه انما كان ذلك بدافع الغيرة فقط ، انه عندما طلب منه أن يشغل هذا المنصب ، رفض قبوله الا بشروط معينة ، خاصة وقد أدرك أن اصلاح الأمور في الدولة سوف لا تكون في وضعها الصحيح ما لم تطلق له حرية العمل دون تدخل السلطان. وكان شروطه التى

---

(١) Norman, Itzkowitz, Ottoman Empire and Islamic Tradition, P. 78.

أوردتها معظم المصادر التاريخية على النحو التالي : [1]

- أن لا يقبل السلطان أو ينفذ أي طلب أو مكاتبات ما لم تكن مصادق عليها من قبله .

- لا يحق لأي موظف أو وزير أن يتصرف في أمرها دون علمه .

- يختص بالنظر في التعيين في الوظائف والغاءها صغرت الوظيفة أم كبرت .

- لا يجوز للسلطان أن يسمع للوشاية ضده من أعداءه وتكون ثقة السلطان فيه مطلقة .

وعلى الرغم من أن هذه الشروط تحد إلى حد كبير من صلاحيات السلطان وأمه الوصية عليه ، الا أن الوضع المتدهور في الدولة - كما يبدو - وعدم وجود الرجل المناسب لهذا المكان جعل السلطانة طرخانه تنقاد لشروطه وتوافق عليها وتقسم أمام الملأ نيابة عن ابنها البالغ من العمر خمسة عشر عاما [2] آنذاك - حسب

---

(١) صدر أسبق كامل ، تاريخ سياسي دولة علية عثمانية ، ص ٩٣ .

عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٦٧ .

Kinross , Lord , The Ottoman Centuries , P . 180

محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق ، تاريخ عثمانيده ، ج ٦ ، ص ٣٧١ / ٣٧٢ .

(٢) Eversly , L . The Turkish Empir , P . 180

طلبه - أن شروطه ستكون في موضع الاعتبار والتنفيذ . (*)

ثم أعقب ذلك مصادقة مفتي الدولة على هذه الشروط لتأخذ بذلك صفتها الشرعية ، وتم استقبال الوزير في موكب رسمي حتي مقر السلطان الصغير الذى أعلن بدوره موافقته على الشروط وتأييده للقسم الذى أدته أمه . (١)

أطلق على الوزير محمد كويريلي مسمى الصدر الأعظم ، وبدأ بعد تعيينه يمارس عمله وأصبحت شئون الدولة واصلاحها منذ تعيينه تحت تصرفه بدون تدخل من السلطان وأمه .

وأشار المؤرخون الى أن تجاربه الطويلة في خدمة القيادات الرسمية والصدور العظام ، وتنقله في وظائف مختلفة قبل توليه هذا المنصب ، كل ذلك ساعد على نجاح ادارته ، وجعلته يعرف عن يقين أمراض الدولة التي تعاني منها وكيفية التعامل معها . أيضا ساعدته تجاربه الطويلة على معرفة الرجال وما يقوم به شلة القصر من أعمال فأصبح رجل التجربة والحكمة ، يتصرف بعقل متيقظ ، رحيم

(*) يبدو أنها على يقين من اخلاص وزيرها الجديد ورغبته في خدمة الدولة بعيدا عن تحقيق المصالح الشخصية مقارنة بغيره من الصدور العظام والا لما سارعت بإعلان موافقتها أمام الرعية حتى لا ينفلت زمام الأمر ويرفض العمل .

(١) عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٦٨ .
Kinross Lord , The Ottoman Centuries , P . 332 .

وقت الرحمة متنبه لمراقبة المستهترين ، وضاربا بيد من حديد على كل من يريد الاخلال بالأمن ، وملتزما بالهدوء وضبط النفس ومعاملة الرعية بالعدالة دون تمييز في المناصب . (١)

بهذه الحيوية وهذه المواصفات وهذه القوة التي تم بها تعيينه في الصدارة العظمى بدأ الوزير محمد كوبريلي يمارس صلاحياته مبتدأ بتصحيح بعض الأوضاع في الداخل ثم الاهتمام بالشئون الخارجية .

وابتدأ اصلاحاته الداخلية بمراقبة المتهاونين في أداء أعمالهم واستبدال من يثبت ادانته دون النظر الى مكانته الوظيفية ، وليس أدل على تنفيذ قراراته أن من بين من وجدهم متهاونين وتم استبدالهم : قائد الأسطول العام / زعيم الجيش الانكشارى / وشيخ الاسلام . (٢)

وفي داخل القصر لاحظ أن بعض العاملين يسيئون استخدام وظائفهم فأصلح من شأنهم واستبدل بعضهم بغيرهم ، وكان من أولئك رئيس الخصيان الأسود مستشار والدة السلطان حيث نفاه إلى مصر عندما لاحظ اخلاله بمسؤولياته . (٣)

وعندما لاحظ محمد كويريلي انتشار البدع والخرافات في الأوساط الشعبية ومدى تأثيرها في خلق أزمات داخلية متعددة،رأى أنه من الأفضل العودة الى أيام

---

(١) Norman, Itzkowitz, Ottoman Empire and Islamic Tradition. P. 77.
Kinross , L . The Ottoman Centuries , P . 332 .

(٢) صدر أسبق كامل ، تاريخ سياسي ، دولة علية عثمانية ، ص ٩٢ .

(٣) Norman Itzkowitz , Ottoman Empire and Islamic Tradition, P . 77 .
Eversly , L . Turkish Empire , P . 180 .
عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٦٨ / ٦٩

المجد والسؤدد ، الى أيام السلطان سليمان القانوني عندما كانت الشريعة الاسلامية هي الفيصل في المعاملات ، وكانت الدولة ملتزمة بتطبيقها في كل شئون الحياة . واتخذ لتنفيذ ذلك قرار يقضي بالاعدام أو الاعفاء من الوظيفة لكل من يقف ضد هذه الدعوة الاصلاحية . (١)

وشملت اهتمامات محمد كوبريلي الداخلية ميزانية الدولة (٢) ، فأمر على الفور بالغاء المصروفات الاضافية وأبقى على الضروريات فقط ، وأمر بمصادرة الأملاك الخاصة (*) وأن تعود فوائدها الى خزينة الدولة .

أما اهتمامات الوزير محمد كوبريلي بشئون الدولة الخارجية والثورات الداخلية فتتمثل في الصراع العثماني / البندقي حول مضيق الدردنيل ، واخضاع التمرد في ترانسلفانيا ، والقضاء على ثورة حسن أباظة .

فبالنسبة للصراع العثماني / البندقي ، فقد أدرك محمد كوبريلي أن خطر البنادقة عليهم زاد عن حده ، وأن الوضع التجارى في دولته سيبقى تحت رحمة الأعداء طالما بقيت المضائق مهددة . ولذلك رأى أن فك الحصار قد لا يحدث ما لم يعيد للاسطول العثماني نشاطه ، وعلى الفور اسند مهمة بناء الاسطول الى القائد طوبال محمد باشا ، والذى تمكن من تجهيز اسطول عظيم مجهز بالأدوات اللازمة .

---

(١) محمد فريد بك المحامى ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٠

(٢) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٥١٧ .

(*) لم تحدد المصادر هوية هذه الأملاك الخاصة ، وأنني أشك في حدوث مثل هذه الحالة لا سيما اذا أخذنا في الاعتبار رغبة الوزير في العودة الى تطبيق القوانين الاسلامية وعدم معارضة الاسلام للملكية الخاصة : هذا من جانب ، ومن جانب آخر هذه المعلومة لم ترد في المصادر الاسلامية وانما أوردوها المؤرخون الغربيون مما يجعلنا نشك في صحة مثل هذه الرواية .

ثم ان الصدر الاعظم محمد كوبريلى قاد الجيش بنفسه ولكن الجولة الاولى لم تكن في صالحه حيث غرق بعض سفنه وهرب البعض الآخر وبدأ البنادقة يقذفون العمارة العثمانية بالمدافع ثلاث أيام بلياليها ، وقرر قائد الأسطول البندقي طوماس موشنجو (Thomas Mocenigo) القبض على الدونا العثمانية الراسية بجوار " قوم برون " . [1]

عند هذه النقطة الحاسمة تقدم أحد رجال البحر العثماني ويدعى محمد وصوب مدفعيته نحو السفينة التي يقودها طوماس فأصاب ، بقدرة الله تعالى ، مخزن بارود في السفينة مما أدى الي انفجارها وقتل القائد ونحوألفا من أصحابه ، وتضرر كثير من السفن القريبة منها واضطرت البقية العودة تجر أذيال الهزيمة تاركين ورائهم بعض سفنهم . [2]

وتابع الوزير حلاوة النصر ، فأجزل العطايا لرجاله المنتصرين ثم أمرهم بمواصلة الكفاح تحت قيادة طوبان محمد باشا ضد البنادقة حتى تمكنوا من تحرير جزيرتي ليمنوس(Limnos)وتينيدوس(Tenedos) بعد أن حاصروهما نحو ستين يوما .

بعد ذلك عاد الوزير الي اسطانبول وفي عام ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٦ م بعد أن تم تحرير الجزيرتين عزل طوبان محمد باشا من القيادة وعين محافظا لجزيرة (سافز)ثم

---

(١) اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٨ .

محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق ، تاريخ عثمانيده ، جـ ٧ ص ٩٥ / ٩٦ .

(٢) اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٧٣ .

حـصل على " جزاء سنمار " حيث أعدم بسبب اعـتـقـاد السلطان العـثـماني بأنه قـائد جبان. [1]

ومع أن العـثـمانيـين انتـصـروا على أعـدائهم بفـضل الله ثم بالاسـتـعـداد للمـعـركـة امـتـثـالا لقوله تعـالى : (وأعدوا لهم مـا استطعـتـم من قـوة)[2] ، الا أن المـؤرخـين الغربيين - كعـادتهم - أوردوا خبر انتـصـار العـثـمانيين وكـأنه بسـبب إنفـجـار مـخـزن للبارود على احدى السفن الايطالية دون ذكر التصويب بالمدفع العثماني . [3]

وبهـذا الانتـصار أعـيدت الثـقـة في الجيش العـثـماني والبحرية العـثـمانيـة ، وبهـذا الانتـصـار ازدادت مكانة الصـدر الأعـظم في أعين الناس ، مما زاد في طمـوحـاته وآماله ، وبدأ يطمع في إعـادة تلك الأمـجاد القديمة التي دقت فيـها الدولة العـثـمانيـة أبواب : فيينا " سنة ٩٣٦ هـ / ١٥٢٩ م .

وعلى الرغم من هذه الطمـوحـات والآمـال ، فـان الصـدر الأعظم لم يتـابع حـلاوة النصر على خصومة البنادقة وذلك بسبب موقف جورج راكوزى (*) (George Rakozy) أمـيـر ترانسلفـانيـا الذى أعلن تمرده على السلطان العـثـمانى وأعلن استـقـلال بلاده عن التـبعـيـة العـثـمـانيـة . زد على ذلك أن راكـوزى أعلن نفسه زعيما بروتستانتيا واتحد مع ملك السويد وأمراء الأفلاق والبغدان

---

(١) المصدر السابق .
انظر أيضا : عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٧٣ .
(٢) سورة الأنفال ، آية رقم ٦٠ .
(٣) Shaw,S.History Of the Ottoman Empire and Modern Turkey.p210
Eversly , L . The Turkish Empire . P . 180 .
(*) يلفظ فى بعض المصادر العثمانية " راقوجي " . محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق تاريخ عثمانيدة ، جـ ٧ ، ص ١٠٦ ، ورواقوكس ،
صدر أسبق كامل ، تاريخ سياسي دولت علية عثمانية ، جـ ٢ ، ص ٩٤ .

بهدف فتح هنغاريا واقتسام بولندا مع روسيا . [1]

ويبدو أن راكوزى رأى أن ضعف الدولة العثمانية وتدهور الأوضاع فيها قبل وزارة محمد كوبريلي ، قد يساعده على الاستقلال بحكم ترانسلفانيا والغاء التبعية العثمانية ، ولكنه في حقيقة الأمر تناسى أنه أعطى لنفسه حجما أكبر منه الأمر الذى سيؤدى به الى الفشل في النهاية . أضعف الى ذلك أن محاولته هذه جعلت الصدر الأعظم يعطى القضية اهتماما خاصا لا سيما وأن رغبة راكوزى في اقتسام بولندا مع روسيا لا يتفق مع السياسة العثمانية في أوربا ويوثر في نفس الوقت على العلاقات العثمانية / الأوربية بصفة عامة .

فعندما تعرضت بولندا للغزو من كل جانب بادرت الدولة العثمانية بالتدخل حفظا للتوازن ومحاولة للحد من طموحات راكوزى وأطماعه التوسعية .

وكان أولي المواجهات مع راكوزى في عام ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م عندما أرسل الصدر الأعظم قوة كبيرة من التتار قام أفرادها بالدخول الى ترانسلفانيا ومن ثم نهبها (*) مما ادى إلى انسحاب راكوزى من وارسو (Warsaw) الى فستولا (Vistula) حيث هزم فيها هزيمة نكراء .

---

(١) صدر أسبق كامل ، تاريخ سياسي دولت عثمانية ، جـ ٢ ، ص ٩٤ .

كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٥١٧ .

(*) المصادر الأوربية أمثال " شو " وغيره تشير إلى أن التتار اكثروا فى النهب والقتل في مدينة ترانسلفانيا مستغلين زهوة الانتصار . ويظهر أن ذلك مجرد تحامل على الدولة العثمانية ، واذا حدث أن تصرف البعض بعمد أو غير ذلك فلا يجب أن نعمم ونثبت حقائق قد تكون مقصودة ، وبينما المصادر العثمانية لم تشر إلى ذلك .

Shaw, S. History Of the Ottoman Empire and Modren Turkey, P. 210.

اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٧٠ / ١٧١ . محمد فريد بك ،تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٣١ . عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ،

ثم كانت المواجهة الثانية بقيادة محمد كوبريلي على رأس حملة كبيرة كان من نتائجها استسلام مدينة فهر فار (Fehervar) عاصمة راكوزى ومن ثم هروبه الى النمسا .

بعد أن تحقق النصر على راكوزى ، رأى الصدر الأعظم الالتزام بسياسة هادئة غير منفرة ، فوافق على الفور أن يكون حكم ترانسلفانيا لأمين خزانة (*) راكوزى ، بارسي ايكوس (Barcsay Ekos) واشترط عليه أن يكون تابعا للدولة العثمانية وأن يدفع أربعين ألف دوكا كل عام ، وأن تكون المواقع الأمامية في ترانسلفانيا تحت تصرف الجيش العثماني [1] ويبدو أن الشرط الأخير قصد به أن تستخدم تلك المنطقة مقرا دائما للقوى العثمانية وتوظيفها لصد أى ثورة أو محاولة استقلال في المستقبل .

ورغم هذه السياسة التى تم بها تعيين بارسي ايكوس ، فقد قامت معارضة من قبل أنصار راكوزى الذين يبدو أنهم لم يتقبلوا طريقة التعيين فما كان منهم إلا اعلان المعارضة خاصة بعد أن حصلوا على تأييد رسمي ومساعدات عسكرية من الهابسبرج واتفقوا على ترشيح أحد قواد راكوزى واسمه كيمنى جانوز (Kemeny Janos) حاكما لهم مستقلا عن الحكم العثمانى . [2]

(*) يبدو أن الوزير محمد كوبريلي نهج هذه السياسة حتى يتقبل الناس هذا القرار بالرضى طالما أن خليفة راكوزى من أتباعه ولكنه من جهة أخرى حقق الهدف حسب الشروط التي اشترطها عليه أثناء تعيينه .

(١) محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق ، تاريخ عثمانيده . جـ ٧ ، ص ١٢١ / ١٢٢ اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٧٠ .
محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣١ .

(٢) Naima , Annales Of The Turkish Empire , Vol . VI, P . 340

ولكن لم يمض وقت طويل ، حتى انطبق على كيمني وأتباعه قول المثل : " يا حافر حفرة السوء احذر تقع فيها " حيث وقف نبلاء ترانسلفانيا ضده وقتلوه ورشحوا مكانه رجلا من بني جنسهم وهو ميخائيل أبا في والذي حكم ترانسلفانيا مدة عشرين عاما ، التزم خلالها بمبدأ الحياد وأعترف بتبعيته للدولة العثمانية ، وكأن ما حاول القيام به سلفه لم يكن . (١)

وما كاد الوزير محمد كوبريلي ينتهي من أزمة راكوزي حتى يتورط في مشكلة داخلية جديدة وهي ثورة حسن أباظة ، تلك الثورة ،التي عرقلت مساعي الدولة في تثبيت النظام والاستقرار في ترانسلفانيا وساهمت في تأجيل وصول العثمانيين الى جزيرة كريت ومن ثم فتحها .

ظهرت هذه الثورة في سوريا والأناضول من أمهات المناطق الداخلية في الدولة العثمانية ، وبقيادة رجل كانت له أطماع رئاسية على الرغم من كونه معين على وظيفة سنجق . (٢)

بدأ زعيم هذه المقاومة ، حسن أباظة ، باعلان تمرده ضد السلطان في منتصف عام ١٠٦٨ هـ / ١٦٥٨ م . وطالب أول ما طالب بقتل الصدر الأعظم وتعيين طيار زاده أحمد باشا مقابل تبعيته ومبايعته للسلطان العثماني ، وساعده في مواصلة التمرد انضمام القوات التي أرسلها الصدر الأعظم إليه لاخضاعه ، وكذلك تأييد بعض من حاشية السلطان ممن كانوا يكرهون الصدر الأعظم ويرغبون

(١) عبد الرحمن شرف . تاريخ دولت عثمانية ص ٨١ ، على حسون ، الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ، ص ١٠٥ ، كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٥١٧ .

Shaw,S. History Of The Ottoman Empire and Modern Turkey, P.210 .

(٢) Naima , Annals Of The Turkish Empire , Vol . 6 , P . 342

في تحقيق المال والمناصب ومآرب أخرى ، خاصة من أولئك الباشوات المعزولين بقرار من الصدر الأعظم . [1]

انخدع حسن أباظة بتأييد بعض رجال القصر فتقدم بجيشه حتى وصل إلى مضيق البوسفور ، مما أدى إلى انتشار الرعب والقلق في نفوس الأهالى في العاصمة ، وتوجيه النداء للصدر الأعظم ، للعودة من ترانسلفانيا ومواجهة هذه الحالة الطارئة . [2]

لم يكن الأمر من السهولة بمكان في نظر الصدر الأعظم ، ذلك أن هذه الحركة المزعجة التي تسببت في توقف الجيش العثماني في الجانب الأوربي ، لابد وأن يعاقب مدبرها أشد العقاب . فما كان من الصدر الأعظم الا أن اتخذ التدابير اللازمة للمواجهة الحاسمة مع الثوار والقضاء عليهم ، ومن ذلك قيامه بصرف رواتب ستة أشهر للجنود مقدما تشجيعا لهم وحثا لهم على الاخلاص والالتزام ، اضافة الى قيامه بارسال الجواسيس حول الأناضول والاتصال ببعض مؤيدى الثورة واغرائهم بالانضمام الى الصدر الأعظم . [3]

كان لهذه التدابير أثرها الفعال على الثوار ، وكانت بمثابة الانذار بالخطر المرتقب ، مما أدى إلى هروب بعض رجال حسن أباظة ، وأدى أيضا الى فوضى واضطراب في صفوف الثوار ، اضافة الى النقص الواضح في المؤن والمواد الغذائية عندهم .

---

(١) اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٧٠ .
Naima , Annals Of The Turkish Empire , Vol . 6 , P . 342
محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق ، تاريخ عثمانيده ، ج ٧ ص ١٣٠ .

(٢) نفس المصادر

(٣) صدر أسبق كامل ، تاريخ سياسي دولت علية عثمانية ، ج ٢ ، ص ٩٥ / ٩٦ .

هذه الأمور التي ظهرت للعيان وأنذرت الثوار بالخطر جعلت حسن أباظة يشعر بالاحباط وأن الأوضاع في غير صالحه ، ونجاحه ميؤس منه ، فبدأ بالانسحاب من بورصه (Bursa) الى أسكى شهر (Eskisehir) وفي نفس الوقت أرسل عدد من رجاله للانضمام إلى القصر والحصول على الرواتب ومحاولة مساعده الصدر الأعظم ، وأخيرا طلب من الصدر الأعظم منحه هدنة لحل المشاكل فيما بينهما . (١)

ويبدو أن هذه المحاولات اليائسة من ثائر عاجز عن تحقيق أهدافه لم تحقق تقدما يذكر ، لا سيما وأن الصدر الأعظم أذكى من خصمه وأدرك أن هذه المحاولات ما هي الا حيلة مدبرة لتجنب المواجهة الحتمية وما ينجم عنها من نتائج . وكانت الخاتمة أن تدخل شيخ الاسلام بالنصائح المؤثرة لاباظة واتباعه حتى انضم الى الجيش السلطاني عدد منهم ، ورضى أباظة بتسليم نفسه الى مرتضى باشا بمدينة حلب بعد أن أمنه على نفسه وأتباعه ، الا أنه لم يوف بالعهد بل قتله هو ورفاقه وذلك في أوائل عام ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٩ م (٢) .

بعد هذه الأعمال والانجازات العظيمة التي حققها في خلال خمسة أعوام ، لم يترك الصدر الأعظم أى فرصة لكل من تسول له نفسه القيام بأى عمل يسيء إلى مصلحة الدولة أو يؤدى إلى عرقلة نشاطها العسكرى ضد أعدائها من الدول

---

(١) المصدر السابق .

انظر أيضا: Shaw , S . History Of The Ottoman Empire and modern Turkey . P . 211 .

(٢) اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٧٠ .

محمد مراد ، تاريخ أبو الفاروق ، عثمانيدة ، ج٧ ، ص ١٣٤ / ١٣٥ .

الأوربية . ففي الداخل جواسيسه في كل مكان لمراقبة من يعبث بأمن الدولة ، وفي الخارج ركز اهتمامه على فتح جزيرة كريت وعندما علم بمساعدة الفرنسيين للبنادقة في حماية الجزيرة (كريت) سرا ، اتخذ خطوات فعالة لقطع العلاقة مع فرنسا على الرغم من تلك العلاقات الودية القديمة وعلى الرغم من تلك الامتيازات التى نعمت بها فرنسا في الدولة العثمانية .

ومما يجدر ذكره أن الصدر الأعظم سبق وأن ضبط رسالة مرسلة الى المسيو "دى لاهي" سلمها أحد الفرنسيين الموظفين في بحرية البنادقة وعندما لم يستطع حل رموزها أرسل باستدعاء السفير الفرنسي الذى بدوره لم يأت معتذرا بمرضه فأناب عنه ولده، وعندما سأله الصدر الأعظم لم يراع فى جوابه آداب المخاطبة ، فأمر بسجنه في الحال ، ثم حضر والده ولم يفسر رموز الرسالة كما ينبغي ، فأرسلت فرنسا المسيو "دى بلندل " سفير فوق العادة لمقابلة السلطان وطلبه عزل الصدر الأعظم ، ولكنه لم يسمح له بمقابلة السلطان وقابله الصدر الأعظم ، ولهذا ساعدت فرنسا جزيرة كريت علنا وأرسلت إليها أربعة آلاف جندى غير المتطوعين وأمدت النمسا بالمال هدفا منها لاشغال الدولة العثمانية وانتقاما لمواقفها نحوها . (١)

ومع كل هذه الاهتمامات لهذا الوزير المخلص الا أن الكبر لم يهمله أكثر مما استحق حيث بلغ الخامسة والثمانين من العمر فخاف على الدولة من الضياع من بعده ، فبدأ أول ما بدأ بأخذ موافقة السلطان وأمه على تعيين ابنه أحمد في مكانه بعد موته،لا سيما وأنه دربه في الأعمال الرسمية ورباه تربية خاصة لمهام الوظيفة ؛

---

(١) محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٢ .

أضافة إلى أنه قبل وفاته جعل الطريق ممهدا لابنه ، فالاسطول تم بناءه من جديد ليواكب الأساطيل المعاصرة له والمضائق أبعد عنها خطر الأعداء والمناوئين والثوار في الداخل والخارج تم الانتصار عليهم وزال خطرهم ، حتى غدت الدولة قوية الجانب متماسكة بعد أن أوشكت على الانهيار .

زد على ذلك أن حرص هذا الوزير واخلاصه لهذه الدولة استمر معه حتى وهو على فراش الموت ، فقبل وفاته في سنة ١٠٧٢ هـ / ١٦٦١ / م [1] ترك للسلطان الوصايا التالية :

- لا تسمع لنصيحة امرأة .
- لا تسمح بأن يصبح المواطن غنيا .
- يجب أن لا تنقص خزينة الدولة على الدوام .
- استمتع بركوب الخيل واجعل الجيش دائما في حركة مستمرة .

واذا نظرنا بعين الاعتبار لهذه الوصايا ، واذا ما حللنا مقاصد هذا الوزير من هذه الكليمات في كل وصية،فاننا بلا شك سنتعرف على الأسباب التي دفعته لذكرها .

ويبدو أن الصدر الأعظم كان تأثر بظروف عصره منذ كان طباخا في القصر حتي وصل الى وظيفة " الصدر الأعظم " .

فالتوصية الأولى التى يوصى فيها بعدم السماع لنصيحة المرأة توحي بتأثره بالأوضاع العثمانية التى كثر فيها تدخل نساء القصر في شئون الدولة ، لا سيما وأنه نفسه مدين في تعيينه كصدر أعظم للسلطانة الوالدة " طرخانة " ، ثم ان بقاء

---

(١) عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٨٢ ، محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٣ .

الموظفين الكبار في مناصبهم كان مرتهن برضاء الحريم السلطاني - زد على ذلك أنه كان يشعر باستحالة ممارسة اختصاصات وظيفته أمام رغبات نساء القصر حيث قال في حديث خاص لأحد أصدقائه : " انهن لا يفكرن إلا في أنفسهن ، ولا يقدرن المسؤولية ، وأن الدولة على وشك الانهيار [٢] .

وعلى الرغم من كون المرأة عاطفية وقد تصدر أحكاما أو تتصرف بما لا يتفق مع الواقع ، الا هذه الوصية تحمل معنى العمومية ، فالنساء لسن على مستوى واحد ، ومثلهن الرجال ، واذا كانت ظروف العصر الذى عاشه الصدر الأعظم أعطاه نوع من الانطباع السيء عن المرأة ، فكم من أمثلة في التاريخ لنساء بلغن القمة في العقل والحكمة والالتزام .

أما التوصية الثانية التي يوصى فيها بأ لا يسمح للمواطن بأن يصبح غنيا ، فهى توصية عقيمة ولا تتفق مع المنطق وليس لها ما يبررها ، وتتعارض مع الشريعة الاسلامية السمحاء ، وللأسف الشديد أن بعض ساسة الدول في القرون الحديثة نهجوا هذا المنهج وكأنهم يطبقون بذلك هذه التوصية على شعوبهم .

والتوصية الثالثة التي تنص على ضرورة بقاء خزينة الدولة غير منقوصة على الدوام ، فهى توصية ايجابية ولها ما يبررها ، خاصة وأن النقص فى خزينة الدولة يشل من قوتها واستمرار ثباتها وتطورها . وقد عاصر الوزير محمد كوبريلي ما عانته الدولة من نقص في مواردها المالية زمن السلطان ابراهيم الأول " ١٠٤٩ هـ - ١٠٥٨ هـ " عندما أسرف هو ورجال البلاط في موارد البلاد المالية وزيدت فئات

---

(١) عبد الرحمن شرف ، تاريخ دولت عثمانية ، ص ٨٣ / ٨٤ .

Eversly , Lord . The Turkish Empire . P . 181 .

(٢) الشناوى ، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ، ج١ ، ص ٦٠٨ / ٦٣٣ .

الضرائب المقررة واستحدثت ضرائب أخرى لسد نفقات القصر مما أدى الى سخط الرعية وقتل السلطان سنة ١٠٥٨ هـ / ١٦٤٨ م .

ولذلك لا نستغرب توصيته بهذه الوصية ، وكأنه يريد أن يؤكد على ضرورة الترشيد وعدم الانفاق فى غير اللازم ، وهو ما التزم به أثناء عمله في منصب الصدارة .

أما التوصية الرابعة الخاصة بركوب الخيل وحركة الجيش ، فقد عاش الوزير تجربتها بنفسه عندما كان السلطان محمد الرابع متعلقا بركوب الخيل والقنص تاركا شئون الدولة في أيدى الغير ، ويبدو أن الوزير أراد أن يهتم السلطان بأمور دولته بنفسه ولا يجعل هذه الهواية تصرفه عن ممارسة واجباته الأساسية ، فقد يعتمد على من يسيء استخدام السلطة في حالة غيابه عنها ، وكان مقصد الوزير فى ذلك جليل وتقديره للأمر عظيم .

وهكذا أيها القارىء الكريم ، أضاف هذا الوزير - محمد كوبريلي - الى انجازاته العملية توصياته الأدبية التي توحي بمدى حرصه على أمن واستقرار الدولة العثمانية حتى بعد وفاته . ولذلك فان الخمس السنوات التى حكم فيها وما شهدته من انجازات عظيمة تعتبر بحق فترة تاريخية مضيئة فى تاريخ الدولة العثمانية . فخلالها قبض على زمام الأمور وقاوم أعداء الدولة في الداخل والخارج حتى أعاد للدولة سالف مجدها ، وخلالها محا آثار الفوضى وأعاد الأمن والنظام وفك الحصار على المضائق واسترجع الجزر من الأعداء حتى أصبحت الدولة في مركز مميز أمام الدول المعاصرة لها بعد أن كانت على وشك الانهيار .

وأخيرا أرجو من القارىء الكريم المعذرة في الخطأ والتقصير فجل من لا يخطىء والله من وراء القصد وهو الهادى الى سواء السبيل .

---

(١) محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٢٩ .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- الحديث الشريف

الكتب العربية والمعربة :

- اتحاف الملوك والالباب (لا يعرف مؤلفه).
ترجمه من اللغة الفرنسية خليفة محمود .
- بروكلمان ، كارل .
تاريخ الشعوب الاسلامية . نقله الى العربية نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكى، ط ٦ ، بيروت : دار العلم للملايين ١٩٧٤ م .
- بكر ، عبد الوهاب ،
الدلة العثمانية ومصر فى منتصف القرن الثانى من القرن الثامن عشر ، القاهرة دار المعارف ، ط١ ، ١٩٨٢ م .
-جلال ، يحيى ،
تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة ، الاسكندرية : دار المعارف ، ١٩٨١ م .
- سرهنك ، اسماعيل ،
تاريخ الدولة العثمانية . بيروت : دار الفكر الحديث ، ١٤٠٨ ه / ١٩٨٨ م .
- شلبى ، أحمد ،
التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ط١ ، ١٩٧٧ م .

- الشناوى ، عبد العزيز محمد ،
الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها . ثلاث مجلدات ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، مطبعه جامعة القاهرة : ١٩٨٠ م .
- عبد الرحمن ، شرف ،
تاريخ دولت عثمانية، اسطانبول : مطبعة سي-باب عالي جاده سنده ١٣٠٩هـ .
- على حسون ،
الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ، المكتب الاسلامي .
- كامل ، صدر أسبق ،
تاريخ سياسى دولت عليه عثمانية . جـ ١، مطبعة \أحمد حسان ، ١٣٢٧ هـ .
- محمد فريد بك المحامى ،
تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت : دار الجيل ، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .
- محمد مراد ،
تاريخ أبو الفاروق ، تاريخ عثمانيده ، ط ١ ، مطبعة آمدى ، ١٣٢٩ هـ .

كتب بلغة أجنبية :

- Creasy , Edward . S .

History Of the Ottoman Turks , Beriut , 1961 .

- Eversly , G . J . S . ,

The Turkish Empire : Its Growth and Decay , London , Fisher Unwin Ltd . , 1917 .

- Naima

Annals Of The Turkish Empire , New York: Arno Press , 1973 .

- Norman , I .

Ottoman Empire and Islamic Tradition , New York , Alfred A . Knopf , 1972

- Kinross , Lord .

The Ottoman centuries : The Rise and Fall Of The Turkish Empire , London : Jonathan Cape .

- Shaw , S .

History Of the Ottoman Empire and Modern Turkey , London : Cambridge University Press .

الكرج والأتراك السلاجقة

فى عهد داوود الثانى

(١٠٨٩ - ١١٢٥ م / ٤٨٢ - ٥١٨ هـ)

دكتور

فايز نجيب اسكندر

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة بنها

الكرج والأتراك السلاجقة
فى عهد داوود الثانى
(١٠٨٩ - ١١٢٥ م / ٤٨٢ - ٥١٨ هـ)

د . فايز نجيب اسكندر
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة بنها

أطلقت قديما على بلاد الكرج[١] اسم «هيركانى» HYRCANIE ، ثم وردت فى اللغة الكرجية تحت اسم «خارطلى» K'ART'LI ، وذكر الكرج أن «خارطلى» اسم مشتق من اسم جدهم الأول «خارطلوس» .وتربط الأساطير الكرجية القديمة بين «خارطلوس» وبين النبى نوح عليه السلام قائلة إنه «ابن طوركوم ابن جومر بن يافث بن نوح» . و«خارطلوس» هذا شقيق «هايك» البطل القومى الأسطورى الذى ينتسب إليه الأرمن[٢] . وقد أطلقت الفرس على بلاد الكرج اسم «كورجستان» GURDJISTAN أي بلاد الكر[٣] . والروس يسمون بلادهم «جروزيا»[٤] . أما المسلمون ، فقد أطلقوا على بلادهم اسم «جرزان[٥]» تارة ، و«مملكة جرجين[٦]» تارة أخرى ، و«خزران»[٧] تارة ثالثة ، و«بلاد الكرج»[٨] تارة رابعة. والاسم الرابع هو الأكثر استخداما فى المصادر الإسلامية . إلا أن اللاتين والبيزنطيين ينفردون بتسمية بلادهم «أيبيريا»[٩] IBERIE وكان سترابون[١٠] (توفى حوالى سنة ٢٥ م) STRABON أول من تحدث عنهم .

أما هيرودوت ، فقد ذكر أن أيبيريا عرفت من قبل باسم «ساسپير»(١١) . وكان الأرمن ، يسمون سكان بلاد الكرج باسم «فرك»(١٢) VIRK ، وبلادهم باسم «فراكتون»(١٣) VRACTUN .

تقع بلاد الكرج - أى أرمينية(١٤) الثانية فى المصدر الإسلامية(١٥) - علي السفوح الجنوبية الغربية لجبال القوقاز، حول المجرى الأعلى لنهر الكر KOURA ، أي فى الشمال الغربى لمجموع أرمينية وكانت تحد شمالا أرمينية الثالثة(١٦). وعلى هذا، فحدودها الشمالية تسير بمحاذاة سلسلة جبال القوقاز؛ أما حدودها الشرقية، فهى تتاخم بلاد داغستان(١٧) الجبلية وسهول أذربيجان، وتحدها جنوبا أرمينية ومقاطعة قرص(١٨) KARS ؛ أما حدودها الغربية، فتطل علي البحر الأسود وتشمل أيضا بلاد الابخاز(١٩) ABKHASIE وجبال القوقاز . وعلى هذا تعد بلاد الكرج من البلدان الرئيسية في منطقة القوقاز(٢٠) .

وتضم بلاد الكرج أساسا واديين خصبين هما :

واد نهر الكر KOURA ووادي نهر ريونة RION . ثم هناك منحدرات الجبال بوديانها العديدة الضيقة والمنخفضة والتي تنساب نحو أنهار سلاسل جبال القوقاز فى الشمال. وهناك أيضا منحدرات جبال القوقاز الصغير وأعالي هضاب أرمينية في الجنوب(٢١) .

وعلي هذا ، سكن الكرج فى أعالى وادي نهر الكر، في اتجاه مصبه عند تفليس(٢٢)، على الضفة اليسري منه، وانتشروا حتى نهر شوروخ(٢٣) (TCHOROKH COROX) نحو ارتانوخ(٢٤) ARTANUJ وحتى مقاطعة مسختي(٢٥) MC'XET'A (MESXET'I) وبلاد الابخاز واللان(٢٦)

ALAINS والصنارية [٢٧] جيران اللان . أما على الضفة اليمنى من نهر الكر، فقد استقر الكرج في وادي كشياى[٢٨] K'C'IA وفى الأراضى التي تنساب مياهها نحو نهر الكر فى اتجاه قرص واكستيك[٢٩] 'UXT'IK. وطبقا لما ورد في الحولية الكرجية، كل الأراضي التي تنساب مياهها نحو الجنوب، وتصب فى نهر الرس[٣٠] ARAXE تعد من الأراضي الأرمنية . أما تلك التى تنساب نحو الشمال وتصب فى نهر الكر KOURA، فهى أراضى كرجية[٣١] .

نتيجة هذا الارتباط الوثيق ، يعد الشعب الكرجى أقرب الشعوب القوقازية شبها بالأرمن[٣٢] ، وأوثقها ارتباطا بهم، خاصة خلال العصور الوسطي؛ حتي أصبح يقال بحق أن الكرج والأرمن أخوة . وكان العلامة ابن خلدون خير معبر عن ذلك حين قال: «كان هؤلاء الكرج أخوة الأرمن[٣٣]» .

ولقد سكن بلاد الكرج أسر عديدة من السلالات الكرجية، فأصبحت منذ الأزمنة الغابرة مقسمة إلي عديد من المقاطعات، أهمها مقاطعة خارطلي K'ART'LI، الواقعة فى وسط بلاد الكرج الشرقية، والتي تعد قلبها النابض. وقد حظيت عاصمتها تفليس TIFLIS باهتمامات المصادر الإسلامية الجغرافية منها والتاريخية[٣٤] . واحتلت المقاطعة وعاصمتها مركز الصدارة بين مقاطعات بلاد الكرج. ويأتي بعدها في المرتبة مقاطعة كاخيتي [٣٥] KAKHETIE ، المقاطعة الثانية في بلاد الكرج الشرقية ، الواقعة شرقي نهر أرجفي [٣٦] ARAGVI ، وشرقى خارطلي علي المنحدرات الجنوبية لجبال القوقاز . ففي الوديان الخصبة في لوري LORI[٣٧] وألزاني [٣٨] ALAZANI ، وخاصة في المناطق الشاهقة الارتفاع، شعر شعب الكرج بالأمن والآمان، فعاش في رغد من العيش[٣٩]، وعمل

في ظروف اتسمت بالحرية المطلقة[٤٠] .

هذا عن أكبر مقاطعتي بلاد الكرج خارطلي وكاخيتي وأهمها علي الإطلاق.إلا أن هناك مقاطعات أقل منهما أهمية. ففي غرب جبل سورام SOURAM ، تقع مقاطعة إمريثى(IMERETHIE)IMERET'I بعاصمتها كوتاهية (كوتاييس) KOUTAIS الواقعة على نهر ريونةRION[٤١] . وتأتى بعد ذلك مقاطعة منجريلي MINGRELIE الواقعة شمال نهر ريونة علي البحر الأسود، بين مقاطعة إمريثى والبحر الأسود[٤٢]. ثم مقاطعة إجريسى EGRISI الواقعة عند مصب نهر شورروخ بين منجريلي وبلاد الأبخاز[٤٣]. أما مقاطعة سفانيثى SVANETHIE فتقع في الشمال، فى جبال القوقاز[٤٤] . وفى أقصى الغرب تقع بلاد الابخاز[٤٥] ABKHASIE بالقرب من البحر الأسود ، والمجاورة لبلاد اللان ALAINS [٤٦]. وعلي طول الشاطيء ، جنوب نهر ريونة، غربى بلاد الكرج، تقع مقاطعة جروري[٤٧] GRURIE . وفى أعماق جبال القوقاز، تقع كل من مقاطعتى مسختى[٤٨] MESXET'I (MC'XET'A) وسمسخى[٤٩] SAMSAKHI (SAMC'XE) .

بناء على ما تقدم ، فبلاد الكرج متنوعة التضاريس. إذ نجد فيها الوديان الواسعة والخصبة، والغابات الكثيفة المنتشرة فى الوديان الصغيرة الخلابة، إلى جانب المضايق العميقة، والجبال الشاهقة الارتفاع. كذلك تشتهر بلاد الكرج بخيولها الشرقية[٥٠]، وشجاعة فرسانها ، وبسالتهم ، وكرم طباعهم ، وجمال نسائهم [٥١].

ولقد أحب الكرج الحرب والنزال[٥٢] ، ويرجع ذلك أنه طوال تاريخهم إضطروا أن يقاتلوا جيرانهم الأقوياء حفاظا على استقلالهم وحريتهم ، وكبح جماح أطماع

الطامعين فى خيرات بلادهم . ولقد انعكس ذلك على تحية البعض منهم للآخر ، إذ يحيون بعضهم البعض بهذه الأقوال «فليكن النصر حليفك» ، فيرد من يسمع هذه التحية قائلا: «وحليفك أيضا»(٥٣) .

على أية حال ، كان من الطبيعى أن يتطلع المسلمون إلى فتح بلدان القوقاز، بعد أن أصبحت حدود دار الإسلام متاخمة لحدودها، وذلك عقب الفتح الإسلامى لبلاد الجزيرة وآذربيجان . وشهدت الفترة من ٦٤٠م / ١٩ هـ إلى ٦٤٦م / ٢٦ هـ تنازع المسلمين والبيزنطيين السيادة على بلاد ما راء القوقاز . وراحت بلدانها ضحية الاقتتال بين الأسدين، فتأرجحت بين السيادة الإسلامية تارة، والسيادة البيزنطية تارة أخرى . إلى أن تمكن المسلمون فى نهاية المطاف من بسط السيادة الإسلامية عليها بسطا نهائيا وذلك سنة ٦٦١م / ٤١ هـ فى أوائل عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان (٤١ - ٦٠ هـ / ٦٦١ - ٦٨٠ م) .

وكان الزعيم الأرمنى البطريق(٥٥) PATRICE ثيودور رشتونى (٥٦) THEODORE RSTUNI أول حاكم عام عينه المسلمون على بلاد الكرج وأرمينية والران(٥٧) وسيوغيا (سيونيك)(٥٨) SIOUNIE وبلاد القوقاز حتى دربند(٥٩) .

ولقد ظلت بلاد الكرج خاضعة للسيادة الإسلامية طالما كانت بلاد الإسلام فى أمن وسلام. أما إذا دب الاضطراب والاقتتال فى أعماقها - كما حدث أيام الفتنة الكبرى(٦٠) ، وعقب وفاة معاوية بن أبى سفيان ، وكذلك أواخر أيام الخلافة الأموية(٦١) - كانت الامبراطورية البيزنطية تنتظر هذه الفرصة السانحة لتعيد بلاد الكرج إلى سيادتها(٦٢). إلا أن ملوك الكرج البجرانطيين(٦٣) حملوا على عاتقهم

مهمة توحيد البلاد وتزعم حركة الاستقلال بعيدا عن السيادة الإسلامية أو البيزنطية على حد سواء ، ونجحوا بالفعل فى بسط سيادتهم على بلاد الكرج الغربية، بينما ظلت بلاد الكرج الشرقية ، أي خارطلى وكاخيتى وتفليس وضواحيها تحت السيادة الإسلامية(٦٤). وعين المسلمون أحد عمالهم عليها، وحمل لقب «والى» أو «أمير»، أقام فى العاصمة تفليس. وكان فى آن واحد القائد العسكرى والحاكم العام وقاضى القضاة، أى جمع فى يديه جميع السلطات من عسكرية وتنفيذية تشريعية. وتمركز الجزء الأكبر من جيش المسلمين فى العاصمة ؛ أما بقية القوات، فقد تفرقت فى المدن الكبرى والقلاع الحصينة(٦٥) .

هذه لمحة سريعة موجزة عن بلاد الكرج وخضوعها للفاتحين المسلمين وقد سبق لنا أن أصدرنا كتابا بعنوان «الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج» تناولنا فيه التفاصيل الدقيقة عن هذا الموضوع .

وإذا انتقلنا إلى الاتراك السلاجقة، فنلاحظ أن عشرات المراجع تحدثت عنهم بإفاضة، لكن الذى يهمنا فى هذا البحث ليس تكرار القديم بأسلوب مغاير، لكن الاتيان بالجديد الذى لم يرد ذكره من قبل، والمتمثل فى الاحتكاك الحربى الدائر بين الكرج والأتراك السلاجقة، فقد بدأ أول اقتتال بين الطرفين فى عهد طغرلبك (٤٤٧ - ٤٥٥ هـ / ١٠٥٥ - ١٠٦٣ م) ، وتواصل بعنف أكثر فى عهد ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٢م) ، وملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢م) وقد أفردت لهذا الموضوع بحثا جديدا(٦٦). على أية حال، خلال عهود السلاطين العظام، رجحت كفة ميزان القوى بشدة لصالح الأتراك السلاجقة. إلا أنه عقب وفاة السلطان السلجوقى ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م

استجدت ظروف قلبت موازين القوى لصالح الكرج وملكهم داوود الثانى . فبانقضاء عهد ملكشاه ، انطوت صفحة العصر الذهبى للأتراك السلاجقة، بعد أن مزقت خلافات الزعماء والقادة والأمراء وحدة السلطنة، وتنازع آل سلجوق الملك فيما بينهم وشنوا الحروب المحلية على بعضهم البعض . أما بقية الصفوف الإسلامية ، فكانت أكثر اضطرابا. هذا بينما فشلت جهود المسلمين فى ايقاف زحف الصليبيين فى بلاد الشام والأطراف المقدسة، بعد أن نجح الصليبيون فى ضع ملامح الإمارات اللاتينية وطفقوا يوسعون حدودها وسط الحشد المعادى لهم من الإمارات الإسلامية بالمنطقة. ففى شمال الجزيرة ربضت إمارة الرها الصليبية، وفى انطاكية قامت الإمارة الثانية التى أسسها بوهيمند. وفى بيت المقدس تأسست المملكة اللاتينية التى غدا لها شىء من الزعامة على بقية الإمارات، ثم أخيرا تكونت إمارة طرابلس الصليبية، ليكمل بذلك استقرار الصليبيين ببلاد الشام والأراضى المقدسة. أضف إلى ذلك ظهور إمارة أرمينية الصغرى فى آسيا الصغرى وتعاونها مع الصليبيين طوال عصر الحرب الصليبية[٦٧] . وإلى جانب هذه الإمارة الأرمنية المسيحية ، ظهرت مملكة الكرج الموحدة والتى على حد قول المؤرخ الفرنسى ماريوس كانار MARIUS CANARD كانت ثمرة من ثمار الحروب الصليبية[٦٨] .

وقد نشأت مملكة الكرج نتيجة توحيد مملكتى أيبيريا والأبخاز منذ سنة ١٠٠٨م/٣٩٩ هـ فى عهد الملك بجراط الثالث BAGRAT III ملك الكرج[٦٩] (٩٧٥ - ١٠١٤م/٣٦٥ - ٤٠٥هـ) . وازدهرت هذه المملكة ذات المسحة الأرمنية وقويت فى عهد ملكها داوود الثانى البجراطى الملقب بالبناء[٧٠] (١٠٨٩-١١٢٥م/٤٨٢-٥١٨هـ) DAVITI AGHMACHENEBELI .

حمل داوود الثانى على عاتقه عبئين أولهما : مهمة استعادة الأراضى الكرجية الخاضعة للسيادة الإسلامية؛ وثانيهما: استكمال وحدة بلاد الكرج مكملا بذلك خطوات سابقيه حنا مَروشدزى JEAN MARUCHIDZE والقربلاط (٧١) داوود DAVID LE CUROPALATE . وتحقيقا لأهدافه هذه قام بإعادة بناء مملكة الكرج داخليا قبل مواجهة الأخطار الخارجية. وأدرك بثاقب بصره وبصيرته أن الخطر الخارجى يحتل المرتبة الأكثر أهمية ، إلا أنه لابد له من جبهة داخلية قوية، لذا عمل على إعادة النظام والأمن والأمان فى ربوع بلاد الكرج ، وتوطين القبائل المهجرة من قبل السلاجقة، وإخضاع رجال الإقطاع الثائرين على السلطة المركزية، وكبح جماح رجال الدين الذين لا يقلون خطورة عن رجال الإقطاع. وأهم من هذا وذاك إعادة بناء جيش قوى وإعداده أحسن إعداد حتى يتمكن من مجابهة أعداء بلاده وانظمتهم العسكرية المتقدمة، وأولى ذلك أهمية بالغة (٧٢).

كان الجيش الكرجى قد انخفض تعداده نتيجة الحروب الكرجية السلجوقية المتواصلة . كذلك أصاب الجيش الاقطاعى الضعف والفوضى نتيجة النزاع الدائر بين كبار رجال الاقطاع والسلطة المركزية . وعلاجا لهذا القصور الاستراتيجى قسم العاهل الكرجى جيشه إلى ثلاث فرق: الأولى ، وتشكل حرسه الخاص أى الحرس الملكى، ومهمتها تأمين سلامته وأمنه والمشاركة أيضا فى العمليات العسكرية ذات الأهمية البالغة. وأشرف على تجهيزها بأحسن وأحدث الأسلحة القتالية ولم يفته الاهتمام بتثقيفها (٧٣) .

أما الفرقة الثانية ، فقد كلفت بمهمة الدفاع عن المدن والقرى والقلاع والحصون. ثم تأتى فى النهاية الفرقة الثالثة وهى عماد الجيش وتتشكل من الغالبية الساحقة من

الجنود . أدار داوود الثانى العمليات العسكرية بنفسه، فكان قدوة لأفراد جيشه. واهتم أيضا بتحليل كل معركة حربية يخوضها ليتكشف مواضع الخلل والقصور ويعمل على علاج الثغرات . وحرص أيضا على إغداق المكافآت على المقاتلين الشجعان، بينما أجبر المتخاذلين والمتقاعصين على لبس الملابس النسائية ليستعرضهم أمام قواته(٧٤) . .

وبعد أن أتم الملك الكرجى كل هذه الاستعدادات المحسوبة والمدروسة ، قرر اجتياز مرحلة الدفاع والانتقال إلى مرحلة الهجوم، فبدأ بحشد أكبر قدر ممكن من الأعوان والحلفاء حتى يزيد من تعداد جيشه. وأدرك بعين الفاحص المدقق لمستقبل الأمور والأحداث أنه إذا جند المزارعين فى صفوف جيشه سينعكس ذلك سلبا على الانتاج الزراعى ، وسيؤثر تأثيرا سيئا على اقتصاد البلاد. وتيقن أيضا أن المزارع المجند قليل الخبرة بفنون الحرب والقتال . وبحكمته المعهودة يمم وجهه شطر القفجاق القاطنين شمال القوقاز وفكر فى توطينهم فى بلاده وتجنيدهم فى صفوف جيشه عوضا عن تجنيد المزارعين الكرج . وقد اختار القفجاق لمهارتهم القتالية وحنكتهم العسكرية وقناعتهم فى اشباع حاجياتهم الشخصية . إضافة إلى ذلك ، فإن صلة المصاهرة كانت رابطا قويا فى توثيق العلاقات بين الطرفين فقد تزوج داوود بابنة خان القفجاق المدعو أوتروك OTROK (تسمية المصادر الكرجية (أتاراك شاراجانتين(٧٠) ATARAK - CHARAGANIS - TSE)، كذلك كان الماكر الكرجى يدرك تماما أحوال حلفائه المترديه نتيجة ما يعانونه من ضغوط من قبل روسيا وكييف، إذ كان هدف كل منهما هو إبادة القفجاق وطردهم من الأراضى التى كانوا قد احتلوها فيما مضى(٧٧) .

في ظل هذه الظروف ، كان من الطبيعي أن يحظى مبعوثو العاهل الكرجي بموافقة القفجاق على عملية التهجير المقترحة، مما شجعه على أن يقوم بنفسه بزيارة باب الأبواب[٧٨] ، ويشرف على عملية تهجير هذه العناصر المتوحشة والمتمرسة على فنون الحرب والقتال إلى بلاده . ولم يكتف داوود بذلك ، بل صالح قبائل الأوسيت OSSETES الواقعة أراضيهم بين بلاد الكرج والقفجاق[٧٩] ، بعد أن احتل كل القلاع الموجودة على طريق عبور القفجاق إلى بلاد الكرج . واتفق أيضا على تجنيد خمسة آلاف من المرتزقة الأوسيت . وقام بتوزيع القفجاق على مختلف مقاطعات بلاده، فأسكن عددا منهم في خارطلى الداخلية؛ ووطن من تبقى منهم شمال أرمينية وفي مقاطعة إريثى وكلفهم بحراسة الحدود . كذلك أسرع ببناء قلعة حصينة بالقرب من قازبك[٨٠] KAZBEK تتحكم بفضل موقعها الاستراتيجي في ممرات باب اللان[٨١] PAS DE DARYAL .

على أية حال ، اندمج القفجاق بسرعة بالغة في بلاد الكرج ، فاعتنقوا المسيحية، وتعلموا لغة وطنهم الجديد، وانصهروا بلا مشقة في الشعب الكرجي . وكان لهجرة القفجاق ، وإعدادهم ليكونوا جيشا منظما، أثره العظيم في تقوية الجيش الكرجي وتدعيم مكانته الحربية، فقد بلغ تعداده آنذاك خمسة آلاف فارس من الحرس الملكي وستين ألف مقاتل كرجي إضافة إلى فرق من المرتزقة من الداغستانيين والأكراد وسكان الجبال يتم استدعاؤهم عند الضرورة[٨٢] .

شاءت الأقدار أن أصبح ميزان القوى لصالح العاهل الكرجي عقب وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢م / ٤٨٥هـ . كما سبق أن ذكرنا فأسرع بالانقضاض على كتائب الأتراك الساجقة المستقرة في خارطلى KARTLI ، ونجح في اجلائهم عن البلاد ،

وأعاد إليها سكانها من الكرج وأوصاهم باعادة بناء اقتصاد بلادهم المنهار بفعل الحروب ثم قام بمطاردة القبائل الرعوية السلجوقية التى اعتادت أن تأتى فى شهر اكتوبر من كل عام إلى وادى متكافارى MTKAVARI - وهو الاسم الكرجى لنهر الكر - فى الأراضى الممتدة من مدينة تفليس حتى برذعة، ومنعها من الرعى فى هذه المناطق .

علما بأن هذه القبائل الرعوية كانت تنسحب فى فصل الربيع من وادى نهر الكر لتعود ثانية إلى جبال سمخيت SOMKHETIE وإقليم أرارات ARARAT(٨٣) . ثم أعقب ذلك بالامتناع عن دفع الجزية المقررة عليه للسلاجقة وذلك سنة ١٠٩٧م/ ٤٩٠هـ ، وكان معنى هذا اعلان الحرب على عدو بلاده. وقد أدرك خارطليس تسوخوفريبا KARTLIS TSKHOVREBA مؤرخ الملك داوود وكاتب سيرته تمام الادراك الأحوال الجديدة التى أحاطت ببلاد الكرج والتى تمكن العاهل الكرجى بمهارة بالغة الاستفادة منها خير استفادة . فقد ربط هذا المؤرخ الفاحص المدقق فى مصدره «سيرة داوود ملك الملوك» TSKHOREBA MEPHET MEPHISA DAVITISI بين الأوضاع الداخلية فى بلاد الكرج بين الأحوال والمتغيرات العالمية آنذاك . فذكر أن ازدياد قوة عاهله وامتناعه عن دفع الجزية للأتراك السلاجقة تزامن مع الدعوة للحروب الصليبية وتأسيس الامارات الصليبية فى فلسطين وبلاد الشام وركز فى حديثه علي أهمية سقوط كل من انطاكية وبيت المقدس فى أيدى الصليبيين (٨٤).

على أية حال ، بعد هذه الاستعدادات العسكرية الهائلة، استعد داوود لاستخدام آلته العسكرية تحقيقا لمخططاته فى استعادة البلدان الكرجية من الاتراك السلاجقة

وتحقيق وحدة بلاد الكرج. فبعد أن نجح فى اجلاء الاتراك السلاجقة عن خارطلى، استعد لضم كاخيتى KAKHETIE وإريثى (٨٥) ERETHIE ، أى بلاد الكرج الشرقية(٨٦) .

ففى عام ١١٠١م/٤٩٥ هـ تخلص داوود الثانى من نفوذ آل أوربليان ORBELIAN الذين نازعوه السيادة على بلاد الكرج. فقد أسر أمير أوربليان الجسور ليباريت الثالث LIPARIT III ، ثم توفى ابنه وخلفه راتى RATI وذلك فى نفس العام ، فحرم الأوربليون من زعمائهم الشرعيين .

وهكذا ساعد الموت الطبيعى لآخر أمراء آل اوربليان، الزعيم الكرجى داوود، على القضاء على مناوئة أهم رجال الاقطاع الكرج له(٨٧) . ثم جاء الدور على الزعيم الاقطاعى الثانى، ألا وهو الأمير الكرجى كويريكيه الرابع KWIRIKE IV وخلفه أغزر ثان الثانى AGHSARTHAN II الخاضعين لسيادة الأتراك السلاجقة. كان على الملك الكرجى أن يجابه آل كويريكيه بالسلاح، فبدأ عام ١١٠١م / ٤٩٥هـ بالهجوم على كويريكيه الرابع أمير كاخيتى واريثى وهما من أهم معاقل الاتراك السلاجقة؛ وتمكن من الاستيلاء على قلعة زايدارادينى ZEDAZADENI التى تعد أهم قلاعه الحصينة، وتقع بالقرب من مصب نهر ارجفى (٨٨) ARAGVI عند التقائه بنهر الكر، شمال مدينة تفليس . ثم شاءت الأقدار السعيدة أن ثار رجال الاقطاع فى كاخيتى واريثى على أغزرثان الثانى خليفة كويريكيه الرابع بسبب فساد أخلاقه وسوء تدبيره للحكم واعتبروه غير جدير بإعتلاء العرش على حد قول لوند موفسسيان LEWOND MOVSESIAN فى مصدره تاريخ ملوك كويريكيان لورى(٨٩) HISTOIRE DES ROIS

KURIKIAN DE LORI . وانتهى المطاف بأن تحالف كبار رجال الاقطاع فى كاخيتى واريثى وقبضوا على أميرهم وسلموه إلى الملك الكرجى داوود . وبذلك نجح فى ضمهما إلى بلاد الكرج الموحدة، وأسدل الستار نهائيا على أسرة آل كويريكيان[٩٠] .

وهكذا أصبحت الأراضى الكرجية الواقعة تحت سيادة داوود الثانى تمتد من شواطىء البحر الأسود إلى جبال داغستان بعد نجاحه فى ضم بلاد الكرج الشرقية إلى مملكته .

هكذا، نجح داوود الثانى فى افشال مخططات الاتراك السلاجقة وسياستهم الهادفة إلى اضعاف بلاد الكرج حتى تظل خاضعة للسيادة السلجوقية. فقد استن ملكشاة منذ سنة ١٠٨٠م / ٤٧٣ هـ سياسة تقضى باشعال نيران الشقاق والفرقة بين الأسرتين البجراطيتين الحاكمتين فى كل من بلاد الأبخاز وخارطلى من ناحية بين أسرة أغزرثان الحاكمة فى مقاطعتى كاخيتى واريثى من ناحية أخرى[٩١] . لكن بسياسته الحكيمة، قوض داوود سياسة الأتراك السلاجقة ، حين نجح فى ضم بلاد الابخاز إلى مملكة الكرج الموحدة عقب وفاة راتى آخر أمراء أسرة أوربليان - كما سبق أن ذكرنا، ثم استولى على خارطلى وضم كاخيتى واريثى عقب ثورة كبار رجال الاقطاع على أغزرثان الثانى آخر أمراء أسرة كويريكيان وانخراطهم تحت لواء العاهل الكرجى .

وكان من الطبيعى أن تثير هذه التوسعات الإقليمية أفئدة الأتراك السلاجقة الذين أسرعوا بحشد القوى الإسلامية المجاورة لمواجهة الخطر الكرجى المتنامى . ففى ظل هذه الظروف الحرجة تزعم طغرل بن محمد (ت المحرم ٥٢٩ هـ / اكتوبر ١١٣٤م)

أمير كنجة GANDJA (٩٢) والران المعسكر الإسلامى وأعلن الحرب على داوود. ودارت بين المتصارعين معركة ضارية بالقرب من إرتسوخى ERTSOUKHI خرج منها الزعيم الكرجى ظافرا بعد أن تمكن من إلحاق الهزيمة بالتحالف الإسلامى وطرده من كاخيتى واريثى(٩٣) :

عقب هذه الانتصارات التى حققها الجيش الكرجى ، ظلت العاصمة تفليس ورستافى ROUSTAVI والأراضى الواقعة جنوبى خارطلى خاضعة لسيادة السلاجقة . إلا أن داوود لم يركن إلى السكينة، إذ بدأ بتوجيه أولى حملاته على جنوب خارطلى هادفا من وراء ذلك التمهيد للإستيلاء على تفليس حيث تتمركز فيها القوات الأساسية للجيش السلجوقى لكن كان عليه أن يستولى أولا على الأطراف الجنوبية للمدينة . وبالفعل فى سنة ١١١٠ م / ٥٠٤ هـ نجح الجيش الكرجى فى الاستيلاء على شمشفلدى (٩٤) SAMCHVILDE الحصينة . وكان سقوطها هزيمة ساحقة للاتراك السلاجقة، اضطروا بعدها إلى الانسحاب من الأراضى المتاخمة لها. وفى نفس الوقت، تمكن الكرج من احتلال قلعة دزينا DZENA ، واجلاء السلاجقة عن مقاطعة سمخيت SOMKHETI، والحاق هزيمة بهجوم مضاد قام به السلطان السلجوقى(٩٥) . بعد ذلك واصل الجيش الكرجى زحفه إلى أن وصل إلى بلاد كنجة وضواحيها . ويذكر ابن القلانسى (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) فى مصدره «ذيل تاريخ دمشق» أن هذه المنطقة عانت الأمرين من عبث وفساد الكرج. وعندما علم بذلك السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه (ت فى ١٤ ذى الحجة ٥١١ هـ / ١١١٨م) حشد لمواجهتهم جيشا وافر العدد، وتمكن من «كفّ أذاهم» ، ونجح فى هزيمتهم وتشريدهم وطردهم خارج البلاد

الإسلامية بعد أن «دوخ بلادهم وأخرب أعمالهم». ثم أمن أهل بلاد كنجة من هجماتهم، وعاد ظافرا غانما إلى بلاده (٩٦).

وعلى الرغم من هذه الهزيمة التى لحقت بالجيش الكرجى، فقد بذل الملك داوود الثانى قصارى جهده لوضع حد للاغارات الموسمية التى كان يشنها الاتراك السلاجقة على الأراضى الواقعة جنوب العاصمة تفليس . ونجح بالفعل فى تحقيق هدفه حين استولى سنة ١١١٥م / ٥٠٩ هـ على قلعة رستافى ROUSTAVI الواقعة جنوب شرق تفليس. وكانت هذه القلعة الحصينة قبل سقوطها فى أيدى الكرج تحمى تحركات الاتراك السلاجقة عبر وادى متكافارى MTKAVARI ويورى (٩٧) YORI.

وفى سنة ١١١٦ م / ٥١٠ هـ تمكن فرسان الكرج أيضا من إجلاء السلاجقة عن قلرجيت(٩٨) KLARDJETH والطاييك(٩٩) TAYQ. ثم واصل العاهل الكرجى توسعاته بأن استولى سنة١١١٨م/٥١٢هـ على أجارانى AGARANI، وتوج انتصاره هذا بانتصار على درجة كبيرة من الأهمية حين استولى على قلعة لورى LORI الواقعة على الطريق المؤدى إلى بردودج BERDOUDJ والتى عبرها كان الاتراك السلاجقة يستطيعون الوصول بسهولة إلى مقاطعة سمخيت(١٠٠).

ويعد ضم مملكة لورى إلى مملكة الكرج الموحدة أحد أهم الانتصارات السياسية والعسكرية التى حققها العاهل الكرجى . فبفضل بسط سيادته على هذه المملكة، أصبح الكرج يسيطرون على الطريق من الجنوب حتى بلاد الكرج الشرقية وتفليس، وبذلك قطعوا على الأتراك السلاجقة طريق الوصول إلى تفليس ومهدوا السبيل لاسقاطها فى قبضتهم. كذلك نجح بدهائه الحربى فى بسط سيادته على الاطراف

والأراضى الواقعة جنوبى تفليس، وقضى على كتيبة سلجوقية كانت تمضى الشتاء على شواطىء نهر الرس، مما جعل الأتراك السلاجقة فى موقف لا يحسدون عليه، بعد أن نجح الكرج فى ضم جنوب خارطلى إلى مملكة الكرج الموحدة. ومع ذلك، فقد ظلت كل من تفليس ودمانيسى DMANISI فى أيدى الأتراك السلاجقة(١٠١) .

بعد هذه الانتصارات الحربية المتواصلة والمتلاحقة ، خطط الملك الكرجى لمرحلة الهجوم الشامل على خصمه العنيد الذى عمل له ألف حساب . ويذكر كاتب سيرته أن عيون السلاجقة كانت ترصد أولا بأول تحركات الجيش السلجوقى، فى حين كان داوود الثانى أكثر مكرا منهم . ففى تحرك غير محتمل ولا متوقع ولكى يخدع جواسيس السلاجقة، زحف بجيشه إلى بلاد الكرج الغربية وذلك سنة ١١٢٠م/٥١٤هـ . وبينما كان الجيش السلجوقى يجتاح الأراضى الكرجية، انقض عليه الجيش الكرجى كالصاعقة، ولم يفلت إلا القليل من السلاجقة لاذوا بالفرار من ساحة القتال .

عقب ذلك ، تسلل الملك الكرجى إلى شروان (١٠٢)CHIRVAN واستولى على مدينة قبالا KABALA . ثم واصل زحفه إلى خارطلى ، لكنه اضطر إلى الانسحاب ثانية إلى شروان(١٠٣) ربما بسبب مقاومة سكان خارطلى له، ورفضهم الخضوع للسيادة الكرجية .

إلا أن العاهل الكرجى لم يركن إلى السكينة، فمنذ شهر فبراير من عام ١١٢٠م / رمضان ٥١٣ هـ حتى شهر يونيو من عام ١١٢١م / ربيع أول ٥١٦ هـ شن الجيش الكرجى هجوما ضاريا على قرى الاتراك السلاجقة الواقعة على الأطراف الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية فيما وراء جبال القوقاز، واحتل بذلك نقاط ارتكاز

الاتراك السلاجقة. ولم يقنع بما حققه من انتصارات بل ضيق الخناق فى نفس الوقت على العاصمة تفليس ذلك منذ أوائل عام ١١٢٠م / شعبان ٥١٣ هـ ، علما بأن تفليس كانت تعانى منذ ما يزيد على أربعة عقود من حالة فوضى وتدهور سياسى عقب زوال نفوذ أسرة بنى جعفر ، التى تولت حكمها ما يقرب من قرنين من الزمان(١٠٤). على أية حال، بعد أن تمكن داوود الثانى من الاستيلاء على مدن وقلاع الأتراك السلاجقة التى تحيط بفريسته، أصبحت العاصمة تفليس محاطة بالجيش الكرجى كإحاطة الدائرة بمعصم اليد، خاصة بعد أن فقد السلاجقة نقاط ارتكازهم الواحدة تلو الأخرى .

ثم واصل الجيش الكرجى شن هجماته الشرسة على قبائل السلاجقة التى اعتادت الرعى فى أحراش بلاد الكرج . فما كان من زعماء هذه القبائل أن أرسلوا يستنجدون بالقوى الإسلامية المجاورة ، وانضم إليهم كبار تجار كنجة وتفليس ودمانيسى . ومثل الجميع أمام السلطان السلجوقى محمود بن ملكشاه (ت فى شوال ٥٢٥ هـ / أغسطس ١١٣١م) الذى بدوره - قد انتابه الفزع لإدراكه مدى خطورة بسط السيادة الكرجية على الأراضى الواقعة فيما وراء جبال القوقاز على حساب الوجود السلجوقى هناك. إزاء ذلك، استعد لتلك المجابهة الحاسمة خير استعداد، وأعد هجوما مضادا(١٠٥) .

هذا بينما وسع داوود الثانى من نطاق مصاهراته السياسية بأن زوج ابنته ثمارا THAMAR لشروانشاه ملك شروان المسلم، وأصبح بذلك صديقا حميما ومناصرا قويا له(١٠٦) . كذلك بفضل سياسته الماكرة هذه ، كسب ود الامبراطورية البيزنطية بعد أن زوج ابنته الثانية كاتا KATA بابن القيصر نقفور برينيوس(١٠٧)

. NICEPHORE BRYENNE

هكذا ، توغل اسفين الكرج فى عمق الأراضى السلجوقية، وأحدث تصدعا رهيبا وآثارا مفزعة بين الدويلات الإسلامية الصغيرة المتنافرة .

إزاء هذا الخطر الداهم والساحق والذى كاد يؤدى إلى استئصال الوجود السلجوقى من هذه البقاع، كان لابد من توحيد الصفوف الإسلامية خاصة بعد أن وردت الأخبار سنة ١١٢١م/٥١٥ هـ «بظهور الكرج من الدروب، وقصدهم بلاد الملك طغرل» الذى كان باسطا سيادته على الران ونتجوان(١٠٨) حتى نهر الرس(١٠٩) والمتاخم مباشرة لحدود بلاد الكرج(١١٠) .

علاجا لهذا الخطر المستشرى على الوجود الإسلامى، أعلن السلطان السلجوقى محمود بن ملكشاه (ت فى شوال ٥٢٥ هـ / أغسطس ١١٣١ م) الدعوة للجهاد و«تكاتب الأمراء المجاورون لبلادهم واجتمعوا»(١١١) ، فتحالف كل من الأمير نجم الدين إيلغارى بن أرتق(١١٢) صاحب وأمير حلب وماردين ومؤسس دولة بنى أرتق التركمانية ، والأمير سيف الدولة دبيس بن صدقة بن مزيد الأسدى(١١٣) أمير الحلة وصهر نجم الدين إيلغازى على ابنته كمارختون(١١٤) ، والملك طغرل بن محمد(١١٥) ملك كنجة والران ، وشمس الدين طغان أرسلان الأحدب حاكم أرزن(١١٦) وبدليس(١١٧) ودوين(١١٨). وهكذا «كان المسلمون فى عسكر كثير يبلغون ثلاثين ألفا»(١١٩) .

أما الملك داوود الثانى ، فقد استعد لهذه المعركة الفاصلة أحسن استعداد، إذ حشد حسب قول عز الدين بن شداد (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م) «خلقا لا يحصى»(١٢٠). فقد انخرطت فى جيشه جموع من «القفجاق وغيرهم من الأمم المجاورة لهم(١٢١)».

وينفرد المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى (ت ١١٤٤م/٥٣٩هـ) MATTHIEU D'EDESSE والمستشار جلتيرى GALTERII بذكر تعداد وأجناس الجيوش المتحالفة مع الجيش الكرجى. إذ جاء فى هذين المصدرين المهمين أن جيش داوود ضم أربعين ألف من أشجع جنود الكرج وخمسة عشر ألفا من أمهر جنود خان القفجاق وخمسة ألاف من الأوسيت وألفين من الصليبيين وعناصر أخرى متحالفة من الداغستانيين والأكراد وسكان الجبال لم يرد ذكر تعدادها . وذكر جلتيرى أن إجمالى الجيش الكرجى بلغ الثمانين ألف مقاتل[١٢٢] .

هذا عن تعداد جيش المعسكرين المتصارعين ، ويتضح من خلاله أن جيش داوود الكرجى بلغ ما يقرب من ثلاثة أضعاف جيش الأتراك السلاجقة وحلفائهم من الأمراء المسلمين المجاورين .

وإذا انتقلنا إلى العاصمة تفليس، فقد بلغ اضطراب انظمة الحكم فيها مداه، مما دفع الفارقى (ت ٦٨٧ هـ/١٢٨٨م) إلى ذكر أنه « كان كل شهر يلى أمرهم منهم واحد بقوا كذلك مدة أربعين سنة»[١٢٣] وذلك عقب زوال نفوذ أسرة بنى جعفر التى حكمت المدينة طوال ما يقرب من قرنين من الزمان كما سبق أن ذكرنا .

على أية حال ، استغل داوود كل هذه الظروف المواتية أحسن استغلال . فبدأ بممارسة ضغطه العسكرى على تفليس. وكان لابد من وحدة الجيوش الإسلامية لمواجهة المد الكرجى، خاصة بعد أن أسرع الجميع لتلبية نداء الجهاد. وسجل ابن القلانسى(ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م) الفزع الذى استشرى فى صفوف الجيش الكرجى بسبب كثرة اعداد جيوش المتحالفين المسلمين بقوله«فعاد (الكرج) فرقا[١٢٤]» .
فما كان من المسلمين إلا أن تعقبوا فلول الفرق الكرجية المنسحبة ، وضيقوا عليهم

الخناق فى الدروب . لكن الكرج تشجعوا واستداروا لقتال المسلمين ، وتمكنوا من هزيمتهم بعد استشهاد أعداد كبيرة من المجاهدين .

بعد ذلك، قصد الجيش الكُرجى مدينة تفليس حيث تتلوا من فيها (١٢٥)، مما دفع أهالى المدينة - على حد قول الفارقى - إلى إرسال وفد إلى نجم الدين ايلغازى لاستدعائه ليسلموه تفليس ، خاصة بعد أن «ضايقهم(داوود ملك الأبخاز والكرج) مضايقة شديدة» وأصاب مدينتهم الاضمحلال والخراب. كذلك استنجدوا بطغرل ملك كنجة والران ، فأمدهم بجيش مزود بعتاد للدفاع عنهم، لكنه لم ينجح فى إجلاء الجيش الكرجى المحاصر لمدينتهم «وزادت مضايقة الكرج لهم» مما اضطر أهل تفليس بعد طول الحصار المفروض على مدينتهم- إلى أن يتفقوا مع داوود الثانى على «أن يحملوا له فى كل سنة عشرة آلاف دينار، ويكون عندهم شحنة معه عشر (صحتها عشرة) فوارس ، فبقوا على ذلك مدة»(١٢٦) .

إلا أن سكان تفليس خرقوا الاتفاق، إذ أوفدوا سفارة ثانية إلى نجم الدين إيلغازى «يستدعونه ليسلموا إليه تفليس»(١٢٧) . فسار لنجدتهم وبصحبته جيش عظيم، وانضم إليه صهره نور الدولة دبيس بن سيف الدولة صدقة بن مزيد الأسدى ملك العرب صاحب الحلة، وكذلك شمس الدولة طغان أرسلان بن الأحدب صاحب أرزن وبوليس ودوين الذى تسلل إلى تفليس من الشرق مصطحبا معه القاضى علم الدين بن نباتة وولده علم الدين أبو الفتح الكبير والوزير أبو تمام بن عبدون. ووصل المتحالفون المسلمون إلى أرزن الروم(١٢٨) ، وأتخذ الجميع طريق ثرياليت(١٢٩) THRIALETH واتفقوا على أن تجتمع الجيوش الإسلامية على باب تفليس(١٣٠) . أما الملك طغرل ، فقد قدم من ناحية كنجة، وسار طغان أرسلان بن

الأحدب من دوين؛ وزحف نجم الدين ايلغازى بجيشه إلى مشارف العاصمة تفليس على مقربة نصف يوم من تفليس الجبل[131] أي على مقربة من مرتفعات ديدجورى DIDGORI الواقعة جنوب غرب تفليس حيث دارت المعركة الفاصلة .

هذا عن حشود الجيوش الإسلامية وتحركاتها لمواجهة معركة حاسمة تهدد كيانها ليس فقط فى بلاد الكرج بل فى القوقاز عامة .

أما الملك داوود، فلم يكن أقل استعدادا من الجيوش الإسلامية . إذ يذكر ابن الأزرق (ت ٥٩٠هـ / ١١٩٤م) إنه خرج ومعه ولده وولى عهده ديمترى من الناحية الغربية[132] «ومعه خلق لا يحصى[133] »، واتخذ موقعا استراتيجيا إذ كان يحدر عليهم من الجبل وهم فى لحفة»[134] وقبل وصول جيش الملك طغرل بن محمد ولا شمس الدولة طغان أرسلان بن الأحدب بمن معه، اندلع قتال ضار بين المتصارعين وكانت الجيوش الإسلامية المتقدمة بقيادة نجم الدين إيلغازى وصهره دبيس[135] . وانفرد ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) - وعنه نقلت معظم المصادر الإسلامية - بذكر أسباب هزيمة الأتراك السلاجقة والجيوش الإسلامية المتحالفة معها، إذ ارجع ذلك إلى خدعة ماكرة استنها ملك الكرج، أدت إلى حدوث فوضى واضطراب فى صفوف المعسكر الإسلامى . فبعد أن اصطف الجيشان المتصارعان استعدادا للقتال، خرج من بين صفوف القفجاق حلفاء الكرج ما يربو على المائتى رجل، فظن المسلمون أنهم استسلموا، فلم يحترزوا منهم . وبذلك تمكن القفجاق من اختراق صفوف المسلمين دون أن يلحق بهم أذى، وسرعان ما أمطروهم بوابل من النشاب، فاضطربت صفوفهم وظنوا أن هزيمة ساحقة أصابتهم[136] ، كان ذلك فى الرابع عشر من أغسطس سنة ١١٢١م[137]/ ٢٩ جمادى الأولى سنة

٥١٥ هـ فى منجليس MANGLISI غربى تفليس[١٣٨] . «وتبع الناس بعضهم بعضا منهزمين ؛ ولشدة الزحام صدم بعضهم بعضا فقتل منهم عالم عظيم»[١٣٩] . فتعقبهم الجيش الكرجى وأخذ يطاردهم لمسافة عشرة فراسخ[١٤٠] . «وقتل وأسر من المسلمين ما لا يحصى[١٤١]». ويذكر ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) أنالكرج «أسروا أربعة آلاف رجل»[١٤٢] . وأن نجم الدين إيلغازى عاد هزيما فى عشرين فارسا إلى ميافارقين ومعه صهره دبيس، فأقام بها مدة، ثم سار إلى ماردين وأقام بها إلى سنة ست عشرة وخمسائة على حد قول ابن شداد[١٤٣] (ت٦٨٤هـ / ١٢٨٥م). ويذكر ابن الاثير أن حصار تفليس دام إلى سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م.[١٤٤] وإنه عندما قارب أهلها على الهلاك، أوفدوا بعثة ضمت قاضى المدينة وخطيبها إلى الكرج طالبين الأمان. «فلم تصغ الكرج إليهما، فأحرقوا بهما (أي أحرقوا القاضى والخطيب) ودخلوا البلد قهرا وغلبة واستباحوه ونهبوه»[١٤٥]. ولم يكتف الكرج بهذه الأعمال الوحشية بل «قتلوا عامة أهلها، وسبوا الذرية»[١٤٦] .

هذا عن تفاصيل سقوط تفليس فى المصادر الإسلامية، ومنها نستخلص أن رواية ابن الأثير تعد أكمل هذه الروايات ، وأن معظم المصادر الإسلامية الأخرى إما نقلت عنه نقلا يكاد يكون حرفيا أو اختصرت روايته اختصارا شديدا [١٤٧].

وإذا انتقلنا إلى المصادر الأجنبية، فنلاحظ أنها زودتنا بتفاصيل أدق وأكمل وأكثر إفاضة من المصادر الإسلامية. فقد جاء فيها أن السلطان السلجوقى حشد جيوشا من دمشق وحلب حتى القوقاز وكون اتحادا من الفرس والعرب والأتراك السلاجقة لمواجهة هذا الخطر الداهم، ووضع حد لتفاقمه. وبالغت المصادر الأجنبية مبالغة واضحة فى احصاء تعداد الجيوش الإسلامية المتحالفة. فقد ذكر المستشار

جلتيرى ، مستشار إمارة انطاكية GALTERII CANCELLARII ANTIOCHENI فى حوليته «انطاكية الجميلة» ANTIOCHENA BELLA أن تعداد الجيوش الإسلامية بلغ ستمائة الف [١٤٨]؛ بينما جاء فى كل من الحولية الكرجية التى صنفها « خارطليس تسوخوفريبا » KARTLIS TSKHOVREBA وعنوانها «سيرة الملك داوود ملك الملوك»[١٤٩] وحولية المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى CHRONIQUE DE MATTHIEU أنه كان أربعمائة ألف فقط[١٥٠] . ومن المؤكد أن الأرقام الواردة فى المصادر الأجنبية مبالغ فيها مبالغة واضحة، والهدف من هذه المبالغة إكساب الملك الكرجى داوود الثانى مظهر البطل الاسطورى الذى تمكن من كسر شوكة الاتراك السلاجقة والقضاء على الاسطوره القائلة بأنهم قوم لا يقهرون. هذا بينما ذكرت المصادر الإسلامية فى حديثها عن معركة ديدجورى[١٥١] أن عسكر المسلمين بلغ تعداده ثلاثين الف مقاتل فقط كما سبق أن ذكرنا .

على أية حال فى الثانى عشر من أغسطس سنة ١١٢١م / ٢٧ جمادى الأولى سنة ٥١٥ هـ تسلل المسلمون إلى بلاد الكرج عن طريق ثرياليت رمنجليس وديدجورى وتمكنوا من احتلال تفليس والتمركز فوق مرتفعات ديدجورى DIDGORI الواقعة جنوب غرب العاصمة[١٥٢] . فى حين قاد العاهل الكرجى جيشه المكون من تحالف الكرج والقفجاق والاسيت والصليبيين والداغستانيين والأكراد وسكان الجبال[١٥٣]، واختار ضواحى ديدجورى الواقعة داخل مقاطعة خارطلى لتكون ساحة معركته الأولى. لذا سميت هذه المعركة فى المصادر الأجنبية باسم معركة ديدجورى. وفى هذه المعركة ابتدع الماكر الكرجى حيل حربية ماهرة

تقضى ببث الفوضى والاضطراب فى صفوف التحالف الإسلامى المتراص والمنظم أحسن تنظيم. فقد أصدر أوامره إلى الكتائب الكرجية بالانقضاض على جناحى الجيش الإسلامى، فما كان من الجنود المسلمين إلا أن انطلقوا كالوحوش المفترسة لاقتناص المهاجمين الذين سارعوا بدورهم إلى الانسحاب والاختفاء من ساحة القتال. وطبق داوود هذه الخطة فى كافة الجبهات فى أوقات متقاربة. وفى كل هجمة كان الجيش الكرجى يلوذ بالفرار دون مواجهة الجيوش الإسلامية. وبالفعل، كان لهذا التكتيك الحربى الماكر عواقبه الوخيمة على التحالف الإسلامى، إذ تبددت صفوفه المنتظمة ، وأصيب بنوع من البلبلة والاضطراب ، وصاحب كل ذلك الفوضى العارمة . كان هذا أهم ما أسفرت عنه المعركة الأولى من نتائج[١٥٤] . وفى اليوم الرابع عشر من أغسطس سنة ١١٢١ م / ٢٩ جمادى الأولى سنة ٥١٥ هـ اندلعت المعركة الثانية الحاسمة والفاصلة والتى حددت مصير تفليس. ففى هذا اليوم ، أصدر داوود أوامره إلى كتائب الجيش الكرجى ببدأ عملية المناورة، بحيث يتم ذلك بأن تحارب كل كتيبة على حدة كأنها مستقلة تماما عن باقى فصائل الجيش . بينما ترأس بشخصه كتيبة تضم نخبّة مختارة من أحسن الفرسان المتمرسين على فنون الحرب والقتال. وانتظر الملك الكرجى الفرصة المواتية لخوض غمار معركته الفاصلة. وبالفعل واته هذه الفرصة حين شعر بتطرق اليأس إلى صفوف الجيوش الإسلامية ولاحظ انهيار معنوياته عقب المناورات والاغارات الكرجية المتواصلة. حينئذ قام بتوحيد كتائبه. ويذكر المستشار جلتيرى أن داوود أقام معسكره بين جبلين مغطين بغابات كثيفة فى وادى ديدجورى . ويرجع فضل اختياره هذا الموضع الاستراتيجى إلى عيونه المندسة فى صفوف الجيش الإسلامى والذين اخبروه أن عدوه سيهاجم هذا

الموضع[١٥٥] . وقبيل اندلاع المعركة المصيرية خطب العاهل الكرجي في جنوده خطبة حماسية[١٥٦] جاء فيها : «هيا بنا يا جنود المسيح ! فإذا أبلينا بلاء حسنا ، سنضع حدا ليس فقط لأخطار ومصائب هؤلاء الأعداء الأشرار ، لكن أيضا سنتمكن من القضاء عليهم قضاء مبرما . لقد طرأت على ذهني فكرة أعرضها عليكم، وسيكون من بين نتائجها الحفاظ على كرامتنا وسلامتنا في آن واحد. فلنرفع أيدينا إلى السماء، متضرعين إلى الله عز وجل الذى نحبه من أعماق قلوبنا، طالبين منه الموت والاستشهاد في ميدان القتال بدلا من الفرار مخذولين. ولكى نقضى على أى تفكير شيطانى يدفعنا إلى الهرب من ساحة الوغى، اقترح أن نسد بواسطة كتل الأخشاب السميكة الممرات التى دخلنا عن طريقها إلى هذا الوادى (أى وادى ديدجورى) . وهكذا ، دون أن يتطرق الخوف أو الاضطراب إلى قلوبنا، سنخوض بشجاعة منقطعة النظير معركة فاصلة مع عدونا. وستكون المواجهة وجها لوجه وجسداً لجسد حتى لا يتجرأ على مواجهتنا ثانية»[١٥٧] .

والجدير بالملاحظة أن مصنف «انطاكية الجميلة» لجلتيرى انفرد – دون غيره من المصادر – بذكر خطاب داوود السالف الذكر . كذلك يعد أهم المصادر الأجنبية والإسلامية على وجه الإطلاق بصدد تفاصيل معركة ديدجورى وفنون الحرب والقتال فيها .

على أية حال ، حظى خطاب داوود الحماسى والمثير للهمم بقبول الجميع، فأسرع العاهل الكرجى بترتيب صفوفه وتنظيمها استعدادا للمواجهة الكبرى التى عمل لها الف حساب . فوضع فى المقدمة مائتين من جنود الفرنج، كانوا قد سبق لهم الانخراط فى خدمته، وأوكل إليهم مهمة القيام بالضربات الأولى. إلا أنه فجأة

وعلى غير موعد، فى الجانب الآخر من مدخل وادى ديدجورى، سمع صياحاً عالياً، وضجيجاً مفزعاً لأسلحة ومعدات حربية ، وصهيل خيول. ورأى الجميع الوية ورايات الأعداء تتقدم مصحوبة بدقات الطبول والكوسات إعلانا عن قدومهم إلى ساحة القتال . وانطلقت هذه الأصوات المفزعة من التلال والوديان المجاورة معلنة الحرب . لكن الملك داوود انتظرهم فى ثبات وخشوع دون أن يتطرق الفزع إلى قلبه وحرص على رفع معنويات جنوده مؤكدا لهم أن باستطاعة جيش صغير العدد أن يحرز انتصارا على جموع غفيرة من الأعداء بفضل الله وحده(١٥٨) . وبمجرد أن أنهى حديثه هذا، انقض عليه جيش المتحالفين المسلمين كالصاعقة مطلقين صيحاتهم المدوية «الله أكبر» وعلى الرغم من هذا الهجوم المباغت تمكن الجيش الكرجى من إحراز نصر على المسلمين الذين انسحبوا فى فوضى عارمة بعد أن تعرض الغالبية العظمى منهم لسيوف جنود الكرج والمتحالفين معهم. واستمرت عملية مطاردة الفارين ثلاثة أيام وتعقبوهم حتى حدود آنى ، وجرح ايلغازى قائد الجيوش الإسلامية فى رأسه ، وفر من ساحة القتال مع قلة قليلة من اتباعه. فقدتمكن من الفرار إلى ماردين سالما بفضل مساعدة صهره دبيس بن صدقة على حد قول جلتيرى(١٥٩) بعد أن نهب لدبيس ثلاثمائة ألف دينار (١٦٠).

هكذا أحرز الجيش الكرجى وحلفاؤه نصرا حاسما على الأتراك السلاجقة وحلفاؤهم فى معركة ديدجورى.وكان لهذا النصر آثاره البعيدة المدى على الشعوب الخاضعة لسيادة السلاجقة، إذ ولد هذا النصر لدى هذه الشعوب الأمل فى إنهاء تبعيتهم لهم. كذلك بدأت تظهر على حلبة السياسة فى الشرق الأدنى الإسلامى آنذاك قوة جديدة يحسب لها ألف حساب ، خاصة بعد أن حققت نصرا حاسما على

السلاجقة. فالبيزنطيون والصليبيون وجدوا حليفا جديدا سيناصرهم ويتحالف معهم فى حروبهم المقبلة ضد الأتراك السلاجقة والمسلمين .

على أية حال، عقب هذا النصر الكبير، أسرع الملك الكرجى داوود بالاستيلاء على إمارة تفليس الإسلامية فأحكم عليها الحصار مدة من الزمن، ثم هدم سورها الغربى. وتمكن فى نهاية المطاف من الاستيلاء عليها سنة ١١٢٢م /٥١٦ هـ «وجعلها ترسانة سلاحه، ومقر إقامة أبنائه» . وأعادها ثانية عاصمة لمملكة الكرج الموحدة، بعد أن ظلت ما يقرب من أربعة قرون خاضعة للسيادة الإسلامية(١٦١). وبالاستيلاء على تفليس ، استكمل العاهل الكرجى عملية إعادة الوحدة إلى ربوع مملكة الكرج. ولم يكتف بذلك.بل طمع فى مواصلة حرب استرداد الأراضى الخاصعة للسلاجقة وجيرانه المسلمين .

ففى سنة ١١٢٣م / ٥١٧ هـ شن الزعيم الكرجى غارة شرسة على دربند شروان(١٦٢)، وشدد عليها الحصار، . فأسرعت جموع غفيرة من أعيان المدينة إلى السلطان السلجوقى طالبين نجدته(١٦٣) «وشكوا إليه ما يلقون منهم (أى من الكرج) وأعلموه بما هم عليه من الضعف والعجز عن حفظ بلادهم(١٦٤) . فعزم العاهل السلجوقى على نجدتهم ووضع حد لإغارات الكرج. هذا بينما كان داوود الثانى قد تمكن من الوصول إلى شماخى(١٦٥) CHEMAKHA . فنزل السلطان ببستان هناك، فأسرع الجيش الكرجى لنزال جيش السلطان الذى انتابه الفزع الشديد. وأشار الوزير السلجوقى شمس الملك عثمان ابن نظام الملك على السلطان بالانسحاب(١٦٦). وعندما علم أهل شروان بذلك قالوا للسلطان «نحن نقاتل ما دمت عندنا وإن تأخرت ضعفت نفوس المسلمين وهلكوا». فاقتنع السلطان بأقوالهم

و«أقام مكانه»[١٦٧] وقرر عدم الانسحاب. وقد علق ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣م) على أحوال الفزع المنتشر فى صفوف الجيش السلجوقى أحسن تعليق حين قال: «وبات العسكر على رجل عظيم»[١٦٨] . ثم أورد فى موضع آخر أن الفرج جاء من الله إن «ألقى بين الكرج وقفجاق اختلافا وعداوة فاقتتلوا تلك الليلة ورحلوا شبه مهزومين[١٦٩]» . بعد هذه الهزيمة التى منى بها الجيش الكرجى نتيجة الاقتتال بين الحليفين، تمكن السلطان السلجوقى من فتح شروان والاستيلاء على مدينة شماخى وأسر حاكم شروان . ثم أرسل خطاب تهديد إلى ملك الكرج طالبا فيه رد كل ما سبق أن استولى عليه من السلاجقة . فما كان من داوود إلا أن أسرع بالتسلل إلى شروان، وفرض عليها حصارا شديدا ، مما اضطر السلطان السلجوقى إلى الانسحاب منها خوفا من المجابهة . وأعاد داوود شروان إلى ما كانت عليه قبل الفتح السلجوقى . إلا أنه فى سنة ١١٢٤م/٥١٨ هـ رأى بثاقب بصره وبصيرته ضرورة ضمها إلى رقعة بلاد الكرج ، فعين عليها حامية كرجية مكونة أساسا من الاريشيين والكاخيتيين أقامت فى مدن وقلاع شروان [١٧٠].

وينفرد متى الرهاوى - دون غيره من المصادر - بذكر اندلاع قتال ضار حدث سنة ١١٢٣م / ٥١٧ هـ بين الكرج والاتراك السلاجقة ، لم يحدد موضعه، نتج عنه قتل جموع لا تحصى من الاتراك السلاجقة؛ مما دفع طغرل (ت المحرم ٥٢٩ هـ / اكتوبر ١١٣٤ م) ملك كنجة إلى حشد جيش ضخم للثأر من الكرج . ويروى أن حاكم كنجة أقام جسرا من السفن على نهر الكر ، ليعبر عليه جنوده البالغ عددهم ستين الف مقاتل. وكانت خطته قائمة على اجتياز نهر الكر والانقضاض على بلاد الابخاز . إلا أنه عندما علم العاهل الكرجى بهذه الحشود ، عبأ جيوشه، ونجح فى

تحطيم جسر السفن الذى أقامه السلاجقة، وبذلك تمكن من تمزيق خصمه إربا على حد قول متى الرهاوى . أما ملك كنجة ، فقد لاذ بالفرار إلى مدينة أوزكند OZKEND ومثل أمام عمه السلطان سنجر طالبا نجدته[١٧١] .

ولم يكتف داوود باستعادة بلاد الكرج، بل شجعته انتصاراته المتلاحقة على الاستيلاء على المدن الأرمنية. ففى خلال عام ١١٢٣م/٥١٧هـ تمكن العاهل الكرجى من الاستيلاء على سلسلة من القلاع الأرمنية . ثم بلا تريث ولا تمهل زحف على كولا[١٧٢] KOLA وباسيان[١١٧٣] BASSIANI وتمكن من الحاق الهزيمة بالأتراك السلاجقة الذين كانوا قد بسطوا سيادتهم على هذه الأقاليم الجنوبية من بلاد الكرج[١٧٤].

ثم جاء بعد ذلك دور آنى ANI - عاصمة أرمينية الكبرى - والتى كان قد فتحها من قبل العاهل السلجوقى ألب أرسلان سنة ١٠٦٤ م / ٤٥٦ هـ [١٧٦]، وظلت ستة عقود خاضعة لسيادة الاتراك السلاجقة. وقد لعبت مدينة آنى باعتبارها مركزا اداريا وتجاريا كبيرا، ونقطة استراتيجية مهمة للعهدين البجراطى والسلجوقى، دورا بالغ الأهمية فى تاريخ البلاد السياسى والحربى . وقد غدت آنى خلال تلك الحقبة ميدانا للمصادمات الحربية العديدة بين بلاد الكرج من ناحية والأمراء المسلمين الذين ثبتوا مواطىء أقدامهم فى أرمينية من ناحية أخرى . وتوقف على نتائج الصراع بين هذين الطرفين مصير لا مدينة آنى وحدها وإنما معها أيضا مصير مقاطعة أراجدزوتن[١٧٧] ARAGADSOTN واقليم شيراك CHIRAK [١٧٨] . ولهذا كان استيلاء الكرج على آنى ضربة انزلت لا بأمن وسلامة التجار المسلمين فحسب، وإنما أيضا بالمصالح التجارية للإمارات الإسلامية

فى أرمينية ككل . فبعد أن نجح الملك الكرجى فى الاستيلاء على سبير[١٧٩] SPER المطلة على نهر شوروخ والواقعة فى منتصف الطريق بين ارزن الروم[١٨٠] وطرابيزون[١٨١]، حمل على عاتقه مهمة الاستيلاء على آنى .

وكانت العاصمة الأرمينية - على حد قول أحمد بن لطف الله منجم باشى فى مصدره «باب فى الشدادية من كتاب جامع الدول » (كتبه حوالى سنة ٥٠٠ هـ /١١٠٧م) - قد آلت منذ سنة ١٠٦٥م / ٤٥٧ هـ إلى أبى الأسور[١٨٢] حاكم الران من أسرة بنى شداد الكردية ، إذ تمكن من الاستيلاء على حصن آنى الحدودى وأصلح ما تهدم منه وعمره ورممه، وعين عليه عماله بعد أن «شحنه بالسلاح والذخيرة والميرة والرجال[١٨٣]» .

وحتى الربع الأل من القرن الثانى عشر الميلادى كان الشداديون تابعين لسيادة الأتراك السلاجقة. وكان هؤلاء بدورهم حماة الشدادين ومدافعين عنهم فى مواجهة أطماع كل من بلاد الكرج والإمارات الإسلامية المجاورة. بيد أن الحكام الشداديين لم يعبأوا دوما بمصالح أهالى مدينة آنى وقواعد حياتهم وعاداتهم، مما حدى بأهل هذه المدينة إلى الاستنجاد والاستعانة بملوك الكرج. وينبغى أن نضع فى الاعتبار أيضا أن مملكة الكرج كانت لديها خططها ومصالحها واهتماماتها المرتبطة بمدينة آنى، وهى فى زودها عنها وقفت ضد تحالف الأمراء المسلمين حماة أسرة بنى شداد[١٨٤] .

على أية حال ، يذكر المؤرخ الأرمنى صموئيل الآنى SAMUEL D'ANI فى حوليته CHRONIQUE أنه عقب وفاة الأمير الشدادى مانوتشه[١٨٥] MANDOUTCHE سنة ١١١٠م/٥٠٤ هـ خلفه ابنه أبو الأسور . وتصف

المصادر الأرمنية حاكم آنى الجديد بأنه كان منخور القوى، ضعيف القلب والعزيمة، جبانا لا يقوى على مواجهة الأخطار والاغارات المحدقة بربوع العاصمة الأرمنية والتى نجم عنها تدمير اقليم شيراك GHIRAK عن بكرة أبيه . فبدلا من أن يسعى أبو الأسور بن مانوتشه إلى رد الهجمات عن مدينته، قرر بيعها إلى أمير قرص KARS نظير مبلغ قدره ستون الف دينار . وعندما شاع هذا الخبر بين الأرمن، انتاب الخوف والفزع زعماء وسكان آنى، فأسرعوا بالاستنجاد والاستعانة بالملك الكرجى داوود الثانى، وحثوه على الاستيلاء على مدينتهم وتعهدوا له بمساعدته على تحقيق هذا الهدف(١٨٦) .

إزاء هذا الاستنجاد، حشد الزعيم الكرجى جيشا قوامه ستون ألف فارس، زحف على رأسه إلى العاصمة آنى وقام بحصارها من كافة الجهات حسب قول بروسيه BROSSET فى كتابه «أطلال من آنى» LES RUINES D'ANI . وبفضل مناصرة ومساعدة سكانها من الأرمن وكبار أمراء الاقطاع من آل أوربليان ORBELLIAN وآل ايفانيه IVANE وال زخارى ZAKHARE تمكن العاهل الكرجى من التسلل إلى داخل العاصمة الأرمنية والاستيلاء عليها بعد ثلاثة أيام من حصارها. ولم ينل آنى أية أضرار أو خسائر من الأرواح. كان ذلك فى شهر أغسطس سنة ١١٢٣م /(١٨٨) جمادى الآخره سنة ٥١٧ هـ . وعين حاكما على العاصمة الأرمنية الأمير الكرجى أبا الحيث ABELHETH وابنه ايفانيه، وخصص لها حامية قوية للدفاع عنها، وعاد ثانية إلى عاصمته تفليس وبصحبته أسيره أبو الأسور والبقية الباقية من أسرة بنى شداد الكردية(١٨٩) .

كان لاستيلاء الزعيم الكرجى على العاصمة الأرمنية آنى صداه البعيد المدى؛ إذ

كانت المدينة مركزا للحياة القومية والثقافية لأرمينية والأرمن ، وكانت لها مكانتها التجارية إذ تعد من أغنى مدن الشرق الأدنى آنذاك، إضافة إلى أنها كانت قلعة استراتيجية على درجة كبيرة من الأهمية. واستبشر سكانها خيرا عقب تحريرها. وغمرت الفرحة قلب المؤرخ الأرمنى متى الرهاوى وعبر في حوليته عن ارتفاع معنويات الشعب الأرمنى عقب إعادة مسجد المدينة إلى كاتدرائية حين قال: «وانتشرت الفرحة البالغة بين أفراد أمتنا خاصة بعد أن رأينا ذلك البناء المقدس يعود ثانية إلى أصحابه الشرعيين» ، ووصف الملك الكرجى بأنه الصديق الوفى للأرمن(١٩٠) .

وأخيرا، انفرد متى الرهاوى دون غيره من المصادر الكرجية والأرمنية والإسلامية على حد سواء بذكر أخبار آخر حلقة من حلقات الصراع الضارى بين الاتراك السلاجقة والكرج فى عهد داوود الثانى. فقد ذكر أخبار حملة تمت قبيل وفاة الملك الكرجى سنة ١١٢٥م/٥١٨ هـ . فقد أورد أن السلطان السلجوقى أعد تحالفا إسلاميا ضم إبراهيم بن سقمان صاحب خلاط، وداوود بن سقمان أمير هنزيط HANTZITH وانضمت إليهما جيوش بعض الأمراء المسلمين المجاورين . احتشدت هذه الجموع الغفيرة وزحفت لاجتياح بلاد الكرج. فأسرع الزعيم الكرجى لقتالهم، ودارت بين الخصمين معركة طاحنة خرج منها داوود الثانى ظافرا بعد أن «طفحت الجبال والوديان بدماء المتحالفين ، وانتشرت روائح جثث القتلى فى كافة ربوع البلاد من أقصاها إلى أقصاها» على حد مبالغة متى الرهاوى. ولم يكتف الجيش الكرجى بذلك بل قام بمطاردة فلول المنسحبين لمدة خمسة أيام (١٩١).

على أية حال، كان للمد الكرجى على حساب الأتراك السلاجقة فى كل من بلاد

الكرج وأرمينية الكبرى صداه المدوى فى ربوع العالم الإسلامى آنذاك، إذ كان لا يقل عن الصدى الذى أحدثته الانتصارات التى حققها الصليبيون فى الشرق الأدنى الإسلامى. إزاء هذا الخطر الكاسح، أسرع وفد من مسلمى القوقاز للمثول أمام الخليفة العباسى فى بغداد ، وتوسلوا إليه لاعلان الدعوة للجهاد ضد الكرج، تماما كما فعل مسلمو بيت المقدس وطرابلس وحلب عندما طلبوا من خليفة بغداد اعلان الجهاد لمواجهة الوجود الصليبى على أراضى المسلمين. إلا أن هذه النداءات لم تأت ثمارها وذهبت سدى(١٩٢) . وهكذا كانت تدور هذه المعارك حامية الوطيس بين الكرج والأتراك السلاجقة وأمير المؤمنين لا يكاد يفعل شيئا، فازداد الكرج قوة وخطرا .

وقبل طى صفحات هذا البحث المتواضع، ينبغى الإشارة إلى أن الملك الكرجى داوود الثانى سبق عصره المتسم بالتعصب الدينى الأعمى حين تسامح تسامحا بالغا فى تعاملاته مع رعاياه من المسلمين والأرمن(١٩٣) المخالفين له فى المذهب الدينى. وعلى هذا، فقد سبق تاريخيا صلاح الدين الأيوبى رائد التسامح الدينى فى عصر الحروب الصليبية .

والملاحظ أن معظم المصادر الإسلامية منها قبل الكرجية أجمعت على أن العاهل الكرجى لم يفرق بين طوائف شعبه من مسلمين ومسيحيين ويهود . فقد أشار إلى ذلك ابن الأزرق الفارقى (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨م) الذى زار مملكة الكرج، وسجل لنا فى تاريخه ما شاهده من نظم وعادات . وتوصل إلى خدمة ملكها ديمترى بن داوود الثانى ، وزار بعض ولايات مملكة الكرج آنذاك مثل آنى والابخاز ودربند فقد ذكر أنه فى سنة ٥٤٩ هـ /١١٥٤م أقام فى تفلبس .والتقى

بأحد المسلمين الأسرى منذ أيام حملة نجم الدين ايلغازى سنة ٥١٥ هـ /١١٢١م ، ودار بينهما حديث أورده الفارقى فى مصنفه أشار فيه الشيخ الطاعن فى السن إلى أن أمير بلاد الكرج، وكل من ولى أمر هذه البلاد من قبل كان يحسن إلى المسلمين، وانهم احتلوا مرتبة سامية فى بلاده ويذكر الفارقى أنه عقب استيلاء داوود على العاصمة تفليس ، حرص على أن يؤمن أهلها، ويطيب قلوبهم، ووعدهم بالمعاملة الحسنة، وأسقط عنهم الأعشار والمؤن والأقساط والخراج. وقبل كل شروط مسلمى تفليس وكان من بينها أن لا يعبر بالمدينة خنزير ولا يذبح بها ولا فى سوقها. كذلك روى أن الزعيم الكرجى لم يمح الهوية الإسلامية للعملة الكرجية؛ فقد ضرب لسكان تفليس دراهم عليها اسم السلطان والخليفة فى الوجه الواحد، وفى الوجه الآخر اسم الله واسم الرسول عليه الصلاة والسلام، وأخيرا يأتى اسمه على جانب من الدرهم الجديد. وأورد كذلك أن داوود نادى فى البلدان الكرجية أن من ألحق الأذى بمسلم سيهدر دمه «وشرط لهم الآذان والصلاة والقراءة ظاهرا، وأن يخطب يوم الجمعة ويصلى، ويدعى للخليفة والسلطان ولا يدعى لغيرهما على المنبر» . أما حمام اسماعيل بتفليس، فقد منع الكرج والأرمن واليهود من دخوله، وجعله قاصرا على المسلمين فقط. واختتم ابن الأزرق حديثه قائلا أن الملك الكرجى أحسن إلى المسلمين غاية الإحسان، وجعل لأهل العلم والدين والصوفية أحسن المنازل، التى فاقت منازل أقرانهم فى البلدان الإسلامية الأخرى(١٩٤) .

كذلك أشار ابن حوقل الذى زار العاصمة تفليس أن ملك الكرج - رغم كونه مسيحيا - كان يعامل المسلمين بالحسنى ، فيحميهم من كل أذى، ويحافظ على إقامة شعائرهم الدينية ، ويحمى مقدساتهم الإسلامية من كل دنس، ويوقد المسجد

الجامع فى تفليس بالشمع والقناديل ، ويزوده بكل احتياجاته ، والآذان فى جميع مساجدها يجهر» . ولاحظ بعين الفاحص المدقق أن المسلمين والكرج يعيشون فى جو يسوده الحب والسلام والأمان ويظلله التسامح الدينى(١٩٥) .

أما القزوينى (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣) فقد ذكر فى مصنفه «آثار البلاد وأخبار العباد» نقلا عن بعض التجار، أن حمام تفليس ، الشبيه بحمامات طبرية «يختص بالمسلمين ولا يدخله كافر ألبته». وفى موضع ثان من مصنفه ، أشار القزوينى إلى حرية ممارسة سكان تفليس لشعائرهم الدينية قائلا: «من أحد جانبى الكر يؤذنون ومن الجانب الآخر يضربون بالناقوس»(١٩٦) . مما يؤكد ما ذكره الفارقى وابن حوقل عن التسامح الدينى السائد فى ربوع بلاد الكرج .

كذلك أشار المؤلف المجهول «للبستان الجامع لتواريخ الزمان» فى حديثه عن وفاة داوود الثانى تحت أحداث سنة ٥١٦ هـ (صحتها ٥١٨ هـ) أنه «هو الذى فتح تفليس، وكان له نظر عظيم فى الإسلام، وجرت له مناظرة مع القاضى الكنجى فى الكلمة هل هى مخلوقة أم قديمة(١٩٧)». أما ابن العماد الحنبلى (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٦٨ م) ، فقد ذكر أن الملك الكرجى كان عادلا فى الرعية، وكان يحضر صلاة الجمعه ويسمع الخطبة ويحترم المسلمين(١٩٨) .

هذا عن التسامح الدينى الذى اتصف به داوود الثانى كما أوردته المصادر الإسلامية ، وقد اتفقت معها أيضا المصادر الكرجية. فقد ذكرت أن الملك الكرجى قام بحماية التجار المسلمين ، وصادق الشعراء والفلاسفة، وعاش المسلمون فى مملكته فى أمن وأمان أكثر من المسلمين المقيمين فى البلدان الإسلامية المجاورة واستمر ذلك فى عهد خلفه ديمترى . وقد أيد ذلك القول ابن الأزرق حين قال : «لقد

كنت أرى لاحترامه للمسلمين ما لو أنهم ببغداد ما احترموا تلك الحرمة»(١٩٩) .

كذلك أشارت المصادر الكرجية إلى انه كان ملما بالعقيدة الإسلامية خير إلمام، وأنه شارك فى المناقشات الفقهية مع قاضى كنجة فيما يتعلق بالأحاديث الشريفة والنصوص القرآنية. وإنه كان يحضر صلاة الجمعة بصحبة ابنه وولى عهده ديمترى. إضافة إلى ذلك كان يوزع الأموال والعطايا على رجال الدين الإسلامى. كذلك أقام مبنى مشتركا ضم شعراء المسلمين والصوفية وأغدق عليه الأموال الطائلة حتى يضمن له الاستمرارية والبقاء. ويذكر مؤلف سيرة الملك داوود انه كان شغوفا بمعرفة كافة الثقافات، ومتبحرا فى علم اللاهوت والفقه الإسلامى، دارسا للتاريخ والفلسفة وعلم الفلك، محبا للشعر الكرجى والفارسى والعربى . وانه حرص على أن يصطحب معه مكتبته الخاصة فى تجواله(٢٠٠) .

على أية حال ، ورث ابنه وخليفته على العرش نفس الخصال الحميدة التى تحث على التسامح مع رعاياه من المسلمين. فقد التحق ابن الأزرق بخدمة ديمترى بن داوود ، وبقى عنده مدة من الزمن. وذكر أنه ذات يوم جمعة، ذهب الملك الكرجى إلى المسجد الجامع بتفليس، وجلس على دكة تقابل الخطيب، وسمع خطبة الجمعة. وبعد انتهاء الصلاة «أطلق برسم الجامع مائتى دينار أحمر» ، ولم يكتف بذلك، بل أغدق الأموال على العلماء والوعاظ والأشراف والصوفية وحظى كل هؤلاء بتكريمه واحترامه تماما كما كان يفعل والده من قبل(٢٠١) .

وقد اعترف المؤرخ الأرمنى فريدتجوف نانسن FRIDTJOF NANSEN فى كتابه «أرمينية والشرق الأدنى»- L'ARMENIE ET LE PROCHE ORIENT بفضل المسلمين الكرج والحضارة الإسلامية على ازدهار الثقافة

والحضارة الكرجية فى كافة الميادين حين قال: «على الرغم من الاختلاف فى العقيدة، فقد ساهم مسلمو الكرج مساهمة فعالة فى النهوض بالحضارة والثقافة الكرجية فى العديد من الميادين والمجالات(٢٠٢)» .

وهكذا نجح الزعيم الكرجى داوود الثانى فى أن يجعل بلاد الكرج مملكة متحدة متماسكة الأطراف بعد أن ضم إلى ملكه كل جنوبى القوقاز وبلاد الابخاز حتى بحر الخزر، ووطد الأمور، وطمأن النفوس ، ونشر السكينة بين الناس. ونهض بالمملكة وأحياها ، وجعل منها حكومة قوية قادرة على حفظ كيانها . وتوفى فى الرابع والعشرين من يناير سنة ١١٢٥م/١٧ من ذى الحجة سنة ٥١٨ هـ بعد أن كانت له - عند الشعب الكرجى - المسلم منه قبل المسيحى- مكانة مقدسة . وترك لابنه ديمترى من بعده ملكا عظيما، وحكومة قوية . ونسج ولى عهده على منواله، ووضع نصب عينيه قدسية الوطن، والعمل على تقويته، ووجوب المحافظة عليه وعلى وحدته الوطنية فى ظل التسامح الدينى الموروث عن أبيه .

(١) أصدرت أولى كتاب باللغة العربية على مستوى العالم العربى عن تاريخ بلاد الكرج أى جمهورية جورجيا وكان بعنوان «الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج حتى أواخر القرن الثانى الهجرى / أواخر القرن الثامن الميلادى» - دار النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٨ .

(٢) Brosset, Histoire de la Georgie, Paris, 1849 - 1858, t. I, p. 15 - 17; Laurent, L'Armenie entre Byzance et L'Islam, Lisbonne , 1980, p. 46 .

(٣) Laurent, p.46 .

(٤) Brosset, Description Geographique de la Georgie, St. Pet. , 1842, p. 53 .

(٥) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك - تحقيق محمد أبو الفضل - القاهرة ١٩٧٧، جـ ٤ ، ص ١٦٢؛ البلاذرى : فتوح البلدان - بيروت ١٩٧٨ - ص ٢٠٤؛ اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى - بيروت - دار صادر بدون تاريخ - جـ ٢ ص ١٦٨؛ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ - بيروت ١٩٦٧ - جـ ٣، ص ٤٤؛ ياقوت : معجم البلدان - بيروت بدون تاريخ - جـ ٢ ، ص ١٢٥؛ يحيى الأنطاكى : تاريخ يحيى - نشر لويس شيخو - بيروت ١٩٠٩، ص١٧٠؛ البغدادى : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع - تحقيق على محمد البجاوى - القاهرة ١٩٥٤ ، جـ ١ ، ص ٢٦٦ ، ٣٢٥ .

(٦) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر - بيروت ١٩٨٢ - جـ١ ، ص ١٧٤. ويسميها المسعودى تارة أخرى «خزران» انظر : جـ١ ، ص١٧٢.

(٧) المسعودى : جـ ١ ، ص ١٧٢ : القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد - بيروت بدون تاريخ - ص ٤٩٣ .

(٨) اليعقوبى : كتاب البلدان - طبعة ابريل ١٨٩١ - ص ٢٧٢ - ٢٧٣؛ ياقوت: معجم البلدان ، جـ٢ ، ص١٢٥؛ ابن حوقل: صورة الأرض - بيروت ١٩٧٩ - ص ٢٩٢ ؛ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ ٨ ص ٢٩٣؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق - بيروت ١٩٠٨ - ص ١٦٨؛ القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الانشاء - القاهرة ١٩١٣-١٩٢٠- جـ٤ ، ص٣٧٢؛ العظيمى : تاريخ العظيمى - تحقيق كلود كاهن فى الجريدة الأسيوية ١٩٣١ - ص ٣٨١ و ٣٩٣؛ المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك - القاهرة ١٩٥٧ - جـ١ ، ق ١ ، ص ١٧ و ٢٦ ؛ الفارقى : تاريخ الفارقى - بيروت ١٩٧٤ ، ص ٤١؛ ابن كثير: البداية والنهاية - القاهرة ١٣٨٧ هـ - جـ ١٢ ، ص ١٨٥؛ النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب - تحقيق سعيد عاشور - القاهرة ١٩٨٥ ، جـ ٢٧ ، ص ٢٣ .

(٩)- Theophane, Chronographia , Ed. de Boor, Leipzig, 1883 - 1885, p. 391. Cf. Laurent, p. 61, n. 51 .

أنظر أيضا : فايز نجيب اسكندر : غزو الامبراطورية البيزنطية لأرمينية سنة ١٠٤٥م/٤٣٧ هـ - دار النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٨ - ص ٣٤ ، حاشية رقم ٣٩ .

(١٠) - Strabon, The Geographie of Strabon, London,1931 - 1948 , XI, 3 , 1-6 .

(١١) فايز نجيب اسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة - الاسكندرية ١٩٨٣ ، ص ١٥٨ ، حاشية رقم ١٠٨.

(١٢) أطلق الأرمن اسم «فرك» Virk على الجزء الشرقي لجمهورية جورجيا الحالية. والمقصود من ذلك «سكان الشمال». انظر Brosset, I , p. 15.

(١٣) Canard, Sur Quelques questions relatives a L'Epopee Byzantine de Digenis Akritas, London, 1974, Fasc., XX A,P. 298 - 299, n. 11 .

(١٤) أطلق المؤرخون والجغرافيون المسلمون على اقليمى ما وراء جبال القوقاز Transcaucasie وشرق الأناضول اسم «أرمينية» (انظر : البلاذرى: ص ١٩٧؛ ابن حوقل: ص٢٨٥، ياقوت: جـ١ ، ص٢٢٠) ليشمل هذا الاسم جميع البلدان الواقعة شمال اقليم الجزيرة، (أى العراق الشمالى أو إقليم ما بين النهرين) وغربى إقليم آذربيجان الفارسى، (وهو ميديا الصغرى فى العصور السابقة على الفتوحات الإسلامية لهذه المناطق) وشرقى إقليم الامبراطورية البيزنطية بآسيا الصغرى، (أى الأناضول) وجنوبى جبال القوقاز حيث فى شمالها مملكة الخزر. وقد أطلق المسلمون على كل هذه البلدان اسم «أرمينية»، جريا على عادتهم التى تقضى باطلاق اسم الجزء المعروف لهم، على الكل غير المعروف لهم. وعلى هذا ، درج الجغرافيون والمؤرخون المسلمون على جعل أرمينية وبلاد الكرج وآذربيجان والران اقليما واحدا.

(١٥) عن تقسيمات أرمينية فى المصادر الإسلامية، وموقعها وجغرافيتها وطبغرافيتها وأثر كل ذلك على تاريخها أنظر: فايز نجيب اسكندر:

الفتوحات العربية لأرمينية - دراسة تاريخية لحملة المسلمين الأولى سنة ١٩هـ - بحث منشور فى مجلة سيرتا - مجلة معهد العلوم الاجتماعية بجامعة قسطنطينة بالجزائر - العدد ٩/٨ سنة ١٩٨٣ ، ص ١٢٩ - ١٣٢ ، حاشية رقم ١ ؛ وكذلك : أرمينية بين البيزنطيين والخلفاء الراشدين (١١ - ٤٠ هـ / ٦٣٢ - ٦٦١م) - الاسكندرية ١٩٨٢ - ص ٦٩ - ٧١ ، حاشية رقم ١ ، ص ٩٦، حاشية رقم ١٤٦ ؛ ص ١٢٠ - ١٢١ ، حاشية رقم ٢٧١ .

(١٦) عن أرمينية الثالثة أنظر : فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج ، ص ١٢ - ١٣ .

(١٧) تقع «بلاد داغستان» غربى بحر قزوين . انظر : زكى محمد حسن: الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى - القاهرة ١٩٤٥ - ص ١٧ .

(١٨) كانت «قرص» Kars سوقا تجاريا هاما، إذ تقاسمت مع أرزن وملطية تجارة أرمينية بأكملها . وتقع قرص على الطريق من آنى إلى أرتانوج. وكانت فى أول أمرها قلعة، ونمت تدريجيا مع ازدهار التجارة الدولية فى البحر الأسود، إلى أن أصبحت أحد أهم المراكز التجارية فى أرمينية. وكان لقرص علاقات تجارية وثيقة مع أرتانوج والموانىء الشرقية للبحر الأسود وأردهن Ardahan وبلاد الابخاز وبلاد الكرج .

وعنها قال ياقوت فى مصدره معجم البلدان «قرص مدينة بأرمينية من نواحى تفليس يجلب منها الابريم، خبرنى بذلك رجل من أهلها. بينها وبين تفليس يومان» (انظر : ياقوت: جـ ٤، ص ٣٢٣؛ البغدادى : جـ ٣ ، ص

١٠٧٨). وقرص كانت تسمى قديما «جاروتس» Garouts ، وتطل على نهر أخوريان. وهى مدينة رئيسية ، إذ أنها عاصمة مملكة فاناند Vanand. أسسها الملك موشيج Moucheg . والجدير بالذكر أن سكان قرص عاشوا على اللصوصية وقطع الطرق، واعتبروا عملهم هذا من الأعمال الشريفة. وكانوا من قدامى الشعوب القوقازية . وقد توارث السكان أعمال اللصوصية وقطع الطرق ومارسوها ليس فقط فى الأماكن النائية عن بلادهم، بل أيضا فى داخل عاصمتهم قرص. وأخيرا، نجح الملك عباس (٩٨٤ - ٩٨٩م) خليفة موشيج من تطهير قرص من كل اللصوص، الكبير منهم والصغير.

وقد وردت «قرص» فى ترجمة قسطنطين بورفيرو جنيتس على شكل «Kaps» وترجمت «كورى» بدلا من قرص . انظر Const. Porphyr, de Adm. Imp Vol. II, Commentary, p. 169.

انظر أيضا: محمود سعيد عمران، إدارة الامبراطورية البيزنطية، حتى ١٦١. علما بأنها وردت فى كافة المصادر الجغرافية الإسلامية على شكل قرص كما أوضحنا . وللتفاصيل الدقيقة عن قرص وأهميتها . انظر: فايز نجيب اسكندر: الحياة الاقتصادية فى أرمينية إبان الفتح الإسلامى - دار النهضة المصرية ١٩٨٨ - ص ٥٥ - ٥٦ ، وكذلك حاشية رقم ٣٤٧؛ استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية «آنى» سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤م - الاسكندرية ١٩٨٧ - ص ٣٧ ، حاشية رقم ٧٢ . انظر أيضا Fayez Naguib Iskandar, Les Richesses de L'Armenie au temps des Bagratides (885 - 1045), Alexandrie, 1988, p.15.

(١٩) عن بلاد الأبخار أنظر: فايز نجيب اسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة : ص ١٩٥ ، حاشية رقم ٣٤٨ .

(٢٠) Laurent, p. 46; C.M.H. , IV, p. 594.

(٢١) Nansen, L'Armenie et le Proche-Orient, Paris, 1928, p. 89 . ونهر الكر «يبتدىء من بلاد خزران من مملكة جرجين، ويمر ببلاد أبخاز حتى يأتى ثغر تفليس، ويشق فى وسطه، ويجرى فى بلاد السياوردية حتى ينتهى على ثمانية أميال من برذعة ، ويجرى إلى برداج من أعمال برذعة. ثم يصب فيه مما يلى الصنارة نهر الرس، ويظهر من أقاصى بلاد الروم من نحو مدينة طرابزندة حتى يجىء إلى الكر، وقد صار فيه نهر الرس، فيصب فى بحر الخزر» . انظر : المسعودى: ص ١٧٤. وعلى هذا، فالكر والرس نهران تؤمان للكرج والأرمن، وهما أطول أنهار اقليم ما وراء القوقاز، يتجهان شرقا فى جنوب هذا الاقليم ثم يلتقيان معا ويكونان نهرا واحدا يصب فى بحر قزوين .

(٢٢) فى البلاذرى: ص٢٣٨ «طفليس» ؛ وفى الطبرى: جـ ٤ ، ص ١٦٢؛ وياقوت: جـ٢ ، ص ٣٦ «تفليس». وعلى هذا الشكل وردت فى كافة المصادر الجغرافية والتاريخية. وقد أشار ياقوت فى «معجم البلدان» إلى أنه عقب خضوع تفليس للسيادة الإسلامية ، انتشر الإسلام بين سكانها «وأسلم أهلها» . (انظر ياقوت: جـ٢ ؛ص ٣٦) . وذكر ياقوت والقزوينى إلى أن تفليس كانت آخر موضع وصل إليه الإسلام. ففى هذا المعنى أورد «... وهى مدينة لا إسلام وراءها». (انظر: معجم البلدان، جـ٢ ، ص ٣٥؛ آثار

البلاد، ص ٥١٨) . وقد حظيت تفليس عاصمة بلاد الكرج باهتمامات المصادر الإسلامية الجغرافية منها والتاريخية. فقد زارها ابن حوقل (توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى/ القرن العاشر الميلادى) وفصل الحديث عن موقعها وحصانتها وخيراتها وأهميتها وذلك فى مصنفه صورة الأرض (للتفاصيل أنظر ابن حوقل : ص ٢٩٢ - ٢٩٣.) والجدير بالذكر أن الملك فاختانج الأول (٤٦٦ - ٥٠٠م) ملك ايبيريا (جورجيا) بنى مدينة تفليس وذلك سنة ٤٦٩ م .

(٢٣) ينبع نهر شوروخ من جبال سبير Sper ، ويتجه نحو الشمال الشرقى بمحاذاة خاجديك Khagh'dik وكولشيد Colchide ؛ ثم يعبر الوديان المنيعة فى مقاطعة طايبيك، ويستدير فجأة نحو الشمال الغربى، ثم يصب فى البحر الأسود. للتفاصيل انظر:-فايز نجيب اسكندر: الحياة الاقتصادية فى أرمينية، ص ٥٢، حاشية رقم ٣٢٦ .

(٢٤) تقع أرتانوج عند ملتقى الطريق التجارية بين طرابيزون وأرمينية ومدن القوقاز الشمالية وأباهونيك على مسافة ليست ببعيدة عن مجرى نهر شوروخ. انظر Heyd, Histoire du commerce du Levant au moyen age, . Amsterdam, 1967, T. I , p. 44 .

(٢٥) تقع «مقاطعة مسختى» فى أعماق جبال القوقاز (انظر Hubschmann, Die Altarmeinischen Ortsnamen, Strasbourg, 1904, p. 212, n. 1 et p. 265; Hewsen, Armenia According to the .Asxarhac'oye, dans R.E.A., T. II, Paris, 1965, p.337

وكانت «مسختى» عاصمة بلاد الكرج. إلا أنه حدث سنة ٤٦٩ م أن أقام الملك فختانج جورجسلان Vakhtang Gourgaslan فى تفليس ، فأصبحت بالتالى عاصمة البلاد، خاصة وأنها أكثر بعدا من وديان القوقاز، وأقل عرضة لهجمات القبائل الجبلية. انظر : Nansen, p. 98. .

(٢٦) أقام اللان شمالى تفليس فى جبال القوقاز، على سفحى الجبل، بين نهر ريونة الذاهب إلى البحر الأسود فيما وراء القوقاز ونهر تيريك Terek الذى يصب فى بحر قزوين . انظر: فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج، ص ٣٦ - ٣٧ . وللتفاصيل الدقيقة انظر المرجع السابق ، ص ٣٦، حاشية رقم ١٦ .

(٢٧) ذكر المسعودى أن مملكة الصنارية تقع بين ثغر تفليس وقلعة باب اللان . للتفاصيل انظر: مروج الذهب، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٢٨) يقع وادى كشياى جنوّب العاصمة تفليس. انظر فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج ، ص ٣٣ .

(٢٩) Laurent, p. 46.

(٣٠) للتفاصيل عن نهر الرس انظر: فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لأرمينية فى ضوء كتابات المؤرخ الارمنى چيفوند - الاسكندرية ١٩٨٣ ، ص ٩٨، حاشية رقم ١٥٠ ؛ مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى - رسالة دكتوراه لم تطبع بعد - الاسكندرية ١٩٨٠ - ص ب ، حاشية رقم ٣.

(٣١) Brosset, T. I, p. 89 .

(٣٢) أطلق الكرج على الأرمن اسم «سموخيتى» (سمكسى) Somexi وعلى أرمينية اسم «سمخيت»(سمكست) Somxet. انظر: Hubschmann p. 276.

(٣٣) فى حديثه عن «استيلاء جلال الدين على تفليس من الكرج بعد هزيمتهم اياهم» بدأ بالقول «كان هؤلاء الكرج أخوة الأرمن» . انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون - بيروت ١٩٧٩ - المجلد الخامس ، ص ١٢٧ .

(٣٤) للتفاصيل انظر: فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج، ص ١٨ - ٢٢ .

(٣٥) وردت فى المصادر الإسلامية على شكل «خاخيط» ، انظر: البلاذرى: ص ٢٣٩. انظر أيضا : Brosset, Description, p. 283 SQQ; Hist. de la Georgie, T. I, p. 41 , 248 .

(٣٦) «نهر أرجفى» Aragvi هو أحد روافد نهر الكر، ويقع شمالى تفليس . انظر Laurent; p. 575, n. 66.

(٣٧) عنها انظر : فايز نجيب اسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة، ص ٢٦ .

(٣٨) Brosset, description, p. 283 SQQ; Histoire de la Georgie, I , p. 41, 248 .

(٣٩) عن هذه الثروات قال ابن حوقل الذى زار هذه الاصقاع النائية : «... وبهذه الجبال والنواحى والمدن والبقاع التى ذكرتها من الرخص والخصب والمراعى والمواشى والسوائم والخيرات والبركات والمشاجر والأنهار والفواكه الرطبة

واليابسة» . انظر : صورة الأرض ، ص ٢٩٨ .

(٤٠) لمزيد من التفاصيل عن مقاطعة كاخيتى أو «خاخيط» فى المصادر الإسلامية انظر: فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج، ص٢٢ - ٢٣ .

(٤١) Laurent, p.61, n. 51 .

(٤٢) Laurent, p.568, n. 20 .

(٤٣) Laurent, p.61, n. 51 .

(٤٤) Nansen, p. 90

(٤٥) Laurent, p.49 .

(٤٦) Laurent, p.48 .

(٤٧) Laurent, p.61, n. 51 .

(٤٨) Hubschmann, p. 212, n. 1 et p. 265; Hewsen, p . 337. Nansen, p. 98 .

(٤٩) يسميها المسعودى «مملكة الصمصخية» وعنها قال: «تلى مملكة خزران (يقصد بلاد الكرج) مملكة يقال لها الصمصخية، نصارى، وفيهم جاهلية لا ملك لهم» انظر: مروج الذهب، ص١٧٢. وأيضا .Nansen, p. 90 و«سمسخى» باللغة الكرجية تعنى ثلاث قلاع حصينة . وهى مقاطعة فى أعالى بلاد الكرج الشرقية. وكانت قديما تسمى مسخيا Meschia (انظر: (Cont. Porphyrogenete, de Adm., Commentaire, p. 178 وتقع فى أعالى نهر الكر على ضفته اليسرى غرب ثرياليت وشمال

دجواكستى Djawaxet'i انظر Brosset, Description, p. 75; Saint - Martin, Memoires, T. II p. 427; Adontz, Armenia, p. 117, 121, 123.

(٥٠) أشار إلى ذلك ابن حوقل بقوله: «ويجلب منها البغال الجياد الموصوفة بالصمة والجلد والصبر إلى العراق والشام وخراسان. ويكون بها الشهارى الحسنة الموصوفة بالجمال والفراهة وما يقارب شهارى طخارستان، وربما زاد عليها وعلى نتاج الجوزجان » . انظر : صورة الأرض ، ص ٢٩٧ .

(٥١) أشار إلى ذلك ابن حوقل بقوله: « وأهلها قوم فيهم سلامة وقبول للغريب وميل إلى الطارىء عليهم وأنس بمن له أدنى فهم وانتساب إلى شىء من الأدب » . انظر : صورة الأرض ، ص ٢٩٢ .

(٥٢) عبر المسعودى عن ذلك خير تعبير حين قال: «أهلها ذو قوة وبأس شديدين». انظر: مروج الذهب ، جـ ١ ، ص ١٧٢ .

(٥٣) Nansen, p. 90.

(٥٤) للتفاصيل أنظر : فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج، ص ٤١ - ٦٦ .

(٥٥) عن لقب بطريق انظر: فايز نجيب اسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والخلفاء الراشدين ، ص ١٠٣ ، حاشية رقم ١٨٠ .

(٥٦) عنه انظر: فايز نجيب استكندر: المرجع السابق، ص ٩٩، حاشية رقم ١٥٤.

(٥٧) وردت فى بعض المصادر الإسلامية على شكل آران، وعن حدودها قال أحمد بن لطف الله منجم باشى (الف مصنفه حوالى سنة ٥٠٠ هـ) فى

مصدره «باب فى الشدادية من كتاب جامع الدول» إن «آران اقليم مشهور يتاخم آذربيجان فى جهة الغرب منها، ويحدها من الغرب حدود أرمينية، ومن الشرق والجنوب آذربيجان، ومن الشمال جبال القبق (أي القوقاز) . ومن قواعدها مدينة نشوى » انظر ص ١ .

(٥٨) عنها انظر : فايز نجيب اسكندر : أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة، ص ٢٦ .

(٥٩) الدربند مدينة على بحر الخزر تعرف أيضا باسم مدينة باب الأبواب . للتفاصيل انظر: ابن حوقل: ص ٢٩١ - ٢٩٢؛ البغدادي: جـ ١ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ ؛ القزويني: ص ٥٠٦ - ٥٠٩ ؛ القلقشندي: جـ ٤ ، ص ٣٦٤؛ ياقوت : جـ ٢ ، ص ٤٤٩؛ أبو الفداء: ص ٤٠٥ ؛ الاصطخري: ص١٠٩ - ١١٠؛ وص ١٠٩ ، حاشية رقم ١٠ .

(٦٠) عن تفاصيل ذلك انظر: فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج، ص ٦٤ - ٦٥ .

(٦١) عن ذلك انظر: فايز نجيب اسكندر: المرجع السابق، ص ٦٩ - ٧١ ؛ ص٧٣ - ٧٥؛ ص ٧٧ - ٧٩ .

(٦٢) فايز نجيب اسكندر: المرجع السابق ، ص ٧١ - ٧٢ .

(٦٣) عن أسرة بجراط الكرجيّة انظر: فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج ، ص ٨٣ - ٨٥ .

(٦٤) عن تفاصيل ذلك انظر: فايز نجيب اسكندر: المرجع السابق، ص٨٥ - ٩٢.

(٦٥) Brosset, Georgie, T. I, p. 80; Nansen, p. 96 .

(٦٦) انظر فايز نجيب اسكندر: الكرج والأتراك السلاجقة فى عهد السلاطين العظام (٤٤٧ - ٤٨٥ هـ / ١٠٥٥ - ١٠٩٢م) ، العدد الأول من مجلة كلية الآداب - جامعة بنها . (تحت الطبع) .

(٦٧) للتفاصيل انظر: فايز نجيب اسكندر؛ مملكة ارمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى - رسالة دكتوراه لم تطبع بعد - الاسكندرية ١٩٨٠ .

(٦٨) Canard, Les Reines de la Georgie dans l'Histoire et la Legende Musulmanes, p. 3 .

(٦٩) Brosset, Georgie, T. I, p.292 - 301; et Additions, p. 179; Schlumberger, Epopee, T. II, p. 176; Allen, History of the Georgian People , p. 84; Minorsky, Tiflis, Enc. de L'Islam, p. 793 - 794; Nansen, p. 100 .

(٧٠) Grousset , L'Empire du levant, Paris, 1946, p. 418; Nansen, p. 100.

(٧١) عن لقب قربلاط انظر: فايز نجيب اسكندر: البيزنطيون والاتراك السلاجقة فى معركة ملاذكرد فى مصنف نقفور برينيوس - الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص٣٠ ، حاشية رقم ٣٤ .

(٧٢) للتفاصيل انظر: Salia, p. 165 - 171 .

(٧٣) أطلق على حرسه الشخصى اسم «موناسبا» Mona - Spa. انظر Salia , p. 171.

(٧٤) Salia , p. 172 .

(٦٦) انظر فايز نجيب اسكندر: الكرج والأتراك السلاجقة فى عهد السلاطين العظام (٤٤٧ - ٤٨٥ هـ / ١٠٥٥ - ١٠٩٢م) ، العدد الأول من مجلة كلية الآداب - جامعة بنها . (تحت الطبع) .

(٦٧) للتفاصيل انظر: فايز نجيب اسكندر؛ مملكة ارمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى - رسالة دكتوراه لم تطبع بعد - الاسكندرية ١٩٨٠ .

(٦٨) Canard, Les Reines de la Georgie dans l'Histoire et la Legende Musulmanes, p. 3 .

(٦٩) Brosset, Georgie, T. I, p.292 - 301; et Additions, p. 179; Schlumberger, Epopee, T. II, p. 176; Allen, History of the Georgian People , p. 84; Minorsky, Tiflis, Enc. de L'Islam, p. 793 - 794; Nansen, p. 100 .

(٧٠) Grousset , L'Empire du levant, Paris, 1946, p. 418; Nansen, p. 100.

(٧١) عن لقب قربلاط انظر: فايز نجيب اسكندر: البيزنطيون والاتراك السلاجقة فى معركة ملاذكرد فى مصنف نقفور برينيوس - الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص٣٠ ، حاشية رقم ٣٤ .

(٧٢) للتفاصيل انظر: Salia, p. 165 - 171 .

(٧٣) أطلق على حرسه الشخصى اسم «موناسبا» Mona - Spa. انظر , Salia, p. 171.

(٧٤) Salia , p. 172 .

(٧٥) استقر القفجاق فى شمال بلاد الكرج ، وامتد استيطانهم نحو الشرق، على طول الشاطىء الشمالى لبحر قزوين. عنهم انظر , Matthieu D'Edesse p. 460, n. 2. انظر أيضا : القلقشندى: جـ ٤ ، ص ٤٧٠ .

(٧٦) Brosset, I, p. 379 .

(٧٧) Salia, p. 173 .

(٧٨) باب الأبواب هو الدربند، دربند شروان. وتطل المدينة على بحر الخزر. انظر: ياقوت : جـ ١ ، ص ٣٠٣؛ البغدادى: جـ ١ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٧٩) Grousset, p. 419; Salia, p. 173 .

سكن «الأوسيت» القسم الأوسط من سلسلة جبال القوقاز ، فى مرتفعاته المنيعة وقممه الشاهقة المعروفة بجبال «قازبك» (يرتفع ٥٠٤٤ مترا) و«البرز» (يرتفع ٥٦٣٠ مترا) .

(٨٠) Brosset, I , p. 379 .

(٨١) اهتم المسعودى اهتماما بالغا بذكر مناعة «قلعة باب اللان» فقد ذكر أن قلعة باب اللان على صخرة صماء لا سبيل إلى فتحها والوصول إليها إلا بإذن من فيها. ولهذه القلعة المبينة على أعلى هذه الصخرة عين من الماء عذبة تظهر فى وسطها من أعلى هذه الصخرة. وهذه القلعة احدى قلاع العالم الموصوفة بالمنعة» . ثم أشار فى موضع آخر إلى موقعها الاستراتيجى الهام فى الدفاع عن بلاد اللان قائلا: «ولو كان رجل واحد فى هذه القلعة لمنع سائر الملوك الكفار أن يجتازوا بهذا الموضع، لتعلقها بالجو واشرافها على الطريق والقنطرة والوادى» . (انظر : مروج الذهب: جـ١ ، ص ١٦٥ - ١٦٦) والأرمن

يسمون باب اللان باسم «الناك درن» Alanac Durn . أما الكرج فيسمونه «باب تريك» Porte Terek تارة و«خفيس كارى» Khevis Kari أى «باب خيفى» Porte de Khevi تارة ثانية . (انظر : Brosset , I , 154 - 155) . وفى موضع آخر من مصنفه أشار المسعودى إلى اهتمام مسلمة بن عبد الملك بن مروان بحراسة هذا الموضع، إذ قام بإسكان بعض المسلمين لحراسته. وكانت تفليس تزودهم بالرزق والأقوات (انظر: مروج الذهب، جـ ١ ، ص ١٦٥ - ١٦٦) . إلا أن هذا يتعارض مع ما ذكره ابن رسته، إذ أورد فى مصنفه أن قلعة باب اللان يسهر على حراستها الف جندى من اتباع ملك اللان. انظر: الاعلاق النفيسة - ليدن ١٨٩١ - ص ١٤٨ - انظر أيضا : ; Minorsky, Hudud Al - Alam, p. 446 . Marquart, Streifz., p. 165 .

والملاحظ أن ياقوت الحموى نقل الكثير عن المسعودى عند حديثه عن باب اللان. انظر: معجم البلدان، جـ ١ ،ص ٢٤٥ - ٢٤٦ . وقارنه مع : مروج الذهب، جـ ١ ، ص ١٦٥ - ١٦٦ . ويرجع سبب ذلك أن ياقوت أدرك بثاقب بصره وبصيرته أن المسعودى أورد فى مصنفه سردا على درجة كبيرة من الأهمية عن مملكة باب اللان، فاق فى غزارته ما ورد فى غيره من المصادر الجغرافية والتاريخية .

(٨٢) Salia, p. 173 - 174 .

(٨٣) Allen, p. 98 . وعن اقليم أرارات Ararat أنظر : فايز نجيب اسكندر: الحياة الاقتصادية فى أرمينية إبان الفتح الإسلامى، ص ١٢- ١٣ ، وكذلك

ص ١٢ ، حاشية رقم ٢٣ .

(٨٤) Brosset, I , p. 354 et SQ' Grousset, p. 419; Salia, p. 175 - 176 .

(٨٥) تقع إريثى أو هيريثى Heret'i شمالى نهر الكر وشرقى تفليس . أنظر : فايز نجيب اسكندر : الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج، ص ٣٧ .

(٨٦) للتفاصيل عن أحوال كاخيتى فى عهد أسرة كويريكيان وعهد السيادة السلجوقية انظر Movsesian, Histoire des Rois Kurikian de Lori, Paris, 1927, p. 260 - 262.

(٨٧) Brosset, I, p. 354 et SQ.

(٨٨) نهر أرجفى Aragvi هو أحد روافد نهر الكر، ويقع شمالى تفليس . انظر Laurent, p. 575, n. 66.

(٨٩) Movsesian, p. 262 .

(٩٠) Brosset, I ,p. 354 et SQ; Movsesian ,p. 262; Grousset , p. 418 - 419 .

(٩١) Allen, p. 93 - 94 ; Grousset, p. 418 .

(٩٢) كنجة أعظم مدينة بالران (أو بلاد أران)، وهى قصبتها، وتقع بين شروان وآذربيجان، بينها وبين برذعة ستة عشر فرسخا (انظر ياقوت: جـ ٤ ، ص ٤٨٢؛ البغدادى : جـ ١ ، ص ٣٥١) وأهل الأدب يسمونها جنزة (انظر المصدر السابق : جـ ٣ ، ص ١٠٨٠) . وقد أعجب ابن حوقل بخيراتها وعمرانها وأخلاق أهلها الحسنة. ففى هذا المعنى يقول: «وجنزة مدينة حسنة

كثيرة الخير عامرة بعمارة تامة متغصة بالخلق وأهلها ذوو مروءة وأخلاق طيبة مرضية ومجاملة ومحبة للغرباء وأهل العلم » . (انظر: صورة الارض؛ ص ٢٩١) وقد وردت فى المصادر الاجنبية تحت اسم جاندزاك Gandzak (Ganjak) ، وتقع فى اقليم ارتشاك Artsakh (انظر Arisdagues, CH. XVII, p. 103, n. 1).

وقد نجح أبو الأسور شاور بن الفضل فى فرض سيادته عليها وذلك سنة ٤٤١هـ / ١٠٤٩م (انظر أحمد بن لطف الله، باب الشدادية من كتاب جامع الدول، ص ١٣ وكذلك . Aristakes, CH. XVII, p. 89, n. 2) .

وقد ظلت هذه المدينة ملكا لأسرة بنى شداد والتى ينتمى إليها أبو الأسور حتى سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨م حيث استولى عليها بوزان Bouzan ، قائد السلطان ملكشاه . انظر . Brosset , I , p. 344 .

(٩٣) Salia, p. 176 .

(٩٤) تقع شمشلدى Samchvilde (أو شمشلديه Schamschoulde) على الضفة اليمنى لنهر الكر Brosset, I, p. 467; Laurent, p. 29, n. 3 .

(٩٥) Salia, p. 176 .

(٩٦) ابن القلانسى: حوادث سنة ٥٠٣ هـ ، ص ١٦٨ ؛ الحسينى: أخبار الدولة السلجوقية - نشر محمد اقبال - لاهور ١٩٣٣ ، ص ٨١ .

(٩٧) Laurent, p. 419; Salia , p. 176

(٩٨) قلرجيت أحد أقاليم بلاد الكرج الغربية وهى عاصمة أرتانوج، وتقع بين بلاد الطايك Tayk وشوشت . وقد انفرد البلاذرى دون غيره من المصادر

الإسلامية بذكرها حين ذكر أن حبيب بن مسلمة الفهرى صالح أهلها. انظر
البلاذرى : ص ٢٣٩ . وللتفاصيل انظر 'Adontz, p. 117, 121, 123
Marquart, Strifzuge, p. 393 et AQ; Honigmann, p. 159

(٩٩) Laurent, p. 419; Salia, p. 176.

(١٠٠) Brosset, I, 359; Allen, p. 98; Laurent, p. 419 - 420; Salia, p. 176.

(١٠١) Salia, p. 176- 177; Laurent, p. 420.

و «دمانيسى» أو «تمانيس» Tmanis مدينة أرمنية ، تقع على حدود
بلاد الكرج، فى أقصى مقاطعة كوكارك Koukark (أوجوجارك) نحو
الشمال الشرقى منها . انظر Matthieu d'Edesse, p. 463, n. 3 .

(١٠٢) «شروان» مدينة من نواحى الباب والأبواب، وقبل ولاية قصبتها شماخى،
قرب بحر الخزر . انظر : البغدادى: جـ ٢ ، ص ٧٩٣ . وتقع مقاطعة شروان
شمال شرقى أرمينية ، بين نهر الكر وبحر قزوين أطلق عليها أيضا اسم
«اجهوانك» Agh'ouank أو «البانى» Albanie. للتفاصيل انظر:
Indjidji, l'Armenie Moderne, p.413 - 415 .

(١٠٣) Salia, p. 177.

(١٠٤) Laurent, p.420; Salia, p. 177.

(١٠٥) Salia, p. 178.

(١٠٦) Laurent, p. 420.

(١٠٧) فايز نجيب اسكندر : أسرة برينيوس ودورها فى تاريخ الامبراطورية
البيزنطية - دار النهضة المصرية ١٩٨٧ - ص ٣٧ ، حاشية رقم ١٢٨ .

(١٠٨) عن نتجوان انظر : فايز نجيب اسكندر : الفتوحات الإسلامية الأرمينية ، ص ٩٧ - ٩٨ ، حاشية رقم ١٤٩ .

(١٠٩) عن نهر الرس انظر : فايز نجيب اسكندر : المرجع السابق ، ص ٩٨ ، حاشية رقم ١٥٠ .

(١١٠) ابن القلانسى : حوادث سنة ٥١٥ هـ ، ص ٢٠٤ ؛ ابن خلدون : حوادث سنة ٥١٦ هـ ، جـ ٥ ، ص ٤٩ .

(١١١) ابن الأثير : حوادث سنة ٥١٤ هـ ، ص ٢٩٣ وعنه نقل العينى نقلا حرفيا (أنظر : عقد الجمان ، القسم الرابع من الجزء العشرين، ورقة ٧٦٦) أما ابن القلانسى فقد ادرج هذه الاحداث تحت سنة ٥١٥ هـ . انظر : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٤ ، والملاحظ أن ابن الأثير اخطأ حين ذكر أن «الكرج هم الخزر» . انظر : الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٩٣ . وقد أدرك ابن خلدون خطأ ابن الأثير وصححه حين نقل عنه. انظر: العبر ، جـ ٥ ، ص ٤٩ . ونتيجة النقل بلا تمحيص، انزلق إلى نفس خطأ ابن الأثير كل من ابن العبرى . (أنظر : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٠١) والذهبى (كتاب دول الإسلام - القاهرة ١٩٧٤ - جـ ٢ ، ص ٤١) .

والملاحظ أن رواية ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ /١٢٣٣م) عن الاحتكاك الحربى بين الأتراك السلاجقة والكرج، كانت فريسة دسمة انقضى عليها بالنقل الحرفى تارة وبالاختصار تارة أخرى كل من ابن العبرى (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦م) ، والنويرى (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢م) ، والذهبى (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨م). وابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣م) ، وابن خلدون (ت

٨٠٨م/١٤٠٥م) ، والعينى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١م) . قارن : ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ ٨ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ ، ٣١٣ مع المصادر الآتية : ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول، ص ٢٠١ ، ٢٠٢؛ النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٧ ، ص ٢٣ - ٢٤؛ الذهبى : كتاب دول الاسلام، جـ ٢، ص ٤١؛ ابن كثير : البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٨٥ ، ١٩٣؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ، جـ ٥ ، ص ٤٩ ، ٥٢؛ العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ ميكروفيلم ٥٦٥٤ ، القسم الرابع من الجزء العشرين، ورقات ٧٦٦ - ٧٦٨. وهناك مصادر إسلامية أخرى اشارت إشارة عابرة إلى هذا الاحتكاك ومنها : ابن القلانسى (٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ؛ العظيمى (ت ٥٥٦ هـ / ١١٦١م) : تاريخ العظيمى ، ص ٣٨٨ ؛ مؤلف مجهول (عاش فى نهاية القرن السادس الهجرى / نهاية القرن الثانى عشر الميلادى) : البستان الجامع لتواريخ الزمان) ص١١٨ ابن العديم (ت٦٦٠هـ/١٢٦٢م) زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ ٢ ، ص١٩٩؛ عز الدين بن شداد (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) : الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، القسم الثانى من الجزء الثالث، ص ٤٣٠ - ٤٣١؛ أبو الفداء (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) : المختصر فى أخبار البشر، جـ ٢ ، ص ٢٣٢ ؛ أبـو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ ٥ ، ص ٢٢٣. والملاحظ أن محقق ابن القلانسى زودنا برواية ابن الازرق فى تاريخه عن أحداث سنة ٥١٥ هـ ، وهى رواية على درجة كبيرة من الأهمية. انظر ابن القلانسى:

حاشية رقم ١ عن ما ذكره ابن الآزرق فى تاريخه عن أحداث سنة ٥١٥ هـ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ، على أية حال، أغفلت كافة المصادر الإسلامية ذكر معركة ديدجورى Didgori الفاصلة . إلا أن المصادر الكرجية واللاتينية والأرمنية سدت هذا النقص، إذ زودتنا بتفاصيلها الدقيقة .

(١١٢) فى ابن القلانسى «نجم الدين ايل غازى بن أرتق صاحب حلب» . انظر: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٤ ، وعنه قال أبو المحاسن : «كان عادة نجم الدين إذا شرب الخمر وتمكن منه، أقام أياما مخمورا لا يفيق لتدبيره ولا يستأمر فى أموره . (انظر: النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٢٠٨) . وتوفى ايلغازى سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢م بمدينة ميافارقين ، فكانت وفاته يوم الخميس سابع عشر رمضان (٢١ نوفمبر ١١٢٢م) فى قرية تعرف بالفحول. انظر: العينى: ورقة ٨٠٦ ؛ النجوم: جـ ٥ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤؛ أبو الفداء: جـ ٢ ، ص ٢٣٦ . وقد وصفه متى الرهاوى بأنه «كان محبا لسفك الدماء» أنظر . Matthieu d'Edesse , p. 303 .

(١١٣) سيف الدولة دبيس بن صدقة «أصله من بني أسد وقيل من بنى خفاجة. كان شر أهل بيته، يرتكب الكبائر ويفعل العظائم، ولقى منه الخليفة والمسلمون شرورا كثيرة، وأبطل الحج ، وأباح الخروج فى شهر رمضان .... قتله السلطان مسعود السلجوقى فى ذى الحجة سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، وكان قتله بالمراغة. انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ٥ ، ص ٢٥٦ . انظر أيضا . Matthieu d'Edesse, p. 459, n. 2 .

(١١٤) فى وفيات الأعيان، الترجمة رقم ٢٢٦، ترجمة دبيس بن صدقة،

«كهارخاتون» وليس«كمارختون» . انظر ص ٢٦٥ . وفى متى الرهاوى «كهارخاتون» Kohar - Khathoun . انظر, Matthieu d'Edesse
. p. 297

(١١٥) هو الملك طغرل بن محمد شاه بن ملكشاه السلجوقى، شقيق السلطان محمود، توفى فى المحرم سنة ٥٢٩هـ.(انظر: ابن الأثير؛ جـ ٨، ص٣٤٥)، بينما اختلف أبو الفداء فى تحديد تاريخ وفاته عن ابن الأثير، إذ أورد: «توفى فى المحرم سنة ٥٢٩ هـ ، وقيل أن وفاته كانت فى أول سنة ٥٢٨ هـ وهو الأصح فى ظنى » . انظر : المختصر ، جـ ٣ ، ص ٨ . وقد اجمعت المصادر الإسلامية على صحة رأى ابن الأثير. والجدير بالذكر أن يسميه المؤرخ الارمنى متى الرهاوى «ملك، سلطان كنتزاك» أى الملك طغرل حاكم كنجة. إذ جاء فى حديثه عن معركة ديدجورى (يسميها تيجور Tegor) أنه عبأ جيشا قوامه أربعمائة الف فارس، وتسلل إلى بلاد الكرج :« En meme temps, Melik, sultan de Kantzag, a la tete de 400,000 cavaliers Aguerris, penetra en Georgie»
انظر:. Matthieu d' Edesse, p. 304 .

(١١٦) للتفاصيل عن«أرزن» انظر: فايز نجيب اسكندر: الحياة الاقتصادية فى أرمينية إبان الفتح الإسلامى، ص ٥٤ ، حاشية رقم ٣٣٨ .

(١١٧) تقع «بدليس» شمال بحيرة وان. للتفاصيل انظر: ابن حوقل ، ص ٢٧٨.
Laurent , p. 389 .

(١١٨) للتفاصيل عن «دوين» انظر: فايز نجيب اسكندر: المرجع السابق، ص١٧،

حاشية رقم ٤٩ .

(١١٩) ابن الأثير : جـ ٨ ، ص ٢٩٣؛ ابن العبرى: ص ٢٠١ - ٢٠٢ ؛ الذهبى: جـ ٢ ، ص ٤١؛ ابن خلدون: جـ ٥ ، ص ٤٩؛ العينى: ورقة ٧٦٦. انظر أيضا : Matthieu d'Edesse, Chronique, Trad., Ed. Dulauriee, Paris, 1858, CH . CCXXXI , p. 303 .

(١٢٠) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، القسم الثانى من الجزء الثالث ، ص ٤٣٠.

(١٢١) ابن الأثير : جـ ٨ ، ص٢٩٣؛ ابن العبرى: ص ٢٠١؛ ابن كثير: جـ ١٢ ، ص ١٨٥ ؛ العينى: ورقة ٧٦٦ .

(١٢٢) Matthieu d'Edesse , p. 304; Galterii Cancellarii Antiocheni, Bella Antiochena, 1121, dans R.H.C., Auteurs Occidentaux, Paris , 1895, T. V, 131 وللتفاصيل عن متى الرهاوى وحوليته (٩٥٢ - ١١٤٤م / ٣٤١ - ٥٣٩ هـ) انظر : فايز نجيب اسكندر : أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة، ص ١٣٩ ، حاشية رقم ١٩ .

(١٢٣) ابن الأزرق الفارقى : أحداث ٥١٥ هـ ، ص ٢٠٥ .

(١٢٤) ابن القلانسى : ص ٢٠٥ .

(١٢٥) ابن القلانسى : ص ٢٠٥ ؛ ابن العديم : جـ ٢ ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(١٢٦) الفارقى: ص ٢٠٥ . وقد اختلفت رواية ابن العديم عن رواية الفارقى، إذ ذكر أن الملك طغرل استنجد بايلغازى وملكهم داود، «فسار اليه فى عالم عظيم ومعه دبيسى بن صدقة» .

انظر : ابن العديم : ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(١٢٧) عز الدين بن شداد: ص ٤٣٠ ؛ الفارقى : ص ٢٠٥ .

والملاحظ أن الحسينى أشاد بحصانة تفليس ومناعة أسوارها . إذ أورد فى مصنفه: «وطول سور تفليس أربعون ذراعا فى عرض يطابقه» . أنظر: أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٤٥ .

(١٢٨) «أرزن الروم» مدينة مشهورة من مدن أرمينية قرب خلاط . انظر القزوينى: ص ٤٩٤، ياقوت: جـ ١، ص ١٥٠؛ البغدادى: جـ ١، ص٥٥؛ أبو الفداء : ص ٣٨٤ - ٣٨٥ .

(١٢٩) «ثرياليت» منطقة جبلية تقع بين نهر الكر وبحيرة بانافارى P'anavari .

انظر : Brosset, Description, p. 157 et SQ; Adontz , p. 117; Hubschmann, p. 354; Honigmann, p. 163, 168 .

وقد انفرد البلاذرى وابن الأزرق الفارقى دون غيرهما من المصادر بذكرها. انظر : فتوح البلدان ، ص ٢٣٩؛ تاريخ الفارقى ، ص ٢٠٥، حيث وردت فى هذا المصدر الأخير على شكل «ترياليث» .

(١٣٠) ابن الأزرق الفارقى : ص ٢٠٥ ؛ ابن الأثير: جـ ٨ ، ص ٢٩٣؛ ابن العبرى: ص ٢٠١ - ٢٠٢ ؛ ابن خلدون : جـ ٥ ، ص ٤٩ ؛ العينى: ورقة ٧٦٦؛ ابن شداد : ص ٤٣٠ - ٤٣١ .

(١٣١) الفارقى : ص ٢٠٥ .

(١٣٢) الفارقى : ص ٢٠٥ ؛ ابن شداد : ص ٤٣١ .

(١٣٣) ابن شداد : ص ٤٣١ .

(١٣٤) الفارقي : ص ٢٠٥ .

(١٣٥) الفارقي: ص ٢٠٥؛ الذهبي: ص ٤١؛ أبو المحاسن: جـ ٥، ص٢٢٣.

(١٣٦) ابن الأثير: جـ ٨ ، ص ٢٩٣ وعنه نقل ابن العبري: ص ٢٠٢؛ ابن كثير: جـ ١٢، ص ١٨٥؛ ابن خلدون: جـ ٥ ، ص ٤٩؛ العيني: ورقة ٧٦٦ .

(١٣٧) Grousset, p. 420 .

(١٣٨) في ياقوت (جـ ٢ ، ص ٣٦) «رستاق منجليس» ويقع غربي تفليس (Adontz, Armenia,p.117,123) ويقابله عند الكرج Mangleac'p'or أي «وادى منجليس» . انظر :,Toumanoff Studies, p. 402, 407, n. 2 ; Hewsen, Armenia, p. 338; Hubschmann, p. 355.

(١٣٩) ابن الأثير : جـ ٨ ، ص ٢٩٣؛ ابن العبري: ص ٢٠٢ ؛ العيني: ورقة ٧٦٦ - ٧٦٧ . وواضح أن كل من ابن العبرى والعينى نقلا الاقتباس عن ابن الأثير نقلا حرفيا .

(١٤٠) ابن الأثير: جـ ٨، ص ٢٩٣؛ ابن العبري: ص٢٠٢؛ العيني: ورقة ٧٦٧؛ ابن خلدون : جـ٥ ، ص ٤٩ .

(١٤١) ابن شداد : ص ٤٣١ ؛ ابن العديم : ص ١٩٩ .

(١٤٢) ابن الأثير: جـ ٨، ٢٩٣؛ ابن العبري: ص ٢٠٢؛ الذهبي: جـ ٢، ص٤١؛ ابن كثير: جـ ١٢، ص ١٨٥ ؛ العيني : ورقة ٧٦٧ .

(١٤٣) ابن شداد: ص ٤٣١. والجدير بالتسجيل هنا أن ابن العبرى فى مصدره الثانى (تاريخ الزمان، بيروت ١٩٨٦، ص ١٣٩) جنح إلى الاختصار

الشديد فى ذكر أخبار المواجهة الكرجية السلجوقية، إذ اكتفى بالقول: «وفى سنة ١٤٣٣ لليونان (١١٢٢م) وجه السلطان محمود جيشا ضخما من الأتراك إلى بلد الكرج ، فأرصد الملك الثغور وفتك بالكثيرين منهم» . هذا بينما زودنا بتفاصيل أكثر فى مصدره الأول (تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٠١ - ٢٠٢) نقلا عن ابن الأثير: جـ ٨ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ ، ٣١٣ و«ميافارقين» قاعدة ديار بكر، وتقع بين الجزيرة الفراتية وأرمينية وهى بالقرب من آمد. (انظر : فايز نجيب اسكندر: مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين والمماليك - رسالة دكتوراه لم تطبع بعد - ص ١٠٤ ، حاشية رقم ١) . أما «ماردين» فهى قلعة مشهورة بديار ربيعة من الجزيرة الفراتية، مشرفة على دينسر، ودارا ، ونصيبين وذلك الفضاء الواسع وقدامها ربض عظيم. وهى معقل أمراء بنى حمدان. أنظر : فايز نجيب اسكندر: المرجع السابق، ص ١٣٥ ، حاشية رقم ٣ .

(١٤٤) ابن الأثير: جـ ٨ ، ص ٢٩٣. أما الذهبى فقد ذكر أن الكرج حاصروا تفليس لمدة سنتين ثم أخذوها بالسيف. انظر: كتاب دول الإسلام ، جـ ٢ ، ص٤١ .

(١٤٥) ابن الأثير: ص ٢٩٣؛ ابن العبرى: ص ٢٠٢؛ ابن كثير: جـ ١٢ ، ص ١٨٥. وفى ابن الأزرق: ص ٢٠٥ «وغنم الكفار منهم غنيمة عظيمة» .

(١٤٦) ابن كثير: جـ ١٢ ، ص ١٨٥ .

(١٤٧) عن تحليل مختلف روايات المصادر الإسلامية انظر حاشية رقم ١١١ .

(١٤٨) جاء فى Galterii Cancellarii Bella Antiochena الآتى : "Ipsi

vero cum superbia equitanti ira dei obstitit : eo namque die, quo soldanus et ipse Algazi cum Sexcentis Millibus Terram Regis Bellaturi intraverunt, ipse idem Rex David, ..."

وترجمة النص: «بينما كان (الأمير ايلغازى) يتقدم بغطرسة على رأس جيشه، انصب عليه غضب الله وقلب رأسا على عقب كل مخططاته، ففى نفس يوم دخوله بلاد الملك داوود حيث ترأس جيشا قوامه ستمائة الف مقاتل ... »

انظر : Galterii, dans R.H.C.H. Occid, T. V, p. 130.

هذا بينما ذكر جلتيرى أن تعداد جيش داوود بلغ ثمانية الف مقاتل فالنص اللاتينى التالى أوضح ذلك، إذ جاء فيه: Signo Sanctae Crucis Praemunitus, Habens intra Medos et Christianos QUATER VIGINTI MILIA PUGNATORUM..."

وترجمة النص أن «(الملك داوود) تقوى بشارة الصليب وحشد ثمانية الف مقاتل من الميديين والمسيحيين ... »

انظر R.H.C., H. Occid., T. V, p. 130 .

(١٤٩) Kartlis Tskhovreba, T. I, p. 365 .

(١٥٠) جاء فى متى الرهاوى Ch. CCXXXII "En meme temps, Melik, Sultan de Kantzag, a la tete de 400,000 Cavaliers Aguerris, penetra en Georgie du cote de la ville de Deph'khis (Tiflis), par la montagne de Tegor"

انظر: Matthieu d'Edesse : P. 304. وترجمة النص: «فى نفس

الوقت، تسلل ملك (يقصد طغرل)، سلطان كنجة على رأس جيش قوامه أربعمائة ألف من الفرسان المدربين على فنون الحرب والقتال، تسلل هذا الجيش الجرار على بلاد الكرج عبر مدينة تفليس عن طريق جبل تيجور (ديدجورى Didgori فى خارطليس تسخوفريبر Kartlisi .(Tskhovreba

(١٥١) لم يرد ذكر اسم جبل ديدجورى Didgori فى كافة المصادر الإسلامية، ولا ذكر لتفاصيل هذه المعركة الحاسمة والتى كان من أهم نتائجها سقوط العاصمة تفليس فى قبضة الملك الكرجي داوود الثانى البناء ، على أية حال ذكر ابن الأثير ومن نقلوا عنه أن هذه المعركة دارت بالقرب من تفليس ٠انظر: الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢٩٣؛ ابن العبرى: ص ٢٠٢؛ ابن كثير: جـ ١٢ ص ١٨٥؛ العينى: ورقة ٧٦٦) هذا بينما ذكر ابن الأزرق أن نجم الدين ايلغازى «وصل إلى أن بقى بينه وبين تفليس الجبل (يقصد جبل ديدجورى الواقع جنوب غربى تفليس) مقدار نصف يوم» حيث دارت المعركة الطاحنة . انظر : تاريخ الفارقى : ص ٢٠٥ .

(١٥٢) Matthieu d'Edesse, p. 460, n. 1 .

(١٥٣) Matthieu d'Edesse, p. 304 - 305 .

(١٥٤) Brosset, I , p. 365 - 367; Et Additions, I , p. 230, 236 - 241 . CF. Salia, p. 178 .

(١٥٥) جاء النص اللاتينى على هذا النحو "Factis Agminibus , INTER DUOS MONTES, Densissimis Nemoribus insitos, in

valle restitit, Qua , Ut Fama Retulit, super Eum Hostes ingredi praesumebant. "

انظر Galterii , p. 130 .

وتعد رواية جلتيرى أهم المصادر التى فصلت الحديث عن معركة ديدجورى .

(١٥٦) انفرد جلتيرى دون غيره من المصادر بذكر النص الكامل لخطبة الملك الكرجى داوود الثانى . انظر. Galterii, p. 130 - 131

(١٥٧) Galterii , p. 130 - 131 .

(١٥٨) اقتبس هذا القول عن القرآن الكريم، إذ ورد فى سورة البقرة الآية ٢٤٩ : بسم الله الرحمن الرحيم «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين» صدق الله العظيم . ويعد هذا دليلا واضحا على إلمام العاهل الكرجى بالعقيدة الإسلامية .

(١٥٩) Galterii , p. 131 - 132 .

(١٦٠) ابن العديم: جـ ٢ ، ص ١٩٩. والملاحظ أن العينى انفرد بذكر هذا الحدث دون غيره من المصادر .

(١٦١) Brosset, I, p. 365 - 367; Et Additions , I , 236 - 241 .

(١٦٢) «دربند شروان» وتسمى أيضا «الدربند» أو «الباب» أو «باب الأبواب» وهى مدينة قرب بحر الخزر ، وقيل ولاية قصبتها شماخى. سميت الباب لأنها بناها شروان، فنسبت إليه. انظر: ياقوت: جـ ٣ ، ص ٣٩٩؛ البغدادى: جـ٢، ص ٧٩٣ ؛ النويرى: جـ ٢٧ ، ص ٢٤، حاشية رقم ١ . فى ابن الأثير: جـ ٨ ، ص ٣١٣ «أهل دوبند» وصحتها «دربند» . وتقع شروان

شمال شرق أرمينية ، بين نهر الكر وبحر قزوين ، وقد وردت فى المصادر الأرمنية تحت اسم «أجهوانك» 'Agh'ouank تارة و«البانى» Albanie تارة أخرى . انظر Indjidji, l''Armenie Moderne, p. 413 - 415.

(١٦٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣١٣ ؛ النويرى: جـ ٢٧ ، ص ٢٤؛ ابن خلدون: جـ٥ ص ٥٢؛ العينى : ورقة ٧٦٧ .

(١٦٤) ابن الأثير: جـ ٨ ، ص ٣١٣ .

(١٦٥) «شماخى» قصبة بلاد شروان ، فى طرف الران. وتعد من أعمال الباب والأبواب . انظر: ياقوت : جـ ٣، ص ٣٦١ ؛ البغدادى : جـ ٢ ، ص ٨١.

(١٦٦) ابن الأثير: جـ ٨ ، ص ٣١٣ ؛ النويرى: جـ ٢٧ ، ص ٢٤ (والملاحظ أن النويرى نقل نقلا حرفيا عن ابن الأثير) ؛ ابن خلدون: جـ ٥، ص ٥٢ (جنح ابن خلدون إلى تلخيص رواية ابن الأثير أحداث شروان فى أربعة أسطر)؛ العينى: ورقة ٧٦٧ (بعد أن كان العينى ينقل حرفيا عن ابن الأثير، جنح إلى ايجاز رواية ابن الأثير ايجازا شديدا) .

(١٦٧) ابن الأثير : جـ ٨ ، ص ٣١٣؛ النويرى: جـ ٢٧، ص٢٤؛ ابن خلدون: جـ٥ ، ص ٥٢ ؛ العينى: ورقة ٧٦٧ .

(١٦٨) ابن الأثير: جـ ٨ ، ص ٣١٣؛ النويرى: جـ ٢٧، ص٢٤؛ ابن خلدون: جـ٥، ص ٥٢ ؛ العينى: ورقة ٧٦٧ . انظر أيضا : . Salia , p. 181 .

(١٦٩) ابن الأثير: جـ ٨ ، ص ٣١٣؛ النويرى: جـ ٢٧، ص٢٤؛ ابن خلدون: جـ٥، ص ٥٢ ؛ العينى: ورقة ٧٦٧ .

(١٧٠) Salia, p. 181 .

(١٧١) Matthieu d'Edesse, Ch. CCXXXIX, p. 310 .

(١٧٢) تقع «كولا» جنوب نهر الرس، فى مقاطعة أرارات (انظر Laurent, p. 86 n. 56) وكان جنوب كولا من المناطق الارمنية الشهيرة بانتاج القمح منذ القدم (انظر Moise de Khorene , p. 145) وقد بلغ من غزارة انتاج الحبوب بها انها كانت تصدر القمح إلى بغداد (انظر Sirarpie der Nersessian, Etudes Byzantines et Armeniennes, p. 304) إذ أورد الطبرى أن المؤن كانت تصل بسهولة إلى بغداد من الجزيرة وأرمينية. انظر: تاريخ الأمم والملوك - المطبعة الحسينية المصرية - جـ ٣ ، ص ٢٧٢، ٢٧٥ .

(١٧٣) «باسيان» الاقليم الرابع فى مقاطعة أرارات فى أعلى نهر الرس (Aristakes, p. 12, n. 1) . ويقع شرق كارين . (Arisdagues, p. 22, n. 1) ويتفق ما ذكره موييز الخورينى فى مصدره عن تاريخ الأرمن وما جاء فى معجم ياقوت الحموى الذى ذكر أنه يوجد باسين العليا وباسين السفلى . ويقول انهما كورتان قصبتهما أرزن الروم . انظر : ياقوت : معجم البلدان، طبعة بيروت - جـ ١ ، ص ٣٢٢ ؛ البغدادى : جـ ١ ، ص ١٥٣ وأيضا : Moise de Khorene, II , CH. VI , p. 135 - 136 et 135 , n. 8 .

(١٧٤) Salia, p. 182 .

(١٧٥) تقع آنى على الشاطىء الأيمن من نهر أخوريان ، على بعد عشرين ميلا، عند ملتقى هذا النهر بنهر الرس . للتفاصيل انظر: فايز نجيب اسكندر:

استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية آنى ، ص ٨ - ٩ .

(١٧٦) تناولنا فى بحثنا السابق تفاصيل هذه الاحداث فى ضوء الدراسة التحليلية النقدية المقارنة لمختلف المصادر . انظر : فايز نجيب اسكندر: استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية آنى- الاسكندرية ١٩٨٧ - ص ٩ - ٤٢.

(١٧٧) تقع «مقاطعة أراجدزوتن» شرق نهر أخوريان ، الرافد الأيسر لنهر الرس . انظر . Laurent , p. 42 .

(١٧٨) تقع «شيراك» فى اقليم أرارات ، وتعد من أهم المدن الأرمينية. وقد اتخذ أشوط الثالث مدينة آنى، الواقعة فى اقليم شيراك، عاصمة لأسرة بجراط، وذلك سنة ٩٦١م / ٣٥٠ هـ ، وبذلك ازدادت أهمية اقليم شيراك . (انظر Aristakes, p. 49, n. 3; Asolik, II , p. 16, n. 1 . CF. Ghazarian, Arabischen, p. 72) . والجدير بالذكر أن الجغرافيين المسلمين يسمونها «سراج طير» ، ويقول البغدادى نقلا عن ياقوت الحموى إنها «كورة فى أرمينية الثالثة وقيل الثانية» . انظر : مراصد الاطلاع، جـ٢، ص ٧٠٢؛ ياقوت: معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٢٠٣ .

(١٧٩) «سبير» Sper أو «اسبير» Ispir ، اقليم فى أرمينية العليا، شمال شرق أرزن الروم، مشهور بمناجم الذهب، كان منذ قديم الزمان من الأملاك الموروثة لأسرة بجراط (انظر Moise de Khorene, II, CH, XXXVI, p.179, n. 8. CF. Saint- Martin, I , p. 69 - 70; Indjidji, l'Armenie Ancienne, p. 52 - 62) ولا يزال بهذا الاقليم مناجم تحتوى على مختلف أنواع المعادن ، خاصة الذهب والفضة المتواجد بكثرة فى

وادى شوروخ ، ضواحى سبير . انظر : Arisdagues, IX, p. 73, n.1
; Aristakes, IX, p. 59, n. 2. CF. Manandian, p. 151;
. David Lang, p. 192; Der Nersessian, p. 304

(١٨٠) «أرزن الروم» مدينة مشهورة من مدن أرمينية قرب خلاط . انظر: القزوينى: ص ٤٩٤؛ ياقوت: جـ ١، ص ١٥٠؛ البغدادى: جـ ١ ، ص ٥٥؛ أبو الفداء : ص ٣٨٤ - ٣٨٥ .

(١٨١) عن «طرابيزون» انظر: فايز نجيب اسكندر : امبراطورية طرابيزون والبندقية . الاسكندرية ١٩٨٣ - ص ٩ وما بعدها .

(١٨٢) «أبو الأسوار» هو أحد أمراء بنى شداد الكردية. حكم دوين فى الفترة من ١٠٢٢ إلى ١٠٤٩ م / ٤١٣ - ٤٤١ هـ . ونجح أيضا فى فرض سيادته على كنجة وذلك سنة ١٠٤٩ / ٤٤١ هـ . وظلت هذه المدينة ملكا لأسرة بنى شداد والتى ينتهى إليها أبو الاسور حتى سنة ١٠٨٨ م / ٤٨١ هـ ، حيث استولى عليها بوزان قائد السلطان ملكشاه . للتفاصيل انظر :
Arisdagues,X, p. 69, n. 1; Aristakes, X, p. 52 - 53 , n. 2;
89, n. 2; Brosset, I , p. 344 .

(١٨٣) أحمد بن لطف الله منجم باشى : ص ١٥ .

(١٨٤) Matthieu d'Edesse, p. 465 , n. 2 .

(١٨٥) عنه انظر Matthieu d'Edesse , p. 465, n. 1; Brosset, Ruines d'Ani, p. 126, n. 2 .

(١٨٦) Matthieu d'Edesse, p. 465, n. 2; Salia, p. 182;

Brosset , Ruines d'Ani, p. 128 .

(١٨٧) Brosset, Ani, p. 128; Salia, p. 182 .

(١٨٨) Brosset, Georgie, I, P. 359; Additions, p. 280 , 282; Ani , p. 128; Matthieu d'Edesse, p. 313 - 314 .

وهكذا صارت آنى بعد إخراج بنى شداد منها نهائيا جزءا من مملكة الكرج الموحدة، ولكنها بقيت فى حوزة الزخارية يدفعون عنها الجزية. وامتدت أسوار المدينة فى أيامهم حتى بلغت شواطىء نهر اربتشاى المنحدرة. وتدل الابنية الدينية لذلك العصر على أن حكام الكرج كأسلافهم البيزنطيين كانوا يميلون إلى المذهب الخلقدونى ، مما أدى إلى انتشاره بين الأرمن على حساب مذهبهم المونوفيزيتى .

(١٨٩) Matthieu d'Edesse, p. 313 - 314. CF. Brosset, Ani, p. 129; Salia , p. 182 .

(١٩٠) Matthieu d'Edesse, p. 313 - 314.

(١٩١) Matthieu d'Edesse, p. 318. و «هنزيط» بالكسر، ثم السكون، وزاى، ثم ياء ، وطاء مهملة: من ثغور الروم. انظر : البغدادى : جـ ٣ ، ص ١٤٦٦ .

(١٩٢) ابن الأثير: جـ ٨ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(١٩٣) عبر عن ذلك متى الرهاوى بقوله "Il Prodigua a notre nation toute sorte de consolations et de bienfaits. "

انظر . Matthieu d'Edesse , p. 311

(١٩٤) الفارقي: ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ؛ انظر أيضا : تاريخ الفارقي - تحقيق بدوى عبداللطيف - بيروت ١٩٧٤ ، ص ٤١ - ٤٥ . ومن المؤكد أن «حمام اسماعيل» هو نفس الحمام الذى ذكره الحسينى فى حديثه عن سقوط تفليس فى قبضة السلطان الب ارسلان، إذ جاء فى روايته «فوجد فيها حماما بناه سليمان بن داود صلوات الله عليهما على عين حمئة سخنة بماءها الحار من غير أن تجاوره النار وهو أول حمام بنى فى الدنيا » . انظر : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٤٥ .

(١٩٥) ابن حوقل : ص ٢٩٢ .

(١٩٦) القزوينى : ص ٥١٨ ، ياقوت : جـ ٢ ، ص ٣٥ .

(١٩٧) مؤلف مجهول : البستان الجامع لتواريخ الزمان ، ص ١١٨ - ١١٩ . والجدير بالذكر أن ياقوت أشار أنه ينسب إلى تفليس جماعة من أهل العلم منهم التفليسى والبهيقى والهاقولى (انظر : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٣٧)؛ هذا بينما اكتفى أبو الفداء بالقول «وخرج منها علماء» . انظر: تقويم البلدان ، ص ٥١٠ .

(١٩٨) شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص ٥٨ .

(١٩٩) ابن الأزرق : ص ٢٠٦.

(٢٠٠) Salia , 182 - 183 .

(٢٠١) ابن الأزرق : ص ٢٠٦ .

(٢٠٢) Nansen, p. 100 .

(٢٠٣) Matthieu d'Edesse , p. 318 .

بلاد الكرج وبلدان القوقاز

في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي

تقرير
عن اجتماع الجمعية العمومية لاتحاد المؤرخين العرب التى عقدت بالقاهرة (٧ - ٩ ديسمبر ١٩٩١) .

أولا : جدول الأعمال .

ثانيا : كلمة الافتتاح

ثالثا : النظام الأساسى لاتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة .

رابعا : البيان الختامى والتوصيات

جدول الأعمال

اليوم الأول السبت ١٩٩١/١٢/٧ م

٩ - ١٠ التسجيل

١٠ - ١١ الافتتاح

كلمة الافتتاح

* أ . د. سعيد عبد الفتاح عاشور .
- رئيس اللجنة المؤقته للإتحاد .
* معالى أ . د. سليمان سعدون البدر
- وزير التربية بالكويت .
* أ . د. عبد الله بن يوسف الشبل
- وكيل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
* د. محمد العيدروس
- كلية الآداب - جامعة الإمارات العربية المتحدة

١١ - ٣٠ر١١ استراحة

٣٠ر١١-٣٠ر١ الجلسة الأولى

كلمة ممثلى الجامعات العربية المشاركة فى المؤتمر

٣٠ر١ - ٤ غذاء وراحة

٤ - ٦ الجلسة الثانية

بقية كلمات ممثلى الجامعات العربية المشاركة فى المؤتمر

٣٠ر٧ - التوجه من الفندق لحضور برنامج الصوت والضوء بالسيارة .

اليوم الثاني الأحد ٨ / ١٢ / ١٩٩١ م

١٠ - ١١ الجلسة الثالثة

عرض مشروع اللائحة الأساسية الدائمة لإتحاد المؤرخين العرب

يقدمه أ. د. حسنين محمد ربيع

١١ - ٣٠ر١١ استراحة

٣٠ر١١-٣٠ر١ الجلسة الرابعة

مناقشة مشروع اللائحة الأساسية الدائمة لإتحاد المؤرخين العرب

المقرر: رئيس اللجنة المؤقته لإتحاد المؤرخين العرب .

٣٠ر١ - ٤ غذاء وراحة

٤ - ٦ الجلسة الخامسة

تكملة مناقشة مشروع اللائحة الأساسية لإتحاد المؤرخين العرب .

٣٠ر٦ - التوجه من الفندق لإحدى البواخر السياحية

لتناول العشاء علي صفحة نهر النيل .

اليوم الثالث الإثنين ١٩٩١/١٢/٩

١٠ - ١١	الجلسة السادسة
	إقرار اللائحة الأساسية للإتحاد
١١ - ٣٠ر١١	إستراحة
٣٠ر١١ - ٣٠ر١	الجلسة السابعة
	إنتخابات أمين عام الإتحاد
	ومحلس إدارة الإتحاد للدورة ١٩٩١ -١٩٩٤ م
٣٠ر١ - ٣	غذاء
٣ - ٣٠ر٤	الجلسة الختامية - توصيات
٣٠ر٤ -	جولة حرة

كلمة الإفتتاح التى ألقاها

الأستاذ الدكتور/ سعيد عبدالفتاح عاشور
رئيس اللجنة المؤقتة لإتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة
فى إجتماع الجمعية العمومية ٧ ديسمبر ١٩٩١م

حضرات الإخوة والأخوات ... حضرات الزملاء والزميلات

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عندما نجتمع اليوم تحت شعار إتحاد المؤرخين العرب، فإنما نجتمع فى حقيقة الأمر ليس لخدمة قضية معينة أو شريحة محددة من شرائح مجتمعنا العربى، وإنما لخدمة العروبة وتاريخها وتراثها وحاضرها ومستقبلها كبناء واحد متكامل. إنه (اتحاد) المؤرخين العرب، ولعل فى هذه التسمية ما يكفى للتعبير عن أننا نجتمع لنوحد لا لنفرق، ولنشيد ونبنى لا لنهدم ونمزق، لنقوم لا لنعوج .

حضرات الإخوات ، الزملاء والزميلات

إن لهذا الإجتماع قصة لابد من إحاطة حضراتكم علما بها. ذلك ن الإتحاد السابق للمؤرخين العرب - الذى اتخذ من بغداد مركزا له - نهج نهجا سياسيا معينا، الكل يعرفه، ولا نريد الخوض فيه حرصا على رأب الصدع وتجنبا لإستفحال الشرخ. ولكن يكفى أن نشير إلى أن ذلك الإتحاد لم يلتزم بروح النظام الأساسى الذى أعلنه دستورا لنشاطه، فجاءت الفجرة واسعة بين الشعارات البراقة التى نص عليها ذلك النظام، وبين السلوك والأهداف التى سعى إليها، وتحايل على تنفيذها إرضاء لنزوة حاكم بعينه .

وهكذا سخر التاريخ لخدمة السياسة، وما أدراك ما السياسة اليوم بمتاهاتها ومنحنياتها الفكرية والعقائدية والمذهبية وغيرها. وبإستعراض نشاط ذلك الإتحاد، نجد أنه لم ير فى تاريخ هذه الأمة إلا الشعوبية، محاولا تطبيق مقاييس الماضى على الحاضر، والعودة بنا إلى الوراء، متناسيا أنه من سنن التاريخ تبدل الأوضاع وأن للتاريخ دورة، عبر عنها الله عز وجل بقوله «وتلك الأيام نداولها بين الناس» . وبدلا من جميع الشمل إزداد الخرق إتساعا حتى كانت الكارثة التى حلت بالعالم العربى في العام الماضى عندما غزا العراق دولة الكويت، وأحدث بها ما أحدث من دمار وخراب ، مما عاد بخسارة فادحة على حاضر الأمة العربية ومستقبلها .

وفى تلك الظروف الصعبة، نفذ إتحاد المؤرخين العرب فى بغداد الخطة التى رسمت له، والتى كان يعد لها فى إجتماعاته وندواته وفقا لأهداف مرسومة لم يفطن إليها معظم من شاركوا فى تلك الإجتماعات من الزملاء والزميلات بنوايا حسنة وعن طيب خاطر . وما كاد يبدأ العدوان العراقى على الكويت، حتى إستباح أمين عام الإتحاد فى بغداد لنفسه أن يصدر بيانا بإسم المؤرخين العرب يؤيد العدوان، ويبارك ما قام به حاكم العراق ورجاله من أعمال، بل لقد حاول أمين عام إتحاد المؤرخين العرب فى بغداد أن يختلق لذلك العدوان مبررات تاريخية لا وجود لها فى التاريخ ولا أساس لها من الصحة .

وكان أن اجتمع فريق من أساتذة التاريخ العرب فى القاهرة فى سبتمبر ١٩٩٠، واتصلوا بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية، وهى الجمعية التى لم تربط نفسها مطلقا بإتحاد المؤرخين العرب فى بغداد، وإنما ظلت دائما تتشكك فيه وفى سياسته المشبوهة.وفى اللقاء الذى تم بين أعضاء مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات

التاريخية فى مقرها بالقاهرة من ناحية، وبين الإخوة المؤرخين العرب وكانوا ينتمون إلى ما لا يقل عن خمس دول عربية من ناحية أخرى، طلب الطرف الأخير إدانة إتحاد المؤرخين العرب فى بغداد وتنحية أمينه العام عن مركزه، ونقل مقر الإتحاد إلى القاهرة .

وفى يومى ١٨ ، ١٩ نوفمبر ١٩٩٠ إجتمع جمع من المؤرخين العرب بالقاهرة، وإتخذوا القرارات الآتية، على أن تكون ذات صفة مؤقته لحين إجتماع الجمعية العمومية الموسعة الممثلة فى حضراتكم . أما القرارات فهى :

أولا : نقل مقر إتحاد المؤرخين العرب فورا من بغداد إلى القاهرة .

ثانيا : تنحية الدكتور مصطفى النجار عن أمانة إتحاد المؤرخين العرب وسحب الثقة منه .

ثالثا: إنتخاب لجنة مؤقته تتولى مهام الدعوة لعقد الجمعية العمومية لإتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة . وقدتم إختيار أعضاء هذه اللجنة على الوجه التالى :

١ - الأستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور .
الأستاذ بكلية الآدابجامعة القاهرة - رئيسا .

٢ - سعادة الأستاذ الدكتور / عبد الله بن يوسف الشبل .
وكيل جامعة الإمام محمدبن سعود الإسلامية بالرياض - وكيلا .

٣ - الأستاذ الدكتور / يونان لبيب رزق
رئيس قسم التاريخ بكلية البنات بجامعة عين شمس - أمينا للصندوق

٤ - الأستاذ الدكتور / سليمان العسكرى

أستاذ التاريخ بجامعة الكويت - عضوا .

٥ - الأستاذ الدكتور / مصطفى عقيل

أستاذ التاريخ بجامعة قطر - عضوا

٦ - الأستاذ الدكتور / عبد العزيز نوار

أستاذ التاريخ بكلية الآداب بجامعة عين شمس - عضوا

٧ - الأستاذ الدكتور / محمد العيدروس

أستاذ التاريخ بجامعة العين بدولة الإمارات العربية - عضوا

٨ - الأستاذ الدكتور / حسنين محمد ربيع

عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة - عضوا

٩ - الأستاذ الدكتور / عبد العزيز الهلابى

أستاذ التاريخ بجامعة الملك سعود - عضوا

وهكذا ألقيت على كاهلنا مهمة الإعداد لهذا الإجتماع فى ظروف صعبة، تطلبت منا الكثير من الجهد والوقت، مما يجعلنى أنتهز هذه الفرصة لأرجو حضراتكم إعفائى من رئاسة هذه اللجنتقاما بعد أن تقوموا حضراتكم بإنتخاب اللجنة الجديدة الدائمة لإتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، وذلك وفقا للبرنامج المحدد فى هذا اللقاء .

حضرات الإخوة الزملاء والزميلات

لا أخفى على حضراتكم أنه واجهتنا فى الأشهر الأخيرة صعوبات ضخمة من أجل تنظيم هذا الإجتماع والإعداد له . ومن هذه الصعوبات العثور على قوائم بأسماء أسرة التاريخ فى كل بلد عربى داخل الجامعات وخارجها. هناك أسماء

نعرفها جيدا ولكن لم نستدل على عناوين المراسلات معها مما أدى إلى إرتداد عدد كبير من الرسائل التى أرسلناها إلى شتى أنحاء العالم العربى. ونرجو عن طريق حضراتكم وبمساعدتكم أن تنوبوا عنا فى تقديم الإعتذار إلى من لم تصله الدعوة لحضور هذا الإجتماع من الإخوة المؤرخين العرب، كما نرجو حضراتكم إمداد الأمانة العامة للإتحاد بكل ما يتوافر لديكم من أسماء وعناوين خاصة بالأخوة المشتغلين بالدراسات التاريخية، ليجتمع الشمل وتقوى الروابط .

على أن الصعوبة الكبرى التى واجهتنا عند الإعداد لهذا الإجتماع كانت بلا شك عملية التمويل. ويبدو أن حالة الإضطراب النفسى نتيجة للصدمة التى تعرضت لها الأمة العربية جعلت الحصول على دعم من الحكومات العربية القادرة أمرا صعبا. وهكذا حتى إستجابت لنا جهتان لابد من التنويه بهما وتقديم الشكر باسمى وأسمكم لهما. أما الجهة الأولى، فهى المملكة العربية السعودية وعلى رأسها خادم الحرمين جلالة الملك فهد بن عبد العزيز، وقد تجاوبت معنا عن طريق وساطة جامعة الإمام محمد بن سعود ومديرها معالى الأستاذ الدكتور عبدالله بن عبد المحسن التركى ووكيلها سعادة الأستاذ الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل. قام هذا الجانب بتحمل نفقات الإنتقال بالطائرة ذهابا وإيابا لكافة الأعضاء المشاركين فى هذا الإجتماع والمقيمين خارج مصر . فلهم منا ومنكم وافر الشكر والتقدير .

وإما الجهة الثانية فتتمثل فى شخص سمو الشيخ الدكتور سلطان القاسمى أمير الشارقة، وهو الحاكم المؤرخ، الفخور بانتمائه إلى أسرة المؤرخين العرب. والذى يشكل تاريخ العرب والعروبة جزءا من فكره ووجدانه . وقد تكفل سموه بكافة

نفقات هذا اللقاء الذى يضمنا اليوم . فله منا ومنكم وافر الشكر والتقدير .

حضرات الإخوة الزملاء والزميلات

إن إتحاد المؤرخين العرب فى وضعه الجديد الذى تساهمون فى إرساء قواعده الآن لا يربطه بالإتحاد السابق فى بغداد إلا الإسم ، بمعنى أنه ليس إمتدادا له بقدر ما هو وليد جديد ، يحمل وعيا جديدا، وفكرا جديدا، وفهما جديدا، ونظرة جديدة إلى الأمور .

وبعبارة أخرى فإننا نرجو أن نبدأ من نقطة إنطلاق جديدة لا أن تستأنف مسيرة سابقة نحو أهداف مشبوهة مستترة. إن المرض الخطير الذى يعانى منه علم التاريخ فى عالمنا العربى اليوم هو محاولة إخضاعه لأهواء السياسة وتطلعات رجال السياسة، بمعنى تفسير التاريخ ومحاولة تشكيله وفق أهواء بعض الحكام وآرائهم وتطلعاتهم، حتى ولو أدى ذلك إلى تشويه الحقيقة التاريخية وإفسادها .

حضرات الإخوة الزملاء والزميلات

إن تاريخ الأمة العربية يحتل والحمد لله صفحة مشرقة فى سجل تاريخ الإنسانية، فعلينا أن نكشف عن جوانب هذا التاريخ بأمانة وموضوعية وحياد. وإذا صادفنا بعض ثغرات، فعلينا أن ندرك أن الآباء والأجداد كانوا بشرا، والبشر معرض للصواب والخطأ. فلنذكر الحسنات وما أكثرها ولا نتغاضى عن الزلات لنأخذ منها عظة وعبرة فليس عيبا أن يخطىء الإنسان ولكن العيب هو ألا يستفيد الإنسان من خطئه .

وبعد ، أيها الإخوة الزملاء والزميلات، فإننى أكرر ما بدأت بالإشارة إليه من أن

الهدف الأساسى من إجتماعنا هذا هو البناء ووضع خطة عمل لإتحاد جديد للمؤرخين العرب، تستهدف إلقاء الأضواء على أمجاد الماضى وكشف الغمة عن حاضر مضطرب وفتح باب الأمل أمام مستقبل مشرق إن شاء الله .

وفقكم الله ومكننا جميعا من الوفاء بعهد كان مسئولا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

بسم الله الرحمن الرحيم

النظام الأساسى
لاتحاد المؤرخين العرب

جمادى الآخر ١٤١٢ هـ - ديسمبر ١٩٩١ م

الباب الأول
التعريف بالإتحاد
أهدافه ونشاطه ومقره

مادة (١)

إتحاد المؤرخين العرب هيئة علمية مهنية تضم المشتغلين بالدراسات التاريخية من أبناء الأمة العربية .

مادة (٢)

يسعى إتحاد المؤرخين العرب لتحقيق الأهداف الرئيسية الآتية :

أ - دراسة تاريخ الأمة العربية وفق منهج علمي موضوعي، وإبراز العناصر التى أسهم بها العرب والمسلمون فى بناء صرح الحضارة البشرية .

ب - تشجيع الدراسات التاريخية التى تساهم فى دعم أواصر الوحدة العربية وتحقيق الترابط بين الدول العربية .

جـ - التصدى بالأدلة العلمية التاريخية للدفاع عن القضايا العربية وبخاصة قضية فلسطين .

د - الدفاع عن الحقيقة التاريخية من أن تقع تحت أى تأثير سياسى أو مذهبى أو عقائدى .

هـ - تنقية التاريخ العربى مما لحق به من شوائب على مر العصور .

و - تحديث الدراسات التاريخية باستخدام وسائل التقنية الحديثة .

ز - الدفاع عن حقوق المؤرخ العربى وإنتاجه العلمى . .

ح - العناية بالتراث التاريخى للأمة العربية .

ط - تنمية المعرفة التاريخية لدى المواطن العربى .

ى - الدفاع عن المؤسسات والمنجزات التاريخية والأثرية والسعى للحفاظ عليها بالوسائل المشروعة .

مادة(٣)

يأتى فى مقدمة نشاط إتحاد المؤرخين العرب ما يلى :

أ - إقامة الندوات والمؤتمرات التاريخية وعقد اللقاءات والإجتماعات بصفة مستمرة لدراسة التاريخ العربى من كافة جوانبه وصلته بمسيرة التاريخ الإنسانى .

ب - جمع التراث التاريخى العربى والإسلامى الحفاظ عليه وتشجيع نشر ما لم ينشر منه، وتحقيقه وشرحه .

جـ - نشر البحوث التاريخية والآثرية التى تتصف بالأصالة والجدة والموضوعية، وذلك بعد تحكيمها بكافة وسائل النشر المتاحة للإتحاد وفى مقدمتها مجلة علمية .

د - العمل على توثيق عرى التعاون مع الجمعيات والهيئات والمؤسسات العلمية والتاريخية فى الوطن العربي وخارجه .

مادة (٤)

يكون مقر إتحاد المؤرخين العرب الدائم بمدينة القاهرة، ويجوز لمجلس الأمناء دعوة الجمعية العمومية للإنعقاد فى أى قطر عربى، كما يراعى فى اللقاءات العلمية والندوات أن تتنوع أماكن إنعقادها داخل محيط الوطن العربى أو خارجه .

الباب الثانى
تكوين إتحاد المؤرخين العرب
مادة (٥)

يتكون إتحاد المؤرخين العرب من :

أ - أعضاء هيئات تدريس التاريخ والآثار بالجامعات العربية وكذلك أعضاء المؤسسات العلمية المتخصصة الأخرى من المشتغلين فى الدراسات التاريخية مثل مراكز تحقيق التراث التاريخى ، ومراكز البحوث والوثائق .

ب - الباحثين المشتغلين في حقل الدراسات التاريخية والأثرية وبخاصة التاريخ العربى فى مختلف عصوره، من أبناء الأمة العربية داخل الوطن العربى وخارجه .

جـ - الهيئات والجمعيات التاريخية أو ذات الإهتمامات بالدراسات التاريخية داخل الوطن العربى، وتكون مشاركة هذه الهيئات والجمعيات فى إتحاد المؤرخين العرب إما بصفتها الإعتبارية أو بأعضائها والمساهمين فيها .

د - الشخصيات الغربية التى لها عناية بتاريخ الأمة العربية ممن لهم إسهام علمى بالبحث والتأليف في مجال التاريخ والآثار .

هـ - يجوز للجمعية العمومية بناء على ترشيخ من مجلس الأمناء منح عضوية الشرف وتكون العضوية فخرية فى هذه الحال .

و - يشترط فى جميع الحالات أن يكن العضو مشهودا له بحسن السمعة، وأن يكون ملتزما بالنظام الأساسى للإتحاد، وتزول صفة العضوية عن العضو إذا أتى عملا يسىء إلى الإتحاد وأهدافه أو ارتكب عملا مخلا بالأمانة العلمية، ويكون هذا الإجراء بقرار مسوغ من مجلس الأمناء .

الباب الثالث
سلطات الإتحاد وإختصاصاته
مادة (٦)

أ - الجمعية العمومية لاتحاد المؤرخين هى السلطة العليا للإتحاد، والتى تتألف من جميع أعضاء الإتحاد العاملين. وتنعقد هذه الجمعية العمومية مرة كل ثلاث سنوات بناء على دعوة من رئيس الإتحاد. ويمكن دعوة الجمعية العممية لإجتماع غير عادى كلما رأى مجلس الأمناء ذلك، أو بناء على طلب مكتوب يقدم لرئيس الإتحاد من ثلث الأعضاء على الأقل .

ب - يكون إنعقاد الجمعية العمومية قانونيا إذا حضر الإجتماع ثلث الأعضاء، فإذا لم يتكامل هذا العدد فى الميعاد المحدد تؤجل الجمعية لمدة ساعة، ويكون الإجتماع عندئذ صحيحا مهما كان عدد الحاضرين .

جـ - تناقش الجمعية العمومية للإتحاد التقارير العلمية والإدارية والمالية التى يقدمها رئيس مجلس الأمناء عن نشاط الإتحاد فى الدورة المنصرمة .

د - تقوم الجمعية العمومية بإنتخاب رئبيس الإتحاد وأعضاء مجلس الأمناء.

هـ - يتألف مجلس الأمناء الذى تنتخبه الجمعية العمومية لإتحاد المؤرخين العرب من ثلاثة عشر عضوا تبعا للتوزيع الجغرافى (المغرب ٣ - مصر والسودان وجيبوتى والصومال ٣ - الجزيرة العربية - ٣ - الشام والعراق ٣ - إضافة إلى رئيس الإتحاد من دولة المقر . ومدة العضوية فى مجلس الأمناء ثلاث سنوات قابلة للتجديد مرة واحدة فقط .

و - يقوم مجلس الإدارة بإنتخاب ثلاثة نواب للرئيس من أقاليم: المغرب - الجزيرة العربية - الشام والعراق كما يقوم مجلس الأمناء بانتخاب أمين المجلس، وأمين الصندوق .

ز - يقوم رئيس الإتحاد بدعوة الجمعية العمومية للإجتماع ووضع جدول الأعمال بالنسبة لهذا الإجتماع وتحديد مكانه .

ح - يقوم مجلس الأمناء بالإشراف على النشاط العلمى والإشراف على الشئون الإدارية والمالية والفنية بالنسبة للإتحاد وكذلك تعيين الموظفين العاملين بالإتحاد ومساءلة من يخل منهم بواجباته . وعلى مجلس الأمناء إعداد الحساب الختامى بالنسبة للسنة المنتهية .

ط - تصدر قرارات الإتحاد بأغلبية أصوات الحاضرين ، وعند التساوى يرجح جانب الرئيس .

ى - يقوم رئيس مجلس الإدارة أو نائبه برئاسة مجلس الأمناء وتمثيل الإتحاد أمام الجهات العلمية والإدارية والقضائية، وإقرار جدول أعمال جلسات مجلس الإدارة ومراقبة تنفيذ قراراته، والتوقيع على كافة العقود والاتفاقات التى يقرها مجلس الأمناء، كذلك تكون له صلاحية البت فى المسائل العاجلة التى لا تحتمل التأجيل ، على أن يعرض ذلك على المجلس والجمعية فى أقرب إجتماع.

د - مدة الرئاسة ثلاث سنوات قابلة للتجديد مرة واحدة فقط .

هـ - يقوم نواب رئيس الإتحاد بمساعدة الرئيس فى مهامه، كما ينوب عنه أكبرهم سنا فى حال غيابه أو خلو منصبه .

و – يختص أمين مجلس الإتحاد بتنفيذ قرارات مجلس الأمناء والإشراف على الإتصالات والمراسلات كما يقوم بتوجيه الدعوة للأعضاء والقيام بأعمال أمانة مجلس الأمناء والجمعية العمومية، والإشراف على سجلات الاتحاد الخاصة بأسماء أعضائه وقرارات مجالسه وتبليغ قرارات مجالسه وغير ذلك من الأعمال الإدارية، وإعداد التقرير السنوى عن نشاط الإتحاد .

ن – يكون أمين الصندوق مسئولا عن الشئون المالية الخاصة بالاتحاد سواء ما يتعلق منها بالإيرادات و بالمصروفات، وتسجيل ذلك فى دفاتر الإتحاد. وعليه تنفيذ قرارات مجلس الأمناء، فيما يتصل بالمعاملات المالية. ويوقع على الشيكات وأذونات الصرف بالإشتراك مع رئيس الإتحاد أو أحد نوابه. كذلك يقوم أمين الصندوق بعرض الحساب الختامى والميزانية السنوية وتقرير مراقب الحسابات على مجلس الأمناء ثم على الجمعية العمومية .

بسم الله الرحمن الرحيم

البيان الختامى والتوصيات

إجتمعت الجمعية العمومية لإتحاد المؤرخين العرب فى مدينة القاهرة فى الفترة من يوم السبت ١ جمادى الآخر ١٤١٢ هـ الموافق ٧ ديسمبر ١٩٩١م إلى يوم الاثنينء ٣ جمادى الآخر ١٤١٢ هـ الموافق ٩ ديسمبر ١٩٩١ م .

وناقشت مشروع النظام الأساسى للإتحاد والذى كان قد وضعته اللجنة المؤقته للإتحاد المشكلة فى ١٩ نوفمبر ١٩٩٠م وبعد أن اشترك أعضاء الجمعية فى مناقشة المشروع بأبوابه الخمسة مناقشة مستفيضة تم إعداد النظام فى شكله النهائى بعد تنفيذ مقترحات أعضاء الجمعية وتوصياتهم. وأقرته الجمعية العمومية فى جلستها المنعقدة صباح يوم الاثنين ٣ جمادى الآخر ١٤١٢ هـ الموافق ٩ ديسمبر ١٩٩١م وأوصت بطبعه وتوزيعه على أعضاء الإتحاد وتنفيذ ما ورد فيه إعتبارا من تاريخ إقراره .

ثم قامت الجمعية العمومية بانتخاب الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور رئيسا للإتحاد بإجماع الأصوات لمدة ثلاث سنوات .

ثم قامت بانتخاب أعضاء مجلس الأمناء وأسفرت نتيجة الإنتخاب عن فوز السادة التالية أسماؤهم :

١ - أ. د. محمد رزوق (المغرب)

٢ - أ.د. حسنين محمد ربيع (مصر والسودان)

٣ - أ.د. يونان لبيب رزق (مصر والسودان)

٤ - أ.د. محمد محمد مرسى الشيخ (مصر والسودان)

٥ - أ.د. عبد الله بن يوسف الشبل (الجزيرة العربية)

٦ - أ.د. سليمان إبراهيم العسكرى (الجزيرة العربية)

٧ - د. محمد العيدروس (الجزيرة العربية)

٨ - أ.د. سهيل زكار . (الشام والعراق)

٩ - أ.د. إبراهيم محمود زعرور (الشام والعراق)

وتركت ثلاثة مقاعد خالية لشغلها وفقا للنظام الأساسى إثنان للمغرب وواحد للعراق والشام على أن تشغل هذه المقاعد فيما بعد . ووافقت الجمعية العمومية على تفويض مجلس الأمناء فى شغل هذه المقاعد للأشخاص المناسبين وفى الوقت المناسب .

وقامت لجنة الأمناء بانتخاب كل من :

١ - أ.د. عبد الله بن يوسف الشبل نائبا للرئيس

٢ - أ.د. سهيل زكار نائبا للرئيس

٣ - أ.د. حسنين محمد ربيع أمينا للمجلس

٤ - أ.د. يونان لبيب رزق أمينا للصندوق

كما رأت لجنة الأمناء إتخاذ جامعة القاهرة مقرا مؤقتا للإتحاد لحين تدبير مقر دائم .

وأوصت الجمعية العمومية بالتوصيات التالية :

أولا : إتحاد المؤرخين العرب فى مدينة القاهرة هو الإتحاد الشرعى الوحيد الذى يمثل وجدان وشعور المؤرخين العرب فى كل مكان وهو هيئة علمية مهنية تضم المشتغلين بالدراسات التاريخية والأثرية من أبناء الأمة العربية .

ثانيا : يسعى الإتحاد إلى تحقيق الأهداف الرئيسية التى وردت فى الباب الأول من النظام الأساسى المادة (٢) والتى تهدف إلى خدمة تاريخ العرب والمسلمين والارتفاع بمستوى الدراسات التاريخية للوطن العربى والعناية بالتراث التاريخى والدفاع عن حقوق المؤرخين العرب.

ثالثا: توصى الجمعية العمومية الحكومات العربية والجامعات والمؤسسات العلمية والثقافية فى الوطن العربى بتقديم كل عون ومساعدة مادية ومعنوية حتى يتمكن الإتحاد من تحقيق أهدافه المشار إليها .

رابعا: تهيب الجمعية العمومية بالمؤرخين العرب فى مختلف البلدان العربية أن يبادروا بالإنضمام إلى الإتحاد حتى يتمكن من النهوض

بالأمانة الكبرى الملقاه على عاتقه لخدمة الدراسات التاريخية والمؤرخين .

خامسا : تناشد الجمعية العمومية سائر الجمعيات التاريخية فى الوطن العربى أن تتعاون مع الإتحاد بإعتباره الممثل الحقيقى الشرعى لكافة المؤرخين العرب .

سادسا : توصى الجمعية العمومية بإرسال برقيات شكر وتقدير للسيد الرئيس محمد حسنى مبارك رئيس جمهورية مصر العربية على عقد الجمعية العمومية بالقاهرة مقر الإتحاد وبرقية إلى خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية وسمو الشيخ الدكتور سلطان محمد القاسمى أمير الشارقة وعضو المجلس الأعلى لدولة الإمارات العربية المتحدة لقيامهما بدعم عقد الجمعية العمومية للإتحاد بالقاهرة وتوجيه الشكر إلى الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركى مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية والأستاذ الدكتور مأمون محمد سلامة رئيس جامعة القاهرة لتعضيدهما لإنعقاد المؤتمر والتسهيلات التى قدماها له .

والله من وراء القصد .

١ - أ. د. محمد رزوق (المغرب)

٢ - أ.د. حسنين محمد ربيع (مصر والسودان)

٣ - أ.د. يونان لبيب رزق (مصر والسودان)

٤ - أ.د. محمد محمد مرسى الشيخ (مصر والسودان)

٥ - أ.د. عبد الله بن يوسف الشبل (الجزيرة العربية)

٦ - أ.د. سليمان إبراهيم العسكرى (الجزيرة العربية)

٧ - د. محمد العيدروس (الجزيرة العربية)

٨ - أ.د. سهيل زكار (الشام والعراق)

٩ - أ.د. إبراهيم محمود زعرور (الشام والعراق)

وتركت ثلاثة مقاعد خالية لشغلها وفقا للنظام الأساسى إثنان للمغرب وواحد للعراق والشام على أن تشغل هذه المقاعد فيما بعد . ووافقت الجمعية العمومية على تفويض مجلس الأمناء فى شغل هذه المقاعد للأشخاص المناسبين وفى الوقت المناسب .

وقامت لجنة الأمناء بانتخاب كل من :

١ - أ.د. عبد الله بن يوسف الشبل نائبا للرئيس

٢ - أ.د. سهيل زكار نائبا للرئيس

٣ - أ.د. حسنين محمد ربيع أمينا للمجلس

٤ - أ.د. يونان لبيب رزق		أمينا للصندوق

كما رأت لجنة الأمناء إتخاذ جامعة القاهرة مقرا مؤقتا للإتحاد لحين تدبير مقر دائم .

وأوصت الجمعية العمومية بالتوصيات التالية :

أولا : إتحاد المؤرخين العرب فى مدينة القاهرة هو الإتحاد الشرعى الوحيد الذى يمثل وجدان وشعور المؤرخين العرب فى كل مكان وهو هيئة علمية مهنية تضم المشتغلين بالدراسات التاريخية والأثرية من أبناء الأمة العربية .

ثانيا : يسعى الإتحاد إلى تحقيق الأهداف الرئيسية التى وردت فى الباب الأول من النظام الأساسى المادة (٢) والتى تهدف إلى خدمة تاريخ العرب والمسلمين والارتفاع بمستوى الدراسات التاريخية للوطن العربى والعناية بالتراث التاريخى والدفاع عن حقوق المؤرخين العرب.

ثالثا: توصى الجمعية العمومية الحكومات العربية والجامعات والمؤسسات العلمية والثقافية فى الوطن العربى بتقديم كل عون ومساعدة مادية ومعنوية حتى يتمكن الإتحاد من تحقيق أهدافه المشار إليها .

رابعا: تهيب الجمعية العمومية بالمؤرخين العرب فى مختلف البلدان العربية أن يبادروا بالإنضمام إلى الإتحاد حتى يتمكن من النهوض

بالأمانة الكبرى الملقاه على عاتقه لخدمة الدراسات التاريخية والمؤرخين .

خامسا : تناشد الجمعية العمومية سائر الجمعيات التاريخية فى الوطن العربى أن تتعاون مع الإتحاد بإعتباره الممثل الحقيقى الشرعى لكافة المؤرخين العرب .

سادسا : توصى الجمعية العمومية بإرسال برقيات شكر وتقدير للسيد الرئيس محمد حسنى مبارك رئيس جمهورية مصر العربية على عقد الجمعية العمومية بالقاهرة مقر الإتحاد وبرقية إلى خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية وسمو الشيخ الدكتور سلطان محمد القاسمى أمير الشارقة وعضو المجلس الأعلى لدولة الإمارات العربية المتحدة لقيامهما بدعم عقد الجمعية العمومية للإتحاد بالقاهرة وتوجيه الشكر إلى الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركى مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية والأستاذ الدكتور مأمون محمد سلامة رئيس جامعة القاهرة لتعضيدهما لإنعقاد المؤتمر والتسهيلات التى قدماها له .

والله من وراء القصد .

Bulletin
of
The Arab Historians Society

Academic Bulletin Concerned with
Historical studies

Vol. 1 - No. 1 . March, 1993 Cairo - Egypt